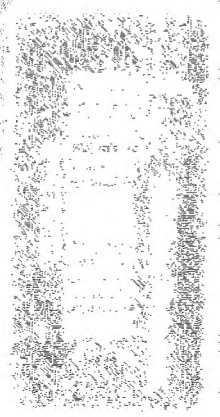
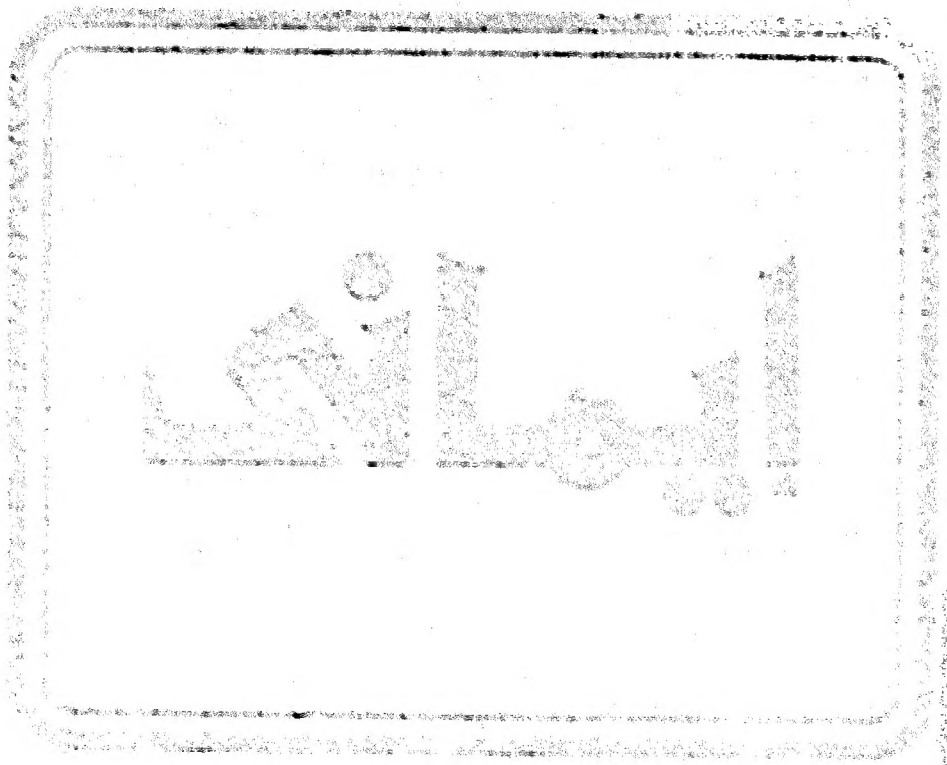




الزينة الكلاسيكية

أحمد بن



أحمد بن













مؤلفات أحمد حسين  
إيمان وكيت أخرى

خلفه في القضاء محمد بن  
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ هـ

دار الشروق ©

[illegible]

# مؤلفات أحمد حسين

## المجلد الأول

- إيمانف
- حكومة الوفد
- رسالة إلى هتلر
- وراء القضبان
- الزواج والمرأة
- رسالة في الحرب
- نحو المجد
- الأرض الطيبة
- في الإيمان والإسلام

دار الشروق



البحر

إلى راعي العلم والنقد

إلى الأمير زايد بن سلطان

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

والذي لولا عونه الأدبي والمادي لما صدرت هذه المجموعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# تعريف

هذا هو المجلد الأول من عشرة مجلدات مماثلة . وربما اثني عشر ومن نعم الله عليّ انه أبقاني حيا . لأشهد مولد هذا العمل والأمر الذي لاشك فيه . ان هذا المجلد هو أخطر المجلدات على الإطلاق . فإن كتاب «إيماني» الذي يؤلف حجبهِ الأساسي . لم يعد له وجود . وأصبح من المتعين إنقاذه من الضياع . وسوف يرى المطالع لهذه المجموعة التي سوف تتناول عشرات من الكتب التي ألفتها على امتداد نصف قرن تقريباً . أنها لم تخرج عن الخط المرسوم في «إيماني» حتى ماكان من هذه المؤلفات قانونيا . كتشريع العمل وعلاقات العمل . أو فنيا . كمجموعة قصص «أزهار والدكتور خالد واحترقت القاهرة» أو إنسانيا مثل «الطاقة الإنسانية» و«الأمة الإنسانية» و«نبي الإنسانية» أو حتى عندما شرعت في تفسير القرآن . مما سوف تتضمنه المجلدات التالية . سوف يرى القارئ . ان الأفكار التي دعوت إليها ظلت ثابتة . حقا قد أكون قد توسعت في هذا الجانب من أفكارى . في فترة من الفترات . ولكنى إذ استعرضها بعد هذا الوقت الطويل . أرى ثباتاً . لا يستطيع أن يدعيه مفكرون كانوا معاصرين لى . وانتقلوا عندما امتد بهم العمر من النقيض إلى النقيض .

ذلك إننى ولدت (١٩١١) في ظل الاحتلال البريطاني . وكانت إنجلترا تعتبر سيدة العالم وكانت الحضارة الأوروبية . تعتبر هي الإمام والقدوة لمصر والعالم الإسلامى . إذا أريد له النهوض من كبوته . وقد وجد من مفكرى مصر وكتابها . وقادتها . من دعا إلى ذلك . ولكنى أحمد الله . أننى منذ أمسكت القلم لأكتب . وأنا مؤمن بمصر . وأسلوب الشعب المصرى في الحياة . مؤمن بالمبادئ الإسلامية . وأنها خير ما عرفت البشرية . أو يمكن أن تعرف من مبادئ . وأن أوروبا إذا كانت قد تقدمت فبمقدار ما نهلت من هذه المبادئ . وأن العالم

الإسلامي إذا كان قد تخلف - فبمقدار ما ابتعد عن هذه المبادئ -  
وتعلقه بأذيال أوروبا - في الوقت الذي كانت فيه أوروبا قد بدأت  
تهجر المبادئ الإسلامية والدينية بصفة عامة - أى تنكر الروح  
والمعنويات والقيم - وعلى رأسها كلها - الإيمان بالله وأصبحت المادة -  
هى كل شيء - وأحمد الله أننى برئت من كل ذلك - وأنلرت  
البريطانيين - فى عقر دارهم - عندما كانت ممتلكاتهم لا تغيب عنها  
الشمس - إن كل ذلك إلى زوال - ولم أكن أتصور أبداً - ان ذلك  
سيتم بهذه السرعة - وإننى سوف أعيش لأرى مصداق ما قلت .

وأنا إذ أقدم هذه المجموعة وأعرف بها ( ١٩٨١ ) قد ازدادت إيماناً  
بآرائى وأفكارى - وإذا كانت أمريكا من ناحية - وروسيا من الناحية  
الأخرى - لا يزالان يؤثران بمعتقداتها المادية - فإن الدمار ينتظرهما -  
ما لم يعودا للتمسك بالقيم الدينية الروحية .

#### قصة هذه المجموعة :

ولخرج هذه المجموعة إلى النور بصدر المجلد الأول منها - وهى  
الكتب التى ألفتها وطبعتها ونشرتها - خلال الحرب العالمية الثانية -  
وقبلها وفى أعقابها - أقول إن لصدر هذه المجموعة قصة يجب أن  
تروى - لإظهار كيف أن إرادة الله وحدها - هى الفاعلة لكل شيء فى  
هذا الكون « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وإنه عندما يشاء فهو يهيب  
الأسباب - ففكرة هذه المجموعة تراودنى منذ أمد بعيد - وكان تصورى  
أنها إذا تحققت فسيكون ذلك بعد وفاتى .

ولكن شاءت نعمة الله علىّ وفضله - أن يجعلنى أقدم لهذا العمل  
فى حياتى فهياً لذلك الأسباب وتبدأ هذه الأسباب بالأخ عز الدين

إبراهيم المستشار الثقافي للأمير زايد بن سلطان - أمير دولة الإمارات -  
 فثند عدة سنوات وهو يرغب في إيصال بعض الخير إلى . وغنى عن  
 البيان - انه لابد أن يكون آنس من الأمير ما يشجعه على هذا التفكير  
 وإلا لما ظل ماضياً فيه بكل هذا الإصرار عبر العديد من السنين وأخيراً  
 تبلور الأمر - في رغبة دولة الإمارات - ان تقدم إلى مبلغاً من المال -  
 ولما كنت أعيش بعون الله في خالة «قناعة ورضا» فقد اعتذرت أكثر  
 من مرة عن قبول «الهبة» ولكن عندما يشاء الله يسبب الأسباب - كما  
 قدمت - فإذا بي أقول فجأة - لأخي الأستاذ محمد المعلم - صاحب  
 دار الشروق للطباعة والنشر - وقد كان هو الطرف الذي تدور معه  
 المفاوضات : «لا مانع عندي من توجيه هذه الهبة لطبع هذه  
 المجموعة» وهكذا بدأ العمل وهكذا شاء الله - أن أشهد ميلاد هذه  
 المجموعة - وهي يوم أن تتم بعون الله - فستكون ذخيرة يتطلع بها إلى  
 ما شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

أحمد حسين



إيهانى



## رحلة في الصعيد

كنا في رحلة كشفية في صعيد مصر ، على رأسها حامد أفندي نبيه المدرس بالمدرسة الخديوية . وكان يرافقنا أستاذ الكشافة الكبير عبد الله سلامة أفندي . وكان معسكرنا على ضفة النيل الغربية في الأقصر . هبطنا إلى أرض المعسكر في وقت الظهيرة ، وكانت الشمس تسطع وترسل أشعتها الملتبة . وكان علينا أن نبادر بتشييد الخيام حتى نجد ما نستظل به فأخذنا نعمل ونعمل حتى انتهينا من هذه المهمة الشاقة . بعد مجهود دام ساعتين كان العرق يتفصد من جباهنا خلالها ، وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، فاستلقينا في الخيام أشبه بالمغمى عليهم ، ناسين أننا لم نتناول طعاماً منذ الأمس وأن الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر .. وكنت أحس في أعماق نفسي بخيبة أمل فقد كنت أمني نفسي برحلة سعيدة ممتعة فإذا بنا نبداً وسط المهجير والتعب .. وها نحن ملقون داخل الخيام ، أنفاسنا مبهورة . وصدورنا ضيقة فنحن في حالة أقرب إلى الإغماء منها إلى النوم كما قدمت آنفاً .. ولكن الشمس سرعان ما آذنت بالمغيب .. وعند الأصيل تظهر أشعتها الحمراء كل فتنتها .. وإذا بنا وقد استيقظنا من نومنا وغسلنا رؤوسنا بالماء البارد وبدأ نسيم الشمال ينعش نفوسنا ويداعب ملابسنا وشعورنا ..

دوى البوق مؤذنا بميعاد إنزال العلم الذي كان يرفرف فوق ساريت الشاذة مظلالا المعسكر بأسره .. دوى النفير فأمرعنا جميعاً حول ساري العلم ووقفنا في مثلث متساوي الأضلاع وارتفعت رؤوسنا إلى هذا العلم الأخضر الجميل .. ولست أرى أن في الدنيا بأسرها ما يخفق له الفؤاد كروية علم الوطن العزيز بعيداً عن العمران والمساكن .. فهو في المدن وفوق نواصي الأبنية العامة أشبه شيء بالزينة والزخارف .. ولكن العلم في الصحراء ، أو في الجبال ، أو في البحار ، أو بعيداً عن أرض الوطن ، يصبح شيئاً آخر .. يصبح مصدراً للحياة والقوة والسعادة .. فهو يؤنسك في وحدتك ، وهو يشجعك ويشد أزرك .. علم الوطن العزيز في الغربة هو أعذب الأناشيد وأكثرها سحراً في نفس المواطن المغترب .. ولا يشعر بجمال ما أحدثك عنه إلا هؤلاء الذين سافروا

تاركين وطنهم العزيز كما تلتفهم بلاد جديدة كل ما فيها متكرر لهم ومتجههم .. كل ما فيها يشعرهم لذعة فراق الأوطان ، سل هؤلاء عندما يرون علم بلادهم ماذا يكون أثره في نفوسهم . إنهم ليرتعدون وتطفر الدموع من أعينهم .. ذلك أن علم بلادهم يذكرهم بأعزائهم وأحبابهم .. يذكرهم بحياتهم السعيدة فوق الأرض التي درجوا عليها . والسماء التي استظلوا بها .. وفي كلمة : يذكرهم العلم بأعلى ما تنطوى عليه الحياة ، وأعني بها العزة والوطنية والكرامة .. أما في الصحراء وفي القفار فإن العلم يؤثر في النفس بما هو أبلغ .. ذلك أنه يطرد وحشة المكان ويملؤه أنساً وحياة .. ومن هنا كان هؤلاء الذين يضربون في مجاهل الدنيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، مستكشفين ومستطلعين ومستعمرين ، ينصبون أعلام بلادهم أول ما يفعلون كما تربطهم بأوطانهم ويستمدون منها الحياة والحيوية والنشاط .. ولست أحسب أن موسيقات الدنيا بأسرها لو أنها عزفت تكون أشجى على النفس والروح من حفيف العلم وهو يرفرف فوق الرؤوس ولذلك فقد وقفت لأول مرة في حياتي أمام العلم وكأنني في صلاة .. وعندما هتف بنا الرئيس « تحية العلم - تعظيم سلام » ارتفعت يدي إلى جيبتي في حركة لا شعورية بينما اشرأبت رأسي إلى قمة الساري تتابع العلم وقد أخذ يهبط مع غروب الشمس .. وحانت مني التفاتة إلى زملائي فإذا بهم منتصبو القوام مرفوعو الأيدي .. تسطع أعينهم بهذا اللهب المقدس الذي تعكسه العيون عندما يكون الإنسان في نشوة روحية .. كان العلم يهبط من ثانية لأخرى ولكن هذه الثواني كانت تعدل عندي الدهور ، ذلك أن روحي حلقت لأول مرة كما تشرف على هذا الوطن العزيز وتفكر في أمره . ولست أستطيع أن أصور لك إحساسي ساعتئذ فلست أشك في أنه كان إحساساً غامضاً لم يتضح بعد .. فقد كنت قريب عهد بحياة من نوع آخر لم تكن مما يساعد على توضيح المشاعر الوطنية .. وإذن فقد كانت المشاعر تتلاطم في نفسي وتتجاذب .. وعندما وصل العلم إلى مستقره وتلقاه الرئيس وصاح بنا « جماعة - اعتدال » أحسست بمولود جديد قد بما في روحي وأفكاري . ولم يكن من الوضوح بحيث أعرف ما هو وما هي حدوده ، ولكنه كان من القوة بحيث أشعر بوجوده في نفسي .. ولقد كان ذلك يملأني رضا وارتباطاً بالحياة .. وعندما أعطانا الرئيس الأمر بالانصراف أخذت أنظر إلى ماحولي من الفضاء والرمال والنيل الذي ينساب في ليونة وعدوبة .. وهذه الجبال التي تقع إلى يسارنا والتي سنزقيها في الصباح كما نهبط بعدها إلى وادي الملوك والملكات .. أما على الضفة الأخرى فقد بدأت أنوار الأقصر تطلعنا وهذا الفندق الشهير « ونتر بالاس » قد انعكست أضواؤه على المياه فأخذت تتلاعب بها .. وشرع الظلام يرزخي سندوله وأخذت العوالم والكائنات تزداد فتنة .. نظرت



حولى وفوق رأسى واستنشقت عبر الهواء المحيط بى فإذا بى أستنشق طويلاً وأفتح صدرى ورثتى للنسيم كأنما أريد أن أطوى هذه الكائنات وهذا الجبال فى أعماق نفسى .. لقد كان يوماً خالداً من أيام حياتى وبالرغم من أنه قد مر عليه حتى كتابة هذه السطور ثمانية أعوام . لأننا كنا فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ . فلا يزال منقوشاً بكل حوادثه حتى التافه منها فى ذاكرتى .. ذلك أنه كان بدء التطور فى نفسى ودخولى إلى عالم جديد .. ولقد كنت أحس هذا التطور وهو يتم بشدة وأنا جد مبهج .. حتى إذا جلسنا ذلك المساء حول النار نتجاذب أطراف الحديث طلب منى أن أتكلم فساءلت إخوانى : أيشعرون جميعاً بالسعادة التى أشعر بها ؟ .. أم أنها وقف على ؟ .. لقد كان يُخيل إلى أننى أسعد الناس طرا فى هذه الساعة .. ولعمري فقد عشقت مصر وامتلت غراماً بها وهياماً ، وأى شىء فى الدنيا يملأ الحياة سعادة وهناء أكثر .. من الحب !؟

### فى وادى الملوك

كان علينا أن نبكر فى اليوم التالى لزيارة وادى الملوك وقد أخذنا نتسلق هذه الجبال الشاخنة حتى أشرفنا على وادى الملوك .. فشرعنا فى زيارة المقابر المختلفة .. هذه لستى ، وتلك لرمسيس .. وثالثة لبتوت عنخ . وقد كنت فى كل مرة كلما انتهيت من زيارة إحدى المقابر أشعر بالوجوم وبالرغبة فى البكاء ، فهذه الدهاليز داخل الجبل كانت تملؤنى إكباراً لهذا الجهد الجبار الذى نحتها .. حتى إذا توسطنا حجرات الدفن وأبهاءها راعتنا كل هذه الألوان وكل هذه النقوش والتى خيل إلى ساعة أن وقع بصرى عليها للمرة الأولى أن مصلحة الآثار قد فرغت من إعادة طلاؤها أخيراً .. فسألت من حولى متى دهنوا هذه الألوان للمرة الأخيرة .. فأجابونى بضحكة فيها كل معانى السخرية والإشفاق من هذا الجبل .. ذلك أن الألوان قد نقشت منذ نيف وأربعة آلاف سنة .. وعلى الرغم من سخريتهم فإنى لم أصدق هذا القول ساعة أن قالوه لأنه كان يبدو مستحيلاً ، ولم أكن من هؤلاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم .. أجل .. مستحيل .. مستحيل أن تكون هذه الألوان الزاهية .. هذه النقوش البراقة .. مستحيل أن تكون هى بذاتها من صنع الفراعنة وهى التى يبدو بجلاء أن النقاش قد فرغ منها بالأمس .. ومع ذلك فقد أكدوا لى هذه الحقيقة مرة ثانية وثالثة فامتلت بهذا الوجوم الذى أشرت إليه ذلك أنى أخذت أفكر فى هؤلاء الأقوام ومدنيتهم .. هذه المدنية التى بدأت تبدو لى بكل إعجازها فهذه القصور المشيدة فى باطن الجبل ومن صميم الصخر .. ترى ماذا يمكن أن تكون هذه الأبدى التى نحتها .. وماهى هذه الآلات التى استعانت بها ماذا يمكن أن تكون هذه الآلات التى

تذيب الصخر وتحيله كأنه العجينة اللينة حتى تنحت فيه هذه الدهاليز وهذه الحجرات وهذه الأعمدة ، إن مدينة القرن الحديث بكل ماتملك من نظريات ومخترعات وأدوات لتعلن إكبارها لهذا العمل المعجز ، فما قيمة ماوصلت إليه البشرية من علوم وفنون وطيارات وبرق إذا كان مقام به أجدادنا منذ ألوف السنين يبدو بالنسبة لنا معجزاً ومخبراً للألباب .. وفي مقابر الملوك لا يسعك إلا أن تسأل نفسك سؤالاً لا جواب له .. فعلى أى ضوء نقشت كل هذه الرسوم الدقيقة والتي تزين الجدران بل تزين الأرض تحت قدميك وتزين سماء الحجرات مادام من الواضح أن نور الشمس لا يمكن أن ينفذ إلى داخل الجبل ..؟ تحت أى ضوء استطاع الفنان الماهر أن يمجيد هذه النقوش وأن يبرزها هكذا فى كل هذه الفتنة وهذا الرواء الذى يحتاج فى إتمامه لنور ساطع كضوء النهار ..؟ يقولون إن نوراً واحداً هو الذى لا يرسل دخاناً ولا يترك أثراً وهو نور الكهرباء .. فهل عمل الصانع المصرى فى ضوء الكهرباء ..؟! هذا هو السؤال الذى لا يجيبك عليه فطاحل العلماء .. وأنت مضطر أن تسلم بعجزك وأن تعترف أن هؤلاء الجدد قد عرفوا من أسرار الطبيعة وفنونها ما لم نعرفه حتى الآن .. وعلام نذهب بعيداً ونسأل عن الضوء فهذه الألوان فى ذاتها .. هذه الألوان الباهرة بأحمرها وأزرقها وأصفرها كيف استطاعت أن تقاوم كل هذه الألوف من السنين وأن تبقى حتى اليوم لامعة ساطعة كأنما فرغ منها الفنان منذ لحظات .. يقولون إن ألمانيا الحديثة هى أم الكيمياء .. يقولون إنهم يستطيعون أن يخرجوا من الهواء سماداً وأن يحولوا كل شىء إلى غذاء .. يقولون إنهم يحولون العناصر وإنهم يصطنعون كل شىء .. فما بال ألمانيا بعلومها وجامعاتها وعلمائها عاجزة عن أن تدرك السر فى ألوان مصر القديمة وأن تخرج من الألوان مايقاوم البلى بضع عشرات من السنين لآلاف من القرون كما هو الحال مع قدماء المصريين . ما بال علماء الألمان ، بل الدنيا بأسرها ، يقفون حيارى أمام هذه الألوان الساحرة والتي هزأت بالزمن وهزأت بالشمس والمطر والحرارة والبرودة وكل الظواهر الجوية .. هزأت بكل عناصر الفناء وبقيت حتى اليوم تسطع فيخيل إليك أنها قد صنعت بالأمس . أليس هذا إعجازاً أى إعجازاً؟

وألست علوم القرون الحديثة لا يزال أمامها أشواط وأشواط كما تدرك أسرار علوم مصرنا القديمة وفنونها ..؟ على أن معجزة الألوان ليست هى المعجزة الوحيدة التى تنطوى عليها مقابر الملوك وتثيرها فى نفسك .. بل إنها لتحمل معجزة أكثر عمقاً وتأثيراً وأعنى بها تخنيط الموتى .. فهذه القدرة العجيبة على حفظ الجسم من الفناء عشرات الألوف من السنين تبدو بالنسبة لعلوم القرن العشرين عملاً مستحيلًا .. فكل ما استطاعوا الوصول إليه هو أن يحنطوا الجسد سليماً لعدة سنوات كما فعلوا فى روسيا بجسد لينين .. على شريطة أن

يعيدوا تخنيطه من عام لآخر .. ولم ينقض على هذه العملية عشرون سنة حتى بدأ الانحلال يدب إلى الجسد .. وقد لا تمضي سنوات أخرى حتى يستسلم جسد زعيم الشيوعية إلى الفناء ، وهذه هي كل مقدرة الحضارة في القرن العشرين .. أما علوم أجدادنا فقد استطاعت أن تحافظ على أجساد الفراعنة هذه الألوف من السنين . ولست أقول تحافظ على هياكلها ، بل تحافظ على أدق خواصها فقد استطاع الأطباء أن يشخصوا كثيرا من أمراض مصر القديمة عن طريق هذه الأجساد المحنطة ، فقد وجدوا فيها آثار العمليات الجراحية المختلفة ووجدوا فيها كثيراً من الظواهر التي تخلفها بعض الأمراض .. ولا زالت هذه الأجساد قادرة على أن تقطع عشرات الألوف من السنين لو أنهم لم يزعجوها من مراقدها ويخرجوها من هذه القبور التي أعدت لحفظها ولصباتها والتي تتناسب وعظمتهم ومجدهم .. كما يحشرونها حشرا داخل دواليب زجاجية فينظر إليهم الناس كما ينظرون إلى قطعة الآثار أو دمية من الدمي .. فيتطرق إليها الفساد ويتعلم الناس واحسرتاه كيف ينسون جلائل أعمالهم وهم يرونهم كالرم تعافهم الكلاب .. ياله من إجرام مابعد إجرام . ويالها من شناعة وقذارة ، إن المهانة التي تعيشها مصر اليوم ، والذل الذي تعانيه ، وظلمات الجهل التي تكتنفها والتي يرمز لها سوء معاملة الأجداد والعبث بأجسادهم وعرضهم في المتاحف ، لا يمكن مقابلتها إلا بشيء واحد هو هذه العظمة وهذا الخلود الذي سطره هؤلاء الأجداد . وحاضر مصر وماضيها طرفا نقيض ، كالعدم والحياة ، والنور والظلام ، واليأس والرجاء .

كنت أفكر في ذلك كله فامتألت بالوجوم والحسرة وأنا أقوم بهذه المقارنة بين الأمم واليوم .. وأنا أستعرض مظاهر الجحود والنكران لأجدادنا .. بل أستعرض الشقة البعيدة التي تفصلنا عنهم . ذلك أن المصريين قد قطعوا كل الصلات التي تربطهم بهؤلاء الجدد فأخذوا يتحدثون عنهم ويشاهدون أعمالهم تماما كما يفعل السواح والأجانب .. أستغفر الله بل أقل تقديسا واحتراما مما يفعل السواح .. فالمصري يخجل له إذ يسمع حديث قدماء المصريين أن هؤلاء قوم كانوا من العفارية لا يكاد يتمثل صورتهم في ذهنه وفي خياله إلا كما يتصور الغيلان ومردة الجان .

كنت أفكر في هذا وأشباهه ونحن نتحسس طريقنا نحو المعسكر ، وسرعان ما شعرت بالدم يغلي في عروقي .. وأحسست بدقات قلبي وقد تزايدت .. ولم أكن أميز الطريق تحت قدمي فكنت أصطدم وأتعث . وإني لأذكر أنني سقطت إلى الأرض أكثر من ثلاث مرات في ذلك اليوم وعندما عدنا إلى المعسكر وجلسنا لتناول العشاء أذكر أنني لم أندوق طعاما . كنت أرى إخواني وزملائي يملأون الدنيا صراخا وتهليلاً ويضحكون ويلعبون

فامتلات دهشة وعجباً . إذ أقارن ذلك بما في نفسي من ثورة غضب وضيق .. وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث حول النار كما هي عاداتهم . هذا يقص نادرة . وذلك يمثل دوراً من الأدوار . وثالث يغني إحدى المقطوعات الحديثة .. تمددت بعيداً عنهم فوق الرمال وكان القمر يرسل أشعته فيغمر الكون بالهدوء والسلام .. بينما كانت مياه النيل تتكسر على الشاطئ الرمل في خرير ودوى خافت ، فأخذت أسائل نفسي ترى ماذا كانت عليه هذه البقاع وأى أناس كانوا يجلسون جلستى هذه . وأى أفكار كانت تدور في رؤوسهم . وسرعان ما أحسست أن الحاضر لايفترق عن الماضي وأن النفس البشرية هي في كل عصر وزمان . وأن المادة لا تفنى . والجواهر لا تتغير ، وكل ماتتناوله الأيام بالتغيير هي الأغراض التافهة .. فما لاشك فيه أن النيل كان يجري كما يجري اليوم وأن هذه النجوم كانت تلمع كما تلمع اليوم .. وليس شك في أن كثيراً من الناس جلسوا مجلسي هذا على مر السنين يستمتعون بضوء القمر ويرسلون لحياهم العنان .. ولو أن هذه الجبال التي تحيط بنا أنطقها الله لحدثننا عن هؤلاء الذين اعتادوا أن يسيروا فوقها منذ ألاف وألاف من السنين .. ولأدهشنا أن نسمع منها أننا جميعاً ننشابه وأننا نضحك كما كانوا يضحكون وأن تقاسيم وجوهنا كتقاسيم هذه الوجوه .. وأن كل شيء كما هو . وليس يميزنا إلا شيء واحد هو الذي يؤخرنا ويشقينا ، وهو هو الذي يعذبنا ويدلنا .. ذلك الشيء هو الجهل .. الجهل ببلادنا . الجهل بتاريخنا . الجهل بأنفسنا . الجهل بقدرتنا .

### بين صخور الكرنك

وجاء دور الكرنك فاقترحوا علينا أن نزوره في ضوء القمر أى في المساء المتأخر . وقد فعلنا .. ولكن زيارة المعبد في المساء لا بد لها من تصريح خاص فالخبراء يغلقون الأبواب ويتهاون للنوم وإذن فقد كان لا مناص من الانتظار ، والانتظار الطويل . حتى يرد لنا التصريح بالزيارة فجلسنا أمام هذه البوابة الشاحجة والتي تترى بأقواس النصر التي رأيتها فيما بعد في باريس وروما ولندن ولكني ساعثد لم أكن أقارن ولم أكن أعرف ولذلك فقد كنت مبهوراً إزاء هذا الجلال وهذا الشموخ الذي يملأ النفس إحساساً بالعظمة والقوة .. قوة هؤلاء الذين رفعوا هذه الأحجار فشيّدوا هذه الجدران المتسامية نحو السحاب . وأقاموا هذه البوابة الضخمة الرائعة .

قلت لك إنهم ذهبوا لاستحضار التصريح فجلسنا فيما يسمونه طريق الكباش واحتطنا بهذه الحيوانات التي أودعوها العقل والقوة .. وكان كل ما يحيط بنا يبعث السحر في النفوس .. فالقمر والسكون وهذه الجدران .. بل هذا المكان الذي وقفت في ظله يوماً

من الأيام عشرات الألوف من الناس تلتهمس البركة وتدعو الله ... هذا المكان الذى شاهد جيوش مصر الظافرة تروح وهى ممتلئة بالقوة والحماة وتعود وهى تهزج أهازيج النصر .. والذى شاهد ملوكا نجىء من آخر الدنيا مصفدة بالأغلال لتقدم خضوعها للإمبراطور المصرى .. وأى كنوز تلك التى اجتازت عتبة هذه الأبواب يشع منها بريق الذهب فيملاً هذه الأرجاء ثروة وغنى .. هذه هى البقعة التى وقفنا فيها حتى نجىء التصريح بالدخول فإذا بأحاسيس قوية تغمر نفسى ، وإذا بى أنطلق فى ترتيل أناشيد روية (مجد رمسيس) تلك التى ألفها الأستاذ محمود مراد سنة ١٩٢٣ . فصور بها مجد مصر الغابر . وأودعها كل أمل المصريين فى مستقبل زاهر ، فأخذت أهتف من الأعماق يصاحبني بعض الرفاق الذين يحفظون هذه الأناشيد :

«سودى على رغم الزمن يامصر يانعم الوطن»  
«دوسوا العدا يوم الردى لبوا النداء كونوا فدا»

وتملكنتى الحماة فأخذت أنتقل من نشيد إلى نشيد .. ثم رأينا أن نعبد تمثيل الرواية لحنا لحنا وكلمة كلمة .. ثلاث ساعات قضيناها أمام أبواب الكرنك نرتل أناشيد المجد والفخار .. ولعل هذه الأناشيد وهذه الهتافات قد أعادت الحياة إلى هذه التماثيل الجائمة طوال طريق الكباش ولاشك أن هؤلاء الأطفال الذين وقفوا يرتلون أهازيجهم قد أعادوا إليها بعض ذكريات الماضى السعيد عندما كانت أصوات الألوف ترتفع بالغناء تمجيدا لله ولفرعون . وتنتظر التصريح لها بالدخول . وكما كانوا يصرحون لهم بالدخول . كذلك جاءنا التصريح ففتحوا لنا الأبواب .. واجتزنا عتباتها .. وقد كان دمي يجرى حارا فى عروقي إثر هذه الأناشيد وكان قلبي يخفق لاجتيازى هذا الأثر العتيذ والذى طالما حدثوني عنه .. وكنت أريد أن ألثم كل مايحيط بى .. وأن أحمله معى وأن أخبئه فى طيات نفسى .. اجتزنا هذه الدهاليز التى تصادف الإنسان أول ماتصادفه فوقفت وزملاي نعجب لهذه القدرة الخارقة التى رفعت هذه الجدران وسوت هذه الأعمدة التى تناطح السحاب .. وقفنا بجانب هذه الأعمدة فإذا بالمكان يبلعنا ولا نكاد نشعر بوجودنا .. وساءت نفسى هل يوجد فى الدنيا بأسرها أضخم من هذه الأعمدة .. وهل وجد على سطح الأرض صناع حاكوا قدماء المصريين ؟ ولم نكد نتألك روعنا حتى فاجأنا ماهو أضخم .. فاجأنا دهليز الاثنى عشر عمودا والذى يبرى بكل مارأينا وبكل مايمكن أن نراه فى المستقبل .. الله أكبر تجلت قدرته وتقدست أسماؤه ... هل يمكن أن أصف لك ماذا رأيت ؟ هل يستطيع الفنان مهما أوتى من حذق أن ينقل لك الجمال والعظمة ؟ فما بالك ولست فنانا .. ولست أدريا .. ولست من حاذق الكتابة .. ماذا أقول عن هذه

الأعمدة التي يخيّل للإنسان أن لا نهاية لها .. ولا حد لجأها وعظمتها .. ولكنى أحدثك عما كان يدور في نفسي .. وإني لأتصور نفسي كما كنت ليلئذ .. لقد كنت معقود اللسان جاحظ العينين .. بينما كان زملائي يعلقون ويظهرون إكبارهم ودهشتهم وكنت لا أستطيع أن أحير جواباً أو أنبس بينت شفة ولقد أحسست بقلبي يدق دقا عنيفا وبرأسي تتصاعد إليه أنجرة غريبة .. وكان ذلك كله يتزايد ويتضاعف كلما انتقلنا من مكان إلى آخر ومن حجرة إلى حجرة .. وفجأة إذا بي أرى نفسي فوق صخرة من هذه الصخور المبعثرة هنا وهناك ووقفت خطيباً أخطب الزملاء فيما يجب أن نقول وما يجب أن نعمل .. هذه العظمة التي تحيط بكم ليست غريبة عنكم .. هؤلاء الذين شادوا كل ذلك قد أورشوكم عزمهم وقوتهم .. ومصر التي حملت لواء الإنسانية في يوم من الأيام يجب أن تبعث من جديد كما تعيد سيرتها الأولى .. وأخيراً يجب أن ننفض عنا غبار الخمول والكسل .. يجب أن نملاً أنفسنا إيماناً وعزماً .. يجب أن نتدفع بالشجاعة والقوة .. يجب أن نعمل وأن نعمل حتى نبعث مصر بكل قوتها .. بكل جلالها .. وبكل عظمتها .

ولقد صفقوا ... أما أنا فكنت مذهولاً لأنى لأول مرة في حياتي كنت أخطب وأرتجل .. لأول مرة في حياتي أستطيع أن أقول بضعة عبارات دون أن أتلعثم ، أو أتوقف .. لأول مرة في حياتي عرفت أن أتكلم . كنت مندهشاً لهذا الانقلاب .. فإن حياتي السابقة على هذه الزيارة كانت تحول بيني وبين الارتجال أو الخطابة . فقد كنت من هواة التمثيل . وكنت رئيساً لفرقة التمثيل في المدرسة الخديوية ، وكنت شغوفاً بالتمثيل مفتوناً به . والممثل لا يستطيع إلا أن يردد الكلمات التي حفظها من قبل فتتعطل فيه ملكة الارتجال وتقوى فيه ملكة الحفظ .. وكذلك كنت .. ولذلك فقد كانت لي مواقف .. كثيراً ما أخرجتني .. فقد دعيت مرة من المرات أن أشكر بعض الناس فلم أقل سوى بضع عبارات في تعثر وخفوت .. وفي مرة أخرى حاولت أن أتكلم فعبجت .. أما هذه الليلة فقد خطبت .. خطبت بقوة خفية .. خطبت بكل قلبي .. بكل دمي .. بكل صوتي .. ألا فهتافاً لنفسي وتهليلاً ، فقد بعثت من جديد مخلوقاً جديداً .. وعندما كنا نجتاز عتبات المعبد في سبيلنا إلى الخروج ارتفع صوتي في حماسة وقوة :

«سودى على رغم الزمن يامصر يانعم الوطن»

«دوسوا العدا يوم الردى لبوا النداء كونوا . فدا»

ولكن شتان بين إنشادي هذه المرة وبين إنشادي لها منذ ساعة قبل أن ندخل المكان .. لقد كان إنشادي لها من قبل تمثيلاً وغناء وتسلياً .. أما الآن فقد كنت أقولها

وهي تخرج من أعماق قلبي .. كنت أغنيها وأنا أو من بكل حرف من حروفها .. وأنا أرفع ذراعي ورأسي مقسما ومعاهداً .. لقد بعثت .. لقد بعثت ... وهكذا يجب أن يبعث كل شاب في مصر . لقد خلقت من جديد . وهكذا يجب أن يخلق كل شاب في مصر .. لقد كنت أنظر إلى أعمدة الكرنك وآثاره . لأعلى اعتبار أنها آثار بل كأنها شيء حتى يتكلم . لقد وقفت أمام المسلة المرتفعة هناك ووقفت أمام البركة وأمام مئات التماثيل المبعثرة هنا وهناك .. وقفت كأنما أتلقى الأوامر والتعليقات .. وقد كان كل متر من الأرض .. بل كل شبر . يحدثنني عن القوة والمجد .. وكنت أرى الجيوش المحتشدة التي سارت خلف تختمس ورمسيس والتي فتحت دنيا ذلك الزمان ... وكنت أسمع أهاريح الانتصار وأتمثل النور الذي كان يسطع من هذا المكان .. وفي كلمة : لقد بعثت . ولقد صهرت مخلوقا جديداً ..

وعندما رقد الكل في خيامهم ظللت ساهرا متوليا الحراسة .. وجلست حول النار أشاهد ألسنتها وهي تتقاتل وتتشاحن ويحرق بعضها بعضا . وكانت في يدي عصا أخذت أعبث بها في التراب بينما كان عقلي مشغولاً وروحي هائمة .. وكل شيء في نفسي يبحث خلف العلاج والحل لهذا اللغز .. ماذا .. ماذا يجب أن نعمل كيما نستعيد كل ماضيها الذهبي . ماذا يجب أن نعمل كيما نعيد الحياة إلى هذه الأطلال .. كيما نعيد الأمل إلى هذه النفوس .. كيما نبرز كل فضائلنا التي غطت عليها الرذائل .. ماذا نفعل وماهو الطريق .. ؟ نظرت إلى السماء أستمد منها الجواب .. ولكني لم أتلق جوابا وكانت يدي تبعث بالرمال وتخط عليها خطوطا وقد أحسست أنني شرعت في كتابة شيء .. فأكملت الكتابة وطالعت ما كتبت فإذا بها كلمة واحدة ولم تكن سوى « الإيمان » ..

## خزان أسوان

انتقلنا وفقا لبرنامج الرحلة لزيارة مدينة أسوان .. وأسوان مدينة جميلة كالعروس .. فاجأتنا بجوها الساحر ورشاقتها . وقد علمونا أن الذهاب إلى أسوان كالذهاب إلى الجحيم سواء بسوء .. عودونا أن يكون نقل الموظف إلى أسوان نوعا من العقوبة والنقي .. فلا يرسل إليها إلا موظف مغضوب عليه .. حتى لقد تمثلت أسوان في رءوسنا قطعة من الجحيم . إن لم تكن الجحيم بذاته .. ولذلك فقد كان مفاجئا وكان مسعدا أن نرى كل هذا الجمال وكل هذه الفتنة .. فياه النيل الزرقاء تنبثق على جانباها الغربي تلال صفراء . ويتوج ذلك كله سماء صافية وشمس ساطعة في غضون الشتاء . إنها لنعمة وأية نعمة .

ويتصل بأسوان ولا يبعد عنها بأكثر من بضعة كيلو مترات الخزان والشلال الذى أسرنا إليه غداة وصولنا إلى أسوان . وإذا كنت لا تزال تذكر هذه الانفعالات التى طافت بنفسى وإذا كان الكرنك قد نال من نفسى الذى نال .. فقد كان تأثير خزان أسوان هو الحلقة الأخيرة التى طغت على كل حواسى وتفكيرى وقررت مستقبل حياتى نهائياً . وإذا كان الكرنك قد أشعرنى الحاجة إلى الإيمان بعظمتنا كما يبعث مجد مصر القديم .. فقد منحنى خزان أسوان هذا الإيمان وأشعرنى بأننا عظماء فعلاً .. وكل ما هنالك أننا لا ندرى ذلك فإن قليلاً من المصريين هم الذين جاءوا إلى هذا المكان ووقفوا موقفى هذا وشاهدوا ماذا فعل أحفاد الفراعنة .. وماذا فعل بناء الأهرام والكرنك ومن حولوا مجرى النيل .. فإن خزان أسوان يذكرك بهذه الأجداد البعيدة ويقربها إلى قلبك وعقلك لأنك تراها من جديد .. يا إلهى ! ما أعظم هذا العمل الجليل ؟! أن ترى مياه النيل محجوزة خلف سد شامخ لا بد لك من نصف ساعة كما تقطعه سيراً على الأقدام .. أن ترى هذا الحائط الذى يناطح السحاب من صنع الإنسان والمياه تتدفق من بعض عيونهِ فيصم زئيرها الآذان .. ويملاً هديرها الأجسام ارتعاشاً ورعباً خفياً .. وهذا الزبد أشبه شئ بالقطن يغنى فيتناثر منه رذاذ يملأ أجواء الفضاء وتتسلط عليه الشمس فتتحلل أشعتها وتستحيل إلى بنفسجية وحمراء وزرقاء .. ياله من مشهد خالد لا ينساه الإنسان مدى الحياة .. لقد ظل هذا المشهد يساور أحلامى ويملاً على ذكرياتى حتى وقفته ثانية بعد سبع سنوات عند ما شرعت فى القيام برحلتى خلال الوجه القبلى تلك الرحلة التى سبقت إلى الأبد حدثاً هاماً فى تاريخ مصر الفتاة .. سبع سنوات كاملة هى التى فصلت بين زيارتى الأولى لخزان أسوان وزيارتى الثانية .. ولست أدري كم سيمر على من الزمن أيضاً حتى أعود من جديد لزيارة خزان أسوان .

لقد وقفت أمام الخزان فى هذه الأيام الأولى وأنا أشاهد المياه المنحدرة من بعض عيونهِ فى عنف وقوة وقد توارد إلى رأسى كل ما قرأته عن إمكان توليد الكهرباء من هذا الخزان .. وكنت أستعيد ما يقولون فأمتلىء غيظاً وكمداً لهذا الإهمال وهذا التهاون فيما يحقق الثروة والمجد لمصر .. يقولون انه يمكن توليد الكهرباء من خزان أسوان فيستطيعون تسير جميع قطارات السكك الحديدية فى أنحاء مصر ويوفرون بهذا خمسة عشر مليوناً ندفعها سنوياً ثمناً للقمح إذا ما ارتفع ثمنه قليلاً .. ويقولون بل ويستطيع أن يمد القرى كلها حتى الإسكندرية بالضوء والحرارة اللازمة للأعمال الصناعية ويقولون إن هذا الخزان كفى بأن يجعل مصر قطراً صناعياً .. إذن ما الذى يؤخرهم ؟.. ما الذى يقعدهم ؟.. لماذا لا يولدون الكهرباء من خزان أسوان ؟.. لماذا يتكون كل هذه الثروة تتطاير فى



الهواء ؟.. لماذا يدعون القوة والحياة تنساب إلى البحر ؟.. ثم ينعون علينا أننا شعب فقير ..  
 أننا شعب حقير .. أننا أمة زراعية لا تصلح للصناعة لأن الفحم لا يوجد في بلادنا ..  
 وهذه الكهرباء .. هذه الكهرباء التي تزرى بالفحم ما بالها ؟ وعلام لا نستغلها ؟ أو ليس  
 خداعا إذن كل ما يقصونه علينا من عجز مصر ؟ أو ليس تمويها وتغفيلنا هذا الذي دسوه  
 علينا في كتبنا وصحفنا وعلمونا إياه في المدارس والمعاهد وفي كل مكان ، وأعني به أن  
 مصر لاتصلح للصناعة ؟ ! لأول مرة أحسست بجرعة الإنجليز على هذا الشعب بمقدار  
 ما أفقدوه كل معنوياته ، ودسوا عليه الشك في قدرته وقدرة بلاده .. لأول مرة أحسست  
 بجنائية الاحتلال على هذا البلد وبمقدار ماتعمل إنجلترا على عرقلة هذه الأمة وتطورها إلى  
 الأمام .. لو أنهم تركونا وشأننا لاستخرجنا الكهرباء منذ سنوات وسنوات . وملأنا الدنيا  
 مصانع ومعاهد . ألم تكن مصر منذ نيف ومائة سنة تزخر بالمصانع التي لا تنتج الطرايش  
 والمنسوجات والزجاج فحسب ، بل والمدافع والذخائر والأساطيل .. ومع ذلك فما نحن  
 بعد مائة عام من هذه النهضة يعلموننا أن مصر لاتصلح للصناعة لأن القوى المحركة  
 لا توجد بها .. لقد عدت من زيارة الشلال ونفسي مليئة بالسخط على الاحتلال  
 والحكومات الضعيفة وعقلي مشغول بالتفكير فيما يمكن أن تكون عليه مصر ، غدا عندما  
 تستطيع تحقيق هذا المشروع .

عدت من الحزان .. بل عدنا من الحزان وكيفية عودتنا تحتاج إلى تسجيل .. لأننا  
 عدنا سيرا على الأقدام .. من الشلال حتى أسوان ولم أكن أعرف مقدار المسافة وقتذاك  
 ولكنني عرفتُها فيما بعد عند ما عاودت السير في هذا الطريق مصحوبا برفقائي من مجاهدي  
 مصر الفتاة .. عدنا وكان الطريق وعرا في أحشاء الصحراء .. وكانت الشمس محرقة  
 والرفقاء صغارا لا عهد لهم بالسير فطلب مني رئيس الرحلة أن أنشد لهم أناشيد رमسيس  
 ومجد رमسيس .. وأن أرتل قبل كل شيء نشيد السلامة .. والذي حفظوه من كثرة  
 التكرار .. ولذا فقد صحت بهم هلموا يارفاق .. واحد .. اثنين .

اسلمي يا مصر إنني الفدا      ذى يدي إن مدت الدنيا يدا  
 أبدا لن تستكيني أبدا      إنني أرجو مع اليوم غدا  
 ولما انتهى النشيد هتفت بغيره .. حتى إذا اقتربنا من المدينة دبت الحماسة إلى عروقنا  
 ونفصنا عن أنفسنا مظاهر التعب والكلال .. ونظمنا صفوفنا على أبواب المدينة .. وسرنا  
 أربعة أربعة وأخذنا نقرع الأرض بأقدامنا وقد رفعنا رؤوسنا إلى السماء وارتفعت أصواتنا  
 من جديد :

اسلمي يا مصر إنني الفدا      ذى يدي إن مدت الدنيا يدا

وعلى هذه الصورة المجيدة دخلنا أسوان منذ سبع سنوات واجتازنا شوارعها الرئيسية فوقف الناس على جانبي الطريق يصفقون .. وفتحت النوافذ وانطلقت منها الزغاريد . وخيل إلينا أننا عائدون من الحرب فاتحين منتصرين . بالذكري والجلالها ، ما أروعها وما أكثر تأثيرها في نفسى ! فلقد كانت هذه العناصر التي تألفت منها فيما بعد مصر الفتاة .

## كوم أمبو

لم نكد نفرغ من زيارة أسوان والشلال ونستعد للعودة إلى القاهرة حتى تلقينا دعوة من أحد رفاقنا في الرحلة لتقبل ضيافتهم في كوم أمبو ولنشاهد مزارع القصب ونزور مصانع السكر وطملمبات الرى .. ولقد قبل رئيسنا الدعوة شاكرا ونزلنا في كوم أمبو فرأينا فيها عجبا وسمعا ما هو أعجب .. رأينا فيها مصانع السكر الضخمة والتي لا يكاد يتصور الإنسان ضخمتها أو أن يتصور أن في مصر صناعات بهذه الدقة وهذا الإحكام .. وعلى الرغم من مضي زمن طويل على هذه الزيارة فلا زلت أتمثل هذه الزيارة ، ولا زلت أتمثل هذه الكتلة الضخمة من الآلات والتي ترتفع فوق بعضها في طبقات مختلفة ليصعد إليها الإنسان بدرجات فوق درجات ، والعمال المصريون وسط ذلك كله يشرفون على أعمالهم في حذق ومهارة ومثابرة ، ولأول مرة أرى عملية صناعية يأخذ بلبي تحويل المواد من حالة إلى حالة . فالقصب وهو ينظف ثم يقطع ثم يعصر .. ثم يرشح ثم يركز .. وهكذا .. وهكذا .. عدة عمليات يتتبعها الإنسان في شوق وشغف حتى يصل إلى نهايتها فيرى السكر وهو يعبأ في الأكياس ثم يحمل إلى الخارج كيما يشحن إلى القاهرة ليكرر في مصانع الحوامدية والتي حدثونا عن ضخمتها التي لا حد لها .. ولقد حدثونا عن الأرباح الطائلة التي تغنمها شركة السكر .. وعن رأس المال الضخم الذي أصبحت تمتلكه والذي بدأت به صغيرا .. وهنا لأول مرة أصطدم باستغلال الأجانب للمصريين وأفكر طويلاً في دلالات ذلك وما ينطوي عليه .. ولكن المشكلة لم تأخذ شكلها الصريح إلا عندما زرنا طلممبات الرى وعرفنا أسرارها .. لقد رأينا أربع أنابيب ضخمة قد ركبت على النيل ، ولا زلت أذكر أن المهندس الذي كان يحاضرنا أخبرنا أن هذه الأنابيب هي أضخم أنابيب من نوعها في العالم ، وأنها تأخذ ١ على ٢٠ من مياه النيل في أيام التحريق ، ولست أعرف مدى دقة هذه المعلومات وصحتها ، ولكنها كانت كافية لإزعاجي ، وخصوصا عندما علمت أن هذه الشركة الأجنبية قد وضعت أيديها على ألوف من الأطنان في هذه الناحية بثمن تافه لا يزيد عن بضعة قروش للفدان ، وأنها الآن قد تحولت إلى أرض كأجود الأرض ، أى أن شركة كوم أمبو قد أصبحت مستعمرة أجنبية

على أرض الدولة ، وحكومة داخل الحكومة ، وأن ألوفاً من الفلاحين المصريين يعيشون في حالة رق لهذه الشركة الأجنبية التي تستنزف كل مجهوداتهم في نظير ثلاثة أو أربعة قروش لكل عامل .. لقد كانت هذه المعلومات كافية لإشعال نار الثورة في صدرى . لماذا .. لماذا نعيش في بلادنا فقراء وخداما وعبيدا للأجانب ؟ .. لماذا يحى هؤلاء الناس إلى مصر بقروش قليلة فيصبحون من أغنى الأغنياء ؟ .. لماذا يسخروننا ؟ .. ولماذا يتحكمون فينا ويملكون علينا كل شيء ، حتى الأرض ؟ .. الأرض التي هي ملك لنا والتي نزرعها منذ ألوف السنين يغتصبونها منا .. وفي ظل الاحتلال وفي ظل الامتيازات يعرفون كيف يكبلون أعناقنا في خدمتهم .. لماذا لا تكون هذه الأراضي ملكا للدولة .. لماذا لا توزع على هؤلاء الفلاحين الفقراء ؟ في أى قانون وبأى نظام وبأية شريعة يشقى أحفاد الفراعنة والعرب والذين سادوا العالم وعلموا الدنيا ؟ .. لماذا يارب يشقون من أجل الأجانب .. ويكدهون من أجل الأجانب ؟ .. هل هم في نهاية الأمر شعب منحط صغير لا يصلح إلا للعبودية ؟ .. لا .. لا .. إن نفسى تثور وإن روحى تتمرد على هذا الوضع المقلوب .. ولذلك فلم أكد أدع للكلام في حفلة أقامها لنا أحمد بك مصطفى مدير الشركة حتى اندفعت أخطب .. كما خطبت على صخور الكرنك .. واندفعت أهاجم الأجانب .. واندفعت أدعو من حولى إلى معرفة حقوقهم والكفاح في سبيل تحرير بلادنا .. وكان علينا أن نسافر بعد خمس دقائق ولذلك فقد شرع إخوانى يشيرون لى أن أنهى كلامى .. ولكنى نسيت كل شيء .. نسيت القطار ، ونسيت ميعاد السفر ، بل ولم أكن أعرف معنى هذه الإشارات ، حتى اضطروا إلى أن يحملونى حملاً وأن يسرعوا بنا إلى القطار ، والذي نجحنا في إدراكه في نهاية الأمر ، ولم يكده يتحرك القطار حتى عدت إلى نفسى وشعرت كأنما أستيقظ من حلم .. ذلك أن الحالة التي كنت فيها كانت أشبه شيء بنوبة المحموم ولم يكن يعينى في ذلك كله إلا أنني قد خطبت للمرة الثانية دون أن أتلثم ودون أن أتردد .. خطبت للمرة الثانية مرتجلاً .. وإذن فقد أصبحت أعرف التحدث إلى الناس .. وأن أتحدث إليهم من أعماق قلبى وأن أنقل لهم كل أفكارى .. لقد كانت هذه بدء صفحة جديدة من صفحات حياتى .

عدت من الرحلة بأفكار جديدة وآمال جديدة ومشاريع جديدة كذلك .. ولقد تطورت حياتى منذ هذه الساعة في ناحية الكفاح السياسى تطوراً سريعاً .. ولعل هذا أصدق برهان على فوائد هذه الرحلات وضرورة تعميمها وجعلها جزءاً لا يتجزأ من برنامج التعليم بل والتوسع فيها إلى أقصى حد .. فيجب على كل طالب في المدارس الثانوية أن لا يتم تعليمه حتى يكون قد زار مصر من الأسكندرية حتى أقصى الحدود

الجنوبية في السودان .. وأن يزور أعلامها وآثارها ومصانعها وبلدانها وبهذا ، وبهذا فقط ينشأ جيل جديد يعرف بلاده حق المعرفة ومتى عرفنا بلادنا أحببناها .. ومتى أحببناها فقد امتلأت قلوبنا بالخافز الذى يدفعنا للتضحية واحتمال الحرمان والعذاب ، من أجل حرية من نحب ، وشعبادة من نحب . ينشأ الطالب في مصر ويكبر وهو لا يكاد يعرف من أمر وطنه إلا الجدران الأربعة التى تحيط بمدرسته وبيته وبعض الشوارع التى يجتازها إلى مدرسته وملاهيهِ فيخيل له أن وطنه ككل الأوطان .. وأن الحياة هى أكل وشرب ومنام .. وربما أزغجته كلمة الوطن والدفاع عن الوطن لأنه يرى الأمر كله ليس إلا خيالاً في خيال .. أو كما اعتاد كثير من الصبية الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر العظمة والفلسفة أن يقولوا عنه (مواضيع إنشائية) . فشباب مصر يرى الكلام عن الوطن موضوعاً إنشائياً وليس ذلك إلا إغراقاً في الجهل لا أكثر ولا أقل .. ولكن عندما يركب الطالب ويدرع أرض وطنه من الشمال إلى الجنوب .. وتمر به الساعات وهو في القطار والمناظر تتوالى تحت أنظاره ما بين سهل وجبل ووديان ومياه وهذه كلها ليست إلا بلاده التى ينسب إليها .. عندما يسافر الساعات الطويلة ثم يدخل مدينة أو قرية فإذا بهم يتحدثون إليه بلغته وإذا بهم يرحبون به ويتبادلون وإياه أطراف الحديث فإذا ما يشغل باله يشغل بالهم وإذا بالذى يفرحه قد أفرحهم .. وإذا بالجميع وكأنهم عائلة واحدة واخوان متحابون .. هنا .. وهنا فقط سيدرك الشاب معنى الوطن الواحد والشعب الواحد ومعنى تضامن الأفراد .. وعندما يشاهد الشاب آثار بلاده التى تحدته عن مجد أسلافه وعظمتهم سوف يشعر بالفخر والعزة .. وعندما يدرك موارد الثروة في وطنه ويزور مصانعها الكبيرة في كل مديرية وفي كل بلد فسيف على مقدار الحيوية التى تسرى في شرايين بلاده وسيتملى ثقة واعتزازاً بنفسه .. والله إن هذه هى الدراسة وهذه هى وسيلة إذكاء الوطنية والروح المعنوية لمن يريدون إذكاءها .. فإذا كانت هذه الرحلات في مجاميع تعيش في نظام شبه عسكري فإن أثرها سيكون مزدوجاً من حيث التأثير على الأخلاق وتكليفها .. فالحياة وسط الجماعة تعلم التعاون والإخاء والصراحة .. والعيش في الخلاء وفي الخيام والسير على الأقدام والاستيقاظ في وقت مبكر والنوم في وقت مبكر كذلك .. وتحية العلم في الصباح وفي المساء ومزاولة الألعاب الرياضية كل هذه من شأنها أن تنضج الرجولة في نفوس الشباب وتفجر القوة الكامنة في أعطافهم وهى أخيراً توحد بين المشتركين فيها وتجعلهم أسرة واحدة .. هذه هى الرحلات وهذا أثرها في تكوين الجيل الجديد وبحسبك أن تعلم أن مصر الفتاة بأسرها مدينة لهذه الرحلة التى قُت بها في عام ١٩٢٨ .. فقد علمتني كيف أحب وطني وكيف أمتلىء إيماناً بعظمته . علمتني أسرار القوة الكامنة في هذا الشعب

والسبيل إلى بعثها .. وأخيرا علمتني أثر الأناشيد وحياة الجماعة والنظام في نفوس الشباب .. فكان ذلك كله هو أسلحتي التي استخدمتها فيما بعد كما أقوم بهذا العمل الذي أخذت على نفسي تحقيقه .

## من تاريخ مصر

أحسست برغبة ملحة في أن أطلع تاريخ مصر في ضوء هذا التحول الجديد فعدت إلى كتيبي الدراسية التي فيها حديث عن مصر وأخذت أربط الحوادث المختلفة .. وأستعرض الصفحات المتفرقة في عديد من الكتب .. فإذا بي أرى ظواهر عجيبة لم تلفت نظري قبل ذلك وهي مع هذا ذات دلالات كبيرة .. فقد كنت أعتقد كما يعتقد كل طالب وكل مصرى على العموم .. أن الحضارة في مصر ، أو بمعنى آخر العصر الذهبي في مصر ، كان قاصرا على عهد الفراعنة وأنه منذ ذلك التاريخ قضى على استقلال مصر نهائيا ودخلت في دور المستعمرات .. وأن هذا العهد الذهبي لم يعد إلى الوجود بين ضفاف النيل ثانية .. وسرعان ما وقفت على خطي وخطأ كل مصرى في هذا التصور .. فقد عاد العصر الذهبي مرتين وثلاثة وأربعة .. بل إن مصر في أغلب عصورها كانت هي دائما كما كانت في عهد الفراعنة موطن العلوم والمعارف والأديان .. فإن عصر الفراعنة لم يكد ينتهي على الصورة التي نعرفها ، ولم تكد تمضي بضع سنوات على فتح الإسكندر المقدوني لمصر ، حتى أخذت مصر تعود من جديد لتحتل الصف الأول بين دول العالم . وليس ينقص من عظمة هذا التطور أن كان على رأس مصر في ذلك الوقت دولة البطالسة والذين هم من أتباع الإسكندر أى من عنصر الفاتحين .. فالتاريخ يحدنا أن هؤلاء البطالسة قد اندمجوا في الجنسية المصرية اندماجا عجيبا .. ودانوا بدين المصريين وارتدوا أزياءهم وتسموا بأسمائهم .. وحكموا في عدل وقوة لخير المصريين ومجد المصريين .. ولم يترددوا في جعل كلمة مصر هي العليا وما عداها في الدرجة الثانية من الأهمية حتى بلادهم الأصلية .. وإذن فقد أصبحوا ملوكا مصريين بالدم واللحم والتفكير .. يحكمون بالمصريين ولأجل المصريين .. وسرعان .. كما قدمت .. ما تبوأ مصر المركز الأول بين دول العالم . فإذا بأسطولها يسيطر على البحر الأبيض ، وأمبراطوريتها تعود من جديد فتمتد شرقا وغربا وجنوبا .. وإذا بجامعة عين شمس القديمة في هليوبوليس التي أسست في إبان مجد الفراعنة ، والتي جاء إليها أرسطو وأفلاطون وصولون وغيرهم من فلاسفة اليونان كما يتعلمون فيها الحكمة والفنون .. إذا بجامعة عين شمس هذه تفتح أبوابها من جديد في جامعة الاسكندرية التي طبقت شهرتها الخافقين وجاء إليها

العلماء والفلاسفة من جديد يتلقون العلم والحكمة والفنون .. ومضت عشرات الأجيال ومصر تتبوأ هذه المكانة العليا بين دول الأرض .. وعندما جاء المسيح بعد ذلك وأصبح التراع الروحي هو ما يشغل العالم وسكان العالم رفعت مصر لواء المسيحية على الرغم من اضطهاد الرومان وتعذيبهم . ولا زالت مصر حتى اليوم تحتفل بذكرى الشهداء الذين سقطوا تحت سيوف الرومان تمسكاً بالمسيحية ولولا كلمة نجاة في الإنجيل على لسان المسيح وهي « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، لولا أن المسيح عليه السلام لم يشأ أن يقود الأمم والجماعات التي تدن بعبادته إلى العصيان والثورة ضد الرومان بل على العكس دعا للتسامح واحتمال العذاب وترك المادة والتعلق بالروح ، لولا أن هذه كانت فلسفة المسيح والمسيحية ، لما صبرت مصر على حكم الرومان هذا العهد الطويل ، ولثارت عليه وقهرته واسترجعت استقلالها . ولكنها تأثرت بالديانة المسيحية التي حالت بينها وبين هذا النوع من الكفاح كما قدمت لك ، وهذا هو السر في تبعية مصر للرومان طوال هذه العصور التي يذكرها التاريخ .. ولما كان الصراع روحياً فقد انتصرت فيه مصر على طول الخط وقاومت اضطهاد الرومان حتى انتصرت المسيحية واضطرت روما في نهاية الأمر إلى الاعتراف بها .. وإذن فصر حتى في هذه اللحظات التي حكمها فيها الرومان كانت تلعب دوراً خطيراً في تاريخ البشرية ، وأن ما جعلها ترضى بالمساس بسيادتها ليس إلا شدة إيمانها في التمسك بدينها والزهد في مادياتها .. ولذلك لم تكد مصر تنفض عنها الدين المسيحي بدخول الإسلام إليها عن طريق العرب .. والإسلام فيه من تعاليم القوة ما فيه ، حتى قامت مصر تلعب الدور الأول في تاريخ الإسلام وتنصرف في أقداره وتذيع رسالته ولما يمض على وفاة سيدنا محمد ﷺ بضع سنوات وعشر .

والتاريخ يحدثننا أن الفتنة التي ثارت على سيدنا عثمان كان قوامها مصر .. وأن المتظاهرين الذين أحاطوا بمسكن عثمان رضى الله عنه واتهموا بقتله كانوا قادمين من مصر .. وبغض النظر عن قيمة هذا العمل واستنكارنا له ، فإن الذى يهمنى هو أنه يدل على الدور الخطير الذى بدأت مصر تلعبه في تاريخ الإسلام وأنها لم تكن الكم المهمل الذى لا رأى له أو فكرة .. بل كانت الدولة القوية صاحبة الكلمة العليا في سياسة الإسلام .. وأرجو أن تعلم إذا كنت ممن لا يعلمون أن سيدنا علياً (رضى الله عنه) قد بويج في مصر وأن المصريين هم الذين ارتضوه إماماً للمسلمين ، ولم تكد الخلافة القرشية يذهب ربحها ويتنكر المسلمون للخلفاء ، ويغيرون من نظرتهم التي اعتادوا أن ينظروا إليهم بها ، حتى رأينا مصر في طليعة الدول التي استقلت من جديد بشؤونها ودولتها . فإذا بمصر منذ أحمد بن طولون وهي دولة مستقلة لها سيادتها وشخصيتها ، وسرعان ما صارت مصر

المجيدة في عهد الفاطميين .. بل إذا بها على رأس دول العالم طرا في العصور الوسطى .  
 وإذا بالإمبراطورية المصرية تعود إلى الامتداد شرقا وغربا وجنوبا ، وتبسط نفوذها على  
 الإمبراطورية الإسلامية بأسرها ، وإذا بالعلوم والفنون والحضارة تصبغ كل شيء في  
 مصر ، وتؤثر على العالم بأسره ، وإذا بجامعة عين شمس التي صارت يوما ما ، جامعة  
 الاسكندرية تظهر من جديد للمرة الثالثة في ثوب جامعة الأزهر .. مشعل النور والهدى  
 في العصور الوسطى .. وبينما كانت أوروبا تعيش في دياجير الظلمات .. وبينما كان العالم  
 الإسلامي تأكله الفتن والحزن والويلات .. كانت الجامعة الأزهرية موئل الوافدين من  
 أطراف العالم الإسلامي لتلقى رسالة الإسلام .. ولم يكن الأزهر جامعة الدين فحسب ..  
 بل كان الجامعة التي حفظت علوم العرب بأسرها ، فدرسوا بين جدرانها الطب والكيمياء  
 وعلوم الهيئة والفلك ..

ورأيت بعد ذلك مصر وهي تقف في وجه أوروبا بأسرها في الحروب الصليبية  
 وتهزمها .. وتكسرها شر كسرة سواء في ميادين الشام ، أو في الميادين المصرية بالذات ،  
 عندما فكروا في الإغارة على مصر . وإذا كانت أوروبا قد نهضت من ظلمات العصور  
 الوسطى ، فقد كان الفضل في ذلك راجعا إلى هذه الأيام التي احتكت فيها بمصر  
 والحضارة العربية فاقبست منا العلوم والفنون والمعارف .. وهكذا بدا لي تاريخ مصر  
 سلسلة متصلة من الفتوحات والانتصارات الإنسانية بصفة خاصة ، أعني في عالم المدنية  
 والحضارة .. ورأيت كيف استطاعت مصر أن تغني جميع غزاتها وأن تنتصر عليهم في  
 نهاية الأمر ، بعد أن تحولهم إلى مصريين في الدم واللحم والتفكير .. وكيف دالت دول  
 العالم وتألقت إمبراطوريات وسقطت إمبراطوريات وبقيت مصر .. هي .. هي دائما قلب  
 العالم النابض ومصدر علومه وثقافته في أكثر الأحيان .. ولا عبرة بتغلب بعض المغيرين  
 من حين لآخر عليها .. إذ لا يرجع ذلك إلا لأن مصر قد استيقظت في فجر التاريخ قبل  
 تكوين هذه الدول بأسرها ، ولم يكن معقولا ولا طبيعيا في شيء أن تبقى طوال أربعة  
 آلاف سنة سيدة العالم وزعيمته .. فالشعوب كالإنسان عرضة لتقلبات الصحة والمرض ..  
 وكما يصاب الجسم بضعف من حين لآخر بتعطيل في بعض أجهزته فكذلك الأمم ..  
 وهكذا كانت مصر عرضة بين حين وآخر لهذه النوبات التي يضعف فيها جسدها ، فتكون  
 محلا عندئذ لسطوة مغير .. ولكنها كانت تبادر سريعا باسترداد عافيتها ، وتقوم بدورها  
 الذي عرضته عليك .. ومن عجب أن هذه الأمم التي أغارت على مصر ، لم تكن مصر  
 هي أولى ضحاياها ، بل كانت تجيء دائما في النهاية .. فعندما فتح الإسكندر مصر لم  
 تكن مصر أول ما فتح ، ولكنه جاء إليها بعد أن فرغ من أوروبا .. وإذا كان الرومان قد

دخلوا مصر فقد دخلوا إليها بعد أن حكموا البحر الأبيض بأسره واحتلوا إنجلترا ذاتها .. وإذا كان العرب قد دخلوا مصر غزاة بعد ذلك ، فقد فتحوا الدنيا بأسرها .. وهكذا .. أى أن مصر لم تكن كما يحاول المستعمرون أن يصورها لنا ذليلة حقيرة .. بل على العكس تغلبت مصر على بعض هذه الدول الجديدة التى مدت ظلها على العالم .. ولقد جاء دور مصر أكثر من أربع أو خمس مرات فدت ظلها على إمبراطورية واسعة الأرجاء .. مع أن هذا الأمر لم يتكرر فى حياة غيرها من الأمم .

على أن الذى أثر فى نفسى أكثر من غيره من تاريخ مصر ، هو تاريخها أيام محمد على ، الذى كان مقررا علينا دراسته فى هذا العام الدراسى .. فقد عدت من رحلتى وكان على أن أسذكر تاريخ مصر فى هذه الأيام .. ولقد دفعنى شغفى إلى حد أن لا أقنع بهذا المختصر الذى كان يقدم لنا عن تاريخ مصر فى عهد محمد على .. فرجعت إلى كثير من المطولات .. ورأيت فى ذلك كله العجب العجائب .. رأيت كيف وثبتت مصر وثبة سريعة فى مستهل القرن التاسع عشر ، ولم يزد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين . ومع ذلك فقد أصبحت إمبراطورية ضخمة ذات جيش يهزم الأتراك (أسياد الحروب فى أوروبا) وذات أسطول يحول البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية ، يسود شرق البحر الأبيض المتوسط .. فاستطاعت مصر أن تخيف أوروبا مجتمعة فتتحالف عليها ، كما تحطم الأسطول المصرى بمخدعة دنيئة ، فى موقعة (نقارين) وكيف استطاعت مصر بعد ذلك أن تجدد بناء هذا الأسطول بأيد مصرية ، وفى موانئ مصرية .. ولقد كانت أياما عجيبية بهرت فيها مصر العالم .. فقد بدأت مصر نهضتها فى وقت لم تكن اليابان قد نزلت إلى ميدان الجهاد بعد .. ولم تكن الولايات المتحدة قد وجدت صفوفها بعد .. ولم تكن ألمانيا الحديثة وإيطاليا الحديثة ، قد خرجتا إلى الوجود كأهم مستقلة موحدة .. فى تلك الأيام لعبت مصر هذا الدور الخطير ولولا إنجلترا .. لولا إنجلترا عدو مصر اللدود لكننا اليوم نعيش فى أضخم إمبراطورية .. ولكن إنجلترا نجحت فى تأليف كتلة من الدول الأوروبية ضد مصر ، فإذا بنا فى معاهدة سنة ١٨٤٠ ، نجرد من ثمار انتصارنا الذى حصلنا عليه بدمائنا وأموالنا وإيماننا .. وإذا بمصر المنتصرة فى نصيبين .. مصر ذات الجيوش والأساطيل والمصانع والمعاهد .. تقف غداة انتصارها كما تجرد من كل شىء حتى الشرف .. شرف الاستقلال التام ، وليس ذلك إلا بعمل إنجلترا التى أرادت أن تثار لنفسها من مصر التى طردت جيوشها فى سنة ١٨٠٧ وقذفت بها إلى البحر . كما أرادت أن تمهد لابتلاع مصر فى المستقبل ولم يكن يمكن أن تتغلب مصر على أوروبا مجتمعة . لقد كانت هذه الحوادث بعيدة الغور فى نفسى .. ولقد ملأنى بالمرارة والغضب



وجعلتني أشعر بمقدار الظلم الذي نعانیه .. فنحن أسیاد العالم قديما .. نحن الذين علمنا الإنسانية العلوم والنور .. نحن الذين حملنا مشعل الحضارة . نقف في مؤخرة الأمم بفعل انجلترا التي حطمت امبراطوريتنا التي شيدناها وسلبت استقلالنا الذي ظفرنا به بجهادنا ثم نلقن بعد ذلك في المدارس والمعاهد وفي كل مكان أننا أمة صغيرة ضعيفة ذليلة فقيرة .. لا .. لا .. إني أثور على ذلك وأتمرد عليه . ويجب أن تزول هذه الغشاوة عن أعين المصريين .. يجب أن يعرفوا أنفسهم على حقيقتها .. يجب أن نقضى على الجهل بتاريخنا . ويجب أن تعاد كتابة تاريخ مصر وأن تظهر الأذهان من هذه المفتریات المجرمة التي حشرها الاستعمار في رؤوسنا حشرا .

ولذلك فقد جعلت أول خطوة في برنامجي أن أذيع الحقائق عن تاريخ مصر . وأن أظهر صفحات مصر المجيدة . وعلى هذا فلم أكد أنني من المامى بتاريخ مصر في أطواره المتعددة . حتى أعددت محاضرة في هذا الموضوع . وطلبت من لبيب بك الكرداني ناظر المدرسة أن يسمح لي بإلقائها في مسرح المدرسة فسمح بذلك . فدعوت لحضورها المدرسين والطلاب .. ولأول مرة وقفت أحاضر في تاريخ مصر كما أفهمه . فامتلا المستمعون بالحماسة والنشوة ، ونجحت المحاضرة نجاحا عظيما . وسرعان ما بدأت أعرف مقدار ما تفعله هذه الحقائق عن تاريخ مصر من الأثر في نفوس الشباب ! . فزاد إيماني بهذا العلاج ! . ودأبت على استعماله بعد ذلك في كل خطبي وفي كل أحاديثي .. وسوف يرى القارئ في مجموعة الخطب والمقالات التي ستأتي في هذا الكتاب ، والتي ألقيتها في إبان اثنتي عشرة سنة ، إنه لم تخل خطبة واحدة من الإشارة إلى هذا التاريخ المجيد .. ذلك لأنني مؤمن أن نصف قضيتنا يحل متى عرف كل مصري قدر نفسه ، وآمن بقدرته على العمل ..

\* \* \*

## التمهيد لمصر الفتاة

### ٢

لم أكد أفرغ من تحليل عناصر القوة في تاريخ مصر ، حتى اتجهت إلى تحليل عناصر الضعف في مصرنا الحاضرة .. ولقد راعني أول ما راعني ، ما سبقت إشارتي إليه ، وأعني به الجهل فقد كان الجهل يحايني دائما أبدا كلما حاولت أن أثبتن السر في مسألة من المسائل .. فهناك تدهور ديني مصدره الجهل بتعاليم الإسلام الصحيحة .. وهناك تدهور وطني مصدره الجهل بتاريخ الوطن وقيمه .. وهناك جهل بحقوق الناس بعضهم لبعض ، فالجهل في جميع مظاهره هو أول ما يروع الإنسان الذي يحاول أن يدرس مصر الحاضرة ! . ولست أعني بالجهل قلة انتشار التعليم والمدارس .. فليس هناك ما هو جدير بالزراية والاحتقار من هذه المدارس الثانوية والابتدائية التي تفتحها الحكومة ! .. وإن أردت أن تعرف من هم أجهل الطبقات في مصر فصدقني أنهم الذين ينعنون أنفسهم بالتعلمين .. ممن دخلوا المدرسة في مصر وهم أجهل الجهال ، وخرجوا منها بالقشور .. بعد أن فقدوا فيها غريزتهم السليمة في فهم الحقائق ، واستعاضوا عنها بذاكرة مشوهة محشوة ببعض معلومات متناثرة لا يربطها منطق ولا توحى بها منفعة .. خذ مثالا هذا العامي البسيط أو الفلاح الساذج واسأله عن مصر ومكانتها فإنه سرعان ما يجيبك بأن (مصر هي أم الدنيا) ولقد رأيت كيف أن هذا الجواب صحيح وأنه ثمرة الإحساس بعظمة مصر وجغرافيتها .. ثم سل المتعلم بعد ذلك عن مصر فسيقول لك إنها بلاد لا تصلح لشيء فرض الله عليها العبودية والذل إلى الأبد ، وأنا شعب (زلط) وأنا لا نفلح في شيء ! . وهكذا ..

تعال إلى العامي أو الفلاح وناقشه في إحساسه بشخصيته بالقياس إلى الأجنبي فستشعر منه اعترازا بنفسه بالرغم من كل شيء ، وتدرك منه حاسة الثبور من كل ما هو أجنبي ، ومن كل ما هو انجليزي بصفة خاصة ، وهذه غريزة متأصلة في نفسه .. أما هذا الذي تلقى التعليم في المدارس ، فسوف ترى منه احتراما لكل ما هو أجنبي ، وسوف ترى منه احتقارا لنفسه وجنسه واكبارا للأجنبي وأرومته . فالأمة المصرية في مجموعها سليمة من هذه الناحية . إذا حدثك عن الجهل ، فلست أعني به قلة المدارس والتعليم الإلزامي فإن إيماننا بهذا التعليم قليل . وإنما أعني بالجهل : الجهل الذي تشترك فيه

الجماعة .. فلقد ساد العرب الدنيا بإيمان وأخلاق ! . وكذلك الرومان وكذلك الإنجليز وعندما انتشر التعليم في جميع هذه البلاد مصطحبا معه الترف والإسراف اضمحلت هذه البلاد وانحدرت نحو الهاوية .. فالعلم الذى أعنيه هو العلم الجماعى لا العلم الفردى .. بمعنى أن يكون الشعب في مجموعه يعرف لنفسه حقوقا مقررّة لا يمكن المساس بها .. وبمعنى أن يكون للشعب مثل أعلى يسعى للحصول عليه .. وبمعنى أن يكون الشعب بأسره على بينة من روح دينه وقواعده .. فالدين الإسلامى الذى بنى على العزة والقوة والجهاد ، يعرف في مصر على أنه استسلام وركود وجهل وهكذا ! . فأعدى أعدائنا في مصر الجهل .. الجهل بديننا .. الجهل بوطننا الجهل بأنفسنا .. الجهل بحقوقنا .. وإذن فلا مناص من تعليم الشعب هذه التعاليم ولست أشك لحظة في مقدار الخطوة التى نخطوها إلى الأمام بإحلال العلم محل الجهل السابق الذكر .. ويرونا بعد ذلك أكثر ما يرونا ، فقر الأغلبية الساحقة من المصريين ! . فأكثر من ثلاثة عشر مليوناً يعيشون عيشة الضنك وهم جمهرة الفلاحين ، مع أنهم يفلحون الأرض ويتتجون الذهب .. ومع أن النيل كان دائما سخيا وفيا لأبنائه وأحفاده . ولقد أنعمت النظر طويلا في ذلك ففكرت السرفى كل هذا الفقر ، فهو ناجم عن سوء توزيع الثروة ، فبينما يحتكر الأجانب جميع رؤوس الأموال ، وكل تجارة مصر الخارجية . ويدايئون مصر هذا الدين المشوم ، الذى هو أقرب إلى الديون غير المشروعة ، التى يجب على الدولة أن تلغيا بمجرد استيقاظها ! والأراضي المصرية مرهونة للأجانب ! .. وفي ظل الامتيازات يضمن الأجانب لأنفسهم التفوق المالى والاجتماعى .. وهذا ما جعل المصريين في هذا الفقر المدقع إذا ما قيسوا إلى الأجانب .. وبجانب ذلك تضع الحكومة يدها على جانب كبير جدا من الأراضي الزراعية قد يزيد على مليون فدان وهى تستغله أسوأ استغلال ، بينما لو وزعت هذه الأراضي على صغار المزارعين لعادت على الدولة بفوائد جزيلة ، ولأغنت الكثيرين وأنقذتهم من هذا الفقر المميت .

وهناك طائفة من الموظفين ، تستولى على ما يقارب نصف الميزانية . عشرات الألوف من صغار الموظفين يتضورون جوعا بينما مئات من كبارهم يأكلون الذهب .. فالثروة في مصر موزعة توزيعا سيئا .. والأجانب يستولون على كل غنائمها ، والفلاحون فقراء .. فحياتنا الاقتصادية إذن مهشمة كلّ التّشيم ! . ولا مناص من بذل جهد كبير لإصلاحها .. بل ولا مناص من البدء بإصلاحها .

وفوق ذلك كله إفلاس روحى وخلقى ، فأحكام الدين قد نبذت ظهريا في جميع

أنحاء مصر ! . خاصة في المدن والعواصم ! . وفي صفوف المتعلمين والحكام .. فانتشرت دور الخمر واللغو الحرام وجميع صنوف الموبقات ! وضعف الوازع الديني ، وكثر التظاهر بالإلحاد ، والكتابة في الهجوم على الدين ، حتى لقد أصبح ذلك طريقة للشهرة والتظاهر بالعلم .. وأصبح التقاطع والتناوب والحقد والحسد من مظاهر الحياة المصرية .. وقد جر التدهور الديني تدهورا خلقيا بطبيعة الحال ، فإذا بالفوضى الخلقية تعم كل مكان .. فالحسوية وملء الوظائف بالأشباع السياسيين والمناصرين ، وإغداق المرتبات الضخمة عليهم ، وإهمال الأكفاء وانتشار الرشوة والاتجار بالأعراض والتعلق للرؤساء والعبث بالقوانين والاندفاع مع الشهوات ، أصبح طابع الأداة الحكومية وموظفي الحكومة وحكامها ! . ثم انتقل منها حتى عم جميع الطبقات خاصة ذات الأثر في حياة مصر السياسية .

وهناك في نهاية الأمر الاحتلال الإنجليزي ! . وإصبح الإنجليزي في السياسة المصرية هي التي أضعفت كل مقاومة ، وحطمت وحدة الأمة ، وخلقت العديد من الأحزاب ، ولوحت بالمناصب والرتب ، لكل ما يكون في خدمتها .

وهكذا حينما قلبت الطرف في أى مكان لا ترى إلا آثار التدمير الخلقى والسياسى والاقتصادى والثقافى ، وهذا هو ما جعل القلوب تمتلئ بأسا وشكا في إمكان النجاح والوقوف على الأقدام بين دول العالم .. ولقد نسي كل مصرى حوادث الأُمس القريب ، وأعنى بها حوادث ثورة ١٩١٩ وحسبوها فلتة من فلتات الطبيعة لا أمل في العودة لمثلها .. والواقع أن حاضرمصر يبدو غريبا بالنسبة لماضيها .. بل ويبدو منقطع الصلة لأول وهلة ، ولكن إيماني بدأ يتغلب على كل هذه المظاهر ، وبدأت تظهر أمام عيني أنها ليست بعيدة الغور ، وأن الحيوية المصرية لا تزال سليمة في انتظار من يحركها ويبعثها ، وأن شيئا من الصبر والثبات والإرادة كفيل بتحقيق كل ما نصبو إليه ! .

ولقد كان مقروا علينا في ذلك العام لامتحان البكالوريا أن نعيد دراسة تاريخ القرن التاسع عشر ، مضافا إلى تاريخ محمد على .. وتاريخ القرن التاسع عشر ملئ بأخبار النهضات الحديثة وأحاديث الثورات والكفاح ، ففي إيطاليا ، مثل ما في ألمانيا ، مثل ما في بولندا ، مثل ما في أيرلندا ، استمر الكفاح عنيفا حتى كُِّلَّ بالنجاح ! .. ولم تكن دولة من هذه الدول التي ظفرت باستقلالها ووحدتها بأسعد حالا من مصر ! فقد كانت فريسة قوات ضخمة وظروف سيئة ! .. ومع ذلك فإن الكفاح المتواصل والإيمان العميق قد أدى دائما إلى النجاح ! . ولقد أثر في نفسى بصفة خاصة كفاح إيطاليا ..

ويظهر أن هذا الشعب يقترب إلى حد ما من الشعب المصري ، قد أعجبتني هذه العبارات التي تفيض إيمانا وحماسة ، والتي ملأ بها مازيني صدور الشباب الإيطالي ، وهزت نفسى هذا ، حملات جهاده من أجل إيطاليا الفتاة ، الذى كان من مميزاته تحقيق الوحدة الإيطالية .

وليست مصر بأقل من هذه الدول .. وليس الشعب المصرى بأقل من هذه الشعوب . واذن فإلى العمل .. وإلى العمل فى صبر وثبات وإيمان .

هكذا بدأ العزم يملأ نفسى ، وبدأت خطوط الكفاح الأساسية ترتسم أمام عيني ، وبقيت الخطوة الأخيرة ، خطوة التقدم للعمل ولكن هذه الخطوات لم تتخذ إلا بعد أربع سنوات بعد أن ختمت دراسى العالية وخرجت من مدرسة الحقوق ، أى فى عام ١٩٣٣ وإن كانت جهودى ، منذ سنة ١٩٢٨ حتى هذا التاريخ الأخير ، سلسلة إعداد وترتيب وتمهيد ، كما أخطو هذه الخطوة الأخيرة .. فقبل أن أغادر الخديوية ، وفى أشهرى الأخيرة بها شرعت أكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان «رسالتى» وضعت فيها بذرة مصر الفتاة الأولى ولو أنك رجعت إلى هذه المقالات الآن لعلمت اننى فيما كتبتة بعد ذلك طوال ثمانية عشر سنة لم أخرج عن ما كتبتة فى هذه المقالات<sup>(١)</sup>

(١) رسالتى : من مقالة نشرت فى مجلة المدرسة الخديوية .. العدد الأول .. العام الثامن فى أول ديسمبر سنة

١٩٢٨ .

نظرية واحدة تسود العالم من أقصاه الى أقصاه ، عبر عنها الفيلسوف الألماني « نيتشه » بصراحة اذ قال « الأرض إرث القوى والمستقبل للشعب الظافر وللصالح وحده حق الحياة » فى هذا الصراع الخيف حول الموت والحياة .. فى هذا السباق الذى تشترك فيه كافة المخلوقات تتقدم مصر العتيقة كأمة قوية خالدة ماخلدت الأيام . فمن بين أُم الأرض طرا لا توجد واحدة تضارع الأمة المصرية . هاجمتها عاديات الدهور فا استطاعت أن تنال منها ، وحاربتها الأقدار فارتدت عنها مغدولة واحتملت مصر التجربة بثبات وخرجت من الأعاصير ملؤها الحياة والقوة تعلن الناس أنها معيدة مجدها القديم . ماواجبتنا نحن الطلبة ؟ .. تلك هى رسالتى وذلك هو ندائى ، ألا إننا شباب حر ، مهمتنا العمل للمستقبل القريب . تعالوا نبني بناء جديداً .. تعالوا نشيد عظمتنا المستقبلية على أساس من الفولاذ مما تبني عليه الأمم . الصناعة والتجارة مدنية القرن العشرين وروح الأمم الحديثة . أن اليوم الذى لا نلبس ولا نشرب ولا نأكل فيه من الخارج يجب أن يكون جد قريب وفى هذا يجب أن نعمل إن أردنا حقاً مجد الوطن . الأخلاق هى التى تجعل الإنجليزى محترماً فى كل مكان . وهى التى تجعل الألمانى بمثلين من الرجال . فى المقال التالى ترون صورة لأخلاقنا . ترون الغرور والجهل والفسطة . فى اصلاح هذه الأخلاق يجب أن نعمل ان أردنا حقاً مجد الوطن . فلنحارب الخزعبلات والعقائد الفاسدة . فلنبشر بعظمة مصر ومجد مصر وتاريخ مصر ، فلترك « لنعضد » ( بنك مصر ) فى مشروعاته وشركاته فى هذا رفاية لأهل الوطن .. فلنناصر التجديد الاجتماعى والخلق والأدب والاقتصادى .. ولنبذر بذور الإصلاح فى كل مكان حللنا به .

قالوا قديما ومازالوا يقولون نحسب الأمة التى تريد الرفعة والسؤدد أن يقوم أفرادها بواجباتهم ، كل فى دائرة عمله .. التاجر فى متجره والصانع فى مصنعه والموظف فى مكتبه والطالب فى معهده .. تلك هى رسالتى وذلك هو ندائى .

على أن تطورا سريعا قد حدث عقب هذه الأيام ، في نشوة الحماسة التي ملأتني فجأة وقتذاك ، فلم أكد أحصل على البكالوريا ، حتى كانت وزارة محمد باشا محمود في الحكم ، وكان محمد باشا محمود قد عاد إلى مصر بمعاهدة تفضل جميع المعاهدات السابقة عليها ، وكنت أصبو إلى أن تتمتع مصر بشيء من الاستقرار الحزبي والحرية السياسية حتى نتمكن في ظلها من الاندفاع في تنظيم شئوننا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، تمهيدا للقيام بالثورة الكبرى ! . التي أعنى بها تحقيق مجد مصر وبعث امبراطوريتها العتيدة . ولذلك فلم أتردد عندما عرض على بعض المتصلين بمحمد باشا محمود ، أن أعمل المناصرة للمعاهدة ، والدعوة لقبولها ، على أن يشرع محمد باشا محمود ، إذا ما قدر للمعاهدة النجاح في تنفيذ برنامج مصر الفتاة .. ولقد كانت طلائع الحال لا تجعل هذا الأمر مستحيلا ، فلقد كان لوزارة محمد باشا برنامج إصلاحى بالذات . وإذن فمن الممكن إكماله بحيث يشمل نواحي الإصلاح الاجتماعي والخلقي والاقتصادي في ظل المعاهدة .

وقد ألفنا لهذا الغرض جمعية صغيرة أطلقنا عليها اسم «جماعة الشباب الحر» . ولقد كان من حظي أن خطبت في حضرة محمد باشا محمود ، بمجرد عودته في نادى شباب الأحرار الدستوريين ، ولم أتردد في أن يكون خطابي محتويا على عناصر إيماني ووجهة نظري ، وإني أثبت هنا للذكرى والتاريخ بعض فقرات من الخطاب المذكور كما نشر في جريدة السياسة في عددها الصادر في أول سبتمبر سنة ١٩٢٩ وهي :

#### «يا صاحب الدولة

بينما كان العالم يعيش في دياجير الظلام وكان الإنسان يساكن أخاه الحيوان ، كانت على ضفاف النيل مدينة هي أم المدنيات ، وحضارة معجزة ، فنذ ستة آلاف سنة كان المصريون يبنون الأهرام ، ويحفظون الأجسام ، ويرعون في سائر العلوم .

هذه هي مصرنا يا دولة الرئيس . وهي الجامعة التي تلقن فيها الأغريق والرومان علومهم ، فألى عين شمس جاء أفلاطون ، وصولون ، وليكرغ ، وغيرهم ليتلقوا الحكمة عن المصريين .

وهي مصرنا يا دولة الرئيس التي أنقذت العالم بأن وقفت أمام سيل التار الذي اكتسح طريقه من أقاصى الهند إلى مصر .

وهي مصر يادولة الرئيس التي خرجت في أيام محمد علي من الظلام إلى النور .

ومن العدم إلى الحياة ، فوقفت أوروبا في طريقها وطريق آمالها . مصر هذه تريد أن تنهض وأن تسترد مركزها القديم بين دول الأرض ، ولن تصل إلى ذلك بهتاف الرعاع في الشوارع ، ولا بالخطب تلقى من فوق المنابر ، ولكن بالعمل والعمل وحده . فهى فى حاجة إلى الزعيم العامل . وهذا الزعيم العامل لن يكون من دم تركى أو شركسى بل من دم فرعونى تنساب فيه كريات رمسيس ومينا ... الخ .

هذه هى بعض الفقرات التى ألقيتها أمام محمد محمود باشا . وأنت واجد فيها نفس العبارات والأفكار التى لم أخرج عليها حتى الآن . فهى فكرة واحدة تلك التى تملأ حياتى وتملك على مشاعرى ، وأعنى بها بعث مجد مصر وتحقيق عظمة مصرنا بأسرها .. وليست حياتى إلا سلسلة متصلة الحلقات من العمل فى هذا السيل .

على أن وزارة محمد باشا محمود لم تلبث أن سقطت ! . وسقطت معه معاهدته . ولكننى ظلت ماضيا فى طريقى .. فلم أكد أدخل إلى الجامعة ويلحق بى أخى فتحى رضوان . حتى فكرنا فيما يجمع الشباب ويوحد أفكارهم ، ويدفع بجهادهم إلى ميدان جديد هو ميدان مصر الفتاة ، فدعونا إلى الاحتفال بـ ١٣ نوفمبر على أسلوب جديد . وهو أن نجتمع فى سفح الأهرام ونقيم به معسكرا نبيت فيه ليلة العيد المذكور ، وفى الصباح نحى العلم وننزل إلى المدينة .. ولقد نفذنا المشروع فحصلنا على الخيام وأقمنا المعسكر ، ولكن لم يوافنا فى المعسكر إلا نفر لم يتجاوز عدد الأصابع ، وهكذا لم تكن البيئة مستعدة وقتئذ لقبول هذه الروح الجديدة .. ولقد انقضى على هذا التاريخ سبع سنوات قبل أن أرى تحقيق هذا المشروع . عندما اجتمع مندوبو شعب مصر الفتاة فى عامها الثالث فى سفح الأهرام ، واحتفلنا بالعيد كما سترى ذلك فى متن الكتاب .

لم ينقض العام المذكور قبل أن نقوم بمحاولة جديدة لنشر مبادئنا ، فاتفقنا مع أحد معارفنا للحصول على رخصة جريدة ، واخترت لها اسم البعث فإذا هو اسم الجريدة أخرى فاختار أخى فتحى اسم الصرخة ، فكانت الصرخة التى ستبقى إلى الأبد علما على مصر الفتاة ، وسجلا لوقائعها ، وإذا كان الناس لم يسمعوها عن الصرخة مقترنة بمصر الفتاة إلا فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ . فإن الصرخة فى الواقع قد صدرت أعدادها الأولى فى مارس سنة ١٩٣٠ . وكانت تحمل فى صدرها وفى ثنايا سطورها هذه المبادئ والأنظمة التى أخذت شكلها النهائى وأعلنت رسميا بعد ذلك بأربع سنوات تقريبا ..

فقد نشرت الصرخة في عددها الصادر في ٧ مارس سنة ١٩٣٠ مقالة عن مصر الفتاة تحت عنوان «طريقنا إلى العظمة». وقد جاء في هذه المقالة بعد مقدمة تخيلت فيها أن جموع شباب مصر الفتاة قد اجتمعت حول الأهرام لتدرس الوسائل التي يجب عليها انتهاجها لبعث الحياة في مصر ولإعادة مجدها القديم ما يأتي :

انظر .. انظر وحقق النظر ، فهذا هو العلم المصري يرتفع فوق الأهرام وسط هذه الموسيقى والأنشيد ، وهاهي الجموع ترفع يدها بالتحية ، حتى إذا وصلت القمة دوى النفير وانطلقت الصرخة الكبرى التي تناثرت لها الرمال وتفتت الصخور .

### المجد لمصر

تلك صرختهم وهذا ما اجتمعوا لأجله . إنهم شباب مصر الناهضة جاءوا من أقصى الصعيد حتى الإسكندرية ، جاءوا من الأكواخ والقصور ليجتمعوا في حقل المجد ، تحت سفح الأهرام الخالدة ، جاءوا كلهم بإرادة وعزيمة ، ليقوموا بالمعجزات في سبيل الوطن فلنسمع ماذا يقول لهم الشاب الذي تقدم بجانب السارى !

«يا شباب النيل وباسلالة الفراعنة . يا أحفاد المجد وبأرباب البقرية . هذه الأهرام تظلنا وهذا أبو الهول يرمقنا . وهذه الراية ترفرف فوقنا . وها هي الشمس تلهب نفوسنا كلها . تسألكم لماذا تخليتم عن الزعامة بين الأمم ؟ هل كالتهم أو أصابكم الملل ؟ .. أم استسغتم طعم الذلة والهوان ؟ . فدوى صوت الجموع هادرا صارخا : كلا والنيل والأهرام . سنعيد المجد ونذكر أسباب السماء .

فصاح الشاب ثانية . وماذا أنت فاعلون .

فاندفع الجميع ينشدون .

سنكسر حياتنا لأجل مصر .

سنبدل أرواحنا فداء لمصر

سنعلم الطفل والفتي والكهل ان يحب مصر

في كل صباح وظهر ومساء ستغنى بمجد مصر

خفتت أصوات الجموع . فعم الكون السكون . وعاد الشاب يتكلم (إذن هلموا إلى المدينة نسير فيها بموسيقانا وأنشيدنا . هلموا نكهرب جو القاهرة بأنفاسنا وعزوماتنا وليعد كل منا بعد ذلك إلى عمله وجهاده في سبيل مصر) فاصطف الشباب جماعات وكتائب وانحدروا من الأهرام وساروا في الطريق تتقدمهم الموسيقى وترتفع عقائدهم بالغناء يحمل كل منهم مشعلا موقدا رمز النور الذي سينبعث من مصر !

وعندما وصل الجيش إلى القاهرة ودوت أناشيده في سمائها رجعتها النوافذ والأبواب ووقفت المركبات والسيارات وكلها تصيح :



### المجد لمصر

أسمعت ذلك كله ورأيت أيتها الرفيق .. تلك هي مصر الفتاة وهذه هي المليشيا الفرعونية .  
بهذه الطريقة استقلت الممالك وارتقت . ومن قبل كانت إيطاليا الفتاة وبولندا الفتاة والمانيا  
الفتاة وإيرلندا الفتاة وتركيا الفتاة .. وكل أمة أرادت استقلالاً أو نهوضاً أو مجداً اتبعت هذا  
الطريق . طريق الشباب الملتهب بحماسة الإيمان ! .  
فما أحرانا بتكوين مصر الفتاة لنعيد لمصر بهجتها ومجدها ! .

\* \* \*

هذا هو الصوت الأول من أصوات مصر الفتاة في صورتها الأخيرة ولكننا  
لم نستطيع أن نستمر في مواصلة إصدار الصرخة لسبب صغير جداً ، وهو أننا لم نجد  
موزعاً يوزع الجريدة ، ومن ناحية أخرى فقد رأى صاحبها أن يستقل بإصدارها  
بعيدا عن مبادئنا وبرامجنا ، واقترب موعد انتهاء السنة الدراسية وشغلتنا الامتحانات .  
وفي الصيف نفذت مشروعا كان يخالجنى منذ ثلاث سنوات ، وهو زيارة باريس  
ومشاهدة أعلامها ودراسة الحضارة والنهوض الأوربي ، فجمعت من الأموال  
ماقتصدته طوال هذه السنوات وماعنتني به أخى فتحي رضوان . وسافرت إلى  
باريس على ظهر إحدى المراكب ، ولقد كان عالما جديداً ذلك الذي فتح أمام  
بصيرتي فقد رأيت مظاهر النهوض والقوة .. رأيت حيوية الشعوب كيف تتجلى وكيف  
تستثمر .. رأيت ماذا يمكن أن تفعله يد الإصلاح والنظام في تجميل الحياة وجعلها  
أكثر منطقاً .. على أن الذي هزنى أكثر ما هزنى هو قوة الشعب ، وإحساس كل فرد  
بشخصيته وحرية وقوة رأيه وعقيدته ! . راعنى كيف تقف الحكومة نفسها في خدمة  
المجموع فعلاً .. وكيف تعتمد وتستمد قوتها من العمل لخير المجموع وسعادة الفرد ..  
على أن إيماني بمصر قد زاد اكتمالاً ، فقد أحسست بقوة أننا لا يمكن أن نقل عن  
هؤلاء الأقسام ، وأن شعبنا لا تنقصه المواقف والكفاءة التي تؤهله لمنافسة هذه الشعوب  
والارتقاء عليها ! .. بل كل مشكلته أنه بقى محروماً من الحاكم الصالح والزعيم  
الصالح ، فلم يتطور التطور الطبيعي ووقف حيث سار الناس .. لم يستطع الفرنسيون  
مطلقاً أن يقتنعوا أن لهم جوهرأ يخالف جوهر المصريين وأنها أعجز من أن نحقق  
ماستطاع الفرنسيون أن يحققوه .. بل بالعكس زدت إيماناً بقوة شعبنا ، إذا ما شرع  
في التطور تحت قيادة زعيم مصلح .

وثمة أثر آخر تركته في نفسي زيارة باريس في ذلك العهد . وهو تزعزع ثقتي  
بالمدينة الغربية في مظهرها المادى ، وشعورى بأن هذه القواعد المادية الإلحادية التي

لا تعترف بحق أو فضيلة أو دين أو عرف أو تقاليد لن تنتهي إلا بتتيحة واحدة .  
وهي تدمير أوروبا شر تدمير ! . ولقد كان هذا فيما بعد مبدأ أساسيا من مبادئ مصر  
الفتاة . التي قامت على التمسك بكل ماهو مصرى وشرقى ، واحتقار كل ماهو  
أجنبى ، والتعصب للمصرية والإسلامية . حتى آخر حدود التعصب فقد امتلأت  
إيماننا بأن هذا الأسلوب السلم لإنهاض مصر وإنقاذها من التردى فى الهوة التى تتردى  
فيها أوروبا ! . أجل إن فى أوروبا وفى شعوب أوروبا بعض الفضائل وبعض المظاهر  
الطيبة . ولكن من العجب أن كل هذه الفضائل وهذه المظاهر الطيبة ليست ثمرة  
من ثمرة المدنية الغربية ، ولكنها ثمرة من ثمار الإنسانية الناضجة على العموم ، ولقد  
كان الشرق بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة هو مصدر هذه الفضائل والقوى ..  
لقد أعجبني فى باريس من أخلاق القوم الصدق والصراحة فى المعاملة والأمانة  
والنظافة والنظام والتعاون والتضامن ! . ولعمري أليست هذه كلها فضائل الإسلام  
ومبادئه ؟ أليس هو الذى يدعونا إلى كل هذه الخصال الحميدة ، وكل هذه الأسس  
العمرائية .. فإذا كنا قد جهلنا هذه القواعد واستفاد منها الغرب ، فعندما نهيب  
بأنفسنا من جديد لاعتناقها والتمسك بها ، فلسنا فى هذا نقلد أو نسير خلف  
الغرب ، ولكننا فى الحق نستوحى ديننا وماضينا وتاريخنا .. وإن كانت أوروبا تتميز  
بشيء فهي تتميز بهذا الذى حدثك عنه من الإلحاد والرغبة فى التحرر من الأخلاق  
والقوانين ، وإشباع الشهوات المادية ، بل والتطور بها تطورا مخيفا .. وأخيرا تتميز  
بروح الاستبداد بالشعوب الضعيفة ونزعة الخصومة والعداء والتحاسد فيما بينهم وسريان  
الشيوعية المخربة المدمرة لكل ماهو جميل وروحى وكذلك الاشتراكية المتطرفة .. هذا  
القسم الذى تتميز به أوروبا هو ناحية الضعف فيها وهو بدء النهاية لحضارتها  
ومدنيها .

\* \* \*

وهكذا عدت من فرنسا بعد شهر ونصف شهر وفى نفسى ألف رغبة ورغبة  
للعمل والعمل فى ميادين مختلفة .. وأفكارى تتبلور وتتكون نهائيا ، وإيمانى بمصر  
وضرورة العمل لبعثها بعثا جديدا داخل إطار الصبغة المصرية الإسلامية بعيدا عن  
زيف المدنية الغربية قد أخذ صورته النهائية التى لم يطرأ عليها تغير بعد ذلك فى أى  
تفصيل من تفاصيلها .

ولذلك فلم نكد نستقبل العام الدراسى الجديد ، وقد انتقلت إلى كلية الحقوق حتى أقيمت محاضرة عن باريس في الجمعية الجغرافية ضمنها آرائى السابقة الذكر ، وعرضت فيها بالفانوس السحري عشرات من الصور التي أحضرتها معى من باريس وتلا هذه المحاضرة عدة مناظرات جرت بينى وبين بعض النظراء في الجامعة وفي جمعية الشبان المسلمين وقد جعلت أختار في هذه المناظرات دائما الطرف الذى يكون مبدأ من مبادئ مصر الفتاة . ففي مناظرة بين المدينة الشرقية والغربية وأيهما أولى بالتفضيل اخترت، الشرقية وشرحت وجهة نظرى ، وأن مايعجبنا في الغربية هو في الأصل شرقى ، ويبقى بعد ذلك امتيازنا بعقائدنا الروحية وتقديسنا للأخلاق والفضيلة وفي مناظرة بين الفرعونية والعربية ، أى هل نتمسك بفرعونيتنا داخل حدود مصر ، ونهمل الأقطار العربية والمسحة العربية في حياتنا وحضارتنا . أم العكس ؟ اخترت جانب العروبة وشرحت وجهة نظرى في الرابطة التي تربط مصر بالدول العربية والتي تحول لها زعامة المسلمين ، وأن مصر يجب أن تكون حريصة على هذا التراث وهذا المجد فلا تتخلى عنه جريا خلف بعض الذين يريدون أن يفصلوا مصر عن هذا المجتمع الدولى العظيم ، الذى تربطنا به اللغة والدين والعادات والماضى المشترك .. والذى تربطنا به أخيرا رابطة المصلحة الشخصية لمصر .. وليس يعنى هذا أن لانتغل التراث الفرعونى في الوقت ذاته ، فنفخر به ونزكى به إيماننا وثقتنا بأنفسنا ونتخذة مظهرها من مظاهر العزة والقوة ! .

وهكذا توالى عدة مناظرات في أمكنة مختلفة ، وكنت أخرج في ختام هذه المناظرات منتصرا وحاصلاً على أغلبية رأى العام ولقد حددت بهذه الانتصارات كما قلت وجهة نظرى في مختلف الشئون العامة تحديدا نهائيا ..

## مشروع القرش

٣

كان المتفق عليه أن نبدأ كفاحنا السياسى حالما أنتهى من الدراسة ، وأصبح طليقا من الدرس والامتحانات ، ليكون الإنسان متفرغا للكفاح أولاً وأخيراً .. وكنا فى ذلك الوقت نعيش فى ظل عهد لايسمح للطلاب بالاشتغال بالمسائل السياسية ، وأعنى به عهد وزارة إسماعيل صدق باشا ومع ذلك فقد بدأت أشعر برغبة قوية فى العمل ، وفى عمل ضخم يهز كيان الأمة هذا ، ويمهد السبيل لخطواتنا النهائية ، فإذا بفكرة مشروع القرش تخطر لى ! . وسرعان ماشرعت فى تنفيذها ..

كانت مصر فى هذه الأيام تعاني أزمة اقتصادية مخيفة ، فقد هبطت أسعار القطن وأصبح لايجد مشتريا ، وفى وسط ذلك اختل الميزان التجارى ضد مصلحة مصر اختلالاً لاعهد لها به من قبل ، وأصبحت الأزمة والشئون الاقتصادية هى مايشغل بال كل مصرى ، وزاد هذا التدهور السريع الارتباك فى مالية مصر واقتصادياتها ! . وأصبح لامناص من مراجعة الموقف الاقتصادى برمته .. وقد تجلى خطر اعتماد مصر على الزراعة فقط وزراعة القطن بصفة خاصة .. كما تجلى خطر اعتماد مصر اعتمادا كليا على أوروبا فى كل ماتحتاجه من مصنوعات ، ومن هنا فقد أدركت أن أكثر ماتحتاجه مصر وسط الظروف المختلفة التى تحيط بها ! هو العمل على إيجاد الصناعات بها ، ونشر روح الصناعة الوطنية فى كل مكان .. ولما كانت الصناعة تحتاج إلى رؤوس أموال ، لم أشأ أن تجمع رؤوس الأموال من بضعة أفراد ، بل رأيت أن مما يحقق غايتنا بكاملها أن يساهم الشعب مجتمعاً فى إنشاء هذه الصناعات القومية ليظل حريصاً على تشجيعها فيما بعد ، ويسمح لنا أثناء جمع هذه الاكتسابات الصغيرة أن نلقن أبناء الشعب دروساً فى التعاون والاعتماد على النفس ، ونشر الدعوة للصناعات المصرية .. وأخيراً سوف يكون لنجاح مثل هذا المشروع ، وقيام مصنع من المصانع بأموال الشعب ، أكبر الأثر بإحساسه بقوته إذا ماتعاون وتضامن .. وهذه كلها هى المعانى التى صبغتها فى شعار مشروع القرش وقتذاك « تعاون وتضامن فى سبيل الاستقلال الاقتصادى » .

وكان اختيار وحدة الاكتاب بعد ذلك أمرا سهلا ، فقد جعلته قرشا حتى يسهل على كل فرد دفعه .

ولست أريد الآن أن أذكر تاريخ الجهود التي بذلت في سبيل تحقيق هذا المشروع ، ولكنني لا أستطيع أن أنسى كيف قوبلت بالسخرية في بادئ الأمر ، بدعوى أن المشروع ليس إلا حلما من الأحلام ، أو خيالا من الخيالات .. حتى إن المحرر (في جريدة الأهرام) الذي حملت إليه فكرة المشروع مسطورة ، رمى الورقة في وجهي قائلاً لي : إن هذا (لعب عيال) .. وبعد أيام قلائل قيل لي من محرر آخر : إن كرامة الجريدة لا تختمل نشر هذه السخافات ! ولقد كان هناك ألف عقبة وعقبة في طريق المشروع ! .. أقلها قيام الحرب الحزبية في مصر على أشدها وقتذاك وتربص كل جانب بالآخر .. وكانت هناك رقابة وزارة المعارف الشديدة التي لا تكاد تسمح لطالب بكتابة كلمة في إحدى الجرائد .

وكان المشروع يبدو بذلك مستحيلاً .. وأحيانا مضحكاً .. فقد قال فيه بعض القانونيين كلاماً طويلاً عريضاً ، عندما بدأنا نشاطنا ، وبدأ المشروع يطرق الآذان .. فما كنت تسمع إلا اعتراضاً ، وسخرية ، في كل مكان ، في الجامعة وسط صفوف الطلاب ، وفي الشارع ، وفي النادي .. ولكن الله سبحانه وتعالى وفقني توفيقاً عجبياً إذ هداني إلى سعادة على باشا إبراهيم ليكون رئيساً للجنة التي تدرس الموضوع وتبحثه ، وكان هذا الاختيار بدء تطور جديد في حياة المشروع . فقد أسرع الصحافة لنجدته ، وأصدرت دار الهلال عدداً خاصاً من إحدى مجلاتها خصصت لإيراده للمشروع ، فجمعنا من هذا العدد ما يقارب الثلاثمائة جنيه مصرى فكان ذلك نواة لرأس مال المشروع ، واستطعت بهذا المبلغ أن أمضي حتى النهاية في إخراجه إلى حيز التنفيذ ، من حيث إعداد الطوابع اللازمة لجمع الاكتابات ، وعمل الشارات والصناديق ، والدعاية اللازمة في كل مكان .

نجح المشروع واهتزت له مصر من أقصاها لأقصاها .. ورأيت بعيني رأسي صورا ومشاهد جعلت الدموع تطف من عيني .. رأيت شباباً ينتسبون إلى الوزراء ، وإلى المستشارين ، وإلى كبار الأعيان ، يسهرون الليل وسط الصقيع ! كي يستلموا أعداد الجرائد وطوابع المشروع ليقوموا بتوزيعها في الصباح كباعة الجرائد ! .. رأيت شبابا يعملون واصلين الليل بالنهار لا يكلون ولا يملون .. يسافرون من الإسكندرية حتى أسوان ! . ليحملوا الطوابع والشارات وليتصلوا باللجان .. رأيت حولي عشرات

الآنسات وألوف الشباب . تلمع عيونهم ويهتفون بمجد مصر ويستعذبون العمل في سبيل استقلالها وتحريرها ! .. هذا هو نجاح مشروع القرش كما كنت أريد ، هذه هي المعنوية التي رغبت في إثارتها .! هذا هو الكسب العظيم الذي أفادته مصر من جراء هذا المشروع .. وعندما أقننا مهرجان المشروع في حديقة الأزبكية ، واكتظت الحديقة بما يزيد على خمسين ألفا من خيار الناس جاءوا كلهم ليحتفلوا برسالة التحرر الاقتصادي .. ولعلنا رغبتهم في أن يستقلوا بصناعتهم ، وأن لا يلبسوا إلا من صنع بلادهم ، وأن لا يأكلوا إلا من ثمراتها .. وقفت في ركن من الحديقة وكان قد مضت على عدة أيام لم أتم فيها وبضع عشرات من الساعات لم أذوق طعاما .. وقفت في ركن من الحديقة محتبثا عن الناس ! . وقلبي ينبض بشدة والدموع تذرف من عيني ! . وأنا أقول بصوت مرتفع .. هذه هي .. هذه هي روح مصر الفتاة التي أنشدها . ٧

\* \* \*

كان النجاح المادي في مشروع القرش أقل بكثير من نجاحه المعنوي ، فلم يزد المجموع عن سبعة عشر ألفا في العام الأول ، وثلاثة عشر ألفا في العام الثاني .. ولكنني مع ذلك شرعت في العمل حتى أحقق ما وعدت الناس به . وكانت الصناعة الوحيدة التي استهوتني منذ أمد بعيد ، هي صناعة الطرايش .. فالطربوش هو شعار مصر القومي ، ولقد كنت أشعر دائما بالمهانة إذ كان شعارنا الوطني أجنيا تنسجه لنا بلاد أخرى لا تلبس الطرايش ، فتقوم بحياكته ، كما تقوم مصانعها الأخرى بعمل الزجاج الملون . والعقود البراقة ، لتباع في أواسط أفريقيا وآسيا ! . وكانت لمصر صناعة عريقة في الطرايش إبان محمد علي وإسماعيل ! . بل وكانت لمصر صناعة الطرايش في مدينة قها ، فتدخل الأجانب وحطموا هذه الصناعات المصرية ! . فرغبت في أن أثار لمصنع قها ، وأن ألبس كل مصري طربوشا من صنع بلاده ! . ولقد كان التفكير في إنشاء مصنع للطرايش بهذا المبلغ الصغير ، أي بسبعة عشر ألفاً من الجنيهات ، يعتبر أمرا جنونيا ، ومع ذلك فقد قررت أن أمضي في الموضوع حتى النهاية .

كان أول عقبة صادفتها في هذا السبيل ، هو تنحي سعادة طلعت باشا حرب عن العمل معنا لتحقيق المشروع ، فقد رأى أنه من المستحيل إنشاء مصنع الطرايش ، واستدعاني في يوم من الأيام إلى مكتبه وسلمني ملفا (دوسيا) يتضمن مجهودات البنك ومساغيه لإنشاء مصنع للطرايش ، وأخبرني كيف أن بنك مصر

بكل حوله وطوله ، قد عدل عن تنفيذ الفكرة لصعوبتها ، وخوفاً من المنافسة الأجنبية القائلة ! . فصناعة الطرايش كانت في القديم احتكاراً نمسولاً ، ثم أصبحت احتكاراً تشيكوسلوفاكياً بعد أن تحولت مصانع النمسا القديمة إلى سيادة تشيكوسلوفاكيا ، وهذه المصانع من القوة وضخامة رأس المال والاقتدار الفني ، بحيث لا يمكن مقاومتها بحال من الأحوال . ولكن هذه الصعوبات لم تؤثر في تصميمي ، لأنني لم أكن من رجال الصناعة أو المال الحسن الحظ ، ولكنني كنت صاحب فكرة معنوية وصاحب الفكرة لا يعبأ بالصعوبات .. فافترقنا أنا وطلعت باشا حرب مختلفين في هذه النقطة ، ولكن الرجل تمنى لي النجاح والتوفيق في مهمتي وأعطاني (الدوسيه) الخاص بصناعة الطرايش لأنتفع به في محاولتي ..

وقد يدهش كل إنسان أن يتصدى طالب مثلي في كلية الحقوق ، ويأخذ على عاتقه إنشاء مصنع للطرايش وهو الذي لا يعلم من أمر الصناعة شيئاً ! . ولكنه الإيمان .. ولكنه العزم والتصميم .

وسرعان ما جاءت الحوادث والأقدار لنجدتي ، فقد تقدم إليّ مهندس ألماني يسمى (فورهانز) وأخبرني أنه أطلع في الصحف الأفرنجية على تفكير جمعية القرش في إنشاء مصنع للطرايش ، وأنه مستعد لأن يقدم مشروعاً وعطاء كاملاً على إنشاء مصنع للطرايش بالمبلغ الذي جمعناه من المال ! فناشدته على الفور أن يفعل . انصرف من عندي واعدأ إياي أن يرجع إليّ بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع ، ولقد عاد بعد الموعد المضروب وهو يحمل في جعبته مشروعاً كاملاً لإنشاء مصنع للطرايش ، وراح يعرض على الرسوم ويعرض على صور الماكينات ، ويعرض على فوق ذلك كله تعهد الشركة أن تنتج لنا طرايشاً كأحسن طرايش في السوق المصرية ! وأن لا تأخذ ثلث المبلغ المستحق لها من ثمن الآلات إلا بعد أن تنجح في إنتاج طرايش كالعينة المتفق عليها ، وأنها على استعداد لأن ترسل الخبراء الذين يتولون إنشاء المصنع وتعليم العمال المصريين إنتاج الطرايش . ولم تكن الشركة في نهاية الأمر تطلب ثمناً لآلاتها وماكيناتها أكثر من بضعة عشر ألفاً من الجنيهات . كان ذلك المشروع المقدم من هذه الشركة الألمانية المسماة « هارتمان » بمثابة نجدة إلهية لي ، فقد عزز وجهة نظري في إمكان إنشاء مصنع للطرايش ! . وبعد أن كنت أدعو لهذا المشروع على غير أساس وهدي ، أصبح تحت يدي مشروع كامل أستطيع أن أتحدى به كائنات من كان ...

ولكن الشركة التشيكوسلوفاكية راحت من ناحيتها تعمل لإحباط المشروع ! فأوفدت

مندوبين لها في مصر سعوا لمقابلة رئيس الحكومة المصرية وكان في ذلك الوقت هو إسماعيل صدقي باشا ! . وأقنعوه بأنه من العيب أن تفكر بهذا المال التافه في أن ننافس شركتهم العتيقة ! . واقترحوا عليه أن يقنعنا بالعدول عن إنشاء مصنع للطرايش في مقابل أن يساعدونا في إنشاء مصنع لعمل البطاطين ! .. وأن يقدموا الآلات اللازمة لهذا المصنع بالجنان ، ولقد كان هذا عرضا مغريا جدا ، جعل رئيس الحكومة يستدعى مصطفى بك الصادق مدير مصلحة التجارة والصناعة وقتذاك ، ووكيل مشروع القرش ، ويطلب منه العدول عن إنشاء مصنع الطرايش ، والاتفاق مع الشركة الأجنبية . !

وقد حمل مصطفى الصادق بك هذا الرأي إلى مجلس إدارة المشروع ، وكادوا يوافقون عليه لولا اعتراضى واحتجاجى الذى لم يفلج وقتها إلا في تأجيل إصدار القرار النهائي ، لمدة أسبوع واحد ... فأسرعت في اليوم التالى إلى مقابلة صدقي باشا رئيس الوزراء ، لأقنعه بأن لا يقف في وجه هذا المشروع الوطنى . بل ينبغي عليه أن يشجعه ويعاونه باعتباره حامى النهضة الصناعية في مصر ! . فأصغى الرجل لآرائى وأفكارى ، وتأثر بجماسى للمشروع ، فأعطانى موافقته الكتابية على المضى في إنشاء مصنع الطرايش . ! ولقد كان هذا أعظم نجاح لى في وجه أعضاء مجلس الإدارة الذين دهشوا كل الدهشة لتوفيقى فى الحصول على هذا التأييد من ناحية صدقي باشا .

وهكذا لم تستطع الشركة أن تنجح في هذا المضمار ، فرأت أن توجه مجهوداتها نحوى شخصياً ، فدعنتى للمفاوضة معها وراح مندوبها يساومنى ويفرغنى بالعدول عن إنشاء مصنع الطرايش في مقابل أن تقدم لنا الشركة مصنعا للبطاطين ! . وتتولى هى نفسها إنشاء مصنع للطرايش في مصر ، وتجعل منى مديرا لكلا المصنعين .. ولكنى احتقرت هذه المساومة وأعلنت أنني ماض فى تنفيذ المشروع بالرغم من أنف الشركة وبالرغم من أنف محاولاتها الشائنة ، ولقد مضيت بالفعل .. وليس يتسع المجال الآن لذكر كل التفاصيل وكل الصعوبات والعقبات التى اعترضت طريقى فى كل خطوة ! . والمهم أنه جاء اليوم الذى وضع فيه حجر الأساس لإنشاء مصنع الطرايش بشارع برج الظفر فى حفل رائع تجلت فيه حماسة الشباب وروعة انتصاره ! .

\* \* \*

وقد تم التعاقد مع شركة هارتمان الألمانية على توريد الآلات اللازمة . على أن مصاعبنا لم تنته عند هذا الحد ، بل إنها بدأت بصورة عنيفة ، فلم نكد نفرغ من التعاقد



مع الشركة المذكورة حتى فاجأتنا بعجزها على المضي في تنفيذ المشروع ! . بحجة أنها كانت تعتمد في تنفيذه على خبير تشيكوسلوفاكى . وقد سعت الشركة التشيكوسلوفاكية المنافسة إلى هذا الخبير وأغرته بالمال ، حتى حملته على التخلي عن العمل مع الشركة الألمانية ! ..

وكان معنى ذلك انهيار آمالى وأحلامى فى إنشاء مصنع الطرايش ! . ولكنى لم أضع اليأس يتغلب على ، وسعيت إلى وزير المانيا المفوض فى مصر بصحبة سعادة على باشا إبراهيم رئيس المشروع واحتججنا لدى الوزير على موقف الشركة ، وأفهمناه أن ذلك التراجع من ناحية الشركة عن تنفيذ تعهداتها سيضر بسمعة المانيا فى مصر ! . بل وفى الشرق كله ، فاهتم الوزير اهتماما عظيما بالموضوع ، وكتب لوزارة الخارجية الألمانية طالبا منها التدخل ، وانتهى الأمر بأن عادت الشركة الألمانية لتنفيذ تعهداتها وأعلنت من جديد استعدادها لتوريد الآلات اللازمة بعد ستة أشهر ...

ومضت الأشهر ووصلت الآلات أخيرا وارتفع بناء المصنع شاهقا أنيقا جميلا ذا طراز فرعونى بديع ! .

وتم تركيب الآلات ، وجاءت اللحظة الحائلة التى قررنا فيها إدارتها لأول مرة ! . ولقد مضت على هذه الذكرى الآن سنوات وسنوات ومع ذلك فإزلت أتمثل هذه اللحظة الرهيبة التى شعرت فيها بقشعريرة الانتصار ! . مازلت أسمع أصوات الماكينات تدوى بين جدران المصنع والصوف يأخذ طريقه من آلة إلى أخرى ، لإخراج أول طربوش مصرى صنعته الإرادة المصرية والإيمان المصرى ! . ومازلت أحس بحرارة الدموع التى سالت على وجنتى فرحا وابتهاجا وإذن لم أكن عابثا ولا ماجنا ... لم أكن خياليا ولا معنويا ! وإنما كنت مصرىا مؤمنا ، عرف كيف يحول إيمانه إلى عمل فانتصر ، وانتصرت مصر كلها ، وراحت تكلل رؤوسها بهذه التيجان المصرية الصميمة ، وأثبتت للدنيا أن العامل المصرى لا يقل اقتدارا عن أى عامل أوروبى ، وأثبتت للدنيا أن الإرادة المصرية تستطيع أن تتغلب على كل شىء متى صدق العزم وخلصت النوايا ! .

## نص الخطاب

### الذى ألقى في حفل وضع حجر الأساس لمصنع الطرايش

سيداتي وسادتي . إخواني وأصدقائي :

سمعتم منذ لحظات سعادة رئيسنا يلقى كلمة الجمعية الرسمية ولن أعود فأحدثكم عن ماهية مشروع القرش وتاريخ نشأته ، والأطوار المختلفة التي مر بها .

فلقد عدّدت لكم الأشخاص الذين هم جديرون بشكرنا وتقديرنا ، فلم يبق لدى ما أقوله من هذه الناحية ، الا أن أحدثكم عن مصنع الطرايش بالذات ولماذا اخترناه دون سواء من المشاريع الأخرى ، وما هي قدرته على الإنتاج الى آخر هذه المعلومات التي يهم الرأي العام الوقوف عليها . على أنني في حديثي أيها السادة لن أكون إلا كما أنا ، بصفتي الشخصية شابا عاديا من شباب مصر الفتاة ، أو بالأحرى متطوعا من متطوعي القرش صريحا بكل ما في الشباب من صراحة وجراءة ، متفائلا بقدر ما في الشباب من إيمان وأمل .

نتساءل أيها السادة : لماذا اخترنا الطرايش لتكون أول صرح من صروح القرش ؟ أو بمعنى أصح : لتكون أول حجر في بناء استقلالنا الاقتصادي ، الذى يسعى لأجله مشروع القرش ؟ هل كنا في ذلك نطبع عاطفة فحسب أم أن ذلك كان نتيجة تفكير وإيمان ؟ . الحق أيها السادة أن الأمر لو كان وحى عاطفة لكان ذلك وحده سببا كافيا للبدء به فالعاطفة هي كل شيء في حياة الأمم ! وما الاستقلال والمجد والعزة إلا مجموع عواطف الشعب ! متخذة هذه الصور المادية .. أو ليس من العار أن شعبا ناهضا مجاهدا يصاغ له شعاره القومى في الحاجج ؟ في بلاد لا تعرف الطربوش ولا يلبسه أهلها . والله لو لم يكن هناك إلا هذه الفكرة تحفزنا لإنشاء مصنع طرايش لكنى بها مبررا ، فما بالكتم وقد تضافرت الظروف والحشيات لتدفعنا في هذا التيار .

فقد خرجنا من موسمنا أيها السادة بسبعة عشر الفا من الجنيئات لا أكثر ، وهذا المبلغ لا يصلح لصناعة لها قيمتها سوى الطرايش فقبل الجمع كنا فكرنا في إنشاء مصنع (للبلد) الصوفية ولكن المبلغ الذى حصلنا عليه لا يحقق هذه الغاية التى تحتاج إلى أموال طائلة ، وكانت هناك غير صناعة الطرايش صناعات عدة صغيرة يمكن اعتمادها على هذا المبلغ مثل صناعة الالبان أو السجائر على أن مثل هذه الصناعات موجود بالفعل في مصر يقوم به مصريون ، ويشرف عليه مصريون ، وما كان مشروع القرش ليبدأ برنامج أعماله بمنافسة المصريين ، وهكذا ترون أننا كنا محكومين بالظرف المالى لإنشاء مصنع للطرايش . وتلفتنا في عالم الصناعات المصرية فإذا بنا قد وضعنا الأسس في مختلف صناعات النسيج والغزل الا صناعة الصوف وغزل الصوف ، فكان علينا أن نبذل جهدا لسد هذا

النقص بإنشاء صناعات الصوف ، وصناعة الطرايش ليست الا فرعا من صناعة الصوف تعتمد على غزله ، هذا الغزل الذى يمكن استغلاله فى الوقت نفسه فى صناعة البذل والبطاطين والصدارى والجوارب الخ هذه الصناعات الهامة

واذن فقد انتصرت صناعة الطرايش أيضا على غيرها من حيث أنها خطوة فى سبيل صناعة من أهم الصناعات .

على أننا نتساءل فى النهاية : هل هى عملية مريحة بقدر ما هى هامة ، فإذا أقدمنا عليها جمعنا بين الغاية القومية والربح ؟ فكان جواب التساؤل غريبا ! . لأن المباحثات انتهت إلى أن الطربوش بسعره الحالى يزيد أضعافا مضاعفة عن تكاليف انتاجه ، وما ذلك الا نتيجة الاحتكار وأهواله .

وصناعة الطرايش بعد كل هذا أيها السادة ليست بشيء ذى بال أو هى سر من الأسرار ، بل هى صناعة من صناعاتنا التى مارسناها وتمارسها بنجاح غريب ، فنذ نيف ومائة سنة أوجد محي مصر الحديثة محمد على باشا صناعة الطرايش بنجاح ، واتخذ مقرا لها مدينة قوة ، وقد قيل لى إن السائر الى هذه المدينة يرى آثار المصنع العظيم . ولقد عفت كل الصناعات التى أوجدها محمد على باشا تقريبا إلا صناعة الطرايش ، فقد ظلت حتى اليوم وحتى الساعة قائمة رغم كل شيء ، ولعل هذا يدهشكم بل لا يكاد يصدق ، ولكنها الحقيقة ، فصناعة الطرايش موجودة فى القلعة منذ عشرات السنين ، تعمل بدون انقطاع لسد حاجة الجيش والبوليس من الطرايش ، أى تنتج ما يزيد على مائة ألف طربوش سنويا ، وهى كمية لا يستهان بها بالنسبة لاستهلاك مصر العام . ولا تحسبون أن طرايش القلعة لاقيمة لها ، أو أنها ليست جيدة ، فسترونها رأى العين بعد قليل فى مصنعنا الصغير وعندها ستعرفون الحقيقة الجميلة وهى أن العامل المصرى يتج طرايش جيدة على بعد خطوات منكم ولولا أنهم فى القلعة يستخدمون صوفا غير جيد ليلاثم حاجات الجيش لكأن طرايشهم من أرفع درجة لا تكلفهم إلا بعض قروش قلائل .

وقبل الحرب العظمى أنشأ سعادة إسماعيل باشا عاصم مصنعه فى مدينة قها ، هذا المصنع الذى أمد مصر بكل ما تحتاجه من طرايش فى سنى الحرب ووصل فى نهاية الأمر إلى درجة عظيمة من الإتيان بشهادة الجميع .

وكأنى بكم تتساءلون : لماذا أغلق هذا المصنع العظيم ؟ .. كيف يقضى عليه هكذا بعد أن كان ناجحا موفقا ؟ فأقول لكم إنه كان ضحية منافسة غير شريفة فى وقت كانت فيه الأمة حكومة وشعبا عاجزة عن حاية صناعاتها ، فباتهاء الحرب وعودة المياه إلى مجاريها نزلت الصناعات الأجنبية الى سوق الطرايش المصرية بجيلها ورجلها لتقضى على المصنع الوطنى فأخذت تصرف وتصرف وتوزع النقود فى كل مكان ، وتبيع الطرايش بأسعار غير معقولة لأنها تنقص عن تكاليف الإنتاج . وبالاختصار أنها لجأت إلى سياسة الاغراق فى أبشع صورها ، حيث لا تستطيع الضرائب أن تحم من قوتها أو تحفف من هولها وظل إسماعيل باشا عاصم وسط العاصفة يخسر ويخسر ! . ولكنه ما كان يقوى على الاستمرار طويلا ، وهو رجل فرد وهذه الشركات أقسمت أن تقضى عليه بأى ثمن ! فبدأ

المصنع يعاني الآلام ! وهنا تقدم السادة الغزاة للرجل وعرضوا عليه الشراء فباعه لهم وهو مرغم على ذلك ومن خلفه أمة تندب حظها العاثر الذي جعلها تسقط هكذا فريسة المنافسة الأجنبية ! واليوم لا يوجد مصرى واحد لا يعرف هذه القصة . يبيع المصنع وحطمت آلاته تحطبا وسمح لى صاحبه أن أزوره ، فذهبت لأرى أطلالا بالية ، وبقايا أخشاب وأنقاض تتحدث عما كان لهذا المصنع من صولة وجولة فيها مضى !

هل تريدون الحق أيها السادة ، لقد خرجت من زيارتي لمصنع قها وأنا أقسم أن أجاهد وأجاهد لإعادة هذه الصناعة ، لا لشيء الا لتأثر الكرامتنا الاقتصادية التي امتنت امتنانا ، بحيث باتوا يضربون المثل بمصنع قها ويذكرون قصته ليستدلوا بها على أن المصريين لا يفلحون في الصناعة ، هذه العوامل مجتمعة من قومية ومالية واقتصادية وتاريخية ، هي التي حدث بنا كما قلت لكم الى العمل على إنشاء مصنع للطرايش ، وعرف الرأي العام ذلك منا فقابلته بالتهليل والترحاب فازددا بذلك قوة على قوة ، ومضينا في عزمنا لا نلوى على شيء ، ولا شك أنه قد وصل إلى علمكم جميعاً صعوبة المهمة التي أخذناها على عاتقنا والعقبات الجسام التي تعترض طريقنا ولكننا عازمون على السير إلى النهاية رغم كل شيء وسنجاهد ونجاهد ، حتى نقيم المصنع كاملا وعندها نكون قد قمنا بواجبنا وأرضينا مصر وكرامة مصر .

سنجاهد أيها السادة ونفتح المصنع ، إن وفقنا الله ، وسوفقنا لأننا مخلصون ثم نسلمه ودعته لكم ، والكلمة يومئذ أيها الشباب لكم ، ولكنني أعرفها سلفاً ، وهذا ما يجعلني واثقا من المستقبل ثقتي بوجودكم الآن . إنها كلمة سيسجلها لكم التاريخ انها كلمة العزة والفخار والمجد ، سوف تخلعون عن رموسكم طرايشهم ولو كانت أكثر أناقة وأرخص ثمناً ، لتلبسوا طرايش الوطن ! وسينظر لكم العالم في يقين وإعجاب بأن مصر قد بعثت من جديد فتية قوية ذات عزم ونبوغ

أما مصنعنا أيها السادة وقدرته على الإنتاج فسيخرج لكم طرايشا تضارع أحسن ما تلبسون ولكن ذلك لن يجيء طفرة واحدة ، وإن كان لن يتأخر كثيرا ، وسيكون الطربوش رخيصا جدا يضمن لتجار الطرايش ولكم ربحا ووفرا عظيمين . وسيكفي المصنع حاجة القطر كله من الطرايش وذلك بأن ينتج ألف طربوش يوميا أى ثلاثمائة ألف طربوش في السنة أى ما تستهلكه مصر في الوقت الحاضر ، أما قبل سنة ١٩٣٠ فقد كانت تستهلك ضعف هذه الكمية ، فإذا فرض وعادت المقطوعة الى سابق عهدها فما على مصنعنا الا أن يشتغل طريحتين بدلا من واحدة فتضاعف كمية الإنتاج بحيث يكون هناك مجال لتصدير الطرايش إلى الأقطار الشقيقة ، سوريا وفلسطين والهند التي يسرنى أن أصرح لكم أنها تنتظر طربوش القرش بحماسة لا تقل عن حماستنا ولا عجب فنحن وهم أمة واحدة ، تربطنا اللغة والثقافة والدين ، والأمانى القومية . ثمة سؤال هام يتردد على الأفواه دائما ويوجه إلى أينما ذهبت ألا وهو ماذا يكون الحال لو عدل المصريون عن لبس الطربوش الى القبعة ؟ . وليس الآن مجال التفاضل بين القبعة والطربوش ، ولكنني أطمئن هؤلاء المتسائلين ، فحتى في مثل هذه الساعة لن يخسر مصنعنا شيئا ، بل سوف يستطيع أن يساير التطور الجديد .<sup>(١)</sup>

(١) ينتج مصنع الطرايش في الوقت الحاضر أجود أنواع (البيريات)

هذا هو مصنع الطرايش أيها السادة الذى عزمنا على إقامته والمسألة الآن مسألة زمن فكل شيء يسير أحسن ما يكون السير الوئيد الحكيم ، وبعد أشهر قلائل لا تتجاوز الستة ترينون رعوكمم بتيجان القرش ، وتجنون ثمار التعاون والإخلاص والعزيمة ، كل هذا بقرش كما يقول لكم رئيسنا فهل تبخلون على مصر بقرش آخر ، وهلا ترون أنها صفقة رابحة أن نشترى استقلالنا الاقتصادى بقرش فى كل سنة ستجيثكم جموع الشباب فى مثل ميعادها من السنة الماضية تجمع قرشا جديدا لنشئ به صرحا جديدا ، سوف يجيئونكم ولكن فى نظام وتجربة وسط مهرجانات عظيمة واحتفالات قومية ! وستضعف قوانا علنا نحقق حلمنا الجميل ألا وهو إنشاء مصنع للبدل الصوفية أو أى صناعة أخرى من هذه الصناعات التى تؤثر تأثيرا كبيرا على حياتنا الاقتصادية !

سادق - فى نفسى آمال وأمانى تريد أن تنطلق ولكنى أحبسها على الرغم منى لأنى أريد أن نعمل وأن نترك الكلام إلى العمل . أريد أن أحدثكم عن مشروع القرش ومستقبله ولكنى أترك ذلك لكم وأهيب بإخوانى للعمل ، ولنعمل فى صمت والله معنا .

ولست أغادر هذا المنبر قبل أن أرسلها صرخة من روحى وقلبي ونفسى تنفذ إلى قلوبكم وأرواحكم . أى إخوانى الشبان لقد فكرتم فى مشروع القرش ونفذتم - مشروع القرش وأعددتهم برنامج القرش ، ولا يزال أماننا للوصول لغايتنا شوط طويل لكى نقطعه . نحن فى حاجة الى جهود .. وجهود جبارة . بل نحن فى حاجة الى ما هو أكثر من الجهود نحن فى حاجة الى الإيمان والتضامن .. إيمان بحقنا وعزمنا .. إيمان بأننا أقوام علموا الإنسانية فى أيامها الخوالى وأخذوا بيدها من الظلمات إلى النور ! . وأننا على استعداد لتعليمها ثانية ، إيمان بأننا قادرون فنقدر .. وأننا فاعلون فنفعل .

ونحن فى حاجة الى التضامن كحاجتنا الى الإيمان فلتضامن ولتتحد جميعا تحت راية واحدة ، ولنعمل بفكرة مشتركة لغاية جلييلة . فلنحب أنفسنا فلا نكون حرباً عليها بأفعالنا ، وليحب بعضنا كإخوة أشقاء ، ولنحب مصر بتقديس وإجلال ، ولنفكر دائما فى إسعادها ، وليكن كل جهد نبذله فى سبيل مجدها وهنائها .

ووالله لئن فعلنا هذا ، بأن آمنا وتضامنا ليكون مستقبلنا جليلا ورائعا لنخلق فى سماء المجد ، ولنشرق على العالمين من جديد .

إلى الأمام إذن أيها الشباب .. إلى الأمام بعزم ويقين وثبات فرحين طروبين مخلصين إلى الأمام متحدين متضامنين ... شعارنا الله والوطن والمملك .

وإيماننا أن مصر فوق الجميع .

## جمعية مصر الفتاة

### ٤

إلى هنا كان مشروع القرش قد نجح وحقق كل أغراضه فقد أثمرت دعاية الشباب الاقتصادية فاندفع المصريون يشجعون كل ما هو مصرى ويقبلون عليه وتعددت المصانع في مصر والتي قام بإنشائها الأفراد والشركات المصرية .

وأثبتنا للناس أن العمل في تعاون وصبر وثبات يؤدي إلى النجاح ، فقد وجدوا قرشهم الصغير يشيد مصنعا ويلبسهم طرايش وطنية .. على أن النجاح المنقطع النظير هو هذه اليقظة التي شملت صفوف الشباب فتعددت الجمعيات وكلها قد اتخذت من مشروع القرش ومن مثاله قدوة وطريقا للعمل ، فتألفت جمعية القرى لمحاربة الأمية ، وأنشئ عيد الوطن الاقتصادي ، وغيرهما وغيرهما من عشرات الجمعيات والمشاريع التي أقدم عليها الشباب في ثقة وعزم ونجاح بعد تحقيق مشروع القرش . بل لقد تجاوز نجاح مشروع القرش الحدود المصرية فنسج السودانيون على منواله وكذلك جميع البلاد العربية ، ولا يزال جمع القروش عن طريق الطوايع هو الأسلوب المتبع في كل العالم العربي في جميع مشروعات البر والإحسان .

وكان من تأثير مشروع القرش أن استيقظت في نفوس الشباب كل عناصر القوة والطموح والرغبة في العمل .. وهؤلاء الذين عملوا معي طوال عامين في مشروع القرش بدأوا يفهمون إيمانى الكامل ورسالتى المقبلة ، فاذا بي لم أكد أخرج من الكلية متا تعليمى العالى ، حتى رأيتهم يتطلعون إلى ويطالبوننى بخطوطى الثانية ، وأعنى بها تأليف ما حدثتهم عنه وما وعدتهم به ، وهو جمعية مصر الفتاة . ولما أيقنت بالعزم منهم جمعتهم في إحدى الليالى وسألتهم ، هل هم مستعدون حقا لبدء النزال ، فأقسموا جميعا على استعدادهم فأندرتهم أن سوف تقابلهم عقبات وسوف تتزلزل الأرض تحت أقدامهم وسوف تهاجمنا الأحزاب وسوف تهاجمنا الحكومة وسوف يكون أمامنا كفاح طويل .. ولست أدري هل كانوا يصدقوننى ساعتئذ أم أنه قد خيل لهم أننى أختبر شجاعتهم فقد اتفقوا جميعا على الهزء بهذه المصاعب ، بعد أن تعلموا في مشروع القرش كيف تكون الغلبة على المستحيل .

وإذن فقد عدت إلى بيتي وجلست أكتب برنامج الإحياء ووسيلته ، جلست أستجمع كل ما أشعر به في نفسي من إيمان وعزم وأمسكت بالقلم وكتبت كل ما جرى به القلم على القرطاس ، فكان ذلك برنامج مصر الفتاة الأول .

وعدت إلى إخواني وزملائي فوقوا على هذا البرنامج الذي وضعته لمصر الفتاة في الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٣ وكان الموقعون عليه لا يزيدون عن الاثنى عشر . ورأيت أن تكون الصرخة هي لسان حال هذه الحركة ، وهي التي جرى على صفحاتها الأعداد الأولى أول آمالي في مصر الفتاة . رأيت أن تكون الصرخة وهي التي أسميتها بهذا الاسم منذ أربع سنوات معبرة عما في نفوسنا من إيمان وما لنا من برنامج فبحثت عنها حتى وجدتها ، في حوزة شخص غير صاحبها القديم . فكتبت معه عقدا بمقتضاه يضع الجريدة تحت تصرفنا مقابل إيجار معلوم ... وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٣ وعلى صفحات العدد الثالث من الصرخة أعلننا برنامج جمعية مصر الفتاة ، وهكذا بدأ الفصل الأخير أو بالأحرى بدأ الفصل الأول من جهادي في سبيل تحرير أمتي ووطني وتحقيق المجد لبلادي . فلم يكن كل الذي مر سوي تمهيد لهذه الخطوة الأخيرة التي كانت تجول في فكري وقلبي منذ أمد بعيد . وقد قدمت البرنامج بنداء دعوت فيه إلى عشر سنوات من الإيمان والعمل وإني إذ أعيد نشر هذه الكلمات بعد اثنتي عشرة سنة من هذا التاريخ ، أشعر بالشوط الكبير الذي قطعناه والذي بقي علينا أن نقطعه .

وإذ أستعرض الحوادث الكثيرة التي مرت بي منذ ذلك اليوم لا أجد حادثاً واحداً لا يؤكد إيماني بكل الحقائق التي قدمتها لك ويدفعني إلى الأمام دائماً .. فنذ اثنتي عشرة سنة ونحن نتطور ونسير دائماً من فوز إلى فوز ومن نجاح إلى نجاح .. ودائرة مصر الفتاة تتسع أكثر فأكثر .

واليك نص برنامج مصر الفتاة في صورته الأولى وما صدر به من نداء

## نداء

يا شعب مصر

أيها الشعب الذي صاحب الزمن ... يا أعبد شعب في الوجود وأعظمه ... لقد حانت ساعة اليقظة ... لقد حانت ساعة العمل ... بل لقد حانت ساعة الجهاد ... وهذه هي مصر الفتاة تتقدم إليك لتجاهد عنك ولتدود عن حياضك . ولترفع صوتك ولتطعم جائعك . ولتعلم جاهلك ولترد عليك كرامتك . ولتعيد إليك سابق مجدك .

يا شباب مصر

لقد طال ما رقدنا وها نحن أولاء قد صبحونا ... لقد طال ما أهملنا وها نحن أولاء قد حرصنا .. لقد طال صمتنا وها نحن أولاء قد تكلمنا وإذن فليكن صوتنا مدويا ولتكن صرختنا من الأعماق . وليكن إيماننا جبارا يدك الجبال . وليكن شعارنا مصر فوق الجميع .

إن الأجنبي يغزونا ويسدون علينا طريق الحياة ... والاحتلال قطع أوصالنا وحرمنا السودان ... والأمية والجهل يخنان على سوادنا ويملان القلوب حيرة وظلاما ... والأزمة فتاكة تهلك الحرث والنسل وتسلبنا القوت والماء . ونحن في كل ذلك نلهو ونتخاصم .. ونحارب بعضنا حتى لقد سقطنا صرعى . ووقف العدو يشاهد كل هذا باسمنا ظافرا فخورا ... أنه تغلب على النسر المصري بأهون سبيل .

وواجب الشباب أن يصلح كل هذا ... وها نحن نفعل .. لسا نريد أن نتكلم كثيرا ولكننا ندعوا الشعب للإيمان بحقه وقوته وندعوه لعشر سنوات من الإيمان والعمل لله والوطن .. نابذا الخلافات الحزبية .. مهملنا ما اعتاد الناس أن يسموه سياسة .

ونحن نقدم اليوم عناصر هذا الإيمان ، وعناصر هذا العمل ، برنامجا معنويا زراعيا وتجاريا وصناعيا وعلميا واجتماعيا .. يتبسط حتى ليشمل أدق التفاصيل وما ذلك إلا ليكون السبيل واضحا وممهدا .. وهو ليس تفكير يوم وليلة ولكنه عمل خمس سنوات قضيناها في التحضير والدرس والإيمان .. والآن وقد خرجنا إلى ميدان الجهاد ، فنحن نعلن رسالتنا .. نعلنها لك يا شعب مصر ، ويا شبابها . دعوة بريئة مغلصة لا تتصل بشخص من الأشخاص ، ولا ترمى لغاية إلا لسعادة مصر ومجدها .. إنها دعوة صادرة من القلوب فلتنفذ إلى القلوب ، وهي صادرة من الأرواح إلى الأرواح فلا تسخروا منها إن لم تعاونوها ، ولا تحاربوها لأنها لم تمسكم بشر ، فهي عقيدة مغلصة مقدسة ، وستتصر في النهاية كما يتصر كل إخلاص وإيمان .. ستتصر بالرغم مما يوضع في طريقها من عقبات .. بالرغم من القوات التي ستحاربها .. بالرغم من القوات الهدامة التي ستكرس نفسها للقضاء عليها ...

سنتصر ، لأننا سنحتمل كل شيء من أجلك يا مصر .

ولأننا سنضحى في سبيلك يا مصر .. ولأننا سنموت وكلمتنا الوحيدة :

مصر فوق الجميع

أحمد حسين

الحامى



## برنامج مصر الفتاة ومبادئها

### إيماننا

مصر التي علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التي رفعت لواء الأديان جميعا وأعلنت كلمة الله والإسلام ، مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهمز ، لن تموت أبدا بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجا للشرق وزعيمة للإسلام ، وهي من أجل ذلك في حاجة إلى دم الشباب الملتهب . في حاجة إلى الإيمان والعمل ، في حاجة إلى نفر من بنينا يقابلون الموت ويستعدون الألم ويرحبون بالتضحية . وتلك صفات لن تتوفر في أبناء الجيل القديم .

### شعارنا

الله - الوطن - الملك

يجب أن نعبد الله ، وأن نعلي كلمته .  
يجب أن نقدر الوطن . ونفنى في سبيل مجده .  
يجب أن نعظم الملك ، وأن نلتف حول عرشه .

### غايتنا

أن تصبح مصر فوق الجميع . امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية وتترعّم الإسلام .

### جهادنا العام

- ١ - يجب أن نشعل القومية المصرية . ونغلا نفوسنا إيمانا وثقة واعتزازا .. ويجب أن تصبح كلمة « المصرية » هي العليا وماعداها فلغولا يعتد به . ويجب أن يؤمن الجميع بأن إرادة الشعب من إرادة الله ، وأن مصر يجب أن تصبح فوق الجميع .
- ٢ - يجب أن نضع الأجانب في مركزهم الطبيعي ضيوفا في مصر وليسوا أصحابها . وذلك يكون بإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة بحجة قلم ، وتمصير الشركات الأجنبية . وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الحياة التجارية . ويوم الجمعة يوم عطلة عامة . وعدم التصريح لأجنبي بمزاولة عمل في مصر إلا بتصريح خاص .
- ٣ - يجب أن يؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها . وأنه الحقيقة الوحيدة التي لم تبدل في العالم منذ ستة آلاف سنة . وهو الذي أبقي مصر نابضة قوية حتى اليوم . فيجب أن نعلم الفلاح :

. بأن نقضى على الأمية والجهل . ونرتقى بمعيشته . فنضمن له اليسر والرخاء ، ونحفظ له صحته .  
وندخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء النقي ! .

## جهادنا الاقتصادى

### في الزراعة :

- ٤- يجب أن نرتقى بالزراعة التى تكون ثروة مصر الحقيقية . فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها . ونزرع أراض جديدة . ونشق الترع ونشئ المصارف ، ونعمل المضاعفة الإنتاج أضعافا مضاعفة .
- ٥- يجب أن يعم نظام التعاود : كل مدينة وفى كل قرية ، بل وفى كل ضيعة . لإقراض الفلاحين وتوزيع البذور واستخدام الآلات وبيع الحاصلات وتنظيم المعاملات .

### في الصناعة :

- ٦- يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة .. فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا . وصوفنا . وكتانتنا . ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيماية والزراعية والحديدية .. ونمهدها لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة . وأن تتولد الكهرباء من خزان اسوان .
- ٧- يجب أن توضع الحماية الجبركية اللازمة لحماية المصانع الوطنية . وأن نختم الحكومة على موظفيها وعلى طلبة مدارسها أن تكون ملابسهم من المصانع المصرية . وأن تفضل الحكومة دائما المصنوعات المحلية مهما كان ثمنها مرتفعا .
- ٨- يجب أن ينشط استغلال الثروات المدفونة فى باطن التربة المصرية العظيمة ، فنستخرج البترول والحديد والذهب والنحاس وغيرها من المعادن التى تحتاج إليها الصناعات المختلفة . والتى توجد فى الصحارى المصرية العظيمة بوفرة .

### في التجارة :

- ٩- وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية . فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ، ولا نلبس إلا كل ما هو مصرى ، ولا نشترى إلا من مصرى . كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .
- ١٠- يجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية . وننتصل بدول الشرق القريب والبعيد لنحمل إليها ومنها المتاجر ، وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب . ولكى ننبأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى . لننقل متاجرتنا . وليرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .
- ١١- يجب أن تستعد موانينا لهذه الحركة العظيمة . فنوسع ميناء الإسكندرية . ونشئ ميناء دمياط ، ونحول بعض موانينا إلى موان حرة لا تتقاضى الحكومة عن البضاعة الموجودة بها ضرائب .
- ١٢- يجب أن يؤلف أسطولنا الجوى على نطاق واسع . وأن تنشأ المطارات فى كل المدن المصرية ، وأن تنشأ الخطوط التى تصل مصر بجميع البلدان العربية . وبكل أفريقيا . وبلاد أوروبا الهامة .

- ١٣ - يجب أن نعهد الطرق من الإسكندرية حتى اسوان . وأن ننظم الملاحة في النيل والترع .  
وأن نعد الخطوط الحديدية إلى كل مكان .
- ١٤ - يجب أن ينشأ بنك مركزي للإصدار . ليجارى هذا التقدم التجارى ويزكيه . وأن يصلح نظام الائتمان بحيث يكون وسيلة لخدمة التجارة ومدها بربءوس الأموال .

### جهادنا العلمى

- ١٥ - ومصر . التى ستزعم الشرق وتضىء على العالم . يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها . فيجب أن يصبح التعليم الابتدائى مجانا . وأن تقل نفقات التعليم الثانوى والعالى لتكون فى متناول أفقر الطبقات . ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحي الحياة . وأن ترصد لها المخصصات ليعيش منها العلماء والباحثون .
- ١٦ - يجب أن تفتح الجامعة أبوابها على مصرعها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق ، وأن تشجع البحث العلمى . وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها ، لتبحث وتنقب وتعلم وتشر العقليّة المصرية فى أرجاء العالمين .
- ١٧ - يجب أن نهتم بالحفريات الخاصة بالآثار لنكشف مغاليق التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة ولنخرج الكنوز التى لم تكشف بعد .
- ١٨ - أما فى الطب ، فيجب أن يعاود المصريون نبوغهم وإعجازهم الفنى ، لينقذوا الشعب فى مصر ، ولينقذوا الإنسانية من الأمراض التى تفتك بها .
- ١٩ - أما الأزهر ، فله دور عظيم يجب أن ينهض به ، وأن يستعيد مركزه القديم ، ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم ، وأن يرتفع صوته عاليا بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب ، وفى أمريكا أيضا .. ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى إعلاء كلمة الحق والدين .
- ٢٠ - يجب أن تنشئ الحكومة المؤسسات لمساعدة المكشفين والمخترعين .
- ٢١ - يجب أن يكون فى كل قرية مكتبة وأجهزة للراديو لسباع التعاليم الدينية والحلقية والعمرانية .

### جهادنا الاجتماعى

#### فى الدين والأخلاق :

- ٢٢ - يجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .
- ٢٣ - يجب أن نرقى الأخلاق ، وأن نحارب الدعارة والخمور والتخث .
- ٢٤ - يجب أن نعلم الصدق ، وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون ، وأن يجب بعضنا بعضاً .
- ٢٥ - يجب أن نقدر الشرف والواجب ، وأن نقفل من اللهو والمزاح .

٢٦- يجب أن يصبح التجنيد إجبارياً للجيش ، وأن تنقص مدة الخدمة فيه ، وأن يمتلئ الشباب بالروح العسكرية .

#### في الأسرة :

- ٢٧- يجب أن تنظم الأسرة على قواعد قوية من الحب ، والاحترام المتبادل بين الآباء والأبناء ، والجهاد المشترك ، والوفاء بين الزوج وزوجته .
- ٢٨- يجب أن نغنى بالطفولة باعتبار أنها مصر المستقبل .. مصر العظيمة .. فيجب أن نعددهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالا مستجيبين
- ٢٩- يجب أن نرق المرأة ونعلمها العلم الكامل ، لكي تكون زوجة صالحة ، ولتكون أما تخلق الأبطال ، وليكون بيتنا نعيم الحياة .
- ٣٠- يجب أن نقضى على الأنظمة البالية التي تمرقل حركة الزواج ، قتلنى المهور الباهظة والحفلات الموهجاء .

#### في الصحة :

- ٣١- يجب أن يكون للصحة العامة المقام الأول في جهود مصر الفتاة . ويجب أن تكون سياسة الصحة هى سياسة الوقاية لا سياسة العلاج . وإذن فيجب أن ينصرف الجهد إلى حماية الطفولة .. وإلى حماية الأبصار وإلى حياة الأبدان من الأمراض المتوطنة .
- ٣٢- يجب أن توضع قوانين صارمة لإحلال النظافة فى كل شىء ، ويجب أن يجند الشعب فى الملاعب الرياضية ، لتخلق جيلا كاملاً قوياً سليماً .. وتمهيدا لذلك يجب أن ينشأ ملعب كبير بالقاهرة .

#### في التأمين الاجتماعى :

- ٣٣- يجب أن ينظم التأمين الاجتماعى بحيث يصبح لكل فرد فى الأمة الحق فى أن يكون له عمل يعيش منه ، وإذا كان عاجزا لا يستطيع العمل وجد الملاجئ لياوى إليها .
- ٣٤- يجب أن تعد المستشفيات بحيث تتسع لقبول أى مريض يلجأ إليها ، وأن تنشأ فروع لكل أنواع الأمراض .
- ٣٥- يجب أن يصبح الشعب شعبا مدخرا ، وأن يقلع عن الإسراف ، يتكوين رءوس الأموال اللازمة لتكوين الامبراطورية المصرية .
- ٣٦- يجب أن يكون للشعب أعياده ليحتفل بها كما يليق بشعب كبير لتكون أعظم مشجع على المضى فى طريقه إلى الأمام .

#### الأغاني والفنون :

- ٣٧- يجب أن تبدل الأغاني لتكون مليئة بالقوة والحياة ، أن يحفظ المصريون النشيد القومى .

و يجب أن نعيد إلى الفنون عظمتها الفرعونية والعربية ، حتى تقف في خدمة البعث والإحياء ،  
لا أن تكون وسيلة للهر والفجور .

#### القاهرة :

٣٨ - يجب أن تنظم القاهرة تنظيما يليق بعاصمة الشرق فتؤلف لها بلدية ، وتوضع المشاريع  
لتجديدها وتنظيم أبنيتها وإزالة الأحياء القديمة بأسرها .  
و يجب أن تطبق في تخطيطها بالطابعين العربي والفرعوني ، وأن تبنى منشأتها العامة على هذا  
الطراز ، وأن تنظم ميادينها وشوارعها وحدائقها كذلك ..

#### وسائلنا

أما وسائلنا للوصول إلى كل ذلك فليست حربا وقتالاً ، وليست عدوانا أو صداما ، ولكنها  
تتلخص في كلمتين :

الإيمان ... والعمل

## نحو العمل

### ٥

كان أول إجراء فكرنا فيه لنبدأ كفاحنا أن نرفع صورة من برنامجنا إلى جلالة الملك المغفور له أحمد فؤاد ، وكان لا يزال يقيم في الإسكندرية ، حيث يمضي فصل الصيف . فكلفت أحد الخطاطين المهرة أن يكتب لي البرنامج على ورق فاخر بخط جميل . فأحسن القيام بهذه المهمة . ووضعت البرنامج داخل مطروف كبير وسافرت إلى الإسكندرية ، وتوجهت على الفور ، إلى سراى رأس التين ، فاستقبلني الأمناء هناك ، وعلى رأسهم محمد بك حسين . الذى كان يعرفني من قبل بمناسبة مشروع القرش . وبعد أن وقعت في دفتر التشريفات باعتبارى رئيس جمعية مصر الفتاة ، قدمت إليهم رسالتى التى حضرت إلى الإسكندرية لرفعها لجلالة الملك . فأسرعوا إلى فضها ، وتلاوة ما فيها ؛ حتى إذا ما وصلوا فى تلاوة البرنامج إلى الفقرة الخاصة بغايتنا التى تقول « وغايتنا أن تصبح مصر فوق الجميع ، امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الإسلام » لم يكد القوم يصلون إلى هذه العبارة حتى غصت بها حلوقهم وجحظت أعينهم ، ونظروا إلى فى ريبة وتشكك ... من أنا ؟ أجنون أم عاقل ؟ وراحوا يتناجون فيما بينهم ، ويعرض كل منهم على زميله هذه العبارة فلا يلبث أن يدهش الدهشة كلها . ويتساءل عن ماهية الموضوع ، ومن أكون ، فيقدموننى له كسكرتير لمشروع القرش ، فيرفع حواجه فى استغراب وتعجب ! . وأخيرا جاء أحد الأمناء فأخرجهم من هذه الدهشة ، إذ سألتنى « هل سبقت لك معالجة الروايات العتيقة ؟ إنك تجيد التأليف بدرجة مدهشة ، إن لك خيالاً ساخراً .. » وزاح يسخر ويهزأ على هذه الوتيرة . ولقد واجهت هذه العاصفة من الدهشة والسخرية والاستنكار بهدوء وصبر ! . إذ كنت قد وطدت نفسى على احتمال كل شئ فى سبيل دعوتى . وكنت أقدر سلفا ما سوف يلاقينى من صعوبات وويلات واضطهادات .

طلبت إلى القوم أن يرفعوا رسالتى إلى جلالة الملك بالرغم من آرائهم فيها . ولكن واحدا منهم لم يجسر على أن يمس الرسالة بيده ! . فقد تحولت فى نظرهم إلى عمل

منكر . قد يعرضهم لما لا تحمد عقباه . وراحوا يتفاوضون ويتداولون فيما يعملونه ، وأخيراً استقر رأيهم على إبلاغ الموضوع لعبد الوهاب بك طلعت ، وكيل الديوان في ذلك الوقت ، فحملوا إليه الرسالة . وقد كان الرجل أكثر إدراكاً منهم ، فلم ير حرجاً في استقبالي وسماع ما جئت من أجله ! . فتمت المقابلة وتلطف معي ووعدني بالنظر في موضوع رسالتي ، ورفعها إلى جلالة الملك ، فقرحت غاية الفرح ، وخرجت من القصر وأنا أنتفس الصعداء إذ فرغت من هذه المهمة التي كان لا بد من القيام بها لدى جماعة جعلت تعظيم الملك ، والالتفاف حول عرشه أحد شعاراتها ! .

لم أعرف مصير هذه الرسالة إلا بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن قد تبلغ الشهر ، عندما استدعاني محمود فهمي القيسي باشا وزير الداخلية في وزارة عبد الفتاح باشا يحيي . التي كانت في الحكم في ذلك الوقت . وأطلعني على هذه الرسالة وقال : إن القصر الملكي قد حولها إليه ليتكلم معي فيها . وقد أثنى الرجل على الروح التي انطوت عليها مبادئ حزب مصر الفتاة ، وراح يحدثني عن خماسته لتشجيع الصناعات المصرية . وكيف أن أثاث مكتبه في الوزارة مصنوع كله في مصر ، ودعاني للتعاون معه في تحقيق كل ما يمكن تحقيقه من برنامج مصر الفتاة بصدد تشجيع الصناعات المصرية . ولقد علمت فيما بعد ، وبعد انقضاء أكثر من سبع سنوات على تأسيس مصر الفتاة ، عندما قابلت المرحوم زكي باشا الأبراش لأول مرة ، وقد كان متقاعداً في ذلك الوقت ، أن جلالة الملك فؤاد تقبل برنامج مصر الفتاة بقبول حسن ، وابتهج ابتهاجاً عظيماً لروح الإخلاص الذي تفيض به كل عبارات البرنامج المذكور ، وروح التعمق في دراسة المشاكل المصرية . وأنه استدعى زكي باشا الأبراشي ناظر خاصته وموضع سره وأطلععه على هذا البرنامج ، مزهوا بالشباب المصري الذي وصل إلى هذه الدرجة من النضوج . وقال له إن هذه الروح هي التي يجب أن تزدهر في مصر ، ولا بد لازدهارها من أن تبتعد كل البعد عن القصر ، لئلا يجارها الإنجليز حرباً باطشة . فإن أخشى ما أخشاه أن يظن الإنجليز أنني المحرض للشباب على السير في هذا الطريق . فيبطشون بهم ، فلا ينبغي أن تكون لهم بنا أي علاقة أو صلة على أن ذلك لا يمنع أن توصي بهم وزير الداخلية القيسي لكي يبذل لهم كل عون مستطاع . ولقد فسر لي هذا الحديث المتأخر ، سر دعوة القيسي باشا في ذلك الوقت للتعاون معه ، والتي لم أكن أدرك لها معنى بعد أن كانت الحرب قد أعلنت بين وزارة الداخلية وبين مصر الفتاة .

## مصر الفتاة والشباب

ولندع حديث الحكومة وموقفها من مصر الفتاة ريثما نتحدث أولاً عن موقف الشباب منها .

خرجت مصر الفتاة إلى الوجود في صورتها الأخيرة . بهذا النداء . وهذا البرنامج الذى أذعناه في طول البلاد وعرضها . فهؤلاء الذين عملوا في مشروع القرش والذين طافوا بالقطر المصرى . في أثناء دعوتهم لهذا المشروع . قد انطلقوا في ليلة واحدة . شرقا وغربا ، يوزعون مئات وألوفاً من هذا النداء . بحيث أحست البلاد من أقصاها لأدناها بهذه القذيفة الجديدة .

ولقد كانت قذيفة من غير شك فلم يسبق لحزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات ، أن تقدمت للشعب المصرى بهذا البرنامج الكامل . الذى يتناول مختلف المشاكل المصرية . اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية .. لم يسبق لمصر أن عرض عليها مثل هذا المشروع لإعادة بناء كيان البلاد . فالوفد الذى يمثل أغلبية رأى العام لم يكن له برنامج واضح محدود ، فما خلا هذه العبارة العامة الغامضة «السعى لتحقيق استقلال مصر ما وجد لذلك سبيلاً» . ومن قبل ذلك ، كان الحزب الوطنى يكافح في سبيل إجلاء الإنجليز ، وكان زعماء مصطفى وفريد يقدران خطورة المسائل الاجتماعية والاقتصادية في كفاحها ضد الإنجليز ، ولذلك فقد عملا على نشر التعليم . وتأسيس الجامعة . وتدعيم الحركة التعاونية في البلاد ، ولكن جهدهما الرئيسى كان موجها للكفاح من أجل الجلاء ، ونشر الدعاية للقضية المصرية في أنحاء العالمين ، فلم يكن للحزب الوطنى برنامج مفصل . ولقد وجدت في مصر بعد إنشاء الوفد هذه الأحزاب الطفيلية التى انشقت على الوفد وخرجت عليه ، وهذه بدورها لم يكن لها برنامج ولا هدف محدود ، إلا محاربة الوفد والتعاون مع الإنجليز ، ليكون ذلك سلماً للوصول إلى الحكم . فلم تكن لها مهمة في الداخل ، أو الخارج . إلا تقلد مناصب الحكم . وظلت البلاد - حتى خرجت مصر الفتاة إلى الوجود - ليس لها برنامج كامل شامل ، يتناول نواحي الحياة المصرية بالدرس والتحليل ، ويضع العلاج لكل قضية من القضايا ، أو مسألة من المسائل . واليوم ، وبعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً من إذاعة برنامج مصر الفتاة ، فقد تعددت البرامج ، وتسابقت الهيئات والجمعيات والأحزاب ، بل والحكومات ، في نشر برامج إصلاحية . بل إن من هذه البرامج ، ما قد يذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه مصر الفتاة في بعض أجزاء برنامجها ، وليس ذلك كله إلا آية نجاح مصر الفتاة وانتصارها ، فقد



كانت أول دعوة مصرية رسمت لإحياء مصر وإنهاضها ، مشروعا كاملاً ، ينتهى بمصر إلى تحقيق كل ما تصبو إليه من مجد وحرية ... ومازلت أذكر ، حتى هذه الساعة ، تعليق سعادة على باشا إبراهيم على برنامج مصر الفتاة ، إذ وصفه لأعضاء مجلس إدارة جمعية القرش بأنه أشبه الأشياء ببرنامج موسوليني لإحياء إيطاليا ، وراح على باشا إبراهيم يتحدث في حماسة وحرارة عن الصدى الذى تركته في نفسه تلاوة هذا البيان فكان أجمل مكافأة شعرت بها في هذه الأيام ، أن أسمع من فم ذلك الجراح العبقري مثل هذا الشاء على برنامج مصر الفتاة . وحدت عن حماسة الشباب التى استقبلوا بها برنامج مصر الفتاة .. هؤلاء الشباب الذين تحمسوا لمشروع القرش بالأمس ، سرعان ما أدركوا أن مصر الفتاة ليست سوى الخطوة الطبيعية التى ينبغى أن تتلو ما صادفناه من نجاح في مشروع القرش ، فأقبلوا على إدارة جريدة الصرخة ، التى اتخذنا لها مقرا في مكتب أحد المحامين بشارع محمد على ، فكانت تغص بأرقى طبقات الشباب المثقفين من طلاب الجامعة وخريجها من المحامين والأطباء والمهندسين ، ولا تزال جريدة الصرخة تحمل آثار هذا الرعيل الأول من الشبان ، الذين لبوا صرخة مصر الفتاة الأولى ونداءها ، وهرعوا من كل فج عميق يبايعونها ، يأخذون على أنفسهم العهد والميثاق أن يمضوا حتى النهاية في نصرتها .

### مصر الفتاة والوفد

ولكن ميلاد مصر الفتاة قد أحدث انزعاجا في دوائر الوفد العليا ، فقد نظرت إليها نظرة شك وريبة ، وكان على أن أواجه هذه المشكلة أول ما أواجه ... فقد سبق للوفد أن أبدى عدم ارتياحه لمشروع القرش ، في مراحله الأولى ، إذ توجس منه خيفة ، وساورته الشكوك والوساوس . كان الوفد يحارب في تلك الأيام وزارة صدق باشا ، وكان أقصى ما يتمناه أن يكرس الشبان كل نشاطهم ، وكل جهدهم ، لمحاربة صدق باشا وإسقاط حكومته . فلما أن دعوت إلى مشروع القرش ، وهو مشروع قومى بحث لا يمت إلى الحزبية بصلة ، ويعتمد على معاونة كل مصرى بدون تفريق بين الحكومة والشعب ، أو بين حزب وحزب ، لم ترق هذه الدعوة لدى الدوائر الوفدية ، ورأوا فيها محاولة لإضعاف كفاح الوفد ، وصرف الشبان عن الاشتغال بالسياسة الحزبية ، والتفرغ للمسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وهو ما كان الوفد ينفر منه أشد النفر في ذلك الوقت ، باعتباره صارفا لجهود الأمة ، ومهدئا من حدة كفاحها . وغنى عن البيان أننى لم أكن أشاطر الوفد هذه النظرة ، فأنا منذ الساعة الأولى التى عرفت فيها نفسى أؤمن أشد الإيمان بضرورة الكفاح الاقتصادي

والاجتماعى والعمرانى ، إلى جوار الكفاح السياسى . بل إن غاية الكفاح السياسى هى أن يتاح للأمة أن تنهض وترقى بدون عائق يعترض مشيئتها . فكل عمل فى سبيل الاستقلال الاقتصادى هو عمل فى سبيل الحرية ، وكل عمل من أجل الحرية هو وسيلة للوصول إلى الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى والروحى . ولذلك فلم ألتق بالاً لاعتراض الجرائد الوفدية ضد مشروع القرش فى بادئ الأمر ، ومضيت فى طريق لا ألقى على شىء ، إلى أن تبنت الأمة كلها المشروع كما رأينا ، وأصبح مشروعاً قومياً ، يتحمس له كل مصرى . فلم يسع الوفد إلا أن يجارى التيار فى ذلك الوقت ، وخف النحاس باشا إلى تأييد المشروع ، وإنى لأذكر الآن هذه الليلة التى ذهبت فيها إلى دار مصطفى باشا النحاس بمصر الجديدة ، لأتلقى منه اكتبته فى مشروع القرش ، وكان الوفد هذه الليلة مجتمعاً ، فتبرع النحاس باشا بخمسة عشر جنيهاً ، وتبرع كل عضو من أعضاء الوفد بجنيه ، ثم رُئي أن يضاعف النحاس باشا اكتبته ، فزاد المبلغ إلى ثلاثين . وفى ذلك الوقت دخلت متطوعتان من متطوعات مشروع القرش تعرضان طوايع القرش فاشترى النحاس باشا من كل واحدة منهما بخمسة جنيهات أخرى ، ثم عاد أعضاء الوفد فضاعفوا من قيمة اكتبتهم ، وخرجنا هذه الليلة بما يقرب من السبعين جنيهاً اكتباً فى المشروع ، وقد كان إعلان ذلك نجاحاً كبيراً إذ استطاع ، فى نهاية الأمر ، أن ينال ثقة الدوائر الوفدية التى كانت لا ترضى عنه أولاً .

على أننى لم أكد أجهر بدعوة مصر الفتاة ، حتى انفجر سخط الوفد ورأى فى ذلك ما يعزز شكوكه القديمة وأوهامه ، من أن مشروع القرش لم يكن إلا خطة مدبرة لتحويل أنظار الشبان عن الجهاد تحت راية الوفد . وبدأت الصحف الوفدية تناوش المشروع وتتهمه بأنه أداة سياسية . فرأيت أن أسرع إلى مقابلة النحاس باشا ، لكى أزيل كل كبس وغموض فى موقفى ، ولأبرهن له على وطنيتى وإخلاصى ، وأننى سأكون عنصراً معاوناً له فى كفاحه ضد الإنجليز ، ولست عنصراً معارضاً . وقد قابلنى النحاس باشا فى بيت الأمة ، ولا زلت أذكر هذه المقابلة الأولى بينى وبين رئيس الوفد ، والتى كان معنا فيها الأستاذ حسن يس فى أحد أركان القاعة .

واجهنى النحاس باشا كعادته مهاجماً بسبل من الاتهامات ، فلا بد أن أكون صنيعة للأبراشى باشا ناظر الحفاصة الملكية ، الذى كان يسيطر على السياسة المصرية فى ذلك الوقت ، وكان الوفد يعتبره خصمه اللدود . ويعلم الله أننى لم أكن رأيت الإبراشى باشا هذا فى حياتى ، بل إنى لم أره إلا بعد بضع سنوات من هذه المقابلة ، وبعد أن زال كل سلطان للإبراشى باشا ، بل وبعد أن أصبح مرضياً عنه من الوفد بالذات . ومع ذلك

فقد اتهمنى النحاس باشا بأننى صنيعة له ، وأنه قد اختارنى لكى أحارب الوفد بأسلوب ملتو . وكانت حجة النحاس باشا الكبرى فى اتهامه لى تتلخص فى المال الكثير الذى تخيل أننى أنفق منه على حركة مصر الفتاة ، فقلت له هل إذا استطعت أن أثبت لك مورد رأس مالى فى جهادى ، وإذا استطعت أن أثبت لك براءته وطهارته من كل شائبة ، فهل يرضيك ذلك ويقتنعك أننى لست صنيعة للبراشى ، وإنما أنا شاب وطنى مجاهد ، يتلمس السبيل لنصرة بلاده . إذن فاعلم يادولة الباشا أننى بمجرد تخرجى من كلية الحقوق سعت لعقد قرض فى بنك مصر بمبلغ مائتى جنيه ، بضمانة أحد أصدقائى وهذا المبلغ الصغير المتواضع هو الذى بدأت به عملى فى الحياة ، وهو الذى أنفق منه على جريدة الصرخة ، وهو الذى أنفق منه على جمعية مصر الفتاة ، فى مقدورى أن أطلع دولتك على مصاريفنا بالتفصيل ، لترى أننا لسنا أغنياء ، كما تتوهم ، وأنه لا مورد لنا إلا ثمرة مجهودنا فى تحرير المجلة ونجاح توزيعها .

ولقد أسرعت على الفور فأطلعت الباشا على بعض الأوراق التى تثبت صحة ما أقول . ولكن الرجل ظل يرتاب فيما أقول . وانتقل من الشكل إلى الموضوع ، وأخذ يتفحص مبادئ مصر الفتاة ، ويناقش محتوياتها ، ثم وقف طويلاً أمام شعارنا « الله - والوطن - والملك » وقد كان من الواضح أن هذا الشعار المثلث يضايقه كل المضايقة ، ومازلت أذكر حتى الآن اعتراضه على وضع كلمة الله فى برنامج سياسى وكيف رأى فى ذلك لونا من ألوان الشعوذة ، ثم حام حول كلمة الملك ولكنه لم يقل إلا خيراً . ولقد رحت أحاجه على الفور ، وأرد على كل اعتراضاته ، ومازلت أذكر قولتى رداً على اعتراضه على ابتداء الشعار بكلمة الله : « إن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه أبداً . وكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو عمل لا ينجح ، وإننى أؤمن كل الايمان أن التدين والوطنية يسيران جنباً لجنب ، فكلاهما يفيض من نبع واحد ، نبع المحبة للمثل الأعلى والحق والعدالة . »

ولقد تضايق النحاس باشا أشد المضايقة لمناقشتى إياه ، ورأى فيها اجترأ عليه ، فراح ينعى على عدم انضمامى إلى الوفد والعمل تحت لوائه ، مع أن هذا هو السبيل الوحيد لإبراز وطنيتى . والكفاح فى سبيل بلادى ، وتوعدنى أن مصرى لن يكون غير الخذلان والفشل الذريع الذى كان من نصيب كل من حاول الخروج على الوفد . أو التصدى لمحاربتة . ولأن الأمة لم ترحم أحداً خرج على الوفد وانشق على زعامته . وراح دولته يعدد لى أسماء الذين خرجوا على الوفد ، أفراداً وجماعات ، وكيف نبذتهم الأمة وهدمتهم وحطمتهم تحطيماً . فأسرعت بالرد على دولته ، مظهراً له أننى أستطيع أن أخدم

بلادى . بل وأن أخدم الوفد نفسه ، باستقلال حركتى . فإن وجود حركة وطنية متطرفة إلى جوار الوفد تفيد ولا تضره . تفيد لأنها تظهره أمام الإنجليز والأجانب بظهر الاعتدال . فيسرعون إلى التفاهم والاتفاق معه ومقابلته فى منتصف الطريق ، وقيام هذه الهيئة المتطرفة لا يضر الوفد . لأنها لا تنتسب إليه . وهكذا يستطيع الوفد أن يكسب من وجودنا . ولا يخسر . وأن يكسب للأمة . بأسلوبه وطريقته . ما يستطيع من مكاسب ومغانم .. أما عن التهديد الذى وجهه إلى فقد قلت له «إننى رجل مؤمن ولا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تنال من المؤمن ، وإذا كان النحاس باشا قد نجح فى هدم كل الذين خرجوا عليه فما ذلك إلا لأنهم كانوا يستحقون الهدم ، بل كانوا يحملون عناصر هدمهم فى نفوسهم . أما بالنسبة لى وإخوانى فنحن نحمل فى أنفسنا كل عناصر الصلاحية للحياة . نحمل الإيمان والشباب والإخلاص ، وليس وراء ذلك أسلحة يمكن أن تكفل لنا النصر فى معركة الحياة» .

وعند هذا الحد انتهت المقابلة . وانتهت إلى غير نتيجة حاسمة ، فقد خرجنا منها كما دخلنا غير متفاهمين . بل لعلنا خرجنا منها أكثر افتراقا مما دخلنا . وقد كان ذلك يؤسفنى أشد الأسف . فليس هناك شك فى أن الوفد ، كان فى ذلك الوقت ، يمثل الأغلبية الساحقة لأبناء البلاد . وكان يمثل القوة الشعبية التى ترفع لواء المقاومة فى وجه الإنجليز ، وفى وجه الاعتداء على الدستور . ولم أكن أميل إلى الاصطدام بهذه القوة الشعبية ، بل كنت أصبو إلى أن أوفق فى خلق جو يساعدنى على التفاهم والتعاون مع الوفد ، حتى أستطيع فى ظل هذا التعاون أن أدعو لمبادئ العملية فى أوساط الشعب . ونكنى لم أوفق كما قدمت . ولقد سبب لى ذلك متاعب كثيرة .

بدأت حملة المجلات والصحف الوفدية تشدد علىّ بعد هذه المقابلة ، وبدأت جهود الشبان الوفديين المضادة لمصر الفتاة يظهر أثرها فى الجو . وكان مشروع القرش هو محور هجومهم . فاشاعوا وأذاعوا أنني اختلست بضعة ألوف من أموال هذا المشروع .

وقد كانت هذه أول فرية ضخمة ألقاها فى حياتى العامة ، ومع ذلك فقد رضت نفسى على الصبر عليها ولم تزدنى هذه الأكذوبة إلا ثقة واعتدادا بنفسى ، لأننى أدركت أن خصومى لن يستطيعوا محاربتى إلا عن طريق الخسة والنذالة ، وليس وراء ذلك إلا الدليل على قوتى وصدق جهادى .

واشتدت الحملة على مشروع القرش ومصنع الطرايش . وخشيت على هذا المشروع الوليد أن يتصدع تحت ضغط الهجوم الوفدى والدعاية الوفدية ضده ، وكنت حتى ذلك

الوقت لا زلت أنقلد منصب السكرتير العام لجمعية القرش .. فرأيت أن الساعة قد حانت لكى أستقبل من المشروع ، وأنفرد لجهادى فى مصر الفتاة ، ولكى أتحرر من هذه المسئولية الثقيلة ، مسئولية مشروع القرش ، بعثت باستقالتي إلى سعادة على باشا إبراهيم ، وكتبت فى الصرخة معلقا على هذه الاستقالة بالعبارات الآتية :

« فى سييلك يارب قدمت استقالتي من جمعية القرش .  
وفى سييلك يارب وفى سبيل إعلاء كلمتك ما سيصادفنى فى طريقى من عقبات واضطهاد .

وفى سييلك يامصر قدمت استقالتي من جمعية القرش .  
وفى سييلك وفى سبيل مجديك ما ينتظرنا من تشريد وسجن وعذاب .  
وفى سييلك وعلى مذبحك أقدم مالى ونفسى وروحى فما أحوجك اليوم إلى التضحية .  
لقد تم مشروع القرش ، ولقد تم مصنع الطرايش ، فلم يعد لى عمل هناك .  
لقد أدبت واجبى منذ كنت طالبا ، فساهمت بالطريق والكيفية التى سمحت لى بها الظروف .

أما اليوم فصر فى حاجة إلى دم بنينا يسفكونه من أجل مجدها .  
لقد انتهت ساعات العهيد ، ولم يبق إلا الكفاح ، الكفاح العلى المستميت فإما موت وإما حياة . وليحيا الملك . »

ولم تكن هذه أول مرة أستقبل فيها من جمعية القرش ، فقد سبق لى أن قدمت استقالتي عدة مرات ، ولكنها لم تكن تقبل . أما هذه المرة فنظرا للصعوبات التى بدأت تخطط للمشروع من الناحية الشعبية ، ونظرا لموقف الوفد العدائى للمشروع ، فقد وافق أعضاء مجلس إدارة جمعية القرش على هذه الاستقالة مكرهين . وقد حاولوا بطبيعة الحال أن يشنوا عن طريق الجديد وأن يغرونى بالاستمرار فى طريق مشروع القرش ، وأن أكرس حياتى فى خدمة مصر من الناحية الاقتصادية البحتة ، وكيف أن بقائى على رأس مشروع القرش سيمكننى من تنفيذ برنامجى الذى يتلخص فى إنشاء مصنع جديد فى كل عام ، فلا تمضى عشر سنوات حتى أكون قد ملأت مصر بالمصانع التى يعمل بها ألوف وألوف من العمال ! . ولكن ذلك كله لم يكن ليؤثر على عزمى وتصميمى فى وجوب المضى فى الكفاح السياسى حتى النهاية . متصديا للإنجليز والأجانب ، متصديا لكل العناصر السيئة والهدامة ، والمعوقة لنهضة البلاد وريقها .

على أن رجال جمعية القرش لم يلبثوا أن شعروا بعدم إمكانهم الاستغناء عنى .

فأرسل إلى سعادة على باشا إبراهيم في ديسمبر سنة ١٩٣٣ الخطاب التالي :

حضرة المحترم الأستاذ أحمد حسين الحامى  
تحية وبعد : لما كان المجلس حريصا على أن لا تحرم الجمعية من جهودكم وخبرتكم فقد قرروا  
إشراككم في لجنة تنظيم الإكتتاب هذا العام ، لهذا أبلغ حضرتكم هذا القرار لتبدأ في العمل المذكور  
بما عهد فيكم من النشاط والغيرة على المشروع .  
وتفضلوا بقبول فائق احتراماتى .

رئيس مجلس الإدارة  
على إبراهيم

ولقد علقت على هذا الخطاب بكلمة حارة في مصر الفتاة ، أرى أن أثبتها الآن  
بنصها ، لأنها تلخص تاريخ هذه الأيام ، وتعطى صورة دقيقة عن العوامل النفسية التي  
كانت تعتلج في صدرى وقتئذ ، وهى :  
ياصاحب السعادة :

جاءنى من سعادتك هذا الخطاب ، وإننى لعاجز عن التعبير عما يتألمنى من الشكر العميق لهذه  
الثقة التي غمرتمونى بها في خطابكم الرقيق ، والحق أننى لا أتردد لحظة في أن أقدم نفسى وجهدى  
وكل ما أملك ، أنا وزملائى ، في سبيل مشروع القرش وإنجاحه ، لأنه ليس إلا قطعة من أنفسنا  
وصرخة من صرخاتنا الأولى في الحياة المصرية المليئة بالغيوم والمليئة بالآلام .

وإذا كنت قد استقلت من مشروع القرش ، فما ذلك إلا رغبة منى في أن أقدم نفسى لفكرة أكثر  
تطوراً من مشروع القرش وأوسع مدى ، فأعمل بحرية من أجل مصر العزيزة غير مقيد بقيد . وغير  
حاسب لقوة ما حساباً . إلا قوة الله وقدرته .

أجل لقد استقلت من جمعية القرش لأستطيع أن أقول كل ما في نفس الشباب بحرية وجلاء ضد  
الإنجليز ، وضد الأجانب ، وضد الضعف الذى يسيطر على المجتمع المصرى ، وضد الخلافات  
والحروب الداخلية ، وضد الجهل والفاقة . ولكى يعمل الشباب الذى استيقظ عملاً إيجابياً من أجل  
أمتة ، حتى تثير الحيوية المصرية من جديد . وحتى نعيد الثقة إلى النفوس من جديد . وحتى نعيد  
أخلاق الرجولة والتضحية من جديد . ونحمد الله يا صاحب السعادة أن الشباب بدأ يستجيب  
لدعوتنا . إن صرختنا قد دوت فأيقظت الغافلين من رقادهم . نحمد الله أن الشباب اليوم يريد أن  
يعمل مخلصاً من أجل الله . وفي سبيل الله . مضحياً إلى أبعد حدود التضحية ، شجاعاً إلى أبعد  
حدود الشجاعة .

جاءنى خطاب سعادتك يدعونى للعمل في مشروع القرش . ولكى أعمل في مشروع القرش

يجب أن أبتعد عن الصرخة قليلاً . وأن أكف عن محاربة أعداء مصر قليلاً . حتى ينتهى الإكتئاب بعيداً عن المهاجمات والمصادمات السياسية . وأنا الذى تعرفنى . يا صاحب السعادة لا يؤثر فى تهديد أو إغراء . فأصغيت لطلبك لأنه من أجل مصر وفى سبيل مصر . فلقد عرفت كيف تثير هذه العاطفة فى نفسى . ولأنه صادر منك . أنت الشخص الذى علمنى كيف يفنى الإنسان من أجل مصر . وكيف يضحي الإنسان بكل شيء من أجل مصر . ذلك أنك قدمت يا صاحب السعادة من أجل مشروع القرش كل شيء . قدمت مركزك . قدمت اسمك . قدمت مالك . قدمت جهدك . قدمت أعز ما تنطوى عليه النفس البشرية وأعنى به إيمانك . قدمت كل ذلك يا صاحب السعادة فى وقت كان مشروع القرش فيه فكرة يتناولونها بالسخرية والتحقير . فى وقت كانوا يهاجمونه من كل ناحية . ولكنك آمنت بما فيه من حق . آمنت بما فيه من خير لمصر فعملت فيه حتى أنجحته . وأخذت بيده حتى أصبح يافعاً يرفع راية مصر عالية . هذا المثال يا صاحب السعادة هو الذى جعلنى أقبل طلبك أن أعود للعمل فى مشروع القرش من أجل مصر . ولقد نفذت هذا مخلصاً فكنت فى جريدتى أعلن الهدنة حتى يتم الإكتئاب فإذا كان ؟ كان يا صاحب السعادة أن الحكومة منعت اجتماعاً بريثاً لمطوعى مشروع القرش فى تياترو رمسيس ليشتروا طرايشهم . وكان أن انتهك الجنود . حرمة جمعية القرش . لأول مرة فى تاريخها . لأنهم خشوا أن أكون من بين المتكلمين . ولقد عشنا فى جمعية القرش سنتين لم يتعرض لنا جندى واحد فى الطريق فكيف بجمعية القرش إذن . فرجوعى إلى جمعية القرش لن يفيدها . ولكنه سيؤلب عليها الحكومة . وغير الحكومة ممن أصبحوا لا يطبقون سماع اسمى . من أجل هذا يا صاحب السعادة فإني أعتذر عن الرجوع إلى جمعية القرش كى تظل فى منجاة من كل هجوم . وأنقض الهدنة التى لم تستمر إلا دقائق قليلة . ودقائق أشعر الآن بحسرتها فى نفسى . ولا يعزىنى إلا أنها كانت من أجل مصر وفى سبيل مصر .

لقد استقلت من جمعية القرش لأتفرغ للخدمة مصر بشكل آخر . وهذا السبب لا يزال قائماً . وإذن فلن أستطيع الرجوع .

. وإني أعتذر إلى سعادتكم راجياً لكم التوفيق والنجاح . وليس لى إلا جريدتى . وقد أصبحت لسان الشباب . ولسان حال مصر الفتاة . وهأنا أضعها تحت تصرف الجمعية .  
سائلاً الله أن يكلل أعمالكم بالنجاح وأن يوفقكم لما فيه خير البلاد  
وأما نحن فنسرفع الصوت مدوياً . مصر فوق الجميع - الله أكبر<sup>(١)</sup>

وهكذا انقطعت ، بصفة نهائية ، كل صلة مادية بينى وبين مشروع القرش ، أو مصنع الطرايش . وإن كانت صلتى الروحية لن تنقطع بينى وبينه أبداً ، فما كان مشروع القرش إلا وليد جهودى الأولى فى سبيل مصر ومجدها .

(١) الصرخة العدد ١٢ - ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

## مصر الفتاة والحكومة

ولنصل الآن إلى موقف الحكومة من مصر الفتاة .  
ولعلك لاحظت في رفض العودة إلى مشروع القرش هذه الإشارة إلى عدوان البوليس على دار جمعية القرش ، والحيلولة بين المتطوعين وبين الاجتماع . فنحن الآن في شهر ديسمبر ، أى بعد شهرين من إعلان برنامج مصر الفتاة ، وفي ذلك الوقت كان اضطهاد الحكومة لأحمد حسين ومصر الفتاة قد بلغ أشده ، وكانت الحرب بيننا وبين وزارة الداخلية هي حرب حياة أو موت . ففي هذه الفترة القصيرة زج بي إلى السجن لمدة طويلة ، وصودرت جريدة الصرخة ، ولن يمضى إلا يسير وقت حتى يزج بي في السجن من جديد . وكان البوليس قد بدأ يضيق الخناق علينا محاولاً خمد أنفاس حركتنا . ولكني وإخواني وقفنا في وجه الزوبعة لا نكل ولا نلين .

كانت الوزارة التي تتربع في كراسي الحكم هي وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، وهي وزارة تألفت على أساس دستور إسماعيل صدق باشا ، وكانت تحكم البلاد بقوانينه الاستثنائية ، معتمدة على برلمانه ونوابه . ولكنها في نفس الوقت كانت إحدى وزارات القصر ، التي تستمد كل نفوذها من القصر . ولذلك فقد مرت الأيام الأولى على مصر الفتاة دون أن تتعرض لها الحكومة بخير أو شر . فقد كان ما اشتهر عني من استقلال عن الوفد ، واعتدال في الرأي ، وما أعلنته في برنامج مصر الفتاة بالذات من دعوة إلى الالتفاف حول العرش ، كان لذلك كله أكبر الأثر في أن مرت الأسابيع الأولى على إنشاء مصر الفتاة بدون معارضة أو مقاومة من الحكومة . بل لعل الهجوم الذي أسرع الوفد بشنه على مصر الفتاة قد كان من الخواطر التي دفعت الحكومة إلى الإغضاء عن نشاط مصر الفتاة . وقد كان هذا الإغضاء بالذات أحد العناصر التي بنى عليها الوفديون اتهامهم لحركة مصر الفتاة ، وأنها حركة تتصل بالقصر ، وإلا لما سكنت عنها الحكومة وأغضت عن نشاطها وحماستها المتطرفة ، في وقت سيطر فيه الخمود والركود على الرأي العام تحت ضغط الحكومة واضطهادها . ولكن الحكومة لم تتأخر طويلاً ، فقد أسرع ، بكل حوله وطولها ، لتبشش بمصر الفتاة البطشة الكبرى . ذلك أن المسيطر على وزارة الداخلية ، في ذلك الوقت ، كان هو الإنجليزي المشهور السير كين بويد ، مدير قسم الإدارة الأوروبية . وكان جنابه هو الحاكم بأمره في وزارة الداخلية ، والذي لا يخالف له وزير أو رئيس أمراً من الأمور . ولقد سكنت جنابه على مضض في الأيام الأولى لمصر الفتاة إلى أن جاءته الفرصة بعد شهر واحد من تأليفها ، عندما أصدرنا عدداً



خاصا من الصرخة بمناسبة ١٣ نوفمبر ، وعدنا فيه إلى استئناف الجهاد والنضال من أجل حرية مصر واستقلالها . كان العدد المذكور يتضمن مقالات نارية وصورا رمزية ، كان نشرها في ذلك الوقت يشبه أن يكون قبلة منفجرة في سماء الحياة الوطنية . فأما صورة الغلاف فقد سجلت تاريخ « ١٣ نوفمبر » بألسنة من اللهب المتصاعد من نيران مشتعلة رمزا للثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ، ومن خلال اللهب برزت ثلاثة رؤوس لزعماء مصر : الثلاثة الذين كان ذهابهم إلى العميد البريطاني ، في ذلك الوقت ، هو بمثابة إشعال نيران الثورة . ونعني بهؤلاء الثلاثة سعد زغلول وشعراوي وعبد العزيز فهمي . وكان في الداخل صورة رمزية أخرى « الحامل العلم أو الشهيد المجهول » وهو يجندل برصاص الإنجليز فيقع على الأرض هاتفا « في سبيك يا مصر » .

على أن ذلك كله لم يكن شيئا مذكورا إلى جوار المقال الافتتاحي الذي جعلت عنوانه « يا شباب عام ١٩٣٣ كن كشباب عام ١٩١٩ »<sup>(١)</sup>

ويرجع الفضل إلى الأستاذ فتحى رضوان في كتابتي لهذا المقال الثورى ، بل ودفعى دفعا إلى طريق الثورة على الإنجليز منذ ذلك التاريخ إلى اليوم ، والفضل الذى أعنيه هو فضل غير مباشر أو غير مقصود ، فقد دأب الأستاذ فتحى ، الذى كان في ذلك الوقت صديقى الوحيد ، على إنتقاد جميع تصرفاتى وتجربى . فلقد عمل إلى جوارى في مشروع القرش ولكن هذا المشروع العظيم لم يسلم من تجربى ، فقد كان يؤثر في رأيه أن يكون اشتغالنا بالسياسة صريحا ، وأن نجابه الإنجليز علنا . وعندما أصدرنا سويا مجلة الصرخة للمرة الأولى وألفنا جمعية مصر الفتاة ، كانت خطتي ترمى إلى اصطناع الاعتدال ريثا

---

(١) يحسن بنا أن نثبت للذكرى والتاريخ نص هذا المقال الذى كان فاتحة تطور كبير في حياة مصر الفتاة :

#### ياشباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩

كن كهذا الشباب الذى قدم نفسه وقودا للجهاد والوطن ، كن كهذا الشباب الذى أشعل الثورة في وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة .

ثورة جاشحة ضد الإنجليز ، والأجانب ، لا تعرف هوادة ولا لنا ، لا تعرف تعقلا . إلا خلاص الوطن من ربة الاستعباد .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن امتلأت بك السينات وامتلت بك دور اللهو ، وامتلت بك المواخير والملاهي .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن تهرأ بكل شيء ، وتسخر من كل شيء ، وتجهل معنى الاستقلال والتضحية .

ياشباب عام ١٩٣٣ يامن لاتعرف من أمور الكفاح الا أن تتناقش وأن تكون سليل اللسان ، تهاجم زيدا أو عمرا

==

من الناس .

ثبتت أقدام جريدتنا وحركتنا ، ولكن ذلك لم يعجب الأستاذ فتحنى واعتبره مظهرا من مظاهر الجبن والخوف من الاصطدام بالإنجليز على الفور ، ولقد كان في دائما أبدا نقطة ضعف ، وستبقى إلى الأبد ، هي أنني ما اتهمت نفسي أو اتهمني إنسان بالخوف من شيء من الأشياء إلا وبادرت بدون تفكير أو تدبير بمهاجمة ذلك الشيء لأبرهن لنفسي أنني غير هياب ولا وجل . ذلك أنني لا أعتبر أن هناك نقيصة في الدنيا يمكن أن تشين الرجل أكثر من أن يكون جباناً . لأن الجبن هو آية العبودية ، ومتى جبن الإنسان فقد فقد على الفور كرامته وإنسانيته وحرية . ولقد كنت أعرف من نفسي دائما أنني أكثر شجاعة من الأستاذ فتحنى ، وأنتى إذا سكت عن مهاجمة شيء من الأشياء أو شخص من الأشخاص لفترة من الزمن ، فليس ذلك جبناً منى ، ولكن تريثاً وتمهلاً إلى أن يأتي

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن تعرف من شئون المثلثات الداخلية أكثر مما تعرف من شئون أمتك ووطنك .  
ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن لاتغنى الا بأغاني الهوى والضعف والخنول .  
ياشباب عام ١٩٣٣ ، هل استيقظت من سباتك وعرفت أن الساعة ساعة جد وأن الضحك يجب أن لا يعرف السيل إلى القلوب . كيف تضحك ؟ ولماذا تضحك ؟ وهذه جيوش الإنجليز تسد علينا السهل والجبل ؟  
كيف تضحك ولماذا تضحك والموظفون الإنجليز يحكون البلد ؟ ..  
كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، والمحاكم المختلطة تصلينا العذاب ؟  
كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، والأجانب يسدون علينا الطريق ويحتقروننا في عقر دارنا ، ويسلبون منا القوات ؟  
كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد تدهورت الاخلاق وتفرقتنا شيعة وأحزابا ؟  
كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد جهلنا أمور ديننا ونسينا إخواننا في الشرق العربي فلا نعد يدنا اليهم ولا نعرف من أمورهم شيئا ؟  
كيف تضحك ، ولماذا تضحك وقد وقف الإصلاح في كل ميدان وطغت الأزمة وعم الجوع والخراب ؟  
ترى ما الذى يضحكننا الا أن نكون عبيدا ألفوا اللذة والخنوع ؟  
في عام ١٩١٩ كانت هناك أحكام عرفية ، وكان هناك إعدام ، وكان هناك رصاص مسموم ، ولكن صوت الشباب دوى لاجيا طهر الظلم وأخاف الإنجليز .  
يا بالنا لا نصرخ اليوم ، ولا إعدام ولا رصاص ولا سموم .  
يا بالنا لانصرخ صراخاً سلمياً ، لا ثورة فيه ولاعداء حتى نوقف القوم من غفلتهم ، ونلفت نظر القوات التي بدأت تطفئ على 'حياتنا القومية .. مابالنا لانصرخ ضد هذه المحاكم التي تريد أن تجردنا من قوتنا لكي ندفع للدائنين ذهابا .  
مابالنا لانصرخ ضد الامتيازات التي تحتقنا في كل صباح ومساء .  
مابالنا لانصرخ ضد الإنجليز الذين يريدون سلب السودان ، وبينون خزان جبل الأولياء ونحن أحوج مانكون الى القوات .  
مابالنا لانصرخ كي ينطلق الإصلاح في كل ركن وفي كل ميدان .  
مابالنا لانصرخ لكي نهذب الأخلاق ، ونعيد معاني الشرف والرجولة والأنفة .  
مابالنا لانصرخ لكي يكون لباسنا مصرياً ومأكلنا مصرياً ومعاشرنا مصرياً .  
ياشباب عام ١٩٣٣ ، هانحن نهتف بك ، وهامى صرختنا تدعوك إلى كل ذلك فان كنت معنا فتعال نجاهد ، وإن لم تكن معنا فحسبنا أننا سنفديك كي لايسجل التاريخ عليك أنك لم تكن تتألم .

الوقت المناسب الذى يستطيع الإنسان أن يهجم فيه كاملا مستعدا . ومن ذلك موقعي فى الأيام الأولى من تأليف مصر الفتاة وإصدار الصرخة ، فلم يكن من الطبيعى أن نشن هجوما عنيفا قبل أن تستقر جريدتنا فتتخذ لنا مكانا ومقرا ونركز جمعيتنا ، ولكن الأستاذ فتحنى ، الذى لم يكن له عمل فى كل تاريخ صداقتي إلا مخالفتي فى كل رأى أبديه ، انتقد هذا الموقف ! . وفى حديث بيني وبينه أشار إلى كلمة الجبن فأسرعت لأبرهن له على أنني آخر من يوصف بهذا الوصف فى مصر . فكان هذا العدد من الصرخة الذى كانت الناس تذهل وهى تطالعها وتنظر إلى صورته ورسومه ، كان كل مصرى لا يصدق عينيه أن يكون فى مصر ، بعد هذا الوقت الطويل من تدهور الوطنية والأخلاق ، وانتشار الخوف والجبن فى كل مكان وفى كل نفس ، أن يكون فى مصر مجلة بهذه القوة والحماسة . وأن يكون هناك شبان بكل هذه الجرأة والشجاعة وبدأت مصر كلها تستيقظ على ضوء هذا المشعل الذى رفع لها . وكانت الحكومة وكان الإنجليز ممثلين فى شخص كين بويد أول من أسرع لإطفاء هذه الشعلة التى توشك أن تهدم كل ما سعى الإنجليز لبنائه فى مصر طوال أجيال وأجيال .

### أول تحقيق مع مصر الفتاة

وجاء البوليس والنيابة ليقبضوا على من المنزل ويفتشوا الدار ، وكان ذلك أول عهدى بمثل هذا الإجراء . فكان وقعه شديدا على أهلى وعلى . ولكننى أسررت فى نفسى : « إننى اخترت هذا الطريق ، ولا سبيل للرجوع عنه وإننى أعلنت عزمى على بلوغ النصر أو القبر ، وإذن فلا محل للتردد أو الجزع ، بل المضى دائما إلى الأمام فى صبر وثبات ويقين . »

وخرج موكب البوليس والنيابة وخرجت معهم مقبوضا على إلى دار الأستاذ فتحنى رضوان ، حيث قبض عليه بدوره ، ثم توجه الركب إلى دار الأستاذ حافظ محمود رئيس التحرير فاعتقل أيضا وساروا بنا إلى قسم الموسيقى ، حيث كان فى انتظارنا وكيل النيابة المحقق صادق بك العجيزى ، وبدأ أول تحقيق مع مصر الفتاة ، وفى مبادئ مصر الفتاة ، وماهى مصر الفتاة .

لم يكن تحقيقا صحفيا بالمعنى المعتاد من التحقيق الصحفي ، بمعنى أن يسأل رئيس التحرير عن كاتب المقال وتفسير عباراته والمقصود منها ، وإنما كان تحقيقا جامعا شاملا أريد به الوصول إلى حقيقة أحوالنا .. فهل نحن جمعية سرية ، وهل اعتزمنا أن نقتل

وأن نقتال ، وهل لدينا أسلحة وذخائر ، وهل نمت بصلة إلى جهة من الجهات في مصر أو خارج مصر ؟

وهل لنا آراء شيوعية ؟ أو لنا خطط ثورية ؟ ومن أين لنا المال ؟.. المال ، المال دائماً المال كان وبقي منذ ذلك التاريخ أول ما يسأل عنه من يريد إثارة الريبة في مصر الفتاة . ومن أين لها المال الذي تنفق منه على هذه الدعاية الواسعة النطاق ؟ وسرعان ما تبين للمحقق ضالة الموارد المالية ، وأنها تتلخص في هذا الدين الذي استندته من بنك مصر بضمانة أحد الأصدقاء ، وأن كل مصروفاتنا وإيراداتنا تتلخص في أعداد المجلة وتوزيعها ، وأثبت للمحقق أننا لا نمت إلى الشيوعية بسبب ، وأننا لا نفكر في قلب نظام الحكم في مصر . بل نحن نؤمن بالملكية وندعو إلى تدعيمها ، عن طريق الحكم الدستوري السليم ، كما هو الحال في إنجلترا . وثبت للمحقق أن باطننا كظاهرها ، نرى طاهر أبيض ناصع البياض ، ولكننا نشعل حماسة وإيماناً بحق بلادنا في المجد والعظمة ، فضلاً عن الحرية والإستقلال ، وأن عزمنا أشد من الحديد صلابة وأقوى من الفولاذ . فقد فوجيء المحقق بموقف لا عهد له به من قبل ، فوجيء بثلاثة شبان يتنافس كل منهم في نسبة شرف ما كتب في مصر الفتاة إليه . ولا يحاول أن يهرب من المسؤولية . فقد فاتني أن أذكر أن المقالات التي نشرت بالمجلة كانت غير موقعة بالتوقيع وقد سأل المحقق كلامنا على أفراد عن كاتب هذه المقالات ... ولقد خجل الأستاذ فتحي رضوان أن يتبرأ من هذه المقالات ، وهو الذي كان يلوح لي بالجبن فأسرع إلى نسبة هذه المقالات إليه ، أما الأستاذ حافظ محمود رئيس التحرير فقد أبي أن يكشف عن كاتب المقالات واعتبر نفسه مسئولاً عما كتب في المجلة بحكم منصبه ، أما أنا فقد كنت الكاتب الحقيقي للمقالات ، ولذلك فقد اعترفت بها وتحملت مسئوليتها بمفردي وأقسمت للمحقق أنني كاتبها دون الآخرين .. وقد كان ذلك موقفاً عجباً ، لأن المؤلف في ذلك العهد أن يتصل الكاتب بما كتب ، لا أن يتنافس ثلاثة في احتمال مسئولية ما كتب في المجلة .

وانتهى التحقيق المبدي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأصدر المحقق أمره بجبسنا أربعة أيام على ذمة التحقيق . ولما كان لا يمكن إرسالنا إلى أحد السجون العمومية في هذه الساعة المتأخرة ، فقد زج بنا في سجن القسم حيث يسجن المشترون والقوادون والسكراري وأصحاب الجرائم ، في سجن مظلم معتم رطب تفوح منه أتن الروائح وأبصرها ، وحيث يتكدس المسجونون على الأسفلت تكديساً ، في جو من القذارة والجشرات التي تملأ الجدران والسقف والأرض ، بل وتملاً الهواء .

ولقد كانت هذه أول محنة حقيقية ألقاها في حياتي الجديدة ، لم ألق بعدها محنة

أبدا . لقد كان انتقالاً مفاجئاً حاداً ، وكانت عقوبة لا عهد لي بها من قبل . فحتى ذلك التاريخ لم أكن ألتقي إلا بالإحترام والتوقير في كل مكان .. كانت شهرتي كشاب نابغ عامل تسبقني في كل مكان أصل فيه ، فلا أرى إلا الإعجاب والتقدير ، ومبادرة الكل إلى معاونتي على تحقيق ما أريد ، وخاصة بعد نجاحي في مشروع القرش وبناء مصنع الطرايش . وكنت صحفياً ، وكنت محامياً ، وكنت أجلس مع الوزراء ، فلما رأيت نفسي فجأة ملقى على أرض هذا السجن المظلم كادت أنفاسي تختنق ، وأحسنت كما لو كان الموت يظللني وأنتى أوشك أن أغادر هذه الحياة الدنيا . وكان يزيد في ضيق نفسي ما كنت عليه من فرط إعياء ، فقد كنت صائماً في ذلك اليوم لم أأذوق طعاماً وكان السهر والتحقيق الطويل قد انهكني . وعندما يكون الإنسان جائعاً ومنهكاً تتأثر معنويته نتيجة لذلك . على أن الذي كان يؤثر في أكثر من كل شيء آخر هو هول الصدمة التي صدمت بها ، وهذا الخطر المجهول الذي أصبح يحدق بنا ... فقد كان المحقق يبحث معنا في جرائم الشيوعية وقلب الحكم والتخريض على الثورة ، ومعنى ذلك أن القوم سيضطشون بنا ، وقد يحكم علينا بالأشغال الشاقة لمدة طويلة أموت أثناءها ، وإذن فهذا السجن هو بدء النهاية وأنا الآن في مرحلتى الأخيرة .

لم يكن هناك ما ننام عليه ، بل لم يكن هناك مكان لننام فيه ، فجلسنا نحن الثلاثة وأسندنا ظهورنا إلى ظهور بعض ، وحاولنا أن نغمض أعيننا لنحظى بشيء من الراحة بعد ما بدلناه من عناء .. ولقد نمت ولست أعرف كم من الزمن استغرقت في نومي ، أمقدار ساعة أم نصفها أم ربعها أم أقل من ذلك كله أم أكثر؟ ولكن التغير الذي طرأ على بعد يقظتي من جديد كان تغيراً عجبياً جداً ، فقد بدأت أشعر بالراحة وبدأت أشعر بصفاء نفسي. وبزوال كل قلق ورغبة في الاستمتاع بهذا الوضع الجديد الذي نحن فيه . لقد كان الكثيرون من المسجونين رقوداً فهذا الضجيج ، وكان ثمة نور ، لست أذكر إذا كان نور القمر أو ضوء الصباح ، كان يدخل إلى السجن من هذه الكوة في عاليه وبدا المكان محتملاً على خلاف ما تصوره لأول وهلة ...

وما السجن ؟ كان ذلك أول ما خطر على ذهني ... إذا كان هذا هو السجن ، وهذا هو أشد ما يلقاه المجاهد ، فسأعرف كيف أتغلب عليه ، وكيف أحتمله ، ووجدت رفيق قد طرأ عليهما مثل ما طرأ على من الانقلاب ، فقد اعتدنا المكان وبدأنا نألفه وشرعنا نمزح ، ونعلق على ما فيه من المناظر العجيبة ، وبدأت حركات السكاري تضحكننا .

وأحاديث المجرمين تستلفت أنظارنا لما تحويه من معان غريبة وعبارات واصطلاحات مضحكة ...

واستؤنف التحقيق في الصباح ، ولكننا مع الصباح كنا قد استرددنا كل معنوياتنا ، نوكل قوانا ، ولذلك فقد بدأت أشدد على المحقق وأهاجمه وأجابه بأعنف مما فعلت في الأدوار الأولى للتحقيق ... وقد استطعت في هذه الفترة أن أختلس ورقة وأن أخط بها بعض كلمات في مجلة الصرخة كانت كأقوى ما كتبت في أى يوم من الأيام ، وجعلت عنوانها: « لن نخاف (١) » ...

## (١) من أعاق السجون

### لن نخاف

أجل لن نخاف السجن والتعذيب والتشريد ، لن نخاف عجرة رجال البوليس وشدة رجال النيابة وهول السجن ، ففي سبيل الله مانفعل وفي سبيل الله نصمحي بكل ماتملك .  
وفي سبيلك يا مصر تهون ألتصحية ويستحب العذاب .  
في سبيلك يا أمنا الغالية ، وفي سبيل مجتك ، أرحب بالسجن كخطوة أولى لإنقاذك .  
مصر يا من حكمت العالم يوما وترعمت الإسلام .  
مصر يا من أضاء نورك على الإنسانية في كل عصورها وحاربت الزمان .  
يا مصر الخالدة القوية المزينة ، لن تموت أبداً ، بل ستبقى قوية لتعيدى سيرتك الأولى .  
ولكن قبل ذلك يجب أن يقدم نفر من بنيك أنفسهم فداء عنك وعن أبنائك .  
ولكن قبل ذلك يجب أن تمتلىء السجون بالأبرياء ويجب أن نحتمل العذاب صابرين .  
وها نحن نفعل يا مصر ، ها نحن في عيد جهادك نقدم أنفسنا قربانا على مذبح عظمتك . فميشى يا مصر وحلقى فوق العالمين ، عيشى والسجن شعار مجتك ، عيشى لتعودى كما كنت امبراطورية تزعم للإسلام وتعالى كلمة الله والدين .  
أيها الشباب يا شباب عام ١٩٣٣ ..

نريدك أن تذكر مصر اذا ما خلوت الى نفسك ،  
نريدك أن تذكر الآلام التي نعانها والتي تسد علينا طريق الحياة  
نريدك أن تؤمن بحق مصر ايماناً وطيداً بحقها في الحياة والمجد  
لماذا يعيش الانجليز بين ظهرانيها ؟ ولماذا نسكت على ذلك ؟  
ولماذا يستترف دمتنا الأجالب ؟ ولماذا نسكت على ذلك ؟  
لماذا تقع فريسة الضرق والاهواء ؟ ونسكت على ذلك ؟  
أيها الشباب ، يا شباب عام ١٩٣٣ ، وداعا والى اللقاء ، قد أعيش يا شباب حتى أخرج ثانية لأكافح في سبيل مصر من جديد ، ولأعود الى السجن مرة أخرى

وقد أموت في السجن فشكرا لك ياربى أن جعلتنى أقوم بواجبى ، شكرا لك يارب أن منحتنى القوة لأقول للظالم يوماً أيها الظالم ولأقول لغاصب بلادى أيها الغاصب الويل لك من سخطى وإيمانى . أما أنت يا أصدقائى فاثبتوا على إيمانكم وسيروا كل يوم إلى الأمام ، وأنت يا صرختى وداعا والى اللقاء . أتري هل تظلين مدوية حتى أعود لألقاك أم =

وأرسلوا بنا إلى سجن الاستئناف لتفضية باقي أيامنا الأربعة ، ولقد بدأت نفوسنا تنهياً لاحتمال ما نحن مقبلون عليه ، ولذلك فقد خضعنا لكل الإجراءات التي أخضعونا لها في السجن ، وهى هذه الإجراءات التي تتبع مع المجرمين العاديين ، حيث يجبرون على الاستحمام بالماء البارد ويزيل لهم الحلاق كل شعر في جسداهم . ولقد زج بى في السجن بعد ذلك أكثر من مرة فلم تستخدم معى هذه الأساليب ، بل لم أرها تستخدم فى أى وقت من الأوقات مع أى مسجون نظيف ولكن جلسنا فى ذلك الوقت واستعدادنا لاحتمال كل شىء جعل رجال السجن يطبقون علينا كل هذه الإجراءات .

ولقد كان كل شىء فى السجن بمثابة تجربة لنا ومحنة وكانت أنظمة السجن بكل ما فيها من إجراءات مهينة تطبق علينا مجذافيرها ، فلم نكن نعرف ضابطاً ولم يكن يعرفنا إنسان (فاستلطخنا السجانة) وعاملونا أسوأ معاملة . ولقد كان أقسى ما عوملنا به فى ذلك الوقت اضطرابنا لإزالة الضرورة وسط حشد من المسجونين فى غير ستر أو حائل يحول بين مسجون وآخر ، وهو أسلوب لا يزال متبعاً فى السجون المصرية ولكنه لم يطبق على بعد ذلك أبداً .

ولست الآن بسبيل التحدث بالتفصيل عن أيامنا فى السجن وحياتنا به . والمهم أنه فى كل يوم جديد كانت حالتنا تتحسن فى السجن ، ومعنوياتنا تقوى . ولما رُفِضت المعارضة فى أمر حبسنا الأول وأصدر القاضى أمره باستمرار حبسنا أربعة عشر يوماً عدنا إلى السجن فرحين مسرورين . وقتئذ بدأنا نقبل على المطالعة والمناقشة والمحادثة فى شتى شئون البلاد ، وكان الأستاذ حافظ محمود يرتل لنا القرآن ، أو يغنى لنا بصوته الرخيم بعض الأناشيد والألحان ، وكان كل منا يلخص للآخر ما يقرأ من كتب . وسرعان ما تحولت أيامنا فى السجن إلى أيام جميلة ، وتحول هذا الشيخ الخفيف ... شيخ السجن إلى نعيم روحى ، حيث يصلى الإنسان ويحسن الصلاة ، وحيث يقترب الإنسان من ربه ويزداد اقتراباً وحيث يفكر ويتعلم ويجدد قواه ...

ولما جاء أوان الإفراج عنا إذا بى أخرج من السجن بقوة وعزم متجددين ، وإذا بى

---

سيخفت صوتك عما قريب ... ولكن لا ، فأت صرخة عقيدة وإيمان ولن تموت أبداً إلا إذا مات الإيمان .

فى سبيك يارب ،

وفى سبيك يامصر ،

وفى سبيك يامليكى ،

أدخل اليوم السجن

الصرخة - ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣

أكثر استعدادا للنضال والكفاح عن ذى قبل ، بعد أن اجتزت هذه التجربة الأولى بنجاح ... ولقد علمتني التجارب فيما بعد أن هذا الأثر الذى أحدثه السجن فى نفسى هو ما يحدثه فى كل صاحب فكرة وكل مجاهد فى سبيل مثل أعلى ، وهو أن يزيد فى إصراره على المضي فى كفاحه ، ولا يثنى من عزمه بأى حال من الأحوال . فليس هناك كالاضطهاد لصاحب الفكرة السليمة إكسبر لتقوية عزمته ومضاعفة إيمانه . ولقد كانت حماسة إخواننا فى الخارج بهذا السجن قد تضاعفت بدورها ، واستطاع زميلنا الأستاذ كمال الدين صلاح أن يمضى فى إصدار مجلة الصرخة بنجاح عظيم فلما أن خرجت وجدت جوا يخالف الجو الذى كان يسودنا قبل هذا الاضطهاد ... وجدت روح الاعتزاز والفخر يجهاذا وتضحيتنا ، ووجدت شبانا تلمع عيونهم وتنفق قلوبهم رغبة فى الجهاد والتضحية ، ولذلك فقد هرعت إلى العمل على الفور ووضعت هذه المبادئ العشرة ، التى لخصت فيها آرائى وكفاحى فى كلمات قليلة لتكون دستورا لنا ومنهاجا . وسرعان ما أصبحت هذه المبادئ العشرة إنجيل الوطنية فى هذه الأيام ، وأقبل الشبان على حفظها عن ظهر قلب وتلاوتها أمام الآخرين فكانت تفتح القلوب على مصاريعها وتحمل الجميع على الإيمان بما تنطوى عليه حركتنا من صدق وإخلاص وروح عملية . وإليك نص هذه مبادئ :

- ١ - لا تتكلم إلا بالعربية ، ولا ترد على من لا يخاطبك بها ، ولا تدخل محلاً لا يكتب اسمه بالعربية .
- ٢ - لا تشتري إلا من مصرى ، ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل إلا طعاما مصرىا .
- ٣ - تطهر . فقاطع الخمر ، ودور اللهو الحرام ، والسينات الأجنبية .
- ٤ - تطهر . فصل لربك ، وأم المسجد يوم الجمعة إن كنت مسلما ، والكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحيا ، ويوم السبت إن كنت يهوديا .
- ٥ - احفظ نشيد «اسلمى يا مصر» ورثله بكل نفسك فى كل حفل ، وليكن أنشودتك فى كل مكان .
- ٦ - حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت فى يومك من أجل بلادك ومجدها ، وسر فى كل مكان واثقا بنفسك كمصرى ، وامتلئ إيمانا بمجدك وقوتك .
- ٧ - احتقر كل ما هو أجنبى بكل نفسك ، وتعصب لقوميتك حتى الجنون .
- ٨ - بلادك هى مصر والسودان معا لا يتجزآن ولا ينفصلان .



- ٩ - وغايتك أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شاذخة تتألف من مصر والسودان ،  
وتحالف الدول العربية ، وتترغم الإسلام .
- ١٠ - وليكن شعارك دائما : الله ، والوطن ، والمملك .

### (نشيد اسلمى يا مصر)

تأليف مصطفى صادق الرافى وتلحين صفر على

اسلمى يا مصر إننى الفدا	ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكبنى أبدا	إننى أرجو مع اليوم غدا
ومعى قلبى وعزمى للجهاد	ولقلى أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة	وسلاما يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه	أتقيها بفؤادى

واسلمى فى كل حين

أنا مصرى بنافى من بنى	هرم الدهر الذى أعيا الفنا
وقفه الأهرام فما بيننا	لصروف الدهر وقفى أنا
فى دفاعى وجهادى للبلاد	لا أميل ، لا أمل ، لا ألين
لك يا مصر السلامة	...

\* \* \*

ويك يامن رام تقييد الفلك	أى نجم فى السما يخضع لك
وطن الحر تما لا تمتلك	والفق الحر بأفقه ملك
لا عدا يا أرض مصر فيك عاد	إننا دون حاك أجمعين
لك يا مصر السلامة	...

\* \* \*

للعلا أبناء مصر للعلا	ولمصر شرفوا المستقبلا
وفدا لمصرنا الدنيا فلا	تضعوا الأوطان إلا أولا
جانبي الأيسر قلبه بفؤاد	وبلادى هى لى قلبى اليمن
لك يا مصر السلامة	

## أول خطاب عام

٦

إلى هنا كانت مصر الفتاة قد أعلنت عن نفسها ، وعن مبادئها ، عن طريق الصرخة ، ومقالات الصرخة ، عن طريق اضطهاد الحكومة والوفد لها . وقد حانت الساعة لتخطو مصر الفتاة كجماعة سياسية خطواتها الثانية ، وهو أن تتصل بالشعب على اختلاف طبقاته ونزعاته ، في اجتماع عام ، أبسط فيه مبادئ الحركة ، وأدفع عنها ما يوجه لها من اتهامات ، وأكشف فيه عن مقدار قوتنا واستجابة الشباب والشعب لنا .

وكان لابد من التحايل لإقامة هذا الاجتماع ، فمن الحال أن تسمح لنا الحكومة بعقد اجتماع سياسي . فلجأت إلى المرحوم عبد الحميد بك سعيد ، رئيس جمعية الشبان المسلمين ، وطلبت منه أن يتيح لي فرصة إلقاء محاضرة موضوعها « جهادنا الديني » . فأجابني الرجل المجاهد إلى طلبي مرحبا ، بل وأعلن استعدادة لإقامة سرادق في ساحة الجمعية<sup>(١)</sup> لكي يتسع للعدد الكبير من الجمهور الذي سيرغب في الاستماع إلى هذه المحاضرة ، ولقد كانت شخصية عبد الحميد بك سعيد ، ودار الشبان المسلمين ، كفيلة بحماية المحاضرة وعدم تعرض الحكومة لها ، ولذلك فقد أقيم السرادق بالفعل ووزعت الدعوات ، وفي الليلة المحددة لإلقاء المحاضرة ، في مساء السبت ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، توافد الشباب على دار الشبان المسلمين ليستمع لأحمد حسين متكلم ، بعد أن طالعه كاتبنا ، ولكي يحكم له أو عليه . وجاء الشباب الوفدي ليعكر صفو الاجتماع وليفسده ، وجاءت جواسيس الحكومة لينقلوا صورة ما يقال أو يحدث ، وغص السرادق بالوافدين ، وتكهرب جو المكان بحماسة الشبان ، وكان كل شيء ينذر بأن هذا الاجتماع لن يمر بهدوء وسكون ، ولابد من انفجار العاصفة . وفي ذلك الجو بدأت جديتي مفتتحة باسم الله ، ولم أكد أمضي في حديثي حتى بدأ الشبان الوفديون باعتراضاتهم ومقاطعاتهم ، وتجلت نواياهم في إفساد الاجتماع ، فاحتك بهم شبان مصر الفتاة ، فكانت معركة عنيفة أسلحتها الكراسي التي كانت تتطاير في سماء المكان ، وتتحطم فوق

(١) كانت جمعية الشبان المسلمين في ذلك الوقت تقيم في شارع مجلس النواب في السراي التي يوجد بها الآن متحف الشمع .

الرؤوس وتهشم . ولقد وقفت خلال المعركة فوق منصة الخطابة لا أترشح ولا أتحول ، والكراسي تنال علىّ وحولى ، ولكن عناية الله شاعت أن تحمىنى فى هذه الليلة ماديا وأديبا . حمىنى ماديا ، لم تصل إلى ضربة من الضربات الطائشة ، ولم ينلنى أى سوء . وحمىنى أديبا ، بأن ملأت قلبى شجاعة وقوة ، فلم أحاول أن أبرح مكانى أو أن أحنى رأسى ، بل ظللت منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، حتى استطاع الإيمان والحق أن ينتصر على الباطل . وقرّ المعتدون بعد أن أصيبوا بضربات باطشة . وفى أقل من لمح البصر عاد النظام إلى المكان وامتلات الكراسي من جديد بمجموع الشبان ، الذين زادهم هذا الانتصار إيمانا على إيمان . وخيم السكون على الحاضرين فجلسوا ينصتون كأن على رؤوسهم الطير ، حتى إذا فرغت من خطابى انفجرت حماسهم فراحوا يهللون ويكبرون ويشق هتافهم عنان السماء . وخرجوا من دار الشبان المسلمين يتظاهرون هاتفين لمصر الفتاة ومكررين هتافات مضر الفتاة ... وهكذا تقدمت مصر الفتاة إلى الشباب ليحكم عليها فحكم لها . ومنذ ذلك التاريخ دخلت حركة مصر الفتاة فى طور جديد ، فقد أصبحت حركة عامة ، تتصل بالرأى العام أقوى اتصال ، ولا تستطيع أى هيئة من الهيئات أن تتجاهل وجودها ، أو تظن أنها قادرة على إطفاء نورها .

وإليك الآن نص هذا الخطاب :

### جهادنا الدينى

بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ جهادنا فى سبيل الله ، وبسم الله الرحمن الرحيم أفتتح حديث - المساء . أيها السادة ..

#### حكمة الله

عجبية والله حكمة الله .. كان مقدرا لهذه المحاضرة أن تلقى فى يوم الجمعة ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ، وكان الاتفاق عليها قبل هذا الميعاد بخمسة أيام ، وكنت قد أخذت على نفسى عهدا أن لا أقدم عليها قبل أن أتلو كتاب الله مرة ، ونظرا لمشاغلى العديدة فقد أكرىنى هذا الأمر ، وعجزت عن تنفيذه .. فكنت لذلك فى حزن مقيم .. وشاءت إرادة الله أن أقاد إلى السجن ، وفى السجن لم يكن لى عمل إلا تلاوة كتاب الله ، فتلوته مرة ومرتين .. وزدت عليه أن طالعت السيرة .. ولهاذا أقف بعد مضي شهر من الميعاد الأول ، لألقى المحاضرة بعد أن قرأت القرآن .. عجبية والله حكمة الله ..

#### نبذة عن تاريخ حياتى

وبعد فقد عرفتمونى أيها السادة صاحب فكرة مشروع القرش وسكرتيره ، لقد عرفتمونى مشتغلاً بمصنع الطرايش حتى خرجت إليكم الطرايش تزينون رؤوسكم بها ، وترفعون عن أنفسكم عار الأجنبي وذله .

عرفتموني شخصاً يشغل بالمسائل الاقتصادية ، ويدعوكم للتعاون في سبيل تحقيق الاستقلال الاقتصادي .. فإيا بالكم ترونني اليوم أقف متحدثاً باسم الدين، ومن أجل الدين . مالكم ترونني بين جدران جمعية الشبان المسلمين ، بعد أن كنت قد انقطعت عنها حقبة من الزمان ، والحق أنه لا يجب أن تستغربوا ذلك مني لأنه تصرف طبيعي ، ومنطقي مع مقتضيات الظروف والأحوال .

لقد فتحت عيني أيتها السادة في فجر الثورة المصرية .. كنت طفلاً وقتذاك لم أنجأز الثامنة من عمري ، ولم أكن إلا طالباً بالمدارس الابتدائية في السنة الأولى منها ولكني أذكر أنني اشتركت ككل طفل في ذلك الوقت في الجهاد القومي .. فاندرجت في سلك المظاهرات ، وارتفع صوتي بالهتافات المدوية «مصر والسودان لنا - مصر للمصريين - الاستقلال التام أو الموت الزؤام» . أجل أيتها السادة أذكر هذه الصور التي أبقيت روعي بقوة والتي تلهمني كيف أحب أمننا الخالدة مصر .. وكيف يسترخص الإنسان الحياة من أجل مصر .

من ذلك الوقت أخذت أطلع تاريخ مصر ، وحيوية مصر .. وفي كل يوم كنت أتعلم درساً جديداً عن المجد المصري القديم .. وفي كل يوم كنت ألقن صفحة جديدة من صفحات الحيوية المصرية .. وارتقيت إلى المدارس الثانوية ، ولم يكن في مصر أحداث سياسية بحيث تشغل حياة الشبان ، قضيت فيها وقتاً طويلاً حتى استيقظت .. وكانت يقظتي بين جدران معبد الكرنك وفي وادي الملوك ، كنا في رحلة كشفية ، وكنا نعيش وسط الخيام على ضفاف النيل ، وفي كل صباح كنا ننطلق لنعيش في آثار المجد المصري وانتقلنا من الأقصر إلى أسوان فالشلال .. وفي كل هذه الأماكن كنا ننزل بلاًداً ، أو نشاهد آثاراً جلييلة ، فتفتحت نفسي أيتها السادة وآمنت بمصر وعظمتها مصر ..

### صفحات من تاريخ مصر

هناك تعلمت كيف كان في مصر حضارة منذ أربعة آلاف من السنين تترى بحضارات القرن العشرين ، كيف كان أجدادنا يكونون دولة عظيمة ، في وقت كانت الإنسانية تعيش في الكهوف والأدغال أكثر ما تكون شبا بالحيوان .

هناك تعلمت أن مصر خالدة : وأنها عاشت على مر السنين قوية نابضة .. أربعة آلاف من السنين أيتها السادة يحاربها الزمان فلا يزيدها إلا قوة ، ولا يزيدها إلا اضطراباً واشتعالاً .

كم من الدول أغارت عليها ، وكم من الفاتحين مروا عليها ، ولكن الدول دالت ، ولكن الدول الفاتحة ماتت ، وبقيت مصر ١١ .. مصر كما كانت دائمة حية قوية ١١

هناك تعلمت هذه القوة السحرية التي استطاعت أن تحول كل شيء إلى مصري ، وأن تصهر العناصر الجديدة وأن تصيرها مصرية .

هناك شعرت بمصريتي ، وهناك أحسست بكرامتي ، وهناك هتفت من أعماق قلبي : «مصر فوق الجميع ١١ ..»

ولما عدت إلى مصر أخذت أراجع تاريخ بلادى ، فازددت زهواً حتى وصلت إلى تاريخ

الإسلام ، ومصر العربية .. الله أكبر ! لقد طالعت عجا .. الله أكبر ! لقد رأيت مصر تعلم العالم وتضيئه بجماعة الأزهر .. الله أكبر ! لقد رأيت الجيوش المصرية تحارب الجيوش الأوربية فتفهرها ، وتأسر ملوكها وأعز فرسانها ، فهتفت من أعماق قلبي للمرة الثانية « مصر فوق الجميع !! » .

وواصلت قراءة التاريخ حتى العصور الحديثة ، لأرى مصر تحت زعامة محمد علي باشا امبراطورية عظيمة تخيف أوروبا بأسرها ، لها أساطيل في البحر و جيوش في البر ، تلك الحصون وتفتح الأقطار ، وفيها المعاهد والمدارس تعلم الشرق القريب والبعيد . فهتفت من أعماق قلبي للمرة الثالثة « مصر فوق الجميع !! » .

### مصر بين ماضيها وحاضرها

وقارنت بين هذا المجد وما نعيش فيه من ذل ، قارنت بين هذا الماضي السعيد وبين حاضرها الشقي يا إلهي ! ما أعظم الفرق وما أبعد الشقة ، لقد بدا لي أن كل شيء حولي مخيف وكريه . لقد بدا لي أننا نعيش في جحيم ، هذه الإمبراطورية العظيمة ما بالها قد انكشفت وتقلصت ، وما بالها قد فقدت كل شيء ، حتى الحق الطبيعي في الحياة ، حتى الاستقلال ! ما بال الجيوش الأجنبية تغزوها وتعيش في أرضها ! ما بال أهلها هكذا يعيشون في جهل مقيم ، ما بال قوتها هكذا يسلبها الأجانب جهاراً والناس في غفلة ، ما بالناس يحارب بعضنا بعضاً ، وما بالناس يتقاتل والعدو يسخر منا ، ما بال أخلاقنا قد هوت حتى الدرك الأسفل ، ما بالناس نندفع في اللهو والفجور والخلاعة ، ناسين الفضيلة وكل ما هو جميل في الحياة ، ما بالناس مرضى ؟ ما بالناس ضعفاء ؟ .

كنت أسأل نفسي هذه الأسئلة وكان الغم يقتلني .  
كنت حائراً ، كنت برماً بالحياة .

يارب كيف تتبدل هكذا صروف الحياة من عز إلى ذل ؟ ومن قوة إلى ضعف ؟ يارب ماذا فعل آل مصر لتحل عليهم لعنتك هكذا ؟ ولتسلط عليهم من العذاب ألواناً ؟ يارب .. كيف تسمح بأن تنتهك حرمة هذا البلد الأمين هكذا ؟ وهو يسبح بحمدهك ويحملك ..

وكان على مكنتي نسخة من القرآن الكريم ففتحتُه لعل مهتد فيه إلى ما يرد أيماناً واطمئناناً ، فإذا بعيني تقع على هذه الآية :  
« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

يا سبحان الله ويا قدرة الله !! لقد قفزت من مكنتي وأنا أصبح لقد عرفت السر . لقد عرفت السر .  
« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » هكذا .. هكذا لقد تغيرت النفوس فغير حالها الله .

لقد جمحت النفس فعاقبها الله .. لقد تنكرت النفوس فتنكر لها الله .  
وكان لابد من العمل .. لابد من رفع الغشاوة التي تعمى أعين المصريين ، فجاهدنا أنا ونفر من إخواني الأعزاء ، وأصدرنا جريدة الصرخة منذ أربع سنوات ، ولكننا كنا طلاباً محوطين بالطلبة ، وجاءت القوانين صارمة تمنع الطلبة من كل شيء فتعطل عملنا .

ومع ذلك فقد كان لابد من عمل شيء .. شيء بعيد عن السياسة كي يشتغل به الشباب .

فاهتممت بالناحية الاقتصادية .. ذلك أنى رأيت كل شيء فى هذا البلد مملوكا للأجانب .

## مشروع القرش

رأيت القوت يسلب من المصريين فى وضوح النهار ، رأيت الفقر والفاقة مع أننا نستطيع أن نجرد الأجانب من كل شيء .. مع أننا نستطيع أن نسليم القوت الذى يسلبوننا إياه .. مع أننا نستطيع أن نبدل فقرنا ثراء ، واحتياجنا غنى .. وذلك بقليل من الإرادة ، وبقليل من التعاون فدعوت الأمة إلى جمع قرش من كل مصرى ، لتأسيس مؤسسة قومية وقد كان !! وجمعت القروش ، وشيد مصنع الطرايش ، وبالأمس نزلت الطرايش إلى السوق ، فكان هذا إيداناً بنصر الشباب الأول أو بشير عودة الروح .. أو هو ناقوس الأمل .

كمل مصنع الطرايش ، وتأسست جمعية القرش ، وخرجت من المدرسة وتيقظ الشباب ، وعادت إليه الروح ، روح العمل والتضحية ، وبدأ يحس بالقلق يساوره .. وبدأ يشعر بالآلام التى يعيش فيها .. وبدأ يتطلع إلى الخلاص .

كل شيء مستعد ، وإذن فإلى العمل . دعوت أصدقائى الشبان للتجرد من كل شيء ، وتقديم أنفسنا فداء للوطن ، حتى تصبح مصر فوق الجميع أو نموت ، وأقسمنا وأخذنا نفكر فى العمل الجدى .. ما السبيل إلى الخلاص ؟ ما السبيل إلى المجد ؟

أنواصل العمل تحت راية الأحزاب ؟ وهى على ما هى عليه من تطاحن وقتال ؟ أنشتغل فى الاقتصاد ؟ . أنشتغل فى الاجتماعيات ؟ ماذا يجب أن نفعل ؟ ما هو السبيل .. وهنا للمرة الثانية سمعنا كلمات الله فى الراديو :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

## سر الحياة

من نحن وما نحن ؟ هذا هو السؤال الأزل الذى يخامر الإنسانية منذ آلاف الدهور . نحن خليفة الله وإرادته ، نحن مشيئة الله وكلمته ، كن فكان .. ومادام الأمر كذلك ، ومادام أن وجودنا فى الحياة ليس إلا من إرادة الله . فإن سؤالاً يعترضنا : لماذا أوجدنا الله سبحانه ؟ فإذا الجواب : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

هكذا .. هكذا ، أيها السادة ، هذا هو سر الحياة ، وهذا هو معناها ، أو بمعنى آخر ذلك هو محور الحياة وحجر الزاوية فيها . فنحن قد خلقنا لتعبد الله .

فطوبى لمن عرف هذا السر وقدره .. أنه ليبلغ من القوة شأوا عظيماً .. ذلك أنه يكون مسلحاً بقوة الإيمان .. وهذا الإيمان يستطيع أن يدك الجبال ، ويذيب الحديد ، ويحيى الموتى .

ما أضل من جهل هذا السر... سر الحياة . إنه ليعيش طوال حياته فى ضعف وذلل .. إنه ليعيش فى الوحل والقاذورات ، وما ذلك إلا لأنه لا يملك قوة الإيمان .

وبعد أيها السادة ، هل تريدون أن أحدثكم عن الإيمان ؟

هل تريدون أن أصور لكم الرجل المؤمن كيف يستطيع أن يقابل الموت ؟ راضيا من أجل إيمانه ؟ اذكروا إذن كيف كان المسيحيون في إبان دعوتهم يحملون على الصليب وتدفق المسامير في أيديهم وفي أرجلهم ، دون أن يتأوهوا أو يشكوا . هل تذكرون كيف كانوا يرمونهم إلى السباع الجائعة فتفك بهم ، وهم يسبحون الله ؟ .. وكان ذلك عندما كان الإيمان يملاً قلوبهم ، فاستطاع أفراد قلائل منهم أن ينشروا المسيحية في أنحاء العالم .

## إيمان المسلمين الأوائل

ونحن .. نحن المسلمين ماذا استطاع أجدادنا أن يفعلوا .. لما كان الإيمان يملاً قلوبهم .. لقد فعلوا المستحيل .. لقد خلقوا من شبه جزيرة العرب القاحلة الماحلة من الزاد ، ومن الرجال ، لقد جعلوا من شبه الجزيرة هذه دولة تحكم العالم ، لقد ألفوا امبراطورية لم يعرف التاريخ مثلها ، لقد أسسوا ملكا لن تدول دولته أبد الآبدين ، أتذكرون كيف كان المسلم يحارب العشرة أبطال فيقهرهم ؟ أتذكرون كيف كان المسلم يستقبل الموت مرتاحا في سبيل الله ؟ أتذكرون أبا سفيان عندما فقد إحدى عينيه في إحدى الغزوات ، فذهب بها إلى النبي يشكو فقدها ، وكانت على كفه ، فقال له عليه الصلاة والسلام ، لو طلبت من الله أن يردها لك لفعل ؟ فهل تحب هذا ، أم تحب عينا خيرا منها . في الجنة ؟ فرمى أبو سفيان عينه وقال بل خيرا منها في الجنة ! هل تذكرون كيف كان المسلم يضرب على رجله بالسيف فتقطع ، فيتزع رجله ويحارب بها ، هل تذكرون كيف صمد النبي في موقعة أحد ، ولم يكن حوله إلا رجل أو رجلان يحاربان وسط هذه الجموع ، فلم تزل منهم شيئا .

هل تذكرون كيف كان المسلمون يستشهدون ؟ وهم سعداء أنهم ملاقوا ربهم ؟

هذا هو الإيمان الذي جعل العرب يحطمون أقوى الإمبراطوريات وأعظمها ، وأغنى بها الإمبراطورية الرومانية ، ويثلون عرش الأكاسرة ، وذلك بقوة الإيمان واليقين .

فعلوا ذلك في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ذلك المؤمن المتقشف الذي كان ينام في العراء ، وقد يبيت وأولاده على الطوى ومن حولهم ذهب العالم وجواهره ، وما ذلك إلا لأنهم يعيشون بالإيمان ، وبالإيمان يتصبرون ، وما أحقر المال وأمثاله إذا ما قورن بالإيمان .

روى أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما جاءوه بأموال كسرى بعد فتح المدائن . وأخذ المسلمون يقتسمون بساط كسرى العظيم وما فيه من جواهر وذهب ، بكى عمر بن الخطاب . فقالوا له علام تبكي يا أمير المؤمنين والوقت وقت ابتهاج لا بكاء ؟؟ فأجابهم ما بكيت إلا لعلمي أن هذا المال الذي تقتسمون هدم دولا ، وثل عروشا ، هذا المال الذي تقتسمونه ما كان في جماعة إلا وعجل بإفنائها ، فبكيت خوفا على أمة العرب ، وقد صارت إلى هذا الغنى ، وتكدست فيها هذه الأموال .

فالإيمان ، أيها السادة ، هو كل شيء . فلا الجيوش ، ولا الأساطيل ، ولا المال ، ولا أي قوات الأرض ، تعادل الإيمان في قوته ذلك لأنه ليس إلا نفحة من نفحات الله .

## مصر المقدسة

ومصر ، أيها السادة ، يستطيع أعداؤها أن يجردها من كل شيء ، إلا أن تبقى متدينة بما لا نظير له في بقعة أخرى من أنحاء العالم .. مصر أيها السادة ، كانت ، ولا تزال ، وستظل دائماً أبداً ، موئل الأديان وحاميها .. فإذا ذكرت الأديان ، جاءت مصر تذكر الناس بالأديان .. ومن هنا كانت مصر تقوى إذا ما ازداد تعلقها بدينها وتضعف كلما انحرفت عن دينها . ذلك أنه بلد دين قبل كل شيء ، تعيش على الدين وتعتمد عليه .

انظروا إليها منذ أربعة آلاف من السنين ، وقد كانت الإنسانية في خطواتها الأولى لا تكاد تعرف كيف تطهى طعاماً أو تحيك ثياباً ، انظروا إلى مصر وقد عرفت من مبادئ الدين ما يكاد يحار له العقل ؛ لولا أن تؤمن بأن الله أوحى إلى أبناء مصر بعض أسرار الدين .. كثيرون من الأغراب يحسبون أن دين المصريين كان ديناً وثنياً . ديناً متعدد فيه الآلهة . ديناً يُعبد فيه القطّ والتمساح والثعبان . لا ، أيها السادة ، حاشا وكلا أن تكون هذه عقلية بناء الأهرام !! حاشا وكلا أن تكون هذه عقلية الناس الذين أخرجوا حضارة تزدى بحضارة القرن العشرين !! ولكن هو جهلنا بفهم نصوصهم ، هو قلة ما وصل إلينا . ولما كانت لغة هؤلاء ، الأقوام رموزاً بالرسوم ، فقد ضللتنا الطريق ، وحسبنا كل هذه الرموز آلهة ولو فكر السادة العلماء ، لعلموا أن هذه الرموز التي حسبوها آلهة لم تكن إلا أحرفاً للكلمات تترجم عن معانٍ أخرى ، أكثر سموً وتعقلاً ، بما يتناسب مع ذهنية المصريين القدماء الجبارة . وما أعجب ، أيها السادة ، أن أخط هذه الكلمات ، وأن يقع في يدي بالأمس كتاب لأحد القضاة الأفاضل ، وهو الأستاذ صالح سالم هيكال ، فقرأ فيه ما يؤيد هذه النظرية ، وما يقيم الدليل عليها .

## ديانة المصريين القدماء

فقد كُشِفَتْ أخيراً ، أيها السادة أنشودة من أناشيد المصريين الدينية ، فإذا بها حديث عن الله سبحانه وتعالى . حديث جاء فيه : الله واحد أحد ، الله خالق نفسه ، وخالق الموجودات . الله سيد الأرض ومن عليها ، لا ابتداء له ولا انتهاء .

وليس الآن مقام البحث في ديانة المصريين القدماء حتى أزيدكم تفصيلاً . ولكني أقول لكم إن المصريين القدماء آمنوا بالتوحيد ، وعرفوا البعث والنشور . وعرفوا الميزان والحساب . وعرفوا الجنة والنار ، وهذه كلها من تعاليم الأديان السماوية ، كان المصريون القدماء رجال دين أيها السادة ، وكانوا يعلمون العالم الحكمة والإيمان . وقد كان هذا سر قوتهم ونبوغهم : من أجل الدين وتعاليم الدين ، أقاموا الأهرامات الخالدة . من أجل الدين وتعاليم الدين ، قاموا بمعجزات العلم والفن . هذا التحنيط ؟ أيها السادة ، الذي هو معجزة من معجزات العلم في الوقت الحاضر ، لم يعرفه المصريون إلا لغاية دينية بحتة . وفي مصر ، أيها السادة ، وبين أحضان فرعون ، تعلم موسى فأتاه الله حكمة المصريين : كما يقول كتابه المقدس ، وأنزل الله الديانة اليهودية على موسى . وإذا كان فرعون قد كفر بها ، فهذا ملك متجبر له شأنه ، ولكن المصريين آمنوا برسالة موسى كما يحدّثنا القرآن ، عندما سجد السحرة ، وقالوا «آمنّا برب العالمين رب موسى وهارون»



وهذه هي مصر المتدنية المتعبدة . ولما جاءت المسيحية ، أيها السادة ، تفتحت لها مصر ، واحتضنتها . وبينما كانت تُطارَد في كل مكان ، وكان أبنائها يُرمون للسباع ، كانت لهم في مصر دولة وسلطان . وبينما كانت كنائس الشرق والغرب تُحطَّم ، كانت كنيسة الإسكندرية تحمل اللواء . فقد حمت مصر المسيحية ، وأبقت عليها ، وأعلت كلمة الله ضد روما المتفطسة ، حتى كسرت شوكة روما ، واعتنقت المسيحية بدورها .

## مصر الإسلامية

وظلت مصر مسيحية كأقوى ماتكون ، حتى جاء الدين الجديد .. حتى جاء دين آخر الأنبياء كافة وسيد المرسلين ، مبشرا ونذيراً ، ففتحت مصر ذراعيها للدين الجديد . وقام المصريون يرحبون بالفاتح الجديد الذى يعلى كلمة الله وينادى بالتوحيد . وقد كان أهل مصر موحدين في المسيحية .

وتمكن الإسلام من نفوس المصريين الطاهرة المؤمنة ، فوجد فيهم موثلاً وظهيراً . ووجد فيهم ركنه الحصين ومركز علمه الذى لن ينطوى أبداً .. وعندما سقطت دمشق وبغداد ، وسقطت حصون الإسلام وأعلامه ، وسقطت البيوت المقدسة ، وجاءت أوروبا الصليبية لتقضى على الإسلام ، كانت مصر الإسلامية هي التي أبقت على الإسلام وحمته . كانت مصر ، وجنود مصر ، هي التي دافعت عن الإسلام ضد الصليبيين حتى اكتسحتهم ، ووضعت أنفهم في الرغام ، وتذكروا أن الصليبيين لم يكونوا إلا أوروبا بأسرها ، وأوروبا المتحمسة المتدنية . جاءت لتقضى على الإسلام فامتلات نفوس المصريين بالإيمان ، وأعادوا سيرة الجهاد الأولى . سيرة الصحابة الأجلاء .

أجل لقد عادت إليهم روح الاستشهاد الأولى ، فاستطاعوا أن يظفروا بأوروبا وأن يقهروها . واستطعنا . أيها السادة . أن نعل كلمة الله عند الصليبيين كما أعليناها بعد ذلك عند التتار المخربين . والذين حطموا عواصم الدولة العربية . وطرودوا الخلفاء .

وفي وسط هذه الحروب ، وسط هذا الظلام ، في وسط الفتنة والجهل الذى خيم على العالم . كانت جامعة الأزهر . وأعنى جامعة الإسلام الوحيدة في أنحاء العالم . هي التي تبعت بالتور والعلوم إلى أنحاء العالمين .. هي التي تحفظ المدنية والحضارة . وهي التي تعل كلمة الله .. أيها الأزهر . يا أعز تراث . يا أقدس معهد في العالم . أيها الأزهر . يامن أوجدك الله لتكون إماماً ونبراساً . إني لأنحنى أمامك تقديساً وإجلالاً . إني لأحبيك والدموع تجول في عيني عندما أقارن ماضيك بحاضرنا .

هذه هي مصر العظيمة بدينها أيها السادة . هذه هي مصر التي تستمد قوتها من تمسكها بدينها ومن هنا بقيت على مر الزمان . ذات حيوية خالدة لا تنضب . وانهمز كل أعدائها وبقيت هي تسير إلى الأمام .

وقد فطن إلى هذا السر كل أعداء مصر وفاتحوها . فجاءوا من هذا الطريق .. طريق الدين . فإن الخرافات القديمة تحدت أن ملك الفرس . عندما أراد فتح مصر . اتخذ لذلك سبيلاً دينياً . بأن وضع في مقدمة جيشه حيوانات مقدسة لدى المصريين فامتنعوا عن القتال وتركوه يدخل بلادهم .

كفى لا يمسا هذه الحيوانات المقدسة ولست أشك في كذب هذه الخرافة . ولكنها على كل حال تدل على شدة تعلق المصريين بدينهم ومن بعدهم الإسكندر . لكى يستطيع أن يعيش في مصر . آمن بديانة المصريين وذهب إلى هيكلمهم وسمى نفسه ابن آمون .

ومن بعده البطالسة . ومن بعده الرومان . دخلوا في المسيحية . حتى جاء الإسلام . فتفتحت له قلوب المصريين . ولم يستطع بعد ذلك أن يحكمها إلا مسلم . حتى نابليون . أيها السادة . اضطر أن يسلم لكى يعيش في مصر . نابليون . أيها السادة . دخل مصر في يوم وليلة . دون أن تصادمه مقاومة . ولكنه دخل الأزهر بجيلة يوما . فثارت عليه الثورة التي لم تنته حتى بارح مصر . ولم يوقفها إلا بأن أعلن إسلامه . فسكت عنه المصريون وفرحوا بانتصار دينهم . والانجليز أنفسهم . أيها السادة . عرفوا ذلك منا ففعلوا في مصر كل شيء . وحطموا كل شيء . وغيروا كل شيء . واحرقوا كل شيء إلا دين المصريين . لأنهم وثقوا أن هذه هي ناحية الخطر في كل ما يفعلون . وأن المصريين يرضون بكل شيء إلا أن يضايروا في دينهم . فكرموا هذا الدين وعظموه . ولو ظاهرا . أستم ترونهم يدعون علماءنا ليلة القدر احتفالا بهذا العيد العظيم .

ها كم حادثة التبشير الأخيرة . هل رأيتم كيف اجتاحت البلاد عاصفة الغضب ضد التبشير والمبشرين . وكاد البركان ينفجر لولا أن تصدى للموضوع جلالة مولانا الملك المعظم . فعالجه بحكمته . وأمر حكومته بتلافى الأمر . بفتح الملاجئ والمستشفيات . أيها السادة . ادرسوا نفسية الفلاحين . وهم سواد الشعب . إنهم لا يعرفون في الوجود إلا الله . ثم الأرض . الله هو الذى خلقهم . وهو الذى يمتهم . ويحاسبهم . والأرض ... يزرعونها . ويتعيشون من نباتها . فها دام الله قد بقى لهم فهم ناعمون آمنون . ومادامت أرضهم تركت لهم يزرعونها . فهم آمنون ناعمون جدشهم بعد ذلك عن الاقتصاد . حدثهم عن الفلسفة . فسيسمعون إليك وكأن الكلام لا يعينهم .. لأنهم جنود الله وزارعو الأرض .

هذه هي نفسية الشعب المصرى . وهذا سر قوته . وإذا كنا قد وصلنا اليوم إلى ما وصلنا إليه من ضعف . فما ذلك إلا لأننا جهلنا هذه الحقيقة . وشغلنا ألفاظ أخرى وعاولات أخرى : إذا كنا قد تدهورنا فما ذلك إلا لأننا غيرنا ما بأنفسنا . إننى أعلن أن ساسة هذا البلد جميعا . مسئولون عما وصلنا إليه من انحطاط وتدهور . ذلك لأنهم جهلوا طريق الدين واعتبروه نافلة من النوافل . فعملوا لكل شيء إلا الدين . أستغفر الله بل لقد عملوا على هدم الدين . هدموه في وضح النهار . هدموه تحت سمع العالم وبصره . فهل تعجبون بعد ذلك أن حكمتنا الانجليز طويلا ؟ هل تعجبون بعد ذلك أن استعبدنا الأجانب ؟ هل تعجبون أن فقدنا معنويتنا وثقتنا بأنفسنا ؟ إننى أتهم رجال السياسة المصريين بالإجماع من فوق هذا المنبر .. إننى أتهم الزعماء علنا من فوق هذا المنبر .. بأنهم مسئولون عما وصلنا إليه .. ذلك لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

من ذا يقول إن في بلد الإسلام والدين . يكون الفجور علنا . يا لسخط الله . بل ويكون برخصة من الحكومة المصرية .. أيها السادة . أيها الزعماء . يا رجال الحكومة . قبل أن تتحدثوا

عن الدستور ، قبل أن يتحدثوا في الاستقلال ، تحدثوا في هذا الخزي والعار ، وارفعوه عن أنفسكم ، يصلح الله شأنكم . إنني لأجن أيها السادة عندما أفكر في هذا الموضوع ، الله يبغض الزنا ، الله يعتبره من أكبر الجرائم ، الله يأمرنا أن نرجم الزاني ، ثم حكومة مصر ، حكومة الإسلام ، حكومة الدين ، تفتح البيوت للناس وتتقدم بالرخص لأبناء العائلات ، ولتساعد البنت ضد أبيها إذا أرادت احترام البغاء ، ولتحمي الزاني ضد لعنات ذويه ، استغفرك اللهم وأتوب إليك . ومصر بأسرها ، مصر التي عرفتها يارب ، مخلصه متفانية لكلمتك ، مصر التي رفعت لواءك يارب طوال خمسة آلاف سنة ... إنها تثور على هذا الشر وتستكره .

الله يحارب الخمر ويلعنها ، فإذا بمصر الإسلامية تفتح لها صدرها بأكثر مما تفتحه لها إنجلترا ، وفرنسا . ففي هذه البلاد تقفل المواخير في ساعة محدودة ، ويمنع الشبان الصغار من ارتيادها ، أما في مصر ، مصر الإسلامية ، فالخمر يسرى إلى أعماق القرية ، والخمر يعلن عنه ويروج له في كل صحيفة مصرية . حتى الحكومة تروج له أحيانا ، وتطبع إعلاناته على دفتر التلفون ، وفي محطات السكك الحديدية . وعندما يقوم رجل كهلوش ينادي بحرب المسكرات ، هزأ منه الساسة ، وأشفقوا عليه . واعتبروا عمله منكرا من المنكرات ، والله إن المنكر هو أنتم وحياتكم .

دعوكم من التذوق الخلقى .. دعوكم من الرذائل كلها ، التي حرمها الله فأباحها القانون ، لن أحدثكم عن القمار ، والخمر ، والربا ، والزنا ، والتفكك ، لن أحدثكم عن هذه المبالو الهدامة في كيان الأمة . ولكني سأحدثكم عن شيء أهون من هذا وأبسط سأحدثكم عن هذا التفكك بين المسلمين . إن حكومتنا ، أيها السادة ، لتعرف من أخبار ألمانيا وفرنسا وإنجلترا أكثر مما تعرف من أخبار فلسطين الشقيقة المسلمة . أنهم ليعلموننا في المدارس أسماء بلاد الولايات المتحدة بلدا بلدا ، ولكنهم لا يعلموننا شيئا عن جادة المسلمة وما فيها من إسلام . أنهم لا يحدثوننا عن الهند المسلمة ، ولا الصين المسلمة . ولولا شذرات سمعتها في الجرائد من حين لآخر ، لجهلت . أن في الصين مسلمين وأن في جاوه مسلمين .

ذلك أن التعليم في مصر يحارب الدين . التعليم في مصر ثورة على الدين ، لأنه تعليم يفرس في نفس الشاب أن الحياة ليست في الدين ، وأنها في شيء آخر . هو هذا العلم الذي يدرس في هذه البلاد .

ولم يكن ذلك كله إلا سياسة الإنجليز الدينية . لقد عرف الإنجليز كيف يحكون البلد .. عرفوا أن السبيل إلى ذلك هو إبعاد النشء الجديد عن الدين ونظرياته ، عرفوا أنهم يستطيعون البقاء في مصر . لا يبيحونهم . بقدر ما يستطيعون ذلك عن طريق نشر الشرور والآثام ، فأباحوا الخمر والربا والزنا والقمار . وكل ما يفتك في الجماعات ، بحجة أن هذا مدنية للمصريين . فلتخسأ المدنية ، ولتذهب إلى جهنم . إذا كانت هذه تعاليمها ! فلتخسأ المدنية وليخسأ أصحابها والمنادون بها ، إذا كان هذا أثرها !

لا والله ما كانت هذه هي المدنية . ولكن هذه هي معاول المدنية . لا والله ما كان هذا يرق شعباً . ولكن يخرب شعباً . لا والله ما كان الاستتار . والدعارة . والجمود في الدين . والإهمال لأوامر الله . إلا نذير الهلاك والعذاب .

حمدا لك يارب أن رفعت الغشاوة عن أعيننا . حمدا لك يارب أن أُنحِتَ لنا فرصة الاهتداء بنورك وهديك . ففتح اليوم قد آمنا . وعرفنا الطريق . عرفنا السر . وعرفنا السلاح .

أيها الشبان . يا شبان مصر . ويا جنود مصر الفتاة :

إن أردتم نجاحاً في الحياة وفلاحاً . إن أردتم استقلالاً ومجداً . فغفروا ما بأنفسكم .. آمِنُوا بالله وأوامر الله . قدموا أنفسكم في سبيل الله . فغير الله ما حل عليكم من السخط والغضب .

الدين .. الدين أيها الشبان .. الدين الدين أيها الشيوخ .. الدين الدين أيها الحكام .. والله إن الانجليز لا يملكون في يدهم خيرنا وسعادتنا . ولكن نحن أنفسنا نستطيع .. أن نكون أقوياء . ونستطيع أن نكون ضعفاء .

فلترفع كلمة الدين عالية فيجتمع لنا في مشارق الأرض ومغاربها مئات الملايين من المسلمين ، لقد كانت مصر منذ خلقت للعالم منارة نور للعالمين . كانت مصر سيدة وزعيمة وقائدة . كانت مصر زعيمة الإسلام والمسلمين . فهللوا نسترجع زعامتنا الدينية .. هلموا نرفع اللواء أمام الشرق القريب والبعيد . هلموا نأخذ مركزنا تحت الشمس فوق العالمين . إن لكم ديناً أيها الشباب سيحكم العالم بأسره . إن لكم ديناً يهدم الفوارق ويوحد الجبايات ويجمع الناس في صعيد واحد . إن لكم ديناً تعجز تعاليم القرن العشرين عن أن تصل إلى مستواه . هل تذكرون كيف كان الأعراب ينادون رسول الله ييا محمد . وكيف كانوا يماجونه ويناقشونه . هل تذكرون كيف يقول الكتاب « وأمرهم شورى بينهم » هل تذكرون قولة رسول الله (المسلمون سواسية كأسنان المشط) . وليس هذا إلا المساواة المطلقة .

هل تذكرون قول عمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . هذه هي الحرية . هل تذكرون الآية الكريمة (إنما المؤمنون إخوة) .

هذه هي المبادئ الثلاثة : حرية . وإخاء . ومساواة . يعلمها الدين الإسلامي منذ ألف سنة .. ويمارسها المسلمون . ولا يعرفها الغرب إلا منذ مائة وخمسين سنة عندما اندلعت الثورة الفرنسية .

إن لكم ديناً اشتراكياً . يعجز العالم في القرن العشرين عن بلوغ مستواه . هذه الزكاة التي فرضت علينا . أليست اقتطاع جزء من مال الأغنياء لينح للفقراء . الأمر الذي يحاول العالم عبثاً الوصول إليه فلا يستطيع . الزكاة ركن من أركان ديننا .

إن لكم ديناً يقوم على المنطق . ويساعد على العمران والحضارة . إن لكم ديناً ينشر السلام ويؤاخى بين سكان العالم . ويوجد لكم عصبية أم تترى بالعصبية الحاضرة

أتذكرون الحج ؟ أنه عصبة شعوب حقيقية . ففيه يتقابل المسلمون . وفيه يتداولون . وفيه يخلون مشاكلهم .

إن لكم دينا حوى الفضائل كلها . واعترف بالأديان كلها . ومجد الأديان كلها . فهو يعيش مع كل الأديان الصادقة .

إن لكم دينا يضمن حياة رغدة في الدنيا والآخرة . فهللوا يا شباب .. هللوا يا جنود مصر الفتاة . نعل كلمة الدين .

هللوا ننادى بإعادة الزكاة . وبإدخال التعليم الديني في المدارس . هللوا تواخي بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

هللوا نقضى على الخمر والبغاء والقمار والتهتك . فتصبح مصر قوية ناضجة . وتصبح مصر جديرة بالزعامة والسيادة . لأنها تكون قد غيرت ما بنفسها . فيغير الله ما بها من ويلات .

### أيها السادة

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة ، فلا بد من إيضاح أنني الآن في مقام بسط سياسة ، فيجب أن تكون صريحة ، لأنني أعتقد أن الصراحة رأس مالى . سنقوم بدعوة دينية ، سندعو مصر والحكومة لإحياء الإسلام وشعائره ، سنعمل لكي تتبوأ مصر مركزها ، ولن يرضى ذلك خصوم مصر ، لن يرضى ذلك بعض سفهاء مصر ، واذن فسيحاولون كعادتهم نشر الدسائس والأباطيل . سيقولون إن في حركتنا الدينية ما يهدد صفو العلاقات بين أقباط مصر ومسلميها ، سيقولون إن دعوتنا خطيرة على الاتحاد المقدس بين الطائفتين . لمثل هذه الدسائس وهذه الأباطيل ، أريد أن أصرح علنا ، ومن فوق هذا المنبر : إن إخواننا يجب أن يفهموا أننا ، كمسلمين ، وأغلبية في هذا البلد ، لنا الحق في مناصرة ديننا والتدعاء بعظمته ، وليس في هذا مساس بدينهم .. وليس يولد هذا خلافا بيننا وبينهم .. بل إننا كما ندعو للدين الإسلامى وزعامة مصر له ، ندعو لزعامة مصر المسيحية أيضا على رجال الكنيسة في الحبشة ، وفي بعض البلاد الأخرى . الأديان كلها لله ، وفي سبيل الله . الدين الإسلامى يؤاخي بين الأديان جميعا ، ويعترف بوجودها وبقدسيتها ..

الدين هو الدين ، وله آثاره في المجتمع ، فقط عندما يكون لله ، ومن أجل الله .

وبعد فهذه خطة واضحة ، وميثاق أعلنه من فوق هذا المنبر ، ليكون برنامجا لنا .

### أيها الشباب

أيها الشباب .. يا أشبال الأزهر ودار العلوم .. يا أشبال الجامعة والمدارس العليا . إن عليكم رسالة ، وفي عنقكم دينا .. أيها الأزهريون يا طلاب أقدس جامعة ، يا طلاب جامعة النور الجديد ، أيها الشباب ، يا جنود مصر الفتاة ، أن لخالقكم عليكم حقا ، فإن لم تذكروا هذا الحق ، حق الله ، فلا خير فيكم لأنفسكم ، ولا خير فيكم لأوطانكم . إن الذى لا يعرف حق

الوطن ، والذي لا يجاهد في سبيل الله ، لا يجاهد في سبيل الوطن .  
 آمنوا بأن جهادكم في سبيل الله ، وأن جهادكم الوطني جزء من الجهاد في سبيل الله ، فستطيع  
 أن نوجه هذه القوة الكامنة في مصر إلى خير العالم ، وخير الإسلام .  
 أيها الشباب الحاضر الآن ، تعلموا وعلّموا الناس أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .  
 قولوا للناس : إن أردتم سعادة الدارين ، فطريقكم هو الدين .. قولوا للناس : إن أردتم  
 استقلالاً ، فطريقكم هو الدين .. قولوا للناس : إذا أردتم مجداً ، فطريقكم هو الدين ..  
 اعلوا كلمة الدين وأرفعوها .. قاطعوا الخمر وحاربوها .. اقضوا على دور الفسق والفجور ،  
 حطموا بيوت القمار .. ادعوا للصلاة في كل مكان ، وتعالوا نجتمع في المسجد كل جمعة لنصلي لله ،  
 نصلي له كي يملأ قلوبنا إيماناً ، ولكي يرفع عنا البلاء الذي أحاط بنا ، ويتنقم من الأعداء الذين  
 يخذلون أنفاسنا . تعالوا نتطهر ، وعندها ستصبح أقوياء ، وعندها سنهد الجبال ، وعندها سنفل  
 الحديد ، وعندها ستصبح مصر فوق الجميع .  
 هذا ما أعنيه بكلمة الله .  
 وهذا أول سطر في برنامج مصر الفتاة .

\* \* \*

## قضية الجيش

### ٧

مصر الفتاة الآن في أوج قوتها واندفاعها ، والصرخة تصدر في انتظام كل أسبوع ، وهى تحمل على صفحاتها شواظا من نار ضد صنوف الموبقات ، ومظاهر الانحلال والضعف ، وضد الاحتلال البريطانى والإنجليز ، في عنف لم يسبق له مثيل ، ولقد بدأت أبعث برسائلى إلى كبار الشخصيات المصرية والإنجليزية أستعرض فيها الحياة المصرية ، وأناقش ما أرغب مناقشته من القضايا ، فثمة خطاب إلى رئيس وزراء إنجلترا<sup>(١)</sup> أهاجم فيه سياسة الاحتلال التى فرقت الأمة ، وفرقت صفوفها ، وسببت تدهور أخلاقها ، وأعلنه فيه بأن مصر الفتاة ستحمل لواء الجهاد ضد إنجلترا ، وسياسة إنجلترا في مصر ، إلى أن يحلوا آخر جندى بريطانى عن مصر . وأنه لا السجون ، بل ولا المشانق ، ترهبنا أو تقعدنا عن المضى في جهادنا ، فإما النصر وإما القبر . وثمة خطاب آخر إلى شيخ الإسلام الأحمدي الظواهري<sup>(٢)</sup> أهيب بفضيلته أن ينهض لمقاومة المنكرات المتفشية في أنحاء المجتمع المصرى ، وأندد بسكوته وسكوت جماعة العلماء وموقفهم السلبي لما يجرى تحت أسماعهم وأبصارهم من المنكرات التى كلفوا شرعا بالإنكار عليها .

وكانت حياتى في هذه الفترة جهادا مستمرا متواصلا بالليل والنهار ، بكل ما فى وسعى وطاقتى . فما كنت أرى إلا كاتبا للصرخة ، أو خطيبا فى حفل ، أو متحدثا فى جماعة ، ولقد كانت الساعات الطوال تمر على وأنا فى حديث مع الشهاب ، الذين كانوا يقدون إلى دار مصر الفتاة الصغيرة المتواضعة فى (حارة الفواله) ، وكان يفاجأ هؤلاء الشبان أول ما يفاجئهم هذا المظهر الذى يدل على الفقر الشديد المدقع ، فى الوقت الذى تشيع فيه الشائعات عن مصر الفتاة ، وأن هذه الجهة أو تلك تمدّها بالمال ، أو أن ذمة أحمد حسين ليست طاهرة نقية كالثلج والبرد . وكان يذهلهم أن تكون هاتان الحجرتان الضيقتان هما كل ما لجمعية مصر الفتاة وجريدة الصرخة من إدارة وميدان للعمل والنشاط . ولكنهم لا يكادون يستمعون لحديثى الذى كنت أواصله بغير انقطاع من أعماق

(١) راجع نص الخطاب فى مجلة الصرخة العدد ١٣ بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(٢) المصدر السابق العدد ١٦ .

قلبي ، حتى يدركوا على الفور هذا المعين العميق الذى نستمد منه قوتنا وثروتنا ونشاطنا ، وأنه معين الإيمان العميق بالله والوطن .. وكان أهم ما يشغلنى فى هذه الأيام هو كيفية إعداد جيل من الشباب ، أكثر قدرة على الكفاح والجهاد والتحرر من موجة الانحلال والتخث ، التى كانت تسيطر على صفوف الشباب فى ذلك الوقت ..

وكنْتُ أرى أن الجندية هى العلاج الوحيد لكل ما تشكو منه مصر من أدواء وعلل ، ولقد عملت من ناحيتى على نشر الروح العسكرية بين صفوف أبناء مصر الفتاة ، فشكّلنا فرقة الألفسة الخضراء ، التى سيكون لها شأن أى شأن فى تاريخ مصر بعد فترة من الزمن ، ولكنها فى ذلك الوقت كانت لا تزال فى بدايتها ، ولم يكن نستخدم إلا القميص الأخضر نلبسه على (البنطلون) الطويل العادى ، أما بعد ذلك فقد تطور لباس مصر الفتاة إلى زى عسكرى كامل ، يجلب الألباب بجماله وأناقته وقوته فى نفس الوقت . على أننى لم أرد أن أقصر كفاحى لنشر الروح العسكرية على مجهودنا المحدود ، بل فكرت فى توسيع دائرة الدعاية للجندية ، ونشرها بين صفوف الشباب عامة ، فتوجهت صوب الجيش المصرى وإلى وزارة الحرية المصرية أستمد منها العون . فكتبْتُ فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٤ خطاباً<sup>(١)</sup> إلى وزير الدفاع فى ذلك الوقت صليب بك سامى أحمل فيه على نظام الجيش المصرى وسيطرة الإنجليز على قيادته ، وسياسة الإنجليز فى عزل هذا الجيش عن الأمة وعن شبابها المتعلمين ، وعن وقوفه ضعيفاً عاجزاً مجرداً من كل سلاح حقيقى . وحملت فى هذا الخطاب على قانون التجنيد الإجبارى الذى يجعل مدة التجنيد خمس سنوات كافية لخراب بيوت المجندين ، وحملت بالأكثر على سياسة الإعفاء والبدل النقدى ، لأن الجندية هى ضريبة الدم التى ينبغى على كل مواطن أن يدفعها ، ولا حياة ولا كرامة ولا حرية ولا استقلال لأمة ما لم تكن أمة عسكرية مدججة بالسلاح ، ولا أمل لمصر فى الحصول على حقوقها المغتصبة إلا بعد أن تتحول مصر إلى شعب عسكرى . وأرفقت بخطابى إلى وزير الحرية عريضة موقّعة عليها من خمسين شاباً من شباب مصر الفتاة المتعلمين المثقفين يعلنون فيها رغبتهم فى التطوع فى الجيش المصرى ، إذا أنقصت مدة الخدمة العسكرية إلى سنة واحدة ، وهو ما تدعى له مصر الفتاة وتبشر . ولقد كان لهذا الخطاب وهذه العريضة ، المنشورين فى الصرخة ، بعد إرسالها إلى وزير الحرية وقع الصاعقة فى الدوائر الإنجليزية والمصرية الخاضعة للسيادة الإنجليزية ، فإذا بهم يقومون ويقعدون ، ويثورون ويحتجون ، ويعتبرون أن ما فعلناه

(١) راجع نص الخطاب فى جريدة الصرخة رقم ١٧ الصادر بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٣٤



جرم شنيع ينبغي أن ننال عليه أشد الجزاء ! . ولقد كان آية ما وصل إليه المجتمع المصرى فى ذلك الوقت من التدهور والانحلال ، أن تعتبر دعوة الخير دعوة شريرة ، وأن يقابل تطوع شبان للانضمام إلى الجيش هذه المقابلة السيئة ، ولقد جاء وقت فتحت فيه وزارة الدفاع المصرية باب التطوع فى الجيش المصرى على مصراعيه ، وجاء وقت نددت فيه الحكومات المختلفة بقانون التجنيد وأعلنت رغبتها فى تعديله بما يتفق ومبادئ مصر الفتاة ، بل جاء وقت أصبح التدريب العسكرى فيه قانوناً ونظاماً للجامعة والمدارس المختلفة ، وجاء الوقت الذى أصبح طلاب الأزهر أنفسهم يتلقون تدريباً عسكرياً يؤهلهم لأن يصبحوا ضباطاً احتياطيين للجيش ، ولقد عشت حتى رأيت شبان مصر الفتاة ، الذين اضطهدوا لرغبتهم فى التطوع للجيش ، قد صاروا بعد ذلك ضباطاً من صميم الجيش .. ومع ذلك فقد حوكت فى يناير سنة ١٩٣٤ لأننى دعوت إلى نشر الروح العسكرية فى مصر ، ولأنى دعوت إلى إصلاح قانون التجنيد ، وسبق ذلك هو شأن مصر الفتاة دائماً أبداً ، طوال الاثنى عشرة سنة التالية ، وهو أن نحاكم على مبادئ واقتراحات لا تلبث أن تصبح بعد قليل هى دعوة المجتمع المصرى بأكمله .

ولقد ساقونا إلى السجن للمرة الثانية ، وكان رفيق فى السجن هذه المرة هو الأستاذ أحمد الشيمى رئيس تحرير الصرخة . وطلبت النيابة من محكمة الجنايات معاقبتنا بالمواد ١٥٩ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ من قانون العقوبات القديم .

وفى ٦ مايو سنة ١٩٣٤ مثلت أمام محكمة الجنايات التى كان يرأسها نجيب بك سالم وتوليت الدفاع عن نفسى بمرافعة لا أجدر ما أعتر به من مرافعاتى التالية قدر اعتزازى بها .. لقد مرت على السنين الطويلة فى محاكمات ومرافعات ، استغرق بعضها ثلاثة أيام أو أربعة ، وبلغت فيها من العنف والشدة إلى حد ما كان يتصور الكثيرون إمكان أن يقال فى مرافعة أمام محكمة ، ومع ذلك كله فستبقى مرافعتى فى قضية الجيش موضع اعتزازى ورضائى ، لأنها كانت أولى مرافعاتى ، ولأننى كشفت فيها الستار عن ضعف الجيش المصرى ، وحذرت وأندرت من إيطاليا وعدوان إيطاليا على مصر ، قبل أن يقع هذا العدوان بتسع سنوات على الأقل . وسيرى القارئ كيف تنبأت فى هذه المرافعة بالحرب الضروس التى وقعت ، وكيف كنت أول النافخين فى البوق للإهابة بمصر والمصريين إلى التهيؤ والاستعداد للحرب ، ولكنى صرختى ذهبت فى واد ، فى ذلك الوقت ، بل ودفعت ثمنها من حريقى ومالى ، ولقد جاء اليوم الذى رأيت فيه بعينى رأسى الإنجليز وفرائصهم ترتعد ، لخطر المحور الذى يوشك أن يدهمهم فى مصر ، وهم

يندبون جرمهم الشنعاء في إبقاء الجيش المصرى ضعيفاً ، ولنسمع الآن إلى هذه المرافعة التاريخية .. وستعطيك صورة كاملة عن أحوال مصر وإيطاليا والعالم في سنة ١٩٣٤ .

## مرافعة

يا حضرات المستشارين :

أقف أمامكم يا حضرات المستشارين ، وفي هذا القفص ، بصفتي رئيسا للجمعية مصر الفتاة ، فيجب أن تسمحوا بكلمة تقال عنها كتعريف لها .. أهي جمعية ثورية ؟ . أهي جمعية غير مشروعة ؟ فإن هذا التعريف للجمعية ومبادئها وكيف تكونت ، له أعظم الأثر في تكوين اعتقادكم في صحة الكلام الذي ستسمعون منه بعد ذلك . وله أكبر الأثر في حكمكم الذي ستصدرونه في النهاية . أما ما هي ؟ وكيف تكونت ؟ فقد آمنت منذ كنت صغيرا بمصر ومجد مصر . لقد طالعت تاريخها القديم والحديث ، وقلبت صفحات مجدها الغابر . فعرفت مصر الفرعونية وأحببتها ، وعرفت كيف علمت مصر العالم وأضاءت له منذ أربعة آلاف من السنين ، حين كانت الشعوب تقف من مصر موقف التلميذ من أستاذه ، حين جاء الإغريق والرومان إلى ضفاف النيل ينهلون الحكمة والعلوم . لقد عرفت كيف حكمت مصر العالم ، وكيف سيرت الجيوش ، وفتحت المداخن . ولقد عرفت كيف هزت مصر الإسلامية العالم الغربي . وصمدت في الحروب الصليبية ضد أوروبا بأسرها فهزمت ملوكها واقتادتهم سجناء إلى المنصورة . لقد عرفت . كيف صدت موجة التار وأنقذت الإنسانية من شرهم وأبقت على الإسلام . لقد عرفت كيف كانت جامعة الأزهر تضيء على العالم في العصور الوسطى . ولقد عرفت كيف استطاعت مصر ، في عهد محمد علي ، أن تلعب دورا خطيرا في الحياة السياسية ، وكيف طفرت من أمة ضعيفة إلى دولة خفيفة ، ترهبها الدول وتلمس صداقتها . عرفت كيف سارت جيوش مصر تهزج أهازيج النصر ، حتى قرعت أبواب أوروبا . وكيف كادت تحطم الإمبراطورية العثمانية . وكيف جابت أساطيلها البحار فأرهبت الأساطيل .. عرفت كل ذلك ، وعرفت أن مصر خلقها الله لتكون سيدة وزعيمة . وأن مصر لم توجد الطليعة في مركز العالم وفي ملتقى الطريق بين الشرق والغرب عبثا ، أو لمحض الصدفة . ولكن لتقود العالم ولتضيء له . عرفت كل ذلك وجلت بنظري فيما حولى فما رأيت الا مظاهر الضعف والتقهقر والخنوع .. لا استقلال ، لا ثروة ، لا كرامة ، لا غير . فالانجليز يحتلوننا ، وتملأ جيوشهم السهل والجبل ، وتحول بيننا وبين العمل المنتج الصالح . والأجانب يستولون على كل شيء . ويحتمون على صدر الحياة المصرية فيخدمون منها الأنفاس . كل شيء في أيديهم . المال والتجارة والديون والأرض . وهم بعد ذلك يتمتعون بالامتيازات . التي لا تعترف بالبرلمان ولا بالقضاء ولا بالحكومة . والأخلاق لا وجود لها ، فالمصريون في انقسام واضطراب . وتطاحن ، والدين لا أثر له . والمعنويات مفقودة ، والإحساس بالضعف والتشاؤم في كل مكان . هذا يقول إننا بغير الانجليز لا نساوى بصله . وآخر يردد أننا لن نستطيع أن نتخلص من احتلال الانجليز ولو بعد ألف سنة . وثالث يرمى وطنه بأحط الصفات وأقبحها وأنه قد فرضت عليه الذلة والمسكنة . وأن من العبث البحث عن الخلاص ! . وهكذا امتلأت النفوس بالجين . وضاعت

الشجاعة وضاعت الجراءة ، وأصبحنا نعيش في خوف دائم عبيدا للانجليز والأجانب ، عبيدا للفق والضعف .. أما أنا فلم تمتلئ نفسي ياسا ولا تشاؤما . أما أنا فقد استطعت أن أدرك أن ذلك كله ليس إلا ظواهر عارضة ، جاءت نتيجة الاحتلال ، ونتيجة الجهل ، ونتيجة الاستسلام . وأن الحيوية المصرية إذا وجدت من يبعثها ويستثمرها ، هذه الحيوية التي طالما قامت بالمعجزات في التاريخ القديم والحديث ، لم تذهب هباء ، ولم تقن ، ولكنها موجودة وكامنة ، في نفس كل مصري ، وإن غطتها هذه العوارض الطارئة . فأليت على نفسي أن أكون جنديا ، يعمل من أجل مصر ويبعث مجدها القديم .. آليت على نفسي أن أقف مالى وجهدى وروحي في سبيل مصر المفقدة ، وفي سبيل إعادة الروح إلى أبنائها .. روح التفاؤل والأمل ، روح الإيمان بالمستقبل والعظمة ... آليت على نفسي بهذا العهد وبدأت أعمل مذ كنت طالبا فناديت بمشروع القرش كدعوة للاستقلال الاقتصادي ، ودعوة للتضامن والتعاون ، في سبيل غاية مشتركة وفكرة نبيلة . وقد كان ، ولبت الأمة النداء ، وعادت الروح إلى الشباب ، فبدأ يفكر ، وبدأ يعمل ، وبدأ يشعر بالآلام مصر . وبدأ يتطلع للخلاص ويشرب للمجد .. ولما انتهت دراستي وخرجت إلى الحياة ، رأيت أن الساعة قد حانت لدعوة الشباب للعمل .. للعمل من أجل حرية مصر ومجدها .. للعمل في سبيل الإصلاح وفي كل نواحي الحياة ، متحررين من كل قيد ، نافضين عن أنفسنا غبار الخمول والكسل ... غبار الخوف والجن ، غبار التردد والضعف ، فألفت ونفرت من زملائي المحامين جمعية مصر الفتاة . ألقناها لا لنخدم حزبا من الأحزاب ، ولا لنخدم غاية من الغايات ، ولكن لتكون أغابتها مصر فوق الجميع . فصر هي الغاية هي المحور . ومصر ومجد مصر هو كل شيء في جمعية مصر الفتاة . ولم يكن في جمعيتنا فوضيون أو مجانين ، ولكننا رجال عمل وإيمان . فهؤلاء الذين بنوا مشروع القرش بالأمس ، لا يمكن إلا أن يكونوا بنائين . وهؤلاء الذين بنوا مصنع الطرايش ، لا يمكن إلا أن يكون برنامجهم الإنشاء والتعمير . فوضعنا لجمعيتنا برنامجا سياسيا اقتصاديا اجتماعيا دينيا ، دون أن نتقيد بسياسة خاصة ، أو بشخص من الأشخاص ، متخذين شعاراً لنا : « الله والوطن والملك » . وإني أتشرف بتقديم نسخة من برنامج الجمعية ، لتروا فيه أى برنامج إنشائي قد اتخذته الجمعية نبراسا لها ..

على أن الذى يهم المحكمة من هذا البرنامج كله هو البند الخاص بالجيش ، وهو البند ٢٧ والذي جاء فيه « ويجب أن يصبح التجنيد إجباريا للجيش . وأن تنقص مدة الخدمة فيه ، وأن يمتلئ الشباب بالروح العسكرية » .

فإذا تكلمنا عن الجيش فليس ذلك إلا تنفيذا لمبدأ من مبادئنا ، وليس ذلك إلا للتحدث عن الإصلاح ، في ناحية من نواحي الحياة المصرية ، التي نبغى لها الإصلاح جميعا . ولكن النيابة ، ساعها الله ، وهى أعرف الناس بمقصدنا هذا ، لأنها أثناء التحقيق استطاعت أن تكشف روحنا .. استطاعت أن تعرف من نحن وما نحن ، هذه النيابة رأت أن تعتبرنا مجرمين لا مصلحين . هذه النيابة تجيء بنا اليوم ، لتوقفنا في هذا القفص ، على اعتبار أننا مجرمون نستحق العقاب ، تماما كهذا الذى سرق . وهذا الذى هتك العرض ، وهذا الذى زور .. ونحن لسنا نشكو ذلك . بل على العكس نرحب به . لأنه سيتيح لنا الفرصة لشرح مبادئنا ، وتحمل العذاب في سبيلها .

## السبب المباشر لكتابة الخطاب والعريضة

إلى هنا قدمنا أنفسنا بما يثبت للمحكمة أننا لسنا إلا أشخاصاً مجاهدين . ييغون الإصلاح والمجد والرفعة لأنهم . إلى هنا بينا كيف أن ما قننا به وما نقوم به من كفاح وجهاد ليس إلا لمصر . ومن أجل مصر . وفي سبيل الله . وبقي أن نعرف الدافع المباشر لكتابة هذه المقالة .

قدمت أن برنامج الجمعية يحوى مضاعفة الجيش . وضرورة جعل الخدمة إجبارية . وإنقاصها إلى مدة ستة . وإذن فإن التحدث في هذا الموضوع طبعى . وهو ليس إلا تفصيل ما أجمله البرنامج .. على أن هناك سبباً مباشراً لكتابة هذا المقال . هناك عود ثقاب أشعل نفسي وجعلني أمسك بالقلم ثائراً متمرداً قاسياً في نقدي . وأقسم لكم أنكم ستمثلون غيظاً بدوركم عندما تسمعون القصة . هذا الذى سأحدثكم عنه ليس بالجديد ولا بالأمر المستور . ولكنكم سترتاعون عندما ترونه مسوطة أمامكم . عندما تشاهدون تسلسل القرائن واجتماعها لتؤدى بنا إلى نتيجة واحدة . وهى أن مصر فى خطر عظيم . وهى لاهية تلعب . وهى لاهية مشغولة بتوافه الأمور . ووزير حرييتنا يهتم بأن يقذف في السجن . أكثر من أن يهتم بمواجهة العدو الذى يترصد بنا الدوائر .

كنا جلوساً فى أحد الأيام . فحمل إلينا أحد إخواننا مصورين جغرافيين يطلق عليهما اسم «فيلبس» وهما ليسا الا نسختين من مصور واحد . الأول تاريخه سنة ١٩١٦ . والثانى تاريخه سنة ١٩٣٢ . ولقد لفت نظرنا بشكل مخيف فى هذين المصورين تغير حدود مصر . وحصار الحدود الإيطالية إياها من كل جانب تقريباً . وإن نظرة واحدة إلى المصورين تريكم كيف فقدت مصر كثيراً من حدودها الغربية . وكيف اقتربت إيطاليا من داخلية مصر . فإذا أضفنا إلى هذا أن إيطاليا فى الجنوب تحاصرتنا فى الأريتريا والصومال وحاولت أخيراً أن تقترب من حدود السودان وتستولى على إحدى الواحات . فبادرت المجترات إلى احتلالها . الأمر الذى أعاد إلى الأذهان واقعة فاشودا . هذا إلى استيلائهم فى البحر الأبيض على سلسلة من الجزر الصغيرة التى تقع فى شمال مصر . أقول لكم يا حضرات المستشارين إن هذا كله لفت أنظارنا إلى الخطر المحدق بمصر من ناحية إيطاليا . ولم يعض على اجتماعنا هذا يومان . حتى اجتمع فى إيطاليا مؤتمر للطلبة الشرقيين وكان انعقاده فى روما . ووقف السنيور موسوليني خطيباً . فقال إن مهمة روما هى الجمع بين الشرق والغرب . وإننا سنعيد الإمبراطورية الرومانية الى سابق مجدها . وهذا لصالح العالم .

أستمعون يا حضرات المستشارين ؟ إن السنيور موسوليني يريد إعادة تكوين الإمبراطورية الرومانية . وما هى ألمع جوهرة فى الإمبراطورية ؟ .. انها مصر ! ومن هنا كان موسوليني يهتم بمصر اهتماماً خاصاً . ويوجه إليها عناية عظيمة ! امتلأت نفوسنا بهذه الفكرة وأحسننا بوقعها أليما فى نفوسنا . أحسننا بالألم يملؤنا ويحز فى نفوسنا . كيف أننا كالشاة يتبادلها الجزارون . وكل لا يريد إلا جلدها ولحمها . وبينما كنا نسير فى يوم من الأيام . إذا بفرقة من الشباب الفاشستى الإيطالى تسير على نغبات الموسيقى فى شوارع القاهرة . ومن هم الفاشست ؟ . إنهم جنود إيطاليا الجديدة . انهم الشباب يربون تربية عسكرية . وإذن فى داخل مصر . وفى قلب القاهرة . تعد الجنود الإيطالية . الجنود التى ترغب فى إعادة الإمبراطورية الرومانية . الجنود التى تحيط بمصر من كل جانب لتلتهمها فى

الساعة المناسبة .. واذن فقد ثبت لدينا باحضرات المستشارين . أن إيطاليا تريد مصر . ان إيطاليا تتحين الفرص للانقضاض على مصر . أن أطلاع موسوليني لا تقتنع الا بمصر . ولقد يبدو لكم هذا محض استنتاج أو خيال . ولقد تشكون في قيمة هذا الحكم قليلا أو كثيرا . ولكن الله الذى يعلم أننا في سبيله نجاهد . أراد بعد أن قدمنا للمحاكمة . أراد منذ أيام قليلة أن يعطيني دليلا جديدا . فإذا بموسوليني يخطب خطبة جديدة فيها حديث أوفى وأكمل . وإذا بناظر مدرسة الاستعمار يرد عليه . وإذا الذى قلته لكم . باحضرات المستشارين . على أنه استنتاج يصح حقيقة واقعة رخيصة . يعرفها كل مخلوق يطلع على هذا الكلام

قال موسوليني : «للأهداف التاريخية التي تتوخاها إيطاليا - غرضان : آسيا وأفريقيا . فالجنوب والشرق هما المركزان الأساسيان اللذان يجب أن يثرا أهتمام الإيطاليين وصدق إرادتهم . لأنهم لا يجدون أمامهم إلا القليل . أو بالأحرى لا يجدون شيئا في الشمال . ومثل هذا القول . يقال أيضا فيما يتعلق بالغرب وبأوروبا أيضا . ولهذين الهدفين اللذين نرمى اليهما ما يبرهما من الوجهتين الجغرافية والتاريخية . فإن إيطاليا هي . بين الدول العظمى الثلاث في أوروبا . الأقرب إلى أفريقيا وآسيا . فساعات قليلة في البحر . وساعات أقل تكفي لايصال إيطاليا بأفريقيا وآسيا .

وليس في العالم من يستطيع أن يجادل في هذا الواجب التاريخي الملحق على عاتق أبناء هذا الجيل . وأبناء الأجيال المقبلة في إيطاليا .. فالمسألة ليست مسألة فتح . وهذا ما يجب أن يعرفه كل الناس . سواء كانوا من جيراننا أو البعيدين عنا . بل هي مسألة توسع طبيعي . يجب أن يؤدي إلى تعاون إيطاليا وسكان أفريقيا . وإلى تعاونها مع الشرق القريب والشرق المتوسط . وهي أيضا مسألة عمل جدى لاستثمار الموارد التي لم تستثمر في القارتين . ولاسيما القارة الأفريقية . ومساعدتها على التوغل إلى مدى أبعد في دائرة الحضارة العالمية .

إن إيطاليا تستطيع أن تفعل ذلك . فركزها في البحر الأبيض المتوسط . الذى أخذ يستأنف مهمته التاريخية . كصلة بين الشرق والغرب . يحوها هذا الحق ويفرض عليها هذا الواجب . ونحن لا نقصد المطالبة بأى نوع من أنواع الاحتكار أو الامتياز . بل نطلب من الذين وصلوا ورضوا من المحافظين . أن لا يحاولوا حصر توسع إيطاليا الفاشستية والشعب الفاشستي . أدبيا وسياسيا واقتصاديا من جميع الجهات «مستند ٢»

هذه هي خطبة السنيور موسوليني . فهل رأيتم فيها تحدته عن الأهداف التاريخية ؟ .. هل رأيتم فيها كيف يقول أنه ليس في العالم من يستطيع أن يجادل في هذا الواجب التاريخي الملحق على عاتق أبناء الأجيال المقبلة في إيطاليا ؟ .. أو لم تحسوا معي باحضرات المستشارين أن كلمة أفريقيا التي يكررها ليست إلا مرادة لكلمة مصر ؟ .. فإذا كان كل هذا لم يقنعكم في أن موسوليني يطمع في مصر . وفي أنه يبيت لها . فإليك إذن الكلمة الأخيرة الصريحة الجلية .. اليكم ما سيجعلكم مهوتين حائرين . كيف جاز أن يلفظ مثل هذا الكلام . أو يرُدّد هكذا علنا وفي وضوح النهار ؟؟

بعد أن خطب السنيور موسوليني هذه الخطبة . أرسل المعهد الشرق في نابولي تلغرافا إلى السنيور موسوليني هناك فيه بالخطبة التي ألقاها يوم الأحد . وقال أنه يعمل وفقا لسياسة السنيور موسوليني في

سبيل التوسع الإيطالي في آسيا وأفريقيا . ونوه بإنشاء مدرسة «تحسين وسائل الاستعمار» ويقرب زيارة فريق من طلبتها لمصر . ويرحلة بعض أساتذتها لاستكشافات علمية في فزان .

مصر .. مصر يحضرات المستشارين . ها هو ذكرها يأتي علنا . ها هي تزد في قحة وجراة .. انتبهوا إلى العبارة .. «نوه بإنشاء مدرسة تحسين وسائل الاستعمار ويقرب زيارة فريق من طلبتها لمصر» . الله أكبر ! لقد برح الخفاء !! . الله أكبر ! لقد فضح الله الأعداء !! . ها هي النوايا التي حدثتكم عنها تظهر . ها هي سياسة موسوليني في ابتلاع مصر تتردد .. حتى إنه ليرسل طلاب الاستعمار لدراسها !! .

هذا كلام قيل يا حضرات المستشارين .. لو أنه قيل عن بلد آخر يعرف كرامته . لقامت الدنيا وقعدت .. لو أنه قيل عن مقاطعة (للزنج) . لصاح هؤلاء الزوج وأوقفوا القاتل عند حده .. أمة تُهدد في استقلالها ، يتحدث عن استعمارها . ولا يتحرك شخص واحد حركة تُشعر بالحياة . أو الوجود ! .. أما نحن . نحن الفقراء ، والضعفاء . نحن المخلصين الأبرياء . فعندما نقول كلمة نبغي بها الإصلاح ، فهنا تنور الدنيا . وهنا تقوم القيامة على هؤلاء الجرمين الأندال ..

الحق يا حضرات المستشارين . أننا أصبحنا في عصر مخيف .. الحق أننا أصبحنا في عصر قد وصل إلى درجة من الانحطاط الخلقى والسياسي إلى حد عظيم .. وأن السجن للأحرار في هذه الساعة هو خير مأوى .. وأحسن مكان ! .

### رغبنا في الاندماج في الجيش

قال موسوليني هذا الكلام .. وأحسننا الخطة التي يرسمها .. ولقد سمع الكلام وزير الحربية فما أعاره قيمة .. ولقد لاحظ وزير الحربية الخطية فما أهتم لها .. وكيف يهتم ١٩ وهناك مسألة أخرى أكثر أهمية وأعظم خطورة .. وتلك أن يزج بأحمد حسين ، والشيمى ، في السجن . ومن هنا كان لدينا الوقت الكافي لكي نفكر قليلا في الاحتياط للمستقبل .. ومن هنا أتيت لنا الفرصة لكي ننظم وسائل الدفاع . بقدر ما نستطيع . لسنا حكاما فنضع الجيش .. ولكننا شباب كل الذي يملك هو نفسه وروحه . فأردنا أن نقدمها رخيصة من أجل الوطن .. أردنا أن نندرج في سلك الجيش . وأن ندعو غيرنا من الشباب للاندماج في سلك الجيش .. وهكذا نستطيع أن نلبي النداء غداً عندما يدوى النفير يؤذن بأن إيطاليا تريد الاستيلاء على مصر .

وكان حولي خمسون شابا . فدعوتهم أول ما دعوتهم . إلى التطوع في الجيش لمدة عام واحد . فاذا بالجميع يهللون ويكبرون .. وإذا بالحماسة تملؤهم ويبادرون بالتوقيع على عريضة إلى وزير الحربية . ويطلبون بإعداد عرائض أخرى ليقع عليها ألوف من الشبان . وهكذا نستطيع أن نملأ الشباب بروح الكفاح والعسكرة .. وهكذا تستيقظ مصر الغافلة .. وهكذا يعرف العالم بأسره . أن في مصر شبابا يفهم معنى الوطنية . والموت في سبيل الوطن .. فيتردد هذا الذي ظننا لقمة سائغة باردة .

أخذت العريضة . موقعا عليها من خمسين شاباً . وقد امتلأت نفسي سعادة أنني استطعت أن

الفت نظر الشباب إلى الخطر المحدق بهم وأننى رأيت منهم استعداداً عظيماً .. طوبى بهم للجيش الذى ظل بعيداً عن الشباب المثقف حتى الآن .. طوبى بهم للجيش الذى ظل ضعيفاً حتى الآن .. طوبى بهم للجيش الذى ظل أداة غير صالحة لما أعدت له حتى الآن .. فهاهم الشبان يهرعون اليه . ها هي الأمة تستيقظ لتدعم جيشها . لتدعّم مجدها . فالأمة بدون جيش ليست إلا عبداً ذليلاً .. وإذا قلنا الجيش فإنما نعنى الجيش الحقيقى .. لا الصورة التى يراد إيهاً الأمة بها أنها جيش ..

أجل يا حضرات المستشارين . امتلأت نفسى فرحاً أن استطاعت مصر الفتاة أن تقدم لمصر وللجيش هذه الخدمة . ولكنى تذكرت فجأة أننا مخدوعون .. تذكرت أننى قد نسيت بعض الحقائق .. تذكرت أن فى مصر احتلالاً يفعل كل الذى يريد ويمنع ما يريد .. تذكرت أن جيشنا واقع تحت سيطرة الإنجليز . وأن الإنجليز لا يريدون له أى إصلاح .. تذكرت أننا لا نملك حتى هذا الجيش البسيط . وأننا لا نستطيع أن نجرى فيه إصلاحاً .. تذكرت أن وزير الحرية الذى بعث إليه بعريضة التطوع قد يكون أكثر احساساً منى بما يحتاجه الجيش من إصلاح .. قد يكون أكثر عرفاناً بالخطر الذى يهدد مصر . دون أن يستطيع رده .. فأمسكت بالقلم وكتبت . لا لهذا الوزير . فى الواقع . ولكن هؤلاء الذين يسيطرون على كل شيء .. هؤلاء الذين يخذعون الأمة المصرية . ويخدعون أنفسهم عندما يحسبون أننا قد جاز علينا هذا الخداع .. كتبت للإنجليز أعداء مصر . كتبت للإصبع التى تلعب فى كل مكان .. كتبت أعلمها أننا نعرف كل شيء .. أننا ندرك مواضع الضعف فى جيشنا .. أننا لا نرى فى هذا الجيش رمز أماننا وعدة الدفاع عنا .

حتى لقد قلت فى خطابى بالحرف الواحد وأنا أعرف أنك لن تهتم بهذه فإن ملف المحفوظات ينتظرها . أنا أعرف أن إنقاص الخدمة العسكرية إلى سنة أمر مستحيل . وإذن فيظل الشباب بعيداً عن جقه الطبيعى .. أنا أعرف كل ذلك . ولكن ثوبى . يا صاحب المعالي . أن هذه العريضة سوف تقع موقع الصاعقة لدى إنجلترا .. ثوبى أن هذه العريضة ستفزح بعض الأشخاص . فلا ينامون الليل . لقد كانوا آمنين مطمئنين إلى أن الشباب المصرى آخر ما يفكر فيه هو الانخراط فى الجيش . ولكن ساء فألمهم فيها هو الشباب بعد شهر واحد من جهاد مصر الفتاة . ها هو الشباب بمجرد أن وصل صوت مصر الفتاة . يهرع ويريد أن ينضم إلى الجيش .

هذه هي الأسباب المباشرة التى حركتني لكتابة الخطاب . وإعداد العريضة . ونستطيع أن نلخصها فيما يأتى :-

- ١ - الإحساس بما يملأ مصر من خطر داهم من جيوش إيطاليا الفاششية .
- ٢ - الرغبة فى إيقاظ الأمة . والاهتمام بجيشها . ودعوة الشباب للتطوع فيه .
- ٣ - وجود قوات مهيمنة على الجيش تعوق كل إصلاح فيه . يجب أن تعرف أننا بدأنا نعرف أعمالها .
- ٤ - دعوة صارخة إلى إنقاص الخدمة العسكرية إلى سنة واحدة .

## هل هناك جريمة في الخطاب المرسى إلى وزير الحرية ؟

إلى هنا يتبين الأسباب والدوافع التي حدث بنا إلى هذه الصرخة في الحياة العسكرية ، وأترك الآن التحدث عن شرفها ونزاهتها ، أترك التحدث عن أنها دفاع شرعى عن كيان المجموع المصرى إلى حين نصل إلى القصد الجنائى ، وحسن النية وسوئها .

أما الآن : فنبداً بالتساؤل . أهناك فيما كتبناه جريمة ؟ أذكر بإحضرات المستشارين أن الأستاذ صادق العجيزى عندما دعانى أول مرة للتحقيق معى ، ابتدرنى بقوله « إيه ده يا أحمد ، إيه الكلام اللى أنت كاتبه ده ؟ » . فقلت له وهل فيه ما ليس حقاً ؟ فأجابنى : وهل كل حق يقال ؟ فقلت له : أجل .. كل حق يجب أن يقال ، هكذا يعلمنا الله ، وتلك هى مهمتنا الجديدة . أن نجهر بالحق فى كل مكان لا يثني عن ذلك خوف أو جبن . ما دام الذى نقوله حقاً . ولعل هذا هو الجديد فى رسالة مصر الفتاة .

هذه الكلمة التى قلتها لصديق بك العجيزى عندما سألتنى أول مرة وأعبنى بها « وهل فى كلامى ما ليس حقاً » ، وردته على « وهل كل حق يقال » .. هاتان الكلمتان ، أو العبارتان بمعنى أصح ، هما جملة الموضوع وتفصيله . فالقضية المعروضة أمامكم اليوم ، تلتخص فى الفصل فى هذه النقطة . أما أنا فأقول إن الحق يجب أن يقال دائماً ، وأن قولة الحق لا يجب أن تنتج جريمة . وأما النيابة فترى أن ذكر الحق ، فى بعض الأحيان ، قد يكون جريمة . على أن هذه القضية مفصول فيها منذ الآن بإحضرات المستشارين ؛ فأنتم فياصل الحق ، وأنتم حجة الحق . وأنتم تعاقبون الشاهد الذى لا يقول الحق . وأنتم تبلغون درجة القداسة ، لأنكم حماة الحق ، الباحثون عنه دائماً أبداً .

والبرء يقف أمامكم مطمئناً . لأنه يعرف أنكم لابد مظهرو الحق . تلمسك النيابة بظاهر الكلام ، وتقول إنه إهانة للجيش ، وسب لوزير الحرية ، وفاتها أن كل كلمة جاءت فى الكلام هى حقيقة ثابتة جلية ، يعرفها كل مصرى .

## ما السب ؟ وما الإهانة ؟

ما هو السب يا حضرات المستشارين ؟ ومن أين تجيء الإهانة ؟ السب هو إسناد عيب معين إلى شخص أو جماعة ، هى خلو من هذا العيب ، على أن يكون فى الإسناد خلدن ناموسها ، أو اعتبارها ، على حد تعبير القانون . إذن لابد هناك من إسناد عيب معين لا أساس له ، فمن يقول عن آخر أنه لص ، أو مزور ، أو نصاب ، أو سكير ، أو فاسق ، أو ماجن ، فإنه يسند إليه عيباً معيناً من شأنه ، لجرد التصاقه بالشخص المسند إليه ، أن يحقره بين الناس ، وأن ينقص من شرفه واعتباره .

أليس هذا هو تعريف السب بإحضرات المستشارين ، فى القانون والعرف . فلنقابله الآن بما لا يمكن أن يعتبر سباً ، فهذا الذى يقول لانيجلى : يا انجليزى ، لا يمكن أن يكون قد سبه ، بينما تعتبر هذه الكلمة بالنسبة لى سباً أقاضى صاحبه من أجله . ومن قال لمرضى : أنت مريض خائر على



أبواب القبر ، يمكن اعتبار مثل هذا الكلام قسوة وغلظة وقلة كياسة . يمكن اعتباره كل ذلك ، ولكن لا يمكن مطلقاً أن يكون سباً لأنه تقرير لواقع كائن .

فهنا قيل عن السب يحضرات المستشارين ، ومها قيل عن منشأ الإهانة ، فيجب أن تكون الألفاظ التي استعملت فيه بحيث تسند عيوباً لا أساس لها إطلاقاً ، أو أن لها أساساً ، ولكن هذا الأساس لا يصل إلى الحد الذي قررت ألفاظ السب . أما إذا كانت ألفاظ السب ليست سباً ، ولكنها تقرير تام للواقع ، ولكنها ذكر لحقيقة مجردة ، فلا يمكن أن تكون هذه الألفاظ سباً مهما كان فيها من غضاظة ، ومها كانت مرة مؤلمة .

فلنبحث الآن في الخطاب الذي نحاكم من أجله ، فلنبحث يحضرات المستشارين عن كلمة واحدة ليست وصفاً لحقيقة قائمة ، فلنبحث عن كلمة أكون قد غاليت فيها بحيث إنها تخدش اعتبار شخص من الأشخاص . فقبل أن نبدأ في تحليل هذه الكلمات نقسمها إلى قسمين أساسيين :

القسم الأول : لحاص بإهانة القوات البرية ، أى المساس بكرامة الجيش كمجموعة .

القسم الثاني : خاص بإهانة بعض الموظفين ، مثل اسفنكس باشا ووزير الحرية .

## القِسْمُ الْأَوَّلُ

### سب وإهانة القوات العسكرية

ماهى العبارات التى تراها النيابة هنا سبا وإهانة للجيش ؟ . إنها ماأتى :  
 . (ومع ذلك فما أقلّ السلاح المصرى ! وما أضعف روح الأمة المصرية ! وما أبعد وزارة الدفاع  
 عن الدفاع عن مصر ! وما أقربها من الدفاع عن المجلّرا !)

(أى جيش هذا ياسيدى الوزير الذى تتحكم فيه ؟ ! إنه جيش من المرضى ! جيش من  
 الضعفاء ! جيش من الجهلاء ! جيش لا معنوية فيه ولا حياة ، إنه جيش مفلول ، إنه جيش ينحضع  
 لرياسة (اسفنكس باشا) . إلى أن قلت : (خمس سنوات وما أدراك ماهى خمس سنوات لا وسط  
 حرب وانتصار ، لا وسط معارك وهجوم ودفاع ، ولكن خمس سنوات فى خدمة بيوت الضباط  
 وأولادهم ، وشراء الخضار لمنازلهم ، وسماع الإهانات من زوجاتهم ، خمس سنوات يزهادون فيها  
 جهلاً على جهل ، وتموت فيها شخصياتهم ، لافناء فى الوطن ولكن خنوعاً للأشخاص ، ورهبة من  
 الضباط ..)

هذه هى العبارات التى تكون القسم الأول وهو ماتراه النيابة سبا وإهانة لقوات الجيش ..  
 الحق يا حضرات المستشارين أنها كلمات قاسية لاذعة ، الحق أنها كلمات تنتفض لها النفس هلعا  
 وإشفاقا ، ولكن صدقونى إذا قلت لكم بأن هذا الملع ، وذاك الانتفاض ليسا إلا نتيجة لما فى  
 الألفاظ من تصوير للواقع ، الواقع الخيف الذى يرتعد لذكره كل مصرى .. ووزير الحرية ليس إلا  
 مصريا ، وإذن فقد ارتعد كما يرتعد أى شخص آخر عندما رأى الحقيقة مسطرة واضحة .. عندما  
 رآها على صفحات الجرائد ، وبهذه الحرارة وبهذا الإخلاص .

إنها صرخة الشباب المدوية ، يا حضرات المستشارين ، إنها صرخة صادرة من القلب لتتخدر إلى  
 القلوب .. فأما الشعب ، أما الشباب ، فقد فزع عندما قرأ هذا المقال ، وهُرع إلى جمعية مصر  
 الفتاة ، يوقع عرائض غير التى قدمت ، ليتطوع فى الجيش .. هُرع ليقدم العلاج الحقيقى ، أما وزيرُ  
 الحرية فقد اعتبر هذا الكلام سباً وإهانة .

والآن فلنمض فى تحقيق الكلمات الواردة فى الخطاب ، لنرى إلى أى حد تخرج عن وصف الواقع  
 الدقيق .

### ما أقلّ السلاح المصرى !

أولى هذه العبارات التى جاءت فى الخطاب ، والتى تتمسك بها النيابة . إننى قلت إن الجيش فى

الأمة هو سلاحها ، ومع ذلك فما أقلّ السلاح المصري ! وما معنى السلاح المفلول يا حضرات المستشارين ؟ .. سواء أردتم المعنى اللغوي الدقيق .. أو المعنى الشائع .. أو المعنى الذي يقر في ذهن القارئ .. فلا يوجد إلا معنى واحد ، وهو أن السلاح «متلم» أى أنه غير حاد ، ويفل السيف ، يا حضرات المستشارين ، لكثرة مكثه في القرب ، ويفل السيف لكثرة ما استعمل وأطيحت به رؤوس .. فإذا ما شحذ عاد إلى سابق قوته .. وعاد بتاراً ذريعاً .. والشاعر العربي يقول قولاً مأثوراً :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أفلو قلنا عن الجيش المصري ، ولنفرض الآن أسوأ ما يمكن أن يستتج من الكلمة ، أفلو قلنا إنه في حاجة إلى أن يشحذ لأنه الآن مفلول . أليكون هذا معناه سب الجيش ؟ . أهو مقدر علينا إذا تحدنا عن الجيش في أي وقت من الأوقات ، وفي أية مناسبة من المناسبات أن نمسك قيثارة المدح ، وأن نتغنى بعظمته وشجاعته ؟ .

اللهم لا . لأننا رجال صحافة ، لأننا نجاهد من أجل الإصلاح ، ولن نستطيع أن نصلح إلا إذا عرفنا مكان الضعف والخطأ .

وإذن فكلمة «مفلول» يا حضرات المستشارين ، التي نعت بها الجيش المصري لا يمكن إلا أن تكون وصفاً للواقع . بل لعلنا لا نستطيع أن نصف الجيش المصري في حاضره . إلا بهذه العبارة ، فهو لم يشترك في حرب منذ عشرات السنين ، وهو غير معد للاشتراك في حرب قادمة . اسمعوا ماذا يقول محمد بك صالح حرب ، وكيل مصلحة السجون حالياً عندما كان عضواً بمجلس النواب في أواخر سنة ١٩٢٦ ، ومن هو صالح بك حرب ؟ إنه أحد رجال العسكرية الأبحاد الذي اشتركوا في حروب عدة . يقول الأستاذ نقلاً عن مضبطة الجلسة التاسعة والأربعين : «لا يستطيع العسكري القيادة في الجيش المصري أن يؤدي واجبه مادام سلاحه قاصراً على البندقية والسككة ، مع أنه أكثر الجنود عداً وتعباً ، وقد جعله نقص السلاح عاجزاً عن التقدم في ساحة القتال تحت وابل من الرصاص والقنابل . فيجب تلافياً لهذا النقص المغيب أن يجهز العساكر القيادة بجميع الأسلحة الحديثة اللازمة ، كمدافع الماكينات وغيرها ، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على الصعوبات التي تصادفهم في ميدان القتال . وأنه لمن العار أن لا يوجد مدفع ماكينة واحد مع قوة القيادة أي الجيش يا حضرات المستشارين - وعددها ١١ أورطة ، مع أن أفقر دولة تجهز الأورطة القيادة بأربعة مدافع ماكينة ، وليس ذلك فقط ، بل وصلت الحال ببعض الدول ، إلى تجهيز الأورطة القيادة بستة عشر «مدفعاً» (تراجع مضبطة مجلس النواب المتقدمة) .

أستمعون يا حضرات المستشارين ؟ وصل الحال ببعض الدول أن تجهز أورطة القيادة بستة عشر مدفع ماكينة . الأورطة الواحدة لها هذا العدد الضخم من المدافع ، فهل لدينا في الجيش المصري بأسره مدفع ماكينة واحد . اللهم لا ! .

ولعل المدفع يا حضرات المستشارين ، أصبح الآن أحقر من أن يذكر في الحرب القادمة ؛ ولا يتخيل أحد ما سيكون فيها من أهوال وأسلحة ؟ . أنها ستكون حرب غازات يا حضرات

المستشارين . أنها ستكون حرب كيمياء .. أنها ستكون حرب قتابل . . تنشر الخراب . وتنشر الطاعون ، وتنشر الحمى . لقد مضى الوقت الذى كان فيه الجندى يحارب وجهها لوجه . مضى الوقت الذى كانت الجيوش تعتمد فيه على القوة الجسدية . وأصبحت الحرب حربا ميكانيكية . فإذا يملك جيشنا منها ؟ . لا شيء . إنه لا يملك إلا البندقية . ولعل البندقية أصبحت بالنسبة للاختراعات الجديدة كالسيف بالنسبة للرصاص . وجيشنا باحضرات المستشارين لا يملك سوى هذه السيوف التى أصبحت خرافة الخرافات . لا توجد كمامة غاز واحدة . لا توجد سيارة تانكس واحدة . لا توجد سيارة مصفحة واحدة ! . ألا ترون أنه غير معد للحرب باحضرات المستشارين . لأنه إن كان معدا . بالرغم من هذا النقص ، للدخول فى حرب فإن معنى هذا أنه معد للذبح . لأن هذا الجيش بهذه الأسلحة ، لا يمكن إلا أن يذبح فى أول موقعة يقف فيها أمام الأسلحة الجديدة .

وإذن باحضرات المستشارين ، فإن القول بأن السلاح المصرى سلاح مفلول . سلاح يحتاج إلى أن يشحذ . هو قول يقصر عن وصف الحقيقة .

هذا من حيث أسلحة الجيش ، أما من حيث عدده فهو مهزلة المهازل . عدد الجيش المصرى باحضرات المستشارين يجعله أشبه بفريق من قوات البوليس التى ترابط فى الأقسام لانتظار الحوادث . أما كجيش يدافع عن بلد ، عدد سكانه ١٤ مليوناً ، وله من الحدود ما تبلغ ألوف الأميال . ما بين بحرية وبرية . أما عن عدد الجيش فإنى أترك الكلام للأستاذ الكبير مصطفى محمود الشوربجي المستشار بمحكمة النقض فى الوقت الحاضر والعضو بمجلس النواب سابقاً . إننى أنقل لكم كلامه فيما يختص بعدد الجيش فقد قال فى الجلسة التاسعة والأربعين : « لقد انتهى جميع حضرات الخطباء إلى نتيجة واحدة هى أن حالة الجيش الآن تحتاج إلى إصلاح . وحقا إن مهمة الجيش هى الدفاع عن البلاد . وعن المعاهدات الدولية التى نحن مرتبطون بها ، فإذا راجعنا تقرير اللجنة نجد أن عدد الجيش من جند وضباط لا يتجاوز ١٠,٠٠٠ . فإذا ذكرنا أن مهمة الجيش هى الدفاع عن البلاد من خط الإستواء إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن الصحراء الشرقية إلى الصحراء الغربية . وأن مهمته أن يقوم بالتعهدات التى أوجبا علينا وجود قناة السويس . نجد أن الجيش بعدده الحالى غير كاف . وقد حملنى هذا على مراجعة تعداد الجيش فى أربع مدد سالفة من عهد محمد على باشا حتى اليوم . وقد اعتمدت فى استصدار هذه المعلومات على كتاب سرهنك وكلوت بك . فى عهد محمد على باشا كان عدد الجيش ٢٤٣,٧٧٦ وفى عهد سعيد ٦٤,٠٠٠ وفى عهد إسماعيل ٨٩,٠٨٨ وذلك خلاف ١٥ أورطة غير نظامية . وأورطة أخرى بالسودان وجهات مختلفة . وقد رجعت إلى تعداد الجيش بعد أن قيدنا بمعاهدة تحديد عدد جيشنا بـ ١٨ ألفاً . فوجدت فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٨٩٣ أن عدد الجيش كان ١٥,٨١٣ وكان به ١٨ مدفع ميدان ، و ١٣٢ مدفعا مركزيا . وأربعة مدافع مكسيم . خلاف المهات الأخرى ، . ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت الذى كنا فيه مقيدين بالمعاهدة المبرمة بيننا وبين تركيا . كان جيشنا معتبرا جزءا من الجيش التركى . وكان المفروض أن تركيا مكلفة بالدفاع عنا ، فهذه الاعتبارات كانت ملحوظة فى تقدير عدد جيشنا بذلك المقدار . أضف إلى ذلك أن تعداد السكان فى مصر فى عهد محمد على وسعيد كان يتراوح بين ٦,٣ ملايين . ولكنه ارتقى بعد

ذلك إلى ١٢ مليوناً . وكذلك ارتقت ميزانية الدولة من مبلغ ضئيل إلى مبلغ عظيم (راجع المضبطة السابقة الذكر) .

انصفوا مصر يا حضرات المستشارين . وسجلوا في حكمكم هذه الأرقام وهذه الحقائق . إلام نظل غافلين ؟ إلام تظل الغشاوة على أعيننا وإلام نظل نغط في نومنا ؟ .. ثلاثمائة ألف جندي هم جيش مصر أيام محمد علي . وحوالي المائة ألف في عهد إسماعيل . وحتى في وقت وصاية إنجلترا الرسمي كان ١٦ ألفاً .. أما الآن في عهد الاستقلال فهو عشرة آلاف جندي لا يزيدون جندياً واحداً .. أليس ذلك مخيفاً ورهيباً ؟ .. وبعد ذلك يُراد منا أن نقول إن الجيش المصري كاف للدفاع عن مصر .. وأن الجيش المصري سوف يهزم إيطاليا في طرفة عين .. وأن الجيش المصري أقوى جيوش الأرض طراً .. أما إذا وصفنا الواقع في تواضع ، فقلنا إنه مفلول - أى يحتاج إلى شحذ كى يأخذ بهاءه - اعتبرت هتفه العبارة سبا ، فلا حُز ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. إلا أنه خير للجيش أن يقال عنه مفلول . وأن يتقدم الشباب ليغذيه بدمائه ، من أن يتغنى بعظمته وقدرته . فإذا هبت عليه العاصفة ذهب أدراج الرياح .

ما أبعد وزارة الحرية عن الدفاع عن مصر !  
وما أقربها من الدفاع عن إنجلترا !! .

والآن فلنتقل إلى العبارة التالية لنرى كيف تتداعى المعانى . وكيف تتسلسل وترتبط كلها مندفعة نحو غاية واحدة ، وهى إصلاح الجيش بحيث يصبح صالحاً للدفاع عن مصر أمام العدو الخارجى ! .. إذن ثبت لدينا يا حضرات المستشارين أن الجيش بحالته الراهنة لا يستطيع أن يدافع عن مصر ، إذا ما حاولت إيطاليا أن تنفذ خطتها . وإذا ما حاولت أن تعيد بناء إمبراطوريتها . وإذا ما صارت جنودها على الحدود ، وفى قلب مصر . ساعة إلى امتلاك مصر . وإذا مادعت طياراتها لغزو مصر ، وهى مسألة - ساعات قليلة كما يصح موبوليني في خطبته . أقول إذا ثبت أن جيشنا عاجز تمام العجز عن الدفاع وصد غارة واحدة من هذه الغارات . فإذا بقى للدفاع عن مصر . بقيت هذه الجيوش الإنجليزية التى تحتل مصر . جيش الاحتلال يا حضرات المستشارين هو أمل وزارة الحرية في الدفاع عن مصر ، ولست أستطيع أن أغادر هذه النقطة قبل أن ألقت نظر حضرات المستشارين إلى أن الإنجليز بالذات قد تنهوا إلى الخطر الإيطالى . فشاهدت مصر مناورات لا عهد لنا بها من قبل تجوس خلال الوجه البحرى ، ولم يعرف الناس لها معنى . بل كانت القاهرة نفسها محل هذه المناورات ، أما الصحراء الغربية فقد حارب الإنجليز فيها ملك سيوة الذى جاء حتى اغتصب القاهرة . أجل حارب الإنجليز ملك سيوة ، ومن هو ملك سيوة ؟ إنه شخص وهى بل هو رمز للعدو المهاجم من الغرب . بل هو إيطاليا التى ترغب في إعادة الإمبراطورية الرومانية وإرسال طلبة مدرسة الإستعمار إلى مصر للقيام برحلة .

تنهت إنجلترا ومصر غافلة ، أو طلب منها أن تكون غافلة . أو هى لا تستطيع إلا أن تكون غافلة . فإذا قام الإنجليز يدافعون عن مصر ، وكان الجيش المصرى فرقة في هذا الجيش الإنجليزى

المدافع . وكان الجيش المصرى وحدة من هذه الوحدات التى تقاتل الإيطاليين .. ألا يكون ذلك فى الحق أقرب للدفاع عن مصالح إنجلترا منه للدفاع عن مصالح مصر . لماذا يحارب الإنجليز عندئذ ؟ أسود عيون المصريين ؟ اللهم لا . أحرصا على الاستقلال المصرى ؟ اللهم لا . ولكن حرصا على مصلحتهم . حرصاً على مركزهم فى مصر . فوقفتنا بجانبهم معناه الدفاع عن هذه المصالح . وبالمول الحقيقة المرة ، باحضرات المستشارين ، عندما يقول لنا الإنجليز غدا ، لقد دافعنا عن هذه الأرض بدمائنا ، فهى أرضنا ولنا هنا حقوق مقدسة .

إلى هنا باحضرات المستشارين بينت لكم كيف أن الجيش المصرى ، بحالته الراهنة غير صالح للدفاع ، فهو مفلول فكيف أنه سيكون وحدة من وحدات الجيش الإنجليزى للدفاع عن مصر وكيف يكون مدافعا عن مصلحة إنجلترا فى مصر .. إلى هنا بينت أن العبارات السابقة ليست إلا تقريراً للواقع ووصفاً للحالة الموجودة

### جيش من المرضى والضعفاء .. جيش من الجهلاء .. الخ

فلنتنقل الآن إلى العبارات التى تتالت وراء بعضها واصفة الجيش بأن فيه مرضى وفيه ضعفاء وفيه جهلاء .. وقد خيل للنيابة ومن قبلها لوزير الحربية ، أن هذا الكلام قد جرى به القلم من غير حساب ، دون أن يعلم أنه ليس إلا تكراراً لما قيل فى مجلس النواب فى جلسته الثامنة والأربعين ، وهى التى سبق أن اقتبست من كلام بعض خطبائها ولعل كلمتى الضعف والجهل يمكن تخيلها باحضرات المستشارين .. يمكن تصورها سواء من الناحية المادية أو المعنوية ، ولكن الذى لا تتوقعونه أن يكون فى الجيش مرضى ، والآن اسمعوا ماذا يقول الأستاذ عبد الحميد بك سعيد « وإنى أستطيع أن أصف لحضراتكم عساكرنا وصفاً يقرب حالتهم إلى أذهانكم ، فإذا ماسمعو صوت البورى أتوا من كل مكان وجلسوا فى فناء المعسكر جماعات حول الأروانة .. إبنى لا أبالغ إذا قلت إنها قد تكون قلدة ، فضلاً عن مجاورتهم للاسطبلات ، وتعرضهم لمضار الشمس والتراب ، إذ ليست لهم محال خاصة لتناول الغذاء ، وأظن أن هذا لا يليق بجيشنا المصرى ، ولا يفوتنى أن أذكر لحضراتكم أنهم ليس لديهم ملابس شتوية تقيهم برودة فصل الشتاء ، حتى تفشى فيهم مرض الدوسنتاريا والأمراض الأخرى وفكت فيهم فتكا ذريعاً ... انتى أجهر أمام هيئة المجلس ، معلنا اننى لا أكون مبالغاً ، إذا قلت إن عناية وزارة الحربية بالخيل والبغال أكثر من عنايتها بالعسكر » .

هذا كلام قيل باحضرات المستشارين ، وسمعه وزير الحربية فلم ير فيه حرفاً دل على غير الواقع ، فلم يرد أن يجتج عليه .. هذا كلام قيل عن الجيش ، وكيف أن العساكر لا توجد لديهم ملابس للشتاء ، حتى تفشى فيهم مرض الدوسنتاريا ، وفكت بهم الأمراض فتكا ذريعاً<sup>(١)</sup> .

(١) هنا قدم الأستاذ الى المحكمة احصائية بعدد الجنود المرضى بديدان الانكلستوما والبلهارسيا تدل على أن نسبة المرض المتفشى فى الجنود هى فى الجملة ٧٦ فى المائة .

ومن هذه الأمراض التي فتكت بهم فتكا ذريعا مرضا البلهارسيا والانكلستوما المنتشران بين الجنود انتشارا مروعا . هذا الكلام قيل وقيل في آخره إن عناية وزارة الحرية بالخليل والبالغ أكثر من عنايتها بالعساكر .. هذا كلام قيل ، وتحت قبة البرلمان ، فإذا استعرنا بعضه للقيام بنفس الغرض المقصود من قوله في البرلمان ، فلا نكون قد سببنا الجيش بأكثر مما سبه به أعضاء البرلمان الرسميون الذين يمثلون سلطات الدولة ، على أن المهم في هذا يحضرنا المستشارين أن وزير الحرية لم يعترض على هذه المسألة بالذات .

وهكذا ترون أننا يوم قلنا إن جنود الجيش من المرضى كنا نغنى تقرير الواقع كما جاء في مضابط مجلس النواب .. أما نعت العساكر بالجهل فأى خروج في هذا عن الواقع الدقيق ؟ أو ليس الجيش يجمع من الفلاحين والفلاحين فقط . أولا يخرج كل من يدفع البدل .. كل من كان على شيء من التعليم . أنهم يخرجون من يحفظ القرآن يحضرنا المستشارين إكراما للقرآن ، والواقع إنه إكراما للإنجليز الذين وضعوا قانون التجنيد . وذلك أن حافظ القرآن ، مهما كان ماوعاه من القرآن بذكرته فقط ، فإن فيه ألفاظا وعبارات تملؤه معنوية وحياة ، ذلك أن حافظ القرآن يعرف أن الله يطلب المؤمنين بالجهاد والكفاح والموت في سبيل الله ... قال الله تعالى في كتابه العزيز وقل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأىي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين . هذا هو القرآن وهذا هو حظ حافظ القرآن . إذا ما دخل الجيش يتوعده الله إذا أضلته الأموال والأزواج والأبناء عن الجهاد في سبيل الله .. حرموا من الجيش يحضرنا المستشارين كل من أحسوا فيه شبهة التعليم ... حرموا الجيش رائحة الثقافة ... أسألوا النيابة إذا حدث ودخل الجيش من كان في مدرسة ابتدائية ماذا يفعلون به ، إنهم يعدونه عن الجيش العام ويستخدّمونه بلوك أمين ، أو بمعنى آخر في الأعمال الكتابية .. لا يوجد في الجيش إلا فلاحون جهلة ، ولا تحاول وزارة الحرية في السنوات الخمس التي يمضيها الجندي أن ترفع عنه شيئا من جهله .. لا تحاول أن تعلمه القراءة والكتابة لا تحاول أن تنير عقله قليلا .. فإن جئنا نقرر الواقع فنقول إن عساكر الجيش جهلاء .. أنكون بهذا قد سببنا الجيش وأهناه ؟ . رأيتم إلى أى حد بلغ الجيش من الضعف ؟ .. رأيتم إلى أى حد اعتبر ذكر بعض الحقائق عن هذا الجيش سبا وطعنا بينا هي حقائق واقعة ؟ . وإذا ثبت لدينا أن في الجيش أمراضا مادية ، وأمراضا معنوية ، نتيجة الجهل ، فهل يمكن إلا أن نعت بالضعف . هذا هو مدلول الألفاظ واحدا فواحدا يحضرنا المستشارين هذا هو تفسير الكلمات كلمة كلمة لو أنكم أردتم أن تفسروها على أسوأ التفسير ، فما بالكم إذا نظرتم إليها في مجموعها ! .. ما بالكم إذا نظرتم إلى أنها ليست إلا عبارات يراد بها تصوير حالة الجيش وحاجته إلى الإصلاح لنخلص منها إلى وصف الإصلاح بالذات .. وما بالكم وهذه الكلمات ليست مقصودة بالذات . ولكنكم تمهيد لمعنى أجل وأعظم ، وهو أننا نعرض أنفسنا للتطوع في الجيش . ما بالكم وهذه الكلمة لاتحوى سوى حدة في الأسلوب عرف بها كاتبها .. لقد صدر من الصرخة قبل هذا العدد ١٧ عددا ... سلوا النيابة هل رأت في أى عدد من هذه الأعداد أسلوبا غير هذا الأسلوب وهل رأت في كل سطر إلا هذه القوة في التعبير ، الذى يدفعنا إليه إيماننا ورغبتنا في الإصلاح .. سلوا صادق بك عندما كان ينصحنا أن

نخفف من لهجتنا ماذا كنا نقول له ... كنا نقول له إننا دعاة إصلاح .. إننا لا أغراض ولا غاية لنا إلا إعادة الروح في كل مكان ، ولكي نعيد الروح يجب أن نكتب بهذا الأسلوب .. يجب أن نجهر بكل الحق وبكل مافي أنفسنا . حقا لقد وصلنا إلى عصر أصبح فيه ذكر الحقائق جريمة ، ولكن مع ذلك يجب أن يتقدم نفر من الأمة بذكر الحقائق ، وأن يدفع ثمن ذلك ، وإلا فسوف تنقلب الأوضاع ، وينسى الناس الحق ويلتبس عليهم بالباطل .. قال أمير الشعراء الراحل :

إن الذي خلق الحقيقة علقما لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلاً

بقي أن يقال ان الألفاظ كان يمكن أن تكون أخف من هذه اللهجة ، وتنتج نفس الأثر .. أجل قد تعرض النيابة ، وتقول أن رغبتنا في الإصلاح لا يجب أن تكون بحيث نقذف في الكلام ، فإذا قالت النيابة ذلك فما أسهل الرد عليها بحديث دار في مجلس النواب بصدد الجيش في هذا المعنى .. ذلك أن الأستاذ عبد الرحمن عزام وقف يخاطب عن الجيش فقال .. هل وزارة الحرية وهي تتقدم إلينا بهذا الرقم الصميم (الميزانية) أدركت الأخطار المعرضة لها هذه البلاد . التي قد تضطر إلى الدخول في الحرب رغم أنها ؟ وهل هي فكرت في مصير البلاد إذا مادهم العالم داهم بسبب الأفكار التي لا تزال متأصلة في النفوس ؟ .. إن الذي أخشاه أن تكون هذه الميزانية لا تمثل إلا أرقاما جوفاء ، ولا تمثل سياسة مطلقاً ، ولا فكرة ، وهي تكملة لعادات اعتادتها البلاد في دفع مبلغ باهظ ليقال أن لها جيشاً ، لا ليقال أن هذا الجيش قائم على سياسة معينة ، ليقوم بأمر ماتقتضيه الضرورة في ساعة ما .. أعتقد أن هذه الميزانية مبنية على غير أساس ، وتؤدي في هذه العقيدة حالة جيشنا الحاضر ، التي هي حالة يؤسف لها أشد الأسف ... إنني كرجل مارس هذا الشأن ، وكنت مسؤولاً بين آخرين عن الدفاع عن أمة ضعيفة ضد أمة قوية ، أؤكد لحضراتكم أنه جيش مجرد من مزايا الجيوش الهمجية فضلاً عن التمدين ، فإذا يمكن أن يكون هذا الجيش « فرأى بعض أعضاء المجلس أن يقطعوه فسجلت المضبطة كلمتي «ضجة ومقاطعة» واستمر النائب يقول : «لكم أن تعتقدوا ما تشاءون ، ولكني أقول إن الجيش يحتاج إلى إصلاح في كل ناحية من نواحيه ، وإذا لم يكن هذا الإصلاح ممكناً فليس أفضل من توفير هذا المبلغ الباهظ لمصلحة البلاد» . أسمعون يا حضرات المستشارين : إنه يريد إلغاء الجيش وتوفير ميزانيته لأنه يراه لا يساوي قلامة ظفر ، فلاحظ أن سجلت المضبطة هنا كلمة (تذمر) فقال النائب (أنا لا أبدى لحضراتكم ما تعتقدونه إنما أبدى ما أرى وأعتقد ، أرى أن الجيش بتدريه غير كفء للقيام بالمهمة المطلوبة منه) وهنا عادت الضجة من جديد .. ترون يا حضرات المستشارين : كيف أقذف في انتقاد الجيش .. وكيف حرمة من مزايا الهمج والتمدين .. وكيف أشار بحله ، على أن الجميل في كل هذا أن المجلس عندما ظن أن في هذا الكلام ماقد يكون مساساً بالجيش وقف وزير الحرية وقال بالحرف الواحد ما يأتي :

«أيها السادة إني أول من يقدر تقديراً حسناً أن نية حضرة العضو المحترم زميلي وصديقي عبد الرحمن عزام أفندى لم تكن منصرفة قط إلى إهانة جيشنا ولا ضباطه . أعرف فيه هذا الإحساس لأنني خالطته ، وتكلمنا كثيراً في حالة جيشنا ، فرأيت منه أنه أول من يحترم هذا الجيش الباسل ، وكل ما قصده إنما هو إدخال ضروب من الإصلاح كلنا يشعر بها . ولا أذيع سرا إذا قلت لحضراتكم بأنني



أشعر أيضا بهذا الإحساس لأنى مصرى مثلكم تشرفت بزمالتكم .»

الله أكبر يا حضرات المستشارين ، ماذا تريدون أكثر من هذا .. لكى تروا تعسف وزير الحرية الحالى ، يوم أن اعتبرنا مجرمين ، لأننا قلنا عن الجيش أنه غير صالح للدفاع عن مصر .. هذا هو وزير الحرية يقول بأعلى صوته إن الجيش فى حاجة إلى إصلاح من كل ناحية ، وينصب نفسه فى موقف الدفاع عن النائب الذى انتقد الجيش بأحرج الألفاظ ، واقترح حله وتوفير ما يصرف عليه ! . ماذا تريدون أكثر من هذا الدفاع أسوقه لكم اليوم لأدلل لكم على أن الإنسان فى مقام الإصلاح يجب أن يذكر العيوب كلها ، وأن يشخص المرض لكى يستطيع وصف الدواء . أنظروا ماذا قال وزير الحرية فى ختام خطبته المذكورة

«أيها السادة : تلك هى بعض مشاغلنا ولم نشتغل بها إلا لإدخال الإصلاح الذى تريدونه ، وإنى واثق كل الثقة أنه بفضل معونتكم وحكمتكم سنصلُ بغير جلبة أو ضوضاء إلى جيش لائق بكرامتنا ، جدير بعزتنا وبتاريخنا المجيد» هذا كلام الوزير . هذا كلام قيل فى سنة ١٩٢٦ ، ونحن اليوم بعد ثمانى سنوات . هل وصل الجيش إلى المركز اللائق بكرامتنا . إننى أتحدى الوزير الحالى إذا كان يقول إن الجيش خطا خطوة واحدة مدى هذه الثمانى السنوات ، إن لم يكن قد تأخر .. وإذن فعجبتنا لم يبلغ بعد المركز اللائق بكرامتنا ، والجدير بعزتنا وبتاريخنا ، وما دام الأمر كذلك أفليس من حقنا أن نطالب ، أليس من حقنا أن ننادى بالإصلاح ؟ . وكيف نخطو نحو الإصلاح إن لم نعرف أن ما نحن فيه خطأ ، وكيف نعرف هذا الخطأ إن لم نذكر هذا الخطأ ؟ لقد كان وزير الحرية فى عام ١٩٢٦ وزيرا يعرف واجبه ، ووزير حرية سنة ١٩٣٣ يعرف واجبه أيضا ، ولكن ما أعظم الفرق بين الواجبين الأول يدافع عن النائب الذى أراد إصلاح الجيش فى مجلس النواب لأن المجلس أراد أن يحتج على النائب الذى يقترح حل الجيش ..

ووزير الحرية الثانى يرمى أحمد حسين فى السجن لأن واجبه يدعوه إلى ذلك .. فاللهم رحمة وحنانا : فإذا أعددت لهذا البلد من ويلات ؟

**خمس سنوات فى خدمة الضباط وسماع الإهانات :**

والآن فلنتنقل إلى واقعة أخرى هولت لها وزارة الحرية ، وهولت لها النيابة ، وهى حديثنا عن هؤلاء العساكر الذين يشتغلون فى المراسلات ، فيلحقون ببيوت الضباط ليكونوا خدما لهم .. صورت هذه الواقعة بالكلمات الآتية : «خمس سنوات فى خدمة بيوت الضباط وأولادهم وشراء الخضار لمنازلهم وسماع الإهانات من زوجاتهم» فهل فى كلمة من هذه الكلمات ما ليس حقا .. الواقع يا حضرات المستشارين أنه من اعقد الأمور محاولة إثبات البدييات ، والمتعارف عليه ، وهذا الذى قلته فى هذه العبارات ليس غريبا وليس جديدا . ولكنه فى بيت كل ضابط ، ولكنه فى كل مكان ، حيث يوجد رجل الجيش ! .. ماذا أقول لكم ؟ . هل أقول لكم سلوا أنفسكم عن هذه الواقعة ! . هل أقول لكم سلوا أى واحد من الحضور .. هل أقول لكم اطلبوا من النيابة أن تنقذ هذه الواقعة .. ولكنى أقدم لكم حديثا عن هذا الموضوع فى مجلة أخرى ، هى مجلة «المصور» ، ومع ذلك لم تحتج

النيابة ولم ترفيه سبا أو إهانة .. جاء في مجلة المصور في عددها الصادر يوم الجمعة ٢٣ فبراير ١٩٣٤ ، ما يأتي : تحت عنوان (إلى متى نجامل) قالت (عجبا ! انظر هذا الجاويش العريض المنكبين ، المفتول الذراعين ، المبروم الشاربين ، النارى العيين ، الغليظ القدمين ، الطويل القامة ، العظيم الهامة الضخم البنية ، اسمه الجاويش بمبة .. أى والله اسمه بمبة . يقول لى أصدقائى رواد الجارسونيرات أن الجاويش بمبة هذا ، أو هذه ، كان يحمل الرسائل وينظف البلاط ، ويفرش السزير ، ويطبخ ، ويعجن ، ويخبز ، ويغسل عملاً بأوامر رئيسه ، سواء كان ذلك فى البيت الحلال أو فى البيت الحرام .

(بل هناك جاويش آخر كان أعرض من بمبة منكبين ، وأفتل ذراعين ، وأبرم شاربين ، وأحد عينين ، وأغلظ قدمين ، ولكن كان اسمه (داده حليلة) لأنه رحمه الله إن كان قد مات ، ورحمه الله إن كان لا يزال فى الخدمة كان أحن من الأمهات قلباً على أولاد رئيسه ، وأرق عاطفة من فطومة وستوتة وأم حسين خادمت البيت الكريم ، فكان يحمل الأولاد على كتفه ، وقصرية الأولاد على كتفه ، يحمل غيارات الأولاد على كتفه ، يهنئهم ويهشكهم ، ويدلهم ويحميهم ، ويغطيهم ، ويسهر الليالى حولهم ، يحكى حكايات ست الحسن والجمال والشاطر محمد وأولاد الحرام والحلال .. وأمثال الجاويش بمبة والداده حليلة كثيرون فى العاصمة وفى الإسكندرية ، وفى الأقاليم ، ولو أنهم كانوا يؤدون واجباتهم المنزلية ، من كنس وطيخ وتربية أولاد ، وشراء لحمة وخضار ، وانتظار على أبواب السينما وغيره ، وغيره ، بملابسهم الملكية لا بملابسهم الرسمية ، لكان الأمر نوعاً ما ، وليلعنا هذه المارة التعسة والدليلة نوعاً ما ، ولكن الذى يؤلنا أن الملابس الرسمية هى التى تطبخ وتغسل وتكوى وتشتري اللحمة والخضار وتنتظر على أبواب السينات ، وتحمل الأولاد وتكون صلة الهوى بين أرباب الغرام .. إلى آخر المقالة) . وقد شفعت المقالة بصورة جميلة للجاويش دادة حليلة وهو يحمل القصرية والطفل ويسير بملابسه الرسمية

لم يكن بدءاً إذا ما قلناه من أن عساكر الجيش يشتغلون خدماً ، ويشترون الخضار ويسمعون إهانات زوجات الضباط .. ومادام العسكرى يشتغل خادماً فإنه لابد أن يخطيء ولا بد أن يسمع هذه الإهانات ..

قد يقال إننى فى عبارتى قد تحدثت بصفة عامة ، ولم أخصص بعض العساكر ، وردى على هذا أن العسكرى الواحد يمثل الجيش بأسره ، البدة الرسمية رمزاً لجند الدولة كلها .. والعساكر الذين يلحقون بخدمة الضباط ليسوا من صنف معين ، أو أنهم قاصرون على أشخاص دون أشخاص ، بل هم يتناولون كل عساكر الجيش على الإطلاق .. ويبدل الضابط هؤلاء العساكر المكلفين بخدمته كل مدة معينة بغيرهم ... وإذن فهذا العمل معرض له كل عسكرى فى الجيش .. بل ولعل الأكثر تعرضاً له هم خيرة الجنود وأحسنهم ، ليكونوا أكثر قدرة على الخدمة فى المنازل .. وحتى إذا كانت العبارة عامة ، فهذا نوع من البيان لا أكثر ولا أقل ، وأعنى به التعبير عن البعض بصيغة الكل ..

فنحن فى هذه الواقعة لم نذكر خلاف الواقع .. ونحن لم نغال فيها أية مغالاة ، حتى أن ما كتبناه لا يعدل عشر معشار ما كتب فى مجلة المصور ، وما يتردد على كل لسان وفى كل مكان . وإذا كان ذكر

هذه الواقعة فيه إهانة للجيش ، تهدمه من أساسه ، فاذنبنا متى كانت هذه الوقائع حقيقة ثابتة .. ولو هدمت الجيش على أساسه أذن ؟ . فليبادر وزير الحرية بإصلاح هذه الحالة بدلا من أن يهتم بالقذف بنا إلى السجون .

إلى هنا يحضرات المستشارين ، انتبهنا من القسم الأول من الألفاظ التي يشتم منها راحة الإهانة والسب ، وبيننا لكم كيف أن هذه الألفاظ بحسب مدلولها المجرد ، ليست إلا وصفا دقيقا لكائن موجود .. وكيف أن الكاتب الذي يريد أن يصور حالة الجيش لا يستطيع أن يعبر بعبارات غير هذه التي كتبها ، وأظن أن مهمة الصحافي الأولى أن يتعرض للمؤسسات العامة . وأن يصفها ويلقي الضوء على مافيا من عيوب ، ويشير إلى ما تحتاجه من إصلاح .

إلى هنا ثبت لحضراتكم أننا ماجئنا بجديد ، وأتينا ردّنا بعض كلام قيل في مجلس النواب ، وأيده وزير الحرية .

بقى علينا أن ننتقل إلى القسم الثاني من الألفاظ الواردة في المقالة الخاصة بأسفنكس باشا ، ووزير الحرية .

\* \* \*

## القِسْمُ الثَّانِي

### الألفاظ الخاصة ببعض الموظفين

كفتنا النيابة في الواقع مؤونة الإسهاب في هذه الناحية ، اقتناعا منها بما جاء في التحقيق ، فإن المواد التي تطلب تطبيقها أصليا هي المادة ١٥٩ ، والخاصة بإهانة القوات البرية والبحرية لا الموظفين .. ولو راجعتم سعادتكم محاضر التحقيق لوجدتم أنه كان يدور حول هذه الناحية ، ناحية إهانة الموظفين المذكورين وأعني بها أسفنكس باشا ووزير الحربية ، ويظهر أن النيابة اقتنعت بالتفسير الذي قلته ، فلم تذكر في قرارها شيئا عن هذه الناحية ، غير أن تكرار هذه الألفاظ أمام المحكمة يجعل من المناسب تفسيرها .

#### اسفنكس باشا

القول عن اسفنكس باشا أنه ضريبة ساحقة ماحقة على الجيش المصري ، والضريبة هنا تلتهم رأس المال . أقول إن هذا الكلام بالذات ، لا يمكن الا أن يكون مدحا لاسفنكس باشا ، فهو كرجل انجليزي يخدم المصالح الانجليزية ، يهمة قبل كل شيء أن يعمل من أجل دولته ، وأن يمكن لنفوذها وسيطرتها . فإذا ذكرنا ذلك ، فإن هذا الذكر قد يكون أى شيء سوى اعتباره إهانة لاسفنكس باشا ؟ . قد يكون قلة كياسة نحو الرجل أو كثيرا من الصراحة المؤلة .. ولكن ذلك لا يمكن أن يكون سبا أو إهانة ، فاسفنكس باشا لا يחדش ناموسه إذا اعتبرناه انجليزيا ، واسفنكس باشا لا يجرع عزته أو كرامته أنه كل شيء في الجيش ، فاسفنكس باشا في كل هذا يقوم بواجبه الوطنى الذى سيكون محل فخره يوما من الأيام . وجريا على الخطة التي اختطتها لنفسى ، وهى أن لا أقول إلا صدقا وما هو واقع ، وما هو تقرير لكلام رسمى . أنقل إليكم ما قيل في إحدى جلسات مجلس النواب عن سعادة اسفنكس باشا وهى الجلسة الثلاثون . المنعقدة في ١٦ فبراير سنة ١٩٢٧ . قال الأستاذ فكرى أباطة مقدم الاستجواب ما يأتى :

(في وزارة الحربية موظف أجنبي غير مريح ، معتر بسلطته المشاغبة ، وهو اللواء اسفنكس باشا . هذا الموظف يشغل وظيفة مفتش القوات ، ويقوم في الواقع بعمل السردار . وإنما نود أن نعرف إلى أى مدى تبلغ حدود سلطته . وهل تمس تلك السلطة المسئولية الوزارية فتمس اختصاص مجلس النواب مثلا ؟ .. قرأتم حضراتكم في الصحف أن هناك خلافا قائما بين معالى وزير الحربية المسئول أمام المجلس . وبين اللواء اسفنكس باشا عن الغازية العسكرية . فعلى الوزير يرى أن توقيع باسمه أو بأمره . واللواء اسفنكس باشا على ما تقول الصحف يريد أن يوقعها بنفسه مستقلا ، ولقد أشارت

هذه الصحف إلى أن الاتفاق قد تم بين الرئيس والمرءوس على أن لا يوقع كلاهما وأن توقع الغازية بلفظتي (ليحيا الملك) . ولو كان هذا الخبر غير صحيح - وأود من كل قلبي أن يكون كذلك - لوجب على معالي وزير الحرية أن يكذبه في الحال . وإذا صح يا حضرات النواب ما ذكرته الصحف ولم تكذبه وزارة الحرية ، من أن هذا الموظف المعتر بسلطة المشاعية ، قد جددت خدمته مرة أخرى . كان هذا من العجب العجائب . إننا نريد أن نعرف العلل والأسباب في كل ذلك ، وإذا كان معالي وزير الحرية يتحمل أى عناء فمن واجب المجلس أن يشاطره هذا العناء )

والغريب يا حضرات المستشارين أن وزير الحرية تحدث في كل شيء إلا هذه الواقعة فرت بسلام . فعرف الجميع أن لها أصلا من الواقع . كان هذا في سنة ١٩٢٧ . فما هو الحال في سنة ١٩٣٤ . أسوأ مما تتصورون يا حضرات المستشارين . ففي السنة المذكورة كان هناك وزير يتنازع اسفنكس باشا . كان هناك برلمان شعبي يوقفه عند حده . أما اليوم فقد أصبح النفوذ الانجليزي في الجيش هو كل شيء . ولقد وصفت مجلة المصور نسبة تغلغل الإصبع الانجليزية في المرافق المختلفة للدولة . وعندما جاءت إلى وزارة الحرية كانت النسبة ١٠٠ في المائة . أليست هذه هي الضريبة الساحقة الماحقة التي تلتهم رأس المال ؟ . الحق إنها كذلك . والحق أنه لا لزوم للإفاضة في هذه النقطة . فالنيابة أول مقتنع بها فلم توجه إلى تهمة إهانة بعض الموظفين .

### وزير الحرية

هناك عبارة خاصة بوزارة الحرية ، هالت معاليه وهالت النيابة لأول وهلة ، وما ذلك إلا لأنهم لم يقرأوا المقالة بإمعان وترو . بل ملكهم الغيظ من سرد الحقائق . فجعلهم لا يميزون الكلام ولا يعرفون مناحيه وهذه العبارة الخاصة . هي أن «وزير الحرية المصري موظف في وزارة الحرية الانجليزية» . هذه هي العبارة . وهي بمفردها هكذا تخيف سامعها لما فيها من إهانة .. ولكن هذه العبارة منفصلة عما يسبقها ويتلوها من الكلام أشبه بالآية الكرمية «ويل للمصلين» ! ذلك أن هذه العبارة ليست إلا حكما على أفعال مستقبلية تحصل بعد عدة سنوات - إن قدر لها أن تحصل - ... فأنا أقول لوزير الحرية : نريدك أن تدخلنا الجيش . فإن لم تفعل فسنسافر إلى العراق وننضم إلى الجندية. هناك ونغضى مدة الجندية في القطر الشقي . ثم نعود إليكم جنودا ظافرين .. وعندها .. أى بعد أن نسافر للعراق وتقبلنا العراق في جنديتها . مع أن القانون العراقي يحرم ذلك . ونغضى مدة العرين ونعود إلى مصر .. عندها تعرف الناس أن وزارة الحرية ليست لنا . وأن وزير الحرية موظف في وزارة الحرية الانجليزية . وما ذلك إلا لأن العراق قبلت أبناء مصر . ووزير حرية مصر بالذات لم يقبل اندماجهم في الجيش ! . ولا بد أن يكون في هذا منفذا لسياسة خاصة غير سياسته في الدفاع عن مصر .. لا بد أن يكون في هذا متأثرا بأمر من الأوامر الانجليزية . وما دام الأمر كذلك فهو بمثابة موظف في الوزارة الانجليزية . وإذن فهذه العبارة التي حاولت النيابة إلصاقها بوزير الحرية أمر معلق على شرطين : شرط زمني وشرط مكاني ... فالشرط المكاني أن نسافر من مصر إلى العراق . وأن

يقبلنا العراق في جيشه . وأن يعدل قانون الاقتراع العراقي لكي يتمكن من قبولنا .. هذا هو الشرط المكناني . وشرط زماني وهو انقضاء الزمن اللازم لإتمام هذه التنقلات وانقضاء مدة العزمين ثم العودة إلى مصر . فإلى أن يتحقق هذان الشرطان فلا يمكن أن تعلق كلمة بوزير الحرية .. هذا هو وضع المسألة المادية . ولكن حتى لو فرضنا أن هذه العبارة تمس وزير الحرية منذ الآن فإن العبارة التالية لها مباشرة تمحوها وتجعلها لا أثر لها . بل وتدافع عن وزير الحرية وتدود عن كرامته حيث قلت : (ولست أريد أن نصل إلى هذا الحد) فلازلت أعتقد أن وزراءنا المصريين يفهمون معنى الكرامة والقومية . لازلت أعتقد أن كل مصري يفهم واجبة نحو وطنه .. إلى آخر العبارة .

وهكذا ترون يا حضرات المستشارين أننا نعرف ماذا نكتب وكيف نكتب بإخلاص ، هكذا ترون أننا لا نريد أن نسيء إلى شخص واحد . وإن كنا نريد أن نذكر كل الحقيقة بمرارتها . أجل : عندما نكتب ونرمي أنفسنا ، وقد كدنا لا ننصف أحد المصريين في سياق حديثنا عن الإصلاح ورغبنا فيه ، نود فننصف هذا المصري ونظايره ونقف بجانبه لأننا لا نعادى مصرياً واحداً ، لأننا لا نحمل موجدة لشخص من الأشخاص حتى أعداءنا يا حضرات المستشارين ، إننا نحبه ونسامحهم ، لأن مصر اليوم في حاجة إلى أن الحب والتسامح يسودان بين أبنائها .

### القصد الجنائي

والآن يا حضرات المستشارين فلنترك كل هذا الدفاع الماضي . ولنسلم جدلاً أن الألفاظ المذكورة في المقالة يشتم منها رائحة السب والإهانة ... ولنسلم أن وصف الجيش بأنه ضعيف ، وبأن فيه مرضى ، وبأنه مفلول ، ولنفرض أن كل من يسمع هذه الألفاظ يرى فيها سباً ، فهل هذا يكفي لتكوين الجريمة ، جريمة السب ؟ الجواب لا . فقد بقي أن يكون الكاتب مدفوعاً في هذا بسوء نية ، أو بالأحرى يجب أن يتوفر لديه القصد الجنائي - والقصد الجنائي هنا ركن كأي ركن في كل جريمة أخرى ، ولكنه هنا يمتاز بأنه كل شيء في هذه الجريمة . قد تستطيعون يا حضرات المستشارين أن تفترضوا القصد الجنائي في بعض الأحوال ، وأن تلصقوه بالمتهم لأن الوقائع المادية صارخة بأن مثل هذا الشخص لابد أن يكون سيء القصد ، على هذا الأساس خلق القصد الاحتمالي ، وعلى هذا قد يلحق الخطأ الجسم بالقصد . ففي كل جريمة أخرى قد تكيف الأعمال المادية قصد المتهم ، وقد تقطع به ، وقد تحدده . ويستطيع القاضي أن يصدر حكمه مطمئناً -وفر القصد . أما هنا ، هنا في جريمة السب ، فالقصد الجنائي هو كل شيء ، هو الجريمة بأسرها ، والفعل المادي بالذات لا يمكن بذاته إلا أن يكون محل اختلاف ومحل تقدير . الفعل المادي قد يصادف هوى في نفوس المجموع .. الفعل المادي قد يلقي استحسان الرأي العام .. والجريمة في النهاية تقاس بمقدار ما فيها من اعتداء على المجتمع .. فالقصد الجنائي في جريمة السب والإهانة ، ليس إلا قرينة نلجأ إليها لتقرير سوء القصد ، فليس يكفي اليوم أن تقف النيابة وتقول إن أحمد حسين قد أهان الجيش بكلمات كذا وكذا .. لا . ليس يكفي هذا مطلقاً . بل يجب أن تثبت أن أحمد حسين ، لضغائن في نفسه ، أراد أن يتشفي على

صفحات الجرائد .. إن أحمد حسين يحمل عداء للجيش فهو يريد إهانته .. أجل : يجب أن نقيم النيابة الدليل على توفر القصد الجنائي بمعنائه الخاص والعام . ذلك أن هناك جرائم يجب أن يتوفر فيها نوعان من القصد : قصد جنائي عام وقصد جنائي خاص .

أما القصد الجنائي العام فهو الذى يتوفر فى كل جريمة . وأما القصد الجنائي الخاص فهو ما تتميز به جريمة عن أخرى .. والآن فلنبحث عن هذين النوعين من القصد فيما كتبناه .

## القصد الجنائي العام

ما هو القصد الجنائي العام ؟ .. القصد الجنائي العام هو أن يأتي الإنسان الأفعال المادية للجريمة علماً أنه بذلك يرتكب الجريمة . فالذى يأخذ مال غيره خلسة يعلم أنه يرتكب جريمة السرقة ، والذي يطعن آخر بسكين فيقتله يعرف أن عمله هذا يؤدي حتماً وبالذات إلى النتيجة التي حصلت . فالقصد الجنائي هو إتيان الشخص الأفعال المادية مع علمه أن القانون يعاقب عليها . فهل هذا النوع من القصد متوفر هنا ؟ هل عندما كتبت كلمات الضعف ، والمرض ، والجهل .. وأن الجيش غير صالح للدفاع عن مصر . هل كنت أعرف أن كتابة هذه الألفاظ بالذات تكون جريمة ومع ذلك مضيت فيها ؟ الجواب : لا . فإنا هو البرهان على ذلك ؟ . البرهان على ذلك هو أن الكلمات ليست مقصودة بالذات . فهذه الكلمات يمكن أن ترفع من الخطاب دون أن يمس ذلك جوهره ، حتى ولا عرضه .. تستطيعون أن ترفعوا هذه الكلمات دون أن تنقصه قليلاً أو كثيراً . الأمر الذى يدل على أن الكاتب لهذه الألفاظ لا يحتاج إليها في مقاله . وليست غرضاً من أغراضه . إذا لماذا كتبت ؟ كتبت لأننى ساعة كتابتها كنت متحمساً جداً .. كتبتها لأننى كنت اتخيل مصر وقد أحيط بها ، ووقف جيشنا عاجزاً عن الدفاع عن مصر . كتبتها لأننى أسمعها تتردد عن جيشنا في كل مكان . كتبتها لعلنى أننى في كتابتها أسجل ما استفاض على الألسن وما قر في جميع الأذهان . وهذا وحده يكفي لشو جريمة السب ، وهاكم ما يقوله الاستاذ أحمد بك أمين مؤيداً لذلك . جاء في الصفحة ٥٦٠ تحت عنوان القصد الجنائي ما يأتي بالحرف :

( فإذا كانت الألفاظ تفيد بحسب ظواهرها السب ، وقد استعملت بغير قصد السب باعتبار نية المتهم ، أو لأنها جارية على ألسنة ذلك الوسط الذى وقعت فيه بغير أن يقصد بها سب ، فلا محل للعقاب لعدم توفر القصد الجنائي )

وجاء في (لابوتفان) الجزء الثانى فقرة ٧٦٣ . ما يؤيد ذلك ويطابقه . والواقع ان هذا طبعى باحضرات المستشارين وعادى جدا . فهذا الذى يقول للآخر : (يا ابن الكلب) أو (يا لص) ، أو (يا مزور) ، أو (يا سافل) . فإن هذه الألفاظ تحمل بذاتها معنى السب والإهانة . أما أن يكون متواتراً عن شخص من الأشخاص أنه ضعيف مريض ، فيذكر أحد الكتاب هذا الوصف ، لا ليهين صاحبه أو يسبه . ولكن ليدلل على حاجته لتبديل الهواء مثلاً . أو حاجته إلى العناية . أقول لا يمكن أن يكون هذا سباً ..

وهذا الذى كان فى قضيتنا . فلقد كتبت هذه الكلمات وهى لا تحمل فى ذاتها ألفاظا بذينة أو مقذعة .. كتبت هذه الألفاظ وهى ليست مما اعتاد الناس أن يبين بعضهم بعضا بذكرها ولكنها أقرب ما تكون الى النوع العادى . كتبت هذه الألفاظ لأخلص منها إلى ذكر الإصلاح غير عالم مطلقا أننى بإثبات هذه الألفاظ أكون قد أهنت الجيش . وما ذلك إلا لأننى أقرر وقائع استفاضت على ألسنة الناس واشتهرت عن الجيش .

هذا هو القصد الجنائى العام . غير متوفر يا حضرات المستشارين . القصد الجنائى الذى يريد أن يأتى المتهم بالأعمال المادية . وهو عالم أنه يرتكب جريمة معينة . هذا القصد غير موجود هنا للبراهين التى قدمتها . والآن فلنتنقل إلى القصد الجنائى الخاص وهو الأكثر أهمية . وهو كل شئ فى جريمة السب .

### القصد الجنائى الخاص :

جريمة السب لها قصد جنائى خاص . فليس يكفى أن نذكر الألفاظ التى يشتم منها رائحة السب والإهانة . فقد تكون الألفاظ بذاتها مقذعة مهينة . ومع ذلك فلا تتكون جريمة السب . وقد يكون كاتبها ملاحظا ما فيها من إقذاع وإهانة ومع ذلك فلا تتكون جريمة السب . لأنه يبقى بعد ذلك القصد الجنائى الخاص . وهو - هل يريد هذا الكاتب من كتابته أن يبين المتحدث عنه فعلاً ؟ وهل يريد أن يشي ثارا له ؟ أو هو بطبيعته قليل الأدب والحياء ؟ فلا يتردد عن السب والقذف إرضاء لطبيعته ؟ . هذا القصد الخاص وهو : هل أردت فعلاً إهانة شخص من الأشخاص بمقالى هذا ؟ أو هل أردت إهانة جماعة من الجماعات . هل هو متوفر هنا ؟ الجواب لا وألف مرة لا .. ولعمري إن قصد الإهانة غير معقول . لماذا أهين هذه القوات ؟ أهى عدوئى ؟ أهى خصمى حتى من الناحية الإصلاحية ؟ هل هى المسئولة عما هى عليه من ضعف وتأخير ؟ هل هى التى امتنعت عن شراء الأسلحة اللازمة للجيش حتى جعلته متأخرا ؟ اللهم لا . فهل أنا عدو للوزارة أريد إخراجها والتشنى منها . بأن أعيب هذه الناحية من قوتها ؟ اللهم لا . لأننا فى صدد خطاب ليس فيه تنديد إلا بالإنجليز . وكيف أهين الجيش وأنا الذى أتغنى بمدحه فى كل مكان ؟ كيف أهين الجيش وأنا الذى أحرص على كرامته وأعرف مفاخره أكثر من وزير الحربية نفسه ؟ كيف أهين الجيش وأنا أرغب فى الانضمام إليه ؟ ولعله دليل جديد على انقلاب الأوضاع فى هذا الزمن . يا حضرات المستشارين ، أن أقف فى قصص الاتهام لأحاكم بتهمة إهانة الجيش . وأنا الذى عرف عنى تمجيد الجيش وإظهار مفاخره ! تريد وزارة الحربية اليوم أن تخاسبنى على بعض كلمات وصفت بها الجيش . فلأحاسسها أنا عن المقالات التى ديجتها فى مدح الجيش وفى عظمتها إذن . وسترون بعد قليل . يا حضرات المستشارين . أن كفتى هى الراجحة . وأن وزارة الحربية مدينة لى بخطاب شكر . ردا على هذه المقالات . وإنى أقطف لكم جزءا من هذه المقالة التى كتبتها قبل مقالتي الأخيرة لتروا ما هى عواطفى نحو الجيش بجلاء ووضوح :



كتب في العدد ١٩ - ١١ تحت عنوان «أين متحف الجيش المصري . وهو أكثر مجدا من الجيش الفرنسي» مقالة قلت في ختامها : (هذا هو متحف الجيش في فرنسا . ومثل هذا المتحف يوجد في كل بلاد العالم المتمدين ، لأنه لا توجد أمة واحدة تخلو من ذكريات الحرب والجهد . أما في مصر فواحسرتها على البلد المنكوب .. لا ذكرى .. لا إشارة تتحدث عن ماضي الجيش المصري الظافر .. كأن ليس لهذا الجيش مجد تضيق به الدنيا بأسرها .. كأن هذا الجيش لم يقهر أوروبا في الحروب الصليبية ، وبأسر ملوكها ، ويسجن ملك فرنسا في الحرب التي تتحدث عنها في المنصورة . كأن هذا الجيش لم يدافع عن المدينة والإسلام ضد هجمات التار . كأن هذا الجيش لم يلق بالإنجليز في البحر ، كأن هذا الجيش لم يفتح عكا وقد عجز عن فتحها نابليون . كأن هذا الجيش لم يخف أوروبا بأسرها عندما حطم الموره ، وقرع باب الآستانة .. كأن هذا الجيش لم تستعن به فرنسا لفتح المكسيك .. كأن هذا الجيش لم تؤلف به إمبراطورية خالدة لم تهدمها إلا دسائس الاستعمار .. يا رجال الجيش المصري .. نريد متحفا لهذه الانتصارات وهذه الفتوح . نريد متحفا يُشعرا بالكرامة والعزة ، نريد متحفا يُجرى الدم في عروقنا نارا . نريد متحفا يحفزنا لطلب المجد والعلا . نريد متحفا يجعلنا نسترخص الموت في ساحة القتال ) .

فهل قيل عن الجيش مثل هذا الذي قلته يا حضرات المستشارين .. هل تعرف وزارة الحرية نفسها هذا التاريخ .. وهل مجدت نفسها وجيشها هذا المجيد .. اللهم لا .. لعل النيابة تقول لنا هذا كلام قديم قيل قبل الآن ، فلعل الرأي تغير . ولعل الاحتقار حل محل الاحترام . فإذا اعترضت هذا الاعتراض فما أسهل أن نجابهها بنفس خطابنا الأخير .. ما أسهل أن أتلو عليكم فقرات من خطابي لوزير الحرية .. ترون منها ترديدا للكلمات السابقة . اسمعوا ماذا في العريضة المقدمة إلى وزير الحرية يا حضرات المستشارين :

(بكل احترام يا صاحب المعالي يتقدم إليكم نفر من شبان مصر الناهضة . يريدون أن يتطوعوا في الجيش المصري ، ليخدموا مصرهم العزيرة عن طريق الجندية .. لقد طال ما قالوا عنا يا صاحب المعالي أننا نفزع من العسكرية . وأنتا نندب حظنا إذا دعينا للجندية . وها نحن أولاء نتقدم لفتدى مصر بروحنا ، وها نحن أولاء نرجوكم أن تضمونا إلى صفوف جيشنا -الباسل- ذى التاريخ المجيد الذى أخاف أوروبا يوما من الأيام) . هل تريدون برهانا بعد ذلك يا حضرات المستشارين على أنني أجد الجيش المصري .. لو أنى أهين الجيش وأحقه .. فكيف أتقدم للتطوع فيه .. كيف يتقدم الإنسان ليتطوع في جماعة إلا اذا كان يحبها ويحترمها . كيف أنتسب إلى صفوف الجيش إن لم أكن أؤمن أنى بهذا الانتساب أزيد شرفا على شرف وفخارا على فخار .. كيف تقول النيابة إننى أهين الجيش وأنا الذى أقول في العريضة . (نرجوكم أن تضمونا إلى صفوف جيشنا الباسل ذى التاريخ المجيد . الذى أخاف أوروبا يوما من الأيام) أليست هذه ألفاظ التكريم التي ذكرتها عن الجيش المصري في مقالتي ؟ اسمعوا أيضا ماذا قلت يا حضرات المستشارين في نفس خطابي للوزير : «ليس

ذلك ضعفا . لا والله . فإن المصريين الذين رموا بالجنود الانجليزية إلى البحر .. المصريين الذين ساروا يهزجون أهازيج النصر خلف إبراهيم باشا حتى قرعوا أبواب أوروبا فأفزعوها . المصريين الذين حاربوا في أوروبا وأمريكا .. الذين سيرهبون العالم يوم يحملون السلاح . ما كان هؤلاء المصريون جبئاء ضعفاء . أليس هذا حديثا عن الجيش . أليس هذا دفاعا عن الجيش . أليس هذا إشادة بمجد الجيش .

لست أنا إذن يا حضرات المستشارين من يحقر الجيش ويرغب في إهائته . لست أنا من لا يمجّد الجيش وينحني أمام اسمه وأعلامه .. ولست أسوق هذا دفاعا عن نفسى ولكنها كلمتي في كل مكان .. ولكنها عقيدتي التي ترونها واضحة في هذا الخطاب الذي أحاكم من أجله . لا ، لا يا حضرات المستشارين ، إنما أنا من يريد العز والنصر للجيش ، إنما أنا من أرغب في تقديم دمي وروحي لهذا الجيش ، ودعوتى غيرى من الشبان ليقتدوا بي . فلست أنا الذى أهين الجيش أو أرغب في إهائته . بل إننى أستمّد من ذات الألفاظ التي أغضبت القوم برهاننا على غيرتى على كرامة الجيش وحبي لإصلاحه . أما أنا فأعرف ماضى الجيش ومجده .. أما أنا فأعرف للجيش قدره وخطره .. أما أنا فأعرف أن الجيش رمز عز الدولة ومجدها .. ورأيت أن القائمين بأمره قد أغفلوا أمره متمددين فنارت نفسى وهاجمت هؤلاء الذين يؤخرون الجيش وما فعلت ذلك إلا غيرة على الجيش . رأيت العساكر تشتري الخضار ، وتحمل الأطفال ، وتسمع بأذنها الإهانات فنارت نفسى لكرامة الجيش فكتبت أندد بذلك .

صديقى يا حضرات المستشارين : إننى أنا الذى أعظم الجيش . وهم الذين يسيئون إليه . وهم الذين يمينونه بإظهاره ممسوخاً حقيراً لا يساوى شئوى نقيير .

أما وزير الحرية فليس بينى وبينه ترة .. لست من حزب سياسى يعادى وزير الحرية ويرى فيه معتصبا لحق من حقوقه فيحقد عليه .. لا يا حضرات المستشارين . فالجميع يعرفون أن مصر الفتاة جمعية قومية تعمل من أجل مصر .. وتفتنى من أجل مصر .. دون أن تعادى مصر يا واحدا . ودون أن تكره مصر يا واحدا .. إننى أدعو إخوانى أن يحب بعضهم بعضا . أدعوهم أن يحبوا أعداءهم . وأن يسامحوا من يسيئون إليهم . ووزير الحرية مصرى . مصرى محترم . وفوق ذلك كان أستاذا لى فى كلية الحقوق ولا أحفظ عنه إلا كل ما هو حسن . فن ناحية المبدأ لا أحمل له إلا كل حب . ومن ناحية الشخصية لا أحمل له إلا كل احترام .. وليس هذا تملقا أو فزعا . لا يا حضرات المستشارين . فستعرفون فى نهاية دفاعى من أنا . وهل أعرف الفزع أو الخوف أو الملق ؟ ولكنى أقوله لأنه الحق .

ما من قصد جنائى إذن يا حضرات المستشارين .. ما كنت أعرف أننى بهذه الألفاظ أهين الجيش لأنه لم تكن فى نيتى إهانة الجيش مطلقا . وإنما كانت رغبتى فى الإصلاح . والإصلاح المطلق .. دعوتى أجهر من هذا المكان المقدس بأن الجيش فى حاجة إلى الإصلاح . وأن وزارة الحرية إن لم

تبادر بهذه الإصلاح فهي جد مقصرة .. دعوتى أجهر من فوق هذا المنبر اننا بغير جيش لا نساوى مليما واحدا ولا نستطيع رفع رؤوسنا . فى مصر احتلال يكبلنا . فى مصر اعداء يرغبون التهاننا . فى مصر جوهرة لامعة . مصر مركز العالم ونقطة الارتكاز فيه . مصر مطمع الغاصبين والفاشين . فيجب على الأقل أن نعرف كيف ندافع عن أنفسنا ، ونريد جيشا يستطيع هذا الدفاع . وجيشنا الحاضر غير صالح لهذه المهمة مطلقا !! .

لقد ضعفت اخلاق المصريين يا حضرات المستشارين ، امتلأوا جبنا وبأسا . لقد ضاعت من نفوسهم كل معاني الشرف والرجولة والكفاح ، لقد نسوا واجبهم نحو وطنهم ، واندفعوا كلهم نحو المغام الشخصية ، ونحو انتهاب الملذات ، وليس غير العسكرية والروح العسكرية ما يستطيع إنقاذ هذا الشعب المجيد ، وما العسكرية إلا الجيش ، فإذا ما ألقينا نظرة على هذا الجيش راعنا ما فيه من ضعف وتأخر ، فما الذى يفعله المخلص الذى يريد الإصلاح ؟ أيرى الضعف ويغض النظر عنه ؟ أيرى الثغرات فى البناء القومى ولا يتحدث عنها بل يطلب منه أن يكون بوقا للتصويه والتعمية ؟ أطلب من صاحب الفكرة المجاهد اذا رأى بابا للإصلاح ألا يدخله ؟ إن فى ذلك إهانة للجيش ، احكموا فى هذه القضية يا حضرات المستشارين لأن قضية اليوم ليست إلا حول هذا المبدأ .

ما أردت ان أهين أحدا ، ولكنى رغبت فى أن أتحدث عن الإصلاح ، ما احتقرت مخلوقا ولكنى جددت الجميع ، فهل يكفى هذا لتكوين جريمة ؟ هذا هو السؤال .  
والآن فلنلخص كل دفاعنا المتقدم قبل أن أنتقل إلى التطبيق القانونى وهذا التلخيص ينحصر فى ثلاث نقاط .

الأولى : إن الألفاظ المستعملة ليست سبا ، ولكنها كلمات وصفية لوقائع أفنا الدليل عليها .  
الثانية : إننا ساعده كتبنا هذه الألفاظ لم نكن نرى فيها إهانة ، ولذلك مضينا فى كتابتها .  
الثالثة : إننا لم نقصد من كتابتنا هذه إهانة مطلقا ، ولكن قصدنا اصلاحا للجيش وانخراطنا فى سلوكه .

### التطبيق القانونى

ملاحظاتى على التطبيق القانونى هي ما يأتى :

إن النيابة تطلب بمقتضى المادة ١٦٦ مكررة اعتبار رئيس التحرير مسئولاً كمسئوليتى عن نشر هذا الخطاب ، والواقع أن أحمد أفندى الشيمى غير مسئول مطلقا . قد ترى المحكمة أن لا أتعرض لهذه النقطة وأن أتركها للدفاع عن أحمد أفندى الشيمى ، ولكنى فى صدد الدفاع عن نفسى ليس فقط أمامكم ولكن أمام الله ، والدفاع عن نفسى يشمل تبرئة أحمد أفندى الشيمى ، ذلك أن المادة المطلوب تطبيقها تنص على ما يأتى :

« ومع ذلك يعنى من المسئولة الجنائية رئيس التحرير .

١- إذا ثبت أن النشر حصل بدون علمه وقدم منذ بدئ في التحقيق كل ما لديه من المعلومات والأوراق المساعدة على معرفة المسئول عما نشر .

٢- إذا أرشد في أثناء التحقيق عن مرتكب الجريمة وقدم كل ما لديه من المعلومات والأوراق لإثبات مسئوليته وأثبت فوق ذلك أنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته في الجريدة أو لضرر جسم .

وهذان النصان يجعلان أحمد الشيمى بريئا كل البراءة ، ويجعلان من واجبي أن أذكر لحضراتكم بعض الحقائق ، فبجلة (الصرخة) هى لسان حال جمعية (مصر الفتاة) ، تسود فيها الروح العسكرية ، وروح النظام والطاعة ، وأحمد الشيمى ليس إلا عضوا من أعضاء هذه الجمعية ، وقد طُلب منه أن يكون رئيسا للتحريير فكان لأنه لا يستطيع إلا أن ينفذ . وفى النهاية أنا المسئول عن كل شيء فى المجلة ، وأنا الذى أعد المواد وأنتخبها ، ورئيس التحرير لا يمكن أن يعارض لأنى رئيسه . ولأنه يجب أن لا يعترض .

فمن ناحية ، الخطاب معنون باسمي ولم يخف رئيس التحرير عن النيابة شيئا ، فهى قد اعتقلتني أولا وعرفت منى أنى كاتب الخطاب وأنا مرسله إلى وزير الحرية ، فعلى حسب البند الأول من المادة ترون أحمد الشيمى قد انتفت عنه المسئولية لأن المسئول عن النشر قد اعترف بذلك وتقدم ، وبحسب البند الثانى يعنى من المسئولية أيضا لأنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته فى الجريدة ، فبصفتي رئيس الجمعية ما كنت أسمح له أن يبدل حرفا مما أكتب ، أو أن يمتنع عن نشره ، ومع ذلك فهو لا يطلع على المواد قبل نشرها ، وأنا وحدى المسئول عن كل ما نشر بالجريدة .

وفى المادتين ١٦٧ ، ١٨٤ تطلب منكم النيابة أن تأمروا بإلغاء الجريدة أو تعطيلها لمدة سنة ، وإنى أترك للمحكمة تقدير ما إذا كانت هذه الصحيفة التى لا تحوى كلمة واحدة ماجنة ، ولا تحوى كلمة واحدة غير خالصة لله والوطن ، أترك للمحكمة تقدير ما إذا كان المجتمع المصرى فى حاجة إلى هذه الجريدة التى تعبر عن جماعة مخلصه متفانية فى خدمة مصر أم لا ؟ أجل لست أريد أن أطيل فى هذه النقطة ، وليسامح الله النيابة لطلبها هذا الطلب

وقبل أن نختتم هذا الدفاع يا حضرات المستشارين ، يسعدنى أن أقول لكم إن هذه المقالة لم تكن عبثا ، أو لم تكن صرخة فى واد ، بل إنها انتجت النتائج المطلوبة منها إلى حد كبير ، وما ذلك إلا لأنها صرخة حق ، فمن جهة تحركت وزارة الحرية أخيرا ، وأعلنت أنها ستقدم للبرلمان قانون القرعة الجديد الذى ينقص الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنوات ، ولاشك أنه إذا ما قدم هذا القانون ووافق عليه البرلمان فإن ذلك يكون خطوة نحو الإصلاح تشكر عليها وزارة الحرية :

على أن أكبر أثر للمقالة أن بدأت الصحف تهتم بالجيش وبانتقاد الجيش ، وبحث القائمون بأمره عن الإصلاح ، وترديد اقتراحات الصرخة ، فالبلأغ فى عددها الصادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٣٤ نشرت افتتاحية تحت عنوان «الخدمة العسكرية ، ووجوب إلغاء البدل وتقصير الخدمة» وقد اقترحت فى المقال إنقاص الخدمة إلى مدة سنة كما اقترحنا ، ونددت بالجيش وحاجته إلى الإصلاح فقالت :

يجب أن نخفض مدة الخدمة العسكرية إلى مدة سنة ولهذا التقصير فائدته ومزيته ، إلى أن قالت :  
ومع انتشار الخدمة العسكرية وشمولها جميع الطبقات يرتفع مستوى الجيش المعنوي ، ولا يبقى  
محصورا في طبقته الحالية ، ويتبنى الاستنكاف من الدخول فيه ، ويتغير نظر الطبقات المستنيرة إلى  
حياته ومنزلة المرء فيه وتثبت له الكرامة ، ويتوفر للجندى الاحترام الاجتماعى الذى ينقصه الآن مع  
الأسف ، ولا يعود دخول الجيش والانتظام فيه مدعاة للحزن والألم ، وموجبا للندب والعيول ،  
وباعثا على الإحساس بوقوع المصائب ، وحصول نكبة . وغير البلاغ كتبت جرائد اخرى في  
الموضوع ، كمجلة المصور ، وغدا عندما تعرض ميزانية وزارة الحرية على البرلمان ستتردد رغبات  
الإصلاح وسوف ترون ما سيوجه إلى الجيش من انتقاد مرلاذع . ودعوة صارخة إلى الإصلاح .  
وإذن .. فإن غایتنا من كتابة المقالة قد تمت وهى لفتُ النظر إلى الجيش وحاجته للإصلاح بل  
هذه القضية بالذات وحكمكم فيها ليس إلا دعوة صارخة للحكومة والأمة إلى الالتفات للجيش  
وإصلاحه رغم أنف الجميع .

### كلمة ختامية

وبعد ، يا حضرات المستشارين ، فلقد قدمت لكم كل الدفاع الماضى لا لأتني أريد أن أذاع  
عن نفسى ، ولكن لى أريح ضمائرکم ، ولكنى يكون هناك دفاع قبل ، فتستطيعون أن تصدروا  
حكمكم أيا كان وأنتم مطمئنون ، مرتاحو الضمير . ولقد تعودتم أن يقف أمامكم المتهم طالبا  
الرحمة ، وطالبا البراءة حرصا على نفسه وضنا بها وبحريته أن تهدر في السجن ، أما أنا فإني أطلب  
البراءة فعلا في مقدمة طلباتي ، لا ضنا بنفسي ، ولا رغبة في الحرية ، ولكن حبا للعدالة وتقديسا  
لها . إنني أعرف أنني لم أرتكب وزرا من الأوزار . إنني أعرف نفسي غلصا إلى أبعد حدود الإخلاص  
قت بواجبي نحو مصر . أعرف أنني أعمل كل يوم لتقريب هذه الساعة التي يستيقظ فيها الشباب  
وتعود الروح إلى المصريين ، وأعرف أنني لا أستحق مطلقا أن يقال عني أنني مجرم . أجل  
ياحضرات المستشارين إن العدالة المطلقة تجعلني حريصا على طلب البراءة ، لا لنفسي ولكن من  
أجلها ، أما بعد ذلك فلکم أن تحكموا على بالحبس وأنتم هادئون ، إنكم ستقدمون لي خدمة  
عظيمة . لكم أن تطمئنوا أنكم تستطيعون أن ترسلوا لي إلى السجن ، وأنا أبارككم وأحبكم  
لأنكم بهذا تحققون رغبة من رغباتي . إنني أجاهد كجندى من جنود الله لتخليص مصر ، إنني  
أجاهد وكل رغبتي أن أموت مجاهدا ، وليس السجن إلا خطوة من خطوات الجهاد ، فإذا ما  
أتحموه لي فأنتم جديرون بشكري . انني أدعو الناس للتضحية ، فإن لم أكن في مقدمة المضحين فلا  
فائدة في كلامي ، وما رأيكم أنني لا أرى حتى في السجن تضحية . وما بقى الانسان حيا فهو بعد  
لم يضح بشيء .

احكموا بالبراءة إذن ، أو ارسلوني إلى الحبس وأنتم مطمئنون ، ولكن لا تحكموا بالغرابة لأنني  
فقير ، ولست أملكها ، أو لست أريد أن يدفعها لي شخص من الأشخاص ، وإذا حكمتم بالحبس  
فلا تحكموا به مع إيقاف التنفيذ ، لأن هذا سبب لي ألما كبيرا . لا تحكموا على بالغرابة ، ولا

بالحبس مع وقف التنفيذ ، ولكن احكموا إما بالبراءة أو بالحبس ..  
يا حضرات المستشارين ، أنتم كلامي وأنا مطمئن الى أن الله سينزل حكمه الذى يريده على  
الستكم ، وأنا مطمئن الى أن حكمكم سيكون له أعظم الأثر فى تطور الفكرة التى أدعو إليها . وسواء  
كان بالبراءة أو الإدانة ، فسيخطو بفكرة مصر الفتاة إلى الأمام أصدروا حكمكم إذن ، والله  
يرعاكم . أصدروا حكمكم ، وأنا منذ الآن سعيد به أيا كان بل لعل سعادتي ستكون مضاعفة اذا  
كان حبسا ..  
أصدروا حكمكم ، ودعوني أهتم من أعماق قلبي :

الله أكبر وانجلد لمصر

### الحكم

وقد نظمت المحكمة المشكلة برئاسة نجيب بك سالم عقب هذه المرافعة بحكمها وهو يقضى بتغريم كل  
من الأستاذين أحمد حسين وأحمد الشيمي ٢٥ جنيها غرامة لكل منهما - وقد رفض الأستاذ أحمد  
حسين أن يدفع الغرامة وعلى ذلك فقد قبض عليه وأودع السجن ثم رُئى بعد ذلك أن مصلحة  
الجمعية فى أن يغادر السجن فدُفعت الغرامة وغادر السجن بعد حبس دام أسبوعين .

## الكفاح

### ٨

لا نستطيع أن نصف الأحداث التي توالى بعد ذلك على جهاد مصر الفتاة طوال عام ١٩٣٤ ، إلا أنها كفاح شاق متواصل ، متسم بالإيمان والصدق ، فالحركة في اضطهاد دائم ، دارها مراقبة ومحاصرة ، وجريدتها مصادرة من حين لآخر . وكتابتها يحقق معهم بالليل والنهار ، وليس هناك ما يصور للقارىء حقيقة ما كانت تعانيه مصر الفتاة في هذه الأيام أكثر من أن تثبت هذه اللوحة التي نشرتها جريدة الصرخة في العدد الصادر بتاريخ ٢ يونيو سنة ١٩٣٤ عن كفاحها في ستة أشهر .

في يوم ١٣ نوفمبر - أُلقت النيابة القبض على الأستاذة أحمد حسين . وفتحي رضوان . وحافظ محمود . وفتشت منازلهم وأودعتهم السجن فكثوا به ثلاثة وعشرين يوما .

في يوم ٢٩ يناير - أُلقت النيابة القبض على الأستاذين أحمد حسين . وأحمد الشيمى . وأودعتهم السجن الاستئناف لمدة خمسة وعشرين يوما .

في يوم ١٢ فبراير - أُلقت النيابة القبض على الأستاذين حافظ محمود ، ومحمود حجاج . وأودعتهم السجن الاستئناف على ذمة الحبس الاحتياطي فكثوا به ١٤ يوما .

في يوم ٢ مايو - صادر البوليس ملحقا لجريدة الصرخة خاصا بالامتيازات

في يوم ٥ مايو - صادر البوليس عددى الصرخة رقم ٢٩ . ٣٠

في يوم ٦ مايو - صدر الحكم بالغرامة على الأستاذين أحمد حسين ، وأحمد الشيمى ، بخمسة وعشرين جنيها لكل منهما ، ونظرا لعدم توفر هذا المبلغ فقد أودعا السجن لينفذ عليها .

في يوم ١٠ مايو - صادر البوليس الصرخة وهى لا تزال تحت الطبع واستدعى الأستاذ أحمد الشيمى للتحقيق معه .

وهناك قضية منظورة أمام محكمة الجنايات وستعرض في الأيام المقبلة .

هذا إلى محاضر تحقيق لا تزال مفتوحة ، يزيد عددها على الأربعة ، ولا تزال

الصرخة تصدر بانتظام .

ذلك أن القائمين بها يؤمنون بالله .

وما كان الله ليتخلى عن قوم يجاهدون في سبيله .

\* \* \*

هذه صورة مما كانت تعانيه مصر الفتاة ، ومع ذلك فقد كانت تنطلق في كل ميدان ، وتعمل في كل ميدان ، وتكافح في كل ميدان ، باذرة هذه البذور الجديدة من الوطنية العاملة ، محاربة من ران على قلوبهم من المصريين ، باعثة الثقة والأمل في النفوس بإمكان تحرير الوطن وإعادة مجده القديم . ولقد قمت ورؤساء الحزب الآخرين بجولات في البلاد ، وبدأت فروع مصر الفتاة في أنحاء القطر تتألف وتتكون ... وكانت طنطا ، والاسكندرية ، والزقازيق ، والمنصورة ، هي أسرع المناطق استجابة لمصر الفتاة ، وجرت لنا مع البوليس ملاحم في كل هذه المدن ، وكانت بمثابة وقود لإشعال الحركة التي أخذت كل خطورتها وأهميتها ، وكانت أهم هذه الملاحم على الإطلاق ، ما وقع لي في الإسكندرية في العشرين من شهر يونيو ، حيث كان مقررا أن ألقى محاضرة بدار مصر الفتاة فيها ، فلما هممت بالدخول إلى الدار في موعد المحاضرة انهار البوليس علينا ضربا بالعصى . فتفرق الحاضرون ، ولكنني بقيت ثابتا في مكاني وإلى جوارى المجاهد حسني ناجي الشاشرجي . الذي كان مرافقي في هذه الرحلة ، فكنا محل عدوان شنيع أثبته الطبيب الشرعي في تقريره .. حيث كان في جسدي اثنا عشرة إصابة ، بعضها على جانب من الخطورة ، وكذلك كان الحال بالنسبة لزميلي ، ومع ذلك .. فقد وجهت لنا تهمة التظاهر ، والتجمهر ، والاعتداء على البوليس ، وقدمنا إلى المحكمة .. فألقيت في المحكمة الكلمة التالية :

يا حضرة القاضي :

لقد اعتدى علينا ، لقد نُكِّل بنا ، لقد مُنِعنا من الدخول إلى دارنا ، وها نحن نقف أمامكم كمعتدين ، وكممتظاهرين ، وإن كنا نأسف على شيء فهو أسفنا على هذه المأساة الخلقية التي تدهورنا إليها ، والتي تجعل المصري يقف هكذا خصما للمصري ، والتي تجعل المصري ينكل هكذا بأخيه المصري ، مع أنه يعلم أن هذا المصري إنما يكافح من أجل حريتها ، وحرية وطنها المشترك ، ومن أجل استقلالها المنشود . إن هذا المصري يكافح ليموت كى يكون في موته حياة لغيره ، ويشقى كى يسعد غيره . إن هذا المصري يناضل في سبيل الله .

هذه هي نقطة الأسى في هذه التضحية ، ولكنها مع ذلك لا توهن من عزمنا ، لا تدخل الشك إلى إيماننا الثابت بأن المصريين عما قريب سيقفون صفاء واحدا ، وكتلة واحدة متحابين ، متآخين ، متكاتفين ، ضد العدو المشترك ، ضد المستعمر الغاصب . هذه الحادثة وأمثالها تزيدنا يقينا وإصرارا



أنه لابد من الإصلاح ، لابد من إعادة الروح ، وبعث الهمم ، وبعث النفوس التي ركبت .  
 وأما كلمتي الختامية يا حضرة القاضي : فهي أن لا ترهق نفسك بكل المرافعة الماضية ، ولنصل  
 إلى النهاية .. لإنني وحسني ناجي ، وباقي الزملاء . قد ألقنا مظاهرة ، واعتدينا على البوليس (بالرغم  
 من أننا نحن المعتدي علينا) . وليكن ، لسنا نشكوا مطلقا - ولسنا نتبرم من شيء ، وتستطيع أن  
 ترسل بنا إلى السجن ، وأنت مطمئن - إلى أننا لن نشكوا أيضا ولن نحمل لك بعدها إلا الاحترام  
 والتقدير ، بل والحب أيضا .

لقد وقفت مرة أمام محكمة الجنايات وترافعت أمامها ، وفي آخر مرافعتي وجهت كلاما سأوجهه  
 دائما إلى قضائي الذين يحاكموني والذين يحكون على .. ألا وهو : إننا نجاهد في وقت قد تحكمت فيه  
 الشهوات ، وعزت التضحية ونحن ندعوا المصريين والشباب المصري على الخصوص ، للتضحية  
 فيجب أن نكون في مقدمة المضحين ، واذن فتستطيعون أن ترسلوا بي إلى السجن هادئين مطمئنين  
 أنكم تحققون رغبة من رغباتي لأنني أعتقد أن المكان الطبيعي لشاب حر في أمة مضطهدة هو  
 السجن ..

في السجن أجد الحرية المنشودة ، وفي السجن وبين جدرانها الأربعة أطلع النور ، نور الله في  
 كتابه ، وفي السجن أستطيع أن أكون هادئا مطمئنا إذ أكون قد أدبت واجبي نحو مصر .

أرسل حركك اذن يا حضرة القاضي والله يوفقك لما فيه الخير والسداد ، والله يوفقنا لما فيه خير  
 مصر ، ولكنني لا أستطيع أن أنهى الحديث قبل أن أرجوك من كل قلبي إذا رأيت الادانة ثابتة ، أن  
 تعتبرني أنا المسئول الوحيد وأن تنزل على أنا وحدي أقصى ما تستطيع أن تنزله من عقاب وأن تخفف  
 عن الباقيين ، والمجد لمصر .

## الحكم

وقد صدر الحكم ، وهو يقضى بإدانتى بتهمة التظاهر وتبرئتي من تهمة الاعتداء والحكم علي  
 بغرامة مقدارها عشرة جنيهات وإدانة زميلي حسني ناجي بتهمة التظاهر والاعتداء والحكم عليه بغرامة  
 قدرها ١٢ جنيها . على أن هذا الحكم لم يلبث أن عدل في الاستئناف حيث قضت المحكمة بالبراءة من  
 جميع التهم .

## محاربة الامتيازات الاجنبية

كان الشغل الشاغل لنشاط مصر الفتاة وأعضائها في العام الأول من تأليفها هو محاربة  
 الامتيازات الأجنبية التي كانت تنوء تحتها البلاد . ولم تجد الامتيازات الأجنبية من حاربها  
 في مصر كما حاربها مصر الفتاة ، وستحظى مصر الفتاة دائما إذا ما فتح سفر الجهاد  
 القومي بالنصيب الأكبر ، إن لم يكن النصيب الأوحده في محاربة الامتيازات في غير  
 هوادة أو لين .

فالزعيم مصطفى كامل باعث الوطنية في مصر . كان لا يتعرض للامتيازات الأجنبية . بل كان يتبجح بها في محاربة الإنجليز . وكانت خطته أن يجامل الأجانب في مصر . ليشدوا أزر الوطنية المصرية . حتى لقد أثرت عنه الكلمة المشهورة (أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا) وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الوطنية المصرية . فلم تلق الامتيازات الأجنبية في مصر كيدا حقيقيا . حتى ثورة سنة ١٩١٩ نفسها . لم تستطع أن تنال من الامتيازات الأجنبية . وان كانت المفاوضات بين مصر وإنجلترا بدأت تشير إلى وجوب وضع حد لهذه الامتيازات الأجنبية .

وقد جرت لي مناقشات حادة مع مصطفى باشا النحاس حول موضوع الامتيازات ، وقد كان ذلك سببا من أهم أسباب اختلافنا في الرأي . فقد كان يتمسك بوجوب الإبقاء على الامتيازات الأجنبية . إلى أن تحل القضية المصرية مع الإنجليز . وكنت أعارضه في ذلك أشد المعارضة . ولكنه لم يوافقني على وجهة نظري . ومع ذلك فقد جاء الوقت الذي ترأس فيه النحاس باشا المؤتمر الذي عقد في سنة ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وتحديد أجل لانتهاج المحاكم المختلطة ! .. فإذا ذكرت الامتيازات الأجنبية ، وذكر تاريخها في مصر ، فإن كفاح مصر الفتاة ضدها يجب أن يسجل بأحرف من نور ، وها هي أعداد الصرخة في سنواتها الأولى ، وليس لها قضية تحاربها بأعنف مما حاربت هذه القضية .

وقد أخذ هذا الكفاح مظهره الرائع في ٢ مايو سنة ١٩٣٤ ، حيث دعت مصر الفتاة الأمة المصرية . الى تنظيم مظاهرة في ذلك اليوم لإعلان سحقها على الامتيازات . ولكن الحكومة حالت دون قيام المظاهرة ، بما اتخذته من إجراءات عنيفة ، وصاشرت عددا ممتازا أصدرته مصر الفتاة في ذلك اليوم خاصا بالامتيازات . وسبق هذا العدد إلى الأبد درة في جبين مصر الفتاة ، وهو يضم أقوال كل عظماء مصر الذين حصلت منهم مصر الفتاة على تصريحاتهم ضد الامتيازات ، بل إن فيه تصريحاً من وزير اليونان المفوض أعطاه لندوب الصرخة يعلن فيه استعداد حكومته للتنازل عن الامتيازات متى وافقت الدول الأخرى على ذلك .

وقد استخدمت مصر الفتاة سلاح المقاطعة ضد الأجانب للضغط عليهم . وحملهم على التنازل عن الامتيازات الأجنبية إذا رغبوا في صداقة المصريين ، وحدث أن وفد على مصر في ذلك الوقت سيرك ألماني للألعاب البهلوانية ، يسمى «سيرك هاجنيك» وهو سيرك عالمي ، تطلع جميع المصريين لمشاهدة ألبابه ، فدعت مصر الفتاة إلى وجوب مقاطعته كبضاعة أجنبية ، وتطوع الشبان للوقوف أمام السيرك والحيلولة بين المصريين

وبين الدخول ، وعبثا كان البوليس يقبض عليهم ، ويزج بهم في السجن ، فقد كان متطوعون آخرون يقومون بنفس العمل ، فكان لذلك رجة كبيرة في أنحاء البلاد .. ومن عجب ، أن النحاس باشا في ذلك الوقت ، كان يتحدى مصر الفتاة في هذه الناحية ، فإذا دعت إلى مقاطعة السينات الأجنبية وعلى رأسها سينا رويال ، بادر بزيارتها ، وإذا دعت لمقاطعة هذا السيرك ، بادر بزيارته ، وذلك تمشيا مع فكرته في عدم مضايقة الأجانب . ومع ذلك ، فقد نجحت حركة المقاطعة نجاحا منقطع النظير ، وبدأ كل أجنبي يحس وطأة المقاطعة المصرية ، والكراهية المصرية ، عقابا لهم على التمسك بهذه الامتيازات اللعينة .

وكانت دعوة مصر الفتاة تقوم على وجوب إلغاء هذه الامتيازات بجرة قلم ، وإعلان من جانب الحكومة المصرية يبلغ للدول . ولكن الامتيازات لم تلغ إلا في مؤتمر دولي كما قدمنا ، ولا تزال بعض ذيولها قائمة في مصر<sup>(١)</sup> في شكل هذه المحاكم المختلطة التي حدد لإلغائها سنة ١٩٤٩ ، ولن يهدأ لمصر الفتاة بال ، حتى تمحو كل أثر لهذه الوصمة الشنيعة في تاريخ مصر .

\* \* \*

---

(١) حتى تاريخ الطبعة الثانية لهذا الكتاب .

## أربعة أيام في إيطاليا

٩

وفي ذلك الوقت ، كان طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية في مصر . قد أسس شركة مصر للملاحة ، لإنشاء خط ملاحى بين مصر وأوروبا ومختلف أنحاء العالم . وكانت النيل ، هى أولى سفن هذه الشركة فدعيت كصحفى للقيام برحلة على ظهرها ذهابا وإيابا ، من الإسكندرية إلى مارسيليا ، فكانت فرصة ذهبية سعيدة . رأيت أن أنتهزها لزيارة إيطاليا زيارة سريعة ، فقد كانت النيل ترسو على ميناء نابولى الإيطالى . ثم تستأنف سيرها بعد ذلك إلى مارسيليا ، وتمر من جديد على ميناء نابولى فى عودتها إلى الإسكندرية . وكانت تستغرق أربعة أيام بين وصولها إلى نابولى وعودتها إليها . وهذه الأيام الأربعة هى التى انتهزتها لإلقاء نظرة سريعة على إيطاليا الفاشستية . إيطاليا موسوليني الحالم بيعث الإمبراطورية الرومانية ! . فلم تكد النيل ترسو على ميناء نابولى . حتى أسرع بالهبوط من السفينة . وجلت جولة سريعة فى المدينة . ثم أخذت القطار إلى روما فوصلتها وعشت فيها بعض الوقت . فرأيت من أمر إيطاليا ما أثبتته الحوادث والتجارب بعد عشر سنوات من هذا التاريخ . وعلى الرغم من إقامتى القصيرة جدا . وبينما كان العالم يتحدث عن عظمة إيطاليا ، رحت أتحدث بعد عودتى إلى مصر عن ضالتها . وبينما كان العالم يرتجف رعبا من سخط إيطاليا الموسولينية تحديثها ووقفت فى وجهها بعد عودتى إلى القاهرة . فكُتبت سلسلة من المقالات تحت عنوان «أربعة أيام فى نابولى وروما - أو لقد خيبت إيطاليا حسن ظنى بها» وقد صورت فى هذه المقالات ما رأيت من طبيعة الشعب الإيطالى . وحللت مشاهداتى والحوادث التى وقعت لى . وخرجت من التحليل بالنتيجة الآتية التى نشرتها جريدة الصرخة .. لقد لمست روح الشعب الإيطالى ، وتبين لى أن كل ما يقال عن إيطاليا اليوم ، ليس إلا ضجيجا من قبيل الدعاية الواسعة النطاق ، وأن الشعب الإيطالى متخلف وقدرته محدودة . وأن النظام الفاشستى بأسره يتلخص فى موسوليني ، فإذا ما مات موسوليني مات معه هذا النظام ، وعادت إيطاليا إلى مركزها قبل الحرب ، أمة هزيلة ضعيفة<sup>(١)</sup> وأحسب أن

(١) الصرخة العدد الصادر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ مقال « نذير مصر الفتاة فى روما »

ليس هناك ما يمكن أن أعتز به الآن ، وقد انهارت إيطاليا بانهار موسوليني ، أكثر من أن أسجل الآن فقرة من مقال الأول عن رحلتي إلى إيطاليا . وكيف صدقت الأيام والحوادث كل ما قلته عنها بالحرف الواحد .

## أربعة أيام في نابولي وفي روما أو

### لقد خيبت إيطاليا حسن ظني

وهل في العالم اليوم من لم يسمع باسم إيطاليا الجديدة . إيطاليا الفاشستية . إيطاليا موسوليني . إيطاليا ذات الأساطيل في الهواء والماء والجيش في البر ، هل في العالم شخص لم يتطلع إلى هذه الدولة التي نهضت من العدم لتلعب دورا خطيرا في تاريخ أوروبا الحديثة ، ونحن هنا في مصر .. أولكم نحس بخطر هذه الدولة الجديدة ؟ أولا نسمع أنات اخواننا في طرابلس ؟ وما ينصب عليهم كل يوم من الويلات والآثام ؟ أولا توزع تركتنا ولا نزال أحياء ؟ فبالأمس قدمنا (جغوب) (١) ، واليوم قدمنا ما يبلغ مساحته ربع مساحة مصر ، في السودان . وغدا من يدري ما الذي ندفعه أيضا إذا بقينا تحت هذا النير الإنجليزي ، وإذا بقي هؤلاء السادة الأجداد من الوزراء والحكام بهذا الضعف ، وهذا الخنوع ، وهذا الرق ، للمنصب وعجل الذهب ، هذه الدولة إيطاليا التي عبأت جيوشها منذ أيام وأرسلتها إلى الحدود النمساوية لمحاربة ألمانيا إذا لزم الأمر ، هذه الدولة التي خيل للناس أن هتلر يحتذيها وينسج على منوالها ، وأخيرا هذه الدولة التي فتحت مصراعيها للوافدين الأجانب ، تغلقهم على سفنها بجانا ، وتستضيفهم بجانا ، ليروا بأعينهم عظمة الفاشست ، وعظمة إيطاليا صاحبة المجد الروماني .

هذه هي إيطاليا التي نكرها لما تنتويه لنا من شر ، هذه هي إيطاليا التي كنت في شغف لرؤيتها لألمس كل هذه العظمة ، ولأرى هذا الشعب العجيب ، الذي طفر هذه الطفرة ، والذي يتحكم بمستعمراته هذا التحكم ، والذي يهدد استقلالنا هذا التهديد ، فانتهزت الفرصة وطرت إليها فوق متن النيل السعيد ، ولولا هذا لما ذهبت ، فيا نعمى هذا النيل الذي أجراه لنا بنك مصر في البحر ، ويا نعمى هذا المجد الجديد الذي يشرق فيضى لنا هذه الظلمات .

ذهبت إلى إيطاليا ، وعدت منها ، وقضيت فيها أربعة أيام ، ما جاء اليوم الرابع منها حتى كنت قد شمت كل ما حولي ، حتى كنت قد فرغت منها وعرفت أولها وآخرها ، حتى عرفت أن في المسألة طبلا كثيرا ، وأن إيطاليا قد خيبت حسن ظني . وأن إيطاليا قد ملأني ثقة على ثقة ، وإيمانا على إيمان أننا في مصر نستطيع أن نفعل العجائب ، نستطيع أن نسخر من كل هذه الشعوب يوم أن تتوفر لنا الإرادة ، وتلى الحكم لدينا حكومات رشيدة ، يوم أن يُسيطر الإيمان والعزم على أعمالنا ، يوم أن

(١) واحة في صحرائنا الغربية .. هي الآن ضمن حدود ليبيا .

يتولى الشباب مقاليد الحكم والإدارة ، أجل .. فى هذه الساعة نستطيع أن نعمل كثيرا ، نستطيع أن نقفز الى الأمام ، نستطيع أن نسابق هذه الدولة الصغيرة (إيطاليا) نستطيع أن نتبأ مركزنا القديم معلمين للإنسانية وزعماء للشرق .. الى آخر ما جاء فى المقالة<sup>(١)</sup>

وكانت هذه هى مقدمة المقالات التى توالى بعد ذلك عن إيطاليا . وقد قامت الدنيا وقعدت لهذه المقالات ، وأعنى بالدنيا ، دنيا الفاشست الطليان ، الذين طلبوا من الحكومة المصرية ، أن تحقق معى وتوقفنى عند حدى ، وبادرت الحكومة المصرية الى تلبية رغبة موسولبنى ، فشرعت النيابة تحقق معى ، وفى نهاية التحقيق ، وجهت الى تهمة التحريض على كراهية إيطاليا ، وتحقيرها والازدراء بها ، ولعل تاريخ القضاء المصرى ، لم يظفر بقضية من هذا النوع ، من حيث موضوعها ، وما انتهت اليه ، وتقلبات القدر التى تمت بين رفع الدعوى والفصل فيها ، فقد رفعت هذه الدعوى على فى سنة ١٩٣٤ ، ولم يفصل فيها الا منذ أيام قلائل فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ ، أى بعد اثنتى عشرة سنة كاملة من تاريخ رفعها . ولقد سقطت إيطاليا فى خلال هذه المدة ، ولقيت من سخرية الدنيا كلها ، ما لم تلقه أمة من الأمم فى أى عصر من عصور التاريخ ، وقتل موسولبنى أشنع قتلة يمكن أن يقتلها رجل عظيم ، وجاء الوقت الذى كان قضاة محكمة الجنايات ينجلون من نظر هذه القضية ، فيؤجلونها من عام الى آخر ، حتى إذا كانت هذه الجلسة الأخيرة قضت المحكمة ببراءة من هذه التهمة استنادا على سقوط الدعوى بمضى المدة ، ولم يفتنى أن أسجل فى المحكمة وهى تقضى لى بالبراءة ، كيف أن ما أحاكم عليه فى يوم من الأيام لا يلبث أن يصيح فضيلة لدى كل الناس ، وأن مجاهدا فى مصر لم يضطهد كما اضطهدت ظلما وعدوانا ، حيث لا ذنب لى الا حبي لمصر ، وذودى عن حريتها ، وتكريس حياتى لبعث مجدها ونهضتها .

\* \* \*

(١) راجع هذه السلسلة من المقالات فى الصرخة شهر أغسطس سنة ١٩٣٤

## حكومة نسيم باشا

١٠

كان نشاط مصر الفتاة كما رأينا حتى الآن يعنى كل العناية بالمسائل القومية . فلم يحاول أن يشترك في المعارك الحزبية والمنازعات حول الحكم . ولم يحاول أن يهاجم الوزارة القائمة في الحكم وقتئذ . وهى حكومة عبد الفتاح باشا يحيى . باعتبارها حكومة تمثل حزبا من الأحزاب ، أو اتجاهها من الاتجاهات . على الرغم من اضطهاد الحكومة المتواصل لمصر الفتاة . وذلك كله إيمانا منا أن ليس هناك ما يطرب له الغاصب الأجنبي أكثر من أن يرى بأسنا بيننا شديدا . فحرصنا على أن يكون كفاحنا كله لله والوطن . ولكن الحوادث تطورت في مصر تطورا حادا . جعلتنا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نقف بمنأى عن هذه الحوادث . كما أن الاضطهاد الذى كان يلاحق مصر الفتاة ، تحول إلى اضطهاد مميت خائق . كأن يصادر البوليس جميع أعداد الصرخة على التوالى ، أو أن يصادرها وهى في المطبعة . ولم يكن باستطاعتنا أن نحتمل هذه الخسارة المالية القادحة . فبدأنا نفكر في التوقف بعد أن كنا اقتصرنا على اصدار الصرخة في ثمانية صفحات بدلا من ستة عشر . ثم لإصدارها في أربع صفحات بدلا من ثمانية .. ورحنا نكتب فيها من باب السخرية والتهكم على هذه الحالة . مقالات عن البصل وفوائد النوم عقب الغداء . ونعقد مقارنات بين شهيرات الممثلات في العالم . ومع ذلك فلم تكن الصرخة تسلم من المصادرة في داخل المطبعة بالرغم من ذلك كله . بحيث كدنا نكف نهائيا عن إصدار الصرخة حتى يقضى الله أمرا كان مقضيا .

ومن ناحية أخرى ، كانت مصر كلها تعاني من تحبط الوزارة مثل الذى تعانيه مصر الفتاة ، بل إن جلالة الملك أحمد فؤاد بدأ يشعر بعجز الوزارة عن حيازة مظاهر استقلال مصر ، حيث راح الإنجليز يتدخلون في كل شئ ، ويدسون أنفهم في كل شئ ، وأوفدوا الى مصر إنجليزيا وقحا يدعى « بترسون » راح يستعرض قوات البوليس المصرى ، ويفتش عليها . ويزور بعض المديریات ، ويحل ضيفا على بعض الأعيان ، كما كان يفعل

المعتمد البريطاني في قديم الزمان ، ولم يقف أمر « بترسون » عند هذا الحد ، بل شرع يتدخل في شئون القصر الملكي الداخلية ، فيعترض على وجود هذا الموظف أو ذاك ، ويشير على جلالة الملك بأشخاص الأطباء الذين يجب أن يتولوا معالجته . ولم يكن بقدرة الإنجليز أن يجترؤوا هذا الاجتراء ، لولا هذا الخلاف المشتجر بين القصر وبين الوفد الذي كان يمثل الأغلبية في البلاد ، وكان قد انقضى أكثر من أربع سنوات على التجربة التي قام بها الملك فؤاد لمحاولة الإضعاف من نفوذ الوفد في البلاد بمعاونة صدق باشا الذي اصطنع دستوراً جديداً ، وقد سقط صدق باشا بعد أن اضطهد البلاد وأسرف في اضطهادها ، وأقر الهدوء والسكينة والنظام فيها ، ولكن بشمن باهظ جدا من القضاء على كل حرية وعلى كل خلق وكل فضيلة . ومع ذلك فقد جاء الوقت الذي رأى فيه جلالة الملك أن استمرار صدق باشا أصبح يضر أكثر مما ينفع ، فأسقطه ، وجاء بوزارة عبد الفتاح باشا يحيى التي كان يطلق عليها وزارة القصر . ولكن عبد الفتاح باشا يحيى لم يستطع في الوقت المناسب أن يدفع عدوان الإنجليز على القصر ، لأن الشعب كان قد امتلاً مقتاً وحقدًا على الحكومة ، وعلى برلمانها ، ودستورها الذي اشتهر باسم دستور سنة

١٩٣٠

وهنا لم يسع مصر الفتاة إلا أن تتقدم لجلالة الملك برسالة طالبت فيها بوجوب إسقاط وزارة عبد الفتاح باشا يحيى وإلغاء الدستور الجديد ، والعودة بالبلاد إلى الحياة الدستورية الصحيحة ، فذلك هو الطريق الوحيد لحماية العرش والبلاد من تدخل الإنجليز وعدوانهم . ولم تنقض أيام على رفع هذه الرسالة إلى جلالة الملك ، حتى كانت الوزارة الفتاحية قد قدمت استقالتها بالفعل ، فدل ذلك على أن أول رسالة سياسية رفعتها مصر الفتاة لجلالة الملك ، قد جاءت في وقتها وأصابها الهدف ، وترجمت عن حقيقة الحال .

واستدعى جلالة الملك توفيق نسيم باشا لتولى رئاسة الحكومة . وقد كان نسيم باشا محل رضا من الوفد ، وتقوم سياسته على وجوب التعاون مع الوفد ، فدل ذلك على أن جلالة الملك فؤاد قد قرر أخيراً أن يضع حداً لانقلاب صدق باشا ، وأن يعود بالبلاد إلى الوضع الطبيعي . وقد بادر نسيم باشا بمجرد توليه الحكم بإطلاق الحريات العامة ، ورفع القيود والسدود التي كادت تخمد أنفاس الرأي العام ، فجاء ذلك في الوقت المناسب لمصر الفتاة ، التي كادت جريدتها في ذلك الوقت أن تتعطل تحت تأثير المصادرة ، والتي جُمِّدت عن كل نشاط أو حركة ، تحت ضغط البوليس ومطارداته التي بلغت حداً لا يتصور .

١٣٦



وفي ذلك الوقت كان قد أتيح لمصر الفتاة أن تعثر على شقة كبيرة في ميدان العتبة الخضراء ، اتخذتها دارا لمصر الفتاة . وكان يتبع هذه الشقة شرفة كبيرة جدا تتسع لبضع مئات من الجمهور ، فاستطعنا في ظل الحرية الجديدة أن نفتح هذه الدار بإقامة حفل عام القيت فيه خطابا سياسيا عاما سيبقى بالرغم من مئات الخطب التي القيت بعده في عشر سنوات بمثابة حجر الزاوية من هذه الخطب كلها .

\* \* \*

## خطاب الأستاذ أحمد حسين

### في حفلة إفتتاح دار مصر الفتاة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أحمد الله أيها السادة ، أن عدنا نتقابل من جديد ، وتحدث من جديد . أحمد الله الذى قوانا على احتمال المكاره ، ومنعنا الصبر والثبات ، حتى زالت الغمة ، وانقشع الليل ، وأشرق الفجر من جديد ، فجر الحرية والسلام .

### حاجة الأمم إلى الشدة

وصدقوني إن الأمم في جهادها أكثر ما تكون حاجة إلى الشدة والشدائد ، لأن الشدة هى التى تنهر الضعف وتطهر النفس ، الشدة هى التى تقوى الإيمان وتركيه وتعت في النفس فضائلها . الشدة أيها السادة هى محك الاختبار الذى يختبر به معدن من المعادن للتمييز بين الغث والنفيس .

### ولقد كانت شدة

ولقد كانت شدة ، ولقد كانت محنة . أصيبت بها الأمة في عهد الوزارة السابقة . حُطم فيها الدستور ، وانتهكت القوانين ، واختل الأمن والنظام .. أى ركن من الأركان بقى بعيدا عن الظلم والتخريب .. أى بيت لم ينله شر وويل كثير .. بل أى إنسان لم يصب يجرح من هذا النظام عميق .. حتى منشئ النظام وصاحبه .. حتى صدق باشا انتهى به الأمر أن كان ضحية من ضحايا هذا النظام وتلك مشيئة الله وحكمته ..

وفي ظل هذا النظام ، تعطلت مصالح مصر ومرافقها . لأن الوزارة كانت مشغولة في المحافظة على كيائها واضطهاد الأمة ... كان الفلاح بائساً ، ولا منقذه له .. كانت مصر مكسورة الجناح ، لضياح كرامتها وحقوقها ، وكانت فزعة من النهاية المخيفة التى سينتهى إليها هذا النظام الممقوت .

### خفق الحرية هو الجريمة الكبرى

على أن ذلك كله يهون أيها السادة أمام جريمة أعظم من هذه الجرائم كلها ، وأعنى بها خفق الحرية ومطاردة الأحرار ، خفق الحرية هى الجريمة العظمى التى يمكن أن يرتكبها إنسان ضد أمته .. ذلك أن كل شئ يهون إذا بقيت حرية الجماعة مطلقة ، ولعمري فإن قيام الحرية معناه الضمان القوى ضد مظاهر الظلم والاستبداد . إننى أصرح علناً ، وبأعلى صوتي ، أن الوزير أو الحكومة التى تحاول خفق الحرية هى حكومة مجرمة ، لأنها تقضى على الأمة وتطمطم معنويتها .. إننى أفهم أن تخالف حكومة إرادة الأمة ، وأن تصانع الأجنبى إذا لزم الأمر ، وأن تسلم للإنجليز بعض المطالب ، أفهم ذلك وأفهم تعليله ، ولكن شيئاً واحداً لا أستطيع أن أفهمه من مصرى مهما كان منطقاً ، ومهما كان

بيانه ، ذلك الشيء هو تقييد الحرية وخنقها .. فإن عثرة الحكومة تقال إذا ما كانت هناك حرية .. وكل أخطاء السياسة يمكن تداركها إذا كانت هناك حرية .. وفي ظل الحرية نستطيع أن نراجع قضايانا ، في ظل الحرية نستطيع أن نناقش وأن ننتقد وأن نهاجم وأن نهجر بما يجب أن يكون .. في ظل الحرية أيها السادة نستطيع أن نقوم اعوجاجنا وأن نقوى ضعفنا وأن نوحّد صفوفنا .. في ظل الحرية نستطيع أن نفعل كل شيء ، وأن نعبد مجدنا القديم ، ونحقق رسالتنا الخالدة : مصر فوق الجميع .

### الوزارة الحاضرة والحوية

فالوزارة السابقة من هذه الناحية قد ارتكبت ما أسميه جريمة عظمى ... الوزارة السابقة قد أساءت إلى هذه الأمة فأوقفت نموها طوال أربع سنوات ... لا يل سارت بها إلى الوراء عشر سنوات ، بل عشرات عندما كانت مصر هزيلة ضعيفة ... أما وزارة اليوم فقد وعدت أن تُطلق الحريات ... وما اجتمعنا الليلة إلا ثمرة من ثمار هذا الوعد .. وإذن فأني أعلن فوق هذا المنبر ، وباسم مصر الفتاة ، أن الحكومة الحاضرة تستطيع أن تحصل على تأييدنا إذا حافظت على وعدها ، وتركت الحريات ... حرية الاجتماع ، وحرية الكلام ، وحرية الصحافة .. الحكومة الحاضرة إذا استطاعت أن تحافظ على استقلالها .. وأن لا تفقد إرادتها ، فلا تسمح للإنجليز أن يُملوا عليها من الأوامر ما تهدم به الحريات ، نستطيع أن نطمئن إلى أن كل مصري سيقدّر لها هذا الصنيع .. وسيسجل لها التاريخ عهد الحرية والسلام .

ذلك أننا أكثر ما نكون حاجة للحرية لنفكر كما ينبغي أن نفكر .. ولنجاهد كما ينبغي لنا أن نجاهد .. ولنعمل ما يجب أن نعمله . تلك هي الكلمة الأولى التي أردت أن أعلنها هذه الليلة ، وهذا أول اجتماع سياسي لمصر الفتاة .. حتى يبلغ أسماع الحكومة الحاضرة ، فيرسم لها خطتها التي يجب أن تحتفظها لتحصل على رضا هذه الأمة عموماً ، وجمعية مصر الفتاة بصفة خاصة .

### برنامج مصر الفتاة وسياستها

أما كلمتي الثانية فهي في برنامج مصر الفتاة ومبادئها .. يتساءلون ما هي مصر الفتاة ؟ وما هو برنامجها وما هي سياستها ؟ وماذا تستطيع أن تفعل ؟ أما ماذا تكون فقد حدثكم في هذا طويلاً أخي فتحي . وأما ما هي سياستنا فإنها تلخص في عبارات قليلة :

«إننا نريد أن نحصل على حريتنا كاملة ، وأن نحصل على استقلالنا . نريد أن لا نرى عسكرياً إنجليزياً واحداً على الأرض المصرية . ونريد أن نتمتع بالامتيازات ونملك المحاكم المختلطة وأن نساوي الأجانب بالوطنيين .. نريد أن نكون أسياداً لبلادنا متصرفين في شئوننا . وأخيراً أيها السادة نريد أن نبعث كل مجدنا الماضي ، وأن نعبد تأليف الدولة المصرية من مصر والسودان ، حليفة للدول العربية وزعيمة للإسلام » هذا هو الذي نريده أيها السادة ، أو بالأحرى هذا ما يريده كل مصري شرب من مياه النيل . بقي أن نتساءل وما هو الطريق الذي يوصلنا إلى ذلك ؟..

## طريقنا إلى تحقيق برنامجنا

أما طريقنا إلى تحقيق برنامجنا .. فهل هو أن نسخر من الدين وأن نلقيه خلف ظهورنا ونعتبره خرافة من الخرافات لا تتناسب مع المدنية والعصر الحديث ؟ أم هو أن نحطم الأخلاق ونتجاهل الرجولة والشرف والنبل والشجاعة والوفاء ؟ أطرريقنا إلى الاستقلال والمجد أن يتخشب شبابنا ويندفع إلى السيئات الأجنبية ودور اللهو والقمار والزنى ؟ أم طريقنا أن نخطب وأن نثرثر وأن نلهو وأن نقيم الحفلات ؟ .. وأخيراً أيها السادة هل طريقنا إلى الاستقلال والمجد أن نكون متسولين نستجدي كرم الإنجليز وعطف الأجانب وتوسل إليهم أن يردوا إلينا حقوقنا ؟ ونبكي حتى ترق قلوبهم لنا ؟ وفي كلمة هل طريقنا إلى الاستقلال أن نكون ضعفاء متخاذلين .. متشاكين يائسين .. نفاوض الإنجليز والأجانب ونحن أكثر ما نكون إحساساً بعجزنا وتصورنا ؟ هل هذا هو طريقنا إلى الاستقلال والمجد أيها السادة ؟ اللهم لا ، فليس بمجد ، ولا لائق بماضينا المجيد طريق من هذه الطرق .

فليس للاستقلال والحرية إلا طريق واحد .. طريق واحد رسمته الطبيعة يوم أن كان شعارها البقاء للأصلح . هذه النظرية التي سجلها القرآن الكريم بقوله « فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » طريقنا أن نسير مع الدين ونعمل بأوامره وهذا هو ما يفرق بيننا وبين غيرنا من الجماعات والهيئات .

## تنازع البقاء

فالتبيعة تعلمنا أن البقاء للأصلح ، وأن الحياة للقوى ، والفناء للضعيف . وهذا ما يسمونه « تنازع البقاء » .. الطبيعة تعلمنا أن لا تفاهم بين السيد والمسود ، ولا بين القوى والضعيف ، لا تفاهم إلا بالصراع والقتال .. فالغالب الغالب هو الصالح الذى يبقى والمغلوب هو الضعيف الذى يفنى .. الحياة لا تعرف هودة ولا لينا ، فإما أن تكونوا أقوياء فتعيشون ، وإما أن تكونوا ضعفاء فتتموتون .. عبثاً تفاهم الشعب الضعيف والشعب القوى ، فإنه يكون تفاهم كتفاهم الذئب والحمل ، والذى ينتهى دائماً بأن يأكل الذئب الحمل . وهذه هى الحياة إن أردتم حريتك ، أو فكرتم فيها ، إن أردتم مجدكم القديم وسلطانكم ، فليس أمامكم إلا طريق واحد : أن تكونوا أقوياء . وأن تكونوا أقوياء أولاً وأخيراً ، وليست هذه كلمتى أو هذا رأيى ولكنه كلام الله أيها السادة الذى يقول لكم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، أى كونوا أقوياء ، وإلا حطمتكم الأقوياء ، هذا ما يقوله الله لكم .

## أمثلة التاريخ

فإن أردتم أن تظالموا صفحات التاريخ فظالموها ، وأرونى شعباً واحداً استطاع أن يحصل على حريته واستقلاله بغير القوة . بل أرونى أية فكرة وأى دين انتصر إلا عن طريق القوة ، والقوة المادية . فالإسلام لم يتصر إلا عندما شرع الرمح وجرّد السيف ، ودافع عن نفسه بالقوة المادية ، فكان ذلك خير ممد لا تتشابه مبادئه السامية العظيمة . وقبل ذلك لم تنتشر المسيحية إلا عندما فرضها قيصر الرومان على رعيته ، وأعلنها ديناً رسمياً للدولة ، يضطهد من يخالفها ويعترض طريقها . أما العصور الحديثة

فقد بدأت بالثورة الفرنسية التي ليست إلا مظهرا من مظاهر القوة ، فانتصرت الحرية والإخاء والمساواة . وكانت ألمانيا تحلم بالوحدة ، وظل هذا الحلم أمنية بعيدة التحقيق ، حتى كان بسمارك فأعلن لمواطنيه أن الوحدة الألمانية لن تتحقق إلا بالحديد والنار .. وقد كان وتحققت الوحدة الألمانية ، وسط قهقهة السيوف ، ودخان المدافع . وإيطاليا حققت استقلالها ووحدها بالحديد والنار ، واليونان ودول البلقان وأوروبا الوسطى وتركيا الحديثة لم تحافظ على استقلالها إلا بالقوة .

### بولندا

وكانت آخر دولة سلكت هذا الطريق بولندا ، التي يحلولى دائما أن أقص قصتها .. بولندا التي تقاسمتها دول ثلاث هي أعظم دول أوروبا ، وهي روسيا والنمسا وبروسيا<sup>(١)</sup> ، وكان ذلك منذ أكثر من مائة سنة ، وجاهدت كل دولة من هذه الدول في إثناء ما وقع تحت يدها من الغنيمة .. فلم يكن هناك صنف من صنوف الاعنات لم يقع على البولنديين .. لم يكن هناك لون من ألوان الاضطهاد لم يُجرّبه البولنديون ..

ومع ذلك كانت تقوم ثورات دامية في بولندا الروسية تقمعها بأفطع ما تتخيلون ، كانت تنصب المدافع في الشوارع ، كما فعلت فرنسا بعد ذلك بمائة سنة في عصر الحرية والنور في دمشق ، كانت روسيا تحرق الشوارع وتهدم الدور وترج بالآلوف في السجون وترفع ألؤفا فوق أعواد المشائق ، وتنقى إلى سيبيريا عشرات الألوف . فكانت الثورة تبدأ حيناً .. ثم لا تلبث أن تشتعل أكثر ما تكون قوة وعنفواناً .. فتعود ألوان القمع من جديد وتنقى الألوف إلى سيبيريا من جديد .. وهكذا مرت مائة سنة كاملة لم تكن تنهى ثورة حتى تبدأ ثورة جديدة .. أو تحف دماء حتى تسيل دماء جديدة .. وكانت روسيا تحاول أن تمحو اللغة البولندية فتصيح المدارس بالصيغة الروسية ، فكان البولنديون يعتزلونها ، وكانت كل أم وكل أب يلحق ابنه لغة بولندا .. أما في بولندا البروسية فقد كانت الحرب مع الوطنية البولندية لا تقل شدة عنها في روسيا .. ومع ذلك فقد قاومها البولنديون أيضا .. وكذلك كان الحال في النمسا .. وكانت الجمعيات تعقد لتؤلف بين الأجزاء الثلاثة ، كانت الجمعيات العلمية تعمل سرا ، لتحقيق الاستقلال والوحدة .. كانت المدارس إذا ما نالت قبسا من الحرية لقت الأبطال أناسيد الحرية والاستقلال .. كان البولنديون يهاجرون من وجه التعسف إلى أمريكا ليدافعوا عن قضيتهم ، أنشأوا البنوك والمصانع والشركات التجارية حتى انتصروا في نهاية الحرب العظمى ، وظفروا باستقلالهم العتيد .. وكانت مادتهم الأولى في اللمتوز شكرا لله ونجدة للشهداء . من أسلافهم ، أسلافهم الذين جاهدوا في سبيل الحرية .. ولست أستطيع أن أترك قصة بولندا قبل أن أذكر عبارة خالدة قالها نابليون عن هذه الأمة الحية .. فقد سألوه أين ترمم حدود بولندا ؟ فأجابهم سترسم حدود بولندا حيث يسيل الدم البولوى ..

(١) ألمانيا وروسيا

## مصر وكيف حصلت على استقلالها ... ؟

ولماذا نذهب بعيدا أيها السادة لتحدث عن بولندا وإيطاليا وألمانيا .. لماذا نذهب بعيدا ،  
وها نحن في مصر ، عندما أردنا الحصول على الاستقلال ، لم يكن أمامنا طريق إلا القوة ، فحصلنا  
عليه بالقوة فعلاً .. فبعد مائة سنة عندما أرادت مصر بزعامة محمد علي أن تستقل لم تر مناصاً من  
حرب تركيا .. فسارت الجيوش المصرية غازية منتصرة ، حتى هزت تركيا هزاً ، وعقدت مصر  
معاهدة كوتاهية التي أعلنت استقلال مصر ، وضم سوريا وفلسطين وشبه جزيرة العرب إليها .. وكانت  
تمتد في الجنوب حتى أقصى السودان ..

وهكذا حصلت مصر على استقلالها في ظلال جيوشها الظافرة ، هذه الجيوش التي أخافت أوروبا  
بأسرها ، والتي جعلت روسيا تبسط حمايتها على تركيا لكي تنفذ نفسها من الخطر المصري ، فاضطرت  
الدول أن تتدخل لتحول بين روسيا وبين أطاعها بحجة حمايتها . وذلك لا يكون إلا بأن تكره مصر  
على التراجع وسحب جيوشها ، فتحالفت إنجلترا وبروسيا والنمسا والروسيا أيضاً للقضاء على الجيوش  
المصرية والأسطول المصري ، فتم لها الذي أرادت . ولولا ذلك لكانت مصر اليوم هي العلم الخفاق  
في العالم ، لكانت مصر هي زعيمة الإسلام والشرق ، لكانت مصر بحيث تبدو ييجوارها إنجلترا  
واليابان قزماً حقيراً . حصلنا على استقلالنا بالقوة ، قوة الحديد والنار ، وحطم استقلالنا الحديد  
والنار ، مع أن الحق كان في جانبنا . فإذا أردنا أن نتصير من جديد فلا مناص من التسليح بالحديد  
والنار .

وإذا كنا اليوم ننادي بالدستور ، ونستظل بظل الدستور ، إذا كان في مصر نسيم من الحرية ،  
فذلك يرجع إلى ثورة مصر ضد إنجلترا سنة ١٩١٩ ، هذه الثورة التي لم تكن إلا صرخة من صرخات  
الشعوب القوية التي تزلزل أقدام الظلم والاستعمار .. القوة هي كل شيء ، هي قانون الحياة ، في كل  
عصر ، وفي كل زمان . أمامكم ألمانيا ، كانت منذ ستين تسير في مؤخرة الدول الأوروبية ، كانت  
تحتلها الجيوش الفرنسية ، وتنهكها معاهدة فرساي ، كانت تئن من ملايين العاطلين ، كانت تتوسل  
إلى أوروبا أن تسمح لها بتنظيم شئونها ، أن تسمح لها بزيادة جيشها ، كانت تتوسل إلى أوروبا أن تعدل  
معاهدات الصلح ، فلم تلق إلا آذانا صماء ، لم تلق إلا الاستهزاء والوعيد . كانت ألمانيا تسير خلف  
زعماؤها الذين كانوا يفهمونها أنها ضعيفة ، وإنها غير قادرة على شيء .. أما اليوم فقد تبدل الحال غير  
الحال ، فأصبحت ألمانيا هي التي تتوعد وهي التي تخيف . ألمانيا ، هي التي ركلت عصبه الأمم  
بقدمها ، ومزقت معاهدة فرساي . ألمانيا هي التي تتدجج اليوم تحت سمع العالم وبصره دون أن يمرؤ  
بجترئ على الاعتراض . وما ذلك إلا لأن ألمانيا قد اقتنعت أن لا طريق لها إلا القوة ، ولن تحل  
مشاكلها إلا بالقوة ، والتلويح بالقوة ، فظفرت على طول الخط . وهي اليوم تخطو خطوات عظيمة  
لإعادة مركزها القديم .

## حاجتنا إلى القوة المعنوية

فربما نحن أيها السادة هو أن نحصل على حريتنا واستقلالنا ، وأن ندعم دولتنا الخالدة بالقوة ، والقوة

المادية . فهل نحن في حالة تسمح لنا باستعمال هذه القوة وإجادة الاستعمال ؟ الجواب بالنفي . ولماذا ؟  
لأنه لاستعمال القوة المادية ، لابد من قوى معنوية ، فقبل أن يضرب الإنسان يجب أن يريد  
الضرب ، وأن يشعر من نفسه بالقدرة على الضرب وإلا فإنه لن يضرب ولن يقوى على الضرب .  
فنحن في مصر عاجزون عن الحصول على حقنا بالقوة المادية ، لأن قوانا المعنوية محطمة .  
أو بالأحرى لأنه لا قوة معنوية لنا إطلاقاً . فنحن لا نكاد نتق بأنفسنا ، نحن لا نكاد نتخيل في  
أنفسنا القدرة على عمل شيء ، نحن لا نؤمن إلا بشيء واحد ، وهو أننا ضعفاء عاجزون . وأتينا  
لا نفعل في أي شيء .

أي مصري لا يقول لك إن هذا بلد قد ضربت عليه الذلة طوال أربعة آلاف سنة ، أي مصري  
لا يسب المصريين ولا يتعهم بأخط النعوت ، أي مصري لا يقول لك إننا بغير الإنجليز لا نساوي  
بصلة ، أي مصري لا يشعر في أعماق نفسه بأنه مخلوق أصغر شأننا من الأجنبي على العموم ،  
والإنجليزي على الخصوص .

فنحن لا نتق بأنفسنا أيها السادة ، نحن لا نؤمن بأنفسنا وهذا هو سر ضعفنا . ذلك أن الفارق  
بين الضعف والقوة ، ليس إلا كالفارق بين الإحساس بالضعف والإحساس بالقوة . فيجب أن نشعر  
بقوتنا ، يجب أن نمتلىء ثقة بأنفسنا ، لأنها جديرة بهذه الثقة فعلاً . فلا يوجد في العالم شعب واحد  
صارع الويلات والمحن كما صارعناها ، لا يوجد في العالم بلد من البلاد عاش طوال أربعة آلاف سنة  
حياً نابضاً فتياً إلا مصر . لقد تغيرت خريطة العالم وتبدلت ، فقد قامت دول ودالت دول ، لقد  
بُعِثت امبراطوريات ، وحُطمت امبراطوريات أخرى ، لقد تحول وجه العالم من الشرق إلى الغرب  
ومن الغرب ، إلى الشرق ، ولكن بلداً واحداً وشعباً واحداً هو الذي ظل طوال أربعة آلاف سنة هو  
هو . لم يتغير ولم يتبدل لأنه الكوكب المشرق المضيء على أرجاء العالمين ، ولأنه العلم للإنسانية  
وزعيمها وقائدها ، ذلك الشعب هو الشعب المصري ، وذلك البلد مصر ، ففي عروقتنا وفي أعماق  
نفوسنا تستقر رواسب أربعة آلاف سنة من المجد والعظمة .

في أرواحنا طموح وقوة واقتدار ، فيجب أن نمتلىء ثقة بأنفسنا كي تقوى معنويتنا ، وهذا هو  
النوع الثاني من جهاد مصر الفتاة أما جهادنا الأول فهو :

### جهادنا الأول

أن نتق الله ونؤمن به .. فالإيمان بالله شرط أساسي لخلق المعنوية والحياة ، الإيمان بالله هو سر  
الحياة وقوتها ، الإيمان بالله هو الذي يجعل الجبان شجاعاً ، والضعيف قوياً .. الإيمان بالله هو الذي  
يجعلنا نأتى بالمستحيل .. ذلك أن أجدادنا الذين سبقونا في هذا الإيمان دكوا الامبراطوريات ،  
وحطموا الجيوش ، وأذابوا الحديد ، لأنهم كانوا يؤمنون بالله .. وكانوا يعرفون أن الله أكبر . وفوق  
كل كبير . وكانوا يعرفون أن غاية الحياة إرضاء الله والاستشهاد في سبيله .. فحكموا الدنيا وسادوا  
العالم .. نحن أيضاً يجب أن نؤمن بالله وبرسالته السماوية . يجب أن نعبد الله كل صباح ومساء ، لأن  
الذي لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه أو لنفسه ..

فإذا آمنا بالله وامتلاًنا ثقة بأنفسنا ، فقد بقى علينا أن نطهر أرواحنا من الأرجاس ، فلا نقامر ولا نزنق ولا نسكر ولا نكذب .. بقى علينا أن نتحلل بالأخلاق ، وأن نعرف الرجولة والشهامة والشجاعة والصدق والوفاء . فإذا ما حصلنا على ذلك كله ، فقد كملت معنويتنا وأصبحنا ولنا إرادة تفعل كل شىء .. إذا ما آمنا بالله ، ووثقنا بأنفسنا ، وتحلينا بالأخلاق ، فقد قطعنا أكبر شوط للحصول على الاستقلال والحرية والمجد .. ولا يبقى علينا بعد ذلك إلا أن نخوض لخطوتنا الأخيرة ، لكي نحقق كل الذى نريده فى يوم وليلة ..

### لا تشتري إلا من مصرى

وهناك جهاد ثالث يتفرع من الجهاد السابق ويسير وياها جنباً لجنب . وهو جهاد مادى معنوى ، للحصول على القوة المادية أيضاً .. وذلك هو السعى لإغناء مصر وتكديس الثروة بها عن طريق الاستقلال الاقتصادى . فمصر التى بلغت معنويتها إلى الأوج ، يجب أن يكون فى حوزتها مال كثير تستعين به على تحقيق استقلالها وحريتها فى الخطوة الأخيرة . يجب أن يكون لديها مال لتعيد لها بناء كيائها ، لتستطيع فى زمن قصير أن تقفز إلى الأمام وتحتل مركزها الطبيعى زعيمة للإسلام وسيدة للشرق .. ولا سبيل لنا إلى توفير هذا المال إلا عن طريق واحد ، وذلك باتباع مبدأ مصر الفتاة الثانى ألا وهو « لا تشتري إلا من مصرى ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ولا تأكل إلا طعاماً مصرىاً » . وهذا المبدأ يحقق لنا استقلالنا الاقتصادى ، هذا المبدأ يلغى الامتيازات لأنها تصبح ولا قيمة لها ، هذا المبدأ يوفر لنا فى عشر سنوات كل المال الذى نريده لإنشاء دولتنا العظيمة ..

لا تشتري إلا من مصرى .. أتعرفون ما معنى هذا .. معناه أن ألوفا من المصريين الذين يعانون الفقر الآن يحصلون على الثروة . وأن ألوفا من العاطلين يجدون مورداً للرزق ، وأن ألوفاً من الأجانب يرحلون عن هذه البلاد . فلا تلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل إلا طعاماً مصرىاً .. أتعرفون ما معنى هذا ؟ معناه أننا نقتصد من الأربعين مليوناً التى تتسرب إلى الخارج فى كل عام نصفها ، لىبقى داخل بلادنا . فى عشر سنوات توفر مصر مائتى مليون من الجنيهات .. وهذا المبلغ يحدد بناء مصر ويملؤها مصانع ، ويعملها سيدة فى الجو ، وفى البحر ، وفى كل مكان .. ومائتا مليون تنظم مصر تنظيمها جديداً ، وتعيدنها إلى مجدها القديم .. ولست أسوق القول جزافاً ، فهامى ذى إحصائية تثبتكم بمقدار ثروة مصر التى تحتفظ بها لو أنها نفذت هذا المبدأ ، ففى سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣٢ قد استوردت مصر من الخارج بضائع أجنبية بمبلغ ٥٦٨ مليون جنيه ، وهو مبلغ خفيف ، لاسمياً إذا عرفتم أن الصادرات كانت أقل من هذا المبلغ بخمسة عشر مليوناً ، أى ٥٣٣ مليوناً . أتعرفون لماذا كان الميزان التجارى هكذا فى صالح أوروبا ؟ أتعرفون لماذا نبتاع بهذه الملايين ؟ ذلك لأننا شعب لا يكاد يعرف كيف يعيش . شعب لا يعرف لنفسه حقها ، ذلك لأننا كنا نستورد من الخارج ، ومازلنا ، جنباً وزبداً وسمناً ! أسمعون أيها السادة ؟ مصر البلد الزراعى ، الذى لا يعيش إلا على الزراعة ، يستورد من الخارج جنباً وسمناً ، فهل هناك مهانة بعد هذه المهانة ، وانحطاط كهذا الانحطاط . نحن الذين كان يجب أن نورد للعالم بأسره نستورد من الخارج . أتعرفون لماذا ؟ لأن



السيد المصرى لا يحلو له إلا أن يتمشدد بالجنة الرومى والفلمنك والشتى. بل إن مصر تستورد قمحا ، مصر التى كانت تمد العالم فى يوم من الأيام بالقمح ، التى كانت الشعوب تحبها إليها لشترى القمح ، انعكست الآلة وأصبحت مصر تستورد قمحا . لا بل إن الهوس قد وصل إلى ما هو أفضح من ذلك . وصل بنا الهوس أيها السادة إلى درجة أن نستورد من الخارج صلصة ، نحن الذين توجد الطماطم فى بلادنا عشرات الأرباط بمليات معدودات . وما ذلك كله إلا لتهاوتنا فى حياتنا . فى كرامتنا ، وفى ثروتنا أيضا ، بل ما ذلك إلا لعبوديتنا لأوروبا وكل ما هو أجنبي . أبطلوا ذلك كله ، لا تأكلوا إلا طعاما مصرى ، ولا تلبسوا إلا لباسا مصرى ، فحصلوا على استقلالكم وكرامتكم . أتسمعون ؟ إن الأجانب أسباد لهذا البلد لأنهم يملكون رعوس الأموال ، الأجانب أصحاب الامتيازات والمحاكم المختلطة لأن المال فى يدهم ، فجردوهم من هذا المال وهذه القوة ، بأن يكون لباسكم مصرى ، ومطعمكم مصرى ، ولا تشتروا إلا من مصرى فهذا تحتفظون بثروتكم التى سنحتاجها غدا ، عندما نذهب إلى ميدان القتال لندافع عن حريتنا واستقلالنا .

هذا هو ما ندعوكم إليه أيها السادة ، أن تؤمنوا بالله ، وأن تثقوا بأنفسكم ، وأن تطهروها من الأرجاس ، وأن لا تشتروا إلا من مصرى ، ولا تلبسوا إلا ما صنع فى مصر . وهذا هو ما ندعوكم إلى القيام بعمله كمصريين . هذا هو الطريق الذى نرسمه لكم .. فسيرا فى الطريق إذن على بركة الله مع مصر الفتاة أو ضدها .. هذا لا يهمنا ولكن الذى يهمنا أن تسيرا فى الطريق . فإن كان فى صفوفكم من يريد أن يقدم نفسه لينضم تحت لواء هذه الجماعة التى أخذت على عاتقها تنفيذ هذا البرنامج ، فنحن نرحب به كائنا من كان ، لكننا ننذره منذ الآن أن طريقنا ليس مليئا بالورد والريحان ، بل إن ما فيه من شوك وعوسج ليغطي على كل شيء . إن آلاما كثيرة تنتظرنا ، إن صنوفا من العذاب تصيبنا ، فلن يرضى الإنجليز عن وجودنا ، وإذن فستضطهدنا الحكومات إرضاء للإنجليز والأجانب من ناحية ، وسيحاربنا الجهلاء بجهلهم نوايانا من ناحية أخرى . فطريقنا كله جهاد وكفاح ! . ذلك أننا لن نصلى فى يوم واحد إلى ما نريد ، ولن نصلى فى هدوء ، ولكننا وطينا أنفسنا على تحمل كل شيء . وطينا أنفسنا على أن نكافح حتى نموت ، فإذا انتصرنا فهذا الذى نريد ، وإذا متنا قلنا لمن يحيون بعدنا كونوا أسعد حظا منا ..

### نحن والوفد

ولست أريد أن أغادر هذا المنبر قبل أن أحدد علاقة جماعتنا بالوفد ذلك أن البعض منكم يريد أن يسأل هذا السؤال ، أو أن يُعرضَ به .. فأقول لكم إننا لا نعادى مصرى واحدا ، بل نحن نحب الجميع ، لأننا أول من يدعى إلى الاتحاد والتكاتف . ونحن على استعداد أن نعمل تحت راية الوفد فى حدود هذه المبادئ . وبهذه الوسائل . وهكذا ترون أيها السادة أن كل ما يدعى من أننا نخالف الوفد . أو أننا أعداء له ، فنحن منه براء . وإننا مستعدون للسير تحت لوائه ، وكل ما يهمنا هو تنفيذ هذه المبادئ واتباع هذا الطريق .. فنحن نريد وطنية عاملة تعتمد على التضحية أولاً وأخيراً .. نحن لا نؤمن بأن الاستقلال يمكن أن يُستجدى .. ذلك أن الاستقلال كما قال المرحوم الملك فيصل يؤخذ ولا يعطى .. ومادام الأمر كذلك ، فنحن نعمل للحصول على القوة اللازمة لإدراك الاستقلال .

وهذا هو برنامجنا . فستنظم الشباب الذى ينضم إلينا ، ونملؤه رجولة وخشونة ووطنية ، وتؤلف منه جيوشاً منتظمة ليس لها إلا هتاف واحد .. وهو : الله أكبر والمجد لمصر .

كونوا إذن خارج حظيرة مصر الفتاة إن أردتم ، واعملوا بمبادئها .. أو ادخلوا إلى حظيرتها إن كنتم على استعداد للتضحية والجهد ، هذا آخر ما أقوله لكم .. فإذا كنت قد ظفرت فى نهاية هذا الاجتماع بأن أقنعت واحدا منكم أن يجاهد من أجل مصر ، وأن يفنى فى سبيلها ، فإنى أعد نفسى قد قت برسالتى ، وأستطيع أن آوى إلى فراشى فى هذه الليلة ، وأنا مطمئن إلى أننى قد أديت واجبى نحو مصر .. وذلك هو مبدؤنا السادس .

\* \* \*

عام ١٩٣٥

١١

استهل عام ١٩٣٥ ، هذا العام الذى سيقى خالدا فى تاريخ مصر ، إذ بعثت فيه مصر بعثا ، وسرت مبادئ مصر الفتاة وسادت وسيطرت واندلع لهيب الثورة التى أشعل نيرانها الشباب . لم يكد العام يبدأ حتى بدأت حكومة نسيم باشا تنكر لمصر الفتاة وبدأت تضيق الخناق عليها ، وتحول بين ذوى الأفضة الخضراء وبين حرية الانتقال أو الاجتماع أو إقامة المعسكرات فى الخلوات . ولقد أوشك الاصطدام أن يقع بيننا وبين رجال البوليس بالقرب من سفح الأهرام ، بمناسبة احتفالنا بعيد الفطر ، إذ تعرضوا لنا ليحولوا بيننا وبين الصعود إلى الأهرام . وقد آثرنا أن ننسحب يومها لعدم جدوى الاصطدام والمقاومة ، وعدنا أدرأنا إلى القاهرة سيرا على الأقدام فى موكب أخضر ، كان يهز قلوب المصريين هذا ، ويثير فيهم أقوى المشاعر وأجملها ، وكان يشترك فى هذا الموكب على صغره وفود من جميع أنحاء القطر ، فكان ذلك آية لما وصلت إليه مصر الفتاة من نجاح وتطور .

### فى الأراضى المقدسة

عَنِّ لى أن أستمذ من الأراضى المقدسة مددًا روحيا أستعين به على مواصلة الكفاح ، ولم يكن لدى المال اللازم لأداء فريضة الحج ، مع ذلك فقد قررت أن أحج وأن أهرع إلى الله عند بيته المحرم ، أطلب منه أن يهدينى وينير لى الطريق ، وأن يأخذ بناصرى ويشد أزرى . ولقد قمت بالرحلة ، ولست أحسب أننى صادفت فى حياتى كلها فى أى رحلة من الرحلات ، التى قمت بها من قبل أو من بعد ، مثل هذا النجاح الذى صادفته فى سفرى هذه . فقد كشفت لى عن مقدار الدوى الذى أحدثته مبادئ مصر الفتاة فى جميع أنحاء العالم العربى والإسلامى . وكان يذهلنى أن أجذ الحجاج من سائر بقاع الأرض يعرفون الكثير عن مصر الفتاة ، وكفاح مصر الفتاة ، عن طريق «الصرخة» مشعلها الوضاء . وفى كل مكان حلت به وعُرفت شخصيتى أحطت بالكرامة والحفاوة . حتى إذا جاءت المناسبة التى أتيج لى أن ألقى فيها جلالة الملك ابن السعود للمرة الأولى ، ألقىت بين يديه كلمة استعدت فيها ذكريات الإسلام الأولى وأجاده ، وقارنت بين ماضى

الإسلام وحاضره . فدرفت عينا الرجل العظيم دموعا غالية ، فكانت هذه الدموع بمثابة رباط ربطني بجلالة الملك ابن السعود إلى الأبد . وقد أظلني الرجل برعايته ودعاني إلى زيارة المدينة المنورة في ضيافته ، ومنحني قبل مغادرتي الأراضي المقدسة ما اعتاد أن ينفخ به الوافدين عليه من هدايا ، وقد زاد عليها مبلغا من المال كاشترارك في جريدة «مصر الفتاة» . وهكذا سافرت إلى الحجاز ، وليس في جعبتي إلا القليل من المال الذي يدهش من يعلم بقدره ، ويتعجب أن يجرؤ إنسان على السفر إلى هناك بمثله ، وعدت من هناك متخما بالمال ، منتعش الروح ، متوهج الإيمان وقد اطمأنت نفسي إلى أنى أسير في طريق الحق والصواب .

ولقد عدت بعد ذلك إلى البلاد المقدسة أكثر من مرة ، وفي كل مرة كنت ألقى من ضروب النجاح والتوفيق ما يحل عن الوصف . وازدادت صلتى بجلالة الملك ابن السعود توثقا ، وألقيت بين يديه ، وفي حضرة الوفود من أنحاء الدنيا خطبا سياسية مدوية ، كان لها دائما أثرها العميق في نفوس سامعيها وخاصة جلالة الملك . ومع ذلك فستبقى حجتى الأولى هي الباقية على مر الزمن في نفسي لأنها كانت بمثابة فتح مبين ، وكانت البذرة الأولى والنواة لكل ما جاء بعدها من نجاح . وإن أنس فلن أنسى في زيارتي الأولى كيف راح إمام الحرم المكي يتحدث أمامي عن هذه الحركة الجديدة التي نشأت في مصر ، وهذه المجلة الرائعة التي تعبر عن هذه الحركة ، فلما سألته عن اسم هذه الحركة والمجلة أجبني : بأنها مصر الفتاة ومجلة الصرخة ، ولم يكن الرجل يعرف أنه يتحدث صاحب الصرخة ورئيس مصر الفتاة . وإن أنس فلن أنسى وقوفنا على جبل عرفات ندعوا لله ونبتهل إليه ، يقودنا هذا الشيخ الجليل ، فإذا به يطلب من الله أن ينصر أحمد حسين وأن يعز مصر الفتاة ، فطفرت الدموع من عيني ولم أستطع مغالبة نفسي ، فقد كان ذلك آية ما غمرني به الله سبحانه وتعالى من كرامة ورعاية .

### إصدار جريدة وادى النيل بالإسكندرية

لم يكن عجبيا أن أعود من رحلتي إلى البلاد المقدسة بعزم من حديد ، وثقة مضاعفة ، في وجوب المضي في الكفاح بقوة واقتدار ، بعد أن أكرمني الله كل هذه الكرامة . وقد كانت مدينة الإسكندرية تروعن دائما بحماسة وروحها الوطنية العظيمة . وكان شباب مصر الفتاة بها يفيض بالقوة والفتوة ، حتى لقد فكرت في أن أتخذها دار هجرة لمصر الفتاة بحيث تصبح القاعدة الأساسية لحركة مصر الفتاة . ولقد عرض على

صاحب جريدة وادى النيل المرحوم محمد الكلزة أن أتولى إصدار الجريدة ، نظرا لشيخوخته التي أصبحت لا تمكنه من الاستمرار في العمل . وكنت في أشد اللهفة لإصدار جريدة يومية : فقبلت العرض الذى عرضه علىّ وسافرت إلى الإسكندرية لأقيم بها نهائيا وأشرف على إصدار وادى النيل . ولن تذكر جريدة وادى النيل إلا ويذكر معها ذلك المجهود المصنى الذى قمت به لإخراجها . لقد مرت علىّ قبل هذه الفترة وبعدها فترات بذلت فيها من الجهد الشاق الشئ الكثير جدا . ومع ذلك فستبقى هذه الفترة من حياتي إبان إصدار جريدة وادى النيل فريدة فذة . ولست أستطيع أن أذكرها الآن دون أن تسرى في جسدى قشعريرة من الخوف . وكانت المشكلة الكبرى ، بطبيعة الحال ، هى عدم وجود المال اللازم للإتفاق على الجريدة وإيجاد العمال والموظفين اللازمين لإدارتها في يسر وسهولة . فقد واصلت العمل شهرا ونصف شهر ليلاً ونهاراً ، كاتباً في الجريدة ومصححاً وجامعاً للحروف (وموضباً) وخادماً وفراشاً وموزعاً وفي النهاية محاسباً للعمال والمتعهد وباعة الجرائد .. فأنا الرجل الذى عليه أن يكتب في كل يوم عدة مقالات مستفيضة وأن يشرف على الإدارة والتحرير اللازم لجريدة يومية كبيرة . كم من الليالى مرت علىّ لم أخلع فيها خدائى ولم يغمض لى جفن . ولم أندوق طعاماً ، كم من الليالى كاد يحن جنونى . لأن العمل يوشك أن يتعطل ، لأننا لا نجد النقود اللازمة لشراء الغاز الذى يدير الآلات ، وكم من المرات أضرب العمال وتوقفوا عن العمل لأنهم لم يقبضوا أجورهم . وكنت أثور عليهم وأندد بهم إذ يروننى بينهم آكل مما يأكلون . وأعيش كما يعيشون ، ويلمسون بأيديهم كيف كانت الجريدة تخسر في كل يوم عشرة أضعاف ما تباع به . وكانوا يتولون بأيديهم في كل يوم استلام أعداد الجريدة المطبوعة مرتجعة من لدن متعهد التوزيع لا تكاد تنقص إلا بضع مئات من النسخ وهو أمر كان يعد في ذاته نجاحاً كبيراً ولكنه لم يكن يسد شيئاً من مصاريف الجريدة . ومع ذلك فقد كان العمال يضربون لأنهم في حاجة إلى قروشهم القليلة . ومهما كان حبيهم لى ومهما كان عطفهم علىّ كبيراً ، ومهما كان تقديرهم للجهادى ، فقد كانوا أرباب أسرو لهم أولاد ينتظرون عودتهم من العمل يحملون الخبز الذى يقيمهم شر الجوع ! .. ومنذ هذه التجربة وأنا أعتبر حق العامل في أجره حقاً مقدساً ولا ينبغي لنا أن نطالب العامل لأى سبب من الأسباب أن ينزل عن بعض أجره لأنه لا يملك غير هذا الأجر . ولأن كل مطالبه في الدنيا تتركز على هذه القروش القليلة . ولقد عانيت كثيراً من جهلى بهذه الحقيقة في ذلك الوقت . وكنت أستعين على هذه المصاعب بالصوم والصلاة فكان ذلك يزيد في إنهاك جسدى . بل ويؤثر على حالتى المعنوية ومن هنا أدركت كيف أمر الرسول المسلمين أمراً أن يفطروا أثناء

السفر في الجهاد والكفاح لأن الجوع من شأنه أن يقلل من قوة الجسد على احتمال المشاق التي يتطلبها العمل والجهاد .

## منع اجتماع

وفي وسط ذلك كله كانت عاصفة الاضطهاد الحكومي قد بدأت تلفحننا ، وبدأت إدارة الأمن تضغط علينا وتصادر حرياتنا وتحول بيننا وبين الاجتماع . فلما أردت أن أعقد أول اجتماع في الإسكندرية في ٢٣ مايو احتفالا بإصدار جريدة وادي النيل . لم تصرح الحكومة بعقده فنشرت خطابي على صفحات وادي النيل ، أو بالأحرى خطبت من فوق منبر وادي النيل . ولست أجد ما يصور لك الروح التي كانت تغمرني في ذلك الوقت . وما يشرح لك سياسة مصر ، ويصور لك الحوادث السابقة على انفجار ثورة الشباب في سنة ١٩٣٥ سوى هذا الخطاب ، الذي كان أول قذيفة أطلقت في وجه نسيم باشا . وفضحت سياسته وادعاءاته المتكررة من أنه سيعيد الدستور ويحقق الاستقلال .

وهكذا سبقنا الأمة كمادتنا ببضعة شهور ، فنحن الآن في مايو حيث لا يزال نسيم باشا يتمتع بتأييد الوفد والأغلبية ، ولم ينفجر سخط الأمة على نسيم باشا إلا بعد ذلك التاريخ بأربعة أشهر عندما أكره الوفد إكراها على سحب ثقته من نسيم باشا .

وذلك هو دأب مصر الفتاة دائما وستبقى إلى ما شاء الله مرهفة الحس . تسبق المصريين جميعا في التنبؤ بالحوادث ، وفي الآراء والأفكار . وإعلان الجهاد ضد مختلف صنوف المظالم والمفاسد . وسيرى المطالع لهذا الخطاب توقعا للحرب العالمية الثانية قبل وقوعها بأربع سنوات ، ويرى فيه دعوة مبكرة لمصر والمصريين للتهيؤ والاستعداد للاستفادة من هذه الحرب وهذا ما لم يستطع المصريون لسوء الحظ أن يحققوه .

## خطاب

الاضطهاد والإيمان - كفاح الرسل - كفاح المصلحين - كفاح الأمم  
المستعبدة - أيرلندة - بولندة - فرنسا - كفاح مصر الفتاة - هل نسي نسيم باشا  
مكافحته للثورة ؟ - نسيم باشا والدستور - نسيم باشا والاستقلال - نسيم باشا  
والحكمة المختلطة - الوفد وتأنيده للوزارة - الانجليز لا تريد الدستور - نداء  
للفرد - وادى النيل - خطتنا وبرناجنا - الحرب القادمة - كلمة أخيرة .

أيها السادة ..

محال أن يُقهر الحق أو يغلب ، محال أن تُطفأ الشمس أو تُحجب ، كذلك الإيمان نار مشتعلة  
يزيدها الاضطهاد اضطراباً ، وتزيدها المقاومة شدة ، سنة من سنن الله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .  
قلبوا صفحات التاريخ وحدثوني ماذا أجدى الظلم وماذا أجدى الاضطهاد في مقاومة مبدأ من  
المبادئ الخالدة ، مبادئ الحرية والنور والعلم ؟ أى مصلح قاومه معاصروه ولم ينتصر في نهاية الأمر ؟  
أى رسول لم يُنكَل به قومه وحاربوه فاذا أُجِدَّت عليهم الحرب . وماذا كانت النتيجة ، نتيجة هذا  
التنكيل . ماذا كانت نتيجة فرعون عندما اندفع خلف موسى يبغشه وسحرته ليطفى نور الله الواحد  
القهار ؟ لقد هزم وابتلعه اليم ، وشهد أن لا إله إلا الله . ماذا أفاد اليهود من مطاردتهم للمسيح حتى  
هموا بصلبه ، لولا أن رفعه الله من بين ظهرائهم وبدله لهم بشخص آخر ، وماذا أفاد الرومان عندما  
كانوا يقذفون بالمسيحيين إلى السباع الجائعة ، والحيوانات المفترسة فتلك بأجسادهم ، هل أوقفوا سير  
المسيحية أو أعاقوا نموها وانتشارها ، لمن كان النصر في معركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع  
قريش ، ألحمد اليتيم الفقير الوحيد ؟ أم لقريش ذات العدد والعدة وذات العصبيات والحمية ؟ هل  
أخاف أبو جهل محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ وهل أفرعه اضطهاد أبي لهب ؟ - عندما نثرت عليه  
القاذورات ، وعندما تأمرت قريش على قتله وتعاهدت فيما بينها على الفتك به ، واجتمعوا أمام داره  
لاغتياله ، لمن كان النصر في نهاية الأمر ، وماذا كان أثر هذا الظلم وهذا الاضطهاد ؟؟ لا شيء ..  
لا شيء .. استغفر الله بل كان له أثر وأى أثر ، كان له أثر هو أعظم الأثر ، كان أن زاد المؤمنين  
إيماناً ، وزاد المسلمين تشبثاً بدينهم واستماتة في الدفاع عنه ، حتى انتصر الحق وزهق الباطل وإن  
الباطل كان زهوقاً .

### كفاح أصحاب المبادئ والعقيدة

وهؤلاء الذين هم في مرتبة أدنى من مراتب الرسل ، هؤلاء القادة والزعماء أصحاب المبادئ  
والعقائد ، أو لم يُحاربوا ؟ أو لم يُضطهدوا ؟ فلمن كان النصر في النهاية ؟ لقد كان دائماً في جانب  
الحق والمبدأ والعقيدة ، هذه الدول التي كانت مستعبدة لدول أشد منها قوة وذخيرة ، عندما قامت  
تطالب باستقلالها وحريتها ، أو لم تحصل على هذا الاستقلال وتلك الحرية في نهاية الأمر ، رغم  
الألوف الذين أزهقت أرواحهم ، ورغم الملايين الذين رُجَّ بهم في السجن ؟ لقد استقلت ، لقد  
تحررت دائماً هذه الدول التي تطلب الاستقلال بيقين وعزم .

## أيرلنده وبولنده

ماذا كان في أيرلنده ؟ ماذا كان في بولنده ؟ أى لون من ألوان الشدة لم تصطنعه إنجلترا ضد أيرلنده ؟ أو لم تضع لها المدافع في الشوارع ؟ أو لم تكتسح عاصمة أيرلنده مرة ومرتين وأسالت الدماء مدرارا في شوارع دبلن فإذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة استقلال أيرلنده ١.

وبولنده . بولنده التى حاربها ثلاث دول عظام ، بولنده التى مزقتها روسيا والنمسا وبروسيا ، التى تحالفت عليها الاعداء والمصائب والنوائب عندما طالبت بحريتها ، عندما كافحت طوال مائة سنة بأسرها ، عندما كانت تندلع فيها نيران الثورة فترسل روسيا بجيوشها تحصد الأرواح حصدا وتقود الملايين إلى مجاهل سيبيريا ، ماذا أفاد ذلك كله ؟ لقد انتصرت بولندا وانتصر إيمان بولندا .

وها هى اليوم إحدى دول أوروبا العظمى ، التى يخشى الروس بأسها .

وفى فرنسا هل استطاعت الملكية أن تحمى نفسها من الثورة ، هل استطاع الأشراف أن يوقفوا الروح الجديدة التى كانت تنذرهم بالفناء ؟ لقد كان الباستيل يتلع كل من تحدته نفسه بالحرية ، وكان الرصاص يذاب فى الأفواه والآذان ، والنار تكوى الجباه والصدور . وكانت الطواحين تهشم العظام ، فإذا فعلوا ؟ ماذا أنتجوا ؟ لمن كان النصر ؟ للروح الجديدة والمبدأ الجديد .

فالحق : الحق لا يغلب . الحق لا يغلب فهو اسم من أسماء الله ، وهو مشتق من ذات الله ، فكيف يغلب ويقهر ، حاشا وكلا ، ومعاذ الله .

## كفاح مصر الفتاة

هؤلاء الأغرار الذين يقاومون مصر الفتاة ، أهم إلى هذا الحد جهلاء ؟ أفلم يطالعوا كتابا واحدا من كتب التاريخ ؟ أهم إلى هذا الحد عمى فلم ينظروا إلى ما يحيط بهم فى مختلف الأمم ؟ أهم إلى هذا الحد صم فلا يسمعون هذه الدروس وهذه العظات ؟ أهم إلى هذا الحد فى غفلة لا يلتفتون لدوران الأفلاك وحوادث الدهور ؟

أى والله إنهم كذلك ١ . وإلا لما قاوموا مصر الفتاة ، ولما اضطهدوها ولما حاولوا أن يبدأوا التجربة التى أثبتت الأيام فشلها واندحارها .

عندماننى الإنجليز سعد زغلول .. أو لم يخلقوا الثورة المصرية ؟ وعندما كان الرصاص المسموم يجندل المئات أمام الأزهر .. وفى ميدان محمد على فى الإسكندرية .. أو لم يضاعف هذا فى لهيب الثورة ؟

## هلى نسى نسيم باشا مقاومته للثورة

وما لنا نذهب بعيدا .. ورئيس الوزارة الحالى بنفسه قد جرب هذا الأسلوب ، وقد أحس بأنه عقيم .. عندما كان رئيسا للوزارة إبان الثورة وكان يطلق أعوانه من أمثال حيدر وشاهين يفتكون بالأبرياء ، ماذا كانت النتيجة ولمن كان النصر ؟!



ترى هل نسي دولة نسيم باشا ذلك كله ، ولا يزال في حاجة إلى درس جديد ؟ مرحبا إذن ..  
وسياخذ نسيم باشا الدرس الجديد .

### نسيم باشا والدستور

يدعى نسيم باشا انه سird الدستور لمصر ، هل يتفق هذا أيها السادة مع هذه الحالة التي نعانها الآن ، ها أنا أخطبكم من فوق منبر وادى النيل ، بينما كان يجب أن أخطبكم وجها لوجه ، وبينما لو أن نسيم باشا سمح لنا أن نجتمع إذن لكان بدء خطابي هو الشكر والتقدير . إذن لكان بدء خطابي تحية أبعثها لنسيم باشا . أما اليوم ... فإن بدء خطابي هو شواظ من نار (إذا جاز أن أستعير هذا التعبير من الجندي المجهول) هو شواظ من نار أرسلها لتحيط بالوزارة ورئيسها .

يقول نسيم باشا إنه سird الدستور ، إنه الأمين على الحريات . دعوني أسخر من هذه الدعوى ، دعوني أضحك وأغرق في الضحك . لأن الأمين على الحرية هو الذي أرسل خطبي وقبلي إلى المحلة الكبرى سيارتين من اللورى مكتظتين بالجنود تحمل العصي والسياط ، لا لشيء إلا لأنني فكرت أن أزور المحلة الكبرى لأفتش على مكتب الجريدة هناك .

يدعى نسيم باشا انه سird الدستور ، وأنه الأمين على الحريات ، دعوني أسخر من هذه الدعوى وأضحك وأغرق في الضحك ، لأن نسيم باشا هذا هو الذي حرم علينا الاجتماع لتحفل بإصدار جريدة يعرفها جيدا ، ويعرف صوتها المدوي في خدمة مصر ، والقضية المصرية منذ ربع قرن ونيف . جريدة وادى النيل يعرفها نسيم باشا ويعرف جهادها ، ومع ذلك فهو الذي يرفض اليوم أن يسمح لنا بالاجتماع اجتماعا عائليا صغيرا لتحفل بها أهذا هو الذي سird الدستور ، أهذا هو الأمين على الحريات ، دعوني أضحك ، دعوني أضحك وأسرف في الضحك .

### نسيم باشا والاستقلال

يدعى نسيم باشا أنه الحريص على استقلال مصر ، وأنه الأمين على سيادة مصر ، فليحاسبنا ماذا فعل بهذا الاستقلال منذ ولى الحكم ؟ وماذا تم في سيادة الدولة على يده ؟ فليحاسبنا حفظه الله وأبقاه ومتعنا بتزاهته وعفته وإخلاصه ، فليحاسبنا ونحن مستعدون أن نحى الرأس لإجلالا لعظمته وجهاده ، استلم الوزارة من وزير لم نزل على يده إلا كل اضطهاد وتعذيب . حُبسنا في عهده وصودرت حريتنا ، واعتدى علينا ، ومع ذلك فلا نستطيع اليوم إلا أن نعرف بأنه تمسك باستقلال الوزارة المصرية . ولم يسمح للإنجليز أن تلقى إليه رغبات أو أوامر ، هذا هو عبد الفتاح يحيى باشا ، ومن قبله صدق باشا ، الذى مهما قيل فيه فإنه قد أرسل في يوم ما بلاغا إلى الإنجليز يقول لهم فيه : أن ليس لهم الحق في التدخل في شئون مصر الداخلية ، لأنها مستقلة فلا تسمح لهم بهذا التدخل . ومهما قيل في هذا البلاغ من أنه كان موضوعا بالاتفاق مع دار المندوب الإنجليزى ، وأنه ليس إلا كلاما أجوف ،

أجل أيها السادة مهما قيل فيه ، فإنه مظهر حسن من مظاهر الاستقلال ، لست أحاول أن أدافع عن صدق باشا وعن شخصيته ، وأرجو أن تفهموا بدقة وجهة نظري ، فالوزارتان اللتان لم تكونا من صميم الأمة ، بل كانتا حرباً على الأمة ، حافظتا على مظاهر الاستقلال على أقل تقدير . أفما كان بالأحرى واجب نسيم باشا - وهو الذي ارتفع على أكتاف الشعب - أن يكون موقفه من الإنجليز قويا ؟ وأن يصول ويحول دفاعاً عن الاستقلال ومظهرية الاستقلال ؟

### نسيم باشا والمحكمة المختلطة

وتولى نسيم باشا الحكم ، وفي الدولة مشاكل ، على رأسها مشكلة المحاكم المختلطة ، فإذا فعل فيها ؟ ماذا فعلت فيها الوزارة لترد لمصر كرامتها ؟ لا شيء .. لا شيء .. رغم أن الدول كلها .. قالت لها مالك لا تنقلين كرامتك ؟ وتقررين العرية كلغة رسمية حيث أن اللامحة تنص على ذلك .. لا ، فإن هذه مسألة تتعلق بالكرامة المصرية والسيادة المصرية يمكن أن تنتظر ، حتى تحمل المطالب العليا ، مطالب الإنجليز .. أسيادنا الإنجليز !

أشهد أني أكاد أجن .. وأجن بالأكثر من هؤلاء الذين مازالوا يؤيدون الوزارة ويولونها ثقتهم وتشجيعهم .

### الوفد وتأنيده للوزارة

اللهم إني لا أستطيع أن أفهم تأييدهم ، رغم كل هذا الذي تأتته الوزارة النسيمية ، إلا على أنه حرص على الحكم وكراسي الحكم بأي ثمن من الأمان ! . نسيم باشا هو القنطرة التي سيعبر عليها الوفد إلى الحكم ، وبدون نسيم باشا لا يمكن أن يمهد الطريق لوصول الوفد إلى الحكم .. إذن ليعمل نسيم باشا إلى هذه الغاية ، وليدفع ثمننا لذلك كل ما يطلب منه ، حتى ولو كان هذا الثمن تفريطاً في استقلال مصر ، حتى ولو كان الثمن تأجيل الدستور إلى أجل غير مسمى ، وإذا أجل الدستور فما الذي بقي للوفد إذن ؟ .. وما الذي ينتظره إذن ؟ .. أفهم أن يكون الوفد مهادناً للوزارة ، أفهم أن يكون للوفد ثقة في شخصية نسيم باشا ، وأن تكون هناك صداقة بين نسيم باشا ورئيس الوفد ، أفهم ذلك ولكن الذي لا أفهمه بل أستكره هو هذا المبدأ الخطير ، وهو أنه مادام نسيم سبرد الدستور فيجب أن تترك له الحرية ليفعل كل شيء في هذا السبيل ، وليدفع أي ثمن يريده الإنجليز ، حتى ولو كان باهظاً ، تنقاضه إنجلترا من كرامة مصر ومالية مصر . أولاً يحس الوفد معنى بخطورة هذا الثمن ؟ كلنا نحب الدستور ، ونحن من المطالبين بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ، ولكننا نريد الدستور دون أن نخسر في سبيله كل شيء ، دون أن نفقد استقلالنا وكرامتنا .

مبدأ خطر أيها السادة - بل هو مقامرة خطيرة أن نعطي الإنجليز كل شيء لكي نأخذ الدستور . إذ ماذا تكون النتيجة إذا نسى الإنجليز وعودهم وتكروا للدستور بعد أن يكونوا قد حصلوا على كل شيء ..

## الإنجليز لا يريدون الدستور -

ومالى أنحدث بصيغة الفرض ، وهذا هو الواقع فعلاً ، وهذه هى الكارثة التى حلت على مصر فعلاً ، فالإنجليز اليوم لا يريدون دستورا ، لا يريدون دستورا بل يريدون حكما مباشرا وطاعة عمياء ، وتركيز السلطة والسيادة والتشريع وكل مظاهر الحكم فى يد المندوب البريطانى حتى يصبح حاكماً بأمره ، كحكام الهند أو خط الاستواء .

وكيف يقع الساسة المصريون فى الشك ويتنظرون من إنجلترا دستورا ، كيف يخيل إليهم أن إنجلترا حريصة على حريتهم وإرضائهم ، فتعيد لهم الدستور ، وتعيد الوفد إلى الحكم .

أجل أسائل نفسى ، كيف ينخدع بعض الساسة المصريين ، حتى اليوم ، بهذه الترهات والآمال الفارغة ؟. سيقولون أو لم تعط إنجلترا الدستور لمصر فى تصريح ٢٨ فبراير ، فلم لا تعطيه مرة ثانية ؟ ولكن أيها البسطاء السذج ، لقد أعطتكم إنجلترا الدستور فى تصريح ٢٨ فبراير لأنكم كنتم تطالبون بكل شيء ، كنتم تطالبون بالاستقلال التام لمصر والسودان أو الموت الزؤام ، فرمت لكم الدستور لتشغلكم به وتخطم وحدتكم عليه ، فكان الدستور وكان لإنجلترا ما أرادت ، فتحللت معنويتكم وذهبت ربح جهادكم ، وامتلأتم بالزهو والشغف بالحكم والمناصب .

أما اليوم بعد أن تمزقت أوصالكم ، بعد أن تضعضت قوانا وامتلاّت قلوبنا بالشك والتشاؤم والجبن والضعف ، لم لا يسترد الإنجليز الدستور ، لم لا يستردونه ويستردون كل مظهر من مظاهر الاستقلال ؟ لم لا يعودون للحكم من جديد ، ماداموا يجدون وزراء يقبلون منهم هذا التحكم ، ويرون الوفد يؤيدهم بشمن نجس ، وهو الأمل بعودة الدستور ؟ أو ليس من المضحك أيها السادة أن يكون جهاد نسيم باشا فى هذه الأيام ، لا يدور حول إعادة الدستور ؟ لا ، فإن هذا الرجل متواضع ولا يرتفع إلى هذا الطلب . كل الذى يطلبه ، أن يسمح له المندوب البريطانى بإصدار بلاغ يعد فيه الأمة بقرع عودة الدستور ، ومع ذلك فإن المندوب يرفض !.

بالسخرية الأقدار ، إذا لم يعد الدستور هو البضاعة التى يساوم عليها الإنجليز ، لا بل أصبح الوعد بالدستور هو البضاعة التى يبيعها الإنجليز ويشترها المصريون . سماح الله الإنجليز ، وماذا عليهم لو سمحوا لنسيم باشا بإصدار البيان ، فيملأ البلد أملاً ووهماً لمدة سنة ، أو سبعة أشهر يعود بعدها الدستور ، حتى إذا جاء ميعاد الدستور ، أسقطوا وزارة نسيم باشا وجاءوا بوزارة أخرى لا تعرف شيئاً عن الدستور !. ثم تعبد الأمة من جديد بدستورٍ مشنجر ، بعد أن تسليخ فى الحكم عاماً أو عامين .

ماذا يصير الإنجليز ساعهم الله ، لو استغلوا أحلام هذه الأمة فساقوا لها الوعد خلف الوعد حتى تكل وتمل وتلين ؟ ترى أينجنى الإنجليز أن ينكثوا بالعهد ، متى حافظوا على عهودهم ؟ ومتى كانوا يعرفون معنى تنفيذ التعهدات ؟ وقد أقسموا بالشرف نيفاً وستين مرة أن يغادروا مصر ، وكلما طولبوا بتنفيذ الوعد ساقوا وعداً جديداً !.

واليوم وقد كسبوا الاحتلال نهائياً ، ولم يعد فى مصر بأسرها من يطالبهم بالجلء ، اللهم إلا جمعية مصر الفتاة ، وهى جماعة كما يرى الإنجليز هين شأنها فى الوقت الحاضر !.

اليوم وقد حقرت المطالب الوطنية وانكشئت ، ماذا علي الإنجليز لو نقلوا ميدان الوعود إلى الدستور ، يؤجلونه من عام إلى عام . لا ، ولكن إنجلترا الجبارة لم تعد ترى في الشعب المصري ما يستحق حتى أن تضحك عليه ، وأن تضيق وقتاً في العبث به ، بارك الله في نسيم باشا ، وبارك الله في النحاس باشا ، وماوصلت إليه مصر على أيديهما .

### نداء للوفد

إنني أبعث بنداء حار من أعماق قلبي ، إلى الوفد وزعيمه قائلاً : لقد عثمت طوال عشر سنوات علماً على الكفاح ، فلا تهتؤ ولا تلتبؤوا وإن كان ولا مناص من مصانعة الإنجليز والانحداع بوعودهم فاتركوا ذلك للوزارة ، اتركوا ذلك للوزارة أما أنتم ، فإلى الصفوف من جديد ، مؤمنين بأنه لا دستور مع احتلال ، فليكن كفاحكم هذه المرة لا للدستور والاستقلال والسودان بل أثيروها على الإنجليز حرباً شعواء لا تبق ولا تدر ، حرباً معنوية ، في خطبكم وصحفكم ، تعالوا ننظم مقاطعتهم ، تعالوا نكافح ، تعالوا نكافح .

ووالله لو فعلتم ذلك لعادت القلوب تمجدكم من جديد ، والتفت الأمة حولكم من جديد ، أما إن واصلتم هذه السياسة التي تسيرون عليها ، سياسة المداورة والملاينة والانحداع للإنجليز ، فإنني أُنذركم أن الأمة ستصرف عنكم ، الأمة التي هتفت بأسمائكم بالأمس ، ستهتف بأسماء أخرى ، لأن الأمة لا تُخدع والأمة لا تعرف السياسة ، والشعب يريد الكفاح .

### وادي النيل

وبعد أيها السادة : صفينا حسابنا مع الوزارة والوفد ، صفينا حسابنا مع الظلم والاستبداد فلنعد إلى موضوع احتفالتنا ، ولنحدثكم عن مصر الفتاة وخطتها وآمالها .

لعلكم اقتنعت من هذا العرض البسيط الذي عرضناه الآن عن موقف رجال السياسة في مصر ، أنهم أفلسوا وعما قريب يعلنون إفلاسهم . ونحن لسنا في حاجة إلى انتظار هذه الساعة التي يعلنون فيها إفلاسهم ، لأننا نحس هذا الإفلاس من الآن ونلمسه ، لا بل لسنا هذا الإفلاس منذ عامين عندما نادينا بمصر الفتاة . كنا نناصر الأحزاب المختلفة ، وفجأة اكتشفنا أنه لا يوجد حزب في مصر له من مبادئه ، أو من رجاله ما يمكن أن يحقق لمصر استقلالها وحريتها المنشودة ، فقد تراموا جميعاً على الحكم وأصبحوا عبيده ومحاسيه ، ومردوا على النفاق والخيانة والاستهانة بإرادة الأمة ، واعتز فريق منهم بنفسه فركب رأسه وراح يضع نفسه في موضع الألوهية ، فلا يناقش ولا يحاسب ولا يراجع ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور ! . ووسط ذلك كله كان كل شيء يتدهور في مصر : كرامتها ، شخصيتها ، أخلاق بنينا ، روحهم المعنوية ، حتى وصلنا إلى درجة الانحطاط في كل ميدان . وعدنا إلى الوراء عشرات الأعوام ، فكان لا مناص من حركة جديدة تخرج من أعماق الشباب ، مخلصه

بريئة طاهرة ، لم تلوث بعد بالسياسة الإنجليزية ، وليس لها مطمح في الحكم ، أو مغنم تصبو إليها فيتلف عليها جهادها ، كما تكافح من جديد وبأسلوب الكفاح الحق ، لكي تندفع إلى الأمام غير هيابة ولا وجله ، تطالب في غير ما هوادة أو لين أو مواربة ، باستقلال مصر ومجد مصر ، لا يفزعها سجن أو موت ، وترحب بكل اضطهاد وعذاب وتشريد .

هذه هي جماعة مصر الفتاة .. خرجنا إلى الحياة منذ عامين فتوالت علينا الإجن والويلات ، ولكننا مرت بنا دون أن نترك بنا أثرا ، أو نفل من عزائمتنا .

ولقد حاربنا الإنجليز عن طريق كين بويد وأضرابه ، وحاربنا الوزارة التي آذاها أن ترى شبابا متطرفا ينقدها في غير رحمة ، ولقد كان أمر الإنجليز والحكومة هينا ، وسبق هينا دائما أبدا ، ذلك أنه لا يتطلب منا إلا أن نحتمل الاضطهاد والعذاب ، ونحن قد وطدنا العزم على ذلك .

على أن مصر الفتاة قد قوبلت باضطهاد أقوى وأعظم ، وذلك هو اضطهاد الأغلبية وقذفها بالهم الباطلة واحدة خلف أخرى ، قالوا عنا تارة إننا صنائع الإنجليز ، ثم صنائع الحزب الوطني ، ثم صنائع الإبراشي باشا ، ولقد مضينا في طريقنا لا نلوي على هذه السخافات ، التي كانت تتلاشى واحدة بعد الأخرى ، حتى كان سقوط الإبراشي باشا ، فسقطت آخر هذه الدعاوى إلى غير عودة . وما نحن أولاء وقد أثمر جهادنا ، ننزل إلى الميدان بجريدة هي مفخرة الجرائد المصرية الصميعة ، فلقد أسسها صاحبها منذ سبع وعشرين سنة ، بمشورة مصطفى كامل باشا ، وظل يعمل على رأسها طوال هذا العمر الطويل في جد ونشاط ، حتى جاءت أيام كانت وادى النيل هي الجريدة التي كان يقرؤها كل مصري ، وفي الوقت الذي كانت الجرائد تصدر في صفحتين اثنتين ، كانت هي تصدر في ثمانى صفحات وكانت تصدر مرتين في اليوم الواحد . أقص عليكم ذلك لتعرفوا أن جريدة وادى النيل علم من أعلام الصحافة في مصر ، وإذا كانت قد ركبت ربحها في المدة الأخيرة فما ذلك إلا لأن الأستاذ الكلزة ، شفاه الله وعافاه ، أصابته بعض الأمراض ، التي جعلته ، وقد بلغ السن التي وصل إليها غير قادر على مواصلة الكفاح ، في قوة ونشاط فإذا تقدمت مصر الفتاة لتتخذ من وادى النيل لسان حالها ، إذا نزلت مصر الفتاة إلى ميدان الجهاد وفي قلبها إيمانها ، وفي يمينها وادى النيل كتب لها النجاح ، فإن هذا عصر جديد من عصور مصر الحديثة ، بل هو فجر يشرق على الظلمات التي كست مصر سريالاً مخيفاً . فحق علينا أن نبتهج وأن نحتفل وأن نتخذ من أول مايو عيداً عظيماً نحتفل به في كل عام مرة ، لأنه من أيام مصر البيضاء .

### خطتنا وبرنامجنا

بقي أن تتساءلوا : وما هي الخطة وما هو البرنامج ، أما خطتنا فطلما كررتها في خطبي ومقالاتي ، وهي إعادة الروح . نريد أن نعيد الروح إلى الشباب المصري ، فيمتلئ إيماناً وعزماً ، ويقدس الرجولة والأخلاق ويعد من نفسه فارساً مقداماً . نريد أن ننشئ الجيل الجديد ، واثقاً معتزاً ببلاده فخوراً بتاريخه ، نريد أن نملأ النفوس جرأة وشجاعة وتضحية .

## الحرب العالمية القادمة

ونريد أن نهيئ أنفسنا للحرب العالمية القادمة ، لأنها هي المخلص ، وهي المنقذ . لا أمل لنا في الاستقلال أو التخلص من يد الإنجليز إلا في الحرب القادمة ، فيجب أن نهيئ لها منذ الآن ، وأن نستعد كي لا تؤخذ على غرة ، ولكي نقوم بواجبنا في الساعة المناسبة . لظالما قلت لكم ما أقوله اليوم ، وهو أننا لن نحصل على استقلالنا بمنحة من الإنجليز أو بدهاء نسيم باشا ، أو مصانعة النحاس باشا لهم ، لن نحصل على شيء بهذا الأسلوب ، ومن السفه بل من الجنون التعويل على هذه الخطوة . سنحصل على استقلالنا عندما نصبح قادرين على أخذه عنوة ، وسنحصل على حريتنا عندما نستطيع أن ندفع ثمنها .

وإذا كان لا مناص من انتزاع الاستقلال بالقوة ، كما يعلمنا الله في كتابه العزيز بقوله : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» ، فالفرصة ستتاح لنا في الحرب القادمة والتي ستقع من غير شك . أجل ستندلع نيران الحرب ما في ذلك شك أيها السادة ، وإن كان هناك ما يمكن أن يكون محلاً للخلاف فهو موعد حصولها ، أهو بعد ثلاثة أعوام أم خمسة أم عشرة . أجل قد يختلف المختلفون في تحديد التاريخ أما في أنها ستقع فلا ! فقد أصبح ذلك حتما لا شك فيه . إن أوروبا قد اندفعت نحو التسليح بدون قيد أو شرط ، قد اندفعت نحو التسليح وابتكار المدمرات والحتربات ، وغدا عندما ترى كل دولة نفسها وقد تدججت بالسلح ، وأنها من القوة والمنعة بحيث تحطم جاراتها ، غدا عندما يمتلئ كل شعب بالزهو والخيلاء ، ويرغب في الفتح والاستعمار والثأر ، غداً ستقع الواقعة ، فتشتعل النار التي ستلتهم أوروبا بأسرها ، وذلك من رحمة الله ومن نعمته ، لكي يتحرر الشرق ولكي ينهض ، ولكي تحطم هذه المدينة القلدة الدنسة ، مدينة الذهب والحديد والمادة ، مدينة الفسق والدعارة والإلحاد ، وحتى تحق كلمة الله سبحانه وتعالى : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون» . أجل .. فسد الأوروبيون وبغوا وحسبوا أنفسهم أنصاف آلهة ، وعبدوا عقولهم ، وعبدوا شهواتهم ، وأعمتهم مخترعاتهم ، فظنوا أنهم قادرون على الأرض والسماء ، وغداً سيجهنم أمر الله في هذه الحرب . فعلى الشرق بصفة عامة ، وعلى مصر بصفة خاصة ، أن تترى وقت هذه الحرب وأن تعد نفسها لها ، فإما أن تترك إنجلترا لمصر حريتها كاملة واستقلالها غير منقوص ، وتسحب جيوشها وتجلو عن مصر ، وعندها نقف إلى جانبها موقف الحليف من الحليف ، وإما أن نناضل عن حريتنا بإعلان الحرب على إنجلترا ، ونكافح كفاح المستعيت ، فإما موت وفناء في ظل الشرف والكرامة وإما انتصار يعيد إلى البلاد حريتها ومجدها .

## كلمة أخيرة

فهمت أن نعد جيلاً جديداً ، وأن نهيئ النفوس والشعب للحرب القادمة ، فإذا انتصرنا فإن برنامجنا واسع النطاق ينفذ في عشر سنوات .. من شأنه أن يبعث كل جسد مصر الماضي وأن يخلق منها دولة شاحنة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتترجم الإسلام . برنامج يقضى على

الأمية ، ويقضى على الاستعباد الاقتصادي ، ويبعث روح النبوغ والعبقرية في العلوم والفنون والآداب ، ويملاً مصر نورا من جديد لتضيء على العالمين ، ولتحمل لواء السلام والإيمان .

هذه خطتنا وهذه برامجنا وتلك آمالنا نتحدث بها إليكم مجددين العزم والميثاق من جديد ، أن نكافح من أجل تحقيقها ، وأن نموت في سبيلها غير راجين جزاء أو شكورا من مخلوق ، ولكن رضا وحبا من الله ، وعلى بركة الله نسير ، وباسم الله نبتدئ الكفاح ، ويعون الله نجابه الشدائد والصعاب ، والله يوفقنا ، والله يهدينا سواء السبيل ، والمجد لمصر .

## انتصار روح مصر الفتاة في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥

### انفجار

كان آخر عهدنا بجريدة وادى النيل والكفاح في الإسكندرية هو شهر يونيو سنة ١٩٣٥ وقد تراكمت الصعوبات المادية فحالت بيني وبين مواصلة إصدار الجريدة فعدت إلى القاهرة قلب الحركة الخفاق وكان السخط على وزارة نسيم باشا قد بدأ يشيع في جميع الأوساط .

وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ انفجرت عناصر السخط في أوساط الشبان ، فقابلها نسيم باشا بالرصاص والإرهاب ، فلم يزد ذلك النار إلا اضطراما وتحول السخط إلى ثورة ... بدأت في صفوف الشبان ، وبدأت تنتقل منهم إلى بقية عناصر الأمة رويدا رويدا ... وفي أيام قليلة تحول سكون مصر إلى حركة عنيفة ، وتضرجت شوارع القاهرة بدماء عشرات من الطلاب وشباب الجامعة ، وغصت المعتقلات بمئات وألوف من المقبوض عليهم . وفي عشية وضحاها ، سرت في مصر هزة قوية ، أو قل روح عنيفة ، تأبى الذل وتتمرد على خنق الحرية ، وتطالب بالدستور ولا ترضى بأقل من الاستقلال .

فوجئت الحكومة بهذه الحالة وفزع الإنجليز من نتائجها ولم يستطيعوا تحليلاً لعناصرها ، وعجزوا عن تفسير ما خُيل لهم أنه جاء مفاجأة غير منتظرة ، وقد شاطر الحكومة والإنجليز كثيرون من المصريين أنفسهم في اعتبار أن ما حدث كان مفاجأة غير متوقعة ، وأنه مقطوع الأسباب عن مقدماته .. فهل كان هذا الحكم صحيحاً ؟ وهل لم يسبق هذه الحركة القوية مقدمات تؤدي إليها ؟ هذا هو ما سأحاول تحليله هنا في هذه السطور ، للذكرى والتاريخ ، والدرس والعبرة .

ولست أحسب أن هناك قارئاً واحداً قد طالع كتابي هذا حتى هذه السطور إلا مبادراً بالقول بأن مصر الفتاة هي خالقة هذه الحركة ، وأنها قد مهدت لها بهذا الجهاد الطويل في بحر ثلاثة أعوام ، تعرضت فيها لشتى صنوف الاضطهاد والتعذيب ، ولم تقتأ تردد في أثنائها مبادئ الوطنية الصحيحة ، وتحض على الجهاد في غير ماخوف أو جزع . والواقع



أن هذا الحكم من القارئ هو الحكم الصحيح الصادق في غير مغالاة أو إسراف . ذلك أن الإيمان الذي كان يملأ صدورنا ، والذي مازال يملأ صدورنا ، بل والذي ازداد أضعافاً مضاعفة . هذا الإيمان الذي يحركنا ، والذي يغذي بنا ، والذي يدفعنا دائماً إلى الأمام ، هذا الإيمان الذي يهون لنا الشدائد ، لا يمكن إلا أن يكون قوة مؤثرة تأثيراً مادياً في البيئة المحيطة بنا . وإني لأكاد أتخيل للإيمان قوة خفية كقوة المغناطيس أو الكهرباء ، هذه القوة التي تملأ الجو من غير أن يكون لها مظهر مادي ومع ذلك فإنها موجودة وهي تؤثر وهي تتج ، بمعنى أن الشخص المؤمن يستطيع أن يؤثر بإيمانه ولو كان في حجرة مغلقة الأبواب ، موصدة النوافذ ، وهذا يدل عليه سجن المجاهدين فهو يزيد في قوة عقيدتهم ، وبالتالي في عقيدة زملائهم وأتباعهم ، إذ بالقوة الغشوم سرعان ما تُهزم أمام المجاهد السجين ، فإذا بالأبواب تفتح ، والسلاسل تحطّم ، ويستأنف المجاهد جهاده ، والناس من حوله أشد إيماناً وإصراراً على الكفاح ! . هذا هو أثر الإيمان الكامن في نفسى ، ونفوس أصدقائى .. فقد كان قوة مؤثرة في البيئة التي تحيط بنا سواء اتصلنا بها أو لم نتصل ، فما بالك ونحن لم نترك دقيقة واحدة في هذه الثلاث سنوات لم نتصل فيها بجميع الشباب والطلاب بصفة خاصة .. فليست هذه السنوات الثلاث إلا عملاً متصلًا في قوة وعنّف ضد مظاهر الضعف والتخنث والجن الذي ران على القلوب . ولقد طالعت في الصفحات السابقة ، كيف كنا نقابل السجن بالابتهاج ، ونحمل الشدة في سرور ، رأيت في الصفحات السابقة كيف كانت حياتنا سلسلة متصلة بين السجن والاعتداء والإيذاء ، ورأيت كيف أرسلنا الصوت مدويا من أعماق السجون ، ومن أقباص الاتهام ، ندعوا الشباب إلى التضحية والكفاح ، في غير ما وجل أو تردد ... وفي هذه السنوات الثلاث ، لم يمض يوم واحد ، لم نكن فيه نتحدث ونخطب ونعطي القدوة للشباب ، في هذه السنوات الثلاث ذرنا القطر شمالا وجنوبا ، وغربا وشرقا ، ناشرين إيماننا وعقيدتنا ، ومقدمين المثل بهذه الجرأة التي تسخر من الظلم وتهزأ بالاستبداد . ولم يكن ذلك كله بغير أثر ، بل على العكس فقد ترك أثراً عميقاً في نفوس الشباب الذين أحاطوا بنا ، أثر ذلك في نفوس زهرة الشباب ، وأعني بهم طلاب الجامعة ، وليس في قاداتهم إلا من هو صديق شخصي لى أو عضو في مصر الفتاة . وإذن فقد تهيأت أذهانهم لروح الكفاح والتضحية ، روح العمل من أجل مصر أولاً وأخيراً ، مهملين الأشخاص ، ومقدسین العمل الصالح ، ولقد كمنت هذه البذور في قرارة نفوس الطلاب ، وأخذت تنمو وتزدهر يوماً بعد يوم ، حتى كانت الحرب الإيطالية الحبشية ، وقامت الحبشة تدافع عن استقلالها وعزتها ، ووقف العالم بأسره إلى جانبها ،

يتحدث عن سيادتها وقداستها حريتها ، وشرعت جرائد الدنيا تتحدث عن وطنية  
الأحباش وبسالة الأحباش ، وتستعرض صوراً من كفاح أبطالها ، ورجالها ونسائها ، بل  
وأطفالها .. وأخذت رائحة البارود تملأ معاطس المصريين ، والدم المهرق يوقظ  
حواسهم ، ورؤية الكفاح تثير غريزة الكفاح ، فلا عجب أن امتلأت نفوس الشباب  
المصرى بالرغبة في الكفاح ، وكل عاطفة قوية إن لم تجد من ينظمها في بداية أمرها ،  
انحرفت عن طريقها الطبيعي وتبددت أدراج الرياح ، ولربما تحولت إلى قوة مخربة كالنار  
إن لم تنظم أصبحت أداة خراب ودمار ، وقد كاد ذلك يكون النتيجة المحققة لعواطف  
الشباب المصرى في تلك الأيام . فقد اندفع بعض الشباب وفي مقدمته الصحافة ، تدعو  
للتطوع للدفاع عن استقلال الحبشة ، وحرية الحبشة ، وسرعان ما تألفت اللجان  
وانهالت ألوف الطلبات ، وتقدم مئات الشبان ، وقد امتلأت صدورهم بحماسة عجيبة ،  
فكنت تراهم والدم الحار يملأ شرايينهم ، واللهب المقدس يشع من أعينهم ، فأما السذج  
والبسطاء فقد خيل لهم أن المصريين يريدون الدفاع عن الحبشة ، ويتحمسون للحبشة  
فراحت الصحافة تطبل وتزمر ، وتهاجم الإيطاليين وتناصر الحبشة ، وتستحث الشباب  
لنصرة الحبشة . حتى امتلأت البلد بروح غريبة ، روح الدفاع عن الحبشة واستقلال  
الحبشة ، أما أنا فلم أر في كل ذلك إلا رغبة الأمة في الدفاع عن نفسها ، وأن هذه  
الروح القوية ، التي تريد متنفساً لها ، وجدت في الحبشة فرصة لإظهار هذه الروح .  
ومنذ الدقيقة الأولى فهمت إحساس الشباب الحقيقي ، ومنذ الدقيقة الأولى عرفت ماذا  
يجب على أن أفعل ، وماذا يجب على كل الشباب أن يفعل ، فإذا كان للحبشة استقلال  
قد حُطم ، وإذا كانت للحبشة كرامة ينبغي أن تُصان ، فإن لمصر كرامة يجب أن  
تُسرد ، وإذا كان في عروق الشباب المصرى دم يجب أن يراق ، فإن مصر به أولى ،  
وإذا كان هناك ما يجب أن يقوم به المصريون ، فهو انتهاز هذه الفرصة ، للمطالبة  
بحقهم وإخراج الإنجليز ، وإسماع العالم صوت مصر ، والكفاح في سبيل الاستقلال .  
وإذن فقد عملت جاهداً على إعادة العواطف التي تملأ صدور الشباب إلى طريقها  
الطبيعى ، فناديت قومية وناديت الشباب ، وانبث جنود مصر الفتاة ، يدعون في كل  
مكان ، أن على هؤلاء الذين يريدون الدفاع عن الحبشة ، أن يدافعوا عن مصر ،  
وهؤلاء الشجعان أن يبرزوا شجاعتهم في مصر ، والراغبون في التضحية ، أمامهم الميدان  
متسعين في مصر . ولقد بدت هذه الدعوة ، في وقت اندفعت فيه العواطف إلى مناصرة  
الحبشة وتأييدها ، بدت دعوة غريبة شاذة ، فأخذ الرأي العام يهجس بأنها دعوة  
مدسوسة ، وأن للإيطاليين فيها دخلاً .. حتى لقد أشارت إلى ذلك ، مجلة « اللطائف

المصورة» إشارة صريحة ، على الرغم من خصومتى للطلبان خصومة عنيفة ، ولعل القارىء قد لمحها فى كل سطر ، من سطور مرافعاتى وخطبى وأحاديثى ، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية ، التى يريد أن يبعثها موسولنى ، إنما تتركز فى مصر ، وموسولنى يريد أن يجعل البحر الأبيض بحيرة رومانية ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كانت مصر رومانية كذلك . وإذن فإيطاليا الجديدة ذات البرامج الاستعمارية ، هى خطر على مصر أى خطر ، يجب أن تنهى له مصر ، وأن تستعد ، وأن تكون منه على حذر ، على أن هذا لا يعنى مطلقاً أن تنسى مصر أنها واقعة حالا فى برائن مستعمر آخر ، وأن عليها أن تعمل لفك أغلالها الحالية ، قبل أن تحشى أغلالاً مستقبلية ، قد تُقيدُ بها ، بالغة ما بلغت هذه السلاسل المقبلة من حيث الخطر والأهمية ، وما هى الوسيلة لانتزاع استقلال مصر إلا بانتهاز الفرص ، واستغلال الخلافات الدولية بين إنجلترا وغيرها من الدول ، ففى سنة ١٩٣٥ ، ما كانت تكسب قليلاً أو كثيراً من معاداتها لإيطاليا ، وإظهار خصومتها العنيفة ، فى وقت كان الاستقلال فيه أثراً بعد عين والإنجليز يتحكمون فى كل شيء ، ويضغظون على العرش ، ويرفضون الدستور .

ولقد أدركت الأمة كل هذه الحقائق بعد حين ، فبدأت الأحزاب السياسية تنشط بعد تحاذل الوفد ، وتأييده لسياسة نسيم باشا المدمرة ، وخرج الأستاذ العقاد على سياسة الوفد والحكومة ، وواصل كتابة هذه المقالات الصادقة ، والتي ليست إلا تكراراً لما سبقته إليه مصر الفتاة ، أو بمعنى آخر ، ليست إلا وليدة روح مصر الفتاة ، روح الكفاح والمقاومة والاستبسال والإيمان ، وفى وسط هذا الجو عاودت مصر الفتاة نشاطها المادى والروحى ، فعاودت الصرخة صدوراً بقوة ، وتقابلت مع الأستاذ العقاد فى منتصف الطريق وأفسح لى صدر جريدة روزاليوسف أسجل على صفحاتها روح مصر الفتاة ونشاطها . وإذن فقد بدأ تيار الحفاة نحو الحبشة يعود إلى مصبه الطبيعى ، وأعنى به القضية المصرية ، والدفاع عن استقلال مصر ، وهذه القلوب الفتية بدأت تتطلع باحثة عما تفعله من أجل مصر ، وأبنت تلك البذور التى غرسناها فى النفوس ، لا ، بل بدأت تنمر وتنضج ، حتى إذا بدأ شهر نوفمبر ، بدأت الحوادث تتوالى بسرعة ، فقد كانت حملة العقاد على سياسة الضعف فى أوجها ، وعاد دولة محمد باشا محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين إلى سياسة التعاون بين الأحزاب والاتلاف وتوحيد الصفوف ، وأقام اجتماعاً فى ٧ نوفمبر شهده كل رجال الأحزاب ما عدا الوفد ، ولأول مرة عقد اجتماع سياسى فى يوم وليلة وزاد حاضروه على بضعة عشر ألفاً ، جلهم من الشباب ، وشهد رجال الأحزاب المختلفة يجلسون جنباً إلى جنب ، يكرمهم الشباب ،

ويهدف بأسمائهم فكان ذلك إيذانا بغليان الأفكار وإرادتها في توحيد الصفوف ، استعدادا للكفاح . حتى إذا ما اقترب يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، أعلنت مصر الفتاة عن اجتماع ضخم ، أخطب فيه باسم الجيل الجديد ، ويخطب معى سعادة محمد على باشا علوبة ، والأستاذ العقاد ، والأستاذ عبد الرحمن عزام ، ولقد كان معينا لمكان الاجتماع مسرح برنتانيا ، فطبنا من التذاكر ضعف ما يسع من الحضور ، فإذا بها تنفذ في دقائق ، وإذا بنا مضطرون أن نطبع من التذاكر ألوفا وألوفاً ، وإذا بجمع الشباب تضغط على دار الجمعية ضغطا عظيما ، تطالب بشهود الاجتماع ، فإذا بنا ننقل الاجتماع إلى سراى آل لطف الله بالجزيرة ، كما تتسع لهذه الألوف ، على الرغم من أن الوفد ، كان قد دعا إلى اجتماعه السنوى المعتاد ، وقد اضطر تمهيدا لإنجاحه أن يعلن تخليه رسميا ، أى فى الظاهر ، عن تأييد وزارة نسيم باشا ، فكان ذلك أول ثمرة لضغط الرأى العام ، وهكذا بلغ الغليان الفكرى أشده . على أن الشأن كانوا هم كل شىء فى هذه الحركة ، فهم الذين نشروا السخط ضد وزارة نسيم وسياسة الاستخذاء ، وهم الذين دعوا لتوحيد الصفوف . وإعلان سياسة الكفاح ، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، كانت القاهرة فى جو مكهرب ملبد بقوى غير منظورة ، وفى آخر دقيقة منعت الحكومة اجتماع مصر الفتاة ، بعد أن اتخذنا له كل المعدات ، على الرغم من سماحها بعقد اجتماع الوفد ، فسرت فى كل من وصل اليه الخبر ، روح سخط جديدة واستنكار شديد ، وخرجت جموع الطلاب من الجامعة تزحف نحو القاهرة ، هاتفة مظاهرة ، فاشتبك معها البوليس ، وكانت معارك فى قصر النيل ، وفى ساحة عابدين ، أطلقت فيها النار ، وأصيب عشرات من الجرحى ، وأحاطت الحكومة مكان اجتماعنا بصفوف متراصة من البوليس ، تحول بين الجموع وبين عقد الاجتماع وما إن هممت بالاقتراب من مكان الاجتماع وأخذت أتحدث مع بعض الضباط ، حتى صدر أمر البوليس بالاعتداء علينا ، فانهالت على عصى البوليس ولكماته ، وأخذت إلى مركز البوليس ، وهكذا لم ينقض هذا اليوم العصيب فى حياة مصر دون أن آخذ منه بنصيب ، حقا إنه لنصيب تافه بضع كدمات وضربات عصى ، ولكنه نصيب على كل حال يعزبنى اليوم ، وغدا ، وإلى الأبد ، أننى لم أكن فى هذا اليوم العاصف قعيد بيتى ، أو ممتطيا سيارة والجرحى تتساقط من حولى ، بل كنت فيه المجاهد الصغير ، الذى أخذ نصيبه من المعركة . ولم أتردد فى قبول اعتذار البوليس ، ساعة أن قدمه لى ، ولقد كان بودى أن يجرى تحقيق على يد النيابة ، وأن يعلم الرأى العام ما وقع ، ولكن الحوادث الدامية التى كانت تحدث من دقيقة إلى أخرى ، جعلتنى أنسى هذا الحادث ، أو أناساه ، لأشتغل بما هو أهم

وأروع ، وفي نفس اليوم حدث اصطدام بين البوليس والجموع المحتشدة لدى بيت الأمة ، وقد أصيب فيه عشرات من الجرحى ، واقتيد إلى السجن مئات الشباب . وهكذا انفجرت روح الشباب ، وسرت هزة الكفاح في أنحاء الوادى .

وكان اليوم التالى ١٤ نوفمبر ، هو بدء إعلان الثورة بمعناه الرسمى ، فقد انحدرت جموع الطلاب من الجامعة ، قاصدة القاهرة ، كما فعلت بالأمس فتصدى لها عند كوبرى عباس بعض أفراد من رجال البوليس الإنجليزى ، وفي دقائق قليلة أردوا بعض القتلى والمصابين من طلاب الجامعة ، وسقط عبد المجيد مرسى ، والجراحى ، وإبراهيم شكرى ، مات الأول سريعا وغاش الثانى أياما .. بعث فيها الحياة فى إخوانه وملاهم إيمانا وعزما ، أما الثالث فقد برئ من جراحه ، وظل حيا يعمل كما عمل دائما تحت لواء مصر الفتاة ، ليكون مثالا حيا على أثر مصر الفتاة فى هذه الحركة العتيدة ..

كان فى نفوس الشباب سخط ، .. وفى نفوس الشباب إرادة ، وفى نفوس الشباب أمل ، .. وبحث شباب الجامعة عن شعار يلخص حركته ويعمل بروحه ، .. بحث شباب الجامعة عن لواء يلتفون حوله ، ويسرون فى ظله ، بحث شباب الجامعة عن المبدأ الذى يكافحون من أجله ، ويسقطون فى سبيله ويسجلونه بدمائهم ، فأسفهم قادتهم من شباب مصر الفتاة بهذا المبدأ وذاك اللواء . أسفهم شباب مصر الفتاة بالمبدأ السامى الذى يلخص لهم كل شئ ، سخطهم وعقيدتهم وإيمانهم وآمالهم .. أسفهم شباب مصر الفتاة فهتفوا لهم «مصر فوق الجميع !!» . فإذا بالجموع تردد من أعماق أرواحها ، .. مصر فوق الجميع .. الله أكبر ، هذه هى مصر الفتاة تتنصر ، هذا هو إيمانها ، وهذه روحها ، هذا هو كفاح مصر الفتاة ، مصر فوق الجميع ، ذكرت فرجعت ، وفى دقيقة كانت شعار الحركة فى مصر كلها ، من الإسكندرية حتى أسوان ، فأخفت كل صوت ، وقضت على كل روح سواها ، حاولت أن ترفع رأسها ..

وقاد الحركة فى عنفوانها طراف<sup>(١)</sup> ومحبي الدين وحماه ومكى وشكرى وشافعى وسعد وغيرهم من زهرة مصر الفتاة وقوادها الذين تغدوا بلبانها وامتزجت بدمائهم .. هؤلاء الذين قادوا هذه الحركة ، هم جنود مصر الفتاة ، وعندما مات الجراحى ، كانت آخر كلماته مصر فوق الجميع ، فسطر بدمه رسالة مصر الفتاة . وعندما حاول نسيم باشا أن

(١) نور الدين طراف . الطب - محي الدين عبد الحليم . دار العلوم - حماد الناحل . الحقوق - محمود مكي الزراعة - إبراهيم شكرى . الزراعة - محمود شافعى . معهد التربية - كمال سعد . الزراعة وهؤلاء جميعاً أعضاء فى مجلس جهاد جمعية مصر الفتاة قبل هذه الحركة

يُفزع الحركة برصاصه وسجونه ، أجابوه بكلمات مصر الفتاة ، وما السجن ، وما الموت ، وما الحياة في ظل الذل ..

فتعاليم مصر الفتاة هي التي انتصرت ، وروح مصر الفتاة هي التي سادت ، وشباب مصر الفتاة هو الذي تزعم ، . وجمعية مصر الفتاة هي التي لبثت إرادة الشباب والأمة بعد ذلك ، فنفذت ما رغبت الأمة في تنفيذه ، وسافرتُ إلى أوروبا أنا وزميلي فتحي رضوان للدعاية لقضية مصر في إنجلترا وأوروبا ، لإسماع صوت الضحايا ، وصوت الشباب للعالم بأسرها ، وفي أيام قلائل كنت أحزم أمتعتي ، وفي أيام قلائل كنت مسافرا إلى أوروبا ، وفي نفسي إيمان بالله ، وفي جيوبى مائتان من الجنيهات ، لا تكاد تكفى نفقات لسفر واحد من أغنيائنا يرغب في النزهة ، ولقد جمعت هذه الجنيهات من اكتاب عام فتح على صفحات الجرائد ، وأقبل عليه الناس رويدا رويدا ، وهكذا سيطرت روح مصر الفتاة على الموقف ابتداء من المقدمة وتدرجا مع الحوادث ، فما كان انفجار ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ بحادث مقطوع الصلة بجهود مصر الفتاة ، ففي مثل هذا اليوم من عامين سابقين على هذا التاريخ ، أى في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ، قبض على لأول مرة وزج بى الى السجن عقابا على صرختى الأولى ، والتي كان عنوانها : « يا شباب عام ١٩٣٣ ، كن كشباب سنة ١٩١٩ ، كن كهذا الشباب الذى أشعل الثورة في وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة » فإذا كان الشباب قد لبى هذه الدعوة بعد عامين ، واتخذ شعارا لها ما أردت أن يكون له شعارا فإذا أستطيع أن أقول وأن أسجل ، إلا أن مصر الفتاة هي التي انتصرت في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

## سفر وفد جمعية مصر الفتاة

### إلى لندن وباريس وجنيف

١٢

تطورت الحوادث ، كما رأينا ، وشعرت الأمة بضرورة إرسال وفد للدعاية إلى أوروبا كما فعل مصطفى كامل وفريد من قبل ، وكما أوفدت مصر وفدها الكبير في سنة ١٩١٩ إلى مؤتمر الصلح لكي يدافع عن القضية المصرية أمام الرأي العام العالمي عامة ، والإنجليزى بصفة خاصة ، لإطلاعه على الحقائق ومدى الظلم والاستبداد الذى تنزله إنجلترا بشعب أعزل من كل سلاح ، وكيف تحول بينه وبين الحرية في الوقت الذى تشدق فيه بأنها نصيرة الحرية ورائدتها في الدنيا كلها .

أحست الأمة بالحاجة إلى قيام هذا الوفد ، وراحت الأحزاب القديمة ، وعلى رأسها الوفد ، تتناقش في كيفية تحقيق هذا الواجب وأظهرت كثيرا من التردد والإحجام عن تنفيذ المشروع ، بحجة أنه يحتاج إلى مال كثير قد يربو على بضع مئات من ألوف الجنيهات . فكانت هذه هي فرصة مصر الفتاة لتسطر صفحة جديدة من صفحات الجهاد بالاضطلاع بهذا الواجب الوطنى .

فقمت وزميلي الأستاذ فتحى رضوان بأكبر مغامرة قت بها في حياتى حتى اليوم ، لم يكن سلاحى فيها إلا الإيمان ، والإيمان أولا وأخيرا . فهذا المشروع الذى كان يحتاج إلى بضع مئات من الألوف ، في نظر أحزاب مصر ، نفذهنا نحن بما لا يتجاوز بضع عشرات من الجنيهات ..

وعندما غادرنا محطة العاصمة في طريقنا إلى لندن لم يكن في جعبتنا أكثر من مائة وعشرين جنيها . أو فوق ذلك بقليل جدا . وقد كان هذا يبدو لونا من ألوان الجنون أو العبث . أن يسافر شابان إلى عاصمة بلاد الإنجليز التى لم يسبق لهما أن زاراها من قبل ، وأن يكون سفرهما إليها في صميم فصل الشتاء . وأن تكون مهمتهما هي القيام بدعاية ضخمة عن القضية المصرية وتمثيل الشباب المصرى . أو بالأحرى الشعب المصرى

بأكمله ، وأن لا يكون لديها من المال للقيام بهذه المهمة إلا مبلغ تافه . وصغير جدا لا يكاد يكفي نفقات الطريق .

وسوف تمتنع دهشة إذا علمت فوق ذلك كله أن معرفتي باللغة الإنجليزية لم تكن تتجاوز ما يعرفه أحد طلاب المدارس الثانوية . بل إن عدم المران على استعمال اللغة الإنجليزية كاد أن ينسني هذا القسم الضئيل الذي تعلمته منها . ومع ذلك . وبالرغم من كل هذه الظروف مجتمعة . فقد جاءت الساعة التي احتشد فيها الشباب لوداعنا على محطة العاصمة . وقد خف رجلان من أكرم الرجال ليكونا في وداعنا على المحطة . وهما سعادة محمد علي علوية باشا والمرحوم محمد عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ . وقد كان وداعا حافلاً ورائعاً ألقى فيه الخطب والكلمات . وارتفعت نداءات أبناء مصر الفتاة في حماسة ارتجت لها أروقة المحطة وأرصفاتها . وكان آخر هتاف رددته هذه الجموع هو صرختي عند تحرك القطار :

« نريد الحياة - من حقنا الحياة - وسوف نتصر » .

وانطلق القطار بعد ذلك نحو عاصمة الانجليز وأبناء مصر الفتاة يهزجون نشيدهم المحبوب « اسلمى يا مصر » .

وبينا كان القطار يشق طريقة نحو الإسكندرية كان الشعب المصرى يطالع النداء الذى أذعته بمناسبة سفرى والذى أرى أن أثبتته بنصه للذكرى والتاريخ .



## من أحمد حسين إلى الشعب المصرى عهد وميثاق

### أيها الشعب المجيد ...

فى الساعة التى نخرم فيها أمتعتنا للسفر إلى عواصم أوروبا ، كما ندافع عن القضية المصرية أمام محكمة الرأى العام الدولى ، وفى الساعة التى نتحقق فيها قلوبنا لذكرى مغادرة الوطن العزيز الجريح ، أرى لزماً على أن أعاهد الأمة على برنامجى ، وأن أطلع الرأى العام على آمالى وغايتى .

لسنا ندعى أننا سنحصل على استقلال مصر ، وأنا سنحل القضية المصرية بمجرد ذهابنا إلى أوروبا ، ولأنا نجرؤ على القول بأننا سنعود إلى مصر وفى جعبتنا معاهدة تحقق المطالب المصرية والأمانى القومية .

لا .. لسنا ندعى شيئاً من ذلك فإن القضية المصرية ستحل هنا فى القاهرة وليس فى أوروبا ، ستحل القضية المصرية بأيدينا نحن المصريين وليس بأيدي الإنجليز ، ولا بأيدي أى نوع آخر من المخلوقات ، سوف تحل القضية المصرية عندما يؤمن المصريون بأنفسهم وقدرتهم على الكفاح والاستبسال فى سبيل النصر - سوف تحل القضية المصرية عندما يمتلئ المصريون بالعزم والجرأة والشجاعة ، عندما يسترخصون الحياة ، ويحتقرون المناصب ويطأون أعراض الحياة ، سوف تحل القضية المصرية عندما لا يهاب الشباب المصرى أعماق السجون ولا طلاقات الرصاص ، ولا صنوف الحرمان ، سوف تحل القضية المصرية عندما نقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص أمام العدو المشترك ، عندما نفهم دسائسه وأساليب استعماره ، وعندما نحتقر مؤامراته وصنوف اغرائه ، سوف تحل القضية المصرية عندما نعرف كيف نظهر أنفسنا ، ونصونها من العبث والإسراف فى الشهوات والملاذات ، عندما نتخلق بالأخلاق الحسنة ونعتق الثبات وتعلم الصبر ونصمد للشدائد ، سوف تحل القضية المصرية عندما نعرف كيف نقاطع كل دخيل ، وكل ما هو أجنبي ، وكيف لا نأكل إلا من طعام بلادنا ، وكيف لا نلبس إلا من صنع بلادنا ، ولا نخرم إلا ما كان مصرياً صميماً من أعماق المصريين ، سوف تحل القضية المصرية عندما نرفع الرؤوس افتخاراً واعتزازاً بقوميتنا ، وثقة واعتداداً بأنفسنا ، عندما يجب بعضنا بعضاً ونترك الحسد والبغضاء والحقد وتعلم التسامح والوفاء والاخلاص ، وأخيراً سوف تحل قضيتنا عندما نعرف كيف ننظم صفوفنا وكيف نعد أنفسنا بجيث نكون أقياء ، ونكون أقياء أولاً وأخيراً ، فالحياة صراع وجلاذ يتصر فيها القوى الصالح ويندحر فيها الضعيف الطالح ، لا تفاهم فى الحياة بين السيد والمسود ، لا تفاهم بين القوى والضعيف ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فقضيتنا ستحل بأيدينا نحن ، والاستقلال يؤخذ ولا يعطى ، والحرية تحيا بالدم ويقتلها الجبن والكسل والتفرق .

لا أيها الشباب المجيد ، لا يا سلالة الفراغة والعرب ، إنما أهيب بك أنت أن تحقق استقلالك وحريتك ، أهيب بك أنت أن ترغم الإنجليز على احترامك وصدقتك ، وإذا كنا نساfer اليوم كما نرفع الصوت عالياً في أنحاء العالمين بما يقع علينا من ظلم واعتداء ، فليس ذلك إلا سلاحاً من أسلحة الكفاح ، وليس هو كل سلاح .. إذا كنا نساfer فما ذلك إلا لنصرخ في وجه الإنجليز أن مصر لم تغفل عن حقوقها . ولنتطالب العالم المتمدين أن يكون منطقياً مع نفسه ومع موقفه في الحرب الحبشية الإيطالية فيعير مصر وقضيتها ما يستحقان من رعاية وعطف ، فإذا كانت الحبشة تستحق الحرية فإن مصر تستحق المجد ، إذا كانت دويلات العالم الصغيرة تتمتع بسيادتها الكاملة واستقلالها العتيد ، فإن مصر معلمة الإنسانية بأسرها !

مصر التي قادت الدنيا طوال مئات القرون .. مصر التي أخرجت الأديان جميعاً وحمت الأديان جميعاً .. ومجدتها جميع الكتب السماوية .. مصر التي حاربها الزمان فارتد وانهمز .. وحاربها الولايات والإحزب فخرجت مصر من المعركة ظافرة أشد مضاء وأكثر لمعانا ومجداً .. مصر التي قامت منذ نيف ومائة عام فهزت الدنيا هذا وشيدت إمبراطورية تزدى بالإمبراطوريات ! وأخيرا مصر التي تترجم الدول العربية اليوم وكعبة الإسلام ، من حقها أن تعيش سيادة نفسها .. من حقها أن ترفع الرأس عالية وأن تتبوأ مقعدها تحت الشمس فتكون كما كانت دائماً منارة وهدى للعالمين .

لا سلام للعالم إلا إذا أعطيت الشعوب الضعيفة حريتها .. لا توازن بين الأمم إلا إذا استقل كل شعب والويل ثم الويل لأوروبا إن لم ترحم الأمم الضعيفة وتتركها تعيش في سلام .

تلك هي الرسالة التي نحملها معنا لننسطها أمام العالم باسم مصر .. وسيستمع العالم لنا وسيشد أزرنا الكثيرون ، وهذا هو كل الذي نطمح فيه .

ونحن إذ نساfer من مصر لا ندرى ما الذي تحبته لنا الأقدار ، ولكن الذي نؤمن به أننا سنجاهد من أجل مصر حتى النفس الأخير ، سنجاهد من أجل مصر حتى ولو لم نجد القوات الذي نتبلغ به ، سنجاهد من أجل مصر وهذا عهد وهذا قسم أن نفنى من أجل مصر ومجدها ، وأن نكرس لها شبابنا وحياتنا وأرواحنا ، إنه لعهد ، وإنه لقسم ، أن نكون للمصريين جميعاً وليس لحزب من الأحزاب ، لا وليس لأشخاصنا ، إنه عهد ، وإنه لقسم ، أن نحب المصريين جميعاً ، وأن نخلص للمصريين جميعاً ، وأن نعجد المصريين جميعاً .

### أيها الشعب المصرى الخالد ...

إن أكن شاباً ، وإن أكن صغيراً ، إلا أن إيمانى وإخلاصى يجتزمان على أن أتوجه اليكم بهذا النداء في هذه الساعات العصيبة ، وهو أنه لن ينجينا إلا الائتلاف والائحاد . كونوا صفاً واحداً ، وليحب بعضكم بعضاً ، انسوا الخلافات والأحقاد ، تصافحوا وتعانقوا ، واسدلو ستارا على الماضي ، وأنظروا إلى النسر المخلق في الفضاء ، والذي يرفرف بأجنحته فتدوى في أنحاء العالمين .. إنها مصر .. مصر العزيزة الغالية .. إنها تناديكم أيها الأبناء انها تصرخ بكم أن تتصافحوا أيها الإخوان .

فاذا أنتم قائلون .. كأنى بكم وليس لكم إلا شعار واحد يهز الأرضين :  
المجد لمصر ، ومصر فوق الجميع !!

(انتهى)

\* \* \*

ما كانت هذه الصرخة الصادقة لتذهب مع الريح ، فلم يكذب يمضى على سفرنا بضعة أيام ، حتى تألفت الجبهة المنشودة ، واتحدت الأحزاب ، وعاد الدستور بالتالى فوراً ، وكان ذلك بدءاً موقفاً لهذه الرحلة الفذة فى تاريخ الكفاح المصرى .

وبارحت النيل ميناء الإسكندرية فى يوم الخميس ٥ من ديسمبر ، وكنا فى ابتداء شهر الصوم ، وقد آليت على نفسى أن لا أفطر فى المركب أو فى لندن ، إلا مضطراً ومكرهاً ، وبعد أن يحاط بى ويصبح لا مناص لى من الإفطار ، وأنا أعلم كل العلم أن الإسلام لا يطالب أتباعه بشيء من ذلك ، فقد أباح لهم الإفطار لمجرد السفر القريب فضلاً عن السفر البعيد الشاق ، ولقد أفطر الرسول صلوات الله عليه فى سفره ليكون ذلك سنة وقدوة للناس من بعده . ومع ذلك فقد شعرت بحاجتى إلى الصوم ، ورأيت فى ذلك أسلوباً من أساليب الاستعداد الروحى والنفسى . فقد كان إيمانى هو رأسمالى فى هذه الرحلة ، وكنت شديد الحرص على كل ما من شأنه تقوية إيمانى ، وليس هناك ما يقوى الإيمان أكثر من أن يشعر الإنسان أنه يتقرب إلى ربه بالتقشف والاحتفال والصبر .

وسارت الباخرة تشق مياه البحر الأبيض ، ولم يمض يوم على بدء رحلتنا حتى اكفهر الجو ، وأظلمت الدنيا وهاج البحر وماج ، وفتحت السماء أبواب أنهارها وبحارها ومحيطاتها ، وسارت النيل فى هذه المياه المتلاطمة من تحت ومن فوق ومن البين والشمال ، واعتراى الدوار فاستلقت على أحد الكراسى على ظهر المركب ، بالرغم من البرد القارس ، لأن ذلك كان هو السبيل الوحيد لكى أشعر بشيء من الراحة .

ووصلنا إلى مرسيليا أخيراً ومنها إلى باريس ، ولم نكد نصل إلى باريس ، ونحاول أن نستقر بها ، وأن نرسم خطة للعمل ، حتى جاءت الأنباء من مصر تعلن ائتلاف الأحزاب المصرية وتأليف الجبهة الوطنية ، وأن حكومة نسيم باشا ومن خلفها انجلترا لم يسعها إزاء ذلك إلا أن تخضع لمشيئة الأمة وأن تعلن عودة الدستور ، بعد أن سحب الإنجليز اعتراضهم على إرجاعه ، فلأنتنا هذه الأنباء بالقوة والحساسة وشجعتنا على المضى فى مغامرتنا وجهادنا ، أشد قوة وعزماً من ذى قبل ، فقررنا أن نساغر إلى لندن على الفور لنكافح من أجل الاستقلال بعد أن عاد الدستور .

## في عاصمة الإنجليز

١٣

وصلنا إلى عاصمة الإنجليز . فاستقبلتنا بضباها الكثيف وبردها القارس وثلجها الدائم . ووجدنا أنفسنا نزل من القطار إلى محطة فيكتوريا الشهيرة .

ثم لم نلبث أن استقر بنا المقام في أحد فنادق لندن . كأننا ذرة من الذرات بين رمال الصحراء أو قطرة من الماء وسط مياه المحيط . ولكن العلم الحديث قد أثبت أن هذه الذرة الصغيرة تنطوي على قوة كامنة جبارة تستطيع أن تدك الجبال وتذيب الحديد . وقد كان ذلك شأننا !! فبالرغم من ضآلة أجسادنا . وتفاهة ما في جيوبنا من مال . وبالرغم من وحدتنا في هذا الخضم البشري العظيم كانت قلوبنا عامرة بالإيمان . أو بالأحرى بهذه القوة الفتاكة الرهيبة التي تسيطر على الكون وتديره وتحركه .

وكان أول همنا أن نتصل بالدكتور مصطفى الوكيل الذي كان قد سبقنا إلى لندن مبعوثا من لدن وزارة المعارف للحصول على الدكتوراه في الرياضة البحتة من جامعة لندن . وقد كان الدكتور مصطفى صديقا حميما لنا وعضوا من أعضاء مصر الفتاة المخلصين . وأقول كان صديقا حميما وعضوا من أعضاء مصر الفتاة لأنني أتحدث عن التاريخ وأذكر الحوادث بترتيبها . لأن مصطفى الوكيل لم يلبث بعد ذلك أن أصبح كل شيء في مصر الفتاة . وكل شيء بالنسبة لي . لم يلبث مصطفى الوكيل أن صار أُملي في الكفاح والجهاد والحياة . لا بالنسبة لمصر الفتاة كحزب أو جماعة . ولكن بالنسبة لمصر كلها والعروبة . بل والشرق الإسلامي بأكمله .

قابلنا الدكتور مصطفى الوكيل . وانضم إلينا . وأصبحنا ثلاثة . وسرعان ما أثبت لنا الدكتور مصطفى أنه لم يكن فردا . بل كان جمعا . بل كان أمة بأسرها . وبدأ عمله كدليل لنا فنقلنا إلى فندق رخيص اختاره لنا قبل وصولنا . ولم يكن الفندق يكلف الواحد منا أكثر من أربعة جنيهات في الأسبوع تقريبا . فأطمأن خاطرنا من هذه الناحية . وكان علينا قبل أن نبدأ حديثنا مع الإنجليز . أن نتحدث إلى المصريين في بلاد الإنجليز . ليكونوا عوناً لنا فيما نحن بسبيله ولكي نتخذ منهم رداءً لنا في جهادنا وكفاحنا هناك فلم يكن بقدرتنا أن نخطو خطوة واحدة . إلا بعد أن نظمنا إليهم ويطمئنوا إلينا .

وفي ٢٠ ديسمبر . أى بعد خمسة عشر يوما من مغادرتنا للإسكندرية . استطعنا أن نعقد أول اجتماع لنا في عاصمة الإنجليز . لتحدث فيه إلى الطلاب المصريين . وقد أقيم الاجتماع في مطعم فلورنس . ورأسه ذلك المصرى الذى اتخذ من عاصمة الإنجليز وطنا ثانياً وهو الأستاذ قرياقص ميخائيل . وحضر الاجتماع عدد كبير من أعضاء البعثات المصرية في مختلف الجامعات الإنجليزية . بحيث أعتبر الاجتماع من أنجح الاجتماعات المصرية التى شهدتها عاصمة الانجليز .

وإليك نص خطابي الذى ألقيته في هذا الاجتماع . والذى يصور لك حالة مصر في هذه الأيام . وروح الكفاح التى كانت تغمرها . والإيمان الذى كان يعمر قلوبنا .

### إخواني الأعزاء

في كفاحي الطويل الذى بدأته منذ خمس سنوات . عندما ناديت بمشروع القرش وكنت طالبا في كلية الحقوق .. منذ ذلك الوقت الطويل أيها الإخوان ؛ لم يمض أسبوع دون أن ألقى خطابا .. بل قد لا يمضى يوم واحد لا أكون فيه وسط جماعة من الجماعات أشرح مبادئ مصر الفتاة . وأدعو لها . وأتكلم عن الوطنية وبرامجها . ولكن صدقوني إن اجتماعا من هذه الاجتماعات . لم يشعرني بخطورته . ولم يملأني هبة له إلا هذا الاجتماع . فما هو السر في ذلك . وما هو تعليقه ؟ لا شيء سوى أننا بعيدون عن الوطن العزيز . وأن بيننا وبينه ألوفا من الأميال . ما بين بر وبحر . وسهول وجبال . ولأننا نعيش في جو مكفهر بالعواصف . والثلوج . والأمطار . والضباب .. ولأننا نقيم في عاصمة الإمبراطورية الإنجليزية الضخمة التى جثنا نطالها بالحرية والاستقلال . فلا عجب إذا أحسنا ونحن في قلبها بشعور جديد يخالف هذا الذى اعتدناه .

الحق أيها الإخوان . أن لكل هذه العناصر أثرا إلى حد ما . في جعل هذا الاجتماع يمتاز عن مئات الاجتماعات التى نعقدها .. على أن العنصر المهم الذى يُكسب هذا الاجتماع خطورة . هو الأفراد الذين يتكون منهم . فقد اعتدنا في مصر أن نخطب بعض أفراد الشعب . وقد نضطر أنفسنا اضطرارا للهبوط إلى مستواهم في التفكير .. وقد نخطب شيوخا مفكرين من رجال السياسة . فتبرد عواطفنا . ونصطنع الحكمة والتدين اصطناعا . وأخيرا قد نخطب وسط شبان ثائرين . فتجرفنا حماسهم وتلقينا في لجة من الثورة . أما اجتماع الليلة . فقد جمع بين حماسة الشباب وتعقل الشيوخ وإيمان العامة . فكل قوى مصر المختلفة . تتركز فيكم أنتم أيها المجاهدون الذين جئتم إلى هنا لتقاسوا الحرمان . والأهوال من أجل تحقيق مثل أعلى لأنفسكم . ولأوطانكم أولا وأخيرا . ليس فيكم إلا من كان نابغة في فنه . فبحثت به الحكومة إلى هنا . أو مغامرا مقداما متطلعا للمعالي . فجاء من تلقاء نفسه . وأنتم تعيشون في بيئة خلقت المجد خلقا . تعيشون وسط شعب لا يملك الإنسان إلا أن يبدى إعجابه بمزايه العظيمة . بالرغم من كل ما بيننا من خصومة ونضال . فجمعتم بذلك بين نبوغ المصريين وعبقريتهم . ومزايه الإنجليز وصفاتهم العالية . ولهذا ستعودون إلينا لتكونوا قادة . ولتكونوا

زعماء . ولترفعوا في مصر بمستوى الإدارة والحكم . والسياسة والاقتصاد والأخلاق . وسوف تكونون نواة مصر الفتاة الحقبة التي تريد لمصر مجداً تضيق به الدنيا بأسرها ..

## ماذا تريدون أن تسمعوا

وبعد أيها الإخوان ماذا تريدون أن تسمعوا منا ؟ أتريدون أن أحدثكم عن بلادكم العزيزة ؟ قائلا إن النيل يجري عذبا رفقا تجري فوق صفحاته الزوارق كالأعلام ؟ وفي طياته الذهب والثروة .. ويحمل لمصر في كل عام الخصب والنماء والسعادة ؟ أى والله إنه كذلك .. وهل تشكون في النيل وفي وفائه .. وهل تشكون في النيل وفي عطفه . ونحن الذين نعيش في فيض كرمه وظل ثراه . منذ عشرات الألوف من السنين .. أم تريدونني أن أحدثكم عن السماء الصافية . والشمس المشرقة ؟ .. أم أحدثكم عن نسيم الأصيل الذي طالما أنعش أرواحكم ونفوسكم المتضجرة من حرارة النهار .. أم أحدثكم عن الأهرام الخالدة رمز الجهد والعظمة ، وناقوس اليقظة في كل عصر وأوان ؟ . أم أن أحدثكم عن بلادكم بلدا بلدا . وقرية قرية ؟ أم تريدون أن نتذكر سوا تاريخ مصطفى وفريد وسعد العظيم وثروت . ١٩ لا .. انكم لا تريدون أن تسمعوا مني حديثا في هذه الناحية . لا زهدا في الحديث ، ولكن لأنه حديث الأرواح ، والأرواح تتناجى بغير الكلام ، فإن مجرد وقوفي بينكم . وأنا القادم حديثا من مصر ، يعيد إلى ذاكرتكم كل هذه المناظر الحبيبة إلى نفوسكم . فيختار كل منكم ما يحلو له من ذكريات .. ويستلهم الخيال هذه الصورة التي يعشقها أكثر من غيرها . ونحن إليها حين الطفل إلى أمه .

## مصر العاصفة

أتريدون إذن أن أحدثكم عن مصر العاصفة ، التي تقرأون عنها في الجرائد ؟ مصر التي قامت شبابا وشيئا تدافع عن كرامتها المهذرة ، واستقلالها المجروح ؟ مصر التي التأت ساعة الخطر . فأدهشت الدنيا بأسرها . وجعلت الإنجليز يعملون لها حسابا وأى حساب ؟ مصر التي قام شبابها الغض يقابل الرصاص من جديد . ويهتف في أنفاسه الأخيرة « مصر فوق الجميع » ؟ شباب مصر الذي اندفع يوحد الصفوف وينظمها . ويعد أساليب الكفاح ؟ ولكنكم تطلبون الجرائد في كل يوم . وهي تحمل دائما عن مصر كل جديد وتطلبون الجرائد المصرية وهي تمدكم بكل تفصيل .. وماذا حدث في مصر غير ما يتوقعه أى واحد منكم ؟ ! يقول البعض إن ما حدث في مصر لم يكن متوقعا وأنه جاء مفاجئا .. ولكن هؤلاء الذين يعتقدون ذلك أخرى بهم ألا يكونوا مصريين . أو أن يكونوا جاهلين بتاريخ مصر . وهل كانت ثورة ١٩١٩ ثورة متوقعة ؟ ! هذه الثورة التي هزت إنجلترا هذا والتي أيقظت الشرق بأسره هل كانت متوقعة من قبل ؟ أو لم ينجح للإنجليز أنهم فرغوا من القضية المصرية . وأن الحماية التي كانت علاقة مؤقتة يجب أن تنظم بحيث تصبح علاقة دائمة . تمهيدا لضم مصر للتاج البريطاني .. ؟ ثورة سنة ١٩١٩ وما أدراكم ما هي أيها الإخوان . أو لم تتألف المظاهرات

من الوزراء والمستشارين ١٢ هل كانت انجلترا تتوقع ذلك ١٣ هل كان العالم بأسره يتوقع ذلك ١٤ لا .. ولكنها مصر الخالدة ذات الحيوية الكامنة (١) ..

هذه الحيوية الكامنة هي التي ثارت في الأيام الأخيرة عندما خيل للانجليز أن مصر لم تعد في عالم الحياة . وأنهم يستطيعون أن يتصرفوا بمصرها كما يشاء لهم الهوى . وأنهم يستطيعون أن يستردوا ما لمصر من حقوق كانوا هم أول من اعترفوا بها فيحولون بينها وبين الدستور . ويحولون بينها وبين أن تدافع عن نفسها .

### عدوان الإنجليز على مصر

خيل للإنجليز أن الشبان قد امتلأوا جبناً وفزعاً . وأنهم قد فرغوا إلى شهواتهم ، فإذا بهم يزأرون ويزجرون . وإذا بهم يستقبلون الرصاص ويكللون الأرض بدمائهم . ليسجلوا على الإنجليز العدوان والاستبداد .

وخيل للإنجليز أن الموظفين قد استناموا وحرصوا على مناصبهم . وعلى طعامهم . فإذا القضاة وأساتذة الجامعة في طليعة الثائرين الناقين .

وأخيرا خيل للإنجليز أن الهوة قد اتسعت بين المصريين فلن يتقابلوا أبداً وأنهم قد نجحوا في تمزيق الوحدة الوطنية . فإذا بالمصريين في عشية وضحاها يتقابلون بنعمة الله إخوانا وإذا بالنجاس وصدوق ومحمد محمود وحافظ رمضان وعلى الشمسي وعبد الفتاح يحيى يعلنون للملأ بأسره أن مصر تريد . وإذا أرادت مصر فإن إرداتها من إرادة الله . لأنها كانت دائماً الأرض المقدسة التي تحمل نعمة الإله .

هاجت مصر وماجت . ولم يكن هياجها كما خيل للإنجليز . أو لبعض المصريين ، من أجل دستور يرد أو من أجل وزارة تسقط ووزارة تجيء . ولكن مصر هاجت لأنها تريد استقلالاً كاملاً ، وحرية مطلقة . تريد أن تتمتع بحقوقها في الحياة في الوقت الذي يعلنون فيه حاجتهم للأثم الضعيفة وإحترامهم للعهود والمواثيق . وفي الوقت الذي يدافعون فيه عن سلامة الحبشة واستقلال الحبشة ، يطالبوننا بأن ننسى استقلالنا ونستخدمون أرضنا وهواءنا وأموالنا . من أجل الدفاع عن هذا الاستقلال .. ونحن . نحن أيها المواطنون ، أو ليس لنا استقلال نحن أيضا ١٢ . أو ليس لنا كرامة نحن أيضا ١٣ . فأية مهانة أكثر من أن يطلب منا أن ندوس كرامتنا كيما ندافع عن كرامة الآخرين !! أى مهزلة هي ، أن يطلب منا أن نترك أرضنا للاستعمار والاحتلال من أجل الدفاع عن استقلال الآخرين .

من ذلك الغير الذي يجيل له أن مصر ما كان يمكن أن تنور على هذه الأوضاع المقلوبة وتنتق ١٤

(١) كان الخطيب يستعرض في هذا الموضع صورا من الحيوية المصرية مأخوذة من تاريخ مصر وقد سبق سردها في أكثر من خطبة ماضية ولذلك فقد استغنى عن اثباتها هنا .

من ذلك الجاهل المفتون الذى يعتقد أن مصر لا تفهم ما يجرى حولها !! لم يكن عجيباً أيها الإخوان أن ثور مصر ، بل كان العجيب غير ذلك . لم يكن عجيباً أن يتمرّد المصريون بل كان العجيب أن لا يفعلوا ذلك . وهل يعوزكم الدليل على قوة المصريين وعلى شجاعتهم التى لا نظير لها فى الدنيا بأسرها .. هل تريدون الدليل الذى يجعلكم ترفعون رؤوسكم افتخاراً واعتزازاً بمصريتكم ؟ .. هذا هو الذى حدث فى مصر إنه أعظم برهان وخير دليل .. فقد وقعت الثورة فى مصر فى وقت تقود فيه إنجلترا العالم ، جاءت فى وقت يربط فيه الأسطول الإنجليزى بأسره فى ميناء الإسكندرية ، بينما كان يخيل للإنجليز أنهم يخيفون مصر بإرسال بارجة أو بارجتين ، فلما امتلأت مصر بالجنود البريطانية ، ولما وفدت الأساطيل الإنجليزية كلها إلى مصر ، قامت مصر تدافع عن كرامتها ، ولا سلاح لها إلا أن تموت من أجل حقها ، ولا سلاح لها إلا دم يجرى فى عروق أبنائها ناراً ، وهم على استعداد لإراقتهم من أجل بلادهم .

### انتصار مصر

ولقد هزت مصر إنجلترا هذا ، ولقد أخرجت مصر مركز إنجلترا إخراجاً ، ولقد اضطرت إنجلترا أن تراجع واضطرت إنجلترا أن تسحب اعتراضاتها ! وإذا كان المصريون هم أول من صاح « يسقط هور » فإنه لم تمض بضعة أيام على هذه الصيحة حتى سقط هور سريعاً ، ألم أقل لكم إن إرادة مصر من إرادة الله .

اتلقت الأحزاب فى مصر إذن ، وعاد الدستور بالتالى ، ووقفت مصر جبهة واحدة تطالب بالاستقلال الكامل وإلغاء الامتيازات وتعزيز الدفاع الوطنى والدخول إلى عصبة الأمم ، وسوف تدرك مصر كل هذه المطالب بالإيمان والعزيمة ، وسوف تدركها حتماً إن اليوم أو غدا .. سواء رضيت إنجلترا أو لم ترض .

### دور الشباب فى الحوادث المصرية

بقى أن نعرف من هو مؤسس هذه الحركة الأخيرة ، ومن هو مشعلها .بقى أن نعرف من هم الذين ظفروا لمصر بكل هذا الانتصار ، وكل هذا الريح . أهم رجال السياسة والحكمة واللياقة ، أم رجال الإيمان والتضحية والتهور .. إنهم الآخرون أيها السادة ، إنهم الشباب الذين قادوا الموقعة ، وانتصروا .. إنهم الشباب الذين أملوا إرادتهم فى مصر وإنجلترا ، فحق لنا الانتصار .. إنهم الشباب الذين ماتوا وهم يصرخون « مصر فوق الجميع » فهتافاً للشباب وإكباراً !

هذه حقيقة يجب أن تسجل كما نرسم برنامجنا على ضوءها ، هذه حقيقة يجب أن تستقر فى كل نفس كما نبني المستقبل على أساسها ، فالشباب اليوم هو كل شيء ، ولا نجاة لمصر إلا أن تسلم مقاليدها للشباب . والشباب هو وحده الذى لم تلوثه المظالم والشهوات ، وهو وحده الذى يرغب فى الجهاد من أجل الجهاد ، وهو وحده الذى يموت سعيداً مادامت آخر كلماته المجد لمصر . ومصر فى حاجة إلى كفاح طويل ، وتضحية ، وقوة ، والشباب هو وحده القادر على الكفاح ، لأن قناته



لم تزل صلبة ، وهو وحده القادر على التضحية ، لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه أو يحرص على اقتنائه ، لا أولاد ولا مناصب ولا رتب ولا جاه ، والشباب هو وحده الذى يقدر على القوة لأنه قوى بإيمانه ، وقوى بأعصابه ، وعضلاته ، وهو القادر لأنه فى كل يوم يزداد قوة بعكس الشيوخ الذين ينحدرون إلى هوة الفناء والضعف .

### مصر الفتاة والكفاح الجديد

وتلك هى مصر الفتاة أيها الإخوان .. إنها الشباب ، وإنها الكفاح والتضحية والقوة وهذه هى القواعد الثلاث التى تتركز عليها حركتنا الجديدة فقد انقضى الوقت الذى كان يجنل للمصريين أن كل ما يرونه هو استقلال محدود فى حدود الإمبراطورية البريطانية ، انقضى الوقت الذى كان يجنل فيه للمصريين أن قدرتهم على مجابهة الإمبراطورية الإنجليزية قدرة محدودة . وأتينا إن شئنا الاستقلال أو الحرية فلا سبيل لنا إلا الاستجداء والاستخذاء والتسحق بأعتاب الإنجليز .. لا ، أيها الإخوان ، لقد انقضى ذلك الوقت ، وقت الجهل والخمول ، فإن الاستجداء لا يليق إلا بالشحاذين لا بشعب عريق يريد الحياة ، والتسحق بالأعتاب والاستخذاء لا يليق إلا بالعبيد ، لا بشعب حر سوف يقود العالمين . ومتى كان الاستخذاء والضعف سبيلاً للحصول على الاستقلال ؟! متى كانت هذه هى أسلحة الجهاد والكفاح ؟! لا .. أيها السادة إنما ينال الحرية من يشتري الحرية ، والحرية تشتري بالدماء ، وينال الاستقلال من يحقق الاستقلال ، والاستقلال يُحقق بجلال الأعمال . أى دولة من دول أوروبا قد اشترت حريتها واستقلالها بغير الحديد والنار ؟ وبغير الدم والتضحية ؟؟

أما بولندة ، والتى تقاسمتها ثلاث دول عظام ، فقديماً قال عنها نابليون إن حدودها سترسم حيث يسيل الدم البولونى .

وأما ألمانيا ، فقد قال عنها بسمارك إن وحدتها ستحقق بالحديد والنار ، لا بمناقشات فى البرلمان .

وأما إيطاليا ، فقد كافحت وحاربت حتى انتصرت .

وأما تركيا ، فقد ظفرت عندما عرفت كيف تطرد الغاصب من بلادها .

فنحن أيضا لا سبيل لنا إلى الحرية والاستقلال ، إلا بأن نكافح ، وأن نقوى ، وأن نجاهد ، وأن نصحى ، وأن نعمل ، وهذا هو كفاح مصر الفتاة . نريد أن نحصل على حريتنا ، وأن لا نبخل بأى ثمن فى سبيل هذه الحرية . نريد أن نحصل على استقلالنا بأن نعمل فى كل يوم من أجل هذا الاستقلال . وذلك بأن نبني فى كل مكان ونعمل فى كل مكان .

### برنامجنا الإنشائى

وفى الميدان الاقتصادى ، نريد أن نحصل على استقلالنا الاقتصادى ، فلا نلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا نأكل إلا طعاما مصرى ، ولكى يتحقق ذلك نريد أن نشجع المصانع المصرية ، والصانع المصرى ونريد أن تؤسس الشركات والبنوك الصناعية لخلق المصانع . وفى الإجمال ، نريد أن نقضى على الأمية ، وأن نعلم الفلاحين ، وأن ندخل النور والسعادة إلى القرية المصرية ، وأن نعيد

بناءها . ونريد أن نصلح مناهج التعليم ، كما نخرج رجالاً وجنوداً عاملين ، وليس كما نفعل الآن نخرج متعطلين . ونريد أن نتطور بالزراعة ، وأن نضاعف كميات الأراضي المتزرعة ، وأن نستغل كنوز الثروة المصرية ، وأن نخرج من مصر الحديد ، وأن تولد الكهرباء . ونريد أن نشجع التأليف والاختراع والأبحاث ، وأن نجند الشعب في الميادين الرياضية . ونريد أن ننظم المدن المصرية من جديد ، وأن نُعوِّد الشعب النظافة ، ونريد أن نعيد السلام إلى الأسرة ، وأن نقوى دعائمها وأن نشجع الزواج .

وفي كلمة أيها الإخوان : نريد أن نبني استقلال مصر بأيدينا ، وعزائمنا ، ولكن دون تنفيذ هذا البرنامج وغيره عقبات وعقبات ، هي قيود الاستعمار والامتيازات ، وكل من الاستعمار والامتيازات يجب أن يُحطم سريعاً ، فلنسا نطبق بعد اليوم ، أن تكون إنجلترا محتلة لمصر ، وأن نرى في القاهرة والإسكندرية جنوداً إنجليزية ، تخترق الشوارع المصرية . ولنسا نطبق بعد اليوم ، أن نرى أجنبياً يرفع الرأس شاعراً بأجنبيته ، ويحتمي بالامتيازات والمحاکم المختلطة ، فلا أقل من أن يتساوى الأجنبي والمصري في بلاد المصري ، ويكون الأجنبي بذلك ممتازاً عنه في أى مكان آخر في الدنيا بأسرها حيث لا يتمتع الأجانب بحقوق الوطنيين . فالامتيازات يجب أن تلغى حالاً ، والمحاکم المختلطة يجب أن تدك من أساسها ، والاحتلال البريطاني ، وكل تدخل بريطاني في الشؤون المصرية الداخلية ، يجب أن ينتهى حالاً وأن يحل محل ذلك كله تعاون ودى صادق بين البلدين ، في شبه معاهدة دفاعية هجومية ، وبهذا يكسب الإنجليز صداقة المصريين ، وصداقة المصريين ليست بالشئ الذى يستهان به ، بل إنها ألزم للإمبراطورية الإنجليزية من كل قواتها في طريقها إلى الهند . لأن مصر إذا انضمت إلى أعداء إنجلترا ، في أى حرب قادمة ، فإن هذا معناه أكبر خطر يهدد إنجلترا .. وإذن فنحن نريد السلام بيننا وبين الإنجليز ، نريد التعاون والصداقة ، ولا تعاون ولا صداقة إلا إذا أُعطينا حريتنا كاملة ، وأطلقت أيدينا في استقلالنا ، وفي زيادة جيشنا ، بحيث يتناسب مع مطالب مصر والدفاع عنها .

## وسائلنا

هذه هي مصر الفتاة أيها السادة ، وهذا هو برنامجنا ، فإذا سألتموني وما هو الطريق الذى نسلكه للوصول إلى كل هذه الغايات ؟ فأني أجيبكم : إن الطريق هو الإيمان ثم العمل .

أما الإيمان فهو أن تؤمن بالله ، وأن تخلص له ، وأن نعتقد بقدرته ورعايته للمؤمنين فنستمد منه العون والتأييد فطوبى لهذا الذى يكون الله في عونه ، فالإيمان بالله هو رأس مال الكفاح ، لأن الذى لا خير فيه لخالفه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه .

ومن إيماننا بالله نستمد إيماننا بأنفسنا ، واحقيتنا في الحياة ، وماضيها الذهبي وحاضرنا الفتي ، ومستقبلنا المشرق .

طريقنا هو الإيمان ، فكل هؤلاء الذين حققوا استقلال بلادهم ، ومن قبلهم كل أولئك الرسل ، الذين حملوا للإنسانية مشعل النور ، لم يكن لهم من رأس مال إلا الإيمان . فالإيمان يفعل

المستحيل ، إنه يدك الجبال ويذيب الحديد . فإذا ما آمننا فسيصبح الإيمان العمل . والعمل والإيمان متلازمان دائما « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننصع أجر من أحسن عملا<sup>(١)</sup> » . والعمل الذي نعينه هو أن ننظم جموع الشباب في جماعات شبه عسكرية ، نخضع لتعاليم ونظم عسكرية ، نفهم معنى الجهاد وتدريب عليه ، وتنفيذ كل ما يلقي إليها من تعاليم هذه الجماعات المنظمة ، وما نسميها في جمعيتنا كتائب المجاهدين ، هي التي سوف تحقق استقلال مصر . لا بل وسوف تعيد بناء الإمبراطورية المصرية وترفع مصر فوق العالمين .

سوف نعيد بناء الإمبراطورية المصرية التي تألفت على مر الدهور ، والتي تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وترغم الإسلام .

### أسئلة ...

لا تسألوني : وكم عدد الأعضاء الذين انضموا إلى الجمعية ؟ وكم عدد الذين يلبسون الأقصة الخضراء ؟ وإلى أي مدى نجحتم في مصر ؟ لا تسألوني عن ذلك كله ، ولكن أسألوا انفسكم هل أنتم مستعدون أن تشاطرونا هذا الجهاد وأن تشاطرونا إيماننا أم لا ؟! هل تعملون وإيانا على بناء الاستقلال أم لا ؟!

### مهمتنا في لندن وفي أوروبا

بقي أن تسألوا سؤالاً واحداً وهو ما الذي نبغيه من حضورنا إلى هنا وما الذي فعلناه حتى الآن - وليس فيكم من لم يقنع من كل هذا الذي قدمته ، أننا أكثر الناس اقتناعاً بأن قضيتنا ستحل بأيدينا ، وستحل بجهودنا ، لا باستجداء الإنجليز والتمسح بأعتابهم - ولذلك فنحن لم نأت إلى هنا كيما نشحذ الاستقلال ، أو نتمسح بأعتاب أحد ، ولكننا جئنا ، بكل إخلاص ، لنعرض قضية مصر على الإنجليز . جئنا لنقول لهم ، إننا ونحن أكثر الناس تطرفاً في وجهة نظرهم ، ونحن أكثر الناس كفاحاً من أجل الاستقلال ، نستطيع أن نضيق أيدينا في أيديهم بإخلاص ، إذا ما احترموا استقلالنا وحررتنا - أما إذا لم يفعلوا ذلك ، فيجب أن يضعوا في حسابهم أن مصر بشبابها تعمل في كل يوم ، وتجاهد من أجل غايتها ، وهي سوف تحصل على هذه الغاية رغم أنف الجميع ، وعندئذ تشعر إنجلترا أنها قد أخطأت ، وأنها قد أساءت التصرف ، يوم لم تصغ لصوت التعاون والصدقة والحرية .

وأحمد الله أن كنت أنا وأخي فتحي أمينين على هذه الرسالة ، ففي أحاديثنا مع بعض النواب الإنجليز ، مثل ما في الكراسي التي نعددها للطبع ، مثل ما في خطاباتنا التي سوف نلقها على مسامع النواب المسئولين ، نتحدثنا ، وسوف نتحدث ، بهذه الصراحة التي حدثكم بها الآن وبوجهة النظر هذه . وكم يسعدني أن أقول لكم إن كل من حدثهم قد أحلوا محل الاعتبار .

(١) سورة الكهف .

وسوف نغادر لندن إلى جنيف عندما نرى أن وجودنا في لندن لم يعد مثمرا ، وسوف نغادر جنيف إلى مصر عندما نعرف أن وجودنا في جنيف لم يعد مثمرا ، وهذا هو كفاحنا أيها السادة ، لا نضيع دقيقة واحدة من حياتنا ، لا نستغلها من أجل كفاحنا . وليس هذا بعجيب لأن مبدأ مصر الفتاة يقول :

«حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت من أجل بلادك» .

وهذا ما نفعله بالليل والنهار ، وفي كل دقيقة ، أن نحاسب أنفسنا ماذا فعلنا من أجل بلادنا واستقلال بلادنا ، والله يوفقنا والله يرعانا .  
والحمد لمصر

### قرار المجتمعين

وعقب سماع هذا الخطاب قرر المجتمعون إرسال البرقية التالية لرئيس وزراء إنجلترا ووزير خارجيتها وزعماء أحزابها :

«الطلبة المصريون في جامعات إنجلترا الذين يرمزون إلى التعاون الودي بين الأمتين الإنجليزية والمصرية ، والمجتمعون بحضور الأستاذين أحمد حسين وفتحى رضوان مندوبى مصر الفتاة يلتمسون من الحكومة الإنجليزية أن تسرع بإجابة المطالب القومية ، بإبرام معاهدة التحالف بين البلدين ، وتعزيز الدفاع الوطنى ، والاعتراف بحقوق مصر الكاملة فى السودان وإنهاء الاحتلال ، وعدم الاعتراض على إلغاء الامتيازات والمحاکم المختلطة ، وبهذا تستطيع إنجلترا أن تكون واثقة من إخلاص المصريين ومعونتهم الصادقة المثمرة . تحية للإمبراطورية العظيمة والحمد لمصر .

## الكفاح في لندن

١٥

بدأ الفرسان الثلاثة يكافحون في لندن كفاحا مستميتا جبارا ، يفوق كل تصور أو خيال ، فقد كان على هؤلاء الثلاثة أن يهزوا عاصمة إمبراطورية ، وأن يحملوها على الشعور بهم ، والإحساس بوجودهم ، والاستماع بعد ذلك لقضيتهم . ولو أن زيارتنا لمدينة لندن كانت في ظروف عادية في خلال سكون الأحوال في مصر ، لما استطعنا أن نفعل قليلاً أو كثيراً ، ولكن يقظة الشعور في مصر ، وسقوط هؤلاء الشهداء من شباب مصر ، قد جعل كل انجليزى يلتفت نحو مصر ، فلا يكاد يسمع نبأ وجود وفد من شباب مصر حتى يتلهف على مقابله واستطلاع ما عنده من قول ..

ولذلك فقد شرعنا في كتابة عشرات من الخطابات إلى الشخصيات البارزة ، من رجال السياسة الإنجليز المشتغلين بالقضية المصرية ، نوابا ولوردات ، ورجال صحافة ، ولقد تلقينا الردود دائماً على خطاباتنا ، وهى تحدد لنا موعدا لمقابلة من نرجو مقابله . فقابلنا رؤساء تحرير الصحف جميعهم ، واستمعوا لما عندنا من بيانات ، وقابلنا السير جون واردلوملن رئيس اللجنة المصرية في البرلمان الإنجليزى ، والسير مردوك ماكدونالد النائب الإنجليزى ، وجرت لنا مع الرجلين أحاديث ومباحثات ، وقابلنا أحد اللوردات المشتغلين بالمسألة المصرية ، والمسائل الشرقية على العموم ، وهو اللورد لاميتجتون . ثم شرعنا في مقابلة زعماء المعارضة ، فقابلنا زعماء العمال الثلاثة أتلى ولانسبورى وجرينوود . وقد كان الميجر أتلى هو زعيم العمال البرلماني الرسمي ، والمستر لانسبورى هو زعيم حزب العمال المحبوب الذى يتمتع بأكبر شخصية شعبية في إنجلترا . وفي كل هذه المقابلات كنا نشرح وجهة نظر الشباب المصرى في حرارة وقوة ، فكان محدثونا لا يسعهم إلا أن يتأثروا بإخلاصنا ، وأن يُكبروا هذه الشجاعة والجرأة التى دفعتنا إلى المغامرة إلى بلاد الإنجليز ، بغير حول أو طول أوصفة رسمية ، لكى نحادث قادة الإنجليز .

وبدأ البرود الإنجليزى يذوب أمام حرارة الإيمان المصرى ، ففتحت لنا الأبواب . ودعنا إلى مختلف الاجتماعات ، على أن أعظم ما حصلنا عليه من نصر في هذه الفترة جزاءً وفاقا لما بذلناه من مجهود متواصل بالليل والنهار ، هو دعوتنا لشهود مؤتمر العمال

الاشتراكي في جامعة كازديف ، والتحدث فيه عن القضية المصرية . وقد كان الفضل الأكبر في تلقينا هذه الدعوة يعود إلى زميل مصرى ، هو الأستاذ محمد يحيى الذى كان شديد الصلة بحزب العمال فاستطاع أن يحصل لنا على هذه الدعوة الكريمة . ولعل من الطريف أن يعرف القراء أن طلاب جامعة لندن من الانجليز ، وفي جامعة كازديف كان يدعو بعضهم بعضا لسماح خطبنا بالإعلانات الآتية « شاب مصرى ممن يقتلون الانجليز في مصر يعرض القضية المصرية » « هل تريد أن تحيى طلبة الجامعة المصريين وأن تتلقى عنهم درساً في الشجاعة ومكافحة الظلم » . ولعل ذلك يعطى القارئ فكرة عن كيف استطاع الشباب المصرى في هذه الفترة أن يثير اهتمام شباب العالم كله وإعجابه .

وسافرنا إلى مدينة كازديف ، وحضرنا مؤتمر الطلبة الاشتراكيين الذى عقد في جامعة كازديف . ودعيت إلى الخطابة لأول مرة وسط الانجليز وكان جو البرود الذى يسود اجتماعهم قد ملأنى فرحاً ، من مواجهتهم بحرارة الشديدة ، فالانجليز يخطبون وهم يتشاءمون ، ويتكلمون وهم يغمغمون ، ولا يكاد الخطيب منهم يخرج يديه من جيوبه ، أو يكف عن مواصلة التدخين إبان خطابه ، وإذا كان ذلك هو حال الخطيب فتستطيع أن تتصور حال السامعين !!

والقوم هناك لا يبدون الاستحسان بالتصفيق !! وإنما يغمغمون بكلمة (اسمعوا ، اسمعوا) كعلامة على الرضا والتقدير !! فإذا اشتدت بهم الحماسة ، فقد يزدنون على ذلك أن يحكوا أقدامهم في الأرض ، هذا كل ما هناك .

وقد كنت مذ وطأت أقدامى أرض إنجلترا وأنا أتعلم الانجليزية ، فأطالع الجرائد كل صباح وأحفظ كل كلمة نافعة ومفيدة ، وأحاول أن أتكلم مع كل انجليزى في الشارع ، وأخيراً جعلتني المقابلات والمحادثات المتعددة مع الساسة الانجليز ، أعرف كيف أستعمل الكلمات اللازمة لشرح وجهة نظرى . وقد كنا قد أعددتنا الخطبة التى سألقياها في هذا الاجتماع ، وكنت سأتلوها من ورقة في جيبى ، ولكنى بعد أن حضرت هذا الاجتماع وشاهدت كيف تنال الأسئلة على المتحدث بعد أن يفرغ من إلقاء حديثه ، تهيب الموقف وترددت عن الكلام في هذا الجو الغريب . ولكن رئيس المؤتمر قطع على ترددى إذ أعلن الحاضرين أنه قد وفد إلى الاجتماع مندوبو الشباب المصرى وسيحدثوننا عن القضية المصرية في عشر دقائق .

ووجدت نفسى عند منصة الخطابة وعيون الانجليز تحديق بى من كل جانب فغلى الدم عروقى ، وامتلات بالإرادة والعزم أن أمثل الشباب المصرى فأحسن تمثيله وأن أتحدث

عن القضية المصرية فأجيد الحديث .. واندفعت أتلو الخطبة التي تلوته من قبل أكثر من عشر مرات ، ونسيت أنني في إنجلترا ، ولم ألق بالآل لأسلوب الإنجليز أو برود الإنجليز . وخطبت كما لو كنت أخطب الشباب المصري ، وارتفع صوتي مجلجلا في سماء المكان ، وأهويت على المائدة بقبضة يدي مؤكداً ما أقول من عبارات ، فإذا بالمعجزة تتم ، وإذا بالحضور يضجون بالتصفيق والتهليل ، وإذا بالاجتماع يتحول إلى اجتماع مصري شرقي يفيض بالحرارة والحماسة .

قلت للقوم « إن وقوفي بين أيديكم وأنا الذي أتمثل الشبان المتطرفين ... هؤلاء الذين يصيحون الآن في شوارع القاهرة « لتسقط إنجلترا » يدلکم على أننا لا نكره البريطانيين ولكننا نكره سياستهم القائمة على البطش والقوة وانتهاك الحقوق والوعود » . (عاصفة من التصفيق) « إني أقول لكم : إن مثل هذه السياسة لا يمكن أن تؤدي إلى النجاح لأنها سياسة غير طبيعية ، فالطبيعة لا تعتمد على التعسف والبطش ولكن تعتمد على التعاون والتآزر والتآخي . (تصفيق) ولقد سبقتكم امبراطوريات ، أذكر منها الإمبراطورية الرومانية وقد اعتمدت هذه الإمبراطورية على التعسف والبطش فإذا كانت نتيجةها ؟ كانت نتيجةها الزوال والانحلال هؤلاء الذين يتبعون نفس السياسة إنما يحفرون قبر إنجلترا بأيديهم ، والكلمة الآن لكم أيها الشبان وأيها العمال . فهل تريدون أن تنهار دولتكم كما انهارت قبلكم الدول التي سبقتكم أم تريدون الاحتفاظ بكيانكم .. إن ذلك يتوقف على سياستكم المستقبلية » .

أي والله هذا كلام قيل في وجه الإنجليز وفي عقر دارهم ، قيل في قوة وشجاعة فلم يتألك الإنجليز إلا أن يصفقوا وأن يؤيدوا ..

ومضيت في خطابي شارحا مطالب مصر وقضية مصر في إيجاز وانتهيت وسط عاصفة من التصفيق عند انتهاء العشر دقائق المحددة لي . ووقف المستر جرينود زعيم العمال الذي كان يشهد الاجتماع على أثرى قائلا « إن هذا التصفيق جزء مما يستحق خطيب الليلة الذي أهاج مشاعرنا وهز عواطفنا وإني لأعجب إذا كان هذا مبلغ تأثيره فينا نحن الإنجليز فكيف يكون مبلغ تأثيره في مواطنيه في مصر .

والآن أعلن باسمكم جميعاً وأبعث بتحياتنا إلى شبان مصر المجاهدين وأدعوكم إلى وضع قرار نبعث به للقاهرة ليعبر عن رأي شباب هذه المملكة في شباب مصر » . ودارت مناقشة حول القرارات المقترحة وأخيرا أصدر مؤتمر الطلبة الاشتراكيين البريطانيون العام المنعقد في جامعة كارديف في أوائل سنة ١٩٣٦ القرارات الآتية :

« إن هذا المؤتمر

- ١- يؤكد تأييده المطلق لكفاح الطلاب المصريين من أجل الدستور وحقوقهم في الاستقلال والانضمام إلى عصبة الأمم .
- ٢- يبدى استنكاره الشديد للأساليب التي يتبعها بعض الإنجليز في مصر لقمع المظاهرات .
- ٣- يؤيد حزب العمال بكل قوة كفاح المصريين » .

وقد وافق المجتمعون على هذه القرارات بالإجماع وسط التصفيق والتهليل وأرسلت صورها إلى جميع الجرائد الإنجليزية والمصرية فكان لها دوى منقطع النظير وشعر المصريون أن وفد مصر الفتاة قد بدأ يحصل للقضية المصرية على انتصارات رائعة في عاصمة الإنجليز .

## رسالة

قد وصلنا إلى إنجلترا ، وقد وضعنا نصب أعيننا أن نضع رسالة صغيرة عن القضية المصرية نبسط فيها وجهة نظرنا ، ثم نوزعها على الصحف وعلى رجال السياسة في كافة أنحاء الإمبراطورية ، وبينما كنا نزاوّل نشاطنا الذي شرحت لك طرفا منه فيما سبق ، كان العمل في إعداد هذه الرسالة يجري في نفس الوقت . ولقد اشتركنا ثلاثتنا ، الدكتور مصطفى الوكيل والأستاذ فتحى وأنا ، في وضع أصول هذه الرسالة باللغة العربية ، ثم عمد الدكتور مصطفى إلى ترجمتها باللغة الإنجليزية ، وعاوننا الأستاذ محمد نجيب - المصرى النابه الذى يعيش فى إنجلترا مشغلا بالصحافة - فى تركيزها وصيها فى قالب انجليزى محكم . وقد تم وضع الرسالة وعهد إلى إحدى المطابع بطبعها ، فأخرجت لنا بضعة آلاف على ما أذكر . وزعناها فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، فصادفت نجاحا عظيما وأثنى عليها كل من طالعها من حيث الشكل والموضوع . فقد أعجب الإنجليز بصياغتها الإنجليزية الرائعة ، وقد كان الفضل فى ذلك يرجع إلى الأستاذ محمد نجيب بطبيعة الحال ، كما أنهم أعجبوا بما تضمنته من حجج ، دفاعا عن القضية المصرية ، واستعراضا لمختلف أدوارها ، كما طالعوا فيها لأول مرة إيمان الجيل الجديد فى مصر ببلاده وكفاحه ، لا فى سبيل حريتها واستقلالها فحسب بل وفى سبيل مجدها وعظمتها أيضا .

وإنى أكتفى بإثبات القسم الأخير من هذه الرسالة ، وهو الذى تضمن مطالب مصر فى ذلك الوقت كما عبر عنها رأى العام . ويلاحظ عليه بطبيعة الحال الأسلوب الهادئ ، المدعم بالحجج ، وذلك أننا كنا نكتب للإنجليز ، ولا سبيل لحمل الإنجليز



على مطالعة مقال ما ، إلا إذا كتب بأسلوب خاص مركز تساق فيه الحجة على كل رأى يُبدى . وإليك الآن نص هذا الجزء الأخير من الرسالة :

### المطالب الوطنية

- ١ - تعاون حر ، وتحالف شريف بين مصر وإنجلترا .
  - ٢ - استقلال مصر التام ، وسيادتها الكاملة .
  - ٣ - إلغاء الامتيازات ، والمحاكم المختلطة .
  - ٤ - إلغاء إدارة الأمن العام الأوروبية .
  - ٥ - حق مصر في تقوية دفاعها طبق حاجاتها الضرورية ، وجعل التجنيد إجباريا .
  - ٦ - الاعتراف بحقوق مصر الكاملة في السودان . هذه هي المطالب التي تحتاجها مصر سريعا لاستكمال استقلالها وهذا ما جئنا نطالب به لمصلحة الطرفين مصر وإنجلترا .
- ومن الواضح أن تحقيق هذه المطالب لمصلحة مصر ، ولكن ما يحتاج إلى شيء من التفسير هو مصلحة إنجلترا في تحقيقها ، وهذا هو ما سأشرحه في الأسطر التالية .

### إنجلترا وإيطاليا

أما عن تقوية الجيش والتحالف الحر الشريف فتجلى أهميته من الأزمة الدولية الحالية ، فقد أثبتت الحرب الإيطالية الحبشية ، وأثبت النزاع الذي قام بين إيطاليا وإنجلترا حول مبادئ عصبة الأمم أن إيطاليا استطاعت أن تحشد على حدود مصر أكثر من مائة ألف جندي وأن تتبعهم بمائة ألف جندي آخرين وهكذا .. وإذن فإن البضعة آلاف جندي انجليزى في مصر يصبحون في مأزق حرج إذا ما قامت الحرب بين إنجلترا وإيطاليا ، ويصبح مركز إنجلترا الحرجى معلقا تماما على أسطولها الجوى والبحرى ، فإما أن يحصل على انتصار حرجى كامل في البحر والجو وبحول بين الايطاليين وبين التوغل في مصر ، وفي هذه الحالة تكون هذه البضعة آلاف جندي انجليزى في مصر زيادة عن الحاجة ولا عمل لها ، وإما أن يفشل الأسطول الجوى والبحرى في حيازة مصر بحيث تنساب اليها ألوف الايطاليين ، وعندئذ يصبح مصير الجيش الانجليزى في مصر معروفا منذ الآن ، وأعني به القضاء عن بكرة أبيه .

فالحد الفاصل اليوم مثل ما كان في القديم هو الأسطول الانجليزى في الهواء والماء وقدرته على العمل ، فإذا انتصر فلا حاجة لجيش الاحتلال ، وإذا انهزم فالويل لجيش الاحتلال . كل هذا يفرض أن مصر تبقى على الحياد .. ولكن مصر لا يمكن أن يكون ذلك موقفها مطلقا حيال حرب تقوم على أرضها وفي سمائها ، فهي إما أن تأخذ هذا الجانب أو ذاك ، ويتوقف على سياسة إنجلترا حيال مصر أى الجانبين تختار .

## موقف مصر إذا ما قامت الحرب

هل تقف إنجلترا بجانب مصر موقف الحليف الطبيعي ، فتحترم عهودها وتعترف لمصر بكل حقوقها ؟ واذن فإن على مصر أن تدافع عن كيانها واستقلالها ومصالح إنجلترا حليفها ، أو أن إنجلترا تحاول أن تقهر مصر وأن تسلبها حقوقها وأن تحطم سيادتها ؟ إذا كان الأمر كذلك فإن إنجلترا يجب أن تخرج من حسابها معونة مصر ، وأن تتوقع على الضد عداءها ، فهل تريد إنجلترا معونة مصر القوية دائما ، أو تريد أن تبقى في فرع دائم من الميدان المصرى ؟ الكلمة الآن لإنجلترا لتفصل فيها .

### الامتيازات

أما بالنسبة لإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ، فإن إلغائها لن يمس بأى حال من الأحوال مصلحة الإنجليزية ، بل على العكس يشد أزر مصر على التحرر من نير هذه الامتيازات ، وسوف تريح إنجلترا كثيراً في مصالحها الاقتصادية الخاصة في مصر ، فضلا عن أن مصر والمصريين لن ينسوا لإنجلترا هذه الخدمة الثمينة ، التي سيذكرونها دائما بالشكر والتقدير ..

والحق أنه ليس هناك اليوم في مصر ، ما يؤذى المشاعر الوطنية والكرامة الشخصية ، أكثر من وجود هذه الامتيازات والمحاكم المختلطة ، التي تعرقل كل تطور وكل إصلاح ، وتحطم كل مظهر من مظاهر السيادة .

فتحت ظل الامتيازات ، لا يدفع الأجانب في مصر شيئا من الضرائب على رؤوس أموالهم التي تقدر بمئات الملايين ، ولا على دخلهم منها ، بل إن البوليس المصرى لا يقدر على وقف أى مجرم ، ولا يمكن للمحاكم المصرية أن تتولى محاكمته . وتحت ظل الامتيازات تروج السموم البيضاء وتجارة الرقيق الأبيض والخمور والقمار .. وتحت ستار الامتيازات ترتكب كل صنوف الجرائم والدنايا .

والعامل .. العامل المصرى المنكود لا يمكن أن يحصل على حقوقه المشروعة ، لا يمكن أن ينظم نقاباته واتحاداته وأن تعترف بها الدولة بسبب هذه الامتيازات المقبولة .

### السودان

وإننا لنعود هنا لتكرار فائدة التعاون الودى بين المصريين والانجليز في السودان وأن إنجلترا ستريح من ورائه شيئا كثيرا .

وحق مصر في السودان لا يعنى مطلقا رغبة من رغبات الاستعمار أو الاستغلال ، لأن السودان كان دائما جزء لا يتجزأ من مصر .

والسودان مفتاح الحياة لمصر والمصريين . كل هذا مضاف إلى هذه الروابط العديدة التي تربط القطرين الشقيقين سواء في الدين ، أو اللغة ، أو الثقافة والعادات .

فإذا علمنا بعد ذلك كله ، أن السودان هو مخرج مصر الطبيعي إذا ما اكتظت بسكانها ، استطعنا أن نرى أنه من العتب المجادلة في حقوق مصر في السودان وأن فصل السودان عن مصر ليس معناه

وقف تطورها ونموها الطبيعي ، بل معناه تهديد كيانها بالذات .

ولكننا نسأل : أحق أنه من صالح السودان والسودانيين أن ينفصل السودان عن مصر ؟ لا يمكن أن يكون هناك إلا جواب واحد وهذا الجواب بالنفي .. فكما أن مصر لا تستطيع الحياة بدون السودان ، فكذلك السودان لا يستطيع الحياة بغير مصر ومعونة المصريين .

ولا أظن أن هناك واحدا من ساسة الانجليز يجهل أن مصر تدفع كل عام ٧٥٠٠٠٠٠ جنيه مصرى للسودان أى مقدار ما يساوى خمس ميزانية السودان بأسرها ، التى تناهز فى سنة ١٩٣٤ مبلغ ٣,٧٧٤,٩١١ جنيها ، وبغير هذه المعونة السنوية لا يمكن للحكومة السودانية أن توازن ميزانيتها بل أن تقوى على إدارة السودان .

والسودان فى حاجة إلى التطور والارتقاء فإن مساحاته الضخمة بغير سكان ، وأراضيه الزراعية لا تجد من يستغلها أو يحسن استغلالها . وليس هناك غير رؤوس الأموال المصرية والعامل المصرى من يقوى على سد هذا النقص ، وإفادة السودان وتحقيق رفاهيته .

وقد يكون من الحقائق التى يجهلها كثير من الإنجليز الذين يقدرون العهود والمواثيق والشرف البريطانى ، أن حقوق مصر فى إدارة السودان والإشراف عليه غير معترف بها فى الوقت الحاضر ، وأن القوات المصرية قد أُجليت عن السودان فى سنة ١٩٢٤ بناء على إنذار بريطانى ، وتحت الضغط البريطانى أُقيم سد من الحدود والجارك بين البلدين بحيث تدهورت التجارة بين القطرين .

وإذن فإن هذه السياسة يجب أن تتغير حالا ليس فقط لمصلحة مصر والسودان ، بل ولمصلحة إنجلترا أيضا ، فإن المصالح الإنجليزية والتجارة الإنجليزية لن تتشرب الا فى ظلال الصداقة والتعاون مع مصر .

### ما هو رأى مصر الفتاة ؟

والآن ما هو رأى الشباب فى مصر ؟ نحن فتیان مصر الفتاة نقول فى غير ما تردد : إننا نرغب من أعماق قلوبنا أن نرى البلدين مصر وإنجلترا متعاونين تعاوننا وديا صادقا ، فنحن المصريين ، كأفراد ، نعجب بالإنجليز وأخلاقهم وتقاليدهم ، وإننا لنضعهم فى مستوى أعلى من غيرهم من الدول .

### ما هو برنامجها ؟

ولا أستطيع أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أقول كلمة عن برنامجنا : فإن جمعية مصر الفتاة ، التى أنشرف برئاستها ، قد وضعت برنامجا وطنيا يعمل لإعادة بناء الأمة المصرية فى مختلف النواحي وبعث مجدها القديم .. فى الصناعة ، نريد أن نحصّر الصناعات ، ونريد أن نقضى على الأمية ، ونريد أن نصلح فى كل مكان ، نظام الأسرة ، والمدرسة ، والاجتماع ، نريد أن نشير كل معنوية المصريين وحويوتهم وإيمانهم ، ونريد أن نرفع مستوى العمال فى مصر وأن نوفر لهم معيشة طيبة وحياة هنية ، ونريد أن نعيد بناء القرية المصرية ، وأن نعطي الفلاح حقوقه المهضومة ، ونريد أن نكون

أحراراً في مجارنا ، وأرضنا ، وجونا ، وذلك كله لمصلحة العالم ومصلحة بريطانيا ، فكل تقدم سياسى لمصر وارتقاء أدبى لها فى العالم الإسلامى والشرقى ، يتيح لـانجلترا محالفة أضخم كتلة متحدة فى العالم ، وأعنى بها كتلة المسلمين ويضمن لها صداقتهم .

### مصر وانجلترا

هل يريد العامل الإنجليزى أن يكون حائلاً بين العامل المصرى وبين الارتقاء ، وأن يحيا كما يحيا العمال فى جميع أنحاء العالم ؟ وأن يتمتع بحقوقهم ؟! هل يريد الوطنى الإنجليزى ، مهما كان محافظاً ، أن يقسو على فلاحى مصر ، وأن يحول بينهم وبين الطعام والحياة ؟!

إذا كان لا يوجد الإنجليزى الذى يرغب فى ذلك ، فلتعترف إذا لنا انجلترا بحقوقنا وحررتنا ، ولتحترم استقلالنا .. فلتمد لنا يد الصداقة ، ولها أن تعتمد على إخلاصنا ..

أما إذا أثبت انجلترا إلا أن تستغل ضعفنا ، وتستخدم أساطيلها وأسلحتها ، فى قهر المصريين وإذلالهم ، فإنها لن تنجح فى كسر عزتنا .. ولن تقوى على تأخيرنا إلى الورا خطوة واحدة ، بل هى على العكس ، سوف تزيدنا إصراراً وعزماً ، وسوف تمنحنا قوة وإيماناً ، أما هى فسوف تنحسر كل شىء ، سوف تنحسر كل حب لها فى قلوب خمسة عشر مليوناً هم أفراد شعب كانوا وسيكونون دائماً أول من حمل رسالة الإنسانية رسالة العلم والعرفان .

«والمجد لمصر»

\* \* \*

وقد كان من آثار هذه الرسالة ونجاحها ، أن طلبت وكالة اليونيتدبريس التلغرافية حديثاً منى عن القضية المصرية وجهاد مصر الفتاة . فأدليت إليها بحديث مسهب تحدثت فيه عن مكانة مصر فى العالم ومجدها التاريخى وحققها فى استعادة مكانتها التقليدية كدولة حرة مستقلة زعيمة للعرب والمسلمين ، وركنا من أركان المجتمع الإنسانى المتحضر .

وقد نشر هذا الحديث فى أكثر من خمسمائة صحيفة فى سائر أنحاء أوروبا بمختلف اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية والسويدية والفلمنكية بل والروسية ، وظلت الجرائد التى نشرت الحديث ترد علينا بعد عودتنا إلى مصر ! . فكان يدهشنا إلى أبعد حد اتساع المدى الذى وصل إليه نشر هذا الحديث ، إذ لم يحدث أن ننجح حديث عن مصر مثل هذا النجاح من قبل .

### خطاب عام

وكان علينا بعد ذلك كله ، أن نواجه الشعب الإنجليزى فى خطاب عام يعلن عنه فى الصحف ، ويدعى إليه كل راغب فى الحضور ، وكنت متبهاً أشد التيب من هذا

الاجتماع ، فلم تكن لغتي الإنجليزية بالتى تسمح لى أن أرتجل الحديث ، وإذا كان من الممكن التغلب على هذه العقبة كما فعلت فى مؤتمر كارديف ، وذلك بالمطالعة من الورق ، فى المؤتمر المذكور لم توجه إلى أسئلة عقب إلقاء كلمتى لضيق الوقت ، أما عندما نكون نحن الداعين إلى الاجتماع ، وتكون القضية المصرية هى محور الاجتماع ، فلا بد أن تنهال على الأسئلة ، ولا بد أن أناقش وأن أستجوب ، وقد كان ذلك ما أخشاه كل الخشية ، ومع ذلك فقد كان لا بد من عقد الاجتماع ، بل والشروع فى عقد عدة اجتماعات ، تمشياً مع مقتضيات الدعاية اللازمة للقضية . ولذلك فقد توكلت على الله وأقدمت على عقد الاجتماع وفى نفسى عزم وإيمان ، أن أمثل مصر فأحسن تمثيلها ، وأن أدافع عن قضية بلادى فأجيد الدفاع .

ولابد لكل اجتماع فى إنجلترا من رئيس يشرف عليه ويقود المناقشات ، ويعرض فى ختام الاجتماع القرارات التى يراد الموافقة عليها ، ولم يكن باستطاعة المصريين الذين سبقونا فى الدعاية للقضية المصرية ، أن يحصلوا على شخصية مثل التى حصلنا عليها لرأس اجتماعنا ، ونعنى بها المستر لانسبورى وهو أحد زعماء الشعب الإنجليزى المحبوبين جداً ، زعيم حزب العمال عقب استقالة المستر ماكدونالد ، فكان ذلك آية النجاح الذى وصلنا إليه ووقفنا الله إلى إحرازه بفضل إخلاصنا وإيماننا .. واخترنا لعقد الاجتماع أحد صالات لندن المشهورة باجتماعاتها السياسية المحترمة ، وتدعى (كنجزواى هول) ووجهنا دعوة عامة للجمهور الإنجليزى ، لشهود الاجتماع ، وطبعنا بضع مئات من التذاكر وزعناها على رجال الصحافة والنواب والرجال المختارين .

وفى الموعد المحدد لإلقاء الخطاب ، اكتظت القاعة بالجمهور ، رجالاً ونساء . وكان الشبان المصريون فى طليعة الحضور بطبيعة الحال ، وقد جاءوا يشهدون كيف تعرض قضية مصر على الشعب الإنجليزى ، ويشدون أزرنا ويدعمون حجتنا .

وافتح الاجتماع المستر لانسبورى بخطاب طويل أيد فيه المطالب الوطنى المصرية ، وقد نشرت جميع صحف حزب العمال الإنجليزى تصريحات المستر لانسبورى لأهميتها وخطورتها ، فكان لذلك أكبر الأثر فى توجيه الحكومة الإنجليزية .

وأعقب المستر لانسبورى الأستاذ فتحى رضوان فألقى خطاباً عرض فيه للنهضة المصرية ، ومظاهر التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، ورسم الخطوط الأساسية لبرنامج مصر الفتاة الإنشائى والتعميرى .

ثم دعيت إلى الخطابة ، فألقيت خطابى العام الأول والأخير ، للشعب الإنجليزى فى

ذلك الوقت ، فإن الحوادث تطورت سريعا بعد ذلك بحيث أغتنتا عن مواصلة عقد هذه الاجتماعات .

ولست أرى ضرورة لإثبات نص هذا الخطاب لأنه لا يخرج في معناه عن كل ما سبق ، وإنما الشيء الذى أحسب أن كل قارئ متشوق إلى معرفته ، وهو الجدير بالتسجيل للذكرى والتاريخ ، هو ذلك التوفيق العظيم الذى صحبني في هذه الليلة ، فقد وقف المستر جورج لانسبورى عقب إلقاء خطابي وقال : «كم كنت أتمنى أن يكون هذا الخطاب الذى سمعناه الليلة من الأستاذ أحمد حسين ، قد ألقى في البرلمان الإنجليزى ، ليدرك الأعضاء كيف يجيد غير الإنجليز نطق لغتهم والخطابة بها ، وكيف تمتنى نفوس أبناء مصر بالإيمان بالحرية والاستقلال ، حتى تمكنوا من الوقوف في صميم عاصمة الإنجليز مثل هذه المواقف الرائعة » .

ثم فتح المستر لانسبورى باب المناقشة ، ووجهت إلى الأسئلة ، فإذا بي أجيب عليها في قوة وحرارة ! . وإذا بالأكف ترتفع بالتصفيق لهذه الإجابات القوية السديدة المفحمة ، ولعل أصدقائى المقربين جدا كانوا أكثر الناس دهشة لذلك الموقف ، وهم يعرفون مقدار تهيبى وترددى في مواجهة هذا الموقف من قبل ، خوفا من أن تخوننى قدرتى على الارتجال باللغة الإنجليزية ! .. ولكنها الضرورة وساعة الخطر وما تبعته في النفس من قوة واقتدار ... ولكنه الإيمان .

وقد قرر المجتمعون إصدار قرار يؤيدون فيه مطالب مصر القومية ويدعون الحكومة الإنجليزية للدخول في مفاوضات سريعة مع مصر لتحقيق هذه المطالب وقد نشرت الصحف الإنجليزية ذلك القرار .

\* \* \*

كان النجاح الذى صادفناه في هذا الاجتماع ، باعثا للتفكير في عقد اجتماع آخر في إحدى قاعات البرلمان الإنجليزى ، لكى يتسنى لفريق من النواب الإنجليز أن يشهدوه ، وقد وافق المستر لانسبورى على الاقتراح مغتبطا ، لأنه كان أول من أثاره وأظهر استعداداه للإشراف على تنظيم الاجتماع والدعوة إليه .

ولكن نظرا لغياب أعضاء المجلس بمناسبة إجازة رأس السنة ، وعدم عودتهم إلى لندن إلا بعد الأسبوع الأول من فبراير ، كان لا بد من الانتظار ثلاثة أسابيع قبل التمكن من عقد الاجتماع ، فأربنا أن ننتفع بهذه الفترة بالعمل في ميدان آخر . ولما كان من

برنامجي أن أسافر إلى جنيف مقر عصبة الأمم لأدعو في ذلك الميدان الدول لقضية مصر .  
وحقها في الانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة ، بغير حاجة إلى إذن  
الإنجليز أو تصريح بانضمامها ، فقد رأيت أن أنتهز فرصة عطلة البرلمان الإنجليزي لكي  
أسرع إلى جنيف . حيث كان مجلس العصبة يوشك على الانعقاد للنظر في المشكلة  
الحبشية وغيرها .

وفي مساء ١٨ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة الثامنة مساء ، بارحت أنا والأستاذ فتحى  
محطة فنكوريا ، وكان في وداعنا الدكتور مصطفى الوكيل ونفر من إخواننا وزملائنا  
المصريين . وعندما وصلنا إلى باريس ، قرر الأستاذ فتحى أن يعود إلى القاهرة ،  
فواصلت السفر بمفردى إلى سويسرا تنفيذا لبرنامجنا ، وإتماما للخطة الموضوعية .

### الكفاح في جنيف

ولم لا أسميه كفاحا ؟ وقد كان كفاحا مستميتا لا ينقصه عنصر من عناصر الكفاح ؟  
هو كفاح ضد البرود وضد الإهمال ، وضد الضجيج والدوى الذى كانت تحدته القضايا  
الكبرى . هو كفاح ضد الفقر والحاجة وقلة الأنصار والأعوان ، وأخيرا هو كفاح  
الغريب الفقير الصغير ، عندما يحاول في زحمة الدنيا أن يرفع رأسه ، وأن ينصب قامته  
وأن يثبت وجوده ، ويرغم الدنيا على الإنصات له .

وصلت إلى جنيف ، وهى هائجة مأتجة ، بمناسبة انعقاد مجلس عصبة الأمم الذى  
سيبحث المشكلة الإيطالية الحبشية ، وليصدر فيها قرارا حاسما بإنزال العقوبات على  
إيطاليا ، التى ترغى وتزبد وتهدد وتتوعد ... وكانت الأعصاب متوترة ، هلى تتفاقم  
الأزمة فتقع الحرب العالمية الثانية أم تمر العاصفة فى سلام ؟ فى ذلك الجو وصلت إلى  
جنيف ، ولم أكن أعرف بها أحدا ، ألجأ إليه أو أستعين به سوى الأستاذ على الغايانى ،  
صاحب جريدة منبر الشرق ، الذى كان يقيم فى سويسرا منذ بضعة عشر عاما ، وقد  
اتخذها موطنًا ثانيا له ، واستقر فيها يرفع لواء القضية المصرية ، وقضايا الأمم الشرقية  
كلها . لم يكن بينى وبين المجاهد القديم سابق معرفة ، ولكنى كتبت له من لندن أن يحجز  
لى غرفة ، وأن يتوقع وصولى ، ولقد استقبلنى الرجل فأحسن استقبالى ، وأكرم  
مثنوى ، وعرفنى بالمصريين القلائل الذين يعيشون فى جنيف ، وعلى رأسهم المجاهد  
الصادق الدكتور زكى على ، وأعلننى الأستاذ على الغايانى أنه يضع نفسه وتجربته  
وحجده ، فى خدمة المهمة التى جئت من أجلها ، وهى الدعاية للقضية المصرية التى  
وق عليها حياته .

وبدا يعرفني إلى الصحفيين ويجمعني وإياهم كى أحدثهم عن مهمتى ، وهى وجوب ضم مصر إلى عصبة الأمم ، وأن يكون ذلك بقرار من المجلس ، وبدأت الصحف تنشر الأحاديث نقلاً عني ، وقد أفادنى حديث شركة اليونانيتدبريس ، الذى وزعته من لندن ، فقد جعل شخصيتى معروفة لدى جميع الصحفيين ، كما أن شخصية الأستاذ على الغاياتى ومكانته فى جنيف ، قد ساعدت على إفساح المجال لى ، فلم يكذب يوم دون أن تعرض الجرائد لقضية مصر وفق الوجهة التى أدعوا لها .

وقد كان برنامجى فى جنيف ، أن أقدم للسكرتير العام لعصبة الأمم مذكرة باسم الشعب المصرى ، أقرر فيها حق مصر فى الانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة كاملة ، وأهيب فيها بمجلس العصبة أن يتولى دعوة مصر بالذات إلى الانضمام إلى العصبة .

وكان الدكتور وحيد رافت ، أستاذنا بكلية الحقوق ، قد زودنى قبل سفرى بمذكرة شافية فى هذا الموضوع ، فاتخذتها أساساً للمذكرة النهائية التى تقدمت بها إلى السكرتير العام لعصبة الأمم ، وقد قام الدكتور زكى على بترجمة المذكرة إلى الفرنسية . ثم أعمل فيها الأستاذ على الغاياتى قلمه مهذباً ومصححاً ومختزلاً ، حتى انتهى بنا الأمر إلى مذكرة جليلة من الناحية الشكلية - والموضوعية ، وفى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٣٦ ذهبت أنا والأستاذ على الغاياتى إلى مقر عصبة الأمم ، حيث قدمنا مذكرتنا إلى السكرتير العام ، ووزعنا بعد ذلك نسخاً منها على خمسمائة صحفى يعملون فى أروقة عصبة الأمم . فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كانت الصحف فى جميع أنحاء العالم تتحدث عن مذكرة مصر التى قدمتها إلى عصبة الأمم ، وقد كان ذلك آخر ما يمكن أن أطمع فيه من نجاح وتوفيق ، بحيث لم أر موجبا لإطالة إقامتى فى جنيف ، فاعتزمت العودة من جديد إلى لندن لاستئناف الكفاح والجهاد بها وعقد هذا الاجتماع المنشود فى البرلمان الإنجليزى ... ولكنه لم تمض أيام قليلة حتى كنت أشد الرجال لا إلى لندن من جديد ولكن إلى القاهرة ... إلى مصر العزيزة .



## النجاح فالعودة

- ١٥ -

سقوط وزارة نسيم - تأليف وزارة على ماهر  
الشروع في المفاوضات بين مصر وإنجلترا

سافرت من مصر وهى مكبله مقيدة بحكم ديكتاتورى على رأسه توفيق نسيم باشا ، ذلك الرجل الذى لم ينقصه إلا القليل لكى يصاب بالحرف ، وكانت ثورة الشباب على أشدها فى طلب الحرية والاستقلال . ولا سبيل لذلك إلا باتحاد الأحزاب ، وتأليف جبهة موحدة ، وعودة الدستور ولقد أشرت فيما سبق أننى لم أكد أبرح مصر حتى اتحدت الأحزاب ، وعاد الدستور ، وفى إبان مقامى فى جنيف ، جاءت الأنباء المثيرة من مصر تتحدث عن سقوط وزارة نسيم باشا ، وتأليف وزارة على ماهر وباشا وإعلان إنجلترا استعدادها للدخول فى مفاوضات لحل القضية المصرية وتدعيم استقلال مصر .

وإذن فقد تحققت كل الأغراض التى قام الشباب قومته من أجلها .. وسقط الطاغية ، وعاد الدستور ، واتحدت الأحزاب ، وبدأت المفاوضات من أجل الاستقلال ، فلم يبق أمامى إلا أن أسرع إلى مصر لأستأنف العمل والجهد فى داخل البلاد ، لإنجاح هذه المفاوضات التى اتخذت القاهرة محلاً لها . ولذلك فقد حزمت أمتعتى على عجل وبعثت إلى الجرائد المصرية بالنداء التالى فنشرته جميعها فى أغزر صفحاتها :

### نداء إلى الشباب والشعب المجيد

بدموع الفرح تلقيت هذا النبأ ، نبأ الشروع فى إتمام المفاوضات مع إنجلترا ، وحل القضية المصرية ، فإن هذا هو ما يتمناه كل مصرى ، وهذا ما سعى من أجله فى عاصمة الانجليز وإذن فلم يعد أمامى إلا أن أعود إلى بلادى ، ساجداً لله شكراً أن وفقنى للقيام بواجبى ، لقد كان عهداً أن أدافع عن قضيتها فى كل مكان ، وأحمد الله أن كفاح مصر بأسرها ، قد آتى ثماره .

إلى مصر إذن .. إلى مصر الحبيبة العزيزة الغالية .. إلى مصر المقدسة الخالدة .. إلى المياه العذبة والسماء الصافية ، ووداعاً أيها الغرب المكهرب الملبد بالغيوم .. وداعاً أيها الرعود والتلوج والظلام .. وداعاً أيها الطبيعة القاسية ، التى علمت الانسان كيف يقسو على أخيه الانسان . ولكنى إذ أبارح هذه البلاد ، وأقرب من الوطن العزيز أبعث بندائى إلى شباب مصر ، ومن الأسكندرية حتى أقاصى

السودان .. لقد عملت باسمكم ، وتكلّمت بصوتكم ، وإذا كانت مصر قد استعادت دستورها ، فلقد اعدتموه بدمائكم .. وغداً عندما تحقق مصر استقلالها ، فستكونون قد دفعتم ثمن ذلك أجسادكم . أنتم الذين بعثتم روح مصر ، وأنتم الذين ستسهرن على حراستها ، أنتم الذين أوقدتم الجذوة ، وأنتم الذين ستعملون على إذكائها . لا فضل لأحد عليكم ، فأنتم القادة . هذا هو شعارى وهذا هو كفاحى المقبل باسم الشباب ويجهود الشباب . سوف نبني مصر الحديثة ، وسوف نشيد استقلالها ، وسوف ننسج مجدداً ، فهلموا جميعاً إلى راية مصر صفّاً واحداً ، وصوتاً واحداً واهتفوا من أعماق قلوبكم : «مصر فوق الجميع» .

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

\* \* \*

وأخيراً عدت إلى مصر التي أحبتها الحب كله ، والتي كرست حياتي على العمل من أجلها .

ولقد كان استقبالي رائعا ، ذلك الذي استقبلت به مذ وطأت أقدامى أرض الوطن المقدس ، فعلى رصيف الميناء مثل ما في محطات السكة الحديد من الإسكندرية حتى القاهرة ، كانت كلها تغص بمئات من أنصار الجمعية وجنودها ، وكانت الأفصة الخضراء تشرق لأول مرة بلونها الجميل البراق وقد ازدهرت وتكاثر عددها ، فلم أتمالك نفسى من أن أذرف دموع الفرح والشكر لله ، الذى كلل جهادى بهذا النجاح ، وأعادنى إلى مصر سالما غانما ، لأرى هؤلاء الذين أحبهم ويحبونى ، ويسعدنى الكفاح فى صفوفهم من أجل حريتهم واستقلالهم .

وكان فرع الحزب فى الاسكندرية قد أعد لى اجتماعا حافلا لأخاطب فيه بمجرد وصول السفينة إلى الميناء ونزولى منها ، ووزعت ألوف من رقاع الدعوة إلى هذا الاجتماع بمسرح ديانا ، فى الساعة الخامسة من اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ ، وقد نجح الاجتماع والاحتفال نجاحا منقطع النظير ، ونشرت جميع الصحف ملخصاً وافياً لخطابى . وقد سافرت بعد ذلك إلى القاهرة ، وقد شاء الحظ الحسن أن تسقط وزارة نسيب باشا فى هذه الفترة ، وأن تتألف وزارة على باشا ماهر ، وهو رجل صديق لمصر الفتاة ، وكان من بين وزرائه سعادة محمد على علوية باشا ، الذى طالما حضر اجتماعات مصر الفتاة ، وأعانها ببعض أمواله ، بل والذى كان على رأس الذين ودعوني بالمحطة عند سفرنا إلى لندن . فلا عجب إذا أطلقت الحرية لمصر الفتاة ، فصرح لها بعقد هذا الاجتماع فى الأسكندرية ، ولم يتدخل البوليس فى الاستقبال الذى أعد لى فى محطة

القاهرة . فكانت مظاهرة منقطعة النظير ، لم يسبق لمصر الفتاة أن شهدت من قبل ، وكان ذلك آية النجاح والكفاح الذى وصلنا إليه ، بعد هذه الثلاث السنوات من الكفاح المتصل الصادق بالليل والنهار ، فى مصر وخارج الحدود ، شرقا وغربا .

ولقد أقيم اجتماع ثان بدار مصر الفتاة ، بمجرد وصولي من المحطة ، وأقيم بعد ذلك اجتماع ثالث فى مسرح برنتانيا ، وألقيت فى كل هذه الاجتماعات خطبا مستفيضة عن رحلتى ومهمتى فى أوروبا ، وليس يتسع المجال لإثبات كل هذه الخطب ، فأجترئ بنشر خطاب الأسكندرية ، الذى دعوت فيه إلى وجوب المحافظة على الجبهة الوطنية ، والاتحاد بين الأحزاب ، وناديت بوجوب إدخال مصر إلى عصبة الأمم بالفعل ، فكان حقا واقعا ما اعتبر خيالا جامحا ، عند تقديمي مذكرة انضمام مصر إلى العصبة .

وهكذا يشاء الله سبحانه وتعالى أن لا ندعو إلى دعوة ، أو نتجه إلى وجهة معينة ، إلا وتحققها الأيام والحوادث ، وهو الأمر الذى يضاعف دائما أبدا فى ثقتنا بكفاحنا ، وأتينا لا شك . واصلون إلى كل ما نريد ونعتزم تحقيقه .

## خطبة الأستاذ أحمد حسين

### فى اجتماع ديانا بالأسكندرية

أيها السادة ...

مها كنا نعد أنفسنا جنودا مكافحين - فى حالة كفاح دائم ! - مها كان يجب أن نكون على استعداد دائم لحوض المعركة فى أى لحظة وفى أى ساعة ، مها كنا ومها كان هذا مذهبنا ، فصديقى ، إن أصحابي كانوا قساة على يوم أن أعدوا هذا الاجتماع لأخطب فيه بعد ساعات من وصولي إلى هذا القطر العزيز . وأرى أنهم ليسوا قساة إذ لم يتركوا لى الوقت الكافى لأستريح من وعناء السفر ، لأن الله ، وله الحمد ، جعل لنا مراكب مصرية لا نعرف فيها وعناء السفر . وصديقى أننى أمضيت أيام البحر فى أكل ونوم وراحة . وإذن فقد صار حتما على أن أنزل إلى ميدان العمل بمجرد نزولى ، وإذن فهم ليسوا قساة من هذه الناحية . لا وليسوا قساة لأنهم لم يفسحوا لى الوقت لأتمتع . فى هدوء بأرض الوطن ، ولأشرب من ماء النيل العذب . ولأستنشق هواء مصر العليل . فقد تمتعت بأرض الوطن ، وقد شربت ماء النيل . واستنشقت عبير مصر . منذ وطأت أقدامى أرض الباخرة . وبارك الله فى طلعت حرب الذى نقل لنا النيل فى مرسلينا . ولكنكم ستشعرون معى بقسوتهم عندما تلاحظون أنهم لم يتركوا لى الوقت الكافى لأطلع الصحف ، لم يتركوا لى الوقت الكافى لأعرف مجرى الأمور السياسية ولأوازن بين المسائل المختلفة ، حتى إذا تحدثت جاء حديثي

منطقاً على الساعة الراهنة وما يجب أن يكون .. ولكنهم فعلوا ووضعوني أمام الأمر الواقع ، وهأنذا بين أيديكم لأخطبكم .

### أنباء مصر ...

هل تعرفون من المشغول عن هذه الحالة ، إنه أخى فتحى ، فلولاه لأشفقوا علىّ قليلاً ولقدروا ضرورة اطلاعى على أحوال مصر . ولكنه .. وقد كان معى ، حتى أيام قليلة ماضية ، فهو لا يمكن أن يتخذ مثلكم ومثل أصدقائى . ولا يمكن أن يجابه بهذا الاعتراض الذى قدمته ، بل سيأدر بالقول إننا فى أوروبا كنا نطالع أخبار مصر يوماً بعد يوم ، وساعة بساعة ، وكنا نطالعها فى الجرائد ، ونسمعها فى الراديو . وكنا نطالعها بالتفصيل بعد أيام قليلة واذن فلا عذر لى من ناحية - وهذا حق - ولولا هذا لما قبلت بأى حال من الأحوال أن أخطبكم الليلة . فلعله يدهشكم - أو لعله يسعدكم - أننا فى أى مكان من أمكنة أوروبا ، فى باريس ولندن وجنيف ، لا بل فى أصغر قرية ، وفوق قمم الجبال ، كنا نطالع أخبار مصر ونسمعها وربما قبل أن يطالعها سكان الصعيد ا . وإنى لأذهب أبعد من ذلك فأقول ما سوف لا تصدقونه ، وأعنى به أننا نسمع بعض الأخبار قبل أن يسمعها من فى القاهرة أنفسهم . فى مصر لا تصدر الجرائد إلا فى الصباح وفى الساعة الثالثة وما بين هذين الميعادين مجهول . أما فى أوروبا فى كل ساعة ، وفى كل نصف ساعة ، تصدر جريدة جديدة تحمل بالتلغراف آخر أنباء مصر ، وفى أظهر الأماكن وفى أكثرها احتراماً ، إنها لظاهرة بدية أياها السادة ، بل إنها لظاهرة تملؤنا أملاً وإيماناً وتزيدنا عزمًا على عزم . فقد بدأت مصر تحتل مركزها فى العالم الدولى كأمة حية ناهضة ، لما كل مظاهر الحياة ، وحقوق الأحياء كما يفهمونها . بدأت مصر تحت تأثير حوادثها الأخيرة تفرغ أسماع العالم بشدة ، وتذكر العالمين أن على ضفاف النيل شعباً جديراً بالحياة والجد مسلوب الحقوق . مهدد الحرية ، وقد حانت الساعة التى يرفع فيها هذا الظلم ، وينعم هذا الشعب بالحرية والاستقلال .

### صوت مصر

وإذا قلت لكم إن العالم بدأ يشعر أن الساعة قد حانت لأن يرفع الظلم عن مصر وعن شعبها ، فأياكم أن يجيل لكم ، أن هناك بدأ ستمتد لكم لرفع هذا الظلم وإياكم ثم إياكم أن يجيل لكم أن هناك فى العالم صوتا سيرتفع للدفاع عن قضيتكم ، لا يوجد إلا صوت واحد ويد واحدة ، وهذا الصوت هو صوتكم ، وهذه اليد هى يديكم أنتم . أتعرفون لماذا سمع العالم صوتكم ؟ لأن هذا الصوت قد ارتفع على صوت البارود ومدافع الأساطيل . أتعرفون لماذا وقف العالم لسمع شكاتكم ؟ لأن شبابكم قد عبد الطريق بدمه فهزأ بالموت والسجن والتعذيب . انتصفوا لأنفسكم ينتصف العالم لكم ، حلوا قضيتكم بأيديكم فيصفت لكم العالم طرباً ، وكونوا أقوياء فيخافكم الأقوياء . وهذا هو مبدئى الذى سافرت به ، والذى عدت به ، وأنا أشد إيماناً واعتقاداً به وإصراراً على تنفيذه .

### العهد والميثاق

عندما بارحت القاهرة ، أذعت على الناس عهداً وميثاقاً ، وسأذكر هذا العهد فى هذه الساعة

وأنا مثلج الصدر راضى النفس ، فلم يكن فيه حرف واحد لم يتحقق ولم يكن فيه جزء خاص في لم أنفذه . قلت إننى إذ أسافر إلى أوروبا ، فلن أعود وفى حقيقى الإستقلال أو مشروع معاهدة . لا ! لست أسافر لحل القضية المصرية لأن القضية المصرية ستحل هنا فى القاهرة ، لا فى أى مكان آخر . ستحل القضية المصرية يوم تأتلف الأحزاب ، وتتوحد صفوفنا ، يوم يرتفع كبرؤنا عن المناصب ويحتقرون الذهب ، وسوف تحل قضيتنا عندما نقبل على التضحية ونسترخى الأرواح من أجل مصر- وسوف تحل القضية المصرية عندما تؤمن بضرورة حلها .

حمدا لله ! فلم أكد أسافر ، ولم تكذب أحزابنا تأتلف ، حتى عاد الدستور سريعا . ولم تكذب بضعة أرواح تزهق على مذبح التضحية ، حتى استمعت انجلترا لمطالب مصر ، تقدمت تجيب بعض المطالب وتستعد للمفاوضة .

### انتصار إرادة الأمة

وهأنذا أعود لأرى مصر العزيزة متمتعة بالدستور ، ولأرى الأحزاب كتلة واحدة ، والأمة من خلفها صفا واحدا ، ولأرى الشباب ما زال متحفزا ومستعدا فى كل لحظة لبذل تضحيات جديدة وأرواح جديدة . وفى الحكم وزارة لعلها الأولى فى تاريخ مصر ، بل لعلها نقطة حاسمة فى تاريخ مصر ، وزارة رفعتها إلى الحكم الأحزاب المؤتلفة بإرادة واحدة ، ويؤيدها ويحبوها بعطفه جلالة الملك فالأمة بأسرها ، تؤيد هذه الوزارة التى تنتظرها مهام جسام : إجراء مفاوضات ، وإقامة برلمان ، وتنفيذ عدة مشروعات إصلاحية ، عرف بها رئيس هذه الوزارة وبعض زملائه . وإنى أرى فى كل ذلك انتصارا لإرادة الأمة ، أرى فى كل ذلك مصر القوية التى تظهر كل فضائلها فى الساعات التى ينحى للناس وللدين أنه قد قضى عليها .

لا أرى الآن فى مصر إلا كل ما هو جميل ، يزهى به شعب صالح للحياة . ملك أحس بالأيام الحرجة التى يجتازها شعبه ، فامتزج به يواسيه ويحيه ويشاطره الرجاء والأمل والكفاح ، ويخلع عن أكتافه رداء الملكية الذى يلبسه ، لأجل إعزاز وطنه ، كىما يخاطب الشعب بألفاظ الأبوة ، وكى يقول لكبار الأمة اجلسوا فليس بيننا اليوم عظيم أو صغير ، ولكننا أفراد أسرة واحدة يعملون لأجل رفعة وطنهم .

ألستم ترون أنها السادة أن كل هذا جميل ؟! وأن روح الشعب التى انتصرت هى روح الديمقراطية الحقيقية ؟. وأن مصر هزمت كل أعدائها الذين طالما تحدثوا فى مصر عن ملك وشعب ، وشعب وملك ، فإذا بهم لا يرون إلا مصر ولا يرون إلا أسرة واحدة ؟ يا إلهى ! هذه الأحزاب المجتمعة فى صعيد واحد ، محمد محمود بجانب النحاس بجانب صدقي ، ألستم ترون قوة الشعب التى فعلت ذلك ، طالما كانوا يقولون إن جلوس هؤلاء على مائدة واحدة مستحيل ، ولم يتزعزع إيمانهم لحظة واحدة بأن مصر وشعبها يفعلان المستحيل دائما . لقد كانت انجلترا تسرح وتمرح ، وكانت مطمئنة راضية فهى ليست فى حاجة إلى أن تعترف بوجود مصر ، لا وليست فى حاجة إلى أن تبقى على شبه هذا الاستقلال الذى تتمتع به مصر ، بل لماذا لا تتخذ من الأسكندرية قاعدة بحرية إذا راق لها

ذلك . وما هذا الصراخ حول الدستور ؟ ومن أنتم حتى تحصلون ؟ فعلت إنجلترا ذلك مطمئنة إلى اختلاف الأحزاب في مصر ، واختلافها معناه أن تحكم إنجلترا مصر بواسطة المصريين إلى الأبد وبين عشية وضحاها . وإذا بالشباب لا يعرف الأحزاب ، وبين عشية وضحاها إذا بالأحزاب جبهة متحدة . وإذا بالمعجزة قد تمت ، محمد محمود بجانب النحاس إلى جانب صدق .

### معجزة الائتلاف

لو تعلمون كم هلت طربا في إنجلترا ، وكم أحسست بالسعادة والغبطة عندما كنت أجد الانجليز حيارى مبهوتين . يسألونني تارة : بم أعطى ذلك ؟ وكيف تم الائتلاف ، وتارة يظهرون حقدهم وبغضهم لهذه الجبهة . ومقياس الإجابة هنا هو الغبط هناك . ومقياس الإصابة هنا هو الحقد هناك فإذا ما أحسستم فسوف يلعنون ويصخبون ، وإذا أسأتم فهناك التصفيق والتهليل ، لأنكم إذا ما كنتم أقوياء ألزمتهم الحجة ، وإذا ما أسأتم مهدتم لهم طريق ابتلاعكم والقضاء عليكم . ولقد أحسست عظمة مصر كلما حملوا عليها ، وكنت أتمثل ضخامة هذا العمل الذي قام به الشباب ، كلما بدا هؤلاء الإنجليز مستحيلاً .

### في قلوبهم مرض

لقد شرعوا يحملون على مصر ، وشرعوا يأخذون من هذا الائتلاف حجة ضد مصر ، وضد صلاحيتها للحياة ، فكيف تنسى مصر لصدق باشا ما فعله ؟ وكيف تنسى لمحمد محمود باشا ما فعله ، وكيف يجلس هؤلاء على مائدة واحدة ؟ إننا شعب ضعيف ، وأنى لوائق أيها السادة أن في المصريين بعض المرضى الذين يشاطرون الانجليز هذه النظرة . هناك بعض الأطفال وهناك بعض الأشخاص الذين قوت عليهم هذا الائتلاف بعض المصالح ، كما قوت على الانجليز ، هناك أشخاص تؤرقهم هذه الجبهة ويحاولون أن يقطعوا مصر وأخلاق مصر ، ولكل هؤلاء أقول مثل ما قلت للانجليز ، ان هذه الجبهة هي التي يجب أن يستمد منها كل مصرى إيمانه بقدرتنا على القيام بجلال الأعمال . لقد طالما نوا على المصريين تشتت كلمتهم ، وأقسم لكم أن الإنجليز كانوا في مقدمة الناعين كي يتخذوها حجة على عدم صلاحية مصر للحياة الدستورية والحياة الراقية ، فإذا ما اثتلقت الأمة ساعة الخطر ، إذا ما نسيت أحقادها وأحزابها ، وتكاتفت أمام العدو المشترك ، إذا ما تلاقى المصريون بنعمة الله إخواناً . فهزموا الغاصب وأخرجوه ، إذا ما أعطت للشرق ، بل للعالم بأسره ، مثلاً رائعا في توحيد الصفوف ساعة الخطر ، جاء هؤلاء الأعداء ، وهؤلاء المرضى ، ينمون على مصر توحيد كلمتها وجمع قواها .

لا .. أيها السادة : عاش النحاس باشا ، وعاش طويلاً وعاش صدق بجانب النحاس وعاشت الجبهة كلها متراسة متحددة . إن هذا مثل أعلى للتضحية وانكار الذات ، مثل أعلى للفناء من أجل الوطن ، ويجب أن نشكرهم من أجله . ما بقوا يعملون للوحدة ويسعون إليها .

## الوحدة .. الوحدة

تألفت الجبهة كما قلت لكم ، فعاد الدستور . وسقطت هذه الوزارة العاتية . والتي كان يجب أن تسقط منذ أمد بعيد . هذه الوزارة التي راحت . ولست أملك الآن . أنا الذي لا أعرف الكره والحقد . لست أملك بالرغم مني إلا لعنة أصبها على أيام هذه الوزارة السوداء . وعلى كل ما اقترفت فيها من آثام . والتي لم تشأ أن تبارح الحكم إلا بعد أن تلتطخ صفحاتها بدماء الأبرياء والشباب .

عاد الدستور . وسقطت الوزارة . وتألفت هذه الوزارة . وتقدم الانجليز يظهرون استعدادهم للمفاوضة . ولست أعرف ما يجري وما يترتب من محادثات في هذه الأيام ولكنني أبعث إليكم من فوق هذا المنبر ، كلمة حارة ، كيما تستقر في نفوسكم ، كيما تنفذ من هذه الجدران لتستقر في نفوس الأربعة عشر مليوناً ، أبعث إليكم من هذا المنبر كلمة حارة ، لتقرع أذن كل زعيم ، وكل شاب : هي أن تحافظوا على وحدتكم ، على جبهتكم ، قووا إيمانكم تحصلون على كل شئ .

هذه الوحدة التي دفعنا ثمنها لها كل هذه الآلام يجب أن تبقى ، وأن تستمر . فهي التي سنتنصر بواسطتها إن لم يكن اليوم فعدا .

ولذا فإني أعلن باسم مصر الفتاة ، بل باسم الشباب قاطبة ، أن الوحدة يجب أن تستمر بإخلاص . والويل لكل من تحدته نفسه بالخروج على هذه الوحدة كائناً من كان . إن الشباب لن يرحم كل من يبعث بإرادة الأمة . ومصر الفتاة اليقظة لن تسمح لكائن من كان أن يحطم سفينة النجاة ! . وأعود إلى سياق الحديث فأقول : إنه قد وقع كل ما تنبأت به ، وقطعت الأمة شوطاً بعيداً في سبيل أمانها .

## مهمتي في أوروبا

أما مهمتي في أوروبا ، كما جاءت في العهد الذي أخذته على نفسي ، فهي أن أسمع العالم المتمدين صوت مصر وإرادتها . هي أن أهيب بهؤلاء السادة الذين يتحدثون عن حرية الشعوب وحياة الضعفاء ، الذين يدافعون عن استقلال الحبشة ، ان مصر أيضاً لها استقلال ، ومصر أيضاً لها كرامة ، ومصر أيضاً لها حرية ، فإذا فعلوا بهذا الاستقلال ؟ وماذا فعلوا بهذه الحرية وهذه الكرامة ؟

وأشهد أيها السادة : لقد فعلت ذلك أنا وأخوتي فتحي رضوان في لندرة (لندن) ، وبعد ذلك في جنيف .. في لندرة قابلنا زعماء ، وقابلنا موظفين وكان الجميع يحسنون الإصغاء لنا ! أتعرفون لماذا ؟ لأن الحوادث التي كانت تجري في القاهرة كانت تضطربهم للإصغاء . ولقد عقدنا اجتماعات وشاهدنا اجتماعات . وزعنا نشرات ومقالات وأحاديث ، وفي كلمة فهمنا الإنجليز وفهمونا . فما الذي فهمنا منهم وما الذي فهموه منا .

## خصوم شرفاء ولكن ..

فهمنا الإنجليز أيها السادة وأعجبنا بهم : أعجبنا بآدابهم ، أعجبنا ببرقيهم ، وأحسنا كما أحس زعيمنا سعد زغلول بالأمر أنهم خصوم شرفاء معقولون ، ولكن على شرط .. على شرط واحد أيها

السادة . وفي إغفال هذا الشرط وأى خطر ، إغفال هذا الشرط هو السر في النكبة التي أصابتنا في العشر السنوات السابقة على هذه الحوادث الأخيرة ، إغفال هذا الشرط هو الذى أعجز حكوماتنا المتوالية أن تفعل شيئاً من أجل مصر . نعم إن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، أقولها بأعلى صوتى . ولكن على شرط أن يكون خصومهم أقوياء ، أما إن كان خصومهم ضعفاء فالويل كل الويل للضعفاء . سوف يصبح الشرف والعقل وسيلة للقضاء على الخصوم الضعفاء .

### القميص الأخضر

فإن أرادت مصر أن تفاهم مع الإنجليز ، إن أرادت مصر أن تجنى ثمرة شرف الإنجليز ومعقوليتهم ، فيجب أن تكون قوية بتوحيد صفوفها ، يقظة بشيبتها واستعدادها الدائم للتضحية . يجب أن تكون مصر قوية بنظامها ، والنظام هو نصف برنامج مصر الفتاة . فبذ الساعة الأولى نادينا بضرورة النظام وتنظيم الشباب ، منذ الساعة الأولى أحسننا هذه القوة الكامنة في توحيد الزى ، وإرسال الأناشيد ، فنادينا بالقميص الأخضر ، وفرق المجاهدين . فهزأ منا أقوام ، وسخر غيرهم ، وحاربنا آخرون ، ولكننا ظللنا على عزمنا ومبدئنا ثلاث سنوات كاملة ، عانى فيها القميص الأخضر ما عانى . فكم اقتيد شباب منا إلى السجون ، وكم مزقت العصي أجسادنا . وفي هذه القاعة بعض الضباط يشهدون على ذلك ، فلما كنت في أوروبا وسمعت عن تأليف فرق القمصان الزرق ، أسعدنى هذا الانتصار . أسعدنى أن شعر الشباب بالحاجة إلى النظام ، أسعدنى أن فكر مصر الفتاة في النظام والعسكرية قد انتصر ، فالنظام هو القوة ، ومتى صرنا أقوياء فسوف يسمعننا الإنجليز ، سوف يصغون لنا . وكلما زدنا في القوة زاد حبهام لنا ، وعطفهم علينا ، فليسمعها كل مصرى وليسمعها كل شاب ، ليسمعها كل زعيم ، علينا أن نكون أقوياء وأن نكون أقوياء بالنظام .

هذا هو ما فهمته من الإنجليز ، أما ما فهمته لهم فهو أننا في مصر ، المتطرفون أو المعتدلون سواء ، نرغب في صداقتهم ، نرغب في التحالف معهم ، نحالف الحر للحر . فإن قبلوا هذه الصداقة فحسبنا بهم . فليعطونا حقوقنا وسوف نكون أصدق حلفائهم أما إذا رفضوا هذه الصداقة فيجب ألا ينتظروا منا إلا خصوماً أشداء ، لا نكل ولا نمل ولا نلين . نعرف كيف نحاربهم وكيف نستخلص حقوقنا ، وكيف نهلمهم في الساعة المناسبة .

### وفي جنيف

أما في جنيف ، أيها السادة ، فلقد فهمت أشياء أخرى على جانب عظيم من الخطورة ، فهمت أن مصر قد قطعت شوطاً بعيداً في الحياة الدولية ، وأن العالم بأسره يتطلع لها ويتربص بحضورها .

حضرت جلسات مجلس العصبة ، عدة أيام متوالية ، وتتبع كل أعمالها باهتمام ، فقررت في ذهني عدة نتائج هي التي أعود مزوداً بها من جنيف ، وهي التي ستصبح مبادئ من مبادئ . أما الملاحظات التي لاحظتها في حضوري كل جلسات مجلس العصبة ، فهي أهمية هذه الأداة الضخمة من حيث الدعاية والتأثير على الرأي العام الدولى . أجل قد يكون هذا التأثير اليوم ليس من القوة بحيث يؤدي إلى نتائج عملية ضخمة ، ولكنه تأثير على كل حال ولست أشك لحظة في أن هذه العصبة ، لو عاشت عدة



سنوات أيضاً ، فإنها ستنتهى بأن يصبح لها تأثير مادي فعلاً .

تصوروا أيها السادة ، خمسمائة صحافي ، يمثلون صحافة العالم بأسره ، يتلقون كل كلمة صغيرة أو كبيرة ، هامة أو تافهة ، كي يطيروا بها إلى بلادهم ، فإذا بالعالم بأسره يتناقل ما قيل في جنيف بعد إلقائه بساعات قليلة . ولقد رأيت أما صغيرة تدافع عن قضيتها والعالم بأسره يتبع هذا الدفاع ، ولقد رأيت دولاً صغيرة استطاع ممثلوها في المجلس بما لهم من شخصية أن يؤثروا حتى على الدول الكبيرة . ولقد رأيت وزير خارجية إنجلترا المستر إيدن يشترك في أعمال العصبة عدة أيام متوالية ، ليل نهار بالرغم من وفاة ملك الإنجليز .

• - ورأيت مندوب دولة باراجواي يتحدى دولة عظيمة كروسيا ، ويستشهد بالعالم على حقه ، ولم تجد أمامه ثورة لتيفنوف وزير خارجية روسيا . وفي كلمة : أحسست بلذعة الألم في نفسي لغياب مصر عن هذا المجتمع الدولي ، وتحيلت مقدار التفوق الذي يمكن أن يحوزه ممثل مصر على كثير من ممثلي العالم ، والذين لا يكاد بعضهم يبين أو يفهم ، بينما تستطيع مصر أن ترسل عقولاً مشرعة ، وأدمغة مفكرة . أحسست بالألم أن لا يدوي صوت مصر ، فيتناوله هؤلاء الصحفيون ، وتنشره صحافة العالم ، في الوقت الذي ننفق مليوناً من الجنيهات على المفوضيات والقنصليات ، وبضع مئات من الألوف على هذه المؤتمرات والمظاهر التي قلما تحرك أصبعاً في سبيل القضية المصرية . وأحمد الله أني قمت بواجبي الجزئي ، فأعددت مذكرة بحق مصر في الدخول في عصبة الأمم ، وقدمتها لسكرتير العصبة العام ، فتلقفتها صحافة العالم ، واهتمت بها دوائر العصبة .

### تقصير معيب

وبعد أن تحدثت مع أكثر من مندوب من مندوبي الدول ، وبعد أن تحدثت إلى عشرات الصحفيين ، لا بل بعد أن تحدثت مع بعض المسؤولين في جمعية الأمم نفسها ، تحول ألى إلى غضب وحقن على كل هذه الحكومات التي قصرت حتى الآن في الانضمام للعصبة ، وكل شيء مهياً لقبولها . فلن تقدر إنجلترا أن تعارض طلب مصر في وقت تدافع فيه عن الحبشة ، لا عقبات قانونية أو أساسية ، الطريق ممهد أمام مصر لتصبح عضواً في جمعية الأمم ، وهذه مسألة من أخص المسائل المصرية التي لا يمكن للإنجليز أن يعترضوا عليها ، فالدخول في عصبة الأمم لا يساوى أكثر من التوقيع على أى معاهدة من المعاهدات الدولية .

### إلى رئيس الوزراء

وإذن فإنني ألفت نظر رئيس الوزارة المصرية إلى هذه الحقيقة ، ينبغي المبادرة إلى الانضمام إلى عصبة الأمم سواء نجحت المفاوضات أولم تنجح ، هذا حق لمصر ولا ينبغي تعليقه على نجاح المفاوضات أو فشلها . وهناك ، هناك في عصبة الأمم ، سترهن مصر على حيويتها وقدرتها ، فتدافع عن استقلالها وكرامتها ، وسوف تكون آذان العالم بأسره مفتوحة لها ، وسوف يكون الرأي العام بأسره في جانبها ، ولكن على شرط واحد ، أيها السادة ، وهو أن نكون أقوياء ، وأن نكون أقوياء أولاً وأخيراً .

## لقد عدت

وهأنذا أيتها السادة عدت ، فإذا ما سألتوني عن برنامجي فأني أقول لكم إنه يتلخص في هذه الكلمة ، التي كررتها لكم ، وأعني بها أن نكون أقوياء . وأن نعد الشباب لأن يكون كامل السلاح والعدة ، هناك مفاوضات ستأخذ مجراها عما قريب ، وسأتكلم في القاهرة عما يجب أن تتمخض عنه هذه المفاوضات ، ولكني أبادر منذ الآن فأعلن رغبتى من صميم قلبي . في أن تنجح هذه المفاوضات ، وسوف نتحاشى كل عمل يكون من شأنه أن يعكر الجو أمام الحكومة وأمام المفاوضات .

## لن نصبح الوقت

ولكننا في انتظار ذلك لن نصبح الوقت ، بل سنعصى في طريقنا مسقطين من حسابنا نجاح المفاوضات أو اخفاقها ، ذلك أنه إذا نجحت هذه المفاوضات فسوف يكون ذلك نقطة الإبتداء في جهادنا لبعث مصر وإعادة كل مجدها القديم ، أما إذا فشلت فإن جهادنا متواصل ومستمر . ولنتنى أدعو الشباب للتهيز والاستعداد ، مع ضبط الأعصاب ورباطة الجأش . أدعو الشباب إلى الالتفاف حول راية مصر الفتاة ، ومبادئ مصر الفتاة . أدعو الشعب المصرى بأسره إلى مواصلة كفاحنا السلمى في ميدان الاقتصاد ، مثل ما في ميدان الاجتماع والأخلاق .. لا تشتروا إلا من مصرى ، ولا تلبسوا إلا ماصنع في مصر ، لا تتكلموا إلا بالعربية ، ولا تردوا على من لا يخاطبكم بها .. قووا أرواحكم وعزائمكم بالامتناع عن الخمر ، وعدم الإسراف في الملاهى . تمسكوا بالفضيلة والأخلاق ، امتثلوا إيماناً بالله وإيمانكم بأنفسكم ووطنكم ، فقد كنتم سادة الدنيا يوماً من الأيام ، وسوف تصبحون سادتها بقوتكم وإيمانكم ، سوف تصبحون سادتها بدينكم وعلومكم ، سوف تصبحون كذلك يوم تعرفون تاريخكم جيداً ، وثقون بأنفسكم وتملأون قلوبكم شجاعة وجرأة ..

« والمجد لمصر »

## مات الملك عاش الملك وزارة على باشا ماهر

١٦

وكانت وزارة على باشا ماهر ، وعلى باشا ماهر رجل من رجالات مصر النابهين وهو فذ بين رجال الجيل القديم ، ولقد بادر بمناصرة مصر الفتاة منذ اليوم الأول الذى طلبت منه نصرته ، خاصة وأن مصر الفتاة كانت تحفظ للرجل مواقفه المشرفة في ثورة ١٩١٩ ، وجهاده الموفق لجعل الدستور المصرى على أحدث النظم العصرية ، وتحفظ له أخيراً ثورته في التعليم عندما كان وزيراً للمعارف في سنة ١٩٢٥ ، فقد قلب مناهج التعليم رأساً على عقب ، وحولها من برامج الاحتلال إلى برامج الحرية والاستقلال ، فأدخل إليها التربية الوطنية ، واللغة الفرنسية لتنافس اللغة الإنجليزية ، وصحح مناهج التاريخ ، ووضع للمدرسين القواعد التي يجب أن يعالجوا على أساسها التاريخ المصرى ، وأخيراً جعل الرحلات في جميع أنحاء البلاد ، بل وخارج القطر ، جزء لا يتجزأ من مناهج التعليم . وأدخل السينما في المدارس ، إلى غير ذلك من الإصلاحات الرشيدة ، ولقد استطاعت مصر الفتاة أن تنفس الصعداء في ظل وزارته لأول مرة في تاريخها ، فرحنا نجتمع في حرية ، ونجوب البلاد في حرية ، وسرعان ما اشتد نشاط مصر الفتاة في كل مكان ، فتألفت الشعب ، وأقيمت الاجتماعات العامة ، ودعيت للخطابة فيها في سرادقات تتسع للألوف من المستمعين . وبدأت روح مصر الفتاة تسرى في كل مكان . ولما أن كان العيد اجتمعنا ، بعد ثلاث سنوات كاملة من اجتماعنا الأول ، فوق صخور الأهرام ، وألقيت في ذوى الأقصية الخضراء الذين وفدوا إلى الاحتفال بالعيد من كافة أنحاء القطر ، ومنهم من حضر سيراً على الأقدام ، خطاباً نارياً ، هاجمت فيه خصوم مصر الفتاة ، هجوماً عنيفاً لأول مرة ، وفندت الاتهامات التي وجهوها لمصر الفتاة ، وأظهرت كيف كذبتها الحوادث والوقائع واحدة بعد أخرى ولقد نشر هذا الخطاب في طبعة إيماني الأولى وهو منشور في العدد ٢٢ من جريدة الصرخة الصادر في ١٠ مارس سنة ١٩٣٦ والذي يحوى فوق ذلك صوراً رائعة لهذا الاحتفال العسكرى المهيب لذوى الأقصية الخضراء .

وكانت المفاوضات بين مصر وإنجلترا تجرى في هذه الأيام في القاهرة ، وكان حتما علينا أن نتربص نتيجة هذه المفاوضات وما تستفر عنه ، ولم يكن باستطاعتنا أن نسبق الحوادث ، أو نسرف في الهجوم أو الانتقاد ، فانصرفنا إلى تقوية صفوفنا وإعادة تنظيمها ، ونشر دعاياتنا .

### مصر الفتاة والانتخابات

وكان مقررا ، وقد عاد الدستور أن يجرى على باشا ماهر انتخابات عامة في أنحاء البلاد لإعادة تأليف البرلمان المصرى ، بنوابه وشيوخه ، ولقد أجرى على باشا ماهر الانتخابات في جو من التزاهة والحرية لم يسبق له مثيل من قبل أو من بعد ، وكانت فرصة سانحة لمصر الفتاة أن تظهر مدى ما وصلت إليه من تمثيل للرأى العام ، وتعبير عن إرادته ، لولا أن قانون الانتخاب يحتم أن يكون سن المرشح ثلاثين سنة ميلادية على الأقل ، ولما لم يكن فينا من بلغ هذه السن ، بل لم يكن فينا من بلغ خمسة وعشرين سنة فقد كان ذلك سببا قاهرا حال بيننا وبين خوض المعركة الانتخابية ، وقد أصدرت باسم مصر الفتاة بيانا نشرته الصحف بصدد موقفنا من الانتخابات ، وهذا نصه :

### الانتخابات وجمعية مصر الفتاة

راع الكثيرون ألا يجدوا في المعركة الانتخابية صوت الشباب الذى حمل لواء الكفاح ، والذى أعاد للأمة دستورها وهيبها ، راع الرأى العام ألا يجد مرشحين لمصر الفتاة ، مرشحين يعبرون عن الجيل الجديد وآمال مصر الحقيقية ، فوجهت إلينا مئات الأسئلة عن سبب عدم اشتراكنا في الانتخابات وخوض غمارها ، أهو عجز منا ؟ أو ضعف أو زهد في الانتخابات ؟ والحق أن الأمر ليس هذا ولا ذاك ، ولكنه نتيجة حتمية لقانون الانتخابات . فواضعوه قد تعمدوا أن يقصوا الشباب عن معركة الانتخابات ، فحددوا سن النائب بثلاثين عاماً على الأقل ، معارضين في ذلك كل ما جرى عليه العرف في البلاد الدستورية ، وهو أن لكل ناخب الحق في أن يفوز بعضوية مجلس النواب . ولما كانت مصر الفتاة ، ليس في قادتها وكلهم من الشباب من يملك هذا النصاب من السن ، فنحن بهذا محرومون من خوض المعركة الانتخابية .

وكم كنت أود من صميم قلبى أن تكون هذه الانتخابات وسيلة لإظهار روح الشباب والكفاح ، كم كنت أود أن تدور هذه المعركة الانتخابية حول المبادئ والبرامج ، لاحول الألقاب والأشخاص ، كم كنت أود أن أعرض على الأمة برنامج الشباب السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى من شأنه أن يبعث من مصر مصرأ جديدة ، وأن يحقق استقلالها وسيادتها وحريتها ، ولكن نشاء الأقدار أن تضم هذه المعركة الانتخابية القادمة إلى سابقتها من المعارك بكل ما فيها من خصائص

وأشكال . على أن كفاحنا خارج البرلمان سيكون أشد منه تحت قبته . وهانحن أولاء ماضون في طريقنا والله يرعانا ويهدينا سواء السبيل .

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

## مات الملك

وشاء الله أن يقع في هذه الفترة حادث يختم صفحة من تاريخ مصر ليفتح صفحات جديدة ، فقد مات الملك أحمد فؤاد العظيم ، مات الملك فؤاد بعد أن جمع القلوب حوله ، وكان له أكبر الأثر في تأليف الجبهة المتحدة من الأحزاب المصرية ، وبعد أن أعاد الدستور للبلاد ، ورسم للمفاوضين طريق الحرية والاستقلال . مات الملك فؤاد فبكته مصر بأسرها ، بعد أن أظهرت لها الأيام والسنون والحوادث المتعاقبة ، كم كان هذا الملك عظيما محبا لمصر ولعظمة مصر ومجد مصر . لقد كان الملك فؤاد ممن يؤثرون العمل في صمت ومن وراء ستار ، فلم يجعل ذلك منه إبان حياته ملكا شعبيا ، بل لظالما أساء الشعب فهمه وفترت عواطفه بالنسبة له . ولكن الموقف الرائع الذي وقفه في أخريات حياته ، عندما جابه الانجليز بالرغم من مرضه وضعفه ، وعندما جمع رجالات مصر حول فراش مرضه وناشدهم الله والوطن أن يتحدوا من أجل مصر ، هذا الموقف الخالد في تاريخ مصر الحديثة ، فتح عيون الشعب على عظمة الملك فؤاد ووطنيته ، وما بذله من جهد في سبيل أمته ، فأفعمت قلوب الشعب بالحبة له والإشادة باسمه . وكأن ذلك كان مسك الختام ، وكأن الله قد أراد أن يكافئ الملك أحمد فؤاد على إخلاصه وصدقه فبارح هذه الدنيا وهو في ذروة مجده ، وليس في مصر كلها من لا يبكيه بالدمع الهتون .

مات أحمد فؤاد ، ووجفت القلوب واضطربت ، وتساءل كل إنسان : وماذا يكون موقف مصر ؟ وماذا يكون موقف انجلترا ؟ وهذه أول مرة يموت فيها الملك في ظل الاستقلال والدستور المصري ؟ ! ! هل يتدخل الانجليز كما اعتادوا التدخل من قبل ؟ وماذا يكون موقف الشعب المصري إزاء هذا التدخل ؟ !

وهنا تجلت مقدرة على باشا ماهر الفائقة ، ووطنيته وإخلاصه ، فقد تصرف بسرعة وحزم شديدين ، في تطبيق قواعد الدستور . فاجتمع مجلس الوزراء ونادى بولى العهد فاروق ملكا على مصر ، وبهذا صبح في مصر ما يصبح في كل بلد مستقل عندما يقولون

« مات الملك ، عاش الملك !! » ولم تكذ الدنيا تسمع بأنباء وفاة الملك فؤاد حتى كانت تسمع بعد ذلك بساعات قلائل تولية الملك فاروق عرش آبائه وأجداده ، وتم ذلك بدون تدخل الإنجليز عن قرب أو بعد ، بل بدون أن يعرض الأمر على الإنجليز الذين وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع المحكم ، فلم يستطيعوا إلا أن يقروه وأن يرضوا عنه ، خصوصاً وأن المفاوضات كانت في ذلك الوقت جارية لوضع هذه المحالفة والمعاهدة التي كانت تحرص إنجلترا كل الحرص على إبرامها .

ولقد كتبت في جريدة الصرخة مقالاً تاريخياً أؤين به الملك الراحل ، وأستقبل به الملك الجديد وهو جدير بالتسجيل لخطورة المناسبة .

### مات الملك الشيخ وجاء الملك الشاب

هي صفحة تطوى وجيل بأسره يفسح الطريق

وهي صفحة تنشر وجيل بأسره يتقدم إلى الأمام ، في عزم وثبات و يقين

مات فؤاد صاحب الأجداد الكثيرة والأعمال الباهرة . مات فؤاد العاهل العظيم الذي حرر مصر من رقة الاستعباد وقادها إلى التحرر والاستقلال . الذي قاد مصر الضعيفة الفقيرة المهزلة حتى صيرها اقادة اغنية رافعة الرأس موفورة الكرامة . مات فؤاد الذي اقترن اسمه طوال سبعة عشر عاما بكل ما هو جميل وجميل ، بكل ما هو نافع ومفيد . مات فؤاد الذي نقش اسمه على ألوف من المؤسسات والمشاريع التي ملأت مصر بالحياة والعزة والثروة . هذه الشركات وتلك المصانع ، أى واحد منها لا يحمل حجرة الأساسى اسم فؤاد ؟ هذه المدارس ودور التعليم . هذه الجامعة وهذا الأزهر . هذه الجمعيات وكل هذه الأعلام ألم يزينا دائما اسم أحمد فؤاد ؟ وأنها شيدت في عصر أحمد فؤاد ؟ مات فؤاد الذى حكم مصر سبعة عشر عاما لم تخل من هنات هينات ، ما فى ذلك شك ، ولكن هل يكون الكمال إلا لله وحده ؟ .. وأين هذا الإنسان الذى تنزهت صفاته وجلت أعماله عن الخطأ ، إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام ؟ أو لم يقل لنا شاعر الحكمة أن « كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه » ؟ فهو فخار ما بعده فخار لجلالة الملك الراحل ، ومجد ما بعده مجد أن يبحث الناس فى حكمة الطويل فلا يجدون إلا كل ما هو حسن وجميل ، ولا يجدون من الأغلاط إلا ألتزر القليل وكان حسن النية فيه من غير شك وربما لم يكن مستولاً عنه إلى حد كبير .

هذا هو جلالة الملك الراحل وهذه أقدار أول ملك لمصر المستقلة الذى قاد سفينة مصر فى أعصب الساعات وسط الرياح والعواصف حتى قربها من الميناء . وهو بعد ذلك المصلح المعمر البناء ، الذى ملأ مصر عملاً وتجديداً .

على أن وفاة جلالة الملك فؤاد ، وارتقاء جلالة الملك فاروق تبعث فى نفوسنا أملاً وتفاؤلاً وإيماناً جديداً ، فلسنا من هؤلاء المتشائمين الذين ينظرون إلى المستقبل بمنظار أسود ، بل إن إيماننا ليجعلنا

نشعر بالاغتياب واليقين بأن مستقبل مصر سيكون أسعد من ماضيها ، وأن الحوادث تقربنا من غايتنا العظيمة . هذه التي نرى عندها مصر القوية التي تمتد حتى خط الاستواء ، والتي تحالف الدول العربية وتترغم الإسلام ، بأن جلالة الملك فاروق أول ملك قد عيّنته الإرادة الشعبية منذ أكثر من مائة عام أى منذ أن اتفقت كلمة المصريين على انتخاب محمد على باشا رأس العائلة المالكة فإن جلالة الملك الراحل قد تلقى خطاباً من المندوب السامى بيايحه بالسلطنة . ومن قبله السلطان حسين بيايه المندوب السامى كذلك .

ومن قبل كانت فرمانات التركية تتدخل فى تعيين والى مصر . أما جلالة الملك فاروق فهو أول ملك مصرى عتيد جاءت به إرادة شعب مصر المستقلة السعيدة ، وهنا لا يسع الإنسان إلا أن ينحني إعجاباً وتقديراً لهذا الرجل الذى قام بهذا العمل العظيم وأعنى به صاحب الدولة على باشا ماهر رئيس الوزراء ورجل الساعة الذى أنقذ مصر من شر كبير . مات فؤاد وقد طويت بموته صفحة الجيل القديم ، فلقد كان علماً على هذا الجيل ، وكان ممثلاً لكل صفاته ، وكان أعظم من فى هذا الجيل فلا يوجد رجل واحد من جيل الملك الراحل يستطيع أن يتزعم الجيل كما تزعمه الملك فؤاد واذن فقد طويت هذه الصفحة إلى غير نشور حتى يوم الحساب بكل ما فيها من حسنات وسيئات ونشرت صفحة جديدة هى صفحة الجيل الجديد صفحة الشباب بكل ما فى هذه الصفحة من قوة واعتزاز وتطلع لمستقبل أسعد وأمجد وبارك الله فى جلالة الملك فاروق الذى عبر عن عهده فأحسن التعبير ، والذى تكلم باسم الشباب فأجاد الكلام فقد قال « وإنى أتعهد أن أعمل حتى تتبوأ مصر المكانة اللائقة بها بين الأمم » أجل سوف يعمل جلالة الملك فاروق وسوف نعمل جميعاً معه . سوف نكافح وسوف نناضل وسوف نعمر وسوف نصلح . سوف نكون أقوياء أشداء أعزة سادة لبلادنا ، لا نعرف مستعمرات ولا نقره ، ولا نرضى بدخيل ولا نقره ، ولا نرضى بذل أو عبودية . استغفر الله ، هبل لا نرضى براءحه الذل . هذا هو العهد الذى نستقبله فى ظل جلالة الملك فاروق . فليصمت الناعقون ، ولتقطع ألسنة المتشاكمين وليفسحوا الطريق للشباب والجيل الجديد . ليفسحوا الطرق للملك الشاب ولجميع الشباب ، ليفسحوا الطريق فإن لنا سواعدا وفى قلوبنا إيمان ، ولنا إرادة تهد الجبال وتذيب الحديد . والمجد لمصر .

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

## انتصار الحياة الدستورية

### وزارة الوفد

١٧

لم يدم حكم على باشا ماهر طويلاً ، فقد كانت وزارته في صيغتها بمثابة وزارة انتقال ، وقد دام حكمها مائة يوم ، كانت كلها خيراً وبركة على مصر من غير شك ، ووقعت في هذه المائة يوم أحداث جسام لا تمر في حياة الأمم أمثالها كثيراً ، فكان على مصر أن تؤلف وفداً للتفاوض مع إنجلترا في قضية الاستقلال ، وقد ألف على باشا ماهر هذا الوفد من جميع الأحزاب برئاسة مصطفى باشا النحاس ، وكان على الوزارة أن تعيد الحياة النيابية ، فأجرت الانتخابات التي أشرنا إليها فيما سبق ، والتي جرت في حرية لم يسبق لها مثيل ، ثم كان هذا الحادث الذي مات فيه الملك فؤاد ، وتولى الفاروق عرش البلاد .

ولما كان الملك فاروق لم يبلغ سن الرشد بعد ، فقد أقيم مجلس الوصاية المؤلف من صاحب السمو الملكي الأمير محمد على ، وشريف باشا صبرى ، وعزيز باشا عزت ، وقد كان الرأي العام يخشى كل الخشية أن يكون نسيم باشا واحداً من هؤلاء الأوصياء ، لما كان معروفاً ومشهوراً من أنه واحد منهم بناء على طلب الإنجليز بالذات ، ولكن عندما فتحت وصية جلالة الملك تبين أن اسمه قد استبعد في اللحظة الأخيرة ، فتنفست البلاد الصعداء .

لم يكد على باشا ماهر يفرغ من توطيد أركان الدولة ، حتى كان عليه بحكم الدستور أن يفسح الطريق لوزارة الأغلبية التي أسفرت عنها الانتخابات ، ولم تكن هذه الوزارة سوى وزارة الوفد التي جاءت إلى الحكم بأغلبية كبيرة . ولم يكد صاحب الدولة مصطفى باشا النحاس يتقلد منصب زمام الحكومة حتى بادرت بهيئته . فبعثت إليه بالبرقية التالية :



حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا

مجلس الوزراء

إن تقلدكم الوزارة انتصار باهر للحياة النيابية ، وتوطيد لدعائم الدستور يقابله المصريون جميعا بفرح وابتهاج . وإني لأتمنى لحكومته كل توفيق في تحقيق برنامجها الذى تفضلتم بإعلانه . والمجد لمصر

أحمد حسين

رئيس حزب مصر الفتاة

ولقد شرحت باستفاضة ما تنوى عليه هذه البرقية من معان ، فى مقال افتتاحى أرى أن أسجله بنصه لأهميته وخطورته بالنسبة لتاريخ العلاقات بيننا وبين الوفد ، وستظهر هذه المقالة أننا لم نتجن على الوفد فى يوم من الأيام ، وأننا رغم الخصومة الشديدة التى وجهها إلينا ، ظللنا ننظر إليه كممثل أعلى للشعب والأغلبية ، وعملنا دائما أبداً على التعاون معه فيما يعود على البلاد بالاستقلال والنفع ، وعلى الشعب بالحرية ، والرفاهية ، والفائدة وأننا لم نكن ، ولن نكون فى معارضتنا للوفد ، ولغيره من الأحزاب إلا طلاب حق ، وإنصاف ، وحرية .

الوزارة الجديدة . وكيف نستقبلها

تهنئة وترحيب وصراحة فى الحق

وأخيراً جاءت الوزارة الدستورية ، وزارة الأغلبية ، وزارة الوفد فحق على كل مصرى الابتهاج ، والفرح . ولنا فى ذلك عدة أسباب :

أما أول هذه الأسباب : فهو ما أجبت به يوما السيرجون وارد لوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الإنجليزى ، عندما كنت فى لندرة<sup>(١)</sup> (لندن) فى الشتاء الماضى ، فقد عرف الرجل من تقارير وزارة الخارجية البريطانية ، أنني لست على وفاق تام مع الوفد ، فأرى أن ينتهز هذه الفرصة ، وأن يستغل ذلك فسألنى :

علام تتحمسون لدستور سنة ١٩٢٣ . وأنتم واثقون أنه يرفع الوفد إلى الحكم بأغلبية ساحقة . وأنه يقصى الأكفاء عنه ؟ فأجبت إجابة قاطعة . اضطرت الرجل أن يحترم ما فيها من وطنية ومنطق . وإخلاص لمصر وحريتها . إذ قلت له : إن دستور مصر ، مظهر من مظاهر استقلالها ، وسيادتها فكل عدوان على هذا الدستور ، إنما هو عدوان على استقلال مصر ، قبل أن يكون عدوانا على الدستور . وإذن فقد وجب على كل مصرى أن يدافع عن الدستور . دفاعه عن الاستقلال ، وإلا كان

(١) اسم ظل يستعمل فى مصر حتى نهاية الأربعينات للعاصمة البريطانية ، وهى اللفظة الفرنسية للكلمة .

مفرطاً ، وخائناً ، ومارقاً . وإننى لأتحمل أن أرى أعدائى يتحكمون فىّ باسم استقلال مصر وسيادتها ، من أن أراى منعماً مترفاً بالحرية فى ظل استقلالها المحطم ، وكرامتها المهذرة .

أما ثانى الأسباب التى تحدى لى للترحيب بالدستور ووزارة الأغلبية : فهو ما يحدثه من الثقة فى نفوس أفراد الشعب . وشك خصومهم فى إمكان التغلب على إرادتهم ، فالיום يشعر كل مصرى أن له إرادة وله قدرة ، وأن كفاحه الطويل وثباته قد نصره وحقق أمانيه . وإذن فالكفاح الكفاح ، والثبات الثبات دائماً .

واليوم يشعر المصريون أنهم ليسوا أولئك الضعفاء الذين لا يملكون لأنفسهم قليلاً أو كثيراً . واليوم يعرف من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على إرادة الأمة وكرامة الأمة أن مصيرهم الهزيمة والاندحار . وهذا المعنى وحده . يكفى لحمل على الهتاف من أعماق قلبى اليوم للدستور ، وانتصار إرادة الأمة .

إن فى بلد مثل مصر ، يحاول الإنجليز أن يسيطروا على حريتها ، وأن يتدخلوا فى مراقبتها . إن فى بلد مثل مصر ، مغلوقة على أمرها . ويراد بها أن تبقى طويلاً فى الأسر والتأخر ، ليس من شئ سوى الحياة الدستورية يلقى الضوء على جميع تصرفات الحكومة . ويجعلها تجرى تحت رقابة الشعب ونوابه . ليس غير الدستور تتطور فى ظله الآراء الحرة . وتنطلق الأقلام . وترتفع الأصوات المدوية ، تهب بالأمة أن تتطور ، وأن ترقى وأن تحصل على حقوقها . وهذا هو ثالث الأسباب الذى يحدى لى وبكل مصرى ، أن يقابل تقلد الأغلبية للحكم بالابتهاج والترحيب .

فما بالك وقد أعلن رئيس الأغلبية برنامجاً نص فيه على إتمام الاتفاق مع إنجلترا ، وتسوية المسائل المعلقة التى تشوب استقلال مصر . وأنه سيضمن العدالة والحرية لجميع الأحزاب على السواء . وأنه سيصلح فى كل مكان . وأنه سيجعل محور اهتمام الحكومة خاصاً بالفلاح . وكل هذه مسائل لا يسعنا إلا أن نقابلها بالابتهاج والترحاب . وإلا كنا نخائن لعهدنا الذى قطعناها على أنفسنا ، وهى أن نوجد كل ما فيه خير لمصر . وتحقيقاً لاستقلالها ورفاهيتها .

فالاتفاق مع الإنجليز بما يحقق استقلال مصر وسيادتها الكاملة غير المشوبة بنقص ، هو جل ما يصبو إليه المصريون ، من الإسكندرية حتى خط الاستواء .

وهو أهم ما يصبو إليه جنود مصر الفتاة . الذين يريدون أن تفرغ مصر من بعض مشاغلها مع الإنجليز ، وأن تنجلى من كثير من قيودها . حتى تنطلق إلى الامام فى تنفيذ برنامجها العتيد . والذين تريدون به أن تحبوا مجد أمة . حتى يشرق على العالمين .

ومن ذا الذى لا يطرب لسماع كلمة العدالة . وهى نور الله . ورحمته على العالمين ؟ من ذا الذى لا يبايع الوزارة على نشر العدالة . والحرية والمساواة بين الجميع ؟ من ذا الذى لا يتمنى من الله أن يوفقها فى تحقيق هذا الذى أخذته على عاتقها ؟!

بارك الله في وزارة تتعهد أن تجعل الفلاح محور اهتمامها . فالفلاح هو مصر وكل تجاهل للفلاح .  
تجاهل لمصر ، وكل تقصير في حقه ، تقصير في قضية الوطن والإنسانية . فنحن نهى الوزارة الجديدة  
ما بقيت عاملة على تحقيق هذا البرنامج . نهى الوزارة ما نشرت الحرية ، والعدالة ، وحققنا  
المساواة . نهى الوزارة ما عملت على استكمال مصر سيادتها . وهذا هو العهد بيننا وبينها ، ولعنة الله  
على من يحنث بالعهد ، أو يخرج عليه .  
أجل .. فوالله لن نسكت على ضمير ، ولن نتغاضى عن تفريط . ووالله لنكونن كما كنا ، دائما  
أشداء في الحق ، لا يثنينا بطش أو وعيد ، ولا يؤخرنا إرهاب أو تهديد .  
ونسأل الله أن يهدينا جميعا سواء السبيل ... والمجد لمصر .

أحمد حسين

## رحلة في الصعيد

### سيرا على الأقدام

١٨

كان مؤدى الخطة التى قررنا انتهاجها بالنسبة للوزارة الجديدة ، خطة التهيئة والترتيب ، ثم التربص بها لمعرفة إلى أى حد تطابق أفعالها وأقوالها ووعودها ! وكان مؤدى استمرار المفاوضات بين مصر وإنجلترا من ناحية أخرى ، أن فكرت فى استغلال هذه الفترة من الهدوء والانتظار فى عمل إيجابى لتحقيق أغراضنا وأهدافنا ، ففكرت فى القيام برحلة أبتدى فيها من الشلال صوب القاهرة ، مخترقا صعيد مصر كله سيرا على الأقدام ، أى ما يقارب ألف كيلو متر. وكان هدفى من هذه الرحلة أن أجوس خلال الوطن المصرى بلدة بلدة ، وقرية قرية ، وشبرا وشبرا ، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق السير على الأقدام . فرأيت أن أقدم على هذا الأسلوب لما فيه من دعاية لصلابة عودنا وقوة مراسنا ، ولما فيه من تعويد للشبان على استسهال كل صعب ، والصبر على كل مشقة . فليس كالسير على الأقدام ما يغرس فى الإنسان عديدا من الفضائل ، على رأسها فضيلة الصبر . ولقد تحمس للفكرة معى بضعة نفر من أعضاء مصر الفتاة ، قرروا أن يزاملوني فى رحلتى ، وأن يشتركوا معى فى هذه الغزوة السلمية لصعيد مصر . وكانت الرحلة يعد لها منذ زمن بعيد ، فلما جاءت وزارة النحاس باشا كان ذلك ميعاد تنفيذها ، فأعلن عنها فى الصحف .

ولقد كانت هذه الرحلة بهذا الأسلوب محل دهشة وتهكم ، فى بعض الأحيان ، وادعاء بأنه من المستحيل تنفيذها .. ودهش الناس بالأخص من أن نختار فصل الصيف لهذه الرحلة ، وأن نجتاز صعيد مصر فى أيامه المحرقة سيرا على الأقدام .. ولكن كل هذه الصعوبات والتهويلات لم تكن تزيدنى إلا عزمًا على وجوب الإقدام على هذه الرحلة . ولذلك فقد حددت اليوم والساعة التى تقوم فيها البعثة إلى الصعيد ، وهى الساعة الثامنة من مساء يوم الخميس ٢٨ من شهر مايو .

ونشرت فى مصر الفتاة ووزعت على جميع الصحف البيان التالى :

## بعثة مصر الفتاة في الصعيد مطالب مصر الفتاة من الحكومة

أسافر في مساء الخميس ٢٨ في تمام الساعة الثامنة إلى الشلال مصطحبا معي عشرة من مجاهدي الجمعية القداماء . ومن الشلال سوف نقصد القاهرة سيرا على الأقدام متنقلين من بلد إلى بلد ، ومن قرية إلى قرية ، متحدثين إلى الفلاحين جماعات وأفرادا . وليست هذه الرحلة إلا تنفيذا لعهد قطعه على نفسي أن أحيا كما يحيا الفلاحون ، وأن آكل كما يأكلون وأن أشرب مما يشربون ، وأن أحمّل شظف العيش الذي يتحملون . فقد طالما أهملنا الفلاح وهو سر الحياة في مصر ، وسر مجدها . فلقد جعلنا من الفروق والحواجز بين رجل السياسة والفلاح سدودا وأى سدود . ومصر الفتاة التي لها سياسة جديدة وروح جديدة تقدم دليلاً على صدق كفاحها ، فتختار فصل الصيف للقيام بهذه الرحلة الشاقة ، التي نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها . واختارنا أن تكون رحلتنا مظهرا من مظاهر الكفاح الروحي والنفسي ، فنصبر على الشدة ونسير على الأقدام ، باحثين عن روح مصر الحقيقية بين ثنايا الريف ، روح مصر الخالدة التي صارت الزمن وبهرت الدنيا وأشرقت على العالمين .

إذا كنت أرجو أن تتم هذه الرحلة في ظل الحرية العامة التي أباحها الدستور ، والتي أعلنت الوزارة تحقيقها لجميع الأحزاب على السواء ، فإنني أتوجه قبل سفري ، إلى الحكومة والبرلمان ، ببضعة مطالب يؤمل الشباب تحقيقها على وجه السرعة في أشهر الصيف المقبلة ، ولا يقبل فيها مهادنة أو تأخيرا وهي :

أولاً - العمل على زيادة الجيش زيادة سريعة كافية للدفاع عن مصر ، فإن خطر الحرب أصبح يهدد مصر أكثر من تهديده لأي بقعة أخرى في العالم .

ثانياً - العمل على حل مشكلة المحاكم المختلطة بإصدار قرار بالغاءها ، بعد عام من تاريخه تطبيقاً لمرسوم إنشائها ، واتخاذ الإجراءات التمهيدية لإلغاء الإمتيازات ، وتدبير المال اللازم لزيادة الجيش ، ويكون ذلك بإعلان من جانب الحكومة المصرية .

ثالثاً - إلغاء قانون الاجتماعات وحماية الموظفين وإضراب معاهد التعليم وجميع القوانين الاستثنائية والمقيدة للحرية .

رابعاً - تخفيض مرتبات كبار الموظفين الذين يتقاضون فوق المائة جنيه ، وذلك أسوة بما فعل جلالة الملك ، وبنفس النسبة ، وصرف جزء من الوفرة لصغار الموظفين لتحسين حالهم . هذه هي المطالب التي يرجو الشباب المبادرة بتنفيذها . وإنني أسأل الله أن لا تنقضني أشهر الصيف الأربعة حتى نكون قد فرغنا منها ، كيما نواجه الطوارئ الجديدة في العام المقبل ، بأكثر مما نحن قوة ومناعة واستعدادا لتحقيق رسالتنا . رسالة السلام .

والجهد لمصر

## الحكومة تعترض

وقيل سفر البعثة بأربعة وعشرين ساعة تلقت دعوة من حسن باشا رفعت وكيل وزارة الداخلية لمقابلته ، فذهبت إليه في الموعد المحدد فإذا به يحيطني علما أن ارتداء القميص الأخضر في هذه الرحلة ممنوع ، وأن دولة رئيس الحكومة يسلم عليّ ، ويطلب منى العدول عن هذه الرحلة أو على الأقل عدم ارتداء الأقصة الخضراء فيها .

فقلت : أما عن العدول عن الرحلة فهذا ما لا محل له بحال من الأحوال ومالا أعرف سببا يدعو إليه ، فأنا حر أذهب حيثما أشاء ، وأنى أشاء ، وأنا كرئيس للجامعة سياسية أختار الوقت الذي يناسبني للسفر فيه إلى هذا المكان أو ذاك . أما بالنسبة للاعتراض على ارتدائي وإخواني القميص الأخضر فهو اعتراض غير مفهوم ، لأن الحكومة الحاضرة قد أنشأت فرقا للأقصة الزرقاء ، فلست أعرف كيف تبيح لنفسها ما تحرمه على الناس . ولست أعرف ، ونحن في ظل الدستور ، بأى سلطان تحول الحكومة بين مصرى وبين أن يلبس ما يشاء ويختار من زى ، مادام أنه لا يخالف القانون . فإذا كانت الحكومة تريد أن تحظر علينا ارتداء القميص الأخضر فلتحظر أولاً على أتباعها لبس القميص الأزرق ، أو فلتصدر قانوناً يحرم على المصريين لبس الأقصة الملونة ، وعندها يكون هذا المنع مفهوماً . أما في ظل الدستور والحرية ، فلست أجد أى مسوغ لأن تحجر الحكومة على حريتي بهذا الأسلوب .

قال لى حسن باشا رفعت : ولكن الحكومة ستكون مضطرة إلى مضايقتك والاصطدام بك ، إذا قت بهذه الرحلة مرتدياً هذا القميص الأخضر . قلت له : إن ذلك ليس سبباً يدعونى بحال من الأحوال للرجوع عن عزمى فسوف أسافر ، وللحكومة أن تفعل بى ما تشاء قوة واعتسافاً ، ولكننى لن أسمح لها أن ترهينى لكى أكف من لقاء نفسى عن ممارسة حقوقى .

وافترقنا على ذلك فكان ذلك أول نذير بالشر المستطير الذى سيقع بيننا وبين حكومة الوفد . ولعل المطالع لهذا الكتاب يلحظ أننا لم نكن البادئين بالعدوان ، وأننا على العكس من ذلك هنأنا الحكومة ورجينا بها وتمنينا لها كل نجاح وتوفيق ، وكنا مخلصين وصادقين في رغبتنا في التعاون مع حكومة الوفد لمصلحة البلاد . ولو أن دولة مصطفى النحاس باشا استدعانى شخصياً لمقابلته والتفاهم معى لتغير الموقف من غير شك ، أما أن يوسط بينى وبينه حسن فهمى رفعت باشا وهو الذى كان يمثل في كل عهد وفى ظل كل

حكومة قوة البطش بمصر الفتاة فقد ساعد ذلك على خلق جو من سوء التفاهم بيننا وبين الحكومة ، ظل يشتد ويتفاقم حتى وصل إلى درجة سيئة خسر فيها الوفد كثيرا ، وخسرنا من جراء هذا الصدام الذى كان أولى منه التفاهم والتعاون على كل ما يحقق مصلحة البلاد .

### بدء المعركة

رأينا أن نسافر فى الموعد المحدد من محطة الجيزة بدلا من محطة العاصمة لكي نتفادى إجراءات المنع فى محطة العاصمة . وقد نجحت خطتنا فلم يعترضنا أحد ، وأسرع بنا القطار قاصدا الشلال ، فوصلنا إلى نهاية الخط الحديدى المصرى .

والحق أننى لا أعرف ماذا أثبت وماذا أغفل من أنباء هذه الملحمة التى بدأت بيننا وبين الحكومة ؟ فقد وصلنا فى صباح الجمعة ٢٩ مايو سنة ١٩٣٦ ، ولقد كان ذلك حدثا فى تاريخ مصر الفتاة ، بل وفى تاريخ مصر الحديثة كلها ، بغير شبه أو مثيل . فقد بدأ صراع بين الدولة والحكومة ، ممثلة فى رجال البوليس ، وبين نفر من الشبان الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا يملكون من أسلحة الدنيا إلا إيمانهم وعزيمتهم التى لا تقهر . وقد استمر هذا الصراع طويلا إلى أن انتهى بانفجار مدو هز مصر من أقصاها لأدناها ، بل وتجاوز مصر إلى خارج الحدود ، واهترت أسلاك البرق تبعث بأنبائه إلى جميع أنحاء العالمين .

بدأ الصراع بمجرد وصولنا إلى محطة الشلال ، حيث وجدنا قوات ضخمة من رجال البوليس فى انتظارنا ، ولم نكد نزل من القطار حتى أحاطوا بنا إحاطة السوار بالمعصم ، وقادونا إلى مكان بعيد عن كل عمران تحيط به مياه راكدة ، وحتموا علينا أن يكون ذلك هو محل إقامتنا ، فرضينا بذلك ، وأسرعنا إلى نصب خيامنا والاستقرار فى ذلك المكان . وضرب البوليس حصارا على هذا المعسكر لكي يحول دون اقتراب أحد منه ، أو دون تسرب أحد ممن فى داخله . وبدأت بعد ذلك سلسلة من الحوادث والاحتكاكات والأزمات والاعتداءات والمغامرات ، وامتلاّت صفحات جريدة الصرخة بالأنباء المفصلة يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة لهذه المعركة التاريخية ، وبالمجهود العجيب الذى قامت به هذه البعثة فى قطع عشرات من الكيلومترات سيرا على الأقدام وليس يتسع المجال هنا لإثبات ذلك كله ، وإلا احتاج ذلك إلى كتاب آخر فى حجم هذا الكتاب وأكثفى بتسجيل بيان أصدرته مصر الفتاة بعد قليل من بدء الرحلة ، إلى الأمة

مصدر السلطات ، وفي ذلك البيان إشارات سريعة وموجزة لبعض ما لقيته بعثة مصر الفتاة من أحداث ، في تلك الفترة من تاريخها .

## جمعية مصر الفتاة تطلب حماية الدستور لبعثتها في الصعيد بيان إلى الأمة مصدر السلطات

- ١- أعلن رئيس جمعية مصر الفتاة ، أنه وعشرة من مجاهدى مصر الفتاة ، سيقومون برحلة من الشلال إلى القاهرة سيراً على الأقدام ، للاتصال المباشر بالفلاح في كوخه وقريته ، والتعرف إلى آلامه وآماله ، وحدد للسفر من القاهرة مساء يوم ٢٨ من مايو سنة ١٩٣٦ .
  - ٢- وقبل الميعاد المحدد ، وفد على دار الجمعية ضابط مباحث قسم الموسيقى ، وطلب من رئيسها باسم الحكومة الإقلاع عن الرحلة ، أو على الأقل عدم ارتداء القميص الأخضر في أثائها .
  - ٣- وكان حتماً أن يقابل ذلك الطلب الغريب بالرفض ، ثم كان اتصال رئيس الجمعية بكبار موظفي وزارة الداخلية ، الذى تمسك بعده كل فريق برأيه .
  - ٤- ولكن البعثة سافرت في الميعاد المحدد ، ويقمصانها الخضراء ، ولم يعترضها عندئذ معترض .
  - ٥- ويظهر أن الأمور يئست على أن تبدئ مشاق البعثة ، والاعتداءات عليها ، عند وصولها إلى بداية الرحلة . حيث يمكن ارتكاب كل شئ وحيث يمز الدليل ويسهل الإنكار .
  - ٦- فإِنْ وصلت البعثة إلى الشلال حتى تلقفها البوليس ، وحاصر خيامها ، ومنعها من الاتصال بالناس ، ومنع الناس من الاتصال بها . وكان من أثر ذلك أن أعيد إلى أسوان خمسة من شباب أسوان ، تسللوا إلى البعثة خفية من البوليس ، وفي غسق الليل ، وعن طريق النيل ، وبعد سفرة دامت خمس ساعات ، أعاد البوليس إلى أسوان هؤلاء الشبان الخمسة بعد اكتشاف أمرهم . وكان من أثر ذلك أيضاً أن ضرب ضابط البوليس أحد أعضاء شعبة مصر الفتاة بأسوان المجاهد سامى جورجى بالسوط على وجهه فأدماه ، لأنه حاول الاتصال بالبعثة ، ومدّها بالمؤونة .
  - ٧- ثم طلب مدير أسوان من البعثة ، أن تلبس أقصة (كأكية) تفضل بها متبرعا ، وجعل هذا شرطاً لاستمرار البعثة في رحلتها ، قائلاً إن تلك إرادة الحكومة .
- وشاء خمسة من أعضاء البعثة ، أن يتعرفوا مدى ما تريده الحكومة فتظاهروا بقبول رغبة المدير ، وتطوعوا للتضحية الغالية فخلعوا شعارهم الأخضر المقدس رمز مصر وأملها ، ولبسوا قميص الحكومة الكاكي ثم سافروا إلى أسوان . ولشد ما دهشوا عندما أحاط بهم البوليس بمجرد وصولهم ، وشحنهم في عربة من عرباته وأعادهم تحت الحفظ إلى الشلال ، حيث أودعوا من جديد خيام البعثة .



٨- ولما كان في الحد من حريات أعضاء البعثة ، واستعمال القسوة مع أفرادها ، ومع الأهليين ، لا كان في هذا أو ذاك جرائم يعاقب عليها القانون العام ، فقد أبرق بها المركز العام للجمعية في مصر إلى النائب العام ، كما أبرق بها رئيس البعثة إلى النائب بنبابة أسوان ، وكلاهما يطلب من حاة القانون حماية القانون .

٩- وفي نفس الوقت ، كانت الحكومة قد بيتت إجراء أشد عنفا ، وأبلغ في الجرأة والاعتداء على الحريات العامة والاستهتار بها ، إذ أبلغت سلطاتها بأسوان أنها أى الحكومة اعترمت إعادة البعثة بالقوة إلى مصر في قطار الخامسة والنصف مساء . وكان رد البعثة مطابقا لتقاليد جمعيتها : إن تلك إرادة الحكومة ، ولكن إرادة البعثة هي أن تبقى وأن تقوم برحلتها وأنه لا توجد فوق الأرض قوة تستطيع منعها وإذا أرادت أى قوة ذلك المنع فدون ذلك إرادة الأعضاء ، وتقاليد جمعيتهم ، وهى الدفاع عن حرياتهم وحرية المصريين في أشخاصهم ، بكل ما أوتوا من يقين وكرامة ووطنية ثم ليكن ما يكون .

١٠- وأمام ذلك اليقين القوى ، وتلك الكرامة الوطنية ، تراجعت الحكومة عن عزمها في «شحن» البعثة بالقوة إلى مصر ، ثم رأت أن تهجم على إرادة أعضائها من طريق آخر ، هو طريق منع القوات والمؤونة ، الأمر الذى اضطر رئيس البعثة إلى أن يوجه إلى مدير أسوان خطابا يسجل فيه تلك «الوحشية» كما أسماها ، ويعلن فيه عزمه وصحبه ، أن يقابلوا الحكومة في نصف الطريق الذى تريد ، بأن يخففوا عنها بعض العبء ، فيضربوا باختيارهم عن الطعام .

١١- وكان المركز العام للجمعية يوالى الصحف بتلك الأنباء حال ورودها عليه من سكرتيرية البعثة أو رئاستها ، فكانت الصحف تتحاشى نشر تفاصيلها لغرابتها . حتى علمت الصحف بأن بعض الوقائع أبلغ إلى النائب العام وإلى رئيس مجلس النواب فتبينت أن الأمر جد لاهزل فيه ، ولا مبالغة . وأنها أمام أمور واقعة ، وأن كانت شاذة في غرابتها ، فتوسع بعضها في النشر ، وكتب البعض الآخر معلقا مستنكرا وكان من جراء ذلك أن تقدم نائب محترم هو سعادة هارون سليم أبو سحلى باشا نائب فرشوط ليستجوب الحكومة عنها .. فطلبت الحكومة أسبوعين للرد على الاستجواب ، وينتهى الأجل الذى ضربته في يوم الاثنين ٢٢ يونيو ، وإنا لجد شغوفون بأن نسمع ما نقول ، وعسانا لا نسمع شيئا من تلك الردود التى كانت تداع في «العهد البائد» ، أو العهود البغيضة ، عندما كان رجال الحكومة الحاضرة في مثل موقفنا .

١٢- وكان لا بد مما ليس منه بد ، كان لا بد للموقف من تغطية ، وكان لا بد وأن تكون تلك التغطية بالساح للبعثة في متابعة رحلتها ، فسمح لها ، ولكن في كنف البوليس وفي حراسته ، إذ تلتقيها أفراد وجاعاته على طول الطريق ، يمنعونها عن الناس ، ويمنعون الناس عنها فطورا ينجح البوليس وتارة لا ينجح . حتى قطعت البعثة ، وفي هذا الحر المضنى ، نحو ٥٠ كيلومترا وصلت بعدها إلى دراو ، حيث كانت تنتظر أن يكون حامل خيامها قد ضربها في مكان مريح تستطيع البعثة أن تجدد فيه نشاطها ، ولكنه ضربها بأمر البوليس داخل «قشلاق» قديم مهتم بعيد عن العمران وفي جوف الجبل .

١٣ - واهتزت أسلاك البرق بالاحتجاج إلى مختلف المصادر الحكومية . ولكن بدون جدوى . فاضطرت البعثة دون أن تأخذ قسطها الكافي من الراحة . أن تتابع سيرها إلى كوم امبو . ثم إلى إدفو ، حيث أشرفت عليها يوم الجمعة ١٢ يونيو . وهناك علمت أن حامل خيامها وكان سبقها بطريق القطار قد اعترضه حاكم دار البوليس نفسه بمحطة إدفو ، ولم يسمح له بالنزول إلى البلدة . وقد كان فيها من أهلها من ينتظر مقدمه ليستضيفه ويستضيفه البعثة . وتركه حاكم دار البوليس هكذا محجوزا دون أن يمده بالطعام أو ما يسد به رمقه . وقد تصادف أن كان خالي الوفاض إذ لم يعمل حسابا لتلك المعاملة الشاذة ، فاضطر الرسول أن يستنجد تلغرافيا بالمركز العام بمصر طالبا إمداده بنقود ليأكل .

ومنع البعثة هي الأخرى من دخول إدفو ، كما منعت من تأدية صلاة الجمعة بأحد مساجدها ، فاللهم أغفر لأخى ... إنه مأمور !!

١٤ - ومضى يوم السبت ١٣ يونيو ، ونصف يوم الأحد . ولم ترد على المركز العام أخبار من البعثة ، وقد تركناها خارج إدفو ، بأمر البوليس ، فقلقت عليها الخواطر وأرسل المركز يستفهم تلغرافيا من إدفو ، فردت إليه برقيته . ومعها ما يفيد بأنها لم تسلم لأن البعثة سافرت شبلا . وبعد ذلك بقليل ورد من رئيسها البرقية الآتية :

«أصبحت حالة البوليس لا تطاق ، قابلوها رئيس الوزارة . الحالة حرجة » .

«أحمد حسين»

ونحن نختم بهذه البرقية بياننا الأول إلى الأمة مصدر السلطات . وهي غنية بما فيها عن كل تعليق ولا شك أننا سنسمع قريبا ، وقريبا جدا . صوت الرأي العام مدويا بالاحتجاج على من اعتدوا على الحريات التي كفلها الدستور ، وضمنتها قوانين الدولة .

١٥ - وجمعية مصر الفتاة لا تشكو ولا تتلمل ، فليست الشكوى أو التلمل في برنامجها وإنما -وهي الدستورية الصميمة ، وهي التي كانت في مقدمة مهنتي دولة رئيس حزب الأغلبية بعودة الدستور- تريد لمصر حياة دستورية سليمة . وليس من سلامة الحياة الدستورية في شئ امتحان الحريات العامة ، والاستهتار بها ، ومعارضة مصرى ووضع العراقيل في طريقه كلما اراد التنقل داخل بلاده ، والدستور صريح في أن حرية الانتقال مكفولة .

١٦ - وجمعية مصر الفتاة ، ومركزها العام ومجلس جهادها ، وشعبها ، وجنودها ، وأنصارها ، في كافة أنحاء القطر المصرى ، ترى من الوفاء عليها لرئيسها ، ومن معه من المجاهدين أن لا نختم بيانها هذا قبل أن تعلن مشاركتها لهم في كل ما يقولون ويفعلون ويتحملون ، في سبيل الله والوطن والملك . والله أكبر والمجد لمصر .

\* \* \*

ذلك هو بيان مصر الفتاة الذى أذاعه المركز العام في ذلك الوقت وهو لا يعطى سوى فكرة ضئيلة عن هذه الملحة بين بعثتنا والحكومة ..

هل يتصور القارئ أننا اضطررنا في بعض المراحل إلى أن نقطع خمسين كيلومترا في  
نهار واحد؟ بل هل يتصور القارئ أو يصدق أننا قطعنا في شوط واحد المسافة بين أسنا  
والأقصر، وهى تربو على السبعين كيلومترا. لأن البوليس كان يحول بيننا وبين أن نميل  
شرقا أو غربا، أو نرجع القهقري، فلم يكن أمامنا إلا أن نسير نحو الأمام، ونحو الأمام  
دائماً...

ولقد تورمت قدماى في نهاية الأمر، وعطينا وكان ذلك أشد ما يؤلنى في هذه  
الفترة، ولكننى صممت بالرغم من ذلك كله أن أمضى في رحلتى بالرغم من كل  
شئ... وحسبى الآن أن أذكر أسماء بعض هذه البلاد التى اجتريتها في رحلتنا وهى:  
الشلال - أسوان - دراو - الجعافرة - دار السلام - جبل السلسلة - الكاجوج - سلوى -  
الرديسية - إدفو - السباعية - الترعة - إسنا - العديسات - المطاعة - الشعب - أرمنت -  
نجم الجسور - البياضية - الأقصر - خزام - السهوية - قوص - الأشراف - قنا -  
المخادمة - دشنا - فاو.

وحسبى أن أقول للقارئ: إنه ما من مكان من هذه الأمكنة إلا ولنا فيه قصة ولنا  
فيه واقعة تروى، وتحكى فليرجع إلى جريدة الصرخة من شاء أن يطلع على تفاصيل هذه  
الملحمة الكبيرة... وكان لا بد لهذا المجهود الذى بذلناه وهذا الضغط الذى احتملناه أن  
يؤتى ثماره فى رأى العام... فكانت القنبلة وكان الانفجار المدوى الذى اهترت له  
أرجاء العالمين.

## اتهام مصر الفتاة

### بالخيانة العظمى

١٩

كانت فتيلة هذه القنبلة المدوية ، ذلك الاستجواب الذى تقدم به سعادة هارون باشا أبوسحلى نائب فرشوط ، وأحد رجالات الإدارة المشهورين فى مصر . كنت قد تعرفت بسعاداته إبّان رحلتى على ظهر الباخرة النيل إلى إيطاليا . واتصل بيننا الود بعد ذلك وتبادلنا الزيارات فلما أن وقعت بنا هذه الاضطهادات لجأ إليه إخوانى مستغيثين لكى يستجوب الحكومة فى هذه المخالفات الدستورية ، فتقدم بأول استجواب فى هذه الدورة النيابية ، أوفى هذا العهد الدستورى الجديد . فكان مجرد تقديم الاستجواب ونشر نصه فى الصحف أكبر انتصار لبعثة مصر الفتاة ، ودعاية لها ، لفت الأنظار إلى ما تعانيه وما تكابده . وإليك نص هذا الاستجواب :

« هل أصدر دولة وزير الداخلية أمرا بمنع سفر أعضاء جمعية مصر الفتاة فى رحلة إلى الصعيد ما داموا يلبسون القميص الخاص بهذه الجمعية ؟

وهل سمح دولته بعد ذلك بسفر هؤلاء الاعضاء بهذا القميص حتى وصلوا إلى أقصى الصعيد وعسكروا فى خيام لهم بالشلال ؟ ثم هل عاد دولته فأمر بمحاصرة هذه الخيام بحرس دائم من البوليس يرد عنها الزائرين ، ويحول بين هؤلاء الشبان وبين التجول والاتصال بالناس ؟

وهل أصدر أمرا بضرب الزائرين لهذه الخيام بالسياط على وجوههم واستعمال العنف والشدة معهم ؟

وهل سمع دولته أن مدير أسوان قد وزع على أعضاء الجمعية المعكسرين فى الشلال قصانا كاكية مما يلبس عساكر البوليس حتى لا يشاهد أعضاء هذه الجمعية بالقمصان الخضراء الخاصة بهم فلما لبسوها وذهبوا إلى أسوان أعادهم إلى الشلال بالقوة ؟

إذا كان دولته قد أصدر هذه الأوامر ، فهل هناك فى قانون الدولة ما يبيح للدخالية أن تمنع أحدا كائنا من كان لابس الزى الذى يريده ، والاقامة فى المكان الذى يحبه .

ونشر الدعوة التي يهواها ، ما دامت في حدود القانون والدستور ؟ وهل يعلم دولته أن رئيس الوزراء قد استعرض هو ووزير الزراعة شبانا يلبسون قمصانا زرقاء في سيدى جابر وأنه أعلن رضاه عنهم وعن نظامهم ؟

فإذا كان دولته يعلم ذلك فهل هناك نص في الدستور أو القانون يبيح لجماعة ما يحرمه على جماعة أخرى ؟ »

هارون سليم أبو سحلى  
نائب فرشوط

\* \* \*

### رد واتهام

هذا هو الاستجواب الذى تقدم به هارون باشا وهو على فراش المرض وقد أحدث تقديمه هزة في الرأي لغرابه الوقائع التي احتواها ، وتشوق كل إنسان في مصر سماع ما يقوله رئيس الحكومة ردا على هذا الاستجواب . ولكن إنسانا واحدا في مصر لم يدر بخلده لحظة من اللحظات أن الرد سيكون بمثابة قنبلة تنفجر في سماء الحياة المصرية ؛ لم يتخيل أحد أن رئيس الحكومة سيرد ردا يخلق مصر الفتاة خلقا ، ويرتفع بها إلى الصف الأول من عطف الأمة المصرية واهتمام العالم الخارجى ، لم يتوقع إنسان في مصر أن هذا الاستجواب سيثير في طول البلاد وعرضها عاصفة مدمرة تجرى الدماء أنهارا ، فيكون قتال في كل مدينة وفي كل قرية ، وتكون مشاجرات وتكون مساجلات حادة وعنيفة ، تدخل إلى كل حارة وكل زقاق ، بل وإلى كل بيت . وينقسم المصريون إلى قسمين قسم صغير يؤيد رئيس الوزارة ويوافق على قوله ، وقسم يؤلف الأغلبية العظمى في البلاد يستنكر هذا الرد وينحاز بكل عواطفه وتأييده إلى مصر الفتاة . لقد كان ما يتوقعه كل إنسان أن يجيء رد رئيس الحكومة منكرا لهذه الوقائع التي وردت في الاستجواب وأن يقول إن شيئا من ذلك لم يحدث ، وإن مصر الفتاة وبعتها تتمتع بالحرية المطلقة في تجاوها وأن الإجراءات التي تتخذ إنما هي لحماية أعضاء هذه البعثة من غضب الشعب الحائق عليها ... أجل كنا نتوقع أن يصور رئيس الحكومة قوات البوليس التي تحيط بنا وتحاصرنا ونحول بيننا وبين الاتصال بأحد إنما تفعل ذلك رحمة بنا وحماية لأرواحنا ، وقد كان مجرد تصورنا هذه الإجابة يملاً قلوبنا بالغضب والحق ولم نكن نعرف كيف نرد على رئيس الحكومة لو قال مثل هذا القول ، ولم نكن نعرف كيف نطلع الرأي العام على عدم صحة هذا الادعاء . ولكن شاء الله أن لا يرد رئيس الحكومة هذا الرد ، أو أن يرد أى

رد مألوف في مثل هذه الظروف ... شاء الله أن يكون رد رئيس الحكومة بدعا في تاريخ البلاد ، وأن يكون مقدراً له أن يقيم الدنيا ويقعدها ..

وإليك الآن هذا الرد الذي أصبحت مشوقاً لمطالعة كل التشويق . لقد اعتذر المرحوم هارون باشا مقدم الاستجواب عن حضور الجلسة بسبب مرضه بل وطلب من مجلس النواب إجازة حتى آخر دور الانعقاد ، ولكن الاستجواب في هذه الحالة لا يسقط لأنه ملك المجلس بأكمله ولذلك فقد تقدم الأستاذ عبد العزيز الصوفاني وأعلن تمسكه بالاستجواب ،

وأن المجلس في انتظار رد رئيس الحكومة . فوقف رئيس الحكومة صاحب الدولة مصطفى باشا . وألقى من فوق منصة مجلس النواب الرد التالي :

« ثبت لدى وزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد (ضجة) ولذلك قررت الوزارة حرصاً على مصلحة الدولة أن تمنع تجوال أعضاء هذه الجمعية في القرى بزي خاص . وقد بذلت لرئيس الجمعية النصيحة الودية بالعدول عن السفر إلى الصعيد فلم يستمع لهذه النصيحة ، وسافر هو ومن معه إلى أسوان ولم يتعرض لهم أحد ، ولكن اتخذت الإجراءات للحيلولة بينهم وبين التجوال في القرى بزي خاص والاتصال بالأهالي وذلك للسبب الذي بيناه .

« وليس صحيحاً ما ذكر في الاستجواب من إصدار الأوامر بضرب الزائرين لحنام الجمعية . وقد ادعى أحد الأشخاص في أسوان أن البوليس ضربه عندما كان يريد الاتصال بأعضاء الجمعية في خيامهم وحقت النيابة هذه الشكوى فثبت عدم صحتها وحفظها النائب العام إدارياً .

« أما عن القمصان الكاكي فإن مدير أسوان أخبر أعضاء الجمعية بعدم موافقته على تجوالهم بالقمصان الخضراء ، فادعوا عدم وجود لباس آخر معهم فأعطاهم قصصاً من الكاكي فلبسوها .. ولكن لما اتصل بعلمنا ذلك أصدرنا إليه أمرنا بمنعهم من التجول في الزي الكاكي أيضاً .

« هذا ولم تعرض الحكومة لجمعية مصر الفتاة في المدن الكبرى ، بل تركت أفرادها أحراراً يلبسون ما يشاءون في حدود القانون .

« وسبق لهذه الجمعية أن طلبت عقد إجتماع عام بمدينة الفيوم في شهر أبريل سنة ١٩٣٦ وصرحت وزارة الداخلية بعقد هذا الاجتماع على غير رأى مدير المديرية ، فتسبب

عن هذا التصريح تجمهركاد يؤدي إلى إخلال خطير بالأمن العام ، واضطر البوليس إلى إطلاق النار ، والمحافظة على أعضاء الجمعية ، إلى أن رحلوا من مدينة الفيوم في فجر اليوم التالي عائدين إلى القاهرة .

« كما أنه قد وصلت لوزارة الداخلية أخيراً تقارير من حضرتي مديري أسوان وقنا تفيد عدم ارتياح الأهالي لوجود هذه الجماعة بين ظهراهم ، ومن أمضوا هذه التقارير حضرة نائب إسنا المحترم .

« وإن هذه الجماعة التي تنطوي أغراضها وعلاقاتها على ما يضر بمصلحة الدولة الكبرى لا يصح مقارنتها بجماعة الشبان الذين يلبسون القمصان الزرقاء والذين تقوم مبادئهم على احترام النظام والقانون والعمل لخير البلاد ويتمون إلى هيئة سياسية مسئولة » (تصفيق)

\* \* \*

ألقي دولة النحاس باشا رده ، ولم يكذب يغادر المنبر بعد إلقائه حتى هبت العاصفة ، ولم تلبث أن تحولت خارج البرلمان إلى عاصفة جاثمة .

ذهل أعضاء مجلس النواب لهذه الإجابة ، فحلّق على رؤوسهم الطير ، ومرت الحظات قبل أن يستردوا أنفاسهم . ثم بدأ رد الفعل ، لما قال رئيس الوزراء ، بتجلى .

طالب الأستاذ فكرى أباطة بوجوب جعل الجلسة سرية لمناقشة هذا الاتهام الخطير ، ولكي يتمكن رئيس الحكومة من تقديم ما لديه من أدلة الاتهام ، ولكن رئيس الحكومة رفض أن يجعل الجلسة سرية ، وقرر أنه لن يقدم للبرلمان أى دليل ، فالمسألة تتعلق بسلامة الدولة وأسرارها العليا ، التي لا يمكن البوح بها ، وعلى المجلس أن يثق بالحكومة بدون مناقشة ، لأن الحكومة لم تصرح بما صرحت به إلا بعد التثبت والتحقيق .

ولكن المجلس لم يرض بذلك ، ولم يسكت عليه ، فاندفع الأعضاء من هنا وهناك يناقشون رئيس الحكومة ، ويخرجونه ، ويطالبونه بالدليل . وكان ممن تكلموا في هذا اليوم ، فأحسنوا الكلام دفاعاً عن مصر الفتاة ، سعادة عبد المجيد إبراهيم صالح باشا ، فقد راح يناقش إجابة رئيس الحكومة ويظهر ما انطوت عليه من تناقض ، وضعف يدل على عدم صحة الاتهام . فكيف يثبت لدى وزارة الداخلية ما ثبت لها من اتصال هذه الجماعة بدولة أجنبية ، ثم تسمح لهم بالتجول ونشر الدعاية في المدن دون الریف ، في الوقت الذي كان يجب أن تضرب على أيديهم ضرباً يحول بينهم وبين أى عبث بمصالح البلاد في المدن قبل الریف ..

وكيف تسكت الحكومة عن تقديم أمثال هؤلاء الخونة إلى المحاكمة ، ليدافعوا عن أنفسهم فثبتت براءتهم أو يحكم عليهم فينالوا جزاء ما كسبت أيديهم .

وبدأ رئيس الحكومة يرى جو المجلس النيابي مكفهرًا ، وبدأ يشعر بموقفه الضعيف ، وأن اتهامه لم يلق هوى في نفوس النواب ، بل على العكس قد أحدث رد فعل جعل الجماعة لديهم محل عطف وتقدير .

فأسرع رئيس الحكومة إلى استخدام سلاحه الأخير ، وهو أن يهيب بالنواب أن يثقوا به وأن يكفوا عن كل مناقشة ، ووضع شخصيته وكرامته في الموضوع .

ولما كانت أغلبية المجلس الساحقة من الوفديين ، فقد أقفل باب المناقشة وتقرر الانتقال إلى جدول الأعمال .

ولكن المناقشة التي أقفلت في مجلس النواب ، قد فتحت على مصاريحها خارج البرلمان : في الشوارع ، وفي المقاهي ، وفي النوادي ، وبين جدران المدارس والمصانع والمتاجر ، وفي الحقول وفي المزارع .

لقد راح كل مصري يسائل أخاه المصري هل سمعت ما قاله النحاس باشا في البرلمان من اتهامه مصر الفتاة بالخيانة ، فيجيبه الآخر في أسف : أجل لقد سمعت . فيسأله الثاني عن رأيه ، فلا يكون الجواب إلا في اتجاه واحد ، هو عدم تصويب النحاس باشا فيما قال وفعل . لقد كان حقاً عليه أن يقدم الدليل ، لقد كان واجبا عليه أن يقدم هذه الجماعة إلى المحاكمة ، فأما وهو لم يفعل فما كان عليه أن يلقى الكلام على عواهنه ، ويمس شيئا أطهارا بهذه القسوة ، ويقذفهم بهذا الاتهام الخطر ، دون أن يقدم على ذلك دليلاً أو شبه دليل ، ودون أن يهيئ لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم .

كان ذلك هو حكم الرأي العام ، بل حكم الوفديين أنفسهم ، ولم يتحمس لكلام رئيس الحكومة إلا هذا الفريق من الوفديين من لابسى الأقصة الزرقاء ..

أما الصحف الوفدية نفسها ، أما نواب الوفد ، أما عقلاء الوفد ، أما كل صاحب رأى في الوفد ، فقد أنكر ذلك الموقف كل الإنكار ، وإذا كان ذلك هو موقف الوفديين استطعت أن تتصور ماذا كان موقف غير الوفديين من هذا الاتهام .

ولقد كانت خطورة الاتهام بحيث جعلت البلاد تهتز له من أقصاها إلى أذناها ، وصدرت الصحف العربية والأجنبية وليس لها موضوع رئيسي إلا هذا الاتهام ، ولم يجد مراسلو الصحف الأجنبية في مصر ما يبرقون به إلى أربعة أركان المعمورة إلا هذا الاتهام لمصر الفتاة ، والمناقشات التي دارت حوله .



فلو أن مصر الفتاة جاهدت عشر سنوات متواصلة لتعلن عن نفسها لما استطاعت أن تعلن عن وجودها بمثل ما أحدثه هذا التصريح من ضجة وإعلان ، وفي عشية وضحاها انتقلت مصر الفتاة من حركة صغيرة محلية إلى حركة عالمية تتطلع الدنيا كلها إلى أبنائها ، وتحاول أن تعرف من أمرها كل شيء . فقد حاولت إنجلترا أن تعرف ما هي هذه الدولة الأجنبية ؟ وأطلت إيطاليا وألمانيا ليعرفا كنه هذه الدولة الأجنبية ؟ وتلمست روسيا الشيوعية حقيقة هذه الدولة ؟ وهرع المراسلون لصحف الدنيا كلها إلى دار مصر الفتاة يبحثون ويتقنون ويعلمون عن مصر الفتاة ما لم يكونوا يعلمون .

### في صفوف مصر الفتاة

أما رد الفعل في صفوف أبناء مصر الفتاة فقد كان رائعا وجليلاً ، لقد انفجرت حماسهم ، وثار كرامتهم ، وغلا الدم في عروقهم ، وأعلنوا عزمهم على الدفاع عن شرفهم وعرضهم بدمائهم ... وعلى عكس ما كان يتصور النحاس باشا ، من أن هذا الاتهام من شأنه أن يصرف شباب مصر الفتاة عنها ، زاد تعلقا واستمسكا بها ، بل وعصبية لها ، واستعدادا للتضحية في ظل رئيسها . ففي جميع أنحاء القطر من الإسكندرية حتى أسوان ، هرع أعضاء مصر الفتاة إلى النيابة العمومية ، يضعون أنفسهم تحت تصرف النيابة للتحقيق معهم ، ويعلنون تضامنهم مع رئيسهم ، ومجلس جهاد مصر الفتاة ، الذي بادر بمجرد إلقاء هذا البيان بالإبراق إلى النائب العام ، يضعون أنفسهم تحت تصرفه للتحقيق معهم فيما أدعاه عليهم رئيس مجلس الوزراء ، فكان ذلك مظهرا رائعا لتضامن أبناء مصر الفتاة ، وقوة إيمانهم وإخلاصهم ، فاهتزت البلاد كلها إعجابا بذلك التضامن العجيب .

ولقد أسرع المركز العام في القاهرة بإقامة اجتماع في مسرح برنتانيا ليرد على اتهام رئيس الحكومة ، فكان تهافت الرأي العام على حضور هذا الاجتماع لا مثيل له من قبل . بحيث أعيد طبع التذاكر بضع مرات ، واحتشد في مسرح برنتانيا أضعاف أضعاف ما يتسع له حتى خشى عليه الانهيار .

وفي ذلك الحشد وقف سكرتير الجمعية العام ومساعدته يخطبان مدافعين عن موقف مصر الفتاة ، فاستقبلها الجمهور بالتصفيق المتواصل بضع دقائق تكريماً لها ، وإعلاناً للثقة بمصر الفتاة . وكانت موجة من الحماسة لم يسبق للبلاد أن شهدت في اجتماع سياسي منذ سنوات وسنوات .

## الأقصة الزرقاء تهاجم

على أن قيادة الأقصة الزرقاء كانت قد قررت منذ علمت نبأ الاجتماع أن تهاجمه ، وقد تسربت أنباء هذا الهجوم قبيل الاجتماع ، ولكن أعضاء مصر الفتاة لم يحفلوا به ، وظنوه إشاعة من الإشاعات ، ولما جاء أو أن الاجتماع ورأوا هذه الجموع الغفيرة من البوليس الذى يحيط بمكانه أمنوا وأطمأنوا إلى أنه لن يكون هناك عدوان ، لأنهم لم يتصوروا أن تكون هذه القوات الضخمة من البوليس متآمرة مع فرق الأقصة الزرقاء ، وأنها ستفسح لهم الطريق ، وستعينهم على الفتك بأبناء مصر الفتاة . وقد تمت المؤامرة ، فعمل البوليس منذ أول الاجتماع على اعتقال كل الأعضاء البارزين من ذوى الأقصة الخضر ، بحجة أنهم اعتدوا على بعض الوفديين الذين جاءوا لحضور الاجتماع . فلما جاءت الساعة المتفق عليها إذا بالوف من ذوى الأقصة الزرقاء ينقضون على مكان الاجتماع ، وهم مسلحون بالخنجر ، ويحاولون الفتك بهذا العدد القليل من ذوى الأقصة الخضر الذى كان فى الاجتماع . ودارت معركة رهبة أبدى فيها بعض مجاهدى مصر الفتاة ألواناً عجيبة من البطولة والاستبسال التى أذهلت المهاجمين . فقد استطاع مجاهد واحد هو سليمان افندى الماوردى أن يتصدى لجموعهم ، وأن يبطش بكل من يحاول الهجوم عليه ، فكانوا يفرون مذعورين ، إلى أن تكاثروا عليه وظلوا يضربونه ويقاومهم حتى أثنى الجراح ، فسقط مغشياً عليه بعد أن أصاب منهم ما يزيد عن العشرين ، ولم يسقط إلا بعد أن جاء المدد ، وهرع إليه بعض نفر من أبناء مصر الفتاة ينددون عنه .

ولقد أصيب فى هذه المعركة عدد كبير من أبناء مصر الفتاة ، وجاءت عربات الإسعاف إلى ميدان المعركة تنقل إلى مستشفى قصر العينى الجرحى الذين سقطوا نتيجة المؤامرة الدنيئة .

وقد كان لهذه المعركة بعد تصريح رئيس الحكومة أثر بالغ فى رأى العام ، الذى ازداد عطفاً على مصر الفتاة ، والذى استنكر عن بكرة أبيه هذا العدوان الوحشى الذى لا يدل إلا على الفوضى وانقلاب الأوضاع . ولم تحف الصحف اشتمارها من هذا الاعتداء الذى وقع من ذوى الأقصة الزرقاء المسلحين بسلطان الحكومة .

## عودتى إلى القاهرة

دهمتنى هذه الأخبار ، كما دهمتنى الأخبار السابقة عليها ، الخاصة باتهام رئيس

الحكومة ، وكنا قد وصلنا في رحلتنا إلى مدينة نجع حمادى ، عندما وصلتنا أنباء معركة مسرح برنتانيا ، فرأيت أن أسرع بالعودة إلى القاهرة ، بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد من الخطورة . كنت قد تعمدت أن أتجاهل تصريح رئيس الحكومة ، وأن لا أجعل له تأثيراً في إتمام رحلتى ، واكتفيت بأن بعثت إلى النائب العام فى مصر برقية أضع فيها نفسى تحت تصرفه للتحقيق معى فى اتهام رئيس الحكومة ، وأعطيته مهلة للشروع فى هذا التحقيق ، بحيث إذا لم يفعل اعتبر اتهم رئيس الحكومة ضرباً من ألوان العبث ، ولا يبق على إلا أن أستأنف رحلتى التى بدأتها من الشلال ، وقد انقضى الموعد المضروب للنائب العام . ولم يصلنى منه أى رد على برقيتى ، فاستأنفت رحلتنا ووصلنا إلى نجع حمادى . وقد أتيت لى فى الأيام القليلة التى مرت بعد إلقاء تصريح رئيس الحكومة أن أشهد العطف الشديد الذى أحاطنا به رأى العام ، بما فى ذلك رجال البوليس أنفسهم الذين علا صوتهم باستنكارهم لاتهام رئيس الحكومة ، وبدأوا يحسنون معاملتنا قدر استطاعتهم ، ثم كانت أنباء معركة برنتانيا ، وأنباء هذه الدماء التى أريقت من أبناء مصر الفتاة ، وأنباء هذه الموجة من الاضطهاد الخائى الذى بدأ حول مصر الفتاة فى القاهرة ، وهنا لم يسعنى إلا أن أقرر العودة لأكون إلى جوار إخوانى فى هذه المحنة . وقد كان من رأى دائماً ، وسيتق من رأى حتى نهاية العمر ، أن أكون على رأس إخوانى وزملائى فى أى معركة من المعارك التى تخوضها مصر الفتاة .

ولم نكد نصل إلى القاهرة حتى اشتركنا فى المعركة على الفور . فى مساء اليوم الذى وصلت فى صباحه إلى القاهرة أحاطت جموع الشبان الغفيرة من ذوى الأقصة الزرقاء بدار الحزب فى العتبة الخضراء ، وهى تنادى بالويل والثبور ويسقوط أحمد حسين الخائن ، فرأيت أن أطل على هذه الجماعة وأن أخطب فيها ، وقد كان ذلك تحدياً للخطر المحقق لى ، ولم يكن هناك غير هذا الأسلوب لدفع هذا الخطر ، فقد فوجئ القوم عندما وجدونى أطل عليهم وأصيح فيهم طالباً منهم السكوت .. ولقد سكوتوا وبدأت أخطب فيهم ، وبدأ تأثير موقفى وحديثى يسيطر على الموقف ، ولكن واحداً من بين الجموع الزرقاء صاح بهم كيف تسكتون عليه .. اقتلوه ! . قال ذلك وقذفنى بحجر ، فانهالت الأحجار من كل مكان ، واضطرت للترجع تحت وابل من الأحجار ، ولكن الله سلم فى هذه الليلة فلم أصب بسوء ، وكان الدخول إلى مقر مصر الفتاة دونه عدة أبواب ودهاليز وسلام فتحصن بها أعضاء مصر الفتاة واستعدوا بالعصى والأسلحة فى حالة اقتحام الدار ، ولكن ذوى الأقصة الزرقاء تهبوا المهجوم علينا فى عقر دارنا ، فظلوا محاصرين المكان عدة ساعات ، والبوليس لا يحرك ساكناً ، إلى أن بدأ عددهم يقل

بالتدريج فى ساعة متأخرة من الليل ، ثم لم يلبثوا أن انصرفوا ، وانصرف كل منا إلى بيته .

وهذا الذى حدث فى القاهرة ، حدث مثله فى كل مدينة من مدن القطر المصرى ، حيث هاجم ذوو الأقصة الزرقاء نوادى مصر الفتاة وأعضاء مصر الفتاة ، ودارت معارك رهيبة سقط فيها جرحى بل وقتلى . وشاءت الظروف أن يكون القتلى من ذوى الأقصة الزرقاء ، فكان منهم قتيل فى كفر الزيات وقبض على أعضاء مصر الفتاة بتهمة ضرب أفضى إلى موت ... وكان قتيل آخر منهم فى دمنهور ، وقد كان ذلك حادثا هز البلاد هزا ، وكنت سأفقد حياتى فى هذا الحادث ، مما يجعلنى أعود إليه بشئ من التفصيل بعد قليل .

\* \* \*

## الدفاع

### أمام الشيوخ والنواب

٢٠

كان لا بد من دفاع يقال ردا على اتهام رئيس الحكومة . بصورة منظمة . تبلغ أسماع الرأي العام المثقف ، فرأينا أن خير طريقة لذلك هو أن ندعوا لقيفا من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ، ومندوبى الصحافة المصرية والأجنبية . لكى ألقى فيهم خطابا أذاع فيه عن نفسى وعن حركة مصر الفتاة . فأقمنا لذلك حفلة شاي فى محل « على الدلة » . وأرسلنا بطاقات الدعوة إلى أكثر من مائة من المدعويين الذين اخترناهم من بين الشيوخ والنواب ورجال الصحافة .

ولكن الحكومة لم تسمح بهذا الاجتماع وصادرته . وحال البوليس بين الشيوخ والنواب وبين الدخول إلى مكان الاحتفال . فكان هذا التصرف الجديد من جانب الحكومة . أحد التصرفات التى عززت جانب مصر الفتاة وأضعفت جانب الحكومة . فالتحاس باشا قد اتهم ولم يقدم دليلاً . فإذا أضيف إلى ذلك محاولته أن يسد علينا الطريق للدفاع عن أنفسنا بأى أسلوب من الأساليب . فقد أصبح ذلك هو الدليل الذى لا ينقض . على أن ما قاله كان لونا من ألوان الحرب الحزبية التى أراد أن يكيد بها لرهط من الشبان الأطهار . ومع ذلك فقد استطعنا أن ننشر الخطبة فى مجلة الصرخة . وأن نطبعها على حدة . ونوزع منها آلاف النسخ . وقد كان ذلك آخر العهد بانتظام جريدة الصرخة . فهى لم تلبث عقب نشر هذا الخطاب أن أصبحت محلاً للاضطهاد والمصادرة . عددا بعد عدد دون استثناء . إلى أن اضطررنا فى نهاية الأمر إلى الكف عن إصدارها جملة . لأن صدورها بات مستحيلاً فى ظل هذه المصادرة المتعاقبة . حتى بعد أن كففنا عن كل كتابة فى السياسة . وراح الأستاذ فتحى رضوان يملأ الجريدة بمقالات تهكمية حول مارلين ديتريش وجريتا جاربو وأيهما أجمل وأبرع . وحول الفاكهة المصرية ومصيرها . ولكن ذلك كله لم يُنجِ الصرخة من المصادرة . فكان لا بد من وقفها . وإليك الآن نص ذلك الخطاب . الذى كان مقررا أن يلقي على الشيوخ والنواب . وحالت الحكومة دون إلقائه . وإن لم تحل دون نشره . والإشارة إليه فى سائر الصحف .

## خطاب

«باسم الله . والله أكبر» أيها السادة . أبدأ حديث هذا المساء «باسم الله . والله أكبر» هذه الكلمة التي نرددها كما اشتد علينا الأمر وادلمعت الخطوب . فنجد فيها قوة . ونجد فيها أملاً وحياة . هذه الكلمة التي فتح بها أجدادنا الدنيا بأسرها . وذابت تحت حرارة إيمانهم بها الحصون . ودُكت تحت معاول إخلاصهم الجبال . وبهذه الكلمة السرمدية نجابه بدورنا حصون الاتهام فندكها . وجيوش الباطل فنهزمها .

وهل أستطيع قبل أن أمضي في حديثي إلا أن أشكركم من أعماق قلبي .. أشكركم لهذه الفرصة الذهبية التي أتحتوها لي . كما أحدثكم قليلاً عن مصر الفتاة . وحديثي عن مصر الفتاة لن يقف عند حد دفع الاتهام وإزالة الشبهات . لا .. أيها السادة ، فإن الاتهام الذي قذفنا به لم يعلق بنا حتى الآن . فإن الصحافة (وليبارك الله لنا فيها) والرأي العام . مستودع القوة والسلطات . ومن قبل هؤلاء النواب المحترمون . كل هؤلاء قد حكموا لنا سلفاً . وأصدروا حكماً ببراءتنا . براءة مشفوعة بالعطف والتأييد . فهذه الألوف من التأييدات التي انتهالت علينا . وهذه البرقيات . وهذه الرسائل بل هذه المقالات التي فاضت بها الصحف دفاعاً عنا . إن لم يكن من ناحية الشكل على الأقل . كل هذه أدلة على أننا قد ربحتنا قضيتنا . وأنتا خرجنا من هذه التهمة التي ألصقت بنا مرفوعى الرأس موفوري الكرامة . لا . بل أكثر كرامة . وأكثر رفعة من ذي قبل فليست المحنة إلا كالنار بالنسبة للمعدن النفيس . يخرج منها أشد لمعانا وشعاعاً . وكذلك نحن .. خرجنا من المحنة أكثر قوة وعصبية . وإيماناً بمستقبلنا وجهادنا . وحصلنا على ما لم يكن لنا من قبل .. حصلنا على عطف الرأي العام وتأييده .

## محكمة الرأي العام

أصدر الرأي العام حكمه في صالحنا إذن ، ولوسألتم الرأي العام لماذا حكمت لصالح هذه الجماعة ، لما استطاع الرأي العام أن يجد جواباً غير أنه قد حكم لنا لأن دافعنا في نفسه قد حمله على أن يحكم لنا ، ولكن هل دافعنا عن أنفسنا ؟ اللهم لا .

لقد قال رئيس الحكومة ، وهو أكبر رجل في الدولة بعد جلالة الملك ، إننا قوم نعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة بلادنا .

ورئيس الحكومة المتكلم يمثل حزب الأغلبية في مصر ، فكان جديراً بالناس أن يصدقوا هذا القول ، كما اعتادوا أن يصدقوا كل ما قيل لهم بالأمن عن هذا السبيل ! أجل كان جديراً بهم أن يفعلوا ذلك ، ولكنهم لم يفعلوا ... فلماذا ؟ هل قدمنا مستنداتنا ودفعنا التهمة ؟ كلا .. إننا لم نفعل ذلك ! حقيقة لم يقدم رئيس الحكومة دليلاً على اتهامه ولكن ، ألم يقل إنه من أسرار الدولة التي لا يجوز الإباحة بها . ألا يكفي ذلك في إقناع الرأي العام بأن هناك أدلة وأن سلامة الدولة تقتضي كتمانها ؟ حتى هذا أيها السادة لم يوقف تطلع الرأي العام للدليل ، ولذلك فلم يقنع بهذا الرد ، وأصدر حكمه لصالحنا ، ما في ذلك شك . وأقسم لكم أن الرأي العام ، يوم أن أصدر هذا الحكم لم يفكر طويلاً قبل إصداره ، وأقسم لكم أن الرأي العام يوم أن حكم لم يوازن الأدلة ويقرر الحجة بالحجة .

فإن أناساً ممن انتصفوا لنا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ولم يزد ما عرفوه عن الجمعية إلا أن رئيس الحكومة قد قال عنها : إنها تخون بلادها . ومع ذلك فإنه لم يصدق ذلك ، بل واستنكر هذا القول ، قبل أن يفكر فيه ، أو يعيه ، أو يتدبره ، لأنه غير قادر على التفكير أو التدبير ، أتعرفون إذن أيها السادة بأي وسيلة حكم لنا الرأي العام ، لقد حكم لنا بضميره ، لقد حكم لنا بقلبه ، لقد حكم لنا بغريزته . وصدقوني إن القول بأن إرادة الجماعة هي من إرادة الله ، وأن إرادة الشعب من إرادة الله ، صدقوني أن هذا القول هو من سنن الله سبحانه وتعالى ، والتي لن تجد لها تبديلاً . ذلك أن الضمير المشترك بين الجماعة ، محور العواطف الإنسانية بأسرها ، لا يمكن إلا أن يكون قبساً من روح الله سبحانه وتعالى ، والذي يحوى كل هذا الكون وأودعه كل صفاته . ومن هنا كان الشر من صفات الفرد ، ولكنه لا يمكن أن يكون من صفات الجماعة ، والجريمة من صفات الفرد ولا يمكن أن تكون من صفات المجتمع ، فالمجتمع هو مصدر الخير ، وهو مصدر الشرائع العادلة ، والرأي العام في مجموعه لا يخطئ إلا تحت مؤثرات وقتية ، لا يمكن أن تدوم طويلاً ، سرعان ما يعود بعدها إلى طبيعته الأولى ، والتي وصفها لكم . فللجماعة ضمير وللجماعة عاطفة ، وللجماعة غريزة . هذا الضمير ، وهذه العاطفة هي التي حكمت لنا ، وبراأت ساحتنا ، قبل أن نتقدم إليها بدليل واحد .

### شباب الأمة لا يخون

أجل ! لقد فزع الناس ولم يصدقوا . وأقسم إنهم لو جاءوهم بألف دليل ودليل لما صدقوا ، لأن هناك ما هو أقوى من الأدلة . هناك القلب الذي لا يخطئ مطلقاً ، والذي يرتفع فوق الأدلة ، وفوق الحجج . فنحن لاندرك الله بعقولنا ، مثل ماندركه بإحساسنا ، وقلوبنا . ذلك أن العقل من المادة ، أما العاطفة فن الروح ، والروح من أمر الله سبحانه وتعالى .

والأفأى قلب يصدق أن شباب الأمة وزهرتها ، شباب الأمة الذين هم في كل أمة عدتها وذخيرتها ، الذين هم مستودع أملها ورجائها ، من الذي يصدق أن جنود الوطن هم الذين يخونونه ؟ وأن آخر حصن من حصون الدفاع هو الذي يسقط قبل غيره ؟؟ من الذي يقول إن شباب الجامعة يخونون ؟ . وهم الذين قدموا أرواحهم ثمناً للدستور وللمفاوضات شباب الجامعة ، وهم الذين ضرجوا الأرض يدمائهم هاتفين « مصر فوق الجميع » فكان أن تحركت مصر بأسرها ، وتحرك الانجليز بالتالى ، فتراجعوا عن موقفهم المعروف إزاء الدستور .. شباب الجامعة ، هؤلاء لا يمكن أن يعملوا لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة بلادهم ، لأن جمعية مصر الفتاة ليست إلا شباب الجامعة . فنحن الذين أسسناها كنا بالأمس من طلاب الجامعة ، وجنودها اليوم هم شباب الجامعة . هؤلاء الذين يحيطون بكم هم زعماء الجامعة وأعز شبابها . هؤلاء هم الذين وصفهم رئيس الحكومة بأنهم يخونون بلادهم ! . فن ذا الذي يصدق هذه الدعوى ؟ وأى مصرى له قلب يمكن أن يستمع لها ؟ ذلك أن هذه التهمة لو صحت ، أيها السادة ، فعلام كل هذه الضجة إذن ؟ ! وعلام هذا التعيق وهذا الصراخ ؟ ! ألا فلتمزق الأعلام ، ولتنحط الصروح ، ولتقطع الألسنة ، أو لتكتم الأفواه ! ! ولتنحل الأحزاب ، ولتعطل الصحف ، وليصق في وجه الهاتفين بالحرية والاستقلال ! ! ولنسجل على أنفسنا

الحزب والعار ، ولنطأضى الرعوس راضين بالذلة والعبودية ، ذلك أن شباب مصر يخونون بلادهم لحساب دولة أجنبية ...

هذه هى النتيجة المنطقية لاتهام رئيس الحكومة . فأى مصرى يرضى بهذه النتيجة ويقرها ؟ وأى مصرى لا يثور عليها ويستنكرها ! فهل عرفتم بعد ذلك لماذا حكم لنا الرأى العام بدون أن تقدم دليلاً أو بياناً ؟! هل عرفتم لماذا أحاطنا بالعطف والتشجيع ؟! ذلك لأنهم يريدون الحرية والاستقلال ، ذلك لأنهم يريدون المجد لبلادهم ، يريدون الكرامة والشرف والرجولة ، ومن هنا فقد انتصروا لنا . وإذن فاجتماعنا اليوم للدفاع عن قضيتنا ، وهى قضية قد فصل فيها ، ليس لأنكم فى حاجة إلى دليل ، فالبداهات لا تحتاج إلى دليل . ولكن لنشكر صاحب الدولة رئيس الحكومة ، فقد أتاح لى باتهامه فرصة الحديث عن جمعية مصر الفتاة ، وبرنامج مصر الفتاة . وأنتم الذين سمعتم القذف فى جمعية مصر الفتاة ، جئتم الليلة لتسمعوا كلمة الخير عن مصر الفتاة .

### ماهى جمعية مصر الفتاة

فأهى مصر الفتاة أياها السادة ؟ أمهى جمعية . أمهى حزب ، أمهى جيش . أمهى ثورة أمهى حركة ، أمهى فكرة من الفكر ؟!

قد تكون جمعية مصر الفتاة مزيجاً من كل ذلك فى الظاهر ، ولكنها فى نهاية الأمر ليست إلا إيمان شاب ، ليست إلا إيمان الذى نشأت ودرجت عليه ، اختلط بلحمى وعظمى ، وسرى فى شرايينى مسرى الحياة ، مصر الفتاة وما تنطوى عليه من فكرة ومبدأ . هى الحياة التى أحياها ، هى الأمل ، وهى الرجاء ، هى التى ضحيت من أجلها بكل شئ : بشبابى وراحتى وحىى ولست أحسب نفسى أننى قدمت شيئاً ، هى التى آثرت من أجلها أن أحيا فقيراً وأن أموت فقيراً ، وأن يمضى على اليوم واليومان بغير قوت ، ولست أحسب نفسى إلا أغنى الناس طراً ، وأسعد الناس طراً ، مصر الفتاة هى إيمانى بأن هذه البلاد عظيمة ، خلقها الله لتعلم الدنيا بأسرها وأنها يجب أن تعود سيرتها الأولى ، معلمة للإنسانية ، وهادية ومرشدة للناس فهى فى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفى وسط الدنيا بأسرها بلادنا الغالية التى قدسها الله وكرمها ، وأعداها كياناً تكون زعيمة للعالمين . أعداها لتكون زعيمة للعالمين ، يوم أن أجرى فيها النيل فتحوّل الصحراء إلى جنات عدن ، وحول الفناء إلى وجود قبل أن توجد الحياة وتوجد المدنات ، وأكرمها وقدسها يوم أن تجلى فيها وتحدث فى أراضها بما لم يحدث فى أى بقعة أخرى من بقاع الدنيا ، وهذا هو ما تعلمنا إياه الكتب السماوية بأسرها .. فالتوراة والإنجيل والقرآن كلها تحدثنا عن الله سبحانه وتعالى ، وأحاديثه مع موسى وتجلىه فوق جبل الطور .<sup>(١)</sup>

### مصر بلاد الدين والعلم

بلاد مقدسة ، قدسها الله وأكرمها يوم أن أخرج منها الأديان جميعاً . وحىى فيها الأديان جميعاً . فاليهودية والمسيحية والإسلام كلها وجدت موئلاً حصيناً فى مصر ، وعاشت بين أهلها جنباً إلى جنب فى

(١) يشير المؤلف إلى الآية الكريمة « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صقاً .. » وغيرها من الآيات .



صفاء وولاء .. لا اضطهاد ، ولا تعذيب ، ولا تعصب ، ولا قتال . فصر هي التي ترعرت في حياها الديانة الموسوية ، وهي التي حمت المسيحية عندما كانت كنائسها تقفل في كل مكان ، تحت معاول روما ، ومصر هي التي كانت تحمي المسيحيين ، وما عيد الشهداء الذي يحتفل الأقباط به حتى اليوم إلا أثراً من آثار مصر التي قاومت الوثنية بدماء أبنائها ، وهي مصر بعد ذلك التي تزعمت الإسلام ، وحملت لواءه ، وقاومت أوروبا الصليبية بأسرها ، عندما حاولت أن تعتدي عليه . فصر هي التي قدمت للإنسانية ذخيرتها الروحية وهي التي قدمت لها ذخيرتها من المعرفة والعلوم والحضارة . إن جامعة عين شمس هي التي علمت الدنيا قديماً ، وإليها جاء فلاسفة الإغريق والرومان ، ولما أغلقت جامعة عين شمس أبوابها فتحت الإسكندرية جامعتها . وهي التي قامت من جديد تنشر النور وتضيئ أرجاء العالمين ، فلما توالى الحوادث وانتهت جامعة الإسكندرية بعثت جامعة الأزهر منذ ألف عام . وبينما كانت أوروبا والعالم يسبح في ظلمات العصور الوسطى ، كان الأزهر هو المنارة التي لم تقدم للإنسانية الإسلام وعلومه فحسب ، ولو أن هذا في حد ذاته هو أعظم تراث يقدم للإنسانية ، بل كانت تقدم له أيضاً علوم الطب والفلك والرياضة ، وكل ميراث الإنسانية من العلوم والمعرفة .

ومصر ، أيها السادة ، هي التي لم يجدوها الحربي من حين لآخر فبهر الدنيا بأسرها . ولست أعود بكم إلى عهد الفراعنة ، أو إلى عصر صلاح الدين ، لست أعود بكم إلى هذه العهود التي حاربت فيها مصر أوروبا كلها فانتصرت عليها ، ولكنني أذكركم بمصر منذ نيف ومائة عام ، عندما كان سكانها لا يتجاوزون ثلاثة ملايين ، وميزانيتها لا تزيد عن المليون . في ذلك الأمس القريب بدأت مصر نهضتها الحديثة فهزت الدنيا هزاً ، وسار الفلاح المصري ، خلف إبراهيم باشا ، يهزج أهاريج النصر ، حتى قرع أبواب أوروبا . في ذلك الأمس القريب سارت جيوشنا المنتصرة ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فصيرت البحر الأحمر بحيرة مصرية في أراض مصرية . وبسطنا سيادتنا على شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووقفت ممالك الدنيا تشاهد هذه النهضة الباهرة ، من بلاد خيل للناس أنها من سقط المتاع .

### العهد الذي قطعته على نفسي منذ الطفولة

منذ طفولتي أدركت هذه الحقائق ، ومنذ طفولتي أقسمت أن أقف نفسي ، وحياتي وشبابي على بعث هذه الأمة بعثاً جديداً . أحول ضعفها قوة وشكها إيماناً ، وفرقتها وحدة ، وتخلفها تطوراً وارتقاء ، ومنذ اللحظة الأولى التي كرسيت فيها نفسي لهذه الغاية ، لم أدخل في حسابي ، هل أقدر على إتمام هذه المهمة ، أو لا أقدر ؟ .. لم أدخل في حسابي ، هل أنا الشخص الذي يحتاجه هذه الأمة ليقيظتها ، أم لا ؟ .. لم أدخل في حسابي ، هل أنا كفء لإنجاز هذا العمل العظيم ، أم لا ؟ . : وكل الذي فكرت فيه أن كل مصري عليه أن يقوم بواجبه ، ولقد آمنت بمصر ومجدها ، فأيقنت أن واجبي هو أن أنشر هذا الإيمان ، وأن أعمل لنشره غير مدخر في هذا جهداً ، أو مالاً ، أو باخلٍ بنفس ، أو نفيس .. منذ اللحظة الأولى آليت على نفسي ألا أتكلم إلا عن مصر ، وأن لا أعمل إلا من أجل مصر ، وأن لا أحيا إلا من أجل مصر ، وهذا هو تاريخ طفولتي وشبابي بأسره ، سلسلة متصلة الحلقات في هذا الكفاح الذي رسمته لكم ، ولقد أخذ هذا الكفاح سمته العمل ابتداء من سنة

١٩٢٨ ، أى كانت سنى قد بلغت السابعة عشرة فى هذه السنة عُهد إلى بتحرير مجلة المدرسة الحديوية ، وكان ذلك عقب رحلة إلى صعيد مصر ، وزيارة آثارها ، كان لها أكبر أثر فى إيقاظ نفسى . وأخذت أكتب فى هذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان «رسالتى» لوأنكم طالعتم هذه المقالات ، وأرجو أن تسمحوا لى أن أتلو عليكم بعض فقرات منها ، إذن لعرفتم كيف أن مصر الفتاة هى كما قلت لكم ، إيمان اختلط بدمى وعظمى مذكنت صغيراً ، وأننى اليوم لا أقول حرفاً واحداً لم أقله بالأمس قبل أن تتصل فى الدول الأجنبية ، وقبل أن أعمل لحسابها ... ذلك أننى كنت حدثاً لا يسمع عنى الناس .

### إنشاء جريدة الصرخة

فلما أن حصلت على البكالوريا ، واجتمعت وأنخى فتحي ودخلنا الجامعة ، اتفقنا مع واحد من معارفنا أن يحصل لنا على رخصة لجريدة أسمينها الصرخة وقد صدر عددها الأول فى ٣ مارس سنة ١٩٣٠ .

فى مارس سنة ١٩٣٠ ، أصدرنا العدد الأول من الصرخة ، وكنا ولا نزال فى المهدي أياها السادة ، بالنسبة لرجال السياسة ، والوزراء ، والزعماء ..

منذ ست سنوات ، وكنا كما يريدون أن يصورونا فى هذا العهد ، مغمرين ، مستضعفين .. فإذا قلنا فى هذه الجريدة ، وماذا كتبنا ، وإلى أى الأفكار دعونا .. أحمد الله أن بقى فى محفوظاتى نسخ من هذه الجريدة ، سأوزعها عليكم كما تلمسون بأيديكم كيف أن مصر الفتاة التى تنهم اليوم بأنها صنعة أجنبية ، لم تقل حرفاً واحداً لم تقله منذ ست سنوات ، ولم تتحول ، ولم تتبدل قيد شعرة عن هذا الإيمان الذى نشأ فى صدورنا ، إذ كنا أطفالاً لا نعرف من الدنيا إلا الله خالقنا ، ومصر وطننا ..

فى هذه الأعداد الأولى ، دعوت لمصر الفتاة كما أنفلها اليوم .. فى هذه الجريدة دعوت لبعث مصر ، كما أدعو اليوم لبعثها .. لا أياها السادة .. بل فى هذه الجريدة علقت على المفاوضات بمناسبة سفر الوفد الرسمى إلى إنجلترا بكلام لا أستطيع أن أزيد عليه حرفاً واحداً إذا أردت أن أعلق على مفاوضات اليوم ..

فإذا أستطيع أن أقول للمفاوض المصرى اليوم أكثر من ذلك ... وماذا تقول مصر الفتاة غير ذلك ...

### مشروع القرش

تابعت كفاحى أياها السادة ، وقد بدأت جموع الشباب تنصرف عن السياسة وتخلد إلى السكينة ، وقد زهدت فى كل كفاح ، أو جهاد ، ففكرت فى حركة أستطيع بها أن أوقف الشباب من سباتهم العميق ، وأن أتدرج بهم إلى مصر الفتاة ، فناديت بمشروع القرش الذى تعرفونه .. دعوت المصريين إلى جمع قرش من كل مصرى ، وتشيد مؤسسة بالأموال المتجمعة ترد على مصر كرامتها ، وتوفر عليها تقودها ، وترتدنا عزة ووطنية ، فكان أن سخر الناس منى ، واعتبروا ما أقول خيالاً ، وهاجمتنى

الجرائد ، وهاجمتني بعض الأحزاب ، ولكنني سرت في طريقى حتى نجح المشروع ، وجمعنا سبعة عشر ألفاً من الجنهيات ، ثم أربعة عشر ألفاً في العام التالى ، فلما شرعنا في التفكير في إنشاء مصنع ، قلت نريد طرايشاً فقالوا مستحيل . ققلت وما قيمة الرجل وما قيمة الأمة ، إن لم تحاول المستحيل ؟ وبعد صعوبات وعقبات ، ودسائس ، ظفرت بإنشاء مصنع الطرايش ، فكان انتصاراً للإيمان والشباب .

وكان النجاح قذى في عين الشائين والحاسدين ، فشرعوا يحاربونى ويكيلون لى التهم ، فقالوا عنى سارق الألوف من مشروع القرش ، وأننى اقتنيت من مشروع القرش السيارات والعمارات ، والله يعلم أننى فى هذه الآونة أجوب القاهرة على ساقى ، لأننى لا أملك أجرة الترام .

### إنشاء جمعية مصر الفتاة

على أننى كنت انتهيت من دراسة الحقوق ، وخرجت إلى ميدان الحياة ، وكنت قد ابتعثت حولى شباباً يؤمن إيماناً بمصر ، ومجد مصر ، ويضحى بكل شئ من أجل مصر ، فرأيت أن الساعة قد حانت كيما أخطو الخطوة الأخيرة ، فى سبيل تنفيذ مبادئ مصر الفتاة ... فأعددت برنامجها ، ومبادئها ، ودعوت زملاى لتأسيس الجمعية فوافقونى ، وهم أكثر حماسة وغلينا منى ...

ولما كنت أعتقد أن رسالتى فى مشروع القرش قد كملت بإنشاء المصنع ، فقد قدمت استقالتى ، ونزلت إلى ميدان الجهاد بكل ما أملك ، وكل ما فى الطاقة البشرية من قدرة ومجهود ...

هكذا خرجت جمعية مصر الفتاة إلى الوجود كهيئة سياسية منظمة ، فاهى الدعائم ، وما هو البرنامج الذى اتخذناه نبراساً لنا فى كفاحنا الجديد ؟ ..

فأولاً لمصر الفتاة غاية تختلف عن غايات الأحزاب الأخرى ، ونظرة للحوادث تختلف كل الاختلاف عن نظرة أى سياسى فى مصر ، أو زعيم من الزعماء ...

فرجال السياسة فى مصر ، أو قل زعماء السياسة ، كل ما يصبون إليه ويفكرون فيه ، هو أن يحصلوا لمصر على معاهدة من انجلترا تحقق لمصر شيئاً من استقلالها فى ظل الاحتلال ، ولذلك فإن كل أساليبهم ، وكل جهادهم محصور فى هذه الدائرة الضيقة ، ولما كانت وسيلتهم إلى تحقيق ذلك هى المفاوضة ، فقد أصبحت المفاوضة هى الطريق الوحيد للحصول على استقلالنا ..

أما جمعية مصر الفتاة أيها السادة ، فإن نظرتها تباين ذلك كل المبانية ، فنحن نؤمن بأن بلادنا عظيمة ، وبأن لها رسالة للعالم بأسرها ، وأننا يجب أن نعمل للمجد والتفوق ، وأن الاستقلال ، أو بمعنى آخر أى معاهدة تقدمها لنا انجلترا ، ليست إلا الخطوة الأولى فى سبيل ارتقاء السلم الذى يوصلنا إلى زعامة الدنيا الروحية على الأقل ، فمصر الفتاة قد اتخذت غاية لجهودها أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شامخة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتترجم الإسلام ، هذه غايتنا أيها السادة ، وهى غاية قد يرى الشيوخ أنها خيال فى خيال ، ولكنى مؤمن بإمكان تحقيقها ، بل إني مؤمن أنها ستتحقق ، كما أنا مؤمن برويتى لكم الآن وبمحدثى معكم ، وإني لأرى العقبات فى طريق تحقيق ذلك البرنامج هيئة لينة ، ولست أرى كما يجيل للبعض أن انجلترا ستحول

دون تنفيذ هذا البرنامج ، لأننى واثق أن الساعة ستأتى ، يوم أن ترى انجلترا نفسها فى حاجة إلى أن تنبؤاً مصر هذه المكانة العليا لتكون لها حليقة قوية قادرة .

### وسائلنا الإيمان والعمل

وغايتنا هذه كما ترون ، تحتاج إلى إيمان وعمل كما نُحقق ، وهذه كل وسائلنا ، الإيمان والعمل .. فنحن نؤمن بحقنا ، ونحن نؤمن بغايتنا ، كما نؤمن بوسائلنا ، ونحن نؤمن بالنجاح فى نهاية الأمر .

أما العمل ، فهو عمل فى ثلاثة ميادين : الميدان الروحى الخلقى ، والميدان الاقتصادى ، ثم الميدان النظامى أو العسكرى . وعن طريق هذه الثلاثة ميادين ، ستحقق هذه الغاية العظيمة التى حدثكم عنها ..

فى الميدان الروحى والخلقى نريد أن نعيد للدين قدسيته ، وأن نعيد للأخلاق قوتها ، ذلك أن الدين للنفس والجماعة عدة روحية تجعلها تصبو إلى الكمال ، والمثل العليا ، فهؤلاء الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأرواحهم ، هؤلاء الذين يعرفون أن هناك ربا يرتفع إليه العمل الصالح ويشب كل امرئ بما عمل ، هؤلاء هم فقط الذين يخدمون أوطانهم ، وهؤلاء هم الذين يعرفون معنى الرجولة ، والشرف والكرامة ، وعلى العكس ، أولئك الذين انصرفوا عن الدين ، وزهدوا فى المثل العليا ، وأضعفت فى أنفسهم قوة الضمير والرقب الداخلى الخفى ، هؤلاء هم الذين يدمرون المجتمعات بشهواتهم ، وهؤلاء هم الذين يصانعون المستعمر ، ويرضون بالاحتلال فى سبيل مصالحهم الذاتية ، التى يعرفونها فوق كل شىء ..

ومن هنا أيها السادة أَدْعُو إلى الدين ، والتمسك بالدين ، وفضائل الدين وروحه ، وأنا أقدم الأخلاق وأمجدها ، وأحارب كل اعتداء عليها ، ولذلك فقد جاء فى مبادئنا : تطهر فقاطع الخمر ودور اللهو والحرام . وجاء فى برنامجنا : تطهر فصل لربك ، وأم المسجد يوم الجمعة إن كنت مسلماً ، والكنيسة يوم الأحد ، إن كنت مسيحياً ، ويوم السبت إن كنت إسرائيلياً .

وجعلنا شعار جهادنا بيتدئ بكلمة الله ، إيماناً منا وثقة منا أن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه ، وأن الدين منبع الأخلاق ، ولقد قال شاعرنا الخالد : « إنما الأمم الأخلاق » .

هذا هو الميدان الأول من ميادين جهادنا .

### كفاحنا الاقتصادى

أما الميدان الثانى ، فهو كما قلت لكم الميدان الاقتصادى ، فنحن نريد أن نعالج كل هذا الفقر الذى يعانى به السواد الأعظم .. ونريد أن نعالج الاختلال فى ميزانية الأفراد فى مصر . ونريد أن نوفر لمصر من الأموال ما يمكنها فى المستقبل القريب من أن تلعب هذا الدور الذى نصبوا إليه ، ولا سبيل لإصلاح ذلك كله ، وتحقيق هذه النتائج ، إلا بأن نشجع كل ما هو مصرى ، ونقبل على كل ما هو مصرى ، فصر يجب أن تمتلئ بالمصانع التى تغزل قطننا وصوفنا ، وكتانتنا ؛ ومصر يجب أن تمتلئ

بالمصانع التي تنتج لنا كل ما نحتاجه ، فنوفر بهذا عشرات الملايين من الجنيهات نصرفها كل عام في النافه والحقير ، مما يمكن عمله في مصر بأيدي مصرية .

والفلاح المصري ، يجب أن يكون محور اهتمامنا : تخفيف الضرائب عنه ، وذلك يكون بإنقاص مرتبات الموظفين الباهظة ، فإن هذه المرتبات نوع من الاحتلال الاقتصادي في مصر ، فلدينا بضعة ألوف من الموظفين يتقاضون مرتبا يزيد على المائة جنية ، وهناك ثلاثة عشر مليوناً قد لا يدخل في يدهم إلا بضعة قروش في العام بطوله ، يأكلون اللحم مرة واحدة ، ويرتدون الجلاب إلى أن يمزق على أجسادهم .

هذا الإصلاح الاقتصادي بتشجيع كل ما هو مصري ، وإنشاء المصانع والمتاجر ، وتوفير قليل من الثروة في يد الفلاح كفيلا بأن يغنى مصر في عشر سنوات ، ويملاًها بمئات الملايين من الجنيهات التي تمكننا من تحقيق برنامجنا العظيم .

### كفاحنا العسكري

أما ميداننا الثالث ، فهو الميدان النظامي أو العسكري ، فإننا من المؤمنين بالقوة أيها السادة ، وأن الأرض إرث للقوى ، وأن الشعب الضعيف جدير بالفناء . فسنة الله في أرضه هي تنازع البقاء ، هذه هي النظرية التي سجلها القرآن بقوله «فأما الزيد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» وقال الله سبحانه وتعالى في موضع آخر «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل»

فالقوة هي حصن الفرد ، وهي حصن الجماعة والشعوب . وإذا كان زعيمنا الراحل يقول الحق فوق القوة ، فأني أقول إن الحق هو القوة .. والقوة لا يمكن أن تنبع إلا من الحق .. فيوم أن أومن أنني على حق فأنا قوى ، والعكس بالعكس .

ونحن ، المحامين ، أكثر ما نكون شعورا بذلك ، فعندما ندافع عن قضية حتى فنحن أقوياء ، ونحن على استعداد أن نتحدى النيابة ، وأن نتحدى القانون ، وأن نتحدى الدنيا كلها بعدالة قضيتنا .

فالحق إذن مصدر للقوة ، وعلى صاحب الحق أن يتذرع بالقوة للحصول على حقه ، وإلا فلا حق له . هذا هو ما تعلمنا إياه حوادث القانون الدولي بأسرها ، ولست أحسب أن ما جرى في الحبشة بعيد . فلم أكن أعتقد يوما من الأيام أن الحبشة ستدافع عنها عصبة الأمم ، أو أن الخمسين دولة التي طبقت العقوبات بقيادة على أن تدفع عن الحبشة رصاصة واحدة . وعندى لو أن الدول بدل كل هذه الضجة صددت الأسلحة إلى الحبشة في الساعة المناسبة لتغيرت نتيجة هذه الحرب .

فعلى الشعوب التي تريد الحياة أن تتذرع بالقوة : القوة الروحية أولاً ، والقوة المادية ثانياً . ومن هنا فنحن نجاهد لخلق جيل قوى من الشباب المصري ، قوى ببنيته وجسده ونظامه . فالنظام هو قوة الجيوش الحديثة ، ونحن نريد أن نغرس روح النظام في مصر فتضاعف قوتنا .

هذه هي الثلاث قواعد التي عليها كفاح مصر الفتاة ، فإذا انتصرنا وسارت هذه المبادئ فإن لنا برنامجاً عمرياً إنسانياً ، يحدد مصر في كل الميادين ويعدها لأداء رسالتها .

### محاربة خصوم الجمعية تأثير الاتهامات

منذ خروجنا إلى الحياة الرسمية ، من ثلاث سنوات ، والحكومات المختلفة تحاربنا ، ما عدا حكومة ماهر باشا . حاربنا حزب الوفد فاتهمنا أول ما اتهمنا أننا صنائع الإنجليز ، ثم قالوا عنا سارقو مشروع القرش ، ثم قيل عنا صنائع الإبراشي . وإذن فالإتهام الجديد ليس إلا صورة جديدة من الصور التي يراد تصويرنا بها كيما نهزم ، ونتوقف عن جهادنا . ولو عرف النحاس باشا حقيقتنا ، لعرف أننا لا تؤثر فيها هذه الاتهامات ، ولا يمكن أن ترتفع إلى مستوى أقدامنا . ذلك لأننا لا نطمع في حياتنا إلا أن تؤدي واجبنا . وإذن فنحن لا يمكن أن نهزم : فلا مطامع شخصية لنا ولا لذاتنا . لسنا نريد كرامى الحكم فالإتهام يبعدها عنا . ولسنا نتقدم في الانتخابات فالإتهام يسقطها فيها . وإنما نقول كلاماً لا يمكن أن يرفض سماعه مصرى واحد . إننا نقول كلاماً لا يمكن ألا يتأثر به مصرى واحد . وإلا فأى مصرى لا يجب أن يسمع أناشيد المجد والفخار التي نلقها ونحدثها بها ؟ أى مصرى واحد بغضبه أن نقول له « لا تشتري إلا من مصرى ولا تلبس إلا ما صنع في مصر ولا تأكل إلا طعاماً مصرياً » ؟ أى مصرى واحد لا يفرحه أن نقول له « بلادك هي مصر والسودان لا ينفصلان ولا يتجزآن » ؟ أى مصرى واحد لا يسعده أن يرى الشباب في صفوف منتظمة تستعد لبذل أرواحها في سبيل قضية بلادنا ؟ فحركتنا لا تهدم لأنها صوت الجيل الجديد وجهاده ، ومن يرد أن يحطمنا فهو كمن يريد أن يحطم مستقبل مصر ، وجيش الغد القريب .

### من أين نجىء النقود ؟

يتساءلون من أين نحضر النقود التي نقيم بها هذا العمل العظيم ؟ ولو أنهم دخلوا إلى أصغر شعبة من شعب مصر الفتاة وأجروا فيها تحقيقاً بسيطاً ، لعرفوا من أين نصرف على هذه الحركة . فهذه القروش التي يدفعها كل عضو هي التي تؤلف رأس المال الصغير . فإذا كان الله يبارك فيها ويجعلها تعادل عشرات الألوف من الجنيهات ، فذلك هو عمل الإيمان وذلك هو سر الله سبحانه وتعالى .

وهل ذنبى أيها السادة أن يكون خصمى جاهلاً بقوى ؟ فخصومنا يكونون اعتقادهم عنا على الوجه الآتى : « دول شوية عيال منين ييجيوا القلوس ؟ ! » ولست مطالباً بالرد على هذا السخف ، ولست مطالباً بالرد على هذا الجهل . فجمعية مصر الفتاة هي جيل بأسره . ولا يوجد شاب واحد مثقف في مصر ، وفي نفسه وطنية صحيحة لا ينضوى تحت لوائها . وجمعية مصر الفتاة لها مئات الشعب في أنحاء مصر ، وجمعية مصر الفتاة فيها عشرات الألوف من الأعضاء . ومن بين هؤلاء الأعضاء الغنى والفقر ، ومن بينهم من يتبرع بمبالغ كبيرة للجمعية . فبدلاً من أن نحاول خصومنا أن يتعرفوا حقيقة حركتنا إذا بهم يتعامون عن الحقائق . ثم يصرخون من أين يجيئون بالنقود ؟ ! من أين يجيئون بالنقود ؟ ! هل لكم أيها السادة أن تزوروا دار مصر الفتاة كيما تعرفون منها أن تاجر الورق يدايننا بسبعين جنيهاً . هل لكم أن تزوروا الجمعية لتعرفوا أننا لم نسدد بعد إيجار الشقة التي نقيم فيها منذ

شهرين . ولست أقول لكم هذه الأشياء كما أشكو أو أتضجر بأننا فقراء ، ولكننى أسرد هذه الحقائق كما أظهر لكم أننا لا سر لنا ، وأى بوليس سرى من مئات رجال البوليس الذين يملأون جمعيتنا ، يعرف هذه الحقائق ويعرف الصعوبات التى نعانىها فى الحصول على المال .

خذوا مثلاً هذا الاجتماع.. من أين حصلنا على نقوده ؟ حصلنا عليها من الاكتتابات التى جمعناها بالقرش والقرشين ، حتى جمعنا أربعة جنيهات هى مصاريف هذا الاجتماع . أليس سخفا ما بعده سخف أن يقال عنا أننا نشتغل لحساب دولة أجنبية ؟ أسائل نفسى عن هذا الذى يخون بلده... ما الذى يضطره لذلك إلا أن يرغب فى الثروة والجاه والمال ؟ فلماذا لم يحاول أى واحد من هؤلاء الذين يدعون هذه الدعوى أن يزورنى فى بيتى ليرى فى أى حجرة أقيم ، وأى طعام أكل ؟.. كيف يتخيل هؤلاء الذين قالوا هذه الدعوى إن خاتنا لبلاده يسافر إلى الصعيد فى الصيف كما يسير على أقدامه ؟ ولديهم من التقارير أننى كنت أسير حافى القدمين واننى كنت أسير أحياناً وأقدامى تمزقت من السير ؟ ولديهم من التقارير أن هذا الخائن كان يأكل فى رحلته هو وإخوانه خبزاً وجبناً ؟ وأنا كنا نشرب مياه البرك ؟ هذا نحن أيها السادة ، وهذا هو أسلوب حياتنا ، أن نقدم كل شئ من أجل بلادنا .

وليئناؤا هم بوطنتهم التامة التى درت عليهم الذهب ، والتى أسكنتم القصور .

### صفحتى وصفحتهم

هذه هى صفحتى أيها السادة وتلك هى صفحتهم ، لقد كنت أستطيع أن أبقي مديراً فى مشروع القرش ، وأن أشيد فى كل عام مصنعاً أكون مديراً له . وكنت أستطيع أن أكون محامياً أكسب مئات الجنيهات من حين لآخر ، وكنت أستطيع أن أكون موظفاً فى أعلى الدرجات ، كما عُرض على أكثر من مرة . ولكن ها أنذا لست فى وظيفة ، ولا أملك مليماً واحداً ، وهم يحاربوننى من كل جانب ، حكومة وغوغاء ، فإلى الذى يغربنى على احتمال ذلك كله ؟ ومن أين أستمد الشجاعة لمجابهة ذلك كله ، إلا أن أكون مخلصاً لبلادى ؟ أولاً وأخيراً .. والله وحده هو الذى يعلم ذلك ، فهو الذى يمنحنى القوة والتأييد .

يقولون أيها السادة «إن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» ولم يقدم خصمى دليلاً على قذفه . وها أنذا قدمت الدليل لكم على براءتى ، بأن سردت لكم صفحة أعمالى وهى كل ما أملك دليلاً على طهارة جهادى وسلامتى من الأغراض . على أننى أذهب إلى أبعد من ذلك فأقسم لكم اليمين . لا بل إنى أفعل ما هو أكثر من ذلك ، أفعل ما دعا إليه رسول الله خصومه عندما قال لهم : «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين»

فتعالوا يا من ثبت لكم أننا نعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة وطننا ، تعالوا نبتهل إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، وإنى لأبادر منذ الآن ، فأستعوضك يا رب ! يا من تعلم ما فى القلوب وحناءيا الضلوع ، يا من تعرف إخلاصى ، يا من أنطقتنى وأجريت الدم فى شرايينى .. يا رب !! يا من تحصى علينا الأنفاس وخلجات الأعين .. اللهم إن كنت تعرف عنى الكذب والخيانة ، فاللهم

زلازل الأرض تحت قدمي ، اللهم اسحقني سحقاً . ولا تبني على الأرض منافقا واحدا . وإن كنت تعرف الأخلاص والصدق مني ، فاللهم أنزل سخطك وغضبك على الكاذبين المنافقين ، اللهم أنزل سخطك وغضبك على الخائنين المارقين . اللهم أنزل سخطك وغضبك على من يقذف الناس بالباطل ، وهو يعرف أنه باطل .

### نحن والدولة الأجنبية

يقولون إنني في خدمة دولة أجنبية ، وأنا الذي تخاربتني إدارة الأمن العام الأوربية لأنها تعتقد أنني عدو الأجانب . أنا في خدمة دولة أجنبية ، وها هي «الاجيشيان جازيت» تقول عنا إننا جمعية لاهم لهم إلا طرد الأجانب . ذلك أنه عرف عن مصر الفتاة مقاطعتها لكل ما هو أجنبي . عرف عن مصر الفتاة أن محور جهادها هو تعظيم كل ما هو مصري ، والتقليل من شأن كل ما هو أجنبي ، عرف عن مصر الفتاة أنها متعصبة ضد الأجانب ، والأجانب جميعا من غير استثناء . فدولة إيطاليا قد طلبت من الحكومة المصرية في عهد وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، أن تحاكمنا وقد قدمنا للمحاكمة بالفعل . ولا تزال القضية منظورة أمام محكمة الجنايات ، وهي مؤجلة إلى دور مقبل . ويستطيع أي واحد منكم أن يطلع على هذه القضية .

أما ألمانيا فقد كان لها موقعة معنا ، بمناسبة سيرك هاجنبيك الألماني ، فقد دعونا لمقاطعتها ، وقبض على عشرات من أعضاء الجمعية بسبب مقاطعتها .

وانجلترا ها هي ذى تخاصمنا ، وترسل علينا صواعقها . على لسان رئيس الوزارة بإيعاز من إدارة الأمن العام الأوربية .

أما روسيا فليس في مبادئنا سطر واحد . أو كلمة واحدة . أو حرف واحد ، لا يحارب الشيوعية ولا يناقضها . فنحن الذين ندعوا للأديان . ندعوا للوطنية المتطرفة ، ونحن الذين نقدر الملك ، ونحن الذين نقاطع كل ما هو أجنبي . لا يمكن أن يقال أننا من دعاة الشيوعية .

فإذا بقي من الدول الأجنبية لتكون متصلين به ضد مصلحة وطننا ، إلا أن تكون اليونان أو رومانيا أو الحبشة تفكر في امتلاك مصر ! يا لها من كبيرة ! يا لها من كبيرة أيها السادة ، لا تؤثر فينا بقدر ما تؤثر في مصر بأسرها . يا لها من كبيرة طعنت مصر طعنة نجلاء أمام الدنيا وأمام العالم ، أن يقول رئيس وزارتها أن شبابها يخونونها . ألا ترون أن رئيس الحكومة قد وصم مصر وصمة عار إلى الأبد . ألا ترون أنه قد أضعف حجته في المفاوضات غداً ، عندما تقول إنجلترا «أريد كذا وكذا من الضمانات» فإذا حاول أن يعارضها جابته بكلامه . بأن هناك دولاً أجنبية . بمساعدة المصريين ، تريد أن تحتل مصر . سامح الله النحاس باشا . كنت أحسبه إذا اكتشف خيانة مثل هذه الخيانة أن يقدم رأسنا للجلاد ، كما يبرهن للدنيا أن ثمن الخيانة في مصر هو القتل ، أو إذا لم يكن لديه من الأدلة ما يكفي لإعدامنا . أن يستر قليلاً وأن يداري هذا الحزى ، لأن يسجله على أمته .

### نحن والأجانب

نحن دعاة دولة أجنبية . نحن الذين نصيح منا الأجانب . ويتهموننا بالتعصب ، وهنا أريد أن



أقف قليلاً وأن أفسر هذه الناحية من برنامجنا . وهل نحن نكره الأجانب ؟ إذن اسمعوا مني ايها السادة كلمة صريحة جريئة . اسمعوا كلمة لا مواربة فيها ولا عداء . إننا لا نكره الأجانب ، ولكننا نكره أن يتحكم فينا الأجانب . أجل فنحن لا نكره أحداً ، ونحن لا نضمر حقداً لأحد ، ولكننا نريد أن نكون السادة لبلادنا . نريد أن نكون أحراراً في بلادنا ، وبعدها سنكون كرماء لضيوفنا . فلست نرضى بعد اليوم عن وجود الامتيازات ، ولست نرضى عن المحاكم المختلطة ، هذا هو الحاجز ، وإن أعلن بأعلى صوتي أن مصر قد خلقها الله لأبنائها ، لا لتكون موئلاً للأجانب .. ونحن على استعداد أن نقاسم الأجانب خيرات هذه البلاد ، على استعداد أن نفتتحها لهم على مصارعها ، فلا يجدون فيها إلا كل إكرام وترحاب . ولكن على شرط أن نكون على قدم المساواة . أما أن يظن الأجانب أننا نقل عنهم رتبة في الإنسانية . فهذا مالا نرضاه وهذا هو ما نقاومه بكل قوانا . وهذا ما يجعل الأجانب يظنون خطأ أننا نكره الأجانب ولا نحبه . وعمل أية حال فهذا يدلهم كيف جاء اتهام النحاس باشا في أقوى نقطة من مصر الفتاة فكان هجومه علينا من هذه الناحية كمن يهاجم الإسلام من ناحية التوحيد ويدعى أن الإسلام يعدد الآلهة .

### نحن والإنجليز

يحاول الإنجليز أن يفهموا النحاس باشا أن الاتصال بدولة أجنبية معناه الخيانة فيصدقهم النحاس باشا ، ويقذفنا بهذا القذف الشنيع والذي أساء به إلى مصر قبل أن يسمى إلينا ، ولأن أصرخ بأعلى صوتي كما يسمعها السادة الإنجليز وليسمعها النحاس باشا ، نريد لهذه البلد حريتها واستقلالها ، نريد لهذه البلاد حقوقها ومجدها ، فإن أعطانا إياها الإنجليز فيها ونعمت ، هذه أيدينا نغدها لهم في وضوح النهار ومعها قلوبنا وصدقاتنا ، أما إن أبوا إلا أن يقتصبوا حقوقنا وأن يهدروا إكرامتنا ، فلن ندخر وسعاً في العمل على استخلاص حقوقنا ، ولورأيت أن الاتصال بدولة أجنبية سيقربنا من الاستقلال والحرية ، فلن نتأخر دقيقة واحدة عن هذا الاتصال ، لأننا نعتقد أننا إن لم نفعل ذلك نكون خونة لبلادنا ، إما أن نكون في سلام ووثام وصدقة على قدم المساواة ، وإما أن نكون حرباً عواناً لا تعرف هوادة ولا ليناً . هذا هو رأيي في الاتفاق بين مصر وإنجلترا ، قلتها في لندن . وسجلتها في مذكرتي التي وزعتها هناك . وها أنذا أقولها على رؤوس الأشهاد كما تبلغ أسماعهم من جديد . إن مصر ترغب من صميم قلبها أن تكون حليفة مخلصه لإنجلترا . ونحن على استعداد لأن نصون مصالح إنجلترا بأموالنا ودمائنا ، ولكن فليتركونا أولاً أحراراً في جيشنا . وفي بلادنا ، فليردوا لنا سوداننا . فليعاملونا كدولة كاملة السيادة ، ولها حق البقاء والمساواة . لأن نظر الإنجليز لنا هذه النظرة فما أنذا أحمد حسين الذين يقولون عني متطرف سأكون أول رجل يقف بجانب إنجلترا . ويدافع عن قضايا إنجلترا . أما إن أبي الإنجليز إلا أن ينظروا لنا هذه النظرة الحقيرة . إلا أن يحتلوا بلادنا . ويجردونا من السلطان والسيادة في الداخل والخارج ، فلا ينتظر الإنجليز مني ومن إخواني ومن كل شباب مصر . بل من كل مصر . لا ينتظرون منا إلا أننا سنعرف كيف نموت في ميدان الشرف ..

ليست الدنيا ذهباً ومناصباً وقصوراً أيها السادة . بل الدنيا حرية وكرامة وشرف . ونحن جيل جديد نأبى الخنوع والذل ، ولا نرضى بأقل من الحصول على الشرف الكامل ، أو الموت في سبيله ..

## كلمة أخيرة

هذه هي مصر الفتاة ، وهذه هي مبادئها وبرامجها وروحها ، فليقولوا عنا إننا نعمل لحساب دولة أجنبية ، فليقولوا عنا أننا خونة لبلادنا ، فليقولوا عنا ما شاء لهم الهوى ، فهذه هي صفحتنا فليرونا صفحتهم ، وهذه هي مبادئنا فليرونا مبادئهم ، وهذا هو موقفنا من الإنجليز فليرونا موقفهم ، وهذا هو موقفنا من الأجانب ، فليرونا موقفهم . إننى أتحداهم أن يكون لهم برنامج مرسوم فى أى ناحية من نواحي الحياة المصرية ، أتحداهم أن تكون لهم مبادئ ، أو أن تكون لهم وسائل ، إذن فعلاهم يتهمون الناس بالباطل ، وينسون أنفسهم ، علام يهاجمون الناس والدليل يُعوزهم ، إنها إرادة الله سبحانه وتعالى فى أن يظهر حقيقتنا ، وأن يكشف عنا للدنيا بأسرها ، فكان هذا الاتهام كىما يكون هناك دفاع .

فشكرا للنحاس باشا من أعماق القلب على ما أتاحه لى من فرصة للدفاع ، وشكرا لكم يا من جئتم إلى هذا المكان لتسمعوا أقوالى ..

، وبعد أيها السادة إننا ماضون فى طريقنا على بركة الله وبمعاونته ، ووالله لن يثنيانا وعد ولا وعيد ، ولن يخفينا إرهاب أو اضطهاد ، إننا مع الله ومن كان مع الله فالله معه .

والله أكبر

## رفع دعوى على رئيس الحكومة

٢١

ورأيت بعد هذا الخطاب أن أتقدم خطوة جديدة في الهجوم على رئيس الحكومة ،  
فأريت أن أرفع عليه دعوى مدنية ، أطالبه فيها بتعويض مقداره عشرة آلاف من  
الجنيهات . فكان لرفع هذه الدعوى رنة اعجاب في جميع أنحاء البلاد ، فقد أظهرت  
مدى ما وصلنا إليه من السيطرة على الموقف ، بحيث تحولنا إلى مهاجمين لرئيس الحكومة  
بعد أن كان هو المهاجم لنا ، وفيما يلي صورة من عريضة الدعوى التي رفعناها على  
الحكومة في ذلك الوقت :

لأنه في يوم

بناء على طلب الأستاذ أحمد حسين المحامي عن نفسه وبصفته رئيساً لجمعية مصر الفتاة ، ومقيم  
سكناً بشارع عمر بن عبد العزيز رقم ٧ بالمنيرة .

ومحله المختار مقر الجمعية المذكورة . رقم ٥ بالعنة الخضراء .

محضر محكمة

أنا

قد انتقلت في التاريخ المذكور بعاليه إلى الجهة المذكورة حيث المحل والمقر الرسمي لحضرة صاحب  
الدولة مصطفى النحاس باشا بصفته الشخصية ، وبصفته رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للداخلية ،  
مخاطباً إياه وأعلنته بالآتي :

أعلن الطالب في إبان شهر مايو سنة ١٩٣٦ باعتزامه القيام برحلة إلى الوجه القبلي هو ونفر من  
أعضاء - جمعية مصر الفتاة - سيرا على الأقدام ، ابتداء من الشلال حتى القاهرة ، منتقلين من بلدة  
إلى بلدة ، ومن قرية إلى قرية ، مستطليعين حالة الفلاح ، وناشرين ما يقدرون على نشره من مبادئ  
الجمعية التي تدعو لعبادة الله وتقديس الوطن والإخلاص للعرش ، والتي تدعو لتشجيع كل ما هو  
مصرى وملء النفوس بالإيمان والإخلاص والرجولة ، ويظهر أنه عز على الحكومة أن يقوم حزب غير  
حزبها بهذه الدعاية ذات الأثر الكبير في صفوف الفلاحين ، فأرسلت إلى الطالب تنبيه عليه ألا يرتدى  
القميص الأخضر ، ولما كان هذا الطلب لا يستند إلى أى قانون بل إن الحكومة تشجع ارتداء قميص  
من لون آخر هو الأزرق ، فقد رفض الطالب إطاعته وسار في رحلته هو وثمانية من رفاقه غادروا  
القاهرة في قطار الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٨ مايو ، وبمجرد وصولهم إلى الشلال أحاطهم البوليس  
بضروب من الاضطهاد والتضييق تتنافى مع أبسط قواعد الحرية التي يفرضها القانون والدستور ، فن

حصار يحول بينهم وبين اتصال الناس بهم ، ومن منعهم عن شراء الطعام أحيانا ، بل وصل الاضطهاد إلى درجة منعهم من ( صلاة الجمعة ) في أكثر من مكان واحد ، ففي مدينة إدفو من أعمال مديرية أسوان مثل ما في مدينة حزام من أعمال مديرية قنا ، وقد حققت النيابة في هذه الواقعة الأخيرة وتحير بذلك محضر ، وقد هال مجلس النواب هذه الإجراءات الشاذة التي تتعارض مع أبسط قواعد الحرية ، فقدم حضرة النائب المحترم هارون سليم أبو سحلى باشا استجوابا للحكومة يسألها عن صحة هذه المعلومات ، والدافع الذى يدفع الحكومة لاتباعها ، وكيف توفق بين هذا وبين قيام الحياة النيابية والدستورية ؟ . ولقد كان المفهوم أن الحكومة سترد على هذا الاستجواب بأن تنفي حوادث الاضطهاد وأن تدعى أن البوليس إنما يقوم بإجراءاته الشاذة لكى يحمينا . كان المفهوم أن يرد دولة رئيس الحكومة هذا الرد خصوصا وقد أوعز إلى بعض الجرائد الموالية له بالكتابة في هذا المعنى ، فأشارت إليه جريدتا المقطم والكوكب .

أجل .. كان منظورا أن يجيب رئيس الوزراء هذا الجواب ، وهكذا يتخلص من هذا المأزق بما لا يسىء به إلى أحد ، بقدر الامكان ولكن رئيس الحكومة ، والذي هو رئيس الوفد في الوقت نفسه ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة كيا يقضى على - جمعية مصر الفتاة - ويحطم شخصية أحمد حسين المعنوية ، ويصمه بأشنع الوصيات ، فإذا به يفاجئ مجلس النواب والأمة بأسرها في مساء يوم ٢٢ يونية سنة ١٩٣٦ ، بتصريح مؤداه أنه قد ثبت لدى وزارة الداخلية أن - جمعية مصر الفتاة - تعمل لحساب دولة أجنبية . أى أنه قد وصم الجمعية ابتداء من رئيسها إلى آخر أعضائها بتهمة الخيانة العظمى وهى أشنع جرائم الدنيا بأسرها ، وقد يصفح الناس عن القاتل أو أشد المجرمين خطرا . ولكنهم لا يتسامحون مع الخائن ، هذا الذى يبيع وطننا بأسره للعدو .. ولقد تكون التهمة معقولة بعض الشيء لو أن رئيس الحكومة صرح أنه قد ثبت لديه ، أو أنه قد علم أن - جمعية مصر الفتاة - متصلة بدولة أجنبية ، إذن لما كان في كلامه كثير من الحرج أو خروج عن جادة القانون ، ولكنه أبى إلا أن يقذف الطالب ورفاقه بجرمة الخيانة العظمى كاملة الأركان والصفات ، وأن يقذف الطالب بها في أسلوب لا يتطرق الشك الى صحته ، ذلك أنه استعمل عبارة « قد ثبت لدى وزارة الداخلية » والثبوت معناه اجراء التحقيق وموازنة الأدلة ، ثم إصدار الحكم .. ولقد هال مجلس النواب هذه للتهمة الشنيعة فطالب رئيس الحكومة بالدليل فاعتذر عن الدليل ، بحجة أنه من أسرار الدولة ، فدعوه إلى جلسة سرية فامتنع كذلك ، فطالبوه بتقديم المقذوف في حقهم إلى القضاء ولكن هذا لم يعجبه أيضا ، وهكذا أصبحت أمام حالة قذف لا دليل عليها ، أستغفر الله بل قذف لم يترك للمقذوف في حقه فرصة الدفاع وتبرئة نفسه .. ولذلك لم يسع الطالب هو وإخوانه إلا أن يتقدموا للنائب العمومى الذى لم يحرك ساكنا في الموضوع ، وهكذا ظل اتهام رئيس الحكومة قائما بغير دليل .

وعلى هذا فقد أوجد رئيس الحكومة الطالب وإخوانه في حالة شاذة فهم موصومون بأشنع جرائم الدنيا بأسرها ، التى تحقرهم أمام مواطنيهم ، لا بل تبرر الإعتداء عليهم وسفك دمايتهم دفاعاً عن الوطن العزيز ، بدون أن تعطى لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم .. ولستأ في هذا نتجنى على رئيس الحكومة ، فإن تصريحه قد أوجد هذه النتائج الطبيعية ، فإذا يجمع الشباب التى تتبع دولته والتى كال لها الحمد والثناء في مجلس النواب عندما كان يقذف ويسب في « جمعية مصر الفتاة » بكل

صنوف الاعتداءات قد انتهزت فرصة اجتماع صرحت الحكومة بعقدته في مساء الجمعة ٢٦ يونية بمسرح برتانيا فهاجمته بقوتها المسلحة ، واصطدمت مع جنود مصر الفتاة فأسفرت المعركة عن كثير من الجرحى .

وقد أعقب هذا الاصطدام اصطدام جديد في يونية بمناسبة عودة الطالب من الصعيد ، والذي حالته هذه الجرائم التي ترتكب ضده وضد أعضاء جمعيته فقرر العودة السريعة ، وقد أحاطت جموع شباب الوفد بدار «جمعية مصر الفتاة» وأخذت تهتف بسقوط (أحمد حسين الخائن .. والكلب أحمد حسين) وتقذف دار الجمعية بالطوب ، ولم تقتصر هذه الاعتداءات على القاهرة فحسب ، بل تناولت جميع شعب مصر الفتاة في جميع أنحاء القطر المصرى كما سنبينه في المرافعة .

واستمرت هذه الحالة عدة أيام توالى فيها الاعتداءات ، ولم يوقفها إلا سخط الرأى العام واشتمتازة من هذه الحوادث ، وحملة الصحافة على الحكومة ورجال الأمن العام وسماحها بهذا العبث والاعتداء .

ولم يكن ذلك كله إلا نتيجة طبيعية لهذا القذف الذى رمى به رئيس الحكومة رئيس جمعية مصر الفتاة وأعضاءها ، ولما كان الطالب محروما من أن يشكو دولة رئيس الحكومة إلى النيابة بسبب قانون حماية الموظفين من ناحية وبسبب الحصانة النيابية من ناحية ثانية ، وبسبب أن ما قيل كان في مجلس النواب من ناحية ثالثة ..

وبناء عليه ، ونظرا لأن الطريق الجنائى مسدود على الطالب وهو الطريق الوحيد الذى يثبت براءته ، ويرد له شرفه وشرف إخوانه ، فلم يبق أمام الطالب إلا أن يلجأ إلى المسئولية المدنية مطالبا فيها بالتعويض لرد شرفه المهان والخسائر التى تكبدها بسبب هذا التصريح الخطير .. إذ لما كان الطالب ليس رئيسا للوزارة ، وليس من الأغنياء ، فيستطيع بجباة أو ماله أن يشكل حزبا .. وكل الذى يملكه هو شرفه وكرامته وجهاده ، فإذا أصيب في هذا الشرف وهذه الكرامة من رجل كرئيس الحكومة ، دون أن تعطى له فرصة الدفاع عن نفسه .. ويظهر أثر هذا الاتهام عمليا في هذه الاعتداءات المتكررة التى على الجمعية ، فإن هذه الأضرار كلها لا يمكن أن تقوم بمال في الواقع . ولكن الطالب يكتفى بعشرة آلاف جنيه مصرى تعويضا عن جزء من هذه الأضرار .

**بناء عليه :**

ولما سيديده الطالب في جلسة المرافعة والمذكرات :  
أنا المحضر سالف الذكر ، قد أعلنت دولة المعلن إليه بما تقدم ، وكلفته بالحضور أمام قاضى التحضير بمحكمة مصر الكلية الابتدائية الأهلية الكائن مركزها بسرائى المحكمة بباب الخلق بمصر بالجلسة التى ستعقد بها علناً في تمام الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، حتى بعد تخضير القضية تحال على إحدى الدوائر المدنية لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية ، لسماعه الحكم عليه بأن يدفع للطالب عشرة آلاف جنيه والمصاريف والأنعاب وشمول الحكم بالنفاذ المؤقت ، مع حفظ كافة حقوق الطالب الأخرى .

ولقد ظلت هذه الدعوى تمتدأول فى الجلسات طوال أيام حكومة النحاس باشا ، إلى أن سقطت وجاءت وزارة محمد باشا محمود ، وفى هذه الأثناء كان اتهام النحاس باشا لم يعد له أى أثر ، بل إن رفعتة قد عدل عنه فيما بعد . وأدرك أن مصر الفتاة فوق كل شبهة ، وكل ريبة ، وأن رجال القسم المخصوص فى وزارة الداخلية الذين أمدوه بهذه المعلومات الخاطئة قد غشوه وخدعوه . وقد كان لعدول رفعة النحاس باشا عن موقفه بالنسبة لمصر الفتاة فيما بعد أكبر الأثر فى تحسين جو العلاقات بين مصر الفتاة والوفد ، وعلى ذلك فقد جاء الوقت الذى رأيت فيه أنه لم يعد هناك محل للاستمرار فى هذه الدعوى التى كان من الجائز أن أخسرها من الناحية القانونية باعتبار أن رئيس الحكومة لا يمكن أن يسأل بأى حال من الأحوال عن تصريحات ألقاها فى مجلس النواب ، ولذلك فقد تنازلت عنها ، وأسدل الستار بذلك على هذه العاصفة الموهجاء .

\* \* \*

## مأساة دمنهور

٢٢

على أننا لا نستطيع بحال أن ندع هذه الصفحة من تاريخ مصر الفتاة دون أن نشير لهذه المأساة الرهيبة التي وقعت في دمنهور ، والتي بدأت بمهزلة إجرامية كادت أفقد فيها حياتي ، لولا أن نجاني الله منها بأعجوبة من الأعاجيب .

فقد أشرت فيما سبق لهذه الموجة من الاضطهاد التي غمرت البلاد ، وكانت مصر الفتاة هدفا لها ، وكان أصحاب الأقصة الزرقاء هم القائمون بها . وكانت مدينة دمنهور إحدى المدن التي وقع فيها ما وقع في غيرها من بلاد القطر ، فكثرت حوادث الاضطهاد والمشاجرات بين أعضاء مصر الفتاة وذوى الأقصة الزرقاء . فعمد رجال الإدارة إلى إغلاق دار مصر الفتاة بحجة أنه ناد يدار بغير رخصة . فرفع أعضاء مصر الفتاة دعوى مستعجلة يطلبون فيها إعادة فتح الدار ، وذهبت إلى دمنهور لأترافع في هذه القضية ، فلم أكد أصل حتى بدأ الفصل الأول من هذه المأساة ، أو بالأحرى المهزلة الإجرامية . أحسست باكفهرار الجو بمجرد وصولي إلى المحطة ، فقد أحاط بي أعضاء مصر الفتاة وهم في حالة عصبية ، وعلمت منهم أن هناك مظاهرات تطوف بالبلد احتجاجا على حضوري إليها ، ولكنني سخرت من ذلك ولم ألق إليه بالاً . وركبت عربة قادتنا إلى المحكمة ، وقد أحاط بعض نفر بالعربة ، وهتفوا ضدى هتافات عدائية ، ولكن وقف الأمر عند هذا الحد ، واستطعنا أن نصل إلى المحكمة في سلام . ونفذت إلى قاعة الجلسة ، وجلست في المقاعد الأمامية المخصصة لحضرات المحامين ، وانتظرت ريثما يأتي دور قضيتنا . ولكن لم يكد يستقر في المقام حتى سمعنا المظاهرات وهي آتية من بعيد تهتف بسقوط أحمد حسين وسقوط مصر الفتاة ولما كان هناك بوليس يحيط بدار المحكمة فلم يدر بخلدنا أبداً أن البوليس سيسمح للمتظاهرين بالاقتراب من دار المحكمة ، ولذلك فقد كانت مفاجأة مزعجة أن سمح البوليس للمظاهرة بالاقتراب من أبواب المحكمة الخارجية ، بل سمح لهم بالدخول إلى ساحة المحكمة الداخلية ، ثم حدث ما لم يحدث في تاريخ مصر أبداً ، فقد اقتحم المتظاهرون قاعة الجلسة نفسها ، لكي يبتشوا بأحمد حسين ويقتلوه ، إذا استطاعوا ، في ساحة العدالة نفسها .

وهرب القاضى إلى حجرة المداولة ، ودخلت معه إليها . وهنا ، وهنا فقط رأى البوليس أن يحول بين المتظاهرين وبين اقتحام حجرة المداولة ، حتى لا يعتدوا على القاضى نفسه ، فلم يكن هناك أحد يعرفنى شخصياً . وفى حجرة المداولة المحاطة بالرعاى والغوغاء الصاخبين ضد أحمد حسين ، نظرت قضية إغلاق دار مصر الفتاة ، ولست أحسب أن لذلك مثيلاً فى تاريخ القضاء المصرى بأكمله ، فلقد كان الطوب ينال علينا فى أثناء المرافعة . وكان من الطريف أننى أردت أن أتحدث عن الاضطهاد الذى تلقاه مصر الفتاة ، فإذا بالقاضى يقول لى تكلم فى الموضوع يا أستاذ . فصرخت فى وجهه ممسكا بهذا الطوب الذى كان ينال علينا « أترى حديثى عن الاضطهاد ليس فى الموضوع يا حضرة القاضى ؟ ! » .

ورحت أندد بالحكومة وتصرفاتها ، وأندد بهذه الفوضى التى أصبحنا نعيش فيها ، ولم يستطع القاضى إلا أن يسمعى حتى النهاية فقد كان ما يجرى حولنا غريباً ، بل فى غاية الغرابة . .

وأخيراً تمت المرافعة ، وأجل القاضى إصدار حكمه أسبوعاً ، وصعدوا بنا إلى الدور الأعلى من بناء المحكمة . بينما كانت المظاهرة التى تحيط بدار المحكمة قد تحولت إلى ثورة عاتية يطالب فيها الثائرون برأس أحمد حسين .

واقترح على رجال الإدارة أن يهربونى من بناء المديرية المتاخم لدار المحكمة ، وأفهمونى أنهم سيضعون لى سيارة على باب المديرية ، فإلى أن أركبها لكى تنطلق بى وتخرجنى إلى خارج المدينة .

وكانت السيارة المقترحة تقف على باب المديرية وسط الثائرين ، ومع ذلك فقد جازفت وذهبت إليها ، ولم أكد أستقر بها حتى اكتشفت أن ليس بها سائق ، وأن الجمهور الغاضب المحنى الذى كان يحيط بالسيارة إحاطة السوار بالمعصم قد بدأ يستريب فى هذا الشخص الجالس بالسيارة وحانت منى التفاته إلى باب المديرية فوجدت أحد رجال البوليس السرى يشير إلى المتظاهرين من طرف خفى إلى ناحيتى ، وأننى أحمد حسين الذى يطلبونه ، فلم أكد ألح هذه الحركة حتى قفزت من السيارة وعدوت على سلم المديرية فى نفس اللحظة التى كشف فيها المتظاهرون أن ذلك الشخص الذى دخل إلى السيارة أمامهم لم يكن سوى أحمد حسين .

وقد كانت هذه مؤامرة سافرة على قتلى ، ولذلك فقد اقتحمت باب مدير المديرية ، الذى كان فى ذلك الوقت هو محمود بك غزالى ، ونددت بتصرفات الإدارة وطالبت



بتمكيني من السفر حالاً ، ووضع حد لهذه المهزلة .

ولكن المدير لم يحرك ساكناً ، وانصرف عند الظهر من دار المديرية يهتف له المتظاهرون طويلاً ، وسمحوا له بالمرور لأنهم في ذلك الوقت كانوا قد ألفوا من أنفسهم حرساً وطنياً ، وأعلنوا الحصار على دار المديرية والمحكمة ، فلا يخرج منها إنسان إلا بإذن ، ولا يدخلها أحد إلا بإذن من حضرات الثوار .

وخرج جميع الموظفين في منتصف الساعة الثانية ، وبقيت بمفردي ، ومعى ابن عم لي كان قد صحبني من مصر ، وكان حكمدار البوليس يجلس معنا وهو ناثر على هذه الحالة من الفوضى والهجمية ولكنه أعلننا بأنه مغلول اليدين لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، فالأوامر المعطاة له أن لا يتعرض بحال من الأحوال للتأثرين .

واستدعى الحكمدار بالتليفون ، وكلف القيام بمهمة من المهمات ، وعبثاً حاول أن يظهر خطورة الموقف وأن تركي في هذه الساعة معناه تعريضى لأشد الخطر . لقد كانت الأوامر صريحة ، فيجب أن يتركني وينفذ ما طُلب منه خارج مدينة دمنهور بأكملها .

وتركنا الحكمدار وأبقى معنا اثنين من الكونستبلات وكانت هذه هي القوة الوحيدة التي بقيت إلى جوارنا لحمايتنا من القتل على يد هذا الجمهور الساخط ، الذي كان يطالب برأسنا . على أنني قررت أن أخرج من المديرية بأى ثمن من الأثمان ، فطلبت من رجلى البوليس ، وكانا قد امتلأ بالاخلاص لي ، أن يحضرا لى سيارة البوليس ، وأن يوقفاها على الباب ، وأن يتركا محركاتها في حالة حركة حتى تنطلق بمجرد ركوبى فيها . فأسرع أحد الرجلين إلى إحضار العربى وكان أميناً هذه المرة فلم يخبر أحداً بأننى سأركبها ، ولم تكذب على الباب حتى بادرت بالتزول ، وسلم المديرية فى دمنهور يواجه الباب الكبير . فلم أكد أظهر على أول السلم حتى لمحنى الجمهور ، ولكن المفاجأة أذهلته كل الدهول إذ لم يتصور أحد أن يكون هذا الهابط على الدرج بهذا الهدوء وهذا الابتسام هو أحمد حسين ، ولكنه كان أحمد حسين الذى أكمل الشوط فى هدوء حتى وصل إلى باب السيارة ، وسط الاندهاش أو الدهول ، الذى ولدته المفاجأة وقوة الموقف . ولم أكد أضع قدمي فى داخل السيارة حتى كانت الدهشة قد زالت من الجماعة ، فانقضوا على السيارة وانهاالت عليها الأحجار كالمطر ، ولكن السيارة كانت قد انطلقت وزاد فى انطلاقها هذا السيل من الأحجار ، الذى أصاب السائق فجعله كالجنون ، فراح يعدو وسط الجاهيل لا يلوى على سىء آ . كانت هذه ثوانٍ دقيقة وخطيرة من أخطر ما مر بي فى حياتي ، وما يمكن أن يمر بها بعد الآن . لقد تحول زجاج السيارة الذى كان يحيط بي من

كل جانب إلى ذرات ، تحت تأثير هذا المطر من الأحجار ، ومزقت جوانب السيارة شر ممزق ، وأصيب السائق ، وسقط ابن عمى وسط المتظاهرين لأن السيارة انطلقت قبل أن يتمكن من التعلق بها ... ومع ذلك كله فقد وجدت نفسى بعد قليل خارج المدينة سليما معافى ، لم أصب بأى سوء ... وقد كان ذلك معجزة إلهية من غير شك ، وكان معنى ذلك أن الله قد أجاب دعائى وحافى فى هذا اليوم العصيب بعظيم قدرته ، وأنجاني من الضيق والكرب العظيم ، فله الشكر والحمد ما بقيت حيا ، ويوم أموت ، ويوم أبعث فى الموقف العصيب . لم يكن لى سلاح فى ذلك اليوم إلا إيمانى بالله ، وبينما كان الثوار يصيحون نريد رأس أحمد حسين ، الموت لأحمد حسين ، وبينما كان رجال البوليس يتسللون لوذا من حولى ، لم أجد أمامى إلا أن أسجد لله طالبا منه العون والمدد ، فجاءتنى النجدة فنجوت على هذه الصورة الكريمة ، حيث خرجت جهازا نهارا ، وفى وسط المتظاهرين الذين أسقط فى أيديهم ، وامتلأوا بالغضب عندما نجوت من شرهم .

لقد انهالوا ضربا على ابن عمى الذى أوقعه سوء الطالع فى أيديهم ، وظلوا يضربونه حتى خيل إليهم انه قد مات وقضى نحبه ، ثم انطلقوا بعد ذلك فى البلد يعيشون فسادا ، يقتحمون بيوت أعضاء مصر الفتاة ، ويتعدون على كل من يتخيلون أنه مصر الفتاة ، وعندما يتحول الأمر إلى هذه الفوضى ، فإن حياة الناس تصبح فى خطر ، سواء منهم الوفدى وغير الوفدى ، ولم يكن طبيعيا أن تنتهى هذه الحالة إلا بعد أن تقع مأساة دامية ، ولقد وقعت هذه المأساة ، وكان ضحيتها من ذوى الأقصة الزرقاء ، بل لعله رئيس من رؤسائهم . واتهم رئيس شعبة مصر الفتاة عبد الرحمن افندى أبو الوفا بقتله ، واتهم معه بعض نفر من أعضاء مصر الفتاة ، وأدرك البوليس انه يجب أن يضع حداً لهذه الفوضى ، وخشع ذوا الأقصة الزرقاء بعد أن سقط منهم قتيل فى الصراع بينهم وبين أعضاء مصر الفتاة . وعادت السكينة إلى دمنهور من جديد ، وهذأت هذه العاصفة العاتية ، ولكن بعد أن مات ضحية من ضحايا الفوضى والاضطراب والعدوان .

كان لهذا الحادث تأثير عميق فى أنحاء البلاد ، فقد كفت على أثره اعتداءات ذوى الأقصة الزرقاء ، ورأت الحكومة أن من واجبها أن تفرض على أتباعها شيئا من الهدوء والنظام ، غير أنها انتهزت فرصة هذا الحادث لكى تصدر أمرها بإغلاق دور مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر المصرى ، بما فى ذلك المركز العام . ولكن مصر الفتاة أثبتت أن لحمها مر يستعصى على الآكلين ، وأن الخير كل الخير فى الإقلاع عن كل تحرش بها أو محاولة للاعتداء عليها فى ظل الفوضى والهمجية ..

وقد حكم القضاء بعد ذلك ببراءة مصر الفتاة من دم هذا القتل ، إذ قضى ببراءة عبد الرحمن افندى أبى الوفا ، فكان ذلك نصرا رائعا اهتزت له جنبات مصر . ولم يكن بوسع محكمة الجنايات أن تقضى بغير ذلك ، بعد أن استعرضت حوادث دمنهور الغريبة ، وما سادها من فوضى وروح إجرامية ، وصلت إلى حد اقتحام مجلس القضاء ، ومحاصرة دار الحكومة لقتل أحمد حسين تحت سمع الحكومة وبصرها .

\* \* \*

## معاهدة سنة ١٩٣٦

### ٢٣

وفي ذلك الوقت الذي كان فيه الخصام قد بلغ أشده بيننا وبين الوفد وحكومة الوفد ، كانت المفاوضات الجارية بين مصر وانجلترا قد بلغت نهايتها ، ولم يبق إلا التصديق عليها ، وقد كان من الواضح أن هذا العنت الذي لقيته مصر الفتاة ، كان خطة مدبرة تسبق التصديق على المعاهدة حتى لا تستطيع مصر الفتاة أن تتصدى لانتقاد هذه المعاهدة ومحاربتها . فقد اشتهرت مصر الفتاة بالتطرف في الوطنية ، وكانت نصوص المعاهدة التي تم الاتفاق عليها أبعد ما تكون عن تحقيق المطالب الوطنية ، فهي تجعل الاحتلال الإنجليزي في مصر شرعياً ، وهو ما كان يصبو إليه الإنجليز منذ ستين سنة ، وهي تربط بين مصر وانجلترا في تحالف أبدي إلى نهاية العمر ، وهي تجعل من مصر دولة مشدودة إلى عربة الإمبراطورية الإنجليزية ، كما كان يُشد الأسرى والمغلوبيون على أمرهم في الزمن القديم .. وكان مقدراً أن مصر الفتاة ستثور في وجه هذه المعاهدة ، وستؤلب الجماهير عليها وتدعوها إلى رفضها ، فرأى القسم المخصوص في وزارة الداخلية ، وهو ممثل الاحتلال في داخل الحكومة المصرية ، أن يقذف مصر الفتاة بهذا الاتهام الشائن ، ليتخذ ذريعة في الوقت المناسب للقبض على رؤساء مصر الفتاة ، وليقلل من قوة مصر الفتاة وقوة دعايتها ، ولكن هذه الخطة قد حبطت كما رأينا وظلت مصر الفتاة قائمة في الميدان يدوي صوتها فتجاوب به البلاد من أقصاها لأدناها .. وجاء الوقت الذي أعلن فيه أنه قد تم التوقيع على نتائج المفاوضات ، وأن وفد المفاوضات المصري سيسافر إلى لندن لإبرام المعاهدة ، وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ أبرمت معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا العظمى ، ولما كانت هذه الوثيقة تؤلف صفحة تاريخية في حياة مصر الحديثة ، وتعتبر أساس الحياة السياسية في مصر طوال العشر السنوات التالية ، فقد رأيت أن أثبتنا بنصها في هذا الكتاب للذكرى والتاريخ ، غير أنني اقتصرنا في نشرها على ذكر المواد الرئيسية دون الملاحق والمذكرات والمحاضر الملحق بهذه المعاهدة لأن المقام يضيق عن إيرادها ، ويمكن تلخيص هذه الملاحق في أنها نقض لما جاء في المعاهدة من أن الاحتلال لمصر قد انتهى ، فقد عملت هذه الملاحق على تثبيت دعائم الاحتلال الفعلي لمصر .

وستأتى فيما بعد إشارة كاملة لهذه النصوص والاشتراطات الجائرة إبان مناقشة المعاهدة والتعليق عليها في خطابى العام الذى ألقيته لهذا الغرض .

## معاهدة تحالف

بين حضرة صاحب الجلالة ملك مصر  
وحضرة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة

لندن فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

بين حضرة صاحب الجلالة ملك مصر .  
وحضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند .

بما أنهما يرغبان فى توطيد الصداقة وعلاقات حسن التفاهم بينهما والتعاون على القيام بالتزاماتها الدولية لحفظ سلام العالم .

بما أن هذه الأغراض تتحقق على الوجه الأكمل بعقد معاهدة صداقة وتحالف تنص لمصلحتها المشتركة على التعاون الفعال لحفظ السلام وضمان الدفاع عن أراضيها وتنظيم علاقاتها المتبادلة فى المستقبل .

قد اتفقا على عقد معاهدة لهذه الغاية وأنايا عنها المفوضين الآتية أسمائهم :

حضرة صاحب الجلالة ملك مصر .

قد أناب عن مصر :

- حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء .
- حضرة صاحب السعادة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب .
- حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
- حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدق باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
- حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
- حضرة صاحب المعالى واصف بطرس غالى باشا وزير الخارجية .
- حضرة صاحب المعالى عثمان محرم باشا وزير الأشغال العمومية .
- حضرة صاحب المعالى مكرم عبيد باشا وزير المالية .
- حضرة صاحب المعالى محمود فهمى النقراشى باشا وزير المواصلات .
- حضرة صاحب المعالى حمدى سيف النصر باشا وزير الزراعة .
- حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفى باشا وزير سابق .

وحضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند (الذى سيشار إليه في نصوص هذه المعاهدة بعبارة صاحب الجلالة الملك والإمبراطور)

قد أناب عن بريطانيا العظمى وأيرلندا :

سعادة الرايت أونورابل أنتوني آيدن وزير جلالته للخارجية .  
سعادة الرايت أونورابل جيمس رامزي ماكدونالد رئيس المجلس الخاص .  
سعادة الرايت أونورابل السير جون سيمون مستشار ملكي وعضو مجلس العموم ووزير الداخلية .  
سعادة الرايت أونورابل فيكونت هاليفاكس حامل أختام جلالته الملك .  
سعادة السير مايلز ويدربيرن لامبسون المندوب السامي لجلالته في مصر والسودان .  
الذين بعد تبادل وثائق تفويضهم التي تحولهم سلطة كاملة والتي وجدت صحيحة ومستوفية الشكل قد اتفقوا على ما يأتي :

#### (المادة الأولى)

انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور .

#### (المادة الثانية)

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والإمبراطور لدى بلاط جلالته ملك مصر ويتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية .

#### (المادة الثالثة)

تنوى مصر أن تطلب الانضمام إلى عضوية عصبة الأمم . وبما أن حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فإنها ستؤيد أى طلب تقدمه الحكومة المصرية للدخول لعصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها في المادة الأولى من عهد العصبة .

#### (المادة الرابعة)

تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما .

#### (المادة الخامسة)

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ في علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفاً يتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية .

#### (المادة السادسة)

إذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة تنطوي على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأي لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقاً لأحكام عهد عصبة الأمم أو لأى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة .

#### (المادة السابعة)

إذا اشتبك أحد الطرفين في حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فإن الطرف

الآخر يقوم في الحال بإنجاده بصفته حليفاً وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتي ذكرها .  
وتنحصر بمعاونة صاحب الجلالة ملك مصر ، في حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، في أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الأراضي المصرية . ومع مراعاة النظام المصري للإدارة والتشريع ، جميع التسهيلات والمساعدة التي في وسعه بما في ذلك استخدام موانئه ومطاراته وطرق المواصلات .  
وبناء على هذا فالحكومة المصرية هي التي لها أن تتخذ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية بما في ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة .

#### (المادة الثامنة)

بما أن قنال السويس الذي هو جزء لا يتجزأ من مصر هو في نفس الوقت طريق عالمي للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسي للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية فإلى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة في القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع في الأراضي المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة في ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال . ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها .

ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأي حال من الأحوال .  
كما أنه لا يخل بأي وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية .

ومن المتفق عليه أنه إذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحددة في المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضرورياً لأن الجيش المصري أصبح في حاله يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة في القنال وسلامتها التامة فإن هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت هذه المعاهدة أو على أي شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للإجراءات التي قد يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

#### (المادة التاسعة)

تحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع به ، من إعفاء وميزات في المسائل القضائية والمالية ، قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور التي تكون موجودة في مصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة .

#### (المادة العاشرة)

ليس في أحكام هذه المعاهدة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأي حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أوالتي قد تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

#### (المادة الحادية عشرة)

١ - مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام ، بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين ، مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين .

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما في السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين .

وليس في نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ - وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين في السودان وتزويجهم بخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين في الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ - يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلاً عن الجنود السودانيين .

٤ - تكون هجرة المصريين إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ - لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين في شؤون التجارة والمهاجرة أو في الملكية .

٦ - اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة في ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية في السودان .

#### (المادة الثانية عشرة)

يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم في مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد .

#### (المادة الثالثة عشرة)

يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة .

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في إلغاء هذا النظام دون إبطاء .

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن في ملحق هذه المادة .

#### (المادة الرابعة عشرة)

تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها ضامناً لأحكام هذه المعاهدة . ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين ، إذا طلب أحدهما ذلك ، بيان بالاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك في مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة .



#### (المادة الخامسة عشرة)

اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تعديلاتها ولا يتسنى لها تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الأمم .

#### (المادة السادسة عشرة)

يدخل الطرفان المتعاقدان في مفاوضات . بناء على طلب أى منهما في أى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة . وذلك بقصد إعادة النظر بالاتفاق بينهما في نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك . فإذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التي أعيد نظرها يحال الخلاف إلى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقاً لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو إلى أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للإجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

ومن المتفق عليه أن أى تغيير في المعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقاً للمبادئ التي تنطوي عليها المواد ( ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ) .

ومع ذلك ففي أى وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول في مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد إعادة النظر فيها كما سبق بيانه .

#### (المادة السابعة عشرة)

يصدق على المعاهدة الحالية ويتبادل التصديق عليها في القاهرة في أقرب وقت ممكن ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها وعندئذ تسجل لدى السكرتير العام لعصبة الأمم . وإقراراً بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم هذه المعاهدة ووضعو أختامهم عليها . وتحررت في لندن من صورتين في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٣٦ .

## مصر الفتاة تحارب المعاهدة

٢٤

لم تكذب نصوص هذه المعاهدة تعلن وتذاع حتى هبت مصر الفتاة لمحاربتها ، وعمل كل ما من شأنه أن يحول دون تصديق البرلمان المصرى عليها ، وقد جاء توقيع المفاوضات المصريين على هذه المعاهدة بمثابة مهاز شحذ قوانا من جديد ، وبعث فينا كل نشاطنا وكل حيويتنا وكل عنادنا وقدرتنا على الكفاح والجهاد ، فاستأجرنا دارا جديدة اتخذتها مكتباً لى بدلا من دار مصر الفتاة القديمة التى أغلقتها الحكومة وحالت دون إعادة فتحها ، واستأجرنا جريدة جديدة وهى جريدة الضياء بدلاً من الصرخة التى اضطرتنا لوقفها نظرا لتوالى المصادرة عليها ، وانتهزت فرصة تصريح الحكومة بعقد الاجتماعات العامة لمناقشة نصوص المعاهدة لكى أتقدم بطلب تصريح لنا لعقد اجتماع بدار الحزب الوطنى ، الذى كان قد حل محل جمعية الشبان المسلمين فى هذه الدار التى تقع فى شارع مجلس النواب ، وفى الموعد المضروب للاجتماع وهو مساء السبت ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٦ عقد الاجتماع وسط حماسة بالغة لم يسبق لها مثيل فى كل تاريخ مصر الفتاة ، وحسبك أن تعلم أن الموعد المقرر لبدء الاجتماع كان هو الساعة الخامسة . ولكن سرادق الاجتماع امتلأ بالجمهور ابتداء من الساعة الثانية بحيث لم يتمكن ألوف من الراغبين فى حضور الاجتماع أن يحضروه ، لأن قوات البوليس الضخمة التى أحاطت بمكان الاجتماع قد حالت بين الجمهور وبين الوقوف بالقرب من سرادق الاجتماع . ولقد حدثت مصادمات ومناوشات صغيرة فى خلال الاجتماع ، ولكن ذوى الأقصة الخضراء استطاعوا أن يسيطروا سيطرة تامة وكاملة على الموقف فمر الاجتماع حتى نهايته دون أن تتمكن قوات الشغب التى أرسلت خصيصا للإخلال بالنظام ، من أن تعمل شيئا .

وفىما يلى الخطاب الذى ألقته فى هذه الليلة . وحلت فيه بعض نصوص المعاهدة وأظهرت مواضع الخطر فيها على حرية مصر واستقلالها ومستقبلها مما حققته الحوادث وأظهرته الأيام . ولما كان هذا الخطاب هو أول خطاب ألقته على الجماهير بعد اتهام النحاس باشا لنا بالخيانة العظمى ، فقد كنت مضطرا أن أستهل الخطاب بالإشارة إلى هذا الاتهام . وبالدفاع عن مصر الفتاة .

## خطاب

أيها السادة :

يظهر أن هناك مقدمة لابد منها في مستهل حديثي ، فلست أشك لحظة في أن بين صفوفكم من يخالفونني في العقيدة السياسية ومن يتحمسون للحكومة الحاضرة والمعاهدة .. ولست أشك في أن الكثيرين من هؤلاء قد جاءوا تحذوهم الرغبة الطيبة في التفاهم والاعتناق . وأن هناك غيرهم قد جاء معتزماً بإحداث حدث من الأحداث ، فألى هؤلاء وإلى هؤلاء أوجه كلمة الابتداء ، وكل الذي أرجوه أن تلقى آذاناً صاغية وقلوباً واعية .

إننا في جمعية مصر الفتاة لانحمل حقداً لمصرى واحد ، ولست نكره مصرى واحداً ، ذلك لأننا نعلم أن الإنجليز إذا كانت قد استطاعت أن تحطم استقلالنا ، وأن تصدق علينا بعد مائة سنة من تحطيم امبراطوريتنا بهذه المعاهدة الهزيلة المشبوهة .. فنهلل لهذه المعاهدة التي تفرض علينا الاحتلال والفقر ، إذا كنا قد وصلنا إلى هذه الحالة التبعة فليس ذلك إلا لأن الغاصب قد عرف كيف يحطم كملتنا ، وكيف ينفذ إلى وحدتنا فيمزقها .. فإذا كنا قد رسفنا في العبودية خمسين عاماً ، فما ذلك إلا لاختلاف كلمتنا ومحاربة بعضنا لبعض ، وتراشقنا بالتهم والسياب . ولم يستطع الغاصب أن يتغلغل في بلادنا إلا لأننا أنقسمنا شيعاً وأحزاباً ، كل فريق منا يعتدى على الآخر وتركتنا الغاصب يسرح ويمرح ويغنم ويربح ، فهو يكسب من هؤلاء وهؤلاء ، وهو الفائز أولاً وأخيراً .

ومن هنا فنحن لانحقد على مصرى واحد ، ولكننا نحب الجميع ونتمنى لهم الخير ، حتى لو آذونا واعتدوا علينا لما أنقص ذلك مقدار شعرة من حبتنا لهم ، لأنهم مصريون أولاً وقبل كل شيء . ولما كنا قد كرسنا حياتنا من أجل مصر والمصريين ، ولما كنا لا نطمح في هذه الحياة الدنيا في مال أو منصب أو غرض من أغراض الحياة ، فنحن لا يمكن أن نحقد على مصرى مهما أساء أو اعتدى ، وكل الذي نفعله إذا اشتد بنا الأذى وتضاعف البلاء أن نرفع أكف الضراعة إلى المولى سبحانه وتعالى ، ونقول كما قال سيد الخلق (رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) .

هذا هو مبدؤنا وهذا هو طابع جهادنا . أجل قد نشد في خصومتنا ، وقد نهجم معارضينا بقوة وعننف . ولكننا نفعل ذلك لا كرها منا فيهم ولا حقداً عليهم ، ولكن رغبة منا في إصلاحهم ورؤيتهم أطهاراً أقوياء أعزاء فنحن نحب الخير لخصومتنا ونرجوه ، وهذا لا يمنعنا أن نصارحهم بخصومتنا غير هيابين ولا وجلين ، فإذا عرف خصومتنا الحق كنا أول من يفرح لذلك . بل كنا أول من يسير في صفوفهم ويشد أزهرهم ، غير بخلاء بتضحية مهما عزت ومهما غلت .

هذا نحن وهذا موقفنا ، وإذن فألى هؤلاء الذين جاءوا إلى هذا الاجتماع وفي قلوبهم شيء من الحقد على مصر الفتاة ، أرجو أن يتزوه مؤقتاً ، ليستمعوا إليّ في رفق وهدوء ، حتى إذا انتهت من خطابي كنتم قضاة وحكاماً عدولاً ، فإن وجدتموني محقاً ، فهذه يدى ، وهذا كتاب الله أعاهدكم عليه . أن أبقي طوال حياتي مخلصاً لما تريدون . أما إن وجدتم أنى عطئى فهذا دمي فاسفكوه حلالاً لكم .. وهذه روحى فازهقوها كما يحلو لكم ، العهد بينى وبين الناس طراً أن أعمل من أجل مصر

ومجدها ، فإن رغبتم في ذلك فهو الفضل من ربي ، وإن رغبتم عن ذلك فلا فائدة لحياتي وإني أهبها لكم تصرفون فيها كما تريدون ، ولكني أسألكم شيئاً واحداً هو أن تستمعوا إليّ وأن تحسنوا الاستماع ، ثم احكموا في نهاية الأمر .

### لماذا دعوناكم ؟ !

دعوناكم للتحدث سويًا في شأن المعاهدة المعروضة علينا ، والتي ستعرض على البرلمان بعد يومين . وقد جئتم إلى هنا لتسمعوا هذا الرأي حتى تقارنوه بما عندكم من آراء ، ولكن قبل أن يكون من حقنا أن تناقش المعاهدة ، قبل أن يكون لنا شرف النصيح والإرشاد والقيادة ، ألا يجب عليّ قبل ذلك أن أقول كلمة أبعد بها هذه الغيوم وهذه السحب التي أظلت مصر الفتاة ؟ ألا يجدر بي أن أقضي على هذا الشك الذي يخيم في سماء جهادنا ؟ وأن أزهي الباطل الذي التصق بنا ؟ ألا يجدر بي قبل أن أحاسب المفاوضين على ما جاءوا به ، أن أناطب نفسي أولاً وأن أرد على ماوجه إليّ من تهم ؟ .

### اتهام النحاس باشا

قيل عنا أيها السادة إننا نخدم دولة أجنبية ، وإننا نعمل لصالحها ضد مصلحة وطننا . وهذه تهمة أيها السادة لو صحت لكنت رءوسنا جديرة بالمشقة . ولكان بطن الأرض أولى بنا وأحق ، ولو أن هذه التهمة كانت صحيحة أيها السادة . لوجدتم الأرض وقد تزلزلت تحت أقدامي . ولوجدتم السماء وقد تساقطت كسفًا فوق رأسي ، لو أن هذه التهمة كانت صحيحة إذن لوجدت في كل مصرى منتقمًا . ولخفت النور وخفت الناس . وتواريت خزيا وعارا .. ولكن ها أنتم ترونني واقفًا أمامكم رافع الرأس شامخا معتزا .. معتزًا بمصريتي . معتزًا بإيماني . معتزًا بجهادي .. لا أخاف على ظهر الأرض إنسيا واحدا ، ولكن أخشى الله وحده . فهو الذي خلقني وهو الذي هداني . وهو الذي يمينني وهو الذي يميني .

لو أني كنت الرجل الذي وصفوه . لما وجدت حجة أخدعكم بها . ولما وجدت جنانا أجابكم به ، ولما وجدت مستمعاً واحداً يستمع إليّ فضلاً عن هذه الألوف المؤلفة ، فالجرمون إن عاشوا فهم يعيشون في الظلام ، والمتآمرون لا يتحدثون إلى الناس .

اتهمونا أيها السادة فقبل لهم في مجلس النواب : ابرزوا الدليل ، فقالوا لا فهذه أسرار لا نتداع فطلبوا منهم عقد جلسة سرية ، فقالوا لا ، إن هذه مسائل لا تطرح على البرلمان . فقبل لهم قدموهم إلى المحاكمة فقالوا لسنأ نريد أن نلجأ إلى المحاكم . فاعجبوا ، اعجبوا من هذه الحكومة التي تركت الحقنة يفسدون في الأرض . اعجبوا من هذه الحكومة التي تسمح لنا بالسير والتحدث والخطابة والاجتماع وهي تقول عنا : إننا نعمل ضد مصلحة مصر . أستم ترون معي أنه لو صح ماتدعيه هذه الحكومة لوجب أن تسقط حالاً لأنها عاجزة عن الضرب على أيدي الحقنة والمفسدين ؟ ! ولكنهم يعلمون أننا أطهار كالأطفال . وأنقياء كالثليج . وهم لا يستطيعون أن ينجبونا إذا ما قرع الدليل بالدليل .

## محاولتنا الدفاع عن أنفسنا

على أننا من ناحيتنا لم ندخر وسعاً في دحض اتهامهم من أيسر طريق فتقدمنا ببلاغ إلى النائب العام ورجوناه سرعة التحقيق معنا .. فإذا فعل؟؟ إنه لم يفعل شيئاً ولا يستطيع أن يفعل شيئاً لأننا أطهار أبرياء ..

فكرنا بعد ذلك في دعوة فريق من نواب الأمة لنعرض عليه بعض الحقائق ، ولدافع عن أنفسنا ، فدعوناهم إلى حفلة شاي متواضعة ولكن الحكومة لم تصبر على هذه الدعوى فحالت بيننا وبين عقد الاجتماع بالقوة ، فاعجبوا لهذه الحكومة الدستورية التي تحول بين النواب وبين شخص من الأشخاص ، فهل فعلت ذلك إلا لأنها تعرف أننا أطهار أبرياء!!

فإذا بقي بعد ذلك لنعمله ؟ لقد رفعنا قضية مدنية على رئيس الحكومة نطالبه بتعويض عن قذفه إيانا . وقد نربح هذه القضية مادياً وقد لا نربحها لاعتبارات قانونية ولكن نحن المتصورون معنوا على كل حال .. فإن أولئك الذين يعملون في الظلام لا يبقون في المحاكم ولا يطالبون رئيس الحكومة بتعويض ، ولكنهم يهربون من وجه القضاء والعدالة . ولكننا فعلنا ذلك أيها السادة لأننا مطمئنون إلى براءتنا ماضون في طريقنا إلى الأمام في غير ما تردد أو ضعف .. أما هذه الاتهامات فإنها عنوان شرفنا .. فلا يوجد مصلح واحد في الدنيا لم توجه إليه الاتهامات .

وهل هناك أشرف أو أجل من سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، أذكرواكم أؤذى في جهاده ، وأى اتهامات قد وجهت إليه ؟ اذكروا كيف اضطرب بعد ثلاثة عشر عاماً من جهاده أن يهاجر من بلده تفادياً للقتل .. وقد كان الله قادراً أن يحميه من أذاهم وأن يجعل الدنيا طيبة له في طرفة عين ولكن الله أراد أن يكون قدوة ونبراساً في الصبر والثبات واحتمال الأذى في سبيل العقيدة .. وقد جاءت الساعة التي انتصر فيها نور محمد عليه الصلاة والسلام . جاءت الساعة التي تلا فيها الآية الكريمة وهو يحطم أصنام مكة « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » وأين نحن من رسول الله أيها الجهاد ؟ ولكن واجبنا أن ننأسى به وأن نعتبر بحياته . وسوف تأتي الساعة التي نقول فيها بدورنا « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

## المفاوضات والمعاهدة

صبرنا على هذا الاتهام وصبرنا على صنوف من الإعنات والإرهاق ، فلقد صودرت جريدتنا مرات متعاقبة ، ثم أغلقوا دور جمعيتنا في أنحاء مصر ثم اعتُدى علينا . وكان ذلك كله بحجة قيام المفاوضات . كانوا يقولون سوف نأتي للأمة بالاستقلال التام لمصر والسودان ، أو كانت الناس تتوهم ذلك . ولما كنا نعكر عليهم هذا الجوفلا مانع من اضطهادنا لمصلحة المجموع وسلامته ، ولا مانع من أن نكون كبش الفداء لهذه الأمة وأن نكون قرباناً لحريتها واستقلالها .

ثم أعلنت المعاهدة التي طال انتظار الأمة لها فإذا رأينا أيها السادة ؟ رأينا عجباً وغماً . ثم سمعنا ما أفرغنا وملأنا رعباً . رأينا معاهدة تفرض على مصر احتلالاً ، وتسلب مصر حقوقاً مشروعة كانت لها دائماً أبداً . ورأينا هؤلاء الذين نادوا دائماً بالاستقلال التام لمصر والسودان يقبلون ما هو أقل من

الاستقلال الذاتى لمصر ، الذى عرض علينا منذ عشرين عاما فرفضناه بإباء . ورأيناهم يرضون بأن يصبح السودان مستعمرة انجليزية . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما كان هناك محل للفرع والخوف . ولكننا فزعنا عندما رأينا بأن هذا الاحتلال يراد فرضه على مصر باسم الاستقلال والشرف . امتلأنا فزعاً عندما رأينا أن كل من يشير إلى هذه المعاهدة بنقص يصبح خائناً . وأن كل من يذكر الأمة يجهداها الصحيح يصبح مارقا ، وأن كل من يذكر السودان أو الجلاء يصبح زنديقا طريدا .

فصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ، والحزب الوطنى لحساب دولة أجنبية . وكل معارض فى مصر هو معارض مأجور ولحساب دولة أجنبية .

هذا هو ما أفزعنا وملأنا خوفا على هذه الأمة ، وما يدبر لها ويحاك من خلف الستار . فإن الرضا بالذل شر من الذل نفسه ، والرضا بالعبودية أشنع من العبودية نفسها . ولا عيب فى أن يتغلب قوى على ضعيف فيستعبده . ولكن العيب كل العيب أن يرضى الضعيف بذلك وأن يعتاده . فما بالكم إذا تعدى الرضا إلى التحييد . وإذا انقلب التحييد إلى تمجيد . فأقيمت مهرجانات وزينات ودقت طبول إيداننا بالعهد الجديد . والعهد الجديد فيه مافيه من تحطيم لسيادتنا وإهدار لكرامتنا .

### قبول وقبول

كنت أفهم أيها السادة من الناحية النظرية كما قال لى أحد النواب أن يقبل فريق من المصريين هذه المعاهدة ، وهم كارهون مضطرون . يقبلونها وهم ييكون بمقدار ما تمس كرامتهم وبمقدار ما تهدم من سيادتهم .

إننى أفهم أن يقف بعض النواب فيقولون إننا نقبل هذه المعاهدة على مافيا من عيوب ومافيا من عدوان وسنعمل على تعديلها بما يصون استقلال مصر وكرامتها ويحقق آمالها بعد عام واحد أو عامين . أجل كنت أفهم هذا الوضع وأستسيغه إلى حد ما ، ولكن الذى لا أفهمه وأراه غيظاً ومفزعاً أن يحرص الناس على تمجيد المعاهدة وهى تفرض عليهم الذل والعار ، وأن نخشد الألوف للتهافت والتصفيق ، وأن تشحن قطارات السكة الحديد من كل صنف من الناس وأن تقام أقواس النصر وتكفل المامات بالغار وأن تُحارب المعارضة لأنها تنادى بمجد مصر ، واستقلال مصر وحرية .

لا .. لا أيها السادة هذه هى الجريمة بعينها وهذا هو ما أعلن من فوق هذا المنبر بقوة وعزم أننى سأحاربه ، وسأحاربه بكل ما أوتيت من قوة ، ولن يقعدنى وعد ولا وعيد ولن يؤخرنى سحر أو تشريد .

### المعاهدة ومشروعية الاحتلال

هذه المعاهدة المعروضة على مصر معاهدة باطله لا تساوى الحبر والورق الذى كتبت عليه ، على رأى بعض الأساتذة المحترمين الذين رأوا فيها استغلالاً لاشك فيه .

هذه المعاهدة باطله ، وهى نكبة النكبات على مصر لذا حاول المحاولون أن يظهرها فى مظهر الاستقلال ، وواجب كل مصرى بل واجب كل شاب بصفة خاصة أن يحول دون وقوع هذه الكارثة . فإذا قبلها البرلمان فقد أصبح واجبنا وواجب الأمة أن لا نعترف بمشروعيتها وأن نعمل على

تمزيقها بأسرع ما نستطيع لأنها مابقيت قائمة فلن تقوى مصر على أن تخطو خطوة واحدة نحو الأمام . بل سوف ترون أن مصر ستدهور إلى الحضيض في ظل هذه المعاهدة لأنها قد جعلت مركز مصر أسوأ بمراحل مما كانت عليه .

فقد دخلت إنجلترا مصر في سنة ١٨٨٢ . ودخلت بجذعة ودسيمة ، فلما قيل لها إن دخولك إلى مصر هو اغتصاب وهو عمل غير مشروع قالت إني لا أحتل مصر وليس في نيتي أن أحتلها ، ولكنني دخلت لحماية العرش ولتوطيد الأمن ، وسأخرج منها حالما تنتهى هذه المهمة . فلما انتهت المهمة وأصبح العرش موطدا أكثر مما كان مقرر له لم يخرج الإنجليز وظلوا يحتلون أرض مصر غصبا وعدوانا .

فلما ذُكروا بوعودهم قالوا : بلى .. بلى .. نحن لا نريد أن نحتل مصر وسوف نجلوا عن أرض مصر ، ولكننا فقط نريد أن نحمي أصحاب الجلايب الزرقاء من عسف الباشوات . فلما ثار في وجهها الفلاحون بمناسبة حادثة دنشواي ، وسخر الفلاحون من دعوتها حمايتهم وقيل لها اخرجي فإنهم لا يريدونك واصلت إنجلترا عدوانها واغتصابها مدعية في هذه المرة أنها إنما تحمي الأقليات . فلما ثارت مصر في سنة ١٩١٩ وقد اتحدت كل عناصرها وقف جميع المصريين صفا واحدا يناوئونها ويدافعون عن كرامة وطنهم ، قالت إنجلترا : إننا في مصر لأنها لازمة لنا ويجب أن نبقى فيها إلى الأبد . وهكذا انكشف الستار عن نواياها وتجردت من كل ثيابها وظهر للعالم اغتصابها كبريا فظيحا ، بينا تجلت إرادة الأمة في أن تعيش حرة سيدة ، فأصبح لامناص للإنجليز من أن يعودوا لستر موقفهم وتبرير وجودهم في مصر . وأى مبرر أجل من أن يظلوا محتلين مصر باسم الصداقة والتحالف . وإذن فلتدفع مصر إلى التحالف مع إنجلترا دفعا . ولتجبر على قبول معاهدة تحول للإنجليز حق احتلال مصر إلى الأبد ، فيصبح بقاؤهم في مصر شرعيا ويعود إخراجهم من مصر من رابع المستحيالات ، فلن توجد قوة في العالم بعد ذلك تستطيع إجلاءهم عن مصر إلا بعد أن تحطم الإمبراطورية الإنجليزية أولاً .

وفي ظل التحالف والصداقة يستطيعون أن يجندوا مصر بسكانها وأموالها ، لخدمة الإمبراطورية الإنجليزية .

هذا هو المثل الأعلى للسياسة الإنجليزية كما استقر بعد ثلاثين سنة من الاحتلال عندما رسمها لهم اللورد ملنر في تقريره المشهور . وإذن فقد أصبحت بغية الإنجليز أن يحصلوا من مصر على معاهدة تجعل احتلالهم مشروعاً وتطلق أيديهم في مصر إذا قامت الحرب إبان الأزمات الدولية ، ولكن من أنى لهم بهذا الرجل الذى يقبل مثل هذه المعاهدة ؟ من أنى لهم بالرجل الذى يعتدى على بلاده هذا العدوان فيفرط في حقوقها ويسلمها للإنجليز . ؟ إن رجال الحزب الوطنى وهم الذين خلقوا الوطنية في مصر خلقا قد رفضوا دائما أن يتحدثوا مع الإنجليز قبل الجلاء المطلق . وإذن فلا مناص من تحطيم هذا الحزب لأنه خطر على سياسة الإنجليز المقبلة أى خطر ، وبهذا أشار اللورد ملنر في تقريره أيضا .

أما سعد زغلول ذلك الرجل الذى كان يعتبر بالنسبة للحزب الوطنى معتدلاً فهو لا يرضى بدوره بأقل من الجلاء ، وإذن فلينف وليشرد حتى تلتين قناته ، وليشجع الأحرار الدستوريون لأنهم في ظن الإنجليز أكثر اعتدالاً ومرونة . ولكن الأحرار الدستوريين لم يكونوا أقل من غيرهم تمسكا بحقوق بلادهم في الاستقلال التام الكامل فرفضوا أن يسلموا بما خيل للإنجليز أنهم سيسلمون به ، وقطع

عدلى باشا المفاوضات وعاد إلى مصر رافع الرأس لأنه لم يرض بالتسليم للإنجليز والتفريط في حقوق البلاد ، فعل ذلك وهو الموصوف بالاعتدال وهو الذى ضُرب بالطاطم والبيض عند عودته لما عزاه الناس إليه من التفريط والتهاون .

وهنا لم ير الإنجليز<sup>(١)</sup> مناصبا من أن تجرب أسلوبا جديدا ، فأعادت سعد زغلول من المنفى . ورفعته إلى الحكم ، ودعته للمفاوضة ظنا منها أن الحكم سيلين قناته .. فلما أصبح رئيسا للوزارة دعتة إلى لندن (لندن) وعرضت عليه ما تريده من مصر ، وهو أقل بمراحل مما حصلت عليه في معاهدة آخر الزمن ! فقد كان كل ما تصبو إليه إنجلترا هو أن تضع بعض الجنود البريطانية في شرق القتال ، على أن تقدم لنا كل ما نطلبه من الضمانات والتعهدات حتى نأمن تدخل هذه القوة في شئوننا ، فرفض سعد زغلول - بإباء وشمم ، وقال قوله المشهورة : «دعونا للانتحار فأبينا أن نتحرر» ثم شرح مطالب الإنجليز وموقفه منها في خطابه الذى ألقاه عقب عودته والذى قال فيه :

«إنهم طالبونا أن تكون لهم قوة عسكرية في أرض مصر على شرط ألا تتدخل في شئوننا ، ولنا الحرية التامة في أن نشترط ما نشاء من الشروط ، ونطلب ما نريد من الضمانات لئلا تتمكن هذه القوة من التدخل في شئوننا ، فرفضنا رفضا باتا ، لأننا نعلم أن وجود عسكري واحد على الأرض المصرية يخل بالاستقلال . رفضنا ذلك وما أظن أن رفضي هذا عمل من الأعمال الجلييلة ، لأن الرجل لا يعتبر فاضلا ولا ذا عمل جليل بمجرد كونه امتنع عن خيانة وطنه» .

### الفرق بين الأمس واليوم

هذا هو كلام سعد ، بل هو كلام كل مصرى ، بل هو كلام أى وطنى في الدنيا بأسرها ، فهل فيه خفاء وهل فيه غموض ؟؟ وهل يعوزنا بعد ذلك أن تناقش وأن نحاجج كيف نقول بأعلى صوتنا إن معاهدة ١٩٣٦ هي كارثة وطنية وجريمة لا تغتفر ..

يقول سعد ، بل يقول كل مصرى ؟؟ إن بقاء جندي واحد يهدم الاستقلال ، فإذا تقولون في معاهدة آخر الزمن التى تجعل الجندي الواحد عشرة آلاف والتي تجعل من مصر مطارا للطائرات البريطانية ، والتي تطلب من مصر أن تبني لها ثكنات أشبه بالقلاع وأن تخطط مدينة كاملة لتكون رمزا للعبودية والاستعمار .

ماذا تقولون في معاهدة آخر الزمن التى تحتم علينا أن نفتتح لها طرقا ، حتى يسهل عليها إخماد كل حركة وإخفات أى صوت .

ماذا تقولون في معاهدة آخر الزمن التى تطلب منا أن نصرف على الاحتلال وأن ندفع تكاليفه ، وأن تخرب ماليتنا من أجل موائد عيونه ؟

ماذا تقولون في معاهدة آخر الزمن التى تجعل للإنجليز الحق إذا ما قامت أزمة دولية أن تحتل مصر

---

(١) برجاء ملاحظة أن بعض العبارات قد أقيمت في الخطاب دون تعديلها لغوياً - لأسباب اقتضتها الأمانة العلمية في إخراج هذا التراث .



من أقصاها إلى أقصاها ؟ وأن تستخدم مواصلاتها وأرضها وجوها ؟ وأن تستغل كل مواردها ؟ وأن تفرض على الحكومة المصرية أن تعلن الأحكام العرفية ؟ وتفرض الرقابة على الصحف والرسائل ؟ أى أنه يكفى أن تقوم أزمة في الشرق البعيد بين روسيا واليابان لترى جحافل الإنجليز تسد علينا نور الشمس ؟ وتسلب منا القوت والهواء باسم الصداقة والتحالف .

وإذا كان سعد زغلول قد قال عن إبقاء قوة في شرق القناة لأجل محدود إنه انتحار ، فإذا كان يمكن أن يسمى هذا البلاء الذى قبله المفاوضون المصريون اليوم . إذا كان الإنجليز يجرؤون على عرض مثل هذه المقترحات عليه ؟ .

وإذا كان سعد زغلول ، ومن خلفه الأمة ، قد رفضت ذلك الانتحار في سنة ١٩١٩ وفي سنة ١٩٢٤ ، فما الذى جعلها تقبله بعد ذلك ؟

هل تدهورنا إلى الخلف فأصبحنا كالعبيد كلما امتد بنا الزمن رخصت قيمتنا ! ؟ أم هل عقلت أرحام النساء فلم تعد تنجب رجالاً ؟ . أم هل أصيبت العقول بجنون ومرض ؟؟

ما الذى حل بنا ؟ وما الذى أصابنا فأقبلنا على الانتحار راضين مغتبطين .. مهملين مكبرين ؟ ! لا والله أيها السادة ، لم نرجع إلى الوراء ولم ننهزم ، ولم نتقهقر مصر ، ولم تضعف ، ولم تبدل السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض ، ولكن الذى تبدل هم هؤلاء الساسة الذين نكصوا على أعقابهم ، فأنهكهم الاضطهاد فسلموا وشموا طول الطريق ...

لم تبدل الأرض غير الأرض ، ولكن الذى تبدل هم هؤلاء الذين كانوا شبانا فأصبحوا شيوخا ، وعجزوا عن حمل الأمانة فاستسلموا ، ومن خلفهم جيش لم يصبه الوهن أو الكلال .

## نجاح الإنجليز

وهكذا نجح الإنجليز أخيرا ، وكللت مساعيهم بالفوز فإن جاز لأحد أن يضع أكاليل الغار على هامته فهم الإنجليز وإن جاز أن تقام أقواس النصر في لندن وليس في القاهرة . وإن كان هناك بطل في هذه الصفقة فهو السير مايلز لامبسون ، الذى أعاد فتح مصر لإنجلترا .. ولكنه هذه المرة فتح أبدي شرعى يتم وسط التصفيق والتهليل .

لقد كان الإنجليز يطمعون في رجل واحد ليوقع لهم المعاهدة باسم الأمة ، فجمع لهم مايلز لامبسون أحزاب الأمة بأسرها ماعدا الحزب الوطنى في صعيد واحد .. جمع لهم صدق بك مع محمد محمود مع عبد الفتاح يحيى مع الشمسى وعففى ، وعلى رأس هؤلاء بطل الوطنية ورمز الاستقلال النحاس باشا الزعيم الأمين !!

هؤلاء جميعا ، ومن خلفهم مجلسا نواب وشيوخ ، يوقعون على صك العبودية والذل إلى الأبد . فأى نجاح كهذا النجاح ؟ وأى فوز كهذا الفوز ؟!!

لقد قَتَحَ مايلز لامبسون كما قلت لكم مصر ثانية من غير تكاليف .. استغفر الله بل بتكاليف تدفعها مصر .

كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟ . كيف تدهورنا كل هذا التدهور ؟ .  
اجتثوا عن سر ذلك في هذه السنوات الطويلة التي قضاها هؤلاء السادة بعيدا عن كراسي الحكم .  
ثم اجتثوا عن سر ذلك ؟ تجدونه السبيل الوحيد لاستدامة الحكم في المستقبل كما خيل هؤلاء السادة .

### بعض نصوص المعاهدة

ليس في نيتي أن أستعرض معكم نصوص المعاهدة نصا نصا .. وأن تناقش ما فيها فإن هذا يكون امتثانا لوليتيتكم وكرامتكم ، هذه الوطنية وتلك الكرامة التي ترى في وجود جندي أجنبي واحد إهدارا لاستقلال مصر .

ليس في نيتي أن أوقر أسماعكم بتفاصيل المخازي التي تملأ هذه المعاهدة ولكني سأعرض عليكم مثلاً من أمثلة الغفلة التي يراود وقوع الأمة فيها .. سأعرض عليكم مثلاً من أمثلة التفرير بهذا الشعب المسكين . يقولون لكم إننا جئناكم بمعاهدة أفضل بمراحل من معاهدة ١٩٣٠ . ولست أريد أن أستعرض الفروق العديدة بين هذه المعاهدة - معاهدة آخر الزمن - وبين معاهدة سنة ١٩٣٠ . لست أريد أن أطيل الحديث لأبين أن معاهدة ١٩٣٠ . لم يكن بها طرق ولا ثكنات . ولم يكن فيها احتلال الإسكندرية . ولم يكن فيها احتلال جوى كأشنع احتلال يمكن أن يتصوره العقل . فكل هذه تفاصيل تستطيعون الوقوف عليها بمجرد إلقاء نظرة على المعاهدتين ولكن تعالوا أضع أيديكم على نص صغير يختلف في المعاهدتين . ومع ذلك يترتب عليه جعل الاحتلال أبديا . فلقد جاء في مفاوضات سنة ١٩٣٠ في المادة الخاصة بإبقاء الجيوش الإنجليزية في مصر ما يأتي :

« بما أن قنال السويس الذي هو جزء لا يتجزأ من مصر هو في نفس الوقت طريق عالمي للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسي للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية فإلى أن يمين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع معها بموارده الخاصة أن يصد هجوما على القنال حتى يصل مدد الحليف فإن جلالة ملك مصر يرخص لصاحب الجلالة البريطانية بإبقاء قوات بريطانية للدفاع عن القنال » .

فبقاء الجيوش البريطانية في مصر معلق بقدرة الجيش المصري على صد هجوم مفاجئ على القنال بموارده الخاصة المدة اللازمة لوصول مدد الحليف .. وقد أُنْخِرَني أحد الذين اشتركوا في هذه المفاوضات أن هذه المدة التي يجب على الجيش المصري فيها أن يدافع حتى يصل مدد الحليف قدرت بثمانية أيام . وهو الزمن اللازم لوصول الجنود البريطانية من إنجلترا . وإذن فقد كان يكفي أن يصبح جيش مصر في حالة تمكنه من المقاومة لمدة ثمانية أيام حتى يخرج الإنجليز من مصر ، أو بمعنى أصح يكفي أن يبلغ الجيش المصري عشرين ألفا من الجنود حتى يخرج الإنجليز من مصر ، لأنهم لا يضعون لحماية القنال أكثر من عشرة آلاف جندي .

اسمعوا الآن ما هو النص الجديد في معاهدة آخر الزمن :

« بما أن قتال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو في نفس الوقت طريق عالمي للمواصلات كما أنه أيضا طريق أساسي للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية . فإلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص الخ ... »

أى أن الجيوش الإنجليزية لا تخرج من مصر إلا بعد أن يصبح الجيش المصرى قادرا على الدفاع عن مصر . والدفاع عن مصر ضد من ؟ . ضد إيطاليا لأنها هي الخطر الملحوظ في الوقت الحاضر ، ولما كان موسوليني قد صرح مرارا وتكرارا أنه يستطيع تجنيد ثمانية ملايين عسكري في ساعتين ، ولما كان يستطيع أن يهاجم مصر بمليون عسكري ، فإن مصر لا يمكنها أن تقف أمام هذه القوة بأقل من مثلها ، أى بمليون عسكري ولما كان من المستحيل أن تتوفر لمصر هذه القوة في زمن السلم ، فقد أصبح من المستحيل بالتالى خروج الإنجليز من مصر .

انظروا أيها السادة بشاعة هذا التغيير ، الذى حسبوا أن الأمة لن تفتن إليه ... انظروا كيف تلاعبوا بالنصوص فحولوها من نصوص معقولة إلى حد ما ، إلى نصوص جائرة تفرض على مصر عبودية أبدية .

### مغزى وجود العساكر الإنجليزية

يقولون لنا : ولماذا تهولون في تفسير بقاء العساكر الإنجليزية في مصر ، وهى لم تعد جنود احتلال ، ولكنها جنود دولة حليفة ؟ وهل قال الإنجليز في أى يوم من الأيام غير ذلك ، فيا للسخرية ويا للعبث !!

وإذن علام تبقى إنجلترا هذه الجنود وتصرف عليها هذه المبالغ الطائلة إن لم يكن لإذلال مصر واحتلالها ؟ ! يقولون إن ذلك للدفاع عن قنال السويس ، ويجدون من المصريين البلاء الكافية لتصديق ذلك ! اسمحوا لى أن أقول بأنه من البلاء أن نصدق ذلك ، وأن يجوز علينا بعد خداع طال خمسين عاما . فإن قتال السويس إن كانت مهددة بهجوم مفاجئ فسيكون ذلك عن طريق إيطاليا أو ألمانيا أو دولة من هذه الدول العظمى ، وقد رأينا كيف أن أمة دولة من هذه الدول تستطيع أن تهاجم مصر بنصف مليون جندي على الأقل . فإذا كان الحال كذلك فهل يستطيع أى فرد فيكم أن يقول لى ماذا تساوى العشرة آلاف جندي إنجليزى إزاء هذا الطوفان من الجنود المهاجمة تؤيدها بضعة مئات من الطائرات ؟ . ألا تشعرون معى أن هذه العشرة آلاف جندي ستكون ذبيحة لأول هجوم جدي مفاجئ من هذه الدول القوية ؟ ! إنما يحتاج الدفاع عن قنال السويس في أيام السلم إلى مائة ألف جندي ، أما إذا قامت الحرب فلا أقل من مليون عسكري . سيقولون إن إنجلترا سترسل هذا المليون إذا ما نشبت الحرب أو شعرت بقرب وقوعها . فنقول لهم وما قيمة العشرة آلاف إذن بجانب المليون مادام لا مناص من إرسال هذا العدد الضخم من الجنود إبان الحرب ، وما قيمة

هذه العشرة آلاف جندي أيام السلم وهل توجد دولة واحدة في الدنيا تضع جنودا على أرض حليفها أيام السلم ؟

### الغرض الحقيقي من وضع الجنود

الحق أنهم لا يبقون هذه الجنود للدفاع عن قنال السويس ، فهي لاتصلح لهذه الغاية ولكنهم يبقونها لغرض آخر تصلح له تماما أتعرفون ماهو ؟ أجل أنكم تعرفونه هو احتلال مصر وإذلالها ، وفرض إرادة الإنجليز عليها ، وإظهارها في مظهر الدولة التابعة الدليلة .. وإشعار الدنيا بأسرها أنها مستعمرة إنجليزية .

عشرة آلاف جندي لاتصلح إلا لشيء واحد ، وهو أن تكون عدة للسفير الإنجليزي الممتاز يغتد بها أمام الحكومة المصرية إذا فكرت في أن تتجاهل وصاياه وإرشاداته .

عشرة آلاف جندي تقيم على بعد ثلاث ساعات من العاصمة ، وأربعمئة طائرة مجهزة أقوى تجهيز يمكنها أن تصل إلى أى جزء من أجزاء مصر في أقل من ساعة ، وهى قادرة على أن تقلب المدائن رأسا على عقب يوم أن تفكر مصر في أن ترفع رأسها كدولة مستقلة أمام الإنجليز .

### كارثة الطرق

إن أعوزكم الدليل على ذلك ... فلتونكم هذه الطرق التى تشق مصر من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها ، هذه الطرق التى جُعِلَتْ شرطا أساسيا للجلاء عن القاهرة والإسكندرية ، ماذا تعنى وماهى أهميتها للدفاع عن مصر ضد المغير الأجنبي ؟ . بل هى على العكس كما يقرر العسكريون سلاح ضد مصر ، وضد الدفاع عنها إذا ماسقطت ثغور مصر ، ووطأت أقدام المغير أرضها .. إذ تنقلب هذه الطرق أكبر مسهل لغزو مصر .

وإذن فإن إنشاء الطرق ضد مصلحة الدفاع عن مصر من غير شك ، وهى فى الواقع موجهة ضد مصر ، فقد فكروا فيها لإنجاد كل ثورة يمكن أن تشتعل فى أقصى الصعيد .. فهم يريدون أن يسيطروا على مصر بأسرها وهم فى قلاعهم على ضفاف القنال .

ولما كان سلاح الحروب الحديثة هو الطيران ... فليكن الاحتلال أتم وأظهر جوبا ، وإذن فلتنشئ لهم مصر المطارات. فى كل بلد يريدونه ولتخصص لهم الحظائر وليطيروا أنى شاءوا ومتى أرادوا وكما يحلو لهم ..

### فائدة إنشاء الطرق فى إفلاس مصر !!

على أن بناء الثكنات وإنشاء الطرق لاتقف فوائده العظيمة للمحتل عند هذا الحد . كلا ، فإن له فوائد مزدوجة .. بل فوائد لاتعد ولا تحصى ، ولا يمكن أن تستقصى ، كما يقولون .. إذ ينفع فى ناحية أخرى فى تدمير الثروة المصرية ، وعرقلة النهوض وعدم إمكان أى إصلاح وإعداد . سوف يبنون الثكنات بعشرة ملايين ، وسوف يشقون الطرق بما يزيد على العشرة الملايين ،

وسوف ينشئون مطارات للسادة الإنجليز تكلفنا بضعة ملايين أخرى .. وسنكلف ببناء ثكنات جديدة للجيش المصرى فى السودان بعد أن احتلوا ثكناتنا القديمة ، وسوف يكلفنا هذا بضعة ملايين أخرى ، وهذا هو الخراب المالى قبل أن نستفيد أية فائدة من الاستقلال المزعوم . يريد الإنجليز أن يعيدوا التاريخ من جديد ، وأن يمثلوا مأساة الدمار المالى مرة أخرى .. وليس فيكم من يجهل أن إنجلترا حاولت أن تغزو مصر بالقوة فى سنة ١٨٠٧ فأرسلت حملة إلى مصر ، بقيادة فريرز يؤيدها أسطول إنجلترا سيد البحار ، فما كان من مصر والمصريين إلا أن طردوهم وقذفوا بهم إلى البحر . وفى موقعة رشيد أبادوا الجيش الإنجليزى عن بكرة أبيه ، ففر الإنجليز مذعورين وأسرعوا إلى سفنهم وبلادهم أذل مايكون المهزومون ..

وكان ذلك درساً قاسياً للإنجليز لم ينسوه مدى العمر ، تعلموا منه أن الشعب المصرى لا يؤخذ قسراً .. فشرعوا يمحكون الدسائس للحصول عن طريقها ، على ماعجزوا عن الحصول عليه بالقوة فإذا فعلوا ؟؟

لقد وقفوا بالمحصن لمصر أيام محمد على . فلما وجدوا الإمبراطورية المصرية قد تكونت .. لما وجدوا مصر قد أصبح لها جيش يزيد عن ربع مليون مقاتل ووجدوا لها أسطولاً يهز الأساطيل ، عندما وجدوا مصر المنتصرة تنتقل من فتح إلى فتح ومن نصر إلى نصر ، أثاروا أوروبا بأسرها علينا ، وعقدوا حلفاً لتعطيل مصر فتم لهم ما أرادوا ، ونجحوا فى سلب مصر حقوقها فى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ثم أخذوا بعد ذلك يزينون لإسماعيل باشا وسائل الإسراف ويلوحون له بالقروض تلوقروض .. حتى إذا كبلوا مصر بالديون أخذوا يضغطون عليها فى وحشية لاتمكنها من تنظيم شئونها ، وهكذا ساقوا مصر إلى هاوية الإفلاس .. وهكذا دخلوا إلى مصر فى ظل الإفلاس والدسائس .

ويظهر لى أن إنجلترا تريد بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أن تكرر هذه المأساة بأن تدفع مصر إلى صرف ثلاثين مليوناً أو يزيد لتنفيذ المعاهدة ، ونحن لانكاد نعرف من أين تحضرها وليس من شك فى أن ذلك لا يمكن أن يكون إلا رغبة فى إفلاس مصر ..

وإلا فهل يستطيع هؤلاء الوطنيون العظام أن يقولوا لنا من أين سيجيئون بالمال ؟ يقولون إنهم سيفرضون ضرائب جديدة .. وفضلاً عن أن هذه الضرائب ستكون عبثاً جديدة على المصريين فهى لن تزيد قيمتها كما قدروها عن ثلاثة ملايين من الجنيهات على أقصى تقدير .. فإذا تفيد هذه الثلاثة الملايين ؟ وإذا صرفناها لإنشاء الثكنات والطرق فمن أين لنا المال اللازم لتكبير جيشنا وتزويده بالمعدات الجديدة ، الأمر الذى يحتاج إلى عشرات الملايين .. وإذا فرضنا واستطعنا أن نأخذ نصف الميزانية لهذا الغرض فإذا يكون مصير المشروعات العمرانية التى تحتاجها مصر ، التى ينبغى القيام بها فوراً ، كإصلاح القرية ونشر التعليم وتكوين أسطول جوى وأسطول بحرى تجارى .. وحرى ؟ ! سيقولون إن هناك الاحتياطى تؤخذ منه هذه الأموال وكأنهم نسوا أن الاحتياطى لا يكاد يكنى لشيء من هذا كله ومع ذلك فقد أصبح هذا الاحتياطى أساساً من أسس المالية فى مصر فأصبح المساس به يعرضها لحزة عنيفة قد لا تسلم منها أبداً .

وإذن فليس أمام الحكومة المصرية إلا مايشيعونه من ضرورة عقد قرض ، وأن يمد مشروع قتال

السويس لخمسين سنة جديدة فى مقابل مبلغ من المال . هذا المشروع الذى رفضته مصر منذ سنوات بإباء وشمم . إذ أن كلا من القرض ومد امتياز قناة السويس نكبة لاتعادلها نكبة .

وهكذا ترون أيها السادة أن مصر لا يوجد بها الأموال اللازمة لتنفيذ المعاهدة ، وإن وجدت بها فإن هذا يكون معناه تعطيل باقى مرافق الدولة فلا ينالها الإصلاح فهل فكر هؤلاء الساسة الكبار ، هل فكر هؤلاء الذين عقدت لهم ألوية النصر فى هذه الكارثة المالية التى ستحل بمصر من جراء المعاهدة ؟؟

لقد كانت هناك مشاريع حيوية لكل مصر مثل مشروع إصلاح القرية المصرية ورفاهية الفلاح . فوقف هذا المشروع ، وغيره ، لعدم وجود المال اللازم وسيظل الفلاحون المصريون يشربون السم الناقع ويعيشون مع البهائم ، سيظل الفلاحون المصريون يكبدون ويشقون كما تبقى ثكنات جيش الاحتلال تزدان بالمسارح والملاهى ، وكل مظاهر الترف والتعيم .

لقد كنا نفهم أيها السادة أن الإنجليز تحتلنا بالقوة رغم أنوفنا ، ولكننا لم نتصور مطلقاً أن ستأتى الساعة التى نبى فيها لجيوش الاحتلال ثكنات وطرقا ، ونحن نعرف أن ذلك يدفع بنا نحو الخراب .. لم نكن نتصور أن هناك مصرى واحداً سيقدم على ذلك فى يوم من الأيام أو يوافق عليه .

يقول البعض إن مصر إذا كانت قد خسرت فى النقطة العسكرية ، فقد كسبت فى نقط أخرى ، ويخيل لهم أنهم ماداموا قد سموا الاحتلال بالنقطة العسكرية فقد جعلوه هينا بسيطاً تافهاً ، كما يبدو من التسمية .. وأعنى بها كلمة « النقطة » .

ولكنها نقطة أيها السادة أشبه بهذه التى تقع على العين فتحيل نورها ظلاماً أو هى نقطة كتلك التى تقع على الإنسان فتسرع به إلى القبر .

النقطة العسكرية هى كل القضية المصرية ولا يوجد بين مصر وإنجلترا سوى هذه النقطة لأنها الاحتلال ، الذى عملت له إنجلترا دائماً أبداً . فهذه المعاهدة تمكن إنجلترا من أن تظل محتلة مصر احتلالاً أبدياً ، وهى بعد ذلك ترعى مصالح إنجلترا الاقتصادية ، وماذا يريد الإنجليز أكثر من ذلك ؟ وما الذى نكون قد ظفرنا به . بعد ذلك ؟ يقولون لنا ظفرنا بالسودان ، فلنر ماذا فعلوا بالسودان .

## السودان

أجل من حقنا أن نتساءل بعد ذلك كله ، وماذا فعلت المعاهدة بالسودان ؟ ماذا فعلت بقلب مصر النابض ونبوع حياتها ؟ ماذا فعلت بالسودان الذى فتحناه بدمائنا وأموالنا ؟ والذى يسكنه شعب هو من أفراد شعبنا يدين بديننا ؟ ويتحدث بلغتنا ؟ ويحس بأحاساستنا ؟ ماذا فعلوا بالسودان الذى تدخل الإنجليز فى إدارته معنا بمعاهدتى سنة ١٨٩٩ ، فاعتبرنا ذلك إجراماً ما بعده إجرام . ولم يوجد وزير واحد بعد إبرام هاتين المعاهدتين رضى أن يعترف بها أو يرضى عنها .

يقول النحاس باشا فى كتابه الأخضر عن مفاوضات سنة ١٩٣٠ والذى أصدره فى هذه الأيام فى

صفحة ٣٣ ، للمستر هندرسون في صدد الحديث عن السودان :

«إن كل ما نريده هو عدم الإشارة إلى معاهدتي سنة ١٨٩٩ لأنها ممقوتتان في مصر كل المقت .  
هذا هو موقف مصر من السودان ، وهذا هو موقف النحاس باشا نفسه من السودان فهو لا يرضى  
عن الإشارة إلى معاهدتي سنة ١٨٩٩ ، لأنها ممقوتتان كل المقت في مصر .

فإذا فعلت معاهدة آخر الزمن بالسودان ؟ أتعرفون ماذا فعلت ؟ لقد جعلت اتفاقيتي سنة ١٨٩٩  
مثلا أعلى وحلما من الأحلام ، وفرضت علينا أن نحترم الأمر الواقع .. والأمر الواقع هو أن السودان  
من ممتلكات إنجلترا يديره موظف إنجليزي هو حاكم السودان .. على أن معاهدة آخر الزمن كى تسخر  
منا سمحت أن يكون سكرتير هذا الحاكم مصرية ، وأن يسمح لمفتش الرى بحضور مجلس الحاكم  
حينما يعرض على المجلس مسألة تخص الرى ..  
الله .. الله .. وهذا هو كل ما لنا في السودان .

«وقالوا لنا سيعود الجيش المصرى إلى السودان ، ولكن هل تعرفون سيعود على أى شكل ؟  
سيعود على اعتباره فرقة في الجيش الإنجليزي يخضع لحاكم السودان . وإن كنتم تعجبون لشيء  
فاعجبوا لهذه الأمة التى ترسل أبناءها ليكونوا تحت إمرة رجل أجنبي يتصرف فيهم كما يريد وكما يحلو  
له .. وإعادة إنجلترا الجيش المصرى إلى السودان كى يربط على الحدود الحبشية فإذا بدأ الطليان في  
الإغارة على السودان كان أبناء مصر هم أول من يتلقون الصدمة . وأول من يموتون دفاعا عن  
السودان ، إذا فكر الإيطاليون في الإغارة عليه .

هذا هو سر إرسال الجيش بهذه الطريقة العجيبة التى لم نسمع بها من قبل ، وأعنى بها وضع  
الجيش المصرى تحت إمرة موظف إنجليزي .. ولقد أرادوا بهذا أن يقطعوا كل صلة بين جيش مصر في  
السودان وبين وزير الحرية .. وهكذا يستطيع حاكم السودان إذا لزم الأمر أن يأمر جيش مصر  
بالعدوان على السودان ، أو المصريين أنفسهم ، فإن فكروا في الاحتجاج أو الامتناع كانوا عصاة  
متحدين يرمون بالرصاص .

فاضحكوا ، اضحكوا أيها المصريون على ما مُنِحتموه في السودان بل اضحكوا أكثر ، فإن المهزلة  
لم تتم فصولا ! فقد سمح لكم أن تهاجروا وأن تملكوا في السودان مثل الإنجليز سواء بسواء . الله أكبر !  
أيها المصريون .. يجب أن تطربوا لأنه قد سُمح لكم بأن تملكوا في السودان مثل الإنجليز .  
أيها السادة .. إن الألم يحز في نفسى حزا فلا أستطيع مواصلة الكلام في موضوع السودان ، فإن  
الخطب أجّل من أن يُوصف أو يُحدّث عنه . لقد أصبح المصريون خدّاما للإنجليز في السودان ،  
وأصبح السودان بموجب هذه المعاهدة ملكا للإنجليز ، فلا حول ولا قوة الا بالله !!

### الامتيازات

أما عن الامتيازات فيقولون: سامعهم الله : إن مصر قد كسبت فيها كسبا كبيرا ولكن أرجو أن  
تسمحوا لى أن أقول لكم إن هؤلاء الذين يظنون هذا الظن لا يمكن إلا أن يكونوا ضعفاء الثقة

بأنفسهم وبيلادهم .. ومن هنا فهم يرون أن تعديل ما نحن فيه من ذلك كسب عظيم ما بعده كسب .. هؤلاء الذين يجبل لهم أن هذه المعاهدة قد فعلت شيئا في مسألة الامتيازات هم هؤلاء الذين ينظرون إلى الأجانب نظرة الوضيع للرفيع ، والصغير للعظيم .. والا فأى إنسان مكتمل الوطنية والإيمان بوطنه يرضى أن يكون الأجنبي في بلاده أرفع منه درجات ؟؟ أى مصرى يعرف قدر نفسه يرضى أن يكون للأجانب محاكم مختلطة إلى أجل غير مسمى ؟؟ وكيف نرضى أن نساوم الدول وأن نرجوها أن تتنازل عن بعض امتيازاتها فتحولها إلى المحاكم المختلطة ؟ هذه المحاكم التى رأيت كيف أنها تمتن لغتنا وتمتهن كرامتنا ، فضلا عن أنها محاكم أجنبية تعمل لصالح الأجنبي ، من الذى يرضى بهذا الحل في الامتيازات إلا المستضعفين والذين لا يعرفون لوطنهم ما ينبغي له من احترام وتقدير ؟!

يقولون إن هذه المعاهدة هي معاهدة الشرف والاستقلال ، فلما قلنا لهم وكيف توفقون بين الاستقلال وجيش الاحتلال ، قالوا لنا : إن هذه جيوش دولة حليفة !!

فلنسألهم هذه المرة وكيف توفقون بين الاستقلال ، وبين وجود محاكم مختلطة ، نسألهم أرونا دولة واحدة في الدنيا بأسرها توجد فيها محاكم يجلس فيها قضاة أجنبية ليحكموا على الوطنيين إلا في مصر ، بلد العجائب . كنا نتوقع أيها السادة إلغاء هذه المحاكم ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، منذ أمد بعيد فإذا بهذه المعاهدة توطد أركان المحاكم المختلطة إلى مدة من الزمن معقولة غير ممدودة ، وأرجوا أن تضحكوا معي من هذه التعابير التي لا يمكنكم أن تعثروا عليها في أى معاهدة من معاهدات العالم . ولكنكم تجدونها في معاهدة آخر الزمن لأنها معاهدة الشرف والاستقلال . مدة معقولة غير ممدودة ، وكم تساوى معقولة هذه من الزمن ، من الذى يحدد هذه المعقولة . من الذى قال لهم إن مصر ترضى أن تخضع في ظل المحاكم المختلطة سنة واحدة ، بل يوما واحدا ، تصوروا أيها السادة أن الأجانب في كل بلاد العالم يتمتعون بحقوق أقل مما يتمتع بها أصحاب البلد الأصليين . . أما في مصر فإن وثيقة شرفها واستقلالها تسجل عليها أن يبقى المصريون أذلة بالقياس إلى الأجانب ..

إن الامتيازات يجب أن تلغى بجمرة قلم ، وحالا . والمحاكم المختلطة يجب أن تلغى بجمرة قلم ، وحالا . فإذا كانت معاهدة آخر الزمن تُبقي على الامتيازات والمحاكم المختلطة فما ذلك إلا لأنها تريد أن تظل مصر ناقصة السيادة ، وأن يظل العالم ينظر إلى مصر نظرتة إلى دولة غير متحضرة ، تعيش في ظل الانجليز والأجانب .

### ملخص

وإذن فإن هذه المعاهدة أيها السادة تسجل الاحتلال وتجعله مشروعا بعد أن كان غصبا ، ونحن مضطرون نتيجة لهذا التحول أن ندفع تكاليف الاحتلال ونفقاته ، ونثبت دعائمه بإنشاء الطرق والثكنات والمطارات . وهذه المعاهدة قد حولت السودان إلى مستعمرة انجليزية ، وأضاعت علينا حقنا في إلغاء الامتيازات بجمرة قلم . وإذن فكل دفاع عن المعاهدة وكل ادعاء بأنها حققت لمصر استقلالها ، وأنها معاهدة الشرف ، هو ادعاء باطل لا أساس له .. وعلى هؤلاء الذين توجوا جهادهم بهذه المعاهدة المشوهة أن يعتزلوا السياسة ، وأن يقبوا في عقر دارهم . لقد طال ما نادوا في



هذه الأمة أنهم سيحصلون لها على استقلالها التام أو الموت الزؤام . لقد طال ما قالوا للأمة الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولم تتردد الأمة تبعا لذلك أن تمنحهم ثقها التي لا حد لها وها هي جهودهم تتمخض عن هذه المعاهدة .

وإذن فليفسحوا الطريق للشباب . وليفسحوا الطريق للجهود الجديدة ، والكفاح الجديد . أما إذا حاولوا أن يعترضوا طريقنا وأن يخفوتوا أصواتنا ، وأن يصادروا جهودنا ، فإن جنائيتهم على الأمة تكون جنائية مضاعفة . وعندها فستقاومهم بكل ما لدينا من وسائل ، وسوف نتصر عليهم من غير شك بإذن الله .

### معاهدة باطلية

أما موقفنا الآن بالنسبة للمعاهدة فهو أننا لا نعترف بصحتها أو مشروعيتها ، فهي معاهدة باطلية ، سواء قبلها البرلمان أو لم يقبلها .. فإن قبول البرلمان لمثل هذه المعاهدة لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يمكن أن يؤثر على سيادة الأمة بأى حال من الأحوال ، فإن مجلس النواب لا يجوز له أن يتنازل عن أى حق من حقوق مصر . ولا أن يبرم اتفاقات من شأنها المساس بسيادة مصر . فما بالكُم وهذه المعاهدة تتنازل عن مصر بأسرها للإنجليز ؟ وتحطم سيادة مصر إلى الأبد ؟ فإذا وافق البرلمان على هذه المعاهدة فهي موافقة من لا يملك هذا الحق ، وهي موافقة لا تقيد إلا أشخاص الوزراء والنواب ، أما باقى الأمة فسوف تعرف كيف تتحرر من هذه المعاهدة وتمزقها .

### نحن والسير مايلز لامبسون

ويحضرنى الآن موقف كان بينى وبين السير مايلز لامبسون بمناسبة المفاوضات التي تتمخضت عن هذه المعاهدة ، ولا شك أنكم تذكرون أن الحادثات كانت قد طالست واستغرقت عدة أشهر ، وأخذ ما يتسرب عنها من الأنباء لا يدل إلا على أنها ستصل إلى هذه النتيجة السيئة التي وصلت إليها . فبادرت بإرسال خطاب إلى السير مايلز لامبسون أحذره فيه من ضرر المروغة ، وألفت نظره إلى أن الشيوخ أصبحوا لا يمثلون روح الأمة تمثيلا حقيقيا ، وأن الجيل الجديد أصبح لا يرضى بأقل من الاستقلال التام لمصر والسودان ، وأن أى اتفاق لا يحقق هذه الآمال فهو اتفاق يرفضه الشباب وترفضه الأمة ... وأنه ليس يكفى أن يوقع دولة النحاس باشا ومن معه هذه المعاهدة كما ترضى الأمة بأسرها ، ذلك أن النحاس باشا ومن معه لا يستمد قوته إلا بمقدار ما يترجم عن إرادة مصر القوية الشابة المتجددة ، فإذا فشل النحاس باشا فى ترجمة هذه الإرادة فإن المعاهدة التي سيوقعونها لا تقيد أحدا فى مصر ، إلا هؤلاء الذين وقعوها ، أما من عداهم فإنهم براء من هذه المعاهدة .

وقد غضب السير مايلز لامبسون غضبا شديدا ، أو غضبت معه كل دار المندوب السامى ، كيف يجروا أحمد حسين على أن يرسل هذا الخطاب ؟ فأوفدوا المستر سمات لمقابلة دولة على باشا ماهر ، بالرغم من أن جلالة الملك قواد كان قد توفى يومها إلى رحمة الله ، فى هذا اليوم العصيب ذهب المستر سمات ليلفت نظر دولة ماهر باشا لهذا الخطاب ويعلنه بعدم رضا الدار ..

ولكن دولة ماهر باشا فضلا عن أنه كان مشغولا بالحوادث الجسام ، والتي كانت حاسمة في تاريخ مصر ، ما كان يمكنه ؛ وهو الذى عرف بالوطنية والنزاهة ، أن يؤثر على تصرفات مصر الفتاة بأى شكل من الأشكال ..

ثم انتهت مدة الوزارة الماهرية بعد أيام قليلة من هذه الشكوى ، وجاءت الوزارة الوفدية وبدأت معها اضطهادات مصر الفتاة ، التى أريد بها إخماد أنفاسها عقابا لها على هذا الخطاب .

ولكن السير مايلز لامبسون لو كان ممن يحبون الصراحة لوجب أن يطرب لهذا الخطاب ، فها هو دولة النحاس باشا ومعه كل رؤساء الأحزاب قد وقعوا على معاهدة آخر الزمن ، فإذا بها معاهدة لاترضى مصر الهرمة فضلا عن مصر الفتاة .

واليوم أرونى مصرياً واحداً يعرف تفاصيل هذه المعاهدة ويرضى بها ، أجل إنكم تسمعون تصفيقاً ، وتسمعون سفسطة من بعض الأشخاص ، ولكنى أقسم لكم أن كل مصرى سليم يدافع عن المعاهدة فهو لم يطالع نصوصها ، ولم يقف على محتوياتها ، وإلا فإنه يوم يفعل ذلك لا يستطيع أن يتالك نفسه من الغضب والحق على المعاهدة . فالذين يروجون للمعاهدة إنما يستغلون جهل الجمهور وسذاجته ولكن بقى أن تتساءل إلى كم من الزمن يمكن أن يستمر هذا التثوية وهذا الاستغلال ؟! . أجل قد يستمر شهراً وقد يستمر شهرين ، وقد يستمر أكثر من ذلك ، ولكن غدا عندما يرى أحوالهم تنتقل من سوء إلى أسوأ ، عندما يقولون لهم سنشرع فى تنفيذ المعاهدة فلا يرون بعدها إلا ثكنات تبني ، وطرقاً تشق وملايين من الجنديات تصرف لتوطيد دعائم الاحتلال ، فهل تظنون أن المصريين سيقفون بعد ذلك يطربون للمعاهدة أيضاً؟؟؟ أوكد لكم أن هذا لن يكون ..

وإذن فسوف نفتتح الأمة أعينها عما قريب وعندها يعلم كل مصرى أننا لم نكن نتجنى عليه يوم أن أظهرناه على ما فى هذه المعاهدة من نكبات .. عندما تعرف انجلترا أننا لم نتجن عليها يوم أن أنذرناها بأن كل معاهدة لا تحقق أمانى الأمة كاملة فهي لا تساوى الخبر أو الورق الذى كتبت عليه ، لأن الانجليز إذا كانوا قد خيل إليهم أنهم قد فرغوا من المسألة المصرية بتوقيع المعاهدة ، فسيرون أنهم جد خاطئين ، وأن المسألة المصرية سوف تصبح أشد قوة مما كانت قبل المعاهدة .

وسوف يغضب الانجليز علينا عندما يسمعون بنياً اجتماعنا هذا ، وما قيل فيه ولكنهم لو أرادوا مجابهة الحقائق لوجب عليهم أن يشكرونا لأننا نلهم على الحقائق التى لا يمكن إخفاؤها ، فهذه المعاهدة سواء وقعها البرلمان أو لم يوقعها فهي معاهدة باطلة .. لأنها تسلب سيادة مصر ، وتفرض عليها احتلالاً .. والقانون الدولى لا يعترف بهذه المعاهدة التى تمس سيادة الأمم . لأنها تكون قد تمت تحت الإكراه أو الغش ، وكلا الأمرين مفسد للرضا وبالتالي لصحة العقود .

### الطريق الصحيح للاستقلال

وإذن أيها السادة فعلياً أن نعد أنفسنا للطريق الصحيح للاستقلال ، والطريق الصحيح للاستقلال هو أن يصبح الشعب قويا ، وهذا هو ما نادى به مصر الفتاة منذ اللحظة الأولى . لقد

نادينا دائما أبدا أن الحياة إرث القوى ، وأن المستقبل للشعب الظافر ، وأن لا حياة للضعيف فلا المعاهدات ولا القوانين بكافية الحماية الضعيف . ومن كان يعوزه الدليل فهذه هي الحبشة وقضيتها لا تزال ماثلة في الأذهان ، لم يغنها تأييد العالم بأسره أمام القوة ، فعلى هؤلاء الذين يجنل لهم أن الاستقلال يمكن أن يكون نتيجة للمفاوضات وأن يتم عن طريق المعاهدات ، على هذا النفر من المصريين أن يفسحوا الطريق لمن هم أكثر علما بحقائق الأشياء منهم ، ومن هم أكثر استعدادا للكفاح منهم .

لا كرامة لنا إلا إذا كانت لنا عدة ، وكانت لنا قوة ، وهذه العدة نستطيع أن نخلقها رغم أنف الغاصب ، اذا ما نظم الشباب صفوفه تنظيما عسكريا ، وأخذ نفسه على الحشونة والتكشف والرجولة .

وهذا هو برنامج مصر الفتاة ، فنحن الذين نعمل لنشر الروح العسكرية والحاربة الضعف والتخنث والخور .. نحن الذين نعمل لتنظيم الشباب في جماعات شبه عسكرية ، يربطها رباط المبدأ والعقيدة ، وكيف تحتمل في سبيل مثلها الأعلى كل تضحية وعناء ..

نحن الذين نادينا وعملنا لجعل الشباب قوى الجسد عن طريق الرياضة والعسكرية .. وقوى الروح عن طريق التطهر والتدين .. نادينا بذلك وعملنا له فابتكرنا القميص الأخضر ليكون شعارا للمجد والجهاد ..

ابتكرنا القميص الأخضر ، وألهمنا الله إياه لتمثل فيه كل آمال الأمة وكرامتها . كل عزها ومجدها .. فطلعوا علينا بالقميص الأزرق ، الذي تحول سريعا ليكون أداة من أدوات الطغيان والإرهاب ..

وهكذا انخرفوا بالفكرة . فبعد أن كان التنظيم موجها لتحرير مصر ، ولخدمة قضيتها ؟ أصبح موجها للاعتداء على المصريين وإرهابهم .. وبعد أن كان الأصل في المجاهد ، أن يكون مثلا أعلى للأخلاق والرجولة والتفاني في خدمة أبناء وطنه ، أصبح عكس ذلك .. وهذا ما يجعلنا أشد حرصا على أداء رسالتنا والنسك بقميصنا .. هذا ما يجعلنا أشد إيمانا بأن النصر لنا في نهاية الأمر .. وليست تخيفنا هذه الجموع الزرقاء فهي جموع تعيش الآن في كنف الحكومة ورعايتها ، وقد أصبحت ملجأ لكل غير ذى حرفة ، ولكل من يرغب في الاختفاء عن أعين البوليس ..

ليست تخيفنا هذه الجموع الزرقاء ، فانها سريعة الزوال ، فلا مبدأ لها ولا عقيدة ولا رسالة ، فهي إذا ما قورنت بالقميص الأخضر فإنها تكون أشبه شيء بمعاهدة آخر الزمن ، اذا ما قورنت بالاستقلال الصحيح ..

إن طريقي في الكفاح أيها السادة ، أن أعطى خصومي دائما فرصة ليشبوا فيها جدارتهم ، ولذلك فقد أعطيت الوفد والحكومة فرصة طويلة للقيام بأعباء الأقصة الزرقاء ، فإذا بهم قد انتهوا إلى هذه النتيجة التي بينتها لكم والتي يعرفها كل مصري ، وهي أن الأقصة الزرقاء قد أصبحت عبئا على الناس وعبئا على النظام وعبئا على القانون ، وإذن فقد أصبح وجود الأقصة الخضراء وانتشارها أكثر

لزوما من ذى قبل ، حتى لا تشوه الفكرة . وحتى يوجد التوازن بين هذه القوى التى لا ضابط لها ، وقوة أخرى لها ألف ضابط وضابط .. ضابط من العقيدة .. وضابط من الثقافة .. وضابط من شرف الغاية .. وضابط من الدين ..

سوف نشرع فى تنظيم صفوف الأقصة الخضر ، بعد أن فشلت الأقصة الزرقاء .. وسوف تقاومنا الحكومة ، ولن نجد المال الذى يتوفر لدى الحكومة ، ولن نجد البوليس وكل موظفى الدولة فى خدمتنا ، ولكننا مع ذلك سنقوى ونتصير ، لأن سيدنا هو الله ، ومن كان الله سيده فالعبد لا يُرهبه .

وسوف ترون غدا أيها السادة عندما تستيقظ الأمة وتتصير مصر الفتاة ، سوف ترون كيف نحصل على الاستقلال الصحيح لمصر والسودان ، كيف تؤلف الحلف العربى وتتزعج الإسلام ..

سترون كيف نرتقى بالأخلاق ، ونعيد للدين قدسيته ، لأن محور جهادنا هو الدين . إنا من المؤمنين بأن من ينصر الله ينصره ، وأن ما نعيش فيه من ذل ، إنا هو لتركنا الله والدين ، فقد قال الله وهو أصدق القائلين : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيْمٌ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

سوف ترون أيها السادة عندما تنتصر مبادئ مصر الفتاة .. مبادئ الفضيلة والوطنية . كيف تنتشر العدالة الحقيقية والحرية والمساواة .

سترون كيف ينتشر الرضا فلا يصبح هناك عامل متعطل ولا فقير واحد . سترون كيف يُقضى على المحسوبية ، والرشوة والوساطة ، وكيف لا يلى المناصب إلا الأكفاء . سترون كيف يصبح الفلاح عاملا منتجا ، يعيش كما يعيش الناس . وفى كلمة أيها السادة عندما تنتصر مصر الفتاة سترون مصر جديدة تهز العالمين وتقود الدنيا إلى عصر جديد من النور والسلام تحت لواء الإسلام ..

والى أن يتم ذلك فإنى أدعو طبقات الشعب جميعا أن يؤمنوا بوطنهم وأن يثقوا بأنفسهم ، أدعوكم جميعا إلى تشجيع كل ما هو مصرى فقط ومقاطعة كل ما هو أجنبى .. أدعوكم إلى طعام بلادكم وملابس بلادكم ، اعتزوا بمصريتكم واحتقروا كل ما هو أجنبى وطهروا أنفسكم من الأرجاس ، وحاربوا الشهوات .

وبهذا ، وبهذا فقط سوف نسرع نحو غايتنا ، وسوف نحقق رسالتنا .. وهذه هى مصر الفتاة أيها السادة لا عدة لها إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو رأسبالتنا ، وهو سلاحنا ، وهو كل شىء بالنسبة لنا ومن أجل هذا فنحن لا نهاب ولا نخاف ، يقولون إن طريقنا طويل وإنه ملىء بالصعاب ولكن ما نسعى لبلوغه جدير بكل ثمن وجدير بكل تضحية . . إنى أعلن هنا بأعلى صوت أن مصر الفتاة تنتقل من نصر إلى نصر ولن يهزمها بطش حكومة ، ولا تعسف المتعسفين ، إن روحنا تسرى فى كل مكان ، وسوف نتصير بإذن الله ، وعندها يفرح المخلصون .. والله أكبر ...

## وبعد ...

٢٥

وبعد : فقد رأيت أن أقف عند هذا القدر من تاريخ كفاح مصر الفتاة تاركا بقية الكتاب إلى أجزاء أخرى تصدر فيما بعد ، فلا يزال أمامنا عشر سنوات من الكفاح المتصل الشاق المليء بكل صنوف التضحيات والمعارك الرهيبة بين الحق والباطل ، كم من محنة تعرضت لها مصر الفتاة ، كم من الاتهامات الخطيرة التي أريد بها العصف بمصر الفتاة قد وجهت إليها . ثم لم تلبث أن ارتدت مهزومة مدحورة ، كم من مرة فتحت أبواب السجون وفتلت أحبال المشائق للقضاء على ، ووضع حد لحياقي وجهادى ، ولكن الله الذى يعرف ما فى قلبى من إخلاص وصدق أنجاني من ذلك كله ، وأخرجنى من كل ضيق ومن كل مأزق ، رافع الرأس موفور الكرامة لأواصل كفاحى ضد الغاصب الأجنبي .

وكانت أول محنة وأكبر محنة صادفناها فى هذه الفترة ، عندما أطلق عز الدين عبد القادر الرصاص على رفعة النحاس باشا فى نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، فقد كان هذا الحادث سبيلا لاضطهاد مصر الفتاة بالجملة اضطهادا لا مثيل له من قبل ، فرج بكل من تسامع البوليس عن انتائته إلى مصر الفتاة فى السجن من الإسكندرية حتى أسوان . فقصت السجون بأعضاء مصر الفتاة ، وسارت المظاهرات فى الشوارع تهتف بسقوط مصر الفتاة ، وبوجوب القضاء عليها ، وشنق المجرمين ، وكنا نقيم فى « الزنازين » التى لم تكن تفتح علينا إلا بضع دقائق فى كل نهار ، ولقد كانت ملحمة من أكبر الملاحم ، لم يكن لى سلاح فيها إلا الصوم والصلاة والابتهاال إلى الله بالليل والنهار ، فلم تلبث حكومة النحاس باشا أن أقيمت ، ولم تلبث أبواب السجون أن فتحت لنا ، ولم يلبث التحقيق الزية أن أسفر عن براءتنا الناصعة ، وعادت مصر الفتاة إلى الحياة والحركة ، أكثر نشاطا وأوفر عدة وعددا ، مما كانت فى أى يوم من الأيام .

على أن الاصطدام بين مصر الفتاة وبين الحكومة الجديدة ، حكومة محمد باشا محمود ، لم يلبث أن تجدد بالرغم من الصداقة التى كانت تربطنا بمحمد باشا محمود ، فقد أصدرت الحكومة قانونا يحظر ارتداء الأقصة الملونة فترتب على ذلك حل الأقصة الخضراء ، التى كان يتمثل فيها كل روعة مصر الفتاة وجهادها وإيمانها وتضحياتها .

ورفض محمد باشا محمود أن يجرى تعديلاً في قانون الانتخابات بحيث نستطيع أن نتقدم للانتخابات بالرغم من أن سننا لم يبلغ الثلاثين ، وهو النصاب الذي يشترطه القانون الحالي ، وبذلك حرمانا جميعاً من الاشتراك في هذه المعركة الانتخابية على الرغم من أننا كنا العنصر الحيّ الفعال في السياسة المصرية . على أن ذلك كله لم يكن هو الذي باعد بيننا وبين وزارة محمد باشا محمود ، بل لقد باعد بيننا وبينه أنه لم ينفذ حرفاً واحداً مما كان يدعو إليه وهو في المعارضة وما حاربنا الوعد من أجله ، فلم يكن باستطاعتنا أن نجاريه أو تؤيده لشخصه ، ولعل القارئ لهذا الكتاب قد أدرك أنه لم يكن بيننا وبين الوفد خصومه شخصية ، وإنما كان خلافنا على المبادئ ، وهذا الخلاف نفسه هو الذي وقع بيننا وبين محمد باشا محمود ، فبينما كنا نريد إصلاحاً عاجلاً وسريعاً يقلب البلاد رأساً على عقب ، كان محمد باشا محمود ككل رجال الجيل القديم ، لا يبذل جهداً في سبيل هذا الإصلاح

وسافرت إلى أوروبا مرة ثانية ، وزرت هذه المرة إيطاليا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وإنجلترا ، وقت في هذه الأخيرة بدعاية واسعة النطاق لتعديل المعاهدة ، وقد نجحت في رحلتي هذه بأضعاف أضعاف ما نجحت في رحلتي الأولى ، ولقد تعدلت نصوص المعاهدة الخاصة بموضوع الشككات ومقدار النفقات التي يتحملها كل من الجانبين ، وقد كان التعديل الذي تم على يد محمد باشا محمود نافها ولا خطورة فيه ، ولكن أهمية التعديل كانت من حيث المبدأ ، فقد كانوا يقولون إن هذه المعاهدة لا يمكن أن تتغير أو يتبدل حرف منها قبل عشرين سنة ، ولكننا استطعنا بكفاحنا وجهادنا أن نحمل الحكومة على المطالبة بتعديل هذه المعاهدة بعد عام واحد من توقيعها ، فهدمنا بذلك قدسيتها والخرافة القائلة بأنها نهائية ، وأنها كاملة .

وفي إيطاليا نظم لي برنامج استقبال حافل ، وكذلك في ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . وعدت إلى مصر ، فأقيمت احتفالات ضخمة أقيمت فيها خطبا عن مشاهداتي ومجهوداتي في أوروبا ، وبدأت أضغط في خطبي ودعائاتي إلى وجوب إنصاف العامل والفلاح ورفع مستوى معيشتهم ، بما يتفق مع ما وصل إليه العالم من تطور .

وكان محمد باشا محمود قد أدخل السعديين في وزارته ، وكان النقراشي باشا وزير الداخلية ، والنقراشي باشا رجل يحقد على مصر الفتاة حقداً عجيباً لا تفسير له إلا أن تكون نفس ذلك الرجل تنطوى على نفسية معينة . وقد كان صراعاً وكان صداماً عنيفاً بيننا وبين النقراشي وقبض على عشرات من أعضاء الحزب ، وعلى رأسهم الدكتور مصطفى الوكيل ، بتهمة محاولة اغتياله ، ولكن النية لم تلبث أن أطلقت سراحهم ، وفي هذه

الفترة زرت السودان لأول مرة ، فكانت رحلة موفقة كل التوفيق تركت أثرها العميق في نفسى ونفس السودانين ، وعدت من السودان لأرى النقراشى باشا وقد أعد لنا ساسلة من المحاكمات الخطيرة ، وعلى رأسها الاتهام بمحاولة قلب نظام الحكم بالقوة ، وكان الحزب في ذلك الوقت يدعو لعقد مؤتمر عظيم كأعظم ما شهدت هذه البلاد من مؤتمرات سياسية ، فقد دعى إليه خمسون ألفا ، وأنفقت مبالغ ضخمة على الاستعداد لعقده ، ولكن النقراشى باشا الذى كان قد وافق على عقده أولا ، عاد فسحب موافقته ومنع الاجتماع ، وزج بنا في السجون من جديد بدلاً من ذلك ...

وفي هذا الوقت قام أعضاء مصر الفتاة في جميع أنحاء مصر بحركات ضد الخانات والحمور ، نزولاً عند حد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فحطمت بعض حانات للخمر في القاهرة والإسكندرية وبنى سويف وبورسعيد وقنا والزقازيق وغيرها ، ولقد حملت مسئولية هذه الحركة فيما حملت ولا تزال القضية الخاصة بها معلقة حتى الآن لم يفصل فيها ، أما سائر القضايا الأخرى فقد صدر عنها عفو ملكى عندما سقط هذا العهد وجاء الوفديون من جديد إلى الحكم .

وعلى ذكر الوفد ، فقد كان خروجه من الحكم وعودته إلى صفوف المعارضة فرصة لكى تتقارب وجهة نظرنا من جديد ، فقد قدر في مصر الفتاة أنها قوة فنية تضم صفوف الشبان ، فليس من الخير معاداتها وخصومتها في غير داع أو موجب ، وقد كان لذلك التحول أكبر الأثر في تطور العلاقات بين مصر الفتاة والوفد ، إلى أن جاء الوقت الذى أصبحت فيه مصر الفتاة في شبه تحالف مع الوفد .

وقد كان من أبرز الأعمال التى تمت في هذه الفترة السابقة على قيام الحرب ، تلك الرسالة التى بعثت بها إلى المهر هتلر زعيم ألمانيا أدعوه فيها إلى اعتناق الإسلام ، كوسيلة محققة لإنقاذ ألمانيا مما توشك أن تتردى فيه ، ولقد رحت في هذه الرسالة أحلل سياسة ألمانيا وسياسة هتلر ، وأظهرت ما تنطوى عليه السياسة من اخطاء فاحشة من شأنها أن تؤدى إلى انهيار ألمانيا ودمارها ، ولقد كان هذا الكلام يبدو في ذلك الوقت لونا من ألوان الجنون والخيال ، فقد كانت ألمانيا في أوج قوتها وعظمتها ، وكان نجاح هتلر فوق كل شك وريبة ، واتخذ الكثيرون من هذه الرسالة فرصة للتندر والتنديد بأفكار مصر الفتاة ، ومع ذلك فقد جاء الوقت الذى تحقق فيه حكم ما جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد حتى لكأنها نبوءة صادقة ، وسوف يتسع الجزء الثانى من هذا الكتاب ليفصل ذلك كله .

وقامت الحرب ، ورحنا نعد أنفسنا لأخذ نصيبنا منها ، وسقطت فرنسا وأوشكت  
انجلترا على السقوط فأعدنا أنفسنا للاستفادة من هذه الفرصة ، واتهمنا من جديد  
بالثورة والإعداد لها ، وكانت أول جناية عسكرية من نصيب مصر الفتاة ، حيث اتهم  
الأستاذ توفيق الملط باحراز ديناميت لأغراض ثورية .

وأوفدنا الدكتور مصطفى الوكيل إلى العراق فلم تلبث حركة العراق أن بدأت فاشترك  
فيها نائباً عن مصر الفتاة ، وتطوع في الجيش العراقي وساهم بماله ونفسه من أجل إحراز  
النصر على الإنجليز ، ولكن الثورة لم تلبث أن أُحبطت واضطر رشيد على الكيلاني  
والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين إلى الفرار من العراق ، فسافر معها الدكتور مصطفى  
الوكيل وظل يتنقل معها من قطر إلى قطر ، والإنجليز تلاحقهم باحتلال هذه الأقطار حتى  
استقر بهم الحال في برلين ... وفي برلين استشهد الدكتور مصطفى الوكيل حاملاً لواء المثل  
الأعلى في مصر الفتاة . استشهد الدكتور القديس لأنه أبى أن يفر من برلين ، وإلا أن  
يظل على رأس ذلك المعهد الإسلامي الذي أنشئ هناك وكان أستاذاً فيه .

أما نحن في مصر ، فقد زج بنا جميعاً إلى المعتقلات ، حيث أمضينا في الاعتقال  
نيفا وثلاث سنوات ، وخرجنا من الاعتقال قبيل نهاية الحرب لكي نستأنف كفاحنا من  
جديد . ومرة أخرى تجدد الاضطهاد وتجددت حرب الإنجليز وحكومة السعديين لنا . التي  
وليت الحكم بعد سقوط وزارة النحاس باشا الرابعة ، وقد جرت في هذه الفترة  
انتخابات عامة رشحنا أنفسنا لها ، وكدنا ننجح في كثير من الدوائر ، بل لقد نجحت  
بالفعل في دائرتي «محكمة السيدة» ولكني أقصيت عن النجاح قوة واقتداراً . ولم يلبث  
القدر أن انتقم لنا فاغتيل أحمد ماهر وخر صريعاً في دار البرلمان ، وتألقت وزارة  
النقراشي الذي كان أول أعمالها هو حرب مصر الفتاة والقضاء عليها ، ولقد زج بي في  
السجن أربعة أشهر كاملة بتهمة الاشتراك في مقتل أحمد ماهر ، ولكن التهمة كانت  
كاذبة ، وخرجت منها بريئاً ، وأستأنفنا الحرب مع النقراشي باشا ، وفي هذه المرة  
شاطرتنا الأمة كلها هذه الحرب ، فلم يلبث أن سقط ، وتألقت وزارة صدقي باشا التي  
جاءت لتحقيق مطالب البلاد القومية .

وتجرى الآن مفاوضات لوضع معاهدة جديدة تنظم العلاقات بين مصر وانجلترا ،  
والذي يهمن أن نسجله الآن هو أن هؤلاء الذين وصفوا بمعاهدة سنة ١٩٣٦ بأنها معاهدة  
الشرف والاستقلال هم أشد الناس اليوم نقمة على هذه المعاهدة ، فالوفد - وعلى رأسه  
النحاس باشا - يحمل اليوم لواء التطرف ، فيحارب كل فكرة تحالف مع الإنجليز ،  
وعندما أصدر الإنجليز بلاغهم الرسمي أنهم عرضوا على الحكومة المصرية الجلاء براً وبحراً



وجئوا بشرط عقد محالفة مع المصريين ، كان الوفد أشد الأحزاب سخطا على هذا الوضع ، لأنه يرفض أى تحالف مع الإنجليز . وهكذا تطور الزمن ، وما كان يعتبر خيالاً جامحا من شباب مصر الفتاة أصبح هو السياسة الحكيمة المترنة التي ينادى بها الوفد ، وليس فى الشعب اليوم من لا يطالب بالجلء ، وليس فى الشباب والطلاب والعمال من لا يدعو إلى الجهاد والثورة لإخراج الإنجليز ، وهكذا نرى أنفسنا بعد اثنى عشرة سنة من كفاحنا ، وقد ازدهرت جهودنا وأثمرت .

وإئننى أكتب هذه السطور ، وقد وقفت المفاوضات بين مصر وإنجلترا ولست أعرف ماذا يكون مصير هذه المفاوضات ، ولكن هناك حقيقة لا أشك فيها أبداً ، وهى أن الإنجليز لن يخرجوا من هذه البلاد ، إلا إذا أكرهناهم على الخروج منها بجهادنا السياسى ، والاقتصادى ، والأدبى .

لن يخرج الإنجليز من مصر إلا بعد أن ينقرض هذا الجيل القديم من المستورزين والمستضعفين ، وتقبض على زمام الأمور فى مصر حكومات شجاعة جسورة تعرف كيف تعلن الحرب على إنجلترا إذا لزم الأمر .

\* \* \*



مصر الفتاة والحكومة  
أمام القضاء

## حكومة الوفد

للمتهمين أن يبحثوا عن محام ليستجدي لهم البراءة أو التخفيف أما  
أنا فلست متهمًا وما كان للحكومة أن توقفني موقف الاتهام ولكنني  
أقف في هذا القدس لأحاكم هؤلاء الذين جاءوا بي إلى هنا وإني  
أتهمهم بأعلى صوتي من هذا المنبر

أحمد حسين



## مقدمة

قام الرئيس أحمد حسين بحملة صحفية في جريدة الضياء لم تلبث أن أزعجت الوزاريين فقرروا تقديمه للمحاكمة بعد اعتقاله ثلاث مرات . وقد تم لهم ما أرادوا ووجهت إليه تهمة إهانة الوزارة والقذف في حق رئيسها وحق هيئات أخرى من السلطات العامة وقد تعددت القضايا حتى بلغ عددها خمس ، وشرع في نظرها ابتداء من ١٥ يونيو سنة ١٩٣٧ والأيام التالية ولكن محكمة الجنايات والتي كانت مشكلة برئاسة حسن بك فريد وعضوية حضرتي فؤاد بك أنور ومصطفى بك رشدي اكتفت بنظر قضيتين من هذه الخمس وأجلت القضايا الباقية إلى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٧ وفيما يلي مرافعة الرئيس في قضية لجنة العفو وهي اللجنة التي شكلتها الحكومة بمقتضى القانون رقم ٥٩ سنة ١٩٣٦ للنظر فيمن يشملهم قانون العفو الصادر عن الجرائم السياسية وقد رأت اللجنة أن هذا القانون لا يشمل قضية الرئيس الخاصة بالجيش فكتب مقالاً اعتبرته النيابة العمومية طعنًا في اللجنة فطلبت تطبيق المواد ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ مكررة .

أما القضية الثانية التي نظرت فيها محكمة الجنايات فهي الخاصة بما اعتبرته النيابة إخلالاً بمقام حضرة القاضي محمد علي راتب والذي أصدر حكمه المشهور ضد الحزب ونعته فيه بأنه جماعة ملتوية الأغراض خطيرة على الأمن ونسب إلى الحزب أن واحداً من أفرادها قد قتل آخر في دمنهور بسكين كان يحملها مع أن هذا الشخص قد ظهرت براءته فيما بعد .

قضية لجنة العفو

## يا حضرات المستشارين

أشار عليّ أكثر أصدقائي . وأشار عليّ عدد كبير من زملائي كما أشار عليّ كل من سمع بهذه القضايا أن أوكل أمر المرافعة عني إلى بعض كبار المحامين وحجتهم في ذلك أنني لا أقوى على المرافعة في قضية خاصة بي إذ أكون مهتاج النفس نائر القواد .. وحجتهم أنني لا أستطيع في هذا الموقف أن أفى نفسي المديح الواجب في مثل هذا الموضوع . ومنذ أيام قلائل كان أحد الزملاء الذين أجلبهم والذين يفهمونني كل الفهم يردد هذه الحجة الأخيرة ويرجوني أن أترك مهمة الإشادة بشخصيتي وإخلاصى لوطنى وعقيدتى فقلت له كما قلت لمن قبله :

— ليس الموقف يا صديقى موقف مديح ولا هو موقف دفاع عن نفسى فلا أنا متهم ولا الحكومة خصم وحكم .

أجل ، للمتهمين أن يبحثوا عن محام يحاول تبرئتهم ، يحاول الرفع من اعتبارهم للمتهمين أن يستجدوا البراءة أو أن يستجدوا التخفيف بالإشادة بأشخاصهم . أما أنا فلست متهمًا والحمد لله . ولست أقف اليوم كمتهم ، ولكنى أقف هنا في هذا القدس وفي نفسى كل الإحساس 'أننى أنا الذى أحاكم من أوقفونى في هذا الموقف وليسوا هم الذين يحاكموننى .

حقا لقد استطاعت الحكومة بما لها من حول وطول وسلطان أن توقفنى هذا الموقف وأن تسمينى كما جرى العرف أن يسمى الواقف في هذا الموقف وأعنى كلمة المتهم . ولكن ذلك كله لا يعدو الأوضاع المادية التى يتحكم فيها كل ذى سلطان فهم هم أنفسهم وزراء اليوم قد وقفوا بالأمس موقف الاتهام . وما أعظم الفارق بينى وبينهم فلقد اتهموا في شرفهم فقبل عن بعضهم إنهم يستغلون مناصبهم كما حدث في وثائق سيف الدين . ثم وقفوا في قفص الاتهام بتهمة الاغتيالات السياسية .

ومع كل هذا فما كان وقوفهم هذا الموقف بمنقص من قدرهم وقتذاك ولقد كانت الكلمة الفاصلة للقضاء . فعندما منحهم براءتهم خرجوا رافعى الرؤوس موفورى الكرامة . وها هم اليوم في الحكم يوقفون خصومهم نفس الموقف . ولكن شتان ما بين موقفى وموقفهم .. هم كانوا يقفون مرتعدين فزعين يسوقون المحامين تلو المحامين للمرافعة عنهم . ويقفون في هذه الساحة يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم ما فعلوا وما فعلوا .. وأنهم

يستنكرون ويشمترون وعندما كان الصحفيون منهم يقفون هذا الموقف كان الاستخذاء يملأ  
 ثيابهم وكانوا يتلمسون الطريق لتعليل الألفاظ والمداورة بها ومن هنا فقد حسبوا أنهم إذ  
 يوقفوني هذا الموقف الذى ذاقوا مرارته وأحسوها فى أعماق قلوبهم أنهم سيوهنون من عزمى  
 وإيمانى . ويلوثون صفحة جهادى .. وعلى قياس قضاياهم انتظر الناس منى أن أنتدب  
 من يتولى المرافعة عني لينقلنى من حبل المشنقة . ناسين أن هذا الموقف الذى سعت  
 إليه وأنا الذى أردته وأكافح فى سبيله منذ عام بأسره . هذا الموقف الذى أقفه الآن  
 أمامكم يا حضرات المستشارين ليست هى الحكومة التى أوقفنى إياها وليست هى النيابة  
 التى أوقفنى إياها ولكن أنا الذى أردته وأنا الذى سعت إليه .. وبمسبكم أن تعلموا أنى  
 كتبت أول مقال أحاكم عليه فبلعته الحكومة وسكتت عليه فعدت إلى الكتابة بأسلوب  
 .أحد فرأت الحكومة أن تفتح معى تحقيقاً ولكنها عملت جاهدة أن تحفظ هذا التحقيق  
 وأن تنتهى منه بسلام ولكنى دأبت فى خطي التى انتهجتها لنفسى حتى كان موضوع السهاد  
 والذى كانت الضياء أول من تحدثت عنه فسكتت عنه الحكومة حتى إذا نشره البلاغ  
 شرعت تحقق معه فكان خطاى المشهور الذى بعثت به إلى عبد القادر بك حمزه أقول له  
 فيه إننى متضامن معه فى المسئولية بل أنا المسئول الأول وله أن يبلغ ذلك إلى النيابة .  
 ففعل وكان أن اعتقلت .. وخرجت من الاعتقال وأوصل حملتى بأشد مما بدأتها فرأت  
 الحكومة نفسها مرغمة على تقديم هذه القضايا فقدمتها جملة وبجئت عن موضوعات  
 قديمة لتجعلها موضوع قضايا مستقلة وهكذا فزت أخيراً بما أردته منذ الساعة الأولى وهو  
 أن آتى إلى هذه الساحة - ساحة القضاء التى يدوى فى أركانها صوت الحق كىما أنحاسب  
 أنا وهذه الوزارة . كىما أصنى ما بينى وبين صاحب المقام الرفيع ولتكونوا حكماً بيننا  
 يا حضرات المستشارين ولتكن الأمة من خلفكم وليكن التاريخ حكماً . وأما الدينونة  
 فهى فى يد الديان الأعلى وهو وحده القادر على العقاب والثواب وهو هو وحده  
 القاضى الذى لا مرد لقضائه . فوقى اليوم أنا الذى سعت إليه وليست النيابة . ووالله لو  
 أن الحكومة الآن أعلنت باسم ممثلها فى هذه الجلسة أنها قد تنازلت عن حقها وشكواها  
 وأنها تطلب منكم أن تقضوا ببراءتى من غير دفاع ولا مرافعة . أقسم بالله العزيز المتعال  
 أننى أرفض هذا وأأبى إلا أن تتم المحاكمة كىما يسمع صوتى كل من له أذنان للسمع ومن  
 أجل هذا جئت إلى هذا المكان .

### إنسى أتهم

فأنا اليوم لا أقف متهماً ولكنى أتهم ، وأنا اليوم لا أحاكم ، ولكنى أحاكم وهذا ما



قلته منذ الدقيقة الأولى للنيابة عندما شرعت تحقق معي فقد قلت للمحقق يجب أن تحسن الدفاع عن حكومتك لأنني أتهمها ولا تستطيع اتهمى .. وأهاجمها ولا تستطيع رد هجومي وعبثًا ينجل لها - لأن القوة المادية في يديها - أنها قادرة على إذلالى أو على قلب الأوضاع حياى فتجعلنى متهمًا وتجعل نفسها في موقف المهاجم . ألا إن أى صعلوك يستطيع أن يردى أكبر جبار بضربة عصاة أو طعنة سكين فيقضى على حياته ولكن من الذى يجرو على القول أن القاتل دائمًا أقوى من المقتول أو أن المتحكم أعلى درجة من المتحكم فيه . ذلك أن الظفر المادى لا يساوى في عالم القيم شيئًا ، وإنما الذى يقدر في الميدان هو الظفر المعنوى والروحى فأنا إذا كنت حرا فلن توجد قوة في العالم قادرة على جعلى عبدًا . أجل يمكنها أن تكبلنى بالحديد أجل يمكنها أن ترج بى في أعماق السجون ولكنى سأظل وسط ذلك كله حرا حرا . حرا بروحى وبفسى ومادام هذا كذلك فلن يكون الإنسان عبدًا مطلقًا وإنما يصبح العبد عبدًا عندما يألف الذل ويستسلم إليه . عندما يرضى بالغلبة المادية فينصاع لها بالروح ، هنا يصبح العبد عبدًا بالروح والجسد . خذوا مثلاً هؤلاء المالك الشراكسة فلقد جاءوا بهم إلى مصر عبيدًا تباع وتشترى بالمال ولكن الأحرار سرعان ما شيدوا لها عزا لن يبلى على مر الزمان ذلك لأنهم كانوا أحرارًا والحرا لا يمكن مطلقًا أن يكون عبدًا يا حضرات المستشارين .

فالظفر المادى ليس كل شيء ولا مناص من أن يتبعه الظفر الروحى كما يكون ظفرًا صحيحًا وهكذا ترون أن النيابة والحكومة لم تظفرا منى بشيء ولكن أنا الذى ظفرت بكل شيء إذ أقف هذا الموقف كما أناقشها الحساب وأعرض قضيتى عليكم لتكونوا حكمًا وشاهدًا .

ومن هنا فلست في حاجة إلى محام يدفع عنى تهمة فلا تهمة هناك بل قضية يراد عرضها ومن أقدر منى يا حضرات المستشارين على عرض قضية هى كل كيانى في هذه الدنيا وعلة وجودى ..

من غيرى يستطيع أن يؤدى الأمانة التى يؤمن بأنه موكل بآدائها ؟

من غيرى يستطيع أن يبسط لكم رسالة « مصر الفتاة » لأن هذه الرسالة هى ما يحاكم اليوم . وإذن فلا تعجبوا ولا يعجب الناس لموقفى هذا فغير هذا الموقف هو ما كان يؤدى مصر الفتاة ويؤدىنى . ويؤدى الجهاد الذى أنا آخذ بسيله .

وما أنا بحاجة لأن يقف زيد أو عبيد يحدنكم عنى ويبسط لكم تاريخ حياى . فما كان تاريخ حياى شيئًا مذكورًا . وما أنا بشيء مذكور . وليس في ماضى ما أكاد أذكر

أنه يستحق الذكر ولا أنا فخور بشيء من هذا الماضي .  
ولكن أنا هو كما أنا . وما سوف تسمعون مني الآن وتلمسونه بأيديكم فإن لم أستطع  
بناضري أن أعرفكم من أنا فلا كان هذا الماضي ولا كان من يذكره لي .

## البراءة والإدانة لدى سيان

وثمة دافع أقوى يدفعني أن لا يتولى الدفاع عني محام فهمة المحامي تخلص منهم بما  
تطلبه له النيابة .

وأما أنا فسوف تسمعون مني في حديثي أن البراءة والسجن لدى سيان فكلاهما طريق  
استأنف منه الجهاد فالبراءة تعطيني الفرصة الإيجابية لمحاربة الظلم والطغيان ونشر الإيمان  
والنور ، والسجن فرصة سلبية لتحقيق هذه الأغراض بالذات . ولقد يكون من الوسائل  
السلبية ما هو أشد فتكاً من الوسائل الإيجابية ولعل السجن للأحرار هو من بين هذه  
الوسائل الفتاكة فلولا الباستيل ومن زج فيه من أحرار لما كانت الثورة الفرنسية . ولولا  
ما شبه للناس من صلب المسيح ما انتشرت المسيحية . ولولا الإيذاء والاضطهاد للذنان  
أصابا سيد الخلق ما انفجر ينبوع الإسلام فالوسائل السلبية لا تقل أثراً عن الوسائل  
الإيجابية في نشر دعوة من الدعوات . ومن هنا كان السجن في مثل هذه القضية  
لا يزجني بل إني لأرحب به ترحيبي بالبراءة سواء بسواء والله يشهد أني أقول ذلك حقاً  
وصدقاً من غير زيف ولا تضليل ..

## كل الذي أريده هو أن تصغوا للدفاعي

لعلكم سائلين يا حضرات المستشارين وماذا تريد منا إذن ومن حق الواقف موقفك أن  
يطلب من قضاته شيئاً فأقول لكم إني لا أطلب إلا شيئاً واحداً وهو أن تسمعوا وتحسنوا  
الاستماع وأن توسعوا الصدر وتمنحوني كل أناتكم التي تمنحونها أحياناً لأحط المجرمين فقد  
حاكمتهم منذ حين قريب هذا الذي قطع أوصال رفيق له كان يبيت معه في الفراش  
وعمل كجزار ماهر في تقطيع الأرجل والأيدي ثم أودعها حقيية وخلفها أمام فندق  
عام . وقف أمامكم في هذا القفص يقص عليكم كيف قام بفعلته وكيف بدأ بالقدمين ثم  
اليدين إلى آخر ما قال ولقد استمعت له من غير شك في هدوء القاضي وحلمه . استمعت  
لدفاعه ثم خلوتهم إلى أنفسكم وبعثتم بهذا الرجل إلى الإعدام وأنتم أكثر الناس اطمئناناً .  
إنكم تقومون بواجب من أقدس الواجبات وهو أن تقضوا بقصاص الله على الأرض  
والذي شاءه ليكون فيه الحياة وفيه النجاة للبشرية جمعاء ..

هذا هو ما أطمح فيه منكم أن تمكنوني من إرسال دفاعي كما يملية على الواجب والضمير حتى إذا انتهت منه فلکم بعدها أن تخلوا إلى أنفسكم وأن تبعثوا بي إلى المشقة إن شئتم وأنتم أكثر الناس اطمئناناً أنكم قد قتم بواجبكم . ذلك أن واجبكم في هذه القضية يا حضرات المستشارين ليس هو هذا الحكم الذي ستنطقون به في آخر هذه القضية .. لا .. ليس هذا واجبكم . فإن هذا المعروض عليكم لا يعدو أن يكون جنحة عقوبتها الغرامة أو الحبس بضعة شهور وهذا عمل قاض صغير لا ثلاثة زعماء من رجال القضاء والقانون ولكن المشرع رأى أن يكل إليكم أنتم جرائم الرأي لتفصلوا فيها عندما تكون الحكومة ورجالها في محل الطعن والقذف لأنكم فوق المؤثرات وفوق الشهوات ولأن جرائم الرأي تهم أمة بأسرها لا في جيل واحد بل لعدة أجيال وربما إلى الأبد لأنها تتعلق بهذه النواميس التي يقوم عليها المجتمع والويل ثم الويل إن أصاب هذه النواميس خلل أو اعوجاج ولم يوجد في الأمة من يقومها أو يلفت النظر إليها . إن مصير هذه الأمة يكون التدهور الشائن والانهلال السريع ومن هنا تبدأ أهمية أمثال القضايا المعروضة عليكم اليوم فهي ليست مهمة لأن أحمد حسين شيء مذكور وهي ليست مهمة نتيجة للحكم الذي ستصدرونه فيها . ولكنها مهمة لأنها تتعلق بسلامة أمة وبنظام الحكم فيها وبجياة المجتمع .. والمجتمع يجب من لحظة لأخرى أن يقف قليلاً ليراجع بعض القضايا والمسائل التي تدور عليها حياته . فقضايا اليوم هي وقفة من المجتمع ليفحص بعض قضاياها وليراجع بعض مسائله فواجبكم هو أن تتيحوا الفرصة الكاملة لمراجعة هذه القضايا وأن تدعوا الضوء يسلط عليها من جميع الجوانب ليطمئن الناس بعدها أن الدنيا بخير فيمضون في طريقهم لا يلوون على شيء أو يشعرون بمقدار ما هم في حاجة إليه من إصلاح فيتضافرون على تحقيق هذا الإصلاح لينقذوا أنفسهم من الهاوية .

## محكمة اليوم والتاريخ

فقضايا اليوم يا حضرات المستشارين هي موقف تاريخي وأرجو أن تسمحوا لي أن أصرح لكم أني لا أترافع لحضراتكم فحسب بل إني لأترافع للأجيال المقبلة أيضاً وكل كلمة تقال اليوم وستقال سوف تصبح بعد ذلك في ذمة التاريخ وسوف يأتي من بعدنا أناس وأقوام يعيشون هذه القضية ويعلقون عليها ما شاء لهم التعليق ويستخرجون منها حكماً ومواعظ وعبراً .. وسوف لأحكم أنا وحدي يا حضرات المستشارين أمام محكمة التاريخ بل سوف يحاكم كل من له دور في هذه القضية وسوف تصدر الأحكام المختلفة في كل يوم بل وفي كل ساعة على عضو من أعضاء هذه المحكمة .. فواجبنا جميعاً أن

نجعل عناصر القضية في متناول الجميع ومن هنا قلت لكم إنني لا أناشدكم إلا شيئاً واحداً وهو سعة الصدر وحسن الأناة أما الباقي فهو من الله ولن يأتي على أيديكم إلا الخير والخير المطلق وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . وهل يكتب الله لنا إلا الخير والخير المطلق يا حضرات المستشارين .

## جان دارك وقاضيهما

ولست أستطيع أن أختم هذا التمهيد من مرافعتي بغير أن أعيد إلى ذاكرتكم محاكمة جان دارك تلك التي تولاهما الأسقف «كوشون» فقد حكم على هذه المنقذة التي حررت وطنها يومئذ بالحرق وكان مُصدر الحكم هو كوشون . ولقد كان هذا الرجل بعد ذلك محل سخط وتشنيع واتهم بأحط الصفات . ولست أعرف إلى أي مدى تغير رأى العالم الحديث في شخصية كوشون هذا ولكن الذي أعرفه أنا بعد أن طالعت تاريخ جان دارك أن هذا الرجل كان مخلصاً فيما فعل . وأنه قد قام بما يعتقد أنه واجباً دينياً عليه وقتذاك .

وليس صحيحاً أنه كان خائئاً أو أنه اشترى بالمال ودليلى على ذلك هذه المحاكمة التي حاكم فيها جان دارك واستمرت عدة أيام بل عدة أشهر وهو يمد لها في حبل الدفاع عن نفسها . وهو يفتح لها الأبواب يتلمس منها إنقاذها . وهو في ذلك كله يسجل في مضبطة المحكمة كل ما يقال ويعمل في هذه المحكمة . ويسجل بالأكثر اعتراضات جان دارك واحتجاجاتها وهكذا كانت محاكمة جان دارك ومضابطها هي التي استطاع الفرنسيون أنفسهم بعد خمسين عاماً من المحاكمة الأولى أن يعيدوا دفاع جان دارك عن نفسها . فإذا بهم يقضون ببراءة جان دارك وردوا اعتبارها . وإذا بهم بعد حين يرفعونها إلى مصاف القديسات . فالقاضي الأول لم يكن جليلاً إذن على الرغم من أنه أرسل جان دارك إلى النار بل كان قاضياً يقوم بواجبه وينفذ ما يؤمن بأنه الخير المجموع ولولا ذلك لما اهتم كل هذا الاهتمام بدفاع جان دارك ورغب في أن لا يحكم عليها قبل أن تعترف على نفسها .

وإذا كان الفرنسيون قد برأوها فيما بعد فما ذلك إلا لأن نظرة الإنسانية إلى المسائل الدينية كانت قد تغيرت وليس أدل على ذلك من أن جان دارك قد اعتبرت قديسة بعد ذلك في العصور الحديثة واعتبرت كذلك بقرار رسمي من الكنيسة

فلسنا نستطيع في الحياة يا حضرات المستشارين أن نعرف إذا كان ما نفعله سيظل

خيرًا إلى الأبد أو أنه شر وكل ما نطالب به دائماً هو أن نقوم بواجبنا ونرضى ضمائرنا في هذه الساعة التي نحن فيها .

ولقد حدثتكم بقصة جان دارك لا لتفهموا منها أن موقفنا الآن كموقفها ولا لأشبهه نفسى بجان دارك أو أشبهكم بقضاتها ولكن لأريكم كيف أن قاضيها الذى أمر بحرقها قد وجد من ينفي عنه بعد كل هذه القرون تهمة الخيانة . ويرى أن ما فعله لم يكن إلا نتيجة الجهل الفاشى فى هذه العصور وليس أدل على ذلك من أن الحكم قد قوبل وقتها بهدوء وخمول من هذا الشعب الذى حررته بالأمس وكانت معبودته وما كنت لأفعل ذلك لولا مطالعنى لوثائق محاكمة جان دارك والى تثبت أن قضاتها قد أعطوها فرصة كاملة للدفاع وسجلوا دفاعها وليس يطلب من القاضى المخلص لمهمته غير هذا . وهذا هو ما أطلبكم به وأنتم مانحونى إياه بإذن الله .

### كفاح مصر الفتاة وماهيتها

أقف أمامكم اليوم يا حضرات المستشارين إدعاءً من النيابة بأنى قد أهنت لجنة العفو وما فيها من قضاة وأقول لكم إنما أردت بنقدى هذه الحكومة التى تحاربنى وتبغى القضاء على فأينا الصادق أنا أم النيابة ؟

لكى نجيب على هذا السؤال لابد لكم من معرفة مصر الفتاة وماهيتها لتعرفوا منها موقفى من النحاس باشا وأينا الذى اعتدى على الآخر أولاً وأينا المعتدى عليه . ولتعرفوا إذا كنت أحمل حقداً للنحاس باشا أو أحمل مودة عليه أو إذا كنت فى حرف واحد مما كتبت مدفوعاً بعاطفة غير عاطفة الحب لبلادى والخير لمواطنى .

لم يكن بينى وبين النحاس باشا معرفة شخصية ولم أسأله يوماً من الأيام منفعة فمنعها عني .

وليس بينى وبينه منافسة على الوظيفة أو المنصب ولم أكن وفدياً ففصلنى كما فعل بكثير من الناس .

والخلاصة أن ليس بينى وبين النحاس باشا إلا المصلحة العامة . والمصلحة العامة أولاً وأخيراً . فإذا كتبت عنه فليس ذلك لأننى حقداً شخصياً أو لأنتقم لضغينة فى نفسى . فإذا كتبت عنه وجرحته فإنما أنا فى ذلك أقوم بما أعتقد أنه واجب وحق . وأنتى أتكلم باسم الشعب وآلام الشعب .

وقبل أن أنفذ إلى تاريخ العلاقات بيني وبين الوفد والتي ترجع إلى أربع سنوات مضت أرجو أن تسمحوا لي أن أبين لكم ماهية مصر الفتاة ومبادئها تلك التي أدعو إليها والتي ما فتئت أنشر إيماني بها حينما ذهبت وأنى حلت والتي سأظل في سبيل تحقيقها حتى يتم لي ذلك أو أموت .

مصر الفتاة يا حضرات المستشارين هي صرخة الفرع في عالم مضطرب ينحدر نحو الهاوية . وهي ناقوس اليقظة في مجتمع خامل منحل . وهي نداء المجد لشعب ألف الخنوع والمذلة .

لقد تفتحت عيناى على الحياة المصرية فراعنى ما رأيته فيها من فقر وفاقه . راعنى ما أراه فيها من تدهور وانحلال راعنى أن أرى شعباً يأكل ويشرب ويتناسل وهو لا يدري غاية له في الحياة ولا يريد أن يتصور الحياة غير ما يعيشه ويحياه وما درج عليه منذ خمسين عاماً أو مائة .

## بالبؤس الفلاح والعمل

رأيت الفلاحين وهم سواد مصر الأعظم وهم أساس الثروة والعظمة في هذه الأمة يعيشون حياة أقرب إلى معيشة الحيوان منها إلى الإنسان .

ولعل معيشة الحيوان أكثر رفقا ونعيماً لأن البقرة أو الجاموسة تجد من يعتنى بها ويقدم لها الغذاء أما صاحبنا الفلاح فليس هناك من يعتنى به أو يهتم لأمره وهو يعمل منذ الصباح المبكر حتى ساعة متأخرة من الليل ولا زاد له إذا ما حان وقت الغذاء إلا بضعة لقيمات يغمسها في الملح أو المش إن كان من المحظوظين وهو لا يرتدى من اللباس إلا قيصاً مهلهلاً ممزقاً ويعيش فوق ذلك في جحيم الجهل وسعير الفاقة يرتجف إذا ما رأى رجل البوليس يمر بجواره ويكاد يذوى من الرعب إذا ناداه صاحب العمل أو انتهره أو هم بطرده من خدمته .

وتقول لنا الإحصائيات إن هذا الفلاح ثمانون في المائة منه مرضى بالبلهارسيا والانكلستوما . ومثل هذه النسبة مرضى بعيونهم حتى أن نسبة العمى في صفوف المصريين لا مثيل لها في أنحاء العالم . وكل أمراض الدنيا بأسرها تجد مرتعها الخصب بين صفوف المصريين بأكثر مما ترتع به في صفوف المتوحشين والزنوج والذين جعلتهم حياتهم الفطرية أكثر حصانة لمقاومة الأمراض .

ويموت من أطفالنا أربعمائة طفل في كل ألف في العام وما ذلك إلا نتيجة بؤس

الفلاحين وهذه الحياة المجذبة التي يجيئونها . وإذا انتقلنا إلى صفوف العمال وجدناها أكثر سوءاً وأبعد غوراً وأثراً . فئات الألوف من العمال يتكدسون في المدن في مساكن لا يدخلها الضوء ولا الهواء فيحرمون حتى من حنان الطبيعة وعطفها ويعملون طوال النهار عملاً شاقاً منهكاً من أجل بضعة قروش لا تكاد تكفي لإشباع رجل فما بالكم وهو مطالب بإطعام أسرة بأسرها والصرف عليها !

على أن هؤلاء لا يزالون أسعد حالاً من غيرهم ذلك أن عشرات الألوف من العاطلين قد باتوا لا يجدون عملاً إطلاقاً وهم من حملة الشهادات ومن مهرة الصناعات ومن الموظفين السابقين . ولا عمل لهم إلا التسكع والجلوس على المقاهي وسراج حياتهم ينطفئ يوماً بعد يوم حتى يودعوا الحياة غير آسفين عليها ولا هي آسفة عليهم فقد كانوا فيها كالزوائد والطفيليات .

وأى آلام تلك التي يقاسيها بعض هؤلاء العاطلين ؟

أى محاولات فاشلة هذه التي يبذلونها عبثاً في كل يوم للحصول على القوت حتى أصبحت المدن مباءة للجرائم الخلقية . فيبيع الأعراض وسيلة من وسائل التكسب والارتزاق والسرقات واختلاس الأموال تكاثرت إلى حد مخيف . وحسبكم وأنتم قضاة أن تذكروا هذا العدد الضخم من السرقات الذي يعرض على القاضي الجزئي في كل محكمة فقد يبلغ عدد القضايا أحياناً خمسين قضية وأغلبها ما بين سرقات أو نصب وخيانة أمانة فإذا ذكرتم أن هذا العدد الضخم هو ما ينظره قاض واحد وأن هناك في القاهرة عدة قضاة وفي أنحاء مصر عشرات القضاة وكلهم تكتظ محاكمهم بهذه القضايا ؛ إذن لأدركم مقدار الفاقة التي يعانيها المجتمع والتي جعلت جانباً كبيراً منه يسعى لاكتساب القوت عن طريق غير مشروع .

## كل شيء في يد الأجانب

وهذه هي المظاهر البسيطة التي يراها الإنسان بمجرد أن يلتفت إلى المجتمع الذي يعيش فيه ويحسن الانتباه ولكن يكفي أن يغوص وراء بعض الحقائق كما يعود أكثر انزعاجاً ورعباً لأنه يجد أن كيان الثروة المصرية بأسره محطم كل التحطيم بما لا مثيل له في أى شعب من شعوب العالم . فكل الأراضي المصرية يحضرها المستشارين مرهونة للأجانب ويكنى أن تعلموا أن بنكا واحداً كالبنك العقاري المصري يدين الفلاحين بما يقارب الأربعين مليوناً من الجنيهات . وهذا البنك ليس إلا بنكا أجنبياً برأس مال أجنبى .. فكل هذه الفوائد التي يجيئها كل عام من عرق الفلاح ودمه إنما تتسرب إلى

الخارج وتتبدد وتترك المصريين في كل عام أكثر فقراً منهم في العام السابق . ولعل من المضحكات يا حضرات المستشارين أن رجال الاقتصاد عندنا قد اعتادوا أن يقيسوا الثروة المصرية بمقياس مضحك يدل على غفلتهم الشديدة فهم يقارنون واردات مصر بصاداتها فإذا وجدوا الصادرات وقد أربت على الواردات بنصف مليون أو مليون هلالاً طرباً وقالوا نحن أغنياء ظناً منهم أن هذا المليون أو نصفه سيقى في أيدي المصريين ناسين أن الدائن المرتهن يقبض من الفلاحين فوائد تربو على هذا المبلغ كل عام ويصدرها للخارج وأن الحكومة المصرية تدفع عدة ملايين كل عام فوائد على الديون الرسمية فالشعب يخسر كل عام أكثر مما يكسب سداً لفوائد الديون المستحقة بينما تظل رؤوس الأموال كما هي تضغط على الفلاح في كل عام أكثر وأكثر .

وتجارة مصر الخارجية يا حضرات المستشارين في أيدي الأجانب وتجارة الجملة في أيدي الأجانب وكل الشركات والمشتات التجارية والمرافق العامة في أيدي الأجانب وماذا تقولون في هذه الإحصائية الرهيبة ألا وهي إن في مصر شركات أجنبية تبلغ رؤوس أموالها ثلثائة مليون جنيه بينما لا تزيد حصة مصر في هذه الشركات عن أربعة ملايين هي مقدار هذه الشركات التي أنشأها بنك مصر أخيراً .

وهذا المركز الذي بلغ إليه الأجانب في بلادنا لم يكن نتيجة لتفوق طبيعي كما يدعون ولكن نتيجة لهذه الامتيازات الممقوتة والتي استطاعوا في ظلها أن يقوموا بالأعمال غير المشروعة والتي استطاعوا أن يعملوا في ظلها لا تصل إليهم ضرائب الدولة ولا قوانينها ولا يشرف عليهم أى نوع من الإشراف بينما هي ترهق الفلاح والعامل من ناحية أخرى . وفي ظل الامتيازات الممقوتة رأيت الأجانب يتعاملون على المصريين ويتكبرون وينظرون إليهم بازدراء واحتقار مهينين . فأصبح اليوناني في بلادنا أسمى مركزاً من المصرى مهما بلغ ، وأصبح أحقر أجنبي يساوى أعظم عظيم في هذه البلد بل أعظم .

## تدهورنا الخلقى والدينى

هكذا ترون أن حياة مصر الاقتصادية وصلت إلى حد من التدهور لا مزيد عليه . على أن ذلك كله يهون إزاء التدهور الاجتماعى الذى وصلنا إليه فهو فوق كل وصف وأبعد عن أن يصور . تصوروا أن الدين الذى هو حياة الأمم ومحور نشاطها قد أصبح في مصر أثراً بعد عين من الناحية الرسمية على الأقل ففي مصر بلد الإسلام أصبح الزنا رسمياً بإجازة الدولة والقمار رسمياً بإجازة الدولة والخمر رسمياً بإجازة الدولة وأصبحت مدن مصر



الإسلامية وهى مكتظة بدور اللهو والدعارة والفسق تظل مفتحة الأبواب حتى مطلع الفجر ترتادها البنت قبل المرأة والطفل قبل الرجل فى حماية القانون ورعايته .

وانتشر الإلحاد وانعدم الخوف من الله وتدهورت الأخلاق الشخصية فإذا بالناس يكذبون ويسرقون وينكثون بالعهود ويخونون . وأصبح الإنسان لا يأمن أخاه ولا يعرف صديقه وأصبح الشرف والعفاف والواجب وأصبحت الفضيلة والرجولة : كلها خرافات فى خرافات ولا تعدو أن تكون مهازل صيانية أو مواضيع إنشائية .

أما الشباب فقد امتلأ بالتخنى وفقدان الرجولة وأصبح ولا عمل له إلا اللهو الفاسد واصطبأ الفتيات والجري فى الطرقات .

### الاحتلال الإنجليزى

أما عن مصيبة الاحتلال فحدث ولا حرج فهو يظهرنا أمام العالم بمظهر الشعب الممحق المتخلف وهو يدبجنا فى صفوف المستعمرات والأملاك فلم تعد مصر تذكر إلا عندما تذكر الشعوب المتأخرة والمنحطة . هذا فى الخارج أما فى الداخل فقد غلبنا على كل أمورنا فلا رأى إلا ما يراه الغاصب ولا عمل إلا ما يأمر به ومصالح الدولة رهن إشارته . وقد عمل كيما يضمن استمراره فى مصر إلى إبقاء مصر ضعيفة فهو السبب الأول والأخير فى هذا التدهور الدينى والخلقى لأن الإنجليز عرفت أنها لا تستطيع أن تبقى فى مصر يوماً واحداً عندما يستجمع الشعب قواه وإرادته فعملت كل ما فى وسعها لإضعاف هذه الإرادة وإعدامها فخلقت الوظائف الكبرى ومنحت المرتبات الباهظة وأضعفت فى نفوس كبار الموظفين فكره الواجب والخدمة العامة إلا بمقدار ما يكون فى ذلك مرضاة الإنجليز وأوامر الإنجليز .

وهذا هو الوضع الذى ألفت فيه بلادى يا حضرات المستشارين منذ فتحت عيني إلى الحياة ، بلاد مغلوقة على أمرها يحكمها الإنجليز ويسود فيها الأجانب ، يسيطر عليها الضعف والفقر ، حياتها الاقتصادية مهشمة والخلقية أكثر تهشماً .

### قدر علينا الذل والهوان

ساءلت نفسى أيمكن أن نظل شعباً حقيراً قدر علينا أن نعيش فى هذا الذل وهذا الفقر وهذا التدهور إلى الأبد .. ؟ فإذا بنفسى ثور والتاريخ يثور على حقيقة الحال ثور على . أما نفسى فقد أحسست ثورتها فى هذه الدماء الحارة التى انسابت فى عروقى

فجعلتني أتألم لمراى الذل.لمراى الضعف . لمراى التدهور وأحسست بالنار تشتعل فى بدنى وكلها تدعونى للعمل والحركة وكلها تدعونى للتمرد على هذا الوضع الذليل والثورة عليه . وأما التاريخ فقد أحسست ثورته فى هذه الأيجاد الخالدة التى سطرتهامصر فى صحيفة العالم . فنحن الذين أخرجناه من الظلمات إلى النور . ونحن الذين استيقظنا فى فجر الإنسانية فقمنا بجلائل الأعمال . ولم يمض علينا بعد ذلك قرن من الزمان لم نكن فيه مشعل الإنسانية ولواءها الخفاق فى العصور الوسطى مثل ما فى العصور القديمة مثل ما فى العصور الحديثة ارتفع اسم مصر حتى طبق الخافقين ولقد حاربتهاموروبا يوماً من الأيام بمجتمعة فكان النصر لمصر ولسنا فى حاجة للرجوع إلى أعماق التاريخ فأيام محمد على نهضت مصر نهضة هزت العالم وأفحمتها فأصبح جيشنا غول الجيوش وأسطولنا سيد الأساطيل وارتفع لواء الإمبراطورية المصرية فى أنحاء العالمين ولولا أن تداخلت السياسة الإنجليزية وألبت علينا الدول لكننا الآن فوق الجميع . وإذن فلسنا بالشعب الحقير ولا نحن بالشعب الضعيف ولكننا أساتذة الأساتذة ومعلموها وما هذا الوضع الحاضر الذى نعيش فيه إلا نتيجة لجهلنا أنفسنا وفقدان الثقة بها وإهدار قواعد الدين ونسيان أحكامه وفقدان الأخلاق والإرادة . ذلك أن الله يا حضرات المستشارين لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فلو تمسكنا بأهداب الدين والأخلاق . لو أننا استجمعنا الشجاعة وتذرعنا بالصبر . لو أننا نظمنا الصفوف وعملنا فى جلد . إذن لعدنا إلى هذا المجد القديم والعز المقيم ولأمكننا فى طرفة عين أن نحيل كل هذا الفقر إلى غنى . وكل هذا التدهور إلى ارتفاع وكل هذا الضعف إلى قوة .

### ما الذى ينقصنا

وساءلت نفسى ترى ما الذى ينقص لتحقيق ذلك كله وأى العناصر نحن فى حاجة إليها ؟ أما أننا لا نختلف عن شعوب العالم طرا من حيث التكوين الجسدى فهذا لا شك فيه . وأما أننا لا نقل عنهم عقلاً وذكاءً فهذا ما لا شك فيه أيضاً بل كثيراً ما امتاز المصرى بالذكاء والنبوغ ولسنا ننقص العلم يا حضرات المستشارين فإن الأمم تسود بقليل من العلم ونحن لدينا الكثير من العلم فالإسلام قد علمنا حقائق الحياة بأسرها والقرآن ذلك الكتاب الجامع تحفظه الناس وتردده وتعرف ما فيه . ولن تجد مصرى واحداً ينازعك فى أفضلية الاستقلال على العبودية ، ولن تجد مصرى لا يحب النهوض والمجد ويصبو إليه . ونحن بعد ذلك لا يعوزنا المال فنحن فى بلاد طبيعتها غنية وتستطيع أن تمدنا بكل شىء . وإذن فما الذى ينقصنا أكثر من غيره وما الذى يجب أن يوجد فى مصر حتى تستأنف

نشاطها القديم وتقف على قدميها بين دول العالم لتؤدي رسالتها التقليدية في حمل لواء الإيمان والسلام والعلوم .. سرعان ما عرفت الجواب يا حضرات المستشارين ولقد كان يتلخص في كلمة واحدة وتلك هي «الإرادة» فما ينقص الشعب المصري هو الإرادة وهذا ما يجعلنا في هذا الذي نحن فيه . والإرادة هي كل شيء فهذا الكون بأسره لم يكن قبل أن يوجد إلا إرادة فالإرادة هي مصدر الحياة وهي مصدر القوة وهي مصدر الخير كما أنها مصدر الشر . والإرادة هي كل شيء . فمصر ولا إرادة لها تشبه أن تكون جسداً بلا روح قد شرع التحلل ينفذ إليه وشرع الدود يقترب منه . فإذا ما حلت الإرادة بهذا الجسد إرادة الحياة ، فهي عودة الروح ومتى عادت الروح فقد عادت الحركة وعادت القوة وعاد النشاط وفي طرفة عين يعود الجسم المنحل إلى مصدر من مصادر الحياة والخلق والنشاط وهذا هو ما تحتاجه مصر أو بالأحرى الشعب المصري ، أن يصبح وله إرادة فتدب فيه الروح فإذا به يتحول في يوم وليلة من العدم إلى الحياة ومن الضعف إلى القوة ومن القاع إلى الرأس . ومن هنا فكرت في مصر الفتاة لتكون هذه الإرادة التي تنقصها . فكرت في مصر الفتاة لتكون إرادة كل مصري لتكون إرادة الشعب فتدب الروح في أوصاله وينفذ ذلك البرنامج العظيم الذي ينبغي عليه تنفيذه .

فمصر الفتاة أنشئت لتكون إرادة مصر في أن تستعيد حياتها إرادة مصر في أن تصلح معوجها . إرادة مصر في أن تصبح سيدة نفسها حرة في بيتها . إرادة مصر في أن تصبح غنية . في أن تصبح زعيمة وقائدة . في أن تصبح كما كانت على رأس الإسلام . في أن تصبح فوق الجميع كما يحق لها وكما أعدها الله .

### من برنامج مصر الفتاة

وعلى هذا الأساس تألف برنامج (مصر الفتاة) الأول وهو لا يحوى إلا إرادة مصر كما يجب أن تكون وهاكم ملخص هذه الإرادة كما سطرها البرنامج :

مصر التي علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التي رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلنت كلمة الله والإسلام . مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهمز لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجاً للشرق وزعيمة للإسلام وهي من أجل ذلك في حاجة إلى دم الشباب الملتهم في حاجة إلى الإيمان والعمل في حاجة إلى نفر من بنينا يقابلون الموت ويستعدون الألم ويرحبون بالتضحية وتلك صفات لن تتوفر في أبناء الجيل القديم .

فعلى الشباب . فعلى الجيل الجديد . فعلى جنود مصر الفتاة تقع تبعة بعث المجد القديم . هذا هو إيمان مصر الفتاة أو بالأحرى هذه هى إرادة مصر الفتاة . وأخذت هذه الإرادة بعد ذلك تنفذ إلى جميع نواحي الحياة المصرية وتبرز فيها ففما يتعلق بعلاقتنا والأجانب قلنا فى البند الثانى من هذا البرنامج « يجب أن نضع الأجانب فى مركزهم الطبيعى ضيوفاً فى مصر وليسوا أصحابها وذلك يكون بإلغاء المحاكم المختلطة بجرة قلم وتمصير الشركات الأجنبية وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الحياة التجارية ويوم الجمعة يوم عطلة عام وعدم التصريح للأجانبى بمزاولة عمل فى مصر إلا بتصريح خاص » .

وانتقلنا بعد ذلك إلى ميدان الفلاح لترتقى به ونسجل فضله ونرد إليه حقوقه فجاء فى البند الثالث من برنامج مصر الفتاة « يجب أن تؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها وأنه الحقيقة الوحيدة التى لم تبدل فى العالم منذ ستة آلاف سنة وهو الذى أبقى مصر نابضة قوية حتى اليوم فيجب أن نعلم الفلاح بأن نقضى على الأمية والجهل وترتقى بمعيشته ونضمن له اليسر والرخاء ونحفظ له صحته بأن ندخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء » .

وليس فى نيتى أن أتلو عليكم برنامج مصر الفتاة بأسره ولكنى أكتفى منه ببعض شذرات تريككم إلى أى حد لخصنا إرادة مصر فى أن تتطور وأن تنهض وأن تعيش سيدة فى بيتها وأن تؤدى رسالتها .

« فى الزراعة التى تعتبر ثروة مصر الحقيقية يجب أن نرتقى بها فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها ونزرع أراضٍ جديدة ونشق الترع وننشئ المصارف ونعمل لمضاعفة الإنتاج أضعافاً مضاعفة .

وفى الصناعة يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق والغرب القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا وصوفنا ، وكتاننا . ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيماوية والزراعية والحديدية . وتمهيداً لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة وأن يولد الكهرباء من خزان أسوان .

« وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ولا نشتري إلا من مصرى كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً » .

ويجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية ونوصل بدول الشرق القريب والبعيد بنحمل

منها المتاجر وأن نقوم بدورنا الطبيعي في تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب . ولكي نتبوا هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى لينقل متاجرنا ولنرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .

ومصر التى ستتزعم الشرق وتضىء على العالم يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها ، فيجب أن يصبح التعليم الابتدائى مجاناً وأن تقل نفقات التعليم الثانوى والعالى ليكون فى متناول أفقر الطبقات ..

ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحي الحياة وأن تفتح الجامعة أبوابها على مصاريحها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق وأن تشجع البحث العلمى وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها لتبحث ولتنقب وتنتشر العقلية المصرية فى أنحاء العالمين .

وأما الأزهر فله دور عظيم يجب أن ينهض به وأن يستعيد مركزه ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم وأن يرتفع صوته عالياً بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب . وفى أمريكا أيضاً ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى رفعة الحق والدين .

ويجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .  
وأن نرقى الأخلاق وأن نحارب الدعارة والخمور والتخث .

ويجب أن يصبح التجنيد إجبارياً للجيش وأن تنقص مدة الخدمة فيه وأن يمتلئ الشباب بالروح العسكرية .

ويجب أن نعى بالطفولة باعتبارها مصر المستقبل مصر العظيمة . فيجب أن نؤدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالاً منتجين .

ويجب أن نرقى المرأة ونعلمها التعليم الكامل لكي تكون زوجة صالحة ولتكون أمّاً تخلق الأبطال وليكون بينها نعيم الحياة .

هذه هى بعض شذرات من برنامج مصر الفتاة والذى يتعرض للحياة المصرية فى أدق تفاصيلها ذكرت لكم منه هذه اللمحات لتعرفوا ما هو برنامجنا وما هى نظريتنا . فنحن نريد أن نخلق مصر خلقاً جديداً ونريد أن نبعث فيها الحياة بأن نخلق إرادتها . واتخذنا وسيلة لذلك ما قررناه فى ختام برامجنا وهو الإيمان والعمل .

## نحو العمل

فنحن أعرف الناس بأن الإرادة لا تكون كذلك إلا إذا أعقبتها العمل فليس يكتفى أن أريد النهوض بل يجب لتكون إرادة حقيقية أن أحاول هذا النهوض . وليس بأمر أن أريد الحركة فيما أتحرك بل ينبغي أن أحرك أعضائي بشكل مخصوص . فما هو العمل الذي آمنت منذ الدقيقة الأولى بضرورته كما يستيقظ الشعب من رقاده ويدنيه إلى هذا النور .

كان العمل في نظري ومازال يتلخص في كلمة واحدة وهي أن نعطي هذا الشعب القدوة والمثال . فالشعوب والجماعات على العموم لا يهزها أن تسمع أقوالاً بقدر ما يحركها أن ترى أعمالاً ومثالاً فعبثاً يناديها الإنسان ويهيب بها إن لم يكن في مقدمتها وعلى رأسها . وإذن فهذا المجاهد المؤمن الذي يريد أن يعمل لإنقاذ أمته مطالب بشيء واحد وهو أن يعطي لأمته المثال والقدوة ويرسم لها ما ينبغي أن يكون وهذا وحده كفيلاً بإيقاظها وبعث الحياة فيها رويداً .. رويداً ..

ولذلك فقد اعتزمت من الدقيقة الأولى أن أهب نفسي من أجل بلادي وأن أقف حيائي ونفسي ودمي على خدمتها فلا غاية لي إلا غايتها ولا مستقبل لي إلا في سعادتها ولا راحة لي إلا في هوائها .

آليت على نفسي أن أعلن برنامجي وأن أمضي في طريق قدماً لا ألوى على شيء . لا يفزعني سجن أو إرهاب لا يغريني منصب ولا مال . وقدرت أن الموت قد يكون من نصيبي . وأن جبل المشقة قد يكون مآلي ولكن ذلك لم يقل من عزمي ولا جعل الهزيمة تمر علي في بال ، وكنت أعرف أن الطريق سيطول ، وأن المصاعب ستعترضني من كل نوع وعلى كل صورة فلم يزدني ذلك إلا إصراراً و يقيناً بأن مصر في حاجة إلى توضيحي وتضحية الألوف من أمثالي وبغير هذا فلن يقدر لها نجاح أو فلاح أو يقظة في أي يوم من الأيام .

## تأسيس مصر الفتاة

وعلى هذا الأساس كاشفت بعض زملائي المجاهدين الذين عاونوني في مشروع القرش وقلت لهم ما رأيكم في أن نشرع في جهاد مستميت من أجل إعلاء كلمة الله وإنقاذ الوطن في حدود هذا البرنامج وتلك المبادئ فإذا بإخواني كلهم يؤمنون إيماني .. وإذا بهم يقولون لي لو لم تقترح علينا لاقترحنا عليك وإذا بنا نتعاهد ونسجل البرنامج وقد كان

ذلك في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٣ وسرعان ما أذعنا هذا البرنامج وأعلّناه في جريدتنا وقد قدمت هذا البرنامج بالنداء الآتي :

يا شعب مصر الخالد : لقد حانت ساعة الجهاد ومصر الفتاة تدعوكم للإيمان ولعشر سنوات من العمل يا شعب مصر .

أيها الشعب الذي صاحب الزمن يا أمجد شعب في الوجود وأعظمه : لقد حانت ساعة اليقظة . لقد حانت ساعة العمل . بل لقد حانت ساعة الجهاد . وهذه هي مصر الفتاة تتقدم إليك لتجاهد عنك ولتدود عن حياضك . ولترفع صوتك ولتطعم جائعك . ولتعلم جاهلك . ولترد عليك كرامتك ولتعيد إليك سابق مجدك .

يا شباب مصر :

لقد طال ما رقدنا وما نحن أولاء قد صبحونا . لقد طال ما أهملنا وما نحن أولاء قد حرصنا . لقد طال صممتنا وما نحن أولاء قد تكلمنا . وإذن فليكن صوتنا داويا . ولتكن صرختنا من الأعماق . وليكن إيماننا جباراً يدك الجبال . وليكن شعارنا مصر فوق الجميع .

إن الأجانب يغزوننا ويسدون علينا طريق الحياة ، والاحتلال قطع أوصالنا وحرمانا السودان . والأمية والجهل يخيان على سوادنا ويملآن القلوب حسرة وظلاماً والأزمة الفتاكة تهلك الحرث والنسل وتسلبنا القوت والماء . ونحن في كل ذلك نلهو ونتخاصم ونحارب بعضنا بعضاً حتى لقد سقطنا صرعى ووقف العدو يشاهد كل هذا باسمًا ظاهرًا فخوراً أنه تغلب على النسر المصري بأهون سبيل .

واجب الشباب أن يصلح كل هذا وما نحن نفعل . لسنا نريد أن نتكلم كثيراً ولكننا ندعو الشعب للإيمان ببقته وقوته وندعوه لعشر سنوات من العمل القومي لله والوطن نابذاً الخلافات الحزبية . مهماً ما اعتاد الناس أن يسميه سياسة

ونحن نقدم اليوم عناصر هذا الإيمان وعناصر هذا العمل برنامجاً معنوياً زراعياً وتجارياً وصناعياً وعلمياً واجتماعياً برنامجاً يتبسط حتى ليشمل أدق التفاصيل وما ذلك إلا ليكون السبيل واضحاً وممهداً . وهو ليس تفكير يوم وليلة ولكنه عمل خمس سنوات قضيناها في التحضير والدرس والإيمان . والآن وقد خرجنا إلى ميدان الجهاد فنحن نعلن رسالتنا نعلنها لك يا شعب مصر ويا شبابها دعوة بريئة مخلصة لا تتصل بشخص من الأشخاص ولا ترمى لغاية إلا إسعاد مصر ومجدها .

إنها دعوة صادرة من القلوب فلتنفذ إلى القلوب وهي صادرة من الأرواح إلى الأرواح فلا تسخروا منها إن لم تعاونوها ولا تحاربوها إن لم تمسكم بشرّ فهي عقيدة مخلصّة مقدسة وستنتصر في النهاية كما ينتصر كل إخلاص وإيمان . سنتنصر بالرغم مما سيوضع في طريقها من عقبات بالرغم من القوات التي ستحاربها . بالرغم من القوات الهدامة التي ستكرس نفسها للقضاء عليها . سنتنصر لأننا سنحتمل كل شيء من أجلك يا مصر . ولأننا سنضحى في سبيلك بكل شيء يا مصر ولأننا سنموت وكلمتنا الوحيدة :

مصر فوق الجميع .

### في الميدان

وهكذا خرجنا إلى عالم الحياة المصرية يا حضرات المستشارين . بدعوة إلى العمل والإيمان . لم يكن في نفسي موجدة ضد مصرى ولا فرق بين مصرى ومصرى . فقد عملت قبل ذلك في مشروع القرش وقد اجتهدت أن أجعله مشروعاً قومياً لصالح المصريين جميعاً ويرتفع فوق أكتاف المصريين جميعاً ولذلك فقد وضعت شعاراً لهذا المشروع مصر فوق الجميع وبينما كانت مصر وقد انقسمت إلى عدة أقسام كنت أنا في جهادى من أجل المشروع على صلة بكل هذه الأحزاب وكلها لم تتأخر عن مد يد المساعدة للمشروع سواء في ذلك صدق باشا الذى كان على رأس الحكومة وقتئذ .. أو النحاس باشا الذى كان في خارج الحكم .

فلقد قابلت هذا وذاك واتمست المعونة من الجميع . وقدم لى المعونة الجميع على السواء فعندما بدأنا جهادنا في مصر الفتاة لم نكن نريد إلا الخير ولم يكن في قلوبنا إلا الرغبة في الإصلاح كما شرحتها لكم وكنت أعتبر أن النجاح الذى لا نجاح بعده هو أن أعمل بغير أن أغضب مصرياً واحداً ولو أنى كنت أعرف أن ذلك مستحيل إلا أنى كنت أؤمل فيه وأتمناه ..

وفى الحق لو لم يكن الشر جزءاً من عناصر الحياة لما كان هناك معنى لأن يناصمنى مصرى واحد وأنا الذى لا غاية ولا مطمع لى إلا سعادة المصريين والعمل لخيرهم .. قد أكون أصغر وأهون شأنًا وأقصر باعاً من أن أحقق شيئاً من هذا البرنامج . ولكن هل يمكن أن يكون ذلك سبباً في مخاصمتى . أشهد أن هذا غير منطقي لو كانت الحياة كلها خير .

ولكن الحياة كما قلت لكم ليس ينقصها الشر ولذلك فلم أدهش عندما علمت أن



خروجنا إلى الحياة قد أحفظ الوفدين وأغضبهم . وهم لا ينظرون إلى حركتنا بعين الرضاء والارتياح ويوجسون خيفة منها ويعتبرونها حركة مأجورة ومرجحة ضدهم فقد كان الخلاف السياسي على أشده في هذه الأيام بين الأحزاب .

وكان للوفد « عفريت » ينغص عليه حياته وهو الإبراشي باشا . وكعادة العوام والجهلاء ينسبون كل شيء غامض إلى العفاريت ولذلك فكلما اشتد الأمر على الوفد نسب الدس والوقية إلى الإبراشي باشا ولذلك فقد أوحى إلى النحاس باشا ساعته أن مصر الفتاة هذه الحركة الجديدة هي حركة مصطنعة وموجهة ضده وأن المؤعز بها هو الإبراشي باشا . وأكد الشبهة عندهم أننا اتخذنا شعار جاعتنا الله والوطن والمملك .

وإذن فنحن ملكيون وذلك لا يتحقق في ظنهم إلا إذا كنا على صلة بالإبراشي باشا .

### أول سعى للتفاهم مع النحاس باشا

وعلمت أنا نبأ هذه الإشاعات التي أخذت تحوم حولنا والتي يغلط بها الوفديون ولما لم يكن في حسابي وقتذاك أن أعادى مصرياً واحداً إيماناً مني بأن كل جهد ينبغي أن يوجه نحو الكفاح الحقيقي . والكفاح الحقيقي لا يكون إلا ضد الغاصب وضد الأجنبي وضد الرذيلة . لم يكن في برنامجي وقتذاك أن أخاصم الوفدين وأن أعاديهم ولذلك فقد اعتقدت أنه يكون من الخير أن أجتهد في مقابلة النحاس باشا لأزيل ما علق برأسه من سوء تفاهم ، وأن أبين له كيف أن حركتنا هي حركة قومية بحثة نريد بها أن نعد جيلاً جديداً من الشبان ، وأن نبعث في الأمة روح الكفاح والجهاد ، وأنه كرعيم سياسي ينبغي أن يرحب وأن يغتبط بهذه الحركة الجديدة لأنه أول من يستفيد منها ويستعين بها على تحقيق برنامجه إذ لا يمكن للجماعة من الشباب أن تنافسه في رئاسة الحكومة ولا قيادة الأمة في ذلك التاريخ الذي بدأنا فيه . ولما كان النحاس باشا قد اعتاد مقابلي من قبل فقد رجوته أن يحدد لي ميعاداً للمقابلة وقد سمح لي بالمقابلة ولقد كانت في بيت الأمة ولست أذكر تاريخها بالضبط ولكنها كانت في أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٣٣ .

قابلت النحاس باشا فإذا به يجابهني بأنني دسيسة وأنني لا بد أن أكون مدفوعاً من جهة من الجهات للقيام بهذا العمل . ولخص شكوكه أو بالأحرى قرائنه على ما يقول في المال الذي نصرف منه على هذه الحركة وأرجو أن تلاحظوا يا حضرات المستشارين أننا لم نكن صرفنا شيئاً بعد . قلت له هل إذا أوقفك يا دولة الباشا ( ولم يكن إلا صاحب دولة وقتذاك ) هل إذا أوقفك على ماليتي ومصدرها وتحققت من تواضعها وسلامتها فهل هذا

يقنعك بإخلاصى وصدق طويتى فأجابنى سوف نرى . فشرحت له كيف أننى عقب خروجى من كلية الحقوق سعى للحصول على قرض من بنك مصر مقداره مائتا جنيه أستعين به على مواجهة الحياة العملية . ولقد حصلت على القرض بضمانة أحد أصدقائى بفوائد مقدارها ٩ فى المائة وفى مقابل إيداع أسهم وسندات كان يملكها صديقى هذا بمبلغ يزيد على الثلاثمائة جنيه . أى أن العملية كانت عملية جافة لم يخالطنى البنك فيها بأى لون من ألوان المجاملة مع أنه سبق للبنك أن تعاون معى فى مشروع القرش فأودع عن طريقى باسم المشروع ثلاثين ألفاً من الجنيهات . وإبنى يا باشا مستعد أن أقدم لك كل الأوراق الخاصة بعملية القرض هذه وأترك لك أن تتحرى عن صحتها .

### مناقشة فى المبادئ

وهنا شرع الباشا يناقشنى فى صحة مبادئ والبرنامج الذى أذعته فقال إن فى هذا البرنامج مالا يتفق مع جهادنا فليس فيه نص على الدستور وهل تفضل دستور سنة ١٩٣٠ أو دستور سنة ١٩٢٣ . وفيه بعض المبادئ الخطرة التى لا أكاد أفهمها . خذ مثلاً الله التى وضعتها فى أول شعارك فلست أراها إلا شعوزة لأن وضع كلمة الله فى برنامج سياسى هى شعوزة . وقعت على هذه الكلمة وقع الصاعقة ولكنى ملكت نفسى وقلت له : ولكنك يا باشا تلخص هذه الأيام جهادك فى صلاة الجمعة فأنت ترتاد المساجد ولسنا ننسى أنك وقفت مرة فى أحد المساجد ودعوت على صدق باشا .

ولا تنس يا باشا أن الإسلام دين لا يفرق بين الدين والسياسة فالإسلام سياسة والقول المأثور إن الدين المعاملة فالإسلام هو هو منظم الدولة . ومنظم علاقات الأفراد . وهو هو الذى ينظم لنا الكفاح وأساليبه وأخيراً يا باشا أرجو أن تسمح لى أن أقول لك إن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه مطلقاً . ولذلك فأنا معتر بوضع كلمة الله فى مستهل جهادى . بل ولن يكون لى ناصر ولا معين إلا هذه الكلمة وبمقدار استمساكى بها بمقدار ما سيكتب لى النجاح فيما شرعت فيه .

ولست أعرف إذا كان هذا الكلام قد أثر فى صاحب الدولة أم لا ولكنه سرعان ما انتقل إلى مناقشة باقى الشعار ثم أشار إلى ما ورد فى البرنامج من إلغاء الامتيازات بجرة قلم وأن هذه سياسة انجليزية لا يوافق عليها ذلك لأن الانجليز يريدون إلغاء الامتيازات لتؤول إليهم قلت له وهذا ما لا أوافق عليه أنا أيضاً . ولا يمكن أن أكون قصدت إلى شىء من هذا أو مرر لى فى خاطر . وإنما نحن نريد إلغاء الامتيازات وعودة السيادة الكاملة إلى مصر والحكومة والقضاء المصرى والبرلمان المصرى . فقال لى (وأنا ما أغيث

الامتيازات أبداً في هذا العصر الذي انقلب فيه كل شيء إلى فوضى . كيف والعصى توضع في دبر المصري ؟ تريدون أن نلغي الامتيازات لكي توضع العصي في دبر الأجنبي أيضاً) قلت له يا باشا أما والعصى توضع في دبر المصري فلست أدري والله علام نشفق على الأجنبي من هذا المصير فهو ليس أفضل من المصري ولا يجب أن نهتم له أكثر من اهتمامنا بالمصري .. وإذن فعلينا أن نجاهد في سبيل هذه المظالم لا خوفاً على الأجانب ولكن حرصاً على حريتنا نحن أولاد شرفنا أولاً . وإلغاء الامتيازات على أية حال من الأحوال موضوع منقطع الصلة عن هذه المسائل التافهة والتي تحدث في كل بلاد العالم ولم تكن على أى شكل من الأشكال سبباً في خلق الامتيازات للأجانب .

### دعوة للحزبية ثم إنذار

إلى هنا كان صاحب الدولة قد ضاق ذرعاً بمناقشتي في كل هذه التفاصيل فرأى أن يصرح لي بما في دخيلة نفسه وما اعتقد أنه لب الموضوع فقال لي لا يوجد في مصر إلا راية واحدة وهي راية الوفد وكل وطني عامل يجب أن يعمل تحت لواء الوفد فكل حركة أو كل عمل من الأعمال لا يكون تحت راية الوفد فهو لا يمكن إلا أن يكون دخيلاً على الأمة ودسيسة من الدسائس فإن كنت صادق النوايا وتريد خدمة بلادك فعلام إنشاء الجمعيات ووضع البرامج وإرسال النداءات وإذا كان كل جندي سيخرج على قائده ويؤلف لنفسه جمعية ويضع برنامجاً إذن تنشئت الجهود وعمت البلد الفوضى . فإذا كنت تريد أن تكون وطنياً فتعال بين إخوانك الشبان في الوفد واندمج في صفوفهم .

قلت هذا صحيح يا باشا وقد كان بودي أن أفعل ذلك . وأن أعمل تحت لوائك كأصغر جندي ولكن لا أكاد أرى للوفد برنامجاً . ولا أرى للوفد أهدافاً في هذه الأيام إلا الوصول إلى الحكم وأنا لا يمكن أن أكرس حياتي لهذه الغاية . ولكني أريد أن أدعو للأخلاق وأن أدعو للدين وأن أدعو للعمل وأريد أن أكون عنيفاً في جهادي وذلك كله على الرغم من أنه ليس من برنامج الوفد فإني أظن أنه يسىء إلى الوفد إذا اتصف به ويباعد ما بينه وبين الحكم . لأن الحكم في هذه البلاد لا يمكن أن تكون وسيلته إلا مصانعة قوات مختلفة سواء كانت إنجليزية أو أجنبية أو غير ذلك . وأنا أريد سياسة متحررة لا غاية لها إلا خلق روح الكفاح في مصر .

وإني أعتقد أن مصلحة الوفد المحققة أن توجد إلى جانبه هيئة وطنية متطرفة كما يكون هو بالنسبة لها معتدلاً . فيفضل الإنجليز التعاون معه وإجابة مطالبه حتى لا يشجعوا

التطرف ويتحول كل الإعانت والإرهاق الذى يصب الآن على الوفد صَبًّا إلى هذه الهيئة الجديدة .

قال النحاس باشا : افعل ما يحلو لك فقد أعذر من أنذر إننى سوف أعتريك خارجًا عن الوحدة . والأمة لا ترحم الخوارج . فكل من فكر فى أن يخرج علينا فقد هدمناه هدمًا والأمة لا ترحم .

فهذا الحزب الوطنى هُدم لخروجه علينا . وهؤلاء الأحرار الدستوريون هُدموا ونسفتمهم الأمة . وأعضاء الوفد الثمانية لم أكد أفصلهم حتى هُدموا بدورهم . وهكذا كل من خرج على وحدة الأمة وكتلتها لا جزاء له إلا الهدم .

قلت له : يا باشا إن الهدم الذى لا يعقبه بناء غير موجب للفخر ولا يمكن أن يكون رسالة حزب من الأحزاب .

وأرجو أن تسمح لى أن أقول لك إنك إذا كنت قد نجحت فى هدم هؤلاء كما تقول فما ذلك إلا لأنهم ساعدوا على هدم أنفسهم .

أما أنا فإن ما فى نفسى من صدق وإيمان كفيل بأن لا يهدمنى مطلقًا . ولا تنس يا باشا أننى مازلت صغيرًا ولذلك فإنك عندما تشرع فى هدمك إياى فأنت تبينى ولكن دعنا من التهديدات وأرجو أن تسمع ما أقول لك فى تأكيد وإخلاص إننى لا أحمل لأى مصرى إلا الحب والإخلاص فما بالك وأنت على رأس المصريين ولذلك فإننى أتمنى لك كل خير وتوفيق وثق يا باشا أن أى عمل صالح تدعو له أو أى حركة ترسمها ويكون فيها فائدة لمصر فسوف ترانى فى مقدمة الصفوف العاملة على ما فيه خير البلاد .

وقد ترانى يا باشا إذا ما دعوت لعمل هام فانفض من حولك كل الأنصار ، قد ترانى عندئذ مستعدًا لإراقة دمي وبذل روحي من أجل خير بلادى .

وكن على ثقة أنك عند محاربتى فلن يغير ذلك من هذه النوايا وسأظل أنا كما أنا لا أحمل لك إلا كل نية طيبة .

وعندما تشتد الأزمة فيما بيننا أرجو أن تذكر دائمًا أننى سأكون مستعدًا لتلبية أى نداء صادر منك لخير هذه البلاد . وقد خرجت عقب هذه المجاداة وأنا أعرف ما بعدها ولكننى قوى الإيمان بحقى وصدق نواياى .

## بدء الحملة محاربة مشروع القرش

ومن ذلك التاريخ بدأت حملة الحرب التي أعلنها الوفد ضدى ويالها من حرب شعواء يا حضرات المستشارين لم يعرف فيها قانوناً ولا قاعدة . ولم يعرف له غاية إلا هدم هذا المجاهد الناشئ وهدم كل ما يتصل به .

كنت فى ذلك العهد مازلت متصلاً بمشروع القرش فقد عملت منذ كنت طالباً على خلق هذا المشروع وتأسيسه حتى نجحت بعون الله فى إنشاء مصنع للطرايش وشرعت أعمل لإنشاء مصنع آخر .

وكنت أظن أن لى الحق كأى مصرى فى أن يكون لى رأى خاص فى السياسة وأن لا يحول هذا دون استمرارى فى هذا العمل القومى الذى ثبت نفعه للأمة وثبتت أهميته . ولكن الوفد لم يرض بذلك بل أخذ يندد بالمشروع وأنه انقلب إلى أداة سياسية . ولما كانت سلامة المشروع تهمنى فوق كل اعتبار آخر فقد بادرت بالاستقالة منه وأعلنت ذلك فى الجرائد وتبثأت لاستقبال حياتى الجديدة وكنت أحسب أن هذه الخطوة كافية لحماية المشروع وفاتنى أن القوم قد عزموا على القضاء على المشروع ذاته بحجة أننى كنت فيه يوماً من الأيام أو أن نجاحه يمكن أن يكون مفخرة لى ولذلك فقد دبروا للمشروع حملة شعواء فأخذوا ينعتونه أمام الأمة بأنه قد أصبح حرباً عليها وأنه قد أصبح حقلاً للدسائس وأن الخطر كل الخطر فى بقاء هذا المشروع وأن الواجب الوطنى يحتم على كل مصرى مقاطعته وتحطيمه وتآلفت اللجان وتعددت الهيئات وبذل النشاط الذى لا نشاط بعده فى شل حركة المشروع وإيقافه فنجحوا لأول مرة فى حياتهم فى هدم مشروع قومى جليل ثبت نفعه للأمة وكان يتوقع من ورائه المصريون كل خير فأخذوا ينظرون إليه كعمل كره . يصبون عليه جام غضبهم . وهكذا طويت صفحة ذلك المشروع الذى فرحت به الأمة طويلاً وأسدل الستار على مأساة سياسية لا أظن أن لها مثيلاً فى تاريخ مصر أو تاريخ النزاع الحزبى فى أى مكان آخر . ذلك أن ما للوطن يجب أن يرتفع فوق كل اعتبار وكل تقدير . وإذا كان أحمد حسين قد أساء إلى الأمة أو أساء إلى الوفد . فما هو أحمد حسين قد آثر أن يعتزل هذا العمل فعلام نصب نقمتنا على هذا العمل القومى فنلوثه كل هذا التلوث ونصوره للأمة بهذه الصورة البشعة ؟

وبعد أن فرغوا من تحطيم مشروع القرش وقد كان هذا عملاً هيئاً لا يستدعى بطولة خارقة فمشروع يقوم على أساس الثقة المطلقة به يكفى أن يتصدى أى كائن من كان للمساس بهذه الثقة كما ينصرف الناس عنه ويتنكرون له وهذا هو الذى حدث .

تبعده أن جمع المشروع في عامه الأول سبعة عشر ألفاً من الجنيئات وفي عامه الثاني ثلاثة عشر ألفاً واستطاع في عام ونصف أن يشيد مصنعاً للطرايش إذا به يعجز بعد هذه الخطوة عن عمل شيء . وها هو قد مضى عليه حتى الآن خمس سنوات لم يخط فيها خطوة واحدة إلى الأمام وإني لأخشى أن أقول لكم إنه يتقهقر فقد أصبح اسمه مكروهاً من المصريين يثير في نفوسهم إحساسات غامضة . ليست إحساسات طيبة على كل حال وهذه هي أول صفحة من صفحات جهاد الوفد ضد مصر الفتاة .

### أما وقد هدم مشروع القرش فليهدم صاحبه .

تحول الوفد بعد أن اعتقد أنه قضى على المشروع وأجهز عليه . تحول كما يقضى على بدورى ويفرغ من مسألتي فأى طريق قد اختاره للوصول إلى هذه النتيجة . هو أشنع وأحط أسلوب يمكن أن يلجأ إليه في مثل هذه الأحوال وأعني به أسلوب الكذب والادعاء وقذف الناس بالجرائم فقد أشاعوا وأذاعوا أن أحمد حسين قد استولى من مشروع القرش على بضعة آلاف من الجنيئات وقد حصل على السيارات المطهمة وابتنى العمارات والفيلات . وراحت لجانهم وأشباعهم وأنصارهم يذيعون ذلك في كل مكان والناس معذورة إذا صدقت فقد كانت حتى هذه اللحظة تعبد الوفد عبادة وتقديس كل ما يصدر من زعيمه من أقوال أو يفعله من حركات . وراحت المظاهرات من الرعاع تتألف ولا نداء إلا حرامى القرش . حرامى القرش . ومازال هذا النداء اللطيف يصاحبني حتى هذه الأيام . أسمعته كلما اجتمعت شرادم من الوفديين في دمنهور وفي الفيوم وفي أنحاء القطر . جويت بهذا النداء الأمر الذي يدلني على أنه نتيجة إيماءات منظمة صدرت من القيادة العامة .

بهذا السلاح سلاح التشهير والاتهام استطاع الوفديون أن يهدموا خصومهم هذا الهدم الذى يفتخرون به . فيكنى أن يختلف معهم شخص حتى يصبح خائناً باع نفسه للشيطان وأى مصرى قد نسى ما قيل في الثمانية الذين فصلوا من الوفد والذين يطلق عليهم حتى الآن اسم السبعة ونصف هؤلاء الأشخاص الذين كانوا أول من لبي داعى الوطنية والذين ساهموا فيها بأموالهم ومراكزهم . الذين غدوا الوفد بنفوذهم . الذين حكم عليهم بالإعدام في سنة ١٩١٩ فما كان جوابهم إلا أن صاحوا نموت ونحيا مصر . هؤلاء المجاهدون الذين وقفوا هذه المواقف المشرفة بينما كان النحاس باشا والمجاهد الكبير يقبضان مرتباً من الوفد نظير وظيفتهم في الوفد .. هؤلاء وهذا مركزهم قد أتهموا أمام الأمة بالخيانة والجريمة وأنهم تحالفوا مع الإنجليز . وأصبحوا براذع لهم وأنهم طعنوا الأمة من الخلف . وهل تعرفون ماذا كانت جريمتهم يا حضرات المستشارين ؟ كانت جريمتهم أنهم اعتقدوا أن تأليف وزارة قومية قد

يكون حلاً لمشاكل مصر ووزارة قومية معناها أن لا يكون النحاس باشا رئيساً . وهذه هي الخيانة التي لا خيانة بعدها وإذن فليفصلوا من الوفد وليطردوا وليشهر بهم وليصوروا أمام الناس بأشنع الصور وأحطها . وهكذا حطم الوفد أو خيل له أنه حطم السبعة والنصف كما يقول .

وبهذا السلاح حوربت . سلاح الكذب فأشاعوا وأذاعوا هذا الذي صورته لكم ولكن سلاحهم هذه المرة كان مغلولاً بل وارتد إلى أعناقهم وكان له أكبر الأثر في نجاح دعوى وتوطيد خطواتها الأولى . فقد هرع الشبان يشاهدون هذا الشخص الذي يجاربه الوفد والذي إتهم بكل هذه الرذائل . جاءوا يرون السيارات والعمارات وألوف الجنهات . فإذا رأوا . رأونا نقيم في حجرتين صغيرتين . ورأوا رائحة الفقر تفوح من كل مكان . ورأوا صاحب المطبعة يمسك بخناقنا . وصاحب الورق يمسك بخناقنا . رأوا جماعة مجاهدة لا غذاء لها إلا أسطى الأطعمة تلك التي يتناولها العمال الفقراء . وأحسوا بمقدار الظلم وحملة الكذب التي أعلنت ضدينا فزادوا تمسكاً بنا والتفافاً حول دعوتنا . ولأول مرة وجدت شباباً يدافعون عنى بجرارة ويستمتتون في هذا الدفاع . ولأول مرة وجدت زهرة الشباب تقف إلى جوارى في وجه هذه الافتراءات .

وهكذا ارتد هذا السلاح المسموم إلى نحورهم . وكان سبباً في خلق عصبية لمصر الفتاة تنتصر لها كأعنف ما يكون الانتصار .

### موقفى منهم

ولعله يهكم أن تعلموا ماذا كان موقفى منهم في هذه الأيام لعله يهكم أن تعرفوا كيف رددت على هذه الاتهامات وهذه الافتراءات وكيف قابلت هذه الخصومة العنيفة . إذن اسمعوا . اسمعوا يا حضرات المستشارين بأى أسلوب كنت أكتب في هذه الأيام على هذا الموقف الذى وقفه الوفد منى .

جاء في العدد الصادر في ١٣ يناير سنة ١٩٣٤ من جريدة الصرخة ما يأتى بالحرف الواحد :

### اتقوا الله في مشروع القرش إنه لله والوطن

فليس مشروع القرش ملكاً لشخص من الأشخاص أو قرين شخص من الأشخاص ولكنه مشروع تملكه الأمة وهو وليد إرادة الأمة . وهو مشروع تحتاجه الأمة .

وإذا كان مشروع القرش قد اقترن يوماً باسم أحمد حسين فلم يكن ذلك إلا أمراً عارضاً جاء نتيجة أن هذا المشروع فكرة من أفكار هذا الشخص . أما بعد ذلك فقد أصبح المشروع مشروع الشباب . أصبح المشروع مشروع الأمة بأسرها ولا فضل لأحد عليه . وإذن فحرام والله أن يحارب مشروع القرش لأن أحمد حسين كان فيه .

حرام والله أن يهدم بناء الأمة بأسرها لأن ذكره اقترن يوماً ما بشخص من الأشخاص . ها أنا أمامكم أيها السادة صبوا على جام غضبيكم . قولوا على لصا سارقاً كاذباً منافقاً . قولوا على صنيعة الإنجليز أو صنيعة الحكومة . أو صنيعة جهة من الجهات فإن هذا لن يضر أحداً إلا إيتى ولن يصاب مخلوق بشر إلا إيتى .

أما مشروع القرش يا سادة فحرام أن تصيبوه بأذى . حرام أن تقضوا على مئات العمال الذين يتنفعون من ورائه والذين سينتفعون . حرام أن تشمتوا فينا الأعداء .

مشروع القرش يحاول الإنجليز أن يهدموه ويحاول الأجانب أن يسحقوه . فلا نهدهم نحن بأيدينا ولا نسحقه نحن بأنفسنا ثم ندب حظنا وخرابنا .

مشروع القرش أعلى الكرامة المصرية . مشروع القرش ألبس كل مصرى تاجاً فلا تخفتوا صوته ولا تحاربوه لأن أحمد حسين اتصل به يوماً من الأيام .

صدقوني إن الأشخاص ستزول وسيبقى بعد العمل النافع سآزول أنا وأموت وسيزول غيري وسيموت وتبقى مصر حية نابضة ويبقى من الأعمال ما عمل لمصر . ومشروع القرش مفيد لمصر ولا يستطيع أحد نكران ذلك فدعوا النافع يعيش من أجل الله ومن أجل مصر . والله أكبر ..

هذا هو الأسلوب الذى كنت أجابهم به فقد كنت أقابل الفحش فى الهجاء بالاستعطاف من أجل الوطن ولم أفكر مرة أن أمس شخصياتهم أو أن أهاجمهم فى أعراضهم كما كانوا يفعلون ولم يكن ذلك عجزاً منى يا حضرات المستشارين . بل كان تعقفاً وترفعاً . وكنت أريد أن أعطى هؤلاء الناس درساً جديداً فى الخصومة الوطنية ولكن هيات .. هيات .. فقد مضوا فى طريقهم الذى حذوقه فلم أخسر منه شيئاً ولكن كسبت أشياء .

اسمعوا يا حضرات المستشارين هذه الفقرة التى كتبها فى جريدة الصرخة تعليقاً على الإجهاز على مشروع القرش فى العدد الصادر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٤ .

«لسنا نعادى من حاربوك يا مشروع القرش . ولكننا نسأل الله أن يهديهم الطريق



المستقيم فلا بد أن يكون هناك سوء تفاهم حملهم على حربك . ذلك أن من حاربوك أشد الناس إخلاصاً لك . ذلك أن من حاربوك أول من يحزنهم فشلك . ذلك أن من حاربوك مصريون وزعماء المصريين الذين لا يرضون لعلم مصر أن ينكس ولكنه لسوء التفاهم والدس والإيقاع .

أما الآن وقد انجلت المعركة فلا شك أنهم سيدركون أن الأمر لم يكن كما حسبه . وأن هدم مشروع القرش لا يفيد مصر .. ولا يغني مصر .. ولكنه يزعجها .. ولكنه يقتلها قتلاً أمام الأجانب والعالم ، سنعمل إذن من أجلك وسيعملون . سنجمع لك قروشاً وسيجمعون . سنهتف باسمك وسيهتفون . سننشئ مصنع الأقمشة الصوفية وسيصفقون » . هل رأيتم بأى أسلوب أخاطبهم وكيف أنتحل الأعذار لموقفهم الذى جنوا فيه على مصر شر الجناية . كيف أريد أن أستر موقفهم فأنسبه إلى سوء التفاهم وإلى ما دس عليهم والله يعلم أن لا دسياسة ولا سوء تفاهم ولكنها رغبة الهدم والقضاء على أحمد حسين .

### لابد من سلطة تحركنا ما هي

وكان الوفد يدعى في هذه الأثناء أننى مدفوع مدسوس للوقوف منه هذا الموقف وأننى متمتع بتأييد إحدى السلطات سواء كانت انجليزية أو حكومية أو ملكية ولكنهم لم يعرفوا بالضبط ما هي هذه السلطة ولذلك فقد فوجئوا بأن يروا الحكومة تقبض على وعلى زميلين من زملائى وترمى بنا فى السجن لمدة شهر تحقق معنا وتتعرف مرامى حركتنا وتبحث عن جذورها وأصولها . وكما شك فى الوفد فقد شككت فىنا الحكومة وطلبت من النيابة أن تضيق علينا الخناق حتى تعرف حقيقةنا منتهرة فى ذلك كتابة إحدى المقالات بمناسبة ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ولقد شرعت النيابة فى التحقيق وسهرت معنا ليلالى كاملة حتى عرفت كل ما وراءنا . وقدأما كما يقولون .

ولم يسع النيابة إلا أن نخطونا بعطفها فلقد طلبت الحكومة منها أن توجه لنا تهمة التحريض على الثورة . وتهمة العمل على تغيير نظام الحكم وتهمة التحريض على كراهية طائفة من الناس . ولكن هذه التهم كلها تمخضت بعد شهر من التحقيق إلى تهمة تحسين المظاهرات والتحريض على الإضراب . وقد أفرج عنا بكفالة مالية فى إحدى المعارضات فتقدم أحد الوفديين ودفعها عنا على سبيل القرض .

وهكذا انجلى لكل ذى عينين أننا لا يمكن أن نكون مدفوعين من إحدى السلطات للوقوف موقفنا الذى شكنا منه الوفد وإلا لحمتنا هذه السلطة وحالت بيننا وبين السجن .

ولو فرضنا وأن هذه السلطة قد تحلت عنا حتى وصل بنا الحال إلى السجن لكان من الطبيعي أننا بعد مبارحة السجن للمرة الأولى نغير مسلكنا ومهاجنا ذلك الذى أدى بنا إلى السجن ولم نجد من يحمينا أو يرعانا . ولكننا ظللنا فى خطتنا وزدنا إصراراً عليها فكانت النتيجة أنه لم يمض شهر واحد على خروجى من السجن للمرة الأولى حتى اعتقلت ثانية بسبب تحقيق جديد وزج بى إلى السجن شهراً جديداً فى قضية الجيش المضمومة إلى إحدى القضايا التى تنظرونها والتى سأعود إليها بالتفصيل عند النظر فى موضوعها وقد توالى بعد ذلك سلسلة اعتقالات حتى بلغ رؤساء مصر الفتاة المعتقلون فى السجن فى أحد الأيام ستة أشخاص كان فيهم رئيس مصر الفتاة وسكرتيرها ومساعد السكرتير . واعتقل أعضاء مصر الفتاة جماعات جماعات وقدموا للمحاكمات المختلفة . وفتشت بيوتنا وأرهبنا وأرهبنا وأعتدى علينا رجال البوليس .

وفى مرة من المرات كنت معتزماً إلقاء محاضرة فى الإسكندرية فإذا البوليس يترصد لى ويعتدى على بالضرب أشنع اعتداء حتى أصابنى بعدة جراحات ثم قبض علينا بتهمة التظاهر والتجمهر وأودعنا فى السجن . حتى إذا ما جاء دور المرافعة عنا فى هذه القضية تصدى بعض المحامين من الوفديين فى الإسكندرية للدفاع عنا وعلى رأسهم الأستاذ عبد الفتاح الطويل وكيل القصر البرلانى وحكيم علينا بغرامة اشترك فيها حضرته فى دفع جزء من هذه الغرامة كما اشترك فى دفع جزء آخر الأستاذ حسن سرور المحامى وعضو مجلس النواب الوفدى .

ولقد فعلوا ما فعلوا ووقفوا منا هذا الموقف لأنهم لمسوا بأيديهم مقدار الظلم الصارخ الذى كنا محلاً له ومقدار الإيمان الذى يملأ صدورنا والجهد الذى نبذله من أجل بلادنا . وهكذا كان كل وفدى يقرب منا أو تتاح له فرصة محادثتنا لا يستطيع إلا أن يشهد بإخلاصنا وأن يعطف علينا وأن يمتن ما يحوطنا به من إشاعات .

قضينا ختام سنة ١٩٣٣ وطوال عام ١٩٣٤ ونحن فى اضطهاد دائم من حكومة هذا الزمان . كنا نجلس إلى موائد الطعام لنا كل فلا نكاد نتم الأكل حتى نقاد إلى السجن وكنا نفتش وكانت جرائدنا تصدر ولم يصح لنا باجتماع واحد . وكنا مراقبين فى كل ما نفعل وما نقول حتى آمنت الأمة بأننا مظلومون فيما رُمينا به من تهم وإننا جديرون بكل عطف ورعاية فانتشرت دعوة مصر الفتاة فى كل مكان وأقبل الشباب على الانضواء تحت لوائها فى حماسة وإكبار ونظر الجميع إلى مصر الفتاة نظرهم إلى حركة باسلة طاهرة لتحقيق أغراض البلاد عن طريق الإيمان والعمل والتضحية فهل كان لذلك كله شىء من الأثر فى تغيير

اعتقاد رؤساء الوفد فيها وأخصهم مصطفى باشا النحاس . اللهم لا .. بل على العكس زاده .  
 نجاحنا حقاً علينا ورغبة في القضاء علينا أكثر وأكثر وهذا أول ما جعلني أعتقد أن النحاس  
 باشا مغرض في هجومه علينا وأنه ليس حسن القصد مطلقاً في محاولته القضاء علينا .  
 ذلك أننا أثبتنا بأعمالنا وتصرفاتنا وما وقع علينا من اضطهاد .. أثبتنا أننا نحن الشباب  
 العامل المجد . أثبتنا أننا لسنا مدفوعين إلا بعاطفة واحدة وهي عاطفة الوطنية الصحيحة وأن  
 لا غاية لنا إلا ما يطمع فيه كل مصري من سعادة وطنه وتحريره وأننا نزيد على غيرنا من  
 الوطنيين بأننا أصبحنا أكثر تعرضاً للمخاطر والاضطهادات وهي لا تزيدنا إلا إصراراً  
 وعزماً .

### ورغم تغتهم لم نغير مسلكنا حيالهم

ولكن ذلك كله لم يكن بشفيح لنا عند صاحب المقام الرفيع فظلت الخصومة على  
 أشدها وظلت الطعنات توجه إلينا بالباطل فهل غير ذلك من نظرنا للنحاس باشا وهل قابلنا  
 الهجوم بعدوان مثله .. كلا والله يا حضرات المستشارين بل ظلت إذا ما ذكرت اسم  
 النحاس باشا أذكره محوطاً بالإكرام والتبجيل مهما كنت ناقدًا له أو ملاحظاً عليه . وإني  
 أعرض عليكم مثلاً من نقدي للنحاس باشا في هذه الأيام لتعلموا أي أسلوب هذا الذي  
 كنت أنتهجه معه ولتعرفوا في النهاية عندما يصل إليكم في هذه الأيام أنني لم أهاجم النحاس  
 باشا هذا الهجوم العنيف الذي هجمته عليه إلا بعد أن ثبت لدى بالدليل القاطع أن لا  
 علاج للنحاس باشا غير الإقصاء أخيراً عن السياسة المصرية لإنقاذ مصر من تصرفاته .  
 حدث مرة يا حضرات المستشارين وكان ذلك في أبريل سنة ١٩٣٤ أن ظهرت  
 إعلانات ماجنة ملأت الشوارع . إعلاناتاً عن صالة بديعة مصابني ومعلوم أن هذه الدار  
 إحدى دور اللهو الحرام التي تنخر في عظام الأمة وتردى أخلاق أبنائها في الهاوية .. معلوم  
 أن هذه الصالة وأمثالها هي وكر الموبقات والرذيلة وهي مصدر انحلال الأمة وعارها ومع  
 ذلك فإن هذا لم يمنع أن صدرت هذه الإعلانات وهي تحمل بالخط العريض اسم صاحب  
 المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا كراعٍ لإحدى الحفلات .

ولقد فرغت لهذا الأمر ورأيت فيه مظهرًا جديدًا من مظاهر الإفلاس والتدهور الشائن  
 فكشيت مقالاً في الصرخة في ١٤ أبريل سنة ١٩٣٤ جاء فيه ما يأتي :

حول ذكر اسم دولة النحاس باشا في الإعلانات  
 « دار بديعة مصابني هذه تعلن مصر الفتاة عليها الحرب . حرباً معنوية لا هواة فيها

ولا لين فما روعنا أكثر ما روعنا إلا أن شوارع العاصمة وصفحات الجرائد تضم إعلانات تقرن فيها اسم دولة النحاس باشا زعيم الأمة إلى اسم هذه الراقصة الرشيقة ما راعنا أكثر ما راعنا إلا أن تقرن هذه الدار القدرة بأظهر اسم في البلاد وأقدس . ترى ما الذى حدث فى الدنيا وما الذى وقع هل تبدلت السماء غير السماء وهل تبدلت الأرض غير الأرض .. أم مصطفى النحاس ذلك الاسم الداوى الذى اقترن بسيشل وعدن واقترن بالدستور والاستقلال هذا الاسم الذى تتمثل فيه كرامة أمة بأسرها .. يقترن باسم راقصة !

من هذا الذى أساء إلى الأمة وطعنها هذه الطعنة النجلاء فحرر هذه الإعلانات وملأ بها شوارع العاصمة . من هذا الوغد الذى دس هذه الدسيصة فحمل الناس على الاعتقاد أن هذا العمل يلقي التشجيع من زعيم الأمة وهو عمل جدير بلعنة كل مسلم ومصطفى النحاس باشا ليس مسلماً عادياً ولكنه زعيم أمة مسلمة .

فى الواقع أن هذه المسألة يجب أن تكون محلاً لتحقيق دقيق فقد يكون خبر هذه الإعلانات لم يصل إلى دولة الرئيس وهو الذى لا يسير فى الطرقات وربما كان بعض بطانة هو المسئول عن كل هذا وعلى كل حال فيجب استنكار هذا العمل .. لأنه يمس أمة بأسرها .. انتهى ما جاء فى المقال .

### لماذا آثرت محاسنة الوفد رغم عدائه

وهنا يجب أن نقف قليلاً يا حضرات المستشارين لأحدثكم عن السبب الذى جعلنى أقف من النحاس باشا هذا الموقف فى هذه الأيام فلا أذكره إلا محوطاً بعبارات التبجيل وشارات الاحترام . لماذا أنعت النحاس باشا بالزعيم ولماذا أنعته بالرئيس الجليل والطهر مع أنه كان من ناحيته لا يتورع عن قذفى بكل خطيئة ومحرجة .

كان لذلك عدة دوافع أرجو أن تسمحوا لى بأن أسردها عليكم ..

أما الدافع الأول فهو أخذى بما دعا إليه الرسول والقرآن يقول : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

فستة الإسلام تدعونا أن لا نقابل الإساءة بالإساءة .. وأن نجتهد فى مقابلتها بالإحسان فإن ذلك قد يكون دواء ناجحاً وشفاء من الأحقاد والخصومات .

كنت أقول فى نفسى من يدرى ربما إذا رددت على النحاس باشا اليوم سباباً بسباب وطعنًا بطعن فقد تأتى ساعة يحتاج فيها الوطن إلى أن نقف صفاً واحداً لمجاهة العدو المشترك .

فإذا يكون الحال وقتئذ إذا كان كل منا قد آلم الآخر إلى أبعد مدى وجرحه في عمق بحيث لا أمل في التئام الجروح . لابد أن يكون تعاوننا ساعتئذ مبني على نفاق ورياء أما إذا احتفظت بلساني عفاً ، ولم أجرح النحاس باشا في كرامته . فسوف أستطيع في أي يوم من الأيام أن أتعاون معه إذا لزم الأمر لمصلحة بلادى من غير أن يرى في نفسه ضعفاً من ناحيتي أو ألقاً . وأما فيما يختص بي فأني واثق من نفسي سلفاً وأن سباب النحاس باشا وشتائمته وخصوماته لن يكون لها في نفسي أى أثر إذا ما دعا الداعى لتعاونى معه .

وهذا هو الدافع الأول الذى كان يحملنى على أن أقف من النحاس باشا هذا الموقف . فلا أناله بأذى في مقالاتى ولا أذكره إلا في عبارات المجاملة والرعاية .

### دافع آخر - الوفد يمثل المقاومة في الأمة

على أن ثمة دافعاً آخر لم يكن يقل عن هذا الدافع الأول وهو موقف النحاس باشا من الإنجليز ومن الدستور ومن الأمة . فقد كان النحاس باشا وهو في خارج الحكم يمثل قوة المقاومة في الأمة وطموحها لاستقلالها وحريتها .

حقاً لم أكن أشك لحظة في أن النحاس باشا لا يهجم من الجهاد والكفاح إلا الوصول إلى الحكم .

ولكن الذى لا شك فيه أيضاً أن الأمة لم تكن تعرف فيه ذلك بل كانت ترمز به إلى أمانها وكفاحها .

والإنجليز من ناحيتها كانت تنظر إلى النحاس باشا باعتباره إرادة الأمة في أن تحيا حياة أكثر حرية واستقلالاً .

وإذن فالنحاس باشا في موضع عزيز من الأمة وأمانها فلم يكن من الخير في هذا الوقت أن نهجمه وأن نصوره بصورته الحقيقية ، إذ لم يكن ذلك في مصلحة أحد وليس في مصلحة الجهاد بصفة خاصة .

وكنْتُ أردد دائماً للمتصلين بي في هذه الأيام والذين كانوا يثيرون على الوفد ويطلبون منى العمل صراحة على هدمه . كنت أقول لهم ليس من المصلحة في شيء أن نهدم الوفد من غير أن نقدم للأمة محوراً جديداً للجهادها . وهدم الوفد في هذه الأيام يسىء إلى مصر أكثر مما يسىء إلى أى شخص آخر لأن الوفد هو عقيدة الأمة وهو أمانها وهو آمالها فكل تحطيم له إنما هو تحطيم لهذه الآمال وهذه الأمانى . فعلياً أولاً أن نحول هذه الأمانى والآمال إلى محور آخر تتعلق به .

فإذا حدث ذلك فقد أصبح النحاس باشا ومن معه أشخاصاً لا يمثلون إلا أنفسهم وعندئذ يكونون هم أول من يهدم نفسه بنفسه ولا تحسر الأمة عندئذ شيئاً فليس الأشخاص شيئاً يذكر في حياة الأمم لأنهم يفنون أما هي فتبقى دائماً أبداً .

### دافع ثالث

وثمة دافع ثالث كان يدفعني للوقوف من الوفد هذا الموقف هو رغبتي في أن أعطي مثلاً طيباً للخصومات الحزبية وكيف يجب أن تكون ، فالحزب لا يهاجم الحزب إلا بمقدار ما يكون في هذا الهجوم من مصلحة للوطن المشترك لا مجرد إطفاء الشهوات والأحقاد الشخصية .

كان الوفد ورجاله يعملون ضدى ولكني في جهادى من أجل مصر وقتذاك لم أكن أشعر بضرورة لمهاجمة الوفد ورئيسه مهاجمة شديدة . لقد كنت أريد أن أجمع حولي شباباً قوياً يقدر الرجولة ويفهم معنى التضحية .

كنت أريد أن أنفث في صفوف الشباب روحاً جديدة من الإيمان والعزم والكفاح وقد كنت أحقق هذه الأغراض بغير حاجة للهجوم على الوفد وكنت أقوم بعملى إلى جوار الوفد ولذلك فلم أكن أحفل بشائمه لأنها لم تُجَل بينى وبين أداء واجبي وإذن فلم أكن أرغب في إهدار مجهودى فيما لا يفيد بلادى وقتئذ .

وليس أدل على ذلك من هذا التصريح الذى نشرته في العدد الصادر في ٩ يوليو سنة ١٩٣٤ إلى رجال الوفد وزعمائه وفيه أحدد موقفى منهم فقلت بالحرف الواحد :

(يسألنا الكثيرون في أنحاء مصر لماذا لا ننضم تحت راية الوفد والمبادئ متحدة ويحملوننا مسئولية العمل على انفراد وأنا أصرح هنا باسم جمعية مصر الفتاة وباسمى الشخصى أننا لا نعمل للوفد ولزعيمه إلا كل حب واحترام وأنا نرى فيه الهيئة الوحيدة التى عملت منذ نشأتها بإيمان وإخلاص للقضية المصرية وأنه يتمثل في الوفد اليوم كل جهاد الأمة البرىء ..

لكن للوفد اليوم خطط سياسية لا نفهمها ونحن نرى أن لابد من الكفاح المتواصل ولابد من التضحية المستمرة . نحن نرى أن لابد من أن نخلع عن أنفسنا رداء الخوف وأن نتقدم إلى الإمام في جرأة وشجاعة لكى نعيد لمصر حريتها المسلوقة . ونحقق لها استقلالها الكامل .

نحن نرى أن الساعة قد حانت لتنظيم الصفوف وإيجاد قوة مادية تسهر على حماية الأمة وتحقيق برنامجها وهذا هو ما فعله في مصر الفتاة . فليشرع الوفد يعمل من جديد . فليعلن

خطة الكفاح المستميت . فليعلن الحرب على الخوف وليدع للتضحية ولتنظيم الصفوف لخلق القوة في نفوس الشباب نكن أول من ينضوى تحت لوائه ونكن لجنة من لجانه . أما أنا فأني سأكون أسعد المصريين طرا يوم أن أعمل كجندى بسيط في جيش مصر الظافر بجيش مصر الذى سيسطر استقلالها بما يبذله من دم وتضحية والذى سيحقق مجدها بما يملأ به نفسه من إيمان وعقيدة » .

وهكذا مضيت في طريق الذى رسمته لنفسى أن أقابل الإساءة بالإحسان وأبدي رأى برفق لا أبغى من ورائه إلا الإصلاح والله يعلم أننى كنت أول من يرحب بإصلاح هؤلاء الناس . فإن إخلاصى لوطنى وإيمانى جعلانى أتمنى أن يصلحوا فيكون في صلاحهم خير كبير لمصر لأنهم كانوا مسيطرين على أزمة الرأى العام فعلا والشعب يحمل لهم تقديساً لا أول له ولا آخر ولذلك فإن صلاحهم كان من شأنه أن يفيد مصر فائدة عظيمة .

### مصر في ختام سنة ١٩٣٤

وليس في نيتى أن أتلو عليكم كل ما وجهه إلى من هجوم وما رددت عليه برفق واحترام ، ولكنى أنتقل بكم سريعاً إلى قبيل ختام سنة ١٩٣٤ أى في نوفمبر من السنة المذكورة كما نستعرض الأحداث السياسية التى كانت تجرى في هذه الأيام وماذا كان موقفنا منها وموقف الوفد منها ومنا . في هذا التاريخ يا حضرات المستشارين كان صاحب الجلالة الملك الراحل قد مرض هذا المرض الخطير وانتهاز الإنجليز هذه الفرصة كما ييسطوا نفوذهم على مصر ويحطموا من مظهر استقلالها كل ما أمكن . فأخذوا يتحدثون عن الوصاية والرفادة وعن عدم صلاحية الملك للحكم وعما أصاب قواه العقلية .

وأخذ المندوب الإنجليزى وقتذاك ولم يكن إلا موظفاً صغيراً وهو المستر بترسون يأمر وينهى ويهدد ويتوعد وأحس المصريون جميعاً بأن العرش في أزمة خطيرة والإنجليز ينتهزون فرصة كراهة الأمة للوزارة التى كانت موجودة وقتذاك لينتقصوا من حقوق العرش ويفرضوا عليه إرادتهم . وقد كان من الجلى الواضح أن موقف القصر في ذلك الوقت أضعف ما يكون فالأمة كانت تغلى ضد النظام القائم وقتذاك فعواطفها أبعد ما تكون عن سياسة القصر والذود عنها تلك السياسة التى كانت تلخص وقتذاك في سعادة الإبراشى باشا والذى كانت الإشاعات متواترة وقتذاك أنه هو المسئول الأول والأخير عن هذه السياسة التى انتهجها القصر في هذه الأيام ، ولم تكن هذه السياسة حائزة على عطف الأمة ولذلك فقد وقفت الأمة في موقف سلبي عندما شرعت الإنجليز تضغط على القصر وتحاول إملاء إرادتها . وقف المصريون أو بالأحرى الوفديون وقفة غير مشرفة لأنهم في سبيل غايتهم

الشخصية نسوا الغايات العامة التي يجب أن تسمو فوق كل اعتبار والتي تجعل من ذات الملك ممثلاً لمصر بأسرها فكل مساس به من الإنجليز هو عدوان على مصر وكرامتها واستقلالها .

### الملك بشعبه . ترشيح الوفد للحكم

ولقد أعملت الفكر في هذه الأيام لأجد مخرجاً من هذا المأزق فهداني التفكير إلى أن خير حل يستطيع به جلالة الملك أن يحافظ به على سيادته التي هي سيادة مصر بأسرها أن يتخلى عن حماية النظام القائم ساعته وأن يدعو ممثلي الأمة من الوفدين ليتسلموا زمام الحكم كما تقف الأمة صفاً واحداً في مواجهة الإنجليز .

ولقد أعددت رسالة بهذا المعنى لترفع إلى جلالة الملك وقد أعددتها وحملتها بنفسى إلى الإسكندرية ، وسلمتها لوكيل الديوان الملكي ورجوته أن يعرضها على جلالة الملك . ولقد فعل وجاءتني بعد ذلك كلمة شكر من صاحب الدولة زيور باشا بعد أن أصبح رئيساً للديوان الملكي .

واليكم الآن آخر فقرة وردت في هذا الخطاب .

«عرشكم يا مولاي لا يحميه إلا الشعب وعرشكم يا مولاي من الشعب وللشعب فأتبعوا الفرصة للشعب كما يحميه بدمه وبكل ما يملك فلتصدر إرادتكم السنية بإقالة هذه الوزارة واندبوا نواب الشعب لحكم البلاد .. اندبوا نواب الشعب يا مولاي في شخص ممثليه من رجال الوفد لتولى الوزارة فهو وحده الذى يستطيع أن يوقف الإنجليز عند حدهم . هو وحده يا مولاي لأنه زعيم الشعب الذى يستطيع أن يخيف الإنجليز وأن يشعرها أن دون المساس باستقلال مصر ودستور مصر ثورات وحروب وويلات .

مولاي :

باسم مصر كلها التي تفدى عرشكم ، باسم الشباب الذى أتشرف برئاسته أضرع إلى جلالته من أعماق قلبي أن تعيدوا الوفد إلى الحكم ليرد إلى هذه البلاد السلام والحرية . ليرد إلى هذه البلاد دستورها وحيويتها . وليخلق منها كلها كتلة متراسة تدعم عرشكم المقدس وتحمي استقلال مصر وكرامة مصر .

مولاي :

لم أكتب ما كتبت بدافع حزنى ولكن دفعنى إليه إخلاصى لا حد له لعرشكم ولشخص



جلالتكم الكريم . وألم شديد لما وصلت إليه مصر من التدهور والانحطاط في عهد هذه الحكومة الحاضرة والتي سبقتها .

ولست أعرف ماذا سيكون نصيب خطابي هذا إلى جلالتكم وأغلب ظني أنه سيثير سخط بعض الأشخاص فلا يوصلونه إلى مسامع جلالتكم .. بل قد يُوقفوني موقف المحاكمة .. ولكنني قد أدبت واجبي والحياة في نظري هي القيام بالواجب .. ولن تكون محاكمتي إذا فكرت الحكومة في محاكمتي إلا فرصة جديدة أعلن بها إخلاصي لسدنتكم العلية ورغبة الشعب القوية في التخلص من هذه الوزارة .. وآخر ما أختتم به هذا الخطاب أن أهتف من أعماق قلبي في إخلاص وإيمان (عاش الملك ليحيى الملك)

عبدكم المطيع

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

قدمت هذه العريضة في أول نوفمبر سنة ١٩٣٤ ولم يكن أمرها مجهولاً فقد أشارت إليها الجرائد ونشرتها عن بكرة أبيها .. ونشرتها جريدة الأهرام بصفة خاصة في ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ ونشرتها جريدة الصرخة لسان حال مصر الفتاة وكان لها في ذلك الوقت ضجة وأية ضجة . فقد ظن بعض الناس أن مصر الفتاة قد أصبحت وفدية أو تفاهت مع الوفد . وأشاع الناس وأذاعوا أن أحمد حسين قد تصالح مع النحاس باشا وانضم إليه ..

والواقع يا حضرات المستشارين أن شيئاً من ذلك لم يقع فقد كنت محتفظاً برأى في الوفد ولكن طبيعة الموقف وإخلاصي لبلادي ومليكي هما اللذان حملاني على الاعتقاد أن لا علاج للموقف وحماية العرش إلا بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ وندب الوفد للحكم وقد تجلت أهمية هذا العلاج عندما صرح جلالة الملك لنسيم باشا في رغبته في إعادة دستور سنة ١٩٢٣ سريعاً وإجراء انتخابات عامة فقد وقعت هذه الإرادة على إنجلترا وقع الصاعقة ..

وقد خرج جلالة الملك بهذه الضربة فائزاً على إنجلترا حتى لقد أطلقوا على تصريح جلالتكم أنه ضربة معلم . وكل الخطوات الموقفة التي تابعت بعد ذلك كانت نتيجة لموقف جلالتكم من الشعب . ولذلك فإن جلالتكم فارق الدنيا بعد أن ترك في نفوس شعبه أعمق الأثر .. واليوم لا يوجد مصري واحد لا يبكي جلالتكم ولا يرى أيامه .. وانتصر جلالة الملك في أيامه الأخيرة هذا الانتصار الذي كان يستحقه بحق . وهو يرقد الآن في هدوء وراحة بعد أن أدى واجبه العظيم نحو شعبه وأرواح ستة عشر مليوناً من المصريين . تترحم عليه بين حين وآخر في عطف وإكبار .

وهذه هي النتائج التي كنت ألاحظها عندما كتبت هذه العريضة لجلالة الملك . فدفعتني المصلحة العامة إلى أن أدعوا لتولى الوفد مقاليد الحكم .. مع أن الوفد هو الذي شهّر بي وحاربنى .. ولقد كنت واثقاً أنه سيظهر بي أكثر وأكثر عندما يلي الحكم ذلك لأنى أعرف أن الخصومة الكائنة بيننا هي خصومة قائمة على الأثرة والأنانية لا أكثر ولا أقل . ويوم أن يرى الوفد السلطان في يده فأول ما سيفعله هو أن يمحى مصر الفتاة من الوجود وعلى الرغم من ذلك فضلت أن يعتلى الحكم ويفعل بنا ما يفعل ما دام أن هذا هو العلاج الوحيد لإنقاذ مصر والعرش من تدخل الإنجليز وسيطرتهم .

## هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

وقد كان مؤدى العريضة التي قدمتها لجلالة الملك إقالة الوزارة التي كانت في الحكم ساعتئذ وهي وزارة عبد الفتاح باشا يحيى وإلغاء دستور سنة ١٩٣٠ وإبعاد صاحب السعادة زكى باشا الإبراشى عن السراى . وأن يعيد الوفد إلى الحكم بصفته ممثل الشعب والأمة ..

فهل تعرفون ماذا كان رد الوفديين على هذه العريضة التي وقفنا منهم فيها هذا الموقف .. إذن اسمعوا .. اسمعوا يا حضرات المستشارين وحاولوا أن تتالكوا أعصابكم إزاء هذا الجحود والافتراء الذين عوملت بهما مكافأة لى على هذه الخطوة .

قلت لكم إننى تقدمت بهذه العريضة فى أول نوفمبر لجلالة الملك .. وفى ١١ نوفمبر أى بعد أسبوع من نشر هذه العريضة وإذاعتها على الناس خرجت علينا جريدة الجهاد بمقال رئيسى تعلق به على الموقف الحاضر تحت عنوان « عرق الدسائس لا يزال ينبض - آلات الإبراشى باشا » .

وقد حشت هذا المقال بالمطاعن فى الإبراشى باشا وأعوانه وآلاته وأخذت تعدد أنواع الحركات التي يديرها الإبراشى باشا ويحركها .. حتى أشارت إلى مصر الفتاة بما يأتى : « ولا يخفى أن الرؤساء المشرفين على هذه الجماعات أناس حكيوميون لا يستطيعون أن يتعرضوا لبعض المناوشات السياسية التي يخاف الإبراشى وأتباعه من عواقب التحريض عليها ولا يخفى أيضاً أن الإبراشى لن يستغنى عن تلك المناوشات السياسية فى مصادماته بين الأحزاب واستدراجه للعناصر المتطرفة من الشباب فالحاجة إذن ماسة إلى جماعة أخرى تصنع هذه الجماعات وتتوسل بالتطرف المكذوب إلى اجتذاب الشبان المخلصين حقاً فى خدمة الوطن والسعى الحثيث إلى خلاصه .

ولهذا ظهرت هذه الجماعة الملفةقة وظهرت لها صحيفة أسبوعية تصدر في كل أسبوع ولا تنقطع عن الظهور مع كسادها وإعراض الناس عنها وكثرة النفقات التي يستدعيها طبع الصحيفة وتحريرها وإدارتها . وليس في الوسع أن تسند هذه الجماعة إلى أناس بارزين مسئولين فلا بأس إذن بإسنادها إلى أفراد من أصحاب الحركات البهلوانية الذين راحوا يعولون ويضجون ويخندمون بالحلماسة المصطنعة على حين غرة كأنما مسهم من جنون الوطنية شيطان ما بين عشية وضحاها ، وخيل هؤلاء البهلوانات أنهم يكسبون الثقة المنشودة بالمخاطرة السطحية التي لم تصبهم قط بأضرار حقيقية أو لم ينلهم من جرائهم شيء مما ينال الخصوم الحقيقيين ولو أنهم أصيبوا بأعظم الأخطار لما كانت هذه المصائب الموقوفة إلا ثمنا رخيصا جدًّا في جانب المنافع المنظورة والمطلب الجسم الذي يطلبونه لمن يسخروهم ويدفعون بهم إلى الميدان ونعني به مطلب السيطرة على عقول الناس .

وهكذا يا حضرات المستشارين صوروا ما كنا نلقاه من حبس واعتقال وضرب وإيذاء بأنها مخاطرات سطحية وأعمال مسرحية ، وصورونا نحن الذين تقدمنا لجلالة الملك نطلب منه إسدال الستار على العهد الذي كان موجودًا ساعتئذ ورفع الوفد إلى منصة الحكم . لم نكن في ذلك الوقت إلا أذنانًا للإبراشي باشا مدفوعين بدسائسه وسياسته .

### احكموا بيننا وبينهم

احكموا يا حضرات المستشارين على هذا الموقف وقدروا إلى أي حد كنا مظلومين مع هؤلاء الناس وإلى أي حد كنا محل اعتداء دائم منهم . قارنوا يا حضرات المستشارين بين موقفنا وموقفهم . بين خطتنا وخطتهم . احكموا إلى أي حد كنا نحكم المصلحة العامة إلى أي حد كنا ننسى أنفسنا من أجل بلادنا ثم احكموا إلى أي حد كانت تسيرهم الشهوات والأغراض . احكموا يا حضرات المستشارين إلى أي حد كنا شرفاء في خصومتنا فلم تؤذ أحدًا ولم نخرج أحدًا ثم احكموا عليهم إلى أي حد اصطنعوا الكذب والاختلاق في خصومتنا .

احكموا يا حضرات المستشارين إلى أي حد كنا نتخير من الألفاظ ما يفيض احترامًا لهم واحكموا عليهم إلى أي حد كانوا يمعنون في الإفحاش والسباب إذا ما ذكرنا على ألسنتهم .

## لماذا اتهمنا بأننا صنائع الإبراشى

حتى هذا التاريخ كان اتهام سرقة مشروع القرش قد أصبح سخيفاً ومبتدلاً ولم يعد له من أثر في الأمة وشوهد أن مصر الفتاة قد ثبتت أقدامها وأنها في كل يوم تنتقل من نصر إلى نصر . ومما قضى على أكذوبة مشروع القرش وجعلها عاراً على قائلها ومبتكرها أن مشروع القرش كان قد آل إلى الوفد في هذه الأيام فاستولى عليه أقارب صاحب المقام الرفيع ومكرم باشا ودخل إلى مجلس إدارته أعضاء من صميم الوفديين ثم أشرفوا على الاكتتابات فهل تعرفون كم جمعوا من الجنيئات ؟ لقد جمعوا ثلاثة آلاف لا تزيد مليماً فعجب الناس لهذا السارق الذى جمع في عام سبعة عشر ألفاً من الجنيئات وفي عام آخر ثلاثة عشر ألفاً من الجنيئات ولم يكن مصنع الطرايش في عالم الوجود فبعد أن تجسد المشروع وظهرت مزاياه إذا بهم لا يجمعون إلا ثلاثة آلاف من الجنيئات بعد أن أصبح المشروع وفدياً نحاسياً دماً ولحمًا وعظمًا وأخذت نداءات النحاس باشا تترى في الدعوة له . وهكذا انتصرت مصر الفتاة وخرجت من هذا الاتهام مرفوعة الرأس موفورة الكرامة وأقبلت جموع الشباب على مصر الفتاة والتفت حول لواثها فلم يكن هناك مناص من اتهام جديد تقذف به مصر الفتاة لينفض الناس من حولها فكانت هذه التهمة الجديدة تهمة أننا أذئاب وصنائع ودساسون . وراح الدعاة في أنحاء القطر يروجون لهذه الإشاعة حتى استقرت في نفوس البسطاء وجرت عندهم مجرى العقيدة وصدقوني إن الإشاعة لم تقف عند صفوف الوفديين بل تعدتهم إلى أشخاص من خصوم الوفد . وأشخاص على الجياد . كل هؤلاء تأثروا بدورهم واعتقدوا أننا حقاً وصدقاً وعدلاً أذئاب الإبراشى .

## حتى هذا لم يغير مسلكنا

بقى أن تعرفوا ماذا كان أثر هذا الاتهام الجديد في موقفنا من الوفد . وهل دفعنا الظلم الذى يعاملنا به إلى الخروج عن جادة الصواب والمصلحة العامة . . .  
 قيل عنا هذا الكلام في شهر نوفمبر وفي ديسمبر أتاحت لى الوزارة القائمة ساعته أن أخطب في اجتماع عام فاسمعوا يا حضرات المستشارين آخر ما قلته في خطاى الذى ألقيته وقتذاك :

«ولست أريد أن أغادر هذا المنبر قبل أن أحدد علاقة جماعتنا بالوفد ذلك أن البعض منكم يريد أن يسأل هذا السؤال أو أن يعرض به . فأقول لكم إننا لا نعادى مصرياً واحداً بل نحن نحب الجميع لأننا أول من يدعو إلى الاتحاد والتكاتف ونحن على استعداد

أن نعمل تحت راية الوفد في حدود هذه المبادئ وبهذه الوسائل التي نعمل بها . وهكذا ترون أيها السادة أن كل ما تسمعه من أننا نخالف الوفد . أو أننا أعداء له فنحن براء من هذه التهمة وإننا نمد أيدينا تحت لوائه وكل الذي يهمننا هو تنفيذ هذه المبادئ واتباع هذا الطريق . فنحن نريد وطنية عاملة تعتمد على التضحية أولاً وأخيراً . ونحن لا نؤمن بأن الاستقلال يمكن أن يشهد . ذلك أن الاستقلال كما قال المرحوم الملك فيصل يؤخذ ولا يعطى وما دام الأمر كذلك فنحن نعمل للحصول على القوة اللازمة لإدراك الاستقلال . وهذا هو برنامجنا . نحن بعد ذلك ننظم الشعب الذي ينضم لنا ونملأه رجولة وخشونة ووطنية ونؤلف منه جيوشاً منظمة ليس لها إلا هتاف واحد وهو الله أكبر والمجد لمصر .

«كونوا إذن خارج حظيرة مصر الفتاة إن أردتم واعملوا بمبادئها . أو ادخلوا إلى حظيرتها إن كنتم على استعداد للتضحية والجهد هذا هو آخر ما أقوله لكم . فإذا كنت قد ظفرت في نهاية هذا الاجتماع بأن أقنعت واحداً منكم أن يجاهد من أجل مصر وأن يفنى في سبيلها فإني أعد نفسي قد قمت برسالتى وأستطيع أن آوى إلى فراشى في هذه الليلة وأنا مطمئن إلى أنني أديت واجبي نحو مصر وذلك هو مبدأنا السادس .»

### خصومة تعبر البحار في لندن

تتابعت على مصر بعد ذلك أحداث جسام يا حضرات المستشارين وكان اعتراض السير صمويل هور على الدستور بعد أن أعلن جلالة الملك أن أعز أمانيه أن يعود الدستور وقد كانت هذه أمنية الشعب في نفس الوقت ، وإذن فقد كان من المحتم أن يعود الدستور لأن الدستور من أخص المسائل الداخلية فلما أعترض السير صمويل هور على عودة الدستور اعتراضه المشهور قامت في مصر هذه الاحتجاجات والزوابع التي تذكرونها والتي كان لكم نصيب في الاشتراك بها .

في ذلك الوقت شعرت الأمة بم حاجتها إلى الدعاية لها في الخارج فحضمت أمتعتي وسافرت إلى لندره كيما أشرح وجهة النظر المصرية وأدافع عن استقلال مصر وحريتها في وقت كانت إنجلترا تتمشدد فيه بمجايته لحرية الشعوب واستقلالها بمناسبة الحرب الحبشية الإيطالية .

وليس في نيتي أن أقص عليكم ماذا فعلت في هذه الرحلة ولكني أريد أن أعرض عليكم حديثاً دار بيني وبين أحد كبار الإنجليز وهو السير واردلو ملن رئيس اللجنة

المصرية في البرلمان الإنجليزي . تقابلت مع هذا السيد في مكتب السير مردوخ مكدونالد وهو الآن موظف في الحكومة المصرية وقد كانت مقابلتي به بناء على ميعاد سابق وكان طبيعيا أن يقف هذا الرجل على كل المعلومات الخاصة بمصر الفتاة فيما عرف أن بين الوفد وبينها خصومة حارة . فقد أراد أن يستغل هذه الخصومة فقال لي ولماذا تريدون دستور سنة ١٩٢٣ وأنتم تعلمون أن هذا الدستور يعيد الوفد إلى الحكم بأغلبية ساحقة . ومعنى رجوع الوفد إلى الحكم اضطهادكم أنتم ؟

قلت له على الفور إن المسألة ليست مسألة وفد وغير وفد فهذه كلها مسائل داخلية خاصة بنا نعرف كيف نصفيها فيما بيننا والشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقوله لك هو أن نية الأمة واضحة في عودة دستور سنة ١٩٢٣ فكل اعتراض من الإنجليز عليها هو ماس باستقلال مصر وسيادتها لا يوجد مصرى واحد يسمح به .

وأما أن هذا الدستور سيعيد الوفد إلى الحكم فهذا حق الوفد غير منازع فيه ويجب أن يعود إلى الحكم . وأما أنه سيضطهدنا ولن يحسن القيادة .

فهذه مسألة داخلية بحجة وسنعرف في حينها كيف نقوم بواجبنا .

هكذا يا حضرات المستشارين مثلت بلادي في عاصمة الإنجليز وهذه هي أقوالى وتصرفاتى فهل كف الوفد ورئيسه عن التشهير بى . اللهم لا

بل لقد أوعزوا إلى مندوبيهم في باريس فدبروا حركة ضدى وأرسلوا إلى جريدة الجهاد وإلى الصحف تلغرافاً بهذا المعنى نشرته الجرائد الوفدية تحت العناوين الضخمة وهاكم ما جاء في هذه البرقية :

الطلبة المصريون في باريس بقاطعون مندوبى جمعية مصر الفتاة . تلغراف منهم إلى صاحب الدولة الرئيس الجليل

تلقي صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا من الطلبة المصريين في باريس التلغراف الآتى :

«جمعية الطلبة المصريين في باريس التى انتخبت في نوفمبر الماضى لنشر الدعاية للقضية المصرية قررت بإجماع الآراء أنها ترفض التعاون مع مندوبى جمعية مصر الفتاة الذين حضروا إلى أوروبا وقررت بإجماع الآراء أنها ستعمل لخدمة القضية المصرية تحت رعاية الوفد المصرى .

## تحيّنا لهم بعد أن وصلوا إلى الحكم البرقية

وهكذا كان تاريخ الوفدين معى مقابلة الإحسان بالإساءة على طول الخط .. ولكنكم ستندهشون يا حضرات المستشارين إذا عرفتم أن هذه الخصومة على شدتها لم تغير من سلوكى نحوهم ذلك لأنهم ما بقوا خارج الحكم فهم يمثلون فى مصر قوة المعارضة والتي يجب أن نظاهرها جميعاً وأن نأخذ بناصرها ما بقى يتركز فيها عواطف الأمة وأمانها الوطنية .

ولذلك فعند ما ألقى الوفد عصا التسيار وحصل على بغيته وهى الحكم وأزمة الحكم . وأعلن برنامجهم الفضفاض المغرى والملىء بالوعود الطيبة لم أتردد لحظة فى أن أبعث إلى النحاس باشا برقية أهنته فيها على تقليده زمام الحكم وإليك نص البرقية :

### نص البرقية

(إن تقلدكم الوزارة انتصار باهر للحياة النياية وتوطيد لدعائم الدستور يقابله المصريون جميعاً بفرح وابتهاج وإنى لأتمنى لحكومتم كل توفيق فى تحقيق برنامجها الذى تفضلتم بإعلانه والمجد لمصر) .

وقد جاءنى من النحاس باشا بطاقة شكر على هذه البرقية وقد شفعتها بمقال فسرته فيه الشعور الذى يدفعنى للوقوف من الوزارة هذا الموقف ونشر هذا المقال فى الصرخة الصادرة فى ١٤ مايو سنة ١٩٣٦ بعنوان الوزارة الجديدة وكيف نستقبلها تهتة وترحيب وصراحة وشدة فى الحق وقد جاء فى المقال المذكور ما يأتى :

(وأخيراً جاءت الوزارة الدستورية وزارة الأغلبية وزارة الوفد فحق على كل مصرى الابتهاج والفرح ولنا فى ذلك عدة أسباب أما أول هذه الأسباب فقد أجبت به يوماً على السيرجون وارد لوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الإنجليزى عندما كنت فى لندره فى الشتاء الماضى فقد عرف الرجل من تقارير وزارة الخارجية البريطانية أننى لست على وفاق تام مع الوفد فأرى أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستغل ذلك فسألنى :

وعلام تتحمسون لدستور سنة ١٩٢٣ وأنتم وانقون أنه يرفع الوفد إلى الحكم بأغلبية ساحقة ، وأنه يقضى الأكفاء عن الحكم ؟ فاجبته إجابة صريحة قاطعة اضطر الرجل أن يحترم ما فيها من وطنية ومنطق وإخلاص لمصر وحرية مصر . قلت له إن دستور مصر

مظهر من مظاهر استقلال مصر وسيادتها فكل عدوان على هذا الدستور إنما هو عدوان على استقلال مصر قبل أن يكون عدواناً على الدستور . وإذن فقد وجب على كل مصرى أن يدافع عن الدستور دفاعه عن الاستقلال وإلا كان مفرطاً وخائناً ومارقاً وإني لأتمنى أن أرى أعدائي يتحكمون فى باسم استقلال مصر وسيادتها خيراً من أن أراهم منعماً مترفاً متمتعاً بالحرية فى ظل استقلال مصر المحطم وكرامتها المهذرة ..

أما ثانياً هذه الأسباب التى تحدو بى للترحيب بوزارة الأغلبية فهو ما يحدثه من الثقة من نفوس أفراد الشعب وشك خصومهم فى إمكان التغلب على إرادتهم فالיום يشعر كل مصرى أن له إرادة وأن له قدرة وأن كفاحه الطويل وثباته قد نصره وحقق أمانيه وإذن فالكفاح .. الكفاح والثبات .. الثبات دائماً أبداً .

واليوم يشعر المصريون أنهم ليسوا هؤلاء الضعفاء الذى لا يملكون لأنفسهم قليلاً أو كثيراً .

واليوم يعرف من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على إرادة الأمة وكرامة الأمة أن مصيرهم الهزيمة والاندحار .. وهذا المعنى وحده يكفى كىما يجعلنى أهتف من أعماق قلبى اليوم بالدستور وانتصار إرادة الأمة وفى بلد مثل مصر يحاول الإنجليز أن يسيطروا على حريتها وأن يتدخلوا فى مرافقها . فى بلد مثل مصر مغلوبة على أمرها يراد بها أن تبقى طويلاً فى الإسار والتخلف . ليس غير الحياة الدستورية من يلقى الضوء على جميع تصرفات الحكومة ويجعلها تحت رقابة الشعب ونوابه .. ليس غير الدستور تنطوى فيه الآراء الحرة وتنطلق الأقلام وترتفع الأصوات الداوية تهيب بالأمة أن تنهض وترقى وأن تحصل على حقوقها وهذا هو ثالث الأسباب الذى يحدو بى ويكل مصرى أن يقابل تقليد الأغلبية للحكم بالابتهاج والترحيب . فما بالك وقد أعلن رئيس الأغلبية برنامجاً أصرفه على إتمام الاتفاق مع إنجلترا وتسوية المسائل المعلقة التى تشوب استقلال مصر وأنه سيضمن العدالة والحرية لجميع الأحزاب على السواء وأنه سيصلح فى كل مكان وأنه سيجعل محور اهتمام الحكومة خاصاً بالفلاح .. وكل هذه مسائل لا يسعنا إلا أن نقابلها بالابتهاج والترحاب وإلا كنا خائنين بعهودنا أن نمجد كل ما فيه خير لمصر وتحقيق لاستقلالها ورفاهيتها .. فالاتفاق مع الإنجليز بما يحقق استقلال مصر وسيادتها الكاملة غير المشوبة هو كل ما يصبو إليه المصريون من الإسكندرية حتى خط الاستواء . وهو أهم ما نصبو إليه نحن جنود مصر الفتاة والذين نريد أن تفرغ مصر من بعض مشاغلها مع الإنجليز وأن تتحلل من كثير من قيودها حتى ننتقل إلى الأمام فى تنفيذ برنامجنا العتيد الذى نريد به



أن نحبي مجد أمة وأن نشرق على العالمين ومن ذا الذي لا يطرب لسماع كلمة العدالة وهي نور الله ورحمته على العالمين .. من الذي لا يبايع الوزارة على نشر العدالة والحرية والمساواة بين الجميع . ومن الذي لا يتمنى على الله أن يوفقها في تحقيق هذا الذي أخذته على عاتقها ؟؟

بارك الله في وزارة تتعهد أن تجعل الفلاح محور اهتمامها فالفلاح هو مصر وكل تجاهل للفلاح تجاهل لمصر وكل تقصير في حقه تقصير في قضية الوطن والإنسانية .. فنحن نهني الوزارة الجديدة ما بقيت عاملة على تحقيق هذا البرنامج .. نهني الوزارة ما نشرت الحرية والعدالة وحققت المساواة نهني الوزارة ما عملت على استكمال مصر سيادتها وهذا هو العهد بيننا وبينها ولعنة الله على من يحنث بالعهد أو يخرج عليه . أجل والله فلن نسكت على ضيم ولن نتغاضى عن تفريط ووالله لنكون كما كنا دائماً أشدء في الحق لا يثينا بطش أو وعيد ولا يؤخرنا إرهاب أو تهديد .

ونسأل الله أن يهدينا جميعاً سواء السبيل والمجد لمصر .  
يا حضرات المستشارين

يجب أن نقف طويلاً إزاء هذه المقالة ولا بد أن تضمّنوا حكمكم إشارة إليها لأنني أعتقد أنني في هذه المقالة قد ضربت رقماً قياسياً في التسامح وفي تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . أعتقد أنني في هذه المقالة قد فعلت ما لم يعتد الناس أن يفعلوه في مصر . فلقد أوديت في كل مرحلة من مراحل جهادى واتهمت بأبشع التهم وأقذرها . ثلاث سنوات كاملة وجرائد الوفد تنهش في عرضى ولجانه تعمل ضدى . فلم يمنعنى ذلك من المساهمة في إرجاعهم إلى الحكم . ولما جاءوا إلى الحكم وأعلنوا برنامجهم وكان هذا البرنامج لا يحوى إلا الخير . والخير المطلق فلم يسعنى إلا أن أقف في صف المهثين وأن أشارك مع أكثر أنصارهم حماسة لهم في الترحيب باستقبالهم . فهل يمكن أن أتهم بعد ذلك بأنى سبى النية نحو هؤلاء الوزراء أو أنى أكيد لهم أو لا أحب الخير لهم ؟ إننى أدع الجواب على هذا السؤال لحضراتكم .

### في مفترق الطرق

وقفت إذن من الوزارة موقفاً سليماً لا تستطيع إلا أن تشكرنى عليه ولكنى أريد أن ألقت نظر حضراتكم إلى أن هذا الموقف هو آخر ما كان يمكن للوفد أن يحصل عليه منى ذلك أنه قد انتقل إلى الحكم وأصبح مطالباً بأن يؤدى أمانة الحكم كاملة فإن لم يفعل

فقد وجبت محاربته لأن التساهل في هذه المرة يكون تفريطاً وخيانة ولم يكن في حسابي مطلقاً أن أخون بلادى .

لقد تساهلت مع الوفد خارج الحكم لأن وجوده في المعارضة كان يحتم على كل مصرى أن يشد أزره إلى حد ما لأنه كان يمثل ناحية الكفاح من مصر أما الآن وقد أصبح في الحكم فلا مناص من مراقبته بشدة فإن قام بواجبه وحقق وعوده فله منا كل ترحيب وإكبار . أما إذا فرط في الأمانة ولم يحسن السهر على برنامجيه فلا ينتظر منا إلا شدة النقد خصوصاً من جانبنا نحن الذين تساهلنا معه بالأمس وأفرطنا في التساهل على أمل أن يتداركوا موقفهم في اللحظة الأخيرة ..

ولذلك لا أكتب عنكم يا حضرات المستشارين أنني وقفت لأصحابنا بالمرصاد ولم أكن على استعداد مطلقاً بعد كل الذى فعلت واحتملت أن أتأهون معهم في نقد أو أسامحهم في تفريط .

### هدنة ورحلة في الصعيد حظر القميص الأخضر

على أن الوزارة وليت الحكم وكانت مشغولة بالمفاوضات وكانت البلد كلها مشغولة معها بالمفاوضات فأحييت أن أبتعد عن القاهرة حتى تنتهى هذه المفاوضات ورأيت أن أشغل نفسي بعمل فيه خير لبلادى من غير أن يكون فيه مساس بالوزارة أو منافسة لتصرفاتها .. فلم أجد أمامى إلا أن أنقذ مشروعاً قديماً كان يشغل بالى دائماً وهو أن أعرف على مصر بلدة وقرية قرية .. وأختلط بالفلاح وأقف على حقيقة حياته وأردت من ناحية أخرى أن أعطى مثلاً للشباب في التقشف والعزيمة فرأيت أن أقوم بهذه الرحلة مشياً على الأقدام كما يكون خير درس لاحتمال المشاق في سبيل أداء الواجب وقضاء على الترف والرفاهية اللذين انغمس فيهما الشباب وأنتم ترون أن الرحلة بهذه الحدود وفي نطاق هذا البرنامج هي رحلة اجتماعية تهيئية وهي بعد ذلك لا تتعرض للوزارة بسوء ولا تنالها بشر وقد حرصت على أن أعلن ذلك في برنامج الرحلة وأن أبلغه لوزارة الداخلية . وكنت أظن أن خطتي مع الوزارة قد أثبتت لها بصفة قاطعة حسن نيتي ورغبتى في مهادنتها .

ولكن كم كانت دهشتى عظيمة عندما استدعانى وكيل وزارة الداخلية حسن بك فهمى رفعت وأبلغنى بصفة رسمية أن ارتداء القميص الأخضر في هذه الرحلة ممنوع .

كانت مفاجأة مدهشة يا حضرات المستشارين ولكنها مفاجأة تزول سريعاً عندما يتذكر الإنسان موقف الوفد منا دائماً أبداً وكيف قابل الإحسان بالإساءة قلت لوكيل الوزارة ولكن هذا الطلب لم تطلبه منا أى وزارة من الوزارات السابقة وعددها ثلاثة ومن بينها وزارة العهد البغيض كما تقولون ولم يكن فى مصر أقصة زرقاء فكيف تطلبون منى ذلك اليوم فى عهد الدستور والحرية وبعد أن أصبح للحكومة أقصة زرقاء . فقال الوكيل هذه هى الأوامر . ولقد رفضت بطبيعة الحال إطاعة هذه الأوامر فليس فى مصر قانون يحتم على إطاعتها ولذلك فقد قلت للوكيل أصدروا قانوناً يحرم ارتداء الأقصة الملونة وأنا أول من يطيعه أما اليوم فلست أعرف كيف تستطيعون أن تمنعوني من التمتع بحق مباح .

وكان ذلك أول اصطدام بينى وبين الحكومة وكما ترون يا حضرات المستشارين أن الحكومة قد بلغت فيه إلى أبعد حد من التجنى . فالتحاس باشا الذى أعلن فى برنامجه أن لا فرق بين حزب وحزب وأن الوزارة ستوزع الحرية والعدالة على الجميع على السواء إذا بها تحرم علينا ارتداء قميصنا الأخضر فى الوقت الذى تؤلف فيه أقصة زرقاء من أحط العناصر وتشجعهم وتيسط عليهم نفوذها على الرغم من أن تقارير البوليس تطفح بأن ٧٠ فى المائة من هؤلاء الزرق هم من المتشردين والمشبهين الذين رأوا فى القميص الأزرق حماية من البوليس والقانون .

هؤلاء يا حضرات المستشارين هم الذين تشجعهم الحكومة أما الأقصة الخضراء والتي لا يرتديها إلا طلاب الجامعات وخيرة الشباب . فهذه قد أصبحت محرمة . ومحرمة بغير قانون وهذه هى المساواة فى توزيع الحرية والعدالة كما يفهمها صاحب المقام الرفيع .

### اضطهاد فى الصعيد - استجواب

ما كنت لأحترم هذا التعسف السخيف ولذلك فقد مضيت إلى رحلتى بالقميص الأخضر ووصلنا إلى الشلال وهناك عرفنا ما أعدته الحكومة لنا من تضيق وإرهاق فقد حاصرتنا فى منطقة خلوية ومنعت كائناتنا من كان من الاتصال بنا .

وفى سبيل منعنا من الدخول إلى المدن ارتكبت الحكومة كل المخالفات التى لا يمكن أن ترتكبها حكومة فلقد حيل بيننا وبين الأكل أحياناً ... واعتدى على بعض إخواننا اعتداءً مجرماً لا لشيء إلا لأنهم حملوا إلينا طعاماً أو رغبوا فى الاتصال بنا ... ومنعنا من الاتصال بالتلغراف . ومنعنا من صلاة الجمعة بالقوة . لم نكن نسير خطوة إلا والبوليس

يُحاصرنا من الأمام ومن الخلف بسياراته ولم يكن يسمح لنا الا بمقدار ما نجلس للاستراحة  
ثم نقوم لتعاود السير وهكذا حولت الحكومة رحلتنا إلى أشغال شاقة تلتخص في السير  
المضني تحت أشعة الشمس ..

وصدقوني يا حضرات المستشارين إذا قلت لحضراتكم أن ذلك كله لم يزدني إلا  
إصراراً على إتمام الرحلة وتشبثاً بها ورضاءً عنها .

وترامت أخبار اضطهادنا إلى مجلس النواب وقابلتها الأمة كلها بالاندهاش أن يتم هذا  
في عصر الدستور والحريات ولذلك فسرعان ما تقدم استجواب من المرحوم هارون باشا  
أبو سحلي إلى وزير الداخلية وهاكم نص الاستجواب وهو أول استجواب قدم للوزارة  
الدستورية ولذلك فقد كان رقمه ( ١ )

« هل أصدر دولة وزير الداخلية أمراً بمنع سفر أعضاء مصر الفتاة في رحلة إلى  
الصعيد ما داموا يلبسون القميص الخاص بهذه الرحلة  
وهل سمح دولته بعد ذلك بسفر هؤلاء الأعضاء بهذا القميص حتى وصلوا إلى أقصى  
الصعيد وعسكروا في خيام لهم بالشلال ؟

ثم هل عاد دولته فأمر بمحاصرة هذه الخيام بحرس دائم من البوليس يرد عنها الزائرين  
ويحول بين هؤلاء الشبان وبين التجول والاتصال بالناس ؟

وهل أصدر أمراً بضرب الزائرين لهذه الخيام بالسياط على وجوههم وباستعمال الشدة  
والعنف معهم ؟

وهل سمع دولته أن مدير أسوان قد وزع على أعضاء الجمعية العسكرية في الشلال  
قصصاً كاذبة كما يلبس عساكر البوليس حتى لا يشاهد أعضاء هذه الجمعية بالقمصان  
الخضراء الخاصة بهم فلما لبسوها وذهبوا إلى أسوان أعادهم إلى الشلال بالقوة ؟

إذا كان دولته قد أصدر هذه الأوامر فهل هناك في قانون الدولة ما يبيح للداخلية أن  
تمنع أحداً كائناً من كان من لبس الذي يريده والإقامة في المكان الذي يختاره ونشر  
الدعوة التي يهواها مادامت في حدود القانون والدستور ؟

وهل يعلم دولته أن رئيس الوزارة قد استعرض هو ووزير الزراعة شباناً يلبسون قصصاً  
زرقاء في سيدى جابر وأنه أعلن رضاءه عن نظامهم ؟

فإن كان دولته يعلم ذلك فهل هناك نص في الدستور أو القانون يبيح لجماعة ما يجرمه على جماعة أخرى ؟

هارون سليم أبو سحلي  
نائب فرشوط

هذا هو الاستجواب وهذا نصه وأنتم ترون منه كيف أنه يخرج مركز الوزارة الدستورية ويهدم دعاويها في الحرية والمساواة ولذلك فقد وقع الاستجواب منهم موقع الصاعقة وأخذوا يتدبرون في كيفية الرد عليه .

### كيف دبروا الرد على الاستجواب أولا

أخبرني موظف كبير في وزارة الداخلية .أحتفظ باسمه في الوقت الحاضر لأصرح به في القضية التي رفعتها على رفعة النحاس أطلبه بتعويض .أبلغني هذا الموظف أن رئيس الوزارة كلف وكيل وزارة الداخلية أن يعد له الجواب على هذا الاستجواب فأعد بالفعل ردا وقد قال في هذا الرد إن الحكومة لم تفعل شيئا مخالفا للقانون أو فيه اعتداء على الحرية . فهي لم تزد عن اتخاذ بعض الاحتياطات للمحافظة على الأمن والذي قد يهدده وجود هؤلاء الأشخاص وسط جموع الفلاحين الذين يدينون بالولاء للحكومة خصوصا وأن الحكومة الآن تتفاوض لتحقيق استقلال البلاد وكل إثارة للأمن في الآونة الحاضرة قد يكون فيه خطر على سلامة الدولة وهذا هو ما جعلنا نحمل هؤلاء الأشخاص بقدر الإمكان ونحول بينهم وبين إثارة الاضطرابات والفتن

هذا هو الرد الذي أعده على الاستجواب وكيل الوزارة وهو رد كما ترون فيه كثير من البراعة ومحاوله تغطية الموقف وسرعان ما أذيع هذا الرد بطريقة غير رسمية على الصحف الوفدية فنشرت جريدة كوكب الشرق في عددها الصادر في ٣ يونيو سنة ١٩٣٦ النبذة التالية تحت عنوان : «حول منع شبان من التجوال في الصعيد » تحدث بعض الصحف عن منع أعضاء جمعية مصر الفتاة من الطواف في بعض أقاليم الوجه القبلي وأشار بعضها إلى حرية المصريين في الإقامة والتجوال . ونحن لا نعارض فيما ينبغي للهيئات والأفراد من الحرية في نطاق الدستور والقانون .

ونحن نستبعد جدا أن تكون فكرة حظر التجوال أو الإقامة أو الحد من حرية أحد فيها قد خطرت لأحد من ولاية الأمور وليس أدل على ذلك مما جاء في إحدى الصحف

التي تناولت الموضوع في صباح اليوم من قولها إن مدير الأمن العام أرسل للجمعية يحظر على أفرادها الطواف بلباسهم الخاص ولكن دولة وزير الداخلية رأى أن لا مانع من تجوالهم بأى لباس يريدون وفي هذا رد واضح كاف على الذين يحاولون أن يخرجوا هذا التصرف عما هو حقيق به من موافقته للقانون والدستور .

هذا ما نشر في جريدة كوكب الشرق الحكومية . وإليك ما نشر في جريدة البلاغ في نفس التاريخ :

(نشرنا أمس وفي الأيام الماضية البيانات التي جاءتنا من جمعية مصر الفتاة عن المعاملة التي يعامل بها رئيس الجمعية وأعضاؤها في رحلتهم إلى الصعيد . واليوم سألنا الدوائر الرسمية ووزارة الداخلية عن هذه البيانات وعن منع الجمعية من لبس القمصان الخضر ومنعها من الرحلة ثم عن ضرب الأشخاص الذين اتصلوا بالجمعية في خيامها المضروبة في الشلال سألناها عن ذلك كله فكان جوابها التكذيب القاطع) .

وعلى هذه الصورة يا حضرات المستشارين نشرت الجرائد كلها تكذيباً للاضطهادات التي تحمل بنا وذلك بإيعاز من وزارة الداخلية ليكون ذلك تمهيداً للرد الرسمي الذي سيقال في البرلمان .. ولكن الموظف الكبير أخبرني أن وكيل الوزارة عندما قابل النحاس باشا وعرض عليه هذا الرد لم يعجب النحاس باشا وقال له « لا ... لا دانا عندى رد يقضى على الجماعة دول نهائيا .. ولم يسع وكيل الوزارة إلا أن يباطئ رأسه وأن ينتظر كغيره من المصريين الرد الذى سيدلى به النحاس باشا في البرلمان وإن كان هذا لم يمنعه من أن يودع رده في دوسيه الاستجواب ولقد تحدثت الحكومة في القضية التي رفعتها على النحاس باشا أن يقدموا هذا الدوسيه فرفضوا لثلا ينكشف المستور .

### القبلة الأخيرة - الخيانة العظمى

وهكذا انتظرنا اليوم الموعد لنسمع رد رئيس الوزراء فلما أن جاء اليوم ووقف رئيس الوزارة وقال كلاماً طويلاً عريضاً يؤكد به صحة المعلومات التي جاءت في الاستجواب ولكنه قال في مقدمة الاستجواب ما يأتي :

« ثبت لوزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة الدولة . ولذلك قررت الوزارة حرصاً على مصلحة الدولة أن تمنع تجوال أعضاء هذه الجمعية في القرى بزي خاص وقد بذلت لرئيس الجمعية النصيحة الودية للعدول عن السفر إلى الصعيد فلما لم يستمع لهذه النصيحة وسافر هو ومن معه إلى أسوان لم يتعرض لهم

أحد ولكن اتخذت الإجراءات للحيلولة بينهم وبين التجوال في القرى بزي خاص والاتصال بالأهالى وذلك للسبب الذى بيناه » .

إلى أن قال :

« وإن هذه الجماعة التى تنطوى أغراضها وعلاقاتها على ما يضر بمصلحة الدولة الكبرى لا يصح مقارنتها بجماعة الشبان الذين يلبسون القمصان الزرقاء والذين تقوم مبادئهم على احترام النظام والقانون والعمل لخير البلاد ويتمون لهيئة سياسية مسئولة » .

هل سمعتم الكبيرة يا حضرات المستشارين ثبت لدى وزارة الداخلية أن مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة وطنها !؟

يا للهول ويا للفرع .. مصر الفتاة ترتكب جريمة الخيانة العظمى بكامل أركانها ! .. مصر الفتاة توصم بأشنع وصمة يمكن أن يوصم بها إنسان .. وليس من بين النواب إلا وله صديق أمين أو أخ أو قريب يتصل بهذه الجمعية . ولذلك فقد ارتعد النواب فرعاً لهذا الاتهام ..

فوقف الأستاذ فكرى أباطة وقال :

« إن إجابة دولة رئيس الوزراء يجب أن تحاط بالتقدير اللائق بها فإنها دون شك مستندة إلى تقارير رسمية . ولكن هذه الإجابة تضمنت اتهام جمعية مصر الفتاة بشمة خطيرة وهى اتصالها بدولة أجنبية مما أهم أعضاء الجمعية وأصدقاءها لأن كثيراً من شبابنا أعضاء فيها . فإذا ثبتت التهمة وجب أن نحمل أبناءنا من أخطارها .

لهذا أكون شاكرًا إذا أجل الاستمرار فى المناقشة على أن تودع الحكومة التقارير التى استندت إليها فى إجابتها ليطلع الأعضاء بأنفسهم عليها فإذا ثبتت سحوقها هذه الجمعية سحوقاً لا شفقة فيه ولا رحمة . أما إذا كانت محل نظر استطاع النواب أن يوجهوا المسألة وجهة أخرى لاسيما أن هذه التقارير وضعت فى العهود السابقة وهى عهود طالما طعنا فى تقاريرها . فأرجو ملحاً أن تفكروا فى كلامى وأن تأخذوا المسألة بالتأنى والتريث » .

دولة النحاس باشا - الوزارة مثبته مما قدم إليها من الأدلة لكن هذه الأمور تتعلق بسياسة الدولة العامة فلا يمكن أن تطلع أحدًا على تقاريرها ولكن الوزارة التى أعطيتها نفقتكم والتى تعمل لمصلحة الجميع لا لمصلحة جماعة دون أخرى تتحرى وجه الحقيقة فى كل ما يعرض لها فإذا ما وجدت فيه ما يتنافى مع المصلحة العامة عملت على تلافية . أما أن نقول لحضراتكم من هى هذه الدولة التى تعمل تلك الجماعة لمصلحتها أو

لحسابها أو ما هي الوسائل التي تلجأ إليها أو بأى مال تعيش فهذا مستحيل ولا يمكن للحكومة أن تبوح به لأى شخص أو هيئة مهما كانت الظروف .

الأستاذ فكرى أباطلة - وإذا اقترحت عقد جلسة سرية مثلاً ألا يمكن الإفشاء بهذه البيانات والإطلاع على التقارير  
دولة النحاس باشا - ولا هذا أيضاً لا يمكن أن أعرض هذه التقارير على أى هيئة وبأى شكل كان .

الأستاذ عبد الجيد إبراهيم - أتقدم بكل أدب للدولة رئيس الحكومة بعد هذا البيان الذى أدلى به فأسأله كيف يسمح لهيئة قد أقتنع بسوء نواياها بأن تتجول فى المدن وفيها من البسطاء والسذج مثل ما فى الريف .. كيف تحمى الحكومة الريف من شرور هذه الجمعية مادامت متحققة منها ثم تتركها تعبت فى المدن . وكيف تقف إجراءاتها عند حد منع أعضاء الجمعية من التجوال بأقصصهم الخضراء ؟ . إن مسألة القمصان مسألة شكلية والواجب أن يقدم هؤلاء الأشخاص للمحاكمة حتى يقول القضاء فيها كلمتهم .

دولة النحاس باشا - الذى يراه النائب المحترم من تقديم أعضاء الجمعية للمحاكمة يتنافى مع ما قدمت من أننا لا نريد أن نقدم أدلة لهذا المجلس أو لأى هيئة أخرى وكل عملنا أن نمنع الجريمة قبل وقوعها .

## حقيقة ما فعله رئيس الوزراء - قذف

يا حضرات المستشارين

نقف عند هذا القدر من المناقشة لنبين ما الذى فعله صاحب المقام الرفيع وأى ظلم قد أوقعه بنا .

صاحب المقام الرفيع يقرر أن مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ويؤكد ذلك للمجلس ويكررها مشفوعاً بكلمة الثبوت والثبوت لا يكون إلا بعد تحقيق وتدقيق ثم يكون الثبوت . وإذن فقد حكم علينا صاحب المقام الرفيع حكماً لا نقض له ولا إبرام فقد ثبت لدى وزارة الداخلية .

لقد قرر قانون العقوبات يا حضرات المستشارين أن كل من نسب إلى شخص آخر أموراً لو صحت لأوجب احتقاره عند مواطنيه أو محاكمته بمقتضى القانون يعد قاذفاً ويحكم عليه بعقوبة الحبس .



فما الذى فعله صاحب المقام الرفيع ؟ ألا ينطبق على القذف فى أخطر درجاته ؟ فالمقام الرفيع يتهمنا بأننا نخون بلادنا فى مقابل أجر معلوم وهذه تهمة تعاقب عليها القوانين بالإعدام . وتجعل دمنا مهدوراً وشرفنا أحط من النعال ومع ذلك فلم يتورع النحاس باشا من أن يلقى هذا القذف فى مقام رسمى الأمر الذى يجعله أكثر خطورة . فلما طولب بالدليل اعتذر واحتج بأسرار الدولة فاقترحوا عليه جلسة سرية فامتنع أيضاً وظل محتماً بالسرية .

فلما طلب منه أن يقدمنا للقضاء رفض أيضاً واحتمى بالسرية ..  
وإني أترك لحضراتكم تقدير رأى رئيس الوزراء فى أكبر قضية الدولة فهو لا يراهم جديرين برعاية السر الذى يعرفه دولته ومعه بعض صغار الموظفين .

### لقد ظلمنا وسدت فى وجوهنا أبواب الدفاع

وهكذا قذفنا النحاس باشا بغير دليل حتى يقدر الناس على الأقل قيمة الدليل ..  
بأشنع الجرائم بغير دليل أو الاستعداد لتقديم الدليل . وبدون أن يعطينا فرصة للدفاع عن أنفسنا فهاذا تقولون فى هذا يا حضرات المستشارين ؟ .

لكل مصرى عرض وكرامة يصبونها القانون ويحميها الدستور فن حق أى مصرى يُطعن فى عرضه أن يدافع عن شرفه ..

فهاذا تقولون فى هذا المصرى الذى يُطعن بأفطع طعن يمكن أن يوجه إلى رجل ثم تغل يده ويربط لسانه كي لا يدافع عن نفسه ..

لقد توجهنا إلى النائب العام عقب هذا الاتهام وطلبنا منه أن يحقق معنا فرفض ..  
طلبنا رفع الدعوى العمومية على النحاس باشا فرفض بحق لأن النحاس باشا متمتع بالحصانة البرلمانية ..

وإذن ماذا نفعل يا حضرات المستشارين ولما نلجأ للدفاع عن كرامتنا وشرفنا وتصوروا الظلم الذى يمنعنا من دفع الاعتداء فكرت فى دعوة فريق من نواب الأمة ورجال الصحافة كيما ألقى عليهم بياناً عن الحادث فحال النحاس بالقوة بينى وبين عقد الاجتماع فهاذا كان يمكن أن أفعل

أنا مصرى شريف يا حضرات المستشارين ومن حق أن أدافع عن نفسى ويجب أن يبيح لى المجتمع فرصة الدفاع وإلا كان مجتمعاً مبنياً على القوضى والاستبداد .

لقد كان من نتيجة هذا التصريح أن أخذنا نبدوا أمام الناس كمجرمين .. كان من نتيجة هذا التصريح أن شرع كل مصرى يعتدى علينا فلا نجد بوليساً يجرؤ على مؤاخذته ولا نيابة تجرؤ على محاسبته لأنه يضرب في أشخاص قال عنهم رئيس الوزراء إنهم خونة صنيعة دولة أجنبية .

تصوروا هذا الجحيم الذى عشناه فى هذه الأيام نتيجة لهذا التصريح المشؤم ثم حاولوا اليوم أن تؤاخذونا على كلمة واحدة مما نوجهها للنحاس باشا .

لا أظنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم هذه الاضطهادات العنيفة التى حدثت فى أنحاء مصر عقب إلقاء التصريح وكان فيها أعضاء مصر الفتاة محل اعتداء .

### اتهام باطل

ولو أن هذا التصريح كان له ظل من الواقع إذن لكان الأمر .. أما أن يكون ليس إلا حلقة جديدة من حلقات قذف مصر الفتاة فهذا هو الذى لا يحتمل وهذا هو ما يؤكد على رئيس الوزارة سوء القصد .

لم يكن هذا التصريح إلا تصريحاً مفتعلاً من الألف إلى الياء ولقد تحديت النحاس باشا بخصوص هذا الاتهام فى هذه المقالات التى أحاكم عليها اليوم فتحاشت النيابة أن تحاسبني عليه واختارت عبارات أخرى من المقال ظناً منها أن هذا سيبعد موضوع الاتهام عن المرافعة وقاتها أو فأت الحكومة أن هذا الاتهام هو كل المرافعة ..

النحاس باشا غير صادق فى ما نسبته إلى مصر الفتاة أقولها بأعلى صوتى فى هذا الحرم وقد جئت إلى هنا كيما أقولها وأتحدى رئيس الوزارة أن يثبت اتهامه .. النحاس باشا غير صادق فى هذا الاتهام .. كما كذبت جرائده من قبل عندما قالت عنا أنا صنيعة للإيراشى والنحاس باشا غير صادق كما كذبت جرائده يوم أن اتهمتنا بسرقة مشروع القرش . سلسلة متصلة من الادعاء ومن التهم الباطلة التى وجهت إلى مصر الفتاة والتى رأيتم موقفنا منها وكيف كان كله تسامح فى تسامح . ذلك لأن النحاس باشا لم يكن فى ذلك الوقت إلا رجلاً غير مسئول . كان رجلاً حزيباً له أن يقول ما يريد ولخصومه أن يقولوا فيه ما يشاءون . أما اليوم والنحاس باشا يحسب نفسه أنه رئيس حكومة لا يمكن الوصول إليه . والنحاس باشا يريد أن يحتفى بثقة البرلمان كيما يقضى على خصومه فيجب أن يعرف أن خصومه أقوى من أن تردهم هذه الحواجز .

ولذلك فقد كان لا مناص من أن أتحدى النحاس باشا وأجابه . كان لا مناص من

أن أقف مع النحاس أمام القضاء فيما ثبتت خيانتى وإما أثبت براءتى . كان لا مناص من أن أعمل على تبرئة ساحتى من هذا الاتهام ولا يمكن أن توجد قوة فى الدنيا ولا عدالة ولا قانون ينكر على حقى فى الدفاع عن نفسى ولقد رأيت كيف سدت أمامى جميع الأبواب التى كان يمكن أن أطرقها . سد أمامى الطريق المفتوح أمام كل مصرى ليدافع عن كرامته بالشكوى إلى النيابة . سد أمامى الطريق المفتوح أمام أى منهم ليدافع عن براءته بتحقيق النيابة .

## حق الدفاع الشرعى

سد أمامى منبر الصحافة والنواب بحظر اجتماعى ومصادرة جرائدى . فإذا بقى أمامى لأفعله يا حضرات المستشارين كما أغسل كرامتى وأنتى عرضى . لم يبق أمامى إلا واحد من اثنين إما أن أغسل هذه الإهانة بالدم فأعمل على قتل صاحب المقام الرفيع وأعتقد أننى إذا وقفت بعدها أمام محكمة فلا يمكنها إلا أن تعتبرنى معذوراً . وإما أن ألجأ إلى هذا الطريق المتسامح الذى لجأت إليه والذى يتفق مع أخلاقى وثقافتى ونفسي وهى نفسية الحامى والقانونى ورجل العدالة فأنا اليوم جد متواضع فى دفاعى عن نفسى يا حضرات المستشارين . عندما لا يرى النحاس باشا ما يشكونى عليه إلا بضعة مقالات كتبها نقدًا له فى مسائل عامة .

فوالله لو لم أكتب ضد النحاس باشا إلا قذفًا وسبًا . لو لم أهاجم النحاس باشا فى مقالاتى إلا من أجل رد القذف بقذف مثله والسب بسب مثله لما كان لأحد فى العالمين أن يلومنى أو يؤاخذنى فالقانون يبيح فى مادة الدفاع الشرعى أن يقتل الإنسان من اعتدى عليه ومن ابتدر الآخر بالسب فقد أعطى الآخر الحق فى رد السب بمثله .

فأنا فى موقف الدفاع الشرعى يا حضرات المستشارين  
أنا اليوم أدافع عن عرضى وكرامتى

أنا اليوم أريد أن أسمع الناس جميعًا أننى لو كنت ذلك الذى قال عنه النحاس باشا إنه يعمل لدولة أجنبية لما وقفت هذا الموقف أصول وأجول وكل تهمنى أننى أطعن عليه . فما كان أغناه عن ذلك كله لو أنه كان صادقًا فيما قال : وما كان أقدره على إسكاتى إلى الأبد لو أن فيما ادعى ذرة من الصواب .

## دحض التهمة - إيطاليا

ولكن النحاس باشا ومن خلفه الحكومة أول من يعرفون عدم صدق هذا الادعاء وبحسبكم أن تعلموا أنهم أذاعوا وأشاعوا التهمة زاعمين أن الدولة المقصودة هي إيطاليا وراحت صحفهم تكرر هذه الدعوة المجرمة ووضعوا النشرات السرية تتحدث عن هذه الصلة كما انبث دعائهم يروجون لهذه التهمة في كل مكان . والحكومة تعلم قبل غيرها مقدار الخصومة التي بين مصر الفتاة وإيطاليا والتي نشأت بنشأة مصر الفتاة فهند العدد الأول للجريدة الصرخة ونحن لا نفتأ نندد بإيطاليا والاستعمار الإيطالي . ولقد أتيج لى مرة زيارة إيطاليا زيارة قصيرة فعدت منها وكتبت سلسلة مقالات اعتبرتها إيطاليا محرضة على الازدراء بها وتحقيرها فطلبت من وزارة الخارجية أن تتدخل فى الموضوع فما كان من الوزارة المذكورة إلا أن كلفت النيابة برفع الدعوى العمومية ولقد رفعت الدعوى العمومية بتهمة التحريض على كراهة إيطاليا وإليكم صيغة الاتهام .

## طلب حضور متهمين

فى القضية نمرة ٢٨٥٢ جنح عابدين سنة ١٩٣٤ نوع القضية جنحة  
نحن رئيس النيابة العمومية عن الحضرة الملكية بمحكمة مصر الكائنة بباب الخلق  
نكلف المحضر بأن يدعو

- ١ - أحمد حسين محام
- ٢ - أحمد الشيمى أفندى

فى الحضور بجلسة جنايات مصر التى ستنعقد فى المحكمة المذكورة فى يوم الخميس ١٣  
فبراير سنة ١٩٣٧ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً لحاكمتهما بمقتضى المواد ١٤٨ و ١٥٣ و ١٦٦  
مكررة ١٥٨ فقرة ثانية من قانون العقوبات المعدلة بمرسوم القانون رقم ٩٧ سنة ١٩٣١  
فى قضية اتهامه فى يومى ١١ و ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ بدائرة قسم عابدين حرضا على  
كره طائفة من الناس والازدراء بهم تحريضاً من شأنه تكدير السلم بأن ألف أولها مقالين  
بعنوان (أربعة أيام فى نابلى وفى روما أو لقد خيبت إيطاليا حسن ظنى بها) وثانيها تحت  
عنوان (نذير مصر الفتاة فى روما) بقصد نشرها بالجريدة وقام المتهم الثانى بصفته رئيس  
التحرير بنشر هذين المقالين مع آخر تحت عنوان (للعبرة . الاستعمار الإيطالي وطرابلس  
الغرب وفظائله) فى جريدة الصرخة فى الصحيفتين الخامسة والسادسة من العدد الثانى من  
السنة السادسة الصادرة فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ وفى الصفحة الرابعة من العدد رقم

٥٣ الصادر في ١١ أغسطس سنة ١٩٣٣ للذين نشروا ووزعوا وبيعوا في مدينة القاهرة وغيرها من بلاد القطر وقد تضمنت هذه المقالات تحريضاً على بغض الإيطاليين والازدراء بهم إذ نسب فيها أن تشيدهم يتضمن سباً وطعناً في الإسلام والقرآن الكريم وأنهم يضمرون شراً وحقداً للإسلام وأن قائدهم في طرابلس داس القرآن الكريم بقدمة وأنهم أقتلوا جميع الكتائب التي تعلم أولاد المسلمين أمور دينهم وأن جنرالهم أمر بقتل مئات من الطرابلسيين شر قتله بالقائهم من الطيارات وأنهم أغرقوا البعض الآخر في البحر بعد تكييلهم بالسلاسل والقيود الثقيلة وأن الإيطاليين يصبون على الطرابلسيين كل يوم الوبلات والآثام وأنهم يرتكبون النصب والسرقة وأنهم شعب متخلف وقدرتهم محدودة وأنهم سيعودون إلى مراكزهم قبل الحرب أمة هزيلة ضعيفة إلى غير ذلك مما دون في هذه المقالات» .

هذه هي التهمة التي نحاكم بها أمام هذه المحكمة فنحن متهمون بأننا نحرض على كراهية إيطاليا ونخصص جريدتنا للدعاية ضدها ومع ذلك فنحن في نفس الوقت نعمل لحساب إيطاليا : فهل ترون شناعة هذه الكبيرة التي رمينا بها

ومن المضحكات يا حضرات المستشارين أنني تقدمت للجنة العفو أطلب منها أن تصدر العفو عن هذه القضية فرفضت وحولتها إلى محكمة الجنايات لتنظرها . ولعل من العجب ومما يدلكم على سوء قصد هذه الحكومة أن النيابة لا تحرك هذه القضية مطلقاً على الرغم من أن واقعتها قد حدثت سنة ١٩٣٤

وربما سقطت هذه القضية بمضي المدة أو لعلها سقطت ومع ذلك فإن الحكومة التي رفضت أن تعفو عن هذه القضية لا تريد في نفس الوقت أن تنظر وأن أحاكم لأن مثل هذه المحاكمة من شأنها أن تظهر لكل مصرى كذب اتهام النحاس وإذن فلنترك هذه القضية مؤقتاً وهأنذا أحاكم في قضايا عن وقائع حدثت منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أما هذه القضية التي كان يجب أن أحاكم عليها من ثلاث سنوات فإزالت معلقة في عالم الغيب وما ذلك إلا لسوء القصد والرغبة في الكيد

### حملة الاضطهاد والإرهاب

كان هذا التصريح الذي ألقى في مجلس النواب مقدمة لحملة ضخمة من الاضطهاد والإرهاب . فهو أولاً قد أحدث أثره المطلوب في نفوس أنصار الحكومة . ويكنى لتعرفوا أثر هذا التصريح أنني كنت عند إلقائه في مدينة قنا وكنت نازلاً طرف أحد الأشراف

فجاءت الإشاعات بأن الرد الذى سيلقى فى مجلس النواب سيتضمن إثبات اتصالنا بدولة إيطاليا . فما كان من مضيفنا إلا أن أقسم أنه إذا صح هذا وأثبت النحاس باشا أننا خونة لبلادنا فلن يقنع بأقل من قتل أحمد حسين ذلك أنه ما كان يتسامح فى حق بلاده وفى حق كرامته بحيث يستضيف خائناً لبلاده.

انظروا إلى أى حد كان يمكن أن يكون تأثير هذه الفرية . هذا هو شخص أنا ضيفه كان المفروض فيه أن يحمينى فإذا به يقسم أن يكون أول المنتقمين منى .

هذا تصريح يا حضرات المستشارين ألقى عمداً كما يهدر دمنا ، ولقد كان . فحدثت عقب هذا التصريح هذه المجازر فى كل بلاد القطر . فى كل بلد وفى كل قرية كان أعضاء مصر الفتاة محل عدوان ومحل إيذاء . فى القاهرة حدث أثناء اجتماع فى مسرح برنتانيا أن انقضت كتيبة هائلة من الأقصة الزرقاء تحت سمع البوليس وبصره وأمعنت فى أعضاء مصر الفتاة ضرباً وجرحاً وتقتيلاً ثم كانت النتيجة أن اعتقل المصابون من مصر الفتاة باعتبارهم مذنبين متهمين .

وفى دمنهور .. وفى كفر الزيات وفى منف وفى بليس وفى الزقازيق وفى جميع بلاد القطر انقض الوفديون على الفتيين وهاجموهم فى عقر دارهم . وعت الفوضى فوقعت قتلى فى دمنهور وكفر الزيات فاعتبر أعضاء مصر الفتاة هم المسئولون واقتادوهم إلى السجون بتهمة القتل . فأصبح لنا تهمة مزدوجة وتلك أننا قتلة وأننا نخون بلادنا لحساب دولة أجنبية وعبئاً كنا نبحت عن ملجأ نختمى به . عبئاً كنا نلجأ للبوليس . فن ذا الذى يحمى خونة قال عنهم الوزراء أنهم كذلك ؟!

لا عرض لنا لا كرامة لا أمان . هذه هى الحالة التى وضعنا فيها النحاس باشا بتصرجه عامداً متعمداً .

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد فقد صدر أمر وزارة الداخلية بغلق دور مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر الأمر الذى لم يحدث له سابقة فى التاريخ فأصبحنا بذلك وصمة فى جبين الحياة المصرية أو بالأحرى أصبحنا جماعة من المجرمين الذين لا يحق لهم أن يعيشوا كما يعيش الناس . ومع ذلك وبعد هذا الإجراء فقد بقيت لنا جريدة نحاول أن ندافع عن أنفسنا فيها . وإذن فلتصادر هذه الجريدة ولتصادر بطريقة عجيبة ما أنزل الله بها من سلطان ولم يسمع بها المصريون فى يوم من الأيام .

وأرجو أن تسمحوا لى أن أتلو عليكم صور المذكرات التى تمت بها هذه المصادرة .

ففي ٢٢ شهر ٧ سنة ١٩٣٦ في مذكرة رقم ٨٥ ما يفيد أنه قد وصل إلى قسم عابدين إشارة من حرس الوزارات فحواها أن يصادر عدد الصرخة الصادر في ذلك اليوم وفعلاً نفذ هذا وصودرت عدة ألوف من جريدة الصرخة لم يكن قد كمل طبعها بعد .

وفي ٢٩ شهر ٧ سنة ١٩٣٦ بموجب مذكرة أحوال رقم ٥٩ وفحواها أنه قد وردت إشارة من المحافظة بمصادرة العدد الصادر من جريدة الصرخة في هذا التاريخ فنفذت هذه الإشارة وصودرت عدة آلاف من النسخ بينها ملازم لم يتم طبعها أى كانت لاتزال ورقاً أبيض .

وفي يوم ٤-٧-١٩٣٦ أى في الأسبوع الثالث بموجب مذكرة رقم ١٤٤ أحوال وفحواها أنه بناء على أمر الحكمدارية صودر العدد الصادر في هذا التاريخ من الصرخة ولم يكن قد شرع في طبعه بعد إلا عشر أفرخ فأوقفت الماكينات ووزعت الحروف ..

انتهى

تصوروا يا حضرات المستشارين جريدة تصادر لأن واحداً من حرس الوزارات أمر بمصادرتها وثان من المحافظة وثالث من الحكمدارية .. وتصادر الجريدة لغير سبب مفهوم تصادر الجريدة على خلاف الدستور والقوانين . ولكن هل القوانين وضعت لنا . لا يا حضرات المستشارين . لسنا من المصريين بل من خونة المصريين ولا دستور ولا قانون نستطيع أن نستظل به

هذه القضايا المطروحة أمامكم وعددها خمسة أليست هي أيضاً لون عجيب من ألوان الاضطهاد وألوان الشذوذ .. لم يعد هناك عجيب فيما يختص بمصر الفتاة موتاً يجب أن تموت هذه الجماعة . والويل كل الويل لرئيسها أحمد حسين !!

## حملة الصحف البذيئة

على أن الحكومة لم تقف عند هذا الحد بل إنها استخدمت سلطانها في أن تصدر عدة جرائد كلها لا عمل لها إلا النهش في عرضي وقيل هذه الجرائد وزعت كتاباً من خمسين ألف نسخة كلها طعن في عرضي وكرامتي . وها كم بعض فقرات منه .

(وتلى فقرات من الكتاب)

يعيرونني يا حضرات المستشارين لأن أمي ماتت وكنت يتيمًا منذ صغرى . هذه جريعتي في نظرهم .

وهم بعد ذلك يدخلون إلى بيتي وإلى علاقتي الخصوصية وهم بعد ذلك يتحدثون بكل هذا الفحش وكل هذا الإسفاف .

هذا الكتاب ينشر الآن في جريدة حكومية رئيس تحريرها أحمد يوسف بدر وصاحبها طاهر العربي أخو الدكتور محمد عبد الله العربي وشهرته في مناصرة الحكومة معروفة وهذه الجريدة تطبع بأموال الحكومة .

ولا عمل لها من الجريدة إلى الجريدة إلا النهش في عرضي ويضيق لي الحال إذا قدمت لكم هذه الجرائد التي تقف مني هذا الموقف . هذه هي المطرقة . اسمعوا . اسمعوا ماذا تقول :

(اقتبس عبارات بذئية إلى آخر درجة نعف عن ذكرها) وهذه أيضاً وقف على سب أحمد حسين

وهذه مجلة غريب . اسمعوا ماذا يقول فيها (وتلا عبارات بذئية)  
وهذه مجلة النهار وهذه مجلة الشبان الوفديين . وهذه مجلة تدعى الجامعة . وهذه مجلة تدعى الكاتب .. كلها جرائد مأجورة يوقر أسماعكم أن تسمعوها كل ما جاء فيها من فحش وبذاءة في القول ..

وهذا هو الأسلوب الذي يتصرفون به في مال الدولة . وهذه خطتهم في حرب أحمد حسين !!

## قانون العفو

هذه هي الظروف التي كانت محيطة بنا يا حضرات المستشارين وهذا هو نوع الحياة التي كنا نعيشها .. وفي هذا الآونة أعلن أن الحكومة قد اعتزمت إصدار قانون العفو عن القضايا السياسية وهاكم نصه :

«يعني عفواً شاملاً عن الجنايات والجنح والشروع فيها والتي ارتكبت لسبب أو لغرض سياسي» بين ١٩ يونيو سنة ١٩٣٠ و ٨ مايو سنة ١٩٣٦ ما عدا جناية القتل عمداً»

فكنا في مقدمة المهللين والمكبرين لهذا القانون ونظرنا إلى بعضنا في اغتباط وهنأنا أنفسنا على صدوره .. ولم يكن ذلك لأننا نعلق كبير أهمية على أن ترفع هذه السوابق من صحيفتنا . فالله أعلم يا حضرات المستشارين أنني حريص على هذه السوابق أكثر من حرص البخيل على دراهمه ذلك أنني أرى فيها أوسمة الجهاد التي كسبتها بحق .. واجتمعت



فيها السجن والاعتقال من أجل الحق ومن أجل بلادى .. ولكنى رحبت بهذا العفو لأنه كان قد حكم على بعدة غرامات مالية أنا وإخوانى فتنينا أنفسنا فى استرجاع قيمة هذه الغرامات نستعين بها فى جهادنا ..

ولقد كانت تهمنا من بين هذه القضايا قضية الجيش التى دفعت فيها غرامة مقدارها خمسة وعشرين جنيها ودفع زميل لى خمسة جنيها . أى إنا انتظرنا أن نقبض ثلاثين جنيهاً وهو مبلغ جسيم من شأنه أن يساعدنا من جديد فى أزمتنا الطاحنة ..

وانتظرنا فى شغف اليوم الموعود حتى إذا جاء ونشرت أسماء العفو عنهم فى الجرائد تريت فى تلاوتها ثقة منى أن اسمى لابد قد ورد بين هذه الأسماء فما كان أشد دهشتى عندما جاءنى زميل فى قضية الجيش وأخبرنى أن اسمينا لم يردا فى الكشف .

صحت به إن هذا مستحيل فأجابنى ولكن هذا ما حصل . قلت له : لابد أن يكون هذا سهواً غير مقصود ولا بد أنهم لم يعثروا على القضية .

وأقسم لكم يا حضرات المستشارين إننى حتى تلك اللحظة لم أكن أفهم من الموضوع إلا أنه سهو . ذلك أن هذه القضية التى عوقبت عليها هى مثل رائع من أمثلة النقد البريء الخالص للمصلحة العامة والتى يدفع الإنسان ثمناً له بسبب بعض قوانين خاصة استثنائية يفرض على المحاكم تطبيقها . ولما كانت جرائم النشر كلها من الجرائم السياسية بحسب الغرض منها وموضوعها . فإن هذه القضية بصفة خاصة هى مما يزهو به النشر وتفخر به الصحافة لأنه من أجل الصالح العام أولاً وأخيراً .

ولكن ظنى سرعان ما تغير فى سبب إهمال قضايا الأخرى فى اليوم التالى وذلك لقراءتى على صفحات الجرائد احتجاج من الأستاذ العقاد لأن اسمه لم يرد فى كشف العفو عنهم مع أن قضيتهم من صميم السياسة وهى قضية نشر أيضاً .. قيل فى الرد عليه إنه اتهم بالعبث فى الذات الملكية وهذا من شأنه أن يكون جريمة مستقلة غير سياسية تخرجه من العفو ..

ولكن فهمت من ذلك أن المسألة خاصة بالأشخاص المغضوب عليهم من الحكومة فهؤلاء لا يستحقون عفو ولا يمكن أن ينالوه فبادرت فى اليوم التالى بمقابلة النائب العام وسألته عن سر إغفال قضيتى وإحداها خاصة بالجيش والثانية وهى التى لم أحكم عليها حتى الآن وخاصة بإهانة إيطاليا .. وبعد حديث طويل مع النائب العام خرجت بأجوبة غريبة فقد قال لى النائب العام لقد طالعت قضيتك فوجدت أن دفاعك كان سياسياً ولكن المحكمة لم تعتبر أن القضية سياسية ولم تذكر فى حكمها شيئاً من هذه القبيل

وأرجو أن تقدروا أنتم يا حضرات المستشارين قيمة هذا الرد ومدى ما فيه من مغالطة وانحراف عن الحقيقة . يقول إن دفاعى دفاع سياسى ولكن المحكمة لم تعتبر القضية سياسية . ما معنى هذا يا حضرات المستشارين هل اعتدتم عندما تتيحكم قضية سياسية أن تقولوا فى حيثيات الحكم وحيث إن القضية سياسية . فقد حكمنا بكذا وكبت أنا أفهم أنكم عندما تصدرون حكماً بالبراءة فقد تضمنوه بعض العبارات التى تشير إلى أن القضية سياسية وأن هذا هو ما يحملكم على البراءة . أما عند الحكم بالإدانة فهى مبنية على اعتقاد المحكمة بأن المتهم قد ارتكب جريمة السب لشخص من الأشخاص أو هيئة من الهيئات حسب نص القانون وهذا هو ما يحملها على أن تحكم بالإدانة .. ولذلك فلا عجب إن لم يقنعنى جواب النائب العام وقدمت له احتجاجاً على هذا الإغفال ليعرض على اللجنة التى حددها القانون للنظر فى هذه الاحتجاجات ولم يفتنى أن أسأله ما هى الطريقة التى ستفحص بها اللجنة هذه الاحتجاجات فقال لى إن هذا النظام لم يوضع بعد ولكن لابد أن سيكون من هذا النظام أن يستدعى الشاكون ليناقدشوا فى قضاياهم وليدلوا بوجهة نظرهم فقلت له إن هذا هو خير ما يعمل وانصرفت

فأأدهشنى فى النهاية إلا أن أعرف أن لجنة العفو قد إنتهت من نظر الشكاوى بغير أن تستدعينا أو تسمع أقوالنا وأنها قد رفضت احتجاجى .

## كيف حسبت اللجنة حكومية

يا حضرات المستشارين

قبل أن أمضى فى دفاعى يجب أن أقف قليلاً لأقرر لحضراتكم أن ما قام فى ذهنى فى هذه الساعة هو أن لجنة العفو هذه تتكون من وزير الحقانية ومن النائب العام ومن الأستاذ صبرى أبو علم ومن بعض مفتشى وزارة الحقانية أو موظفيها ولذلك فلم أعجب أن تقف منى هذا الموقف الحزبى فكثبت المقال موضوع المحاكمة والذى عنوانه «لى الشرف أن لا أكون واحداً ممن عفت عنهم الحكومة فلست ضعيفاً ولا هم بالأقوياء» .

ولقد هاجمت الوزارة فى هذا المقال وهاجمت سياستها الحزبية . ولكن الحكومة رأت أن تنتهز هذه الفرصة بعد أن عرفت موقفى من القضايا الأخرى وأنتى أراها كلها كلا لا يتجزأ .. رأت الحكومة أن تجرب معى أسلوباً جديداً من الإرهاب والإعنات وأن تحقق معى فى كل مقال جديد وأن تتخذ من كل تحقيق موضوعاً للمحاكمة ورأت أن تختار مقالات من نوع خاص تدور حول موضوع غير السياسة العامة .

بل تدور حول موضوع خاص لتكون محل قضية مستقلة فكانت هذه المقالة وطلبوا من النيابة أن تحقق معي باعتبار أن في هذه المقالة إهانة للجنة العفو والتي قيل لي إنها تشمل على رئيس محكمة الاستئناف ووكيلها وهم من كبار المستشارين الذين لا يجوز التعرض لهم بحال .

والحق أنه ما كان يخطر لي على بال أن أجعل أحدًا من حضرات هؤلاء المستشارين محلاً لمهاجمتي فأنا أول من يقدس حرمة القضاء خصوصًا حضرات المستشارين والذين أثبتوا في ظروف عديدة استقلالهم في الرأي وارتفاعهم فوق السياسة والحزبيات والهيئات . ولقد اشتهر عني احترامي لرجال القضاء ولذلك فإن هذه التهمة التي وجهتها إلى النيابة بإيعاز من الحكومة لا يمكن أن تقلب الحقائق الثابتة وهو أنني ما قصدت ولا أردت بأى حال من الأحوال أن أهاجم لجنة العفو باعتبارها لجنة قضائية ولن أبذل كبير عناء لإثبات ذلك لحضراتكم فالمقال جلي العبارات واضح المقصود منه ولا يختلف اثنان عند قراءته من أنني أهاجم الحكومة والوزارة ولا شىء غيرها .

فهاكم عنوان المقال بالخط العريض يدل على موضوع المقالة ومحورها وهو « إلى الشرف ألا أكون واحدًا ممن عفت عنهم الحكومة فلست ضعيفًا ولا هم بالأقوياء » . هذا العنوان وحده يكفي لإثبات أن الحملة والنقد موجهان للحكومة لا غيرها . فقد ذكر اسم الحكومة صراحة وعقب عليه بالعبارة الآتية ( فلست ضعيفًا ولا هم بالأقوياء ) . فمن هم الذين أجردهم من صفة القوة إلا أن يكونوا الوزراء الذين عرفتم رأيي فيهم ومقدار حكمي على أعمالهم .

ومع ذلك فلنمض في المقال لنعرف من الذى قصده بجملى وهجومى أهى اللجنة أم هى الحكومة . وعندما تحدثت عن اللجنة فقد كان حديثي عنها باعتبارها شعبة من شعب الوزارة الحزبية لا باعتبارها هيئة قضائية لها كيان مستقل ولا صلة لها بالحكومة .

## نص المقال موضوع المأخذة

قلت في المقال بعد مقدمة في تحليل العفو جاء فيها :  
العفو والصفح مبعثه القوة ومحلّه الضعف فهذا الذى يعفو لا يمكن إلا أن يكون قويا وهذا الذى يطلب العفو لا يمكن إلا أن يكون ضعيفاً بخطئه أو ضعيفاً بطبيعته .  
ولذلك كان العفو من مظاهر القوة في ذروتها العليا .

فالله سبحانه وتعالى غفور رحيم فهو يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به  
فالعفو من خصائص الله سبحانه وتعالى فهو الذى نقف أمامه جميعاً يوم القيامة  
خاشعين نادمين فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .  
ولقد جعلوا العفو على الأرض من خصائص الملوك ورؤساء الدول . ولقد تسلب  
الديساتير كثيراً من حقوق رؤساء الدول ولكنها تقف عند هذا الحق حق العفو فلا تناله  
بتعديل أو تبديل لأنه حق التاج وحق الرئاسة وحق القوة الذى لا يستقيم مجتمع إلا به ولا  
ملكية إلا به .

وفى الحياة اليومية نغضب ثم نصفح فلا نشعر بلذة إلا حين الصفح . أما عند  
الغضب فلا يقوم فى النفس إحساس سوى المرارة والألم .  
فالصفح الصفح والعفو العفو هما أقوى الظواهر النفسية التى تتعلق بالإنسان لأن  
مبعثها الروح والروح من أمر ربى . ولقد شاءت الظروف أن تقف هذه الوزارة موقف  
العفو فأصدرت قانوناً تعفو به عن الجرائم السياسية وألفت لجنة لتطبيق القانون أو بالأحرى  
لتختار أناساً وترك آخرين .

ولقد جاء فى آخر المقال ما يؤكد ذلك أيضاً وأن مقصدي إنما يتجه إلى الحكومة  
والوزارة : (فهو شرف كبير أن أظل القوى الذى لم يتلق العفو من هذه الحكومة فإن  
هذه الحكومة أهون شأناً من أن تعفو عن أحمد حسين وهذه الحكومة لا يمكن أن يكون  
لها شرف العفو عن أحمد حسين وهذا عهد وهذا قسم أن أظل أتشرف بهذا الحكم لأنه  
سيكون أضحوكة الناس فى يوم من الأيام ولأنه سيكون إحدى دعايات التاريخ أن يقال  
عن أحمد حسين إنه أهان الجيش وهو الذى يريد خلق الجيش وهو الذى بذر الروح  
العسكرية فى صفوف الشباب .

سوف تسقط هذه الوزارة وسيجىء غيرها وسترى أن من واجبها أن ترفع الظلم  
وتصحح هذه الإجراءات ولكنى لن أقبل مطلقاً عفواً مطلقاً عن هذا المقال بالذات  
ويجب أن أموت وأنا أحمل هذا الوسام) .

فالكلام يدور فى الواقع حول الحكومة والوزارة التى ستسقط والوزارة التى ستجىء مما  
لا يدع مجالاً للشك كما قلت لكم لدى أى قارئ أن الحملة موجهة فى الواقع إلى الوزارة  
الوفدية أو بالأحرى النحاس باشا وزملائه الذين يحاربوننى فى كل مكان ويضطهدوننى فى  
كل مكان .

## استعدادى للاعتذار

بقى أننى أشرت إلى اللجنة أكثر من مرة في سياق المقال وهذه اللجنة كما كان يجيل إلى أنها تتألف من الأستاذ صبرى أبو علم والأستاذ يوسف الجندى وبعض موظفى وزارة الحقائق ولذلك فقد خاطبتهم في المقال على هذا الأساس فقلت لهم (وماذا تكون الجرائم السياسية إذن أيها الموظفون الحزبيون الوفديون ؟) .

ثم قلت لهم في عبارة أخرى (فالباعث وحده أيها التلاميذ الصغار الذين أوصلتكم الحزبية الممقوتة إلى هذا الموقف) .

فأنتم ترون من هذا أن الحديث موجه إلى موظفين حزبيين . وأننى أحارب التحزب الذى تمثله الحكومة أشنع تمثيل .

وإذن فمن التعسف والتجنى . وليس إلا الرغبة في الكيد لا أكثر ولا أقل أن يقال إننى أردت بهذا المقال أن أهين حضرات المستشارين الذين كانوا أعضاء في هذه اللجنة وأن أجرحهم .

وثمة دليل قاطع أقدمه على أن ذلك كان أبعد ما يكون من ذهني ومقصدى هو أن النيابة عندما لفتت نظرى إلى هذه الحقيقة وهو أن في هذا الكلام طعناً على اللجنة وأن اللجنة تشتمل على بعض المستشارين . فما كان جوابى عليه إلا أننى لا أعرف أن اللجنة تتألف على هذا الشكل وأننى على استعداد أن أعتذر لحضراتهم . وأن أعلن ذلك على صفحات الجريدة وأن أسحب هذا المقال الذى كتبته لأنى أجل حضرات المستشارين والذين لى أكبر الثقة في قضائهم لو أنهم كانوا جالسين كقضاة واستمعوا إلى وجهة نظرى .

بادرت بإظهار أسفى يا حضرات المستشارين وإعلان استعدادى للاعتذار عندما علمت أن اللجنة تحوى عناصر غير حكومية أعنى غير حزبية . ذلك أنه لا خصومة بينى وبين أى فرد من غير هذه الحكومة الحزبية وكل موظف في الدولة إنما يقوم بواجبه قدر اجتهاده ولو أن إهانة اللجنة كانت في بالى أو في مقصدى لما أظهرت أسفى ولا قبلت الاعتذار بأى وجه من الأوجه ولعلكم رأيتم من مرافقتى وعرفتم من أسلوئى أننى لست ممن يراجعون عن تحمل مسئولية ما يقولون وما يفعلون .. وأننى لست الكذاب الذى أحتفى في الكذب . وبدون أن أنتظر تصرف النيابة في الموضوع بادرت بإظهار هذه الحقيقة على صفحات الجريدة فكتبت في العدد الصادر في ٤ مارس تحت عنوان :

تحقيق جديد مع الأستاذ أحمد حسين

في مقالة لي الشرف أن لا تغفوا عنى الحكومة فلسنت ضعيفاً وليسوا أقوياء .

«استدعت النيابة العمومية اليوم الأستاذ أحمد حسين للتحقيق معه فيما نشر بمناسبة عدم صدور العفو عن الأستاذ أحمد حسين في قضية الجيش مما اعتبرته النيابة مأساً ببعض شخصيات اللجنة المذكورة من كبار القضاة وقد تولى التحقيق سعادة رئيس نيابة مصر فذكر الأستاذ أحمد حسين أنه لم يهتم بمعرفة الأعضاء الذين تتألف منهم اللجنة ولذلك فهو قد كتب ما كتب مهاجماً الحكومة ورجال الإدارة مهما كان شأنهم وهو مصر على وجهة نظره في هذا الموضوع .

أما فيما يخص برجال القضاء الذين تبين أنهم أعضاء في هذه اللجنة فهو يحمل لهم كل تقدير واحترام وهو واثق من أن هؤلاء المستشارين المحترمين لو كانوا جالسين في مجلس القضاء فيسمعون دفاع المتهم عن نفسه لكان مطمئناً إلى قضائهم أيّاً كان لونه ولما كان عقب عليه بأى شكل من أشكال التعقيبات والمقال المكتوب واضح في أن المقصود بالحملة هي الحكومة وقد وجب أن ننشر هذا التفسير .

وفي تمام الساعة الثانية انصرف الأستاذ أحمد حسين بعد أن قابل النائب العام وشرح له وجهة نظره .

أجل قابلت النائب العام وشرحت له وجهة نظري وأفهمته بوضوح أنني أجل حضرات المستشارين وأننى ما قصدتهم في حديثي لا تصريحاً ولا تلميحاً وأنا مستعد للاعتذار إليهم شخصياً .

إلى هنا كان من الواضح جداً أنني ما قصدت هؤلاء المستشارين الأفاضل وأننى أجملهم كل الإجلال . ففي ذات العدد الذى نشر فيه هذا المقال نشر في مكان آخر خبر رفع الدعوى العمومية على فقايلت هذا بابتهاج .

وكتبت مقالاً تحت عنوان (أخيراً يا بشرى ها نحن أمام القضاء بعد تلك البراءات التى حصلت عليها مصر الفتاة في حوادث دمنهور وكفر الزيات) .

ولقد اقتنع النائب العام بوجهة النظر هذه . وعرف أن لا لوم على ولا تثريل وأن هجومى إنما كان على الحكومة وأنظمة الحكومة .

ولقد كنت حتى هذه اللحظة من حديثي مع النائب العام لم أثبت في محضر التحقيق فكرة أنني لم أعرف أعضاء اللجنة ومن تتكون وذلك خجلاً منى وحياء من أنني لم أعرف أعضاء هذه اللجنة ...

ولكن رئيس النيابة بعد مداولة مع النائب العام وإقتناعهم بوجهة نظرى طلبوا منى أن أضيف هذه العبارة وأن أسجلها لأنها تقطع بحسن قصدى .. فبحثنا على سطر فراغ فى المحضر لنسجل هذه العبارة فوجدنا أن السطر الأخير يحتل إضافة جملة تفيد هذا المعنى فأضفناها وكنا فى مكتب سكرتير النائب العام ..

ويكنى إلقاء نظرة على المحضر الأصلى كما يبدو لكم بوضوح أن هذه العبارات قد حشرت حشراً وأنها كتبت بقلم آخر

(وعند هذا الحد من المرافعة عرض الأستاذ أحمد حسين على المحكمة المحضر الأصلى فظهرت فيه عبارة « ولم أكن أعرف أن اللجنة تتكون من قضاة » مكتوبة بالفعل بطريقة تدل على أنها أضيفت فيما بعد ) .

فأنتم ترون يا حضرات المستشارين أن النيابة بأسرها كانت معى وكانت ترى رأى . وأنه يكنى جداً أن أقرر هذا كما يثبت بوضوح أننى لا أعنيه .

وكان يكنى أن يسمع حضرات المستشارين بموقفى هذا كما يترفعوا عن أن يعتبروا أنفسهم موضع مساس . ولكن حضرات المستشارين لا يعرفون شيئاً عن هذا الموضوع حتى الآن ولو أنهم عرفوا لأظهروا استنكارهم من غير شك .

وهكذا لم يبعد هذا التفسير . لأن سوء النية متوفر فى اليوم التالى كنت أتحدث مع رئيس النيابة فى هذا الموضوع فأفهمنى أن أصحاب الشأن لم يقبلوا وطلبوا تحويل القضية إلى المحكمة . وسرعان ما حولت القضية . مع أن ثلاث قضايا سابقة عليها .. وبعضها كان مفتوحاً منذ عدة أشهر لم تقدم للمحكمة إلا بعد ذلك .

ويكنى هذا وحده لتقدروا رغبة الحكومة فى الكيد والاضطهاد .

### اللجنة غير قضائية

أنتقل الآن لأثبت لحضراتكم أن هذه اللجنة غير قضائية . وأن الحكومة قد أرادت أن تشكلها على هذا الشكل كما يتسع لها سبيل المداورة وتحقيق أغراضها ..

هذه اللجنة ليست قضائية بموجب مرسوم إنشائها . وهى بعد ذلك ليست قضائية ويكاد يكون ذلك من البديهيات .

## لجنة وليست محكمة

فهى ليست قضائية ابتداءً من هذا الاسم فقد سماها القانون لجنة .. وسمى قرارها .. قراراً وليس حكماً وهى بعد ذلك ليست قضائية فهذه أعمالها مسجلة فى محضر ليس مفتوحاً باسم جلالة الملك .. مع أن هذا هو مصدر سلطة القضاة وهذا هو الذى يقدر أحكامهم ويجعلها محل الاحترام .. وها هو قرار اللجنة ترونه مسطراً فى ورقة مطبوعة موقع عليه من وزير الحقانية ولا يحمل اسم جلالة الملك فهو ليس حكماً وليس عمل اللجنة قضائياً يتشرف باسم جلالة الملك .

## لا وسيلة للاتصال بها وعملها سرى

هذه اللجنة ليست قضائية ويكنى لإثبات ذلك أن تعلموا أن المتظلم لا يستطيع أن يتصل بها . لا يستطيع أن يظهر أمامها لا يستطيع أن يلقي دفاعه فأين القضاء فى كل هذا .. ها أنا أمامكم تسمعون دفاعى وأنتم تمدون لى فى حبل الدفاع . فكيف يمكن القول عن هذه اللجنة التى تأتى عملها بعيداً عن المتظلمين وبدون سماع أقوالهم ..

أريدون أن يسموا هذا قضاء .

حقيقة عرفنا فى العصور الوسطى نوعاً من هذا القضاء كان يجرى فى غياب المتهمين ويصدر أحكاماً بالحرق .

فهل يريدون أن يقولوا إننا عدنا إلى العصور الوسطى فأصبحت المحاكم تقضى بهذا الأسلوب العجيب فى غياب المتهمين وبدون سماع أقوالهم .

يؤسفنى يا حضرات المستشارين أن أقول حتى هذه الإجراءات فى العصور الوسطى كانت محل مراجعة بعد ذلك فأين هى المراجعة التى نستطيع أن نلجأ إليها لنراجع إجراءات اللجنة .

## لا حيثيات

هذه اللجنة غير قضائية فالقضاء مبنى على الإقناع فالحكم هو ثمرة الإقناع فلكل حكم أسبابه وإذا خلا الحكم من الأسباب صار حكماً باطلاً لأن الأسباب أو بالأحرى الحيثيات هى التى تحمل على احترام الحكم فهل فى قرار اللجنة حيثيات اسمعوا ماذا يقول



قرار اللجنة (حيث إن القضية المعروضة لا تمت للسياسة بصله فقانون العفو لا ينطبق عليها) .

هذه هي كل حيثيات اللجنة لقد أقرت النائب العام فيمكن أن تسمى عملها هذا أى شىء إلا أنه حكم لأنه خلو من الأسباب والأسباب هي كل شىء وهى التى تدلنا على أن القضاء حق والحكم كان نتيجة اقتناع .

### التظلم ومن الذى يعرضه على اللجنة

بقى يا حضرات المستشارين أن تعرفوا أن تظلمى يعرض عن طريق وزير الحفانية أى عن طريق الوزارة وهى التى شرحت لكم خصومتها معى ومع ذلك فهى التى تعرض قضيتى ماذا كان يستطيع حضرات المستشارين أن يفعلوا وهم يسمعون الدعوى من ناحية واحدة . ماذا كانوا يستطيعون أن يقولوا وهم يرون الحكومة تعرض عليهم من الأوراق ما تريد وتخفى عنهم من الأوراق ما تريد . ها هو دوسيه القضية فليرونا التظلم الذى قدمته وليرونا قبل ذلك ما يدل على أن اللجنة فحصت هذه القضية . إننى أشك يا حضرات المستشارين فى أن تكون اللجنة قد استعرضت أوراق هذه القضية وأغلب ظنى أن الوزير قد عرض عليها نص الحكم . والحكم لا يشير إلا لإهانة الجيش فرأت اللجنة أن الدعوى غير سياسية . ولكن هل يمكن أن تكون دعوانا حقاً غير سياسية . هل يمكن وأنا الذى لا أعيش إلا من أجل الصالح العام ألا يكون ما أكتبه بغرض سياسى .

اسمحوا لى وقد تبين لحضراتكم أن اللجنة ليست لجنة قضائية بل هى لجنة سيطرت عليها الأنظمة الحكومية فجعلتها عرضة للخطأ اسمحوا لى أن أستعرض معكم وقائع هذه القضية محل العفو والتى قبل عنها إنها ليست سياسية .

### قضية الجيش موضوع العفو

فلنتقل إلى موضوع القضية الأصلية التى لم يصدر العفو فيها لنرى هل كنت محقاً فى غضبى أم أننى كنت متجنياً على هذه النتيجة التى تمخضت عنها لجنة العفو ... اسمحوا لى أن أتلو على أسماعكم هذا المقال الذى حكم على فيه .. ولسنا الآن فى مقام هذا الحكم وهل كان صحيحاً أم غير صحيح فهذا ما لا نتعرض له ولكننا فى مقام

هل كانت القضية سياسية أم غير سياسية وهل هى سياسية منذ النظرة الأولى أم لا . حدث أننى أخذت أنظم فى ذلك الوقت سلسلة من الرسائل أبعث بها إلى الوزراء والإنجليز . فكتبته خطابًا إلى رئيس وزراء إنجلترا وخطابًا إلى شيخ الأزهر ثم أرسلت خطابًا إلى وزير الحرية . أنعى عليه تحكم الإنجليز فى وزارته وعدم قيامه بواجباته كوزير وأطلب منه أن يفتح باب التطوع للشبان للانتظام فى سلك الجندية كما يدخل إلى الجيش . دمجًا جديدًا وحياة جديدة وهاكم نص العريضة ونص الخطاب الذى أرفق بها :

(وهنا تلى الأستاذ نص العريضة والمقال)

### خاتمة

يا حضرات المستشارين .. ها هى صفحتى قد نشرتها أمامكم .. صفحة مجاهد لا غاية له ولا مطمع فى الحياة إلا أن يكون مجاهدًا من أجل الله والوطن .. فقولوا كلمتكم فى هذه الصحيفة .. واعلموا أننى ما فعلت الذى فعلت عن أمرى أو لهُوى فى نفسى .. وإنما نتيجة لوخى العقيدة والإيمان بالصالح العام وخدمة المجموع ..

هذا الصالح العام الذى قد يدفعنى يومًا من الأيام أن أقف بجوار الوزارة الحاضرة لو أنها فعلت شيئًا من أجل الوطن ومن أجل الحق والقانون .

لى كلمة :

هذه مرافعة الأستاذ الكبير أحمد حسين فى عهد حكومة الوفد مرافعة جليلة أظهرت الحق من الباطل وهى قبس من نور مصر الفتاة المجاهدة المناضلة . فى سبيل مجد مصر العزيزة .

وثيقة تاريخية

# رسالة

من أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة  
إلى  
المرهتلر زعيم الألمان في إبان جبروته و سطوته  
يونيو سنة ١٩٣٩

الطبعة الثانية  
الولايات المتحدة يونيو سنة ١٩٤٧



## كلمة تمهيدية

هذه رسالة بعثت بها الى هتلر في يونيو سنة ١٩٣٩ باللغة العربية والفرنسية وطبعت ووزعت في أنحاء العالمين وذلك كله عندما كان هتلر في أوج قوته وعظمته وكان هناك فريق كبير من البشر يؤمن بأن المستقبل لألمانيا وأن سيادتها على العالمين كانت قاب قوسين أو أدنى . وفي ذلك الوقت الذى بلغ إرهاب هتلر للناس ذروته حتى لم يكن يمرؤ هؤلاء الذين حاربوه فيما بعد على الوقوف في وجهه ، في ذلك الوقت بعثت هذه الرسالة إليه أندد فيها بسياسته الخارجية التى تقوم على الرغبة فى السيطرة على بقية الشعوب فى الخارج وعلى اضطهاد اليهود فى الداخل . وفي هذه الرسالة أندرته بأنه يندفع إلى إهلاك نفسه وإهلاك ألمانيا معه .

ورغبة منى فى إثارة الاهتمام بموضوع الرسالة وإظهار الأخطاء التى تنطوى عليها سياسة هتلر فقد وضعتها فى صورة مقارنة بين مبادئ الإسلام ومبادئ النازية وبين شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) وشخصية هتلر وختمت الرسالة بدعوة هتلر إلى اعتناق مبادئ الإسلام ونظرياته لإنقاذ نفسه وبلاده من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها ولم بدر بخلقى وقتئذ أن نهاية هتلر ستكون بأسرع مما تنبأت به له ولألمانيا .

ولقد جئت إلى هذه البلاد منذ شهرين كى أواصل هذه المهمة التى أخذتها على عاتقى منذ خمس عشرة سنة وهى أن أعمل على جلاء الإنجليز عن مصر وتحقيق وحدة وادى النيل من المنبع حتى المصب وهو مطلب المصريين الذين ناضلوا ويناضلون عنه منذ خمس وستين سنة ولن يكفوا عن هذا النضال حتى يبرح آخر جندي إنجليزى أرض الوطن .

جئت إلى هذه البلاد لأنشد الحرية فى بلاد الحرية فما راعنى إلا أقوام وقفوا لى بالرصاد محاولين سد الطريق على بزعمهم أننى فاشستى وأننى كنت حليفاً لهتلر . وبالرغم من أننى أذعت ما يبنى هذه الفكرة الخاطئة ويثبت عكسها . فقد ظل هؤلاء الأقوام يرددون هذا الزعم لأنه فى ظنهم يخدم غايتهم .

من أجل ذلك أشار على بعض أصدقائى أن أطبع هذه الرسالة وأنشرها فى هذه

البلاد كوثيقة تاريخية ولقد ترددت في بادئ الأمر خوفاً من أن تفسر على أنها محاولة منى لعمل دعاية لدين الإسلام الذى أتشرف بالانتساب إليه ، والدعاية للإسلام فى حد ذاتها أمر جميل ومحبب بل وواجبة على كل مسلم ولكنى لم أحضر إلى هذه البلاد لهذه الغرض كما أننى قد أصبحت من أشد الناس عزماً وتصميماً على عدم مزج الدين بالسياسة وأن لكل منها ميدانه الخاص به وسأكرس ما بقى من حياتى على تدعيم الوحدة العربية على أساس من القومية العربية لا النعرة الدينية

ولذلك فقد أحجمت فى بادئ الأمر عن إعادة نشر هذه الرسالة حتى لا يساء تفسير المقصود منها مما قد يعرقل على مساعى فى الدعاية لتحرير وادى النيل ولكنى استخرت الله فى نهاية الأمر وعولت على إعادة طبعها بالعربية وترجمة نصها إلى الإنجليزية وذلك لخدمة الأغراض الآتية :

أولاً : إنها رد كاف لهؤلاء الذين يزعمون أن لى ميولاً فاشستية وأننى عدو لليهود على أساس من الجنس أو الدين وسوف يرون فى هذه الرسالة إيماني بالديموقراطية بل وإشادتي بالديموقراطية الإنجليزية وإنها أعظم ما رأيت فى أوروبا وأن ذلك قد قيل هتلر فى وجهه إبان عظمته وسوف يرون فيها تنديدا بسياسة الفتح والغزو واضطهاد اليهود والالتجاء إلى العنف لحل القضايا الدولية .

ثانياً : إن فى إعادة نشر هذه الرسالة تحذير لمن تحدتهم نفوسهم أن يتابعوا سياسة هتلر فى فرض سيادتهم العالمية بالقوة سواء كانوا فى الشرق أو فى الغرب فإنه يؤسفنى أن ألاحظ أن الحربين العالميتين الماضيتين على قسوتها لم يكونا درسا كافيا للبشر ولا يزال هناك أقوام يملكون بمواصلة السياسة التقليدية ، سياسة التسلط والتحدى وإكراه الشعوب على قبول ما تكره .

ثالثاً : إن فى هذه الرسالة ملخص ما أهداف له فى هذا الوجود ، وهو أن أرى البشرية كلها متعاونة متآخية على اختلاف أجناسها وأديانها لا فرق بين كبير وصغير فرداً كان أو أمة وأن يكون تنافس الجميع فى نشدان الكمال العلمى والروحى وهذا ما يقربنا من ذات الله العالم المطلق والكمال المطلق هذا وإنى أشكر أخى وصديق المجاهد والعالم والشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى على تفضله بالقيام بهذه الترجمة الحرفية الرائعة .

أحمد حسين

## من أحمد حسين إلى المهترهت زعيم الألمان

### بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على من اتبع الهدى وآمن بالرحمن وبعد ..

فلعله قد أتاك من العلم أنه قد قام منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف نبى عربى بعثه الله فى شبه جزيرة العرب ليكون رحمة للناس . وهدى ونوراً للعالمين .. وجاء مبشراً ومنذراً وداعياً لعبادة الله الواحد الأحد منزهاً عن التشبيه والقرين . ولعله قد جاء من العلم فيها جاءك أن هذا النبى قد ولد فى شعب أمى لا حضارة له ولا أثر من علم .. قد جاء للعالمين بأكمل تشرية وأقومه .. التشرية الذى يحقق للإنسانية السعادة فى الدنيا والآخرة . وماذا تقول فى تشرية يجعل الناس سواسية كأسنان المشط يتفاضلون ويمتازون بالتقوى .. لا فرق بين جنس وجنس ولا بين حر وعبد ولا رفيع أو وضع .. لا فرق بين ملك ومملوك .. بين حاكم ومحكوم بين فقير أو غنى . الجميع لدى الله سواء . ولا نجا إلا لمن جاء الله بقلب سليم . لآحياة ولا خلود فى النعيم إلا لمن آمن بالله وعمل عملاً صالحاً يرضاه الرحمن من فوق سبع سموات .

وإذا كانت أقدار الرجال تعرف بآثارهم . فلا بد أنك تسلم معى ولعل علماء قومك يسلمون معى إن أبيت أنت التسليم إنه لم يظهر فى البشرية فى كل تاريخها رجل كان له من الأثر فى حياة الإنسانية مثلاً كان لسيدنا محمد ﷺ .. لقد كان رجلاً أمياً لا يعرف القراءة والكتابة نشأ فى بلاد مفككة ممزقة لا حضارة فيها أو ظل حضارة .. تجهل الحكومة وكل معانى الدولة لا قانون يسودها إلا تقاليد وعادات متناثرة ومتضاربة .. وهم فى النهاية قليلو العدد والعدة يعيشون فى صحراء بلقع لا نبات فيها ولا ماء إلا ما يسد الرمق ويعين على مشاق الحياة .. من هذه البيئة القائمة المظلمة انبثق نور محمد فأشرقت لوجهه الظلمات واهتزت لإيمانه الأرض والسموات . وفى عشرين سنة كان إيمان محمد ونور محمد قد عم نصف الكرة الأرضية وامتدت الإمبراطورية الإسلامية إلى مشارق الدنيا ومغاربها .. وإياها من إمبراطورية كان عدل الرئيس فيها يصل إلى أبعد أطراف الأرض ويدخل أصغر البيوت وأحقرها ويمتاز أظم الدروب وأقدرها .. إمبراطورية لم يحكمها السيف ولم يذلها المدفع بل جمعها وربطها ونظمها القرآن الذى هبط به الرسول الأمين من لدن الله على سيدنا محمد . تحت راية القرآن اتحدت هذه القلوب وتحت راية القرآن ذابت الجنسيات والقوميات والعصبيات والألوان والدماء وجلس الجميع على سرر متقابلين يتفاضلون بالتقوى ويتحاضرون إلى قرآن الله وينزلون عند حكمه طوعية وإرتياحاً .

### انتشار الإسلام

وعاش هذا الإيمان متمكناً من نفوس أصحابه وهم فى كل يوم يزيدون ويتكاثرون حتى بلغ تعدادهم الأخير أربعمائة مليون مسلم يؤذن بينهم المؤذن كل يوم خمس مرات « أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمدًا رسول الله» ولا تزال موجة الإسلام زاحفة... تغزو قلوبًا جديدة وتفتح معاقل جديدة... وحسبك أن تسأل المبشرين من مواطنيك - وقد كان لهم نشاط فيما سلف من الزمان - حسبك أن تطالع تقاريرهم لتخرج منها بحقيقة عجيبة وهي أن جهودهم في مدى نصف قرن من الزمان قد عجزت عن أن تحول مسلمًا عن إسلامه بينما يشاهدون باندهاش في هذا النصف قرن موجة الإسلام وهي تغمر الدنيا في أفريقية وتدخل إلى مواطن جديدة لم تكن طرقها تدخل إليها على يد تاجر مسلم صغير لا يكاد يعرف من دينه إلا هذا الإيمان الفطري المستقيم وهو أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. هذه الشهادة هي التي تفتح لما قلوب البشر بغير حاجة إلى جهد أو استغواء.. فوجدانية الله حقيقة فطرية قل أن يرفضها أى منطق أو وجدان وتزريه الله والإيمان به بعد ذلك مسيطرا على الكون مدبراً لأمره متصرفاً في شئونه خيئ يرى ولا يرى.. لا تدركه الحواس ولكن تطمئن بذكره القلوب والمشاعر وأن يكون الله بعد ذلك مراقبا عليه. أو كما جاء في كتابه الحكيم «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»

هذا الإيمان البسيط المستقيم هو الذى تتقبله الفطرة المستقيمة السليمة التى لم تبليلها بعد أدران المدنية الحديثة الزائفة.. وتقبلها كذلك العقول التى أنضجها العلم والتفكير والثقافة. ولذلك كان الإسلام وسيق دائماً أبداً يسرى سريان النار في المشيم في هذين الصنفين من الناس: من الذين لا يزالون على الفطرة أو الذين جاءهم من العلم والنضوج الفكرى ما جعلهم يعودون إلى الفطرة السليمة..

### سر تأخر المسلمين

وإذا كان المسلمون منذ قرن من الزمان قد أصابهم خور وضعف.. قد وقعوا فرائس في يد الاستعمار الأجنبي إذا كان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يقدمون أسوأ الصور عن الإسلام وفعله في معتقيه... فليس ذلك وحقق إلا لأنهم جهلوا الإسلام وذلك سبب طامتهم.. يظن البعض من الأوروبيين أن الإسلام كان السر في تدهور الشعوب الإسلامية وتأخرها وهم لو عرفوا حقيقة الإسلام لأدركوا أن أوروبا لم تتمكن من المسلمين لأنهم يعتنقون هذا الدين ولكن لأنهم جهلوه واندفعوا خلف شهواتهم وخرافاتهم.. واتبعوا أهواءهم فتبددوا شيعاً وأحزاباً وخلفوا وراء ظهورهم كتاب الله وسنة رسوله وتمسكوا بعبادات وتقاليد وخزعبلات اعتبروها من صميم الدين وهي ليست إلا الخزي والعياذ بالله.

### دين الحزم والعزة

وما ظنك بدين يطلب من جميع أتباعه أن يكونوا مجاهدين في سبيل الله يلتفون حول رجل واحد وقلب واحد ويزعون عن قوس واحدة.. وماذا تقول في دين يأمر أتباعه أن يجعلوا الحزم شعارهم وغايتهم العزة مطلبهم وشوكة الإسلام هدفهم.. ماذا تقول في دين يطلب من أتباعه أن يكونوا دائماً أبداً على أهبة الاستعداد مرابطين بالثغور محصنين مداخل البلاد.. أشداء على أعدائهم رحماء فيما بينهم... ولكن لا ليكون ذلك كله أداة بطش وبغي.. لا ليكون وسيلة للفتح وإذلال الشعوب.. لا



ليكون أداة للظلم أو السلطان بل ليتشرب في ظل هذه القوة الإيمان والسلام والإخاء والمحبة بين الناس وأن يهرب القوى حق الضعيف فلا يغتاله ولا يخناله .

فالقوة وهى من صميم الإسلام ودينه هى قوة الخير ضد الشر وهى جنة الضعيف ضد القوى . فإذا كان المسلمون اليوم قد صاروا إلى هذا الضعف الذى هم عليه .. قد صاروا إلى مؤخرة الشعوب وفريسة للغاصب الأجنبي فليس ذلك إلا لأنهم جهلوا حقيقة الإسلام وآثروا دنياهم على دينهم فكادوا يفقدون الاثنين لولا أن الله قد تداركهم برحمته فأبفظهم من سباتهم فى الآونة الأخيرة فراحوا يراجعون أمورهم ويتدبرون ماضيهم وحاضرهم وأمسهم ويومهم .

### دين الوحدة والنظام

وإذا كان المسلمون اليوم مبغضين مفككين لا وحدة تربطهم ولا جامعة تجمعهم فالإسلام برىء من ذلك وهو دين التوحيد والوحدة وهو الذى يدعو المسلمين للاعتصام بحبل الله وينذرهم عاقبة التفرق .. وهو الذى يدعوهم للوقوف كتلة واحدة كالبنيان المرصوص .. وهو الذى يجعل لهم هدفا واحدا ومقصدا واحدا وكيفية واحدة فيجمعهم فى مشارق الأرض ومغاربها للاجتماع فى صعيد واحد أشبه بما تفعله فى مؤتمر السنوى فى نورمبرج يجمع الإسلام والمسلمين من أنحاء العالم ليطوفوا بالكعبة مرتدين زيا واحداً وينطقون بصلاة واحدة فلا تعرف أيهم الراعى وأيهم الرعية وأيهم الخادم وأيهم السيد ..

هذا هو الإسلام دين التوحيد والوحدة ، وهو دين النظام والقيادة فلا تصح صلاة جامعة ما لم تكن الصفوف منظمة والمصلون مترابطين متلاصقين أشبه شئ بنظام الجند الحديث يقودهم إمام يتكلم وينصتون ثم يركعون ويسجدون فيسجدون ويختم الصلاة فيختمون . والويل لمن خالف الإمام أو سبقه فى حركته أو نبس بكلمة وهو يتكلم . أليست هذه هى القيادة الموحدة للصفوف الخالقة من الجماعة صوتا واحدا وقلبا واحدا وروحا واحدة ؟ ولقد شهد لى وزيرك المفوض فى مصر البارون اخندروف فقال إنه قد امتلأ إعجابا بهذه الصورة الرائعة للمسلمين فى رمضان وهم بمسكون جميعا عن الطعام حتى تغيب الشمس حتى إذا ما غابت أكلوا وشربوا . فى مشارق الدنيا ومغاربها يكف المسلمون عن الطعام ثم يقبلون عليه فى ساعة واحدة ودقيقة معينة . فأى ضبط للنفس وأى توحيد للجماعة خير من ذلك ؟ هذا هو الإسلام وتلك هى الروح الإسلامية : ديمقراطية فى غير ما عبث أو مجون .. حرية فى غير ما فوضى أو استهتار .. وفى ما غير شيوعية متطرفة أو إباحية .. تعاون بين الغنى والفقير وإحسان ينظمه الدين فى غير ما اشتراكية متطرفة أو تحكم طبقة من الطبقات .. ولست بقادر أن أبرز لك محاسن الإسلام ومفاته . لست بقادر أن أصور لك عظمة هذا الدين القيم ومدى ما يؤثر به على النفوس . كيف يعجز الجبان شجاعا والبخيل كريما والضعيف قويا عزيزا فهو عندى خير علاج لأمراض البشرية فى الآونة الحاضرة . هو البلم الشافى لجراحتها وهو وحده القادر على إنقاذ السلام ونشر العدل وإشاعة الخير بين الناس . وهذا ما جعلنى أفكر طويلا فى أمرى وأمر أوروبا وما ينتظرها من مصير مخزن تندفع إليه بشدة .

## الفضائل الانجليزية والاسلام

لقد كان من حظي أن زرت أوروبا في العام الماضي وزرت بلادك بصفة خاصة وزرت من قبلها بلاد الإنجليز فراغني في بلاد الإنجليز مظهر وراغني في بلادك مظهر آخر. راغني في بلاد الإنجليز ديمقراطية عميقة تسود مجتمعا. هذه الحرية الشخصية التي يستمتع بها كل إنجليزي. بل راغني اعتداد الإنجليزي بشخصيته وإحساسه العميق بحريته وأنه لا يمكن لمخلوق أن يتحكم في نفسه أو عقله. ذلك مظهر ملأني إعجابا بالإنجليز وهو في النهاية ليس إلا أحد تعاليم الإسلام. فهكذا يريد الإسلام من تابعيه أن يشعروا بكرامتهم وأن يستمتعوا باستقلالهم الشخصي وحرية ما داموا يقومون بواجبهم المفروض نحو الجماعة وما داموا لا يخالفون أحكام الله وأولياء الأمر الذين يعملون وفق طاعة الله.

## الوطنية الاشتراكية والإسلام

وفي بلادك راغني إيمانك بالله وجهادك في سبيل مثل أعلى تصوره ونشره هذا الإيمان بين أتباعك وأنصارك. وراغني كيف ملأك هذا الإيمان شجاعة وقوة وكيف فاض منك فُلا أتباعك وجندك. هذا الإيمان بالله الذي تعبر عنه في كل كلمة تنطق بها والذي أثرت به على نفوس أتباعك حتى قال أحدهم وهو رئيس أنصار جبهة العمل إن هتلر هو الذي علمني الإيمان بالله وليس الكنيسة. هذا التصريح الخطير ليس إلا معبرا عما يحول بخاطر الملايين من الألمان.

وأخيرا عزوفك عن الشهوات وبساطتك في ملبسك ومسكنك واستنكارك لشرب الخمر ورغبتك في إبطال الخمر في بلادك. وفرضك على الشعب الألماني الرجوع إلى ألوان من الفضيلة كادت تكون نسيا منسيا في الصحف والأدب والفن وفي الحياة المنزلية وفي الطرق وفي المعاهد. كل هذا كان من شأنه أن يجعلني أطيل التفكير في أمرك فانتفيت إلى أنك تنطوي على خير كثير ولكنك تسير في طريق خاطئ لا يلبث أن ينتهي بصاحبه إلى الهلاك وإلى إهلاك الناس معه. فلا أنت ولا الشعب الألماني تحملون للعالم رسالة جديدة ولا تقدمون للإنسانية بشيء يخفف من شقاها وويلاتها. أنت تنادى ومن ورائك شعبك بضرورة تحقيق الرفاهية للشعب الألماني وأخذ نصيبه الكامل من المواد الغذائية ومن الأموال والثروات والمستعمرات. وهذا حسن ولكن هل الثمانون مليونا من الألمان هم كل العالم. الجواب لا وليسوا هم كثرة العالم. وهم لا يعدوا أن يكونوا جزءا صغيرا بالنسبة لبقية العالم فإذا أعددت للشعوب الأخرى إذن وما هي رسالتكم لإسعادها. لا شيء. لا شيء.

أنتم تندفعون بقوتكم تحذوكم رغبة قوية في السيطرة على العالم. وماذا بعد إذلال العالم لا شيء برناجكم لا يحتوى شيئا. فمن لم يكن ألمانيا لا يمكن أن يصبح ألمانيا.. والويل لمن لم يكن ألمانيا سوف تظاونه بالأقدام وهذا ما يجعل العالم إن أجلا وإن عاجلا يهب بأسره للدفاع عن نفسه ضد سيد لا يريد إلا السيطرة عليه وإذلاله. ضد سيد لا يقدم له علاجاً لأمرضه الروحية وآلامه المادية.

## المشكلة اليهودية

أنت تطرد اليهود من بلادك وتريد تطهير ألمانيا منهم. وقد بدأ حاول سيدنا محمد عليه الصلاة

والسلام أن يعيش مع اليهود وأن يتألف قلوبهم وأن يتعاون معهم فرفضوا وبادروه بإعلان الحرب فعمل على إجلائهم ولكن سيدنا محمد لم يكن في ذلك يظلمهم فقد كان حسب أولئك اليهود أن يدخلوا في دينه أو يهادنوه مخلصين حتى يعصموا أنفسهم وأموالهم منه ولكنهم لم يفعلوا بل ظلوا حرباً عليه وعلى دينه وحرباً على رسالته فكان طبيعياً أن يعمل على إجلائهم من شبه جزيرة العرب إبقاء على كيانه وعلى دعوته . أما أنت فإنك تظلم اليهود لأنك لا تدعوهم للدخول في دينك وهب أن اليهود آمنوا بك وبرسالتك . هب أنهم أرادوا أن يخلصوا لك ويتفانوا في تأييد دعوتك فإن هذا لا ينقذهم من سخطك ولعناتك ولذلك فأنت تظلمهم وتثير على نفسك خصومة بائسة لا أمل لها في الحياة إلا بالقضاء عليك وعلى ألمانيا .

### الإسلام والغزو

ولقد أرسل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ومن بعده خلفاؤه جيوش المسلمين ففتحت الدنيا المشرق منها والمغرب ولكنها لم تكن جيوش عدوان واغتصاب بل كانت تدعو إلى نور جديد ، إلى إنقاذ الإنسانية من الظلمات إلى إكرام بنى الإنسان بالشهادتين كانت جيوش الحق تحمل للناس لواء الإسلام والسلام فن دخل في هذا الدين الجديد ارتفع فوراً إلى مرتبة الفاتحين وعصم ماله ودمه منهم بل ولم يعد هناك فارق بينه وبينهم ومن هنا كانت الأمم الضعيفة والمظلومة تبادر إلى استقبال هذه الجيوش الفاتحة لتمنحها الكرامة والحرية ولتعطيها حقوق الإنسان .

أما أنت فإنك تريد أن تغزو وأن تفتح لا لتنشر كرامة ولا لتنقذ ضعيفاً ولا لتعتق أسيراً ولا لتحرر ذليلاً . بل لتخضع الشعوب لسلطانك ، لتخضعها لسيطرتك ، لتحكمها ولتكون محكومة بقوتك فإذا في هذا وأى قيمة لذلك ؟ لقد شاهد التاريخ أشخاصاً فتحوا الدنيا بأسرها وغزوها كالإسكندر وانيال ونبليون الذي ذرع أوروبا من مشرقها لمغربها ودانت لسلطانه . فإذا أنتج كل هذا وأين هؤلاء الأشخاص الآن وما هو تأثيرهم في الحياة ؟ لا شيء . لا شيء . بل لا يكاد يعرفهم إلا أفراد قلائل إذا قيسوا بالنسبة لمن يجهلونهم . العظمة الحقيقية هي إذن ليست في الغلبة المادية وليست هي في قوة البطش والسلاح ولكنها في التراث الروحي الذي يقدمه الرجل للبشرية . هذا التراث الروحي الذي يحمل الأمل والسعادة لملايين من الناس في كل زمان ومكان هو وحده الذي تقدسه الإنسانية وتمجده وتنحني له كل صباح ومساء .

وهذا ما حدا بي إلى أن أبعث إليك بهذا الخطاب أناقشك فيه وأدعوك لدراسة الإسلام وحقيقته .

### دعوة لا ينبغي أن تهمل

قد تبدو هذه الدعوة غريبة مني . قد تسخر منها كما سيسخر منها الكثيرون عند السماع بها . ولكنك في هذه الحالة تكون مخطئاً نحو عظمتك وتكون قد ألحقت بها نقصاً لن تقدر على إكماله أبداً . ذلك أنني أدعوك إلى أن تفحص هذه الدعوة التي أدعوك إليها فقد يكون من وراء قبولها خير وقد يكون من وراء إهمالها الشر كل الشر .

إني أدعوك إلى ما يكمل عظمتك وما يجعل لجهادك رسالة معينة تفيض على الإنسانية في القرن العشرين إنني أنا الذي يكتب إليك هذه السطور قد تعلمت كما تعلم الناس . وقد طالعت كثيرا وفكرت كثيرا ، وسافرت وجبت البلاد منقبا ودارسا ، فكنت أنتهى دائما إلى نتيجة واحدة ألا وهي الإسلام . الإسلام هو الذي ينقذ وطني من ربة الاستعمار ، هو الذي ينقذ الشرق بأسره من ربة الاستعمار وسلاسل الذل وأخيرا هو الذي ينشر السلام في أوروبا ويضع حدا للكارثة التي تندفع إليها نعليك بالإسلام وبرسول الإسلام تسلم وتستطيع أن تطمئن إلى أنك تقدم للإنسانية خيرا . أما اليوم وبهذا الطريق لما أخوفنى عليك في النهاية لأن العالم لا يمكن أن يقبل عليه سيذا . ونحن في مصر بل وكل مسلم لا يمكن أن يقبل تحكما وإذا كان قد قبل هذا التحكم بالأمس فذلك لأنه كان في غفوة وسنة من النوم . أما اليوم فقد دبت إليه اليقظة التي تشتد من يوم لآخر ومن ساعة لأخرى . وحسبك دليلا على هذا الذي يجري الآن في فلسطين وما سيجرى في سوريا ، وما سيقع بعد ذلك في كل شبر من البلاد الإسلامية من الدعوة للتحرر والاستقلال والعودة إلى التمسك بالدين فالعالم الإسلامي لن يقبل بعد اليوم تحكما أو تغطرسا أو استبدادا فإذا كان ما يطمعك في السيطرة على العالم وورثة مستعمرات الإنجليز والفرنسيين هو ما تراه اليوم من ضعف المسلمين فأعلم أن هذا الضعف قد أوشك على نهايته ، وأن روح الإسلام ترفع رأسها من جديد في كل مكان .

وبعد ، فهذا خطاب أردت عن طريقه أن أؤدى واجبي كمسلم يدعوا إلى الخير ويأمر بالمعروف وسوف يتخذ البعض هزوا وسخرية وقد تعتبره أنت اجتراء وادعاء على أن ذلك قد ضاعف إحاسامي بوجود كتابته وإرساله إليك ، كما سأرسل إلى السنيور موسوليني وإلى المستر روزفلت وغير هؤلاء من رؤساء الدول . فقيما عندما كانت بيزنطة تحارب الفرس ويتنازعان العالم بينهما وكان قيصر يحارب كسرى ويقاسمه المجد بعث نبينا محمد خطاباتة إلى كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام ... هذه الرسائل لم ترد على سطر أو سطرين والتي يقول النبي في إحداها : «أسلم تسلم ، وأسلم يؤتلك الله أجرك مرتين ، وإن تول فإن إثم الأكاريين عليك .» كان عجبا أن يبعث ذلك العربي الذي لم يكن قد سيطر بعد على شبه جزيرة العرب هذه الرسائل إلى قيصر وكسرى . ولكنه الإيمان بالله والزلزل عند حكمه وقد هزأ كسرى ومزق الخطاب فزق الله ملكه بعد قليل وكذلك هرقل .

ولا تزال رسالة الإسلام حية قائمة لم تن ولم تضعف وباسمها اليوم ولأجل سلام العالم أبعث بهذا الخطاب إليك فإن شئت أجب ما دعوتك إليه واهتممت بدراسة رسالة الإسلام والوقوف عليها ، وإن شئت هزأت بالخطاب واحتقرت شأنه وعندئذ لا أكون قد خسرت شيئا لكنك تكون قد خسرت كل شيء...

وإني أسأل الله أن يهديك سواء السبيل وأن يلهمك طريق السداد والرشاد للخير وخير شعبك وبقية العالم . «والله أكبر ... الله أكبر !»

من وراء القضبان



## تصدير

مواطني الأعزاء :

ترددت كثيراً قبل أن أقدم هذا الكتيب للنشر ، ذلك أنني أحب أن أقدم للناس شيئاً إيجابياً يعود عليهم بالفائدة . ولا أحب أن يكون شخصي محل اهتمامهم أو تفكيرهم وهذا الكتاب خال من العنصر الإيجابي . وكان ذلك سبب إحجامي عن نشره .

ولكنني ساءلت نفسي أليس مجرد الحكاية أو القصة شيئاً يراود لذاته باعتباره لوناً من ألوان الفن الذي يرفه عن النفس ويسليها في أدنى درجاته ، ويسمو بها في درجاته العليا ؟

لقد قيل لِيَان في هذه المذكرات لوناً من ألوان الحكاية والقصة ، ولست أشك لحظة في أنها لا يمكن أن تدرج في سلك الفن العالي أو الجيد ولكنها لا تخلو من ناحية أخرى من تسلية ومن عنصر تاريخي ، سواء بالنسبة لحياة مواطن ، أو بالنسبة لحياة الوطن بالذات .

فبين دفتي هذا الكتاب الصغير حوادث سريعة متلاحقة وقعت لي في المدة من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤ وهي متصلة بكل ما تعرض له وطننا العزيز من أحداث في هذه الحقبة سواء في الداخل أو في الخارج ، وقد يكون هناك كثيرون عاشوا هذه السنوات فلا يقدم لهم هذا الكتاب جديداً من هذه الناحية . ولكن هناك أيضاً جيلاً كان في ذلك الوقت صغيراً لا يدرك هذه الأحداث ، ومن الخير أن يحيط بها ، ولذلك فقد أقدمت بعد التردد ووافقت على نشر هذا الكتاب .

فليطالع القراء بروح التسامح ، وهم واثقون مطمئنون إلى أنني لم أقل لهم في كل حرف من حروفه إلا صدقاً وحقا ، وأن الإخلاص لله والناس الذي هو محور حياتي مصوّر في كل كلمة وفي كل عبارة من عبارات هذا الكتاب ، وإنه ليؤسفني أن حجم الكتاب المحدود قد اضطرنا إلى أن نرفع قسماً كبيراً منه ، وهو القسم الذي يصف بإسهاب حياتي في السجن والمعتقل ... وإني أشكر من أعماق قلبي إخواني المشرفين على إدارة «كتب للجميع» أن היאوا لي فرصة الاتصال بالشعب الذي أعتبر نفسي خادمه

أحمد حسين

## أمر الاعتقال

كان ذلك في الرابع من شهر مايو سنة ١٩٤١ وكانت الثورة العراقية قد أعلنت منذ أربع وعشرين ساعة . وقد انضم إليها الشهيد مصطفى الوكيل نائب رئيس « مصر الفتاة » الذي كان مدرّساً بالعراق وأعلن باسمي تأييدنا للثورة . فرئى أنه لا يمكن السماح ببقائى حراً في مثل ذلك الظرف . فصدر الأمر باعتقالى بعد مرور عامين تقريباً منذ بدأت الحرب مع أننا كنا نتوقع أن نعتقل منذ الدقيقة الأولى لاشتعالها . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث وليس من المستطاع تحرى الأسباب التى وفرت علينا مؤونة الاعتقال منذ اللحظة الأولى ، وربما كان السر في ذلك رغبة القائمين بالأمر في ذلك الوقت في عدم إعطاء مصر الفتاة هذه الأهمية ، أو بالأحرى ذلك الشرف ، وكيفما كان الأمر فقد صدر أمر الاعتقال وكان ذلك في وزارة حسين سرى باشا . كنت جالسا على مكنتى بإدارة الحزب عندما دق جرس التليفون وكان المتكلم أحد رجال القسم السياسى الذى لم يزد على كلمة واحدة غامضة « حان شرف » ثم أغلق التليفون فأحسست بقلبي كل شىء . وأدركت أنه الاعتقال في نهاية الأمر .. خرجت أعدو من حجرتى لألوى على شىء وكان في حجرة الانتظار من كان ينتظر الدخول ولكن لم يكن هناك مجال للتفسير . ولم يكن أمامى إلا أن أفر وأن أعدو بأقصى سرعتى تاركاً هذا المكان على الفور إذا رغبت في الاحتفاظ بحجرتى . وكان على أن أحذر الأستاذ محمد صبيح كذلك فرحت أناديه وأنا أهبط السلم مسرعاً فلحق بى في نهايته والقلم في يده وهو يسألتنى في لهفة : ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ فقلت له : أسرع . أسرع معى ودع كل شىء ، فهم في الطريق . وقد كانت هذه الجملة المهمة كافية لكى يفهم منها صبيح كل شىء فأسرع يعدو إلى جوارى حتى غادرنا دار الحزب والشارع المؤدى إليه وتبادلت وصبيح كلمات قلائل تتلخص في وجوب الاختفاء عن أعين البوليس ريثما تنجلي المسائل ونعرف مصيرنا وماذا يراد بنا

وامتطيت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يسرع بى إلى البيت ٤٦ شارع قصر العيني ، ولكن خاطراً طراً على ذهنى فجأة جعلنى أهتف بالسائق : لا تذهب إلى قصر العيني بل توجه إلى المنيرة ، إلى ٧ شارع عمر بن عبد العزيز سابقاً أو بالأحرى منزل والدى الذى يقع على بعد مائة خطوة من منزلى ، فصعد السائق بالأمر واتجه صوب



المنيرة ... وهنا رحت أعتب على نفسي هذا المسلك الذى بدا لى غير متفق مع الوقار الذى ينبغي أن أنصف به .. لماذا عدوت هكذا وأنا أغادر دار الحزب ؟ أما كان يمكن أن أسير فى اتقاد ؟ إنهم لن يحضروا بسرعة البرق من غير شك ومن يدرينى أن هذا المتكلم فى التليفون لم يكن إلا ماجناً يحاول العبث بى ؟ ولماذا غيرت سير التاكسى وطلبت منه أن يسير فى هذا الطريق المتعرج نحو المنيرة بدلاً من هذا الطريق المستقيم . ؟ لماذا كل هذا الإسراف فى الحيلة وما هى مبرراته ؟ ومضت لحظات لم أرتح فيها إلى تصرفى ورحت أنحو على نفسى باللائمة ، ولكن السيارة كانت قد وصلت إلى البيت المنشود فقطعت على سلسلة أفكارى وكفنتى مؤونة لوم نفسى وتعنيفها ..

كُتبت ورقة صغيرة إلى زوجى أطلب منها بعض الملابس والنقود وأخطرها أنني سأغيب لبضعة أيام فلا تقلق علىّ ، وحمل البواب هذه الرسالة إلى زوجتى وعاد بعد عشر دقائق يحمل أضخم الأنباء فهو لم يكده يصل إلى البيت الذى يقع على بعد خطوات من هذا المنزل الذى أنا فيه ، حتى وجده محاطاً برجال البوليس والضباط الذين جاءوا لاعتقالى ، وتحت أنظار البوليس تسلمت زوجتى هذه الرسالة التى بدت بريئة فى ذلك الوقت لا علاقة لها بى ، وتحت أنظار البوليس أيضاً حمل البواب هذه الربطة الصغيرة التى بعثت بها زوجتى إلىّ كما طلبت ، مصحوبة بالتعليقات اللازمة ، أن لا أقرب من المنزل لأنهم فى انتظارى ليقودونى إلى الاعتقال ، وفى نفس الوقت الذى كان البوليس يدهم منزلى كانت فرقة أخرى تدهم دار الحزب لنفس الغرض . وبعد ثوان قليلة من مغادرتى للدار . وإذن فقد كان إحساسى صادقاً لم يكذبني وهو يستحشني للجرى والعدو بأسرع ما أستطيع ، وكان إحساسى صادقاً وهو يصرفنى عن الذهاب إلى بيتى واستبداله بمنزل والذى فحمدت الله على هذا الإحساس الصادق ورأيت فيه آية توفيق ورضا .

واستحضرتى البواب هذه المرة (تاكسيا) فترلت إليه مسرعاً وطلبت منه أن يسرع بى إلى المحطة ، ولم يكن فى حسابى أن أسافر ولم تكن لى خطة معينة ، ولكن كان يجب على السيارة أن تنطلق وتبتعد بى عن هذا المكان الذى يربط فيه البوليس على بعد خطوات منى .

وانطلقت السيارة نحو المحطة وكنت محتفظاً بكل سِماتى العادية ولذلك فقد مرت بأصدقاء حيوين، ورددت التحية ، بل مرت ببعض ضباط البوليس الذين يعرفونى وأعرفهم فابتسموا لى وابتسمت لهم ، ولم يدر بخلداهم لحظة أنه لن تمضى ساعة واحدة حتى توضع جائزة ضخمة لمن يعثر علىّ ، ويهتدى إلى مكاني وكانت السيارة قد وصلت

إلى العتبة . وهنا فقط أدركت أن لا جدوى من ذهابي إلى المحطة فقلت للسائق سنذهب إلى شبرا ، بل عد بي إلى الحلمية ، ووقف السائق حائراً ، وأخيراً خطرت لي فكرة فقلت له على الفور سنذهب إلى العباسية وهذا شارع فاروق أمامك فاجتزته بنا .. وهنا تلفت السائق ليتعرف على هذه الشخصية التي لا تعرف أين تذهب ، والتي يبدو عليها القلق والاضطراب . وكان جلياً أن السائق قد داخله الشك وساوره القلق ، ولكنه صدى بالأمر في النهاية واندفع بي صوب العباسية . وفي منتصف الطريق نزلت وأعطيت السائق ، الذي حاقق في بكل قوة ، أجرته ، وترثت ريثماً يتحرك ثم انخرط إلى بعض الحارات ولأزقة ، وانتهيت إلى الدار التي وقع اختياري عليها لأفكر قليلاً فيما أنا مقدم عليه ولأرسم خطتي وأدبر شتوني .

وحتى هذه اللحظة لم يكن البوليس قد اكتشف أنني قد اختفيت وأنني معتمز الفرار من وجهه . وكل مافي الأمر أنهم لم يعثروا عليّ في المنزل أو المكتب ولكنني لا بد عائد إلى أحدهما ، فانتظر الضباط في حجرة مكنتي بالحزب ومكنتي بالمنزل ، وقدمت لهم القهوة في هذا المكان الأخير واتصلوا برؤسائهم وأعلموهم بغياي فطلبوا منهم الانتظار . ومضت ساعة وثانية وثالثة ولم أرجع إلى المنزل ، وبدأ شيء من القلق يساور القوم ولكنهم لم يأسوا إلا في الساعة العاشرة مساءً عندما لم أظهر في البيت أو في دار الحزب ، فأدركوا أن العصفور قد طار من القفص ، وأن اعتقال أحمد حسين لن يكون هذه المرة سهلاً هيناً ، فليست المسألة مسألة سجن ونيابة وقضاء حيث يتمتع الإنسان بكافة الضمانات ، ولكنه اعتقال مجهول المدة بغير ضمانات أو حماية من أي لون كان .

\* \* \*

قضى الأمر إذن ، وأصبحت طريد الحكومة والبوليس منذ اللحظة التي آثرت فيها أن لا أنفذ الأمر القاضي باعتقالي ، وأن أعمد إلى الهرب والفرار وقد كانت هذه مفاجأة لرجال البوليس والإدارة لكثرة ما ألفوا ترحيبي بالسجن والاعتقال وأنني أجدهم سعادتي الكبرى في الإخلاد إلى هدوء السجن لعبادة الله وتلاوة القرآن ، فلطالما وقفت بين جدران المحاكم أطلب القضاة أن يحكموا عليّ بالسجن لا الغرامة وأوثر عني قولي « إن السجن هو المكان الطبيعي لشاب حر... » ومن هنا فلم تدر فكرة الهرب من الاعتقال ببال البوليس لحظة واحدة فلم يتخذ احتياطاته ولم يضعني تحت المراقبة اطمئناناً إلى استعدادي لتلبية أمر الاعتقال بمجرد سماعي به ، ولكن البوليس كان مخطئاً في هذه الفكرة ، فقد كان الوقت متغيراً كل التغير في ذلك الوقت فالسجن في ظل القانون

العادية كما أثرت فيما سبق هو مكان محكوم بقوانين ثابتة ، وفي هذه القوانين كثير من الضمانات التي تحمي السجين وتحول دون العسف به وإطالة مدة سجنه بغير داع أو مقتض ، فلا يكون السجن مثلاً إلا بحكم من القضاء وإلا لجرمة معينة ، وإلا بعد أن يستنفد الإنسان كل وسائل الدفاع عن نفسه وإظهار براءته ، وهناك في نهاية الأمر لا يلبث السجين بعدها أن ينطلق حراً . أما بالنسبة للاعتقالات فلا أنظمة ولا ضمانات ولا قوانين ثابتة يستطيع أن يعتمد بها الإنسان ، أو مدة معينة يؤمل الإنسان بعدها في الإفراج ، وإنما كل شيء رهين بأمر الحاكم العسكري ، إن شاء أودع المعتقل في قهر من القصور وسط الحدائق . وإن شاء زج به في سجن التخشيب أحد سجون العصور الوسطى ، وإن شاء أودعه سجن مصر في زنزانة لا يبرحها ، أو أبعد إلى الطور ، ليقم وسط الجرمين والأشرار ، أو أسكنه في أحشاء الصحراء تحت وابل من القنابل والثيران . وذلك هو ما حدث وطبق بالفعل . فشهدت هذه الأمكنة كلها معتقلين سياسيين . وقد كان اعتقالى هو أول تجربة من نوعها في مصر ، في ظل هذه الحرب . فقد كنت أول رئيس حزب رأيت السلطة أن تعتقله ، ولما كنت مشهوراً بتطرفي فلم أكن أعرف ماذا يكون مآل اعتقالى ، وهل أبقي في مصر ؟ أم أننى خارج الحدود ؟ وهل تساء معاملتى أو تطيب ؟ .

على أن ذلك كله لم يكن هو السبب الذى حملنى على الفرار من تنفيذ أمر الاعتقال من غير شك ، فلقد آليت على نفسى أن لا أفر من تضحية مهما كانت ، وأن أحتمل كل صنوف العنت والإرهاق . إنما المسألة كانت مسألة هذه الثورة العراقية التي اشتعلت نيرانها فجأة في القطر الشقيق والتي تطوع فيها شهيدنا الدكتور مضطفي الوكيل ولم يكن يعرف إنسان في ذلك الوقت مدى تطوراتها ونتائجها وما تنتهى إليه ، فأيقنت أن واجبي يحتم على أن أظل محتفظاً بحزبى أطول مدة ممكنة ، لأستطيع أن أخدم وطنى في الوقت المناسب برأى ولسانى وقلمى وهكذا أثرت الفرار ، فانطلق البوليس في أعقابى ، بل تحولت قوة الدولة كلها لاقتفاء آثارى ، وإنها لقوة ضخمة ليس من السهل مواجهتها ، وليس يعرف ذلك إلا من عانى ذلك وجرب .

وبدأت هذه المعركة الصامتة الخفية بينى وبين رجال البوليس الذين شرعوا يقبلون الدنيا رأساً على عقب بجثا خلنى بعد أن هددهم الحاكم العسكري في ذلك الوقت بأشد العقوبات إن لم يعثروا على .

## شيخ

كنت قد قضيت الأيام الأربعة أو الخمسة عقب صدور الأمر بالاعتقال ، محتفظاً بزى العادى ، إلا أننى لبست منظاراً أسود من هذه المناظر الخاصة بحجب ضوء الشمس ، ولما كان ارتداء مثل هذا المنظار يثير الشبهات بطبيعة الحال ، فقد كنت أضع قطعة من القطن على إحدى عيني كأننى أشكو من مرض بها ، وبهذا أصبح ارتداء المنظار الأسود أمراً عادياً وطبيعياً ولقد كنت أستخدم سواد الليل الخالك للانتقال من مكان إلى مكان ومع ذلك فقد كان أخشى ما أخشاه أن تنم على صورة مشيتى ، ولكل إنسان كما هو معروف مشية مخصوصة وجو خاص يحيط به ، يستطيع المقربون إليه أن يعرفوه عن بعد ، ولذلك فقد كنت أتعمد إذا ما سرت أن أعرج بإحدى قدمي لأغير من طبيعة مشيتي . على أن ذلك كله لم يخفف من حدة قلتي ، ولم يقلل من هذه الحرارة التي كانت تغمرني كلما سرت في الطريق ، حرارة الإفراط في الحذر والترقب والخوف من اكتشاف حقيقة أمرى .. وأخيراً استقر عزمي على أن أغير ملابسي وأن أنزل عن طربوشي وبدلتى ، وأتحول إلى دنيا المشايخ بارتداء الجبة والعمامة ، وكان هذا الزى هو أنسب زى يمكن أن أنتكر به في هذه الفترة ، فهو الزى الوحيد الذى يلائم إطلاق اللحية ، وكنت قد شرعت في إطلاق لحييتي ، كما أن هذه الآيات والأحاديث التي أحفظها عن ظهر قلب ، وهذه الروح الدينية التي تغمرني كل ذلك كان من شأنه أن يجيب إلى اختياري زى المشايخ وطلاب العلم .

كتبت إلى أحد أصدقائي وهو الشيخ حامد الفقى أطلب منه أن يعيرني عمامة وجبة ، أو بالأحرى كأكولة يمكن استخدامها مع الجلباب العادى إذا لزم الأمر وأوصيته أن يدبر لي مشكلة العمامة بطريقة لا تجعلني مضطراً إلى لفها من حين لآخر ، فغنى عن البيان أننى لن أستطيع بحال الاضطلاع بهذه المهمة ، مهمة لف العمامة ، والتي قد لا يستطيع الاضطلاع بها مئات من طلاب الأزهر في العصر الحديث . وقد كان صديق الشيخ حامد الفقى على جانب كبير من المروءة والوفاء والبراعة في نفس الوقت . فبعث إلى بإحدى كواكيله (القديمة جداً) وبعث إلى بعمامة محبوكة الأطراف مسبوكة مدججة بالدبابيس هنا وهناك لتحول دون انقراط عقدها ، وكان فرحى بهذه العمامة لا يوصف ولا يقدر .

وإذا بدا يتوفر لدى زى أستطيع في ظله أن أتنفس الصعداء بعض الشيء ، فقد بقى

على أن أستقر في مسكن لأظفر ببعض الراحة لأعصابي التي كانت وصلت في هذه المرحلة إلى آخر ما يمكن أن يتصور من الإنهاك . فقد كان الضغط عليها بالغ الشدة وحسبك أن تتصور أنه كان يخيل إليّ في كثير من الأحوال أن البيوت التي أمر بها وأعمدة المصابيح والأشجار والأرصفة كلها تضحك عليّ وتسخر من تنكري وتصيح بأعلى صوتها : هذا هو أحمد حسين امسكوه . أدركوه . وقد كانت فكرة اكتشاف أمرى بعد حدوث ما حدث تشبه أن تكون بالنسبة لي كابوساً مخيفاً ، فقد تحولت المسألة إلى معركة حامية الوطيس بين وبين قوات البوليس ، وكان اكتشاف أمرى معناه الفشل والهزيمة ، وليس هناك في الدنيا ما هو أمر من الفشل والهزيمة .

لجأت إلى بيت أعز أصحابه . بأكثر مما أعز نفسي ... لجأت إلى أم والدة ، لو أن أمى كانت علي قيد الحياة لما أكرمتها بأكثر مما أكرم هذه الأم ، ولو أن أمى كانت علي قيد الحياة لما كانت حريصة علي نجاتي وانتصاري في كفاحي بل ورفعة شأنى ، كما تحرص هذه الأم التي أنتهز هذه الفرصة لأرفع لها التحيات المباركات ولأقبل يديها الطاهرتين .

وأعني بها والدة الدكتور مصطفى الوكيل

لجأت إليها بعد أربعة أيام أو خمسة من الاضطراب ، فوجدت في ظلها الهدوء والأمن . وأعادت إليّ الثقة والطمأنينة ، ولم أكد أحدثها عن رغبتى في العثور على مسكن خاص لأقيم فيه حتى شمعت عن ساعد الجدل لتنفذ لي خططى وبرنامجى على أحسن وجه ، فاستدعت إحدى قريباتها فجاءت علي عجل هي وابنها الذى يدين بمبادئ مصر الفتاة وكلفتهم بالبحث السريع لإيجاد شقة أو بيت مستقل لأقيم فيه ، على أن يقيا معى ويقوما على خدمتى في هذه الفترة الدقيقة من حياتى ، وتطوع ابن انسيدة والدة ليبحث بدوره وليبذل كل ما في استطاعته للعثور على الشقة وإيجارها وخرج هو و (م.ع) يبحثان عن المسكن المطلوب ، وأخيراً عثرا عليه ، وكان يتألف من ثلاث (مناذر) في منزل يقع في أحد الأحياء الوطنية (جدا) وكان إيجاره الشهرى لا يتجاوز المائة قرش .

ونظف المسكن الجديد وفرش . وانتقلت إليه الأسرة الجديدة والمؤلفة من (م.ع) ووالدته وخاله الطالب بالسنة النهائية بكلية الشريعة ، ولم يكن ذلك الحال سوى أحمد حسين بطبيعة الحال فإذا أردت أن تعرف ولماذا كان طالباً بالسنة النهائية بكلية الشريعة بالذات ؟ فأقول لك ، لقد كان هذا هو التفسير الوحيد الذى يمكن أن يعطى لتصرفاتى وأحوالى في ذلك الوقت ، فقد كنت أستاذاً معممًا وكان عليّ أن أظل مرابطاً بالمنزل لا أخرج منه طوال النهار وذلك من شأنه أن يثير الريبة ، فأما إذا عرف أننى طالب بالسنة

النهائية بكلية الشريعة . وأن هذه الفترة هي فترة الإعداد للامتحان النهائي ، فأحسب أنه من الطبيعي جداً أن أواصل الليل بالنهار في المذاكرة والتحضير دون أن يشير ذلك أدنى شبهة ، وكلما رابطت بالبيت لا أفارقه ، كلما كان ذلك مظهر الجد والاجتهاد وكلما حرك ذلك عواطف أهل البيت لكي يدعوا لي بالنجاح والفلاح جزاءً وفقاً لهذه الماثرة على الدرس والانقطاع عن كل صنوف الملذات .

وهكذا بدأت شخصية الشيخ حسن عبد الجواد تتجلى في سماء حياتي وتتكامل رويداً ، رويداً ، لأن الشيخ حسن عبد الجواد لن يلبث أن ينجح في الامتحان ويصبح محامياً شرعياً ، ويوشك أن يفتح له مكتباً ، على أنه لا داعي للعجلة في سرد الحوادث .

استقر بي الحال في مسكني الجديد بضعة أيام أخرى نعمت فيها بالراحة ( النسبية ) فقد استطعت أن أنام ملء جفوني على الرغم من أن أخفت الأصوات كان يوقظني وأبسط الحركات كان من شأنه أن يزعجني ومع ذلك فقد كنت أنام بعد أن أستعرض موقفى في كل ليلة وأنتى في حرز حريز وأن خط دفاعي سليم فهذا البيت الذى أقم فيه لا يعرف مكانه إنسان في مصر سوى هذا الرفيق الذى تعين عليه أن يقيم فيه ووالدته وكلاهما لا يغادر المنزل إلا بعد أذن وفي الحدود التى أرسمها له وللمدة المعينة التى أسمح بها وكنت أخضعها لاستجواب قاس بعد عودتهما من الخارج عما فعلوه وعما قالوه وعما سمعوه وعما إذا كان قد رآهما أحد من الناس أو المعارف . وكنت أستحلفها بالله أن يصدقانى الخير فلا يكتان عني شيئاً ولا يحاولان أن يزجا برأيها الشخصى في الحكم على الأشياء وإنما تنحصر مهمتهما في أن يكونا عيوناً لي وأرصداً وآذاناً تنقل ما يجرى في الخارج كما هو بغير تحريف أو تعديل وكلما كان تقريرهما اليومى مشجعاً كلما ساعدنى ذلك على الاطمئنان والاستغراق في النوم أما إذا حدث أن تقابلا مع شخص من الأشخاص أو لاحظ عليها ملاحظة فقد كان هذا كافياً لإبعاد النوم عن جفوني لمدة ليالٍ متوالية ريثما يتبدد أثر هذه الملاحظة وأنها كانت ملاحظة عابرة وعادية لا تخنى وراءها شيئاً ولم يترتب عليها أى أثر .

وسرعان ما بدأت أعتاد هذه الحياة الجديدة ونظمت قواعدها وبدأت أضع الخطط لاستئناف نشاطى في الحياة المصرية فقد كان استمرار هذا النشاط هو أهم أهدافى من هذا الاختفاء وكان أكبر عنصر من عناصر هذا النشاط بطبيعة الحال هو متابعة الأخبار الحربية وتطورات الحرب وخاصة متابعة الثورة العراقية التى كانت السبب الأول في اعتقالى وفي حملى على الفرار من وجه الاعتقال وكانت الصحف اليومية هى وسيلتى الكبرى للاطلاع على أبناء الحرب وكانت مهمة (م.ع) الكبرى هى الحصول على هذه الجرائد ولم تكن له

مهمة مخفوفة بالأخطار مثل هذه المهمة وقد يبدو ذلك عجيباً والجرائد تباع في كل مكان ولكن حذرى الشديد قد جعل هذه المهمة من أشق المهام فصاحبي (م.ع) لا يجب أن يبدو متحمساً ولا سياسياً ولا أن يلفت النظر إلى نفسه بحال من الأحوال ولما كان يرتدى الملابس البلدية فإن شراء هذه الكمية من المجلات والصحف في كل يوم من شأنه أن يلفت إليه الأنظار وهو ما يجب أن نتحاشاه جهد الطاقة وعلى هذا فقد كان عليه أن يشتري الجرائد كل يوم من شخص غير الشخص الذي اشترى منه بالأمس بل ومن مكان غير المكان . فكان يذهب إلى العتبة الخضراء أحياناً لكي يشتري الجرائد وسط زحامها الكبير ولعل هذا يعطيك صورة عن هذا الحرص الدقيق الذي كنت أحيط نفسي به في هذه الفترة وسترى أن البوليس لن يستطيع العثور على بحال من الأحوال ما بقيت أتابع هذه القواعد الدقيقة وكان يمكن أن أظل محتفياً ألف سنة دون أن يتهدى إليّ البوليس لو لم أسأم بعد فترة من الزمن هذه الحياة وأوثر عليها حياة الاعتقال بعد أن زالت الأسباب التي حملتني على الاختفاء .

ونعود إلى جدول الأعمال اليومية فأقول إنها كانت تبدأ بالإطلاع على الصحف والمجلات ثم أنتقل إلى كتابة الخطابات التي كانت تبلغ في بعض الأحيان عشرات الخطابات من كل نوع وإلى كل جهة وإلى كل مكان حسبي أن أطلع مقالاً يعجبني في جريدة لكي أكتب لكاتبه خطاب إعجاب ، حسبي أن أقف على تصرف لا أرتاح له من بعض رجال السياسة لكي أكتب له متقدماً تصرفه وأخيراً كنت أكتب لأعضاء الحزب في جميع أنحاء البلاد خطابات أثبت فيهم العزم والنشاط والكفاح والاستعداد للنضال ... وقد كانت خطاباتي في هذه الفترة تفعل الأعاجيب فكأنها كانت لها قوة المراسيم أو الأوامر العسكرية فقد كان الكل يبادرون إلى تنفيذ ما جاء بها من موضوعات للتنفيذ من ذلك أنني بعثت إلى أحد إخواني الذين اختلفوا معي وخرجوا على الحزب أكلفه بطبع منشور معين فصعد بالأمر وطبع المنشور ووزعه وجاءتني نسخ من هذا المنشور بعثت بها إلى أكثر من شخص في أنحاء مصر مكلفاً كلا منهم أن يعيد طبعه وتوزيعه ففعلوا جميعاً ولم يعص واحد منهم الأمر وهكذا كنت من هذا المحبب أسير على نشاط الحزب بأكثر مما كنت أفعل وأنا جالس على مكتبي وإلى جوارى التليفون والسكرتير وتحت تصرفي الجريدة والمطبعة .

على أن القسم الأكبر من خطاباتي كان موجهاً إلى رجال الإدارة والبوليس أناقشهم فيها بعض آرائهم وأوضح موقفي ومحاولاً في نفس الوقت تضليلهم عن مكان اختفائي فقد كانت خطاباتي المرسلة إليهم تسافر أولاً إلى بنها لتصدر إلى القاهرة من هناك فكانت جيوش القسم السياسي تنطلق إلى بنها وتنش عليها حملة هائلة من التفتيش والمراقبة لاكتشاف أحمد حسين

ولكن الخطابات سرعان ما تأتت بهم من الإسكندرية فينتقل النشاط إلى الإسكندرية فلا تلبث الخطابات التي ترد عليهم من المنيا أو أسيوط فيسقط في أيديهم ويدب اليأس إلى صدورهم .

والظريف في هذه الفترة أن حركات ضباط القسم السياسى كلها كانت تيلغنى وبعض أقوالهم وتصريحاتهم كانت تنقل إلى بالحرف الواحد وربما نقلت إلى بعد أن تطوف القطر المصرى وربما نقلت إلى بطريق الصدفة المحضة التي كانت تجعل بعض الضباط يصعقون عندما يصلهم نبأ وقوفى على هذه التفاصيل فمن ذلك أن أحد كبار ضباط القسم السياسى كان يحلق ذقنه عند أحد الحلاقين فدار بينه وبين الحلاق حديث خاص باختفاء أحمد حسين وأن هناك مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يعثر عليه ثم أخرج صورتي من جيبه وأعطاها لابن الحلاق الذى توسم فيه الذكاء والنباهة لكي يحاول العثور على وقد تصادف أن كان أحد الزبائن الجالسين هو من أخلص أنصارى فنقل لى هذا الحديث من خلال سلسلة الاتصالات المتعددة وفوجئى حضرة الضابط الكبير بخطاب منى يسجل كل مادار بينه وبين الحلاق فى هذه المناسبة وأمثال هذا الحادث كثير جداً .

وكنت إذا فرغت من كتابة الخطابات عمدت إلى القرآن أطالع فيه وأحاول أن أحفظ من سوره وآياته ما أستطيع وكان القرآن الكريم بطبيعة الحال هو سلوكى الوحيدة فى هذه الخلوة ومهدئ روعى ومضئ مظللمات الحوادث والظروف التي كانت تغشاني حتى إذا انتهيت من حصّة القرآن التي فرضتها علىّ نفسي انتقلت إلى مطالعة الكتب التاريخية والأدبية التي بدأت أحصل عليها من هنا وهناك حتى إذا حل المساء تناولت طعام الإفطار لأننى كنت أقضى أكثر أيام هذه الفترة صائماً بل لعلى كنت صائماً طول الوقت فإذا انتهيت من إفطارى وصلاة المغرب والعشاء بادرت إلى لبس عمامتى وكاكولتى وانطلقت إلى الخارج لأتصل ببعض الأشخاص ولأقوم ببعض الأعمال أتابع بها نشاطى السياسى واتصالى بالحياة المصرية .

وفى ذلك الوقت ، كانت ذقنى قد نمت بطريقة غير منظمة فكان لا بد من تقليصها (وتوضيها) بحيث تكون لائقة بشيخ وقور فقد كانت مرسله بطريقة شعثناء تبعث الشك فى نفس كل من يراها أو على الأقل تلفت النظر لفتاً غير عادى وكان لا بد من (مزين) لتشذيبها وتوضيها وكان علىّ أن أختار بين أن يحضر الحلاق إلى مسكنى أو بالأحرى مخبئ ليقوم بهذه العملية وبين أن أذهب بنفسى إلى الحلاق لياشر عملية فى مكانه هو ، وكلا الأمرين كما ترى محفوف بالأخطار الداهمة ، فإن حضور الحلاق إلى مسكنى فيه



تعريف بهذا المسكن ولما كان منظري الأشعث في ذلك الوقت يثير الريبة فن أدراى أن لا يقصد الخلاق من فوره إلى البوليس ليقص عليهم قصتى فلا ألبث أن أراهم يهاجمون هذا الوكر الذى أتخصن به ، وإذن فيجب استبعاد فكرة استحضار الخلاق لأنها ذات خطر محقق وبقيت فكرة الذهاب إليه وهذه تعنى الاحتكاك بالناس والاختلاط بهم في ظل الأنوار الساطعة وإسلام نفسى إلى كرسى الخلاق لمدة نصف ساعة إن لم تزد والعيون مرصودة على كل مكان ، وصورى موزعة على العساكر والمخبرين ورجال المباحث ومن يدرينى أن لا يكتشف أمرى بعض أعضاء مصر الفتاة بالذات الميثوثين في كل مكان فيأتى بحركة أو صوت من شأنه أن ينم على ويفضح تنكرى .. والحق أننى إذا كنت أخشى من اكتشاف البوليس لأمرى مرة فقد كنت دائماً أكثر خشية من اكتشاف أعضاء مصر الفتاة لأمرى فقد كانوا جميعاً في هذا الوقت في أشد اللهفة لمراى والاتصال بى وكانوا شديدى الحماسة لمعرفة كل شىء عنى ، فلو أن واحداً منهم صادفنى فجأة لما استطاع أن يتمالك شعوره بحال من الأحوال وهذا ما كنت أحسب له ألف حساب ولكنى في نهاية الأمر قررت أن أغامر وأن أعتمد على الله فلم أكد أفرغ من صلاة العشاء حتى ارتديت ملابسى الوقورة وتزينت بالعمامة المهيبة ووضعت المنظار على وجهى وخرجت أضرب فى بيداء هذا الحى الوطنى الذى كنت أقيم فيه باحثاً عن محل للحلاقة يمكن أن تتوفر فيه الشروط اللازمة لإمكان دخولى وتلخص هذه الشروط فى أن لا يكون فى المحل زبائن وأن لا يكون المحل على قارعة الطريق العام وأن يكون صاحبه كهلاً مسناً أو بادى الغباوة والبلاهة وأن يكون الضوء فى محله خافتاً ضئيلاً لا يكتفى لإظهار ملامح الإنسان ، وأنت ترى أن هذه الشروط مجتمعة لا يمكن أن تودى بك إلا إلى حلاق فقير بل وممتناه فى الحقارة يشبه أن يكون كهذا الخلاق الذى يخلق للناس على قارعة الطريق ومع ذلك فلم يكن لى حيلة فى ذلك ولم تكن الوسواس تساورنى بالنسبة لحقارة الخلاق إلا من الناحية الصحية البحتة فقد كان أخشى ما أخشاه أن يصيبنى بقراع أو بمرض جلدى خبيث وقد حدث لأخى وصديق روى الدكتور مصطفى الوكيل حادث لا أنساه من هذا القليل إذ قصد فى بعض الأيام محل حلاق غير الذى اعتاد الحلاقة عنده ، فإذا به يصب على وجهه فى نهاية الأمر بدل الكولونيا مادة كاوية حرقت جلد وجهه وكان يمكن أن تصيبه بأفدح الكوارث لولا أن الله سلم . كان هذا الحادث يملأ رأسى وأنا أتعمد البحث عن حلاق فقير منزو ، ومع ذلك فلم يكن هناك مفر من الإقدام على هذه الخطوة وقد أقدمت عليها متوكلاً على الله للمرة الثانية .

واستقبلنى الخلاق بما يشبه الفرح الوحشى فلم يحدث أن دخل حانوته المتداعى شيخ فى

مثل بزقي وثرائي وراخ يهلل ويكبر وأوشك أن يبعث بصبيه لاستحضار القهوة ولكنى رجوته أن يكف عن هذه الاحتفالات وأن يسرع على الفور للقيام بعمليته التي كانت تلتخص في قص ذقني وتوضيها لتكون ذقناً محترمة تليق بشيخ وقور ، وكان يجب بطبيعة الحال ، لكي يشرع في عمله ، أن أخلع هذه العمامة عن رأسي وأن أخلع النظارة وأن أضع القوطة البيضاء حول ملابسي ، ومعنى هذا اختفاء كل مظاهر التنكر وظهورى بشخصيتي العادية ، شخصية أحمد حسين وقد كانت هذه محنة قاسية من غير شك ولا أحسب أن صورتي كانت كرهية إلى نفسي في أى يوم من الأيام كما كانت تبدو لي في هذه الفترة وهى تطل علىّ من المرأة وكأنها تسخر مني وتريد أن تدل علىّ .

وكان يجب علىّ أن أفسر للرجل سر هذه الذقن الشعثاء وأن أعطيه عنها تفسيراً مقبولاً لكي لا أترك في نفسه ظلاً من الشك على أن الشخصية التي كنت أنقمصها كانت كفيلة بتقديم هذا التفسير فلم يسبق لي أن أطلقت ذقني لأنني شيخ عصري ولكن ظروف الامتحان وحضوري (غداً) أمام لجنة الممتحنين وكلهم من المشايخ يحملني على أن لا أظهر أمامهم بذقن حليقة وإلا تعمدوا معاكستي على عكس ظهورى أمامهم ملتجئاً فإن هذا يكسبني العطف في صورة (بضع درجات) وقد أعجب كل العجب بهذه الفكرة الطريفة وراح على أثرها (يُجود) خلق الذقن وينظمها وكثيراً ما كانت عيناي تقع على بعض شبان المشايخ وقد رسموا أذقاناً عجبية تشبه أن تكون خريطة جغرافية حيث ترى الذقن تدق من مكان ثم تستعرض ثم تدور بطريقة هندسية عجبية وقد كان هذا المنظر يبعث في نفسي شيئاً من الخجل والحياء لمجرد رؤيته وشاءت تصاريف القدر أن يكون حلاقى ممن يحميدون رسم الخرط على وجوه زبائنهم من أصحاب الذقون .

وغنى عن البيان أنني كنت أنطوى إبان جلوسى في دكان هذا الحلاق على أتون مستعر وبالرغم من أنني كنت أبدو في منتهى الهدوء أحداث حلاقى في رقة ودعابة فقد كان عقلي يعمل بسرعة مخيفة محدثاً حرارة عالية فإذا يكون الحال لو دخل علينا بطريق الصدفة مخبر من المخبرين وكان زبوناً لهذا الحلاق أو قريباً له .. ماذا يحدث لو دخل على واحد ممن يعرفوننى لسبب من الأسباب وأرجو أن يقدر القراء أن افترضوا أمرى كان يعنى بالنسبة لى هزيمة محققة بكل ما تحويه الهزيمة من مرارة فقد كانت المعركة التي تدور رحاها بينى وبين قوات البوليس والدولة والإنجليز تتخلص في الاختفاء ، والعثور علىّ واكتشاف أمرى معناه خسارة المعركة وقد كانت فكرة إمكان خسرانى المعركة بسبب صدقة طارئة ، من الأمور التي ترزعجنى أشد الإزعاج وتجعلنى في كرب شديد وقد كنت أستطيع دائماً أن أحتاط لكل

شئ ولكن هذه الصدقة اللعينة غير قابلة للاحتياط أبداً ، ولم يكن لها دواء عندى سوى  
الابتهاال إلى الله ولذلك فقد كنت أمثل وأنا جالس فى حانوت الحلاق شخصية مزدوجة  
إحداها تحدث الحلاق وتسايه والأخرى تتوسل إلى الله وتبتهل أن يستر عليها وأن يأخذ  
بيدها وفى الوقت الذى كان لسانى ينطق بالفكاهات والنوادر مع الحلاق لأنسيه شخصى  
كان لسان آخر فى أعماق قلبى يردد فى غير انقطاع ... يارب ... يارب ... يارب

وقد أجاب الرب وانتهت المحنة وأعطيت الرجل قروشاً كثيرة ، ولو كان فى استطاعتى  
وقد فرغت من هذه المهمة الثقيلة أن أطير لأبتعد عن هذا المكان لفعلت ولكن وأأسفاه كان  
يجب على أن أمشى وثيداً وأن أظهار بالسكينة والهدوء والوقار بما يتفق مع شخصية طالب  
فى السنة النهائية بكلية الشريعة سيتوجه فى الصباح إلى الامتحان .

## عزيز المصري باشا

فأما وقد أصلحت من ذقني وأصبح منظري محترماً كأي شيخ وقور (إذا تغاضينا عن هذه الكاكولة) الرثة البالية التي كان يخفف من رثائها ويستر حالها الليل بسواده البهيم ، فقد بدأت أشعر بكثير من الاطمئنان والخفة في الحركة ولذلك فقد قررت أن الساعة قد حانت لاستئناف النشاط الحزبي وكنت قد قررت بالاتفاق مع الأستاذ صبيح أن يكون لنا اجتماع أسبوعي في أحد المنازل الآمنة يحضره معنا شخص ثالث أو رابع نطمئن إلى إخلاصهما كل الإخلاص ونحتاج إلى رأيهما في كل صغيرة وكبيرة كل الاحتياج خاصة وأن التنفيذ سيقع على عاتقهم ويكون من نصيبهم . وفي الموعد المحدد اجتمعنا وكنا أربعة وكان جدول الأعمال أمامنا مشحوناً بأخطر المسائل الخارجية والداخلية فتورة العراق كانت قد بدأت تتعثر وبعد أن كان المظنون أن ألمانيا ستسرع إلى انتهاء هذه الفرصة الذهبية التي أتاحت لها لتركيز أقدامها في أخطر جزء حيوي من العالم ونعني به الشرق الأوسط إذا بها لا تغير الموضوع ما يستحق من أهمية ، ومضت الأيام تلو الأيام وهي تتمطى وتتأهب حتى أفلتت الفرصة من يدها وانتكست الثورة العراقية ودخلت في دور الضعف والاضمحلال لاختلاف الآراء بين زعماء العراق على ما أخبرني به الدكتور مصطفى الوكيل فقد كان هناك فريق يطالب بوجوب الاستنجد فوراً بالألمانيين وفريق آخر يرى في ذلك ضرراً بالغاً بسيادة البلاد وحريتها ويخشى أن تخلص العراق من الاحتلال البريطاني لتقع في براثن الاحتلال الألماني فكان هذا الخلاف في الرأي الذي تطور فيما بعد تطوراً خطيراً هو الصخرة التي راحت ترتطم بها سفينة الثورة العراقية ، ولكنها لم تكن قد تحطمت في ذلك الوقت بعد فكان هذا الموضوع ومناقشته هو أول ما يشغل بالنا هذه الأيام وكان هناك حادث ثانٍ قد هز أعصاب الدنيا كلها في هذه الفترة وهو طيران المهر هيس نائب هتلر من ألمانيا ونزوله في إنجلترا واعتقاله هناك . كان هذا الخبر من أعظم المفاجآت المسرحية التي فوجئ بها العالم في ثنایا هذه الحرب ، ولقد غرقت الدنيا في ذلك الوقت في طوفان من الأقوال والإشاعات والأراجيف والتعليقات حول فرار هيس من ألمانيا والتجائه إلى إنجلترا وقيل فيما قيل وقتئذ إن الرجل قد جُن وإن أعصابه قد اختلت وقال الإنجليز إنه فر هارباً من ألمانيا ناجياً بنفسه من غضب هتلر وسخطه وخوفاً من أن يسقط صريعاً كما سقط من قبله كثير من زعماء النازي .

على أنه لا ثورة العراق بضخامة نتائجها وخطورة تطوراتها ، ولا حادث هيس بجلال قدره كان هو محور حديثنا هذه الليلة على قدر ما كان حادث عزيز باشا المصرى هو أخطر ما واجهنا فى تلك الأيام ، فلم يكذب يهدأ الناس فى أنحاء البلاد من آثار المفاجأة التى أحدثها هيس بطيرانه من ألمانيا إلى إنجلترا حتى اهتز الرأى العام المحلى فى مصر بحادث لا يقل إثارة للخواطر ألا وهو نبأ محاولة الفريق عزيز باشا المصرى للفرار من القطر المصرى بصحبة اثنين من ضباط سلاح الطيران المصرى على متن إحدى طائرات هذا السلاح وسقوط هذه الطائرة بعد دقائق قليلة من تحليقها فى الجو فى منطقة قليبوب .

كان الأستاذ صبيح على ما أذكر هو الذى حمل إلينا هذا النبأ الخطير الذى لم يكن قد عُرف بعد فلم أكد أصدق أذنى وظننت أن الأمر لا يعدو أن يكون إشاعة ، ولكن الأستاذ صبيح أكدته لى وقص على كيف عرف الخبر من مصدره الوثيق أو بالأحرى من ذات الشخص الذى التجأوا إليه وآواهم إلى مسكنه وهو الأستاذ الفنان والشاب الوطنى الصادق . عبد القادر رزق .

كان الأستاذ عبد القادر رزق هو الذى قص الخبر بنفسه على الأستاذ محمد صبيح وأنه فوجئ ذات صباح بحضور عزيز باشا المصرى ومن معه ، وإذن فقد كان الأمر جدًّا لا هزلًا وحقيقة لا إشاعة ، فرحنا نبحت فيما يمكن أن يكون لهذا الحادث من تأثير علينا ، تساءلنا عما إذا كانت الحكومة ستذيع هذا النبأ أو ستخفيه كما أخفت نبأ غرارنا نحن وكان من الجلى الواضح أن الحكومة مترددة بين الإعلان والإذاعة ثم قررت فى نهاية الأمر الإذاعة الكاملة المطلقة ليكون هذا مؤديًا إلى اعتقال عزيز باشا المصرى فصدرت الجرائد وهى طافحة بأنباء هذا الحادث وسطعت الأحرف الضخمة على صفحات المصرى والأهرام وجميع الصحف والمجلات متحدثه عن هذا الحادث العجيب الذى لم يلبث أن طغى فى مصر على الأقل على أنباء الهر هيس وفراره ، وراحت البلاغات الرسمية تترى من ساعة إلى أخرى بأنباء المكافآت والعقوبات وتحول كل مصرى إلى أنف تشم رائحة عزيز باشا المصرى أو إلى أذن تنصت إلى صوته إن لم يكن بنية سيئة فعلى سبيل حب الاستطلاع والفضول ، وهكذا تكهرب الجوف فجأة بالنسبة لنا وأصبح اختفاؤنا من أشق الأمور وأعسرنا ولقد قدرنا ذلك كله فى ليلتنا فاتفقنا على أن نلزم مخابثنا لا نبرحها بأى حال من الأحوال حتى تنتضى هذه الزوبعة من البحث والتفتيش والمطاردة وافترقنا على غير موعد لتتقابل فيه وعدت إلى مسكنى وأنا أنتفض من شدة التأثير والشعور بما ينتظرنا من أهوال فى الأيام المقبلة .

وأعلنت حالة الخطر بمجرد عودتى إلى المخبأ وأصدرت أوامرى القاسية الشديدة على

هذين الزميلين الكريمين م.ع. ووالدته وكانت هذه الأوامر تتلخص في أننا يجب أن نجس أنفسنا لأطول مدة ممكنة في هذا البيت فلا يبرحه واحد منا بأى حال من الأحوال .

بدأ أثر حادث عزيز المصرى يتجلى في شدة اهتمام رجال البوليس وقيامه بحملته الاكتساحية بحثاً عنه وعننى في نفس الوقت وكان البوزباشى إبراهيم إمام يعتبر في ذلك الوقت مسئولاً عن مراقبة حزب مصر الفتاة ومتابعة نشاط أعضائه فاعتبر هو المسئول الأول عن حادث فرارى وفرار عزيز باشا المصرى بدعوى أن نشاط حزب مصر الفتاة كان يتصل بنشاط سعادته ولذلك فقد احتمل العبء الأكبر في هذه الأيام وبذل جهوداً مضنية يتحدث عنها زملاؤه ومعارفه ويذكرونها أحياناً في معرض التندر والتفكه عليه ، ولما كان الحاكم العسكرى قد وعد من ناحية أخرى بأجزل المكافآت والعطايا والترقيات لمن ينجح من رجال البوليس في العثور على الممارين فتستطيع أن تصور لنفسك مدى الحماسة والنشاط اللذين كان يعمل بهما رجال البوليس في ذلك الوقت . فمن ناحية كان سيف الإرهاب مصلاً فوق رؤوسهم ومن ناحية أخرى كان الإغراء يلوح لهم . ولكن الطريدة كانت عزيزة المال عليهم فوقوا حيارى لا يعلمون ماذا يفعلون وفي أى اتجاه يسرون . وكان لرجال البوليس في كل يوم خطة وأخيراً فكروا في تفتيش القاهرة بيتاً بيتاً ، ولكن هذا العمل مستحيل في حد ذاته لعدم وجود القوة الكافية للقيام به فرؤى أن تحشد جميع قوات البوليس السرى في كل ليلة في حى من الأحياء وأن تستعرض المنازل واحداً بعد آخر على أن يفتش كل بيت يشتبه في أمره وعلى هذا الأساس كانت قوة المباحث تنتقل إلى قسم السيدة مثلاً ثم تبدأ بشياخة من شياخات القسم وهكذا حتى تفرغ من دائرة قسم السيدة فتنتقل إلى قسم آخر .

ولقد وصلت إلى علمى هذه التفاصيل ووصل إلى علمى نأى شروع البوليس بالفعل في هذه العملية فأسقط في يدى ولم أعرف ماذا أفعل وكيف أنجو من هذا الخطر المحدق . فكرت في أن أغادر القاهرة ولكن مجرد التفكير في هذا الموضوع جعل العرق يتصبب من جبينى فقد كان جهد البوليس الأكبر منصبا على مخارج القاهرة فلا يكاد مسافر واحد عن طريق السكة الحديد أو السيارات فضلاً عن السائرين على الأقدام يمكن أن يفلت من فحصهم وقبضة أيديهم فلا مناص إذن من التخلي عن كل فكرة في مبارحة القاهرة في الوقت الحاضر ولا مناص من الانتظار ريثما تهدأ هذه الزوبعة لأنه لا يمكن إلا أن تهدأ بعد قليل بعد أن يدب اليأس إلى قلوب رجال البوليس ويطنى عليهم « روتين » حياتهم اليومية وأشغال وظائفهم العادية ولم يكن هناك مكان أصح من مخبئى الحالى للاختفاء فيه فقررت . أن أبقي حيث أنا وإن الأمر كله لله يقضى فيه بمشيئته ، وكان الاحتياط الوحيد الذى فعلته .

هو أنني حتمت على ربة المنزل وابنها ألا يبرحا المنزل أبداً إلا للضرورة القصوى ، ورحت أبذل من التوسل والابتهاال إلى الله سبحانه وتعالى أن يستر عليّ وأن يعمى عني الأبصار وكان يحدث في هذه الفترة أن يثق الباب دقاً خفيفاً فكانت قلوبنا تنخلع على الفور وتفيض الدماء من عروقنا ويسقط في أيدينا ثم تذهب السيدة تفتح الباب في حذر فيتبين لها أن أحد أطفال الحارة (وما أكثرهم) كان يعبث ويمزح فتستفسر الصعداء جميعاً ولا تجد السيدة ألفاظاً لتعنف بها الولد العايب فلا تملك إلا الابتسام وكثيراً ما كان الباب يقرع على سبيل الخطأ من أحد المارة الذين يبحثون عن بيت آخر فيتكهرب الجو فجأة وتنشأ أزمة حادة .

على أن أعظم ما كان يفزعنا في ذلك الوقت هو صوت محرك السيارة لأن البوليس إذا ما فكر أن يدهم مخبأنا فلا بد أن يأتي بأكثر من سيارة .

ولما كان الحى الذى أقطن فيه هو حى وطنى (قح) والحارة التى أسكن فيها بالذات لا تعرف شيئاً كثيراً عن السيارات فى الدنيا فكان مجرد سماعنا لأزيز محرك سيارة عن بُعد معناه أن القضاء قد حُجمٌ وأنا قد وقعنا فى نهاية الأمر ولقد كانت هذه الحالة تضغط على أعصابى ضغطاً شديداً أو خفيفاً وكلما فكرت فى أن البوليس يكفى أن يفتح هذا الباب لكى لا يكون لدى سبيل للفرار أو المقاومة وأنتى سأقع فى يده غنيمة باردة كما يقع الفأر فى المصيدة . كنت أشعر بحرق شديد وبالغضب يكاد يحرق أعصابى .

ونعود إلى حديث السيارة وما كانت تحدثه بين صفوفنا من الاضطراب وفى كل مرة كان يتبين أن هذه السيارة حكومية بالفعل ولكنها جاءت لغير عمل البوليس ، فيظهر أحياناً أنها سيارة الصحة أو أنها سيارة السكة الحديدية وغيرها من هذا الطراز .

ولكن سيارة البوليس جاءت بالفعل فى يوم من الأيام وجاءت تبحث عن الهاربين بالذات وتستعرض البيوت بيتاً بيتاً وتسأل عن أصحابها ولقد أدركت ذلك كله بالهرج والمرج الذى بدأ يسود الحارة بعد وصول السيارة وبأبواب البيوت تدق واحداً بعد الآخر ولم يكن أمامى من أفزع إليه إلا الله فهرعت أصلى وأسجد وأطيل السجود وأسأله أن لا يسلمنى إلى الأعداء وأن يعفنى من مرارة الخيبة والهزيمة ولكن لم أكن أعرف كيف يمكن النجاة فى هذه المرة وقد أحاط البوليس بالمنطقة .. ودق الباب كما يثق رجل البوليس الأبواب .. وجمدت أعصابنا وأطرافنا جميعاً ونظرت إلى السيدة حيرى لا تستطيع أن تعرف ماذا تفعل فقلت لها تقدمى على بركة الله وافتحى الباب وليكن ما يكون .. وسارت بخطوات متباطئة متناقلة والباب يثق بأكثر غلظة حتى إذا وصلت إلى الباب لم تطاوعها يدها على فتحه وتمهلت كأنها تريد أن تؤخر وقوع الكارثة ثم فتحت الباب فإذا بمخبر من مخبرى البوليس

يسألها في بساطة «مين اللى ساكن هنا» فردت عليه قائلة «إنت عاوز مين» فقال لها «أنا بسأل مين اللى ساكن هنا» وإذا بالسيدة تنفجر في وجهه وإذا بها تصب عليه اللعنات والشتائم «أيه ياخيتي البلاوى دى ، أياه اللى مين ساكن هنا .. بقى يا راجل تصحيننا من النوم علشان تقول مين اللى ساكن هنا .. أمّا مصايب صحيح .. أمّا .. أمّا» وعبثًا حاول الرجل أن يفهمها ، وعبثًا حاول أن يشرح لها وعبثًا حاول أن يقول لها إنه رجل بوليس ولم يكن هناك إلا أسلوب واحد لوضع حد لثورتها هو أن يفر من أمامها ناجيًا بنفسه وقد فعل وهكذا نجونا بفضل هذا الإلهام الذى ألهمه الله للسيدة لتقف هذا الموقف .

\* \* \*

لم تلبث الزوبعة التى ثارت بمناسبة حادث عزيز باشا المصرى أن هدأت بالتدريج بعد أن ينس البوليس من العثور عليه وترامت الإشاعات بأنه نجح في اختراق الصحراء الغربية واتصل بالألمان وزاد البعض على ذلك أنهم سمعوه يذيع من محطة برلين بالفعل ولما كنت أعرف أين يوجد عزيز باشا المصرى فقد كنت أبتسم لهذه الإشاعات وأفهم منها كيف أن مجرد الجهل يؤدى بالإنسان إلى التخبط والتعثّر في بحار الخدس والتخمين ، على أن بعض رؤساء البوليس كانوا على ثقة من أن عزيز باشا المصرى لم يبرح القطر المصرى بل إنه موجود في القاهرة بالذات كما كانوا على ثقة من وجودى بها كذلك . ولذلك فقد طلبوا من الحاكم العسكرى وقتئذ أن يعطيهم الفرصة الكافية للبحث في هدوء وسكينة للعثور على عزيز باشا المصرى .

واتصلت من ناحيتى بعزيز باشا المصرى فأرسلت له خطابًا أسجل فيه احترامى وتقديرى لشخصه ولزميله الضابطين ولم تمض أيام قليلة على إرسال خطابى إليه حتى فوجئت بنبا العثور عليه واعتقاله فكانت هذه أكبر صدمة أصابتنى في هذه الأيام وملأتنى غمًا وكملاً . ولقد وصل إليّ نبا العثور عليه وأنا في موقف دقيق لا أظن أنني عانيت موقفًا مثله في كل الفترة التى اختفيت فيها ، فقد كان على أن أحلق شعر رأسى وأن أنظم ذقنى بعد انقضاء شهر كامل على مغامرتى الأولى في قص الشعر والذقن التى تحدثت عنها فيما تقدم فاستعنت بالله وقررت أن أخرج من مخبئى لأقص شعرى ورأيت أن خير طريقة أستطيع أن ألجأ إليها هذه المرة هى أن أتوجه إلى بيت أقاربى في حى من الأحياء الوطنية وأطلب منهم أن يستحضروا لى حلاقًا بمعرفتهم ليقص لى شعرى في البيت فيكون ذلك مدعاة للأمن والاحتياط . ولقد فوجئ أقاربى برأى وسطهم في هذا الزى الغريب بالنسبة لى وبعد أن زالت عنهم دهشة المفاجأة أقبلوا يعبرون عن عواطفهم وعن



استعدادهم لعمل كل شيء لمساعدتي ومعاونتي في الاختفاء فشكرت لهم هذه العواطف وطلبت منهم استعداد حلاق بأسرع ما يستطيع فأرسلوا الثقة الأمين لاستدعائه وفيما نحن نترقب مقدم الحلاق إذا بسيدة الدار تلقى على هذا السؤال المفاجئ « هل صحيح أنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى ؟ » غاض الدم في عروقي على الفور وتقطعت أنفاسي واستطعت بصعوبة أن أرد عليها في غلظة قائلاً « من الذى قال هذه السخافة ؟ » فأجابتنى : كنت أسير اليوم بالقرب من المذبح فسمعتهم يتحدثون بأنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى في ناحية القبة . ولم أكد أسمع هذه الكلمة الأخيرة حتى سرى عني وعلمت أن الإشاعة مكذوبة لعلمي أن عزيز باشا المصرى يقيم بمنزل الأستاذ رزق في امبابة ودخل علينا ابن السيدة من الخارج فبادرنى بالسؤال في لفة « هل صحيح أنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى ؟ » قلت له وقد دب إليّ الشك من جديد في صحة الإشاعة مستحيل ، مستحيل هذا كذب قال : يقولون إنهم وجدوه مختبئاً في مصر القديمة فتنفست الصعداء وقلت له إن هذه لا تعدو أن تكون إشاعات مما اعتدت سماعها في كل يوم فلم يكذب صاحبنا يسمع منى هذا التكذيب حتى انطلق إلى الخارج في حماسة فأدركت أنه يريد أن يسرع بهذا التكذيب إلى بعض إخوانه ومعارفه وربما دفعته الحماسة لأن ينسبه إلى بالذات فتكون الطامة الكبرى وفكرت أن أنجو بنفسى من هذا المكان الذى أصبح خانقاً بعد انتشار هذه الإشاعة في سمائه ولكن الحلاق كان قد وصل يحمل حقيقته فلم يسعني إلا أن أستسلم وأمضى في عملية قص الشعر حتى نهايتها . وشرع الأسطى في عملية وشعرت الأحاديث تفيض من لسانه « هل سمعت يا فضيلة الأستاذ أنهم قبضوا على عزيز باشا المصرى ؟ » وكدت أهرم بصب اللعنات والشتائم على مروّجى هذه الإشاعة التى بدأت تضايقني لولا أنه عاجلني بقوله « هذا الخبر أكيد جدا قصه على أحد الضباط ، وعلمت منه أنهم كانوا يختبئون في فيلا بامبابة » .

ولم يكذب يلفظ هذه الكلمة الأخيرة حتى خيل إليّ أن الدنيا قد امتلأت بالرعود والزلازل وأن السماء توشك أن تنقض على الأرض وراحت النيران تلهج وجهي وتشتعل في جسدي وجمد لساني وتصيب العرق من جبيني وصرت إلى حالة سيئة جدا لا عهد لي بها من قبل ، كلمة واحدة كانت كافية لإقناعي بأن الخبر صحيح لاشك فيه وأغلقت في وجهي هذا الثقب الصغير من الأمل الذى كنت أتعلق به من أن تكون الإشاعة مكذوبة وهذه الكلمة وهى كلمة « إمبابة » فأثما وقد قيلت فالأمر جد لا هزل وحقيقة لا إشاعة لأن عزيز باشا المصرى كان يقيم بالفعل في فيلا بامبابة وتملكني بعد قليل شعور بأنه سيقبض على وأن البوليس لن يلبث أن يدهمني في هذا المكان .

ولكن الأسطى الحلاق كان أبعد ما يكون عن معرفة هذه الخواطر التي كانت تفترس رأسي وهذه النيران التي تتأجج في صدري فراح يمضي في عمله بهدوء وفي برود معلقاً على حوادث الكون كلها وكان طبعياً أن يتحدث عن الاعتقال والمعتقلين مادام أنه يستعرض حوادث الكون ولكنه لم يلبث أن فاجأني بالتحدث عن أحمد حسين «ما رأيك يا أستاذ في أحمد حسين» يا للصواعق وباللشياطين. ويا للأبالسة مجتمعة.. لم أحر جواباً لأن التكلم في مثل هذا الموقف فوق طاقة البشر فيما أظن وأعتقد ، واسترسل صاحبي في حديثه عن أحمد حسين «الراجل الجدد الوطنى الى مافيش منه» وكان هذا المديح أبعد ما يكون عن أن ينال ارتياحى بل على العكس زاد في ضيقى وفي ارتباكى لأنه أدخل الشك إلى نفسى أن يكون الرجل قد اكتشف أمرى وأنه يعرفنى .. وكان علىّ أن أتكلم في نهاية الأمر لئلا أزيد في شكوك الرجل إذا كان يجهل أمرى فقلت له بعد أن استجمعت كل قوتى . ومع ذلك فقد نرج صوتى مبوحاً أجش من هو أحمد حسين هذا ؟ ودهش الرجل لسؤالى «أحمد حسين يا أستاذ ، ماتعرفش أحمد حسين ليه أنت مش من مصر» قلت له أظنك تعنى أحمد حسين بتاع مصر الفتاة .. !

– وهو في غيره يا أستاذ

– يا شيخ دا ولد مهووس بلا لعب عيال

واطمأننت بعض الشيء لهذا الحوار الذى دلنى على أن الرجل لم يكتشف أمرى فتمالك هدوئى ورحت أتحدث معه في شخصية أحمد حسين أحاول أن أخرجها وأنتقدتها فينتطق الحلاق في الدفاع بحجارة عجيبة ثم نظر إلى قريبى الذى كان يجلس معنا في الحجرة وصاح به قائلاً يعنى يا فلان قاعد ساكت والأستاذ نازل دم في قريبك ما تتكلم يا أخى ما تدافع عن قريبك أحمد حسين ..

وإلى هنا بدأ الموقف يرتبك ويدخل في مرحلة الخطورة فأخرجت من جيبي الساعة ونظرت فيها ثم صحت مبدئياً أسفى لتأخير الوقت وطلبت من الحلاق أن يسرع في إتمام عملية وإلا فإنى سأكون مضطراً للانصراف حالاً وكان أسلوبى خشناً وقويا فساد الصمت الرهيب على الحجرة ولم يعد يسمع فيها إلا صوت المقص وهو يصطك ..

وأخيراً فرغنا وارتديت عمامتى وتأهبت للانصراف وأخرجت من جيبي خمسة قروش لأعطيها للأسطى الحلاق فإذا به يمتنع ويقول لا والله لا يمكن أبداً أن آخذ منك نقوداً .. ومرة أخرى غاض الدم من وجهى فقد أدركت أن الرجل يعرف من أمرى كل شئ فليس هناك تفسير لرفضه إلا أن يكون هذا هو الواقع ولكنى تمالك نفسي هذه

المرّة وألححت عليه فقبلها ثم انطلقت لا ألوى على شيء ودون أن أسلم على أصحاب البيت ورحت أقفز السلام أربعاً فأربعاً حتى إذا رأيت نفسى فى الحارة حاولت أن أتصنع الهدوء فلم أستطع ورأيت الناس تنظر إلىّ وتحقق فى وجهى لأول مرة فأسرعت الخطى والعرق يتصبب من جبينى وبدأت أنفاسى تضطرب وأذناى تطن وتخيل إلىّ أن الناس تعرفنى وأنهم يصيحون . هذا هو أحمد حسين .. امسكوه اقبضوا عليه .. !!

\* \* \*

لم أرجع إلى مخبئى فقد قررت أن لا أعود إلى هذا المخبأ وأن أقصد إلى بيت صديق من الأصدقاء الذين أثق بهم لأختبئ عنده ريثما يستقر قرارى على الخطة الجديدة التى انتويت سلوكها . وانتظرت حتى إذا جن الليل ذهبت إلى دار الصديق وهو يقيم بمفرده فى شقة صغيرة فانفقنا على أن أعيش معه فى الشقة دون أن يشعر أحد بوجودى .

ولما كان صاحبنى هذا رجل يعشق النظام وقد اعتاد أن يخرج من بيته كل يوم فى ساعة معينة وأن يسهر بالليل حتى ساعة معينة فتم الاتفاق على أن لا نغير شيئاً من هذه المواعيد وهذا النظام وكان مؤدى هذا أن أجلس دون حراك طوال النهار فى داخل حجرة من الحجرات حتى لا يشعر السكان بوجود حركة فى داخل الشقة فى غير مواعيده المألوفة وكان ذلك أمراً محتملاً فى النهار حيث كنت أجلس لأطالع . أما فى الليل فقد كان علىّ أن أبقي وحيداً فى الظلام الدامس ريثما يعود من الخارج عند منتصف الليل إن لم يكن بعد ذلك حيث يقضى عليه عمله وظروفه أن يتأخر حتى هذه الساعة المتأخرة ولم تطل إقامتى فى هذا المخبأ الجديد حتى توالى الأنباء السيئة من كل مكان وانتهت بمرض صديقى صاحب البيت لأول مرة فى حياته فكان ذلك إيذاناً بوجود مغادرة هذا البيت بل ومغادرة القاهرة كلها ...

\* \* \*

قبض على الأستاذ صبيح بعد عزيز المصرى باشا وسبق إلى سجن الأجانب وأودع به وقد كان ذلك أول إشارة عملية لما سيكون عليه نصيبنا فى الاعتقال وهو أن نودع سجن الأجانب والحق أننى اغتبطت لهذا المصير فقد ألفتُ السجون ولم أعد أرهاها .

على أن القبض على الأستاذ صبيح قد دفعت فى عضدى بعض الشيء وجعلنى أفكر فى عدم جدوى الاختفاء ولكن رغبتى فى المساهمة بأكبر قدر مستطاع فى المساهمة فى

الحوادث التي توشك أن تغمر البلاد بل الدنيا كلها جعلتني أترث وأتوقف عن تسليم نفسي .

حقا لقد كانت ثورة العراق قد صفيت تماماً في ذلك الوقت وأوشكت عمليات إنجلترا لاحتلال سوريا أن تكمل بالنجاح التام ومعنى ذلك استقرار الوضع العسكري في الشرق الأوسط ولكن هتلر يوشك من ناحية أخرى أن ينقض على إنجلترا ويغزو الجزر البريطانية بعد أن فرغ من احتلال يوغوسلافيا واليونان ووطد مركزه في شرق أوروبا وكانت الدنيا كلها تتطلع إلى هذا الغزو وترقبه وكانت لحظة من لحظات التاريخ الحاسمة التي تتأرجح فيها الظنون هل يسير يميناً أم يتجه صوب الشمال كانت البشرية على مفترق الطرق فلو قدر لهتلر أن يغزو إنجلترا وأن ينجح لانقلب مصير العالم كله ولذلك فقد كان الناس قاطبة في هذه الفترة يحبسون أنفاسهم في انتظار مشيئة القدر .

وكنت ممن يحبسون أنفاسهم ولذلك فقد تركت كل بحث ومناقشة في تسليم نفسي إلى أن يتكلم القدر وقد تكلم القدر أخيراً وبدلاً من أن يدفع هتلر وألمانيا صوب الغرب دفعها نحو الهاوية في الشرق .

وإني لأذكر الآن بعد سنوات من هذا التاريخ المكان والساعة والكيفية التي تلقيت فيها قرار القدر النهائي في حياة العالم . كنت محتبئاً في بيت صاحبي هذا الذي يعيش وحيداً وكنت أقيم عنده على الطريقة التي وصفها بحيث لا يشعر إنسان غيره أنني موجود في هذا البيت وكان يحمل إليّ الجرائد بطبيعة الحال فكنت أرى فيها لغطاً عن قرب مهاجمة ألمانيا لروسيا وحديتاً مستمرا عن التوتر الذي صارت إليه العلاقات بين روسيا وألمانيا ولكن لم يدر بجلدي لحظة واحدة أن يكون ذلك حقاً وإنما اعتبرته لوناً من ألوان القوي الذي برع فيه هتلر في ذلك الوقت فيهاجم في ناحية حيث كان يظن أنه سيهاجم في الناحية الأخرى ولكن كوكب السعد كان قد فارق هتلر فبدأ يخرج حتى على خططه التي نجح في ظلها فهجم حيث كان كل إنسان يتحدث أنه سيهجم ، وهجم في الوقت الذي كان يعرف فيه كل إنسان أنه سيهجم وجاءني صاحبي في الظهر وحدثنني في أحوال البيت العادية وبعد قليل قال لي بغير اكتراث «على فكرة» هتلر هجم على روسيا وكأنما قد انفجرت في داخل صدرى قبلة لمجرد سماع هذا الخبر فقد كانت هذه الكلمة الصغيرة تعني في نظري تحول مجرى التاريخ .. قلت له من قال لك ؟ فأجابني سمعت في الترام ، وفي هذه اللحظة جاء بائع الجرائد ينادي بالخبر فقلت لصاحبي وكنا في يونيو سنة ١٩٤١ لقد خسرت ألمانيا الحرب .

## المطاردة

هجم هتلر على روسيا .... وكان معنى ذلك أن الحرب قد دخلت في دور طويل الأمد وأن هذا الأمل الذي كان يداعب قلوب البشر في حرب قصيرة الأمد قد قضى عليه نهائياً وثبت أن إنجلترا كانت أبعد نظرًا عندما قررت منذ الأسبوع الأول من الحرب فتح الاعتمادات اللازمة لحرب تدوم ثلاث سنوات .

لقد ضحكنا جميعاً في ذلك الوقت ومازالت ترن في أذني حتى اليوم هذه العبارات التي قلت من هنا وهناك تعليقاً على هذا القرار ولكن هذه السنوات الثلاث توشك أن تصبح سناً ولم تنته الحرب بعد ، وهكذا لا يستطيع الإنسان بحال من الأحوال أن يعلم شيئاً عن عالم الغيب أو أن يحكم على ظروفه وتقلباته .

كان لابد إذن أن أغادر القاهرة لأنني لا أستطيع أن أعيش إلى ما شاء الله في سجن مقفل وأن لا أتحرّك إلا بالليل كالحفّافيش وأن لا أطرب لشيء قدر طربي للظلام لأنه كان الثوب الوحيد الذي أستطيع أن أتشح به وأنا مطمئن إلى أن أمرى لن يكشف .

كنت قد ضقت ذرعاً بهذه الحالة وبدأت أهفو إلى نور الشمس وإلى الحركة في وضوح النهار وإلى قبس من نسيم الحرية ، ولما كان هذا مستحيلًا بطبيعة الحال في القاهرة فقد اعتزمت السفر إلى الأرياف حيث أستطيع في ظل تنكري أن أروح وأغدو آمنًا مطمئنًا إلى حدٍّ ما .

على أنني ظلت مترددًا بعض الشيء حتى وقع صديقي الذي كنت أحتجئ عنده مريضاً فأصبح من المستحيل أن أقوى على البقاء عنده لكيلا يفتضح أمرى لأن أقاربه سيهرعون إلى زيارته من غير شك وقد يحتاج الأمر إلى استدعاء الأطباء وكل هذا لا يتفق والتكتم الذي ينبغي أن يصحب وجودي عنده .

وبدأت خطتي لمغادرة القاهرة ولم يكن ذلك بالأمر السهل أو الهين فقد كانت منافذ القاهرة مسدودة بالمخبرين والجواسيس ورجال البوليس . كانت جميع المحطات تحت المراقبة وجميع الطرقات الزراعية الخارجة من القاهرة تحت المراقبة الدقيقة كذلك فما هو العمل !

وعبئاً حاولت أن أغمض عيني هذه الليلة بل ظلمت وزميلي الأستاذ الزبدي مسهدين حتى إذا طلع النهار بدأنا نغير خططنا ومع ذلك فقد كان لابد من أن نجازف بأنفسنا فنسافر من محطة مصر بالليل ولقد كنت أشعر من حين لآخر بضرورة المجازفة والحق أن القائد الذي يرسم أى خطة عسكرية لا يستطيع بحال من الأحوال أن يخرج المجازفة من حسابه . ومن الواضح أن الحذر والدقة لا زمان لإنجاح أى مشروع من المشروعات أو أى خطة من الخطط ولكن من الواضح أيضاً أن عنصر المجازفة هو أهم عناصر النجاح من غير شك .

قلت للأستاذ الزبدي الذى اخترته ليكون مرافقى فى السفر سنسافر الليلة فى قطار الصعيد حيث تكون الساعة متأخرة والظلام حالكاً ولا بد أن رجال البوليس لا يقومون بعملهم فى دقة بالغة كما أن علينا أن نحمل إحدى (القفف) وندخل المحطة من باب الدرجة الثالثة وسط غمار الفلاحين وجمهور الفقراء من المسافرين ونسير فى هذا النفق الأرضى الذى يوصلنا إلى القطار وليكن بعد ذلك ما يكون .

وقد تم الأمر على هذه الصورة وألفت نفسى فى داخل المحطة وأوشكت أن أركب القطار وهنا حدث حادث طريف لا أستطيع أن أنساه بحال وهو أن أحد العساكر الإنجليز سألنى سؤالاً بالإنجليزية فإذا بى أرد عليه بالإنجليزية وأكاد أندفع معه فى حديث مستفيض لولا أننى تنبّهت فجأة إلى أننى الشخ حسن عبد الجواد ولست أحمد حسين وقد لا يجد الجندى الإنجليزى شيئاً غريباً فى أن يحادثه أحد المشايخ بالإنجليزية ولكن هذا الجمهور الراكب لن يرى ذلك أمراً طبيعياً بأى حال من الأحوال ولا شك أن الشخ حسن عبد الجواد لا يلبث أن يصبح محط الأنظار وهو ما كنت أتلافاه بكل الطرق فلم تكد هذه الهواجس تطرأ على ذهني حتى رأيتنى أقف فى فزع كاللدغ وأغادر هذه العربة التى حدثت فيها الإنجليزى بالإنجليزية وذهبت إلى عربة ثانية وفوق أحد المقاعد وفى ركن مظلم من أركان العربة جلست أنا والأستاذ الزبدي الذى كان يرتدى الجلباب البلدى واللبدة وخلع (منظاره الشهير) فيما خلع وكانت معى إحدى الجرائد فرحت أنظاها بأننى أطلع فيها لأخفى وجهى عن الناس .

وكان لا يزال على القطار قبل أن يتحرك بضع عشرة دقيقة وتستطيع أن تتصوركم كانت هذه الدقائق مضنية .. لقد كان قلبي يخفق وكانت الهواجس تملأ رأسى ما الذى يدبرنى الآن أن أحد رجال البوليس قد اكتشفنى وأنه أخطر الجهات المختصة وأنه يوشك أن يقبض على من لحظة لأخرى ؟ . كانت كل حركة فى القطار تفزعنى بالرغم من الهدوء

الظاهر على وجهى .. كنت أريد أن أختفى عن الأنظار ومع ذلك فقد كنت أريد أن أتصفح الوجوه كلها لأعرف حقيقة كنهها ولذلك فقد كنت أنظر من طرف خفى لكل رجل يقترب من الموضع الذى كنا فيه وكنت أتتبع خطواته وأتتبع حركاته وأحاول أن أبحث عن شخصية البوليس المختفية فى إهابه ولكن سرعان ما كان ينجلي أننى مخطئ فى أوهامى .

ودق الجرس الأول .. ومضت الدقائق الخمس كأنها خمسة أعوام .

ودق الجرس الثانى وتحرك القطار (الصعيدى) فى طريقه نحو طنطا فلم أكد أصدق نفسى وأنى قد نجوت هكذا من القاهرة ، ولكن القطار كان قد خرج بالفعل من دائرة المحطة وراح يضرب فى بیداء الطريق فلات رثتى من هواء الليل العليل وتنفست الصعداء وصحت فى أعماق نفسى الحمد لله .

تركنا القاهرة خلفنا فى نهاية الأمر وسار بنا (القطار الصعيدى) يشق طريقه نحو طنطا فلايسكندرية وما أكثر المحطات التى كان يقف فيها وما أكثر ما كان قلبى يوشك أن يقف مع كل وقفة من هذه الوقفات فقد كان الفأر يلعب (فى عبي) كلما طال وقوف القطار بعض الشيء أو كلما لاح فى الجو عسكرى من عساكر البوليس أو خفير من الخفراء ولقد تصنعت النوم ووضعت الجريدة على وجهى بحجة أن النور يؤذىنى وهكذا كنت آمنة من أن يعرفنى أحد - إن لم يكن قد عرفنى أحد - ولكن هيهات أن يعرف الأمن والطمأنينة سبيلها إلى قلب المهرب من وجه السلطة ، وأخيراً وصلنا إلى طنطا فترلنا بها وقصدنا إلى إحدى اللوكاندات لنقيم بها حتى موعد القطار التالى والذى سيحملنا إلى البلدة التى وقع اختيارنا عليها وكان على أن أتحرك لأول مرة فى وضوح النهار وأن أخالط الناس فأقدمت على ذلك غير هيب ولا وجل لأنه لم يكن أمامى سبيل غير ذلك .

وأخيراً وصلنا فى سلامة الله إلى محطة البلدة التى نقصدها ولم تكن هذه البلدة إلا إحدى الدوائر الكبرى وتبعد عن المحطة بضعة عشر كيلو مترا ولما كان الصديق الذى سننزل عنده وهو الأستاذ محمد مهدى يعمل ناظراً فى هذه الدائرة فكان لابد من الاتصال به ليرسل لنا الركاب لتحملنا من ناحية ولتدلنا على الطريق من ناحية أخرى لأنه لم يكن قد سبق لنا أن جئنا إلى هذا المكان . وبدأنا محاولة الاتصال التليفونى بالدائرة عن طريق الموظف المختص بالمحطة والذى لم يكده يعرف مقصدنا وغايتنا حتى رجب بنا وأصر على وجوب تناول القهوة ثم راحت أسئلته تنهال علينا بطبيعة الحال عن علاقتنا بحضرة ناظر الدائرة وعن سبب حضورنا وعن المدة التى سنقضيها وعن وظائفنا وعن

وعن .. وهكذا تجلى لى الخطر الشديد من الحياة فى الريف حيث لا يجد الناس ما ينفقون فيه أوقات الفراغ سوى الترتة والتحدث عن أحوال بعضهم . ونجحتنا بعد عدة محاولات، فاشلة فى الاتصال أخيراً بالدائرة وسألنا عن صديقنا فقيل لنا - إنه فى الغيط ولا يمكن الاتصال به فعرفناهم أننا ضيوف من مصر وأتينا أقرباء حضرة الناظر ونحن موجودون فى المحطة فى انتظار ما يحمّلنا إلى مقر الدائرة فأجابنا عامل التليفون - إنه سيقوم بالواجب ولقد قام بالواجب فعلاً وسمعناه فى التليفون ينادى هذا ويأمر ذاك بالإسراع نحو حضرة الناظر وإخطاره أن خاله قد وصل من مصر وبعد فترة من الزمن أخبرنا المتحدث فى التليفون أن عربة الدائرة قد أرسلت لنا وهى الآن فى طريقها إلينا .

ووصلت العربة (الخطور) واستقبلنا سائقها فى حفاوة وإكرام كيف لا ونحن أقارب حضرة الناظر وسلم علينا موظف المحطة فى حرارة واشتياق كيف لا ونحن ضيوف من مصر وأقارب ناظر الدائرة وقد كان ذلك كله بالنسبة لى مُثيراً للجزعى وقلقى وخاصة بعد هذا الشهر الذى قضيته فى مصر لا أكاد أرى أحداً أو يرانى أحداً ولا أكاد أتكلم إلا همساً ولا أتحرّك إلا ليلاً .

وانطلقت بنا العربة فى طريقها نحو (التفتيش) وراح السائق يثرثر ويثنى بطبيعة الحال على حضرة الناظر وكفاءته وقدرته وهيبته ونزاهته وكيف أنهم لم يروا ناظرًا مثله من قبل إلى آخر ما شاء أن يقوله من الأوصاف والنعوت التى يبتهج لها حضرة الناظر . وكان علىّ أن أتدبر هذه التجربة الجديدة التى أقدم عليها فتمنيت أن تطول هذه المسافة بيننا وبين التفتيش حتى أستطيع أن أهيب نفسى لاحتمال هذا الموقف الجديد موقف الاختلاط بالناس فما راعنى إلا السائق يضرب الخيل يستحثها على الإسراع فسألته عن علة الإسراع الشديد فقال لى (إن حضرة الأمور ينتظركم بفارغ الصبر) .

وكأنما لدعتنا عقوبة ... من .. ؟ من تقول ؟ فأجابنا الرجل مسترسلاً ولم يعرف أى قذيفة قذفها فى نفوسنا (حضرة الأمور الذى علم بمحضوركم وبعد أن كان قد شرع فى تناول الغداء عدل عنه انتظاراً لتشريفكم وقد طلب منى أن أسرع فى إحضاركم) .

وقد خف تأثير صدمة كلمة الأمور بعد ثوان بطبيعة الحال عندما تذكرنا مأمور التفتيش وليس مأمور البوليس ، وكيفما كان الأمر فقد بدأ القلق يساورنا من جديد فلم نستطع إلا أن نصمت وأن نترك السائق يثرثر دون أن نحير جواباً ولكنى تمالكت نفسى بعد قليل وبدأت أسأله لأعرف كل شىء عن هذا الجو الذى نحن مقبلون عليه وسنعيش فيه وهذا المأمور الذى ينتظرنا وستناول معه الغداء فقلت له . وما اسم هذا المأمور ؟ فأجاب



(فلان بك) ومرة أخرى جف حلقى وخفق قلبى فهذا الاسم الذى نطق به معروف عندى ومشهور وهو لشخص يتصل بى برابطة من روابط النسب على أن هذا الاكتشاف لم يهدئ نفسى بقدر ما زاد من هواجسها فلم يكن بيننا فيما مضى من الزمان احتكاك أو اختلاط وربما لم أره ولم يَرِنِ منذ عشرين سنة وقد تكون فى النفوس جفوة وكيفما كان الأمر فهو آخر شخصية يفكر الإنسان فى أن يتطلب منه جرأة وشجاعة بحيث يخفى أحمد حسين فى دائرة عمله ولذلك فقد رجوت السائق أن يذهب بنا توالى منزل حضرة الناظر (ابن أختى) فلا داعى لإزعاج حضرة المأمور (لأننا مشى قد المقام) فتحمس السائق وانهاى علينا عبارات الثناء والتشجيع وإظهار حماسة المأمور لاستقبالنا وإكرامنا ولكننا ألحنا فى طلبنا أن يقصد على الفور إلى بيت الناظر فصعد الرجل بأمرنا ووجدنا أنفسنا فى نهاية الأمر تحت ثقف بيت الناظر الذى لم يكن قد عاد من الغيط بعد ولكن المقام لم يكد يستقر بنا حتى وصل حضرة الناظر وهو مدهوش مبهور لهذه الأنباء التى وصلته من أن خاله قد جاء من مصر فلم يكن حضرة الناظر يعرف أن له خالاً ولكن من حسن الحظ أن صاحبنا لا يتكلم كثيراً فاكتمى بسماع هذه الكلمة وجاء إلى البيت ليقف على جليلة الموضوع وجاء ودخل إلينا وتقابلت الوجوه ... ومرت بضع ثوان كاد أمرى فيها ينكشف وأننى (لست خاله ولا حاجة) فقد وجد نفسه إزاء شخص معهم لا عهد له به من قبل ولكن نظرة منه إلى صاحب الجلباب البلدى جعلته يكشف فيه الأستاذ الزيدى فأدرك أن فى الأمر سرًا لم تلبث الفكرة أن صعدت إلى رأسه «الرئيس ... لابد أن أكون أنا الرئيس» .

ولم تكد هذه الفكرة تدور فى رأسه حتى اكتشف بالفعل أنني هو فإذا بهذا البرود الذى خيم على سماء المكان يتبدد وإذا بابن الأخت العزيز يندفع إلى صدر خاله وهو يصبح (خالى ... خالى العزيز ... كيفه أنت يا خالى ... حمد الله على السلامه يا خالى) وأفترت شفاه خادمة المنزل والسائق الذى كان لا يزال واقفاً لهذا اللقاء الحار ، وانسحب السائق والخادم تاركين الحال العزيز مع ابن اخته ، وكان لابد أولاً وقبل كل شئ من أن نخطر حضرة المأمور أن لا ينتظرنا على الغداء وأن لا يتوقع رؤيتنا له أو زيارته لنا قبل المساء لأن حضرة الحال المحترم قد جاء من السفر فى حالة إغياة شديد لم يشعر به فى يوم من الأيام ولذلك فقد قصد إلى الفراش فوراً وسوف يستغرق فى نوم عميق ، وذهب الرسول بهذه الرسالة إلى حضرة المأمور الذى أبدى أسفه بطبيعة الحال ثم انطلق فى ألتهام طعامه شاكراً من غير شك الظروف التى لم تعكر عليه صفو مزاجه وهكذا أصبح لدينا

بضع ساعات قبل مقابلة حضرة المأمور وبقية موظفي الدائرة الذين لابد سيتوافدون لتمضية بعض الوقت معنا وسماع الأخبار عن مصر .

ولم يكد يستقر بنا المقام حتى علمنا من صديقنا أن عين الإدارة لم تغفل هذا المكان فقد اتصلوا بحضرة مأمور التفتيش وسألوه عما إذا كان أحمد حسين لم يلتجئ إلى الدائرة فنفي هذا الأمر بطبيعة الحال ودهش لهذا الخاطر فاعتذروا بأن حضرة الناظر الأستاذ محمد مهدي عضو من أشهر أعضاء مصر الفتاة ولذلك فقد طلب منهم تفتيش الدائرة ولكنهم اكتفوا بتأكيد المأمور أن أحمد حسين غير موجود . وكان معنى هذه القصة أننا لم نأت إلى مكان خاف عن أعين البوليس كما كان يخيل إلينا وأن مأمور التفتيش قد تلقى تحذيراً من وجود أحمد حسين بدائرته ، ولما كان موظفو الدائرة جميعاً يعلمون من ناحية أخرى أن حضرة الناظر هو من أعضاء مجلس إدارة حزب مصر الفتاة فقد كانوا كثيراً ما يتحدثون عن أحمد حسين وعن اختفاء أحمد حسين ولم يكن بعيداً عن تضورهم أن يلجأ أحمد حسين إلى دائرتهم وكثيراً ما كانوا يتندرون على صاحبي فيسألونه عن مكان أحمد حسين .

وهكذا فررنا من القاهرة وذهبنا إلى أقصى الشمال لنجد أنفسنا فجأة في مكان من السهل جدا اكتشاف أمرنا فيه أو بمعنى أدق لا نستطيع أن نبقى طويلاً مجهولين من سكانه .

وعلى كل حال فقد كان لدينا بضع ساعات تمضيها في هدوء قبل أن يتصل بنا أحد وأكلنا ونمنا بعد أن أغلق حضرة الناظر الباب الخارجي وأوصى أن لا يزعجنا أحد بحال من الأحوال وخرج لياشر أعماله العادية وليهني الجو الصالح لمقابلتنا مع حضرة المأمور وبقية الموظفين وكنا قد اتفقنا على أن لا نقابل أحداً قبل الليل .

وقد عاد حضرة الناظر من جولته بأنباء مطمئنة مشجعة فهو لم يلحظ أى شيء غير عادى والجميع لا يبدوون أى اهتمام أو اكتراث بمقابلة الخال العزيز إلا رغبة في مجاملة حضرة الناظر ولذلك فلن يحضر إلا حضرة المأمور الذى يريد أن يظهر تواضعه ومجاملته لحضرة الناظر وربما لن يحضر غيره إلا موظف أو اثنان .

ورحلتُ أهيمى مكان الاجتماع الذى سنجتمع فيه ، وأختار المكان الذى أجلس فيه والمكان الذى يجب أن يدفع حضرة المأمور دفعاً إلى الجلوس فيه بحيث لا يرانى مواجهة ولكن من زاوية من الزوايا ثم جثت بالمصباح ووضعت في ركن من المكان بحيث يكون فوق رأسي مباشرة فلا يقع الضوء على وجهي ورحنا نستعد لهذه المقابلة كما لو كنا نخرج

رواية سينائية فعلى حضرة الناظر أن يوجه الحديث في هذه الناحية الخاصة وعلى الأستاذ الزبادى أن يقول كذا وعلى حضرة الخال أن يقول كذا وهكذا حتى إذا فرغنا من استعداداتنا قلت لصديقي يحسن بك الآن أن تذهب لإحضار حضرة المأمور المحترم قبل أن يفاجئنا بما يفسد ترتيبنا . وقد ذهب ثم عاد وبرفقته حضرة المأمور وبدأت التجربة أو قل بدأت المحنة التي بدأت بنجاح ثم باءت بالفشل بحيث كان علينا أن نهرب من هذا المكان في اليوم التالي إذا شئنا أن لا تقع في يد البوليس والإدارة .

وكان لا مناص من مجابهة الموقف وإلا ساءت الأمور واكتشف مأمور الزراعة أن الوافد على البلد شخصية مريبة وكنت أعلم أن الموقف سيكون من أخرج ما يكون فلاؤل مرة أجابه بتنكري شخصاً سبق له معرفتي ولم أكن على ثقة تامة من دقة تنكري . حقا لقد كانت ذقني قد عادت إلى الاستطالة وبدأت تغير من منظري وكنت قد بدأت آلف لبس العمامة والجبّة فإذا أضيف إلى ذلك هذه العينات البيضاء على عيني فإن منظري لاشك قد تغير كل التغيير بحيث لا يمكن لأول وهلة أن يكتشفني أقرب المقربين إليّ ولكن لم أكن مطمئناً إلى هذه النتيجة عندما تطول الجلسة ، عندما تقلت منى بعض الحركات والایماء الخاصة بي ، بل عندما يرتفع صوتي ويرن في نبراته العتادة والمألوفة والحق أن مشكلة الصوت هي التي كانت تهددني دائماً بافتضاح أمرى وكيفما كان الأمر فقد كان لابد من مقابلة المأمور الذي جاء أخيراً ليسلم على خال حضرة ناظر الزراعة وجاء قبيل الغروب حيث كان ضوء النهار لا يزال كافياً لرؤية كل شيء في دقة وكنا قد اتفقنا أن لا يدخله حضرة الناظر إلى داخل البيت في بادئ الأمر وأن يجلس في الحديقة الصغيرة الموجودة أمام البيت احتجاجاً بحالة الحر داخل المنزل وطلبت من صديقي أن يفهمه أنني مازلت نائماً من تأثير السفر وأنه سيغادره لإيقاظي وقد تمت كل هذه الخطوات على الوجه المطلوب بينما رحت أتباطأ من ناحيتي في ارتداء ملابسى والذهاب إلى حضرة المأمور الذى لم يكذب بقرع بصره علىّ حتى خف للترحيب بي في هشاشة وبشاشة عملاً بواجب الضيافة نحو زميله وقد حرصت أن يكون حديثي معه غمغمة بحجة أنني مازلت مشغلاً بالنسيج والتحميد عقب انتهاء الصلاة وغنى عن البيان أن الرجل خال حضرة الناظر ورحت أسأل في كلمات قليلة عن أحوال ابن أختي متمنياً أن يكون حائزاً على رضا المأمور فراح يثنى عليه ثناء مستطاباً ثم جاءت القهوة فكانت فرصة طيبة إذ وجدت فيها بعض ما أتشأغل به وأحجب به وجهي من حين لآخر ولم يكن يبدو أن حضرة المأمور يفكر في الانصراف السريع بل كل الدلائل كانت تدل على أن جلستنا ستطول وأنه يجب أن نقطع سوياً رديحاً طويلاً من الليل وبدأ يتوافد بعض الزوار الآخرين كمهندس الزراعة

وحضرة المخزنجي ولم تعد الجلسة خارج البيت في الظلام مستطابة وبدأت تظهر غير طبيعية فكان لا مناص من الدخول إلى داخل المنزل وإلى التعرض إلى ضوء المصباح ولكنني كنت قد بدأت أشعر بنجاح التنكر فبادرت بقبول الاقتراح ودخلنا إلى حجرة الاستقبال في المنزل وحرصت على أن تكون جلستي بحيث لا تقع أشعة المصباح على وجهي وكنت قد وضعت المصباح كما قدمت في ركن من المكان خلف إحدى الأرائك وهي التي أسرعت بالجلوس عليها وفي ذلك الوقت كان بقية موظفي الدائرة قد حضروا جميعاً للسلام عليّ وبدأت على التو أحاديثهم في مناقشاتهم اليومية وهي كلها تدور بطبيعة الحال حول الحرب والهجوم الألماني في روسيا الذي كان قد مضى عليه أكثر من أسبوع دون أن تبدو له نتيجة حاسمة وقد كانت تعليقات الجميع تنطوي على روح الإعجاب بألمانيا والانتصارات الألمانية والإشادة بأعمالها العظيمة وبطولة رجالها النادرة فدفعني الرغبة في الإيمعان في التنكر وحرصى على أن يبدو الجوى طبيعياً أن أشارك في المناقشة وقد أدركت فيما بعد أن هذه كانت غلطة فاحشة والحق أن عدم استطاعتي التغلب على ميلي القوى للاشتراك في الأحاديث التي كانت تجرى حولي كان دائماً أبداً من أكبر أخطائي أثناء هذه الفترة من اختفائي فقد كان الحاضرون سرعان ما يستوقفهم أسلوبى في الحديث فيروحوون يصغون إليه باهتمام ولا ألبث أن أبدوا في نظرهم شخصاً غير عادى وذلك هو ما حدث هذه الليلة فقد اشتركت كما قدمت في المناقشة وأخذت جانب الحلفاء أدافع وأشرح العناصر التي تعتمد عليها قضيتهم والأخطاء التي ارتكبتها هتلر والتي لن تلبث أن تنتهى بهزيمة ألمانيا وقد امتعض حضرات موظفي الدائرة من هذه الآراء بطبيعة الحال ولم يستلطفوا هذا الأستاذ الشيخ المعمم الذي يتكلم بروح إنجليزية وكان الموقف يمكن أن ينتهى عند هذا الحد بنجاح كبير جداً إذ أنني لم أكن حريصاً أن أبدوا في نظر هؤلاء السادة المتحمسين وطنياً متطرفاً قدر ما كان يهمنى أن لا أدع ذرةً من الشك في رءوسهم أنني أحمد حسين المحتفى والذي طالما حذروا الناظر على سبيل المداعبة أن أكون محتجباً عنده .

وقد اجتهدت في إتقان دورى كشيخ معمم أثناء الحديث أيما إتقان وكنت أهم واقفاً من حين لآخر متمتماً بعبارات التكبير والتسبيح كما كنت أتوقف فجأةً لكي أشرد بفكرى مهمماً بالصلاة على النبي ولم أكد أعلن بينى وبين نفسى أنني قد نجحت نهائياً في تمثيل دو الحال وأن أحداً من الحاضرين لا يتحلى أدنى شك في شخصيتى لم أكد أطمئن إلى هذا ولم أكد أشعر بالفرح والاعتباط وأستمرى هذه الجلسة حتى حانت منى التفاتة إلى حضرة المأمور وإذا به يحدق إليّ طويلاً كأنما يحاول أن يغوص إلى أعماق نفسى فشعرت

بالشعيرية تعم بدنى على الفور وتصاعد الدم حاراً إلى وجهى ولم يلبث أن غاض من جديد بحيث لو لم يكن وجهى فى الظلام تقريباً لظهر بوضوح أن وجهى كان ممتعاً أشد الامتقاع فى هذه اللحظة . لقد استوقفه فجأة بعض نبرات صوتى وبدا له كأن هذا الصوت مألوف لديه وقد كان هذا المعنى مرسوماً على وجهه وبدأت أشعر أن ساعة اكتشاف أمرى قد حانت ولكن حضرة الأمور لم يلبث أن استرد نظرتة ونق عن نفسه هذا الخاطر المفاجئ وعاد إلى طبيعته وقد تبددت فى نفسه هذه الشبهة الطارئة ولقد شعرت على الفور بهذا التغير فى تفكيره فعادت إلى الراحة ولكن مرة أخرى اكتشفت أن حضرة الأمور انتهز فرصة تحدثى مع بعض الحاضرين وراح ينظر إلى من طرف خفى نظرة تنطوى على الاسترابة من غير شك فبدأ القلق يعاودنى من جديد وبدأت لا أستطيع أن أجزم هل عرفنى حضرة الأمور فى نهاية الأمر أم أنه لا يزال يجهل حقيقتى وهنا اقترح واحد من الحضور أن نصعد إلى منزل الأمور لنستمع راديو برلين وآخر ما يذيعه من أخبار وهنا رأيت أن أجازف بكل شئ لأننى كل وهم يمكن أن يكون قد دب إلى نفس الأمور فقلت فى نفسى لو أننى اعتذرت عن الصعود معهم ورفضت هذه الفرصة لسماع راديو برلين ، تعزز موقف الشكوك التى كان من الواضح أنها بدأت تنفذ إلى نفس الأمور وربما استغل فرصة غيابى وراح يثبت شكوكه مع بقية الموظفين أمالو أنى على الضد من ذلك قبلت دعوته وصعدت معهم على الفور لسماع الراديو فرمما ساعدت هذه الجرأة على نقى الشكوك والأوهام من نفسه فضلاً عن أننى لن أمكنهم من الاختلاء ببعضهم ولن أدع للأمور فرصة الخلو بنفسه فى ساعة مبكرة من الليل وقد كان أهم ما بدأ يشغلنى هو كيف أمضى هذه الليلة على أى صورة من الصور حتى إذا بزغ نور النهار بادرت بالفرار منها وعلى هذا الأساس لبثت الدعوة التى وجهت إلى لسماع الراديو وصعدت معهم إلى بيت الأمور وقد كانت هذه مجازفة من غير شك وسرعان ما أثبتت الحوادث ذلك فحتى ذلك الوقت لم يكن الأمور قد استطاع أن ينظر إلى وجهى فى ضوء ساطع فلما أصبحنا فى بيته المضاء بالكهرباء استطاع أن يتبين ملامحى جيداً وأن تتأكد أوهامه وشكوكه من أننى أحمد حسين الذى تبحث عنه الحكومة يجدهم الأنف والذى اتصل به البوليس بالذات ليكلفه بالبحث عنه فى دائرته ومنطقته وقد بدأ الارتباك يظهر على وجه حضرة الأمور ونحن جلوس فكان (يسرح) طويلاً حتى يتنبه بعض الحضور إلى أنه لا يشترك معهم فى الحديث فيعاود التحدث فى مجهود ظاهر ثم لا يفتأ ينظر حوله بقلق على أن شكه إذا كان قد تحول إلى يقين فلا جدال أن يقينه كان لا يزال مشوباً بشئ من الشك ولذلك فقد راح يدرسنى جزءاً جزءاً ابتداء من الرأس حتى أخمص القدم فيرى كل ما يشعره بأننى

أستاذ عريق ليس فقط في الملبس والزي بل والحديث والحركات والإيماءات ولذلك فقد بدأت أطالع على وجهه عكس ما كنت أطلعه من قبل «ألا أكون مخطئاً؟ ألا يجوز أن يكون ذلك بالفعل هو خال ناظر الزراعة ، ولا أساس لشكوكي وأوهامي ؟» .

وعلى كل حال فقد رأيت أنه يحسن بي أن أضع حدا لهذا الموقف فلم تكدر نشره الأخبار تنتهي ونفرغ من شرب القهوة والشاي حتى استأذنت ومن معي في الانصراف بحجة اعتيادي على النوم المبكر للتمكن من صلاة الفجر في وقتها ولم نكد نغادر منزل المأمور ونغلق علينا باب صديقي الناظر حتى أعلن ثلاثتنا أنا والأستاذ الزياى وصديقنا الناظر حالة الخطر الشديد فقد لاحظنا معاً ما لاحظته واتفقنا معي على أنه لا يوجد أدنى شك في أن مأمور الزراعة اكتشف أمرى ولقد قدمت فيما سبق أن هناك صلة نسب بعيدة تربطني بمضرة المأمور ولكن العلاقات لا يمكن اعتبارها علاقات حية وعلى كل حال فلم تكن الظروف تسمح لي بالاعتماد على أمثال هذه العواطف والصلات فقد كانت قاعدتي في الاختفاء أن لا أبقى في مكان يعرفني فيه شخص لم يكن في حسابي أن أعرفه بنفسى ولذلك فقد اتفقنا على أن نبارح المكان في الصباح المبكر ولكن الساعة كانت لا تتجاوز العاشرة مساء بعد . وفي التفتيش الذي نقيم فيه تليفون يستطيع الاتصال بالنقطة وبالمركز والبندر وكل مكان آخر ومن هنا بدأت الهواجس تشتغل . لا جدال أننا نستطيع أن نعتمد على أمانة حضرة المأمور وأنه لن (يلغ) عنا هذه الليلة على الأقل ولكن من أدرانا أنه لا يتحدث الآن مع الموظفين عن شكوكه وأوهامه في شخصيتي بل من أدرانا أن لا يكون بعض هؤلاء الموظفين بالذات وكلهم من الشباب المثقف المتبع للسياسة والذين يعرفون شدة صلة ناظر الزراعة بي قد اكتشف ما اكتشفه المأمور ومن يدرينا أن لا يدفع الخوف من المسئولية واحداً من هؤلاء (للتبليغ) عن وجود أحمد حسين في التفتيش ؟ لم يكن هناك أي ضمان ولذلك فقد قررنا أن نسهر طول الليل مراقبين المكان ورحنا نرتب طريق الهرب فيما لو طرق الباب طارق البوليس بالليل ومرت الساعات طويلة مثاقلة كأنها الدهور ومجلس المأمور ينفض والضحكات العريضة ترتفع من أفواه أصحابنا الموظفين وهم ينصرفون فلم نعرف إذا كانت هذه القهقهات علامة مطمئنة إلى أن كل شيء عادي وطبيعي أم أنهم يضحكون على (ذقوننا) وكيف أنهم كشفوا سرنا ؟ ولم تلبث الضحكات والأصوات المرتفعة أن تبددت في سكون الليل بعد أن انصرف كل موظف إلى سكته الخاص وخيم السكون من جديد ولم يعد يسمع فيه إلا نقيق الضفادع وأصوات الصراصير ، ولكن الطمأنينة لم تعرف سبيلها إلى قلوبنا !! وظللنا طول الليل معلنين (حالة الخطر) بكل ما يتبعها من حذر واحتياط . لكننا مازلنا ننظر من خلف النوافذ .

المغلقة. من خلال الثقوب إلى الخارج لتبين ما إذا كان هناك شيء غير عادي ، ومن العبث أن أحاول أن أصور لك كيف انقضى الليل وما كنا عليه من قلق وترقب وتطلع وتعب وأخيراً جاء الفجر فصلينا وانتظرنا بفارغ الصبر بزوغ أشعة النهار حتى إذا بدأ اليوم الجديد أسرع صاحبنا إلى حيث يوجد سائق العربى ، وأمره أن يعدها على وجه السرعة لأن خاله يريد أن يدرك قطار الساعة السابعة صباحاً وليس ما يدعو لمحاولة تصوير دهشة السائق لمبارحة الخال المحترم التفتيش بهذه السرعة ولما يكذب ينفذ عنه غبار السفر . والمهم أن الساعة لم تبلغ السادسة حتى كانت العربى تنهب بنا الأرض نهباً فى طريقها إلى المحطة قبل أن يستيقظ أى إنسان فى القرية إلا أن يكون هؤلاء الفلاحون الذين لا يدركون مما يجرى حولهم شيئاً . وقد أعفانا ركوب حضرة الناظر إلى جوارنا من مؤونة الرد على أسئلة سائق العربى الذى كان لابد سيمطرننا بها تعليقاً على هذا السفر المبكر وعدم تمكنهم من القيام بواجب الضيافة . وكلما بعدنا عن التفتيش كلما شعرنا بالاطمئنان لاجتيازنا هذه المحنة . ولكن هل كنا قد اجتريناها فعلاً ؟ كان الجواب ينتظرنا بالقرب من المحطة التى نقصدها على صورة ضابط من ضباط البوليس وقد جلس على كرسي وإلى جواره رجلان أو ثلاثة أحدهما على ما أذكر من رجال البوليس والآخرون من الخفراء .

ويمكنك أن تصوّر لنفسك مقدار الفزع الذى ملأ قلوبنا ونحن نرى هذا المنظر البشع ، منظر ضابط من ضباط البوليس تحيطه الخفراء وبعض الجنود . لقد أحسست بقلبي يقفز بين ضلوعى ويكاد يقع منى إعياء . فقد أدركت أن النهاية قد حانت وأنه سيقبض علىّ فى آخر الأمر ولم يكن بى فزع من القبض قدر ما كان الخجل من افتضاح أمرى يكاد يقتلني قتلاً ... لقد كانت الساعة التى امتلأت منها رعباً عندما يقبل على هذا الضابط مبتسماً فى تهكم « أهلاً يا أستاذ أحمد » ومن يدري ؟ فربما لم يكن لطيفاً وكان من النوع الشرس . أو كانت أخبار هربى جعلتهم يصوروننى سفاحاً فيبادرنى بإشهار المسدس فى وجهى صارخاً « ارفع يديك » وربما كان الموقف شيئاً يغير ذلك بالمرّة ولا أكاد أتوقعه كل ذلك دار فى رأسى بسرعة الخاطر وغنى عن البيان أن وجود البوليس فى هذا المكان لم يثر فى نفسى أى دهشة وتساؤل عن كيفية وصوله . فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى تساؤل فلا بد أن مأمور الزراعة الذى حسبنا أنفسنا قد نجونا منه أو غيره من الموظفين قد اتصل بالبوليس عندما اكتشف مبارحتنا السريعة للتفتيش والتى تشبه أن تكون فراراً أو هى الفرار بالفعل ، فبادر ضابط الناحية للقيام بواجبه فى القبض علينا مصطحباً معه كل ما لديه من قوات ريثما تصل قوات أكبر عدداً . ولكن الأمر الذى كان يسترعى النظر أن ضابط البوليس كان جالساً على الطريق العام ولا يكاد تبدو عليه حالة

التربص فضلاً عن انتظار أحد قادم من ناحية التفتيش فهل كان ذلك فرط حرص منه ودهاء حتى لا نأخذ حذرنا . ولكن ألا يكفي أن نظره لكى نتخذ كل الحذر سواء كان واقفاً أو جالساً ناظرًا في هذه الجهات أو تلك؟ كل هذه خواطر مرت في رؤوسنا جميعاً بسرعة البرق كما قدمت كنا في خلالها تبادل النظرات الخاطفة ويكاد كل منا يطالع ما يجري في رأس زميله كما لو كان يطالع في كتاب مفتوح . وأخيراً رأينا أن ننقذ الموقف بأن نزلنا من العربة في هدوء واتجهنا صوب قهوة ريفية تظللها الأشجار بالقرب من المحطة وانسللنا إلى داخلها في هدوء وصمت وجلسنا على إحدى الترابيزات وطلبنا شايًا وقهوة وحاولنا أن نبدو عاديين في تصرفاتنا بأن نصحك وأن نظهر قلة الاكتراث بشيء مما يدور حولنا ولكننا لم نكد ننظر إلى بقية زبائن القهوة حتى لمحنا اثنين ينظران إلينا من طرفٍ خفي ويبدو عليهما سيماء رجال البوليس أو المخبرين عندما يرتدون الملابس الملكية . لم يبق شك عندنا في أن المكان « ملغم » وأتينا وقعنا في الفخ فامتثلت إلى قضاء الله وقدره ورحمت أرتل تعويذتي ملجئتي الأخير (بسم الله الرحمن الرحيم) وانطلق لساني يردد ما في صمت وخفوت وران على ثلاثتنا الصمت والسكون ولم نستطع أن نتبادل أى حديث من الأحاديث ولكن الدقائق مرت دون أن تبدو حركة جديدة في الجو فلا يزال الضابط جالساً على كرسيه على قارعة الطريق حيث نراه من بعد من خلال الأشجار ولا يزال هذان الرجلان في مكانهما من القهوة لم يتحركا.. أنكون واهمين وكل هذا الذى نراه لا يعدو أن يكون اتفاقاً مجتاً ومصادفة وأن وجود هذا الضابط لا علاقة له بموضوعنا بأى حال من الأحوال بل قد لا يعرف أنه يوجد في الدنيا شيء اسمه أحمد حسين .. ؟ بدأ الأمل يداعبني من جديد وبدأت خواطر الطمأنينة تملأ نفسي . لا جدال في أن هذا الضابط لا يتربص للقبض على ، وإلا لوجب أن يتحرك وإلا لوجب أن يتخذ إجراءً معيناً يحول دون فرارى . ولماذا يبدو عليه أنه ينتظر شيئاً معيناً يقدم من إحدى ناحيتي الطريق .. أأبكون في انتظار سيارة .. ؟ يظهر أنه في انتظار سيارة بالفعل وربما كانت سيارة البوليس أأبكون في انتظار نجدة جديدة قبل أن يشرع في عمله ؟ ومع ذلك فقد كانت الدقائق تمر وتمر دون أن تبدر أية بادرة جديدة تدل على تفاهم الموقف ولذلك فقد بدأنا نستبعد أن يكون هذا الضابط مكلفاً بالقبض علينا وأقبلنا على القهوة والشاي نشرهما ووجدنا جريدة الأهرام فشرعنا في مطالعتها إذ كان لا يزال هناك وقت طويل قبل وصول القطار الذى سيذهب بنا إلى المنصورة وهى المكان الذى وقع اختيارنا عليه للمرحلة القادمة ولكن فكرنا ظل بطبيعة الحال مشغولاً بتتبع حركات الضابط ومعرفة ما سينتهى إليه أمره . وأخيراً لم يطل انتظارنا وانحل اللغز من تلقاء نفسه إذ أقبلت سيارة الأوتوبيس التى تنقل



الركاب من المنصورة إلى طنطا على ما أذكر ولم تكذب تظهر عن بعد حتى وقف الضابط مسرعاً ولم تكذب عربة الأوتوبيس تقترب حتى أشار إليها فتوقفت بالقرب منه فقفز إليها راكباً حيث وجدنا في داخلها ضابطاً آخر وقف مرحباً بزميله ، يظهر أنها كانا على موعد . وانطلقت السيارة لا تلوى على شيء مثيرة خلفها هذه السحابة الخافتة من الأتربة التي نزلت على قلوبنا برداً وسلاماً وكانت على ما أذكر أشهى أتربة استنشقتها في حياتي في شغف ولذة فقد حملت معها الكابوس وتنفسنا الصعداء وثبت لنا أن الأمر لم يكن إلا وهماً وصدق من قال : يكاد المريب يقول خذوني ...

## السيد البدوى

ليس باستطاعتى أن أثقل على القراء بذكر كل تفاصيل انتقالاتنا فى هذه الفترة خوف الإملال من ناحية ولصغر حجم الكتاب من ناحية أخرى ولذلك فحسبى أن أشير سريعاً إلى حوادث هذه الفترة لكى أصل إلى الفصل الأخير منها فى مدينة طنطا . فقد تركنا بلدة الأبيسط إلى المنصورة ، وفى المنصورة أقفنا بضعة أيام تحاشيت فيها أن أمر فى أحيائها الوطنية خوفاً من اكتشاف أمرى واضطرت اضطراراً لكى يكون خروجى فى دائرة المحكمة المختلطة (فقط) فكان منظرى يبعث على الشبهة وأنا شيخ وقور معمم يروح ويغدو بين جمهور من الشبان وطلاب المدارس وكثير من الأجانب رجالاً ونساء .

وأخيراً استقر رأى على أن نستقر فى عزبة أخى الأستاذ إبراهيم شكرى على أن أنزل فى بيت مأمور الدائرة الأستاذ محمد أبو ثريا عضو مجلس إدارة الحزب باعتبارى خاله أيضاً ولكن أمرنا سرعان ما أوشك أن يفتضح مرة أخرى فى أول مرة زارنى فيها موظفو الدائرة أقسم أحدهم عقب المكافحة أنه لولا أن أحمد حسين معتقل فى السجن لقرر أن هذا المتحدث هو أحمد حسين . وعلى ذلك فقد اضطررنا أن نشد الرحال مرة ثانية وجعلنا وجهتنا السيد البدوى هذه المرة حيث أستطيع أن أعيش فى البيئة الطبيعية كرجل شيخ مثقف .

وكان يصاحبنى الأستاذ فتحى أبو الوفا الذى كان قد حصل على بكالوريوس كلية الزراعة منذ أيام والذى قرر أن يلازمى ليكون حلقة الاتصال بينى وبين الحياة .

وكانت خطتنا تلتخص فى أن نستقر فى مدينة طنطا وأن نستأجر شقة خاصة بنا وأن يتولى الأستاذ إبراهيم شكرى تأثيثها فوصلنا إلى طنطا واستطعنا أن نعر على شقة خالية .

وكان علينا أن ندبر الأمتعة لأن أمتعة صديقنا (إبراهيم شكرى) لم تصل بعد ولم يكن مقدراً لها أن تصل إلا إذا أرسلنا (فتحى أبو الوفا) لإحضارها فرأينا أن نشترى سريعاً على وجه السرعة لأستعمله ريثما تحضر باقى الأمتعة ، وعلى ذلك فقد توجهنا لأحد المحال التى تباع الأثاث وهو محل خلف مسجد السيد البدوى على ما أذكر واشترينا منه سريعاً صغيراً ومرتباً جديدة واشترينا حصيراً ولبة زجاجية وكوزاً وإبريقاً من الفخار وقلتين وقباً

وصابوناً واشترينا أيضاً جبناً وزيتوناً وخبزاً لنا كل وتوجهنا كالغزاة الفاتحين إلى شقتنا الجديدة التي كانت خادمة صاحب البيت قد نظفتها وغسلتها وهياؤها للسكن واستقر بنا المقام في بيتنا الجديد - ولا تسلم عن مقدار السعادة والهناء اللتين شعرت بهما أخيراً - وبعد شهرين ونصف من مطاردة البوليس واضطراب الأعصاب والقلق المستمر ، وكان على صاحبي أن يسافر على عجل لإحضار باقي الأمتعة لكي نحييا حياة مستقرة تهيئ لنا جانباً من الراحة ولما لم يكن هناك وقت لنضيقه فقد سافر صديقي لإحضار الأمتعة وتركني في دنياي الجديدة بمفردي ولكني لم أشعر بأى خوف أو قلق .

كانت خطتي أن أحييا في طنطا حياة طبيعية جدا وأن أسعى لتقصص هذه الشخصية التي تقمصتها روحاً ودماً وكان كل همة أن أطبع شخصيتي في ذهن كل من يتصل بي إلى حدٍ يجيل له أنه يعرفني منذ سنوات وبحيث أستطيع أن استشهد به لو احتاج الأمر إلى استشهاد من أننى الشيخ حسن عبد الجواد المتخرج في كلية الشريعة والذي يعترم فتح مكتب للمحاماة الشرعية إن لم يحصل على وظيفة مدرس في المعهد الأحمدي .

وقد كان هذا المعنى قد انطبع بنجاح في رأس صاحب البيت حتى لقد وعد أن يساعدني في إدراك النجاح وكان الشخص الثاني الذي شرعت على الفور أن أصاحبه هذا البقال الذي كان يواجه منزلي الجديد الذي سكنت فيه والذي كان مقدراً أن يراني في دخولي وخروجي وأن أكون على رأس عملائه المهمين وقد تبين فيما بعد أن حضرة البقال سبق له أن كان طالباً في الأزهر ثم تحول إلى دار العلوم وآثر في النهاية أن يفتح هذا (الدكان) في طنطا مسقط رأسه وسرعان ما توطدت الصداقة بيني وبينه وسرعان ما أدرك كل شيء من أحوالي وكيف كادت روحي تزهر في هذه الغارة الكبرى على الإسكندرية وأن الأولاد لم يستطيعوا الصبر على هذا البلاء فطلبوا منى الهجرة إلى طنطا بأى ثمن من الأثمان وأننى قد أسافر بعد قليل لإحضارهم للإقامة معي وهو خبر يسر البقال من غير شك وكثيراً ما كان صاحبي البقال يشير لي على بعض العملاء بقوله : حضرته من الإسكندرية مثل حضرتك ومهاجر هو وعائلته مثلك .. فأنتاظهر بالسرور والبشاشة وأنا أستعبد بالله في سرى وأستخدم كل مهارتي وحذقي لتفادي الأسئلة الطبيعية التي تجني على بعد هذا التعارف على أن الحياة بدأت تمضي طبيعية وبدأت أستمع بها . بدأت أنظر إلى المستقبل بكثير من الارتياح والتفاؤل بإمكان النجاح نهائياً في تضليل البوليس والنجاة من براثنه .

وبدأت أتعرف على أجزاء طنطا المختلفة فتوجهت صوب شارعها الجديد الكبير الذي أطلق عليه اسم جلالة الملك لأنتزعه وأستنشق نسيم المساء وكنت أحرص كل الحرص على

أن يبدو منظري طبيعياً وعادياً وأن أتصرف في غير حذر أو تحفظ على صورة من الصور فإذا وجدت محلاً لبيع الشرابات توجهت إليه واشترت كوباً من الشرابات وإذا وجدت عربية (تين شوكي) ملئت نحوها وطلبت من الرجل أن يبيع لي بخمسة مليات وهكذا وكانت أضواء سينما البلدية تلمع في عيني وتغريني بالاستمتاع بها ، ولكن أزهرتي وعدم استقرار أموري استقراراً نهائياً جعلني أقاوم هذا الإغراء وأترث في الدخول إليها .

وعدت في المساء المتأخر إلى بيتي ونمت هذه الليلة ملء جفوني وأنا مطمئن كل الاطمئنان أن أحداً في مصر كلها لا يمكن أن يعرف شيئاً عن أمري .

واصلت في اليوم التالي تجوالاً في مدينة طنطا لأزداد تعرفاً بها وكنت أسير حاملاً مظلتى التي فتحتها كما يفتح النوتى أشعة مركبه وقد رحت أستخدم هذه المظلة كما يستخدم النوتى قلاع مركبه بالذات فقد حرصت أثناء سيرى أن أحجب وجهى بطرف هذه المظلة إمعاناً في الاحتياط فكنت أميلها إلى هذا الجانب الذى أنتظر منه الالتفات ؛ وعلى ذلك فقد كنت أميلها نحو الأمام أو الخلف حسب الظروف وحسب الاتجاه الذى أرغب أن أتفادى منه النظرات وعلى ذلك فقد كنت أسير في وضوح النهار في قلب شوارع طنطا وأنا مطمئن كل الاطمئنان أن لا أحد يستطيع أن يدرك من أمر هذا الشيخ شيئاً إذ لم يكن فيه ما يلفت النظر على أى صورة من الصور ولقد أحسست بفائدة المظلة المفتوحة ولذلك فقد كانت الشوارع التى لا ظل بها هى الشوارع التى يطيب لى السير فيها وكانت ساعة القبلولة هى أحب ساعات السير إلى نفسى إذ يصبح استخدام المظلة أمراً لا مفر منه ولا يثير في النفس أى ريب أو تساؤل .

واخترت مطعمًا نظيفاً في مكانٍ مناسبٍ لتناول الطعام وبدأت أتعرف إلى الخدم ويتعرفون بي حتى يألّفوني إذا ترددت على المكان ولكن سرعان ما اكتشف أنني أخطئ في معاملتي للناس خطأ قد يؤدي إلى اكتشاف أمرى إذ لا يتفق مع شخصيتى فقد كنت إذا تناولت الطعام وجاء دور الحساب تركت للخادم ما قد يصل أحياناً إلى قرشين ونصف على سبيل (البقشيش) فكان هذا يحدث موجة سرور عند الخادم تكاد تنذر بالخطر ولم أكتشف ذلك إلا عندما عدت للمرة الثانية إلى هذا المطعم فوجدت الخادم وقد هبّ واقفاً على قدميه واستقبلني ببشاشة وترحاب ورأيت بقية الخدم يخفّون لاستقبالى ويعرضون خدماتهم وإذن فلا بد أن أكون ثقيلاً حتى لا ألفت إلى الأنظار وقد كان هذا درساً واجب الاتباع .

وكأن لابد من اتخاذ مكان مختار أستطيع أن أقضى به جزءاً من وقتي خارج البيت

فوقع الاختيار على مسجد السيد البدوي فبدأت أصلى به مع الجماعة وانتحيت بعد الصلاة إلى جوار عمود من الأعمدة أسبح وأتمم وأعمل قدر الطاقة على أن يكون منظري مألوفاً وأن يتعرف إلى خدام المسجد ورواده الدائمون وسرعان ما لفت نظري هؤلاء الطلاب من المتسبين للمعهد الأحمدي والذين يذاكرون استعداداً للامتحان وبدأت الهواجس تساورني فيما يكون عليه الحال لو أقبل على بعض هؤلاء الطلاب ليستفتوني في مسألة علمية أزهريه فنية وأنا بهذا الزى وبهذا السميت الذي تتجلى فيه الأستاذية الكاملة على أن هذا الأمر الذي بدأت أخشاه لم يقع بحمد الله لأن هذه الحياة لم تظل إلى ما شاء الله فقد عاجلني الحظ السيء أو بالأحرى الحظ الحسن بالوقوع في قبضة البوليس كما سترى .

ووصلت الأمتعة أخيراً وامتألت شقتنا بالمفروشات الوثيرة التي بعث بها صديقي (أ.ش) واستقرنا المقام في طنطا نهائياً وبدأت تطوف في رأسي أحلام الاستقرار والهدوء فاعتزمت أن أبعث إلى أسرتي لتوافيني في هذا المكان ، ولتعيش معي في هذا البيت فيكون ذلك أدعى لراحتي من ناحية أخرى ولما لم يكن هناك من يعرف زوجتي أو سبق له أن رآها من قبل فلم يكن هناك ما يحول دون استقرارها إلى جوارى ولكنني لم أشأ أن أسرع في تنفيذ هذا الرأي واكتفيت بالتمهيد له بأن أرسلت إلى أسرتي أو بالأحرى إلى أعز أفرادها إلى وأحبهم إلى قلبي هذا الذي كان يقوم في ذلك الوقت مقامى في كل شيء وينوب عني في كل عمل ويسير دفة سفينة الحزب بأحكام وأنشط ما سارت به في يوم من الأيام بعثت إليه بخطاب أحدثه عن هذا الفتح الجديد واستقدمه لمقابلتي في طنطا وعينت له مكاناً للالتقاء صحن المسجد الأحمدي بعد صلاة العشاء في يوم معين .

وأسرع صاحبي لموافاتي في طنطا ولكن شخصاً آخر عرف بمكانى وكان من حقه أن يعرف ولم يستطع أن يكبح جراح رغبته في أن يرانى وله العذر كل العذر في ذلك ، ولم يكن هذا الشخص إلا الأستاذ إبراهيم الزيدى الذى كان قد سافر إلى القاهرة ليعمل على تنظيم نشاط الحزب في هذه الفترة كما قدمنا . وقد أسرع البوليس السرى إلى طنطا والعجيب أن الأستاذ الزيدى على فرط حرصه وحذره ودقته لم يلحظ أنه متبوع ومتبوع بشخص من أفراد البوليس السرى الذين لا ينسى الإنسان شكلهم بسهولة ، ولقد صاحبه هذا البوليس السرى في سيارة واحدة طوال الطريق من مصر إلى طنطا دون أن يلحظ الأستاذ الزيدى من أمره شيئاً وهكذا يصح القول الخالد أن القضاء إذا حم عمى البصر وبطل السمع ولم ينفع الحذر ولم يكن رجل البوليس الذى يتعقب الأستاذ الزيدى يطعم في أن يصل من ذلك إلى الاهتداء إلى مقر إقامتي فقد كان البوليس قد يتس نهائياً

من إمكان العثور على بعد هذه الأشهر الثلاثة من المحاولات المستمرة الواسعة النطاق والتي انتهت كلها بالفشل الذريع فلقد ذرع البوليس أرض القطر المصرى شبراً شبراً وما من بلد من بلاد القطر لم يسافر إليها اليوزباشى إبراهيم إمام (وقتئذ) وقد كان تولى الفشل من شأنه أن يشبط عزيمة البوليس ومن هنا فقدوا كل أمل فى العثور على واعتقالى ، ولذلك فعندما صدرت الأوامر بتعقب الأستاذ الزيادى فى سفرته لم يكن ذلك إلا بقصد الرغبة فى القبض على الأستاذ الزيادى متلبساً بجرمة طبع المنشورات التى كانت توزع فى ذلك الوقت باسم الحزب فى كل مكان والتي كانت تتضمن حملات شعواء على سياسة الإنجليز ، وعلى ذلك فقد تتبع البوليس الأستاذ الزيادى لضبط منشورات ولقد خاب أمله فى ضبط هذه المنشورات ، ولكنه بدلاً من أن يرجع بخفى حنين عاد يحمل فى شبكته صيداً ثميناً على شكل الشيخ حسن عبد الجواد .

ولنرجع إلى سرد الحوادث على الترتيب ، فقد وصل مندوب الأسرة فى الموعد المحدد لمقابلتى ووصل الأستاذ الزيادى ومن خلفه رجلان من رجال البوليس السرى فى نفس الوقت وتلاقى الصديقان فى إحدى المقاهى ثم قصد مندوب الأسرة إلى المسجد الأحمدي فى الموعد المحدد فتبعه أحد رجلى البوليس ولم أشأ أن أذهب بنفسى لملاقاته فى هذا الموعد وإنما أرسلت (ف.ا) لمقابلته واستحضاره معه إلى البيت وجلست فى المنزل أقرب فى لهفة مقدم صديق ومندوب أسرقى ولم يطل انتظارى فقد دق الباب ففتحته فألفيته واقفاً أمامى إلى جوار (ف.ا) فارتيمنا فى أحضان بعضنا فرحاً وسروراً بهذا التلاقى وهذا النجاح الكامل فى تضليل البوليس نهائياً والوصول إلى مرحلة الاستقرار ولم يطف ببالنا أن رجل البوليس كان فى هذه اللحظة يطوف حول البيت ويسجل نمرة ويرقب نوافذه وأنه يمكن فى الظلام مترقباً ما يجرى من الحوادث دون أن يكون له برنامج معين .

أما نحن فقد جلسنا نتحدث ونستعرض الأحوال ونرسم البرامج المختلفة ولم ير مندوب الأسرة حرجاً فى مجيئ زوجتى للإقامة معى ووافقنى على أن ذلك يهينى لى جواً من الطمأنينة ويعد كل شبهة ، ولقد فاتنى أن أذكر أننى علمت منه بمجرد حضوره نبأ مجيئ الأستاذ الزيادى إلى طنطا فغضبت لهذا النبأ ورحت ألومه على موافقته على هذا العمل فاحتج بأن جهوده لم تفلح فى إقناع الأستاذ الزيادى بالعدول عن الحضور ثم راح يهون على الأمر من أن شيئاً لن يقع على الإطلاق فالظواهر كلها تدل على أن البوليس لم يعد مشغولاً بالموضوع .

وبعد أن أقمنا حديثنا نزل صاحبي ومعه (ف.ا) لكى ينام فى منزل أحد أقاربه المقيمين فى طنطا بينما رحلت أسبح فى عالم الخيال وأتصور حياتى اللطيفة المقبلة بعد أن تصل

زوجتي وولدي مصطفى ثم يعمل الشيخ حسن عبد الجواد لشق طريقه في طنطا وكسب قوته للصرف على أسرته .. وشعرت بالغبطة والرضا عن سير الحوادث ولم يقطع على سلسلة أفكارى وخيالاتى إلا الأستاذ (ف.ا) فقد أخذ يطرق الباب في لهفه ويدعونى لفتحه فبادرت بفتح الباب فدخل يلهث ويقول لى يجب أن نغادر هذا البيت في الحال وأن لا ننام في طنطا هذه الليلة وقد كانت هذه العبارة بمثابة قبلة وقعت من نفسى موقع الصاعقة ولم أشعر بالانزعاج ساعة القبض على قدر انزعاجى لهذه العبارة التى كانت أول نذير بالشؤم ولقد سألته على الفور عن سبب هذا القرار ولم تكن لى حاجة إلى السؤال فقد جاء الرد المنتظر على الفور «لأن البوليس يراقب البيت . البوليس يراقب البيت» قلت : بالله وكيف عرفتهم ومتى بدأ ذلك ؟ فراح صديق يقص على فقال لى إننا بعد أن تركناك وذهبت مع صديقك لأوصله لحنا أثناء اجتيازنا أحد الطرق المحيطة بالمنزل هذا الشاب الذى يشغل فى القسم السياسى مع اليوزباشى إبراهيم إمام . صحت به : ولكن من أين لك معرفته ؟ فقال أو لم تره فى المحكمة أثناء قضية الأستاذ توفيق الملط حيث جاء ليدلى بشهادته باعتباره أحد الذين تتبعوا الأستاذ توفيق .. ؟ ولما كان لهذا الشاب صورة لا تنسى فقد عرفناه على الفور خاصة وأنه تعمد أن ينظر إلى وجوهنا ولذلك فقد وجب أن لا نبقى فى هذا البيت بعد ذلك وأن لا ننام فى طنطا وقد كان هذا اقتراحاً قاسياً على كل منا فى ذلك الوقت كيف أترك هذا البيت بعد كل هذا التعب وهذا الجهد الذى بذلناه فى العثور عليه وإعداده وفرشه وتوضييه .. كيف أغادر طنطا هكذا سريعاً بعد أن خيل لى أنها ستكون بلدى لبضع سنوات مقبلة وإلى أين أذهب إذا غادرت طنطا .. ؟ أأعود من جديد لهذه الحياة المضطربة التى تحملنى على أن لا أستقر فى مكان واحد أكثر من يومين أو ثلاثة إن لم يكن بضع ساعات . أأعود لحياة القلق والحذر الشديد بعد أن خيل لى أننى ودعت هذه الحياة إلى غير رجعة ؟ . لا ... لا إن هذا فوق احتالى ولم تعد أعصابى تطيق هذا اللون من الحياة . ولذلك فقد فوجئ صاحبى برفض اقتراحه وصحت به لن أخرج من هذا البيت ولن أغادر طنطا الليلة وليأت البوليس لاعتقالى إذا كان قد اكتشف أمرى فلست أجد فى نفسى أى دافع يدفعنى للفرار من وجه البوليس بعد الآن لقد دخلت الحرب فى دور جديد لا نهاية قريبة له . وظهر أن روسيا كانت أعظم ضربة يعدها القدر لألمانيا . فقد كان قد انقضى شهر ونصف على بدء الحرب الروسية والجيش الألمانية لم تستطع أن تنال مثلاً من روسيا وكان الأمر قد استتب للإنجليز لا فى أفريقيا فحسب بل وفى سوريا ولبنان وأصبحت قدم الإنجليز أرسخ مما كانت فى أى يوم مضى وإذن فلم يعد هناك أى أمل فى نهاية سريعة للحرب ولم تعد بالتالى أى جدوى لبقائى مختفياً عن وجه الحكومة ولذلك فقد وجدت نفسى أمتملى بالعزم على البقاء حيث أنا وليكن بعد ذلك ما يكون . وعبتاً حاول صديقى

(ف. ١) أن يثنيني عن عزمي عبثاً حاول أن يرجوني وأن يلح في الرجاء لمغادرة البيت على الفور ولكنني بدأت أحمله على التشكك في أن يكون ما رآه بوليساً حقاً وقد يكون الأمر خيالاً واستبعدت أن يكون الشاب قد عرف البيت بالضبط ما دام لم يرياه واقفاً أمامه وإنما رأياه في أحد الشوارع القريبة من البيت وهكذا رحت ألمس المعاذير للبقاء في البيت . البيت الذي كان قد بدأ يخلو لي وأحرص عليه حرص الإنسان على بيته بالفعل .

قر القرار على البقاء في البيت إذن . ولكننا أعلننا حالة الخطر وهي تستدعي أن لا ننام طول الليل وأن نلازم النوافذ لنراقب الشوارع المحيطة بالمتزل حتى إذا رأينا حركة غير عادية اتخذنا للأمر أهبة وحاولنا أن نلتمس مخرجاً لنا ورحنا ندرس السطوح حيث كانت تقع شقتنا وبدأنا نقيس الأبعاد التي تفرقنا عن المنازل المجاورة لنا وتبين لنا أننا نستطيع في حالة الخطر إذا ما تنهنا له في الوقت المناسب أن نقفز إلى سطوح مجاورة أو أن نخبئ في عشة فراخ تصلح للاختفاء ولا يدور بخلد القادمين أن أحداً يمكن أن يكون مختبئاً فيها ، وفي هذه الأثناء كان الوقت يمر دون أن يجد جديد على الموقف فقد كانت الشوارع المحيطة بالبيت خالية من كل ما يثير الشك أو الريبة وبعد أن مكثنا بضع ساعات ونحن نراقب في غير جدوى اتفقنا على أن نقسم ما بقي من الليل بالمناوبة بينما ليتولى كل منا مواصلة المراقبة وحين موعد صلاة الفجر فصلبته وابتلته إلى الله أن يهيئ لنا ما فيه الخير ولم أستطع مقاومة النوم أكثر من ذلك فأيقظت صديقي الذي كان قد نال حظاً من النوم وطلبت منه أن يستلم دورتيه ريثما أتمكن من النوم ولقد نمت واستيقظت بعد أن غمرت الشمس بأشعتها الدنيا المحيطة بنا ولقد كانت نظرة واحدة إلى وجه صديقي كافية لأن تدل على أن كل شيء يسير على ما يرام وأنه لم تلح في الجوى أى بادرة تدل على شيء غير عادي وهنا بدأت حالة القلق التي ساورتنا بالأمس تزول وبدأت الطمأنينة تتسرب إلينا من جديد وبدأت أحاجي صديقي من أنني كنت على صواب عندما قلت له إنهم أخطأوا في تقديرهم وأن البوليس لم يهتد إلى البيت ولم يكشف أمره وإلا لدھنا في الحال وإن الأمر قد لا يعدو أن يكون مصادفة بحتة وقد أذعن صاحبي لوجهة نظري بعد أن بدأت الحوادث تؤيدها وعلى كل حال فقد رأينا إمعاناً في الحيلة أن لا نبارح المنزل هذا الصباح وأن نلزمه حتى لا نهى السبيل للبوليس إذا كان يحوم في هذه المنطقة لاكتشاف أمرنا وقد دلتنا الحوادث فيما بعد أن ذلك لم يكن احتياطاً وإنما كان انتظاراً لحكم القدر .



## سجن الأجانب

بينما كان كل شيء يجري حولنا هادئاً وطبيعياً في وكرنا بحيث زال من نفوسنا كل قلق واضطراب كانت الحوادث تجري سراعاً في ناحية أخرى من طنطا حيث كان البوليس لا يزال يتتبع الأستاذ إبراهيم الزيادى ويرقب حركاته بعد أن انضم إلى المراقبين الصاغ إبراهيم ، استقر بهم المقام في طنطا وأتاهم الصاغ إبراهيم إمام على عجل وبات في المدينة حتى إذا أصبح الصباح خف إلى حيث أقام الأستاذ الزيادى فوجده يتياً للسفر ومبارحة مدينة طنطا بعد أن علم أن أوامرى المشددة هو أن لا نتقابل وأن يرح طنطا على الفور ، ولم يكد الأستاذ إبراهيم الزيادى يضع قدمه على سلم سيارة الألبانيوس حتى وجد يداً توضع على كتفه ولم تكن هذه اليد سوى يد الصاغ إبراهيم إمام وتقول الروايات والقصص البوليسية إن رجل البوليس يقول في هذا الموقف «إننى أقبض عليك باسم القانون» ولكن في روايتنا نحن قال الصاغ إبراهيم إمام «أزيك يا إبراهيم أفندى .. إنت رايح فين تعال اتفضل معانا ...» ولقد ذكرت من قبل أن الفكرة في مراقبة الأستاذ الزيادى كانت للاهتمام إلى مكان طبع هذه المنشورات التي كانت تترى في هذه الأيام حاملة اسم مصر الفتاة وهى تنطوى على حملة شعواء ضد الإنجليز ورئيس الحكومة الذى يصانع الإنجليز ولذلك فقد أسرع إبراهيم أفندى إمام إلى أخذ هذه الشنطة التي كان الأستاذ إبراهيم الزيادى يحملها معه وأسرع بفتحها وتفتيشها ، ولا تسل عن خيبة أمله عندما لم يجد بها قصاصة ورق واحدة فضلاً عن منشورات مطبوعة وكان قد تصادف أن الأستاذ إبراهيم الزيادى مر بعد حضوره إلى طنطا على بعض أصدقائه من أصحاب المطابع وجلس عندهم بعض الوقت فاستقر في روع البوليس المراقب أن هذه المطبعة هى التي تقوم بطبع منشورات مصر الفتاة فكانت الخطوة الثانية هى الذهاب إلى هذه المطبعة وتفتيشها تفتيشاً دقيقاً وقد ارتعب صاحب المطبعة هذا اليوم وأقسم لهم أنه بعيدٌ بُعد السماء عن الأرض عن أى صلة بمصر الفتاة وانزعج الأستاذ إبراهيم الزيادى من ناحية أن يكون مجرد مروره بهذه المطبعة قد يؤدى إلى إغلاقها واعتقال صاحبها فراح يرجو بدوره إبراهيم أفندى إمام أن لا يتعرض لصاحب المطبعة لأنه لا علاقة له بالحزب

أو نشاط الحزب على أى صورة من الصور ولقد أصغى إبراهيم أفندى إمام إلى هذا الرجاء واكتفى بأن أخذ نماذج من مطبوعات المطبعة وحروفها حتى يقارنها بحروف المنشورات المضبوطة ، فإذا أثبت الخبراء أنها ليست من نوع واحد فقد وعد أن لا تصاب المطبعة بسوء ، وقد برّ إبراهيم أفندى إمام بهذا الوعد فأصبح من الإنصاف أن يُذكر له .

ولكن قضية المطبعة إذا كانت قد مرت بهذه السهولة فقد فتحت السبيل لفتح قضيتي أنا . ذلك لأن إبراهيم أفندى إمام انتهر هذا الجو الطيب الذى خلفه بعدم التعرض للمطبعة وانتحى بالأستاذ الزيادى جانباً وجلس معه يقنعه بوجوب إرشاده إلى مقر وجودى ، وأن البوليس على استعداد أن يهئ لى كل سبل الراحة ، بل إن الأمر قد لا يصل إلى حد الاعتقال ، وقد يتفقون معى على أن أقم فى جهة معينة أو أن أعطيهم وعد شرف أن لا أقدم على تصرفات معينة ، وراح يتحدث عن صداقته لى وأنه لا يمكن أن يتنوى شراً ، وقد كان هذا الحديث يتزل برداً وسلاماً على قلب إبراهيم الزيادى لأنه دله على أن البوليس لم يعرف بعد مقرى وأن هذا الرعب الذى أصابنا بالأمس لم يكن فى محله فهذا هو لم يكشف المكان بعد وإلا لما توسل له كل هذا التوسل ليوصله إلى ، ولقد أجابه الأستاذ الزيادى - وهو صادق - بأنه لا يعرف مقرى ولا يعرف أين أنا ، وأن سبب مروره فى طنطا أنه يقصد بلده ، وظل إمام أفندى وإبراهيم أفندى يتحاوران لمدة تزيد على الساعة حتى يشس إمام أفندى من وصوله إلى أى نتيجة واستقر عزمه على العودة إلى القاهرة معتقلاً الأستاذ الزيادى حتى لا يعود بخفى حنين للمرة الألف .

ولكنه قبل أن ينصرف بالفعل مصطحباً الأستاذ الزيادى هتف به أحد رجاله الذين كانوا معه كأنما تذكر أمراً « يا سعادة البك .. يا سعادة البك » فالتفت إليه إمام أفندى متسائلاً « ماذا جرى » فقال له : لقد كان يوجد مع الزيادى أفندى شخص آخر ولقد راقبته فوجدته ذهب إلى أحد المنازل فهل نذهب لتفتيشه ؟

وامتنعض إمام أفندى لهذا الاقتراح فقد سئم تفتيش المنازل على غير هدى وأصبح يائساً كل اليأس من أن يؤدى به ذلك إلى نتيجة ولكنه مع ذلك لم يكن يملك إلا أن يذهب إلى هذا البيت بعد أن اقترح عليه مساعدته تفتيشه فسار خلفه نحو هذا البيت وهو كاره وترك الأستاذ الزيادى مع بعض رجاله الآخرين ريثما يعودون لهم .

وصل إبراهيم أفندى إمام إلى البيت المشار إليه ولم يكن هذا البيت إلا بيتنا وبدا يستعلم عن صاحب البيت وعن سكانه فى الوقت الذى كنا فيه قد اعتقدنا أن كل خطر

قد زال وكنا نحتفل بنجاتنا من هذه الأزمة ولذلك لم نستطع أن نلاحظ شيئاً غير عادى ، مع أننا لو نظرنا من النافذة لاستطعنا أن نكشف حضور إمام أفندى ولاستطعنا أن نهرب إلى (عشة الفراخ) أو أن نقفز من السطوح ولكننا كنا فى غفلة تامة بعثنا إلينا القدر .

وسأل إمام أفندى سكان البيت هل جاء هنا ساكن جديد أو ضيف جديد فردوا عليه جميعاً لا لم يأت أحد إلا الشيخ حسن عبد الجواد ، ومن هو الشيخ حسن عبد الجواد ؟ هو أحد علماء الإسكندرية الذين هدم منزلهم فى أثناء الغارات وقد جاء إلى طنطا وقد كان هذا الرد بحيث كاد يقنع إمام أفندى بوجود الانصراف ولكن هاتفاً دعاه إلى أن يمضى فى استعلاماته وفى أى دور يسكن الشيخ حسن هذا ، فقبل له على السطوح فصعد ورجاله وضابط المباحث الذى كان قد اصطحبه معه إلى السطوح وطرقوا باب شقتنا ...

وسمعت الطرق وخفق القلب وأدركت على الفور أنها اللحظة الموعودة وأن القضاء قد حم . تكرر القرع ونحن صامتون لا نجيب من هول المفاجأة ولكنى لم ألبث أن تماكنت نفسى عندما سمعت صوت إمام أفندى يقول لمن معه لا يوجد هنا أحد أنا واثق أنه لا يوجد شخص غير عادى فى هذا المكان ، وكاد يقترح الانسحاب لأنه لم يفكر فى كسر الباب .

ولكن القدر كان يريد أن يأخذ مجراه ، فإذا بلسانى يتحرك ، وإذا بصوتى ينطلق « أهلاً وسهلاً انتظريا إمام أفندى أنا هنا وسأفتح لك الباب » وفتح الباب وتلاقت العيون وكانت المفاجأة بالنسبة لإمام أفندى أشد وقعاً على نفسه من وقعها على فقد كنت هيات نفسى منذ أمد بعيد لهذه اللحظة أما هو فقد كان يائساً من إمكان العثور على وكاد يترنح من هول المفاجأة خاصة عندما يمر فى خاطره أنه كاد أن ينصرف متجرعاً مرارة الفشل للمرة الألف .

ولقد استطعت أن أتمالك أعصابى بعد لحظة قصيرة وأن أجابه الموقف ، أما هو فقد ظل مضطرب الأعصاب ، ولقد بدا له أن يجاملنى وهذه إحدى أسرار إمام أفندى أن يجامل فرائسه إلى أبعد حد ليخفف عليهم من وقع صدمته فى اعتقالهم أو القبض عليهم أو الصعود بهم إلى المشنقة وهكذا ، ومن ناحيتى كنت فى أشد الاغتراب لهذه المجاملة فى هذا الموقف بل لعله الذى دفعنى إلى إعلان وجودى هو انتهاز فرصة وجود إمام أفندى لتسليم نفسى فقد كان أخشى ما أخشاه أن يكون اعتقالى بمعركة ضابط من الضباط الذين لم تسبق لهم معرفتى فأعامل بنخشونة أو ألقى ما يمس كرامتى ولذلك فقد مرت هذه

اللحظات الثقيلة على أحسن حال وألقت نفسى بعد ربع ساعة فقط فى أحسن الأحوال وبدأت أتهدأ قليلاً للاعتقال الطويل وللقدر الذى ينتظرنى .

وسرعان ما سرت الأنباء فى الأوساط الرسمية سريان البرق ، فبدأ رجال البوليس كبارهم وصغارهم يقدون على البيت ليروا بأعين رؤوسهم كيف قبض على أحمد حسين وفى دائرة عملهم وجاء المأمور وجاء ضباط المباحث بينا انطلق إمام أفندى ليطير الخبر إلى سليم بك زكى وإلى مدير الأمن العام ويتلقى الأوامر والتعليقات ، أما أنا فقد رحت أتجادل مع رجال البوليس فى طنطا لأخفف بعض ما بهم فقد كان الغضب والحزن يتجليان عليهم لاستطاعتى أن أقيم بين ظهرايهم دون أن يكتشفوا أمرى وأن يتم اعتقالى على يد أحد ضباط مصر فرحت من ناحيتى أخفف الأمر عليهم وأفهمهم كيف أنه لم يمس عليّ فى طنطا أكثر من يومين اثنين وأنهم كانوا لابد سيقتلوننى لو أن الأمر طال فى فأنهجت نفوسهم بهذا الدفاع ورحنا نتحدث فى أخبار الحرب وسير الوقائع الحربية ونسبنا فى لحظة من اللحظات حقيقة الموقف الذى كنا فيه إلى أن جاءنا إمام أفندى يطلب منا النزول للسفر إلى القاهرة. وقد طلبت منه أن يترك زميلى (ف.أ) وشأنه لأنه قد وجد معى بطريق الصدفة فوعدنى أن يطلق سراحه بمجرد وصولنا إلى مصر ولكن هذا الوعد لم ينفذ وظل (ف.أ) معتقلاً قرابة ثلاث سنوات .

وبدأنا رحلتنا إلى القاهرة فى سيارتين وركب معى هذا البوليس السرى الذى أرشدهم إلى البيت الذى كنت فيه فرحت أحدث إمام عن وجوب مكافأته فقد استحق المكافأة الخاصة باعتقال أحمد حسين وقد تحمس الشاب لهذا رأى من ناحيتى وراح ينظر إلى نظرة المتوسل أن أساعده للحصول على هذا المبلغ الضخم وأن أدافع عن حقه فى الحصول عليه .

ولم يكده سليم بك زكى يسمع الخبر حتى قرر أن يحضر بنفسه لاصطحابى حتى يأخذ نصيباً من فخر اعتقالى فتقابلنا وسيارته فى الطريق ودعانى إلى الانتقال إليها أنا وإمام أفندى فذهبت إليها وسرعان ما لفت نظرى أنه يوجد لدى السائق مدفع من مدافع (برن) أو لعله بندقية سريعة الطلقات من طراز قوى فتأكد . وبدأنا نتحدث ونتسامر ونتعاطب ونتحدث فى كل شئ فى جو من الود والصفاء فقد نسيت كل الآلام وكل الحزازات وكل المتاعب فى غمرة الفرح والابتهاج باعتقالى .

ووصل ركبنا المؤلف من ثلاث سيارات بوليسية تتقدمها سيارة مساعد الحكمدار إلى القاهرة وبدأت الهواجس تعاودنى فقد حانت ساعة الفصل فى أمرى فإذا عساهم يفعلون

بى وأى مصير سألقاه على أيديهم ولكن سرعان ما قضيت على هذه الهواجس بأن ألقيت اعتمادى على الله وسلمت مقدماً بما يحى على وفقاً لمشيئته فشعرت بالراحة والاطمئنان ووصلت إلى محافظة مصر ووقفت السيارة على عتبات هذا الدرج المفضى إلى حيث مكاتب الحكمادارية ففوجئت بأن أرى (السلام) مكتظة بعدد كبير من الأفندية والمعممين الذين يتألف منهم جيش البوليس السرى فى محافظة مصر هؤلاء الجواسيس والمرشدون المشاءون بنميم من كل خائب فى عمله أو دنىء فى طبعه ارتضى أن يحصل قوته عن طريق الخيانة والنفاق والدرس والإيقاع بالناس ولم أتنبه فى بادئ الأمر إلى أن هذا الحشد من البوليس السرى قد اجتمع خصيصاً لاستقبالنا والفرجة علينا ولكنى شعرت بكثير من الضيق وأنا أمرٌ وسط صفين من هذا الطراز من المخلوقات وسلم بك زكى يتقدمنى فى زهو وافتخار المنتصر الذى عاد يجر خلفه أسرى الحرب من الأعداء بينما كان إمام أفندى يسير خلفنا ولما يفق بعد من هول الصدمة والمفاجأة ولا يقوى على احتمال نظرات الإعجاب الممزوج بالحسد التى كان يرميه بها زملاؤه وإخوانه الضباط الذين كانوا فى استقبالنا . وأخيراً انتهى ذلك الموكب بوصولنا إلى حجرة إمام أفندى فدخلت إليها واستلقيت على هذه (الكنبة) الموجودة فى الحجرة وبدأت أشعر أننى فى حالة سيئة جداً ووجدت نفسى أنتفض من الغيظ والقهر؛ فقد بدأت أدرك أن هذا الحشد من البوليس قد دعى خصيصاً ليتفرج على ويرى أحمد حسين مقبوضاً عليه فى طريقه إلى المقصلة أو المحرقة أو المصير الذى لم أكن أعرف من أمره شيئاً فى هذه اللحظات وتصورت أن الجميع كانوا يسخرون من شكلى ومنظرى وأنا أرتدى الحبة والعمامة وبدأت أستعيد فى مخيلتى كيف كانوا يتغامزون وكيف كان سليم زكى ينظر إليهم من طرف خفى وعلى فمه ابتسامة من التشفى فضاق صدرى على الفور وأحسست بالدم يغلى فى عروقى وفتح الباب وأطل منه شابان من هؤلاء البوليس السرى حملقا فى وجهى ثم انفجرا ضاحكين فى سخرية ولم يكن يعوزنى إلا الحركة لكى أنفجر فأنفجرت ورحت أصب جام غضبى على القسم السياسى وعلى الجواسيس والمرشدين وعلى الحاضرين وعلى الذين قبضوا على وعلى الحكومة ورئيس الحكومة والإنجليز وكل من يحاول أن يفكر فى أن ينال منى أو يمس كرامتى وبادر طلعت أفندى الضابط الموجود بالحجرة إلى تهدئنى وأسرع إمام أفندى إلى إطفاء ثورة غضبى بأن وعدنى بأنه سيعاقب هذين الوغدين وكل ما يطلبه منى أن أرشده إليهما وراح يننى بشدة أن يكون حضورنا إلى المحافظة مديراً وأن هذا الحشد من البوليس السرى قد استدعى خصيصاً للفرجة علينا ولكنى لم أقبل منه أى اعتذار وطلبت أن يسرع بى إلى حيث يريدون الذهاب حتى أستطيع أن أستردهدوئى وأتمالك أعصابى ولما كان هذا

المكان لم يعين بعد وكانت الاتصالات تجرى بين المحافظة وإدارة الأمن العام ورئيس الحكومة فقد كان لابد أن أنتظر حتى يصدر القرار وفي إبان انتظاري ظلت أبدو مظاهر سخطي واشمئززي لما حدث ومما حدث .

وأخيراً جاء الأمر بإرسالى إلى سجن الأجانب وكانت هذه أول مرة أذهب فيها إلى هذا السجن وقابلنا ذلك الصول الإنجليزي مستر هيكلان بوجهه الغليظ الهادئ فبادرنى بقوله (ازيك يا أحمد) ثم شرع يلقى علىّ تعاليم السجن التى تقضى بخلع كل ما يمكن أن يصلح فى يوم من الأيام للانتحار ويذهبون فى ذلك إلى حد يثير الضحك والسخرية إذ يطلبون من السجن أن يخلع من حذائه هذا الرباط الصغير (رباط الجزمة) وقد أدركت فيما بعد أن هذه الإجراءات إنما تتبع لإدخال الرعب فى نفس السجن ولخلق جو من الإرهاب والنظام الصارم ليتمكنوا من السيطرة عليه ، واستقررنى المقام فى نهاية الأمر داخل زنزانة كأنظف ما صادفت فى السجون المصرية بطبيعة الحال تحتوى سريراً عليه أغطية نظيفة بيضاء وفى ركن من المكان مائدة وكرسى وفى سقف المكان مصباح كهربائى وإلى جوار الباب جرس كهربائى لاستدعاء الحارس أى والله جرس كهربائى لاستدعاء الحارس حتى لكان الإنسان فى فندق من الفنادق وليس فى سجن من السجون وسوف يأتى علينا الوقت الذى يتحول فيه سجن الأجانب بالنسبة لنا إلى فندق حقيقى ولكن كان دون الوصول إلى ذلك كفاح وجهاد عنيقان .

وإذن فقد انتهى كل شئ وانتهت هذه المطاردة التى استمرت قرابة ثلاثة أشهر لم أذق فيها طعم الهدوء فى ليلة من الليالى وها أنذا فى السجن بعد يوم عاصف من الانفجالات النفسية وأحسب أن ذلك كله كان كافياً لكنى يلقىنى فى سبات عميق فقد نمت ونمت وغرقت فى النوم ثم نمت واستيقظت فى صباح اليوم التالى لأشهد هذا العالم الجديد الذى أعيش فيه .

كانت الزنزانة التى أقيم فيها ككل الزنازين فى سجن الأجانب تقفل بواسطة (قفل) كبير ضخمة يوضع فى حلقات الباب ويفتح ويغلق فى كل مرة يريد فيها الحارس فتح الباب فضايقتنى هذه الفكرة أياً مضايقة ولكن هو السجن ولا سبيل للفكاك من أنظمتيه وأساليبه . فتح الحارس الباب فى الصباح ودعانى إلى زيارة دورة المياه فخرجت إليها فى شوق ولهفة على أرى أحداً ممن سبقونى إلى هذا السجن وهم الأستاذ صبيح وحسن جريو وحسن سلومة والأستاذ توفيق الملط والأستاذ إبراهيم طلعت وزكريا حنى ولكنى شعرت بأول خيبة أمل عندما غادرت الزنزانة فلم يقع نظرى على شئ سوى هذه الأبواب المغلقة

بهذه الأقفال الغليظة وسوى السكون العميق الذى يغمر المكان ولم يكن هناك مخلوق ليتحدث معه الإنسان سوى الحارس الذى تعمد بعد أن فتح الباب أن يتعد عنى كثيراً حتى لا أتمكن من التحدث معه . فواصلت رحلتى إلى دورة المياه صامتاً وقد انهجت بدورة المياه النظيفة الأنيقة على خلاف دورات المياه الهمجية فى سجون مصر الأخرى ثم عدت إلى الزنزانة فإذا السجان يغلق الباب خلقى بالملزاج ثم يضع هذا القفل الضخم فكأنه يضغط به على أنفاسى وكان طريفاً جداً فى حياة السجون بالنسبة لى أن أنظر من النافذة لأرى شارع عماد الدين والمترو يروح ويحيى وحركة شارع الملكة نازلى على أشدها ولكنى عدت إلى الفراش من جديد ولم يشغلنى هذا المنظر فقد كنت لا أزال فى حاجة إلى الراحة وكنت معتزماً الصوم إلى ما شاء الله حتى تنقشع الغمة ولم يكن لدى كُتُبٌ بعد فلم يبق أمامى إلا أن أستلقى على الفراش وأن أستجم ... وطالت رقدتى على الفراش وعاودنى النوم واستيقظت من النوم والسكون يسود المكان والباب اللعين مغلق على لا يفتح لأى سبب من الأسباب ولكن نظراً لتعودى هذه الحالة لم يكن ذلك فوق احتمالى ... وعند العصر فتح الباب من جديد .. ودعيت للذهاب إلى دورة المياه فى خمس دقائق أخرى ومرة أخرى أخرج فلا أرى أحداً ويتعد عنى الحارس ولا تطلعنى إلا هذه الأبواب الجامدة الصامتة التى يعلم الله وحده ما الذى تخفيه خلفها من نفوس حرة كريمة فى هذه الأيام ...

أين صبيح ؟ أين إخوانى ؟ .. أين أى إنسان ؟ ... لا جواب سوى الصمت والسكون والفراغ .

وجاء المغرب يحمل معه شيئاً من الحركة والحياة بالنسبة لى فقد جاء الطعام فأكلت وشربت وصليت وحان المساء فنمت واستيقظت هذه المرة فى الفجر وصليت وعندما أشرقت الشمس كان الواضح أن جسمى قد حصل على قسط من الراحة وأن عقلى بدأ يعمل وأن الأفكار بدأت تناوشنى إلى كم من الزمن سأظل على هذه الصورة لا أرى أحداً ولا يرانى أحداً ... هل يعلم أهلى بأننى جئت إلى سجن الأجانب هل يعلم إخوانى فى داخل السجن نفسه أننى قد جئت إليه هل هذا السجن هو مستقرى النهائى أم أن هناك نية تبیت لى ... هل يحاكمونى ؟ هل يدبرون ضدى شيئاً ؟ .

وجاء أوان فتح الزنزانة للذهاب إلى دورة المياه وفى هذه المرة حاولت أن أتحدث مع الحارس فرفض وذهبت وعدت وأغلق على الباب دون أن أرى مخلوقاً أو يرانى مخلوق وشعرت بشىء من القلق وأن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الحال ، وفى المساء

كنت أسائل نفسي لو فرضنا ورغب الإنجليز في قتلى أو عمل البوليس على قتلى في هذا المكان فهل يمكن أن يعرف أحدٌ مصري فضلاً عن أن يشهد مخلوق واحد بما حدث ! ؟ ها أنذا في زنزانة لا يرانى فيها سوى الحارس فلو قتلنى هذا الحارس مثلاً بأمر رؤسائه فمن الذى يشهد عليه ؟ ... وانقضت ثلاثة أو أربعة أيام على هذه الحال فرأيت أنه لا يحسن بى السكوت ولا بد من الاحتجاج على هذه المعاملة المشددة الضيقة لابد أن يحضروا لى ملابس من بيتى . لابد من أن يعرف أهلى أين أنا ... لابد أن أرى إخوانى المسجونين لابد أن تصلنى كتب ... لابد أن أحيأ كما يعيش الناس المسجونون على الأقل ...

وكتبت خطاباً إلى وكيل وزارة الداخلية أندد فيه بحالة السجن وطريقة المعاملة وقلت له فى خطابى إن هذا السجن قد قرب إلى ذهنى سجون الجستابو حيث يقتل الشخص ويتخلص منه (ولا من درى ولا من شاف) وحملت على الحكومة وحملت على البوليس وكان لهذا الخطاب أثره فجاءنى مندوب القسم السياسى يحقق ويسمع أقوالى وشكواى وكان على رأس مطالبى أن أرى إخوانى المسجونين وأن أطمئن إليهم وأقيم حيث يقيمون . ولست أريد أن أطيل عليك أيها القارئ الكريم فى ذكر تفاصيل لا أهمية لها فقد انتهى الأمر إلى إجابة مطلبي وسمح لى برؤية الأستاذ صبيح والأستاذ الزيدادى والأستاذ فتحى أبو الوفا وقد كان رباعيتنا هم كل من أصبحوا فى سجن الأجانب لأن الآخرين كانوا قد نقلوا إلى معتقل الزيتون ليفتحوه ، ذلك المعتقل الخالد الذكر والذى سبق إلى الأبد مقترناً بمصر الفتاة وأجمل ذكريات مصر الفتاة .

كم كنت أرغب أيها القارئ الكريم أن أحدثك عن ذكرياتنا فى المعتقل وكيف كنا نعيش ونحيا ونقضى حياتنا اليومية ، كم كنت أريد أن أحدثك عن أنباء الحرب وكيف كنا نستقبلها فى سجننا ونعلق عليها ونعيش ونتراهن على سير وقائعها . كم كنت أريد أن أحدثك بتفصيل دقيق عن هذا اليوم الذى أعلنت فيه اليابان الحرب وكيف كنا نوشك أن نرقص من الفرح فقد كان كل ما يؤذى الإنجليز يدخل السرور إلى نفوسنا . لقد كنا نقيم الحفلات إذا ما سمعنا عن غرق بارجة إنجليزية إيماناً منا بأن عظمة إنجلترا من عظمة أسطوها فكلما غرقت بارجة كان معنى ذلك غرق جزء من سيادة إنجلترا .

\* \* \*

وكان من جراء إعلان اليابان الحرب أن نقلنا إلى معتقل الزيتون ليتسع المجال فى سجن الأجانب لرعايا اليابان .



ومرة أخرى لن أستطيع أن أحدثك عن ذكرياتنا في معتقل الزيتون فقد اضطررنا إلى اختصار هذا الجزء من الذكريات فالجمال لا يتسع لها وحسبي أن أقول لك إن في هذه الفترة وقعت حوادث ٤ فبراير الشهيرة وقد فكرنا في المعتقل أن نقوم بثوره مسلحة تكون نقطة الابتداء لثورة جائحة في أنحاء القطر المصري . وقد تقدمت لترشيح نفسى فى الانتخابات عن دائرة الدرب الأحمر . وأصِبتُ بالتهاب الزائدة الدودية فنقلت إلى مستشفى الدمرداش حيث أجريت لى عملية جراحية بنجاح عظيم . وبينما كنت أعيش معتقلا فى المستشفى كانت حوادث الحرب تتطور تطورا عظيما لم يخطر على بال إنسان .

## هجوم روميل

كانت الحرب قد أوشكت على الدخول في مرحلة دقيقة كان مقدراً لها أن تقلب تاريخ الحرب رأساً على عقب أو بالأحرى تاريخ الدنيا السياسي لمدة قرن من الزمان .

نحن الآن في سنة ١٩٤٣ في القسم الأول منها وقد انقضى على بدء الحرب أكثر من ثلاث سنوات: ولم تستطع ألمانيا أن تصل فيها إلى نتيجة حاسمة بالرغم من الجهود الجبارة التي بذلتها والتضحيات العظيمة التي تحملها الشعب الألماني وبالرغم من الانتصارات المدوية التي أحرزها الألمان في الغرب وأحرزها اليابانيون في المشرق ومع ذلك فقد كان من الواضح أن دول المحور قد خسرت المعركة الأولى معركة الحرب الخاطفة وكان من الواضح أن خطط دول المحور كلها وأملها في النصر قد بنى على أساس الحرب الخاطفة وانقضاء ثلاث سنوات ونيف دون وصول دول المحور إلى نتيجة حاسمة وبقاء إنجلترا عدو المحور اللدود في الميدان رافعة لواء المقاومة واستطاعة روسيا أن تقاوم زحف الجيوش الألمانية هذه المقاومة الباسلة التي أدهشت العالمين وفاجأتهم . وانضمام أمريكا بكل قوتها الإنتاجية إلى هذا الجانب كل ذلك قد عزز جانب الديموقراطيات تعزيزاً قوياً وبدأ التوازن بين الكفتين يبدو واضحاً على الأفق .. لقد راحت أيام انتصارات دول المحور الكاسحة .

راح وقت اندحارات إنجلترا وروسيا وأمريكا وجاء الوقت الذي وقفت فيه جيوش الطرفين متقابلة في كل مكان لا يستطيع أحدها أن يزحزح الطرف الآخر وذلك هو جو الحرب العام في هذه الفترة التي أجريت فيها عمليتي الجراحية فلم يكن في حوادث الحرب من العواصف والمفاجآت ما يحرك الأعصاب أو يثيرها كما كان الحال في الستين الأوليين من الحرب ولذلك فقد بدأت في هذه الفترة أفكر في كتابة رسائل أدبية وتهديبية أوجهها إلى ابني الصغير مصطفى محاولاً أن أضع في هذه الرسائل القواعد الأساسية التي أرى وجوب تلقينها للطفل لكي يشب رجلاً كاملاً ومواطناً صالحاً وقد كان مقدراً لهذه الرسائل أن تتطور فيما بعد بحيث تصبح أبحاثاً مستفيضة في شتى مشاكل الحياة الأساسية ولكن الفكرة في بادئ الأمر كانت تهديبية بحتة ولذلك فقد كتبت بمجرد تماثلي للشفاء رسالتين إحداهما دعوة لطاعة الأبوين مظهرًا ما في ذلك من خير وسلامة للفرد والمجتمع وكانت هذه قبل إجراء العملية . أما بعد إجراء العملية فقد أوحى لي المرض كتابة رسالة

عن الصحة والمرض سجلت فيها التعاليم والوصايا التي إذا اتبعها الإنسان تجنب المرض وتمتع بالصحة والعافية .

\* \* \*

وفيما نحن في هذا الهدوء الشامل وأنا في مرحلة النقاهة أكتب وأتحدث إلى زوارى وميادين الحرب جامدة إذا بالأنباء تعلن عن هجوم جديد للجنرال روميل في الصحراء الغربية ولقد كان روميل قد استطاع من قبل أن يكتسح طريقه في ليبيا حتى مدينة درنة بالقرب من الحدود المصرية ولكن الإنجليز استطاعوا إيقافه عند هذه المدينة أولعل روميل هو الذى توقف عند هذه النقطة ليستكمل حشد قواته وعندما فرغ من حشد هذه القوات بدأ هذه المعركة التي انخلعت لما قلوب وكادت قلوب تقف من الفرح والابتهاج .

بدأت هذه المعركة ذات الفصول الثلاثة والتي يجب اعتبارها من أحسم معارك هذه الحرب والتي اشتهرت باسم الفصل الأخير منها فأطلق عليها اسم العلمين .. بدأت هذه المعركة عندما جدد روميل هجومه على خط دفاع الإنجليز في مايو سنة ١٩٤٣ وكان الفرنسيون يحتلون آخر نقطة في هذا الخط عند موقع أطلق عليه اسم (بئر حكيم) ولقد قاوم خط الدفاع الإنجليزي بفضل مقاومة الفرنسيين في بئر حكيم مدة أطول مما كان يتوقعها أى إنسان فقد ظل الجنرال روميل يهاجم هذا الخط قرابة أسبوعين دون أن يتمكن من اختراقه فكان ذلك آية من آيات التطور الذى وصلت إليه المعارك من حيث توازن القوى .

ولكن جيوش الجنرال روميل المصفحة لم تلبث أن قامت بحركة التفاف ضخمة حول خط الدفاع الإنجليزي وسقطت بئر حكيم في نهاية الأمر وسقطت نقط الخط الحصينة وانهار بذلك الدفاع الإنجليزي من أساسه وبدأنا نشهد بعد الملل والجمود الذى ران على ميدان القتال طويلا ذلك المنظر الذى يشهده الإنسان عقب أن يحطم سدا من السدود المائية الجبارة عندما تتدفق الأمواج في جبروت وطغيان على كل ما يصادفها . وأدرك الإنجليز والعالم كله هول الصدمة التي أصيبوا بها وهول الهجوم الألمانى الجديد عندما اقترب الألمان من مدينة طبرق وهى الحصن الذى لم يستطع روميل في هجومه الأول أن يقتحمها وظلت تقاومه وتتحدى جيوشه وحصاره طوال بضعة أشهر وتوقع كل إنسان في الدنيا أن تكرر طبرق موقفها الرائع في وجه الهجوم الألمانى ولذلك فقد كانت مفاجأة انخلعت لها قلوب الإنجليز عندما أذيع أن طبرق قد سلمت وأن حاميتها التي يبلغ قدرها خمسة وعشرين ألفاً من خيرة الجند قد سلموا بكل ما لديهم من سلاح وعتاد وأقوات .

كان سقوط طبرق معناه أن مصر قد باتت في خطر ، وأن الهجوم الألماني من العنف هذه المرة بحيث لا تمكن مقاومته ، وكان الموقف يزداد سوءاً من يوم لآخر ومن ساعة لأخرى ، وسادت موجة من الفرع صفوف الإنجليز في مصر وبالتالي موجة سرور وابتهاج في صفوف الشعب المصري فقد كان يفرح بحق لكل ما يحق للإنجليز من انتصارات وانكسارات وقد كان ذلك يغيظ الإنجليز ويحنقهم ولكن لم يكن بوسعهم أن يعملوا شيئاً فقد كان الشعب سلباً هذه المرة يقف موقف المتفرج وبدأت الحرارة ترتفع في سائر أنحاء البلاد وبدأ حديث الهجوم الألماني يطغى على كل شيء حتى على الطعام والشراب ولقد كنت أحس إحساساً خفياً أن الهجوم الألماني لن ينجح في اكتساح مصر هذه المرة كما لم ينجح في المرات السابقة وكان هذا الإحساس الخفي هو ثمرة اعتقادي أن ألمانيا قد خسرت الحرب وانقضى أمرها وأنه من غير المعقول أن تحتل مصر في وقت ضعفها وهي لم تستطع ذلك وهي في أوج قوتها ولذلك فقد كنت أشعر أن الإنجليز سيوقفونهم من غير شك قبل أن تتعرض مصر لخطر حقيق كما أوقفوهم من قبل ثلاث مرات .

\* \* \*

وكان في مستشفى الدمرداش إنجليزيتان إحداهما رئيسة الممرضات وهي كبيرة في السن وأخرى تصغرها سناً ، فأماً رئيسة الممرضات فتمثل البرود الإنجليزى في أكمل صورته فلم تكن تتحدث عن الحرب وعبثاً كان الإنسان يحاول أن ينتزع منها رأياً إلا إعلان ثقته الكاملة المطلقة في انتصار إنجلترا المحقق .. وعندما بدأ هذا الهجوم الجديد ظلت المرأة مقبلة على أعلاها العادية لا يكاد يظهر عليها أن هناك حرباً تجرى في الدنيا ، أما الأخرى فقد كانت أكثر عصية ، وكانت هذه الأنباء تزعجها وكان في المستشفى كثيرون من الذين يظهرون التشقى لهزائم الإنجليز فكان ذلك يزعجها ويؤرق مضجعها .

\* \* \*

ووصل الألمان إلى الحدود المصرية .. واخترقوا الحدود المصرية .. ووصلوا إلى سيدي برانى .. ولكن الألمان لم يقفوا وظلت موجة الهجوم الألماني طاغية والطوفان الألماني يكسح في طريقه كل شيء . واقتربوا من مرسى مطروح آخر أمل للإنجليز في الدفاع عن مصر وتها العالم ليسمع أنباء اشتداد المقاومة الإنجليزية عند مرسى مطروح وجاءتني الممرضة في حالة شديدة من الفرع تحدثني عن أنها قد أعدت حقائب ملابسها وأنها ستهرب إلى جنوب أفريقيا قبل أن يدخل

الألمان إلى مصر فهم لا يستطيع أن تتصور الوقوع في أيديهم فقلت لها إن مرسى مطروح ستقاوم بأشد مما قاومت طبرق في المرة الأولى وستكسر الهجوم الألماني من ساعة لأخرى فكانت تنفّس الصعداء إذ ترى مصر يا (معتقلاً باعتباره زعيم المتطرفين ضد الإنجليز) يقول لها هذا القول .. أمّا صاحبها الأخرى رئيسة الممرضات فقد كانت ماضية في عملها في ذلك الهدوء العجيب كأنه لا يجري في الدنيا شيء فظننتها في لحظة من اللحظات أنها عجزت فانية لا تدرك من أمر الدنيا شيئاً فلم أكد أسألها عن سبب هبوطها واضطراب زميلتها حتى وجدتها تحمل على زميلتها حملة شعواء لما هي عليه من خوف وقلق لا مبرر لها أبداً لأن الألمان لن يدخلوا إلى مصر وإنجلترا ستتغلب عليهم فأدهشني وأعجبني أن لا يستطيع هذه النكبات أن تززع من يقين امرأة إنجليزية .

وأعلنت الجرائد نبأ اقتراب الجيوش الألمانية من مرسى مطروح في الصباح أى الألمان الآن في صميم مصر وأنه لم يبق بينهم وبين دخولها إلا سقوط مرسى مطروح وتستطيع أن تتصور كيف كانت حالة مصر في ذلك الوقت .

كانت المخاطر هائلة ماثمة فكل إنسان يتوقع قرب دخول الألمان ، وكانت كوارث الحرب كلها وما يترتب على انسحاب جيش ودخول جيش جديد ماثلة في أذهان العقلاء والمفكرين ، أما الشعب فقد كاد يجن من الفرح لفرط كراهيته للإنجليز المستعمرين الذين أذلوه طوال سبعين سنة ، وعبئاً كان يذكر الشعب بطغيان الألمان واستبدادهم في البلاد التي فتحوها فقد كان الشعب لا يتصور كيف يسيء الألمان معاملته بالرغم من عواطف الصداقة التي يضمروها لهم ، صداقة ولدها العداء المشترك للإنجليز الغاصبين ، وفوق ذلك فقد كان للشعب منطق سليم كل السلامة في فرجه بالتخلص من الإنجليز على أيدي الألمان ، فالمصريون يريدون أن ينتقموا من الإنجليز أولاً ، يريدون أن يحاسبوهم عن كل الجرائم التي ارتكبوها في حق مصر طوال نصف وستين سنة ، يريدون أن يسجلوا على صفحات التاريخ مثلاً جديداً لحيوية مصر وخلودها ، كيف يفنى غزاتها وأعداؤها ؛ أمّا هي فتبقى أبداً ماضية إلى الأمام . وإذن فليكن الألمان ما كانوا ... فليكونوا الشيطان نفسه فإن المصريين على استعداد لاستقبال الشيطان إذا كان سيخلصهم من الإنجليز . وأنه المنطق السليم الذي لا غبار عليه وهو آية الكراهية التي تأصلت في المصريين نحو الإنجليز ، وآية شعور المصريين بالكرامة والحيوية التي تجعلهم لا يتساحون أبداً مع غاصب أجنبي حتى ولو لبس لهم مسوح الكهنة وأظهر لهم الصداقة والود .

من هنا كان الشعب في شبه فرح وعيد ، وكانت المقاهي والمجتمعات والأندية

والشوارع والأزقة تغص بالمصريين الذين تتجلى الشماتة في أقوالهم ، ويطفح البشر من وجوههم ولا حديث لهم إلا اندحار الإنجليز وقرب دخول الألمان غير حاسبين حساباً إلى ما قد يحجره ذلك عليهم من ويلات نتيجة المعركة الفاصلة .

أما جماعة اليهود فلم يكن هناك مجال للشك فيما ينتظرهم ولذلك فقد كانوا في حالة يرثى لها ، كانوا يريدون أن يهربوا في لمح البصر ولكن أموالهم كانت تربطهم في كثير من الأحيان ، لأنها ديون عند الناس ، أو على شكل عقارات ، أو على شكل أوراق مالية ، فهل يتخلون عنها بأجنس الأثمان وينجون بجلودهم ، ولكن هل ضاع كل أمل في نهاية الأمر؟ هل أصبح أمراً مقضياً أن يدخل الألمان في الأيام القليلة المقبلة ... ؟ ألا يجوز أن يتمكن الإنجليز من ردهم كما فعلوا من قبل ؟ وإذن فليتمهل اليهود بعض الوقت فليتمهلوا يوماً أو يومين ، فليتظروا على الأقل مصير مرسى مطروح التي طالما سمعوا عنها أنها حصن مصر الحصين .

وكانت الحكومة بدورها قد بدأت تبحث موضوع الانسحاب من القاهرة والأماكن التي يمكن الانسحاب إليها وقد أشيع في ذلك الوقت أن الانسحاب سيكون إلى السودان وأن الخرطوم ستكون مقر الحكم الجديد .. وقد قيل لنا فيما بعد وبعد انقضاء هذه الحوادث أن جلالة الملك الفاروق قد رفض في هذه الحنة أن يغادر بلاده وأصر على أن يظل في القاهرة وقد أعلن النحاس باشا تضامنه مع مليكه وأن الحكومة المصرية باقية إلى جوار الملك إذا انتقل انتقلت معه وإن شاء البقاء بقيت ، ومع ذلك فقد كان هذا البحث لا يزال سابقاً لأوانه أليست مرسى مطروح حصن مصر الحصين لا تزال قائمة ؟

\* \* \*

وفي مصر هيئات وجماعات وأفراد سبق لها أن اتصلت بالألمان على صورة من الصور فئمة أمير من الأمراء سبق له العمل في الجيش الألماني وهو ضالع بكل عواطفه مع الألمان . وشباب تعلم في ألمانيا وعاش في ألمانيا ويتجه بكل عواطفه مع ألمانيا فراح يرى في مقدم الألمان طريقه نحو المجد والسلطان ، وبعض صنائع ألمانيا وجواسيس إيطالية راحت تعد قوائم بمن يجب إعدامهم على الفور وراح كل صعلوك منهم يتصور نفسه الحاكم بأمره في النظام المقبل ومع ذلك فقد كان ذلك سابقاً لأوانه بعض الشيء فإن مرسى مطروح حصن مصر الحصين كانت لا تزال قائمة .

أمّا أنا ... أنا الذي ظللت طول الوقت منذ بدأ الهجوم الألماني الأخير مستيقظاً كل

الاستيقان أن الألمان سيفشلون في دخول مصر هذه المرة أيضاً ، بدأ الشك يساورني في هذا اليقين ، وبدأت أخطئ نفسي وأشعر أن حساباتي قد أخطأت هذه المرة وأن الألمان قد يدخلون مصر فعلاً ... وقد كان هذا الخاطر يملؤني بالقلق فلم تكن علاقتي بالألمان في آخر مراحلها علاقة طيبة ، فقد كتبت في إبان أزمة ميونيخ المشهورة حيث كانت ألمانيا تهدد سلام العالم كتبت أهاجم هتلر وأساليبه الإرهابية وحملت على ألمانيا حملة شعواء ، بل لقد وصفت هتلر بأنه (بلطجي دولي) ولقد كان لهذا المقال ضجيج ، أعظم ضجيج . وقد أخبرني على باشا ماهر رئيس الديوان الملكي في ذلك الوقت أنهم لفتوا نظر مراد باشا سيد أحمد وزير مصر المفوض في برلين إلى هذا المقال وأظهروا تسامحهم في أنهم لم يقوموا بأي إجراء رسمي للاحتجاج وقد اعتبر ذلك منهم آية في كرم الأخلاق واللطف ، ولقد كتب إليّ وزير ألمانيا المفوض في مصر خطاباً شخصياً يحتج فيه على هذه الحملة وتوجيه هذه الألفاظ الشديدة لهتلر . ثم سويت المسألة بعد ذلك بعد انقشاع الزوبعة وتوقيع الأقطاب الثلاثة تسميرلين وهتلر وموسوليني على ميثاق ميونيخ ولكن هل ينسى الألمان الذين يعبدون هتلر إهانات وجهت إليه من فرد من الأفراد ؟ ولقد حدث بعد ذلك أن أرسلت بخطاب إلى هتلر أناقش فيه أساليبه وخططه وبرناجه على ضوء الإسلام والتعاليم الإسلامية وكشفت في هذا الخطاب عن مواضع الخطأ في خطط هتلر وأن هذه الأخطاء توشك أن تعرضه للهلاك والدمار ، من ذلك محاربته الشديدة القاسية لليهود ورغبته في إبادتهم ومحاولته السيادة والسيطرة على جميع الشعوب غير الألمانية ونددت بهذه الروح وانتهيت بأن دعوته في ختام الرسالة إلى الإسلام كطريقة للنجاة وبالرغم من أن هذه الرسالة كانت مناقشة هادئة ليس فيها مساس بشخص هتلر فقد اعتبرتها الأوساط الألمانية تهجماً على مقامه ونقداً لأساليبه فهل ينسى لي الألمان ذلك كله إذا دخلوا مصر ؟

ولم يكن يخالجنى شك في أن هؤلاء القادمين سيعصفون بحرية مصر واستقلالها عصفاً . وكنت أسائل نفسي هل سأسكت عن ذلك فأرى الدم يغلي في عروقي وإني لن أستطيع إلا أن أواصل جهادي في وجوههم ومعنى ذلك أنه لن يكون لي أمل في الحياة على أن وجودي في الاعتقال في هذه الفترة هو الذي كان يزعجني كل الإزعاج أن أرى الدنيا قائمة قاعدة والقيامة توشك أن تقع وأنا محبوس في هذا القفص لا أستطيع أن أتحرك . لا أستطيع أن أتدبر ، لا أستطيع أن أدافع عن نفسي . وقد كان هناك ثمة خطر آخر يهددني وهو خطر اصطحاب الإنجليز في تراجعهم . فقد كان من الواضح أن الإنجليز لا بد أن تضع يديها على هذه العناصر التي يجيل لها أنها ستعاون الألمان لكرهيتها للإنجليز ، وكان من الواضح أن المعتقلين هم أول من تفكر في اصطحابهم معها أي أننا من ساعة

لأخرى قد نرى أنفسنا مرحلين إلى الهند لنعيش في أسر الإنجليز إلى الأبد ، ومن يدرى فقد يطلب منا أن نؤلف مصر الحرة كفرنسا الحرة وقد يطلب منا أن نذيع في الراديو والمسدس فوق رؤوسنا ، وقد يطلب منا أن نصف الهناء والرخاء للذين نعيش فيهما . وأن نطلب من المصريين أن يثوروا من أجل أصدقائهم وأحبابهم الإنجليز ؛ وكان مرور هذا الخاطر في نفسى يملؤني رعباً وفزعاً . !

وإذن فلا مناص من الهرب والفرار واسترداد حريتي في هذه الساعات العصبية بأى ثمن من الأثمان ولكن متى يكون الهرب عندما يتحرج الموقف ويضيع كل أمل في إمكان نجاح الإنجليز في إيقاف تيار الألمان ؟ . ومتى يضيع هذا الأمل ؟ عندما تسقط مرسى مطروح - سقطت مرسى مطروح . .

وإذن فقد كان سقوط مرسى مطروح هو الإشارة لكل من في مصر بأن نهاية الإنجليز قد تحققت وأن دخول الألمان مصر بات منتظراً من ساعة لأخرى .

ومازلت . للآن أتمثل هذا اليوم وكيف قضيناه منذ الصباح المبكر ... كيف كانت الشمس ساطعة وكان الجو حاراً وكانت النفوس كلها مشتتة بالحرارة الداخلية ، حرارة القلق والانتظار ومعاناة أضخم أحداث القدر .

\* \* \*

كانت مستشفى الدمرداش كأنها خلية نحل تطن بالأحاديث ، كان الأطباء يتحدثون وهم يفتحون بطون المرضى معلقين على آخر الأخبار ، كانت الممرضات يسهون عن إعطاء الأدوية اشتغالاً بالحديث عما جرى وسيجرى ، كان كل إنسان يتحدث مع كل إنسان ، زالت الفوارق ، رفع التكليف .. الجميع الآن أسرة واحدة جمعها الخطر المشترك ، كانت مصر كلها تتكلم وخيمت على سماء البلاد سحابة من هذا الكلام جعلت الهواء ساخناً مضطرباً يطن طنيناً عجيبياً مردداً أنفاس الناس واضطرابهم ومقاطعاً .. الإنجليز الإنجليز ... الألمان الألمان . وكأنما كان الحجر والشجر والدواب والحيوانات تشارك المصريين جميعاً في توقع الحوادث المقبلة في هذه الساعات . كان الكون في كفة القدر ولقد عشت هذه الساعات يملأ جوانحي الفزع عشتها وتنفست هواءها وكانت حواسي كلها مستيقظة ، وقواى ناشطة تريد أن تندفق من دقيقة لأخرى بل من ثانية لأخرى .. كنت أريد أن أتصرف ... أريد أن أفعل شيئاً .. أريد أن أنطلق .

جاءني الحارس المعين لحراستى في الصباح وكان ككل مصرى آخر في ابتهاج مقدم



الألمان وقال لي جرياً على عادته من سوق الأخبار والإشاعات إن مرسى مطروح قد سقطت منذ أيام والإنجليز تتكتم الخبر وأنهم الآن يضربون الاسكندرية .. فلم أعر هذا الخبر أى انتباه بطبيعة الحال لعلمى أن هذه الأخبار الخطيرة لا يمكن أن تخفى في هذه اللحظات العصبية ، وقد كانت بلاغات الجيش الرسمى قد أعلنت اقتراب الألمان من حصون مرسى مطروح الداخلية وقد أثبتت هذه البلاغات دقتها وأمانتها في وصف الموقف . ولكنى أردت أن أنتهز هذه الفرصة لأمتحن هذا الحارس وهل يساعدنى على الفرار إذا أردته فعرضت عليه أن نخرج سوياً من المستشفى كما يفعل كثير من المعتقلين الآخرين لكى تنتزه فإذا بالرجل يسرع في الرد على « أنت عاوز تودينى في داهية » وإذن فالرجل الذى يعتقد أن الألمان سيكونون في مصر غداً يرفض أن يخالف أنفه التعليمات الإنجليزية ولقد كانت هذه هى حالة المصريين جميعاً في ذلك الوقت لسوء الحظ . لقد كانوا جميعاً يكرهون الإنجليز ، وكانوا جميعاً يمتقنون الإنجليز ، ويتمنون هلاكهم . وقد وافقهم الفرصة في هذه اللحظات الرهيبة ومع ذلك فقد كان كل مصرى يعمل في جد ونشاط لمساعدة الإنجليز ابتداء من رئيس الحكومة إلى آخر فلاح في حقله كان الجميع يقدمون للإنجليز أعظم معونة لم يكونوا يحلمون بها في أى يوم من الأيام ... لم يحصلوا عليها من حليفهم فرنسا في مراحل الحرب الأولى وهى الهدوء والنظام خلف الجبهة وإقبال كل مواطن على عمله اليومى ..

لم تكن الجيوش الألمانية تقرب من بلد من البلاد حتى يدب الهلع إلى النفوس وتشيع الفوضى فتزداد صعوبة الجيوش المتراجعة وتتضاعف الهزيمة أمّا في مصر فقد كان كل شىء هادئاً ساكناً وكل مصرى مقبلاً على عمله في جدّ واجتهاد ولم يعرف الخوف سبيله إلى سواد الشعب ولذلك فقد اضطر الإنجليز وأنفهم راغم أن يعترفوا لمصر فيما بعد بالفضل الأعظم فيما حصلوا عليه من انتصار باهر والحق أنه لولا موقف المصريين السلبى مما كان يجري في هذه الأيام لكان مصير الإمبراطورية البريطانية بل والعالم كله قد تغير ..

فهذا الجندى الذى كان يغلى غلياناً بكره الإنجليز ويكاد يمين فرحاً لمقدم الألمانين وهو في نفس الوقت يتحدث عن بطولتى وعظمتى وعن مستقبلى الرائع العظيم في ظل الانقلاب المقبل ومع ذلك فعندما عرضت عليه أن يخرج معى بالليل قليلاً كما يفعل الكثيرون إذا به يعتبر أن ذلك سيخرب بيته وكان ذلك هو موقف كل مصرى في هذه الساعات . ولقد جعلنى ذلك أحق على هذا الجندى وأنظر إليه في اشمئزاز ، وكأنه أحس من ناحيته بما كان يحول في نفسى من خواطر فلم يعد يفارقنى لحظة من اللحظات وسلاحه النارى معلق إلى كتفه .

وجاءت الممرضة الإنجليزية المذعورة تطوف طوفتها ومن عجب أنها كانت تبدو في هذا الصباح أكثر هدوءًا بالرغم من اشتداد الخطر ولم يكن هذا الهدوء في حقيقته إلا الاستسلام الذي كان طابع الحياة المصرية في ذلك الوقت فقد رأت كل من حولها مستسلمًا فاستسلمت بدورها وتركت المستقبل بين يدي القدر يفعل ما يشاء له أن يفعل ومع ذلك فقد نظرتُ إلى وقالت ما رأيك فقلت لها «إن مرسى مطروح لم تسقط بعد» فهزت رأسها وانصرفت .

\* \* \*

بدأت فكرة الهرب تملكني بكل قوة وبدأت أستعرض الطرق المختلفة للهرب . ولم يكن الفرار من مستشفى الدمرداش بالأمر الصعب بالنسبة لمعتقل عادي فليس بالمستشفى سجنًا وليس محاطًا بالحراس أو الأنظمة الدقيقة وفيما خلا هذا الحارس الذي يصاحب الإنسان في روحته وجيشته فليس هناك مظهر من مظاهر الرقابة ، ولكن شخصيتي التي أصبحت مشهورة في المستشفى كانت تجعل الهرب يكاد يكون مستحيلًا ، فكل إنسان يعرفني ، الأطباء والمرضون والمرضات والمرضى أنفسهم وحيناً رحت أوجئت أحاط بالأنظار ، وتفسر حركاتي وسكناتي وخاصة في هذه الظروف العصيبة ، وهذا ما كان يجعل فراري يبدو في ذلك الوقت من أشق الأعمال ومع ذلك فقد صممت ورحت أدرس الوسائل المختلفة للهرب وهل يكون بالليل أم بالنهار؟ وهل يتم بالقوة والإكراه أم بالحيلة وانتهاز الفرصة؟ وهل يتم بمحاولة من الخارج؟ وبينما كان رأسي يفكر للحصول على جواب هذه الأسئلة ، رحت أطوف المستشفى باحثًا عن الثغرات التي يمكنني أن أفر منها ورحت أدرس حالة الأبواب المختلفة للمستشفى وبعضها يقع خلف المستشفى ويؤدي إلى المقابر المهجورة . ولكنه لأمر ما قد أغلق في ذلك الوقت فكان رؤساء المستشفى قد توجسوا خيفة من هرب بعض المرضى أو دخول بعض الأجانب إلى المستشفى فأغلقوا هذا الباب وسدوا على بذلك طريقًا من طرق الفرار وقد سبقني إلى الهرب من مستشفى الدمرداش المجاهد المخلص الصادق محمد علي الطاهر الذي أودى في الاعتقال بأشد مما أودى معتقل آخر فكنت في أثناء تجوال في المستشفى باحثًا منقبًا عن طرق الهرب أحاول أن أتصور الطريقة التي فر بها لكي أكررها ولم تكن لدى تفصيلات عن كيفية هربه .

وهكذا قضيت اليوم وأعصابي توشك أن تحترق من التفكير والرغبة والتلهف على الحرية ، ولست أذكر الآن من الذي زارني في ذلك اليوم وهل رسمت خطة الفرار مع الأستاذ عبد الحميد عبد المقصود في ذلك اليوم أم في اليوم التالي والمهم أن اليوم انقضى

وكل شيء في مصر هائج مائج مضطرب قلق ، أمّا أنا فقد كنت في حالة غليان لا شك فيه وكنت مهدداً من لحظة لأخرى بانفجار (مراجلي) من شدة الغليان .

وحل المساء وبدأنا نتهيأ لليلة جديدة وكان زميلنا حامد أفندى حسن أبو الخير قد أحضر لي أحد أجهزة الراديو لاستماع الأخبار ولكننا لم نوفق لاستعماله لسبب لا أذكره الآن فكنا نتشمم الأخبار أو بالأحرى نستنشقها من الهواء وكانت الممرضات يملكن أحد أجهزة الراديو في بيتهن الملاصق للمستشفى فكنت أكلفهن بأن يفتحن الراديو باستمرار وأن ينقلن إليّ ما يسمعن من أخبار لندن وبرلين وغيرهما .

وفي سكون الليل انطلقت صفارة الإنذار فيا لها من صفارة كأنها نفخة الصور في هذه الليلة إذناً بمقدم يوم القيامة . يا للرعب ويا للفرع والهلع الذى سيطر على الناس أجمعين .. ! فقد كانت هذه الصفارة نذيراً أى نذير بما سيحل بالقاهرة من ويلات وثبور وفاحت في الجو رائحة الموت وسرت في الأجساد قشعريرة الخطر المحقق .

\* \* \*

ولقد كانت صفارات الإنذار تنطلق من قبل فتحدث من الذعر ما تحدث ولكن الألمان سرعان ما خففوا من انزعاج المصريين فلم تكن الطائرات القليلة التى تطير في سماء مصر تقترب إلا من الأهداف العسكرية الإنجليزية البحتة وحتى ذلك كان يجري على استحياء وفي تحاذل وضعف ولم يكن ذلك الموقف مفهوماً من ناحية الألمان الذين كانت أفاعيل سلاح طيرانهم هى سر انتصاراتهم المدوية ولكن صفارة الإنذار عندما دوت في هذه الليلة لم يكن هناك مصرى واحد يشك في أن ساعة الجدد قد حانت وأن سلاح الطيران الألماني سينيخ الآن بكل كلفة على مصر ، ومن هنا فقد سرت الرعدة في القلوب . ولقد أردت أن أفعل شيئاً وأن أبدو هادئاً وشجاعاً ، وفي موقف يتناسب مع شخصيتي فرأيت أن أتولى من ناحيتي تهذئة المدعورين ، وتأمين الخائفين بأن أبدوا أمامهم ضاحكاً مستبشراً فرحت أطوف المستشفى وأدخل إلى حجرات المرضى الذين أعجزهم المرض عن مبارحة الفراش ومازلت أذكر حتى الآن هذه السيدة الباسلة أخت محمد بك فريد وكان قد أجريت لها عملية جراحية خطيرة فراحت تناشد بناتها أن يتركنها ويذهبن إلى الحبأ وأن يخلين بينها وبين الموت ولكن الفتيات الباسلات وبعض الممرضات أبين أن يفارقنها ولقد وقفت معهن أشيد ببسالتن وحرصهن على الالتفاف حول والدتهن ، وكان هناك في المستشفى محباً يتألف من مقبرة الدمرداش فترلت إليه وبعض المرضى فلم يطب لنا المقام وآثرت أن نبقى في دهاليز المستشفى نفسها حتى إذا كان ولا بد من الموت متنا في الهواء

النقى . وعدت إلى دهليز المستشفى الأكبر حيث كان السواد الأعظم من المرضى والمرضى والأطباء يقفون فيه وكانت الممرضتان الإنجليزيتان تروحان وتجيئان في صمت وهدوء فاقتربت منها مجاولاً إدخال الطمأنينة إلى نفسيهما فأسرت صغراهما إلى بالخبر المنتظر «سقطت مرسى مطروح !» من الذى قال فأجابت راديو لندن - وساد الصمت من جديد ولم أستطع أن أحيّر جواباً لقد أدخلت إلى نفسيهما الطمأنينة دائماً بالإشارة إلى مرسى مطروح وإنها حصن مصر الحصين ، فأماً وقد سقطت فلم يعد لدى ما أقوله فنظرت إليها في إشفاق وعرضت أن أقوم لها بأى خدمة فشكرتاني بهزة قصيرة من رأسيهما وراحتا تواصلان الرواح والحجى في صمت وهدوء .

ولم يلبث الخبر أن انتشر فقد أذاعه راديو مصر وأعلن سقوط مرسى مطروح وإذن فهي النهاية وقد بات ظهور الألمان في القاهرة نفسها متوقعاً من ساعة لأخرى أو بالأحرى كان لا بد للقاهرة من أن تعاني غارات الألمان الكاسحة والتي تسبق تقدم جيوشهم بيوم واحد وكان السؤال الذى يسأله كل إنسان كيف يعرف الألمان أننا في مستشفى فلا يغيرون علينا فكان الأطباء يطمئنونهم أن علامة الهلال الأحمر مرسومة على سطوح المستشفى بأحرف فضية بحيث لا يمكن لطائرة من الطائرات أن تحطها فكان ذلك يدخل بعض الطمأنينة ولكن هذه الطمأنينة لا تستغرق أكثر من لحظات قليلة فكيف تظهر علامة الهلال الأحمر في الليل المظلم وهل تعرف القنابل التى ستلقى جزافاً في مثل هذا الموقف أن تفرق بين المستشفى وغير المستشفى وهل يهتم الألمان في مثل هذه الساعة بتحري أصول الإنسانية ...

ولكن الساعات بدأت تمر. تلو الساعات وحالة الخطر معلنة ولكن الأنوار الكشاف لم تلح في الأفق ولم ترتفع أصوات المدافع المضادة ولم يسمع دوى القنابل وإنما كان السكون والصمت يخيمان على ربوع القاهرة فما الذى جرى وماذا حدث . لقد بدأ هذا السكون الرهيب يضاعف من القلق فقد كان سكوتاً غير طبعى في ليلة خطيرة وكان من المحقق أنه على قدر هذا السكون ستكون العاصفة المقبلة وعلى قدر هذا الهدوء ستكون القيامة القادمة .

وخطر لى خاطر مفاجئ أن أستفيد من هذا الموقف وأن أهرب في هذه الفرصة فقد كان العساكر مشغولين بأنفسهم في مكان بعيد وكنت أروح وأجىء بعيداً عن كل رقابة وبدأت أنفذ الخاطر الذى طرأ لى فسرت في هذا الدهليز الطويل الذى يؤدى إلى حديقة المستشفى الخارجية وكان الدهليز خالياً من كل إنسان بعد أن سادت الطمأنينة من جديد

وعاد كل مريض إلى حجرته .. وكنت أسير بتثاقل وفي قلة مبالاة حتى لا يحس إنسان أنني في حالة غير عادية خطوة بخطوة نحو الباب الخارجى ووجدت نفسى أجتاز عتبة الباب وقد تجلت أمامى حديقة المستشفى وقد غمرها ضوء القمر الساطع وقد خيم عليها صمت عميق رهيب . ولكنى لم أكد أفرغ من اجتياز الباب حتى وجدت المرضتين الإنجليزيتين قد افترشتا الأرض وجلستا على الدرجات الرخامية المؤدية إلى الحديقة .

وقد أسرعتا إلى دعوتى للجلوس إلى جوارهما فليت الطلب أسفاً على ضياع الفرصة التى سنحت للهرب ، وجلست صامتاً وظلت المراتان صامتتين كذلك ، وأخيراً تكلمت رئيسة المرضيات وانفجرت شفتاها عن هذا السؤال « ما هو الطريق للسفر إلى السودان بسرعة » أخيراً تحرك الجبل ، أخيراً نطق أبو الهول ! أخيراً ذاب الجليد المتجمد وأظهر أنه لا يزال ينطوى على بعض الشعور لقد كانت صاحبتنا هذه تبدو فى هدوء مستمر وعدم مبالاة على عكس زميلتها الصغيرة ، أمّا الليلة فقد كانت هى التى بدأت بالسؤال عن طريق الهرب والفرار ، فقد سقطت مرسى مطروح !

ورحت أرسم لها الطريق وأبسطه : ما عليكما فى الصباح المبكر إلا أن تذهبا إلى محطة مصر وتركبا القطار الذاهب إلى الشلال وهناك تجدان باخرة نيلية تنقلكما إلى وادى حلفا وتستطيعان أن تحصلا على تذاكر السفر من الشلال بالذات ، فالأمر سهل إذن وطريق الفرار لا تعترضه أية صعوبات على شريطة أن يتم فى الوقت المناسب وقبل ضياع الفرصة ولم تكن هناك فرصة باقية سوى الليلة والغد على أكثر تقدير . ثم رحت أطمئنهما على نفسيهما وأن لا يخافا من المصريين فأجابا على الفور نحن مطمئنون كل الاطمئنان إلى كرم المصريين وإنسانيتهن ولنا من الأصدقاء من يحموننا ويأووننا ولكننا فى خوف من الألمان ، فهؤلاء لا إنسانية عندهم وبدأ الصمت يخيم علينا من جديد .

## الهرب

كان هناك بعض نفر من الأطباء ، يجلسون إلى جوار الباب الخارجى لحديقة المستشفى ، حيث يوجد أحد المخائى الأرضية . فاستأذنت من الإنجليزيتين وأسهرت إلى جماعة الأطباء الذين رحبوا بمقدمي ، وكان الدكتور على توفيق نائب المستشفى يحمل خوذته كما تقضى التعليمات ، وكان صديقى الدكتور حلمى عبد الشافى يجلس مع الجالسين ، فجلست معهم لا يفصلنى عن الباب الخارجى للمستشفى إلا بعض خطوات ، وكانت سيارات الجيش الإنجليزى وعربات الصليب الأحمر تسير بدون انقطاع كأنها نهر جار ، فلما أبدت عجبى من هذا العدد الكبير من السيارات إذا بالأطباء يقولون لى إتنى لم أرى شيئاً وأن هذه الحالة منذ ثلاث ساعات .. سيارات بغير انقطاع تنطلق لا تتولى على شىء - تغمرها الكآبة وتسيطر عليها روح الهزيمة ...

وإذن فقد كان هذا الإنذار لتغطية الانسحاب ، ولإخلاء الطرقات للسيارات الإنجليزية ولقوافل الصليب الأحمر التى تحمل عشرات الألوف من الجرحى وهذا هو السر فى أن نذير الخطر كان مستمراً متواصلاً ، مع أنه لم تظهر فى الجو أية طائرة أجنبية ، ولم تسمع المدافع المضادة هنا أو هناك .. كان القمر ساطعاً وكنا فى ليلة ١٤ وكان السكون سائداً وكان سيل السيارات ينطلق فى انهيار وتدفق وصوت عجلاته كأنه فحيح الأفاعى ... وكان يسيطر علينا شعور من الفرح الشديد إذ قد تكون هذه هى نهاية الإنجليز فى مصر ... أنكون قد عشنا لنرى الإنجليز وهم يخرجون من مصر مدحورين مخذولين ؟ ... أنكون قد عشنا لنرى الإنجليز وقد جلاهم الخزي والعار وراحوا يفرون أمام أعين المصريين ؟ لم أكن أصدق ، ولكن الحقائق كانت قاطعة ، أولم تسقط مرسى مطروح ؟ أليست هذه ألوف من السيارات محملة بالجرحى ؟ ، إنها الهزيمة النهائية إنه الانكسار الأبدى . وكان ذلك هو رأى الحاضرين فقلت لهم إذا كان الأمر كذلك فيجب أن نتوقع من دقيقة لأخرى هبوط جنود المظلات الألمان ، فقد سمعت فى الراديو الإنجليزى اليوم أن منهم عدداً كبيراً فى كريت يتجهز للانقضاض على مصر وأحسب أن هذه الساعة التى يضرب فيها الألمان ضرباتهم الحاسمة ، فلتوقع جنود المظلات من ساعة لأخرى .

ولكن ساعات مرت دون أن تظهر في الجو طائرة ألمانية ، بل دون أن يسمع صوت انفجار أو دوى ، وليس سوى هذه السيارات الإنجليزية المتدفقة في هدوء وصمت وحزن ، وأشرفت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل ودوت صفارة الأمان . وبدأ سبل السيارات البريطانية ينقطع ويخف وأعلن الأطباء رغبتهم في الانسحاب إلى حجراتهم للنوم . وقد احتججت عليهم بأن هذه ليست ساعات النوم وأنى سأتبقى حتى الصباح وشاطرنى الدكتور حلمى عبد الشافى هذه الرغبة وانفض الجميع ولم يبق إلا نحن الاثنان بالقرب من باب المستشفى الخارجى على بعد خطوات من شارع الملكة نازلى ولم يكن يفرق بينى والآن وبين الحرية إلا أن اجتاز هذه الخطوات القليلة فأكون في الشارع وأنعم بالحرية . ولم يكن معنا أحد . وفكرت في الهرب وصارحت الدكتور حلمى بذلك فوافقنى على الموضوع .

ضربت يدي على حافة الكرسي الذى كنت أجلس عليه وثبت قدمي في الأرض استعداداً للوثوب إلى الخارج .. إلى الشارع ، إلى الحرية ولكن قبل أن أخطو الخطوة الثانية لعب القدر فإذا برجل يظهر عند البوابة كأن الأرض قد انشقت عنه انشقاقاً ، أو كأن السماء قد أمطرته ، ولم يكن هذا الرجل إلا بواب المستشفى ، أو حارسها الليلي . وقد أحدث ظهور هذا الرجل على المسرح خيبة أمل شديدة فقد كنا اثنين ، الله ثالثهما . ولم يكن بينى وبين الخروج إلى الشارع إلا لحظات قليلة بغير أن يراى أحد أو يشهد على كيفية فرارى إنسان ، ومسئولية الدكتور حلمى عبد الشافى في ذلك الوقت تصبح لا وجود لها . أما الآن مع وجود هذا الشاهد الذى رأنا ، فلم يعد من الممكن إخفاء الأمر وإعفاء الدكتور حلمى من المسؤولية ، ومع ذلك فقد قال لى لا ينبغي أن يهملك وجود هذا البواب ، وأنا على استعداد لمواجهة الموقف فامض على بركة الله ...

لقد كان من الممكن بالفعل أن أمضى ولن يستطيع هذا البواب أن يقول شيئاً وقد يستطيع الدكتور أن يأمره بأن يتركنى وشأنى ، ومع ذلك فقد ترددت وانقضت في ترددى لحظات ثمينة جداً ، فقد شرع صاحبنا يغلq البوابة الكبرى وفجأة قامت قضبان الحديد بينى وبين الشارع .

وجاء الصباح يحمل معه من جديد هذا الجو المكهرب الخائق ، بما فيه من أخبار مثيرة وأحداث متوقعة خطيرة ، وكان المستشفى ككل مكان في مصر ، يطن طنين النحل ، فكل إنسان يتكلم مع الآخر في لهفة ، هذا يسأل وهذا يقص ما عنده وهذا يعلق وهذا يتخوف وهذا يتلهف ، وهذا يتحمس للألمان وهذا يسب في الإنجليز لأنه كان

إنجليزياً واشتهر بميوله الإنجليزية وقد وجد الإنجليز اليوم في أثواب الخزي والعار ، فراح يلعن ويسخط ويندد بهؤلاء النساء الذين لا يعرفون كيف يثبتون على حرب وكان هناك شعور عام بأن النهاية قد اقتربت وأقبل بعض الأطباء على بعض المشيعين للإنجليز يحاجونهم ، فكان الآخرون يشاطرونهم الاستنكار لما حدث وما أظهره الإنجليز من جبن وخور وتراجع .. مع ذلك فما زلت أذكر طبيياً واحداً ظل في وجه الزوبعة والعاصفة لا يلين ويعلن ثقته بأن الإنجليز سيعتصرون وأن الألمان لن يدخلوا مصر ، وبالرغم من أن الإجماع كان ضده. فلأول مرة قد حصل على الاحترام لأنه صاحب رأى يتشبه به حتى النهاية ..

وكانت الصحف قد أعلنت ما عرف في الليل من أنباء سقوط مرسى مطروح واستمرار الزحف الألماني بكل قوته وشدته وذكرت بلدة الضبعة على أنها خط القتال الأخير وأن سقوطها معناه سقوط آخر أمل للإنجليز .. ولم يكد النهار يتقدم قليلاً حتى أذيعت الأخبار بأن الضبعة قد سقطت ولم تكن هذه في الحق أخباراً تقال ولكنها كانت قنابل تنفجر فتشعل الناس اشتعلاً فيتحولون إلى كتل بشرية ملتهبة بالتشوق لمعرفة نتيجة هذه القصة المثيرة . أفرايت الجمهور في حلبة سباق . أو مباراة كرة ، أو لعبة من الألعاب المثيرة ، رأيتهم وقد أوشكت المباراة على النهاية وقد وصلت إلى نقطة حاسمة وأصبح النصر معلقاً في خيط دقيق أوهى من خيط العنكبوت يوشك أن ينقطع ، لكي تقع كرة النصر في حجر هذا الطرف أو ذاك ، فرأيت كيف يكون جمهور النظارة في حالة من الجنون والسعريصرخ ويضج بقدميه ويلوح بيديه ، وتكاد شرايينه تنفجر بالدماء التي تغلي في داخلها ؟ .. كان ذلك شأن الشعب المصري في هذه الأيام الحاسمة في تاريخ البشرية ، فقد كان يمثل دور النظارة لمسرحية مثيرة أو لمباراة خطيرة .. ويؤسفني أن أسجل على بلادى أنها كانت كذلك في هذه الأيام وأن دورها لم يزد على دور الفرجة والمشاهد لأعظم ملاحم التاريخ ، ولو أنهم حاولوا في هذه الفترة أن يكونوا إيجابيين على صورة من الصور ، لو أنهم على الأقل خضعوا للعوامل الطبيعية التي خضعت لها الشعوب من قبلهم وهي أن يمتثلوا بالخوف والرعب لتغير مجرى التاريخ حتماً ... أجل لو أن المصريين فزعوا كما فزع الفرنسيون من جحافل الألمان الزاحفة ، وكما فزع البلجيكيون وكما فزع الهولنديون وكما فزع البولنديون واليونان واليوغسلاف وكل الذين زحف الألمان في أراضيهم لو أن المصريين فزعوا من الخوف فلزموا بيوتهم أو هربوا سراعاً من القاهرة التي توشك أن تدمر .. لو أنهم هجروا أعمالهم .. لو أنهم ارتبكوا إزاء الهول المتظر . إذن لتغير مجرى التاريخ حتماً ولكننا الآن نعيش في دنيا جديدة لا نستطيع أن نقدر



أكانت تكون أكثر شراً من الآن أو أكثر خيراً ؟ ولكن من المحقق . أنها كانت ستكون دنيا جديدة بالنسبة لنا في الشرق ، ولكن من حسن حظ انجلترا أن المصريين لم يخافوا ولم يفرغوا ولم يرتبكوا وما ذلك إلا لأنهم كانوا يتفرجون وكانوا يتسلون ولم يفكروا لحظة واحدة في أن هذه الأحداث الضخمة شيء حقيقي واقعي ، وليس رواية سينائية أو مباراة رياضية ... ومن يدري فربما كان ذلك لخير مصر وسيكشف المستقبل وحده عن ذلك وسيصدر حكمه على مصر أكان ذلك سداً منها وصواباً ألهمته بغريزتها السليمة ، أم كان ضعفاً وهواناً وخطأ لا يغتفر .

ولكن هناك حقيقة واحدة لا يمكن مطلقاً أن تكون محل خلاف أو جدل ، وهو أن هذه الإمبراطورية البريطانية إذا كانت قد خرجت من الحرب منتصرة فبفضل موقف المصريين في هذه الأيام التي أتحدث عنها . فلو بدرت من المصريين أقل بادرة ولا أقول ضد الإنجليز ، بل ضد النظام والعمل والإنتاج بعامل الخوف والفرع إذن لكانت النهاية المحققة للجيش البريطانية في مصر ، وبالتالي في الشرق ، ولأصبح البحر الأبيض بحيرة ألمانية ولتغير الموقف بالتالي رأساً على عقب .

كانت الحوادث تمضي سريعة متلاحقة ، وكم يؤسفني أن أرى نفسي عاجزاً عن أن أصورها للأجيال المقبلة ، وجاءني الأستاذ عبد الحميد عبد المقصود زائراً والأستاذ الصادق الأمين نظير سعداوى وحدثني الأستاذ عبد الحميد في وجوب الحرب هذه الليلة ، وقد كان من أصحاب هذه الفكرة المتحمسين لها ، وقد سبق أن تحدثنا فيها من قبل . فحدثته بما جرى في الليل ، وكيف خاب أمل في الهروب وأحسست كأن الله لا يريد لي أن أهرب ولكنه شجعني من جديد وانضم إليه الأستاذ نظير وعرض عليّ بيته كماوى ألجئني إليه ، وراح يرسم لي على قطعة من الورق طريق الوصول إلى المنزل ، وأنه سيلزمه منذ الآن ولا يبرحه في انتظار حضوري وأنه يقيم بمفرده . فتجدد في نفسي الأمل وقلت لعبد الحميد فليكن .. فلنحاول من جديد . وما عليك إلا أن تعد سيارة في الساعة العاشرة مساء تقف بقرب المستشفى حتى إذا استطعت الخروج من المستشفى أسرع بنا إلى الفرار . ورحنا نستعرض أسماء أصدقائنا الذين يملكون سيارات فلم نستطع أن نستقر على شخص من الأشخاص ولكن الأستاذ عبد الحميد أخذ على عاتقه أن ينفذ هذه المأمورية وأكد لي أنه سيكون في الساعة المحددة بالقرب من المستشفى ، وقد دلت التجربة في هذا الحادث فيما بعد على أن الأستاذ عبد الحميد إذا أخذ على عاتقه مهمة محددة . فإنه يحسن إنجازها .

وفى الموعد المحدد أى فى العاشرة مساء حضر لى وأحبنى أن كل شىء قد تم وأنه بانتظارى فى السيارة الخاصة بالأستاذ مدحت عاصم نذى تطوع لأداء هذه المأمورية خارج المستشفى وأن العساكر يغطون جميعاً فى النوم . صبت منه أن يسبقنى . وبعد بضع دقائق مضت بتناقل وكنت أرتدى جلباب النوم (والسنب) وضعت على كتفى روباً كان عندى وفتحت باب الحجرة وانسلت إلى الشرفة وكان يفصلنى عن الحديقة حاجز خشبى صغير فقفزت من فوقه فى سرعة ولهفة ، وأسهرت إلى المكان الذى اخترته فى الحديقة للهرب ووصلت إليه دون أن يرانى أحد وصعدت درجات السلم المؤدى إلى قمة السور ، ولكنى لم أكد أصل إلى نهاية السور حتى سمعت حديثاً يجرى فى أسفل المكان الذى يجب على أن أقفز منه إلى الشارع فامتقع وجهى وخفق قلبى ورحت أنصت فإذا بخديث يجرى بين اثنين وقد غرقا فى مناقشات حادة . وهنا طغت على موجة من اليأس . وتذكرت ما حدث لى فى الليلة السابقة . وكيف ظهر البواب فى آخر لحظة . فحال بينى وبين الهرب ، وما هو الموقف بتكرر ثانية . فعقد كل هذا الجهد الذى بذلته ونجاحى فى الوصول إلى المرحلة النهائية يحبط وقوف هذين الرجلين كل شىء .. لاشك أن القدر لا يريد لى أن أهرب .. لقد شاء الله من جديد .

أحنيت رأسى وهبطت من جديد درجات السلم فى كآبة وحزن ، وشرعت أعود أدراجى نحو حجرى ، نحو السجن والاعتقال ، وقد غمرتني موجة من الاستسلام والاستكانة .. وفى منتصف الطريق فى الحديقة عاودنى الأمل بعد أن رأيت السكون يحيط بى وليس هناك من يرى شيئاً ولم يظهر العساكر بعد فى الميدان ، وساءت نفسى لماذا لا أحاول مرة ثانية ووجدت فى نفسى لهفة لتكرار المحاولة فرجعت وأنا مصمم على أننى إذا وجدت الرجلين لا يزالان فى مكانهما فقد وجب على أن أعدل نهائياً عن مشروع الهرب فى الحال والاستقبال لأن ذلك سيكون ضد رغبة القدر . أو بالأحرى إرادة الله . أما إذا وجدتني قد انصرفاً فساهرب لأن هذه ستكون مشيئة الله . وصعدت السلم مرة ثانية بقلب خافق واقتربت من قمة السور وأنصت .. لا يزال الرجلان هناك .. انتهى كل شىء . استخرت الله وقد اختار لى .. لا فرار ولا هرب .. ولكن أنتظر .. أسمع ماذا يقول أحد الرجلين للآخر .

« طيب يا سيدى ببقى أبقي خيلنا نشوفك » .

— أنا تحت النظر .

— العفو العفو أبقي سلم لى على الحاج على ..

بالفرح ، اثبت يا قلبي . وحذار أن تجزع ، إن الرجلين يوشكان على الرحيل  
فلنتنظر .. ومرت ثوان كأنها دهور وكان الجزع والرعب يملآن قلبي من أن يظهر في  
الحديقة إنسان ، فيرائي في هذا الموقف ، فيدرك أنني كنت معترماً الفرار ، باللفضيحة .  
والعساكر .. العساكر هل لا يزالون نائمين ؟ يا رب السموات والأرض عونك ومددك  
وتوفيقك يا رب .. في سبيلك يا رب أجاهد ، وفي سبيلك أحاول الهرب لاستئناف  
الجهاد ، كن في عوني يا رب .. احمني يا رب .. أستر على يا رب .

وانصرف الرجلان وخلا الشارع من الرائح والغادي .. وإذن فلنعتل السور ولنقفز ..  
ولكن لا أنتظر فهذا شخص قادم .. يا للخيبة الأمل .. !! .. بل يا للسرور والسعادة إنه  
الأستاذ عبد الحميد عبد المقصود .. صحت به : هل كل شيء على ما يرام ؟ فأجابني :  
على ما يرام .. قلت له : هل الشارع خال ؟ فأجابني نعم .. قلت أفقر ؟ قال نعم ،  
فاعتليت السور الحديدى . أنا الآن فوقه تماماً . وهذه الحراب الحديدية التى تؤلف نهاية  
السور عالقة الآن فى ملابسى .. أحاول أن أتصرف بهدوء كى لا تحدث كارثة ومع ذلك  
فالعصبية تسيطر علىّ لقد علقّت ملابسى بهذه الأطراف الحديدية المدببة وكان ينبغي أن  
أعالجها قبل أن أقفز .. آه لورآنى أحد الآن فى هذه اللحظة وأنا معلق فوق قمة السور ..  
إذن لصقعت ولذبت حياءً وخجلاً ولقتلتنى خيبة الأمل ومرارة الفشل .. ولكن من حسن  
الحظ لا أحد . « هوب » وقفزت .. أنا الآن فى الطريق .

## في الخجأ

انصرف الأستاذ مدحت عاصم بسيارته وتركنا في عرض الطريق بعد أن لوح لنا بيده ولوحت لنا معه هاتان السيدتان اللتان كانتا تركبان إلى جواره ، وكانت الساعة الآن قد جاوزت منتصف الليل ، والطرق خالية ، والقمر يغمر الكون بضوئه الساطع. وكل شيء هادئ ، وكل شيء ساكن . وبدأنا في رحلتنا نحو البيت المقصود سيراً على الأقدام . وكان لا يزال بيننا وبين البيت ما يقارب الأربعة كيلومترات ، وكنت لا أزال أحمل آثار العملية الجراحية في بطني ، وكنت في المستشفى إذا سرت بضع خطوات سريعة أحسست بالتعب والألم على الفور ، وكان الأطباء يحذرون علىّ بذل أي مجهود ، ومع ذلك كله فقد كنت مضطراً للسير ، والسير في سرعة لأصل إلى الخجأ الموعود قبل أن ينطلق بوليس مصر كالكلاب المسعورة خلف آثارى ... وقد كانت هذه الفكرة وحدها كافية أن تجعلني أنطلق في طريق لا ألقى على شيء .. ولا أعاباً بشيء .. وكانت الهواجس تساورني ، فقد يتفجر الآن جدار بطني ويفتح الجرح من جديد تحت تأثير هذا المجهود ، فكان ذلك يدفعني إلى السير الوئيد في أناة وهدوء . ولكن فكرة البوليس الذي يطاردني تعود إليّ فاستحث الخطي وأكاد أعدو عدواً لولا خشيتي من لفت الأنظار إليّ .. أنظار جنود البوليس الواقفين في دورياتهم الليلية .. وكان منظرنا يدعو إلى الريبة من غير شك فلم يكن في قدمي غير (الشبشب) وكنت أرئدى جلباباً ، وقد رأيت أن أخلع (الروب) فلا ألبسه حتى لا أضعف الشبهة فطويته على ذراعي ومرت إلى جوار الأستاذ عبد الحميد الذي كان (أفنديا) كاملاً كما لو كنت أحد أتباعه أو محاسبيه أو خدومه وحشمه .. وقطعنا مرحلة كبيرة من الطريق ، وكل شيء حولنا هادئ ، فالشوارع مقفرة . وضوء القمر الساطع يكشف لنا الطريق وعساكر الداورية القليلة لا يابهون لنا وقد كنا نلقى عليهم السلام فيردونه في حماسة .. وكلما اقتربنا من الجيزة ازدادت اطمئناناً وهدوءاً وشعوراً بالنجاة وإن ظل الخوف من انفتاح الجرح في بطني هو الذي يخيفني بالأكثر .. ومع ذلك فقد بدأت أشعر بالفرح والسعادة وبدأت أضحك وأضحك بصوت عالٍ ومرتفعٍ من أعماق قلبي .

وصلنا ميدان الجيزة وبدأنا نوغل في الحواري والأزقة لنصل إلى بيت صاحبنا .

ووصلنا في النهاية وصعدنا إليه في الدور الأول . وكأن القدر أعد لنا بعض مفاجآته إذ بعث إلى صاحبنا الأستاذ نظير في اللحظة الأخيرة أحد أصدقائه جاء ليسهر معه ويبيت عنده ولم يعرف كيف يتخلص منه . فلما وصلنا وسرت حركة في البيت اضطر أن يقول لضيفه إن السيدة والدته قد شرفت من البلد . وكان في البيت حجرة مغلقة فيها أمتعة لبعض الإخوان المسافرين ، ففتحت لي هذه الحجرة التي لم يدخلها الضوء ولا الهواء من أكثر من شهر والتي يرتفع التراب فوق أرضها شبرًا . ومع ذلك فلم أكّد أدخلها حتى طلبت (لحافًا) ولم يكّد يعطى لي (اللحاف) حتى فرشته على الأرض وهويت إليها لا أكاد أعي شيئًا أو أشعر بشيء فقد كان المجهود الذي بذلته في هذه الليلة فوق طاقة البشر ، ولم يكن المجهود العصبي بأقل من المجهود المادى ولذلك فقد استغرقت في النوم على الفور بعد أن مررت بيدي فوق بطني ولم أجدها قد لوّثت بالدماء فاطمأنت نفسي إلى أن بطني لم تنفجر بعد .. كنت لم أتأكد ساعتئذ إذا كنت قد اجتزت مرحلة الخطر أم لا .. فقد كنت أشعر بحسدى يغلى غليانًا ، وأشعر بجدار بطني يوشك أن ينهار .

ونمنا . واستيقظت بعد ساعتين أو ثلاث . وبدأ يوم جديد في ظل الحرية . كنت واثقًا أن أحدًا لن يستطيع أن يهتدى إلى هذا البيت فقد كانت خطتنا محكمة وكنت قد صممت على أن أنتفع بتجاربي الماضية في الاختفاء عن وجه البوليس ... لقد جاء الخطر من الاتصال بي وإذن فيجب أن نكف عن كل اتصال بالخارج ويجب أن يبقى الخارج جاهلاً كل شيء عن مكاني الجديد . وتطبيقًا لذلك فقد منعت الأستاذ عبد الحميد من أن يتركني ويذهب إلى بيته على أن يعود بعد ذلك .. قلت له أخذت على عاتقك مسئولية تهريبى ولا شك أن البوليس يبحث عنك الآن فلن أسمح لك بحال من الأحوال أن تبعد عن ناظرى طرفة عين .. أنت مقبوض عليك وستظل سجينًا معى إلى أن نتحرر سويًا ... وقد أطاع الأستاذ عبد الحميد هذا الأمر الذى أصدرته له فلأزمنى طول مدة اختفائى وشاطرنى الحياة التى عشتها طوال أربعة أشهر .

بدأ يوم جديد وتستطيع أن تتصور مقدار لهفتى على الصحف لأقف منها على تطورات الموقف الحربى ، وعمّا إذا كانت وزارة الداخلية قد نشرت شيئًا خاصًا بجاذث هربى . ولكن الجرائد كانت خالية تمامًا من أى إشارة لهذا الموضوع عن قرب أو بعد ، أمّا أخبار الموقف الحربى فقد كانت لا تزال مندفعة نحو هذه الغاية المترتبة ، وهى دخول الألمان الأسكندرية واندفاعهم نحو القاهرة ... كان البلاغ الرسمى يشير إلى أن الجيوش الألمانية الإزاحفة قد تجاوزت مدينة الضبعة وأنها وصلت إلى العلمين التى تبعد عن الأسكندرية بضبعة عشر كيلو مترات في هذا الوقت نسمع كلمة العلمين لأول مرة ولم يدر بخلدنا لحظة

واحدة أن هذا الاسم سيصبح من أشهر أسماء الحرب العالمية الثانية . وأن مصير العالم سيقدر عنده وأن الإمبراطورية البريطانية ستحمي كيائها وتبقى على وجودها بالقرب من هذه (العلمين) التي لم تكن إلا موقفاً للقطارات الذاهبة إلى مرسى مطروح . وكانت مصر لا تزال كما وصفتها من قبل تترقب وصول الجيوش الألمانية من ساعة لأخرى ، ولكن هذا اليوم انقضى دون أن تصل الجيوش الألمانية إلى الأسكندرية ، ودون أن يُغير سلاح الطيران الألماني الفاتك على مصر وأهداف مصر العسكرية وجاء الظهر وجاء العصر فالمغرب فالعشاء ، فالليل .

وقد اطمأن خاطرنا من ناحية البوليس فلم يكن هناك من عرف شيئاً عن حضورنا إلى هذا البيت ولن يكون هناك سبيل لاكتشاف ذلك في المستقبل مادامنا لن نتصل بأحد كما قدمنا وقد استطاع الأستاذ نظير أن يتخلص من ضيفه بعد أن شعر الضيف أن لا سبيل لبقائه في البيت بعد حضور «السيدة الوالدة» وعلى ذلك فقد بدأت أشعر بشيء من الاستقرار والطمأنينة ، ولكن الأخبار المنتظرة عن وصول الألمان لم ترد . وكان ليل وكان صباح يوم جديد وجاءت الصحف تحمل نفس الكلمة التي حملتها بالأمس كلمة العلمين وتحدث البلاغ عن المعارك الشديدة التي تجرى أمام العلمين ، وأشار إلى نجاح العدو في إحداث بعض ثغرات في خط الدفاع ، ولكن المعارك لا تزال مستمرة .

ولعل أروع ما يصور موقف الإنجليز في هذه الأيام ويصور الموقف الحربي أكمل تصوير هو ما قاله أحد الضباط الإنجليز لواحد من معارفنا . تعليقاً على الحالة حيث قال له ما ترجمته «لومنحنا الله خمس دقائق من الحظ الحسن فسيكون في قدرتنا أن نقلب العصا» فالإنجليز كانوا في أسوأ حال من الاضطراب والتوتر . وكانوا يتطلعون إلى خمس دقائق من الحظ الحسن . خمس دقائق يتوقفون فيها من الانسحاب السريع لكي يستردوا أنفاسهم ويتعرفوا ما يحيط بهم فهل يجيب الله سؤالهم ويمنحهم هذه الخمس دقائق من الحظ الحسن ؟

وجاء الظهر . فالعصر . فالمغرب . فالعشاء . فالليل دون أن يحمل إلى الأستاذ نظير خبراً جديداً من الخارج . وكان مساء وكان صباح يوم ثالث وجاءت الصحف تتحدث عن المعركة الحامية الوطيس أمام العلمين ومعنى ذلك أن الألمان لم يستطيعوا أن يتجاوزوا حتى الآن هذه المنطقة وقد عودنا الألمان أن مالا يستطيعونه في اليوم الأول لا يستطيعونه في اليوم الثاني ، ومالا يقدرّون عليه في اليوم الثاني سيصبح من المستحيل عليهم عمله في اليوم الثالث ... لقد كان الألمان يحاربون منذ أكثر من شهر لا ينامون ولا يرتاحون ليلاً

أونهاراً ... لم يكن هناك شك في أنهم لم يخلعوا أحذيتهم أو معاطفهم منذ أكثر من شهر ، ومع ذلك فقد كانوا يندفعون نحو الأمام سكارى بنخمة الانتصار وبقوة الاندفاع ...

ولكن إلى كم من الزمن يظلون مندفعين ؟ إن الطاقة البشرية مهما قيل فيها وفي اتساع مداها فإن لها حداً ، والطاقة الميكانيكية التي يعتمد عليها الألمان لها حد كذلك . ولا بد للدبابات والسيارات من وقود وزيت ولا بد للجنود من تموين ، وكان من الواضح أن انطلاق الدبابات الألمانية قد تجاوز كل ما كان مقدراً له .

وكان الإنجليز أو بالأحرى الجيش الثامن لا يقلون تعباً عن الألمان ، بل يزيد في متاعبهم مرارة الحزى والاندحار ، ولكن تراجعهم كان لهم مزية بمقدار ما كان يزيد في متاعب الألمان ، فكلما تراجعوا كلما اقتربوا من قواعدهم الأساسية وكلما أصبح مدهم بالنجدة والمهمات أقرب منالاً من الألمان ، وكل ما كان يحتاجه الإنجليز كما قدمنا هو فترة قصيرة يشبتون فيها لكي يبدأ انتفاعهم بهذه المزية . ومرت ثلاثة أيام ومعركة العلمين محدمة فدل ذلك على أن الإنجليز قد وجدوا فرصتهم ، وواتاهم الحظ الحسن ، لا في خمس دقائق ، كما كانوا يتمنون بل في ثلاثة أيام كاملة . وجاء يوم رابع حمل في طياته نبأ تراخي الهجوم الألماني وثبات الخط الإنجليزى الجديد ، وكان معنى ذلك أن العاصفة توشك أن تمر وانقضت أيام أخرى والموقف باق على حاله ، وبدأ الموقف الحزى يتبلور ويحمد وأعلن الإنجليز للدنيا أنهم نجحوا أخيراً في إيقاف الهجوم الألماني ، وأصبح من الواضح أن روميل لن يستطيع أن يستأنف هجومه إلا بعد استعداد وتحضير جديدين ، وهكذا بدأت العلمين تأخذ أهميتها وخطورتها ، وبدأت الدنيا كلها تتحدث عن كل شبر من أرض العلمين حيث توشك أن تجرى المعركة الفاصلة التي يتوقف عليها مصير مصر .

نجح الإنجليز إذن في إيقاف الهجوم الألماني على مشارف الاسكندرية والدلتا ، ولكن الخطر كان لا يزال جاثماً ، ولا يزال سيف التهديد مصلاً على الرؤوس .. ففي أى يوم وفي أى ساعة من نهار أوليل قد ينقض الألمان ، وقد يواتيهم الحظ ، فيخترقون خط الدفاع الإنجليزى فإذا هم في قلب مصر بعد نصف ساعة فقط من بدء المعركة ... وكانت الدنيا كلها تتساءل هل يفعل الألمان ذلك ؟ وهل ينجحون ؟ .. وكان الإنجليز هم أكثر الناس في هذه الدنيا قلقاً واضطراباً ، ولكن نجاحهم في إيقاف الألمان أخيراً أحيأ الأمل في نفوسهم من جديد . لقد انطلقت صرخة الاستغاثة في جميع جنبات البحار ، تطلب النجدة فأصدرت إنجلترا أوامرها لكل سفينة في عرض البحار تحمل جنوداً أو زادا

أو عتادًا إلى أى جزء من أجزاء المعمورة ، أن تغير خط سيرها وأن تتجه صوب مصر ، وأصدر الرئيس روزفلت نفس هذه التعليمات لجميع المراكب الأمريكية وكانت قافلة كبيرة جدا فى طريقها إلى الشرق الأقصى فحولت طريقها إلى مصر ووصلت إلى السويس فى ابان اشتداد أزمة العلمين ، وكان ما يحتاجه الإنجليز هو بعض الوقت لتفريغ حمولة هذا القافلة وإرسالها إلى ميدان القتال . وقد تهيأ لها الوقت عندما نجح الإنجليز فى إيقاف الألمان ، ولم يمض أسبوع على تفريغ حمولة هذه القافلة الضخمة حتى أخذت طريقها إلى خط القتال فى العلمين ، ولو أنك نظرت لخريطة المعركة . لو وجدت أن خط القتال فى العلمين قصير جدا ، يحده البحر من ناحية ، ويحده منخفض القطارة من الناحية الثانية . وفى هذا الخط القصير تكدس المدب الإنجليزى الجديد متسلحًا بالأسلحة الأمريكية الوفيرة وهنا . وهنا فقط تنفس الإنجليز الصعداء لأول مرة ، وقوى الأمل فى نفوسهم .

وعزل الإنجليز قوادهم ، وجاءوا بقواد جدد ، جاءوا بمونتجمرى ليكون قائدًا للجيش الثامن والجنرال الكسندر ليكون قائدًا للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط .

ولقد قابل المصريون تغيير القيادة بهز الأكتاف، ولاشك أن كثيرين جدا فى الدنيا كلها قد هزوا أكتافهم أيضًا ، فلم تكن هذه أول مرة تغير إنجلترا قيادة الجيش الثامن ، بغير جدوى ، ولم يكن أحد يقدر أن مونتجمرى سيكون هو نجم إنجلترا اللامع وبطل العلمين ، لم يكن أحد يقدر أن هذا الرجل الذى تحدثوا عن اعتزاله الناس ورغبته عن البروباجاندا والدعاية ، هو الذى سيكون محور الدعاية والبروباجاندا فى جميع أنحاء العالم ، وإن كان قد استوقفنى وأنا أطلع وصف الرجل وأخلاقه أنه ممن لا يدخنون ولا يشربون الخمر فساءلت نفسى .. ترى هل يغير ذلك شيئًا من مصير المعركة ، أن يكون القائد المختار لا يدخن ولا يشرب الخمر؟ وقد أجابنى القدر على ذلك السؤال أن أى نعم سيغير هذا القائد الذى لا يدخن ولا يشرب الخمر تاريخ هذ الحروب .

\* \* \*

هدأت أخبار الحرب قليلاً وبدأنا نفكر فى أمر أنفسنا . لقد كنا نعيش كما قدمنا فى منزل الأستاذ نظير ... وكان البيت يقع فى منطقة خلوية هادئة ولكن الشقة التى تقابلنا فى نفس الدور الذى نقيم فيه كان يسكنها ضابط مباحث الجيزة ، أى والله ضابط مباحث الجيزة بلحمه وشحمه ونصه وفصه ! تستطيع أن تتصور مقدار القلق الذى يحسه أشخاص يطارهم البوليس فى كل مكان وهم يعيشون مع رجل البوليس فى بيت واحد



ودور واحد وكنت إذا دخلت إلى دورة المياه وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام دورة مياه .  
حضرة الضابط من خلال ( المنور ) .

وإذا دخلت المطبخ وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام نافذة مطبخ حضرة الضابط وقد  
كانت هذه الفكرة تسبب لنا كثيرًا من القلق والإزعاج .

سألت صاحبي . هل لك علاقة بحضرة الضابط ؟ فأجابني أبدًا إنه رجل يعيش في  
حاله وقلمًا نلتقي وليس بيننا إلا تبادل السلام والتحية .. فقلت له لا بد من عمل كل شيء  
من شأنه إبعاد الشبهة عنك بحيث نتخذ من هذا الضابط درعًا وقت اللزوم فعليك أن  
توثق صلاتك به .. بل وأن تدعوه في أول فرصة إلى زيارة مسكنك وتناول الشاي  
معك ، ولن يستطيع الرجل أن يتصور بحال أن هذا الذي يشرب معه الشاي في عقر بيته  
يخفي أحمد حسين في الحجرة المجاورة .

ولقد تهيأ الأستاذ نظير لتوجيه هذه الدعوة ، ولكن الظروف لم تسمح بها وبعد قليل  
أما جانب هذا الضابط وأنه لن يأتي إلينا خطر عن طريقه ، وكانت حياتنا اليومية  
تنقضي على الوجه الآتي .. صلاة الفجر في الصباح المبكر وعند الصبح تناول الإفطار ،  
ويخرج الأستاذ نظير إلى مدرسته . أو بالأحرى ليستقي لنا الأخبار ويعرفنا بأحوال الدنيا  
فلا يكاد يخرج من الشقة ويغلقها بالمفتاح بعد أن يغلق جميع نوافذها حتى نلزم إحدى  
الحجرات لا نبرحها بأي حال من الأحوال كي لا نحدث حركة أو نلفت نظر إنسان إلى أن  
في داخل الشقة كائنًا أجنبيًا وقد كان هذا يكلفنا الكثير جدًا فقد كان عليّ أحيانًا أن  
أجلس فوق كرسي لا أبرحه لمدة بضع ساعات .. وكان عليّ أحيانًا أن لا أعطس  
أو أسعل ، بل وأن لا أأكل أو أشرب فقد كان يحدث في بعض الأوقات أن يهبط علي  
الدار ضيف مفاجئ فنهرع إلى حجرتنا ونغلقها خلفنا ثم نجلس صامتين كما لو كنا في مخبأ  
ننظر انقباش الغارة . واعتاد نظير أن يقول للضيوف والأصدقاء والمستطعنين إن في  
هذه الحجرة « عفش وكراكيب » زميلهم فلان وأنه أغلقها بالمفتاح وأخذ المفتاح معه ،  
وقد يحدث أن لا يبرح الضيف الشقة لسبب أو لآخر نهارًا بأكمله أو عدة أيام متوالية  
فيكون علينا في هذه الحالة أن نظل في أمكتنا جامدين لا نروح أو نحى بل لا نتنفس  
بصوت عال لئلا يكتشف أمرنا .. وكنا نتمتع أحيانًا إذا حضرنا الصلاة ونحن في هذا  
السجن ولست أحسب أن هناك كثيرين يستطيعون أن يحمّلوا ما احتملناه في هذه الفترة  
من الاختباء .

## ستالينجراد

بدأت الحرب تأخذ لوناً خطيراً في روسيا بدأ يسترعى النظر . ويشير الاهتمام ، وينحول أنظار الدنيا كلها إلى سهول روسيا ، وإلى قوة الألمان الجارفة التي توشك أن تقرر مصير الحرب في أعظم ساحاتها .

لقد وقفنا بالهجوم الألمانى على أبواب موسكو في أخريات سنة ١٩٤١ واستهل شتاء سنة ١٩٤٢ والألمان يعانون هذه المحنة التي وصفناها فيما سبق ، وقد انقضى الشتاء ومن بعده الربيع والألمان جامدون في روسيا لا يتحركون ونحن الآن في شهر يونيو سنة ١٩٤٢ والألمان لم يبدأوا هجومهم المنتظر في روسيا وقد كنت أرى في ذلك علامة من علامات الضعف وتناقص قدرة الألمان على الاستعداد للهجوم ، فالألمان قد لاقوا الأمرين من شتاء روسيا ، وكان يجب عليهم أن يبدأوا هجومهم مبكرين لكي يصلوا إلى نتيجة حاسمة قبل حلول الشتاء الجديد فتلكوهم في القيام بهذا الهجوم كان يدلى على أن الزمن قد تغير وثلاث سنوات من الحرب قد نالت من الألمان وأضعفت قوتهم .

وأخيراً بدأ الهجوم المتقرب ولكنه دل بذاته على تغير الظروف والأحوال بالنسبة للألمان فقد كان هجوماً في ساحة واحدة من ساحات روسيا الثلاث معاً وفي آن واحد . وهذه الساحات الثلاث هي ساحة الشمال وهدفها لستالينجراد ودويلات البلطيق والساحة الوسطى وهدفها موسكو والساحة الجنوبية وهدفها احتلال أوكرانيا والقوقاز وقد بدأ الهجوم الألمانى في الساحة الجنوبية صوب القوقاز وإكمال احتلال أوكرانيا الشرقية والوصول بعد ذلك إلى ستالينجراد على نهر الفولجا للقبض على بلعوم روسيا أو قصبته الهوائية ، وحملها على التسليم أو الاختناق .

وبدأ الهجوم الألمانى جارفاً كما هي العادة ، وخاصة بعد أن ركز هتلر كل ما لديه من قوات في هذه الساحة المحدودة . وبدأت مدن روسيا الصناعية في حوض الدونتر تسقط واحدة بعد أخرى ، ثم جاء دور حوض الدون والسكك الحديدية الموصلة من جنوب روسيا إلى شمالها ، وهذه المزارع الغنية التي تمد روسيا بحاجتها من الطعام والغذاء ، وسرعان ما أنشب الألمان أظافرهم في ذلك كله وانسابت جيوشهم كالطوفان الجارف في حوض نهر الدون ، كما انحدرت جيوشهم صوب القوقاز واخترقت سهوله الشمالية وبدأ الهجوم الألمانى يأخذ كل قوته والأخبار تلاحقنا في الراديو ساعة بعد أخرى ، بأنباء الانتصارات المثيرة للأعصاب والتي أحرزها الجيش الألمانى وأنه بدأ يصل إلى مشارف مدينة ستالينجراد الواقعة على نهر الفولجا والتي لو قدر للجيش الألمانى أن يصلها لاستطاع

أن يشطر روسيا شطرين ولقطع شريان الحياة عن روسيا وضربها ضربة قاضية لأن نهر الفولجا هو طريق المواصلات لنقل بترول القوقاز إلى مصانع روسيا في الشمال ، ولذلك فقد استمات الروس في القتال في هذه المنطقة وبدأنا نسمع الحديث عن المقاومة الجبارة التي يبذلها الروس عند مشارف ستالينجراد لكن لم يتصور أحد في الدنيا أن اسم ستالينجراد سيكون هو أخلد الأسماء في هذه الحرب وأن مصير ألمانيا قد تقرر عند أسوار ستالينجراد .

لقد كانت معركة العلمين من المعارك الفاصلة والحاسمة في تاريخ هذه الحرب بالنسبة للإنجليز على الأقل ولكن معركة العلمين لا يمكن اعتبارها معركة الحرب الأولى نظرًا لصالّة الجيوش التي اشتركت فيها ، ولم تؤثر معركة العلمين إلا على مركز ألمانيا في أفريقيا وفي البحر الأبيض المتوسط ولكنها لم تصب الجيوش الألمانية بضربة قاضية ، وإنما الهزيمة المنكرة التي سحقت كبرياء الجيش الألماني سحقتًا وكانت بدء انهيار ذلك الجيش العظيم ، كانت هي: معركة ستالينجراد من غير شك ، والتي عجز الألمان عن اقتحامها في نهاية الأمر حتى بعد أن دخلوا إلى شوارعها واحتلوا مصانعها ، ولكن المدينة العتيقة ظلت تقاوم وتقاوم حتى جاءت الضربة الروسية من الخلف ، فكان الانتصار الشيوعي الرهيب .

على أن ذلك كله لم يكن متوقعًا في هذه الأيام التي أتحدث الآن عنها فقد كان الجيش الألماني لا يزال يوالى زحفه صوب ستالينجراد بنجاح ، وكانت جيوشه في مصر لا تزال عند العلمين ، وكان من المتوقع أن ألمانيا تجدد هجومها في أى لحظة فلا تقف إلا في القاهرة وعلى ضفاف قنال السويس ، وكنا في فترة من الترقب والانتظار ، لا نعرف ماذا تكون الحوادث المقبلة .

وكانت الغارات على القاهرة لا تنقطع بالليل وقد بلغت هذه الغارات من التفاهة إلى حد أن ألفها المصريون وكان الألمان من ناحيتهم يعتمدون أن لا يصيبوا أهدافًا مصرية ولكن هذه الغارات كانت تضايقني نظرًا لحالتي الخاصة فلم يكن باستطاعتي أن أهرع إلى الحائى .. أو أن أغادر الشقة التي أقيم فيها إلى الدور الأرضي مثلاً وكان على إذا ما قامت الغارة أن أكمش في ركن من الحجرة في انتظار قضاء الله على ..

وتضطرتني ظروف الاختصار أن أتجاوز عن كثير من مذكراتي وما امتلأت به في هذه الأيام من حوادث ومغامرات انتهت بي إلى اختيار نجباء جديد بدلاً من منزل الأستاذ نظير .

ولم يقع لي حادث في الحنبأ الجديد يستحق الذكر ، وقد عنّ لي أن أضع مؤلفاً عن تاريخ الحرب أرويه على شكل القصة ، فقد كنت أنتبج أخبار الحرب باهتمام من يوم لآخر ، ومن ساعة لأخرى وكنت أعلق على كل حادث وأستنتج من كل واقعة أمراً معيناً وأتنبأ ببتبؤات أثبتت الحوادث صحتها فرأيت أن أستغل ذلك كله فأضع مؤلفاً عنوانه « قصة الحرب العالمية الثانية » وقد بدأت أكتب تاريخ هذه الحرب من ذاكرتي ولقد قطعت شوطاً كبيراً في كتابة هذا التاريخ ، ولكن خروجي من الاعتقال قبل نهاية الحرب بعام لم يمكنني من إتمام هذا التاريخ حتى الآن . وإني لأرجو أن أوفق في القيام بهذا العمل .

وقد كانت كتابة هذا التاريخ هي كل ما كسبته من اختفائي في هذا الحنبأ الجديد وإذا استثنينا هذا الحادث فلم يقع لي شيء يستحق الذكر .

تطورت الحوادث وأعني بالحوادث تقلبات الحرب . كانت معركة ستالينجراد تجري على أشدها وكانت الجرائد قد عجزت نهائياً عن أن تجد عناوين ضخمة تصور بها هذه المعركة فقد بدأت تتحدث عن المعارك الشديدة في ستالينجراد ثم عن المجازر في ستالينجراد ثم عن جحيم ستالينجراد وعن حرب الجبابرة في ستالينجراد وعن يوم القيامة في ستالينجراد ، ولكن معركة ستالينجراد استمرت بعد ذلك كله وهي تزداد في كل يوم عنفاً عن اليوم السابق وبينما كان العالم يترقب من ساعة لأخرى أن يعلن الألمان نبأ سقوطها في أيديهم بصفة نهائية ، فقد انتظروا أسابيع بل وشهوراً كاملة والمعركة مستمرة على أشدها ولقد أعلن الألمان أكثر من مرة أن مقاومة الروس قد انتهت ولكن الروس سرعان ما كانوا يكذبون ذلك باستمرار المقاومة بالفعل ، بل واشتدادها ، وكانت الحرب في ستالينجراد قد تحولت إلى حرب شوارع وأزقة ، وكانت البلاغات الرسمية تصدر متحذثة عن احتلال الدور الأرضي من العمارة الفلانية وتتحدث عن القتال الجارى في أحد المصانع ، وأن العدو قد احتل عنبر الغزل ولا تزال المقاومة في عنبر النسيج ، وكان ذلك غاية ما وصل إليه الألمان من هوان بعد أن كانوا يمتاحون المملكة بأسرها في بعض أيام بل وفي بعض ساعات ، أصبحوا يقفون عاجزين أمام احتلال شقة من الشقق أو بيت من البيوت وأثبتت ستالينجراد أن الأسلحة الحديثة كلها هي أسلحة ميدان ولكنها لا تفيد في قليل أو كثير في داخل المدن . وأن أعظم الجيوش بأساً يمكن أن يجد في مدينة باسلة من المقاومة مالا يجد في جيش ضخم . إن مقاومة ستالينجراد ، وبسالة أبنائها وبسالة الجيوش الحمراء بين أنقاضها قد فاقت كل ما احتواه التاريخ القديم أو الحديث من أنباء

المعارك والملاحم ، وكل شجاعة في القديم وكل بسالة وكل تضحية وفدائية لا يمكن أن تقارن بجمال من الأحوال بما تجلى في معركة ستالينجراد من بطولة الروس .

طالت معركة ستالينجراد أكثر مما ينبغي وفشل الألمان في القضاء على مقاومتها بعد أكثر من خمسة أسابيع فكان لا يمكن أن يؤدي ذلك إلا إلى كارثة تحل بألمانيا وقد حلت الكارثة ولكن في مصر حيث دارت الدائرة على الألمان في موقعة العلمين الثانية ، فترتب على هذا الاندحار ما ترتب من جلاء ألمانيا من شمال أفريقيا ، واستعادة الإنجليز للبحر الأبيض ممّا مكّنهم بعد ذلك من غزو إيطاليا وانهيار المحور بذلك .

\* \* \*

تركنا الألمان عند خطوطهم في العلمين بعد أن فشلت محاولتهم الأخيرة للهجوم وقد اضطر المارشال روميل أن يتحول بعد هذا الفشل من الهجوم إلى الدفاع لأن كفة الإنجليز كانت قد بدأت ترجح عليه من حيث كثرة الأمداد التي توافدت عليهم ، لقد وقف الأسطول الإنجليزي والغواصات الإنجليزية والطائرات الإنجليزية بالرصد لكل مدد يمكن أن يصل إلى روميل عبر البحر الأبيض ، فلم يصل إليه إلا النزر القليل . وكان اهتمام هتلر موجهاً بالأكثر إلى إحراز النجاح في ستالينجراد فكانت كل الإمدادات تتجه صوب هذا الميدان ولم يكن يبعث إلى روميل إلا بالقليل .

أما الإنجليز فكانت إمداداتهم كالسيل المنهمر ليلاً ونهاراً لمدة ثلاثة أشهر كاملة وبذلك توفر للإنجليز سبع طائرات مقابل كل طائرة ألمانية واحدة وعشر دبابات مقابل كل دبابة ألمانية واحدة وعشرة مدافع مقابل كل مدفع ألماني واحد وبدأ الطيران الإنجليزي المتفوق يذق مواقع الألمان دكا ثم بدأ مونتهجرى هجومه الذي أحسن إعداده وبينما كان روميل يتوقع أن يكون ثقل الهجوم في الجنوب إذا بالهجوم يقع في الشمال ، وفوجئ العالم بنبأ اختراق جيوش مونتهجرى خطوط الألمان ، وفوجئ العالم بتصدع خط الدفاع الألماني وانهياره ، وفوجئ العالم بنبأ فرق بأكملها من الطليان والألمان تقع في قبضة الإنجليز ، وفوجئ العالم بنبأ انتصار الإنجليز انتصاراً لم يسبق لهم أن حلموا به في هذه الحرب . وتراجعت الجيوش الألمانية وأخلت في أسرع من لمح البرق المواقع المصرية واحدة بعد أخرى ، حتى إذا أوشكت على الانسحاب من آخر ما بقي في القطر المصري وحتى إذا أوشك روميل أن يتألك أنفاسه وأن يعيد شيئاً من السيطرة على جيوشه وإذا بالضرورة القاضية تحل به من الخلف فتقضى على آخر أمل له في إمكان إنقاذ موقفه بل تقضى على

آخر أمل لألمانيا في أن تبقى يوماً واحداً في أفريقيا ، ولم تكن هذه الضربة القاضية إلا نزول الجيوش الأمريكية في مراكش والجزائر ونجاحها في تثبيت أقدامها واحتلالها النقط الحربية الخطيرة بأيسر جهد . وقع هذا الخبر على الألمان موقع الصاعقة فهم لم يكادوا يفقهون قليلاً من ضربة العلمين حتى جاءت هذه النكبة الجديدة التي أجهزت على البقية من أمل الألمان .

إن ألمانيا لم تحسر هذه الحرب كما يظن الكثيرون جزافاً ولكنها خسرتها بحق ولم تكن هزيمتها إلا النتيجة الطبيعية لسلسلة الأخطاء التي ارتكبها هتلر ، وليس هنا محل التحدث عن سلسلة هذه الأخطاء ولكن واحداً من هذه الأخطاء الخطيرة هو سماحه بقيام حكومة فيشي الفرنسية وتركها تدير الامبراطورية الفرنسية في حرية كدولة مستقلة ، فاستطاع الحلفاء أن يجدوا في هذه الامبراطورية السبيل هنا وهناك لكي يقفروا منها لمحاربة ألمانيا . لقد جثت فرنسا في أول الحرب على قدميها لهتلر فكان من الواجب عليه أن يكمل احتلالها وأن يحصل على أسطولها وأن يضع اليد على إمبراطوريتها حيث يجد شعباً بأسلة عربية قد أرهقتها فرنسا فيحررها ويتخذ منها حليفاً ، ولو فعل هتلر ذلك لكان شمال أفريقيا اليوم يتألف من دول حرة ذات سيادة وسلطان ، ولما استطاع الأمريكان في ذلك الوقت أن يضربوه هذه الضربة القاضية ، وهو لو فعل ذلك لوفر على نفسه متاعب كثيرة وسد هذه الثغرات الخطيرة في خط دفاعه والتي نفذ الحلفاء منها ، ولكن هتلر كان من السخافة بحيث كان يتصور أنه سيستطيع أن يكسب صداقة الفرنسيين ، وأن يضمهم إلى صفه ضد الإنجليز ناسياً أن هذه الدولة الكبيرة المهزومة لا يمكن إلا أن تمتد الألمان مقتاً وأن تتحين الفرصة للغدر بألمانيا وطعنها في الصميم لو استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

وقد كانت هذه الضربة التي أهاجت ألمانيا هي إحدى ثمرات سياسة هتلر الخاطئة فقد وجد الأمريكان والحلفاء الطريق معبداً أمامهم لاحتلال مراكش والجزائر ، لم تكن هناك جيوش فرنسية لتقاومهم ولو وجدت هذه الجيوش لما قاومتهم لأنهم كانوا يسرعون إلى الانضمام إلى الحلفاء ، وفي ثمان وأربعين ساعة كان الحلفاء قد فرغوا من تثبيت أقدامهم في هذا القسم الكبير من العالم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط والأطلنطي ونعني به مراكش والجزائر . وأسرعت جيوش الحلفاء صوب تونس لاحتلالها ولكي تقطع خط الرجعة على الجيوش الألمانية في طرابلس ولكن هتلر كانت لا تزال لديه بقية من قوة وحيوية فأسرعت قواته إلى تونس عن طريق الطيران فاحتلها أوبالآخرى سبقت الحلفاء إلى احتلال أجزاء منها وبدأ صراع طويل عنيف في تونس استمر بضعة أشهر ولكن كان من الواضح أن نهاية المحور في شمال أفريقيا قد دنت فقد كانت قوات روميل . وقد

تضاعف عليها الضغط من الأمام والوراء تتراجع بسرعة مدهشة إلى طرابلس فتونس . فلم تكن معركة تونس إلا بمثابة الدفاع عن خط الرجعة لجلاء الجيوش الألمانية عن شمال أفريقيا .. وقد وصلت قوات روميل في النهاية إلى تونس بعد مجهود طويل وشاق ولكن الألمان لم يستطيعوا أن ينقذوا جندياً واحداً من جنودهم في شمال أفريقيا فقد تحولت تونس إلى مصيدة للألمان فلم يلبث الحلفاء أن ضيقوا عليهم الحصار فوقعوا جميعاً في أسر الحلفاء ، وكانوا يبلغون بضع مئات من آلاف الجند والضباط .

\* \* \*

توقعت ذلك كله من اللحظة الأولى التي انهار فيها خط دفاع روميل عند العلمين وبمجرد نزول الجيوش الأمريكية إلى البر في مراكش والجزائر ، فتنفست الصعداء وأدركت على الفور أن المعركة بالنسبة لمصر قد انتهت بصفة قاطعة ، ولم يبق عليها خطر من الشرق أو الغرب ، وأن قضية الكفاح من أجل الحرية والاستقلال قد عادت من جديد بيننا وبين الإنجليز وجهاً لوجه بدون تدخل لعنصر ثالث . وسرعان ما اكتشفت أنه لم يبق هناك أى مبرر لبقائى في الاختفاء بعد أن زالت الأسباب التي دفعتنى إلى الهرب . لقد كان أخشى ما أخشاه أن ينسحب الإنجليز من مصر ويأخذونى معهم أسيراً ، أو يدخل الألمان إلى مصر وبينى وبينهم ما صنع الحداد كما بينت سابقاً ، أو أن يحتاج الموقف إلى أن تقوم مصر بثورة عامة فأكون على رأسها كل ذلك دفعنى إلى الهرب . أما الآن وقد زالت هذه الأسباب كلها فقد رحت أفكر في تسليم نفسى للحكومة ، ورحت أبحث عن خير الوسائل التي تمكننى من تسليم نفسى بما يليق بى من الكرامة .

## التسليم

استقر عزمي على تسليم نفسي فرحت أفكر في خير الوسائل لهذا التسليم . ففكرت أن أسلم نفسي لمدير الأمن العام أو إلى سليم بك زكي أو البكباشي محمد إبراهيم إمام وسرعان ما استبعدت هذه الفكرة فلماذا أشرف هذا نفر من رجال البوليس والإدارة ولماذا أعطيهم فرصة جديدة يتظاهرون فيها بأن تسليمي لنفسي كان ثمرة من ثمرات مجهوداتهم ونشاطهم وهمتهم . وبدأت أفكر في أن أسلم نفسي للنحاس باشا شخصيا كما فعل المجاهد محمد علي الطاهر الذي ظل محتفيا طوال حكم حسين باشا سرى حتى إذا ولي النحاس باشا ذهب إليه في مجلس الوزراء بملابسه العربية التي كان متنكرا بها وقدم نفسه إليه فلم يتألك النحاس باشا نفسه من أن يطلق سراحه ويعلن الإنجليز بأنه قد أخذ على مسؤوليته إطلاق سراحه .. ولكن سرعان ما استبعدت هذه الفكرة بدورها فإنه من العسير جدا أن أقابل النحاس باشا ولا جدال في أنه سيقبض عليّ قبل مقابله وقد يتحنى البوليس بما شاء له من التهم وأنا في قد قصدت النحاس باشا لأعتدى عليه ، فكان لا بد والحالة هذه من البحث عن أسلوب آخر مأمون وكرام لتسليم نفسي فخطر على ذهني أن أتصل بأحد الوزراء الوفديين وورد ذكر صبري باشا أبو علم على خاطري فهو وزير العدل وسكرتير الوفد ويستطيع إذا اتفق معي على إطلاق سراحى أن يقنع النحاس باشا ولكني لم أستقر أمام هذه الفكرة طويلا لأنني لم أطمئن تماما إلى ما يمكن أن يكون عليه تصرف صبري باشا أبو علم وهل يقدر معنى التجاؤى إليه حق قدره أم قد تبدو منه حركة أو إشارة يكون فيها مساس بكرامتي فلم يسبق أن كان بيننا ما يمكن أن يعتبر صداقة شخصية . حقا لقد حجبنا بيت الله الحرام سويا ولكن الصلة لم تتوطد بيننا إلى الحد الذي يجعلني أطمع في معاملة ممتازة .. وبعد أن استعرضت اسم وزير آخر أو وزيرين من وزراء حكومة الوفد . وقفت طويلا أمام اسم فؤاد باشا سراج الدين وكان وزير الزراعة وقتئذ وبدأت العناصر كلها تتضافر على اختيار سراج الدين باشا ليكون الوزير الذى أسلم نفسي إليه وأنا مطمئن إلى أن كرامتي ستكون محفوظة وإلى إمكان حصولي على حريتي عن هذا الطريق . ففؤاد باشا سراج الدين هو زميلي في الدراسة تخرج قبلي بعام أو عامين على ما أذكر لكن علاقاتنا كانت طيبة من غير شك وكان بيننا عطف متبادل . وإذا كانت الظروف قد حالت دون



تقابلنا بعد ذلك فقد كان فؤاد باشا أول من ذكر هذه الزمالة حيث هم بزيارتي في مستشفى الدمرداش أبان اعتقالى وهو وزير كما أشرت إلى ذلك بالتفصيل فيما سبق . معنى ذلك أنه لا يزال يذكرنى وأن تقلده الوزارة لم ينسه زملاءه في الدراسة ولما كنت أعلم أن فؤاد باشا سراج الدين هو مستشار النحاس باشا الأول في هذه الأيام وأنه موضع ثقته وحبه فقد استقر رأى على أن يكون فؤاد باشا سراج الدين هو الرجل الذى أقصده باعتباراه ممثلاً للحكومة ، وأضع نفسى تحت تصرفه لإعادتي إلى الاعتقال إذا شاءوا أو لإطلاق سراحى إذا رأوا أن يكسبوا ودى وصداقتى وعرفانى بالجميل .

ولم يكد هذا العزم يستقر فى نفسى حتى بادرت إلى منزل والدى رحمة الله عليه وبعثت فى طلب زوجتى وأخبرتها بما استقر عليه عزمى فوافقانى عليه .

فأسرعت إلى الاتصال بفؤاد باشا سراج الدين تليفونيا وشاء القدر أن يكون موجوداً بالمنزل وأن يرد علىّ ، فلما أخبرته أنني أحمد حسين أهل وسهل وقال لى « أنت فىن ياراجل عاوزين نشوفك » فقلت له وأنا أريد أن أراك وأن أقابلك . فقال : تعال لى تفضل واحضر الآن إذا شئت ، فقلت له سأحضر ولكن على شرط أن لا تعلم أحداً بحضورى إلا بعد أن نتقابل ونتفق على ما سوف نتفق عليه . فقال لى اطمئن من هذه الناحية .. ولم أكن أتصور أنه سيكون أميناً فى تنفيذ وعده إلى حد أن لا يخطر النحاس باشا بالموضوع مع أنه كان يعلم أن هذا الموضوع فى الدرجة الأولى من اهتمام النحاس باشا .

أخذت معداتي اللازمة للمبيت فى السجن هذه الليلة فوضعت فى حقيبة صغيرة بعض الملابس الداخلية وبعض الموهات ، وودعت زوجى وأولادى وأرسلت فى طلب إحدى سيارات الأجرة ولم تكد تصل حتى كنت فى طريقى إلى منزل فؤاد باشا فى جاردن سيقى .

كان أهم ما يشغلنى فى السيارة هو أن لا أقع فى كمين فى اللحظة الأخيرة فيقبض على البوليس على عتبة باب سراج الدين باشا أو قبله بخطوات قليلة ثم يزعمون أنهم قد اعتقلونى ليحصلوا على المكافأة الموضوعة للقبض علىّ ولذلك فقد قررت أن أنطلق بالتاكسى سريعاً أمام بيت سراج الدين باشا ، فإذا وجدت الجو عادياً وليس فيه ما يريب عدت إليه ، أما إذا اشتتمت رائحة كمين هنا أو هناك أو حركة غير عادية عدت أدراجى على الفور . وكنت أضع منظاراً على عيني وأغطى وجهى بالمنديل الأبيض متظاهراً بالسعال أو تجفيف العرق ، ووصلت السيارة حيث يقوم منزل النحاس باشا فى

مواجهة منزل سراج الدين باشا وكان يوجد على باب النحاس باشا لقيف من الجنود والضباط والحراس والخدم ولكن لم يكن يبدو عليهم بأى حال من الأحوال أنهم يعرفون شيئاً أو يتوقعون حدوث شيء .. وعلى عكس بيت النحاس باشا كان منزل فؤاد سراج الدين باشا خالياً من وجود أى حارس أو جندي ولم يكن سوى حاجب من حجاب الوزراء يقف على الباب ويلوح عليه أنه ينتظر إنساناً فشعرت باطمئنان عميق وأوقفت التاكسي ودفعت لصاحبه أجرته وكان الحاجب كان يتوقع مقدمي فإذا به يحيني في صمت ويقودني على الفور إلى داخل المنزل وما هي إلا لحظات قليلة حتى كنت في هذه الحجرة الفاخرة حجرة الاستقبال في سراي سراج الدين باشا ولم أكد أرى نفسي جالساً في هذا المكان حتى غمرني السرور والفرح لنجاح خطتي وأنتي كسبت الجولة الأولى فهأنذا في داخل بيت صديق وزير وقد حضرت إليه من تلقاء نفسي ، وبعد أن فشل البوليس في القبض على واعتقالى .

وجاء سراج الدين باشا وتصافحنا في حرارة ورحنا نتحدث ، ولقد تحدثنا في كل شيء في الحرب ومعاركها ، وفي مصر وحوادثها ، وفي ذكرياتنا عن الشباب والدراسة وتحدثنا عن المستقبل . وغنى عن البيان أن الحديث عن اعتقالى واختفائى والأسباب التى حملتنى على تسليم نفسى كانت هى التى شغلت الجزء الأكبر من حديثنا ولقد طمأننى فؤاد باشا إلى أننى سأبيت الليلة في منزلى وبين أولادى وأننى لن أعود إلى السجن فقلت له إننى لا أشاطرك هذا التفاؤل فسألتى أصعب من أن تحل بهذه السهولة ، وعلى أية حال فإننى على استعداد إذا شاء النحاس باشا أن ألزم بيتى فترة من الزمن ريثما يفرغ من حل قضيتى مع الإنجليز . وسألنى فؤاد باشا عن هذه الحقيية التى أحملها فقلت له إن فيها ملابسى ومهائى التى أحتاجها في السجن لأننى قد أعددت نفسى للمبيت في السجن ، فأظهر فؤاد باشا استنكاره لهذه المخاطر كيف يمر فى رأسى . ولقد قضينا معاً ما يزيد على الساعتين أو الثلاث ساعات فيما أذكر ولقد سأل فؤاد باشا خلالها أكثر من مرة عن النحاس باشا فكان يقال له إنه لا يزال نائماً ، وأخيراً رأى أن يذهب إليه بنفسه فتركنى وحيداً في الحجرة وخرج من البيت قاصداً منزل النحاس باشا للفصل في مصرى فأماً إلى الحرية وإماً إلى الاعتقال من جديد ...

ولقد مرت فترة طويلة ... طويلة جداً ، خيل إلى أنها دهر من الزمان قبل أن يعود فؤاد باشا سراج الدين يتهادى في مشيته كما هى عادته ولقد حاولت أن أستشف من وجهه النتيجة التى انتهى إليها فلم أستطع فبادرته قائلاً « خيراً » فأجابنى : خيراً إن شاء الله . ثم جلس وراح يقص على ما حدث . قال لى : لقد ذهبت للنحاس باشا فقلت له إن

عندى خبراً يسرك قال وما هو فقلت له أحمد حسين عندى فقال النحاس باشا وأين هو أريد أن أراه فقال له فؤاد باشا وهو أيضاً يريد أن يراك ولكن قبل أن تتقبلا أريد أن أتفق معك يا باشا على وجوب إخلاء سبيله فالأستاذ أحمد أحسين هو زميلي في الدراسة وصداقة المدرسة هي عندى أغلى ما اعتز به ، على أن هناك ما هو فوق ذلك كله وهو أنني رجل فلاح ولقد جاء الأستاذ أحمد حسين إلى بيتي فلا يمكن أن يخرج من بيتي سجيناً أو معتقلاً أبداً وإذا كان الباشا يرى أن لا مناص من اعتقاله فليأذن لي أن أعود إلى الأستاذ أحمد حسين كي أساعده على الرجوع من حيث أتى ثم ليعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله .

ولقد رد النحاس باشا على فؤاد باشا بأنه لا يستطيع أن يطلق سراحى هذه الليلة لأن اعتقالى كان بناءً على أمر الإنجليز ولا بد أن يعرض أمر الإفراج عني على الإنجليز ، وهذا يستلزم بضعة أيام وفي انتظار هذه الأيام القلائل فإنه يتعهد أن لا يذهبوا بي إلى سجن أو إلى معتقل ولكن إلى أحد بيوت الضباط الخاصة ريثما يحل الموضوع ثم طلب من فؤاد باشا أن يسرع إلى إحضاري لمقابلته . ولقد أدركت على الفور أن فرصة الحرية قد ضاعت وأن الاعتقال بالنسبة لي قد تأكد مادام الأمر سيعرض على الإنجليز، وقد خالفني فؤاد باشا في ذلك الرأي وقال لي إنها مسألة أيام فقلت له إنني أعرف في هذه المسائل بأكثر مما يعرف أى إنسان آخر ، فلو أن النحاس باشا كان يريد الإفراج عني لأفرج عني فوراً ، ولجابه الإنجليز بالأمر الواقع وفي هذه الحالة ما كان الإنجليز يجرأون على إثارة هذا الموضوع أمّا أن يستشار الإنجليز في أمرى فالقرار منذ الآن معروف وهو « لا .. ولا بالخط العريض وبالثالث » فأجابني فؤاد باشا بأنني متشائم أكثر مما ينبغي وأنه من المستحيل أن لا يجب الإنجليز طلب النحاس باشا في وجوب الإفراج عني بعد أن يخبرهم أنني ضمته .

وكيفما كان الأمر فقد ذهبت إلى فؤاد باشا سراج الدين لكي أسلم نفسي ولم أكن أطمع في أن يفرج عني ولكن حديثه معي هو الذى خلق هذا الأمل في نفسي ، والذى لم يكذب يولد حتى انطفأ ولقد أثبتت الحوادث أنني كنت على حق في تشاؤمي ، وذهبتا لمقابلة النحاس باشا وقد كانت مفاجأة عجيبة لضباط الحرس والبوليس والياوران ، وهم يرونني أسير إلى جوار فؤاد باشا سراج الدين كصديقين متلازمين .. وكانت ترتسم على الوجوه آيات الدهول والوجوم وأحياناً كان الأصوات تجبس في حلوقهم من فرط المفاجأة ، فهذا هو أحمد حسين الذى طالما قلبوا الأرض قلباً للبحث عنه .. هذا هو أحمد حسين المطارد من السلطات الإنجليزية يسير في هدوء وابتسام إلى جوار سراج الدين باشا ، فما الذى جرى وما الذى حدث وما هذا الانقلاب .. هل يعرف فؤاد

باشا أن أحمد حسين هارب من وجه البوليس أم أنه قد صدر أمر بإطلاق سراح الأستاذ أحمد حسين ؟ . كان بعض الضباط تحدّثه نفسه لو أسرع فصار إلى جانبي ليحول بيني وبين الهرب إذ كنت لا أزال معتقلاً ، وكان البعض يفكر أن يسأل قواد باشا على الأقل تفسير ذلك الموقف ولو في كلمة ولكنهم بطبيعة الحال لم يجرؤوا على عمل شيء من ذلك ، خصوصاً وأننا قد أدركنا المصعد الكهربائي وامتطيناه إلى الدور الأعلى حيث كنا سنقابل النحاس باشا .

وجاء النحاس باشا أخيراً وتصافحنا وكانت مقابلة قصيرة وتبادلنا فيها أقوالاً سريعة . قال النحاس باشا لن أستطيع أن أفرج عنك إذ لا بد لي من أن أعتقلك ريثما أسوى المسألة مع الجانب الآخر ولولا موضوع هربك لكنت الآن حراً طليقاً ولكنك بهذا الفرار قد عقدت المسألة تعقيداً يجعلني لا أستطيع أن أحله بمفردي وعلى كل حال فلا بد من اعتقالك ولكنني لن أرسلك إلى سجن أو معتقل بل سيهيئ لك غزالي بك مدير الأمن العام مقاماً طيباً في منزل أحد الضباط ريثما أضمنك عند الإنجليز .

قلت للنحاس باشا إنك تملك الآن أن تفرج عني دون أن يكون بقدره الإنجليز الاعتراض عليك ، أمّا إذا سألتهم فلن يكون لهم إلا رد واحد وهو الرفض لأنهم يكرهونني كل الكره ، ويمقتونني كل المقت ويخافون مني ومن نشاطي بأكثر مما يخافون من أي مصري آخر .

فأجاني النحاس باشا هذه مسألة تخصني وأنا أعرف ماذا أقول وكيف أتصرف وسوف أنجح في وساطتي وهي مسألة أيام ... قلت له إن الكلمة لك ولقد حضرت مستعداً للحبس .. أي لأسوأ الفروض والاحتمالات وأنا شخصياً ليس يزعجني أن أبقى في السجن إلى ما شاء الله ولكنني لست أعرف باسم أي نظام أو عدالة ولأي سبب من الأسباب أعتقل ... فقطع عليّ النحاس باشا الحديث مشيراً إلى غزالي بك الذي كان قد حضر فذهبت معه إلى وزارة الداخلية واستدعى أحد ضباط القسم السياسي وهو عبد العزيز أفندي حجازي وطلب منه أن ينقل أهل بيته من منزله لكي أقيم عنده بضعة أيام تحت الحراسة .

ولقد كان بيتاً لطيفاً أنيقاً في مصر الجديدة ، وكان عبد العزيز أفندي من زملائنا في الخديوية وكنا أبناء حي واحد .

كان المفروض أن أقيم في بيت هذا الضابط يومين أو ثلاثة ريثما يصدر قرار الإفراج

ولكن مضت ثمانية أيام قبل أن يأتيني حضرة الصاغ إبراهيم إمام ليعلمني أن النحاس باشا في انتظارى لأسمع منه القرار الأخير .

وكان هذا القرار يتلخص في أن الحكومة الإنجليزية رفضت إطلاق سراحى ، وعلى هذا فقد اعتقلت مرة أخرى ، في بيت مأمور قسم مصر الجديدة . المتصل بالقسم ، ليتسنى لى أن أعيش مع أسرتى في هذا المعتقل !

وقد أريد بهذا الإجراء التخفيف عني ، ولكن حياة الاعتقال وفقدان الحرية تحول كل نعم إلى جحيم ، فبعد قليل أصبح اعتقال زوجى وأولادى معى مصدر متاعب وأحزان ، عندما يمرض الأطفال فلا نستطيع علاجهم بالسرعة اللازمة !!

ثم حلت بنا النكبة الكبرى عندما مرض ولدائى معاً ، إبراهيم ومصطفى ، ونقلنا إلى المستشفى ، وحيل بينى وبين الخروج لزيارتها !

ومات إبراهيم بعد ثلاثة أيام ، وأوشك مصطفى أن يموت وأصبح الاعتقال فوق احتمالى ، فرفضت عودة زوجتى للإقامة معى في المعتقل ...

وبدأت أشعر بوجوب الإفراج عني وبدأت قيود المعتقل تحز في نفسى وكان قد انقضى على ما يقرب من العام في هذا المعتقل الذى ذهبت إليه لفترة قصيرة جدا ، وكانت الحرب بدأت تدخل في مرحلتها الأخيرة فالألمان يتراجعون على طول الخط والحلفاء يتقدمون على طول الخط واستسلمت إيطاليا واليابان التى بدأت هذه الحرب كالإعصار الجائع الذى لا يقهر ولا يغلب : بدأ الأمريكان يطبقون عليها بغاراتهم الجوية والبحرية وبدأت اليابان تترنح ..

وكننت أسائل نفسى إلى كم من الزمن سأتبقى في هذا المعتقل فكان يروعنى الرد على سؤالى وأنه سيكون إلى نهاية الحرب بل وبعد انتهاء الحرب ، وهو أمر قد يطول إلى ثلاث أو أربع سنوات أخرى ، ولذلك فقد أعلنت الثورة والتمرد وخضت معركة الحرية التى قدر لى أن أنتصر فيها .

## الإفراج

يجب أن يفرج عني .. يجب أن يفرج عني . كانت هذه هي الفكرة التي بدأت تملكني بعد أن لم يبق في الاعتقال من مصر الفتاة سوى .. لقد كنت أرى أنه من غير الطبيعي أن يفرج عني قبل سوى من أعضاء مصر الفتاة .. ولذلك فقد كان كل همي وسعي متجهين للإفراج عن الآخرين ، ولم يحدث أبداً أن طالبت بالإفراج عن نفسي . وفي إبان هذه الفترة كان فؤاد سراج الدين باشا قد أصبح وزيراً للداخلية . وكنت أطلب مقابلته من حين لآخر وأناقشه في وجوب الإفراج عن معتقلي مصر الفتاة ، ولقد كان هذا الموضوع يخلق الكثير من الاحتكاك بيني وبينه ومدّاً وجزراً في علاقتنا فأغضب منه إذا ما توالى في الإفراج وأسر وأرضى عندما يفرج عن فريق من أعضاء مصر الفتاة ، ولقد استمرت هذه المناوشات بضعة شهور ثم فيها الإفراج عن جميع أعضاء مصر الفتاة المعتقلين ولم يبق منهم سوى والأستاذ محمد صبيح ... وكان الأستاذ صبيح معتقلاً في المنيا ثم فوجئت في يوم من الأيام بنقله إلى معتقلي الخاص في مصر الجديدة ، فكان مقدمه بالنسبة لي سعادة لا تقدر .. ولم يمكث معي صبيح أكثر من أسبوع على ما أذكر استدعى في ختامه لمقابلة فؤاد سراج الدين باشا وهناك أعلنه بإطلاق سراحه وأنه قد أصبح حراً ، وقد كانت هذه حركة بارعة من فؤاد سراج الدين باشا فقد كانت وزارة الوفد تعاني أزمة حادة في ذلك اليوم وكانت تتوقع الإقالة من ساعة لأخرى فرأى فؤاد باشا أن يفرج عن الأستاذ محمد صبيح سكرتير عام حزب مصر الفتاة في ذلك الوقت ليكسب عواطف الحزب وعرفانه بجميله في الساعة التي يبارحون فيها الوزارة .. ولكن التغيير المرتقب لم يقع وظلت الوزارة في كراسيها وشعرت أن الساعة قد حانت للإفراج عني ، هذا الإفراج الذي كان يجب أن يتم منذ أمد بعيد وعجبت كيف استطعت أن أصبر طوال هذه المدة على الاعتقال ، وكيف يظل جبل الصداقة ممتداً بيني وبين فؤاد باشا سراج الدين بعد أن أصبح وزيراً للداخلية وأنا ما زلت في الاعتقال ..

وكتبت لفؤاد باشا وكتبت للنحاس باشا أطلب الإفراج عني فوراً فلم يصلني رد فأغاظني ذلك وقررت أن أثيرها معركة حامية ضد النحاس باشا وأنا في الاعتقال وذلك بأن أضرب عن الطعام حتى الموت أو الحرية .. وجاءني أمين بك خليل رئيس القسم

المخصوص الذى أنشاه النحاس باشا فى مجلس الوزراء وأمين بك رجل متزن واسع الأفق أعجبني كثيرًا جدا عندما أتيت لى الفرصة لمقابلته والتفاهم معه .. زارنى أمين بك فى المعتقل وراح يحاول أن يهدئ من ثائرى وأن يطلب منى الصبر قليلاً ريثما يتمكن من حل المسألة فقلت له إننى لم أعد أطيق الصبر ، ولست مستعداً أن أرضى بهذا الموقف بحال من الأحوال فالتحاس باشا إمّا أنه يستطيع أن يفرج عني ولا يفعل وفى هذه الحالة فهو جدير بخصومتى ونقمتى وإمّا أنه لا يستطيع أن يفرج عني وهو فى هذه الحالة جدير بخصومتى مرتين ، لأننى لا أقبل أن يكون رئيس حكومة مصرية بهذه الدرجة من العجز الذى يجعله لا يستطيع الإفراج عن مصرى معتقل ، ولذلك فلا مناص من الكفاح والجهاد فى سبيل الإفراج والحرية .. وكنت قد حددت للإضراب يوماً معلوماً وقد استطاع أمين بك خليل أن يقنعني بإرجاء هذا الإضراب ثلاثة أيام فقط سأسمع بعدها ما يسرنى فقلت له بل أمامك أسبوع كامل لتقوم بمسعاك حتى تعرف أننى رجل غير متعنت ولكنى أقسم بالله العلى الأعلى أنه إذا انقضى هذا الأسبوع ولم يفرج عني فسيكون إضرابى عن الطعام هو الحدث الذى يهز هذه البلاد هزا ويثير ثائرتها .

وتركنى أمين بك خليل وانصرف وخلوت إلى وحدتى ... وفى اليوم التالى بدأ مأمور القسم عبد الله سالم يحاول أن يحملنى على العدول عن هذا الموقف المتشدد وأن أستقبل بعض الزوار الذين جاءوا لزيارتى ، ولكنى رفضت ذلك رفضاً باتاً وقلت له إن هناك شيئاً واحداً هو الذى وافقت على تأجيله لمدة أسبوع وهو مسألة الإضراب عن الطعام . أمّا فيما عدا ذلك فأنا أعتبر نفسى فى حالة حصار وليس هناك سوى طريق واحد لفك هذا الحصار وهو أن يفرج عني .. !

ومضى يوم ثان بعد مقابلتى لأمين بك خليل وبينما أنا جالس فى المعتقل فى حالة هدوء وفراخ تامين إذاً بالبواب يدق والجندى الحارس يقول لى إن حضرة المأمور يقول لك ارتد ملابسك لأنك ستقابل رئيس الوزراء .. ولم يكذب ينطق الرجل بهذه الكلمة حتى كادت الثورة تنفجر فى نفسى .. أخيراً .. أخيراً سأقابل رئيس الوزراء وسأعرف كيف أحمله على الإفراج عني أو أن أثور فى وجهه وأتحداه . !

لقد كنت أريد منذ زمن طويل أن أقابل النحاس باشا لأعرف كيف يتردد فى الإفراج عني وما قيمة رياسته للحكومة وما قيمة حكومته الدستورية المتمتعة بالأغلبية إذا كانت لا تستطيع الإفراج عن مصرى معتقل يريد وزير الداخلية ورئيس الحكومة أن يفرجا عنه .

لقد أدركت أن حديثي مع أمين بك خليل قد وصل إلى النحاس باشا وأنه قد أرسل إليّ ليطلب مني أن أصبر قليلا ويعدني بأنه سيبدل سعيًا جديا في سبيل الإفراج عني في مقابل أن أهدأ وأطمئن وأقلع عن كل فكرة في الإضراب عن الطعام .. وهذا هو نوع الحديث الذي لم أكن مستعدا لسماعه والذي كان سيشتعل النار في نفسي اشتعالاً لمجرد سماعه ... لم أكن مستعدا بأي حال من الأحوال أن ألتقي وعدًا جديا بالإفراج ... لم أكن مستعدا بأي حال من الأحوال إلا أن أسمع كلمة واحدة وهي « اذهب فأنت حر » هذه هي الكلمة الواحدة التي كنت مستعدا لأن أسمعها وأما غير هذه الكلمة من العبارات مهما كان نوعها فقد كانت جديدة بأن تثير تأثيراً .

ارتديت ملابس على عجل وفي أقل من لمح البصر كنت في حجرة المأمور الذي ابتسم لي قائلاً : إن شاء الله يكون قد آن الأوان ، فقلت له : إنني متشائم وسوف تكون هذه المقابلة هي نذير الحرب بيني وبين النحاس باشا إذا لم يفرج عني اليوم ، ولست أتصور بحال من الأحوال أنه سيفرج عني .. قال لي لقد طلب أن تذهب لمقابلته في المنزل . فقلت له وهذا ما يجعلني أتصور أنه يريد أن يتحدث معي حديثاً خصوصياً يطيب به خاطري ويعدني بالإفراج بعد قليل وهو ما سيجعلني أنفجر في وجهه وقد تسمع عني اليوم أني في أحد السجون بتهمة إهانة رئيس الحكومة ... ولكن المأمور أخذ عليّ هذا التشاؤم وتمني لي التوفيق .

وأخيراً انطلقنا في إحدى سيارات الأجرة إلى بيت النحاس باشا وكان يرافقتني في ذلك اليوم أمين بك جعيصه معاون القسم في ذلك الوقت وكان طوال الطريق يبذل كل جهده في تهديتي ونصحي بأن أكون معتدلاً في حديثي ولا داعي للثورة وأن الرجل إذا وعدني بالإفراج فلا بد أنه سيني ولكنني كنت في صمم تام مطلق عن سماع أي شيء في ذلك اليوم ، إلا كلمة واحدة وهي كلمة الإفراج السريع بدون قيد أو شرط ...

ووصلنا إلى بيت النحاس باشا في جاردن سيتي فقيل لنا إنه ذهب إلى رئاسة مجلس الوزراء وإنه قد طلب أن نذهب إليه هناك فتوجهنا على الفور إلى مجلس الوزراء ولقد سألت بمجرد وصولي عن أمين بك خليل فقيل لي إنه قد انصرف . وقد كنت أريد أن يحضر مقابلتي مع النحاس باشا ليخفف من حدة الموقف بيني وبينه فلما لم أجده حاضراً شعرت بخيبة أمل مضاعفة فقد ضاع كل بصيص من الأمل في أن يفرج عني لأنه لو كان في الموضوع فكرة إفراج لوجب أن يكون حاضراً ليريني كيف كان أميناً على وعده وأنه قد نجح في مساعاه ، أما وهو غير موجود ، فهذا هو الدليل على أن موضوع الإفراج خارج



من الحساب كل الخروج . خاصة وأن قواد باشا سراج الدين نفسه كان خارج القاهرة في ذلك اليوم كما ذكرت الجرائد ولا جدال في أن سراج الدين باشا كان يهجمه أن يكون حاضراً ساعة الإفراج عني ولذلك فقد استقر في يقيني أن هذه المقابلة لا صلة بينها وبين الإفراج ، ولما كنت متوتراً أن اصطدم بالنحاس باشا إذا تلكأ في الإفراج عني فقد رحت أصعد درجات السلم المؤدى إلى حجرات مجلس الوزراء وكأني أصعد درجات سلم المشقة ولقد أسررت بهذا الخاطر إلى أمين بك جعيصه فقلت له : أشعر بقدمي ثقيلتين وكأني أصعد درجات المشقة .. فهال الرجل هذا التشاؤم ونعي على أن أكون في هذه الحالة ، فقلت له إن ما يؤثر على نفسي أشد التأثير هو أنني لست أعرف كيف أتصرف إذا لم يفرج النحاس باشا عني لأن بين جوانحي ثورة جامحة لا أعرف غلى أى صورة ستنطلق .

وأخيراً صعدنا ، ودخلنا إلى حجرة التشريفات ، ولم يكن يبدو في الجو أن هناك رائحة إفراج فقد كانوا لا يعلمون شيئاً عن هذه المقابلة ونظروا إلى باندهاش في بادئ الأمر ... على أن انتظارنا لم يطل بعد ذلك فقد دعيت لمقابلة النحاس باشا فسرت إلى حجراته في خطوات متثاقلة وقد قررت بيني وبين نفسي أن أضبط أعصابي في بادئ الأمر وأن لا أنبس ببنت شفة ريثما يفرغ النحاس باشا من قول ما عنده ثم أنفجر فأقول ما عندي .

ودخلت إلى حجرة النحاس باشا فاستقبلني واقفاً ، فصافحته ويظهر أن الثورة المكبوتة في نفسي قد تجلت في كيفية مصافحتي فقد هتف النحاس باشا « حيلك حيلك حتخلع دراعى » ثم راح يعابثنى بقوله « تقعد حضرتك في المعتقل تأكل وتشرب وتسمن وتيجي هنا تشطر على دراعى » ولم أكن مستعداً لقبول أى دعاية ولذلك فقد زدت في تقطيب وجهي وفي الضغط على أعصابي .

ولم ينطلق النحاس باشا في الحديث كما كنت متوقعاً بل أسرع إلى سؤالى « إزاي حالك » فقلت له « أنا زعلان » فقال لى : ولماذا . فقلت له لأنك وعدتني منذ أكثر من عام أنك ستعمل على الإفراج عني بعد بضعة أيام وهاقد انقضى أكثر من عام وهذا الوعد لم يحقق .

فأجابني هذا صريح وأنا ما زلت أذكر وعدى ما فتت أسعى للإفراج عنك . ومعنى هذه العبارة أن الرجل لا يزال يسعى للإفراج عني واذن فقد صبح ما توقعته وأنه قد استدعانى لكى يهدئ من نفسي ويحملنى على الصبر من جديد .. ولم يكدهم هذا الخاطر فى نفسى

حتى تحفزت للانطلاق والانفجار ولكن النحاس باشا استأنف الكلام بقوله « وإنني أريد أن أفرج عنك ولكن يجب أن تفهم أنني إذا أفرجت عنك فسوف أتحمل مسؤولية ثقيلة قبل الإنجليز فأخشى ما أخشاه أن تخرج من الاعتقال فتحدث من القلاقل ما يجرّني مع الإنجليز .. فإذا عملت على الإفراج عنك فما هي الوسيلة التي أضمن بها أنك لن تحدث لي ارتباكات وما هو الشرط الذي يمكن أن أشرطه عليك . قلت له والله يا باشا أنا لا أستطيع أن أقبل إفراجاً بأي قيد أو شرط فإذا كنت لا تفكر في الإفراج عني إلا بشروط فإني أرجوك أن تعود بي إلى المعتقل والمسألة ينبغي أن تكون كما يأتي .. إذا كنت تعتقد أنني رجل يقدر المسؤولية ويقدر الجميل ويعرف كيف يرد على التحية بأحسن منها وكيف يرد على الحركة الجميلة بأجمل منها فافرج عني الآن فوراً ولن تأسف على هذا أو تندم ، أما إذا كنت تعتقد أنني رجل لا يقدر المسؤولية ولا يقدر الجميل فخير لك أن ترجع بي إلى المعتقل فإنك ستأسف على الإفراج عني مهما أخذت عليّ من شروط .

فأجابني النحاس باشا إنك لا تعرف الموقف في الخارج ولا تعرف الوضع السياسي ، ولذلك فإنني يجب أن أوضحه لك وأن أشرحه حتى تكون على بينة من أمرك وما أنت مقدم عليه ثم راح النحاس باشا يلخص لي الموقف السياسي وما حدث بينه وبين مكرم باشا مما أدى إلى إخراج الأخير من الوفد وحدثنني عن شعور الرأي العام وما يدور في صفوفه من الإشاعات والاختلافات والتيارات ، وأنه يخشى عليّ أن أنغمس في هذه التيارات الموجهة ضد الإنجليز .

قلت له إنني أعرف من أمر السياسة كل ما ظهر منها وما بطن وإنني أعرف واجبي وأعرف كيف أحكم على الأشياء ولذلك فما زلت أقول لرفعتك إنني لا أقبل الإفراج عني إلا بدون قيد أو شرط وإنك لا تأسف على ذلك إن فعلت :

فإذا بالنحاس باشا يقول لي : وهو كذلك فليكن لقد أفرجت عنك بدون قيد أو شرط وأنت الآن حر طليق ، وقد كانت هذه مفاجأة تامة لي ، فلم تكن روح الحديث تدل على أنه سيكون إفراج اليوم بل كانت الدلائل تدل على أن النحاس باشا يتفق معي على شروط الإفراج وأنه سيفرج عني بعد يومين أو ثلاثة وقد كنت أترقب أن ينطلق النحاس باشا بهذا الإرجاء للإفراج لكي أظهر عدم رضائي وسخطي ولكن النحاس باشا فاجأني بالإفراج عني على الفور بدون قيد أو شرط ... وكانت المفاجأة من السرعة بحيث لم تحدث في نفسي الأثر المطلوب فلم أشعر بفرح أو ابتهاج بل على العكس ازدادت انقباضاً وضيقاً وشعرت بالغضب والقهر أن يكون الإفراج عني بعد هذه السنوات الثلاث

لا يتطلب سوى هذه الكلمة تخرج من النحاس باشا وقد كان بقدرته أن يقولها منذ أكثر من عام مضى فيوفر على كثيرًا من الجهد والمشقة ، ولقد اندفعت الذكريات إلى رأسي في هذه اللحظة فتلاطمت وأحسست بالجمود يتملك تفكيرى وأعصابى وحواسى ، ولذلك فقد ظللت ساكنًا لا أجد جوابًا . ودخل في ذلك الوقت حسن بك سرور وكان سكرتيرًا لمجلس الوزراء فقال له النحاس باشا لقد أفرجت اليوم عن أحمد حسين فقال الرجل عال عال والله يا باشا هذا خبر طيب فالأستاذ أحمد حسين مجاهد وطنى صادق وإننى أشكرك باسمى واسمه وهنا انتهت إلى أننى لم أقل شيئًا .. لقد أفرج عنى النحاس باشا وشعرت بأنه يجب على أن أقول شيئًا أفسر به موقعى .. فقلت له إننى لن أشكر الباشا اليوم فإزالت حتى هذه اللحظة أسيرًا ولا قيمة لشكر الأسير ولكن بعد أن أخرج إلى الحرية وأنشق عبرها بعد يومين أو ثلاثة عندما أسترده كامل حريتى فسأعود إلى النحاس باشا لكى أشكره شكر رجل لرجل أما اليوم فليس عندى ما أقوله .

واستدعى النحاس باشا أمين بك جعيسة وقال له : لقد أفرجت عن الأستاذ أحمد حسين وهو منذ الساعة حر طليق يستطيع أن يذهب إن شاء فلا تتعرض له وعليك أنت أن تنتظر ريثما يكتبون لك الخطاب الخاص بذلك لتحمله إلى إدارة الأمن العام .

وخرجت بعد أن صافحت رفعة النحاس باشا وكان كل من فى خارج الحجرة يتطلع إلى نتيجة هذه المقابلة ، فإراهم إلا أن يرونى متجهًا ولا أثر للفرح أو البشر على وجهى .. ولكن البعض سألنى «خير إن شاء الله» فلم أجدهما أجيب به وبأد جعيسة بك فأبلغهم الخبر فانفجروا يعاتبوننى على هذا التجهم وهذا الغضب الذى يلوح على وجهى واحتنى بعض الموظفين بهذا الخبر فطلبوا (إشرياتًا) فلم أستطع أن أتذوق منه شيئًا واستأذنتهم فى أن أتكلم بالتليفون فأذنوا لى فأسرع إلى الاتصال بالمنزل وسمعت صوت زوجتى فى نهاية الخط فقلت لها فى عبارة مختصرة جافة لقد أفرج النحاس باشا عنى وسأحضر لكم . وكانت مفاجأة شديدة الوقع عليها ولم يطل بيننا الحديث أكثر من ذلك وعدت من جديد إلى صمى وانتظارى ريثما يكتبون الخطاب الخاص بإدارة الأمن العام ، وبعد فترة قصيرة خيل إلى يومها أنها دهر طويل ! .. كتب الخطاب ووقعه النحاس باشا واستلمه أمين بك جعيصه وخرجنا من مجلس الوزراء فقلت له لا أظنك فى حاجة إلى بعد الآن وأستطيع أن أنصرف ، أليس كذلك ؟ فأجابنى . طبعًا طبعًا . وهنأتى الرجل فى حرارة وصدق وإخلاص - فقد كانت عشرة طويلة تلك التى عشناها سويا فى هذا الاعتقال وعرض على أن يحضر لى سيارة فقلت له بل سأسير على قدمى .

وسرت على قدمي من لاظوغلي إلى منزلنا في شارع القصر العيني وكان الوقت ظهرًا وكانت الشمس ساطعة ومحرقة ولم يكن هناك من يسير في الشارع في ذلك الوقت إلا النزر القليل ... ولم يكن في نفسي أى شعور أو إحساس لقد كان المعتقل أحمد حسين هو الذى يسير لم أكن أتطلع إلى المستقبل لقد كنت أسير وكان العرق يتصبب من جبينى تحت تأثير هذا الحر وهذه الشمس . وكنت أتمنى لو يطول الطريق بين مجلس الوزراء وبين البيت وأن يطول كثيرًا لأستطيع أن أخرج من هذه الحالة اللاشعورية ، ولكنى فى النهاية وجدت نفسى أمام منزلنا ٤٦ شارع القصر العيني ، ولقد جئت إليه كثيرًا كمعتقل يصاحبني ضباط البوليس أمّا اليوم فقد جئت وحيدًا منفردًا . وضغطت على زر الجرس وفتح الباب وكانت زوجتى هى التى فتحت فلم أزد عن ابتسامة رددت بها على ابتسامتها ، وقد كان ذلك هو كل شيء . وكان فى البيت ضيوف مكثوا طوال اليوم فكان ضجيج وكان انهماك فى إكرام الضيوف .

وخرجنا بعد الظهر مع الأستاذ حلمي مراد الذى شاءت الصدفة الحسنة أن يكون فى القاهرة فى ذلك الوقت وطفنا على بعض الأصدقاء وسهرنا ليلتنا فى جريدة الأهرام وعدت فى منتصف الليل وقد بدأت أشعر بأننى أصبحت حرًا حقًا وصدقًا . وأنه قد أفرج عني بالفعل وبدأ السرور والإنشراح ينفذان إلى نفسى .

\* \* \*

وإذا كان لكل شيء نهاية ، فقد وصلت الآن هذه المذكرات إلى نهايتها بالإفراج عني وعودتي إلى الحرية على أن هذه النهاية ليست فى حقيقتها إلا بداية صفحة جديدة للجهاد مصر الفتاة وكفاحها .

فقد خرجت من المعتقل لأجد مصر الفتاة وروحها لا تزال فى الاعتقال ، فصر الفتاة قد ولدت حرة طليقة تكتب ما تشاء ولكنها فى ذلك الوقت لم تكن تستطيع أن تكتب أو أن تتكلم أو أن تتحرك كما تشاء فظل القيد على أقلامنا وعلى أفواهنا وعلى أرواحنا ولقد كانت ثلاث سنوات ونيف من الاعتقال والصمت الطويل وحوادث الحرب الجارية قد أسدلت ستارًا من النسيان على مصر الفتاة . لم تكن لنا جريدة تصدر ، لم يكن لنا نشاط يبذل ، لم تكن لنا دار يجتمع فيها الأعضاء لم تكن هناك رابطة على أى صورة من الصور تربط الأعضاء .

لم يكن يسمح للصحف طوال سنوات الحرب أن تذكر اسم مصر الفتاة أو أحمد حسين إذن فلا عجب بعد ذلك كله إذا كنت قد خرجت لأرى مصر الفتاة وكأنها ذكرى من الذكريات أو حلم من الأحلام . وكان على أن أبدأ السلم من جديد إذا أردت أن أواصل كفاحي وجهادي في سبيل تحقيق أغراضى ومثل الأعلى الذى أهدف إليه .

لقد كنا نطمح أن تنهار إنجلترا في هذه الحرب لكى نتحرر من سلطانها وسيادتها ولكن الحرب كانت تندفع نحو نهايتها .

والدلائل كلها تدل على أن إنجلترا ستخرج منها منتصرة فائزة وأنا سنعيش من جديد في عالم تسيطر عليه الإمبراطورية البريطانية ، لقد كنا نؤمل في عالم جديد لا يسود فيه اليهود ولا يكونون أصحاب الكلمة العليا في شئونه ، فدلّت الدلائل على أن العالم سيطر رهناً بمشيئة اليهود . !!

لقد كنا نؤمل أن تكون هذه الحروب هي الفرصة الذهبية لكى تنال البلاد العربية بل والإسلامية في مشارق الدنيا ومغاربها حريتها واستقلالها ، ولكنى خرجت من المعتقل لأرى أن العالم العربى والإسلامى لم يكن فى أى يوم من أيام تاريخه أسوأ من حالته فى ذلك الوقت ، فايران التى كانت حرة مستقلة قد اجتاحتها الجيوش الأجنبية ، وسوريا ولبنان قد أصبحتا منطقة نفوذ إنجليزية ، فوق كونها منطقة نفوذ فرنسية .

وكان كل شىء يدل على أن منطق القوة كما كان وسيبقى إلى الأبد هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في حرية الشعوب واستقلالها .

خرجت من الاعتقال لأرى روح المأدة وقد تسلطت على كل مصرى وقد أصبح الثراء الفاحش هو قبلة كل مصرى بقطع النظر عن الوسيلة التى تنتهج للوصول إلى ذلك ، حتى المجاهدين الذين كافحوا معى طوال عشر سنوات أصبحوا يتطلعون إلى هذا الثراء الفاحش ، ويسعون إليه بقفزة واحدة .

وخرجت من الاعتقال ، لأرى أشخاصاً كانت كل شهرتهم أنهم حملة لواء المجون قد أصبحوا من أعلام الوطنية وقادة الشباب ، ووجدت جمعيات وحركات لم يكن يحس بها إنسان في هذه البلاد ، إلا فى أضيق نطاق قد نمت وترعرعت وكبرت وتضخمت وامتدت فروعها فى سائر أنحاء البلاد واجتمعت لها الأموال الوفيرة بعد أن كثر المال فى أيدي الناس في خلال الحرب .

وخرجت من الاعتقال لأرى كل من كان يوماً من الأيام عضواً في مصر الفتاة ، قد انطلق مع الحياة التي ألفها المصريون في مدة الحرب ، فهذا قد أصبح موظفاً وهذا قد أصبح ضابطاً ، وهذا قد أصبح تاجراً وهذا قد انزوى في ناحية من نواحي الحياة ، ولم أجد حولي إلا هؤلاء الذين قدر لهم أن يعتقلوا معي في خلال الحرب وبعض نفر أوفياء لم يتركوا الجهاد طوال أيام الحرب ، ولأقوا في سبيل ذلك من العنت والاضطهاد أشكلاً وألواناً ، وخرجت من الاعتقال لأجد بعض من اشتهروا في مصر الفتاة ولعت أسماؤهم في سماء مصر الفتاة قد تحولوا وأصبحوا حرباً عليها بطريق مباشر وغير مباشر .

ولقد كان لي شخص في هذه الدنيا اعتز به وبصداقته وجه وأخوته .. كان لي شخص في هذه الدنيا يمثل المثل الأعلى في الوطنية والأخلاق والتدين والإيمان والجهاد والتضحية وإنكار الذات وأعني به الدكتور مصطفى الوكيل فإذا بالله يختاره إلى جواره جاعلاً منه شهيد الشهداء ، وبطل المجاهدين الأبرار ، تاركاً إياي في هذه الدنيا القاسية .

وفي كلمة وجدت كل شيء مسدوداً في وجهي ووجدت القيود والأغلال تكبلني ، ومع ذلك فقد كان يجب علي أن أمضي .. وما بقي لي في الحياة أنفاس تتردد ، فيجب علي أن أمضي ولا حيلة لي في ذلك أو اختيار . كما أنه لا فضل لي كذلك فقد كرس حياتي لهذا اللون من الجهاد ضد المستعمر الأجنبي ، وضد الظلم والطغيان والفساد .. ولم يبق أمامي إلا أن أنطلق .. وأنطلق دوماً صوب الأمام .

وإني إذا أكتب هذه السطور الآن بعد انقضاء عدة أعوام على خروجي من الاعتقال أشعر أنني قد استعدت كل حيويتي ونشاطي ...

وأشعر بمصر الفتاة في رسالتها الاشتراكية الجديدة ، وقد امتلأت من جديد للحياة والعزم والتصميم على أن تواصل كفاحها وجهادها في سبيل تحقيق هذه الغاية التي عملت منذ اليوم الأول على تحقيقها وهو أن تصبح هذه البلاد فوق الجميع دولة شاذخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتترغم الإسلام وتنتشر في الدنيا كلها وتشرق على العالمين بنور الإيمان رسالة السلام والمحبة والإخاء .

# الزواج والمرأة





## الإهداء

إلى زوجتي العزيزة وشريكتي في الجهاد .  
إلى شهيد مصر وقديس الوطنية ،  
إلى من تمنيت لو بقي لمصر وذهبت ،  
إلى الدكتور مصطفى الوكيل ،  
أهدي باكورة رسائلي ،  
لإنهاض الشرق العربي وتحريره .

## تعريف

هذه رسالة من عشر رسائل كتبها إبان اعتقاله في خلال هذه الحرب (من ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى ٤ يونيو سنة ١٩٤٤). وهذه الرسائل العشر في الحرب والحرية والمال والعلم والصبر والصدق والقوة والإيمان والوطنية. وقد بدأت هذه الرسائل صغيرة متواضعة ، تهدف إلى تعليم ابني الصغير الذي حرمني الاعتقال من فرصة ملازمته إبان طفولته ، ولم أكن أعرف يوم أن اعتقلت ما الذي تجبته لي الأقدار ، وهل يتاح لي أن أعيش حتى نهاية الحرب وأن أعود إلى الحرية والحياة من جديد ، أم أنه سيقدّر لي الموت بأسلوب أو بآخر في هذه الحرب الرهيبة ، التي وقفت فيها موقف المحارب عن حرية بلاده واستقلالها ، ولم أكن فيها عواطف وحقيقة أغراض وغاياتي . كل ذلك دفعني لكي أشرع في كتابة سلسلة من الرسائل إلى ابني الصغير ، أضمنها آرائ وأفكارى فيما يجب أن تكون عليه أخلاقه في مستقبل أيامه ، وما ينبغي أن تكون عليه أغراضه وأهدافه في هذه الحياة ... ولم تلبث هذه الرسائل أن تضخمت وتطورت فيما بعد فتحوّلت من رسائل تهيئية إرشادية بحتة ، إلى مناقشة مستفيضة لشتى مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، وأصبحت كل رسالة من هذه الرسائل العشر تؤلف سفراً مستقلاً يعالج موضوعه علاجاً كاملاً . وفي هذه الرسالة التي أقدمها اليوم للعالم العربى علاجاً لمشكلة الزواج والمرأة وحقوق كل منهما قبل الآخر ومكانة المرأة في المجتمع ومالها من حقوق وما عليها من واجبات ، ولقد اخترت هذه الرسالة لتكون أولى ما أطبعه من رسالاتي العشر إيماناً مني بأن موضوع الزواج والمرأة وكل ما يتصل بها هو مشكلة الساعة الاجتماعية في مصر بل والشرق العربى بأكمله .

ففي العالم الشرقى الإسلامى بصفة خاصة نزوع نحو التحرّر والانطلاق في مجالى الرقى والرفعة ، وعندى أنه لأسبيل لتحقيق ذلك كله مالم تنهض المرأة وتأخذ بنصيبها الكامل في هذا الجهاد وتتبوأ مكانتها اللائقة في المجتمع كعضو عامل يتمتع بكل الحقوق التي يتمتع بها أى عضو آخر مدنية كانت أو سياسية . وكثيراً ما يظن البعض أن في نصوص الدين الإسلامى ما يحول بين المرأة وبين النهوض الكامل والتحرّر ، ولذلك فقد عنيت عناية خاصة بدراسة هذه القضية من الناحية الشرعية دراسة مستفيضة كما سرى المطالع

لهذه الرسالة ، وسيثبت لدى كل منصف بعد مطالعتها أن الإسلام وهو الذى كان أعظم محرراً للمرأة فى كل عصور التاريخ لا يمكن بحال من الأحوال أن يقف خجراً عثرة فى سبيل نهضتها ورفيها وتمتعها بالأهلية الكاملة كالرجل سواء بسواء فى سائر شئون الحياة ، وليس يعنى ذلك بحال أننى ممن يحاولون إخراج المرأة عن طبيعتها ووظيفتها الأولى كزوجة وأم ، بل إن هذه الرسالة بأكملها هى أكبر مرافعة عن الزواج كما سيرى المطلع عليها ، وتدور كلها حول إقامة صرح المجتمع على أساس الأسرة القوية المتعاونة .

وإذا كنت أصرح فى هذه الرسالة أنه لا يوجد نقل أو عقل يحول بين المرأة وبين حق الانتخاب مثلاً أو الاشتغال بأى عمل من الأعمال فليس معنى ذلك أننى ممن يرضون عن هذا الانحلال الخلقى الذى يسود مجتمعنا المصرى الحاضر ، أو أننى لست من أكبر أعداء الاستعمار والتبذل الذى يشاهد فى بعض الأوساط المصرية فى الوقت الحاضر ، ولعل تاريخ جهادى فى مقاومة المنكرات والموبقات ودخولى السجن أكثر من مرة لهذا السبب هو أكبر شاهد على تقديرى للفضيلة وإيمانى بها .

فإذا كان ماحوته هذه الرسالة فى بعض أجزائها من آراء سيكون محل نقد من البعض الذين يرون خلاف ما أرى ، فإن شفعى فيها أننى رجل كرس حياته للجهاد فى سبيل الحق فى جميع صوره وأشكاله وللعمل بكل الطرق والوسائل المؤدية إلى رفعة مصر والعرب والمسلمين ولقد اقتنعت (بعد أن فكرت وطالعت ودرست وجربت) بهذه الآراء التى أبادر بإعلانها فى هذه الرسالة إيماناً منى أن فى ذلك إحقاقاً للحق ونصرة للفضيلة وسيلاً لإنهاض بلادى .

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

القاهرة فى : ٢٠ من محرم سنة ١٣٦٥ هـ  
٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ م  
أحمد حسين

## الفصل الأول

### الزواج

#### يابنى

أما وقد دعوتك يابنى لتكون قوياً مجارياً غنياً عالماً ، فقد دعوتك بذلك إلى المثل الأعلى الذى ينبغى للإنسانية أفراداً وجماعات أن تسعى لإدراكه والحصول عليه ، غير أن سنة الحياة قد قضت بأن يكون عمر الإنسان الفرد قصيراً لا يتيح له تحقيق كل آماله ؛ فعمره لا يتسع إلا ليضع البذرة دون أن يجنى الثمرة ، أو أن يضع الأساس ويرتفع بالبناء دون أن يشهد كماله . وكلما كانت مرامى الإنسان عظيمة مات قبل أن يحقق منها إلا أقل من القليل ، فما أطول الطريق نحو المثل الأعلى ، وما أكثر الدرجات التى تفصلنا عن أهدافنا النهائية ؛ بل إن الإنسان مجبول على أن يبدأ شوطاً جديداً كلما انتهى من شوط ، وكلما ظن نفسه قد أوفى على الغاية إذا به يرسم لنفسه غايات أبعد شأواً وأصعب منالا وأكثر خطراً . ويظل ذلك شأن الإنسان حتى آخر نسمة من حياته ، فإذا كان الذى قام به لا يعدو أن يكون نقطة البدء لما كان يرومه ويفكر فيه ، مهما بدا ما أنتجه وأحدثه عظيماً ورائعاً ومترامى الأطراف فى نظر الآخرين ، بذلك قضت مشيئة الخالق الذى جعل الموت من نصيب البشر ليكون ذلك آية بشريتهم وربوبيته ، وآية فنائهم وخلوده ، وآية حدوثهم وقدمه .

ولقد كان منجل الموت المصلى على رقاب العباد جديراً بأن يخمد فى الإنسان جذوة العمل والاجتهاد والتطلع للرقى والارتقاء ، وهو يرى خاتمة المطاف حفرة من الأرض ضيقة مظلمة ؛ لافرق فى ذلك بين غنى وفقير أو جليل وحقير ، ولا فرق فى ذلك بين الملك والامبراطور وبين العبد والصعلوك ، وبين البطل الضرعام الذى دوخ العالمين شرقاً وغرباً وأقام الدنيا وأقعدها والإنسان الذى ولد وعاش يأكل ويدب على الأرض كما تدب أحقر الحشرات ثم مات فى زوايا الإهمال والنسيان ، ولا فرق بين أعدل العادلين الذين ملأوا الدنيا خيراً وعدلاً وأمثاً وطمأنينة وأشرس الطغاة الذين غمروا البشر بغيض من الولايات والآلام والفتن ، وأخيراً جدا لافرق بين الأنبياء والرسل الذين أشرقوا على البشر

بنور إيمانهم وقادوهم بقوة أرواحهم ومنحوهم الأمل والرجاء والحب وأفسق الكفار والملاحدة وطغمة المفسدين الأشرار الذين يفتنون الشك والالتباس والاستهتار ، فإنما هو كأس واحدة لا بد لكل من أكلته الأرض وأظلمت السماء أن يجرعها يوما ما ، وأن يصير إلى التراب نهبه لهوام الأرض ودوابها وجراثيم الفناء والعدم . لا بد لهذه الأصوات المدوية أن تصاب بالخرس ، وهذه العيون المشرقة أن ينطفئ نورها ، وهذه الوجوه النضرة أن يغيض ماؤها ، وهذه الأجساد الغضة أن ينهار كيانها . لا بد لهذه الحركة من السكون ، وهذه اليقظة من الهجوع ، وفي كلمة : لا بد للكائن الحي من الموت والفناء . فعلام يسعى الإنسان ويكد ، وفيم يسهر ويحج ، ويصبر ويحتمل الآلام والشقاء ! لماذا يقتصد في شهواته ولايسرف في ملذاته ، ولماذا يسيطر على غرائزه ولايبتدفع مع نزواته ؟ لأى علة يكون الإنسان فاضلاً ويكون تقياً ، ويكون الإنسان كريماً محسناً خيراً ورعاً ! لماذا ... ؟ ! لماذا كل هذه القوانين والأنظمة ، وهذه العلوم والفلسفة ، وهذه الحضارة والمدنيات مادام كل حي إلى ممات ، وكل جمع إلى شتات ، وكل جهد يبذل في مقاومة الفناء لانتيجة له سوى الفشل والخيبة .

ذلك هو الأثر المنطقي الذي كانت حقيقة الموت جدية بأن تحدته في نفس الإنسان لولا أن المبدع الذي أبدع هذا الكون ونظمه ، وهذا الخالق الذي خلق الإنسان وسلطه على الكون ، قد خلق إلى جوار الموت من السن مايفل من حدته ويخفف من قسوته ، ومايقلل من بطشه ، ويحد من سطوته بأن جعل الموت لاينال من الإنسان إلا العرض دون الجوهر ، ولايفني منه إلا القشر دون اللباب . فسلطان الموت يقف عند حد الجسد دون الروح ، ولايهدد سوى الفرد دون النوع والمجموع ، فجسد الإنسان يفنى ويزول ، ولكن روحه تبقى أبداً ؛ لأنها قبس من روح الكون وحقيقة الوجود فلا يتطرق إليها الفناء مهما امتدت بها الأعصر والدهور ، وذلك أعظم هادم لسلطان الموت في نفس الإنسان ، وأكبر حافز له إلى النشاط والعمل ؛ فما من إنسان إلا وهو يؤمن بخلود روحه ، وبأن له بعد هذا الموت الظاهري حياة أسعد لو أنه أحسن العمل وأجاد في هذه الحياة الأولى .

هذا الإيمان الذي سأحدثك عنه بالتفصيل في رسالتي المقبلة يابني ، هو الإكسير والترياق الذي يتغلب به الإنسان على شدة الموت ومايسكبه من سموم في النفس .

على أن هذا الترياق ليس إلا مسألة وجدانية معنوية في نهاية الأمر ، ماكانت وحدها لتكفي لمقاومة آثار الموت المدمرة ، لو لم يكن إلى جوارها عنصر مادي محس يؤكد معناها ويعزز حقيقتها . وهي أن الموت إذا كان يهدد فردا بعينه فهو لا يهدد البشر أجمعين ، وأن

زيدًا وعمراً وخلدًا وبكرًا قد يموتون ولكن بعد أن يخلفوا وراءهم زيودًا وبكورًا كثيرين ، وأن أى جيل من البشر لا يموت قبل أن يخلف جيلًا أكثر نفراً وأوسع حيلة وأوفر علماً وأعظم قدرة . فإذا كان الموت قد عدا على آدم وحواء فأصار أجسادهما إلى الفناء ؛ فإن الحياة كانت أرجح كفة وأعظم قدرة . وليست هذه الألوف المؤلفة من ألوف البشر إلا نسل هذين الزوجين الأولين : آدم وحواء الأب الأول والأم الأولى ، وما من رجل تقع عليه عينك إلا وهو صورة مكررة لهذا الرجل الأول ، وما من امرأة إلا وهى حواء مكررة ؛ حتى قصة الإغراء والتحريض على اقتطاف الثمرة المحرمة هى التى لا تفتأ كل أنثى تمثلها مع الرجل وتدعوه إليها وتحضه على اقترافها . وهكذا مات الإنسان الأول ولكن روحه انتقلت إلى ملايين ، والواحد الفرد تحول إلى عديد وكثير .

« يأيتها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيها رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (١) » .

فكان سلطان الحياة أقوى من سلطان الموت ، وكأن منجل الموت إذا حصده مئين من الأفراد فإن روح الوجود يخلق بدلاً عنهم مئات وألوفاً ؛ ليتناسلوا بدورهم وينموا ويتكاثروا ، وليدعموا شجرة الحياة ويطاولوا في فروعها ، ويمعنوا في مد جذورها وينفخوا في أريجها ويطيخوا جناها وفاكهتها .

وبهاتين الحقيقتين : خلود الروح وبقاء النوع ، تزود الإنسان بالترياق الشافى المعافى لسم الموت ومخدراته ، وما يشيعه في النفس من يأس وضعف وكسل ؛ فأقبل الإنسان على العمل والبناء والإنشاء وعمر وأصلح وأحسن ، فإذا كان جسده سيفنى فإن روحه باقية لتتمتع بثمار ما عمل ، بل إن بقدرته على الأغلب أن يخلف على هذه الأرض بضعة من جسده وقبساً من روحه ؛ لتنعم بطيبات ما عمل ، ولتجنى ثمرة ما غرس ، ولتتكمل مابداً ، ولتبقى متصلاً أبداً بهذه الحياة ، بينما تسبح روحه في الحياة الآخرة (٢) . وما على الإنسان ليدرك هذا الأمل المنشود ؛ أمل البقاء والاستمرار في الحياة بالرغم من الموت والفناء ، إلا أن يطيع غريزته وأن يخضع لما ركّب في طبعه ، وأن يندفع إلى حيث تريده الطبيعة أن يندفع نحو هذا المخلوق اللطيف الجميل الرقيق ، الذى قد أعد وجهاز بحيث يتحد به ويتلف معه ويتازج وإياه ، ويمختلط في أعظم نشوة وسعادة يمكن أن يذوقها أو يحسها البشر . وليس ذلك المخلوق سوى المرأة أو أنثى الذكر .

(١) أول سورة النساء .

(٢) مصداق هذا الحديث الشريف : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

ولعل هذه الغريزة التي تدفع الرجل نحو المرأة ، وتدفع المرأة نحو الرجل هي أسمى وأرفع ما ركب في طبع الإنسان من غرائز ؛ فبقية الغرائز الأخرى إنما ترمى إلى المحافظة على الجسد والإبقاء عليه من العطب . أما الغريزة الجنسية فغايتها المحافظة على الروح الإنساني والتطور بها لتخليد النوع والارتقاء به ، ، ولذلك فهي وحدها التي تحفز الإنسان إلى الاستزادة من السعى والعمل ، بالرغم من إشباع حاجاته الضرورية من المأكل والمشرب والملبس . وهي التي تحفزه إلى التجميل والتزين والنظافة والبطولة ليستحق إعجاب المرأة . فهذه الغريزة هي التي رفعت عقيرته بالغناء وألهمته الشعر وعلمته التصوير ، وهي التي خلقت الفنون خلقاً وأبدعت الموسيقى والأدب ، وهي التي رقت الحواشي وفجرت الحنان والبر والشفقة والوفاء والإيثار والتضحية ، وأنتجت الفضيلة في ذروتها العليا وأعني بها الحب ، وهي التي ملأت الدنيا منافسة ومزاحمة ومصارعة فكان التطور والارتقاء . هي كل شيء وروح كل شيء ؛ لأنها بذرة الوجود ولب الحياة .

بهذه الروح يجب أن ينظر للغريزة الجنسية فتكرم وتحترم ، بل وتمجد وتقّس باعتبارها سرّاً من أروع أسرار الخالق التي بثها في هذا الكون ؛ لتكون سبيل الحياة نحو النمو والازدهار والتطور والارتقاء ، ولذلك فأصدق وأحقّ ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه قال : « حُبَّ إِلَهِ مِنْ دُنْيَاكُمْ ، النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . فإذا علمت أن الصلاة ليست سوى الشكر لرب العالمين ؛ لما أنعم به على الإنسان من نعم أدركت أن النساء أو بالأحرى ما يلقاه الإنسان من سعادة في الاتحاد بهنّ هو أعظم ما في هذه الحياة من نعم وأسرار ، جديرة بالحب والتعجيد والشكر لرب العالمين .

### ضلال الداعين إلى محاربة الغريزة الجنسية

لست أحسب أن هناك ما هو أدعى لغضب الخالق ونقمته من أن يحاول محاول أن يفض من شأن هذه الغريزة وأن يمتنها ، مصوراً إياها بأنها مظهر من مظاهر الحيوانية التي ينبغي التسمي عنها والترفع عن السقوط في حماتها ، وأن يعتبر الاتصال الطبيعي بالمرأة لوناً من ألوان الدنس والتلوث ، التي يجب أن ينتزه عنها الرجل الطاهر الورع العف ، الذي يريد أن يقترب من الخالق المبدع وأن يرضيه ويبرر عنده ؛ كما نادى بذلك فريق من الهنود ونفر من المسيحيين ؛ فابتدعوا نظام الرهبانية الذي يقضى عليهم بإخضاع غريزتهم الجنسية ومقاطعة المرأة واعتزالها ، واعتبار ما يشعرون به نحوها من انعطاف داخلي في غواية الشيطان وأحبولته التي يتصيدهم بها ؛ ليصرفهم عن عبادة الديان إلى التردّي في حماة

الردائل والشهوات . وأنشأوا لذلك الأديار في الصحارى وعلى قمم الجبال بعيداً عن العمران ، وجسوا أنفسهم على مازعموه عبادة بالليل والنهار ؛ وليس وراء ذلك جهل وخطب والتواء في الطبع وفساد في الأرض عظيم . وقد أثبتت التجربة ذلك بما لا يحتاج لكبير شرح أو إسهاب في تفنيده أو الردّ عليه ؛ فتاريخ هذه الأديار التي أنشئت لتضم بين جوانحها الملائكة الأطهار من الشهرة بحيث تكفى مجرد الإشارة إليه ؛ فهو يحوى من الفضائح ويسجل من المخازى والآثام ما أوشك أن يزلزل العقيدة المسيحية لولا أن تداركها الإصلاح البروتستانتي الذى كان في مقدّمة مانادى به تخويل رجال الدين حق الزواج فأعاد إليهم الكرامة والاحترام ؛ بعد أن كان رجال الكنيسة قد فقدوا ثقة الناس أجمعين ، ابتداء من البابا رأس الكنيسة ، الذى كان يعتبر معصوماً فاكشفت الشعوب أنه غارق في الآثام حتى الأذقان ؛ كما يثبت تاريخ آل بورجيا .

والحق أنه ليس أضر على الإنسان من أن يتصدى لمحاربة غرائزه محاولاً كبتها والقضاء عليها ؛ لأنه بذلك يعترض مشيئة الخالق الذى جهزه بهذه الغرائز لتؤدى رسالتها وتقوم بوظيفتها ، وكل محاولة من هذا القبيل مقضى عليها بالفشل والخذلان المبين ؛ ولذلك ترى هذا الشخص المتمرد على الناموس الإلهى لا يلبث بعد أن يحطم أعصابه ويفسد طبعه أن يرتد مخذولاً مدحوراً ومترجعاً في غير انتظام ، بحيث ينقلب تراجعه إلى تدهور شائن ؛ فيتردى فيما لا يقع فيه الرجل العادى من الآثام ، وربما كانت رواية تاييس الخالدة من أروع الصور لهذه المحاولة الفاشلة لمقاومة الغريزة والمتمرد على الطبيعة البشرية ونواميسها ، وكيف انتهت بالقديس إلى كافر ملحد استحق غضب الله ولعنته . على أن هناك حقيقة واحدة تكفى لهدم كل تفكير في هذا الموضوع كبح الغرائز الجنسية ومقاومتها باعتباره فضيلة من الفضائل . فالأصل في الفضيلة أن تكون المثل الأعلى الذى يندب إليه الناس أجمعون ، وأن تكون الجاعة البشرية أكثر سعادة وهناء ورقياً وكمالاً عند تطبيقها الإجماعى ؛ فإذا يكون حظ البشر لو أنهم اعتنقوا هذا المبدأ مبدأ القضاء على الغريزة الجنسية ، وقاطع الرجال النساء والنساء الرجال ، وعاش كل من الجنسين على انفراد في أحشاء الصحارى وفوق قمم الجبال ؟ . أو لا تكون النتيجة الحتمية لهذا الانفصال هى انقراض الجنس البشرى في أقل من قرن من الزمان ؛ فهل ذلك هو ماتقرّر له عين الخالق وما يحقق مشيئته في الخليقة<sup>(١)</sup> ؟ لو أن الأمر كذلك ، فقيم خلق الخالق

(١) الحق أن دعاة الرهبانية وعلى رأسهم سانت بول أو بولس الرسول كانوا يرمون فعلاً إلى هذه الخاتمة بل ويبيشرون بها ويتوقعون من ساعة لأخرى خاتمة الحياة الدنيا وفناءها . ولكن عشرين قرناً قد انقضت منذ تصور بولس الرسول



الحياة إذن ، وجعل ناموسها الأعظم هو النمو والتكاثر؟ لماذا خلق الذكر والأنثى ، ولماذا جهزهما بهذه الغرائز التي لا تقهر ولا تنفك تضغط عليهما إلى التقارب والتمازج والاتحاد؟ لماذا جعل كل ذرة من ذرات الرجل الكامل تنجذب في غير وعي إلى كل ذرة من ذرات المرأة ؛ كما تنجذب جزئيات الموجب نحو جزئيات السالب بعامل القهر المركب في طبيعتها ؟

يقولون لنا : لقد أودع الخالق الإنسان هذه الشهوة لتكون وسيلة لتجربته واختباره ؛ ليتبين الخالق إلى أى حد ينصاع الإنسان إلى الخضوع لشهواته التي هي من صنع الشيطان ، وإلى حد يتغلب عليها ويقهرها ابتغاء مرضاة الله . وإنما لفكرة سقيمة وعليلة ، بل فكرة تنطوي على جهل فاضح بأخص صفات الخالق الرحيم ، وإساءة ظن بكرمه وعدله وحنانه وبره بما خلق ؛ فأى عدل وأى كرم وأى رحمة في أن يخلق الرب مخلوقاً ضعيفاً بما يركبه في طبعه من شهوة ، ثم يسلط عليه مفاتن الحياة ومغرياتها ومباهجها ، ثم يقول له : إياك ثم إياك من أن تزل أو تسقط ! إياك من أن تنظر بعينيك إلى هذا الجمال الذي خلقته لتراه ، أو أن تسمع بأذنيك هذا الصوت العذب الذي أبدعته ، أو أن تلمس هذا الجسد الذي فطرته لتستمتع به ، لك الويل كل الويل والعذاب والسعير إن خضعت أيها المخلوق الضعيف لماركبتة في طبعك من نواميس وغرائز . فهل وراء ذلك سوء ظن بالخالق وتشويه لعظمته وجلاله أن يصوره ولا مصرة له إلا في تعذيب مخلوقاته والقسوة عليها والبطش بها ؟

حاشا وكلا أن تكون هذه غاية الرحمن الرحيم ، وتنزه عن أن يوصف بهذا الظلم والاجحاف بالبشر المساكين . وإنما كان خلق الإنسان نعمة من النعم ومكرمة من مكارم الرب ، خلق الله الإنسان وخلق الكون معه وسلطه على هذا الكون ؛ لينعم ويستمتع ويشبع ويرتوى ويفرح ويمرح ويهنأ ويسعد ، وذلك كله في مقابل شيء واحد إن تركه الإنسان أثم ، وهو الشكر لله والاعتراف بالنعمة ، والحمد والثناء على ما أصاب الإنسان من منة . وهذا هو جوهر ما بين الخالق والمخلوق من علاقة : أن يتذوق المخلوق النعم التي خلقت من أجله وأن يشكر ربه عليها ، وأن يسيح بحمد الخالق الذي سخر له كل هذه الطيبات والخيرات ؟ وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

---

هذه الفكرة : ولا تزال الحياة البشرية أبعد ما تكون عن نهايتها وهي آجلة في العو والازدهار ؛ فإلى جوار العالم القديم فد اكتشف عالم جديد يقض بالأحياء الأقوياء العاملين المجدين الذين يوشكون أن يقفروا من هذا الكوكب إلى كوكب آخر ليبدأوا عوالم جديدة ويمدوا فروعاً أخرى لشجرة الحياة .

مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون<sup>(١)</sup> . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق<sup>(٢)</sup> » . فالقرآن ينهى على كل من يُحرم على الناس الاستمتاع بمباهج الحياة في حدود التوسط والاعتدال ، ولا يطلب في مقابل ذلك إلا الشكر والاعتراف . فليست معصية الخالق في التمتع بنعم الحياة ، وإنما المعصية في جحود النعمة بالقعود عن شكر الله ، وما العبادات المختلفة التي تفرضها الأديان من صلاة وصوم وحج وتصدق إلا وسيلة مادية لإظهار الشكر لله ، والتسبيح بحمده والاعتراف بنعمه .

### لارهبانية في الإسلام

ولعل من أعظم محاسن الدين الإسلامي ، وما يدل على أنه الدين الكامل لسعادة البشر أنه كان صريحاً واضحاً في نفي كل فكرة ترمي إلى تصوّر الفضيلة في تعذيب الجسد وحرمانه ، وكبت غرائزه وإيلامه ؛ وإنما الفضيلة كل الفضيلة في الاعتدال والالتزان والبعد عن الغلو والتطرف ، فلم يقف الإسلام في موضوع الزواج عند حد الإباحة ورفع الحرج والكراهة ، بل قد دعا إليه وأمر به وحثّ عليه ورغب فيه ، وجعله من آيات الله الكبرى الدالة على رحمته وقدرته « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون<sup>(٣)</sup> » . ودعا إلى الزواج في أكثر من آية بصيغة الأمر والطلب ، وقد زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرته وسنته وأحاديثه هذا الأمر تأكيداً ووجوباً . ولما هم أقوام من الصحابة أن يترهبوا كما يفعل المسيحيون ، فألقى بعضهم على نفسه أن يظل طول الدهر صائماً ، وأقسم آخر أن يسهر الليل معاش قائماً ، وأعلن الثالث أنه سيعتزل النساء مابق حياً ؛ ولما بلغ الرسول خبرهم اشتد غضبه منهم ونهى عليهم مافكروا فيه وسموه باسم التقوى والورع وقال لهم قولته الحكيمة الخالدة : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني<sup>(٤)</sup> » . وهكذا تبرا رسول الله من كل من تحدّثه نفسه بالترهب واعتزال النساء ؛ فصارت قاعدة أساسية أن « لارهبانية

(١) آية ١٧٢ سورة البقرة .

(٢) آية ٣٢ سورة الأعراف .

(٣) آية ٢١ سورة الروم .

(٤) راجع البخاري . كتاب النكاح .

في الإسلام<sup>(١)</sup> . وكانت وصية الرسول الدائمة للجماعة المسلمين : « تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة<sup>(٢)</sup> » .

## فتنة المرأة وخطرها

يقول المتبتلون والداعون إلى الزهد في المرأة : وماذا تقول في أنه ليس هناك خطر يهدد سلام الرجل أكثر من افتتانه بالمرأة ، وأن نصف شرور العالم - إن لم يكن أكثر - إنما تنشأ بسبب المرأة والتهالك عليها والتزامي في أحضانها ، فكمن من جرائم ترتكب من أجل الوصول إليها والاستئثار بها ، وكم من رجل يبرق من الدين والفضيلة من أجل الاستمتاع بامرأة ، وقد يتنكر الرجل لآله وذويه وأمه وأبيه من أجل امرأة . وقد تكون المرأة السبب في تدمير أمة بأسرها ؛ كما لو كانت امرأة غاوية واستولت على لب حاكم أو ملك فدفعته إلى ركوب متن الشطط . وهل هناك ريب في أن الرجل إذا استسلم لغريزته الجنسية وأطلق لها العنان تحول على الفور إلى حيوان وانسلخ من صفوف البشرية ، وأصبح مجرمًا عنيدًا لا حد لما قد ينساق إليه من إجرام ، أو لم يقل الرسول الصادق الأمين صلوات الله عليه : « ماتركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء<sup>(٣)</sup> » . أو لا يقول المثل السائر : « فتش عن المرأة » أى ابحث عنها كلما أردت أن تدرك الدافع لأى جريمة من الجرائم يعيبك حلها وتفسيرها . فكيف لا يكون من الأخطار للإنسان ولدينه وفضيلته أن يهجر النساء وأن يتباعد عنهن ، وأن يكبت غرائزه الجنسية ويتحرر منها ؟ . ونحن لا يسعنا إلا أن نقرر أن ذلك كله حق لاشبهة فيه ، وأن المرأة كانت ومازالت وستبقى إلى الأبد أعظم ما قد يدفع الرجل إلى ركوب متن الشطط ، والنساء هن الموصوفات في القرآن بأن كيدهن عظيم . ولكن الذى نفترق فيه عن أصحاب هذا رأى هو أسلوب العلاج والوقاية ؛ فهم يرون العلاج في المهجر والمقاطعة والاعتزال ، ونحن نقطع بأن هذا الأسلوب ضار ومدمر ومفسد للفرد والجماعة فضلاً عن أنه صعب التحقيق إن لم يكن مستحيلاً ، وإنما العلاج الشافى هو فى السيطرة على هذه الغريزة وإحسان توجيهها وتصريفها فى نظام واعتدال عن طريق الاتحاد بامرأة واحدة تكون شريكة للإنسان وقسيمة حياته ، فيفضى لها وتفضى له ، وبذلك يخف ضغط العاطفة الجنسية على

(١) مستند الإمام أحمد ج٦ ص ٢٢٦ .

(٢) و (٣) الجامع الصغير للسيوطي .

أعصابه ، وشرايينه ، ويهدأ بال الرجل ويقرّ قراره ؛ فيصبح قادراً بعد ذلك على المضي في الحياة ، كما يمضي الشبان المرتوى يفكر ويتأمل ويتنوّج ويتطوّر غير ملتفت لبقية النساء ، على خلاف الجائع الظامئ الذي ينطلق في الحياة هائجاً مسجوراً ، يبحث خلف الطعام والماء غير متردّد في السلب والنهب والقتل لإشباع حاجته . إن أدق تشبيه يمكن أن تشبه به الغريزة الجنسية هو المياه الجائحة والفيضانات العالية ، وكيف تنقلب هذه المياه وهي أصل الحياة وينبوعها إلى قوّة مدمرة ومخرّبة إذا حاول يحاول أن يتصدّى لها وأن يقيم السدود والعقبات في وجهها ؛ إذ لا يلبث ضغط المياه المستمر أن ينسف الحدود والسدود مكتسحاً في طريقه كل شيء ، جارفاً كل معالم الحياة التي تعترض تياره ، وناشراً الخراب والدمار حيث تدفق وسال . فخير ما يفعله الإنسان المتحضر لاتقاء شرّ الفيضانات العالية والطوفان أن يسمح لها بالانطلاق إلى مصائبها وأن يهيئ لها الطريق ويعبّده ، منشئاً السدود والخزانات التي لا تحول دون مرور الماء ، ولكن تشرف عليه وتنظمه وتوجهه وتسخره لغايات مثمرة ونافعة لحياة الإنسان ورفقه وتطوّره . وذلك هو الشأن في الغريزة الجنسية ؛ فهي تنطلق في عروق الإنسان وأعصابه وحواسه كالمياه المتدفقة أو كالنيران الجائحة . وقديماً كان الإنسان الأوّل يطلق لغريزته العنان فلا يحاول أن ينظمها أو أن يقتصد منها ، ولكن تطوّر الإنسان في معارج المدنية والحضارة قد هداه إلى نظام الزواج الذي مكّنه من السيطرة على غريزته واستغلالها لتطوّره وكمالها أعظم استغلال .

### النظريات الداعية إلى الإباحة

وإذا كان للزواج خصوم ممن يزهدون في المرأة ويتحامونها ، ويرون الفضيلة كل الفضيلة في القضاء على غريزتهم الجنسية ؛ فإن للزواج خصوماً من ناحية أخرى ربما كانوا أكثر عدداً ، يرون السعادة والخير في الإقلاع عن نظام الزواج حيث يتقيد الرجل الواحد بالمرأة الواحدة ، وهو ما يخالف الطبيعة ويحول دون تحقيق أهدافها في تكثير النوع ونشر الحياة وامتدادها . ويرى آخرون أن الزواج مظهر من مظاهر الأنانية والملكية التي يجب أن يقضى عليها في شتى مظاهرها وأشكالها ؛ لتصبح الطيبات كما خلقها الله حقاً مشاعاً لجميع البشر على السواء . وهناك في العصور الحديثة من يرون في الزواج إهداراً لكرامة المرأة وحجراً على خريتها لا يليقان بالمرأة العصرية . وقديماً كان أفلاطون يرى أن الزواج قد أدى إلى خلق الأسرة وحبيها ، ولا بد من القضاء على الأسرة ليتحوّل الولاء إلى الوطن ، وليكون جميع الأفراد ذكوراً وإناثاً أبناء للوطن ، أسرهم الكبرى . هذه كلها نظريات

لم توضع محل التطبيق فليس يدين بها الكثيرون ، ولكن هناك جما غفيرا في الحياة يضربون عن الزواج فعلا للاسترسال في شهواتهم والتنقل من امرأة إلى أخرى ، مستبحين الحرمات بحثا خلف اللذات والإمعان في الشهوات . وليس هناك ما هو أسهل من دحض هذه النظريات المختلفة الرامية إلى مناهضة الزواج ، وتبيان الخطر الناجم عن الإباحية الفعلية بالنسبة للفرد والجماعة والإنسانية والحضارة :

### خطر الإباحية على الأمن والسلام

يقول دعاة الإباحية : اتركوا الإنسان يستلهم غرائزه فيتصل بمن شاء أنى شاء وحيث شاء ؛ فهذا تقضى الطبيعة ، والخير كل الخير في تحرر سننها ، والقاتلون بهذا الرأي يستندون في زعمهم إلى أن ذلك هو سنة الطبيعة لما يرونه من أحوال الحيوان ، مع أن ذلك التشبيه كاف في حد ذاته لهدم قولهم ؛ فليس الإنسان حيوانا وقد ميزه العقل عن الحيوان ، بل ميزه عن سائر الكائنات فجعله مخلوقا يختلف عنها كل الاختلاف . فالحيوان ليس له إلا غرائزه لتهديه ، ولذلك كانت هذه الغرائز من التوازن والدقة بحيث لا تدفع الحيوان إلا إلى كل ما فيه خيره وصلاحه . فالحيوان يعرف بغريزته ما يضره من الطعام وما ينفعه . والحيوان يعرف بغريزته مواضع الخطر فيتقيا ومواضع الرغد فيرتادها ، أما الإنسان فقد جهزه الخالق بالعقل الذى لا يهتدى إلى شئ إلا بالتجربة والاختبار ، وجعله حرا إن شاء فعل الشئ وأسرف في فعله ، وإن شاء امتنع عن عمله ولو كان في ذلك ما يضره ؛ فلم تعد غريزة الإنسان هي التي تسيّره ، وإنما عقله الذى صار يهديه ويوجهه ، وقد يحمله عقله على ركوب متن الشطط مما يلغى عمل الغريزة مهما بلغت قوتها ؛ فما من حيوان مثلاً يُقدم على الانتحار لأن غريزة البقاء تسيطر عليه وعلى جميع حركاته ، وبالرغم من أن الإنسان مجهز كالحيوان بهذه الغريزة ومع ذلك فقد يتغلب عقله عليها فإذا به يضع حداً لحياته . لاسيما إذن للقول بترك الإنسان إلى غرائزه أسوة بالحيوان ؛ فقد أصبحت هذه الغرائز محكومة بقوة العقل وسلطانه ، وكلما زاد رقى الإنسان كلما زاد سلطانه على غرائزه وأحسن توجيهها لما فيه مصلحته . وقد اكتشف العقل مند عصور مبكرة أنه لا يستطيع أن يدع الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث حراً طليقاً كما هو الشأن في عالم الحيوان ؛ لأن ذلك يجر إلى فقد الأمن والسلام في المجتمع البشرى . فما من ذكر إلا ويرغب في الاستحواذ على جميع الإناث والاتصال بهن ؛ فليس هناك حد لإشباع نهم الإنسان إذا ترك لشهواته العنان ، وليس لذلك من نتيجة إلا العراك المستمر والاصطدام بين الذكور من ناحية وبين الذكور والإناث من ناحية ثانية ، وبين

بعض الإناث وبعضهنّ من ناحية ثالثة ، بحيث لا يعود هناك مجال لأى عمل آخر في الحياة سوى المعارك المستمرة هجوماً على النساء أو دفاعاً عنهنّ ؛ وذلك هو الثمرة الطبيعية والمحقة للإباحية وتوخى الاتصالات الجنسية بين الرجل والمرأة . وقد كان هذا هو الحافز الأوّل للمجتمع الإنسانى إلى ابتداء نظام الزواج وتقديسه ؛ ففى اختار الذكر أنثاه وارتضته بعلاً لها فقد وجب على بقية المجتمع أن يحترم هذه الصلة فتصبح المرأة حرماً بالنسبة للرجال الآخرين ، وتحتم على الرجل أن يكف عن مطاردة الإناث الأخريات . وذلك هو الزواج فى مبناه ومعناه .

### ضرورة الزواج للنسل وتربية الأطفال

على أن ضرورة الزواج بمعنى اختصاص رجل معين بأنثى معينة ، ومساكنة كل منها للآخر وتعاونهما على الحياة ، تتجلى بصورة أقوى بالنسبة لإنجاب النسل وتنشئته وتربيته ، والتطوّر به خطوة فى معارج الرقى والكمال كما يقضى بذلك وجدان الإنسان . فالبشر على خلاف الحيوان يحتاجون إلى زمن طويل جداً ريثما يكمل نموهم فى أحشاء الأم ، ويحتاجون إلى فترة أطول ريثما يتم فصلهم عن لبن أمهم ، ويحتاجون بعد ذلك إلى بضعة سنوات أخرى قبل أن يشتد ساعدتهم ويقووا على استخدام سيقانهم وأذرعهم وألسنتهم وعقولهم . وفى عصور المدنية الحديثة يستغرق إعداد الطفل للمزاحمة فى الحياة الراقية بضع عشرة سنة كاملة فى ظل الرعاية والإرشاد والتعليم والتربية . أى أن الإنسان على خلاف الحيوان ، يحتاج إلى زمن طويل جداً قبل أن يستطيع المضى فى الحياة معتمداً على تجربته . فلو أن هذا العبء ، عبء تربية الطفل والسهر عليه ، ألقى على المرأة بمفردها لانصرف النساء حتماً عن القيام بهذه الوظيفة وظيفة الأمومة ؛ لأسباب اقتصادية وصحية واجتماعية . فليس هناك ما يعين المرأة على الاضطلاع بوظيفتها الشاقة إلا أن ترى نفسها فى كتف الرجل يحميها ويرعاها إبان عجزها ، ويغذيها ويكسوها ويرزقها لتتفرغ هى إلى القيام بواجبها فى رعاية الطفل وحضانه وتربيته .

فالقول بأن ترك الاتصال الجنسي حرّاً بعيداً عن الزواج من شأنه أن يحقق غاية الطبيعة فى الإكثار من النسل هو قول مردود ؛ لأن المرأة لا تقوم بوظيفتها فى الإنسال إلا متى اطمأنت إلى معونة الرجل واضطلاعه بمسئوليته المشتركة فى إنجاب هذا النسل ، ولو أن المرأة كانت كأنثى الحيوان لقلنا إنها ستقوم بوظيفتها قهراً عنها بحكم غرائزها

واستعدادها ، ولكن العقل كما قدّمنا قد جهز المرأة بالعلم الذى يمكنها من تعطيل وظيفتها ، فصار بقدرتها منذ أقدم العصور أن تتحاشى الحمل كلما أرادت بشتى الوسائل ؛ وقد ازدادت هذه الوسائل على مر الزمن فاعلية وإتقاناً . فلو تصورنا قيام عهد من الفوضى المطلقة الذى لايسأل فيه الرجل عن نتيجة اتصاله بالمرأة لعملت النساء جاهدات للتخلص من أجنتهن قبل استقرارها فى أحشائهن . وهذا هو مايجرى بالفعل فى المجتمعات التى شاعت فيها مبادئ الإباحية من الناحية العملية ، حيث لايتحرج الرجل من مغازلة أى أنثى ولايتحرج المرأة من مطارحته الهوى ، على أن ينصرف كل منها إلى سبيله غير مرتبط بالآخر أى ارتباط .

فى هذه المجتمعات عمدت النساء إلى الإسراف فى استخدام الوسائل المانعة للحمل ، فإذا قدّر لها الفشل فى المرحلة الأولى واستقر الجنين فى أحشائها عمدت إلى إجهاضه ؛ ووجدت فى العلم خير مساعد لها للوصول إلى هذه النتيجة ؛ فإذا فشلت كل محاولاتها لإزهاق حياة الجنين طرحت به فى العراء بمجرد وضعه وميلاده ليلتقطه أحد السابلة أو ليهلك جوعاً وبرداً . ولاجدال فى أن المرأة التى تفعل ذلك هى امرأة قاسية عاتية ، قد خرجت عن أنوثتها وفطرتها التى تجعل حبا لوليدها محور حياتها ومنتهى آمالها ؛ ولكن مجرد شعور المرأة بأنها ستنوء بعبء الطفل وتربيته ، بعد أن مضى الرجل الذى غرسه فيها لايولّى على شىء ، يخرجها عن طبيعتها ويصيرها إلى هذه المخلوقة التلسة التى تند وليدها .

### شاهد حى من المجتمع الفرنسى

ولدينا فى المجتمع الفرنسى بصفة عامة ، والباريسى بصفة خاصة ، مثل من أروع الأمثلة على ماقدّمنا ؛ فى هذه البلاد تفشت فكرة الانصراف عن الزواج واستبدال نظام المحادثة والمعاشرة به ، حيث يعاشر الرجل المرأة إلى أجل معلوم يتركها من بعده ، وحيث ترك الحبل على الغارب للشبان والآنسات ، والأزواج والزوجات ، يستمتع كل منها بالآخر استمتاعاً حراً طليقاً . كان من أثر ذلك أن تضاعف عدد البغايا المحترفات ، حتى أصبح البغاء وصناعة الهوى إحدى الحرف القومية الذائعة الصيت فى باريس ، التى أصبحت مقصد الرجال العابثين الذين يطلقون لشهواتهم العنان . وتناقص عدد الرجال والنساء الذين يقدمون على الزواج ، وتأثرت الأسرات القائمة بهذه الروح ، فتفككت روابطها وانحلت عراها وضعفت حوافز الإخلاص والوفاء بين الزوجين ؛ فكان من ذلك

نتيجة حتمية هي أن بدأ عدد المواليد يتناقص في فرنسا تناقصاً مطرداً<sup>(١)</sup> ، بحيث هوت نسبة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة من ٣٨٠ إلى ٢٢٠ في مدى قرن من الزمان . وبدأ الجنس الفرنسي يفقد بالتدريج تفوقه من حيث الكم والنوع . وليست الهزيمة الساحقة التي عانتها فرنسا في هذه الحرب العالمية الأخيرة إلا آية التدهور والانحلال الذي أصاب هذه الأمة المنكودة ؛ كما اعترف بذلك رئيس الدولة الفرنسية السابق المارشال «بيتان» عقب سقوط فرنسا على الفوز ، ونادى بأنه لا سبيل لإنهاض فرنسا من كبوتها وإقالة عثرتها إلا بإقامة صرح الأسرة من جديد ، وتقوية أواصرها وتقديس تقاليدها وأنظمتها ، واستبدلت بأقانيم فرنسا الثلاثة : الحرية والإخاء والمساواة أقانيم جديدة أولها وعلى رأسها الأسرة .

(١) نشر الكاتب الفرنسي الشهير اديمون ديمولان في كتابه الخالد «سر تقدم الإنجليز» الذي ترجمه إلى العربية المرحوم فتحي باشا زغلول إحصائية دقيقة تظهر مدى تناقص المواليد في فرنسا تناقصاً مطرداً . وإليك هذه الإحصائية التي تثبت عدد المواليد بالنسبة لكل عشرة آلاف نسمة :

	مواليد	سنين		مواليد	سنين	
		إلى	من		إلى	من
أي أن نسبة المواليد بين سنة ١٧٧٠ وسنة ١٨٩٦ سقطت	٢٦٤	١٨٦٨	١٨٦١	٣٨٠	١٧٨٠	١٧٧٠
من ٢٢٠ إلى ٣٨٠ في كل عشرة آلاف نسمة وهي أكثر من الثلث .	٢٤٥	١٨٨٠	١٨٦٩	٣٢٥	١٨١٠	١٨٠١
	٢٢٠	١٨٩٦	١٨٨١	٣١٦	١٨٢٠	١٨١١
	—	—	—	٣٠٩	١٨٣٠	١٨٢١
	—	—	—	٢٨٩	١٨٤٠	١٨٣١
	—	—	—	٢٧٤	١٨٥٠	١٨٤١
	—	—	—	٢٦٧	١٨٦٠	١٨٥١



فالأُسرة التى يؤلفها الزواج هى الأسلوب الوحيد لتشجيع المرأة على النسل ، وليست الإباحية والتحلل من القيود .

## الدولة بدل الأسرة

ولنتنقل الآن إلى مناقشة النظرية الثانية التى تريد أن تحل الدولة محل الأسرة ، والتى قال بها أفلاطون فى القديم وهى : أن حب الوطن يجب أن يحل محل حب الأسرة ؛ وذلك لا يتم إلا بأن تفصل المرأة عن الرجل بمجرد تمام التلقيح ، وأن تتكفل الدولة برعاية المرأة وحمايتها ريثما تضع طفلها ، ثم تنزع منها طفلها لتقوم بتربيته وإعداده إعداداً صالحاً ؛ لتجعل منه مواطناً قوياً نافعاً لا يعرف له أسرة سوى الوطن الذى يجب أن يحل محل الأسرة . وقد فات أفلاطون . وهو ذلك العبرى الفذ ، أن هذه الدولة التى ينصح بإحلالها محل الأسرة ، ليست إلا أسرة كبيرة تتألف من هذا العديد من الأسرات الصغيرة ، التى تضخمت وتفرعت وتشابكت ، فكانت عشيرة فقييلة فأمة فدولة ، وأن معنى الدولة ما كان ليوجد أصلاً لو لم يسبقه قيام الأسرة .

وليست الوطنية التى يدعو إليها أفلاطون ويريد أن يحطم الأسرة لتعزيز جانبها ؛ ليست هذه الوطنية إلا الامتداد الطبيعى لحب الإنسان الغريزى لأسرته وعشيرته ؛ فلو تصورنا انهيار هذا الحب فى نفس أى فرد من الأفراد ، لما استطعنا بعد ذلك أن نتصور كيف يكون للوطن معنى ، فضلاً عن أن يكون للدولة وجود .

إن المجتمعات فى الواقع ليست إلا جسمًا حيًا لأنها تتألف من أحياء ، ولذلك فإن لها كل خصائص الجسم الحى ، ولو تأملنا الجسم الحى لوجدناه يتألف من أنسجة ، وهذه الأنسجة تتألف بدورها من مجموع من الخلايا ، كل خلية منها هى كائن حى مستقل له كل مشخصات الكائن الحى . والأسرة - وليس الفرد - هى خلية المجتمع الأولى ونواته ، وتتوقف قوة المجتمع كما تتوقف صحة البدن على سلامة الخلايا وقوة نموها ؛ فحيث تقوى الأسرة يقوى المجتمع بالتالى ، وتنبت من قوته فكرة الدولة بمعنى التضامن الاجتماعى . فاقترح أفلاطون أن تحل الدولة محل الأسرة هو بمثابة إغفال المقدمة للوصول إلى النتيجة . مع أن هذه النتيجة لا يمكن أن توجد أصلاً إلا بعد إقرار المقدمة . ومن سوء الحظ ، ربما كان من - من الحظ - أنه لم يوجد فى أى عصر من العصور أقوام بلغ بهم الاضطراب والهوس إلى حد تطبيق هذه النظرية لئلا يرى كيف يمكن أن تقوم دولة حيث لأسر ، ولنرى كيف تستطيع هذه الدولة على فرض قيامها أن تعوض على الطفل الرضيع حنان أمه التى تغذيه بحنانها وحبا قبل أن تغذيه بلبنها ؛ ولنرى كيف يمكن أن يشب هذا

القطيع من الأطفال المحروم منذ طفولته من كل عطف بشري ورعاية أبوية ، وكيف يرقى ويتطور .

بل ليت هذه التجربة وضعت محل التنفيذ ، لنرى كيف يتحقق معها استمرار الرجال والنساء على الدأب والسعى والكد والاجتهاد ، بعد أن لم تعد لهم أسرة يهتمون بكفل قوتها وحمايتها ، والعمل على كل مامن شأنه إعلاء مكانتها .

لقد كان يظن خطأ أن الشيوعية في روسيا قد هدمت الأسرة من أساسها ، وأن الدولة هي التي تتولى تربية الأطفال ؛ ولكن سرعان ما تبين أن ذلك لم يكن كله إلا وهماً ودعاية ، وأن المجتمع الروسي الشيوعي كأي مجتمع آخر يحرص على الأسرة أشد الحرص ، بل لعل الأسرة الروسية هي من أقوى الأسر الأوروبية ترابطاً واتحاداً حتى في ظل الشيوعية ، ولولا ذلك لما نجحت روسيا هذا النجاح العجيب في هذه الحرب .

الحق أن الأسرة ونظامها وحب الزوجة والولد ، هو الذي يحفز الإنسان أكثر ما يحفزه إلى الكد والسعى والإكثار من التحصيل والطموح للنجاح والتفوق والنصر ؛ لكي يوفر الإنسان لشريكه حياته وأولاده أكبر ما يستطيع من الرغد والهناء ، لا إبان حياته فحسب بل وبعد وفاته أيضاً . وليس هناك ما يولد فضيلة الإيثار والتضحية والعمل من أجل الآخرين أكثر من أن يكون الرجل والمرأة أباً وأماً . وليس في الخليقة كلها ما هو أروع أو أجل من علاقة الأم بطفلها .

### نظرية التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة في الوظيفة

على أن العصور الحديثة وما صاحبها من انقلاب ميكانيكي واقتصادي أدى إلى تطور في حياة الأفراد ومعيشتهم ، بحيث صارت الحياة أكثر تكاليف من ناحية ، وصار العمل أقل مشقة من ناحية أخرى . كل ذلك قد هيا المجال لخلق اعتراضات جديدة على نظام الزواج والأسرة من وجهة نظر المرأة المتحررة ، ومن يدعون الغيرة على حرية النساء وكرامتهن ؛ فهم يقولون إن خضوع المرأة لنظام الزوجية وما يجزّه ذلك من التزامات تربطها بخدمة زوجها وبيتها والاشتغال بتربية أطفالها فيه عدوان على حرية المرأة وكرامتها ، وحرمان لها من المساهمة في جلائل الأعمال التي يقوم بها الرجل والتي من حق المرأة أن تقوم بها ، ويزعمون أن القول بأن مهمة المرأة الرئيسية في الحياة هي أن تكون زوجة وأماً ، وأن تكرس حياتها لخدمة زوجها وأولادها . يزعمون أن هذه الأقوال ليست إلا أنثراً من آثار العصور الغابرة التي أخضع الرجل المرأة فيها لحكمه وسلطانه جاعلاً منها شبه

رقيق . ويذهب هذا نفر إلى حدّ القول إن هذا الفارق الملحوظ بين جسمى المرأة والرجل وعقلى الرجل والمرأة ليس إلا نتيجة لهذه العبودية التى طال عليها الأمد . ولو أطلقت المرأة من عقالها وتحرّرت من سلطان الرجل ، ووقفت وإياه على قدم المساواة مزاحمة إياه فى شتى ميادين الحياة ومجالى نشاطها لزالّت هذه الفوارق من زمن قليل ، فيصبح بقدرة المرأة أن تقوم بكل مايقوم به الرجل من أعمال ، حتى ماكان منها يستدعى قوة جسدية بجته أو قوّة تفكير مطلق . فعلى المرأة الحديثة ، والحالة هذه أن تطلق نهائياً أفكار الزواج والأسرة ، وكل مايجعلها خاضعة للرجل أو تابعة له أو متخصصة فى خدمته ، وأن تحقّق كرامتها وشخصيتها ومجدها بمزاولة كل مايزاوله الرجل من عمل فى الطب والمحاماة والهندسة والفلك والزراعة والصناعة والتجارة والسياسة والقضاء والحكم بل والحرب أيضاً ، وأن تراحم الرجل فى كل مايدّعيه لنفسه من أعمال .

ذلك القول لايعدو أن يكون ضرراً من ضروب التخبط والاضطراب الفكرى والاجتماعى ، الذى يقع فيه البشر فى إبان الانقلابات الكبرى الواسعة النطاق . ولامشاحة فى أن اكتشاف قوّى البخار والكهرباء وماخلقه من آلات قد أحدث فى العالم انقلاباً لاعهد به للبشر من قبل فنبتت مثل هذه الآراء المتطرّفة التى تسخر من نواميس الطبيعة وتزدرىها ولاتعابها ، وتنكر البديهيّات المحسّنة وتجعل من المرأة رجلاً ولوكان ذلك ضدّ مصلحة البشر والعمران ، ولوكان ذلك مستحيلاً ما بقيت الأرض أرضاً والسماء سماء .

إن كل ما فى هذا الكون من مظاهر الحياة والكينونة إنما يقوم على عنصرى الذكورة والأنوثة ، أو بعبارة أعم على الإيجاب والسلب ومن هذا الازدواج تنبثق الحياة ، بل وينبثق كل ما فى الوجود من عوالم وكائنات . ففى عالم الحيوان مثل ما فى عالم النبات نرى هذا الاختلاف فى النوع ابتداء من الخلية الواحدة ، وهذه الميكروبات التى يقف الملايين منها على رأس الدبوس ، وانتهاء بأرقى الحيوانات وأكملها وأقواها ، بل إن العلم الحديث قد أثبت لنا أن الجهادات نفسها ليست إلا حشداً من الذرات المختلفة ، وأن كل ذرة من هذه الذرات تتألف من عديد من الكهارب السالبة والموجبة ، وأن نوع الجهاد يختلف بمقدار اختلاف النسب بين هذه الكهارب السالبة والموجبة ؛ فإذا تركنا دائرة المحسات إلى عالم المعنويات وجدنا أنه لا يوجد سوى معنى واحد لايقبل الازدواج والاختلاف فى الطبيعة ، وذلك المعنى هو الموصوف به خالق الوجود الأول القديم ؛ فذلك لايمكن إلا أن يكون واحداً لأنه الأصل الأول ، وأما ماخلا هذا الواحد الأحد فإن الذهن لا يستطيع أن يتصوّر أى معنى من المعانى إلا على

أساس الشيء وعكسه أو الإيجاب والسلب ، فلو اتحدت المعاني المتعارضة وصارت معنى واحداً لخرجت عن دائرة المفهوم ، ولو تحولت الكهرباء إلى نوع واحد من الإيجاب والسلب لفقدت فاعليتها . ولو صارت الذكور إناثاً كلها أو صارت الإناث ذكوراً كلهن لما كانت الحياة . ونحسب أن هذه بديهية لا تحتاج إلى كثير شرح أو إسهاب ؛ فهايرى عليه النساء من اختلاف عن الرجال في الطبع والفكر والجسم ليس ثمرة لاستعباد الرجل للمرأة كما يزعم الزاعمون ، وإنما هي الخلافات الطبيعية التي خصت بها الطبيعة كلاً من الرجل والمرأة ليقوم كل منها بوظيفته . وليس أدل على ذلك من أن هذه الخلافات لا تتقف عند الصور والأعضاء الظاهرة ، بل تشمل فيما تشمل التركيب الفسيولوجي الداخلي للمرأة ، حيث قد جهزتها الطبيعة بما يعدها لنمو الجنين في أحشائها وانفصاله عنها بعد المدة المعينة ، ثم تغذيته بواسطة هذا اللبن الذي تفرزه غدد معينة اختصت بها المرأة دون الرجل .

لم تكن هذه الأجهزة المادية التي زوّدت بها الطبيعة المرأة هي كل ما ميزتها به الطبيعة عن الرجل ، بل لقد أعدتها الإعداد النفسي الضروري للاضطلاع بوظيفتها ؛ فجعلتها قوية العاطفة مرهقة الغرائز ليحملها ذلك على التمسك بطفلها وحضانتها ورعايته ، ولولا ذلك لما احتملت امرأة واحدة كل هذه المعاناة والآلام في سبيل صيرورتها أمّاً ، ولما كانت طبيعة الأمومة والحرص على الجنين وهو لا يزال في الأحشاء ، ثم الحرص بعد ذلك عليه طفلاً يستوجب أن تنأى المرأة بنفسها عن مواطن النزاع والمهالك والمخاطر التي تعرّضها وجنيها للموت ، فقد ألقت الطبيعة هذه المهمة على عاتق الرجل فزوّدته بما يجعله قادراً على حمايتها والدفاع عنها أثناء سهرها على طفلها ، ولعدها أثناء عجزها بما يقيم أودها ويكفي لتغذيتها . وحسب الإنسان أن يلقى نظرة على زوج من الحمام أثناء اشتغالها بتفريخ نسلها ليرى كيف ترقد الأنثى على البيض لاتبرحه ، بينما يقف الذكر على رأس عشها يحميها ويرعاها ويصد عنها عادية المغيرين . وليس هذا إلا مثلاً لهذا التقسيم الطبيعي لمهمة كل من الذكر والأنثى في الحياة ؛ فالأنثى مهمتها الإيجاد والتكثير ، والذكر مهمته الحماية والرعاية ، ومن هنا فقد اختصته الطبيعة بقوة العضلات والقدرة على القتال بل والميل إليه ، وبذلك أصبح أكثر قدرة على العمل والإنتاج والسعى والنشاط وأصبر على مشاق الحياة ، كما كانت المرأة من ناحيتها أصبر منه على ما يتطلبه إيجاد الحياة . فتقسيم العمل بين الرجل والمرأة مسألة قد قرّرتها الطبيعة ولا سبيل للفكاك منها ، بل إن كل محاولة لإفساد هذا التاموس لا يمكن أن يعود إلا بالضرر على القائمين به ولا ينتج للمجتمع الفائدة المرجوة . فإذا كانت الظروف والأحوال تضطر المرأة في بعض الأحيان للاشتغال بحرفة من الحرف أو مهنة من المهن لاكتساب رزقها في بعض الأحوال ولعدم وجود الرجال في

أحوال أخرى كحالات الحرب (وهو مالا نمانع فيه بأية حال من الأحوال) فإن ذلك يجب أن ينتهى بمجرد زوال الضرورة الملجئة إليه ؛ كأن يتقدم للمرأة الزوج الصالح الذى يعولها ويتولى الإنفاق عليها ، أو كأن يعود الرجال من الحرب ليستأنفوا أعمالهم ؛ فيتعين فى هذه الأحوال على المرأة أن تعود لمزاولة وظيفتها الأساسية التى هى أشرف مافى الحياة من وظائف وأعلاها قدراً ، وأن تنصرف عن كل شاغل يمكن أن يشغلها عن رعاية بيتها وزوجها وأولادها ، وهو ما خلقت من أجله ، وما يتوقف عليه سعادة البشر وعهارة الكون . . . ر الحياة .

### هل فى الزواج والأمومة غض من شأن المرأة ؟

أما القول بأن اهتمام المرأة ببيتها ورعاية زوجها وأولادها فيه مايؤثر فى كرامتها ويحطّ من شأنها ويقلل من قدرها ؛ فهو قلب للحقائق المشاهدة للمموسة ومغالطة صريحة ، فليس هناك كالزواج والأمومة وحياة الأسرة من حقّ ويحقّق للمرأة سلطانها الأكمل فضلاً عن كرامتها وحرمتها . فالبنات إذا تزوجت شعرت على الفور بازدياد فى كرامتها ، فإذا رزقت أول أطفالها تضاعفت هذه الكرامة لجرد صيرورتها أمّاً .

ذلك أن الزوجة والأم شريكة لزوجها وولدها فى كرامتها ، فإذا كان زوجها أو ابنها زعيماً فقد صارت لها الزعامة ، وإذا أصبح زوجها أو ابنها أميراً فقد تقلدت الإمارة ، ولو تزوّجت ملكاً لكانت بتاج الملك ، ولو صار ابنها امبراطوراً لصارت امبراطورة . فالمرأة بزواجها وأمومتها قد ترتفع أحياناً إلى أعلى عليين ، بل إلى مالا يساميا فيه أعظم الرجال . ومن من العالمين لا يكرم مريم من أجل ابنها المسيح عليه السلام ، أو يكرم آمنة من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ . وقل مثل ذلك عن تلك الأمهات اللواتى أنجبن الرسل والأنبياء والعلماء والقادة المصلحين والزعماء ؛ فكلهن كريمات مقدّسات مجيدات بما خلفن من أبناء . وما من عظيم مهما سما قدره إلا وهو ابن امرأة ، وهو بحكم بنوته لها محبوب ومأمور بطاعتها وحبها ، وقد يكون ممن ترتجف الملوك من حضرتهم وتنفزع الناس من هيبتهم .

فهذا « نابلون » ذلك البطل الفذ بين الأبطال كان ينحنى على يد والدته ليقبلها ، وهو الذى كانت الملوك والقيصرة تنحنى فى حضرته ، وكانت أمه لاتخشاه ولاتهابه ، بل ظلت تنظر إليه فى أعجابه كما كانت تنظر إليه وهو طفل صغير لاغنى له عن عطفها وإرشادها وتأنيبها فى بعض الأحيان .

وهذا رجل مثل «ستالين» زعيم روسيا السوفيتية ، تروى الجرائد عنه فيما تروى أن أمه لا تزال على قيد الحياة ، وربما قبضت على أذن ابنها وعركتها غير عابئة بما صار إليه من حُلٍ وطول .

ومن منا نحن معاشر المسلمين لا يذكر بالإجلال والإعظام «خديجة» الصديقة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف صبرها زواجها بالرسول كريمة فوق الكرماء ، وقد أخذت طريقها إلى المجد والخلود لمشاركتها الرسول في حياته وجهاده ، وكيف ظل الرسول بعد موته أمينًا على ذكراها ممجّدًا لها ومشيدًا بحمدها ولاهجًا بالثناء عليها<sup>(١)</sup> .

فالزواج والأمومة والأسرة لم تكن في يوم من الأيام حجر عثرة بين المرأة وبين بلوغ أعلى مراتب المجد والكرامة والشهرة والخلود ، بل الذى لاشك فيه أن كثيرات من النساء ما كن ليصلن إلى ما وصلن إليه من درجة رفيعة إلا من طريق الزواج والأمومة . وليس بمنقص من قدر المرأة أن تكون كرامتها ومجدها وشهرتها مستمدة بالتبع من كرامة زوجها أو ابنها ومجدها ، إذ أن لها نصيبًا إيجابيًا من ذلك المجد ؛ فما من رجل متزوج يمكن أن يرقى إلا ولزوجته نصيب فعال فيما حققه ، وما من رجل يمكن أن يفوز أو ينجح إلا ولأمه النصيب الأكبر فيما أدركه ، فهو ليس إلا بضعة منها . والفرع لا يمكن أن يكون أكرم من الأصل ولا يمكن أن يحقق لنفسه شيئًا من الحياة فضلًا عن الرقي والتطور إلا عن سبيل ما يستمدّه من الأصل ، ولذلك فإن المطالع لسير العظماء دائمًا يلفت نظره بقوة اهتمام هؤلاء العظماء في إظهار فضل زوجاتهم عليهم ، حتى ليغالى بعضهم فيقول : إنه مدين بكل شيء لزوجته أو لما ورثته عن أمه إن لم يكن متزوجًا . ومن ناحية أخرى تنطق الشواهد كلها بأنه على قدر رقى المرأة وحظها من العلم والثقافة يكون مبلغ حرصها على نظام الزواج والأسرة ، وليس أدل على ذلك في عصرنا الحديث من نساء أوروبا الشمالية ، وعلى الأخص بلاد الإنجليز ، حيث صار للمرأة حق الانتخاب والجلوس في البرلمان وأصبحت المرأة تساهم في كل شأن من شؤون الحياة ، وبلغت من الرقي والثقافة ما لا تضارعها فيه أية نساء أخريات ؛ ومع ذلك فإن المرأة الإنجليزية بصفة عامة من أشدّ

(١) في الإصابة لابن حجر : «عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ؛ فذكرها يومًا من الأيام ، فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجزًا قد أبدلك الله خيرًا منها ! فغضب ثم قال : «لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها أمنت إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبنى الناس وواستنى بما لا إذ حرمنى الناس ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء» . قالت عائشة فقلت في نفسى : لا أذكرها بعدها بسنة أبداً» .

نساء أوروبا حرصًا على الزواج والأمومة ، بحيث يمكن اعتبار الأسرة الإنجليزية والبيت الإنجليزي هو سرّ قوّة إنجلترا ونجاحها الفائق في الهيمنة على شئون العالم وتأليف هذه الإمبراطورية التي لا تقرب عنها الشمس ، وهو السرّ في ازدياد عدد سكانها المتواصل بما مكّنها من الانتشار في الأرض كل هذا الانتشار العجيب الذي يجعل العنصر الإنجليزي هو العنصر الغالب في أمريكا الشمالية ، وهو العنصر السائد في قارة استراليا . بينما رأينا الحال في فرنسا على عكس ذلك ، فالمواليد في تناقص مستمر ، والأسرة مفككة منحلة العرى . وليس ذلك إلا لأن المرأة الفرنسية لم تحقق من النضوج والرقى ماحقته المرأة الإنجليزية . وهكذا نرى القاعدة تطرد في أنه كلما ارتقت المرأة ونضجت ازداد إحساسها بواجبها الطبيعي في أن تكون زوجة وأمًّا . وأمامنا مثل رائع في العصر الحديث على هذه الحقيقة وهو خاص بشخصية «مدام كورى» هذه الفتاة البولندية التي تزحت من بلادها إلى باريس في طلب العلم ، فلما خطبها المسيو «كورى» أجابت طلبه على الفور ، ثم بدأت بعد ذلك تشق طريقها إلى المجد العلمى والخلود بالبحث خلف عنصر الراديوم ، ومع ذلك فإن هذه المرأة الفذة العبقريّة لم تنس في يوم من الأيام أنها امرأة قبل كل شيء وأنها زوجة وأم ، فلم تستنكف أن تدع معادلاتها الرياضية وتجاربها العلمية جانبًا لتتدرّب على طهى صنف أو صنفين من الطعام ، ولم تعتمد هذه المرأة الغارقة في التجارب العلمية إلى ما تعتمد إليه النساء الفارغات اللاهيات من تفادى الحمل أو إجهاض الجنين بعد حملة ، وهى لو فعلت لوجدت في نبوغها وشذوذ عبقريتها ألف شفيح لها أمام المجتمع ، ولكنها كامرأة عظيمة أرادت أن تكون ناضجة الحواس والغرائز ، وأن تكون أمينة على وظيفتها الأولى كأُم ؛ فرزت من زوجها ببضعة أطفال ، ولما خاب حملها في أحد المرات حزنت لذلك أشدّ الحزن وتألّت غاية الألم ، كما ذكرت ذلك ابنتها «إيف كورى» في كتابها (التلميذة الخالدة<sup>(١)</sup>) . وكانت عنايتها بترية بناتها بالغة الحدّ ، حتى إن إحداهنّ قد نالت جائزة «نوبل» في المباحث العلمية ، وثانيتها أدبية وصحفية عالمية . وعندما قتل مسيو «كورى» في إحدى الحوادث بكته «مدام كورى» بالدمع الهتون ، وتصدع قلبها وعاشت بقية حياتها حزينة من أجله وقيةً لذكراه . وهكذا كانت هذه المرأة الخالدة زوجة كاملة وأمًّا كاملة . ولعل هذه الناحية من حياتها هى ما يرونها بالأكثر ونحن نطالع سيرة حياتها ، وكيف أن اشتغالها بالعلم الذى انتهى باكتشافها الخطير الذى قلب قواعد العلم رأسًا على عقب لم يقلل مقدار ذرة من طبيعة الأنوثة في نفسها ، ولم يحد بها قيد شعرة عن واجبها الأول كامرأة كاملة .

(١) ترجم الأستاذ أحمد الصاوى محمد هذا الكتاب إلى اللغة العربية وهو من أحسن ما يقرأ .

## الخلاصة

والخلاصة أنه من أية ناحية جئنا نظام الزواج وجدناه هو الأصلح بالنسبة للفرد ، رجلاً كان أو امرأة ، من حيث توفير أمنه وسلامته ، وتحقيق أكبر قسط من نجاحه في الحياة وتفوقه مادياً ومعنوياً . وهو الأصلح بالنسبة للجماعة من حيث دعم أركان الحضارة والعمران ، بتخصيص كل عضو من أعضاء المجتمع لما خلق من أجله .

ومن هنا كان الزواج هو أقدم نظام عرفه البشر وأحاطوه بالقداسة إلى اليوم ؛ بحيث تبدلت النظم من حوله ولم يتبدل ، وانقلبت الأحوال رأساً على عقب وظل الزواج حيث كان حجر الزاوية في بناء المجتمع واللبنة الأولى التي تتألف منها العشيرة فالقبيلة فالأمة فالدولة والتي يتوقف على مدى قوتها وسلامتها سلامة المجتمع كله .

وليس أدل على أن الزواج نظام فطري وغريزي في البشر من أنه سنة الزوج في غابات خط الاستواء كما هو سنة الاجتماع لدى الأنجلوسكسون والأمريكان ، وهو النظام المتبع بين عرب البادية ، وهو القانون المحترم لدى سكان الدائرة القطبية ؛ بل إن حالنا اليوم في موضوع الزواج كحال أجدادنا منذ أربعة آلاف سنة لا في مصر فقط بل وفي أشور وبابل والهند والصين وجزر المحيط . فكل خروج على هذا النظام هو بمثابة خروج عن سنة الطبيعة نفسها ، سواء أكان ذلك عن طريق الإباحة المطلقة أو الكبت والحرمان بحجة التدين ، أو كان ذلك لانصراف النساء عن الزواج واشتغالهن بالأعمال العامة ؛ فكل ذلك من شأنه أن يضر بنجاح المجتمع ، وأن يعرقل نموه ويخل بدعائمه ويقوض بنيانه .



## الفصل الثاني

### المرأة وحقوقها

على أننا وقد فرغنا من تقرير هذه القاعدة الأساسية التي تجعل الزواج فالأمومة هي الهدف الرئيسي للمرأة في الحياة ، وأن الزواج بالنسبة للرجل هو واجبه الأول وواجبه المقدس ؛ فإنه يتعين علينا أن ندحض من ناحية أخرى بعض الشبهات التي ولدتها هذه القاعدة العامة ، فأضرت بمكانة النساء وحقوقهن في البلاد الشرقية وجعلتهن متخلفات عن الرجال في كل نواحي الحياة ، بدعوى صيانة الأخلاق والفضيلة والتزول عند أحكام الدين ، بل بلغ الجهل بأقوام إلى حد إهدار آدميتها كما سنرى ؛ فليس يعني أن تكون المرأة زوجاً للمناس باعتبارها ومكانتها بالنسبة للرجل الذي تساويه مساواة مطلقة ، وليس يعني ذلك حرمانها من أى حق من الحقوق التي تتمتع بها الرجل ، سواء كانت هذه الحقوق دينية أو مدنية أو سياسية ، أو أن يحال بينها وبين أن تتعلم ماشاءت أن تتعلمه من العلم بمختلف فروعه ، وأن تسترشد منه حسباً تتسع قدرتها لذلك ، أو أن ينكر عليها منكر اشتغالها بأى عمل من الأعمال الشريفة التي يشغل بها الرجال متى اضطرتها الظروف الخاصة أو العامة لذلك ، أو كانت على جانب من النبوغ والقدرة غير العادية بحيث يتحتم على المجتمع الاستفادة من أهليتها واستعدادها .

وأخيراً ليس معنى اختصاص المرأة بوظيفة الزوجية والأمومة أن تتحول إلى سجين في عقر دارها وأن يحال بينها وبين نور الشمس ومباهج الحياة ؛ فلتسير في الطريق إلا من خلف ستار ؛ ولا يحق لها أن تساهم في كل ما يساهم فيه الرجال في مجالات النشاط المشروعة التي تعود على الفرد والمجموع بالنفع والخير العميم .

وتوضيح هذه المسائل وشرحها يستدعى منا أن نخوض في بحث مستفيض بالنسبة لحقوق المرأة من الناحية الاجتماعية والقانونية والدينية والطبيعية والمنطقية . ولنا من خطورة هذا الموضوع بالنسبة لحياتنا الاجتماعية والعمرائية خير شفيع لهذا الإسهاب .

## حق المرأة المطلق في مساواة الرجل من حيث المكانة والاعتبار

إن حق المرأة في المساواة المطلقة مع الرجل من حيث المكانة الأدبية لكل منهما في الحياة هي بديهية من البديهيات ، لم تكن محل نزاع في المجتمعات القديمة أبدًا بل والمجتمعات السابقة على التاريخ . ولعل الأنوثة كانت في الزمن القديم تحظى بالنصيب الأكبر من تقديس البشر وإكرامهم ؛ فلم تكن عقلية القدماء تتخيل شيئًا مقدسًا إلا على صورة الأنوثة ، وهم يرون الأم سبيل الحياة ؛ ولذلك كانت الأنوثة هي الغالبة في معبوداتهم . فالسماء عندهم لا يمكن إلا أن تكون امرأة والأرض امرأة ، والكون كله لا يمكن إلا أن يكون وليد أم وهكذا . ولا يزال أثر ذلك كله يتجلى في مختلف اللغات والاصطلاحات البيانية ؛ فكل مظاهر الطبيعة مؤنثة ، وإذا تحدثنا عن الأرض قلنا أمنا الأرض . ثم بدأ العقل البشرى يدرك أن الأنوثة وحدها لا يمكن أن تكون مصدر الحياة ، بل لابد من الذكورة إلى جوارها ؛ فبدأت العقائد تتمثل الآلهة على شكل أسرة من الزوج وزوجته كإيزيس وأوزوريس وابنها حوريس .

وغنى عن البيان أن هذه كلها آراء خاطئة ، ولكني إنما أثبتنا لدلائها على نظرة العقل البشرى للأنوثة وتكريمه إياها حتى رفعها إلى مرتبة الألوهية . وقد كان مركز المرأة في القديم مقررًا على أساس المساواة التامة للرجل ؛ كما يثبتنا بذلك تاريخ مصر القديم حيث كان للمرأة كل الحقوق التي للرجل بما في ذلك اعتلاء أريكة الملك فسجل لنا التاريخ أسماء خنت كاوس ( نيتوكريس ) وحشيسوت وقد كانتا من بين الأسماء الممتازة في حياة مصر القديمة . وقد كانت المرأة تشاطر زوجها دائمًا نصيبه في الحياة وبعد الممات ، وترى صورها على الآثار إلى جوار صور الرجل في شتى المناسبات الخاصة والعامة ، وقد بلغ هذا الاشتراك ذروته في عهد اخناتون ذلك الملك الثائر الداعي إلى دين التوحيد ؛ ففي عهد ذلك الملك نرى زوجته تجاوره وتصحبه في كل شئونه ، وتقوم بدور المساعد الأيمن في كفاحه من أجل الدين الجديد وهكذا .

وغير خاف أن المجتمع المصري كان في هذه الفترة في أرفع درجاته من حيث الرقي والحضارة والمجد ، وهذا الذي كان يجري في مصر القديمة كان يجري مثله في سائر المجتمعات الزاهرة في هذه العصور ، فلم يحدث أبدًا أن امتنت المرأة أو احتقرت أو غص من شأنها في إبان نهضات الإغريق والرومان والهند والصين ، بل والعرب في عهدهم القديم حيث يسجل أسماء ملكات شهيرات حكمن في شبه جزيرة العرب كبلقيس والبراء . وإنما عدت العوادي على المرأة دائمًا في عصور التدهور والانحلال ، حيث تنطفئ

مصاييح العمران ، ويسود الجهل محل العلم ، والظلم والتعسف مكان العدل والإنصاف ، والأوهام والخرافات على أنقاض التقاليد وتعاليم الدين الصالح . فن ذلك ماحدث في أوروبا إبان العصور الوسطى المسيحية حيث غشى الظلام عقول الناس ، وعشش الجهل والتعصب بين جذران الكنائس ؛ ففي ذلك الوقت عانت المرأة أسوأ ما عانت في أوروبا ، فقد بلغ الأمر إلى حد التشكك عما إذا كان لها روح كالرجل وعما إذا كانت تساويه في درجة الأدمية وعلى كل حال فقد اعتبرت المرأة في هذه الفترة من التاريخ أنها شرّ لابد منه وضرر لا مندوحة عنه وأنها أحيولة الشيطان والباب الذي ينفذ منه إلى فتنة الرجال ولذلك فليس لها مكان في ملكوت السماء وأن مهمتها يجب أن تكون قاصرة على خدمة البيت وأن تربط به ويحكم فهاها ككلب عقور . وبلغ الأمر بالكنيسة الأرثوذكسية إلى حدّ تحريم ممارسة الشعائر الدينية على المرأة إلا التافه منها الذي لا يكاد يذكر . وقد كان ذلك آية لما وصل إليه الانحطاط العقلي والتعصب والجهل في هذه العصور التي كانت تدعى الانتساب إلى المسيحية ، مع أن المسيحية في تصورهم نبعت من المرأة واعتمدت على المرأة في إثبات أكبر معجزاتها فالمسيح ليس إلا ابن امرأة وهي مريم العذراء . ولعله من التناقض العجيب أن يؤله المسيحيون عيسى ابن مريم وأن يكون إلههم ابناً لامرأة ، ومع ذلك ينظرون إلى المرأة هذه النظرة الحقيرة ؛ بل إن ألوهية المسيح كما يزعمها المسيحيون لا تثبت عندهم إلا بشهادة امرأتين ، فإن معجزة المسيح الكبرى في ظن المسيحيين التي رتبوا عليها الاعتقاد بألوهيته هي قيامته من الموت في اليوم الثالث ونفضه عن نفسه غبار الموت ، ثم صعوده إلى السماء بعد أن خاطب المرأتين الوحيدتين اللتين كانتا إلى جوار القبر ، وطلب منها إبلاغ نبأ قيامته إلى تلاميذه ومريديه ؛ فقامت المرأتان بإبلاغ الرسالة إلى تلاميذه الأحد عشر فصدقوا بها وآمنوا بفحواها إيماناً مطلقاً ، ونادوا بالمسيح إلهاً منذ ذلك اليوم . وهاتان المرأتان اللتان أحدثتا هذا الحدث في المسيحية هما مريم المجدلية ومريم أم يعقوب (على ما جاء في الأناجيل الأربعة) . وبقطع النظر عن قيمة هذه الرواية ودعوى المرأتين التي هي محل طعن مستمر من مخالفى المسيحية ، فإنه من التناقض البين أن يحقر المسيحيون المرأة إلى هذا الحد الذي أشرنا إليه ، مع أنهم يؤهون المسيح بشهادة امرأتين ، ويسلمون بأن طريقه إلى الحياة كان بواسطة امرأة (بغير تدخل الرجل) . وليس ذلك التناقض إلا آية الجهل بالمسيحية والأناجيل التي كان محظوراً عليهم أن يطالعوها . ولم تشرع المرأة المسيحية في نقض رأسها وكثفها من هذه اللعنة إلا بعد أن أشرقت أنوار الدعوة الحمديدية ، وانبثقت من شبه جزيرة العرب فغمرت العالمين بضوئها الساطع ؛ فتجلت المرأة على صورتها بشراً سوياً

كاملاً ممتازاً هي والرجل سواء . والحق أن روعة الإسلام لاتتجلى في شيء قدر تجليها في تحرير المرأة من ربة الذل والاحتقار ، ورد اعتبارها وإعلاء مكانتها وتخويلها كل الحقوق التي خولها للرجل ، والتي كانت قد أصبحت أثراً بعد عين تحت تأثير الجهل والظلم والتعصب . وما كان الإسلام ليفعل غير ذلك ، وهو الدين الذي أريد به إصلاح أحوال البشر وإسعادهم في مختلف العصور والأمكنة ، ولا صلاح ولا سعادة لبني الإنسان مالم تقف المرأة كما خلقها الله حرة كريمة على قدم المساواة مع الرجل ، الذي يجب أن يكون مكانه منها مكان الشريك لشريكه لا السيد مع رقيقه .

## الإسلام والمرأة

جاء الإسلام في بلاد العرب بعد فترة طويلة من نفشى الفوضى والهمجية بها ، وهي الفترة التي تعرف باسم الجاهلية ؛ فكان طبيعياً أن يكون نصيب المرأة هو نصيبها في كل مجتمع فسدت أحواله واختلت موازينه ؛ فكانت المرأة أحقر شأناً من الرقيق حتى بلغ الأمر بالآباء إلى حد التخلص من بناتهن في قسوة ووحشية لاعهد للبشر بها من قبل إذ كانوا يثدونهن وهن على قيد الحياة . وقد ظلت هذه العادات الوحشية سائدة إلى أن جاء القرآن فنذّر بها وأغلظ على مرتكبيها ، وتوعدهم بالويل والثبور والعذاب المقيم في الدنيا والآخرة : « وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت <sup>(١)</sup> » . وقد جعل الإسلام القتل جزاء لمن يرتكب هذه الجريمة .

وإذا كان الأمر قد بلغ بهؤلاء العرب إلى جد وأد البنات ، فتستطيع أن تتصور حظ النساء من الحياة العامة والحقوق المختلفة ، والتي يمكن أن تجمل في كلمة واحدة وهي أنه : لاحق للمرأة في شيء ؛ فهي من سقط المتاع . وليست من المتاع النفيس ، فكانت تباع وتشترى وتؤجر وتورث ، وكان الرجل مهما علا قدره يسخر جواريه في احترام البغاء ، وقد يبعث بزوجه إلى رجل آخر قائلاً لها : « استبضعي <sup>(٢)</sup> من فلان » وكان الرجلان يتبادلان مالديهما من نساء . وكان الولد يرث امرأة أبيه فيما يرث وله أن يتصرف فيها كما شاء . وكان العشرة من الرجال يدخلون إلى المرأة الواحدة في ليلة واحدة ؛ فإذا أنجبت منهم ولداً ألحقته القافة <sup>(٣)</sup> بأى الرجال العشرة . وهكذا إلى آخر هذه الضروب من

(١) آية ٧ . ٨ سورة التكاوير .

(٢) هو استبصال من البضع ، وهو الجاع .

(٣) القافة : جمع القائف ، وهو الذى يعرف بالنسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود .

الفوضى والاضطراب التي تتلخص كلها في شيء واحد : هو حقارة المرأة وضآلة شأنها عند العرب بصفة عامة ، ماخلا الطبقات الراقية منهم كقريش مثلاً حيث لم يكن أمرها إلى هذا الحد من السوء . على أن حرمان النساء من الميراث كان مسألة عامة مقررة ؛ فلم يكن من حق امرأة أن ترث عن أبيها فضلاً عن زوجها شيئاً من الأشياء ، وإنما كان الميراث كله من نصيب الذكور حتى ولو كانوا بعيدى الصلة عن المتوفى .

هذا هو الوضع الذي قلبه القرآن رأساً على عقب ؛ فأحدث في تاريخ المرأة أعظم انقلاب شهدته في حياتها ، لا قبل الإسلام فحسب بل وبعد الإسلام بعشرة قرون وبعد الثورة الفرنسية والبلشفية .

كان أول ماقرره القرآن وأكدّه أن هذه الجموع من بنى الإنسان إنما تدين في وجودها إلى الذكر والأنثى مجتمعين ، فلا فضل لذكر على أنثى أو أنثى على ذكر إلا بالعمل الصالح وقيام كل بواجبه « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ <sup>(١)</sup> » .

« يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا <sup>(٢)</sup> » .

حتى إذا فرغ القرآن من تقرير هذه المقدمة فقد رتب عليها النتيجة المنطقية ، بأن جعل المرأة مسئولة أمام الله عن جميع أعمالها مسئولية الرجل على السواء فوعدها الحسنی إذا أحسنت كما وعد الرجل ، وأنذرهما بالعقاب إذا هي أساءت ، وقاس أعمالها بنفس المقاييس التي يقيس بها أعمال الرجل ، وفرض عليها كل ما فرضه على الرجل من عبادات وواجبات وفرائض وأركان ؛ غير مفرق بين الرجل والمرأة في أى جزئية من هذه الأجزاء ، بل لقد خلط بين الرجل والمرأة فوجه الخطاب إليهما في كل عباراته ، حتى صار من الأحكام المقررة في الشريعة الإسلامية أن كل ما كلف به الرجل فالمرأة مكلفة به ، إلا إذا استثناها القرآن أو السنة بصريح اللفظ أو دل على ذلك شواهد الحال . وحسب الإنسان أن يطالع هذه النصوص لكي يتبدد في نفسه كل ظل للشك في نظرة القرآن للمرأة والرجل .

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

(٢) أول سورة النساء .

« فاستجاب لهم ربهم أنى لأضيق عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقُتلوا لأَكْفُرَنَّ عنهم سيئاتهم ولأَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ <sup>(١)</sup> . » ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأُولَئِكَ يُدْخِلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا <sup>(٢)</sup> . »

« إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا <sup>(٣)</sup> . »

فهذه نصوص شاملة جامعة لكل ما يمكن أن يوصف به الرجل من فضائل وآداب ، وكل ما يزاوله من أعمال وسعى وجهاد قد وجه القرآن فيها الحديث للمرأة مثل توجيهه للرجل . وليس وراء ذلك مطمح لأرق النساء في العصر الحاضر اللواتي يحاذين الرجال بالمناكب وينادين بالمساواة المطلقة مع الرجال من حيث الكرامة والمكانة والتمتع بالحقوق العامة .

ولا عجب أن يكون ذلك هو موقف القرآن بالنسبة للمرأة ، فقد كانت امرأة هي أول من آمن بالرسول على الإطلاق ، بل لعلها آمنت به قبل أن يستوثق من تكليفه برسالته ، ونعني بهذه المرأة « خديجة » رضى الله عنها . وكانت هي التي هدت روعه وثبتت جنانته وضاعفت ثقته بنفسه وبربه عندما حدثها بهواجسه وكان في شك من أمره <sup>(٤)</sup> .

وكانت امرأة هي التي دفعت بعمر بن الخطاب إلى الإيمان ، وأعني بها أخته عندما دهمها وهي ترتل آيات القرآن فكان ذلك سبب إسلامه . وكان النساء بصفة عامة أول الملييات لدعوة رسول الله ، ومن أشد أنصاره غيرة وحماسة حتى كان منهن من هاجر إلى

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران .

(٢) آية ١٢٤ سورة النساء .

(٣) آية ٣ سورة الأحزاب .

(٤) قالت عائشة : « ... فرجع بها (ما نزل عليه من الآيات) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ... » راجع الحديث في الصحاح . باب بدء الوحى .

الحبشة نجاة بنفسه وبدينه من فتنة المشركين ، وقد ارتد بعض الرجال عن الإسلام بعد ذهابهم إلى الحبشة فثبتت نساؤهم على الإسلام . وهكذا سبقن بالفضل مع أول من سبق ؛ بل لقد رجح رسول الله جانب إحداهن وهي « أسماء بنت عميس » على عمر عندما احتكمت إليه في أيهما أحق برسول الله من الآخر ، وكان ذلك بعد مناقشة دارت بين أسماء وعمر في هذا الموضوع <sup>(١)</sup> .

ولم يكن هناك موطن من مواطن الأذى والاضطهاد لم تأخذ النساء المسلمات بنصيبها الأوفر فيه ، حتى كان لإيمانهم وثباتهم وورعهم أعظم الأثر في نفوس الرجال من المشركين فدخلوا في دين الله أفواجًا وكان دخولهم تبعًا لدخول نسايمهم . فليس غريبًا والحالة هذه أن يوجه القرآن خطابه للمرأة مثل خطابه للرجل ، وأن يفرض عليها كل ما فرضه للرجل ، وأن يعلى من شأنها وكرامتها ويحزل عطاءها كما فعل مع الرجل .

### مساواة المرأة بالرجل في الحقوق المدنية

على أن الإسلام لم يقف عند حد تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في الأمور الدينية أو من الناحية الأدبية البحتة . بل لقد ساوى بين الاثنين في جميع الحقوق المدنية ؛ فجعل للمرأة كل ما للرجل من أهلية كاملة في تملك الحقوق المالية والتصرف فيها بكافة أنواع التصرفات ، سواء كانت بالبيع أو الشراء أو الهبة والإيصاء أو الإعارة والتأجير أو الوكالة والإئابة ، وغير ذلك من عقود الالتزامات والمعاوضات والتبرعات ، وما يتبع ذلك من حق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى أمام القضاء وغيره من الوسائل

---

(١) روى مسلم عن أبي موسى قال : « ... فدخلت أسماء بنت عميس . وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة . وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، قال عمر : الحبشية هذه - فقالت أسماء نعم ! فقال عمر : سبقناكم بالمهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم ، فغضبت وقالت : كذبت (أى أخطأت) يا عمر ، كلا والله . كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعط جاهلكم وكافى أرض البعداء البغضاء في الحبشة وذلك في الله وفي رسوله ، وأيم الله لأطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ونحن كنا تؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله . والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبي الله إن عمرا قال كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

المشروعة . فتي رشدت البنت وأدركت سن البلوغ صار لها كل مال الولد البالغ من الحق المطلق في التصرف بأموالها ومباشرة الدعاوى بشخصها ، ولم يميز للأب أو الأخ أو الزوج أن يعترض مشيئتها إلا على سبيل النصيح والإرشاد ، ولم يميز لأحد أن يباشر إدارة أموالها فضلاً عن التصرف فيها بغير إذنها ورضائها ؛ وليست هي في حاجة إلى إذن أحد لتصحيح تصرفاتها ، وهو أمر لا تتمتع به المرأة الفرنسية حتى في عصرنا الحديث حيث تفقد أهلية التصرف في أموالها بالزواج فلا تعود قادرة على التصرف فيها إلا بموافقة زوجها وإجازته لتصرفاتها . وحسب الإنسان هذا الفارق الخطير ليدرك عظم هذا الانقلاب الذي جاء به الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً في حياة المرأة .

وكان طبيعياً وقد قضى الإسلام للمرأة بكافة الحقوق المدنية التي قضى بها للرجل أن يجعلها شريكة في الميراث كالرجل على خلاف ما كان عليه الإجماع في شبه جزيرة العرب من حرمان النساء من كل ميراث « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً »<sup>(١)</sup> .

ولقد كان لتقرير حق النساء في الميراث قصة تروى فتمس أوتار القلوب وتظهر مدى مافي الإسلام وقلب الرسول من رقة وسماحة وبرٍّ بالنساء وعطف عليهن وتدعيم لحقوقهن ؛ فقد روى جابر بن عبد الله قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابتنيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال ؛ قال : « يقضى الله في ذلك » فتزلت آية الميراث ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال : « اعطى ابنتي سعد الثلثين واعطى أمهما الثلث وما بقى فهو لك »<sup>(٢)</sup> .

أى أن رسول الله لم يبق للعم إلا أقل من سدس الميراث ورد الباقي لأبنتي سعد بن الربيع وأمهما ، وقد كان ذلك انقلاباً خطيراً ، لم تكن أقرب المقربات إلى الرسول تحلم به فضلاً عن أن تطمح إليه ، ومع ذلك فقد قضى به القرآن في وقت ما كان أحوج الرسول فيه إلى تأييد الرجال وسواعدهم في القتال . وليس وراء ذلك برهان على أن الرسول لا ينطق عن الهوى وإنما هو وحى يوحى .

وقد حاول البعض في العصور المتأخرة أن يتخذ من موضوع الميراث حجة للغض من

(١) آية ٧ سورة النساء .

(٢) رواه الترمذى .



شأن المرأة وانتقاص أهليتها واعتبارها على النصف من قدر الرجل ، باعتبار أن نصيبها في الميراث هو نصف نصيبه عملاً بنص الآية « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين<sup>(١)</sup> » . وليس وراء ذلك تحبط في التأويل . فالحقيقة أن الشريعة الإسلامية على خلاف كثير من التشريعات الأخرى (التي تفرض على المرأة أن تسوق المهر لزوجها) قد فرضت على الرجل أن يكون هو الذى يسوق المهر لزوجته مهما كانت زوجته من أغني الأغنياء . ولا يصح زواج ولا ينقذ بغير مهر يدفعه الرجل للمرأة كل على قدر سعته ومكته . وفرض على الرجل بعد ذلك أن ينفق على زوجته وأن لا يكلفها إنفاق شيء من مالها ؛ فكان من العدل والحالة هذه أن يزيد في نصيب الولد والرجل على العموم بالنسبة لنصيب المرأة حيث أنه مكلف بأداء هذه الالتزامات المالية قبل المرأة ؛ فكان مانقص من ميراث البنت هو في مقابل ما سوف يرد لها على سبيل المهر والنفقة . فالأمر لا يعدو والحالة هذه تنظيمًا ماليًا قد نظر فيه إلى الأعباء والتكاليف المالية المفروضة على كل شخص ، وليس أدل على ذلك من هذا المثال الذى سقناه في بنات سعد بن الربيع ، فقد تقاضت البنتان من الميراث مع أمهما أزيد من خمسة أسداس التركة بينما لم ينل الرجل وهو العم إلا أقل من السدس . ولو مات رجل . عن بنت وأبوين لأخذت البنت نصف ماترك أبوها واستحققت بذلك نصيبًا أكبر من أبيه وهو الرجل ؛ فلو أن الأقدار تقاس بالنصيب في الميراث لوجب أن نقول إن البنت في هذه الحالة أفضل من الأب ، مع أن فضل الأب مقدم على كل فضل وحقه على ولده فوق كل اعتبار ، حتى لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة : « أنت ومالك لأبيك<sup>(٢)</sup> » ومع ذلك فلم يفرض القرآن للأب في الميراث إلا السدس عند وجود الولد « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد<sup>(٣)</sup> » .

ويلاحظ أن الآية من ناحية أخرى تسوى بين الأبوين فتفرض لكل منهما السدس على سبيل المساواة ، سواء في ذلك الأب أو الأم ، ولم يقض القرآن للوالد بالسدس عند وجود الولد إلا لأن حاجته إلى المال وقد كبر سنه وكملت تربيته لا تقاس بحاجة الولد الصغير الذى لا يزال في حاجة إلى تربية وإلى مواجهة أعباء الحياة . ومثل ذلك يقال عن البنت التى ستتقدم من يافع لها مهرًا وينفق عليها ، فإنها لا تكون في حاجة إلى المال مثل

(١) آية ١١ سورة النساء .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٤٥ .

(٣) آية ١١ سورة النساء .

حاجة أخيها الذي سيسوق المهر وينفق على زوجته المقبلة . وعلى هذا الضوء يجب أن ينظر إلى آية المواريث وأن يفهم سرّ ما فيها من تقسيات مختلفة ، لا أن تتخذ مقياساً للكرامة والمكانة والاعتبار<sup>(١)</sup> .

### حق المرأة المطلق في التصرف بشخصها

على أن حق المرأة في المساواة مع الرجل لم يبلغ ذروته إلا عندما أباح لها الإسلام حق التصرف المطلق في شخصها ، ولم يجعل لأحد عليها من سلطان إلا سلطان إرادتها ورغبتها الحرة الخالية من كل ضغط أو إكراه . فتي رشدت البنت بإدراك سن البلوغ وهو ما تبلغه الفتيات في الشرق في سن مبكرة جداً لم يعد من الجائز لأحد أن يتصرف في حريتها الشخصية بزواجها حين لا تريد الزواج ، أو بالحيلولة بينها وبين الزواج حين تريده ، أو بإكراهها على زواج من لا تحب أو تختار ؛ فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تنكح الأيتام حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن » . وفي رواية أخرى : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر وأذنها سكوتها » . والرضا عن طريق السكوت هو ما يسمى في القانون بالرضا الضمني ، وسببه أن الحياء قد يحول بين البنت الصغيرة وبين أن تبدي موافقتها صراحة فيكون سكوتها متضمناً لمعنى الموافقة ، أما إذا كان المستفاد من سكوت البنت هو عدم رضاها ، كما لو صرحت بما يدل على عدم رضاها ففي هذه الحالة يفقد الزواج ركناً من أهم أركانه ويصبح العقد فاسداً ، ومن حق الفتاة أن تسعى لفسخ هذا العقد حتى بعد تمامه . وقد دل على ذلك مارواه أبو داود وأحمد<sup>(٢)</sup> عن « أن جارية بكراً جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباه زوجها وهي كارهة فخيرها النبي صلى الله عليه وسلم » ، أي إن شاءت أبقت على الزواج وإن شاءت فسخته . وروى أحمد والنسائي بإسنادهما أن فتاة جاءت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : « إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع في خسيسته ، فجعل الأمر إليها فقالت : قد أجزت ماصنع أبي ولكنني أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء<sup>(٣)</sup> » . تعني أنه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه .

(١) يحسن بنا أن نشير في هذا الموضوع إلى ما يجري عليه العمل في إنجلترا حيث ينص الابن الأكبر دون بقية إخوته غنمة الميراث . ولم يكن في ذلك أدنى مساس بكرامة الآخرين أو اعتبارهم .

(٢) ج ١ ص ٣٧٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد - (٦) ص ١٣٦

وليس وراء هذا النص إظهار لمدى الحرية التامة المطلقة التي منحها الإسلام للمرأة ؛ فهذه فتاة قد أنكرت على أبيها أن يزوجه بغير رضاها مع أنها ليست كارهة لمن تزوجت ، فلما خيّرهما رسول الله بين أن تبقى على الزواج أو تفسخه ، ورأت في ذلك ما يحقق كرامتها ويؤكد حريتها في اختيار زوجها ، رأت أن تحتفظ بالزوج الذي اختاره لها أبوها بعد أن فازت بتقرير المبدأ . ولم تفز المرأة الحديثة في أرقى المجتمعات حضارة بهذا الحق إلا في عصور متأخرة جداً من الناحية النظرية ، بينما كانت تتمتع به المرأة المسلمة نظراً وعملاً منذ ألف وثلثمائة سنة على ماتنبئ هذه الأحاديث المتواترة .

وإذا كان الإسلام قد جعل فسخ الزواج بالطلاق من حق الرجل وحده فقد نظر الإسلام في ذلك إلى صالح الأسرة وضمان بقائها ؛ فالرجل دائماً أبداً أحرص على بقاء الزوجية من المرأة لما أنفق من مال وتكبد من عناء حتى ظفر بزوجته . وهو على العموم أملك لنفسه من المرأة عند الغضب التي تعصف بها العواطف ، حتى تنسى في لحظة واحدة عشر سنوات من الهناء والمودة الحب ، وما ذلك إلا لفرط حساسيتها وسرعة استجابتها للعاطفة . ومن أجل هذا السبب وحده قرر الإسلام أن يكون الطلاق حق الرجل ، ولكنه لم يحرم على المرأة استعمال هذا الحق ، بل أباح لها إذا شاءت أن تشتطره عند تحرير العقد ، فيكون لها من الحق في تطليق نفسها مثل ما لزوجها ، وهو ما يعبرون عنه في الاصطلاح بـ «العصمة» ؛ فيقولون «عصمتها بيدها» . وحتى لو لم تشتطر هذا الشرط لنفسها ، فإن بمكنتها دائماً أن تلجأ إلى القضاء إذا رغبت في الطلاق وجد من الأسباب الطارئة ما يبيح الطلاق ؛ لعب خفي أو لمرض خطير أو عجز عن الانفاق أو غيبة مستمرة أو هجر طويل أو شقاق مستحكم ، وفي هذه الحالة الأخيرة يجب أن يسبق الطلاق محاولة الإصلاح والتوفيق بين الزوجين .

فإذا انقضت الشركة الزوجية سواء بالطلاق أو بوفاة الزوج فقد عاد للمرأة كامل الحرية المطلقة في التصرف بشخصها وحريتها بالمعروف ، فليس لزوج سابق أو أب أو ابن أن يحول بينها وبين أن تتزوج من جديد ، أو أن تعود لزوجها القديم ، أو أن تأخذ بحظها من الحياة العاملة النشيطة الشريفة ؛ واقراءوا إن شئتم : « فإذا بلغن أجلهن فلاجتاح عليكن فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف<sup>(١)</sup> » . « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لاعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه<sup>(٢)</sup> » . « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن

(١) آية ٢٣٤ سورة البقرة .

(٢) آية ٢٣١ سورة البقرة .

أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر<sup>(١)</sup> . « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيّة لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهنّ من معروف<sup>(٢)</sup> » . وهذا سبل متدفق من الآيات الكريمة يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولاهدف لها أو غاية إلا الضغط على إبراز حق المرأة في حرية التصرف بشخصها ، وأن ليس لمخلوق عليها من سلطان أو يد عليها إلا الزوج أثناء قيام الحياة الزوجية وذلك لمصلحة الأسرة وبقيود وشروط سنينها ونشرها فيما بعد .

## مشاركة النساء للرجال في سائر مناحي النشاط الإنساني وضروبه

وقد كان من الطبيعي ، وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في جميع هذه الحقوق الدينية والمدنية والشخصية ، أن نرى المرأة المسلمة تشارك الرجل في كل شأن من شئون الحياة ، وعلى أوسع نطاق يمكن أن يطوف بالذهن أو يشاهد في عصرنا الحديث في البلاد الراقية وتطمع فيه الفتاة المتعلمة خريجة الجامعات والمعاهد العالية ؛ فقد كان النساء يشهدن صلاة الجماعة مع الرجال في المسجد ، ولم يكن المسجد في عصور الإسلام الأولى كما هو الحال اليوم خاوياً خرباً إلا من راغبي الصلاة ، وإنما كان المسجد هو دار الحكم والندوة ، وهو الجامعة وهو المدرسة وهو ملتقى الوفود والحشود ، وهو دار القضاء وميدان الاحتفالات . وقد أباح الرسول للنساء التخلّف إلى المسجد في أى وقت شاءوا في الصباح المبكر أو الليل المتأخر أو في وضوح النهار ، بل أباح لهنّ أيام الاحتفالات الدينية الجامعة أن يحضرن إلى المسجد للاشتراك في الاحتفال دون الصلاة (إذا كان هناك عذر مانع للمرأة عن الصلاة) . بل لقد ذهب الرسول إلى أبعد من ذلك كله فندبهنّ ندباً إلى الخروج من بيوتهنّ في يوم العيد وللإحتفال به مع بقية المسلمين<sup>(٣)</sup>

(١) آية ٢٣٢ سورة البقرة .

(٢) آية ٢٤٠ سورة البقرة .

(٣) جاء في كتاب المغني والشرح الكبير تحت عنوان (خروج النساء إلى المصلّى في العيد للصلاة مع الجماعة) : ولا بأس بخروج النساء يوم العيد إلى المصلّى . وقال ابن حامد : يستحب ذلك . وقد روى عن أبي بكر وعلى رضي الله عنهما أنها قالتا : حق على كل ذات نطق أن تخرج إلى العيدين . وكان ابن عمر يخرج من استطاع من أهله في العيدين . وروى أم عطية قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجن في الفطر والأضحي : العواتق وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ، قلت : يا رسول الله إحدانا لا يكون لها

وقد حاول بعض الصحابة ممن لاتزال التقاليد الجاهلية تتحكم فيهم أن يحول بين زوجته وبين الذهاب إلى المسجد وخاصة بالليل لصلاة العشاء ، فأمر الرسول الرجال أمراً أن يكفوا عن اعتراض نساين ؛ وهو ما رواه البخارى من حديث ابن عمر « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » وقد جلس ابن عمر يحدث يوماً بهذا الحديث فقال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيدنوا للنساء بالليل إلى المساجد » ، وكان لابن عمر ولد يسمى واقد قد جلس فيمن جلس يستمع إلى الحديث فاعترض على أبيه قائلاً : إذن يتخذنه دغلاً<sup>(١)</sup> . فضرب ابن عمر في صدر ابنه وقال : « أقول قال رسول الله وتقول لا . » وحدثت السيدة عائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يصلى الصبح بغلس<sup>(٢)</sup> فينصرف نساء المسلمين لايعرفن من الغلس . وكثيراً ماكان رسول الله يسرع في أداء الصلاة إذا سمع بكاء الطفل في طلب أمه .

ولم تكن الصلاة هي كل مايشترك فيه النساء مع الرجال في مكان واحد ، وإنما كن يشتركن الرجال في الحج وهو مايستلزم السفر والانتقال لبضعة أسابيع إن لم يكن أشهر ، حيث لم يكن سبيل للمواصلات غير الجممل . وكان الحج ولايزال أعظم مجال لاختلاط الرجال بالنساء ، حيث يتكأ كأ ألوف وعشرات الألوف من الرجال والنساء في صعيد واحد ، بحيث يختلط الحابل بالنابل على أوسع نطاق يمكن أن يتصور .

وكانت النساء تصحب الجيوش إلى ميادين القتال ، وتقوم بكل ماتقوم به النساء في الجيوش الحديثة من الأعمال المكملة والمساعدة ، فلم تقتصر مهمتهن على إسعاف الجرحى ومداواة المرضى ، وإنما كن يسقين العطاشى ويجهزن الطعام ويدفن الموتى وينقلن الجرحى إلى ماوراء خطوط القتال وهن في أثناء ذلك كله يحرضن على القتال . قالت الربيع بنت معوذ (رضى الله عنها) : « كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونزد القتلى والجرحى إلى المدينة<sup>(٣)</sup> » . وقالت أم عطية : « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على

- جلباب ؟ قال « لتلبسها أختها من جلبابها » متفق عليه . وهذا اللفظ رواية مسلم . ولفظ رواية البخارى قالت : كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد حتى تخرج البكر من خدرها وحتى يخرج الحيض فيكن خلف الناس فيكن بتكبيرهم ويدعون بدعائهم يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته .

(١) الدغل (بالتحريك) : الشجر الملتف الذى يكن أهل الفساد فيه .

(٢) الغلس (بالتحريك) : ظلمة آخر الليل .

(٣) رواه البخارى .

المرضى<sup>(١)</sup> . وقال أنس رضي الله عنه : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمртان أرى خدماً<sup>(٢)</sup> سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها في أفواه القوم ثم ترجعات فتملأنا ثم تجميان فتفرغانها في أفواه القوم<sup>(٣)</sup> . وقد كان رسول الله يعطى النساء من الغنيمة مقابل كدهن ونشاطهن في ميدان القتال على ما قرّر ابن عباس في رده على أحد الخوارج الذي سأله في هذا الموضوع : تسألني هل كان رسول الله يغزو بالنساء . وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذين<sup>(٤)</sup> من الغنيمة<sup>(٥)</sup> .

### حق المرأة في التعلم والتعليم

على أن الموطن الأكبر الذي صالت المرأة فيه وجالت ، ونافست فيه الرجل وتفوقت عليه في بعض الأحيان ولم يصددها عنه صاد أو يحول بينها وبينه حائل هو موطن العلم . ذلك الموطن الذي فرضه الإسلام على المرأة كما فرضه على الرجل ؛ فما كان للمرأة المسلمة أن تخدم دينها إلا إذا تعلمت ونضج تعليمها . فليس الإسلام شعوزة أو دجلاً أو أوهاماً يحتكرها أشخاص معينون يصفون أنفسهم بأنهم سدة الدين وحفظته . فليس في الإسلام كهنوت أو كنيسة ؛ وإنما الإسلام علم مشاع ، بل وعلم مفروض على كل من دان به . ولذلك فقد اجتمعت الآراء على أن الحديث القائل : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » يشمل في مدلوله كل مسلمة ؛ لأن الدين لم يفرق في أى حكم من أحكامه بين الرجل والأنثى كما قرّرنا من قبل ، ولذلك فقد تهافت النساء كتهافت الرجال على طلب العلم والتثقيف بثقافة الإسلام والاعتراف من مناهله العذاب في شخص رسول الله والخلفاء وكبار الصحابة والعلماء من بعده . وقد كان على نساء النبي بنص القرآن أن يتلقين العلم عن رسول الله ليعلمنه للناس من بعده « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة<sup>(٦)</sup> » .

(١) رواه مسلم .

(٢) خدم (بالتحريك جمع خدمة) : موضع الخلخال ..

(٣) رواه الشيخان .

(٤) أى يعطين الخدوة . والخدوة (بضم الخاء وكسرهما) : العطية .

(٥) الحديث بطوله رواه الخمسة .

(٦) آية ٣٤ سورة الأحزاب .

وقد قامت نساء النبي بعد وفاة رسول الله بما عهد به إليهن ؛ فنقل عنهن المسلمون الأحاديث ومختلف الآراء والأحكام واستفتوهن في أمور الدين والدنيا . على أن السيدة عائشة كانت صاحبة القدح<sup>(١)</sup> المعلى والنصيب الأوفر والأكمل في هذا الباب ، فقد بلغت في العلم أعلى مكانة بما لامطمع بعده لمستزيد ، حتى كان مشيخة الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان يسألونها في بعض مايعرض لهم من المشاكل ، وكانوا يسألونها بصفة خاصة في علم الفرائض وهو من أدق علوم الفقه وأعصاها على أذكي الأذكياء إلى وقتنا الحاضر . وقد حدثنا بذلك ابن سعد في طبقاته عمن كان يفتي في المدينة بعد وفاة الرسول فقال : « وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان رضى الله عنها إلى أن ماتت يرحمها الله ، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلون إليها فيسألونها عن السنن » . وذكر ابن سعد عن مسروق قال : « والذي نفسى بيده لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض » .

ولا يتوهم أحد أن علم السيدة عائشة كان محدودًا بمحدود الفقه والدين ؛ فقد كانت من أعلم الناس كذلك بسائر فروع العلم والمعرفة السائدة في ذلك العصر وهى الشعر والأدب والطب ، فقد حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : « مارأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة<sup>(٢)</sup> » .

ولم تكن السيدة عائشة هى الوحيدة الفذة في ذلك المضمار ، فأمهات المؤمنين كنَّ يحذين حذوها على اختلاف في قدرة كل منهن ، وقد ظلت المدينة موطناً لطالبات العلم المتفوقات فيه واللواتي اضطلعن بالفتيا إلى جوار الرجال واشتهرن بها في بعض الأحيان . فهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى يرسل إلى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد على ماجاء في طبقات ابن سعد فيقول له : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله » . وليس وراء هذه المكانة في العلم مطمع لرجل من الرجال الأفذاذ أن يأمر خليفة المسلمين بتسجيل مايقول ومايعلمه خوفاً على العلم وضياعه ودروسه .

وقد سجل التاريخ فيما سجل اسم السيدة سكينه بنت الحسين بن على التى كانت سيدة نساء عصرها أدباً وعلماً وكمالاً واشتاراً بالنقد الأدبى . والسيدة نفيسة التى قيل عنها

(١) القدح (بالكسر) : السهم . والمعلى (بفتح اللام) : القدح السابع في الميسر ، وهو أفضلها .

(٢) كتاب نداء الجنس اللطيف للمرحوم الشيخ رشيد رضا .

إن الإمام الشافعي قد سمع منها الحديث ، وكانت هي التي صلت عليه لما مات وهناك غير ذلك عشرات الأسماء من النساء الأعلام اللواتي حاضرن في المساجد في الفقه والتاريخ والأدب وضربن بسهم وافر في عالم التصوف والطرق ، كرابعة العدوية ، والشيخة شهدة الملقبة بفخر النساء التي كانت تحاضر في القرن الخامس الهجري بجامع بغداد ، وفضل الشاعرة ، وزينب أم المؤيد وغيرهن ، ومن العيب أن يحاول الإنسان أن يحصى شهيرات النساء في مضمار العلم ؛ لأن التاريخ إذ ذكر واحدة فقد أغفل العشرات لأسباب مختلفة .

وفي كلمة فإن النساء نافست الرجال في مضمار العلم ، فليس من حرج في أي عصر وزمان ومكان أن تحذق المرأة من العلوم كل ماتسعه قدرتها ، فالعلم كله خير وبركة ، والمتعلم أفضل من الجاهل ، بل إن المتعلم حتى أمّا الجاهل فخارج عن حظيرة الإنسان المتمدن .

فإذا سعت امرأة في عصرنا الحديث لحذق الفقه والقانون والتشريع فلا حرج في ذلك ، وقد كان هذا لب ما اشتغل به النساء في صدر الإسلام ... وإذا سعت امرأة في عصرنا الحديث لحذق فن الطب وعلومه فهي لاتقوم بعمل مرغوب فيه فحسب ، بل تؤدي عن المسلمين فرضاً من فروض الكفاية ؛ إذ يجب على فريق من المسلمين والمسلمات حذق هذا الفن وإلا أثم المسلمون جميعاً لعدم استغناء المجتمع عن هذا العلم سواء في ذلك الرجال والنساء . وقد رأينا كيف أن التمريض والتطبيب كان ولا يزال من أخص خصائص النساء في زمني الحرب والسلم ، وإذا كان علم الطب لم يعد ككل العلوم الأخرى ، هذا العلم الساذج البدائي ، فإن واجب الراغبة في حذق هذا العلم أن تتلقاه في معاهده وعلى يد أساتذته ، وأن تنال من التدريب والمران كل مايؤهلها لإحسان القيام به .

### حق المرأة في احتراف أي حرفة شريفة عند الضرورة

ولما كان الإسلام قد قضى للمرأة بالحق الأول في استغلال ثروتها واستثمار أموالها والتصرف فيها ، فقد حق لها أن تزاوّل أي حرفة من الحرف الشريفة ، وأن تتعلم كل مائزها نافعاً لإحسان قيامها على أموالها واكتساب رزقها بشرف حين فقدها العائل . فهذه السيدة خديجة رضي الله عنها كانت تاجرة من أشهر تجار قريش بعد وفاة زوجها الأول ؛ وكانت التجارة هي سبب اتصالها بالرسول هذا الاتصال الذي انتهى بالزواج الموفق السعيد ، ولا مراء في أن السيدة خديجة كانت تعلم كل ما يعلمه التجار في عصرها من أصول التجارة وأسواقها وفنونها ، وإلا لما نفقت تجارتها وربحت ، فلو أن امرأة في العصر



الحديث التمس علوم التجارة وما يتصل بها لما كان في ذلك عليها حرج أي حرج ، كما لو اشتغلت بالتجارة بالفعل أو الأعمال المتصلة بها . وكذلك لو اشتغلت أي امرأة بالزراعة أو الصناعة ؛ فقد كان النساء على عهد الرسول يقمن بمثل هذه الأعمال وغيرها حسب قدرتهن دون أن ينكر عليهن الرسول حقهن في ذلك أو يزهدن فيه . فهذا جابر الصحابي يحدثنا أن خالته طلقت ثلاثاً فخرجت تجمد<sup>(١)</sup> نخلها فلقبها رجل فناها عن ذلك ؛ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : « اخرجي فجدى نخلك لعلك أن تصدقي منه أو تفعل خيراً<sup>(٢)</sup> » ، ولم يكن بقدرة الرسول أن يقول لها غير ذلك ، وهو الذى قضى لها بالأهلية الكاملة والحرية المطلقة والمساواة التامة مع الرجل في الحقوق والمعاملات . وليس من عار على المرأة أن تكسب من عرق جبينها ، أو أن تكون أداة فعالة منتجة ، بل قد يكون ذلك آية شرفها وفخارها ، كما لو توفى زوج مخلقاً وزوجته في أولاده الصغار ولم يكن هناك من يعولها أو يعولهم فقامت وجدّت واجتهدت فاشتغلت بعمل من الأعمال لثرية صغارها . وكما لو كانت فقيرة ورغبت في الاحتفاظ بعفافها وعصمتها فاشتغلت لتعول نفسها أو لتعول أبوين مريضين أو كسحين أو مقعدين أو لتعين زوجها الذى أقعده المرض عن اكتساب رزقه . ففي كل هذه الأحوال وغيرها يكون من محامد الفتاة أو المرأة أن تكسب ما يسد حاجتها وحاجة أقربائها ، ولما كانت المرأة لن تستطيع في عصرنا الحديث أن تضطلع بأى عمل شريف إلا إذا كانت على جانب من العلم فقد صار قول الرسول بأن « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واجب اليوم مائة مرة وأكثر مما كان بالأمس ؛ لمنفعة الدين والدنيا معاً .

### حق النساء في المساواة مع الرجال في الحقوق العامة

بقى أن يعرف من لم يكن يعرف أن الإسلام لم يغلق في وجه المرأة أى باب من أبواب النشاط الاجتماعى والأدبى والسياسى ، وأنه قد سار في شوط المساواة حتى نهايته ؛ ففتح منذ ألف وثلثمائة سنة المرأة المسلمة إلى الأبد الحقوق التى لاتزال محل نزاع حتى في أرقى الأمم الحديثة ، وأعنى بها الحقوق السياسية ، وحق تقلد الوظائف العامة ، وإبداء الرأى في المسائل العامة ، وكل ما يعرض من أمور تمس الصالح العام أو الصالح الخاص بالنساء بما في ذلك الدعوة للإصلاح ومحاربة الفساد والمنكرات ، وكل ما يعود بالضرر والوخيم على جماعة المسلمين . وقد فتح القرآن هذا الباب للنساء على مصراعيه بقوله : « والمؤمنون

(١) الجداد (بالفتح والكسر) : حرام النخل ، وهو قطع ثمرتها .

(٢) رواه أبو داود ومسلم والنسائي .

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إِنَّ الله عزيزٌ (١) حكيمٌ . فإذا علمنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقف عن حد ، ولا يحيط به نطاق معين ، بل يشمل كل مافيه صلاح للفرد والمجموع بما في ذلك نقد للقوانين والتشريعات الموضوعة والأنظمة والأحكام وتصرفات القادة والزعماء والضرب على أيدي العابثين والمفسدين وتشجيع العاملين والمجتهدين . إذا استحضرنا ذلك في أذهاننا استطعنا أن نقرر أن هذا النص قد حوّل للنساء حق الاشتراك في كل ماصغر وكبر من شئون الجماعة . مادام المقصود من هذا الاشتراك هو النفع العام للفرد والجماعة في شئون الدين والدنيا . فلا عجب إذا رأينا المسلمات الأول يباشرن هذه الحقوق فلا يهبن في الحق كبيراً أو صغيراً ، ويسطن أراءهن في صراحة وقوة ، ويتصدبن للمسائل العامة يشتركن في حلّها وإبداء الرأي فيها فن ذلك أن عمر بن الخطاب عندما دعا في خلافته إلى عدم المغالاة في المهور ، وأنكر على الرجال إسرافهم في إهمار النساء وحظر عليهم أن يزيدوا المهر عن ٤٠٠ درهم اعترضته امرأة وعارضته بقولها : وماذا تقول في قول القرآن « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » (٢) فلم يسع عمر إلا أن يصدع بحجة المرأة من أن القرآن قد تحدث عن المهر بأوسع الصور ، فاعترف بخطئه وقال قوله المشهورة : امرأة أصابت وأخطأ عمر . ثم بادر باعتلاء المنبر وأعلن رجوعه فيما أصدره من قرار خاص بالمهور .

وكان إقامة المنبر في المسجد من اقتراح امرأة مسلمة فقد روى عن جابر أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع فقال له امرأة : يا رسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً قال : « إن شئت » فعملت المنبر (٣) .

ولعل أروع مثال حفظه لنا التاريخ عن مدى اشتراك المرأة في صدر الإسلام في الشئون العامة هو ماسجله خاصاً بأُم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ؛ فقد تزعمت تزعمًا مباشرًا الحركة المضادة لخلافة سيدنا عليّ ، ونادت بوجوب خلع بيعته والخروج عليه ومحاربه ، وأخذت نفسها بطلب الثأر من قتلة عثمان مها عَزَّ جانبهم وكثر عددهم ، ورأت رضي الله عنها أن في ترك المطالبة بدم عثمان إهداراً لأحكام القرآن ، وتقويضاً لدعائم الإسلام ، ونشرًا للفتنة وتحريضاً للغوغاء والرعاع على الفساد وإرهاب الخلفاء . وقد اضطلعت السيدة عائشة بهذه المهمة الخطيرة فقامت خطيبة في حجر إسماعيل من

(١) آية ٧١ سورة التوبة .

(٢) آية ٢٠ سورة النساء .

(٣) رواه الثلاثة .

الكعبة ، على ماروى الطبرى بإسناده وأجمعت كتب التاريخ على تأييده . وكانت  
 جمهورية الصوت ، فخطبت في الناس ودعتهم إلى خلع بيعة سيدنا على والالتفاف حولها  
 للأخذ بثأر عثمان ؛ فسارع إلى تلبية نداءها بنو أمية الذين وترهم مقتل عثمان ، وأيدها  
 قطبان من أقطاب الصحابة وهما طلحة والزبير ، وكانا ممن عهد إليهم عمر عند مقتله  
 بانتخاب الخليفة من بينهم . وليس وراء ذلك إعلاء من شأن مكانة السيدة عائشة وتحقيق  
 لزعامتها . وبدأت السيدة عائشة ترسل مبعوثيها بالمكاتيب والرسائل إلى أنحاء الدولة  
 الإسلامية ، وإلى وجوه الصحابة والمسلمين تدعوهم إلى شد أزرها فيما نهضت من أجله .  
 وكانت السيدة حفصة توازرها في مسعاها في بادئ الأمر ، وسارت معها بالفعل من مكة  
 قاصدة العراق ؛ ولكن ابن عمر حال بينها وبين المضي في طريقها فانحاز بها إلى المدينة .  
 وأما السيدة عائشة فقد سارت في الشوط حتى نهايته ، إلى أن كانت موقعة الجمل  
 الشهيرة التي تزعمتها ، وكان القتال يجري حول جملها وبارشادها وتوجيهها . وقد <sup>(١)</sup> كان  
 هذا المسلك من السيدة عائشة مثار بعض الاعتراضات من أقوام هالهم أن يروا زوجة  
 النبي المفضلة ترج بنفسها في هذا المعترك الحزنى ؛ فلما سألها هذا البعض عن سبب  
 خروجها معترضين منكرين أجابتهم في شجاعة وقوة وفصاحة : « خرجت في المسلمين  
 أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراعا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا  
 الأمر ، وقرأت « لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين  
 الناس » <sup>(٢)</sup> ثم قالت : فنحن نهض في الإصلاح بمن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى معروف نأمرهم به  
 ونخضعكم عليه ومنكر نهاكم عنه ونحشكم على تغييره <sup>(٣)</sup> . ولنا الآن بصدد الحكم  
 على رأى السيدة عائشة في سيدنا على وهل نوافق على مسلكها ضده أو نخالفها فيه ،  
 وإنما نحن في مقام التسجيل وتقرير المبادئ . فهذه السيدة عائشة التي شهد لها كبار  
 الصحابة بالعلم ورجاحة العقل ، وجلسوا منها مجلس التلميذ . هذه السيدة عائشة ، وهى  
 أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهم إلى قلبه وأكثرهم إدراكاً لراميه  
 ومقاصده ، قد تزعمت حركة سياسية من أخطر الحركات في تاريخ المسلمين ؛ فلم يكن  
 يبرم أمر إلا بعد رأيها أو يبدأ قتال إلا بعد إذنها ، وكانت المراسيم والمراسلات تصدر إلى  
 كل مكان حاملة اسمها ، وكانت هى دون غيرها من تعين الإمام الذى يصلى بالناس ؛

(١) راجع هذه الحوادث بالتفصيل في الطبرى ج ٣ ص ٤٦٨ طبعة مصطفى محمد .

(٢) آية ١١٤ سورة النساء .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٤٧٩ .

فقد حدث الطبرى قال : « فخرجت عائشة ومعها طلحة والزبير وأمّرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فكان يصلى بهم فى الطريق وبالبصرة حتى قتل ؛ فأمرت عائشة عبد الله بن الزبير على الصلاة فى البصرة » .

ويحلو للكثيرين من المتعصبين ضد المرأة فى الوقت الحاضر أن ينتقدوا موقف السيدة عائشة فى خفة ورعونة ، وفات هؤلاء أنهم ينتقدون زوجة النبى المفضلة فى الدنيا والآخرة ، والتى كان الوحي ينزل على الرسول وهو فى فراشها ، والتى قال عنها رسول الله : « خذوا نصف دينكم من هذه الحمراء » .

ولم تكن السيدة عائشة هى المرأة الأولى والأخيرة فى الإسلام التى اضطلعت بأخطر الأدوار فى حياة المسلمين ، بل اشتهر من نساء المسلمين زوجات ملوك شاركن أزواجهن فى تحمل أعباء الملك فى حياتهم ، وانفردن به بعد موتهم على سبيل الوصاية على أولادهم الصغار ؛ فنجحن نجاحاً سجله التاريخ وشهد به . وحسبنا أن نشير إلى اسم السيدة زبيدة التى لاتزال آثار إصلاحها وتعميرها فى الحجاز حتى اليوم ، حيث تجرى المياه باسمها وعلى ذكرها ، ولم يكن ذلك إلا بعض أعمالها فى مختلف أنحاء الدولة . وكذلك السيدة بوران زوجة المأمون التى اضطلعت بأعباء الملك بعد موته لصغر سنّ ولى العهد ، فأحسنّت وأجادت وأنشأت المدارس والمستشفيات وحبست عليها الأموال ، وكانت تقابل الوفود والشعراء محفوفة بوزراء المملكة ووجهائها ؛ وغيرهنّ وغيرهنّ كثيرات . غير أننا لانستطيع أن ندع هذا الوطن دون أن نذكر أعظم شهيرات الإسلام على الإطلاق فى العصور المتوسطة ، وأعنى بها شجرة الدر زوجة الملك الصالح ، تلك التى يقترن اسمها بموقف حاسم من مواقف التاريخ المصرى بل والتاريخ البشرى عامة ، حيث كان لحسن تدبيرها إنقاذ مصر من الوقوع فى يد الصليبيين وأصابتهم بالضربة القاضية التى أسرفها ملك فرنسا لويس التاسع والتى لم يقم بعدها للصليبيين قائمة . وقد تقلدت الملك بشخصها بعد مقتل ابنها توران شاه ولقيت بملكة المسلمين ، ويقول عنها بن إياس فى تاريخه ماخلاصته : « فكانت شجرة الدر تاسع من تولّى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب : وساست الرعيّة فى أيامها أحسن سياسة ، وكانت تكتب على المراسيم بخطها والدة خليل ، وكان يخطب باسمها على منابر مصر » . ويحاول البعض دائماً الغض من شأن شجرة الدر بدعوى أن الخليفة العباسى فى ذلك الزمان قد كتب يعيب على المصريين تولية شئونهم لامرأة ، ولكن هؤلاء يغيب عن بالهم أن هذا الخليفة العباسى لم يستطع بكل رجولته أن ينقذ الدولة الإسلامية التى كانت فى طريقها إلى الضياع نهائياً تحت أقدام الصليبيين من الغرب والتار من الشرق ، وأن شجرة الدر المرأة هى التى استطاعت بحكمتها أن تهين السبيل

للجيش المصرى ليضرب الصليبيين عند المنصورة ضربة قاضية .

وهكذا اضطلعت المرأة المسلمة بكل ما أهلتها قدرتها ورجاحة عقلها ؛ فقد قدّمتنا من الأمثلة الثابتة ما يدل على أن المرأة كانت تقوم بوظيفة الإفتاء وهى من أخطر الوظائف التشريعية . وقد أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز ولاية المرأة للقضاء . وكانت أم الخليفة المقتدر بالفعل بمثابة رئيسة لمحكمة الاستئناف العليا ؛ فكانت تقدّم إليها الشكاوى وتحكم في القضايا<sup>(١)</sup> ، وليس بعد القضاء منصب أرقى أو أرفع في الدولة كلها . حتى الإمامة في الصلاة وهى أعلى مراتب العبادات ، قد جاء من الأحاديث الصحيحة الثابتة ما يبيحها للمرأة بحيث تؤم الرجال والنساء ، فقد حدّث عبد الرحمن بن خلاد رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزور أم ورقة في بيتها فاستأذنته في مؤذن فجعل لها مؤذناً وأمرها أن تؤم أهل دارها ؛ قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخاً كبيراً<sup>(٢)</sup> . ويرى صحة إمامة المرأة للرجال كثير من الأئمة من بينهم المنزى والطبرى وغيرهما .

### المرأة وحق الانتخاب

وغنى عن البيان أننا وقد كشفنا الغطاء عن هذه الحقوق المقررة للمرأة في الشريعة الإسلامية ، فقد وجب أن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام لم يحرم المرأة من أى حق خوّله للرجل ؛ فإذا كان العصر الحديث قد حمل في طياته ما يسمى الحقوق السياسية فلا ينبغي بحال أن تقصر هذه الحقوق على الرجل دون المرأة ، وإلا كان في ذلك إخلال بأحكام الإسلام وروحه التي لم تفرق في الحقوق بين الرجل والمرأة في أى ناحية من نواحي الحياة . وقد وجب أن نذكر أن حق الانتخاب في عصرنا الحديث ليس آخر هذه الحقوق أو ما ينبغي أن يكون آخر ما يفكر في إعطائه لها .

فإذا أعطى الرجل حق الانتخاب فقد وجب أن تعطى المرأة هذا الحق على الفور وليس في ذلك ما يدعو إلى كل هذا الضجيج والاستنكار الذى يثار حول هذا الموضوع : فحق الانتخاب كما هو محدّد في الدساتير هو حق دافع الضرائب في الإشراف على إنفاق ما يجبي منه ، وحقه في توكيل من يتولى عنه في تشريع القوانين التى تسن له ، وكلا الحقين هما من حقوق المرأة باعتبارها من دافعي الضرائب كالرجل ؛ سواء أكانت هذه الضرائب دينية كالزكاة أو وضعية كسائر الضرائب . والمرأة باعتبارها نصف المجتمع من حقها أن

(١) مركز المرأة في الإسلام لأمير السيد على .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وابن خزيمة وصححه .

تقول رأيها في كل شأن قد يكون فيه ضرر بالمجتمع بصفة عامة أو مساس بالنساء بصفة خاصة ؛ كما لو تعلق التشريع بالأسرة والأمومة والزواج والآداب العامة . وقد رأينا فيما تقدم كيف دافعت امرأة عن حقوق النساء المكتسبة ضد تشريع سيدنا عمر المقترح ، وهو ما يمكن أن يحدث في كل زمان ومكان .

فإذا هال أحد الناس هذا الأمر وظنه طفرة أو انقلاباً فنحن نأسف له أشد الأسف ، ولكن تعاليم الإسلام ونصوص القرآن وسنة الرسول واضحة كل الوضوح في تخويل المرأة كل ما للرجل من حقوق أدبية كانت أو مدنية أو مالية ، والحقوق السياسية ليست في صيغتها إلا السبيل لحماية هذه الحقوق . ولم يستنكف رسول الله أن يبايع النساء كما يبايع الرجال بعد فتح مكة .

وهاك نص البيعة كما وردت في سورة الممتحنة : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وهذه البيعة جلس الرسول بعد فتحه مكة يبايع النساء كما يبايع الرجال ، وما كان أغناها عن مبايعة النساء بعد أن دانت له رقاب الرجال وأخضعهن بقوة السيف والسلطان ، ودانت لعقيدته وسلطانه جزيرة العرب . ولكن الرسول الذي جاء للبشر هادياً ومصلحاً ومرشداً ، والذي لم تكن المسألة عنده مسألة غلبة أو اقتدار وإنما مسألة عقيدة وتشريع لصالح البشر ، أتى إلا أن يتلقى بيعة النساء بعد الفتح أسوة ببيعة الرجال ، ومن طريف ما يروى في موضوع مبايعة النساء حديث هند زوج أبي سفيان في هذه البيعة ومحاورتها ومساجلتها للرسول التي حفظها التاريخ مما يشهد لهذه المرأة بقوة الشخصية والاقتدار . وما رواه الإمام أحمد ويشعر أن البيعة كانت عامة في النساء عمومها في الرجال أن فاطمة بنت عتبة جاءت لتبايع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأخذ عليها « أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يزنین » فوضعت يدها على رأسها حياء ؛ فأعجبه ما رأى منها فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله ما بایعنا إلا على هذا ، قالت : نعم إذن ، فبايعها بالآية .

فإذا كان هذا هو فعل الرسول وهذه نصوص القرآن فمن التعسف والجهل بنصوص الدين حرمان المرأة من حق الانتخاب متى تهيأت لمباشرة ذلك الحق بالعلم والمعرفة . ويطيب لي أن أختم هذا الباب بالترحم على الشيخ رشيد رضا ذلك التلميذ النابه للشيخ

محمد عبده إمام النهضة الإسلامية في هذه البلاد ؛ فلذلك الشيخ الجليل فضل إرشادي إلى حق المرأة بنص القرآن في الاشتراك في المسائل العامة حيث قال في كتابه الوحي المحمدي : « كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمخافل الأدبية ، ولا في غيرها من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر<sup>(١)</sup> » فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين وتدخل فيها ولاية النصر في الحرب ولكن الشرع أسقط عنهم فريضة القتال . وقال تعليقاً على هذه الآية في كتابه نداء إلى الجنس اللطيف : « فأثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين ، فدخل فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي وولاية النصر الحربية والسياسية » .

### الخلاصة

إنه لا يوجد نقل أو عقل يجعل من المرأة مخلوقاً أدنى شأنًا أو أقل مكانة من الرجل ؛ فالحياة تتألف منها مجتمعين ، ويجب أن يمضيا في الحياة شريكين متعاونين على قدم المساواة في الحقوق العامة سياسية كانت أو اجتماعية أو مالية ، وألا يحال بين المرأة وبين التماس أى فرع شئت من فروع المعرفة ، أو مزاولة أى وظيفة من الوظائف أو مهنة من المهن التى يؤهلها لها استعدادها وقدرتها وتضطرها إليها ظروفها الخاصة أو ظروف المجتمع العامة ، كما لو قامت حرب عامة أو غير ذلك من الظروف والأحوال . وذلك كان على شريطة ألا يؤثر ذلك فى اعتبار وظيفة المرأة الأساسية وهى أن تكون زوجة وأمًّا وربة أسرة ؛ فهذه هى الوظيفة الطبيعية التى لاغنى للحياة عن قيام المرأة بها . وليس هناك أشرف للمرأة من أن تضطلع بالوظيفة التى انفردت بها من دون الرجال ، والتى لا تستقيم الحياة فضلاً عن أن تقوم مدنية أو حضارة بغيرها . ولذلك فيجب أن يتجه همُّ المجتمع أول مايتجه نحو تهيئة السبيل لبناء الأسرة ودفع الرجال والنساء إلى الزواج فالإنسال ؛ وأن يكون ذلك هو المهم الشاغل للأفراد رجالاً أو نساء ، فيعتبرون الزواج هو مستقرهم الطبيعي ، فيقدم الرجل عليه متى تهيأ استعداد له ، وتؤثره المرأة على أى عمل أو وظيفة تشغل بها مهما علا قدر هذه الوظيفة وسما ، ويجب أن تتخلى المرأة عن كل وظيفة وعمل إذا تعارضت مع واجباتها الزوجية والأمومية ، ومتى كان فى قدرة الزوج الذى اختارته أن يكفل حياتها وحياة أطفالها عن سعة واقتدار .

(١) آية ٧١ سورة التوبة .

## الفصل الثالث

### بحث في السفور والحجاب

ولن يكون البحث الذي سقناه فيما تقدم خاصا بمكانة المرأة كاملاً إلا إذا أتممناه ببحث موضوع الحجاب والسفور ، الذي طال فيه الجدل والنقاش من الناحية النظرية ، وإن كانت الناحية العملية قد أصدرت حكمها فيه وفقاً لما تقتضيه به طبائع الأشياء وما يتفق وسنة التطور والنشوء والارتقاء .

لقد أتى على المسلمين حين من الدهر - والمصريون من جملتهم - جعلهم يلخصون أحكام الدين الإسلامي وقيمون بناءه على أساس المغالاة في حجب المرأة والإسراف في إبعادها عن كل مجال يظهر فيه الرجال ، حتى جعلوها سجينات البيت وقعيدته ؛ وسلبوا كل حق في التفكير أو التعليم فضلاً عن المساهمة في أى عمل نافع والاشتراك في أى مجال أدبي . وذلك كله بحجة الحجاب الذي جعلوه ركناً من أركان الإسلام ، بل وأخطر أركان الإسلام طراً وأولاهها بالمحافظة والمراعاة ، حتى لتجد الرجل لا يرى حرجاً في الكف عن الصلاة والصوم متواتراً عن أداء فريضة الحج سائراً بفريضة الزكاة ، ولكنه يغالى في حجب المرأة وحبسها في البيت والتسلط عليها ، ويرى ذلك آية تدينه وورعه وتقواه . ولعل هذا القلب للأوضاع كاف وحده لإظهار فساد الزعم أن التمسك بالحجاب هو من الدين ؛ فالإسلام قد بنى على خمسة أركان ، وليس حجب المرأة من بين هذه الأركان . فإذا جاءنا رجل يهمل الأركان الخمسة كلها ثم يدعى الإسلام بحجة تغاليه في حجب المرأة ، وجب أن نجرده على الفور من صفة الإسلام ؛ بل وأن نجرده من الإسلام مرتين إذا كان ما يعنيه بحجاب المرأة هو التسلط عليها وإذلالها وسجنها في عقر دارها ، فإن ذلك ليس إلا رجعة للجاهلية الأولى قبل الإسلام تلك التي كان ينظر فيها إلى المرأة كشيء من سقط المتاع أو كحيوان من الحيوانات ، وليست بإنسان راق له كل حقوق الإنسان في الكرامة والاعتبار والحرية وهو الأمر الذي جاء الإسلام بإصلاحه وانتشال المرأة من ويلات .

لقد رأينا فيما سبق كيف خول الإسلام للمرأة جميع الحقوق التي خولها للرجل ،



ولم يجعل لرجل عليها من سلطان في إدارة أحوالها والتصرف فيها بسائر أنواع التصرفات ؛ فلست أعرف كيف يمكن التوفيق بين ذلك وبين حبس المرأة عن استعمال هذه الحقوق ومباشرتها . ترى هل يزعم الزاعمون بالحجاب أن الإسلام قد أخذ باليسار ماعطاه باليمين ؟ حاشا وكلا ! قد تنزه الإسلام عن ذلك ، فهو إذا أعطى حقاً من الحقوق فهو يعطيه نصّاً وروحاً وهو يريد به ويقصده ولا يرى صلاحاً للبشر إلا من خلال تطبيقه ، فإذا ورثت بنت عن أبيها أو زوجها متجراً أو مزرعة أو عقاراً فهي صاحبة الحق وهي صاحبة الحق الأول في إدارته والإشراف عليه . ومن شأن إدارة المرأة لأموالها أن تُرى في الحقل وأن تُرى في السوق ، وأن تُرى في المصنع وأن تُرى في المتجر ؛ وأن توقع عقوداً وأن تسلم نقوداً وأن تتسلمها وأن تودعها البنك وتقبضها من البنك ؛ وأن تتعامل مع عشرات من الناس ومئين وألوف في بعض الأحيان وأن تشهد عقوداً ، وهو مانص عليه القرآن صراحة . « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان<sup>(١)</sup> » . وهذا قاطع في إشراك المرأة في المعاملات والأخذ بشهادتها وأن تستشهد بالشهود ، وأن تستعين بالسلطات للمحافظة على أمنها وسلامتها ، وأن تلجأ إلى القضاء لحماية حقوقها ؛ فلو أن إنساناً ما حال بين المرأة وبين مزاوله أى حق من هذه الحقوق ألا يكون قد هدم نصوص الإسلام وأحكامه . ولو أن إنساناً حال بين أن ترتاد المسجد لصلاة الجماعة مع الرجال ، أو أن تشهد صلاة الجمعة والعيدين ألا يكون بذلك معطلاً لشعائر الدين ، سالباً حق المرأة حق شهود الجماعة ، مخالفاً أمر رسول الله الصريح في وجوب الإذن للنساء بالذهاب إلى المساجد حتى ولو كان ذلك في الليل . ولقد رأينا كيف أباح الإسلام للمرأة بل وندبها ندباً إلى الذهاب إلى ميادين القتال للمداواة الجراحى وإرواء العطشنى ومساعدة الرجال ، وهو ماكان الأوروبيون يحرمونه على النساء تحريماً قاطعاً إلى خمسين سنة ماضية ، إلى أن كانت الممرضة الشهيرة « نيتنجيل » التى اشترعت هذا الحق اشتراعاً في حرب القرم بعد اضطهادات شديدة جعلت منها شهيدة وقديسة .

وقد رأينا الإسلام يفتح المجال أمام المرأة للتعلم حسب وسعتها قدرتها وشاء لها ذكاؤها ورجاحة عقلها ، بل ويفرضه عليها فرضاً . وأخيراً رأينا كيف خوّل للنساء حق المبايعة وحق الولاية على المؤمنين في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فكيف يجوز لرجل بعد ذلك أن يحرم امرأة ما من مباشرة أى حق من هذه الحقوق . يقول دعاء الحجاب نحن لانعارض أو ننكر حق المرأة في كل ماترك لها الدين ، فلها أن تروح وتجيء وتقضى حاجاتها وكل ماتحتمه عليها الضرورات ، ولكن على شريطة أن تكون في ذلك

(١) آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

كله محجوبة الوجه غير سافرة ، وأن تظل بمعزل عن الرجال ، فلا تخاطبهم إلا من وراء حجاب حتى لا تقع عليها العيون أو تدركها الأبصار . وذلك لا يعدو أن يكون ضرباً من ضرور السفسطة ، إذ هو المطالبة بالمستحيل أو هو المقصود بقول الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له \* إياك إياك أن تبتل بالماء

فكيف تراول المرأة حقوقها في إدارة أموالها إذا لم تكن سافرة الوجه ؛ ليعرف من عليه الحق أنه يؤديه لصاحبه دون غيرها ، وليعرف صاحب الحق أنها غريمته المطالبة بأداء التزاماتها . كيف تؤدي المرأة هذه شهادة أمام القضاء ما لم تكن سافرة عن وجهها ، لتبين حجتها وليعرف أنها المقصودة بالاستشهاد عليها أو الشهادة لها . ولست أعرف كيف لم يسائل أصحاب نظريات الحجاب أنفسهم عن السر في أن الإسلام قد أجاز للمرأة أن تسفر عن وجهها إن هي أحرمت للصلاة أو الحج .

ألا يعتبر ذلك تكليفاً غريباً من دين يزعم الزاعمون أن الحجاب من أساسه وجوهه ، أما كان الأولى أن يحتم الدين النقاب على المرأة في الصلاة والحج تحميماً منعاً للفتنة في مواطن العبادة وتغليظاً على المرأة في وجوب ستر وجهها ذلك هو ما كان يقتضى به المنطق لو أن الدين كان يرى حجاب المرأة ركناً من أركانه فكيف والدين يأمر بالسفور أمراً وخاصة في الحج ؛ لما رواه ابن عمر من أن النبي صلى الله عليه وسلم « نهى النساء في إحرامهن عن القفازين والنقاب » . بل إن سنة الحج المؤكدة المتواترة التي يجرى عليها النساء منذ عصر النبي إلى اليوم هي الإحرام بالإسفار عن وجوههن وأيديهن . فإذا علمت أن أداء فريضة الحج في العصر الحديث تستلزم بضعة أسابيع حتى بعد اختراع الطائرة والسيارة ، وأنها كانت تستلزم في القديم شهوراً إن لم يكن أكثر من ذلك ، وإذا علمت أنه لا يوجد موطن من مواطن الاجتماع في حياة البشر يختلط فيه الرجال بالنساء اختلاطهما في مواطن الحج حيث يشهدون مواقف معينة ، ويبيتون في بقاع مقررة بغير ستر منصوب بين جار وجاره إذ لا وقت يتسع لذلك ؛ كالمبيت في المزدلفة . ولو رأيتم وهم يتزاحمون بالمناكب ويحتكون ويختلطون في منى إبان رمى الجمرات وقد ضاق بهم المكان والتحمت الأجساد ، بل لو رأيتمهم وهم يطوفون حول الكعبة وكأنهم كتلة بشرية واحدة وقد اندس فيهم الفاجر الذي لا يرعى الله حرمة ولا يتورع عن السرقة وارتكاب أبشع الجرائم . ولو رأيتم قبل ذلك وبعد ذلك وهم يجتازون الصحارى المقفرة في الليالي المقمرة ، وقد طاب النسيم وسكن الليل ورقّت القلوب وفاضت العواطف ، لو رأيتم شيئاً من ذلك كله أو بعضه لاقتنعت وتأكدت أن الإسلام لو كان بمستوجب الحجاب في موطن لوجب

أن يكون الحج هو هذا الموطن ، حيث يبلغ الاختلاط أشدّه ، ويختلط الحابل بالنابل والشرير بالخير ؛ ومع ذلك فقد قضت سنة أبي القاسم ألا يكون حج للنساء إلا محرمات ولا إحرام للنساء إلا بالكشف عن الوجه والكفين ، وكان ذلك في حجة الوداع حيث اختتم القرآن آخر آياته ولم يعد بعد ذلك وحى يوحى أو قرآن يزداد : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »<sup>(١)</sup> .

رب قائل يقول : ولكن ذلك موطن من مواطن العبادات حيث تفرق فيه الشهوات وتعظم الحرمات ويشغل الناس فيه بعبادة ربهم . وإنه لحق أن في الحج لحظات يستغرق فيها التوجه إلى الله كل حواس الناس ولكن من الحق أيضاً أن في أسابيع الحج فترات طويلة يقضيها الناس في فراغ حيث تنطلق غرائزهم من جديد ، وتتضاعف رغبتهم في المرأة بأشد ما تملكهم في يوم من الأيام . وليس أدل على ذلك من أن الرسول قد ندب المحرمين بالحج إلى التحلل من إحرامهم بعد العمرة والتمتع ريثما يحين أو أن الحج على الرغم من أن قريشاً كانت ترى في ذلك أفجر الفجور في الجاهلية كما حدث بذلك ابن عباس من أن قريشاً ومن دان دينهم كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ... فقدم النبي وأصحابه صبيحة رابعة مهللين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعظم ذلك عندهم : فقالوا يارسول الله ، أى الحل قال : « الحل كله »<sup>(٢)</sup> . فالرسول الذى يعرف من حالة البشر مادق وخفى ، وجد من الخير للمسلمين ألا يحرم عليهم مقاربة النساء طوال المدة اللازمة للذهاب إلى الكعبة بقصد الحج والرجوع منها ، وهى ما قد تستغرق بضعة أشهر كما قدّمنا .

فليس يجوز لقائل إذن الزعم بأن أعمال الحج مهما طاللت من شأنها أن تصرف الرجل عن الرغبة في النساء ؛ فالرغبة غريزة دائمة في نفس الرجل إذا اختفت ساعات أو أياماً فلا تلبث أن تشتعل أشد قوة وعنفاً مما كانت ؛ فوطن الفتنة في الحج قائم إذن . وكان المنطق يقضى بحجب وجوه النساء في الحج لو أن في ذلك ما يقلل خطر الفتنة وشدتها ، وهو ما لم يأمر به الرسول بل أمر بعكسه وهو كشف الوجه ، ولعل في حديث الخثعمية الشهير شاهداً قوياً على عدم إنكار الرسول على المرأة سفورها في الحج ، حتى ولو خشى الفتنة في هذا السفر .

وحديث الخثعمية هو ما رواه ابن عباس من أن امرأة من خثعم جاءت في حجة

(١) آية ٣ سورة المائدة .

(٢) رواه الثلاثة .

الوداع تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما إذا كان يجوز لها أن تحج نيابة عن أبيها الضعيف ، وكانت امرأة جميلة الوجه ، وكان الفضل بن عباس يركب في ذلك اليوم خلف رسول الله على ناقته ، فجعل ينظر إلى المرأة وتنظر إليه ، فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر . وفي بعض ألفاظه : فلوى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنق الفضل ، فقال له العباس : يا رسول الله ، لماذا لويت عنق ابن عمك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما » وفي رواية « فلم آمن عليهما الفتنة <sup>(١)</sup> » . فهذا رسول الله صلوات الله عليه لا يأمن على رديفه في ذلك اليوم من الفتنة ، ومع ذلك فلم ينكر على المرأة سفورها ولم يطلب منها حجب وجهها ، وكان كل ماعمله هو أن صرف نظر الفضل عنها لما لاحظته عليه من اشتغاله بجهاها وعدم غضه بصره عنها . بل إن ما يجب أن يذكر ويفوق كل ماتقدم هو أن هذه الخشعية لم تكن تحج عن نفسها وإنما كانت تحج عن أبيها الشيخ الذي لا يستقر على الرحلة فصدق الرسول على حجها ؛ فعرف من ذلك أن للمرأة أن تحج نيابة عن قريبها الرجل . فأين هذا الشرع الإسلامي من رجال يظنون أن الدين كل الدين في حبس النساء في البيوت والمنازل ، على أن نصاً من نصوص القرآن قد أغنانا مؤونة البحث والاجتهاد ، وذلك لنصاعته ووضوحه وصراحته « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضرن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن .. » الآية <sup>(٢)</sup> .

وهذا نص صريح في عدم فرض الحجاب على المرأة من ثلاثة وجوه : الوجه الأول هو مطالبته المؤمنين والمؤمنات أن يغض كل منهما من بصره فلا يحملق للآخر ويعين في وجهه ، ولو كانت النساء محجبات عن الرجال متنقبة الوجوه لما كان هناك محل لهذا الأمر ، إذ لا داعي له ولا ضرورة ولكان من تحصيل الحاصل ، وحاشا أن يكون ذلك كلام القرآن . أما الوجه الثاني فقول الآية : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » . وقد اتفق المفسرون والفقهاء على أن قوله « إلا ما ظهر منها » مقصود به الوجه . واختلفوا فيما إذا كانت هناك ضرورة تحتم ظهور الكفين ، ولكنهم لم يختلفوا في موضوع الوجه وأنه هو المقصود بالاستثناء . أما الوجه الثالث في الآية فقوله « وليضرن بخمرهن على جيوبهن » والجيوب هي فتحة الجلباب من ناحية الصدر ؛ والمطلوب من النساء بنص

(١) الحديث بتمامه في الصحيحين .

(٢) آية ٣٠ ، ٣١ سورة النور .

القرآن هو حجب الصدر والأعناق لا الوجه المستثنى للضرورة .

ويفسر هذه الآية حديث أم سلمة من أن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها قد دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا » وأشار إلى وجهه وكفه .

### حضر النبي صلى الله عليه وسلم على النظر للمخطوبة

ولأصل الآن إلى قمة الموضوع وذروته حيث نرى رسول الله يبحث المسلمين حثاً على النظر إلى وجه من يعتزمون زواجها قبل الإقدام على الزواج ، ويلوم من تهاون في ذلك أو تكاسل عنه وتقاعد ، وقرر أن ذلك شرط أساسي لنجاح الحياة الزوجية ودوامها ، فقد حدثنا أبو هريرة عن رسول الله أنه بينما كان جالساً عند رسول الله في أحد الأيام إذ أتاه رجل فأخبره أنه معتزم زواج امرأة من الأنصار ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنظرت إليها » قال لا ؛ قال : « فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار (١) شيئاً » . وذكر المغيرة أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما (٢) » . وحدثنا جابر حديثاً أشمل وأكمل من كل ماسبق لا يقف عند حد النظر إلى الوجه بل والوقوف على كل ما يجلب الرجل في المرأة ويدعوه إلى زواجها ، وذلك بقوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » فخطبت جارية فكنت أنتخباً لها حتى رأيت منها مادعاني إلى نكاحها فتزوجتها (٣) .

وأحسب أنه لم يبق بعد هذه الأحاديث المتكررة المتواترة من يشك في أن هذا التهويل الذي سار عليه جماعة من المسلمين المتأخرة في المناداة بمحجب المرأة عن أن تقع عليها عين أحد ، ليس إلا ضرباً من ضروب الجهل بأحكام الدين والتعصب الأعمى الذي يقوم على التقاليد الفاسدة ، والذي يجعلهم يضيفونها إلى الدين ماهو براء منه .

(١) رواه مسلم والنسائي .

(٢) رواه النسائي والترمذي .

(٣) رواه أبو داود والشافعي والحاكم وصححه .

## الحجاب في الإسلام خاص بنساء النبي

على أن دعاة الحجاب ليسوا الى هذا الحد فارغين من بعض النصوص والدعاوى التي يخيّل لهم أنها تؤيد دعوتهم وتعزز شبهتهم في فرض الحجاب على المرأة ، فكلّمة الحجاب قد وردت بالذات في القرآن ، وفرضت على فريق من النساء وهنّ نساء النبي وما فرض على نساء النبي فإن بقية النساء به أولى ، لأنه إذا كان نساء النبي الطاهرات المبرآت الكريّمات قد خشى عليهنّ من الفتنة وافتتان الناس بهن فكان بالأحرى يخشى على النساء الأخريات من شرّ هذه الفتنة ويخشى على الرجال منهنّ ، وهذه هي الحجة الكبرى التي يحتجون بها ، إذ يرون في كل ما عمل الرسول قدوة وسنة يتأسون بها ، وما رآه لأزواجه فيجب أن يراه كل مسلم لزوجته . وسنرى أن مناقشة قصيرة لهذا الموضوع تحوله من دليل بفرضية الحجاب على المرأة العادية إلى دليل ضدّ هذه الفرضية .

ورد ذكر الحجاب في القرآن في الآية الآتية :

«يأياها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً<sup>(١)</sup>»

تلك هي الآية الوحيدة التي وردت في القرآن ومنها ذكر للحجاب . وظاهر أنها تتحدث عن بيوت النبي ونسائه ، فهي خصوصية من خصوصياته كما يدل على ذلك سبب التنزيل ، وكما يدل على ذلك صريح اللفظ في آية أخرى سنذكرها فيما بعد . فأما سبب التنزيل فقد كان نساء النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية كسائر نساء المسلمين ، يخلطن بالرجال ويتصل بهن من شاء في أي وقت شاء ، مقتحمين في ذلك بيوت النبي في كثير من الأحيان في غير استئذان ، وقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط أقوام كان من بينهم من دخل الإسلام على كره ومن كان النفاق يعمر قلبه ؛ فلا بدع وسيلة يستطيع بها إيذاء النبي وتجرّحه وتلوّث سمعة المسلمين إلا وانتهجها .

وكان إلى جوار هؤلاء أقوام آخرون من الأعراب الأجلاف الغلاظ ، الذين لا يعرفون شيئاً من آداب الاجتماع أو التقاليد الحميدة ؛ وكلا الفريقين كان يؤذي النبي

(١) آية ٥٣ صورة الأحزاب .

إذاءً بليغا ، كما يتجلى ذلك من مطالعة كثير من آيات القرآن ، وكان المنافقون يتخذون زوجات النبي بصفة خاصة موضوعا للتقوّل على رسول الله والتشديق بمختلف الأراجيف ؛ كما يدل على ذلك حديث الإفك الذى اتهموا فيه السيدة عائشة وهى المطهرة المبرأة وكان بعضهم كثيرا ما يشيع أنه معترّم زواج بعض نساء النبي بعد وفاته وربما استغل سماحة الإسلام فدخل إلى أحد بيوت النبي متظاهرا باستعارة شىء من الأشياء ليؤلف من ذلك بعد ذلك قصة طويلة عريضة تثير الظنون وتنتشر الريب . ولقد توعّد القرآن المنافقين بالطرد من المدينة إن هم استمروا على غوايتهم « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنجربنك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا »<sup>(١)</sup> . ولكن ذلك لم يحسم البلاء ، وظل أذى المنافقين والأعراب مستمرا للرسول فى نسائه . وقد هال سيدنا عمر بن الخطاب ذلك الأمر فرأى ضرورة الحيلولة دون اتصال كائن من كان بنساء النبي فألح على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحجبهن عن الرجال بقوله : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب<sup>(٢)</sup> . ولكن سيدنا محمد لم يجبه إلى اقتراحه على الفور ، إلى أن كان حادث مباشر أدى إلى نزول هذه الآية مصدقة لاقتراح سيدنا عمر ، وفارضة الحجاب على نساء النبي .

وهذا الحادث على مارواه أئمة الحديث والمفسرون يتلخص فى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لما تزوّج زينب رضى الله عنها دعا القوم لوليمة الزواج ؛ فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فتظاهر الرسول بأنه بهم بالقيام لينصرف القوم فلم يقوموا ؛ فلما رأى ذلك منهم قام عنهم إلى بعض بيوته الأخرى ، فقام فى أثره من قام ما خلا ثلاثة نفر جلسوا يتحدثون ، حتى إذا عاد النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل إلى زوجته وجددهم لا يزالون جلوسا يتسامرون ؛ فاضطر النبي للرجوع من حيث أتى وهو مستاء لذلك أشد الاستياء ، ولكن حياءه حال بينه وبين دعوتهم إلى الانصراف ؛ فظل القوم جلوسا ردحا طويلا من الزمان حتى عنّ لهم الانصراف أخيرا فانصرفوا ، فأسرع أنس إلى رسول الله وأعلمه نبأ ذهابهم ؛ فجاء الرسول ودخل بيته فحاول أنس أن يدخل خلفه جرياً على عادته ليقوم بخدمته ، فألقى النبي الحجاب بينه وبين أنس ، وأنزل الله آية الحجاب التى تتضمن فى سياقها الإشارة إلى هذا الحادث .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهَا

(١) آية ٦٠ سورة الأحزاب .

(٢) من حديث أنس رواه البخارى .

ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألوهن متاعاً فاسألهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً<sup>(١)</sup> .

وظاهر من هذه الآية وسبب نزولها أن الحجاب لم يشرع كما يزعم الزاعمون من أعداء الإسلام وجهلة المسلمين لضعف ثقة الرسول بنسائه بصفة عامة ، وما قد يتعرض له من الفتنة لرؤيتهن الرجال بحيث يصبح ذلك قاعدة مطردة بالنسبة للنساء ، وإنما شرع الحجاب كما رأينا اتقاء لشرور هؤلاء المنافقين والأعراب الأجلاف الذين كانوا لا يراعون لبيوت الرسول كرامة أو حرمة ؛ فيفتحمونها في غير حياء ويطلقون المكث بها في غير حضرة رسول الله ، ولا يقيمون لمشاعر الرسول وزناً ولا يؤدون لمكانته حقها من الاعتبار . وذلك كله على خلاف أبسط قواعد الذوق واللباقة التي تقتضيها حالة الاجتماع وال عمران ، فكان لابد من وضع حد لهذا الإيذاء والحيلولة بين المنافقين وبين القول على نساء النبي وبيوته ؛ فكانت آية الحجاب تعلم المسلمين ما ينبغي عليهم من الاحترام لنبينهم ، وما يجب أن يحاط به نساؤه من التجلة والاعتبار ، فلا يراهن كل من هبّ ودبّ ، ولا يتحكك بهنّ لغير سبب أي إنسان .

فالآية خصوصية من خصوصيات النبي الخاصة بشخصه وعصره وظروفه ومكانة نسائه « يانساء النبي لستن كأحد من النساء<sup>(٢)</sup> » فلا يجب أن يساء تأويلها ، فتحول الجزء الخاص منها بحجب نساء النبي الى قاعدة عامة لتسرى في كل زمان ومكان ، وأن تتخذ ذريعة لإساءة الظن بالنساء وأن لا سبيل لصلاحهنّ إلا بالتداری خلف الحجاب . على أن ختام الآية نفسه يدل على تضمينها أحكاماً خاصة بنساء النبي لا يصح تطبيقها على غيرهنّ من النساء وذلك حيث يقول : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً<sup>(٣)</sup> » فحظر الزواج بنساء النبي بعد موته ، وهو خصوصية أخرى من نوع خصوصية الحجاب ؛ لأن الاحترام الواجب نحو مكانة الرسول تقتضي جعل نسائه حرماً على بقية المسلمين بعد موته ، وهي من الأمور المجمع على ألا تكون محلاً للقياس والسير على هديها ، كاختصاص النبي بالزواج بأكثر من أربعة ، فهي خصوصية ثالثة قد اختص بها من دون المسلمين .

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

(٢) آية ٣٢ سورة الأحزاب .

(٣) آية ٥٣ سورة الأحزاب .



## الحجاب كما فسرهُ الرسول بالنسبة لأزواجه

بقى أن نعرف مدى هذا الحجاب الذى فرض على نساء النبي بمقتضى هذه الآية ، وكيف فسرهُ الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره نساؤه من بعد ؛ هل كان مؤداه أن أصبح زوجات الرسول سجينات ، لا يخرجهن من بيوتهن كما يتوهم البعض ، أو هل حرمن مما كن يتمتعن به من قبل من مشاركة بقية المسلمين في أعيادهم وأفراحهم ونشاطهم ومناسكهم والقيام بحاجتهم . لقد حدثتنا السيدة عائشة ببعض أحاديث توضح لنا هذا الموضوع وتجلى غامضه فقالت لنا فيما قالت : «إن السيدة سودة بنت زمعة خرجت ليلاً فراها عمر فعرفها فقال : إنك والله ياسودة ما تغفين علينا ؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم غاضبة وهو في حجرى يتعشى ؛ فذكرت ذلك له وإن في يده لعرقاً<sup>(١)</sup> فأنزل عليه - أى جاءه الوحى - فرفع عنه وهو يقول : «أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن» فذلك سيدنا عمر - وهو من تعرف حماسته للحجاب وتحريضاً عليه - ظن أن آيات الحجاب وما يكملها من الأمر بالاستقرار في البيوت «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» معناه حظر الخروج على زوجات النبي لأى سبب من الأسباب ؛ فأنكر على سودة خروجها ، فأدرك الرسول ما فى اعتراض عمر من حرج على نسائه وإعنات لهن وما فيه من مخالفة لضرورات الحياة ومقتضياتها ؛ فأباح لزوجاته الخروج لحوائجهن إباحة تامة مطلقة من كل قيد أو شرط ، ولولا ذلك لحول نساءه إلى سجينات ، وما كان الرسول ليفعل ذلك وهو الذى حرّر نساء العالمين .

وحدثتنا السيدة عائشة فيما حدثت - على ما رواه البخارى ومسلم والنسائى - أنه كان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحرب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال «تشتين تنظرين» فقلت نعم . فأقامنى وراءه خدى على خده وهو يقول دونكم يابنى أرفدة حتى إذا مللت قال «حسبك» قلت نعم . قال «فاذهبي» وحدثتنا السيدة عائشة - على ما رواه البخارى أيضاً - أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : «يا عائشة ما كان معكم لهُوَ فإن الأنصار يعجبهم اللهو» . وفى رواية أخرى أنه قال لها : «هل لقيتم جارية تضرب بالدف وتغنى» ؟ قالت : ماذا تقول يارسول الله ؟ قال : تقول .

أتيناكم أتيناكم \* فحيونا نحييكم  
ولولا الذهب الأح \* حر ماحلت بواديكم

(١) العرق (بفتح العين وسكون الراء) : العظم أخذ عنه معظم اللحم . رواه الشيخان .

## ولولا الخنطة السمرا \* ما سمحت عذارىكم<sup>(١)</sup>

وكان من عادة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل نزول آيات الحجاب أن يصطحب إحدى زوجاته كلما سافر ، وكان يختار هذه الزوجة بالاقتراع ؛ فظل الرسول على عادته بعد نزول آية الحجاب في اصطحاب زوجاته . وظلت نساء النبي تخرج لقضاء حوائجها كلما أرادت . وظلت نساء النبي تضطلع بوظيفتها الروحية الكبرى في زعامة نساء عصرهن ، حتى إذا مات الرسول صلوات الله وسلامه عليه تحولن إلى معلمات للأمة رجالاً ونساء ، يُستشَرْنَ ويُستفتَيْن في مختلف الأمور ويساهمن في الشؤون العامة ؛ كما رأينا من موقف السيدة عائشة في خروجها على سيدنا علي في الوقت الذي كانت السيدة أم سلمة تؤازر سيدنا علي وتناصره .

وجملة القول أن الحجاب الذي فرض على نساء النبي لم يكن المقصود منه إلا مضاعفة التكرم لشخصية رسول الله . ولم يكن بحال من الأحوال كما يطبقه بعض الجهال من عامة المسلمين حيث يقسمون لك في افتخار واعتزاز : أن زوجاتهم لا تخرج من البيت إلا مرة واحدة ، ولا تخرج هذه المرة إلا محمولة على الأعناق لقبرها ، ويحسب نفسه بذلك متديناً فاضلاً ، وهو ليس إلا مستبدّاً قاسياً ، قد حوّل امرأته إلى عبد رقيق ، بل إلى ماهو أخس من الرقيق ، حوّلها إلى حيوان سجين .

يقول المرحوم الشيخ رشيد رضا : « وكل ما استحدثه الناس في المدن والقرى الكبيرة من المبالغة في حجب النساء فهو من باب سدّ الذريعة لا من أصول الشريعة ؛ فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء في المساجد مكشوفات الوجوه والكفين ، وأجمعوا على إحرام النساء بالحج والعمرة كذلك . نعم إنهن كن يصلين الجماعة وراء الرجال ولكنهن كن يسافرن مع الرجال محرمات ويطفن بالبيت كذلك ، ويقفن في عرفات ويرمين الجمار على مشهد من الرجال في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . وكن يسافرن مع الرجال إلى الجهاد ، ويخدمن الجرحى ويسقينهم الماء ، ومنهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدّم . وقد قاتل نساء المهاجرين مع الرجال في واقعة اليرموك ، وكن يخدمن الضيوف ويقاضين الرجال إلى الخلفاء والحكام ... » . ثم استمرّ الأستاذ الكبير يناقش الموضوع على هذا النسق فيما لا يخرج عن ما قدّمناه من شواهد وأحاديث ، إلى أن ختم بحثه بقوله :

« وجملة القول ، أن أصل الشرع في آداب النساء والرجال معروف ، وأن سد

(١) هذه الآيات ذكرت في بعض المصادر باختلاف .

ذرائع الفساد والفتنة مشروع ، وهو يختلف باختلاف الأعصار . والأمصار وإنما الحرام ماثبت بنص قطعي الرواية والدلالة . ومادل على طلب تركه دليل ظني فهو مكروه . وكل رجل وامرأة أعلم بحال نفسه ونيته وحال قومه وبيئته . والقاعدة العامة في مثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم « الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه »<sup>(١)</sup> . وظاهر من هذا القول أن الشيخ الكبير رحمه الله ممن ينكرون على القائلين بأن الحجاب من أصول الدين ، وأن القول بذلك هو خلط وتشويه لأحكام الدين ، وتحريم لما أحل الله بغير نص من القرآن والسنة . ولست أجد ما هو حقيق بأن أختم به هذا البحث الديني إلا أن أسوق رأياً لإمان من أئمة الحنابلة وهو الشيخ شمس الدين الحنبلي حيث تساءل في كتابه (الآداب الشرعية) عما إذا كان يسوغ الإنكار على النساء الأجانب اللاتي يكشفن وجوههن في الطريق من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ وبعد أن بحث هذا الموضوع من جميع نواحيه انتهى بالإجابة على هذا التساؤل بالنفي بقوله : « فأما على قولنا وقول جماعة من الشافعية وغيرهم من أن النظر إلى الأجنبية جائز بغير شهوة ولا خلوة فلا ينبغي أن يسوغ الإنكار »<sup>(٢)</sup> . أي أن سفور المرأة لا يمكن أن يكون من المسائل التي يجوز لكائن من كان أن ينكرها على المرأة ؛ متحككاً باسم الدين وتعاليمه .

### هل الحجاب مانع للفتنة

بقي ما يقال من أن شرعة الحجاب وإن لم تكن من أصول الدين كما يسلم الجميع فهي من باب سد الذريعة ، أي اتقاء الفتنة وإيقاف شرها ؛ ففي الإسفار عن وجوه النساء إشعال لنار الفتنة بين الرجل والمرأة ، وفي حجبها اتقاء لهذه الفتنة ودفع لأذاها . والقول بذلك جهل بسنة الطبيعة في فتنة المرأة للرجل والرجل للمرأة ، وهو مغالطة للواقع وما أثبتته تجربة القرون الماضية ؛ ففتنة المرأة للرجل ليست في وجهها ولكن في طبيعتها . أي في أنوثتها ، فالرجل ينجذب نحو المرأة بغريزته لمحض كونها امرأة ؛ فلو حجبت وجهها لتحوّلت فتنتها إلى صوتها ؛ ولأحدث صوتها في نفس الرجل كل ما تحدثه صورتها \* والأذن تعشق قبل العين أحياناً \* ولو أمسكت عن الكلام لأصبحت فتنتها في مشيتها وخطراتها وحركات أعضائها « ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »<sup>(٣)</sup> ولو كفت عن الظهور أمام الأعين لأصبحت الفتنة في نافذة بيتها وفي ضوء

(١) رواه الترمذی وابن ماجه .

(٢) كتاب الآداب الشرعية الجزء الأول ص ٣١٦ .

(٣) آية ٣١ سورة النور .

مضباحها وفي خادمتها الصغيرة وفي هودجها قديما وسيارتها في عهدنا . فلا سبيل إذن لاتقاء الفتنة بين الرجل والمرأة بالحواجر الطبيعية أو المادية ؛ فالطبيعة قاهرة ، غلابة . ولا يمكن أن تقاوم بالوسائل المادية بل إن هذه الوسائل المادية كلما حاولت أن تصدّ الطبيعة كلما زاد ذلك في قوتها وعنفوانها ، وكلما عملت على اتساع هذه الحواجز والسدود . وليس أدل على ذلك من أنه في أشدّ العصور استخداما للحجاب وتشدّدا فيه لم يكف الرجال والكتاب والوعاظ عن الشكوى مرّ الشكوى من الحالة الخلقية وانتشار المفساد والموبقات ، حتى إن الإنسان منا ليحمر خجلا وهو يطالع كتب الآداب القديمة ؛ لما حوته من فضائح قديمة ومخازي لا تختلف في شيء عما نسمع به في أشدّ المجتمعات إباحية وانحلالاً . وحسب الإنسان أن يطالع كتاب (ألف ليلة) وهو تصوير دقيق لما كان يجري ويقع في هذه العصور ليرى ما تحمر له الوجوه .. وما هي دواوين الشعراء ، وما هي كتب الأدب من ثلاثة عشر قرناً ولا موضوع يدور حوله إلا الغزل والنسيب والتشبيب بالنساء ؛ حتى أصبح التغزل بالنساء لازمة من لوازم الشعر العربي ، فلا تفتتح قصيدة إلا به ولو كانت في مدح بطل من الأبطال وملك من الملوك ، بل حتى في مقام الرثاء والنحيب على ميت من الأموات . ومع ذلك فقد كانت هذه القصائد تروى وتسمع في حضرة الخلفاء فلا يعترضون عليها ، والناس تتناقلها في إعجاب وسرور . وأمامي الآن كتب دينية تحوى من النصوص والأوصاف بعض ما يقع في عصرها مما يندى له الجبين وما لا يمكن بحال من الأحوال أن يدعى أنه أفضل في قليل أو كثير مما يجري في عصرنا الحاضر إن لم يكن أشدّ سوءاً أو شناعة فهذا الإمام العلامة البدر العيني المتوفى في القرن التاسع الهجري يقول في شرح صحيح البخاري تعليقا على شكوى السيدة عائشة مما أحدث النساء بعد رسول الله :

«لو شاهدت عائشة رضي الله تعالى عنها ما أحدث نساء هذا الزمان من أنواع البدع والمنكرات لكانت أشدّ إنكاراً ، ولا سيما نساء مصر ، فإن فيهنّ بدعاً لا توصف ومنكرات لا تمنع ؛ منها : ثيابهنّ من أنواع الحرير المنسوجة أطرافها من الذهب والمرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر ، وما على رؤسهنّ من الأقراط المذهبة المرصعة باللآلئ والجواهر الثمينة والمناديل الحرير المنسوجة بالذهب والفضة الممدودة وقصانين من أنواع الحرير الواسعة الأحكام جدا ، السابلة أذيالها على الأرض مقدار أذرع كثيرة بحيث يمكن أن يجعل من قبض واحد ثلاثة قصان وأكثر . ومنها : مشيّن في الأسواق في ثياب فاخرة ، وهنّ متبخرات متعطرات ، مائلات متبخترات ، متبرحات مع الرجال مكشوفات الوجوه في غالب الأوقات . ومنها : ركوبهنّ على الحمير الفرّ ، وأكمامهنّ سابلة من

الجانبيين في أزر رفيعة جدًّا . ومنها : ركوبهنّ على مراكب في نيل مصر وخلقجانها محتلطات بالرجال ، وبعضهنّ يغنين بأصوات عالية مطربة والأقداح تدور بينهنّ . ومنها : غلبتهنّ على الرجال وقهرهنّ إياهم وحكهنّ عليهم بأمور شديدة . ومنهنّ : نساء يبعن المنكرات بالأجهار ويخالطن الرجال فيها . ومنهنّ : قوادات يفسدن الرجال والنساء ويمشين بينهنّ بما لم يرض به الشرع . ومنهنّ : صنف بغايا قاعدات مترصدات للفساد . ومنهنّ : صنف دائرات على أرجلهنّ يصدن الرجال . ومنهنّ : صنف سوارق من الدور والحمامات . ومنهنّ : صنف سواحر يسحرن ويفتنن في العقد . ومنهنّ : بياعات في الأسواق يتعاططن بالرجال . ومنهنّ : دلالات نصابات على النساء . ومنهنّ : صنف نوائح ودقات يرتكبن هذه الأمور القبيحة بالأجرة . ومنهنّ : مغنيات يغنين بأنواع الملاحى بالأجرة للرجال والنساء . ومنهنّ : صنف خطابات يخطبن للرجال النساء لها أزواج يفتنن يوقعنها بينهم ؛ وغير ذلك من الأصناف الكثيرة الخارجة عن قواعد الشريعة . فانظر إلى ما قالت الصديقة رضى الله تعالى عنها من قولها : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء . وليس بين هذا القول وبين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلا مدّة يسيرة ؛ على أن نساء ذلك الزمان ما أحدثن جزءًا من ألف جزء مما أحدثت نساء هذا الزمان» (١)

وهذا كتاب آخر يسمى (روضة المحبين) تأليف ابن القيم الجوزى ، والمطلع لهذا الكتاب يرى في خلال مناقشة هذا العالم الجليل لهذا الموضوع صورًا من المجتمع في عصره ، لا تختلف في قليل أو كثير عما يجري في المجتمعات الأوربية الإباحية مع فارق بسيط ، هو أن ما يقع من المنكرات في هذه المجتمعات لا يقع باسم الدين . أما في هذه الصور التي يسوقها ابن القيم وينكرها بطبيعة الحال ويستقبحها فإنها تجري وتقع باسم الدين ؛ فمن ذلك ما زعموه من أن المرأة التي لا ترق لعشيقها وترحمه امرأة آئمة . وجعلوا قربة من أعظم القرب إلى الله الجمع بين عاشقين ، وساقوا لذلك الأحاديث . وكيف توسط رسول الله عند بريرة لصالح زوجها الذبى طلقت منه بعد عتقها . ويشيرون لوساطة الحسين بن علىّ بين قيس ولبنى وأولوا الآيات . وأخيرًا جعلوا عشق الذكور للذكور من الأمور المباحة المشروعة ، خصوصًا إذا كانوا رقيقًا ؛ وذلك لدخولهم في عموم الآية «أو ما ملكت أيمانكم» (٢) .

(١) كتاب شرح صحيح البخارى الجزء السادس ص ١٥٨ للإمام العلامة البدر العيني قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٥هـ .

(٢) جاء في كتاب فارسمى من العصر الإسلامى صورة رجل يمك بقوس ويطارد غلامًا في بركة وقد كتب تحت الصورة «أحل لكم صيد البحر» .

وغنى عن البيان أن كل ذلك فحش ومنكر تسوّد له الوجود ومع ذلك فقد كان سائداً ومنتشراً في كل عصر وزمان ومكان دون حجاب أو تستر ، بل لعل الحجاب كان من أكبر أسبابه . فالذين يتصورون الحجاب مطلقاً لنار الفتنة بين الرجل والمرأة هم جدّ خاطئون وواهمون . فنذ اشتعلت هذه الفتنة بخلق حواء وهى لا تنفك تستعر وتتقد إذ يتوقف على استعارها دوام الحياة ، وليس السبيل لاتقاء هذه الفتنة هو وضع الحواجز المادية بل وضع الحواجز المعنوية والأدبية ، وذلك بتربية المرأة تربية خلقية علمية دينية فيحملها ذلك على الاعتزاز بنفسها والحفاظ على كرامتها ، ولاكرامة لها إلا في البعد عن الابتذال ومواطن الريب . وإذا كان من المتفق عليه أن المرأة قوية العاطفة حادة المشاعر ، فليس هناك ما يقدرها على السيطرة على عواطفها إلا بتقوية عقلها ... ولاسبيل لتقوية العقل إلا عن طريق العلم والثقافة وشعور المرأة بالكرامة ؛ فما أسهل ما تسقط الفتاة الغريزة الجاهلة المحتجة فريسة في يد أول عابث ، وما أعصى المرأة المتعلمة المثقفة على إجابة التزوات الطائشة . وذلك هو الذى يجدو بنا للإنكار على دعاة الحجاب بعد أن زال زمنه ، وراحت أيامه بانقشاع سحب الجهل والتعصب والاستبداد .

لقد أصبحت المرأة اليوم سافرة في جميع أرجاء العالم ، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في قارات الدنيا الست وجزر المحيطات الخمس ، وهى بذلك تنال حظاً أوفر من الحرية والثقافة والعلم والقدرة على مسايرة الرجل في نهضته . فن الحال أن تظل نساء المسلمين متأخرات عن نساء العالمين من حيث الكرامة والاعتبار والعلم والثقافة ؛ فإن ذلك يقعد بالمسلمين جميعاً عن النهوض والارتقاء . فانحطاط المرأة يؤدي حتماً إلى انحطاط الأمة كلها ؛ فما من رجل إلا وهو وليد امرأة - كما قدّمنا - وهى حاضنته ومربيته الأولى ، وعلى قدر شخصيتها وفضيلتها وعلمها واعتبارها يتكيف مزاج ابنها وموضعه من الحياة .

لقد تغيرت ظروف العالم تغيراً جعل من المستحيل عزل الرجال عن النساء ؛ فبعد أن كانت وسيلة المواصلات هى الجمل ولا يركب الجمل إلا شخص واحد صار القطار وصارت السيارة ، بل وصارت الطائرة هى وسيلة المواصلات التى لا وسيلة غيرها ومن الحال ألا تقع العيون على المرأة وهى رانحة عارية تستعمل هذه المواصلات ... ربما كان بقدرة المرأة بالأمس أن تسدل على وجهها قناعاً وهى تسير في الطريق ، فلم يكن في الطريق من المخاطر ما يهددها أو يدعوها للإسراع في سيرها ؛ فقد كان كل من على ظهر الأرض يدب في بطاء وتناقل ، أما اليوم فكيف تستطيع امرأة أن تخترق شارعاً فضلاً عن

أن تنتقل من مكان إلى مكان ما لم تكن مفتحة الأعين والآذان والحواس ، سريعة الخطو  
نشطة الحركات ...؟ إن كل شيء يسير في الحياة بسرعة ، ونحن الآن في زمن السرعة ؛  
فلم يعد هناك مجال لامرأة تسير الهوينى خلف قناعها .

نحن الآن في عصر الميكانيكا والكهرباء ، حيث تستطيع المرأة بمجرد إدارة لولب  
صغير بأصابعها أن تفتح كوبريا أو تغلقه على حسب الحاجة ، أو أن ترسل الضوء إلى  
مدينة أو تحببه ، أو أن تندفع بسيارة وترتفع بطائرة ؛ فمن ذا الذي يحول بينها وبين أن  
تسير أو أن تطير . وهذه زميلتها في القديم كانت تركب الفرس وتحذق ركوبه وهو مركبة  
القتال وآلة السفر ، ووسيلة الانتقال ... وأحسب انه من المستحيل على المرأة أن تقود  
سيارة وهي محجبة ، وليس بقدرتها أن تصعد بطائرة وهي محجبة .

والحرب لم تعد كما كانت في القديم مهنة الرجال ، بل صارت شغل الرجال والنساء  
والصبيان ، فكيف تضطلع المرأة بدورها في الحرب وهي محجبة ؛ وكيف تساعد الرجل  
كما كانت تساعد المسلمات الأول وهي محجبة .

إنني أعرف أن الحجاب قد زال نهائياً من مصر وانتهى ، وهو لا يوجد الآن إلا بين  
أقلية ضئيلة من نساء المدن ، دون الريف الذي كانت المرأة فيه سافرة دائماً أبداً ، والذي  
تعمل فيه المرأة إلى جوار الرجل في الحقل وفي البيت كعنصر أساسي من عناصر الإنتاج ،  
ولولا ذلك لما استطاعت مصر أن تحرز هذا المركز الممتاز في عالم الزراعة . ولكني أكتب  
هذه السطور لا للمصريين فحسب ، بل ولكل من له عينان للنظر وآذان للسمع من  
جمهرة المسلمين في جميع أنحاء العالم ، الذين جمدوا عن مسيرة الزمن بحجة المحافظة  
على الدين وتعاليمه ، مع أن الدين قد جاء ليكون سبيلهم للكمال والارتقاء والعظمة  
والمجد ، لا للتخلف والجمود والقصور والعجز ... إن الدين الإسلامي يسر لا عسر ،  
ومعجزته الكبرى أنه دين مرن يصلح لكل زمان ومكان ، ويساير كل نهوض وارتقاء كما  
رأينا فيما سلف من أحكام . فليتحرك المسلمون ، ليتحركوا فالعالم كله يتحرك ومن يقف  
تدسه الأقدام ! .

### ليس معنى السفور التبذل وزوال الاحتشام

على أن كشف الوجه إذا كان ضرورة من الضرورات ، وتخويل المرأة كل الحقوق التي  
تجعل منها مخلوقاً حراً كريماً فعالاً متعلماً لازم من لوازم المدنية والعمران ؛ فإن ذلك

لا يعنى مطلقاً أن تخلع المرأة عنها ثوب الحياء والوقار والاحتشام ، الذى هو جوهر أنوثتها وسر جمالها وفتنتها ، وجزء لازم لقيامها بوظيفتها التى خلقتها من أجلها الطبيعة ، وهى مساكنة الرجل بالزواج فالأمومة .

فليس من دواعى الرقى أو العمران أو ما يبرره أى مبرر من المبررات أو تبيحه ضرورة من الضرورات ، أن تشبه المرأة بالرجل فى مسلكه وتصرفاته وتهجمه وجسارته فتختلط به فى غير تحفظ وبدون حساب . وعندى أن المرأة التى تعرض محاسنها على الرجال عرضاً لغير مبرر أو ضرورة إلا الرغبة فى الفتنة والاستمتاع ؛ كالمرأة التى تحشر نفسها وسط الرجال حشراً بغير مبرر أو ضرورة ، هى امرأة قد فقدت أخص خصائص الأنوثة ، وهى الحياء الذى يفرض عليها التناى عن الرجال والتحفظ دونهم ، والمرأة التى تفعل ذلك تقع فريسة رخيصة للرجال بغير أن تتقاضى ما تستحق من كرامة واحترام ، أو تحصل على ما تطمع فيه من ثمن وجزاء . فلتعض المرأة إذن فى الحياة حرة كريمة ، كاملة الشخصية والاعتبار ، آخذة من الحياة كل ماتيلها الحياة لبنى الإنسان ، ولتمض ولا حجاب عليها ولا عائق أو قيد إلا من إرادتها وأخلاقها وضميرها ، ولكن على شريطة أن تلتزم بعض القواعد التى يتعين على الرجال أنفسهم التزامها . وذلك حرصاً على سلامة العمران نفسه ، وتمكيناً لقواعد المدنية والحضارة . وليست هذه القواعد إلا الوقار والاحتشام ، والتحفظ والبعد عن مواطن الريب والشبهات ، ومثيرات العواطف والشهوات . وذلك نزولاً على مقتضيات العقل ومصلحة المرأة بالذات ، وما نص عليه القرآن نصاً ودعا إليه الرسول : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

« يأياها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ؛ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً<sup>(١)</sup> » .

ففى الآية الأولى تأكيد لهذا الحياء الذى يجب أن يسود علاقة الرجال بالنساء فيغض

(١) آية ٥٩ سورة الأحزاب .



كل منها بصره إذا ما التقى بالآخر. فلا ينبغي إذا حدث الرجل المرأة الأجنبية أو جادته المرأة الرجل الأجنبي عنها أن يلتهم كل منهما الآخر ببصره. وفي الآية الأولى مثل ما في الآية الثانية دعوة للتستر والاحتشام والوقار جهد الاستطاعة ؛ ليس فقط في حديث النساء ولبسهن بل وفي مشيتهن ؛ حتى لا يظهر النساء بمظهر المستهترات المتبدلات ، فيطمعن فيهن الرجال العابثين الذين لا هم لهم إلا اصطلياد النساء والجري وراءهن. إن الرجال لا يطمعون إلا في المرأة التي يأنسون منها التشجيع والإغراء ؛ فعلى المرأة الشريفة الأنية أن تبتعد جهد طاقتها عن كل ما لا يحمل الأجانب على احترامها وإكرامها والانصراف عن الطمع فيها ، فضلاً عن مضايقتها ومطاردتها .

وتطبيقاً لذلك ، فليس من الدين في شيء وليس من الأخلاق أو التقاليد ، بل ليس من الخير في شيء سواء للرجل أو المرأة والمجتمع السليم هذه الفوضى التي تجعل من النساء شبه عاريات ، وخاصة فيما يسمى بأثواب الشهرة حيث تبدو المرأة نصف عارية حاسرة ، تعرض جسدها ومفاتها ومحاسنها على الرجال ؛ فليس هنالك ما يحجز المرأة على ذلك وما يدعو الرجل لتشجيع المرأة عليه ، إلا مجرد الرغبة في الاستمتاع غير المشروع بأجساد النساء ، وإتاحة الفرص لانطلاق الغرائز والشهوات من عقلاها .

أما ما يحدث على شواطئ البحار حيث تتعري النساء والرجال على السواء إلا من أبقى القليل التافه الذي أبقى عليه لمضاعفة الفتنة والإغراء ، فهو ما لا يقره أى عقل أو ذوق سليم فضلاً عن تقليد صالح وأحكام دين ؛ فهو كهذه السهرات الراقصة ضرب من ضروب الإباحية ونشر الرغبة في جعل النساء ملكاً مشاعاً للجميع ، وهو ما أظهرنا فيما سبق خطره على المجتمع وما فيه من هدم لكيانه .

ومثل ذلك يقال عن كل لون من ألوان الرقص المشترك ، ومساهمة النساء مع الرجال في غشيان دور اللهو الحرام والعبث ؛ كالحانات والكابريهات ودور الميسر والمقاهى ، وسائر الأمكنة التي يرتادها الرجال لإضاعة الوقت وإرضاء الشهوات والتحلل من القيود . فكل هذه الأمكنة يجب أن تكون محرمة على النساء باعتبارها منكراً من المناكر التي يجب أن تحرم على الرجال أنفسهم .

وأما القاعدة الثانية التي يجب أن يقيد بها سفور النساء واختلاطهن بالرجال فهى ما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم من أن «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم» والخلوة هى أن يضم الرجل والمرأة مكان واحد يغلق عليهما أو يبعدا فيه عن أعين الرقباء ؛ فمثل هذا التصرف لا يمكن أن تدعو إليه أى ضرورة من الضرورات ، إلا أن

تكون ضرورة التواد والتقارب الجنسي ، وهو ما يجب ألا يكون إلا على أساس الزواج وبعد تمامه . فالخلوة هي ما يجب أن يتحاشاه كل من الرجل والمرأة ، فلا يجتمع أحدهما بالآخر على انفراد لأى سبب من الأسباب إلا فى حضور أحد محارم المرأة .

وما من مجتمع من المجتمعات المتمدينة التى استتب فيها القانون والنظام إلا وهذه القاعدة من أخص تقاليده مهما بلغت فيها درجة حرية المرأة وتطورها . وفى ظل هاتين القاعدتين : قاعدة التزام المرأة جانب الوقار والاحتشام فى الثياب والحديث والتصرفات من ناحية ، وعدم اختلاؤها بالرجل الأجنبي من ناحية أخرى لا يعود ثمة ما يحول بين المرأة وبين أن تشترك فى كل ميادين النشاط الاجتماعى والأدبى والسياسى ، وليس من حرج أن تقع عليها الأبصار للضرورة متى لم يكن المقصود من النظر هو مجرد الاستمتاع والافتتان ؛ إذ أنه يكون فى هذه الحالة غير مشروع ومكروه ، وذلك هو ما عناه الرسول صلوات الله وسلامه عليه عندما قال لسيدنا علىّ : « يا علىّ لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة »<sup>(١)</sup> . ذلك أن النظرة الأولى أمر تختمه الضرورة وتبيحه ، أما النظرة الثانية أو بالأحرى إدامة النظر فهى التى لا ترمى إلا إلى الاستمتاع والافتتان .

### الخلاصة

إن هذا الحجاب الذى يفرضه بعض المسلمين على نساءهم باسم الدين ، ليس أصلاً من أصول الدين ولا هو ركن من أركانه . وإن ما قيل عنه من أنه من باب سد الذريعة بدوره غير صحيح ؛ لأن العصمة الحقيقية للمرأة إنما تكون فى دينها وعملها وشخصيتها لا فى حجبها عن الأنظار وحبسها فى عقر الدار ، فقد أثبتت التجربة أن ذلك لم يؤد ولا يمكن أن يؤد إلى النتيجة المرجوة ، فضلاً عما فى ذلك من إهدار لكرامة المرأة والحيلولة بينها وبين مزاولة حقوقها التى خولتها لها الشريعة . فليس من ضير على المرأة المسلمة أن تكشف عن وجهها وكفيها فى حدود الاحتشام والوقار ، وأن تختلط بالرجال للضرورة فى مواطن الجهاد والعبادة والعلم والأسواق ، على ألا تخلو بأجنبي عنها لأى سبب من الأسباب إلا فى حضور أحد محارمها .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

## الفصل الرابع

### الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية

نعود الآن بعد هذا الاستطراد المسهب في مناقشة حقوق المرأة ونظرية السفور والحجاب إلى ما كنا بسبيل تقريره ، وهو أن الحياة الزوجية هي ما يجب أن يكون هدف كل رجل وامرأة . فالأسرة - وليس الفرد ذكراً كان أو أنثى - هي خلية المجتمع الأولى ، ولا صلاح لأى مجتمع من المجتمعات إلا بصلاح هذه الخلية الأولى . وقد حان الوقت الذى أفضل لك فيه يابنى بعض الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية ، أو بالأحرى لنجاح الأسرة وازدهارها وتوفيرها أكبر نصيب من السعادة لأعضائها وأكبر نصيب من القوة لمجتمعها . ولعل أول ما يخطر على الذهن التساؤل عن ميعاد الزواج وأوانه أو بالأحرى :

### السنّ الصالحة للزواج

لم يكن للزواج فى القديم سن معينة لا يصح الزواج قبلها إلا السن الذى تحدده الطبيعة ببلوغ الفتى والفتاة سن النضج الجنسي ، وهو أمر يتم عادة فى العام الرابع أو الخامس عشر بالنسبة للفتى وقبل ذلك بالنسبة للفتاة ، فكان الزواج يجرى فى هذه السن وحوها ، بل لقد جرت عادة الناس أحيانا على أن يزوجوا أولادهم وبناتهم قبل هذه السن ، وما ذلك إلا لأن ظروف العالم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية كانت من البساطة والسذاجة بحيث تسمح لمثل هذا النظام الذى كان ينظر فيه إلى المرأة بامتهان واحتقار ، وأنها ليست إلا مجرد وسيلة لإطفاء الشهوة وخدمة الرجل بعد ذلك . ولكن تطور أحوال العالم وتغير ظروف المعيشة ، وما أصبح على الرجل أن يحصله من علوم ومعارف واستعداد ومران قبل أن يقدر على اكتساب رزقه على وجه الكفاية لإنشاء أسرة ، وكذلك الحال بالنسبة للمرأة التى لم تعد مهمتها فى تدبير حياة زوجها وتربية أولادها بالمهمة السهلة كما كانت فى القديم . كل ذلك قد جعل من أوجب الواجبات تأخير سنّ الزواج ، ريثما يكمل نضوج الشاب واستعداده وشق طريقه فى الحياة حسب وسائل العصر وظروفه ، وذلك قد لا يتأى قبل سنّ الخامسة والعشرين إذا كان قد اشتغل

بالدراسات العالية ، وقبل ذلك بقليل إذا كان قد اختصر طريق التعلم واحتراف حرفة من الحرف ؛ وعلى أى حال فإن بلوغ هذه السن لازم لتحقيق قدر معين من تجربة الحياة ، والتخفيف من حدة اندفاع الشباب التى تكون على أشدها وأقواها قبل هذه السن . وليس معنى ذلك أنه يجب أن يحظر أو أن يحال دون أى شخص وبين الزواج قبل هذه السن ؛ فقد يتحقق النضوج العقلى والاستعداد المالى قبل هذه السن بكثير ، ولذلك فتى صار أى شخص من الأشخاص راشداً بحكم القانون فى إدارة أمواله ، فقد صار من حقه أن يتصرف أيضاً فى شخصه بالزواج ، ولكن الزواج قبل الخامسة والعشرين ربما كان سبباً فى إرهاب الشاب وعرقلة نهوضه وشق طريقه فى الحياة بنجاح . ولا ينبغي من ناحية أخرى أن يتأخر زواج الشاب بأية حال من الأحوال عن سن الثلاثين والإكثار معنى ذلك أن الشاب قد ضيع زهرة شبابه والحلقات الأولى من رجولته فى الاضطراب والفوضى والتيارات الخطرة والحياة القلقة .

أما بالنسبة للفتاة فكل زواج قبل نهاية العقد الثانى من عمرها (أى قبل العشرين) هو زواج مبتسر سابق لأوانه ، وليس من شأنه فى أيامنا الحديثة أن يهبى زوجة وأما ناضجة من الناحية العقلية ، بعد أن صارت تربية الأبناء تربية صالحة تستدعى قدراً كبيراً من العلوم والمعارف ، ومصاحبة الزوج فى حياته ومشاركته آراءه وأفكاره وأحزانه وأفراحه وعلايته وأسراره تستدعى درجة علمية من الثقافة ، بل إن طبيعة حياتنا العمرانية قد قللت من استعداد المرأة البكر للاضطلاع بأعباء الحمل والوضع والرضاعة والحضانة فى زمن مبكر ؛ فأصبح لابد لها من سنوات أكثر بعد نضوجها الجنىسى لتؤدى وظيفتها فى الأمومة بغير إضرار بصحتها . وسن العشرين أو حول ذلك هى السن التى تستطيع فيها الفتاة أن تكون صديقة لزوجها وشريكة له منذ اليوم الأول لزواجها ، وأن تكون أمّاً صالحة منذ اليوم الأول لميلاد طفلها الأول .

### وجوب التكافؤ بين الزوجين

ومن ألزم لوازم الزواج لإمكان نجاحه وتوفيقه وتحقيق أجمل صوره وغاياته ، أن يكون هناك تكافؤ بين مختلف ظروف المرأة وظروف الرجل . وليس معنى ذلك أنه يجب أن يوضع قيد على حرية المرأة أو الرجل فى اختيار الزوج الذى يريد . فهذه مسألة يجب أن تترك للشخص نفسه ولا يصح التدخل فيها بحال ؛ لأنها من حقوق الفرد المقدسة رجلاً كان أو امرأة . ولكن الذى يحسن بالرجل أو المرأة اللذين يريدان أن ينميا بزواجهما

وأن يوفقا فيه أن تكون ظروف كل منها متقاربة من حيث البيئة والثقافة . والغنى والجمال والسن والجنسية .

فالرجل الرفيع الذى يتزوج بوضيعة كالرفيعة التى تتزوج بنحس ، لا يمكن أن تستقيم لها حياة زوجية ، والغنية التى تتزوج بالفقير ، والغنى الذى يتزوج بفقيرة ، والجميلة التى تتزوج بدميم والجميل الذى يتزوج بدميمة ، والصغير الذى يتزوج بكبيرة والكبير الذى يتزوج بصغيرة ، والوطنى الذى يتزوج بأجنبية والوطنية التى تتزوج بأجنبي كل هذه مفارقات من شأنها أن ترتطم بها سفينة الحياة الزوجية إن عاجلاً أو آجلاً ، فعرضها للدمار والبوار ، فيما خلا الأحوال النادرة الشاذة التى لا يجب أن يقاس عليها أو أن تكون قاعدة من قواعد الزواج .

إن أول ما يوصف به الزواج المنطوى على إخلال بالتوازن بين الزوج والزوجة أنه لم يكن خالصاً لوجه الله ، أو بالأحرى لوجه الحياة الزوجية كما أعدها الله وهبها لتكون سكناً للزوجين ومحبة ووداداً وصداقة ، وإنما هو زواج قد أريد به المنفعة والمآرب المادية وإرضاء الشهوات العاجلة ، ومحال أن يستقيم زواج بُنى على المطامع أو الغلو فى الشهوات . إن أخص خصائص الزواج أن ينظر كل من الزوجين إلى الآخر باحترام وتوقير ، وأن يكون محل ثقته ، ولن تحترم المرأة رجلاً تزوجها لمالها أو جاهها ونفوذ عائلتها ؛ كما أن المتعلم لن يستطيع أن يكرم امرأة جاهلة ، والوطنى لن يستطيع أن يحظى بكل عاطفة الأجنبية التى عاشت ونمت وترعرعت فى بيئة غير البيئة ، ولها ذكريات وآماكن تتجه نحوها ببرها وعاطفتها غير التى يألّفها أو يكرمها زوجها .

ولقد دلت التجارب على أن كل زواج مبنى على غير التكافؤ أو التوازن كما نسميه لا يلبث أن ينفرط عقده لدى قيام أزمة بين الزوجين ، إذ سرعان ما يقذف الطرف الممتاز الطرف الآخر فى وجهه بما هو عليه من نقص أو خسارة فلا يمكن أن تستقيم الحياة بعد ذلك أبداً ؛ كأن يقول الغنى للفقيرة : لولاي لكنت الآن تنسولين . أو كأن تقول الرفيعة للوضيع : إنها كانت مجنونة عند ما قبلت الزواج بنحس مثله . أو أن تقول الإنجليزية لزوجها المصرى : ما أنت فى نهاية الأمر إلا متوحش همجى أفريقى وهكذا .

والزواج كآية شركة من الشركات لا يمكن للإنسان أن يحرص عليها إلا إذا وجد فائدته المحققة فى الاحتفاظ بهذه الشركة ، ولن يشعر كل من الزوجين بالاطمئنان إلى الشركة الزوجية إلا عندما يدرك كل الإدراك أنه لم يكن مغبوناً فى صفقته من أى وجه من الوجوه .

على أن الخطر الأشد الذى نجم من كل زوجية غير متكافئة ، إنما يتجلى بالنسبة للأولاد الناجمين عن هذا الزواج ، حيث تقتضى أصول التربية أن يكرموا أبويهم وأن ينظروا إليهما بتوقير واحترام . فإذا كان أحد الأبوين على جانب من التفوق والامتياز فى ناحية من النواحي دون الآخر ، شَبَّ الأولاد وشقهم مائل نحو أحد الأبوين وهم معرضون عن الجانب الآخر ؛ فيحيطون أهمهم أو أباهم حسب الظروف بتقديرهم واعتبارهم وإقبالهم وطاعتهم بينما يزدرون الطرف الآخر ولا يقيمون له وزنًا . ولن يكون مثل هؤلاء الأولاد نافعين لأنفسهم أو أسراتهم أو وطنهم ؛ لأن مركز التوازن فى نفوسهم قد اختل واضطرب .

### وجوب رضا الزوجين عن العقد طواعية واختيارًا

وإذا كانت الكفاءة بين الزوجين ضرورة لنجاح الأسرة مرة واحدة ، فإن الرضا المتبادل بين الزوجين والسابق على إتمام العقد ضرورى مائة مرة ؛ فلن تفلح أسرة شيدت على الإكراه والعنف وإغفال موافقة أحد الطرفين . فالزواج وهو ليس إلا عقدًا يربط شخصين إلى الأبد ، بل ويربطهما بأقوى من رابطة الدم ، ويرتّب عليه من النتائج القانونية والمالية والاجتماعية ما لا يرتّب على إبرام أى عقد آخر من العقود هو فى مقدمة العقود إيجابا للرضا المتبادل بين المتعاقدين ، وأن يكون رضا عن طواعية واختيار غير مشوب بإكراه أو غش أو تدليس . وهذا ما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على النظر إلى المخطوبة قبل الزواج ويقول « فإن ذلك أخرى أن يؤدم بينكما » حتى يكون الزواج عن اختيار ورضا وهذا ما حدا به من ناحية أخرى إلى أن يجعل موافقة البنت على الزواج ركناً أساسياً من أركان الزواج الذى لا يتم إلا به ، حتى ولو كانت البنت جارية صغيرة لم تبلغ بعد سن الرشد : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن » . ولذلك كان من أوجب الواجبات أن يحيط كل من الزوجين بظروف الآخر قبل الزواج ، وأن يراه وأن يرى من أحواله وظروفه ما يحمله على الاقتران به ، والاشتراك معه فى تأسيس الأسرة وإنجاب نسل مشترك .

وغنى عن البيان أن ما يتمشّدق به بعض الجهال والمتعصبين من أن بناتهم لا رأى لهم فى الزواج إنما الكلمة كلمتهم أولاً وأخيراً ليس من الدين أو الحكمة فى شيء ، وأن زمنه قد زال وانتهى لا منذ القرن العشرين كما يتوهم البعض بل منذ القرن السابع الميلادى بعد بعث الرسول العربى الكريم<sup>(١)</sup> .

(١) راجع ما ذكرناه عن حق المرأة فى التصرف فى شخصتها بالزواج وغيرها فى الفصل الثانى ...

## الصحة الجسدية ووجوب كمالها في الزوج والزوجة

وثمة شرط مجوهري آخر ، يجب أن يتوفر قبل المضي في عقد أى زواج أو بناء أى أسرة ، وذلك هو الصحة الكاملة لكل من الزوجين وخلو كل منهما من الأمراض السرية الخبيثة ، أو الأمراض المزمنة الخطيرة كالسل والسرطان والجنون . فإن هذه الأمراض كلها تنتقل بالعدوى لا إلى الطرف الثانى فحسب بل وإلى الأولاد من بعد ؛ فيشبون منكوبين بأمراض مستعصية لا حيلة لهم في التخلص منها ولا سبيل لتذوق الحياة مع سريانها في دماهم . إن قانون الوراثة هو قانون مطرد ينقل إلى الأبناء كل خصائص الآباء ، ويورث الأبناء أحسن ما فى الآباء والأمهات من خصائص ؛ فلو اهتم كل صحيح الجسد والعقل ألا يتزوج إلا بمن هى صحيحة الجسد والعقل ، لشب الأطفال فى أحسن حالة من حيث القوى البدنية والعقلية والاستعداد للحياة والتطور . وتلك هى سنة الله فى خلقه ، وقد اكتشفها الإنسان منذ أقدم العصور واستخدمها فيما استأنس من حيوانات ونباتات ؛ فراح لا ينمى منها إلا السلالات الجيدة ذات الخصائص الطيبة . والإنسان أخرى من الحيوان والنبات بتطبيق هذه القاعدة على نفسه لتجسين النوع وارتقائه ، وإنجاب نسله فى خير الظروف وأكملها ؛ وتلك مسألة يجب أن يتدخل فيها التشريع ، فلا يؤذن بزواج إلا بعد تحقق فعلى من سلامة جسدى الزوج والزوجة من كل مرض خطير أو معد مستعص ينتقل بالوراثة ، وأن يتحقق كذلك من القوى العقلية وسلامة مراكز الأعصاب الحيوية ؛ فإن بعض الأشخاص يكونون محتلى الأعصاب اختلافاً يورث شركاءهم فى الحياة شر المتاعب والآلام ، ويورث هذا الاختلال لأولاده من بعده . وهذه أمور يجب أن تعالج قبل الزواج ، بحيث لا يقترن الإنسان ولا يختار أمماً لأولاده إلا صحيحة قوية فى جسدها وقواها العقلية والعصبية ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» . وليس أقل درجة فى الأهمية مما سبق وجوب التأكد قبل الزواج من صلاحية كل من الزوج والزوجة للقيام بوظيفة الزوجية الحيوية ، وأعنى بها التناسل . فليس هناك ما يقوّض هناء الأزواج وما يهد كيان الأسرات من عجز أحد الزوجين عن أداء وظيفته الحيوية ، مع أن بعض التوجيهات والإرشادات والعلاجات الطبية التى تعطى للزوج أو الزوجة قبل الزواج قد تضعف فى سعادة الزوجين وتدعيم حياتهما الزوجية . وهذه مسألة من أكبر ما تعنى به الشريعة الإسلامية التى تبيح الطلاق بناء على طلب المرأة أو الرجل ، إذا اكتشف كل منهما فى الآخر بعد الزواج عيباً خفياً فى هذه الناحية كعجز الرجل المطلق عن القيام بوظيفته الجنسية . فلو جرى التحقيق قبل الزواج من سلامة الزوج وصحته ، والمرأة وصحتها لاستغنى عن طلب الطلاق المتأخر

لهذا السبب ، والذي يحرم وراءه الفضيحة والعار والزراية . فالكشف الطبي السابق على الزواج والذي يتعين على التشريع أن يفرضه ، يجب أن يتناول فيما يتناول هذه الناحية ، على ألا تكون سبباً مانعاً للزواج إذا ارتضته المرأة وقبلت الرجل على أساسه ، وذلك على خلاف الأمراض الخطيرة الأخرى ؛ كالزهري أو السل أو السرطان التي يجب ألا يتم الزواج بأى حال من الأحوال مع قيامها .

### حق كل من الزوجين على شريكه

إذا توافرت الكفاءة بين الزوجين وتم اقترانها عن رضا واختيار ، وكانت قواهما الجسدية والعقلية صحيحة : سليمة ، فليس هناك ما يحول دون نجاح الحياة الزوجية واستمرارها مدى حياة الزوجين ، بل وبعد وفاة أحدهما حيث يستمر الآخر مخلصاً لذكره أمة على عهده راعياً لأولاده ، واصلأ ما وصل مقاطعاً ما قطع مكملاً لما بدأ . بل إن نجاح الزوجية يتجلى أثره فيما وراء ذلك في هؤلاء البنين والحفدة ، الذين تنفرع إليهم شجرة الأسرة ، بحيث تصبح وقد طاب جناها وتضوع أريجها ، وثبت أصلها وارتفع فرعها إلى السماء . على أن نجاح الأسرة وتوفيقها الكامل وقيامها بدورها في الحياة ينبوعاً للسعادة والهناء للزوجين والأبناء ، لا يتم أو يتحقق إلا إذا راعى كل من الزوجين حقوق الآخر عليه وحق الأبناء عليها وحقها على الأبناء .

وتتلخص هذه الحقوق في كلمات قلائل : الطاعة لرب الأسرة ، والإكرام لربتها والبر والرعاية بالأبناء .

فأما الطاعة لرب الأسرة ، نعني به الرجل ، فهذه هي حجر الزاوية في بناء الأسرة وضمان هئتها ورفقها وتطورها ، فالرجل على زوجته حق الطاعة ... الطاعة التامة المطلقة التي لا تحتل جديلاً أو مناقشة ، فإذا قُطِر الرجل ، في هذا الحق أو نازعته فيه زوجته اضطربت الحياة الزوجية وتزعزعت ، ولم تلبث أن تعثرت أو يحيق بها الدمار . ذلك أن الزواج ليس إلا شركة ، ولا بد لكل شركة من رئيس يديرها ويتكلم باسمها ، ويكون صاحب الكلمة الأخيرة في شئونها ؛ ليتمكن البت في مصالحها وكل ما يحقق سعادتها ونفعها . وعلى الزوجة أن تدخل في طاعة زوجها دون أن ترى في ذلك أى غضاضة أو مساس بحريتها وكرامتها ، ما دامت قد دخلت في هذا الزواج حرة مختارة ، وكانت لها الكلمة الأخيرة في ارتضاء الرجل الذي خولته حق رئاسة الشركة الزوجية . وهى في ذلك تشبه الجماعة في أمة ديمقراطية ، حيث تختار من بينها رئيساً توليه زمامها ، وقيادتها ، وتخضع له وتطيع ، بدون أن يكون في ذلك أى معنى للمساس بحريتها أو كرامتها أو



حقوقها ؛ لأن الرئيس لم يفرض عليها فرضاً ولم تكره على الخضوع له ، وإنما فعلت ذلك لتحقيق النظام ، وبناء المجتمع الذى لا يمكن أن يستغنى عن رأس يديره ، ويدين له سائر الأعضاء بالولاء والطاعة .

قد يقول قائل : ولكنك وقد سويت بين الرجل والمرأة فى كافة الحقوق والواجبات ، لماذا تخص الرجل بحق الرئاسة دون المرأة دائماً ؟ ولماذا لا تكون هذه الرئاسة بحسب الظروف ؛ فتارة تكون للرجل وتارة للمرأة . الجواب على ذلك : أن الوضع الطبيعى قد قضى بهذه الرئاسة للرجل ؛ لأن الرئاسة دائماً من نصيب الأقوى والأقدر على حماية المجموع والدفاع عنه ، ولا مراة فى أن الرجل بصفة عامة أقدر من المرأة على حماية مصالح الأسرة والدود عنها والكدح من أجل تدبير معاشها . وذلك هو دوره الذى أعدته من أجله الطبيعة ، وسلحته بما يحتاجه من أسلحة فزادته بسطة فى الجسم والعقل (حسباً تدل عليه التشرىحات الطبيّة) . والرجل من ناحية أخرى هو المسئول عن إعاشة الأسرة وإعالتها ، وبقدر المسئولية تكون الحقوق . ومن أجل ذلك وجب أن يكون الرجل هو رئيس الأسرة الزوجية دائماً ، ولا عبرة بالاستثناءات والأحوال الشاذة ؛ حيث تتزوج امرأة قادرة برجل عاجز أو غنية بفقير أو عالة بجاهل . فقد بينا فيما سبق ، أن مثل هذا الزواج الذى لا تتحقق فيه الكفاءة بين الزوجين هو زواج غير طبيعى وغير عادى ، ولا يمكن أن ينشأ عنه إلا الاضطراب وانقلاب الأوضاع<sup>(١)</sup> . أما فى الزواج الطبيعى حيث تتكافأ ظروف الرجل والمرأة يكون الرجل هو الأحق بالرئاسة ؛ لأنه يكون أكثر تفوقاً وأكثر قدرة على القيام بأعباء الأسرة . فابقيت المرأة غير متزوجة فحقها فى المساواة المطلقة مع الرجل هو حق كامل فى كل شأن من الشئون ، بحيث يحق لها ألا تطيع غير عقلها وهواها ، ولكن بعد أن تصير زوجة فقد وجب عليها أن تقدم زوجها بطاعته والرضا برئاسته ، حتى تستقيم الحياة الزوجية ويطرد نجاح الأسرة ، وذلك هو ما قصد اليه القرآن الكريم بقوله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »<sup>(٢)</sup> . وليست هذه الدرجة سوى حق الطاعة الواجب للزوج على زوجته .

على أن هذه الطاعة المفروضة على المرأة لزوجها ليست طاعة عمياء كطاعة العبد لسيده ، وليست طاعة بدون قيد أو شرط أو حدود ، وإنما هى كطاعة الأحرار

(١) وعلى كل حال فى أمثال هذا الزواج الذى تكون فيه المرأة هى الطرف الأقوى تتولى المرأة رئاسة الأسرة فعلاً ، وبعض النسوة يشترطن أن تكون عصمتن فى أيديهن وهو مظهر من مظاهر رئاسة الأسرة .

(٢) آية ٢٢٨ سورة البقرة

لرئيسهم ، تعتمد على الثقة بشخصه ، والإيمان بإخلاصه ، والصلاح في تصرفاته ؛ وعلى شريطة ألا يبرم الرئيس أمراً إلا بعد مشاورة أعوانه وأنصاره ؛ حتى يستبين له الرأي وتتضح الحجة ؛ فإذا شاء مضى فيما اعتزم بما له من حق الرئاسة ، أو رجع عن الخطأ إلى الصواب وعن الرأي إلى ما هو خير منه . فإذا استبد الرئيس بالأمر ، وبأن في تصرفاته سوء النية والكيد والرغبة في الإضرار والإساءة ؛ كما لو كانت آراؤه وتصرفاته ظاهرة الفساد والبطلان ؛ فقد سقط حق الطاعة المفروض له ، وصارت الجماعة في حيل من خلع طاعته والتحرر من رئاسته . وعلى ضوء هذه القواعد العامة يجب أن تسير الأمور في الشركة الزوجية ؛ فيتبادل الزوج مع زوجته الرأي ويشاورها في الأمر ، نزولاً عند قول القرآن الكريم : « وأمرهم شورى بينهم »<sup>(١)</sup> . ولقد أشار القرآن إشارة صريحة إلى حق التشاور بين الزوج وزوجته في قوله تعالى : « فإن أرادا فصلا عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليهما »<sup>(٢)</sup> . فالمشاورة بين الزوجين واجبة في كل ما يتصل بشئون الأسرة وأحوالها ، بل إنها يجب أن تمتد إلى كل ما يقوم به الرجل من عمل ، فليس هناك كالزوجة المخلصة الصادقة ، مستشار أمين لزوجها ، تهديه بعاطفتها ، وتحميه بغريزتها . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من هو ، يستشير زوجاته ويأخذ برأيهن في بعض الأمور العامة . وقد ذكرنا فيما سبق موقف السيدة خديجة من الرسول عندما جاءها فرعاً مضطرباً من هول ما رأى<sup>(٣)</sup> .

وقد روى لنا مسلم حديثاً من أروع الأحاديث ، عن سيدنا عمر بن الخطاب في هذا المعنى ؛ لإظهار حق المرأة في مراجعة زوجها ، وإبداء رأيها في كل ما يعن له من أمور على أن يكون الرأي الأخير لزوجها ؛ قال عمر رضي الله عنه : « والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ؛ فبينما أنا في أمر أأتمره إذ قالت لي امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؛ فقلت لها : وما لك أنت ، ولما هاهنا ! وما تكلفك في أمر أريده ! فقالت لي : عجباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن

(١) آية ٣٨ سورة الشورى .

(٢) آية ٢٣٣ سورة البقرة .

(٣) وقد سجل التاريخ في معرض آخر ، كيف عمل الرسول فيه بنصيحة زوجته أم سلمة في صلح الحديبية . إذ دخل عليها غاضباً ناثراً ينهى على المسلمين ترددهم في طاعته وقعودهم عن تلبية ندائه لهم بالارتحال بعد إبرام الصلح . فأشارت عليه بما سكن غضبه وهدأ من روعه ، ودعته إلى أن يعود إليهم فيبدأ بتنفيذ ما طالب منهم إنفاذه هو (حلق الرأس) ففعل الرسول بنصيحتها ونفذ مشورتها ، فإما كان من المسلمين إلا أن تسابقوا في حلق رؤوسهم أسوة به ، وهم الذين كانوا قبل ذلك بدقائق قليلة يعارضون في ذلك الأمر ويتململون .

تراجع أنت ، وإن ابتكت لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . قال عمر : فأخذ ردائي ثم أخرج من مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه ، فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية لا تغرنك هذه التي قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ؛ ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها فقالت لي أم سلمة : عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال : فأخذتني أخذًا كسرتني عن بعض ما كنت أجد .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسح المجال لزوجاته في إبداء الرأي ؛ حتى ليصل بهن الأمر إلى حد مغاضبته وهو صابر على ذلك لا يرى فيه حرجا ، فكان بالأحرى ينبغي على كل رجل وهو لم يبلغ مبلغ الرسول أن يكون أمره شورى مع زوجته ، وأن يعمل بنصيحها ورأيها كلما ظهر له رجاحة رأيها .

ويجب على الرجل من ناحية أخرى ألا يكلف زوجته بما لا يطاق ، وبما لا يجوز أن تطيعه فيه عقلاً أو شرعاً ؛ كما لو دعاها إلى ما يضر بصحتها أو يخل باعتبارها وشرفها وكرامتها ، أو يؤذي الأسرة وينال منها ؛ إذ لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، ومعصية الخالق أظهر ما تكون في الإخلال بسنن المجتمع ونواميسه وأنظمتها التي شرعها الله أو تواضعت عليها الجماعة .

### حق الزوجة على زوجها

وإذا كنا قد فرضنا على المرأة واجب الطاعة لزوجها ، فإن مقابل هذا الواجب حقها على زوجها في إكرامها واحترامها ، بل إن الطاعة لن تتوافر بحال من الأحوال إلا إذا تحققت هذه الكرامة التي هي شرط أساسي . فعلى الزوج أن يكرمها ويرعاها ويحترمها ويحلمها ؛ فليس هناك ما هو أولى بالتكريم والمراعاة من المرأة العفيفة البارة العاملة ، فهي خير ما في الدنيا كلها من نعم ، وهي الصديقة فوق الأصدقاء ، والوفية قبل الأوفياء ، هي قوة الرجل وعدته وناصرته ومشيرته ، هي حصنه الحصين وركنه الركين الذي يأوي إليه بعد الكد والتعب والاضطراب ، والألم واليأس والحزن ، فيجد عندها ما يذهب بالآلامه ويخفف هواجسه ، وما يهدئ روعه ويثبت جنانه ، وما يشحذ عزيمته ويجدد نشاطه وقوته ، فينتقل من جديد إلى الحياة وقد تجدّد فيه الأمل واشتدّ ساعده . وهذه هي المرأة الصالحة أولى المخلوقات بالإكرام والرعاية . وهي التي عناها الرسول صلى الله

عليه وسلم بقوله : «خير ما يكثر في الدنيا المرأة الصالحة إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» <sup>(١)</sup> . فإكرام النساء واجب على الرجال مفروض ، لا يدعه الرجل إلا إذا كان ناقص الرجولة قليل المروءة . أو كما قال رسول الله : «ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم» <sup>(٢)</sup> . وآيات القرآن تترى كلها في الحض على إكرام النساء وإحسان معاملتهن . وكانت آخر وصاية لرسول الله في حجة الوداع للمسلمين أن يحسنوا إلى المرأة ويكرموا مثواها ومعاملتها : «وعاشروهن بالمعروف» <sup>(٣)</sup> . «فأمسك بمعروف أو تسريح بإحسان» <sup>(٤)</sup> . «فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف» <sup>(٥)</sup> . «يأياها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً» <sup>(٦)</sup> . «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» <sup>(٧)</sup> . وهكذا لم يشر القرآن إلى النساء في أى آية من الآيات إلا ودعا إلى إحسان معاملتهن وإكرامهن ، حتى في حالة الانفصال عنهن وتطليقهن . وليس وراء ذلك إعزاز للمرأة أو إكرام ، بل إن القرآن ذهب إلى حد إيجاب الإحسان في المعاملة حتى ولو كره زوجته ، وأعدا إياه بأن الخير قد يكون فيما يكره «وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» <sup>(٨)</sup> .

ومن إكرام الرجل لزوجته أن يظهر لها جانب اللين والرقّة والتواد ، فلا يحاسبها على التافه من الأمور ، ويغضى عن هفواتها ، ويشاركها في القيام بأعمالها ، فقد سئلت السيدة عائشة عما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله فقالت : «كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة» <sup>(٩)</sup> . وإذا كان ذلك فعل النبي فهو ببقية الرجال أوجب . وما ذلك كله إلا لإظهار التعاون والتعاطف والاشتراك بين الزوجين .

(١) أبو داود وأبو يعلى وغيرهما .

(٢) رواه ابن عساكر .

(٣) آية ١٩ سورة النساء .

(٤) آية ٢٢٩ سورة البقرة .

(٥) آية ٢٣١ سورة البقرة .

(٦) آية ٢٨ ، ٢٩ سورة الأحزاب .

(٧) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

(٨) آية ١٩ سورة النساء .

(٩) رواه البخارى .

ويجب على الزوج أن يكون واسع الصدر متسامحاً إذا ما أخطأت الزوجة أو غضبت أو أفلتت أعصابها ، فللنساء بحكم طبيعتنَّ ثورات عاطفية جامحة إذا لم يحتملها الإنسان بصدر رحب فربما ساءت العاقبة . فعلى الرجل دائماً أن يصبر وأن يتسامح في كل ما لم يبلغ إلى حد تهديد مصالح الأسرة وكيانها وكرامتها أو حقه في رئاستها ، فهنا يتعين على الرجل أن يكون حازماً صلباً متشدداً ، وإلا شاعت الفوضى في الأسرة واضطربت والمختلت .

### بحث في تعدد الزوجات

وما يتصل بموضوع إكرام النساء واحترامهن وإحسان معاملتهن مسألة تعدد الزوجات ، وما يجب أن يوضع لاستعمال هذا الحق من نهاية في عصرنا الحديث ، بعد أن تطورت الظروف الاقتصادية والاجتماعية لأحوال العالم ، بحيث بات من المتعذر استعمال هذا الحق والاحتفاظ بكرامة المرأة في نفس الوقت . ومن الحق علينا أن نبين موقف الدين الإسلامي من هذه القضية كما فعلنا في جميع المسائل السابقة .

لاجدال أنه من حق المسلم بموجب نصوص القرآن وسنة الرسول والصحابة ، وما جرى عليه إجماع المسلمين في فترة من الزمان أن يتزوج بأكثر من واحدة وأن يتزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً ، ولكن الذي لا جدال فيه أيضاً أن روح التشريع الإسلامي تهدف في هذا الأمر صوب التضييق ، وتعتبر كل إقلال فيه فضيلة بحيث يمكن القول أن تحديد الزواج بواحدة من أهم الأغراض التي تقرها الشريعة الإسلامية بل وتستحبها . فقبل نزول الإسلام كان حق الرجل في تعدد الزوجات حقاً مطلقاً من أي قيد أو شرط ، فللرجل أن يتزوج بمن يشاء من النساء وأن يطلق منهن من يشاء ، وأن يتصرف فيهن بكافة حقوق التصرفات . ولم يكن ذلك وقفاً على بلاد العرب ، كما قدمنا ، بل في جميع أنحاء العالم القديم ، بما في ذلك العالم المسيحي نفسه . وقد يكون من الطريف أن نذكر في هذا الصدد ما تشير إليه التوراة من زواج سليمان بن داود من ألف امرأة ، وما يشير إليه القرآن نفسه من زواج داود بتسع وتسعين امرأة .

فلما جاء الإسلام بدأ يضع القيود والحدود لهذا التعدد ، ويرى فيه مضرة من أكبر المضار ؛ فعمل على تنظيمه وتهذيبه وإصلاح مفاسده . ولكن سنة الإسلام في هذا الموضوع كانت كسسته في سائر الموضوعات الأخرى ، وهو الأخذ بسنة التدرج والترقي إلى أن ينتهي إلى الصورة الكاملة من النظام المنشود . وأوسع صورة من صور التعدد الزوجي في التاريخ الإسلامي هو تعدد زوجات النبي ؛ إذ بلغ عددهن عند وفاة النبي

صلى الله عليه وسلم تسع نساء ، وقد كان هذا الأمر هو أكبر حجة يتذرع بها دعاة التوسع في الزواج ، والذين يصرون على حق الرجل الكامل في تعدد أزواجه . ولكن دراسة بسيطة للظروف التي أدت بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى جمعه هاته الزوجات سرعان ما تنتهى بنا إلى أنها كانت ظروفًا خاصة بالرسول في هذه الفترة من حياة الإسلام وهذه البيئة ، ونعني بها جزيرة العرب وعقلية قبائلها ونفسية رجالها . أما بالنسبة لسيدنا محمد ، كرجل فرد ، فقد تزوج السيدة خديجة التي لم يعدل بها زوجة أخرى ، ولم يضم إليها زوجة أخرى طوال شبابه والحلقات الأولى من رجولته ، أى حتى الخمسين من عمره طوال مدة إقامته في مكة داعيًا إلى رسالة الحق والنور . وقد ظل هذا شأن سيدنا محمد إلى أن ماتت السيدة خديجة ، وانتقل الرسول إلى المدينة حيث بدأت فترة جديدة من حياة الرسالة كان فيها الرسول يعمل لإقامة الدولة الإسلامية ، فبدأت توجد اعتبارات تُملى على رسول الله أن يجعل بينه وبين أنصاره وأتباعه عروة الدم والنسب ، وهى أقوى ما يربط العرب في شبه جزيرتهم ، وذلك إلى جوار عروة العقيدة والإيمان . ومن يجهل نفسية العرب وروحهم البدوية التي تجعل الأسرة والقبيلة محور حياتهم ، لا يستطيع أن يدرك تمامًا الدواعي التي أدت برسول الله إلى المصاهرة إلى كبار أعوانه وأنصاره ؛ كالزواج بعائشة وحفصة ، والمصاهرة إلى كبار أعدائه إبان حربهم له ليكسر من وحدتهم ، كما كان الحال في زواجه بأُم حبيبة بنت أبي سفيان ، أو بعد هزيمتهم ليطيب خاطرهم ويؤلف قلوبهم ، كزواجه بجويرية بنت الحارث زعيم بنى المصطلق ، أو صفية اليهودية بنت حبي بن أخطب .

فلم يكن بين هذا العدد الكبير من النساء الذى جمعه الرسول حوله ، وارتبط به برباط الزوجية من هو حقيقى باختيار الرجل العادى إلا واحدة أو اثنتين . على أن القرآن لم يلبث أن حرم على النبى المضى في الزواج لتأليف القلوب ، وحظر عليه الزواج بأكثر من تزوج بهنّ لأى سبب من الأسباب ، ولو كان هذا السبب هو الإعجاب بحسَنهنّ ، وذلك بقوله تعالى : « لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسُنهنّ »<sup>(١)</sup> . فهذا تحريم على النبى أن يمضى في التعدد إلى ما شاء الله ، وهو دليل على أن الإكثار من النساء أمر مكروه ، وإلا لأبيح للرسول أن يمضى فيه تحقيقًا للفائدة التي تزوج من أجلها الرسول بمن تزوج . قد يقول قائل : إن القرآن قد حرم على النبى الزواج بأكثر من تزوج بهنّ لثلاثين سنة بين المسلمين ، ولكن هذا القول

(١) آية ٥٢ سورة الأحزاب .

يرده أن زواج النبي قد اعتبر خصوصية من خصوصياته لا محلّ للقياس عليها ، فحظر الزواج على النبي فوق من تزوّج يحمل في طياته من غير شك كراهة الإكثار والتعدّد .

نتقل بعد ذلك خطوة أخرى فنقول : لو لم تكن روح الشريعة الإسلامية تنفر من التعدّد ، لما كان هناك محل لعدم مساواتها سائر المسلمين برسول الله في عدد الزوجات ؛ لأن أي عمل يأتيه النبي مفروض فيه أن يكون خيراً مطلقاً ، صالحاً للاقتداء والتأسي به . بل إن السير على هدى الرسول هو ركن أساسي من أركان الدين « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »<sup>(١)</sup> . ولكن الشريعة الإسلامية استثنت موضوع الزواج بأكثر من أربع فجعلته خاصاً برسول الله ، وحرمت على المسلمين أن يتزوّجوا بأكثر من أربع في قول الله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »<sup>(٢)</sup> . وهكذا بدأت دائرة التعدد تضيق . فبعد الإباحة المطلقة التي كان البشر يسرون عليها ، رأينا القرآن يحرم على الرسول أن يزيد على تسع زوجات ، ثم حرم القرآن على بقية المسلمين أن يزيدوا عدد زوجاتهم على أربع ؛ وفي ذلك دليل على استحباب الشريعة للإقلال من النساء . على أن الشريعة قد ذهبت إلى أبعد من ذلك كله في إظهار رغبتها عن الإكثار من الزوجات ، فلم تدع الزواج بأربع زوجات حراً طليقاً من كل قيد أو شرط ، بل قيدته بقيد صعب التحقيق ، إن لم يكن مستحيلاً على الإطلاق ، وذلك القيد هو العدل التام المطلق والتسوية بين الزوجات تسوية تصل إلى أدق التفاصيل التي لا يستطيع أن يتصوّر إنسان إمكان القيام بها ، كما حدث في مرض موت رسول الله حيث كان يُطاف به كل ليلة محمولاً على فراش المرض ليبيت عند صاحبة الدور في البيت . ولست أحسب أن وراء ذلك إرهاباً وإعنائاً للرجل ، ولكن ذلك الشرط الوحيد لإجازة الشريعة الإسلامية الزواج بأكثر من واحدة وقد حذرت المسلمين من إهمال هذا الشرط وحثتهم على الاكتفاء بزوجة واحدة إذا لم يأنسوا من أنفسهم القدرة الكافية على توفية الشرط وذلك بقول القرآن الكريم : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »<sup>(٣)</sup> . بل لقد ذهب القرآن إلى حدّ كاد يلغى معه هذا الحق أصلاً وذلك بقوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »<sup>(٤)</sup> . فهذا نقي قاطع ينفي به القرآن إمكان العدل ، ومتى انتفى العدل فقد وجب الاكتفاء بواحدة .

(١) آية ٧ سورة الحشر .

(٢) آية ٣ سورة النساء .

(٣) آية ٣ سورة النساء .

(٤) آية ١٢٩ سورة النساء .

وهناك حادث في حياة الرسول ، قد جاء معزراً لفكرة كراهية التعدد بما لا يدع بعده مجالاً للمناقشة في هذا الموضوع ؛ فقد روى عن المسور بن مخرمة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا بنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يجب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما ابنتي بضعة مني يربيني ما رابها ويؤذيني ما أذاها<sup>(١)</sup> » . فهذا رسول الله يأبى على سيدنا علي بن أبي طالب أن يتزوج زوجة أخرى إلى جوار ابنته ، ويشترط عليه إذا شاء هذا الزواج أن يطلق ابنته ، ويبني ذلك على أن ما يؤذى ابنته إنما هو إيذاء له ، وهو تصريح من الرسول صلوات الله عليه أن الزواج على المرأة بأخرى فيه إيذاء لها . فلو أن التعدد في الزواج أصل من أصول الإسلام ، ولم تكن الشريعة الإسلامية تكره بالفعل استعمال هذه الرخصة ، لما اعترض الرسول على سيدنا علي في تفكيره في الزواج بأخرى ، ولما اشترط عليه طلاق ابنته ؛ وهو الأمر الذي ترتب عليه أصل من أصول الفقه . وهو أنه باستطاعة أى امرأة أن تشتري على زوجها ألا يتزوج عليها امرأة أخرى ، فإذا تزوج فتكون طالقة منه ومتى كانت هذه روح الإسلام ونصوصه ومراميه فقد أصبح من الجائز في كل عصر وزمان معالجة هذا الموضوع بما يتفق مع حاجة العصر ومصلحته ، ويدراً المفاسد والشور التي قد تنجم من وراء الإسراف في استعمال هذا الحق ؛ تطبيقاً للقاعدة الجوهرية « لا ضرر ولا ضرار » وأى ضرر أكثر من تفكيك روابط الأسر ، وإثارة الإحزن والبغضاء بين الضرائر وأسرهن وبين الأولاد وبعضهن . والحق أن أى رجل يتمتع بنصيب موفور من الثقافة ، لا يمكن أن يُقدم في عصرنا الحديث على الزواج بأكثر من واحدة كما هو المشاهد وهذا دليل على أن الطبع أصبح ينفر من هذا الازدواج في المعيشة ؛ لما يجره من آثار سيئة على الزواج والأبناء . فالرجل يقضي أيامه في ثورات متصلة تقع من هذه الزوجة أو تلك ، ويعيش وسط الدسائس والمكائد تحميها كل ضرة لضرتها . وهكذا لا يستطيع أن يتمتع بحياة الهدوء والسكون التي شرع الزواج من أجلها « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها<sup>(٢)</sup> » . كل ذلك يفرض أنه قادر على الإنفاق على بيتين على قاعدة المساواة ، وهو الأمر الذي يكاد يكون في حدود المستحيلات ؛ كما أشرنا من قبل .

على أن أسوأ ما بات يخلفه تعدد الزوجات من آثار ، هو ما يحدثه بين الأبناء من

(١) رواه الخمسة .

(٢) آية ٢١ سورة الروم .



أمهات مختلفة ، من تحاسد وتباغض وحقد وضغينة : لما غرستهم فيه أمهاتهم من كراهية لأخواتهم من الزوجة الأخرى . فيكون الشقاق وتكون الفتن التي تنخر في عظام الأسرة . بما يؤدي في نهاية الأمر إلى دمارها .

ولعله من غير الممكن إحسان تربية أى طفل من الأطفال إلا في ظل التفاهم التام والتعاون المطلق بين والديه . وهو أمر لا يوجد ولا يمكن أن يتحقق والأب مشغول بأبناء آخرين من زوجة أخرى ، إذ لا بد أن يعنى بأبناء المقرية عنده ويهمل أبناء الأخرى . أو أن يهمل الجميع وهو الأعم والأغلب .

وعندما كان تعدد الزوجات في الزمن القديم أمراً فاشياً ، كانت النساء تقبله بصفة عامة ، أو بالأحرى ترضخ له . أما في العصور الحديثة بعد أن صار تعدد الزوجات من الأنظمة القديمة التي لا تسير روح العصر ، فقد جاهرت النساء بعدائهن لهذا النظام وتمردن عليه . فلم يعد هناك من يرضى بزواج ابنته من رجل متزوج بأخرى . وليست هناك امرأة متورة فضلا عن مثقفة أو متعلمة تتصور فكرة الزواج برجل يجمع أكثر من زوجة أو يفكر في الإقدام على هذا العمل . وهذا ما يجعلنا نقرر أن هذا النظام من الأنظمة التي تسير بطبيعتها نحو الانقراض فهو لا يقوم الآن إلا في أوساط الريف المتأخرة وأوساط العمال الفقيرة . وحتى في هذه الأوساط أصبح من يقدمون على التعدد من الرجال قلة لا تذكر إلى جوار المجموع . حتى سجل الإحصاء الأخير أن عدد من يجمعون بين أربع زوجات في مصر كلها لا يتجاوز أربعائة شخص . وهي قلة مسحوقة تنطق بأجلى برهان على أن جمع هذا العدد من النساء قد أصبح في ذمة التاريخ . وقد لا يصدق ذلك تماماً على مجرد الجمع بين زوجتين . فلا يزال الرقم الخاص بهؤلاء الأزواج مرتفعاً إذ يبلغ بضعة عشر ألفاً<sup>(١)</sup> ، ولكنه لو قورن بعدد الأزواج الذين يقتصرون على امرأة واحدة لدلّ على أنه لا يزيد في نسبه عن جزء صغير في المائة ، على عكس ما كان عليه الحال في القديم ، حيث كان التعدد هو الأصل تقريباً والاستثناء هو الاقتصار على الواحدة . ومادامت الأمور تسير في هذا الاتجاه . فيحسن بالتشريع أن يتدخل ليسجل ماقرره التطور الطبيعي ، وما لا يخالف روح القرآن والإسلام كما قدّمنا ، فيحظر على أى رجل من الرجال التزوج بأكثر من واحدة لأى سبب من الأسباب . وإذا كان هناك بعض الحالات التي يذكرها أنصار التعدد لتسويغ التعدد . فإن هذه الأحوال من القلة بحيث لا تصح مسوغاً لإباحته في الظروف العادية . فضلاً

(١) راجع الإحصائيات الرسمية .

عن أن هذه الأحوال يمكن التماس العلاج لها عن طريق الطلاق . فإذا تخيلنا ما يشيرون إليه دائماً من حدوث نقص خطير في عدد الرجال ، بحيث يصبح عددهم نصف عدد النساء ؛ فإنه من الممكن في مثل هذه الحالة الشاذة أن يعاد النظر في قانون حظر التزويج بأكثر من واحدة ، فليس هناك ما يمنع تطوّر القوانين الاجتماعية- بحسب الظروف والأحوال ، وهذه هي روح الشريعة الإسلامية . وما يجب أن نستند عليه في ظروفنا وظروف العالم الحاضرة ، التي توجب في الوقت الحاضر حظر الزواج بأكثر من واحدة في مصر . محافظة على كرامة النساء وتثبيتاً لدعائم الأسرة . وبراً بالأبناء وإيثارهم بالسعادة والهناء<sup>(١)</sup> .

### فض الشركة الزوجية

وإذا كنا قد تكلمنا حتى الآن عن الشروط والأسباب التي تؤدي إلى نجاح الحياة الزوجية ، فقد بقي أن نشير إلى إخفاق الحياة الزوجية . وهو ما يسمى بالطلاق . الذي هو بمثابة فسخ لعقد الشركة الزوجية . ولقد انفردت المسيحية من بين أديان العالم وأنظمتها التشريعية . في كل العصور ، بتحريم الطلاق إلا لعدة الزنى . ولكن التجربة سرعان ما أثبتت أن ذلك التحريم هو مصادرة للطبيعة البشرية ومخالفة لسننها . وأن الأخذ به لا يمكن أن ينتج إلا شراً وفساداً في الأرض كبيرين . ذلك أن الحكمة الأساسية في الزواج أن يكون الرجل سكناً للمرأة . وأن تكون المرأة سكناً للرجل وأن يتبادلا الحب والوفاء والتعاون على مشاق الحياة ؛ فإذا ضاع الوفاء بين الزوجين أو فقد الحب والرغبة في التعاون فيما بينها تحولت الحياة الزوجية إلى جحيم وأتون مستعر . وكلما شعر الزوج بالقيود التي تربطه بزوجته التي لا انفصام لها زاده ذلك كراهية لزوجته . والعكس بالعكس . حتى لقد ينشئ الأمر بأحدهما إلى قتل الآخر إذا لم يكن هناك سبيل للتخلص منه غير ذلك السبيل . ولقد سجل لنا التاريخ كيف أن هنري الثامن ملك إنجلترا قد أقدم دائماً على قتل زوجاته كلما رغب في التخلص منهن بعد أن رفض البابا أن يسمح له بطلاقهن . وكثيراً ما نرى في مصر حتى في وقتنا الحاضر . أقباطاً يخرجون عن دينهم ويعتقون الإسلام لكي يتخلصوا من زوجاتهم . ولقد انتشر الزنى وأصبح اتخاذ الحظيات في أوروبا

(١) ذلك الرأي هو ما ذهب إليه الإمام المصلح الشيخ محمد عبده حيث حمل على تعدد الزوجات التي أصححت في مصر مفسدة حملة مكورة وقرر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة مع كثرة هذا التعدد الإفسادي الذي صار يحسب معه عملاً بقاعده « لا صر ولا صرار » الثابتة في الحديث وقاعدة « تقدم درء المفسد على جلب المصالح » وهو متفق عليها وقد جاء في المار في أول المجلد ٢٨ أنه أفق فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدد لعير ضروره مبيحة فيها

عملاً رسمياً لا يستنكره المجتمع . وذلك بسبب حظر الطلاق على المسيحيين . وعلى ذلك فقد دلت التجربة على أن حظر الطلاق وتحريمه تحريماً قاطعاً هو باب من أبواب الشر لا الخير ، فضلاً عما فيه من إهدار لحرية الفرد ذكراً كان أو أنثى . والحق أن الحياة الزوجية لا يمكن بحال من الأحوال أن تنجح وأن تزدهر إلا في ظل الحرية والرضا المتبادل بين الزوجين . وشعور كل منهما أنه يساهم في هذه الشركة بمحض حريته واختياره ، وأنه يستطيع في أى وقت شاء أن ينسحب من هذه الشركة . وقد اقتنع العالم المسيحي بذلك فصدرت القوانين الوضعية التي تبيح الطلاق على خلاف الشريعة المسيحية . ولم يكفد المسيحيون في أوروبا وأمريكا يحصلون على هذا الحق حتى أسرفوا فيه إسرافاً معيماً ، واستعملوه في خفة ومجانة<sup>(١)</sup> حتى كادت الحياة الزوجية كلها تتأثر بهذا الاستعمال السيئ ، فراحوا يفكرون من جديد في تقييده وتحديدده . ومن هنا تنشأ عظمة التشريع الإسلامى الذى اعترف منذ اللحظة الأولى بحق الطلاق ، أو بالأحرى الحرية المطلقة في فض الشركة الزوجية إذا أخفقت ، ولم تهبط للسعادة التي كانا ينشدانها من الزواج ، ولكنه وقد قرر الحق كاملاً مطلقاً ليشعر كل من الزوجين أنه مطلق الإرادة والتصرف راح من ناحية أخرى يحذر من سوء استعمال هذا الحق ، ويحض على عدم الالتجاء إليه لأى سبب من الأسباب إلا أن يكون لعل الزنى . ذلك أن الزواج وإن كان عقدًا فهو ليس كبقية العقود المدنية من بيع وشراء وإجارة وهبة ، ولكنه رباط مقدس يربط الأنساب ويمزج الدماء ، ويؤلف الأسر التي يقوم عليها صرح المجتمع ، والتي إذا اضطربت أو انهارت ترتب عليها انهيار المجتمع بأكمله ، ومن هنا فقد سمى الله الزواج في القرآن بأنه ميثاق غليظ : «وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً»<sup>(٢)</sup> .

إذ تترتب عليه كما قدّمنا نتائج خطيرة في الحال بالنسبة لشخص الزوجين ، وفي المستقبل بالنسبة لأولادهما . والزواج هو بمثابة غرس بذرة جديدة من بذور الحياة ، أو مدّ فرع جديد من فروعها ، فكل انفصام لعروة الزواج الوثقى إنما هو قطع لشريان من شرايين الحياة ، وحجر عثرة في سبيل نموها وكمالها وحسن اطراد سيرها ، فلا ينبغي الإقدام عليه في يسر وسهولة أو طيش ورعونة لمجرد أنه من الحقوق المباحة ، وهو ما نبه إليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق» وفي رواية أخرى «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق» وهذا الحديث يجب أن يعتبر ركناً

(١) أصبح من الشائع في أمريكا أن تطلب المرأة الطلاق من زوجها لأنه لا يجب الكلاب . أولاته لا يحن رطة عنقه ، أولاته لا يشاطرها آراءها في جمال كلارك جابل . أو خفة دم موريس شفالبي . وهكذا .

(٢) آية ٢١ سورة النساء .

أساسياً من أركان مباشرة هذا الحق ، فلا يكون طلاق إلا بعد استفاد كل وسائل الإصلاح والعلاج ، ولا يكون إلا بعد تفكير طويل هادئ ، ومراجعة ومشاورة بين الزوجين ، بل وبين آليهما وذويهما وفي ذلك يقول الله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما »<sup>(١)</sup> .

وذهب القرآن إلى حدّ حض الرجل على التمسك بزوجه حتى لو كرهها ورغب عنها وذلك بقوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »<sup>(٢)</sup> .

ولكل هذه الاعتبارات مجتمعة ، يجب ألا يتم طلاق بين الرجل وزوجه إلا في ساحة القضاء ، وبعد أن يستنفد القاضي كل ما في جعبته من محاولات التوفيق والإصلاح ، بما في ذلك الاستعانة بجهود الأقارب والأصدقاء . وأن يتخصص لذلك الأمر قضاة ممتازون يكونون أعرف من غيرهم بطبائع البشر وعلوم النفس ويتمتعون بشخصية قوية ، ليكون لذلك كله أحسن الأثر في إصلاح الزوجين وإقناعهما بالتمسك ببحال الزوجية ، فإذا أبي أحد الزوجين بعد ذلك كله إلا الانفصال فقد وجب على القاضي أن يصدّق على الطلاق على الفور ، فليس من المصلحة أن يبقى أحد الزوجين في الشركة الزوجية برغم أنفه ، إذ لا يترتب على ذلك إلا الفساد والخسران . فنحن ممن يقولون بوجوب أن يكون الطلاق أمام القاضي وعن يد المحكمة لا بأمر القاضي وبقرار المحكمة ، أي أن الحرية المطلقة في استعمال الحق يجب أن تبقى للزوج أو الزوجة متى اشترطت هذا الحق لنفسها ، ولا يجوز بحال أن يسلب القضاء من الزوجين هذا الحق ، وإنما أشرط ألا يباشر هذا الحق إلا في ساحة القضاء وبعد أن يستنفد القاضي كل جهده في التوفيق والإصلاح ، ليكون ذلك بمثابة فرصة جديدة يعدل فيها كل من الزوجين عن رأيه ، فلا يكون طلاق في ثورة غضب ، ولا يكون طلاق في تسرع يعقبه الندم ، ولا يتم طلاق إلا بعد تروّ وتدبر وتفكير طويل . يقول البعض : ولكن في عرض هذه الأمور على القضاء إفشاء لأسرار العائلات ؛ ولكن هذه الأسرار لا سبيل لكتانها متى حدث الطلاق بين الزوجين ، إذ لا مناص من أن يعتمد أحد الطرفين إلى التشهير وإذاعة هذه الأسباب ؛ فإذا تم التراضي والتوافق بينهما على كتانها فليس هناك ما يحول بين الحرص على هذا الكتان أمام القاضي

(١) آية ٣٥ سورة النساء .

(٢) آية ١٩ سورة النساء .

نفسه الذى يجب أن يقضى بالطلاق متى أصر عليه الزوجان ولو بدون إبداء أى سبب من الأسباب .

### مبشرات الطلاق

وعندى أنه لا يوجد ما يبرر الطلاق إلا إذا انعدمت أسباب التعاون بين الزوجين . وأصبحت الحياة فيما بينهما مستحيلة لأى سبب من الأسباب : كما لو انعدم الوفاء بين الزوجين وأقدم كل منهما أو أحدهما على الإخلال بعهود الزوجية وموائيقها فالرجل الذى يهجر زوجته ، والمرأة التى تهجر زوجها ، والزوجة التى تخون زوجها مع آخر ، والزوج الذى يخون زوجته مع أخرى ، والمرأة المسرفة المتلافة التى تنكب زوجها فى ماله . والزوج الذى يغتال حق زوجته ويحرداها من ثروتها ليبعثرها على شهواته ونزواته . والمرأة النزقة التى تنصرف عن تربية أولادها وتفرغ إلى لهوها وزينتها ولا تقوم بواجب زوجها وبيتها عليها ، والرجل الذى لا يعود إلى بيته إلا مخموراً والذى ينفق أمواله على القمار ولا يعا بنفقة أولاده وتربيتهم . كل هذه الأسباب وأمثالها تدعو ، من غير شك ، إلى هدم الحياة الزوجية من أساسها . فإذا تعذر الإصلاح وإعادة المرأة أو الرجل إلى الجادة فقد أصبح الطلاق جائزاً ومشروعاً بل ومستحباً كلون من ألوان العقوبة . حتى تكون للأسرة قداسة وهيبة وحقوق محترمة ، يعرف كل من الزوجين أنه لا يستطيع المساس بها دون أن يُعرض أسرته للانهيار .

## خاتمة

إلى هنا تنتهى يابنى رسالتى لك عن الزواج والمرأة ، بعد أن فصلت لك الأمر عن المرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل فى مختلف الظروف والأحوال . وقد شاءت الأقدار ألا أفرغ من تحرير هذه الرسالة حتى يقع لى فيها حادث من هذه الحوادث التى تلم بحياة الأسر فتزكياها وتدخل على أعضائها الحزن والألم ، وأعنى بذلك الحادث ما يصاب به الأبوان من الفجعية فى أولادهما ، هؤلاء الأولاد الذين هم هدف الزواج الأكبر ، ومحور حياة الأم ورجاء الأب ، وسنة الحياة فى بقائها واستمرارها واندفاعها فى سبيل التطور والارتقاء .

بدأ الحادث فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان والأيام الأولى من فصل الخريف حيث كنا معتقلين جميعاً : أبوك وأمك وأخوك وأنت - فى معتقل خاص بنا فى مصر الجديدة وكنت أنت وأخوك فى أوج صحتكما وكنت أنا وزوجتى فى أوج سعادتنا. بكما فرض أخوك إبراهيم العزيز اللطيف الجميل ، ولازم الفراش فخلنا الأمر عارضاً لا يلبث أن يزول ، ولكنك سرعان ما لحقت به بعد أيام ثلاثة ، فانطرحت على فراش المرض ، وارتفعت حرارتكما ارتفاعاً مخيفاً ، إذ بلغت الواحدة والأربعين وكان ذلك أمراً عجباً ، ولم ينقص أسبوع حتى اكتشفنا أنكما مريضان بأخيب الأمراض وأفتكها ، وأعنى بها حمى التيفود ، هذه الحمى التى مات بها كل من هو عزيز على من أقربائى ، فأت بها أنخى الأكبر ، ومرضت بها فى طفولتى ، وماتت بها أمى على ما أذكر إبان مراهقتى ، ومات بها بعد ذلك أحب الأخوة إلى نفسى وأكبرهم تأثيراً فى حياتى ، وهو عمك مصطفى الذى أدين له بالعناصر الأولى من ثقافتى فى الحياة . فلما اكتشفت أنكما مريضان بالتيفود فارقنى هدوئى وأحسست على الفور باقتراب الفاجعة فانخلع قلبى وراحت الدموع تنهمر من عيني انهمازاً لا عهد لى به من قبل ... ونقلكما البوليس إلى المستشفى بعيداً عني ، بينما ظلت فى معتقلى أرقب على البعد ، فى رجفة وأمل ، الأخبار التى تتراعى إليّ من حين لآخر . ثم وقع القضاء المحتوم ، وكانت هذه الليلة التى جاءنى فيها خالك ووالدى يحملان الخبر ، وهما يحاوران ويداوران ويتدرجان ويتفرقان لى لا يبلغنى الخبر ، وقد كان ذلك كافياً لكى أحذر النكبة فأسرعا ، إلى مواساتى بهذا الاصطلاح الذى ترتجف له النفس عند سماعه لأول مرة « البقية فى حياتك » لقد مات إبراهيم ... مات إبراهيم وفارق الدنيا ولم يعد من أهلها على الأقل بالجسد ، ولن أسمع بعد اليوم ولن تسمع أمه ضحكاته العذاب ، وحديثه وموسيقاه الشجية التى كان يبعثها فى النفس حتى فى بكائه

وعويله ، ذهب وخلفنا في هذا المعتقل ولن يملأه بعد اليوم ، كما كان يفعل ، بالسعادة والهناء . لن ينتهز بعد اليوم فرصة سجودى في الصلاة ليداعبنى ويعبث معى ، لن يطلب منى أن أرفعه بذراعى فى الهواء بينما يصرخ فرحاً مسروراً سعيداً هاتفاً بك ليشاركك فى سعادته ، لن ينظر إلىّ بعد اليوم بعينه الجميلتين معاتباً لى بعض ما كنت آخذ به من الشدة ... ذهب فذهب معه من هذه الدار الأنس والحرارة والحياة ... ذهب بدون أن أراه وأن أضمه بين ذراعى وأقبله للمرة الأخيرة ، وأرجو منه أن يسامحنى على كل ألم أكون قد أحدثته له فى يوم من الأيام ... ذهب إبراهيم وقضى الأمر ، ولم تبق منه إلا الذكريات . ولأول مرة فى الحياة أحسست بلذعة الموت ولوعة الفراق تهرز روحى من الأعماق ، بما لم أشعر به عند ما فارقتنى أمى وفارقنى اخوآى ، وما لم أكن أنخيل أننى سأشعر به فى يوم من الأيام ... على أن المحنة لم تكن قد تكاملت بعد ، فقد كنت لا تزال طريح الفراش بنفسى المرض الذى مات به ، وكان الخطر لا يزال مسلطاً فوق رأسك ، فشغلنا عن بعض مصابنا بإبراهيم ، فكفكفنا دموعنا وتمالكنا أنفسنا وتوجهنا بالرجاء إلى الله أن يجعل فى شفائك العوض ، وأن يجعل نجاتك البلسم لجرحنا ؛ ولكن الأطباء أخبرونا فى أحد الأيام أن حالتك قد ساءت وأن القلب قد تسمم وأسرت دقاته ، ولم نكن فى حاجة إلى قول الأطباء لندرك هذا الخطر ، فقد ارتفعت حرارتك بعد الانخفاض ، وأبت بعد أربعين يوماً أن تهبط ولو خطأً واحداً أو دقيقة من الدقائق . وراح جسدك يتنفّض ويرتجف ارتجاف المودّع للحياة ، فوقفت الممرضات حائرات كسيفات البال ، وعجز الأطباء عن أن يجدوا كلمة يدخلون بها الأمل فى نفوسنا ، فدلّ ذلك على أن سراج العمر يوشك أن ينطفئ ، وأنت ذاهب إلى حيث ذهب إبراهيم مجرداً إيانا الكأس التى جرعنا إياها إبراهيم مرتين ، وتاركاً إيانا بغير عزاء أو عوض من أى لون كان ... بالقسوة هذه الساعات والأيام يائس وما أشدّ مرارتها ، إذ يوارى الإنسان ابناً فى التراب وأن يعود لفراش الثانى ليراه يوشك أن يبدأ نفس الرحلة ، ليضاعف الحسرة ... ما أقسى أن يرى الإنسان أنس حياته يتحوّل إلى وحشة ، ونور عمره يتحوّل إلى ظلمة ، وأن يضاعف فى مرارة ذلك كونه مسلوب الحرية رهين الحبس والاعتقال ، لا يسير إلا بالحرّاس ولا يتحرّك إلا بتصريح من الحكومة ، ولا يزور ابنه المريض إلا بعد رجاء وإلحاح . الحق أنه ليس للآلام فى هذه الدنيا حد لتقف عنده ، فكلما كانت نفس الإنسان كبيرة كانت آلامه جد عميقة ... لقد كنت أتمثل فى هذه اللحظات كل ما يحيط بى من ظروف سيئة ، وكل ما حدثت لك عنه فى رسالتى عن الصبر من انفضاض الإخوان وتغير الأحوال وتكرّر الأنصار والأصدقاء ... كنت أستعرض لنفسى جهاد خمسة عشر

عائفاً ، وكيف لا أعرف من ثمرات هذا الجهاد إلا أنني معتقل ... معتقل منذ ثلاث سنوات تقريباً ، لا يتصل بي أحد ، ولا أتصل بأحد ، والدنيا تقوم وتقع من حولي . وأنا الذي خلقت من نشاط وحركة قعيد الحبس والاعتقال ، مقضى على أن أعيش في الكسل والخمول والطعام والشراب . وكان الشيء الوحيد الذي يبعث في نفسي بارقة من الأمل ، ويتيح لي لوئاً من ألوان الجهاد والعمل من أجل المستقبل ، هو هذه المعيشة المشتركة في المعتقل مع زوجتي وولدي ، حيث أستطيع أن أعني بتربيتهم ، وأن أعدهما جنديين صادقين من جنود الوطن ، أضعهما منذ الصغر لبان الوطنية والفضيلة ، وحب الخير والطموح نحو المثل الأعلى ، وأن أورثهما بعد موتي رسالتي في تحرير بلادهم من الغاصب الأجنبي . كنت أرى في هذه المهمة بعض ما يشغلني ويسليني ، فكانت لنفسى بمثابة خط الدفاع الأخير ، فإذا بالحنة تأتي الإقتحام هذه القلعة الأخيرة وتدمرها ففوضت أحد ركنيها ، وسعت لتقويض الركن الآخر والإجهاز عليها ، فمن الذي يلومني إذا دب إلى الجزع أو أخذ من نفسى الألم ؟ ... هل بقي لي من أصدقاء أعيش معهم إلا أننا ؟ ... هل بقي لي من رفقاء في الاعتقال إلا أننا ؟ ... ألم نكن نلعب سوياً ونلهو سوياً ، وتأكل سوياً وننام سوياً ، ولا تقع عيوننا إلا على أنفسنا طوال الليل والنهار لمدة عام كامل قضيناه في هذا الاعتقال ؟

على أن المسألة لم تكن مسألتي بقدر ما كانت مسألة أمك ... لقد كانت تزدهى بكما وتتعزى عن كل ما يصيبنا في الحياة بمرآكها ، لقد كان مجرد مرض أحدهما يمرضها ويسقمها ويمضها ، ومع ذلك فقد احتملت كارثة إبراهيم ببسالة أدهشتني ، وما ذلك إلا اهتماماً منها بأمرك وحرصها على شفائك ، فإذا يكون من أمرها إذا ما فجعك فيك بعد فجيعتها في إبراهيم ! وأني لها العزاء وكيف السبيل إلى إنقاذها ؟ ... لقد كان أخوف ما أخافه أن تنهار أعصابها تحت هذه الصدمة الجديدة ، وأن يتداعى كيانها تحت هذه الضربات المتوالية .

وبعد يابني :

تلك أيام مضت وانقضت ، ولا مجال أو سبيل لاستعادة ذكرياتها دون أن تتقيح جراح توشك أن تندمل ، وقد عاهدت الله أن أنساها وألا أذكرها إلا بالحمد والثناء ، وأنا أراك الآن تلهو وتلعب أمامي من جديد وتعوض بحيويتك التي تضاعفت بعض ما كنت أجده منك ومن أخيك ، بعد أن نجوت من برائن الخطر بمعجزة من معجزات الرب ... نجوت يابني بعد أن سلمنا في أمرك ، ورضخنا لقضاء الله حامدين



شاكرين ... نجوت يا بنى بعد أن حدثت بعض الأقرباء فيما يُتبع بشأن تجهيزك وتشيع جنازتك نجوت يا بُنى بالرغم من ذلك كله ، وإن سعادتي بما يتمثل في هذه النجاة من رحمة إلهية وحنان رباني هي أضعاف أضعاف سعادتي بنجاة شخصك . فقد قضيت ليالى طوالاً وأنا أتضرع إلى الله أن يبقيك من أجل والدتك ، من أجل جدتك ، من أجل خالك ، من أجل مصطفى الوكيل الذى سميتك باسمه ، من أجل أعزائى الذين تنفطر قلوبهم لمصابى ، والذين ظلوا مخلصين لى بالرغم من كل شيء . فأجاب الله الدعاء وحقق الرجاء . فكانت المعجزة وكان الشفاء بعد شهرين كاملين من المصارعة مع الداء شهرين كاملين . لم يتداخل فيها الأطباء إلا بالمراقبة والملاحظة ، فقد طلبت منهم قالوا كلمتهم الأخيرة أن يدعوا الأمر لله إن شاء أبقاك وأحياك وإن شاء قضى فيك مشيئته فكانت نجاتك من الخطر بدون مساعدة من الأطباء لتتجلى قدرة الله فى أكمل صورها إذ يُجيب العظام وهى رميم . فله الحمد والثناء على ما غمرنا به من نعمة وأن بذل أحزاننا فرحاً وشدّتنا فرجاً . وله على العهد والميثاق أن أعيش طول عمرى مجاهدًا مكافحًا فى سبيل الحق والحرية والفضيلة .

معتقل مصر الجديدة فى يناير سنة ١٩٤٣

تمت الرسالة بعون الله تعالى

وتليها ثلاث رسائل فى الحرب والحرية والعلم



الحرب



## الحرب

أهي شركلها كما يظن الناس ؟ وهل هي في طريقها نحو الإلغاء كما يدعون ؟ .  
أما أنا فأعتقد أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة ، وناموس من نواميسها التي  
لا تقوم بغيره .

بل إني لأذهب إلى أبعد من ذلك فأقرر أن الحرب هي خالقة الحضارة ، وسر تطور  
الإنسانية ، ولا حد لما تنطوي عليه من خير ، وفي الصفحات التالية تفصيل ذلك .

إلى

أرواح الشهداء من أبناء مصر الفتاة الذين سقطوا في ساحة المعركة .  
وهم يهتفون المجد لمصر .  
إلى روح الدكتور مصطفى الوكيل الذى بذل دماءه فداء لحرية مصر ومجدها في معركة  
برلين ..  
أهدى هذه الرسالة عن الحرب .

## تعريف

ذكرت في مستهل رسالتي عن الزواج والمرأة أنها واحدة من عشر رسائل كتبها إبان اعتقالى في خلال هذه الحرب (من ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى ٤ يونيو سنة ١٩٤٤) .

هذه الرسائل العشر في الحرب والحرية والمال والعلم والمرأة والقوة والصبر والصدق والإيمان والوطنية . وهأنذا أقدم لقراء العربية وشباب الجيل عامة وأبناء مصر الفتاة بخاصة ، هذه الرسالة عن الحرب التى ناقشت فيها موضوعها وضرورتها لارتقاء البشرية وتطور الحضارة وانتصار الحق والفضيلة ا .

ورسمت في ختامها الطريق لجعل مصر أمة محاربة من الطراز الأول ، تكرس جهودها لتحرير البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة من كل استعمار أو استغلال أجنبي ، بل تحرر الدنيا كلها من روح الشر والعدوان وتشر السلام والإخاء والمحبة بين البشر ، والله أكبر والمجد لمصر .

«أحمد حسين»

## تمهيد

كانت تطورات الحرب واندفاع الجيوش الألمانية صوب الإسكندرية وتهديدها مصر بالغزو هو الذى دفعنى إلى الهرب من معتقل فى مستشفى الدمرداش كما فصلت ذلك من قبل<sup>(١)</sup> خشية أن يخطفنى الإنجليز معهم فى إبان انسحابهم من مصر. وتطورات الحرب هى التى أعادتني إلى الاعتقال من جديد بمطلق إرادتى واختيارى. ذلك أن الجيوش الألمانية التى وصلت إلى قرية العلمين لم تستطع بعدها أن تتقدم خطوة واحدة نحو الإسكندرية ، وتحطمت موجة هجومهم على صخرة الدفاع الإنجليزية فى منطقة العلمين ، التى جلبوا لها الإمدادات السريعة من فلسطين وسوريا والعراق ، ومن عرض البحار ، من القوافل التى كانت تقصد أنحاء أخرى من مبادىن القتال فغيرت كلها اتجاهها واندفعت نحو مصر بأقصى سرعتها فوصلت فى الوقت المناسب ، واستطاعت أن توقف الزحف الألمانى إلى الأبد فى هذا القسم من أنحاء العالم .

ظل أنصار المحور يتوقعون قرب الهجوم الألمانى مؤمنين إيماناً جازماً ، أن جيوش المحور ستدخل مصر غازية منتصرة بعد ساعات قليلة عقب استئناف الهجوم مباشرة !. لكنى لم أشاطرهم هذا الاعتقاد كما سجلت ذلك فى رسالتى الثالثة عن القوة ، وقد أثبتت الحوادث أن أمل المحوريين فى امتلاك مصر كان ضرباً من الأحلام والأوهام التى تتبدد بمجرد يقظة رائيها . فقد كرت الأسابيع تتلوها الشهور ، والألمان جامدون لا يتحركون ، أو يتحركون حركات تافهة لا يلبثون بعدها أن يرتدوا إلى الوراء . وظل الحال على هذا المنوال حتى قارب شهر أكتوبر على الانتهاء ، أى بعد أربعة أشهر من وقف روميل عند العلمين ، إذا بالإنجليز ينقضون على خطوط الألمان بمدافعهم الثقيلة وطائراتهم فى هجوم ساحق سيطر فيه السلاح البريطانى على الجو فدك معاقل المحور دكا ، فتداعت هذه الخطوط التى اشغل الألمان فى تحصينها كل هذه المدة الطويلة ، وأعلنوا للملأ أنها أصبحت أمنع من عقاب الجو ، وأنه لا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن

١ - سجلت حادث هربى من مستشفى الدمرداش بالتفصيل فى مقدمة رسالتى عن القوة .



نزحزحهم خطوة واحدة إلى الوراء . وما إن تداعت هذه الخطوط وفتحت فيها ثغرات ، حتى اندفعت الدبابات الإنجليزية من خلال هذه الثغرات فاشتبكت بالدبابات الألمانية الشهيرة فهزمتها هزيمة منكرة ، وأصابها بخسائر فادحة ، فارتدت فلولها إلى الوراء ، في انسحاب هو أشبه ما يكون بالقضاء ! . فسقط قواد الألمان العظام قتلى في الميدان أو أسرى في يد الإنجليز . وتكدس القتلى الذين تمزقت أشلائهم تحت عجلات الدبابات والسيارات الزاحفة والانفجارات المتواصلة . ولم تكن نكبة الألمان والطلليان في الأسلحة والمهمات أقل من نكبتهم في الجنود والقواد ! . فقد خسروا سلاح طيرانهم كله تقريباً ، فأصبحت البقية الباقية من جيوشهم بغير حاية جوية ! . فصارت مهددة بالقضاء ، وانطلق عدد كبير منها يهيم على وجهه في الصحراء بغير ماء أو زاد ! . حتى أشرفوا على الهلاك ، ولم ينقذهم من الموت إلا وقوعهم في أسر الإنجليز ، وكثيراً ما كان جنود المحور يبحثون بأنفسهم عن معسكرات الاعتقال البريطانية ليجدوا فيها جرعة من الماء . أما فصائل المحور التي استطاعت أن تنجو من هذه الخاتمة التعسة ، فقد تقهقرت إلى الوراء في سرعة عجيبة ، فأخلت مصر في أيام قليلة ، ثم أخلت برقة كلها في أيام أقل . وسقطت بنى غازى للمرة الخامسة في أيدي الإنجليز ! . ثم وقف الألمان عند العقيلة قليلاً لكي يستردوا أنفاسهم المفقودة ، وينظموا صفوفهم الممزقة ، ويلموا شعثم ، منتهزين فرصة استتالة خطوط التموين الإنجليزية ، واضطراهم التباطؤ والتريث ، ريثما تلحق ساقتهم بمقدمتهم .

على أن الأمور لو وقفت عند هذا الحد لما اعتبرت هزيمة المحور نهائية ، فلم تكن هذه هى المرة الأولى التى تقهقروا فيها مثل هذا التقهقر ثم عادوا للهجوم من جديد بعد أن استردوا قواهم . ولكن الحلفاء كانوا مصممين هذه المرة على اقتلاع المحور بصفة نهائية من شمال أفريقيا ! . فبينما كان الجيش الإنجليزي الثامن يوجه إلى جيش روميل هذه الضربة الساحقة من مصر ، كان الأمريكان يتزلون جيوشاً جرارة بمساعدة أسطول انجليزى ضخمة فى شمال أفريقيا الغربى ، أى فى مراكش والجزائر ، لكي يضربوا قوات المحور من الخلف ، ويطنونها الطعنة القاتلة . وقد كانوا على اتفاق فى ذلك مع قواد فرنسا المستسلمة ، فلم تمض ساعات قلائل على وصول الجيوش الأمريكية إلى شمال أفريقيا حتى كانوا يحتلون هذا الجزء الضخم من شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، الذى تتألف منه الامبراطورية الفرنسية ، ونعنى به الجزائر ومراكش ، ولم يبق باقياً لإكمال الخطة

والإجهاز على روميل من الخلف إلا أن يحتلوا تونس التي تتأخم طرابلس ، والتي كان جيش المحور يرتد إليها . ولكن ألمانيا سارعت إلى احتلال تونس لتفسد على الحلفاء خططهم ١ . فاستخدمت سلاح الطيران لنقل فرق ميكانيكية كاملة هبطت في تونس قبل أن يصل الحلفاء إليها . وهكذا أمكنهم أن يتفادوا وقوع الكارثة ، وهي إبادة جيش روميل بأكمله بالموت أو بالأسر<sup>(١)</sup> .

وهكذا انقلب الموقف الحربي رأساً على عقب بغير مقدمات ولا تهديدات ، فبعد أن كان المحور هو سيد البحر الأبيض المتوسط الذي يوشك أن يطرد الإنجليز من آخر حصن لها فيه وهو ميناء الإسكندرية ، ويضرب بذلك إنجلترا ضربة قاصمة قد تضع حدا لاستمرارها في الحرب ١ . إذ بالمسألة تتغير كلها ولم تعد بالنسبة لدول المحور مسألة الهجوم على مصر ١ . ولكن مسألة الدفاع عن إيطاليا التي باتت مهددة بصورة مزعجة . وهكذا تحققت حكمة الشاعر .

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال .

وقد استبج هذا الانقلاب الحربي انقلاب في ظروف مصر وسياساتها ومستقبلها ، إذ ارتفع عنها خطر هذا الغزو الأجنبي وما كان يصحبه من انسحاب الأجنبي الآخر ، فتسحق البلاد سحفاً تحت أقدام هؤلاء وهؤلاء . أما الآن وقد نجت مصر من هذه المحنة واستقرت الأمور والأوضاع ، فقد بدأت أراجع موقفي والفائدة من استمرار احتفالي عن أعين الحكومة فاستقر عزمي على الظهور . فتوجهت في الساعة الرابعة بعد ظهر الثلاثاء ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ إلى منزل فؤاد باشا سراج الدين أحد الوزراء ، لكي يقدمني إلى رئيس الحكومة ليتخذ قراره بشأن فيطلق لي حريتي السياسية أو يعيدني إلى الاعتقال . فلما قابلت رئيس الحكومة عرض على أن يعيد اعتقالى في أحد الأماكن الحكومية الصالحة لسكن عائلة على أن تكون معي زوجتي وأولادى ، وأن تكون شبه معتقلة فلا يسمح لها بالخروج . ولما كنت أعرف أن هذا هو ما تنوق إليه زوجتي ، فقد قبلت هذا العرض على الفور . وهانحن نقيم الآن في منزل ملحق بمركز بوليس مصر الجديدة ، يحيط بنا الحراس من كل جانب دون أن يكون لهم أى علاقة بمسكننا من الداخل ، وهذا ما يجعلنا سعداء

١ - لم تكن نهاية هذا الجيش قد عرفت عند كتابة هذه السطور لأن الجيوش الألمانية قد انتهت بالوقوع في الأسر كلها بالفعل ولم ينج منها سوى روميل الذى مات بعد ذلك .

نشكر الله ونحمده صباح مساء ، لأننا نقيم سويا وضمائرنا مستريحة ، لما نقوم به من واجب نحو جهادنا وأمتنا . فلا نفرط في عقيدتنا ولا نشترى حريتنا بالخضوع للاستبداد الذي يفرضه الأجنبي على البلاد . لست أعرف كم من الزمن سنظل على هذه الحال ، وهل ستستمر إلى آخر الحرب ، أم يحدث ما ليس في الحسبان . ولكني أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لاستغلال هذه العزلة الهائلة فأتم كتابة هذه الرسائل ، وأفرد من كتابة غيرها من المؤلفات التي شرعت في كتابتها . ولما كانت تطورات الحرب هي التي أدت إلى اعتقال أول مرة ، وهي التي دفعتني بعد ذلك إلى مغادرة الاعتقال والاختفاء عن أعين السلطات ، ثم هي التي حملتني في النهاية على الظهور وإعادة اعتقال ، إذ كانت الحرب وتحولاتها هي التي تهيمن على حياتي بل حياة العالم كله ونشاطه طوال هذه الأربع السنوات الأخيرة بل وقبلها . ولما كانت ستحدث أكبر الأثر في مستقبل بلادنا ، ومستقبل العالم عامة كما هو شأن الحروب دائماً فقد رأيت أن أعرض لموضوع الحرب بالتفصيل والتحليل باعتبارها الشاغل الأول الذي يشغل البشر دائماً أبداً لكي أدعوك في ختامها لتكون محارباً .

## الفصل الأول

### ماهية الحرب - ضرورتها - فائدتها - العمران والحرب

أكتب هذه الرسالة في وقت يضجر الناس فيه جميعاً من الحرب ، ويتمنون أن لا يكون على الأرض حرب أبداً ، ويعلم المتحاربون كل من ناحيته أن هذه الحرب ستكون الأخيرة وسيكون بعدها سلام وأمان لجميع الأمم والشعوب ، لا فرق فيها بين قويتها وضعفها ، وبين غناها وفقيرها ، وأن سيكون لكل شعب حريته واستقلاله على قدم المساواة بالنسبة لبقية الأمم ، وسيكون له كذلك نصيبه العادل من تجارة العالم وموارده الأولية . وعلم الله أن هذا الذي يقولونه ليس إلا حلماً من الأحلام ، بل هو في حقيقته تغرير وخداع يُموّه به القادة والزعماء على شعوبهم ليهونوا عليهم احتمال مشاق الحرب الحاضرة ، ولِيُوهوا به على الأمم الضعيفة الواقعة تحت براثنهم ليأمنوا جانبها في هذه الأزمة العنيفة ، وليستجلبوا ودها ومعونتها التي هم في أشد الحاجة إليها ، وسوف تنتهي الحرب في الغد القريب ويكون بعدها غالب ومغلوب وقاهر ومقهور ، وللأول ماشاء وأراد من ثروة ومجد وسلطان ، وللثاني مالم يرد من الفقر والحزى والإذلال . غداً تضع الحرب أوزارها ، فترفع أُمم وتنخفض أخرى ، وشعوب ترضى وشعوب تسخط ، ودول تغنم وتربح ، ودول تغرم وتخسر ، وعروش تقام وأخرى تثل فلا يعود قادراً على غسل الإهانات ورد الاعتبار والأخذ بالثارات وتمزيق المعاهدات الجائرة سوى الحرب . فلن تنتهي حرب من الوجود قبل أن تضع بذرة الحرب القادمة وتبني الأسباب للملحمة التالية . فالحرب ككل شيء في الوجود يعمل على حفظ نوعه واستمرار بقائه ، فلا يفارق الحياة قبل أن ينجب خليفته . وتلك صحائف التاريخ مبسطة منشورة تسجل وقائع الكون وانعكاس حياته وكلها تدل على أن البشرية لم تسلم من حرب طاحنة في أي جيل من الأجيال تصيبها هنا أو هناك ! . وأنه ما من حرب تضع أوزارها إلا وقد وضعت في نفس الوقت بذرة حرب تالية ، فإذا أضرت الحروب المتعاقبة بشعب من الشعوب جاءت الحياة بشعوب جديدة تفيض حيوية متقدة ، فتشتعل النيران الخاملة ويستعرب لهب

الحرب من جديد ، وهكذا يبقى الصراع بين الأحياء متصلاً بهذا تقضى سنة الحياة ، ولن نجد لسنة الله تبديلاً .

كم قام دعاة في القديم والحديث يعلنون أنهم رسل رحمة ، وينادون بإلغاء الحروب وإحلال المحبة مقام البغضاء ، والتسامح والصفح محل القصاص والانتقام ، ففشلت جهودهم وتحول تلاميذهم وأتباعهم إلى أشد العالمين خصاماً وصدماً ، وبغضاً وانتقاماً ، فنذ بضعة عشر قرناً والمسيحيون الذين بنادى دينهم بالسلام لا يفتأون يصبغون العالم بالدم ، فيشعلون حرباً بعد حرب لا ضد أعدائهم فحسب بل ضد أنفسهم وبين صفوفهم .

### فشل محاولات منع الحروب

عندما تطورت الإنسانية تطورها العظيم في ختام القرن الثامن عشر ، ومستهل القرن التاسع عشر ، وانتهت حروب نابليون وزسمت خريطة أوروبا بصفة نهائية ، كما كانوا يتصورون في مؤتمر فيينا ، أمل المفكرون أن ساعة وضع حد للحروب بين البشر قد حلت ، وأن القوة يجب أن تزول من قاموس التعامل بين الأمم ، وأن الشعوب يجب أن تخضع كلها لقانون واحد ينظم علاقاتها ويحسم منازعاتها بطريق التحكيم والقضاء ، وظلت هذه الدعوات تنمو وتتطور حتى أخذت صوراً قوية كإنشاء محكمة العدل الدولية ، وظن أن فجر السلام الدائم أوشك أن يطلع على البشر ، فإذا بالحروب لا تكاد تنتهى بين دول أوروبا ، سواء في شرقها أو وسطها أو غربها ، ثم جاءت الحرب العظمى فقوضت هذه الأحلام والأمانى نهائياً ، إذا استعز لها بأعظم مما سبق في تاريخ بنى الإنسان ، وذاب في اتونها المتقد كل القوانين والمعاهدات والقواعد الإنسانية التي خيل للبعض أنها قد استقرت إلى الأبد . وذاب معها عشرة ملايين من البشر قتلى ومثلهم من الجرحى .. وانتشر الخراب والدمار بفعل الأسلحة الحديثة الفتاكة بما لم تعهده البشرية من قبل . ولم تكد الحرب العظمى السابقة توشك على نهايتها حتى هب دعاة الإنسانية والرحمة وعلى رأسهم رئيس الولايات المتحدة ودروولسون وبشروا من جديد بإنجيل السلام والمحبة بين الأمم ، وابتدعوا نظام عصبة الأمم لتكون حكماً بين الشعوب ، وضماناً لتنفيذ المعاهدات ، وممانعة من وقوع الحرب بين الأمم ، ولكن هذه العصبة التي طبل لها العالم وزمر ولدت في الحقيقة ميتة ، فلم تستطع أن تحقق طرفاً من الأغراض التي أنشئت من أجلها ، وامتشقت الأمم المشتركة فيها الحسام كلما عن لها ذلك لتحقيق

أغراضها . وبادرت عصبة الأمم بالتصديق على حكم السيف دائماً نزولاً عند شريعة الخليفة الأزلية ، ألا وهي أن القوة وحدها هي التي تمت الحقوق وتحييها . وعلى الرغم من الضربات التي نزلت بالعصبة فقد ظلت تقاوم الفناء حتى اندلعت نيران الحرب الحاضرة فأضطرت العصبة لإغلاق أبوابها وتخزين مهماتها وأوراقها حتى يقضى السيف والمدفع قضاءه ويفرغ من مهمته .

### الحرب سنة الكون

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا أو أن تخف حدتها أو تنحصر ويلاتها ، ذلك أنها بكل ما فيها من مرارة وآلام ، وبكل ما تنطوي عليه من قسوة وبطش واختلال بالأمن والسلام ، سر من أسرار الحياة وجوهر من جواهرها ! . لأن الحياة هي الحركة ، والحركة هي التي تحول المادة وتغيرها بما تحدثه من احتكاك وصدام وصراع مستمر . إن كل ما في الكون من عناصر مركبة أو بسيطة في كفاح مستمر بين أجزائه المختلفة . فالماء والهواء والحرارة وبقية العناصر كلها في حرب دائمة ، ومن هذه الحرب تنشأ جميع الظواهر الطبيعية والجغرافية التي تؤلف مسرح الحياة . فالرياح والعواصف والسحب والبروق والرعود والصواعق والسيول والأمطار والزلازل والبراكين هي مظهر هذا القتال ، فما من ذرة من ذرات الكون إلا ويجرى فيها هذا الصراع ! . وحسبك أن تنظر إلى قطرة من الماء من خلال المجهر ، أو قطرة من الدم لترى فيها جيوشاً جارية في كَرّ وقر وإقبال وإدبار يلتهم بعضها البعض الآخر بعد أن يصصره ! . فإذا شئت أن ترى ذلك مكبراً بالعين المجردة فما عليك إلا أن تلتقي بنظرة على الغابة حيث تنص بالحوانات الكاسرة والطيور الجارحة التي لا تنفك في حرب متواصلة أبدية خالدة لا تفتر لحظة أو تهدأ ، ابتداء من الدودة الصغيرة إلى الفيل الضخم . ولو نظرت إلى قاع المحيط لوجدت مثل ذلك جيوشاً لا يدركها الحصر تنباغي وتتقاتل وتتصارع حول الحياة والموت وتلك هي سنة الخلق .

وما كان الإنسان يشذ عن هذه القاعدة ، وهو أرقى صور الحياة وأكملها ، غير أن العقل والأديان قد نظمت قواه وحدثت من غرائزه التي تدفعه للقتال دائماً أبداً ، ولكنها لم تقص على هذه الغريزة ، وإلا لقضت على الحياة في أساسها فبقيت غريزة القتال كامنة في النفوس لا تلبث أن تحتدم متى جدت دواعيها وتهاوت أسبابها ، وما أكثر الأسباب والدوافع التي تفضي إلى المنافسة بين بني البشر فالاحتكاك والصراع . إن اختلاف الألوان واختلاف البيئات واختلاف العقائد والأديان وهذا التطلع المستمر في

طبيعة الإنسان إلى التفوق والامتياز والاستكثار من أسباب الرفاهية والغنى ، هو ينبوع المستمر الذى يقذف بالشر ، والحمم التى لا تلبث أن تمتد إلى ما يحاورها من مواد قابلة للاحتباب ، فتكون الحرب والقتال . ولهذا القتال غاية واحدة ، هى انتخاب الأصلى والإبقاء عليه ، لا بالنسبة للأحياء والمخلوقات فحسب ، بل بالنسبة للمبادئ والأفكار والمعنويات ، وذلك كله مصداقاً لقول العزيز الحكيم : «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» وهذا فى عالم المادة «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» وذلك فى عالم الروح والمعنويات .

### بضدها تتميز الأشياء

على أن الحرب فى نهاية الأمر هى التى تخلق لنا ما نشعر به من سعادة وممتعة فى فترة السلم ، فالجرب سبيل السلم ، فإن لم تكن الحرب فلا وجود للسلم . ذلك أن كل شئء يخلق ضده ، فإذا انعدم أحد الطرفين انعدم الطرف الآخر . فالسالب يخلق موجباً ، والموجب يخلق سالباً ، وإذا انعدم السالب لم يوجد الموجب . وكذلك كل ما فى الحياة من مظاهر وأعراض ، فالسكون هو أصل الحركة والحركة هى خالقة السكون ، فهما دائرة مفرغة لا يعرف الإنسان أين طرفاها . فالجوع والمرض والاصابات والموت والحروب هى موجدة السعادة التى نشعر بها عند استمتاعنا بما يقابلها . فنحن نشعر بالفرح والابتهاج لخلو جسدنا من الأمراض والعلل فهل كان يمكن أن يكون لهذا الإحساس وجود إذا لم ندق مرارة المرض فى يوم من الأيام ؟ أو على الأقل شاهدنا من يعانى آلامه أمام أعيننا . والإنسان يشعر بمتعة لا حد لها وهو يتناول طعاماً هنيئاً مريئاً وشراباً سائغاً عذباً فراتاً ، فهل كان يمكن أن يكون لهذا الاستمتاع وجود ما لم نعان ألم الجوع المحض فى لحظة من اللحظات أو قسوة الظمأ والجفاف . أى أن الألم السابق هو سر اللذة اللاحقة دائماً أبداً ومبعثها وهذا هو سر الحياة كلها وقوامها ، ومن غابت عنه هذه الحقيقة فلا يعود قادراً على فهم شئء من الحياة وتصرفاتها فالأمر لا تظهر آثارها فى الوجود إلا بالنسبة لأضدادها فضوء النهار لا يبرزه إلا قتام الليل وحلوكته . وقيط الصيف لا يظهره سوى برد الشتاء ، ونحن نحب أن يعقب الليل النهار وأن يخلف النهار الليل ، ولو كانت الدنيا نهراً كلها لأصبحت لا تطاق ، ولو كانت ليلاً سرمداً لما ازدهرت فيها الحياة ولانعدم منها الجمال . ولو كان الزمن فصلاً واحداً لما تنوعت الأحياء والمحصولات ، ولكانت الدنيا منظراً واحداً يقتل الإنسان مللاً وسأمًا ، ويحرم الإنسان من ملذات الحياة ومباهجها التى

يخلقها اختلاف الليل والنهار وتغير الفصول . فما ألد الدفء بعد البرد ، والظل بعد القيقظ ، والراحة بعد التعب ، والرى بعد الظمأ ، فإن لم يكن تعب فلا راحة ، وإن لم يكن برد فلا دفء ، وإن لم يكن قبح فلا حسن ، وإن لم يكن أبيض فلا أسود ، وإن لم يكن شر فلا خير . وكذلك الحال في موضوع الحرب والسلام ، فإن لم تزعجنا الحرب فليس يفرحنا السلم وإذا لم يكن للحرب وجود فكيف يكون للسلم وجود ؟ وإذا كان الموت هو الذى يفرغنا من الحرب وجب أن ننظر إليه وإلى جميع أسبابه بنفس المقياس السابق ، فلو لا الموت ما كانت الحياة العزيزة الغالية التى نحبها ونحرص عليها ونكافح فى سبيل استبقائها فكل ما يملأ حياتنا من نشاط وإنتاج وإبداع ، إنما يرجع إلى غريزة واحدة ، هى غريزة حب البقاء ومقاومة الفناء والمهالك ولولا هذه الغريزة لما نشط الإنسان ولا جدّ وابتكر ، ولما تحرك أو درج . فنحن نأكل ونشرب ونروح ونحيى ونلبس ونبنى ونعمل ونزوجه لأننا نريد أن نعيش وأن نحفظ نوعنا وجنسنا ، ولو أمن الإنسان على نفسه وضمن البقاء والخلد لما تحرك حركة واحدة ولجمد جموداً مطلقاً كبقية الجملادات .

### الحرب خالقة الحضارة

ولما كانت الحرب صورة من أبشع الصور التى تسبب الموت وتحدثه حتى لتكاد كلمة الحرب تكون مترادفة لكلمة الموت ، كان الاستعداد لها والعمل على درء مخاطرها والحرص على إحراز النصر فى نهايتها . هو الحافز للإنسان على كل ما نراه حولنا من ألوان النشاط والإنتاج والإبداع ! . وكثير من ضروب المملذات والمسرات . فحرب الإنسان ضد الإفراط فى شهواته والاستسلام لغرائزه هى أساس الفضائل وينبوعها وحرب الإنسان ضد الطبيعة هى الدافع إلى أول مظاهر العمران من اتخاذ الملبس والسكن وكشف النار . وحرب الإنسان ضد الحيوان المفترس وضد الإنسان المعتدى هى التى أدت إلى ابتكار أول سلاح من أسلحة الدفاع اهتدى إليه الإنسان من الحجر أو من فروع الشجر ، الذى تطور فيما بعد فصار بسكيناً ورمحاً من الفولاذ . وقد كانت هذه الأسلحة هى أدوات الإنسان الأولى للتطور والارتقاء ، وكانت الرغبة فى اتقاء غارات الأعداء من حيوان وإنسان هى السبب الأول فى خلق الجماعة . هذه الجماعة التى ما فتئت تتطور إلى أن صارت دولاً نظامية واجبا الأول هو تأمين أعضائها من طغيان الشعوب الأخرى عليها . فالحرب دفاعية كانت أو هجومية ، هى خالقة العمران والحضارة وقد ظلت كذلك فى جميع عصور التاريخ المتوالية حتى الحديث منها ، فها نحن نرى الحضارة فى أى أمة من الأمم



نتيجة تفوقها العسكرى وسيادة الروح الحربية فيها . فما من حضارة قامت إلا بعد سلسلة من المعارك الناجحة . فصر القديمة شقت طريقها فى التاريخ من خلال قوتها العسكرية أولاً وقبل كل شئ ، عاشت خمسة آلاف سنة وهى بين ارتفاع وانخفاض ، ومد وجزر . فتارة فى ذروة المجد والعز تضىء بأنوارها العالمين وتنشر الحضارة والمدنية من علوم وفنون وحكمة ودين . فيجلس العالم منها مجلس التلميذ والمقلد والتابع . وتارة أخرى تهوى إلى حضيض الجهل والفوضى والمذلة والمسغبة وتحيم عليها سحب الظلام ويدب إليها الفساد والانحلال . وكلتا الحالتين كانتا نتيجة لقوة مصر الحربية وسيطرة الروح العسكرية على نفوس أبنائها أو لعكس ذلك . فاعتزت مصر حيث انتصرت جيوشها . وذلت بانخذالها . وكذلك كان الشأن فى مدينة الإغريق الرائعة التى نمت وترعت من خلال الحروب الطاحنة بين دويلات الإغريق المختلفة ، وبين الإغريق والفرس ، وحسب الإنسان أن يطالع الإلياذة والأوديسا ليرى عظم الروح الحربية وسيطرتها على نفوس الإغريقين . ومن خلال هذه الروح انبثق كل ما للإغريق من مجد تليد وحضارة رفيعة . وجاء على أعقابهم الرومان الذين سيطروا على العالم بقوة جيوشهم فكان لهم بعد ذلك مدينة عمرانية تمثلت فيها كل المدينيات القديمة . أما العرب ومدنيتهم الإسلامية التى فاقت مدينيات الأوائل والأواخر فهى بدورها ازدهرت فى ظل قوة المسلمين العسكرية التى انتصرت دائماً فى كل موقعة خاضتها ، فحينما سال الدم العربى نمت الحضارة الإسلامية . فلما انكسرت شوكة العرب العسكرية بنجمود روح القتال فى نفوسهم وإخلاقدهم إلى السلام والاستمتاع بالملذات والشهوات . انطوت صفحة هذه الحضارة المشرقة وخبث أنوارها . وطوى بساطها ونكست أعلامها ، فانتقل لواء النصر والمجد والحضارة إلى صفوف الأوروبيين الذين احتكروا القوة العسكرية وغلبت عليهم الروح الحربية وحققوا تفوقهم من خلال أنهار من الدماء الجارية . فالظاهرة التى يسجلها التاريخ وعلم الاجتماع هى : أن كل أمة مبتدئة تسيطر عليها الروح الحربية فتخوض معارك ناجحة لا تلبث بعدها أن تستمتع بثمرات نصرها فتنتقل من دور البداوة إلى دور الحضارة . وتتحول إلى ينبوع من ينابيع الإنتاج فى العلوم والفنون . وتفسير ذلك واضح وجلى فى الحروب تصطدم الشعوب وتحتل وتحتك فيتأثر كل منها بما عند الآخر ويقتبس ما يراه لازماً له فضلاً عن أن ضرورة الحرب تدفعه إلى إصلاح أحواله وتوحيد صفوفه وفض منازعاته وسد ثغراته . ثم حشد كل قواه لمجابهة خصمه ، مبتكراً أحسن خطط الدفاع والهجوم مخترعاً شتى صنوف الأسلحة . ومن خلال ذلك كله تنشط الملكات الإنسانية والمواهب

الكامنة من جسدية وفكرية ومعنوية . وذلك كله من شأنه إذا وضعت الحرب أوزارها أن يدفع بالنشوء والارتقاء الإنساني بضع خطوات إلى الأمام . فتزدهر العلوم والفنون والصناعات ، وتتطور الآراء والأفكار نحو الأحسن والأكمل . كما شاهدنا ذلك محسوساً ملموساً بعد الحرب العظمى الماضية . فقد كان الاستعداد لهذه الحرب وما وقع في أثنائها من تطور بعيد المدى في سائر ميادين النشاط العلمي والصناعي والفني . وثبة كبيرة للارتقاء بالمجتمع الإنساني نحو حياة أكمل بالنسبة لفريق كبير من البشر وما لم تتم الحرب الماضية تحقيقه فإن الحرب الجارية ستتكفل بإتمامه .

### أثر الحرب العظمى في حضارتنا

لقد كان للحرب العظمى الأولى والثانية أكبر الأثر في تطور الطائرة والراديو إلى ما وصلنا إليه مما قلب حياة البشر رأساً على عقب ، وقد تحول العالم بواسطة إلى بيت كبير يتحدث أحد أفراده في ناحية منه فيستمع إليه الآخرون ! . وينتقل الفرد من مطلع الشمس لمغربها في أيام معدودات ، وهكذا فنت الأبعاد التي كانت تفصل بين الأمم ، وزالت الحواجز والأسوار الطبيعية التي كانت تجعل كل شعب يحجب ما عند الآخر ، بل يحجب أبناء المدينة الواحدة ما يجري في مدينة مجاورة . لقد قربت الطائرة والراديو والتلفزيون اليوم يتعارف فيه البشر وتزداد الألفة والمحبة فيما بينهم ويتشعرون بالتعاون بين صفوفهم . هي الحرب وحدها والمجهود الجبار الذي بذل في الحرب العظمى الذي أوصل هذه الاختراعات إلى ما وصلت إليه . وهي الحرب والحرب وحدها التي تتوسع في استخدام هذه الأسلحة استخداماً هائلاً سريعاً من ورائها العالم بمجرد أن تضع الحرب أوزارها .

ما ذكرت الطائرة والراديو إلا على سبيل المثال ، وإلا فقد كان أثر الحرب العظمى لا يقل خطورة في سائر فروع العلوم والصناعات ، فقد أحدثت انقلابات في عالم الكيمياء الصناعية فأصبح الحرير يستخرج من الخشب ! ، والمطاط من البترول ، والسماد من الهواء ، وأصبحت جميع الفضلات التي يمكن أن تتخلف من استهلاك الإنسان قابلة للانتفاع بها من جديد على شتى الصور والأشكال ! . وغير ذلك كثير لا يتسع المجال لتفصيله ولست محيطاً به كل الإحاطة . أما الانقلاب في علم الطب والجراحة بصفة خاصة فحدث عنه ولا حرج ، فبعد أن كانت الجراحة مغامرة ومخاطرة لا يقدم عليها الإنسان إلا وقد يش من الحياة أصبحت علاجاً أساسياً ناجحاً للكثير من

الأمراض وتخفيف الآلام واكتشفت أدوية وعقاقير مدهشة وحسبنا أن نشير إلى البنسلين والسلفاناميد والأسبرين وغيرها .

كذلك حدث مثل هذا التطور في تفوق الصناعة والزراعة وحسبنا أن نعلم أن كل كتاب كتب في أى فرع من فروع العلوم أو الفنون قبل الحرب الماضية أصبح قليل الجدوى بعد هذه الحرب اللهم إلا على سبيل التاريخ والتذكار ، لكثرة ما استحدثت من نظريات وأدخل من تحسينات وصُحِّح من أخطاء وأضيف من زيادات .

كانت الصناعة الآلية الحديثة تعتبر قبل الحرب العظمى سرا من أسرار كل أمة تحتكره ، أما بعد الحرب فقد تفشت الصناعات بين الأمم الكبيرة والصغيرة ولم يعد السر فيها خافيا على أحد ، كما أدى تطور الصناعة إلى شيوع كثير من الأدوات والمهمات التي كانت تعتبر قبل الحرب مظهراً من مظاهر الترف الذى يختص به الأغنياء والقادرون - كاستعمال السيارة مثلاً - فغدت بعد الحرب في متناول الجميع لرخص ثمنها ، وبذلك تحولت إلى ضرورة من الضرورات .

### القنبلة الذرية

ولم تكن القنبلة الذرية قد كشفت بعد عند كتابة السطور المتقدمة ، ولم تكن القنبلة الصاروخية قد أطلقت بعد .. أما الآن فقد أصبح في وسعنا أن نتحدث عن هذين الكشفيين الخطيرين وعما سيكون لهما من تأثير خطير في حياة البشريوشك أن يكون انقلاباً لا مثيل له من قبل في تاريخ البشر . فالصاروخ يوشك أن يكون أداة السفر في المستقبل والانتقال من قارة إلى قارة ١ . ومعنى ذلك أن يكن انتقال الإنسان من مشرق الدنيا لمغربها كلمح البصر أو أسرع ، ولست أحسب أن الوقت سيطول كثيراً قبلما يستطيع الإنسان بواسطة هذا المركب الجديد أن يصل إلى القمر ، ومن ثم إلى بقية الكواكب الأخرى (١) .

أما القنبلة الذرية التي تعتمد على تحطيم الذرة فتوشك أن تضع في يد الإنسان طاقة رهيبية تمكنه من تدمير العالم في برهة وجيزة ، ومن السيطرة على عناصر الكون الأساسية واستخدامها كما يشاء ويختار .

وإذا كان هذان الاختراعاان الرهيبان قد أضرا بالإنسانية في أيام الحرب ، فقد انتهت

---

١ - حدث ذلك فعلاً في السبعينات حيث وضع الإنسان قدمه على سطح القمر .

الحرب وبقى أمام الإنسانية أن تنتفع بهذه النواة الجديدة في عالم السلم والتطور في الحضارة والارتقاء البشرى . ولولا الحرب ما تم الوصول إلى هذين الكشفين الخطيرين بهذه السرعة ... وهكذا تضطرد القاعدة في أن الحرب وحدها هى الحافز على الاختراعات والاكتشافات المؤدية إلى تطور البشر .

### إعادة التوازن العالمى

على أن للحرب إذا اتسع نطاقها وشملت أكثر من دولة كما هو الشأن في الحروب العالمية الحديثة فائدة لا تقل خطراً عما ذكرته لك حتى الآن ، وهو أنها السبيل لإعادة التوازن المفقود بين الجماعات المتحاربة وغير المتحاربة ، بل بين أفراد الجماعة الواحدة من هذين الفريقين . فاستمرار السلم من شأنه تركيز القوى المختلفة من علم وثروة وسيادة وحضارة في دول معينة وفي طوائف مخصوصة في داخل الدول المعينة . فإذا ما قامت الحرب حدث خلط ومزج وفوران ودوران وصعود وهبوط فيحدث في نهاية هذه التقلبات توزيع جديد للثروة ولمراكز القوة ومحاور الحضارة ، فيتحول إلى اليسار أقوام كانوا في اليمين ويصل إلى ذروة الغنى أناس كانوا في قوائم الفقر ، وترتفع إلى مرتبة النجوم أمم كانت في حضيض الإهمال وتفاهة القدر . وليس يقف هذا الأثر عند صفوف المتحاربين بل يتعداهم إلى غيرهم ممن قدر له أن يقف على الحياد ، أو ممن كان مربوطاً بمركبة أحد المتحاربين على سبيل التبعية والقهر ، كما هو الشأن في الأمم المستعمرة والمستعبدة والضعيفة المغلوبة على أمرها . ففي الحروب التي تستغرق جهود الأقوياء فرصة ذهبية للضعفاء ليشند ساعدهم ولتدعيم مركزهم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، لانشغال الأقوياء عنهم من ناحية ، ولحاجة الأقوياء الشديدة لمعونة الضعفاء من ناحية أخرى ، فيعملون على إرضائهم .

### الهند

أضرب لذلك مثلاً أمة الهند التي تُولف جزءاً كبيراً من البشر المغلوب على أمره بعد أن كان محوراً من محاور الحضارة في العالم . تعيش هذه الأمة التي يبلغ عدد سكانها أربعمائة مليون نسمة تقريباً تابعة للأمة الإنجليزية منذ عدة أجيال ولا عمل للإنجليز إلا التفريق بين صفوفها والحيولة بين الهنود وبين أى ارتقاء أو تطور ، ليظل للإنجليز سلطانهم وسيادتهم . فلما كانت الحرب العظمى قطعت الهند شوطاً في سبيل التطور نحو الاستقلال السياسى والاقتصادى ، فاستيقظ الشعب من سباته ونظم صفوفه تحت زعامة غاندى ،

ثم راح يكافح من أجل حريته وحقه في الحياة الكريمة والاستقلال والسيادة ، وبدأت الهند إنتاجاً صناعياً من الطراز الأول وكان اشتعال الحرب من جديد فرصة أخرى للهند لتضاعف نشاطها في سبيل استكمال حريتها ، فوثبت وثبة رائعة نحو غايتها وتحقيق آمالها ، وعلى الأخص في الناحية الاقتصادية ، إذ أصبحت مركزاً من مراكز الإنتاج الصناعي العالمي تنتج الفولاذ والآلات والسيارات والأسلحة . وبعد أن كانت الهند هي سوق إنجلترا الأول لتوزيع منتجاتها أصبحت تعتمد على نفسها وتمد إنجلترا ببعض حاجاتها فاضطرت إنجلترا عند ذلك أن تقابل الهنود في منتصف الطريق ، وأن ترضى عواطفهم وتلبى بعض مطالبهم ، فتزید يوماً بعد يوم في نصيبهم في حكم أنفسهم ، وأن تشاركهم إشراكاً فعلياً في الإشراف على سير العمليات الحربية ! . بعد أن أصبح لهم ما يزيد على المليون من الجيوش المدربة التي تحرز الانتصارات في سائر الميادين ، وأعلنت إنجلترا في النهاية أنها ستمنح الهنود استقلالهم الداخلي الكامل كما هو الحال في استراليا وكندا وجنوب أفريقيا ، وهي دول مستقلة كل الاستقلال وليس يربطها بإنجلترا إلا التاج البريطاني . بل أعلنت أن الهند في حل من أن ترتبط بإنجلترا بأى رباط ، فالهند تتطور وترقى في معارج التقدم الإنساني على رغم إرادة الإنجليز ، والفضل في ذلك راجع لنشوب الحرب مرة بعد أخرى ، وخطر الحرب الدائم الذي سيظل يهدد إنجلترا حتى بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها .

### مصر والبلاد العربية

وما يقال عن الهند يقال عن بقية الشعوب المغلوبة على أمرها وعلى رأسها الأمم الإسلامية ، وقد شاهدنا هذا الأثر النافع واضحاً في مصر عقب انتهاء الحرب الماضية حيث قام المصريون بثورة عجيبة هي الأولى من نوعها في تاريخ مصر الحديثة ، حيث اندفع الشيوخ والنساء والأطفال ينادون بحرية الوطن ، لم يرهبهم سيف الأحكام العرفية المسلط على الرؤوس ولا ملاقاه البعض من اعتقال وسجن وضرب بالرصاض وشنق وجلد ، ولم يكن لذلك كله من أثر إلا زيادة النار اضطراباً ، والمصريين عزماً وتصميماً ، ولا جدال في أن ذلك كله كان أثراً مما تلقاه المصريون طوال سنوات الحرب عن المتحاربين من دروس في الاستبسال والتضحية في سبيل مجد الأوطان ورفعتها وقد سرت هذه الروح التي غمرت المصريين إلى جميع الأمم العربية والإسلامية فقامت كلها تكافح عن كيائها وحريتها وحققها في الاستقلال والمجد فبذلت أرواحها وأراقت دماءها في

هذا السبيل فعادت الروح بذلك إلى هذه الأمم وأبرزت حقها للعالمين وقطعت شوطاً لا بأس به في سبيل تحقيق غايتها ، وإذا كانت الحرب الماضية لم تحقق كل ما أمله المصريون والعرب فإن أومن إيماناً جازماً أن الحرب الحالية ستكمل ما بدأته الحرب السابقة وستشهد الدنيا بعد هذه الحرب وحدة عربية فتية ناهضة تتزعّمها مصر القوية التي تطورت تطوراً بعيد المدى ، فبعد أن كانت قبل الحرب الماضية لا تعدو أن تكون مزرعة تزرع القطن لحساب لا نكشير في المنجلا أصبحت مركزاً من مراكز الإنتاج الكبرى في الشرق الأوسط وتطورت فيها الصناعة تطوراً كبيراً يوشك أن يصبح انقلاباً خطيراً بمجرد تحقيق مشروعين أو ثلاثة . ومن خلال جهودها المتواصلة بدأت شخصيتها الدولية في ظهورها كزعيمة للعالم العربي هذه الزعامة التي لن تلبث أن تصبح حقيقة فعالة في الغد القريب .

وهكذا تعيد الحروب التوازن بين الأمم وتتيح الفرصة لشعوب هضمت حقوقها أن تنفس وأن تصلح من أحوالها وأن تشق طريقها نحو الحرية والاستقلال والمجد<sup>(١)</sup> .

### الحروب كوسيلة للإصلاح الروحي

على أن ما قدمته حتى الآن لا يعدو الجانب المادى من فوائد الحروب ، وهو الجانب الأقل أهمية وإنما تحقق الحرب فائدتها الكبرى في الإصلاح الروحي الذى تحدّثه في نفوس البشر ، حيث تظهر نفوسهم من الدنيا والأرجاس وتسمو بأرواحهم إلى قمة الفضيلة والمثل الأعلى ، وتعيد تنظيم الجاعة على أسس أكثر صلاحية من الأسس السابقة على الحرب .

وتشبه الحروب من هذه الناحية العملية الجراحية . فهى على ما فيها من جرح وإيلام وقطع أوصال وإراقة دم ، فإن هدفها الأول هو إبراء العليل وتطهير جسده من الأجزاء الفاسدة والباسه ثوب العافية من جديد وتحسين حاله عما كان من قبل ، فكل ذلك الشأن في الحروب فعلى الرغم من أنها تخرب وتدمر وتسيل الدماء وتزهق أرواح فريق من

---

١ - كتبت هذه السطور قبل إنشاء الجامعة العربية ومعنى ذلك أن الأيام والحوادث قد أيدت هذا الإيمان وهذه العقيدة فقد شاهدنا بمجرد انتهاء هذه الحرب جلاء الجيوش الاجنبية عن سوريا ولبنان وتكوين الجامعة العربية . ولن نستطيع أن تغفل نهضة أندونيسيا الجبارة ، وإعلانها تأليف جمهوريتها المستقلة ، وليس ذلك إلا أثراً من آثار هذه الحرب .

البشر ، فهي تعود على البقية الباقية بالشقاء والعافية وترد للمجتمع العليل صحته وقوته .  
ليس هناك ما يضر الجماعات والأمم أكثر من سلّم طويل الأمد ينكب فيه كل فرد على تحقيق شهواته وأغراضه الخاصة ، وتملكه الأنانية والأثرة ، ولا يعرف من الحياة إلا أنها أداة للترف والملذات والإثراء والحمول والكسل ، فيعزف عن كل فضيلة وخلق كريم وإيمان عميق ، فتفكك روابط الجماعة وتنحل الأسرة والقرابة ولا يعود هناك مجال للتضامن أو التعاون الاجتماعي ، ويكثر التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابير والتناوب ، وتتحارب الطبقات بعد أن تتضخم الفوارق فيما بينها ويضعف الوازع الديني ويتضاءل سلطان القانون والعادات والتقاليد المرعية .

وفي هذا الجو ينزوي الرجال الأقوياء والاكفاء وينضب معين النبوغ والعبقرية ويتصدر الجاعة السفسطائيون والأدعياء والثرثرون ، ويسود التهريج والتهويز والخذاع والتغريب ، فيقل الإنتاج ويتضاءل وينكمش ويكون الطابع البارز الذي يطبع المجتمع أفراداً وجماعات هو الاستهتار بكل شيء .

فالحرب وحدها هي التي تعيد الأمور إلى نصابها وتصحح الأوضاع المقلوبة وتصلح من شأن الفساد إن لم يكن في إبان اشتعال الحرب فبعد انتهائها ، عندما يكون مصير هذا المجتمع المنحل هو الهزيمة والفشل فيدأب الشعب المنهزم بعد الحرب على إصلاح مساوئه والنهوض من كبوته كما هو الحال بالنسبة لفرنسا في هذه الحرب .

في أثناء الحروب يتوارى العجز والحمول والكسل ويبتذل سلطان الثروة والادعاء والغرور ، ويتجلى عمل الشجعان والأكفاء والقادرين ، في ظل الحرب تنمو العبقرية ويعتز النبوغ وتزدهر الفضيلة والأخلاق الرفيعة فلا يكون مجالاً للأنانية والاستهتار وإنما للتضحية والإيثار ، ولا سبيل لليأس والقنوط والشك والاستهتار ، وإنما للصبر والعزم والمثابرة والجد والإيمان . وأخيراً ليس سوى الحرب شيء يعيد للمجتمع وحدته وتضامنه فهي التي تجعل من المجتمع جسداً واحداً وأسرة واحدة فتسكن ريح الفروق الاجتماعية ويصبح الناس طبقة واحدة بعد أن جمعهم الخطر المشترك والهدف المشترك . في ظل الحرب . تعود للدين قدسيته وللقوانين والتقاليد حرمتها ، وللأمن استتبابه ، وللإنتاج نشاطه ووفرته .

وها هي الحرب الحالية تجري تحت أسماعنا وأبصارنا منذ ثلاث سنوات ونصف سنة تعرضت فيها الأمم المتحاربة لأقسى النكبات والحن التي ظن من قبل أنها قد تؤدي إلى

تداعى الشعوب وفنائها ، بل وإنهاء الحضارة الإنسانية جملة ، وقد شاهدنا بالفعل مئات من الألوف تقتل وألوفاً من المدن والقرى تحرق أو تدمر وعدداً لا يحصى من البواخر تفرق في جوف المحيط بشحناتها من الآدميين والمواد الثمينة . ورأينا شعباً تعيش ليل نهار تحت طوفان من القنابل تقذفها الطائرات فتقتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، وتخطب خبط عشواء لا تبالى من تصيب ، ومع ذلك فلم يكن لذلك كله أى أثر في إضعاف النفوس أو وهن العزائم أو ملء القلوب بالجبن والفرع ، بل على الضد من ذلك كله لم تزد الكوارث والمحن المتحارين إلا عزمًا وتصميمًا على السير في الحرب حتى النهاية وإدراك النصر والفوز المبين ، وتنافست الأمم المتحاربة في إظهار ضروب من البسالة والتضحية والفدائية ، فمن أقوام يقذفون بأنفسهم من طبقات الجو العالية ليهبطوا بالمظلات بين برائن العدو وخلف خطوطه ، إلى آخرين يخترقون البخار على ظهرها أو في جوفها في داخل الغواصات حيث يهددهم الموت في كل لحظة ، وآخرون يقذفون بأنفسهم على الأهداف العسكرية داخل طوريريد أو قنبلة أو يهبطون بطائراتهم المحملة بالذخائر على هذا الهدف فينسفونه نسفًا بعد أن يكونوا هم أول المنسوفين المتناثرين في الهواء . وتفنن الجنود في طلب الميئات الشريفة ، وتنافسوا في الإقدام عليها حتى أصبحت الفدائية والتضحية هى طابع العصر ، وفنن الفرد في المجموع وأصبح الاحتفاظ بالشرف والكرامة والحرية هو المثل الأعلى للجماة ، وهو ما يجود الفرد في سبيله بماله ودمه ، ويتحمل من أجله ما لم يخطر على عقل البشر إمكان تحمله ومعاناته ، وهذا هو أعظم ما تنطوى عليه الحرب من فائدة للبشر<sup>(١)</sup> .

١ - لقد أوشك السلم أن يفكك وحدة الإمبراطورية الإنجليزية بعد أن أضر بسمعة الإنجليز وقيل عنهم أنهم يسرعون إلى الفناء وأن الهرم قد حل بهم ، فإذا بهذه الحرب ترتفع بهم من جديد إلى ذروة المجد وإلى صدارة العالم ، وإذا بالإمبراطورية البريطانية تبدو أكثر اتحادًا وتضامنًا عما كان يظن أكثر الناس ! وهكذا بعث إنجلترا من جديد في ظل الكوارث والمحن ، وقل مثل ذلك عن روسيا السوفيتية التي كانت علمًا على الفوضى والإياحية والوحشية ، وعبًا حاولت روسيا أن تبدد هذه التهم والإشاعات ، وأن تظهر نجاح النظام الشيوعي بها حتى لقد أنفقت في هذا السبيل مئات الملايين من الجنيئات فلم يجدها ذلك كله فتبلى وأبواب العالم مغلقة في وجهها يحف بسمعتها الاحتقار والازدراء ، فلم تكف تقف وقفها المشهورة ضد الألمان وثبت هذا الثبات العجيب الذى بهر العالم بما احتواه من آيات رائعات ودروس باهرات في البطولة والفدائية والتضامن الاجتماعى ووحدة الشعب حتى انقلبت ألسته عداتها لاهجة بالثناء عليها ، والملاح لها .. ففي عام واحد كسبت روسيا من احترام العالم ما لم تحصل عليه في تاريخها الطويل وفتحت لها الأبواب المغلقة وأرصدت لمعاونتها الثروات الطائلة ، وغداً عندما يسدل الستار على هذه الحرب مها كانت نتيجتها بالنسبة لروسيا ، فإن هذا الكفاح سيجعل من روسيا أمة مجيدة تساهم في حضارة العالم بأكبر نصيب بعد أن لم تكن في ظل السلم تساوى شيئاً مذكورًا .



## وبعد

وبعد فما الذى يفزع ضعاف النفوس من الحرب ، وما الذى يحمل البعض على الدعوة لأبطال الحروب ، وما الذى يجعل اسم الحرب كريهاً على أسماع الكثيرين ؟. أليس هو الخوف من الموت والرغبة فى تجنب النفس ويلات الحرب ؟ ولكن هل من سبيل لاتقاء الموت ؟ أليس هو قدر مقدور وأجل معلوم وقضاء محتوم على بنى البشر لا بد واقع بهم مهما طال الأمد ؟ فهو سنة الحياة التى لا محيص عنها ولا فكاك ، كما يقول القرآن « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملائكم » و « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تتمعون إلا قليلاً » ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً .

وإذا كان الموت فريضة على كل حى ، وإذا كان لا بد للإنسان أن يلاقى مصرعه الذى لا يستطيع أن يكون له أقل اختيار فى كفيته ، أو ليس من الخير ألف مرة إذا قدر للإنسان أن يموت أن يكون مصرعه فى سبيل الدفاع عن عقيدته ومثله الأعلى وخير المجموع البشرى ؟. أليس من الخير للإنسان أن يموت فى ميدان الشرف فيحشر نفسه فى زمرة الخالدين ويتأى بها عن جماعة الخاملين الذين يحيثون إلى الحياة ويخرجون منها دون أن يكون لهم حظ فيها أكثر من حظ السامات ، طعام فشراب فنوم فمات . ليست الحياة طعاماً وشراباً وإلا لكانت مهزلة وأضحكة وإنما الحياة إيمان وعقيدة وتطور وكفاح للوصول إلى مثل أعلى ونهاية سعيدة والموت فى سبيل هذا المثل الأعلى هو الحياة الحقيقية ، هو الاتصال بروح السكون وحقيقته ، هو الحياة الدائمة السرمدية ، هو الخلود والبقاء الذى لا يطاولة بقاء .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وليس سوى الحرب المشروعة ، يتيح لعدد كبير من البشر سبيلهم إلى موة مجيدة شريفة منتجة فعالة بدلاً من ميتهم وفنائهم فى الظلام مخلفين وراءهم أسوأ المثلثات لمن يحيثون بعدهم .

## الحرب خير

وآخر ما أقول إن الحرب باعتبارها ناموساً من نواميس الكون ليست شراً فى مجموعها ، فإن ما تحدثه من خسائر فى ناحية تعوضه أرباحاً فى ناحية أخرى ، وما أسهل

ما تَعَوَّض الخسائر فيعاد إنشاء المدن التي خربت بأحسن وأروع مما كانت ، وتولد ملايين من البشر بدلاً من تلك التي فقدت ، وما الحياة إلا هدم وبناء ، وموت وحياة ، وإنما الريح الذي لا يقوم بثمن والذي لا يستطيع البشر تحصيله بخال من الأحوال في ظل السلم هو ازدهار الروح البشرية في خلال الحروب وفي أعقابها ، هذا الازدهار الذي يرتقى بالحياة البشرية مادياً وأدبياً ويندفع بها نحو الأمام نحو النشوء والارتقاء .. نحو المثل الأعلى .

## القرآن والحرب والجهاد

قد يظن البعض أنني قد ركبت متن الشطط ، وأنا أقرر هذه الأحكام أو أنني غاليت وتطرفت أو جنحت إلى الجانب الذي يخلو للبعض أن يصفه بالغلظة والخشونة وخلوه من الرحمة والإنسانية ! . ولرب قائل يقول هذه فلسفة نازية أو فاشستية ولكن في الحقيقة لم أعد في كل ما قررته نصوص القرآن وأحكامه ، فكل القواعد السابقة قد ذكرها القرآن ووصف بها الحروب وفوائدها ، وأنها سنة من سنن الحياة وارتفع القرآن بالحب في بعض الأحوال إلى ذروة الواجبات السامية ، والفرائض المقدسة ، والأداة الحيدة لإصلاح البشر وتطهيرهم بالرغم ما في مظهرها من غضاضة وما تشعر به الناس تلقاءها من كراهية .

يقول القرآن الكريم « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فهذا نص صريح على ما يمكن أن تنطوي عليه الحروب من خير للبشر . وأن جهلوا ذلك وكرهوه في بادئ الأمر . ذلك أن الإنسان لا يرى أبعد من أنفه ولا يميز الأشياء إلا بمقدار ما تتصل بحسه ، ولا يجب إلا ما عاد بالنفع على شخصه . أما الله سبحانه وتعالى الذي يعرف من الأمور ما فات ، وما هو حالُّ وما هو آت ، الله الذي خلق البشر ويعرف ما يفيدهم ، وما يضرهم أو يحسن أحوالهم ، فإنه يعلم دائماً ما بطن وما ظهر ، بينا الإنسان لا يعرف إلا ما عَلم أو نظر .

وقد انتقل القرآن بعد ذلك من التعميم إلى التخصيص فنص في آية أخرى صراحة على أن الحرب أداة لإصلاح البشر فقال وقوله الحق : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » وفي آية أخرى يبين القرآن لونا

من ألوان الفساد وهو القضاء على حرية المعتقدات الدينية وسيادة الطغيان والإرهاب فيقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » .

وفي هذه الآيات نص على نتيجة الحروب ، وأنها تنتهى بانتصار الصالح الذى ينصر الله ، الذى إن مكن له فى الأرض أحسن العبادة وواسى الفقراء وآخى بين الطبقات وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو قوام الحضارات الرفيعة والمدنيات السامية فى هذه العبارات الموجزة كل ما يعود على الإنسانية بالنفع والسعادة والارتقاء .

وما أكثر ما حض القرآن بعد ذلك على القتال ورغب فيه ودعا المؤمنين إلى خوض غماره ليتم لهم بذلك عند الله أعظم الفوز فى الآخرة والفلاح فى الحياة الدنيا ، وأقرأوا إن شئتم « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » .

وقال القرآن فى فضل المحاربين « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

والقرآن كله يفيض بأمثال هذه الآيات التى ذكرت لك بعضها وسيرد ذكر البعض الآخر فيما بعد وليست أحاديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه بأقل من هذه الآيات كثرة ووضوحاً وجلاء ، وإليك بعض هذه الأحاديث الكريمة :

« ضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرج به إلا جهاد فى سبيل ، وإيمان وتصديق برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . إلى أن قال : والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله ثم أقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل <sup>(١)</sup> » وروى الشيخان والترمذى « واعلموا أن الجنة

١ - رواه مسلم والبخارى

تحت ظلال السيوف» ومالت نفس رجل إلى العزلة فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها : «فقال لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة . أغزو في سبيل الله . من قاتل في سبيل الله فواق ناقة<sup>(١)</sup> وجبت له الجنة » .

وسئل رسول الله عن خير الأعمال فقال «الجهاد سنام العمل» وقال عليه الصلاة والسلام «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق<sup>(٢)</sup>» وليس وراء ذلك دعوة لجعل المسلمين جميعاً محاربين مجاهدين .

\* \* \*

---

١ - رواه الترمذى - أى قدر ما بين الحلبتين .

٢ - رواه مسلم وأبو داود والنسائي .

## الفصل الثاني

### أغراض الحرب - شريعتها - الحرب المشروعة

#### وغير المشروعة

على أن ما تقدم لا يعنى مطلقاً أن الحرب مطلوبة في ذاتها كغاية من غايات البشر ، وأن الأمم يتعين عليها أن تشعل نيران الحرب كلما أطفأها الله لسبب أو لغير سبب إلا الرغبة في التقتيل والتدمير وإراقة الدماء ، وإنما كل ما ذكرته حتى الآن ليس إلا تبريراً للحرب وترغيباً فيها عندما تصبح ضرورة لا مناص منها ، ففي هذه الحالة يتعين الإقدام عليها بإيمان ثابت وقلوب حديدية فإذا لم توجد ضرورة للحرب فلا يكون من الخير إشعالها ، بل يصبح الشر كل الشر في الإقدام عليها ، وتكون لوناً من ألوان البغي والعدوان والافتيات على حق المجتمع الذي ينبغي أن يعيش في سلام وأمن ووثام . وفي ذلك يقول الله لرسوله الكريم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » فالسلم هو الغاية والأصل ، والحرب هي العرض ، والوسيلة . فهي كالمرض بالنسبة للصحة ، والفقر بالنسبة للغنى ، ومهمة الإنسان أن يحول دون قيام الحروب جهد الطاقة ، فإذا قام بها أهل البغي والعدوان فقد وجب على محبي السلم أن لا يمكنوهم من نشر عدوانهم فيهبوا لحربهم غير مدخرين في هذه الحالة جهداً أو نشاطاً أو تضحية ، مؤمنين بأنهم يقومون بواجب مقدس ويحققون مشيئة الله في الأرض وهذا يجرنا إلى بحث الحالات التي تكون الحرب فيها مشروعة ومقدسة والحالات الأخرى التي تكون فيها بغياً آثماً وظلماً مبيناً .

#### الحرب الدفاعية

أول ضرب من ضروب الحرب الضرورية التي تصبح نتيجة ضرورتها مقدسة مشروعة ، هي الحرب الدفاعية سواء كان الدفاع عن النفس أو المال أو العرض أو العقيدة أو الحرية . والدفاع فضلاً عن أنه حق فهو غريزة وفطرة جبلت عليها الأحياء كلها من إنسان وحيوان إذ يسعى كل كائن إلى المحافظة على نفسه من التلف والإبقاء على

كيانه ومحاربة كل ما يهدده في وجوده وحياته ، فلم يخلق الله سبحانه وتعالى حيواناً يدب على قدميه أو يطير بجناحيه إلا وجهزه بأسلحة الدفاع عن نفسه ، وجهز الإنسان سيد الكائنات بأقوى الأسلحة طراً وهي العقل البشرى الذى أخضع الكائنات كلها لسلطان الإنسان بالرغم من شدة بطشها . وبهذا العقل أنتج الإنسان الأسلحة التى مكنته من هذه السيطرة وبها دافع عن نفسه ، إذ من واجبه أن يرد كل عدوان وتهديد مادى أو معنوى عنها . ومن أول واجبات الجماعة المتحضرة أن تمكن كل فرد من حرية الدفاع عن نفسه وأن تساعده على إحسان هذا الدفاع وتعاونه على رد العدوان وكسر شكيمة المعتدى . وبغير ذلك لا يقوم عمران أو حضارة . وينجب دفع العدوان بالقوة اللازمة لدفعه والحيلولة دون تكراره ولا ينبغى أن يتهاون المدافع فى ذلك أو يتردد بحجة الشفقة أو الإنسانية أو الرحمة ، فالشر بالشر والبادى أظلم « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وليس أقبح ولا أشنع من تعكير السلم والاعتداء على الآمنين أو محاولة سلبهم حريتهم واستقلالهم أو ثروتهم أو فتنهم فى عقيدتهم أو دينهم ، وهذا هو ما شرعه الله للمسلمين عندما اشتد عليهم أذى المشركين مما اضطهرهم للهجرة من ديارهم بأنفسهم وأموالهم بغير وجه حق وإلا تعرضوا لصنوف من التعذيب والتقتيل كما حل ببعض ، وعبثاً حاول المسلمون أن يحاسنوا المشركين أو يصانعوهم فى مقابل أن يحتفظ كل من الفريقين بحرية دينه وعقيدته ، فقد أبى المشركون إلا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم وأن يردوهم كفاراً أو أن يقتلوهم ويشردوهم ، فأصبحت المسألة بذلك مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين ، فإما أن يردوا العدوان بالقوة وإما حق عليهم الفناء وانطلقاً نور الدعوة السامية التى جاء بها الإسلام للبشر ، وهى الدعوة إلى التوحيد واختصاص الله بالعبودية دون سائر الكائنات ، والترفع عن الدنيا والموتىات وطهارة الروح والبدن من كل إثم وإسراف . ولما كانت مشيئة الرب أن يحق الحق وأن ينصر دينه وأن يتم نعمته على البشر فقد أذن للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم مقراً بذلك حق الدفاع الشرعى عن النفس والعقيدة بقوة السلاح والحرب وفى ذلك نزلت هذه الآيات .

« أَدِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغير حق إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصُلُوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

فما إن نزلت هذه الآيات حتى امتشق المسلمون الحسام وخاضوا غمار الحرب ضد قريش ، وضد جميع من يحاولون التصدى للمسلمين . لعرقلة جهادهم في سبيل نشر الدين الجديد ، وما إن بدأت الحرب حتى لجأ الرسول إلى كل الوسائل الحربية والاقتصادية والأدبية التي تؤدي إلى قهر العدو وكسر شوكته وتحطيم سطوته ، فكان أول ما فكر فيه هو حصار قريش حصاراً اقتصادياً على مثال ما تعتمد إليه الدول المتحاربة في العصر الحديث . حيث تقطع تجارة الصادر والوارد الخاصة بعدوها لتضعف موارده وتنهك قواه وتغني من ثروته ما تزداد به قوة فبدأت سرايا رسول الله تهاجم قوافل قريش الرائحة إلى الشام والغادية منها حاملة الميرة والثروة الوفيرة ، فهبت قريش للدفاع عن شريان حياتها ومصدر ثروتها ، فكانت موقعة بدر ، هذه الموقعة الخالدة التي اعتر فيها المسلمون ونكلوا بالمشركين شر تنكيل فضج المشركون بالشكوى منها ونادوا بالويل والثبور ، وشعوا على رسول الله والمسلمين وقالوا كيف يكون نبياً أرسله رب العالمين من يلجأ إلى القتال والحرب وإراقة الدماء ؟ كأن النبي المرسل من الله ومن تبعوه ينبغي عليهم من دون البشر أن يكونوا عرضة للتحقير والإهانات والضرب والتعذيب والطرده والتشريد ! . فلا يدفعون عن أنفسهم كما يدفع سائر مخلوقات الله . ولذلك رد القرآن زعم المشركين مادحاً المؤمنين لانتصارهم لأنفسهم وملقياً الوزر على عاتق المعتدين الجرمين بقوله « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

### قاعدة المقابلة بالمثل

وليس هناك ما يردع المعتدين ويضع حداً لطغيان الجرمين أكثر من القاعدة المحكمة قاعدة المقابلة بالمثل ففيها الحياة وفيها النجاة ، أما الذين يدعون إلى التسامح مع الجرمين والسفاكين ومقابلة اعتدائهم بالإحسان فهؤلاء إنما يشجعون الإجرام ويسلطون الأشرار على الأخيار ويهدمون نظام الجماعة وال عمران ولذلك فإن أرقى الشعوب الحديثة وجدت ملاذها وأمنها في تطبيق هذه القاعدة سواء في السلم أو في الحرب ، فكان تطبيقها السبب الواقى لكثير من الشرور ! . خذ لذلك مثلاً : الغازات السامة ، هذا السلاح الفتاك الخبيث الذي يعمي الأبصار ويصم الآذان ويزهق الأرواح ويحمل الأحياء على الجنون ، لقد اخترعه الألمان واستعملوه في الحرب الماضية وكادوا يهزمون به الحلفاء هزيمة ساحقة

لولا أن أجابهم الحلفاء بعد قليل باستخدام نفس السلاح فعانى منه الألمان أضعاف ما عاناه أعداؤهم مما حملهم في هذه الحرب على الكف عن استعمال الغازات فكف الحلفاء عن استعمالها بدورهم ، وهكذا التزم كل من الطرفين جانباً من جوانب الإنسانية لا بدافع من الفضيلة والمروءة ولكن خوفاً من المقابلة بالمثل .

وعندما اندلعت نيران هذه الحرب الجارية شهراً الألمان على الدول الأقل قوة منهم في سلاح الجو غارات كاسحة فتاة كانت تصلى المدن ناراً حامية طوال ساعات عديدة بالليل والنهار فقتل الأطفال والنساء والعجزة وتهدم الدور والمعابد والجامعات لم تردعهم عن عدوانهم رحمة ولا شفقة ، حتى إذا تطورت ظروف الحرب واشتد ساعد الحلفاء راحوا يردون لألمانيا دينها القديم ويكيلون لها الصاع صاعين ، فبدأت ألمانيا تشكو وتتململ من هذا الأسلوب وتمنت لو أمكن الاتفاق بين الجانبين على الكف عن هذه الغارات الوحشية ، ولكن هيات أن يرضى الحلفاء بعقد مثل هذا الاتفاق قبل أن يفرغوا من هزيمة ألمانيا التي كانت البادئة بهذا الطراز من القتال .

وقد قرر القرآن هذه القاعدة قاعدة المقابلة بالمثل في صراحة وقوة في أكثر من آية وطبقها الرسول تطبيقاً ناجحاً على أوسع نطاق . من ذلك أنه كان للعرب أشهر معلومة يضعون فيها الأسلحة ويكفون عن مباشرة القتال ، كما اتخذوا من الكعبة المكرمة حرماً آمناً لا يدور فيه قتال طوال أيام العام ، وقد كان احترام هاتين القاعدتين مقدساً لا يخجل به إنسان فنزل القرآن مقرأً لهاتين القاعدتين على شريطة المقابلة بالمثل فقال عن الأشهر الحرم .

«الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واعلموا أن الله مع المتقين» .

وقال عن مباشرة القتال في البيت الحرام :

«ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم» .

### شريعة الحرب

وإذا اشتبكت الأمة في حرب فيتعين عليها أن تعلم أن الحرب هي الحرب ، ولا شريعة لها إلا بغض العدو والعمل على كسره وإفناؤه ، أو أن يكف عن عدوانه ،



فإذا لم يكف عن العدوان أو يتوقف عن القتال فيكون كل مجهود يبذل في سبيل القضاء عليه مشروعاً مبرراً ، ومن ذلك تضيق الخناق عليه وحصاره لا عن التجارة ومصادر رزقه كما أشرت إلى ذلك في الفقرة السابقة ، بل عن الطعام والشراب حتى يحمل بذلك على الاستسلام !. ففي غزوة بدر حال الرسول بين المشركين وبين ورودهم الماء ودار القتال حول حوض الماء الذي ابتناه المسلمون ليشربوا منه دون المشركين وحاصر اليهود في أكثر من موقعة حتى نزلوا على حكمه وحاصر الطائف إلى أن اقتضته الظروف ففك الحصار عنهم ، وفي غزوة بني النضير عمد الرسول إلى تقطيع نخيل اليهود ليحملهم بذلك على الاستسلام فاستسلموا وكان الفضل في ذلك لهذا الأسلوب الذي ألهمه الرسول ولم يكن للعرب به سابقة عهد ، وفي هذا يقول القرآن « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » .

وعلى ذلك فإن ما تعتمد إليه الدول الحديثة من محاولة تدمير منشآت العدو العسكرية كالمصانع ومحطات توليد الكهرباء وخزانات المياه والجسور ووسائل المواصلات ومحطات السكك الحديدية وإتلاف الآلات الزراعية وكل ما من شأنه تعطيل الإنتاج وشل يد العدو عن مواصلة القتال هو جزء لا يتجزأ من شرعة القتال وهو واجب ومشروع من ناحية المدافع عن نفسه .

### تجنب المدنيين ويلات الحرب

وكسر قوة العدو العسكرية هي التي يجب أن تكون هدف القتال الأول مهما اشتدت صرامته واحتدم أواره ؛ ولا يجب أن تتجه الجهود إلى غير هذه الوجهة بحال من الأحوال كأن ينكل بالأسرى أو يقتلوا أو يعذبوا أو أن تساء معاملتهم ذلك أنهم وقد وقعوا في الأسر لم يعد لهم سلطان ولا قوة ولا قدرة على الإيذاء فينبغي النظر إليهم في هذه الحالة بغير النظرة التي ينظر بها إلى الجندي المحارب الذي لا يزال يحمل السلاح فلا حقد عليهم ولا محاولة للانتقام منهم ، وكذلك كل من لم يكن له صلة عن قرب أو بعد بقوة العدو العسكرية وتمكينه من الاعتداء كالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة بل جميع من تطلق عليهم لفظة المدنيين في العصر الحديث فهؤلاء جميعاً يتحتم عدم إيذائهم أو الانتقام منهم أو الإضرار بهم لأنهم لا خوف منهم ولا قدرة لهم على الاعتداء ، وقد روى أنس في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية قال لأمره « انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله . ولا تقتلوا شيخاً فانياً

ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة» وعن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم فنهى عن قتل النساء والصبيان . على أن هذا الإغفاء في الزمن القديم كان مقيداً بشرط أن لا يكون لهذه العناصر صلة بالقتال أو العون عليه ، لا كما هو الحال في العصور الحديثة حيث أصبحت النساء تقوم بدور فعال في الحروب ، لا يقف عند قيادة السيارات ونقل المهات وتولى المراسلات والعمل في مصانع الذخيرة والأسلحة ، بل يأخذ في بعض الأحيان ضورة القتال الكاملة حيث تمسك المرأة مدفعاً سريع الطلقات تشترك به في القتال ، ففي هذه الأحوال كلها تسقط عنهم الحصانة ويتعين معاملتهم معاملة المحاربين على السواء فلا حرج في قتلهم إذا صادفهم المحارب وجهاً لوجه في المعركة ، فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر بامرأة قتيل في يوم الخندق فقال من قتل هذه ؟ قال رجل أنا يارسول الله ، قال ولم ؟ قال : نازعتني قائم سيفي ، فسكت . وفي موقعة حنين قتل دريد بن الصمة وهو شيخ فان لا قدرة له على القتال ولكنهم كانوا قد خرجوا به معهم ليستعينوا برأيه ومشورته وخبرته بالحروب فلم ينكر النبي موته .

ففي كل حالة يتحول فيها النساء والشيوخ والصبيان إلى عناصر شاربة أو مساعدة على الحرب تسقط عنهم الحصانة . وكذلك في جميع الأحوال التي يمتزجون فيها بالمتحاربين ، ويصبح من المتعذر فصل بعضهم عن بعض ، أو الوصول للمتحاربين دون المساس بالآخرين ، ففي هذه الحالة يتعين عدم التفريق بين المتحاربين وغير المتحاربين ماداموا في صعيد واحد ، وتكون هذه هي إحدى ضرورات الحرب .

«سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الدار يبيتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذرائعهم قال هم منهم<sup>(١)</sup>» وفي حصار الرسول للطائف عندما تحصنت ثقيف خلف أسوار حصونها وراحت تقذف المسلمين من ورائها بالسهم والنبال ، استخدم الرسول في حريمهم والمهجوم عليهم المنجنيق الذي كان يرمى بقذائفه داخل الأسوار فتقع بطبيعة الحال بين جميع من هم وراء الأسوار سواء كانوا محاربين أو كانوا نساء أو أطفالاً ، وليس المنجنيق إلا الصورة البدائية للدفاع الحصار الضخمة في عصرنا الحديث عندما تسلطها الجيوش على المدن التي تأتي الاستسلام ، أو قاذفات القنابل التي تغير على المدن والمراكز التي توجد بها قوة العدو ، فيكون من وراء ذلك إصابة الكثير من

١ - رواه الأربعة .

المدنيين وهدم دورهم ، ولكن تلك مسألة لا مرد لها ولا مناص منها ، فهي إحدى ضرورات الحرب التي لا بد منها لكسر شوكة العدو ، ولذلك يتعين على الأمة التي تريد تجنب سكان مدينة من مدنها ويلات الحرب أن تعلن أنها مدينة مفتوحة ، فتخليها من كل قوة عسكرية أو كل ما يعين على الحرب أو يتصل بها عن قرب أو بعد ، وفي هذه الحالة يكون من الواجب على الفريق الآخر أن يحترم هذه المدن وساكنيها فلا يتعرض لهم بسوء وإلا كان معتدياً باغياً . ويجب أن يخضع نظام المدينة المفتوحة للقاعدة العامة في الحرب وهي المقابلة بالمثل ، وإلا فلا يعود هناك احترام لهذه المدن مادام الطرف الآخر لا يتبعها أو يحترمها .

### المهجوم خير وسيلة للدفاع

على أن الحرب الدفاعية لا تقتصر صورتها على الانتظار والترصد حتى يهجم العدو ثم مقاومة هجمه بعد ذلك ، بل قد يتعين على المدافع عن نفسه أن يكون هو البادئ بالهجوم على عدوه ، متى ثبت لديه أن هذا العدو يتجهز لحربه ويجمع الأسلحة ويجهز الجيوش ويعقد المحالفات ! . ويتحين الفرصة منتهزاً غرة من المعتدى عليه لينقض عليه ويبطش به البطشة الكبرى ، ففي هذه الحالة يكون من الخير عدم انتظار العدو حتى يكمل استعداداته ويضرب ضربته في الوقت الذي يختاره ، بل يجب مفاجأته بالهجوم عليه ، ولا يغير ذلك من طبيعة الحرب ويقلبها إلى حرب هجومية ، أو حرب غير مشروعة بل إنها تظل محتفظة بصفتها الدفاعية ذلك أن حق الدفاع لا يقف عند حد دفع الأخطار المباشرة ، بل هو يشمل كذلك الأخطار المتوقعة متى تحقق للإنسان قرب وقوعها ، وفي ذلك يقول القرآن : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » أى إذا خشيت من قوم أن يخونوك ويضربوك على حين غرة ، فأعلنهم بخيانتك منهم واطلب منهم ما يوضح نياتهم حيالك ، وأن يزيلوا أسباب ريبك وما يهدد سلامتك ، وهو ما تفعله الأمم الحديثة عندما تحشد إحدى جيرانها جيشها على الحدود لغير سبب مفهوم ، فإن الدولة الأخرى تبادر بطلب إيضاحات عن سبب حشد هذا الجيش ، وربما طالبت بتسريحه وإلا اعتبرت ذلك إجراءً موجهاً ضد سلامتها ، وأصبح من حقها أن تدافع عن نفسها بالهجوم على هذا الجيش وتشتيته وإبعاده عن حدودها .

### الحرب لردع البغاة

ويمثل هذه الحرب الدفاعية في مشروعيتها ، ويفوقها في قدسيتها وسمو غايتها كل

حرب يكون الغرض منها رد عادية المعتدين على إحدى الأمم الأخرى وتأديب البغاة والظالمين الذين يعيشون في الأرض فساداً ويهلكون الحرث والنسل وينقضون المعاهدات ويخالفون العهود والمواثيق والقواعد الدولية ويعكرون السلام لرغبتهم في جر المغام والمكاسب وحب الحرب للحرب وإراقة الدماء ، فكل جهد حرى يبذل في ردع هؤلاء البغاة المعتدين يباركه الله وتهلل له الإنسانية ويدعم أسس المدنية البشرية .

إن الأمم كالأفراد يجب أن تخضع علاقاتها فيما بينها لقوانين وقواعد. مرعية يكون أساسها الثقة المتبادلة والوفاء بالعهود واحترام الحقوق وإقرار السلام والتعاون في ظل العدل والإنصاف ، والابتعاد عن كل ظلم وإجحاف ، ويتوقف على قيام هذه القواعد الدولية ومدى احترامها الحكم على حضارة الإنسانية في مجموعها ، وهل لا تزال في أول أطوارها البدائية ، أم شبت وترعرعت واتجهت نحو المثل الأعلى والكمال . ويضع القرآن قواعد هذه الحرب وأدوارها وهدفها مما لم يستطع العالم أن يصل إلى تحقيقه حتى الآن فيقول :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

فإذا ما قامت حرب بين طائفتين من المؤمنين فالقرآن يطلب من بقية الأمم الإسلامية أن يتوسطوا على الفور لإصلاح ذات البين وإعادة السلام والصفاء ، فإذا رفضت إحدى الدول الوساطة أو ظهر من التحقيق أنها معتدية على الدولة الأخرى ، فقد وجب أن يطلب منها الكف عن عدوانها والتزام حدودها ، فإن أبت إلا المضي في عدوانها فقد وجب التوجه لحربها حتى تغلب على أمرها فتستسلم أو أن تقبل النزول على حكم العدل والقسطاس في هذه الحالة يتعين وقف القتال معها وتسوية النزاع بين جميع المتحاربين على وجه العدل والإنصاف لا على وجه الظلم والإجحاف بالمغلوب ، لأن العدل وحده في هذه الحالة هو الذى يعيد الأمور إلى نصابها ولا يدع مجالاً لنشوء محن جديدة وأحقاد تحفز للأخذ بالثأر والانتقام ، وهذا القيد الأخير الذى اشترطه القرآن هو ما لم تحرص الأمم حتى الآن على تحقيقه في مؤتمرات الصلح ومعاهداته ، بل طالما كان شعارهم لهم في هذه المعاهدات « الويل للمغلوب » ومن هنا فشلت كل محاولاتهم وجهودهم لإقرار السلام مع شديد رغبتهم فيه .

وقد حاولت الأمم أن تنص على هذه القواعد في ميثاق عصبة الأمم الذى أبرمته عقب انتهاء الحرب العظمى الماضية ورمت من ورائه إلى توطيد دعائم القانون الدولى ، ولكنها لم تستطع أن تطبقها كما ذكرت ذلك من قبل لشدة مطامع الدول وحرص كل منها على تحقيق أغراضها وشهواتها .

وتعد أمريكا وإنجلترا العالم من جديد فيما أطلقنا عليه دستور الإطللنطى<sup>(١)</sup> ! أنها ستعملان على توطيد دعائم القانون الدولى واحترام حقوق الأمم على السواء وتسوية المنازعات بروح العدل والإنصاف ! . وأنها سيحولان دون اعتداء أى أمة على أمة أخرى ! . ولكن الدلائل كلها تدل كما قلت في مقدمة حديثى - على أن ذلك كله ليس إلا ذراً للرماد فى العيون وستراً للأغراض ! وأن المستقبل سيكون صورة مكررة لما حدث فى الماضى ، وإنما سيتحقق هذا العدل المنشود عندما توجد قوة عسكرية ضخمة لإحدى الأمم لا تسخرها لبسط سيادتها على بقية الأمم وجر المنافع والمغانم لجانبها ، وإنما لتطبيق هذه المبادئ السامية على الأمم ، ولا سبيل لذلك إلا عن طريق الأمة الإسلامية بعد أن تسترد مكانتها فهى التى برهنت فى ماضىها على نزاهتها إذ يأمرها قرآنها باتباع العدل والإحسان والخضوع لسلطان الحق والإنصاف . وهذا يؤدى بنا إلى ذكر النوع الثالث من الحروب المقدسة .

### الحروب لإصلاح البشر

يفقد المجتمع الإنسانى من حين لآخر وحدة الغاية التى يعمل من أجلها ، فتضطرب أموره وتسود الفوضى شتى نواحيه وأطرافه ، ويدب الخلل إلى القواعد التى يقوم عليها بنيانه فلا ترى إلا طوائف متحاربة متطاحنة يبطش بعضها ببعض ويبغى بعضها على البعض الآخر لا تعاون بينها ولا تفاهم ولا سلام ولا غاية معلومة تدفعهم إلى الحرب ولكنه الاضطراب والاختلال ، فلا يعود هناك قانون أو دين أو عرف أو تقاليد ، بل اضطراب عام فى كل مكان وفوضى متأسكة الحلقات يشقى الناس فى ظلها لا فرق بين فرد وفرد ، وإنما محنة عامة وبلاء شامل فى مثل هذه الأحوال يصبح العالم فى حاجة إلى مصلح يعيده إلى طريق الرشاد ويهديه إلى الصراط المستقيم ويخلصه من براثن الفوضى والانحلال ، ويحرر بنى البشر من براثن العبودية ، لا للطغاة والبغاة من الملوك والأمراء

١ - اتخذ هذا المشروع تسميات كثيرة من بينها مشروع «إيزنهاور» ، ولا علاقة له بجلف شمال الأطللنطى .

والكهان فحسب بل من الأوهام والخرافات التي تستبد بالبشر أكثر من استبداد الإنسان بأخيه الإنسان ولا سبيل لمثل هذا الإصلاح الشامل إلا عن طريق مبضع الجراح ... إلا عن طريق الحرب يقوم بها الدعاة المصلحون ليهزموا كتائب الفساد ويمحقوا جيوش الباطل والفوضى والاضطراب . وهذا هو ما اضطلع به رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وخلفاؤه الراشدون من بعده ، فأسعدوا من استظل بلوائهم فترة من الزمان وأثاروا الطريق للإنسانية فعادوا بها إلى حظيرة النظام والحضارة بالإيمان ! . لا بالنسبة للذين دخلوا تحت لواء الإسلام أو استظلوا بالراية الإسلامية فحسب ، ولكن بالنسبة للذين ظلوا في منأى عنه بل في حرب مستمرة ضده ! . لأنهم في النهاية قد تأثروا بتعاليمه وأصلحو من شأنهم في ضوء مصباحه ! وقد اتفقت الآراء الحديثة على أن المسلمين هم الذين حفظوا للعالم تراثه من الحضارات القديمة وزادوا عليها الكثير من العلوم والفنون والأنظمة فكان هو الأساس الوطيد الذي قامت عليه حضارة العالم الحديثة في القرون الأخيرة ، هذا الواجب الإنساني أى إصلاح أمور البشر فرضه الله على المسلمين لقوله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » فواجب الجماعة لا يقف عند حد إصلاح شئونها الخاصة وتقوم عقائد أفرادها بل يمتد إلى إصلاح سائر البشر ، وتقوم أعوجاجهم وتنظيم أمورهم بما يحقق لهم السعادة الوافرة .

فعلى الأمة القادرة على هذا الإصلاح أن تنهض للاضطلاع بهذا العبء غير باخلة بأى جهد أو تضحية في هذا السبيل متحملة كل ما يفرضه الجهاد في سبيل هذا المثل الأعلى من حرمان ومشقات وبذل ومغامرات غير رامية من وراء ذلك إلى الحصول على جزاء أو شكر أو جر مغنم أو المطالبة بأجر سوى رضا الله الكريم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونشر ألوية الخير والصلاح وتنكيس أعلام الباطل والضلال والقضاء على الشر والفساد . لأن التجرد من حب المنفعة هو العلامة الدالة على صدق طوية القائمين به ، وأنهم يخوضون حرباً مشروعة مقدسة خالية من كل بغى أو عدوان إنما كما كانت عليه حال المسلمين في صدر الإسلام فيينا كانت جيوشهم تذهب في الفتح شرقاً حتى أشرفت على أسوار الصين ، وغرباً حتى أوشكت أن تطل على ساحل المحيط الأطلانطي في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت الجماعة والقحط مسيطرين على شبه جزيرة العرب وعاصمة الدنيا الجديدة مدينة رسول الله التي خرجت منها كل هذه الجيوش الفاتحة ! . فلم يكن بوسع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلا أن يرسل الاستغاثة تلو الاستغاثة لعالمه في

مختلف البلاد طالباً منهم إمداد أهل المدينة بشيء من القوات الضرورى للحياة . وكان هذا السيد الذى تسيطر جيوشه على أضخم امبراطورية عرفها التاريخ يبيت أكثر الأيام هو وأولاده على الطوى لم يتناولوا من الطعام إلا ما يسد الرمق ويبقى على الحياة !

هذه هى سمة الحرب المقدسة ... حرب الإصلاح والتنوير والتحرير ، لا ما يفعله الأوربيون اليوم كذباً وادعاء وهم ينتهكون حرمة الشعوب ذات الحضارة القديمة معلنين أنهم يفعلون ذلك لتدنيها وتحضيرها وإقرار النظام والسلام بها فلا يلبثون بعد أن يضعوا أقدامهم فيها حتى يحولوها إلى مزرعة تدار لحسابهم ، كل من فى هذه المزرعة عبيد لمشيئتهم ، ولكي يضمنوا استمرار استثمارها وترسيخ أقدامهم بها يعملون على إطفاء كل نور ، وإخجاد كل معنوية وكل قبس من الحياة فيها وينشرون من ناحية أخرى المفساد والآثام الخلقية متخذين بطانة وصنائع من أسافل القوم ليتمكنوا لهم فى الأرض ويسهروا على إبقاء سواد الأمة فى الأسر والذل وهذا هو شأن الاستعمار الأوروبى .

### الرحمة شعار حرب الإصلاح

وئمة ظاهرة أخرى يجب أن تتصف بها الحرب الإصلاحية غير تجردها من المنفعة والمآرب الشخصية ، هى أن تسود الرحمة جميع فعالها ، وأن يكون التسامح والتأني شعارها ، والرفق بالشعب المغلوب والإحسان إليه مظهرها وسمتها . وهذا على خلاف الحرب الدفاعية حيث تباح جميع الوسائل والأساليب التى تؤدى إلى قهر العدو وتحطيم شوكله واستخدام البطش والشدّة فى كل إجراءاتها .

أما فى الحرب الإصلاحية فالقائم بها هو المهاجم وهو الذى يحدد نطاق الحرب وأساليبها ، وهو الذى يضع القواعد التى سيقابله بمثلها الطرف الآخر ، فيجب أن يحدد الأعمال العسكرية فى أضيق نطاق وبحسب ما تقتضيه الضرورة العسكرية البحتة ، فلا يعتمد إلى القتال قبل أن يبين أغراضه السامية بوضوح للطرف الآخر فيسقط له المبادئ التى يدعو إليها والبرنامج الإصلاحى الذى يرغب فى تنفيذه ، فإذا قبل الطرف الآخر الأخذ بهذه المبادئ وتحقيق الإصلاح المطلوب فقد كفى الله المؤمنين القتال وأصبح لزماً عليهم أن يعودوا أدراجهم وأن ينظروا للشعب الجديد نظرهم إلى إخوانهم الأقربين ، فيكون لهم كل ما لهم وعليهم ما عليهم وكذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فن قالوا فقد عصم منى ماله ونفسه» .

وقد أمر القرآن بإمهال المخالفين وإرشادهم وتعليمهم المبادئ الجديدة وذلك قوله .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

فإن أبوا إلا القتال والمناجزة فعندها يتحتم قتالهم على شريطة أن يدور هذا القتال في الحدود الضيقة التي يبينها في مقدمة هذه السطور وأن تكون الرحمة هي شعار المحاربين وهذا ما كان يوصى به النبي وخلفاؤه من بعده جيوشهم إذا ذهبت للغزو في البلاد الأجنبية فقد روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وصيته ليزيد حين بعثه أميراً لفتح الشام « يا يزيد لا تقتل صبيّاً ولا امرأة ولا هَرَمًا ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعفرن شجراً مثمراً ولا دابة عجماء ولا شاة إلا للأكلة ، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه ، ولا تغلل ولا تخبن وتستمرن على أقوام في صوامع لهم احتسبوا أنفسهم فيها فدعهم حتى يميتهم الله على ضلالتهم » .

وليس هناك بعد ذلك قواعد لقتال تسوده الرحمة والانسانية وحب الإصلاح والتعمير كهذه القواعد التي قررها خليفة رسول الله في هذه الوصية والتي كررها من بعده عمر بن الخطاب لجيوشه وأضاف إليها « اتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب » وقد نقل أبو بكر وعمر هذه الوصايا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزولا عند نص القرآن الذي يحرم الفساد والإتلاف في الأرض بقوله « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

وقد نفذ المسلمون هذه الأوامر والتعليمات بدقة في البلاد التي دخلوا إليها فدلوا بذلك على أنهم هداة مصلحون وليسوا غزاة مستعمرين ، وهذا ما جعل الناس تدخل في دين الله أفواجاً وتشتقف بثقافة الفاتحين وتحدث بلغتهم مما لم يسبق له مثيل في التاريخ ، فأين هذا مما تفعله دول أوروبا الحديثة التي يبدأ إصلاحها المزعوم بالفتك بالشعوب الضعيفة فتكاً لا تبرره قوانين ولا أخلاق ولا تشويه شائبة من الفضيلة أو الرحمة ؟ فهذه إيطاليا التي أقدمت على استعمار الحبشة في إبان القرن العشرين الذي يصفونه بازدهار الحضارة وانتشار مبادئ الرحمة والانسانية قد لجأت في حربها لهذه الأمة الصغيرة إلى استخدام الغازات السامة تقذفهم بها الطائرات فتخنقهم خنقاً وتحرقهم حرقاً وهم لا يملكون الرد عليها أو الدفع عن أنفسهم بأى لون من ألوان الدفاع . ولم تكن إيطاليا في ذلك مها قبل



عن فظاعتها ووحشيتها إلا مترسمة خطى كل من سبقها من أمم أوروبا المستعمرة ، فكم عبد الكثير منهم إلى إبادة القبائل التي يصادفونها في الأراضي المستعمرة إبادة مطلقة بأخس الأساليب وأوضعها كتسميمهم أو إعدامهم جملة بالرصاص بدعوى توحشهم وبربريتهم وعدم إمكان تمدينهم ، فلا عجب أن امتلأت الشعوب المغزوة حقداً عليهم واحتقاراً لهم ، فلم يستطيعوا أن يغيروا من عاداتها أو تقاليدها قيد شعرة حتى ولو كانت هذه العادات والتقاليد في حد ذاتها بالغة مبلغاً كبيراً من الشناعة والقسوة والحماقة والجهل .

### ثانياً - الحرب غير المشروعة

لست أحسبني بعد ما تقدم في حاجة لكبير شرح لأبين ، ماهية الحرب غير المشروعة التي تتسم بسمة الاعتداء واليغى والطغيان ، فكل حرب لم تكن دفاعاً عن النفس أو المال أو العقيدة ، وكل حرب لم يكن الدافع إليها إحقاق الحق ورفع منار العدل بين البشر والعمل على إصلاحهم ، هي حرب غير مشروعة ... كأن يعمد جنس إلى الاستعلاء على بقية الأجناس الأخرى أو أمة للسيطرة على الأمم الأخرى ادعاء منها بانحدارها من دم معين ممتاز أو لاتصافها بلون معين من الألوان ، فالتناس جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم سواء أمام الله وأمام الحقيقة وأمام المشاهد الملموس ، فالتناس كلهم قد خلقوا من ذكر وأنثى ، ومن التراب خلق هذان الذكر والأنثى وصدق القرآن الكريم إذ يقول «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وحقاً قد يتفاوت الناس رقياً وعلماً ومدنية ، ولكن ذلك إنما يرجع لاختلاف ظروفهم وانعدام الأسباب التي قد تتوفر لغيرهم فيكون حقاً على المتعلم أن يتصدى لتعليم الجاهل لا لاستعباده واسترقاقه ، والسليم أن يتصدى لإبراء العليل ، لا أن يزيد في علته والرفيع أن يأخذ بيد الوضيع ، لا أن يزيد في وضاعته ، وبهذا يتقابل الناس على سرر المحبة متآخين لا أعداء متناذين .

وهذه الحروب الاستعمارية التي ترفع أمة فوق أمة وتسخر الأخيرة لخدمتها سالية إياها حريتها وشخصيتها وواقفة في سبيل نموها وتطورها الذي هو حق جميع الأحياء على السواء أفراداً وجماعات . هي حرب غير مشروعة ، وكل حرب غير دفاعية شابهة العنف والقوة وتناول بطشها غير المحاربين من نساء وأطفال وشيوخ وهدمت فيها بيوت المدنيين وضربت

مدنهم وقراهم . وهى حرب غير مشروعة مهما كان غرضها وهدفها ، متى قامت على خرق العهود والمواثيق والقوانين الدولية .

فلا تكاد توجد حرب غير مشروعة لا يكون ابتداءؤها واستهلاكها بالنكث بعهد من العهود المقطوعة فى معاهدة خاصة أو معاهدة دولية ، فالحنث بالعهود والغدر هما صفتا المعتدين دائماً أبداً ، أما الهداة والمصلحون الحريصون على صيانة الحقوق والعدل فلا يمكن أن يخونوا عهودهم التى أبرموها بمحض إرادتهم أو أن يغدروا بفرد فضلاً عن جماعة أو أمة ركنت إلى صداقتهم أو تحالفهم وجوارهم ، حتى ولو كانت هذه الجماعات على غير دينهم أو مذهبهم أو كانت فى حرب معهم قبل إبرام العهد والميثاق .

ولم يغلظ القرآن ويشدد فى مسأله ويكرر فى التشديد أكثر مما فعل بالنسبة للوفاء بالعهود بصفة عامة فى جميع المعاملات ، وبصفة خاصة فى المعاملات الدولية إذ قال فى محكم آياته :

«وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً» وقال «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أرى من أمة» وقد ذم الناقضين للعهد فجعلهم شراً من الدواب فى قوله «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فإذا ثقفتهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون» .

وتطبيقاً لهذه القواعد وهذه الروح أوجب القرآن على الرسول التمسك بكل معاهداته التى أبرمها مع المشركين ما بقى الطرف الآخر محترماً نصوص المعاهدة وذلك بقوله «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين» وقوله «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين» .

ويحتم القرآن على المسلمين الانتصار لإخوانهم المسلمين الذين لم يهاجروا وظلوا فى صفوف الكفار ولكنه يستثنى من كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق «وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» وهكذا جعل القرآن حرمة

الميثاق المقطوع فوق كل مصلحة صغرى وعليا من مصالح المسلمين رامياً من وراء ذلك إلى جعل الوفاء بالعهود والالتزامات حجر الزاوية في بناء المجتمع الإنساني وقيام العمران والمدنية .

وقد قدرت المجتمعات البشرية في مختلف العصور والأمكنة هذه القاعدة وضرورتها للمجتمع فطبقتها بين الأفراد بما صاغت من قوانين ووضعت من جزاءات على المخالف لها ، ولكن تطبيقها بين الأمم والدول المختلفة لم يجد رواجاً أو نجاحاً حتى الآن ، فلا هم للأمم القوية إلا أن تعقد المعاهدات بنية المبادرة إلى نقضها والإخلال بأحكامها في اللحظة التي تتحقق فيها المصلحة من وراء ذلك . على أن هذا الداء الويل والشر المستطير لم يبلغ في أى عصر من العصور مبلغه في القرون الأخيرة التي تبوأته أوروبا قيادة العالم حيث أصبح النكث بالعهود ونقض المعاهدات هو فضيلة الأمم وما تزهى به وتفخر ، لا فرق في هذا الشأن بين دولة أوروبية وأخرى ! وإن اختلفت كل منها في أساليبها وطرائقها <sup>(١)</sup> .

وستظل الحياة الدولية مضطربة قلقه ولن يستقر للعالم قرار ولو نسبياً ويستأنف تطوره نحو حالة أكمل من التعاون البشرى حتى تثبت هذه القاعدة ثبوتها في الحياة الفردية وتتولى قوة حربية نزيهة الإشراف على تطبيقها واحترامها .

---

١ - حسبنا أن نشير في هذا الوطن إلى وعود الإنجليز لمصر بالجلاء دون أن يتحقق هذا الوعد ونقض الإنجليز الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين .

## الفصل الثالث

الاستعداد للحرب - التسليح - الطيران -

الصناعات العسكرية - تجنيد مختلف طوائف الأمة -

ثمن النصر - وصية ونداء

### وجوب الاستعداد للحرب

يتبين من التفصيل المتقدم أن العالم لا يمكن أن يخلو من الحروب سواء كانت الحرب مشروعة أو غير مشروعة ، فما من حرب مشروعة إلا وتقابلها حرب غير مشروعة ، وما من حرب غير مشروعة إلا ويجب أن تقوم في وجهها حرب مشروعة ، فالحربان تسيران جنباً إلى جنب كسير الخير والشر ، فسواء أردنا أن نعيش في العالم كما هو ، أو أردنا أن نتصدى لإصلاحه ، فلا سبيل للحياة أو الإصلاح إلا بالاستعداد المتواصل للحرب والتجهز للقتال ، ولن يستطيع فرد فضلاً عن جماعة يريد أن يعيش آمناً على نفسه وماله وحرية أن يدرك بغيته إلا إذا جعل من نفسه محارباً وتسليح بالسلح الكافي ، ولا سبيل للمحافظة على السلم إلا بالإكثار من أدوات الحرب حتى يرتدع كل من تحدته نفسه بالإنحلال بالسلم ، وكلما كان الشخص خيراً والجماعة خيرة كلما وجب عليها أن تزيد في استعدادها للحرب وأن تضاعف في تسليحها وألا تمكن الأشرار من الاستبداد بها .

ولذلك فإن جميع الشعوب الحية تجعل الاستعداد المتواصل للحرب دينها وأقدس واجباتها ، وهي لا تنفك تزيد في قوة أسلحتها متمشية مع أحدث التطورات التي انتهى إليها العلم الحديث وارتقاء الصناعة ، وهي تبث الأرصاء والعيون سرا وجهراً في بلاد جيرانها ، أصدقائها وأعدائها على السواء ، لينقلوا إليها مدى نشاط هذه الأمم في تسليحهم وما يمكن أن يكون قد استحدثوه من آلات القتال أو أساليبه ، حتى لا يدهمهم داهم في يوم من الأيام بقوة يعجزون عن ردها أو بسلاح جديد شديد الفتك والبطش لا قبل لهم بمقاومته ، فلا تكاد دولة من دول العالم القوية تزيد في قوتها في البر أو في البحر

أو في الجو حتى تسرع بقية الأمم إلى مجاراتها والزيادة عليها ، إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، لتظل محتفظة بمستواها الذي اختارته لنفسها ولتبقى آمنة من الاعتداء على أراضيها وأبنائها .

وهذا التسابق في الاستكثار من السلاح يجد مقاومة من بعض المفكرين الذين يرمون إلى إبطال الحروب وإلغائها ظناً منهم أن التسلح هو السبب المباشر الذي يؤدي إليها ، وهو جهل بطبيعة الحياة وتاريخ العمران والبشر ، فقد كانت هناك حروب بين البشر عند ما لم تكن هناك أسلحة وكان الصراع وفقاً على استخدام قوة الجسد ، ولم تخرج الأسلحة إلا لتدفع عن ضعيف البنية شر الأقوى منه جسداً فالتسلح نتيجة لوجود الحروب وليس أصلاً لها ، وليس هناك ما يخلق الحرب خلقاً أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هناك ما يخفف من ويلات الحرب ويطيل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى ، فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلماً مسلحاً تحميه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبة للذود عنه فأقدام أمة على نزع سلاحها مع يقينها بأنه ستظل في العالم دائماً أبداً أمة كاملة السلاح ، هو بمثابة الانتحار والوقوع في براثن الذل والاستعباد للأمم المسلحة . وهذه الدعوة إلى التسلح الدائم والاستكثار من السلاح ، هي ذات دعوة القرآن الناصعة ، وما أظهرته السنة المحمدية وطبقته ، فالقرآن يقول «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» فالقرآن يأمر بالتجهز الدائم لإرهاب كل من تحدته نفسه بالاعتداء ممن يعلمهم الإنسان ومن لا يعلمهم إلا الله لأنهم لا يزالون في عالم الغيب فلا ينبغي للإنسان أن يركن إلى ما قد يراه من صداقة قد تخفى في طياتها حقدًا دفيناً ، وقد يتمسك شعب بأهداب السلام فترة معينة ثم يتغير حاكمه فتصوبو نفس الحاكم الجديد إلى الحرب فيتجهز لها سرا . فالأمة يجب أن تتجهز بالسلاح وكل أسباب القوة على سبيل الدوام ، وأن تقرر إلى ذلك الحذر من كل ما يدور حولها عن قرب أو بعد ، كما قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» وقد بلغ من حرص القرآن على تنبيه المسلمين إلى وجوب الحذر المستمر وتقلد السلاح الدائم ، أن دعاهم إلى أن يصلوا صلاة مسلحة<sup>(١)</sup> متى أوجسوا خيفة من أى شر يتهدهم ، وذلك بقوله «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا

١ - تسمى هذه الصلاة «صلاة الخوف» ... ولها كيفية خاصة ، ولا تؤدي إلا أثناء القتال .

فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة» .

ويدعو القرآن إلى حراسة الحدود والسهر عليها بالقوة المسلحة على سبيل الدوام والاستمرار بقوله «اصبروا وصابروا وربطوا» وروى سهل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»<sup>(١)</sup> وذلك كله إظهار لفضل حراسة الحدود والاستعداد الدائم لمواجهة الأخطار ، ولذلك فقد كان المسلمون الأوائل يعتبرون المراقبة في الثغور الإسلامية - حدودها ومداخلها - أعظم الأعمال قربة عند الله فيقبلون عليها ويتنافسون في أدائها ! .

وقد أوجب تطور الأسلحة الحديثة وعلى رأسها الطيران الذى يضرب الأمة في صميمها بعد ساعات من نشوب القتال مهما اتسعت رقعة الدولة ، أوجب هذا التطور على الأمم أن تتخذ أهبتها المستمرة ضد هذا السلاح ، سواء بالإنذار بغاراته أو اتقاء ضرباته سلباً وإيجاباً وأعنى بالسلب أسباب الوقاية المختلفة وعلى رأسها الخناىء الحصينة ، وبالإيجاب أسلحة الدفاع ضد الطيران من أنوار كاشفة ومدافع أرضية وطائرات مطاردة .

وإذ كان سلاح الطيران قد قلب الحروب رأساً على عقب فزاد في عنفها واتساع نطاقها ولم تعد المعارك تدور في رقعة من الأرض لا تتجاوز بضع كيلو مترات بل صارت المعركة الواحدة تشمل جهة تمتد ألفاً من الكيلو مترات . وأصبح العالم كله ميداناً للحرب بسبب هذا الطيران الذى يسابق الريح ويربط الشرق بالغرب - فلا سبيل إلى أن تخلو رسالتى عن الحرب من تفصيل شامل في شأن الطيران وخطورته . وواجب المسلمين في التدريب عليه والإكثار من وحداته .

### سلاح الطيران

سلاح الطيران اليوم - ولما يزل هذا السلاح في أطواره الأولى - هو السلاح الفذ في الحروب والمهيمن على المعارك وصاحب الكلمة الأخيرة فيها ، أما في المستقبل فسيكون من غير شك هو السلاح الوحيد في البر والبحر والجو وبقية الأسلحة إن ظل لها وجود فستكون أسلحة مكملة ومساعدة ، فلن يكون هجوم أو دفاع إلا عن طريق الطائرات بعد

١ - رواه البخارى والترمذى .

أن لم يعد الطيران قاصراً على قذف القنابل وإطلاق الرصاص ، وإنما أصبح يقوم بنقل الجنود والأسلحة والذخائر والمهمات ، لا الخفيف منها فحسب بل الثقيل أيضاً كالسيارات المصفحة والدبابات ومدافع الميدان ! وبعد أن كان إنتاج الطائرات يعد بالعشرات كل شهر أصبح يعد بعشرات الألوف وبعد أن كانت الأمة تعد شديدة البأس متى كان لها بضع مئات من الطائرات أصبحت وليس يكفياً أن يكون لديها مئة ألف طائرة أو مائتا ألف .

وقد قامت الحرب حتى اليوم<sup>(١)</sup> فلم يحرز أحد المتحاربين نصراً لم يكن مرجعه قوة سلاحه الجوي ، ولم يصب بهزيمة لم يكن السبب فيها ضعف السلاح الجوي فاندحار بولندا واحتلال النرويج وهزيمة هولندا وبلجيكا وفرنسا في الغرب ، واليونان ويوغسلافيا في الشرق ، واحتلال كريت ، كل هذا كان نتيجة مباشرة لتفوق الألمانين في الجو ، وعجز الألمان عن قهر إنجلترا وروسيا يرجعان إلى عدم استطاعتها السيطرة على جو كل منهما ، والآن وميزان الحرب يبدو مائلاً في الجانب الآخر ، فإن السبب في ذلك هو سلاح الطيران أيضاً ورجحانه في هذه الكفة<sup>(٢)</sup> . على أن تأثير السلاح الجوي لم يعد قاصراً على كسب المعارك الحاسمة في الحرب بل أصبح له تأثير أبعد غوراً في كيان الأمم المادى لما يقوم به كل من المتحاربين من غارات مدمرة على مدن الطرف الآخر الآهلة بالسكان ومراكز إنتاجه وأسباب مواصلاته ، فيدكها دكاً ويدمرها ويحرقها ويقلب عاليها سافلها ، كالأعاصير والزلازل والبراكين التي تخسف جانباً من البر فتجعله بحراً طامياً أو ترتفع بغور المحيط فتجعل منه جبلاً شاهقاً وتدمر المدينة الزاهرة بالعمران فتجعلها طولاً وأنقاضاً ، ورماً وأجساداً بالية مما يصدق عليه قول الذكر الحكيم .

«حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس» فلم يعد الطيران سلاحاً كأسلحة الأمس ، يقتل أفراداً أو مئات أو الوفاً بل أصبح بقدرته أن يفنى شعباً بأكملها ، أو بالأحرى يفنى حضارتها وزبدة حياتها<sup>(٣)</sup> .

١- وقت كتابة هذه السطور .

٢- أمامي نشرة رسمية للولايات المتحدة تعلن فيها أنه سيكون لديها ١٨٥ ألف طائرة في ختام عام ١٩٤٣ فإذا استمرت الحرب بعد ذلك فكم يصبح عدد طائرات هذه الدولة بمفردها غير ما تنتجه إنجلترا وروسيا .

٣- زادت خطورة الطيران بعد إكتشاف القنبلة الذرية التي تكفى قنبلة منها تلقيها طائرة لإبادة عاصمة أمة .

## أثر الطيران النفسى

وليس يقتصر الانقلاب الذى يحدثه الطيران فى تكوين نفسية البشر وأخلاقهم على ما يحدثه فى ماديات الحرب ومواصلات العالم ، فإلى حيث السحب والشهب يتسامى الطيار مصعداً فى الهواء ممسكاً بعنان الرياح مسيطراً على كل الكائنات اللاصقة بالأرض ، حيث يرى المدن أسفل منه لا تزيد عن رقعة كفه والعمارات الشاهقة والميادين الواسعة والقطارات الداخلة إلى المدينة والخارجة كدمية من الدمى وألوان الحياة من ألوان الصبيان ويرى رقعة المملكة ذات الحول والطول التى تغص بكل ألوان الحياة ، كأنها صورة جامدة لا أثر فيها من حياة ، لا فرق بين جبالها وبحارها وسهولها ونجودها إلا بالألوان ، فيبعث ذلك كله إلى نفس الطيار الحكمة والفكر السليم ، وما أروع ما تنطوى عليه نفس هذا الطيار من إيمان وشجاعة وبسالة وهو يخلق فى هذا الفضاء عندما تعصف به العواصف وتتقاذفه الرياح ، وهو ليس إلا كالريشة فى مهب الرياح بل إن الريشة لأسعد حالاً منه لأنها جهاد لا يحس ولا يشعر ولا تنال الرياح منها شيئاً لحفتها ومطاوعتها ، أما الطائرة فذات جرم وحجم تصطدم به الرياح فتدروه هباء ، وناموس الجاذبية لا ينفك يجذب الطائرة ليهوى بها نحو الأرض ويجعلها حطاماً وأنقاضاً والطيار لا يملك للدافعة كل هذه المخاطر المحدقة به إلا هذا المحرك الذى يدور محدثاً هذا الأزيز فى الهواء وما تعلمه من علم وفن واكتسبه من دربة ومران فى معالجة الرياح ومداورتها والانتفاع بتياراتها فى ثبات وهدوء وصبر. ما أجل هذا الطيار وأروعه عندما يكتشف وهو يحلق فى الفضاء خللاً فى طيارته أو نفاذ وقودها ، مما يجعله يرى الموت الأحمر وقد بات دانياً مرفقاً بأجنحته الرهيبة ، مكشراً عن أنيابه المخيفة فيكون على الطيار أن لا يفقد شعوره أو حواسه ، وأن يتمسك بهدوء الطبع وثبات القلب وإعمال الفكر للنجاة من الموت بإصلاح الخلل أو الوصول إلى الأرض فى حذق ومهارة تبقى عليه وعلى من معه وعلى الطائرات التى أصبحت تقدر بثروة ضخمة .

هذه هى حياة الطيار العادية تطلب منه شجاعة وإقداماً ومخاطرة ومهارة ودربة وعلماً ، فما ظنك به عندما يضيف إلى ذلك كله أن يتخذ من هذه الطائرة المعلقة بين السماء والأرض والمهددة بالسقوط من لحظة لأخرى مركبة قتال يصطدم بها بمركبات العدو الذى تنصيده مدافعه لتدميره ، أى أن الهلاك والتناثر فى الفضاء يترصد بالطيار المحارب من فوقه ومن تحته ومن يمينه وشماله لا من العدو فحسب بل من مطيته المعلقة بين



الأرض والسماء ... فهل هناك بطولة سبقت هذه البطولة في عصر من عصور البشرية ،  
إلا في أفراد قلائل يعدون على الأصابع ، وأين تبلغ من هذا فروسية الخيل بعد أن  
تطورت وتسامت وضاق بها البر والبحر فحلقت في السماء تبحث عن المجد .

### أعدوا ما استطعتم من طائرات

يقول القرآن الكريم في الآية الكريمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط  
الخيال» ولا جدال في أن الخيول وقد كانت حتى الأمس القريب هي مركبة القتال وأهم  
عنصر من عناصره تدخل في عموم صدر الآية «ما استطعتم من قوة» ولكن القرآن الكريم  
شاء أن لا يترك هذا الأمر لاجتهاد المسلمين ، فنص صراحة على وجوب الاستكثار من  
الخيال وباركها رسول الله إذ قال عنها : إن الخير معقود بنواصيها إلى يوم القيامة ، وحدد  
أوصاف الجيد منها ودعا لاقتنائها وإجادة ركوبها والسباق عليها وإذا كان المسلمون الأوائل  
قد استطاعوا أن يهزموا جيوش فارس والروم ، فقد كان لحذق المسلمين ركوب الجياد  
واجادتهم القتال ركباً ، أثر كبير في تحقيق هذا النصر ، ولا يزال العربي حتى الآن أبرع  
فارس ، والخيول العربية أشهر خيول القتال على الإطلاق . وقد بلغ من إكرام القرآن  
للخيال وتقديره لقوة بطشها وفعلها الذريع في القتال ، أن أفرد إحدى سوره لوصف  
فعال الخيل في إبان غاراتها ، وجعل الله من الخيل ومن فعالها قسماً لتوكيد حكمه على  
الإنسان وحقيقة معدنه فقال وقوله الحق «والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا .  
فالغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعاً إن الإنسان لربه لكنود» وما أشار  
القرآن للجياد هذه الإشارة ودعا للإكثار منها بعد إشارته العامة لحشد أسباب القوة إلا  
لإبراز خطورتها وأهميتها في تحقيق النصر في القتال ، وتطبيق هذه الآية في عصرنا الحديث  
بعد أن انقلبت أسلحة القتال كل هذا الانقلاب ، أن تستكثر الأمم من أسلحة الحرب  
الحديثة ابتداء من البندقية السريعة الطلقات ومدفع برن إلى مدافع الميدان القوية ومدافع  
الحصار الضخمة والسيارات المصفحة والدبابات والبوارج والطرادات ، وعلى رأس  
القائمة كلها سلاح الطيران ، كما كانت الخيول بالأمس على رأس قائمة الأسلحة  
القديمة ، وكما كان من المحال أن يغلب بالأمس فارس مغوار كرار فرار ، فكذلك اليوم  
لا يمكن أن تلحق الهزيمة طيار باسل يركب متن طائرة قوية سريعة ، ولا يمكن أن يقهر  
شعب أو يغمر جانبه متى جعل من بنيه فرساناً في الهواء ، ولست أحسب أن هناك وسيلة  
لرفع شأن الفرد والأمة أنفع من الطيران .

## مصانع الطائرات والأسلحة

على أن الطيران قبل كل شيء صناعة ، فليست الطائرة كائنًا حيا من صنع الله - ظاهراً - ولكنها آلة من صنع البشر ، يقوم على صنعها ألوف من العمال مستخدمين عديداً من الخامات المختلفة ، فمن لم تكن عنده هذه المصانع وما تحويه من آلات وما تحتاجه من خامات ، فهو غير قادر على أن يتوفر لديه سلاح طيران قوى ، ومن لا طيران عنده فلا قوة له ، ولو كان أشجع الناس طرا وأصبرهم على مكاره القتال وأكثرهم استعداداً للتضحية ، بل ولو كان مدججاً بكل صنوف الأسلحة الأخرى بخلاف الطيران . على أن الأسلحة الأخرى كذلك من مدافع ودبابات ومهمات لا بد لصنعها من المصانع التي يعمل فيها عشرات الألوف بل مئات الألوف من العمال فمن لم تكن لديه صناعة فلا قوة حربية عنده لأن الحرب اليوم هي حرب الصناعة ، ويمكن القول : إن معركة النصر الكبرى إنما تجرى في المصانع قبل أن تدور في الميدان فمن خسرها في المصنع خسرها في الميدان ، ومن كسبها في المصنع كسبها في الميدان . ومعنى كسبها في المصنع أن يكون السلاح أو الطائرة جيد الصنع كثير العدد متفوقاً على ما يملكه العدو من نوعه سواء من حيث الفاعلية أو السرعة أو المتانة . والحرب لا تجرى منذ القرن التاسع عشر إلا بين الأمم الصناعية الكبرى ، والمتنصر فيها هو الصانع الأجود والأكثر إنتاجاً . وإذا قدر للحلفاء أن يفوزوا في هذه الحرب فسيكون مرجع ذلك إلى قوة أمريكا الصناعية الهائلة التي صارت مصنع الدنيا كلها لكثير من المواد الحيوية<sup>(١)</sup> .

وليس ينفع الدولة المحاربة أن تعتمد في أسلحتها وطيرانها على ما تستورده من خارج حدودها من طائرات مسلحة وذخائر مشتراة أو مستعارة وإنما ينبغي أن يكون الجزء الأساسي من هذه الأسلحة والطائرات مصنوعاً في عقر دارها ، وإلا عمد العدو ، وهو عامد بالتأكيد ، إلى قطع مواصلاتها مع الخارج فترى نفسها بدون سلاح تقاوم به ، أو بسلاح ولكن بدون ذخيرة ، أو بكية من الذخيرة لا تلبث أن تنفذ ، بعد أن أصبحت الحرب تعتمد على سيل جارف من الذخائر والمقدوفات . بل ماذا يكون الحال لو وقعت الحرب بين الأمة الموردة للأسلحة والمستوردة ؟ ألا يكون معنى هذا القضاء على

---

١ - أيدت الحوادث هذه النظرة فقد انتصرت أمريكا ومعها الحلفاء في هذه الحرب لتفوقها الضخم في الصناعة وقد جعلت اليابان تفتوا على ركبتها بمجرد اختراع القنبلة الذرية التي لا يقوى على إنتاجها في الوقت الحاضر سوى أمة صناعية من الطراز الأول .

الأخيرة ؟ لذلك لا يستورد سلاحه من خارج حدوده إلا شعب مغلوب على أمره تابع لغيره ! . فدليل استقلال أى شعب ومدى حريته أن تراه يصنع أسلحة قتاله بنفسه ، أو على الأقل الجزء الأكبر والرئيسى منها وعلى رأسها سلاح الطيران .

### الصناعات المدنية

وليست تقف الصناعات الحربية عند حد مصانع الطيران والأسلحة ، بل إن الحرب الحديثة باتت فى حاجة إلى كل صنوف الصناعات ، فالحرير الذى كان يعتبر لباس الترف قد أصبح الآن من ألزم لزوميات الحرب ، إذ تصنع منه المظلات التى يهبط بها الجنود من الطائرات خلف خطوط العدو للقيام بأعمال حرية واسعة النطاق ، ولا بد للجيش من الجارة من أطعمة تجهز وتحفظ بطريقة معينة وملابس يرتدونها ، وأدوية يتداوون بها وكل هذه فى حاجة إلى مختلف المصانع الآلية لإنتاجها .

فلكى تكون الدولة دولة حرية لا بد أن تكون دولة صناعية وهذا هو ما فطن له عبقرى الشرق الحديث محمد على باشا ، حيث جعل من مصر قطراً صناعياً من الطراز الأول استطاع أن يجهز ما يحتاجه جيش مصر الحديث من سلاح وعتاد وأساطيل هزمت جيوش الدولة العثمانية أبطال الحروب وفرسانها .

ولا أمل للشرق بصفة عامة ، والأمم الإسلامية والعربية بصفة خاصة أن تنهض من كبوتها وتتبوأ مكانتها بين أمم العالم الحية ، إلا بأن تستعيد تفوقها الصناعى الذى كان لها قبل اكتشاف الغرب للبخار والكهرباء مما نقل إليه التفوق الصناعى ، وبالتالي التفوق الحرى على الشعوب الإسلامية مما أدى إلى استعباده إياها واستعمارها .

على أن الصناعات من ناحية أخرى تعتمد على الخامات والمواد الأولية فينبغى على الأمة أن تعمل على توفير كل الخامات التى تتطلبها صناعاتها بالاستنباط والإنتاج فى داخل حدودها ، وأن تخزن من المواد كل ما يمكن أن ينقصها فى حالة قيام حرب ، وأن تنظر إلى هذه الخامات والمواد نظرتها إلى الأسلحة نفسها ، فقد تنهار أمة محاربة من الطراز الأول لنقص فى المواد الأولية كالحديد والفولاذ ، أو لنقص الوقود اللازم لإدارة المحركات كزيت البترول الذى أصبح عنصراً من أخطر العناصر فى الحرب الحديثة بعد أن أصبح كل شىء يتحرك بالبترول ومشتقاته .

فالحرب اليوم لا يفوز فيها إلا من يستطيع مها طالت الحرب واستمرت أن يجد كل حاجاته من الأسلحة والذخائر والملابس والمآكل . فالأهم التي تحترب الصناعة فقط وتستورد من الخارج طعامها وشرابها قد تخسر الحرب كالأمة الزراعية التي تأكل وتشرب ولكنها تستورد من الخارج أسلحتها ، والأمة الكاملة هي التي تستطيع في وقت الحرب أن تكفي نفسها بنفسها في كل ما تتطلبه الحرب الحديثة لمواصلة الكفاح .

### إعداد مختلف طوائف الأمة للحرب

كانت الحرب في القديم من مهات الرجال القادرين على حمل السلاح ولكن ما حدث من انقلاب في سير الحروب بعد اتساع نطاق سلاح الطيران وصيرورتها شاملة لكل مجهود الأمة ، واضعاً جميع أفرادها في الصف الأول من ميدان القتال ، لا فرق بين محارب وغير محارب ، ولا بين رجل وامرأة وشيخ فان أو صبي صغير فقد أصبح من المحتم أن يعرف كل فرد في الأمة كيف يتصرف في حالة قيام حرب ، وكيف يتق الأخطار التي سيتعرض لها ، بل يجب تدريب جميع طوائف الأمة على المساهمة بنصيب إيجابي في مجهود الحرب كل على قدر طاقته واستعداده الطبيعي ، فيعد الكهول والشيوخ للقيام ببعض الوظائف المدنية التي كان يضطلع بها الشبان والرجال القادرون ، ويعد الصبيان للعمل في المصانع وأعمال الوقاية المدنية والنساء لأعمال التمريض ومداواة الجرحى وبعض أعمال التعوين خلف الجبهة والحلول محل الرجال في الاشتغال بالحقول وبعض الصناعات التي تتناسب مع قدرتهن ، وقد جعل تطور الآلات ذلك الأمر سهلاً ميسوراً ، إذ لم تعد الصناعة تحتاج لكبير مشقة إلا في الصناعات الحديدية الثقيلة .

### المسلمات والحرب

وقد كان النساء في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاربن مع الجيوش ويقمن بجميع الأعمال التي يقمن بها في الجيوش الحديثة من تمريض وتموين وأعمال تكميلية وراء الجبهة ، فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدام سوقهما تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانها في أفواه القوم <sup>(١)</sup> » وعنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه فيسقين الماء

١ - رواه الشيخان البخارى ومسلم .

ويداوين الجرحى<sup>(١)</sup> » وقالت أم الربيع بنت معاذ رضى الله عنها « كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونزد الجرحى والقتلى إلى المدينة<sup>(٢)</sup> . وقالت أم عطية رضى الله عنها « غزوت مع النبي سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى<sup>(٣)</sup> . » وقد كان ذلك الاشتراك من جانب النساء عندما كانت الحرب لا تزال قاصرة على عدد صغير من الفرسان المحاربين يصطدم في معركة لبضع ساعات ، أما اليوم وقد أصبحت الحرب تستغرق سنين وأعواماً تقفر فيها المزارع والمصانع ودور الأعمال من الرجال ، والحرب في البيوت والمنازل والشوارع والطرق ، والطائرات تحبب خط عشواء لا تفرق بين رجل وامرأة : فقد زادت التكاليف التي تقع على عاتق النساء غير أنهن كقاعدة عامة لا يجب أن تكون لهن وظيفة في جبهة القتال إلا الممرض لجميع الجرحى على السواء ، حتى ولو كانوا من الأعداء متى وقعوا في الأسر ولم يعد لهم شر يخشى منه . أما خلف الجبهة فيجب أن تضطلع النساء بكل الأعمال والوظائف التي يمكنهن القيام بها .

### التجنيد الإجبارى

أما قاعدة التجنيد الإجبارى التي تفرض على جميع الرجال القادرين حمل السلاح والقيام بعمليات الهجوم على العدو والدفاع لصدده ، فليس هناك في أنظمة الأمم الحديثة ما هو أعدل وأنفع وأصح للجماعة والبشرية من هذا النظام الذى يهـىء للأفراد في زمن السلم فرصة رائعة لتقوية أبدانهم وتحسين صحتهم وتعويدهم النظام والطاعة التي لا يتم بدونها عمران وصبغهم بصبغة الرجولة والاتزان والتوحيد بين صفوفهم وإشعارهم بالمساواة الحقيقية بين أبناء الأمة الواحدة ، لا فرق بين غنى وفقير ولا كبير وصغير ، وأن الجميع أسرة واحدة لها مصلحة واحدة وغاية واحدة ، تجتمع كلها تحت لواء واحد ، هو رمز لأسمى ما تصبو إليه الجماعة وتكرمه من حرية واستقلال ودين ومجد . فإذا جاءت الحرب هب الجميع أقوياء مدربين ليدفعوا عن الوطن العدو المشترك الذى إذا قدر له النصر فسيحل الذل والويل على الجميع ابتداء من رأس الدولة إلى آخر العامل الصغير .

١ - رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

٢ - رواه البخارى .

٣ - رواه مسلم .

فالتجنيد الإجبارى هو نظام من أروع النظم ، التى شادت عليها أوروبا عظمتها الحربية الحديثة .

والإسلام أو بالأحرى القرآن يجعل التجنيد إجباريا وفرضاً أساسيا على كل من قدر على حمل السلاح فى حالة الحرب الدفاعية التى يهاجم فيها العدو الأجنبى أرض المسلمين ، وفى جميع الحالات الأخرى التى يرى فيها الإمام وجوب ذلك التجنيد الإجبارى ، فالقرآن يقول : « كتب عليكم القتال » والخطاب فى هذه الآية موجه إلى جميع المكلفين من الذكور القادرين على القتال . وقد أمر القرآن المسلمين فى آية أخرى بوجوب النفرة إلى القتال فى قوله « انفروا خفافاً وثقلاً » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً لهذه الآية (إذا استنفرتم فأنفروا) أى كلما دعا الإمام إلى القتال فقد وجبت تلبية دعوته ، ولم يستثن القرآن أو السنة أحداً من تلبية دعوة الإمام للحرب فى جميع الحالات ، إلا أن يكون الشخص مريضاً أو ضعيفاً أو ذا عاهة تحول بينه وبين القتال .

ولما تخلف عن رسول الله فى غزوة تبوك ثلاثة بغير إذن من الرسول أو عذر مانع يبيح لهم التخلف ، كان عملهم هذا جرماً كبيراً عاقبه الرسول وبقية المسلمين بالمقاطعة والتفرقة بينهم وبين نسائهم والنبد من الجميع فظلوا يعانون كرباً عظيماً ويكفون تائبين مستغفرين بالليل والنهار فلا يقبل منهم الرسول ندماً أو استغفاراً حتى نزل القرآن بالصفح عنهم ، على شريطة أن لا يعودوا لفعلتهم الكبيرة حيث قال :

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم)

فالتجنيد الإجبارى هو أحد الدعائم التى قام عليها النظام الإسلامى قبل أن تعرفه أوروبا بثلاثة عشر قرناً من الزمان .

### الاستعانة بالمحالفات

وثمة عنصر آخر ينبغى للذمة المحاربة أن تعدده لتستكمل جميع أسباب القوة والأسلحة ، وهو المحالفات والمعاهدات التى لا تدع الأمة بمفردها إذا قامت الحرب ، بل تجد إلى جوارها فوراً حلفاء أقوياء أشداء مخلصين . فما من أمة مهما بلغت قوتها العسكرية الدفاعية أو الهجومية بآمنة على نفسها إن لم يكن لها حلفاء يقفون إلى جوارها فى ساعة

الشدة ، وكلما كانت الأمة صغيرة كلما أصبح التحالف مع غيرها أمراً حيوياً ضرورياً لحفظ  
كيانها على شريطة أن تحسن اختيار حلفائها ممن يرتبطون بها برباط المصلحة المشتركة ،  
وممن يلبون نداءها إذا جد الجدد وقعت الواقعة ، فكلما كان الحلفاء يرتبطون فوق رباط  
المصلحة برباط الدين أو اللغة أدى ذلك إلى جعل المحالفة أكثر فاعلية بل جعل منها ركناً  
ركيناً<sup>(١)</sup> .

## النصر

فإذا تم للأمة استعدادها العسكري في السلاح والرجال وشد أزرها الحلفاء الأقوياء ،  
فقد أصبح في قدرتها إذا خاضت معمعان حرب فرضتها الضرورة ، سواء أكانت دفاعاً  
أم هجوماً . أن تواصل الحرب إلى نهايتها الناجحة بأن تحز النصر على شريطة أن تدفع  
ثمنه . وما أدراك ما ثمن النصر ؟ هو بلوغ ذروة الكفاح في الحياة وغايتها . هو هذه  
اللحظة التي يشعر فيها المنتصر بنفحات الرب الكبرى تغمره ، فيندوق حلاوتها في جرعة  
واحدة فيتم له البقاء والخلود .

النصر هو البلمس الشافي لكل ما تحدته الحرب من جراحات وهو الذي ينسي الآلام  
ويبدد الهموم والأحزان .. وهو الذي يعيد النوم إلى الجفون التي أرقها السهاد ، والإكسير  
الذي يحول كل شيء إلى ذهب . هو ماء الحياة الذي ينفخ الروح في كل شيء وبخاصة في  
أجسام الشهداء الذين لا قوا مصرعهم في سبيل النصر ، فإنها لا تلبث أن تطرب وتسعد  
في العالم الآخر وتحفل بالنصر احتفال الأحياء .

ولذلك أقول : لا يوجد ثمن يساوي النصر مهما عز وغلا . فكل خسارة في سبيله  
غُثم وريح ، فئات الألوف التي استشهدت ، وألوف الألوف التي نكبت ، وألوف  
المدن والقرى التي خربت ودمرت ، وكنوز الذهب التي أنفقت كل هذه لا تساوي شيئاً  
إزاء النصر الكامل ، لأن النصر يردها كلها أضعافاً مضاعفة بما يجلبه معه من قوة روحية

---

١ - ولذلك فليس يمكن أن يوجد في العصر الحديث تحالف في - العالم أقوى أساساً - وأكثر فاعلية من تحالف  
هجومي دفاعي يقوم بين الأمم العربية التي لا تشترك في مصلحة واحدة فحسب ، بل تشترك في الدين واللغة  
والثقافة والماضي والحاضر والمستقبل فهي أقرب إلى أن تكون أمة واحدة بل هي أمة واحدة بالفعل .. ومثل هذا  
التحالف العربي قادر على أن يعيد مجد الإسلام ويرتفع بالأمم الإسلامية كلها إلى ذروة المجد والرفعة .

وفيرة ، تصلح ما فسد وتبنى ما هدم وتعمل بعد ذلك إلى التقدم بالإنسانية خطوات في سبيل التطور والارتقاء .

النصر هو ينبوع الحياة والارتقاء للشعوب والأفراد الذين يحصلون عليه ، فكل من أخطأه النصر فرداً كان أو جماعة ، وكف عن السعى لإجرازه من جديد فقصيره المحتوم إلى التدهور والفناء ! . لأن الحياة هي الكفاح فالانتصار فالخلود ، أو هي الاستسلام فالهزيمة فالقضاء .

### ثمن النصر

وليس للنصر من ثمن إلا الثبات ، وكل ما حدثت لك عنه من استعداد في السلاح والطائرات والرجال والتحالف لا يعدو كله أن يكون جسداً بغير روح ، أو محركاً بغير وقود فلا غناء فيها ولا خطر ما لم تحل الروح الجسد ويمد المحرك بالوقود . لا نصر لجنود لم يثبتوا في ميدان القتال ويصبروا على حر المعركة ويحاربوا الموت فلا يفرعون أو يفرون ، وإنما يستسلمون ويستمتتون مفضلين الموت على العار . أما إذا دب الملح إلى نفوسهم وفرغوا من جحيم المعركة وراعه الموت فرفعوا أيديهم مستسلمين أو أطلقوا سيقانهم للريح فهو الاندحار والذل ، ولو كانت الدولة من أعظم دول الأرض طرا وقد رأينا في هذه الحرب فرنسا تحر صريعة في بضعة أسابيع بالرغم من جيوشها التي تعد بالملايين ، والتي قاومت في الحرب الماضية أربع سنوات كاملة انتصرت في نهايتها ، ثمناً لثباتها ومقاومتها ، أما هذه المرة فقد خارت عزيمتها أبنائها الذين ركنوا إلى الحياة وأقبلوا على ملذاتها ، فكان نصيبها الهزيمة والفشل وسط دهشة العالم وذهوله بينما ثبت الإنجليز وصبروا فنجوا من المصير الذي صارت إليه فرنسا وثبت الروس ثباتاً عجباً بالقرب من مدنها العظيمة في لتجراد وموسكو وعند ستالين جراد ، فكان ثباتهم هو نقطة التحول في هذه الحرب وإذا قدر للحلفاء أن ينتصروا في هذه الحرب فسيكون للروس القدر المعلى في هذا النصر بما ثبتوا وسخروا بالموت .

ولما كان الثبات هو روح الحرب وثمر النصر فقد جعله الله فريضة على المسلمين لمحاربين ، وجعل الفرار من ميدان القتال هو أكبر الكبائر التي يرتكبها إنسان فقال عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » وقال « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » ولقد صدع المسلمون الأوائل بهذا الأمر فثبتوا ثبات الجبال



في كل قتال خاضوه ، وباعوا أرواحهم بيع السباح فانتصروا على أعظم جيوش العالم في ذلك الوقت ، وهم حفنة من الألوف تعد على الأصابع ، وكان الآخرون يفوقونهم في العدد والعدة ، ولكنهم فقدوا الثبات واستحبوا الحياة على الموت فخسروا المعركة جبانة ونذالة ، ثم أدركهم الموت الذي كانوا منه يفرون .

## مسلموا العصر الحديث

فاعجب - وهذا شأن المسلمين الأوائل وتلك أوامر القرآن ونواهيه - كيف تصور بعضهم الإسلام على أنه استسلام للمقادير والأعداء جنباً وخوراً ١ . وتصيدوا من القرآن والأحاديث فقرات أساءوا تأويلها وفسروها حسب أهوائهم ليبرروا ما هم عليه من هوان وضعف فما تدعوهم إلى الجهاد إلا ويقولوا لك (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ولا تدعوهم إلى امر بالمعروف او نهى عن المنكر إلا وردوا عليك بآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ولا تحذتهم عن الشجاعة والمغامرة والبلذ في سبيل الله ، إلا قالوا لك «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» حتى الصلاة لم يحفظوا من أصولها وقواعدها إلا حديثاً واحداً (من أم بالناس فليخفف) وهكذا لا ذوا بهذه العبارات التي لم يدركوا حقيقة معناها وهى كلها تقوم شاهداً على بطلان ما يفعلون ، وما يتصفون به من صفات وضلال ، فكان أن ضعفت الهمم وفترت العزائم وانحلت الوشائج وخبا نور الإيمان والعلم وعم الظلام والجهل ، ووصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من الدرك الأسفل من جحيم الدنيا وجحيم الآخرة كذلك إلا أن يتداركهم الله برحمته . هل الإسلام إلا هذه الآيات البيّنات والأحاديث المحكّمة التي يأخذ بعضها برقاب بعض لقيادة المسلمين إلى موطن العزة والسعادة في الدنيا والآخرة ؟ هل الإسلام إلا قول القرآن :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)

وقوله : (يأياها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون)

هل الإسلام إلا قوله تعالى :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن) وقوله :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

وقوله : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) وهل المسلمون إلا الذين عناهم القرآن بقوله :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » فهل يصدق هذا الوصف على كثير من مسلمي هذا الزمان ؟ أيمن أن يتصور عاقل أن هذا العدد الضخم وهذه الملايين من البشر التي فقدت همتها وكل فضيلة اجتماعية ، وقعدت عن كل كفاح وجهاد في سبيل تحسين حالها ومعاشها وتحرير أنفسها ، هي خير أمة أخرجت للناس ؟ أيجرؤ مسلم واحد يفهم حقيقة الاسلام على الادعاء بأن الله يرضى عن هذا النفر الذي اطمأن إلى الرذيلة وقبل أن يسوده الأجنبي وهو المأمور برفع راية الإسلام فوق العالمين ؟ وشاهد على من سبق وحضر « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ؟

لست أشك لحظة أن كثيراً من مسلمي هذه القرون الأخيرة التي هوى فيها الإسلام إلى هذه الهاوية ، إنما هم مسلمون بالإسم والتقليد ، لكنهم يجهلون كل شيء عن حقيقة الإسلام وجوهره ، وأن القرآن إنما يخاطب هذه الأمة الإسلامية العريضة التي سادت العالم ونشرت لواء التوحيد والفضيلة في ربوع العالمين ! . لست أشك لحظة في أن القرآن يتحدث عن هذا النفر من المسلمين الذين كانوا ينشدون النصر أو القبر ويقول قائلهم :

ولست أبالي حين أقتل مؤمناً على أي جنب كان في الله مصرعي

لست أشك لحظة كذلك أنه لم يحل دون نهوض المسلمين من كبوتهم وإقالة عثرتهم إلا وقوعهم في براثن الاستعمار الأجنبي الذي قتل فيهم روح الإحساس والتفكير ، فتبلدت طباعهم ونضبت فضائلهم . ولكنني أحس إحساساً عميقاً أن هذه السحب التي غشت حياة المسلمين قد آذنت بالانقشاع ، وأن الضربات الشديدة التي حاقت بهم والمهانة التي لحقتهم قد أيقظتهم من سباتهم فبدأوا ينفضون التراب الذي كاد يطفىء نور

أعينهم ويحركون الأذهان التي كاد يشملها الجمود .. إن العالم الإسلامي اليوم تسوده يقظة رائعة وهو في حالة انتباه نفسية وروحية ولكنه لن يأخذ طريقه الحق نحو الحياة والمجد والعزة التي فرضها الله عليه إلا بعد خلع رداء هذا الاستعمار الرهيب ولا سبيل إلى خلع هذا الاستعمار إلا بالقوة والقوة العسكرية التي تمد بها الدول الإسلامية بعضها بعضاً حتى تقهر الأمم المعتدية بقوة السلاح فترتدع عن غيها ، وتعود إلى وكرها وتلتزم حدودها .

لقد شاهدنا وسمعنا في هذه الحرب عن الوف من الألمان يموتون وهم يهتفون المجد لهتلر ، وعشرات الألوف من اليابانيين وهم يسقطون صرعى في سبيل الامبراطور ، فلا بد أن يصبح المسلمون كهؤلاء بل أعظم من هؤلاء ، لأنهم لن يهتفوا باسم مخلوق مثلهم ، ولن يكون مثلهم الأعلى دنيا يصيبنها أو مאלاً يغنمونه ، أو شهوة جاجة يطفئونها بالموت والتقتيل وإراقة الدم ، ولكن في سبيل الخالق الحي الدائم الخالد ، وفي سبيل تطهير بلادهم من دنس العبودية والذل لغير الواحد القهار الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

### يا بني

إن تحول المسلمين من جديد إلى أمة حرب وكفاح يحتاج لتربية وإعداد وعمل بالليل والنهار فهمة كل أب مسلم أن ينشئ ابنه على خلاف ما هو من الضعف والاستسلام وفقدان الثقة بالنفس بل على كل أب مسلم أن يغرس في أولاده منذ الطفولة كل الصفات التي يحتاجها المسلمون لإعادة مجدهم ، وهذا ما جعلني أعاهد نفسي أمام الله أن أعيدك يا ولدي لتكون محارباً وأن أبدأ هذا الإعداد منذ طفولتك ، فلما جاء أخوك نذرت لله أن أجعل منه محارباً كذلك ، ولو رزقني الله بعشرة أولاد لجعلتهم كلهم محاربين دماً ولحماً وروحاً وفكراً ولست أدع في طائقي جهداً لإعدادكما لهذا الغرض إلا وبذلكه فليس ما تلهوان به إلا دمي عسكرية ما بين بندقية أو حصان أو طائرة ، وإني لأمد لكما في حرية الحركة والتصرف والمغامرة ، فلست أردك عن مرتفع تتسلقه أو مركب خشن تركبه ، ولست أبالي أن تسقط على الأرض أثناء عدوك أو مغامرتك ، أو أن تصاب بجرح في يدك أو ساقك إلا بمعالجته بعد حدوثه حتى لا يخيفك أو يفزعك أن ترى نفسك مجروحاً أو دمك سائلاً فيردك ذلك عن تحقيق غرض تطلبه . إنني لأرجو أن أطبعك بطابع المحارب فتضرب كل من يضربك وتعشق القوة وجمع السلاح وتهوى الطيران وتحذقه .

فإذا قدر لك يا بنى أن تعيش أنت وأخوك فإن وصيتي لكل منكما مجتمعين ومنفردين أن تكونا محاربين مجاهدين ! وإني لأبرأ إلى الله منكما لو نازعتكما نفسا كما يوماً من الأيام إلى الإخلاق وإلى الجبن أو الفرار من ساحة المعركة أو الفرار من الموت على أى صورة من الصور ، فإذا قدر لكما أن تستشهدا فى سبيل الله والحق والمثل الأعلى فما أسعدنى بكما .

إن هدفنا هو أن نخلق من مصر والعرب قوة عسكرية كبرى تعيد الإمبراطورية العربية ، وتحرر الأمم الإسلامية ، وتبسط على العالم لواء العدل والإنصاف والحق واليقين . وسأظل أجاهد أنا وإخوانى فى هذا السبيل حتى النصر أو الموت فإذا قدر لنا أن نموت قبل إتمام المهمة فقد أصبح المضى حتى آخر الشوط هو واجبك ، فكونوا أنتم أسعد حظاً منا وإذا قدر لكم أن تسقطوا بدوركم فاعهدوا إلى أبناؤكم بحمل هذه الأمانة . أعدوهم إبان حياتكم لتنفيذ هذه الوصية المقدسة ، وهى أن يكونوا محاربين شجعاناً يثبتون فى القتال حتى ينتصروا أو يموتوا . ومهما تباعد العهد بيننا وبينكم .. مهما طال الزمن وتوالت الحقب التى تفصلنا عنكم أنتم يا من قدمتم على أيديكم النصر الذى نشق من أجله وسنجد بأرواحنا فى سبيله ، تعالوا إلى قبورنا وأبلغونا النبأ لأننا سنظل نرقب فى قلق ولهفة ختام المعركة ، فإذا سمعنا كلمة النصر السامية والنفحة الغالية إذا سمعنا بأن مصر والعرب قد أعادوا المجد وأصبح لواء الإسلام يخفق تحت الشمس حراً كريماً فى جميع ربوع العالمين ، فى هذه اللحظة فقط ستستقر عظامنا فى قبورها وتترنم أرواحنا فى ابتهاج وجور فى مسارحها مرودة نشيد النصر الالهى - الله أكبر - الله أكبر - الله أكبر صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

# نحو المجد

العلم والمال



يا أخى مصطفى الوكيل

هو ذا كتاب جديد أرفعه إلى مقامك  
وعهد الله على أن أقف ما بقى من حياتى  
على الوفاء لذكراك والاستضاءة بنور جهادك  
هذا الجهاد المثالى الكامل الذى لم تعرف مصر له  
مثيلاً فى السابق أو اللاحق .

وإنى لأرجو أن يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن  
أقدم لشباب مصر والعرب صورة رائعة من حياتك  
لتكون نبراساً لهم ليحققوا الجد لأنفسهم وأوطانهم .

## نحو المجد

قدمت قبل اليوم رسالتى الزواج والمرأة ، والحرب ، واليوم أقدم رسالتى العلم والمال وهما بعض هذه الرسائل التى كتبته إبان اعتقالى عندما انتهزت فرصة هذه الوحدة الطويلة التى دامت أكثر من ثلاث سنوات كى أعيد النظر فى مشاكل وطننا المصرى العربى وما يقعد الأمة الإسلامية ويبقيها فى هذه الحالة الشائنة من التدهور والانحلال والضعف وفقدان الحرية والثقة بالنفس ، ولقد آمنت أن العلة كل العلة فيما نعانيه فى مصر ويعانيه العالم العربى بأكمله هى تخلفه عن ركب المدنية والأخذ بأسباب الحضارة بزعم أنها تخالف الدين الإسلامى فأريت أن أتصدى لعلاج هذه المشكلة وأغوص إلى أعماق العناصر الأساسية التى دفعت بالغرب إلى طريق التفوق على الشرق . فكانت رسالتى عن المرأة ، والتى دعوت فيها إلى وجوب تحرير المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل مساواة مطلقة فى مباشرة كافة الحقوق السياسية التى يتمتع بها الرجل . ثم كانت رسالتى عن الحرب والتى دعوت فيها إلى وجوب الأخذ بأسباب القوة وإعداد العدة للقتال من مصانع للدخيرة والسلاح وتجنيد سائر أفراد الأمة والسعى بالليل والنهار للاستزادة من كل أسباب القوة والمنعة باستخدام آخر المخترعات والأسلحة ..

واليوم أعرض لقضيتى العلم والمال الذى تفوق فيها الغرب على الشرق وأبسط الأسباب والعلل الأساسية التى أدت إلى ما نحن عليه من تدهور علمى واقتصادى وأرسم الخطة لما يجب أن يكون عليه حالنا من تفوق ونجاح فى ميدان العلم والاقتصاد . وإبنى لأرجو إذا فرغت من تقديم هذه الرسائل أن أكون قد قدمت لمواطنى وللعالم العربى والأمة الإسلامية دستور النهضة والبعث الشامل لتحقيق المجد المصرى فالعربى فالإسلامى .

والله أكبر والمجد لمصر

«أحمد حسين»



## الفصل الأول

### رسالة العلم

يا بني

مذ دعوتك لتكون قويا ، وأنا أفصل لك أسباب هذه القوة وعناصرها ، وكان جديراً بي أن أجعل حديثي عن العلم في مقدمة هذه الأحاديث طراً . فهو أساس هذه العناصر كلها ، وهو ينبوع القوة الأول والأخير . وبغيره لا تتوافر القوة ولو اجتمعت بقية العناصر الأخرى . العلم هو غاية الدنيا وهو وسيلتها في نفس الوقت ، هو هذه النفحة الربانية التي أودعها الخالق في الإنسان ليكون خليفته في الأرض ، فيحكم ويسعد وسيطر على بقية العناصر والكائنات . كما قال ، وقوله الحق : « وعلم آدم الأسماء كلها » فالعلم هو هذه الشعلة المقدسة التي تضيء لنا طريق الحياة ، وتحقق لنا الكرامة والعزة الإنسانية والحرية . هو سلاح الإنسان للدفاع والهجوم والتغلب على كل ما يعترضه من عقبات ، ومن خصوم ، من بني جنسه ، أو من الحيوان ، بل من المخلوقات والعناصر وأحداث الزمان .

العلم هو الحبل الممتد من الخالق إلى المخلوقين ، ليصلوا عن طريقه إلى الحقيقة الخالدة الأزلية ، التي كانت علة وجودهم ، والتي هي منتهى سعيهم وكدهم . العلم هو صفة الرب . الكبرى ، هو النبع الذي فاض منه الوجود بما فيه من مخلوقات ، هو التاموس الذي يحفظ لهذا الكون قيامه ودورانه وتوازنه وتجاذبه وتناسقه وتآلفه ، وما بث فيه من حياة ، هو غاية الحياة ووسيلتها ، وهو سرها ومحورها .

### العلم غاية

العلم غاية الحياة ، ولذلك فلم يكن للبشر مذُوجِدوا على هذه الأرض ، أفراداً وجماعات ، ما يشغلهم إذ فرغوا من طعامهم وشرابهم ، إلا العلم بما لم يعلموا . والبحث خلف المعرفة الكاملة الصادقة . لكل ما يحيط بهم ، ويتصل بحياتهم ، فاستطاع كل جيل من الأجيال أن يظفر بجزء جديد من العلم ، يضيفه إلى ما ورثه عن الأقدمين من معارف . وبهذا يضيف لبنة في بناء المعرفة الإنسانية التي ترتفع يوماً بعد

يوم ، وتترامى جيلاً بعد جيل ، حتى تنتهى إلى المعرفة المطلقة ، أو بالأحرى إلى الكمال البشرى .

وقد يخيل للبعض من أبناء هذا القرن الذى نعيش فيه كما خيل لبعض القرون السالفة أننا أوفينا على الغاية ، وأوشكنا أن نظفر بالعلم الكامل بعد أن أصبح الإنسان قادراً بعلمه على تسخير ما فى الكون من عناصر ، فأخضع الماء والهواء والكهرباء لسلطانه . وابتدع بنور العلم السيارة والطائرة والغواصة ، والصاروخ وتحكم فى الأصوات والمرئيات . والأشباح والظلال ، فحبسها ونشرها وقبدها وأطلقها واختزنها ، فى هذه الأسطوانات والأشرطة السينمائية ، لتنتقل إلى أى مكان وتُرى وتُسمع ، متى أريد ذلك ولو بعد أعوام ودهور . بل استطاع الإنسان بنور العلم أن يمد بصره وسمعه إلى أرجاء الكون العظيم . فيسمع من بالغرب ما يقال ويقف على ما يحدث فى الشرق ، ويتكلم إنسان واحد فيستمع إليه هؤلاء الجلوس فى عقر دورهم فى الشمال أو فى الجنوب ، والمخلوقون فى الفضاء والساجدون تحت أغوار الماء ، والضاربون فى بيداء الصحراء .

واستطاع الإنسان أن يبني لنفسه بيتاً يناطح السحاب ، وينافس الجبال ، ويتحدى غضبات الطبيعة وزوابعها وأعاصيرها ورياحها وثلوجها وأمطارها وصواعقها وحرها وبردها . فما هى إلا لوالب تحرك بأيسر جهد من الأصابع حتى تندفع المصاعد إلى أعلى بسرعة البرق ، أو يتبدد الظلام ، ويستحيل إلى ضوء ساطع . ولكى ينتشر الدفء فى زمن الشتاء ، أو النسيم الرقيق فى زمن الصيف ، ولكى يُطهى الطعام ويغسل الرث . أو تعزف الموسيقىات وتلقى المحاضرات ، أو ينتقل إلى إنجلترا وما يحدث فيها ، أو إلى اليابان وما يقوله قائلوها . كل ذلك فى أقل من لمح البصر وخطرة الخاطر ، وهو مستقر فى مجلسه وفى عقر بيته . لم يبرحه ، بل وهو فى داخل فراشه ، والنوم يداعب جفونه . واستطاع الإنسان أن يخلع على الآلة بعض عقله فيجعلها تحسب الحساب . وتقبض النقود ، وتسلم البضاعة ، وتحرس الودائع ، وترد اللصوص ، وتندّر بالمخاطر .

وبالعلم استطاع الإنسان أن يعرف من شأن جسده وتركيبه ، وتشريح أعضائه ما جعله قادراً على التصرف فى علاج نفسه ، واستئصال عله ، وتجميل خلقتة . وتعويض الناقص من أعضائه . فثمة سيقان لمن فقدوا سيقانهم ، وأيد لمن قُطعت أيديهم ، ومناظير لمن ضعفت أبصارهم ، وسماعات لمن عجزت آذانهم ، وقلوب لمن ضعفت قلوبهم ، ومئات من الوسائل لتقويم الإنسان وتعويض أو تقوية مختلف أعضائه . وأصبح الإنسان يعرف من سطح الأرض كل شبر فى الطول أو فى العرض . فذرعهما

وقاسها وصورها ووزنها ، وحلل أجزائها وعرف تركيبها وأصولها وفروعها ، وعلاقتها ببقية الكواكب وعلاقتهن جميعاً بأمنهن الشمس ، وتفسير كل ما في الطبيعة من ظواهر كالليل والنهار ، والخسوف والكسوف ، والمد والجزر ، واختلاف الفصول والرياح والأمطار والرعود والبروق والصواعق والبراكين .

وليس في نيتي ، بل ليس في قدرتي أن أشير إلى رءوس موضوعات المعارف البشرية في عصرنا الحديث ، وإنما ذكرت ما ذكرت على سبيل المثال . وما يحمل البعض على الوهم بأننا بلغنا في العلوم مالاّ زيادة بعده لمستزيد ، اللهم إلا التزّر البسيط ، وليس أبعد من ذلك القول عن الصواب ، وإمعاناً في الخلط والخطب ، فما أوتينا من العلم إلا قليلاً ، بل وأقل من القليل ، فما هو إلا قطرة من بحر وذرة من رمل وشعاع من نور الشمس . فعلى الرغم من اتساع معارفنا بالنسبة لما يتعلق بسطح الأرض فإن هذه المعرفة لم تتجاوز قشرتها فأقصى ما وصل إليه الإنسان من عمق في باطنها لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أميال من نصف قطرها المقدر من سطحها إلى مركزها بأربعة آلاف من الأميال ، فما علمناه عن الأرض وطبيعتها لا يعدو أن يكون جزءاً من ألف جزء مما يجب أن يعرف عنها ، ناهيك بما لا نزال نجهله عن القمر ، فنحن لا نعرف حتى الآن إلا شكله ورسمه وحركته ودورانه ، وما زاد على ذلك فنحن بالنسبة إليه في ظلام دامس ، بالرغم من استعمال الميكروسكوبات<sup>(١)</sup> الضخمة التي تكبر الأجسام ٣٦٠ ألف مرة ، وما نعلمه عن بقية الكواكب قد لا يزيد عن مجرد وجودها ، أما ما نعرفه عن الشمس فليس سوى هذا الضوء الذي يغمرنا ، والذي هو أحد آثارها ، ولنا نعرف وراء ذلك شيئاً عن هذه الملايين التي لا يدركها الحصر من هذه النجوم والدراري التي ترصع السموات العلى ، والتي تزينا بأبهى زينة وأتم روتق مع أن نجماً من هذه النجوم قد يفوق في حجمه الشمس وكواكبها ، والأرض وتوابعها ببضعة ألوف من المرات ، أما هذا الفضاء الذي يتسع لذلك كله فهو بالنسبة لعقولنا غموض وإبهام ، وظلام وقنام ، بالرغم مما يفيض به من نور وضياء وجمال وبهاء .

وما لنا نذهب بعيداً وأقرب الأشياء إلينا لا يزال أبعد إلى عقولنا ، فالنفس ما هي ؟ والحياة ما سرها ؟ والموت ما هو ؟ لا نكاد نعرف عن ذلك مثقال ذرة أكثر مما كان يعرفه أسلافنا منذ ألوف السنين .

فالحق أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، ولا نزال قريبين من شاطئ بحر المعرفة ، ولم

(١) Microscope وقد عرّبها مجمع اللغة فسيها « المجهر » .

نوغل بعد كثيراً في الداخل ، ولكن ليس ثمة شك في أن الإنسانية تسير صوب غايتها من المعرفة الكاملة . فما من جيل إلا ويعرف أكثر مما عرف المتقدم ، بعد أن أصبح المتقدم تاريخاً ماضياً . فاللاحقون يعرفون كل شيء عمن سبقهم ، بعكس السابقين الذين ليس باستطاعتهم أن يعرفوا شيئاً عمن سيحيى بعدهم . إن الإنسانية في مجموعها تزداد دوماً علماً ومعرفة ، وتكشف في كل يوم مجاهيل جديدة لم تكن معروفة بالأمس ، وإذا كان الشوط الذي قطعته الإنسانية حتى الآن ، مذ كان الإنسان يهيم على وجهه في الغابات إلى أن صار إلى ما صار إليه ، إذا كان هذا الشوط يبدو كبيراً ورائعاً فإنه لا يمكن أن يقاس أو يقارن بما سيقطعه الإنسان في القرون القليلة المقبلة ، بعد أن تهبأت له أسلحة من العلم لم تكن لديه في القديم ، وبعد أن باتت الكهرباء - وهي أقوى عناصر الكون - في خدمته ، فقضت له على المسافات والزمن ، بل بعد أن توصل الإنسان لاستخدام الطاقة الذرية . فلم يكن مستحيلاً ولا هو غير متصور في ذهن أن يتمكن الإنسان من التحليق في أجواء الفضاء ، والوصول إلى القمر وإلى بقية الكواكب الأخرى وأن يشرع الإنسان في سكناها واستئجارها واستئجارها إن كانت بغير سكان ، أو كانت في حاجة إلى استثمار واستغلال .

إن الإنسانية تسير قدماً نحو الأمام . نحو العلم والمعرفة . لتدرك من أسرار الكون وعوالمه ما لا يزال حتى اليوم خافياً ، متخذة من بعض العلم سبيلاً لتحصيل البعض الآخر . ومن الوصول إلى إحدى الدرجات لارتقاء درجة جديدة . هكذا خلقت النفس البشرية ولهذا أعدت ، وصوب هذه الغاية اندفعت .

### العلم كوسيلة

على أن العلم إذا كان غاية الإنسان في الحياة فهو وسيلتها أيضاً . فما الصنائع التي تقوم عليها حياة الإنسان إلا ثمرة من ثمرات العلم والانتفاع بنفائقه وتطبيقاته . وكل ما ينيط بنا ويملا حياتنا من طعام نأكله أو شراب نشربه أو لباس نلبسه ، أو مسكن نقطنه . أو متاع نستمتع به أو سرور نغمر به ، أو أمن نعيش في ظله . ليس ذلك كله إلا ثمرة العلم الذي حصله من قبلنا والذي يجب أن ننقله ونحمله لمن ييئثون بعدنا ، وبغير ذلك لا تكون حياة ..

### حب المعرفة غريزة إنسانية

ومذ كان للعلم والمعرفة في حياة البشر كل هذا الخطر فقد أصبح حب العلم والتطلع للسمعة إحدى الغرائز الإنسانية إن لم يكن أقواها ، وإن قيامك الآن إلى جوارى يابنى

دليل على ذلك . فليس هناك ما يشغلك وأنت في مستهل حياتك إلا أن تسأل عن كل شيء وتستطلع كنه كل شيء ، وإن نَهَمَك إلى المعرفة لِيَتَغَلَّب على كل ميل أو رغبة أخرى . ففي قدرتنا أن نصرف الطفل دائماً عن البكاء أو الإحساس بالألم ، بل وعن الطعام والشراب لفترة معينة ، بمجرد أن نلوح أمامه يحسم غريب يلفت نظره فيتطلع إلى اكتناه أمره والوقوف على سره وما أكثر ما يحطم الدمى التي تقدم له ، وكذلك يفعل أخوك ، ويفعل كل طفل ، وما ذلك إلا لغريزة حب الاستطلاع الكامنة في كل نفس . وليس هناك ما هو أحب إلى نفسك ، وأنت الطفل الذي لم تبلغ ثلاث سنوات بعد من أن تجلس إلى جوارى ، أو إلى جوار أمك ، تحديق في كتاب ذى صور سائلاً عن كل ما تقع عليه عينك من أشكال ومناظر ، فلا تفتأ تصيح « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » فلا نكاد نجيبك على سؤالك في بعض الأحيان حتى تقذفنا بسؤال آخر ، طالما أخرجني وأربكني ، إلى أن تعلمت كيف أرد بصورة تضع حداً لسؤالك ، وليس هذا السؤال المخرج سوى « لماذا » أو حسب تعبيرك « ليه .. ليه » فأنت أيها الطفل تريد أن تعرف حقيقة كل شيء والعلة في كل شيء ، وليس العلم سوى هذين السؤالين والجواب عليهما ما هذا ولماذا ، ولم يزد الأنبياء والرسل والفلاسفة والعلماء والمفكرون عن الإفصاح عن بعض هذه الماهيات ، والكشف عن بعض هذه العلل ، ولكن ما عرفناه كما قلت لك لا يكاد يذكر بالقياس إلى ما لم نعرف ، ولذلك فستظل الإنسانية تسأل دائماً أبداً منذ ولادة الفرد طفلاً إلى أن يصبح كهلاً فشيخاً ، ومنذ أن يبدأ الجيل حتى ينتهى . ما هذا ؟ ولماذا !

فلا عجب إذا كان حب العلم والاشتغال بطلب العلم ، هو أغلى وأعز ما يحرص عليه الإنسان الحر الكريم لتحقيق إنسانيته وحرية وكمال ذاته ، وما اتقادت هذه الجذوة في قلب إنسان إلا وسما وارتقى وسعد ، واندفع نحو الخلود . وما انطفأت هذه الجذوة في قلب إنسان إلا وانكفأ على وجهه أعمى ، ولو كان بصيراً ، وارتد أبكم أصم ولو كان ناطقاً سمياً ، ثم هوى من عرش الإنسانية إلى حضيض الحيوانية ، بل كان أقل مقاماً من الحيوان . فالحيوان لم يتعد طوره ولم يخالف غريزته ، ومضى لما رسم له وفطر عليه . أما الإنسان الجاهل الذى انطفأت من روحه محبة المعرفة وجمد عن طلب العلم ، فقد أفسد غريزته التى هى قوام إنسانيته ، وعطل عقله الذى هو آية كرامته .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

فما أنكد هذا المخلوق الذى يعيش فى الغفلة ويعتز بها ، ويحرص على التمسك بها وعدم التحرر من ربقتها ، فما أحقه أن يكون مغلبة لغيره من العاملين ، وأن يكون بعض ما يسخرونه من الحيوانات والدواب ، بل ما أجدره بالفناء والهلاك بعد أن تهاون فى رسالته ، وجهل مهمته وهى العلم بما لا تعلم بقية الكائنات ، ومواصلة طلب العلم من المهد إلى اللحد .

### الجهل مصدر العبودية

ما من شريعانيه الإنسان فى الحياة ، إلا وهو الأثر المباشر للجهل والغفلة ، وما من نقص يشعر به الإنسان فى كل ما يحيط به أو يتصل بحياته وكيانه المادى والمعنوى ، إلا وهو النتيجة الحتمية لما هو فيه من جهل وغفلة . فالعبودية ، وهى فقدان المرء لحريته ، وخضوعه لسلطان غيره وإرادته ، لا يمكن أن يقع الإنسان فيها ويرضى بها إلا من جراء جهله ، فالمتعلم لا يمكن أن يكون عبدًا أبدًا ، فردًا كان أو جماعة ، مهما غلب على أمره . ووقع أسير القوة الغاشمة ، فإن علمه لا يلبث أن يخطم أغلاله ، ويفك أساره ويرده سيدًا حرًا مختارًا ، على المقام والدرجات ، والتاريخ أصدق شاهد على ذلك ، فقد وقعت أحيانًا شعوب على جانب من العلم والحضارة تحت سلطان شعوب أقل منها علمًا وعرفانًا ، فلم تلبث الأولى أن تحررت من سلطانها بل غزتها وأخضعتها لسلطانها العلمى والعقلى .

وإنما يستعبد الفرد ، وتستعبد الجماعة وترسف طويلاً فى أغلال العبودية ، لأن جهلها وغفلتها يجعلانها تستمرئ ، هذه العبودية بل تفرضها على نفسها فرضًا وتبحث عن أغلالها لتطوق بها جيدها . ذلك أن الجاهل يشعر من نفسه بأنه لا يستطيع أن يسير فى الحياة بغير راع يحميه ، وقائد يمسك بعنانه ، فهو إما عبد إنسان آخر ، كاهن أو ساحر أو قائد أو ملك ، أو عبد لقط أو تمساح أو ثعبان أو عجل أو قطعة من الحجر ، أو عبد لضلالاته وأوهامه وما يصوره له جهله وغفلاته ، هو عبد فى منامه ويقظته ، فى سكونه وحركته ، لأنه جاهل . وهذا ما جعل أفرادًا قلائل فى عصرنا الحديث من أبناء الأمم الأوروبية المستنيرة يسترقون ملايين من البشر ، بل مئات الملايين ، ويتخذون منها أدوات مسخرة لتحقيق شتى أغراضهم فى الحياة من جاه وسلطان ومال واقتدار ، كما هو حال الأغلبية العظمى من شعوب أفريقيا وآسيا ، الذين لم يحكمهم الأوروبي بعلمه الفائق الذى مكنته من ابتداع أسلحة وأنظمة وصناعات لا قبل لهم بالوقوف أمامها فضلًا عن منافستها والتغلب عليها ، بقدر ما يحكمهم بجهلهم وغفلتهم وعميتهم التى جعلتهم مستعدين للعبودية ، ولخدمة المستعمرين راضين فرحين . وحسبك أن تعلم أن فى الهند أقوامًا يقولون

إن دينهم يقضى عليهم باعتبار سبعين مليوناً من مواطنيهم<sup>(١)</sup> ، أو يزيدون ، أنجاساً منبوذين مطرودين من حظيرة البشرية ، ولا يصلون إلى مرتبة الحيوانية التي يقدر هؤلاء الهنود بعض أنواعها . وليس العجيب أن يوجد من يقول بهذا الرأي ، فقد فطر الإنسان على الرغبة في سيادة الآخرين والاستعلاء عليهم ، وإنما العجب أن تؤمن جمهرة من هذه الملايين من المنبوذين بهذا الوضع وترضاه ، ولا ترى فيه حرجاً على كرامتها وبشريتها ، ولا مأثماً . وهي لو كانت تشعر بشيء من الحرج أو الغضب لهذه المهانة لالتصمت لنفسها ديناً غير هذا الدين ، الذي يذلها ويشقيها ، ولوجدت في الإسلام ، الذين يدين به ثمانون مليوناً من بني جلدتها ، ما تعتز به وتؤكد به كرامتها . فإن لم يعجبها الإسلام فثمة أديان أخرى كلها تحررها من هذه اللعنة والوصمة ، فإن أبوا إلا التمسك بدينهم وعقيدتهم ففي أرض غير الأرض سيجدون من لا يأبى على نفسه مجالستهم ، والتحدث معهم ، ومؤاكلتهم ولكنهم يرتعون في غابة الجهل ويرضون بما هم فيه من عار وندس ، فكيف يعجب إنسان لتسلط الإنجليز على هذه القارة الضخمة التي توشك أن تنافس أوروبا وتفوقها حجماً وسكاناً ، وأن يتم هذا التسلط ببضعة عشر ألفاً من الرجال البيض . وتجري القرون تلو القرون ، والهنود يكدون ويكدحون ، ليزيدوا في مجد بريطانيا وثروتها وسلطانها ، وليمكنوا لها أبداً في توثيق أغلالهم . ولا أمل للهند ، بل لا أمل لأى شعب يرتفع في عماية الجهل وضلال الأوهام ، في أن يكون حراً سيد نفسه ، وسبق الجهال والغافلون عبيداً أرقاء ما بقيت الأرض أرضاً والسماء سماء . بهذا قضت مشيئة الله وسنته في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وكما جاز للإنسان أن يتسلط على بقية الكائنات والحيوانات بعلمه ، فمن حقه أن يتسلط بهذا العلم نفسه على هذه الطوائف الإنسانية التي رضيت لنفسها الجهل والعماية ، فعدت من الأنعام بل أضل سبيلاً .

### الجهل مصدر الخوف

والخوف لون من العبودية ، ولكنه أوسع نطاقاً ، وهو ذلك الشر الذي ينغص على الإنسان طمأنينته وهناؤه ، ويعكر عليه صفو حياته . ويجعل منها في بعض الأحيان جحيماً من الفرع والآلام والغصص والاضطراب .. هذا الخوف هو ثمرة أخرى من ثمار الجهل ، وهو يتناسب معه تناسباً طردياً ، فكلما زاد جهل الإنسان كلما زادت درجة خوفه .

(١) أطلقوا على هذه الطائفة تسمية « المنبوذين » . وكان « غاندى » يبذل الجهود الجارة لمحو هذه الفكرة التي لاقت من الاستعمار تشجيعاً .. تطبيقاً لسياسة « فرق .. تسد » .

وفزعه . وكلما قل جهله وزاد نصيبه من العلم كلما قل خوفه وزاد اطمئنانه . فالإنسان لا يخاف إلا ما جهل ، فإذا علم ما كان يجهل زال عنه الخوف فوراً . فنحن نأنس من أنفسنا خوفاً وخشية عند ما نشرع في ارتياد مكان لم نطرقه من قبل ، ولا يزال بالنسبة لنا مجهولاً ، وعلى العكس من ذلك نُقدِّم في اطمئنان عميق على ارتياد هذه الطرقات المألوفة لنا من قبل والتي ارتدناها أو ارتادها غيرنا من قبل . ونحن في بيوتنا آمنون مطمئنون ، نغشى كل جزء منها في احشاء الليل البهيم ، غير مستعنيين بنور أو دليل ، فإذا كنا في أمكنة غريبة عنا شعرنا بشيء من الوحشة في الظلام ، واقتصدنا في حركاتنا وأصواتنا وحريرتنا . والظلام بصفة عامة يقلل من طمأنينة الإنسان ، ويجعله أكثر استعداداً وتهيباً للهواجس والقلق ، على عكس النور الذي يملأ الإنسان ثقة واطمئناناً للحياة ، وما النور إلا العلم ، لأنه يمكن أبصارنا من أن ترى وتميز .

وعندى أن ما يفزع الناس من الموت ليس سوى الجهل بما وراءه ولذلك فإن هؤلاء الذين استيقنوا بما وراء الموت قد أقبلوا عليه فرحين مستبشرين . فالجهل هو علة الخوف دائماً أبداً .

وقديماً عندما كان الإنسان في أطواره الأولى غارقاً في جهالته . كان الخوف هو العنصر الذى يملأ حياته كلها ، ويلونها ويشكلها ويحركها حيث كان كل شيء يفزعه ويرعبه . فزئير الأسود وعواء الذئاب وحفيف الأشجار ونقيق الضفادع وخرير الماء ، كلها كانت تملؤه خشية وروعة ، وتجعله لا يتحرك إلا نهاراً ، ولا ينام في الليل إلا غراراً ، أخفت الأصوات يوقظه ، وأقل الحركات يرعبه . ولذا فقد أدى به هذا الخوف إلى عبادة كل ما يحيط به والتسليم له بالعبودية والخضوع ، فالحيوانات من عجل وتمساح وذئب وقط وفأر وجعران وخنافس وثعابين ، والطيور من نسر وصقر وحدأة وبومة ووطواط وعصفورة وحمامة ، والكائنات من جبال وأشجار وأنهار وأحجار وأمطار وبحار ، والشمس والقمر والكواكب وبقية النجوم ، والعناصر من رعد وبرق ومطر وزواج وأعاصير وصواعق وبراكين ، كل هذه كانت محل تقديس الإنسان وعبوديته ، نتيجة لخوفه منها ورجائه اتقاء شرها . فكم قرب إليها القرابين لاستجلاب رضاها ، وكم ضحى بأفراد من بني جنسه وפלذات أكباده من الأطفال الأبرياء ، ليرضى الآلهة الغاضبة ، وليروى ظمأها بدم الطفل المنكود .

وناهيك بما كان يعانيه الإنسان من فريق مثله من البشر ادعوا لأنفسهم الملوكة عليه ، أو الكهانة ، أو اشتغلوا بالسحر ، فقد جعلوا من أنفسهم أرباباً ، وألزموه العبودية والطاعة ، فقدمها مرتجفاً ، فزعاً غير معارض أو مناقش لأن الآلهة لا تعارض



ولا تناقش ، ولا تُسأل عما تفعل وهم يسألون ، والآلهة لا تتقيد بقانون ولا تلتزم قاعدة ولا ترتبط بوعد ، فهي تفعل ما يحلو لها وما يبهج خاطرها . فإذا شئت أن تحرق مدينة كروما حرقتها ، وإذا شئت أن ترمى ألوفاً من البشر إلى السباع قذفتها ، وإن شئت أن تحرب أو تدمر فهذا شأنها وتلك إرادتها . وما أكثر ما كان الناس والشعوب في فرع من نزوات آلهتهم ، سواء كانت حجراً أو عجلاً أو ملكاً . ولكن انتشار نور العلم ، رويداً رويداً ، جعل الإنسان يدرك بالاختبار والتجربة أنه سيد ما في هذا الكون من كائنات . وأن لا سلطان لإنسان على إنسان إلا بما تقضى به القوانين التي يضعها الإنسان بمحض حريته واختياره . وهكذا بدأت ريح الفرع والرعب تخف وتهدأ في صفوف القوم المتعلمين ، ولكنها لا تزال قوية شديدة كعهد الإنسان الأول بها وسط هؤلاء الجهال الذين هم في غفلة يعمهون .

### والفقير...

ولا أظنك في حاجة لأن أطيل عليك في تبيان أثر الجهل في إحداث الفقر . فالثروة ليست إلا وليدة الإنتاج والاستثمار ، ولا إنتاج ولا استثمار بغير علم ، وكلما زاد نصيب الفرد أو الجماعة من العلم ومن استغلال حقائق العلم ومدلولاته ومكتشفاته ومخترعاته كلما تضعف الإنتاج وتكاثر ، فاغتنى الفرد واغتنت الجماعة . وحيث وجد العلم وجدت الثروة ، وحيث انطفأ مصباح العلم عم الفقر وطم ، فعندما كان الشرق موطن العلم كان موطن الثروة أيضاً . فلما أقفر من العلم انتقلت الثروة إلى الغرب الذي أشرق بنور العلم ، وليس ذلك لأن الشرق قد فقد موارده ، أو أن الغرب قد اكتشف لنفسه موارد جديدة لم تكن له من قبل ، فقد بقيت الموارد كما كانت من قبل في الشرق وفي الغرب وإنما جهل الشرق موارده وينايع ثروته ومستودع قواه ، وعرف الغرب ذلك كله . لا بالنسبة لما في أرضه وتربته . بل لما في أرض الشرق نفسه ، فأقدم على استخراجها واستغلالها ، فكان في ذلك سر ثروته . فكم في باطن التربة الشرقية وعلى سطحها من كنوز وثورات وجواهر ، ولكن ظلام الجهل قد حجبا عن أبصار أبناء الشرق ، فإذا علموا أمرها حال بينهم الجهل وبين طريق استغلالها ، فإذا استغلوها حال الجهل بينهم وبين طريق تصريفها في الأسواق وبيعها . وهكذا لحق الفقر أبناء الشرق ، أفراداً وجماعات ، لأن فلاحيهم أصبحوا جهالاً بالنسبة لفلاحي الغرب ولأن صناعهم أصبحوا جهالاً بالنسبة لصناع الغرب ، ولأن تجارهم أصبحوا لا يعلمون ما يعلمه تجار الغرب «ولا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» .

وما أكثر ما يصادف الإنسان في بلادنا والبلاد المجاورة أطفالاً يشع الذكاء من

عيونهم ، وتتوقد أذهانهم حدة ونبوغاً ، ولكن هذه الشعلة تنطفئ . رويداً رويداً كلما كبر هؤلاء الأطفال ، ولم يكن نصيبهم من الحياة سوى الفقر . ذلك أنهم في أحضان الجهل يتعرعون ، فلا تجد أرواحهم غذاءها من العلم ، ولا تتسلح ملكاتهم بسلح العلم ، فذوب مواهبهم ولما تتفتح وتزهر ، وخسروا أنفسهم وخسرتهم الإنسانية . وكم من المئات والألوف في الشرق ملقون كما تلقى الجواهر في الوحل فلا يابى بها إنسان ، بينها لو وجدت من يلتقطها وينظفها ويصقلها لرفعت إلى أسمى العروش والتيجان ، وليس سوى العلم صاقلاً ومنظفاً وهادياً ومرشداً ومخرجاً من الظلمات إلى النور ، ومن الفقر والفاقة إلى الثروة والكفاية .

### والمريض

وهل ينشأ المرض ، أعدى أعداء الإنسان ، وينبوع آلامه إلا من الجهل ، بمختلف درجاته . فالجهل بما يضر الإنسان من الأطعمة والأشربة والملابس والأمكنة ، هو أساس كل مرض ، ولو عرف الإنسان الطعام الصالح ، والشراب الصالح ، والمكان الصالح ، والعمل الصالح لانتفع بهم سبب للمرض . ولو علم الإنسان كل صنوف الأوبئة وكيفية اتقائها لقضى نهائياً على المرض ، فما من داء إلا وله دواء وإذا كانت بعض هذه الأدوية لا تزال مجهولة ، لأن سر بعض الأمراض لا يزال مجهولاً ، فإن الزمن والبحث والدرس والاختيار والتجربة حقيق في نهاية الأمر أن يوقفنا على السبب في أى مرض من الأمراض وماهيته ، ومتى عرفت الماهية والعلة عرف على الفور العلاج والدواء .

وسيزل الجهل دائماً أبداً أكبر حليف للمرض ، فحيث ساد الجهل وفاض فالمرض يتفشى على الأثر ، وحيث انجابت غياهب الجهل وانتشر نور العلم خفت ربح المرض ، واجتثت على أساسه ، وليس أدل على ذلك من هذا الفارق الضخم في الصحة العامة وانتشار الأمراض في بلدين كإنجلترا وأمريكا وبلدين كالهند والصين ، بل في بلد مثل مصر ، وإن كانت قد قطعت شوطاً في سبيل العلم ، فلا يزال السواد الأعظم منها يرتع في ظلام الجهل . ففي مصر يبلغ عدد المرضى بعيونهم نسبة مخيفة من السكان تنتهى بعدد عظيم منهم إلى العمى ، حتى لقد بلغ عدد العميان في مصر في آخر إحصاء نيفاً ومائة ألف فقدوا نور البصر وليس وراء البصر نعمة من النعم ، مع أن إنجلترا والولايات المتحدة وألمانيا قد لا يوجد فيها مجتمعة مثل هذا العدد الضخم من العميان نتيجة للمرض . أما مرضى الأمراض المتوطنة من انكلستوما وبلهارسيا فقد يصلون إلى ٧٥ في المائة من

مجموع عدد السكان ، وهو أخطر ما يفتك بأجساد الشعب ويسرع بهم إلى العطب والوبار . ويهيء لهم السبيل لانتشار بقية الأمراض ، فأصبح الذين يموتون في مصر ضعفاء متناهم في إنجلترا<sup>(١)</sup> ففي مصر يموت ٢٥ نسمة في كل ألف سنوياً أما في إنجلترا فلا يزيد عدد من يموتون سنوياً على ١١,٧ من كل ألف . ويعظم الفارق ويتضخم في صفوف الأطفال لجهل الأمهات والآباء ، فإذا كانت إنجلترا يموت فيها سبعة وخمسون طفلاً في كل ألف ، فإن مصر يموت فيها ١٦١ في الألف ، وهي نسبة فاحشة لا توجد في أى بلد متمدين في العالم . وإذا كان هذا هو حال مصر ، فناهيك ببقية بلاد الشرق حيث لم تحقق عشر معشار ما حققته مصر من أخذ بأسباب العلم .

لو أن الناس في مصر وفي غيرها من بلاد الشرق ، علموا شيئاً من قواعد الصحة . من نظافة وطهارة ونظام ووقاية ، لتحسنت الصحة العامة تحسناً هائلاً ، ولقل عدد الموتى من الأطفال ، ولقويت الأجسام وازدهرت الأرواح . ولو تعلم الناس في مصر وفي بلاد الشرق ، وتدققوا لذة العلم ، لأدركوا على الفور أن كل وباء يمكن أن يتنى ، وأن كل مرض يعالج في أدواره الأولى ، يخفف على الإنسان آلاماً كثيرة ، ويحول دون تمكن الداء واستفحاله ، ويزيد من فرصة شفاؤه .

وهكذا يطارد العلم المرض . وكما أن أشعة الشمس إذا أشرقت على مكان طهرته . وفتكت بما فيه من جراثيم وأوبئة ، وجعلته صالحاً للحياة والنمو ، فكذلك العلم إذا أشرق في مكان طهره وهزم ما فيه من جيوش المرض والفقر والخوف والعبودية والشرور والنقص والجرائم ، وأنبت بدلاً منها الصحة والرفاهية والأمن والحرية والثروة والارتقاء .

(١) راجع كتاب على هامش السياسة للدكتور حافظ عفيفي باشا

## الفصل الثاني

### القرآن والعلم

وإذ كان للعلم كل هذا الخطر في حياة البشر ، وكان هو منتهى آمالهم وواسطة حياتهم ، فقد رفعه القرآن مكاناً علياً . ودل على أهميته وخطورته ، وأبرز من شأنه كل ما صغر وكبر ، وعرف بوسائله وطرائقه وشرائطه وعناصره . وشاد بالعلماء والمتعلمين ، وذم الجهل والجاهلين ، ونعتهم بأشتى النعوت وأحقرها ، فجعلهم أشر من الدواب وأحط منها وأضل . وكان أول ما استفتح به القرآن إظهار شرف العلم ومكانته ، وأنه كبرى النعم التي أنعمها الله على الإنسان فاستحق من أجلها أن يعبد ويشكر . فقال وقوله الحق « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . وهكذا ، من الله على الإنسان أن هداه للعلم ووفقه إليه ، وعلمه من أسرار الكون والحياة ما لم يكن يعلم . وما لا تعلم سائر الكائنات . كما دلت على ذلك آيات خلق الإنسان « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » . فالله قد اختص الإنسان بالمعرفة كما اختصه بالحرية ، وجعل العلم والمعرفة منتهى سعيه وكدحه ، ذلك ما تنطق به هذه الآيات البينات . وقد كان أول ما تلقاه الرسول من الوحي أمراً بالقراءة ، وحديثاً عن القلم والعلم ، وإشادة بنور العلم « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » وإذا كان بدء الشيء هو أصله ومنبته ، وهو جوهره الذى تقوم عليه بقيته ، فمن هذه البذرة انبثق القرآن بأكمله فكان العلم سداه ولحمته ، فهو كتاب علم ومعرفة ، وهو معجزة العقل آلة العلم ومستودعه ، وليس معنى ذلك أن القرآن قد حوى تفاصيل العلوم المختلفة ومباحثها ، ولكنه كتاب هداية وإرشاد لإصلاح حال البشر ، فاحتوى فيها احتوى القواعد الكلية والعناصر الأساسية ، التي تنبثق منها العلوم وتزدهر .

## انظر واسمع وتأمل

العلم هو ثمرة استخدام الحواس من نظر وسمع ولمس ، والتأمل بواسطة العقل فيما تحمله من صور وموضوعات . ثم إصدار الحكم على هذه الأشياء من حيث ما هيأتها ومدلولاتها وأسبابها وعلاقاتها بغيرها ، ومدى ما يفيد الإنسان منها . وهذا هو ما دعا إليه القرآن ، وألح في الدعوة إليه . فطالب الإنسان في أن ينظر في ملكوت السموات والأرض ، في كل ما يحيط به ويتصل به ، وأن يفكر في ذلك كله ، وينفذ إلى حقائق الأشياء ويربط بعضها ببعض ، وأن ينتقل من المحسوس إلى المفهوم . ومن المنظور إلى غير المنظور ، وأن يستند في ذلك كله إلى بديهيات العقل التي ألهمها إلهاماً ، وخلقت وإياه ، من أن لكل شيء سبباً ، وعلة لا يكون إلا بها ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن الشيء لا يمكن أن يكون موجوداً وغير موجود في آن واحد ، وغير ذلك من البديهيات التي هي أول صفات العقل وعلى هذا الأساس مدعا القرآن الإنسان للنظر في كل شيء ، والتأمل في كل شيء ، ابتداء من السماء ذات البروج ، والردع والبرق . حتى الدويبة والحشرة والجراثيمة والبذرة . ليعمل على اكتشافه واكتناه أمره « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » « فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد ، والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ » « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » وعلى هذا النحو من الحث على النظر في الكائنات والمخلوقات ، تتوالى آيات القرآن آخذة بعضها برقاب بعض . على أن القرآن لا يقف عند مجرد هذه الإشارات العامة ، فقد لا تؤدي بنفسها لأكثر من لفت النظر . ولذلك فهو ينتقل بالإنسان خطوة أخرى ليحمله على التفكير للكشف عن الأسرار والأسباب ، فيقول « وفي الأرض قطع متجاورات وجات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » فالقرآن يدعو عقل الإنسان إلى حل هذا اللغز الذي يراه في كل يوم فهذه قطعة أرض واحدة ينمو فيها النخيل على شاكلة واحدة ،

وتسقى بماء واحد ، ومع ذلك فطعم ثمرة نخلة من النخلات يختلف كل الاختلاف عن طعم ثمرة أخرى فما هو تعليل ذلك وما هو سره . وهكذا يندفع الإنسان في بحث المزروعات وعلم النبات وكل ما يتصل به بحثًا خلف هذه الأسرار والعلل .

«والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يششى على بطنه . ومنهم من يششى على رجلين ومنهم من يششى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» .

فالحياة قد نبعت كلها من الماء (وجعلنا من الماء كل شيء حي) . ومع ذلك ما أعظم هذا التنوع الذى تفتقر إليه الكائنات الحية . فهذه حيوانات تدب على ساقين . وأخرى على أربع ، وزواحف ليس لها أقدام ، فترحف على بطنها ، وطيور تطير بجناحيها ، وإنسان يسير قائمًا ، فما علة هذا الاختلاف ؟ وما هو منشؤه ؟ وما هى الصلة التى تربط الأحياء ببعضها ؟ وفى أى الأقسام تتفق وفى أيها تختلف ؟ وهكذا نرى أنفسنا فى صميم علم الحياة والحيوان ، والنشوء والارتقاء ، بحثًا خلف هذه العلاقات والتطورات والأسباب . ويسأل القرآن الإنسان :

«ألم تر أن الله يزجى سحابًا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقرب الله الليل والنهار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» .

فالسحب وتحركاتها ، والأمطار وعلتها . والبرق ومنشؤه والبرد ومبعثه ، والليل والنهار وتعاقبها ، كل ذلك يجب أن يكون محل تأمل وتدبر وتنبع وتقص ، للاعتبار والتعليم . وهذا يجعلنا فى صميم الجغرافيا الطبيعية والفلكية « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » واستقصاء تحركات الشمس والأرض والقمر ومنازل كل منها ، وميعاد ذلك ، واحتفاظها بما بينها من الأبعاد مع ارتباطها معًا فى حركات مشتركة . كل هذا يجعلنا فى صميم الفلك وعلومه وتفرعاته ومباحثه وما تؤدي إليه من رياضة وحساب وقياس وهندسة . بل إن القرآن ليشير إلى ذلك على سبيل القطع فى قوله « هو الذى جعل لكم الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » . ويقول القرآن الكريم « قد خلقت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ويكرر هذه الدعوة للسياحة والمشاهد والاعتبار ، بحيث يؤدي الانصياع إلى أوامره إلى حذق علوم التاريخ ، والجغرافيا السياسية ، وعلم الآثار والتنقيب والجغرافيا .

وهكذا لم يدع القرآن فنا من فنون العلم إلا ودفع الإنسان دفعاً لتحصيله وحذقه . وما من فرع من فروع المعرفة البشرية إلا وفى القرآن بذرته . فلا عجب أن كان جميع علماء المسلمين يصعدون ما يكتبونه من علوم وفنون وآيات من القرآن هى لب ما يكتبون ومخبر ما فيه يبحثون .

### القرآن يعلى سلطان العقل وبراهينه

على أن القرآن إذا كان قد حث الإنسان على إرهاف حواسه وتنشيطها ، وتسريح بصره وملكاتة ، لتؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، فقد بين القرآن أن هذه الحواس فى نهاية الأمر يجب أن تكون خاضعة لسلطان العقل ، ومنطقه . فالعقل الإنسانى هو أسمى ما فى الإنسان بل أسمى ما فى الوجود من مخلوقات . فهو الحاكم الأخير ، وهو المسيطر . وهو صاحب القول الفصل . وقد شرفه الله وأعلى من قدره فجعله محل الخطاب والتكليف . واستشهد به واحتكم إليه . فما من آية من آيات القرآن عرضت لشأن من شئون الكون وسنة من سنن الخلق لا تبدأ أو تنتهى بالإشارة إلى العقل ومخاطبة ذوى العقول مقدمة البرهان على ما تقرر ، أو البرهان على فساد ما تنفى فدل ذلك على أن لكل قضية برهاناً ودليلاً ، لا يقبلها العقل إلا مشفوعة به . فإذا تجردت من الدليل كان العقل فى حل من القطع بها . وإذا قام الدليل على عكسها أصبح العقل فى حل من إنكارها ، بل تحتم عليه ذلك . فالقرآن يجابه المشركين القائلين بتعدد الآلهة وبتقديس الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، والزاعمين عن الكون وخلقه وتدبيره مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان ، يتحدى هؤلاء جميعاً ويطلبهم بالبرهان على صحة ما يقولون . والأسس العلمية التى تقوم عليها مزاعمهم وأوهامهم وإلا كانوا كاذبين وملففين وناسبين إلى الله ما هو منه براء ؛ فيقول القرآن الكريم « اثبتنى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

وفى نفس الوقت الذى يتحدى فيه القرآن المشركين بتقديم البرهان الذى يقبله العقل على تعدد الآلهة . فإنه يقدم الدليل على وحدانية الله ، وتزهره عن الشريك والولد والقرين والمنافس . وذلك بقوله « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » فإذا طلب العقل مزيداً من الشرح فساءل لماذا يفسدان ؟ أجاب القرآن : « إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يشركون » فلو تعددت الآلهة لاضطرب الكون وهاج وماج . ولتناثرت الكواكب واختلت السموات . إذ يحاول كل إله أن يستقل بما

خلق ، وأن يستعمل على خلق الآخر ، وذلك على عكس ما نراه في الكون من اتساق واطراد ، وسن محكمة لم يتطرق إليها الحلل أو الاضطراب منذ كان العقل عقلاً في هذا الوجود . وهكذا فتح القرآن الباب على مصراعيه للقضايا العقلية . وأن لا حظ على العقل من أن يفكر فيما حوله من مخلوقات الله ويثبت بعقله كما يشعر بوجوده قيام الخالق ووجدانيته وأزليته ، وتلك هي أم المسائل على الإطلاق وأسماها وجوهرها . ومنى بلغ العقل هذا المدى من التفكير والتنقيب والتحرر والانطلاق ، فلن يكون وراء ذلك موضوع يستعصى على العقل الخوص فيه ، أو يرتفع عن متناول قدرته . وقد كان القرآن وهو يقرر للعقل هذا الحق إنما يحدث في حياة البشر ثورة وانقلاباً ، ويهـ السبيل إلى ما وصل إليه البشر وما سيصلون إليه من علم وفير غزير . فقبل نزول القرآن كان الكهان والقساوسة وسدنة الأصنام والأوثان يخطرون على البشر تناول هذه الموضوعات العليا بعقولهم . بل كانت دعوتهم أن «أصع سراج عقلك واعتقد وأنت أعمى» ومن لم يفعل ذلك فهو ملحد كافر . فكان من جراء ذلك أن تفشى الجهل وعم الظلام . وحلت بالإنسان النوائب والمصائب ، واغتالت الغوائل . ومادت الدنيا تحت أقدامه ، حتى صور لهم الجهل أن الحياة توشك على الزوال . حتى إذا كان القرآن تبدد هذا الوهم ، وزهق هذا الباطل ، وارتفع سلطان العقل . وشرف قدره ، وحرر من عقاله ، وجعل مناط التكليف وآية الإيمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين هو العقل فن لا عقل له لا دين له» .

### محاربة القرآن للجمود والتقليد

وكان طبعياً وقد ارتفع القرآن بسلطان العقل إلى هذه الذروة أن يقضي على كل سلطان غير سلطانه . ليكون في انفراده توحيد الأساس الذي يقوم عليه الحق والعلم . فحارب القرآن التقليد والجمود على معارف السلف بكل شدة إذا كان فيها ما يخالف العقل والحق والنصواب . وندد بالقول القائل بوجوب اتباع الآباء وتقليدهم في آرائهم ومعتقداتهم ، وكل ما لا يطابق العقل من علومهم ومعارفهم ، وما لا يثبت على النقد والتمحيص . فقال وقوله الحق «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» وقوله «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين» وهكذا وضع القرآن هذا الأساس الوطيد والركن الركين لقيام المعارف البشرية ، وهو أن لا ينقل الخلف عن السلف إلا ما طابق العقل وحقق المصلحة ، وجاء بالفائدة ، أما



النقل لمجرد النقل والتقليد ، والزعم بقدسية العادات والتقاليد ، فزعم باطل وهو آية من آيات الجهل والخمول ، وما أصيب مجتمع من المجتمعات بهذا الداء ، داء الجمود إلا وأصابه الفساد والتعفن ، وأشبه الماء الراكد الذي لا يلبث أن يكون مباءة للأقذار والأمراض والحشرات . إنما خلقت الحياة لتتطور وناموس الحياة هو التطور والانتقال من حسن إلى أحسن ، ومن معرفة بسيطة إلى معرفة أرقى وأكمل ، ومن أنظمة ساذجة خشنة إلى أنظمة أحكم وأوفق .

وليس أدل على ذلك من تطور الديانات والكتب السماوية ، فلو لم تكن البشرية في تطور مستمر لما كان هناك داع لتغيير هذه الكتب السماوية ، وما تتضمنه من أحكام . ولكانت الشريعة اليهودية هي الشريعة الواجبة الاتباع ، وهي حجة اليهود في تمسكهم بدينهم . ولكن الله الذي خلق الخلق وابتدع سنة الحياة وجعل سنتها التطور والارتقاء . قضى أن لا يصلح كتاب قديم لعصر جديد وحياة جديدة . فكان دين جديد وكتاب جديد وهو المسيحية . حتى إذا دار الزمن دورته ، وأصبح العقل البشري أكثر كمالاً ورقياً واستعداداً لتلقي معجزة العقل الكبرى ، وهي القرآن ، جاء الدين الإسلامي ناسخاً لكل ما سبقه من الأديان . وجاءت أحكامه أكثر انطباقاً على حاجات البشر بعد أن تطورت مداركهم ومعارفهم ، ونضجت عقولهم ، وتطورت معيشتهم . ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يؤكد هذه السنة ، سنة التغيير والتبديل المستمر ، تبعاً للتطور نحو الأحسن ، فجعل أحكام القرآن نفسها تتطور وفق الظروف الجديدة . وما حققه المجتمع الإسلامي الناشئ من نضوج واستعداد لتلقي أحكام جديدة وتعديل أحكام قديمة فنزل من الآيات ما ينسخ آيات سابقة ، وجاءت أحكام معدلة لأحكام سالفة . وفي ذلك يقول القرآن « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »<sup>(١)</sup> .

ولم يكن عسيراً على الله أن ينزل أحكامه مرة واحدة . وأن يلزم بها المؤمنين جملة واحدة . ولكن شاء أن يعلمهم التطور والتدرج والترقي في معارج الكمال .

ولما كان القرآن قد أريد به أن يكون آخر كتاب ينزل للناس . فقد جعله الله مقصوداً على القواعد الكلية التي هي بمثابة السنن الكونية ، التي لا يلحقها تغيير ولا تبديل . والتي تصلح لكل زمان ومكان مع تعديلات في التفاصيل والعرض ، دون الأصل والجوهر . وهكذا أفسح القرآن المجال للعقول والأفهام ، ومد لها في سبيل التطور والتحرر

(١) أكثر المفسرين على أن هذه الآية تتعلق بنسخ الشرائع ، أما « النسخ والمنسوخ » في القرآن الكريم فهو موضوع بحث مستفيضة سواء بالنفي أو بالإثبات .

والارتقاء . ولم يضع للعقل قيوداً أو حدوداً أو حظوراً وكذلك الشأن في سائر مواهب الإنسان . وما أكثر ما تضمنت آيات القرآن ما يشير إلى هذا التطور والارتقاء ، وما يطرأ على علوم البشر ومعارفهم من حين لآخر من انقلابات . كقوله في إحدى الآيات «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون» فدل بهذه الفقرة الأخيرة على أنه ستكون وسائل جديدة للمواصلات غير الخيل والبغال والحمير ، مما لا يعرفه أهل ذلك الزمان الذين أنزل بلسانهم القرآن . ويقول في آية أخرى «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وتلك آية تتسع لكل ما رأينا ، وما سنرى ، ويراه أحفادنا من بعدنا ، من آيات في العلم بينات ، تبتدع في كل يوم معجزة جديدة . تشهد بما في الكون من منظم مدبر أحكم أجزاءه ، وأودعها أسرارها .

وهكذا غرس القرآن في نفوس المؤمنين به ، وقارئيه ، في وعى وإدراك . مزية التطلع والتشوف لما يبعث به الزمان ، وكبرهم في الجمود والركود والتزام القديم في غير تثبت أو برهان ، والاستمسك بما ظهر على الأيام بطلانه وفساده وعدم صلاحيته . وكثرت أضراره . وكان القرآن بذلك يقرر سنة الحضارة والعمران . ولعمري ماذا يكون حال البشر لو لم يجهزهم الله بهذه الفطرة ؟ فطرة التطور والبحث خلف المعارف الجديدة واكتشاف المسائل المجهولة ؟ أكان البشر يغادرون سيرتهم الأولى في الكهوف والأدغال ، ويفارقون معيشة الحيوان . هل كان البشر يتحررون من عبادة القط والثعبان والتمساح ؟!

### القرآن يعلى من شأن العلماء

وإذا كان القرآن قد أعلّى من شأن العقل وسلطانه ، ودل على المعرفة وطرائقها ، والعلوم وميادينها ، فقد جعل العلماء تبعاً لذلك صفوة خلقه بين عباده ، وخلفاءه على الأرض والحفاظ على أمانته ، وجعلهم وحدهم الناس ، وبقية الخلق دونهم في المرتبة والمقام فقال وقوله الحق «وما يعقلها إلا العالمون» «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فاخصهم بالإدراك والمعرفة وخشية الله ، وهى ميزة البشر ومظهر كمالهم . وقال في آيات أخرى «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» وارتقى بهم إلى الذروة التى لا زيادة بعدها فى قوله «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط» فبدأ الله بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وختم بالعلماء ، وأنهم دون سائر البشر من يشهدون لله بالقيام والوحدانية والخلق والاقتدار . وما ذلك إلا لأنهم يطالعون قدرة الخالق فى بديع مخلوقاته ، ويشهدون فى كل يوم بحكم آياته ، ويكشفون عما فى هذا الكون من سنن وقوانين وأنظمة باهرة ، تحمل الإنسان العاقل على الخشوع والتسبيح بعظمة الله .

وتاريخ العلم والعلماء أصدق شاهد على ذلك - فما من أمة ارتقى فيها العقل البشري ونبع بعض أفرادها وانفردوا بالعلم والمعرفة ، إلا وانكشفت حقائق الكون أمام بصائرهم ، فأشرفوا في ذلك على الكمال وأوفوا على الغاية . فهذا سقراط وأرسطو وأفلاطون قد عرفوا عن الحق ما سبقوا فيه البشر قرونًا من الزمان ، وذلك لكاملهم العلمي ونضوجهم العقلي ، حتى أطلق المسلمون على أرسطو بعد بضعة وعشرين قرنًا من وفاته لقب المعلم الأول ، ووجدوا في تعليمه وقواعده ما يعزز ما غرسه القرآن في نفوسهم من عقيدة وإيمان بالله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقد أثبت ذلك نفر من العلماء الأعلام في عصر كان يفيض بالوثنية والخرافات والأوهام . ولست أجده ما أسوقه لك في هذا الموضوع أنطق ولا أبدع من هذه الكلمات التي فاء بها نيوتن ، أحد العلماء العظماء ، يمجدها الله ويشهد بقدرته ويسبح بحمده وآلائه :

« لا تُشْكُوا في الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود . لأن ضرورة عمياء متجانسة في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر عنها هذا التنوع في الكائنات ، ولا هذا الوجود بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة . بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلي له حكمة وإرادة .

« من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ عن مجرد فعل الجاذبية العامة . لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها . ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد أي سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة وعلى مستوى واحد ، بدون حدوث أي تغيير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعاً . فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر فيها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها مثل ساتيرن Saturn وجوبيتر Jopiter والأرض ، وقرر السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها

حول أجسام تصح أن تكون مراكزها . إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجود (سبب) ، ليس أعنى ولا حادث بالاتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

«وليس هذا كل ما في المسألة . فإن الله ضروري أيضاً . سواء لإدارة هذه الأجرام على بعضها ، وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة الجاذبية ، أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق مع دورات الكواكب ، كما يرى ذلك في الشمس والكواكب وتوابعها ، بينما ذوات الأذنان يدور في كل وجهة على السواء .

«وغير هذا . ففي تكوين الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين : القسم المضيء منها انماز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها ، كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم اجتمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتم كالنواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له .

«وكيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواحيه ؟ والأذن بدون إلام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بارادتها ؟ من أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات وهذه الكائنات كلها في قيامها على أبداع الأشكال وأكملها ؟ ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية ، حى حكيم ، موجود في كل مكان ، يرى حقيقة كل شيء في ذاته ويدركه أكمل إدراك<sup>(١)</sup> .»

ذلك هو صوت العلم في كل زمان ومكان ، وتلك هي شهادة العلماء ، أما الجبهة فما يعلمون عن الكون إلا أن الأرض محمولة على قرن ثور ، وعندما ينقلها من أحد قرنيه إلى القرن الثاني اهتزت الأرض وارتجت وزججت فكان الزلزال . أشهد أن القرآن حق وأنه «ما يعقلها إلا العالمون»

(١) دائرة معارف القرن العشرين للعلامة فريد وجدى ص ٤٩٧ المجلد الأول .

## الفصل الثالث

### المسلمون والعلم

#### المسلمون الأوائل

لا أظنك تعجب الآن وقد بسطت لك من توجيهات القرآن ما بسطت ، وقد رفع من شأن العلم والعلماء ما رفع . لا أظنك تعجب بعد ذلك مما تطلعه في تاريخ العرب من هذه الطفرة العجيبة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ . فهي طفرة فذة في حياة البشرية ، انتقل فيها أقوام من حضيض الجهل والخمول والغفلة والقسوة والوحشية إلى سماء العلم والمعرفة ، وما يستتبع ذلك من حضارة ورفق وعز وسلطان .

لم يكن العرب إلا هذا النفر القاطنين في شبه جزيرة العرب القاحلة الجرداء المقفرة ، التي لا تزال حتى الآن مجهولة في بعض أجزائها في عصر النور والعرفان ، حيث لم يدع الإنسان شبرًا من الأرض إلا ذرعه .<sup>(١)</sup> هذه الجزيرة التي عاشت على هامش الحياة القديمة . لا يحفل من فيها بما يجري في بقية العالم . إلا بقدر ما يتذوقون بعض الأغذية والملابس الضرورية لحياتهم . وليس يحفل بهم إنسان لضالة شأنهم وفقر بلادهم ، فما هي إلا جرداء بلقع . لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تروى غير هذا النفر القليل الذين يعيشون متقلبين في أرجائها في مشقة وعسر .

ولم يكن لهؤلاء القوم مدرسة ، فضلاً عن معهد للعلوم الراقية . ولم يكن لهم قانون ولا رابط يربطهم ، يعبدون الأوثان التي لا جمال فيها ، ولا فن ، ولا تحمل أى معنى ، وإنما هو الجهل كأشد ما يكون الجهل . يقتلون بناتهم ويشتركون في نسائهم . ولا يرفعون السيف ولا يحمدون نار الحرب فيما بينهم . ذلكم هم العرب الذين لم يكد القرآن يشرق في سمائهم . وتستضىء نفوسهم وأرواحهم بأنواره ونفحاته . حتى طبقوا الخافقين بإيمانهم ومعرفتهم ، فحملوا مشعل الحق والحقيقة المجردة من كل وهم وزيف وخرافات وأباطيل ، فدان لهم الشرق والغرب ، وأسلم لهم القيادة والزمام . على أن القرآن لم يدل العرب إلا على كليات العلوم والمعارف وحثم على الاستزادة من التفاصيل والجزئيات . فما

(١) أعنى بذلك الربيع الحثالي .

كاد المقام يستقر بالعرب ، وتهدأ موجة الفتح الأولى حتى أقبلوا على ما وجدوه بين  
 ظهراني الأمم المفتوحة من علوم ومعارف ، فأطفأوا بها ظمأهم إلى المعرفة وشفوا  
 غليلهم ، وعبوا عبثاً وهضموها هضمًا . واختاروا منها الطيب والصالح ، ونفثوا الخبيث  
 والطالح ، ولم يقعدهم عن طلب العلم غرور الفاتحين أو كبرياؤهم ولا حال بينهم وبين  
 بغيتهم وجود العلم بين يدي النصارى واليهود والمجوس والصابئين من رعاياهم ذلك أن  
 العلم لا يعرف دينًا ولا وطنًا ولا جنسًا : العلم هو العلم ، غاية البشر وطلبهم ، ووسيلتهم  
 وعدتهم . وواجب الإنسان الأول الاغتراف منه قدر استطاعته . بغير نظر إلى منشئه . وفي  
 ذلك يقول معلمنا الصادق الأمين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه : « خذ الحكمة  
 ولا يضررك من أى وعاء خرجت » . ومن الأقوال المأثورة : اطلبوا العلم ، ولو فى  
 الصين . وقد صدع المسلمون بالأمر فتنافسوا فى طلب العلم ملوكًا وأمراء ، كبارًا  
 وصغارًا ، حتى أصبح فى كل مسجد مدرسة ، وفى كل مدينة مكتبة بل عدة مكتبات .  
 فيها من كنوز العلم وكتبه ما يعد بمئات الألوف . ولم يدخر الخلفاء والأمراء وسعًا فى تجهيز  
 هذه المكتبات بكل نفيس من الكتب ، من مختلف العلوم . وغالى بعضهم حتى أن  
 المأمون اشترط فى إحدى معاهداته مع امبراطور الروم أن يبعث له بنسخة من كل ما فى  
 مكتبة بيزنطة . فبلغ مقدار ما حمل من الكتب تنفيذًا لهذا الشرط حمل أربعائة بعير  
 مثقلة . وتألفت اللجان والمجامع لنقل علوم الإغريق وفلسفتهم إلى اللغة العربية .  
 فترجمت كتب أرسطو وأفلاطون وأرسيميدس وفيثاغورس وأقليدس وبطليموس  
 وجالينوس وبقرات ، فى الوقت الذى كانت تترجم فيه الكتب من الفارسية والعبرية  
 والسريانية وسائر اللغات القديمة التى رأى العرب فائدة فى النقل عنها . ورغب المسلمون  
 فيما اجتمع لديهم من معلومات ومعارف ما غرسه فيهم القرآن من رغبة فى تخرى الحقيقة  
 والتماس البراهين على مختلف القضايا ، وإخضاعها للامتحان والنقد . فصحت لديهم كثير  
 من حقائق العلوم التى نقلوها إلى لغتهم فاطمأنوا إليها واتخذوها أساسًا لمباحثهم وكفاحهم  
 العلمى ، وأبطلوا عدة نظريات أخرى ثبت لديهم بطلانها ، وصححوا وعدلوا  
 وأكملوا . فلم يكد القرن الثالث الهجرى يشرف على نهايته حتى كان العرب قد أصبحوا  
 أئمة العلم بغير منازع . واتجه البشر صوبهم ملتمسًا النور والحكمة على أيديهم . وكلما كرت  
 الأعوام كلما ازداد قدم المسلمين فى العلوم رسوخًا ، فوسعوا مناهجها ، وأغنوا مباحثها  
 وانتفعوا بتطبيقاتها . فأصبح سلطانهم العلمى وحضارتهم العقلية تفوق بمراحل سلطانهم  
 الزمنى ، على الرغم من عظم شأن هذا الأخير وبلوغه ما لم تبلغه أمة فى القديم  
 أو الحديث . فإذا كانت طلائع الجيوش الإسلامية قد وقفت عند مدينة تور فى فرنسا لم

تعداها شرقاً ، وظلت أوروبا المسيحية بذلك خارج سلطانها السياسي فإن سلطان المسلمين العلمى قد اقتحم أوروبا اقتحاماً . فقد كانت ترى المسلمين أعظم تحضراً منها وعلماً وعرفاناً ، فاضطرت للأخذ عنهم والاستضاءة بنورهم . فى هذه الأيام الخوالى لم تكن باريس ولندن وبرلين وروما وفيينا ونيويورك قد شقت طريقها للحياة بعد ، وإنما كانت مراكز العلم ومشاعله هى بغداد والقاهرة والقىروان وقرطبة ، حيث كانت المدارس والجامعات والمكتبات والمراصد والمجامع العلمية . ولم تكن النجوم اللامعة فى سماء المعارف البشرية هى أديسون وماركونى وكورى وباستور ونيوتن وشكسبير وهوجو وروسو وفولتير وديكارت وجليليو وماجلان وخريستوف كولب ونيتشه وانشتين ... إلى آخر هذه الأسماء المدوية فى مختلف العلوم والفنون ، وإنما كانت دعائم المعرفة والحضارة البشرية تتمثل فى أسماء الطبرى والكندى والبخارى وأبو حنيفة وابن سينا وابن رشد والغزالى والفارابى والرازى والجاحظ والمعرى والمتنبى وابن حزم وابن بطوطة وأبى الفدا وأبى القاسم وجابر ابن حيان والمسعودى والأدريسى وابن الهيثم وغيرهم ماثت وألوفاً فى كل فرع من فروع المعرفة البشرية والعلوم والفنون ، من جغرافيا إلى تاريخ وأدب وطب وشعر وهندسة وفلك وحيوان ونبات وفلسفة وعلم نفس وميكانيكا وكيمياء وجيولوجيا وسياحة وزراعة وتجارة وصناعة . وإذا كان التاريخ قد حفظ بعض أسماء فقد عفت الأيام على أضعاف ما حفظ ... كانوا هم ضياء العالم ومظهر تقدمه وعرفانه . وقد كانت آية تفوق العرب العلمى فى هذه العصور هو اختراعهم علوماً جديدة كالجبر والكيمياء التى لا تزال حتى الآن تحمل فى اللغات الأوروبية أسماءها العربية ، كدليل على نشأتها الأولى . كما أن كثيراً من الاختراعات التى أحدثت انقلابات فى حياة البشر كانت من ابتكارهم . فالساعة والبوصلة البحرية التى بدأت عهداً جديداً فى الملاحة البحرية ، ومكنت الأوروبيين فيما بعد من اكتشاف أمريكا والطواف حول العالم ، والتى تمخر يدها اليوم البواخر فى البحار ، والطائرات فى السماء ، كما لو كانت تسير فى طرق مرسومة ، والبارود هذه المادة التى ختمت عهداً من عهود البشر وبدأت عهداً جديداً ، وما من حقائق علمية وكشوف فنية واختراعات آلية تبهرننا فى العصر الحديث ، إلا وكان علماء العرب هم واضعو أساسها وغارسو بذرتها . ولأدع الحديث فى هذا الوطن لبعض علماء الغرب وكتابه يقولون فى شرح هذه النهضة وآثارها ومدى تأثيرها على حضارتنا الحديثة وعلومنا ، فالقوم أعرف منا بما ترك أسلافنا من العرب لأنهم هم الذين تلقوا تراثهم وتعهدهوا غرسهم فانتفعوا بالثمر .

يقول أكبر كتاب الإنجليز فى العصر الحديث هـ.ج. ويلز : « إن الأسلوب التحليلي .

والنقدى للحقائق الذى ابتدعه الإغريق قد استأنف طريقه فى ظل هذه النهضة السامية المحيرة للألباب . وسرعان ما نضجت بذور ارسطو وجامعة الإسكندرية التى ظلت طويلاً بغير حراك فى زوايا الإهمال والنسيان وأربانها توثى ثمارها . فحدث تقدم هائل فى علوم الحساب والطب والعلوم الطبيعية . ورأينا أرقام الحساب الرومانية القبيحة المعقدة تستبدل بالأرقام العربية التى ما زلنا نستعملها حتى اليوم . كما استخدم ترقيم الصفر لأول مرة . وحسبنا أن نشير إلى أن علم الجبر ليس إلا اسماً عربياً وكذلك كلمة الكيمياء . والكثير من أسماء النجوم ما زالت تحمل أسماء عربية ، تذكرنا بفتوح العرب فى السماء . أما فلسفتهم فقد كان مقدراً لها أن تبعث فلسفة فرنسا وإيطاليا فى العصور الوسطى . بل ولكل العالم المسيحى<sup>(١)</sup> .

وقال العلامة درابر الأستاذ بجامعة نيويورك : « وكان من عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا . وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس . وما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات . وذلك ما هيا لهم سبيل ابتداء الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التنصيف والتبخير ورفع الأثقال . ودعاهم إلى استعمال الريح والاصطربلاب فى علم الهيئة ، واستخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم ، وهما لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة ، كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند ، ففتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام الحسابية . وكان ذلك كله من نتائج استعمال طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا فى علم الفلك لوائح فقط . بل رسموا خرائط النجوم المنظورة مطلقين على القدر الأعظم منها أسماء عربية لا تزال تتردد فى كرتنا الفلكية . وقد عرفوا حجم الكرة بقياس درجة سطحها ، وعينوا الخسوف والكسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين . ولاحظوا أموراً بعثت نوراً باهراً على نظام العالم . واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين لاستعمال الساعة الرقاصة . وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها الهامة كحامض الكبريتيك وحامض النتريك (الفضة) والكحول . وهم الذين استخدموا هذا العلم فى المعالجات الطبية ، فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية . وهم

(١) مختصر تاريخ العالم .



الذين قرروا في الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد في القوات الميكانيكية . واصطنعوا في نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية . وكتبوا مقالات في عوم الأجسام وغرقها في الماء . وأصلحوها في علم البصريات خطأ الإغريق في قولهم إن الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره . فقالوا إن الشعاع يمر من المرئى إلى العين . وفهموا أساس انعكاس النور وانكساره وكشفوا عن طريق الشعاع المنحني في الهواء . وبرهنوا على أنا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب .

وبما يدهش كثيراً أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا ، ثم لانبث أن نراهم سبقونا إليها . فتعليمنا الحاضر في النشوء والارتقاء كان يدرس في مدارسهم ، وقد وصلوا به إلى الأشياء الآلية وغير الآلية . فكان هو المبدأ الرئيسى عندهم في الكيمياء والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية .

وأخيراً يقول عالم الفرنسيين جوستاف لوبون : « كلما تعمق المرء في دراسته المدنية العربية ، تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب . وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق ومتى درس المرء ما عمل العرب وكشفوه في العلم ، يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما انتجوا في هذه المدة القصيرة » .

ثم تحدث غوستاف لوبون عن اغتراف أوروبا لعلوم العرب بنقلهم جميع كتبهم الهامة إلى اللاتينية ، وعلى رأسها القرآن وكتب الغزالي وغيره من الأئمة . فقال :

« وأنشئت في أوروبا مدارس خصوصية لترجمة علوم العرب في طليطلة . وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمات . وعرف الغرب عن طريقها عالمًا جديدًا . ولم تفتقر الحركة في ذلك خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم يكن ما نقل إلى اللاتينية عن العربية كتب الرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم فقط ، بل نقلت إليها كتب اليونان أمثال جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس ، وهى الكتب التى كان المسلمون قد نقلوها إلى لسانهم . وقد عد لكلرك في تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية . ولم تعرف القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت من أشياء محمد . فإلى العرب ، وإلى العرب وحدهم ، لا إلى رهبان القرون الوسطى ، ممن كانوا

يجهلون مجرد وجود اللغة اليونانية ، يرجع الفضل في معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإتقائهم هذا الكثر الثمين»<sup>(١)</sup> .

في ذلك الوقت الذى يتحدث عنه هؤلاء الكتاب ، كانت اللغة العربية هي لغة العلم الرفيع ، وكان كثير من ملوك أوروبا وعظماؤها وعلماؤها وكتابها يخذقون اللغة العربية ويحيدونها . وقد حفظ لنا التاريخ بعض أسماءهم فمنهم رجار ملك صقلية وفردريك الثانى . أمبراطور ألمانيا والبابا سلفستر الثانى والفيلسوف الشهير البيرت الكبير والقس هرتموت وغيرهم .<sup>(٢)</sup>

وبلغت اللغة العربية من الشأن في هذه العصور ما حمل عالما كروجرىكون على القول في القرن الثالث عشر «إن الفلسفة مأخوذة من العرب ، ولذلك فلا تفهم إلا إذا عرفت اللغة التى أخذت منها ، ومن المحال أن نفهم ابن سينا وابن رشد بغير تعلم العربية» .

#### انقلاب حال المسلمين

ذلکم هو مدى ما وصل إليه العرب والمسلمون الأوائل من درجة رفيعة في العلوم والمعارف ، أوقفت أوروبا منهم موقف التلميذ من الأستاذ ، واللاحق من السابق . ولعلك قد رأيت من وصف مدارك القوم ومعارفهم على وجه الاختصار . وما وصف به أسلوبهم من أنه تحليلي ينزع إلى التجربة والاختبار والاستدلال . ولعلك لاحظت في ذلك كله أثر القرآن وما غرسه في نفوس المسلمين من عناصر التفكير السليم ، والجنوح إلى التماس البراهين ، هذه توجيهات القرآن ، وهذه هي حال المسلمين الذين استرشدوا بهديه وتأثروا بروحه . أن يخلف من بعدهم خلف نكسوا على رؤوسهم . ونكبوا في عقولهم ، وشلت همهم وعزائمهم ، فإذا بهم يعودون إلى الظلام الذى أخرجهم منه القرآن ، وإذا بهم يغرقون إلى الأذقان في لجة الجهل والغفلة والجمود والقعود . فيبلغ ذلك منهم ما بلغه في أمثالهم ، فيهرون من حائق . ويكتسون ثياب الذل والهوان . مستبدلين صولجان العز والسلطان بأغلال الرق والاستعمار . على أن نكتبهم السياسية ، على فداحتها . لا تكاد تبلغ عشر معشار نكتبهم العلمية والخلقية . فقد أصبحوا من كل علم ومعرفة صفر نידين ، وراحوا يتطلعون إلى غلبة الفرنج عليهم ، كنذير بانتهاء الدنيا واقترب الساعة .

(١) حضارة العرب والإسلام (كرد على) .

(٢) راجع كتاب أثر الإسلام في الإصلاح الدينى الأوروبى الأستاذ أمين الخولى؟

ولكن الأعوام مرت تلو الأعوام والأجيال تعقبها الأجيال . وكل شيء كما كان . فالشمس والقمر والليل والنهار والحياة تتدفق كأعظم ما تدفقت في أى يوم من الأيام . وليس إلا سوء الحال الذى ألم بالمسلمين وإشراق طالع الأوروبيين . ولم يكن ذلك عفوًا ولا صدفة . وليس كما يزعم الجهاال والمرجفون أن الله قد أعطاهم الدنيا وحرّم المسلمين منها لأن لهم الأخرى . فذلك وهم وضلال ، وهذه الدنيا دار سعى واكتساب وجد واجتهاد . وهى من حق الصالح العالم العامل ، حرام على الغافل القاعد الكسلان ... هذه الدنيا قد خلقها الله لتكون دار علم وعمل ، وخلق الناس فيها ليعملوا ، وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار دائبين ، وسخر لهم الفلك والأنهار ، وكل ما فى الكون من عناصر قد سخره لهم ، ووضعها فى خدمتهم لا ليقعوا فى عقر دورهم وينطووا على غفلتهم ، ويسبحوا فى جهالتهم ، بل ليسعوا وينشطوا ويحققوا لأنفسهم أقصى ما يستطيعون من كمال مادي وروحي . فالقول بأن الدنيا قد صارت من حق الأوروبيين دون المسلمين هو آية ما وصل إليه المسلمون من جهل وإسفاف وانحلال . وما دمغوا به أنفسهم من أحكام قاسية يفزع من هولها الثقلان . فقد أعلم القرآن أن الأرض ميراث الشعب الصالح . فقال وقوله الحق « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . وقال أيضًا « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمّا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

تلك هى آيات الله وهذه أحكامه وسنته ، أن يستخلف الشعب الصالح فى الأرض ، جريًا على ناموس الحياة الأكبر وهو البقاء للأصلح ، « فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . ولقد صدق الله وعده وحقق سنته مع نبيه ورسوله العامل المجد ، فنصره وأعز جنده وأجرى على يديه الفتح المبين . لا لأن الرسول رفع يديه إلى السماء وواصل الليل بالنهار دعاء على المشركين ومن يلوذ بهم . ولكن لأن الرسول نازعهم الحياة والبلاد ، وكاثرهم وقاومهم ، واستعلى عليهم . لا بقوة الروح والإيمان فحسب بل بقوة الحديد والنار والعقل والفكر والتشريع والنظام . وعلى هذا النهج سار خلفاؤه من بعده فدكوا صروح العروش المتداعية الواهنة ، وسيطروا على الجماعات التى أضربها الظلم والجهل والفتن . وآلت لهم زعامة الأرض بحق . فقد كانوا هم السابقين إلى كل تضحية وإلى كل عمل وإلى كل جد . فإذا كان المسلمون قد انقلب حالهم إلى ذلة بعد عز . وفقر بعد غنى وجهل بعد علم ، فإن الله لا يغير ما بقوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم . وقد كان أول ما غيروه واستحدثوه وقوفهم عن تسمير ساعد الجدد في ميدان العلوم والفنون والصناعات . وارثكانهم على ما ورثوه من أسلافهم الأجداد . ظانين أن ليس في الإمكان أبدع مما كان . وأن الأقدمين قد ذهبوا بالفضل كله ، واستأثروا بالعلم والمعرفة الكاملة . فليس علمًا إلا ما جاء في كتبهم .

وهذا هو مبدأ الزلل والانحراف عن الجادة فكل شيء في الحياة يسير . وكل يوم من الزمان إنما يحمل للوجود شيئًا جديدًا وكل جيل يعرف بالبدهاة أكثر من الجيل السابق ، لأنه يعرف ما عرفه هذا الجيل الماضي وما لم يعرفه مما حدث بعد انقراضه . فنحن اليوم لا نعرف شيئًا مما سيكون عليه حال الدنيا في هذه الخمسين سنة القادمة ، وما سيمر بها من تطورات وما سيجد فيها من مبتكرات واختراعات ، وما يوفق إليه العلم من كشوف وانتصارات وسنعرف منها بمقدار ما نحياه فيها من أعوام ولكن أبناءنا بعد خمسين سنة سيعلمون ذلك كله زيادة عما نعلمه . فالقول بأن الأقدمين قد ذهبوا بالعلم كله هو قول العاجز الكسلان الذي لا يريد أن ينشط أو أن يعمل أو أن يجاهد . فالفضيلة هي الفضيلة في كل زمان ومكان . والعمل الصالح متاح لكل إنسان . وما على الفرد إلا أن يسعى ويكسح ، فليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يخزاه الجزاء الأوفى .

### تقدم الغرب ووقوف الشرق

كان هذا الأصل الفاسد الذي ركن إليه المتأخرون من المسلمين . هو الذي قوض بنيانهم الشامخ من العلوم والمعرفة فقد جمدوا ووقفوا عن التقدم إلى الأمام ومن يقف تدسه الأقدام لأن كل ما في الحياة يسير وهكذا فقد عطل التقليد والاكتفاء بالنقل عقولهم عن التفكير ، مكنتية بالحفظ والتذكير . وبعد قليل عجزت العقول عن أن تحفظ وتذكر كل ما كتبه الأقدمون وألفوه ، وهو موسوعات ضخمة لا يكاد الإنسان يقوى على حفظ مجرد أسماء أجزائها ، فبدأت الأجيال اللاحقة تجتريء من هذا البحر العميم من الكتب والمؤلفات بمختصرات يقوى العقل على حفظها ، وبدأ التدهور والانحطاط . فكل جيل يختصر ما وصله عن الجيل السابق ليتمشى مع مقدرته في الحفظ ، حتى أصبح ما في يد الأجيال المتأخرة في القرن العاشر والحادي عشر ، والثاني عشر الهجري ، قشورًا تافهة ، ومعلومات خاطئة . وأكاذيب وأضاليل وترهات وخرافات ينسبونها للإسلام والإسلام منها براء . في الوقت الذي كان فيه أبناء أوروبا قد انتفعوا بما حصلوه من علوم العرب ، وأزهر العلم بين ظهرانيهم وأثمر . فكثر العلماء بين صفوفهم وتوفروا

على البحث والدرس والتأمل والتدبر والاستدلال والاستقراء ، والتجريب والاختبار ، والانتشار في الأرض التماسا للمعرفة واكتشافا للمجهول . فانتهاوا إلى ماينتهى إليه كل مُجدٍّ وعامل ، فنجحوا وعزوا وسادوا وطاروا على أجنحة علومهم كل مطار ، فاكشفوا عوالم جديدة وذرعوا البحار دائرين حول الأرض واعتكف فريق منهم في معاملهم فحبسوا أنفسهم عن كل مافي الحياة من ملذات فلا طعام لهم إلا لقمة ، ولا شراب إلا جرعة ، وإنما كل لذتهم وكل همهم فيما يقومون به من أبحاث وحسابات وأرقام فكان ثمره كفاحهم هذا الذي نراه حولنا وفوقنا وتحت أرجلنا . وعلى أجسادنا وفي بيوتنا وطعامنا وشرابنا ففي كل ذلك أثر من آثار علوم القوم التي أصبحنا لها اليوم محتاجين لاتستقيم حياتنا إلا بها ، بل إنا لنلمح أثر ماوصل إليه القوم حول أعناقنا في هذه الأغلال التي كبلونا بها والتي ماكننا لنقع فيها لو كنا على شيء من العلم والجد والعزم . وقد حاول هذا الغرب أن يكبل اليابان بنفس القيد الذي كبل به العالم الإسلامي عن بكرة أبيه ، فقرعها قرعة أولى ليعجم عودها فهبت من سباتها . واستيقظت من غفلتها . وأدركت بذكائها وعبقريتها أن هذه الشعوب لم تتمكن من التفوق عليها إلا بنور العلم الجديد وقوته ، فألت على نفسها أن تحيط بهذا العلم الجديد في أسرع وقت فحاسنت الغرب وصانعته ، وأوفدت إليه الوفود والبعوث التي نقلت إليها كل ما لدى القوم من علم وفن وصناعة ، فما هي إلا عشية وضحاها حتى كانت اليابان أمة في عداد الأمم القوية ، ترد الصاع صاعين وتقرع الفولاذ بالفولاذ وترد للغرب بعض ديونه عليها ، وتشبك اليابان اليوم في حرب ضروس أشعلتها ضد أعظم قوتين في العالم ، وهما إنجلترا وأمريكا ، وقد تكسب اليابان الحرب أو تخسر ولكنها على كلتا الحالتين لن تكون إلا أمة عظيمة وبين أمم العالم العظمى <sup>(١)</sup> .

فلو أن سائر الأمم الإسلامية الشرقية فهمت من أمر الغرب مافهمته اليابان ، ولو أنها قبل تفاقم أمر الغرب حاولت أن تلحقه في علمه وصناعته ، وأن تحاذيه وتنافسه وتساو له وتجاوله . لما تباعدت الشقة بين الاثنين هذا البعد الشاسع فأصبح الغرب حيث هو مخلقا في السماء . والشرق يتخبط في دياجير الجهل والضعف والاستعباد .

### علوم دينية وأخرى كونية

ولكن الجمود والجهل كانا قد رانا على قلوب المسلمين المتأخرين . وبالأخص هؤلاء

---

(١) كتبت هذه الرسالة كما هو مفهوم قبل انتهاء حرب اليابان بالصورة الشيعة التي انتهت إليها ومع ذلك فستبقى اليابان أمة حية قوية بالرغم من هزيمتها وسوف تثبت السنوات المقبلة صحة ذلك .

الذين ادعوا إمامتهم وزعامتهم الروحية والفكرية . فقد افترؤا على الله والحق والإسلام فادعوا دعوى منكرة مفادها أن العلوم تنقسم إلى قسمين علوم دينية وعلوم كونية وأن الاشتغال بالعلوم الدينية فقط هو الحقيق بالجد والاجتهاد . وهو الذى يخلع على المشتغل به لقب العالم الذى عنه القرآن وأن الاشتغال بغير العلوم الدينية هو رجس من عمل الشيطان ، يؤدى بصاحبه إلى البوار والخسران وآية ذلك أن الأفرنج قد اختصوا بهذا العلم وبرعوا فيه وما ذلك إلا لأنهم قد وقعوا فى أحابيل الشيطان . وما اشتغل به الفرنج فهو على المسلمين حرام والقول بغير ذلك زيغ وإلحاد وفساد فى الأرض كبير . ذلك قولهم ، وهذا بهتانهم وأشهد لقد كذبوا وادعوا وجاءوا بالزور والمنكر . وقالوا على الإسلام والقرآن قولاً كبيراً . فلا القرآن ولا الرسول قالا بهذا التقسيم المزعوم ولا خلفاؤه ولا التابعون أو تابعو التابعين ، فالقرآن لا يتحدث إلا عن العلم المطلق . بغير قيد أو شرط ، ولا يذكر العلماء إلا بعد ذكر سنن الكون ومظاهره كقوله « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف ألستكم وآلوانكم لآيات للعالمين » ولا يعرف شيئاً عن السموات والأرض واختلاف الألسنة . واختلاف الألوان والأجناس وطبائع البشر . إلا العلماء بالجغرافيا والفلك والطبيعة ، وقد دعا الرسول إلى التماس العلم حيث كان ، ودعا إلى تعلم اللغات الأجنبية . فكان له من كتابه من يخذق اللغة العبرية وقال وهو الصادق الأمين « من تعلم لغة قوم آمن من شرهم » فقد ورد عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود (أى كتابتهم) قائلاً إني والله ما آمن يهود على كتاب ، قال فما مرى نصف شهر حتى تعلمته له ، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليهم قرأت له كتابهم<sup>(١)</sup> . وليس وراء ذلك فتح لباب العلم على مصراعيه أمام المسلمين وعلى هذه السنة سار خلفاؤه من بعده وصحابته الذين انتشروا فى الآفاق ، فتعلموا كل ما صادفوه فى حياتهم من علوم . وحسب الإنسان أن يفتح كتاباً من كتب تفسير القرآن الأولى ليجد فيها كل علوم ذلك الزمان ، مختلطة ممتزجة ، حتى إذا أوغل المسلمون فى العلوم والمعارف بدأت فروع العلوم المختلفة يستقل بعضها عن بعض ، ويتسمى كل منها باسم خاص ولكن دون أن يستغنى أحدها عن الآخر فثمة علم للحديث وقواعد التحديث وشروط الإسناد وتبعية الرواية ، وتوثيق الرواة أو تجريحهم ، وعلم خاص بالتفسير ومعرفة مناسبات النزول والناسخ والمنسوخ وعلم خاص باستخلاص الأحكام من القرآن والسنة والقياس عليهما وهو الفقه ، وعلم لقواعد اللغة هو النحو ، وعلم بسيرة الرسول والصحابة هو علم السير

(١) رواه الترمذى بسند صحيح .

والتراجم ، وعلم بكيفية تقسيم الميراث هو علم الفرائض ، وعلم بجباية الأموال من خراج وزكاة وغنائم هو المالية ، وما من علم من هذه العلوم إلا وهو محتاج لبقية العلوم الأخرى ، من حساب وهندسة وفلك وجغرافيا وتاريخ وطبيعة ، وإلا فكيف يحسن تقسيم الموارث من لا يكون بارعا في الحساب ؟ وكيف تحدّد مواقيت الصلاة وتعين مختلف أيام الصوم والحج ما لم يكن هناك إلمام بالفلك ؟ وكيف تفهم آى القرآن وتُفسّر ما لم يكن هناك إحاطة تامة بالتاريخ العام ؟ فقصص بنى إسرائيل وفرعون مصر وسليمان ومملكة سبأ وعاد وثمود وقوم لوط وذى القرنين إلى آخر ما حكاه القرآن من أحاديث الأمم الخوالى هى التاريخ ، ولا تفهم إلا فى ضوء معلومات التاريخ ؟ وكيف يجاهد المسلمون وينشرون عقيدتهم فى العالمين ما لم يكونوا على معرفة بكل ما يجرى فى العالم وما فيه من شعوب ، ليعرفوا العدو من الصديق ، وهذه هى الجغرافيا فليس هناك حد فاصل بين علوم وعلوم ، ومن علم فرعاً لا يلبث أن يجد نفسه مضطراً لتعلم بقية الفروع ، فالمعرفة يكمل بعضها بعضاً ، وترجع كلها إلى أصل واحد وينبوع واحد هو المعرفة ، ولم يخلق الله إلا معرفة واحدة وحقيقة واحدة . وأخيراً كيف يمكن أن يقوم الدين فى غير جماعة ، وكيف تقوم الجماعة بغير الصناعة ، وما هو السبيل لقيام الصناعة إلا بتوافر سائر فروع العلم على اختلافها ، فالقول بأن الجماعة يمكن أن تستغنى عن علم من العلوم هو بمثابة تعجزها بقطع عضو من أعضائها ، فلا تلبث أن تصبح قعيدة كسيحة ، والحيلولة دون العقل وغذائه ، من العلوم والمعارف المختلفة ، لا يلبث أن يصيبه بالشلل والخمود ، فلا عجب إذا انتهى حال المسلمين المتأخرين بفقد العلم جملة ، وأن يصبح الأوروبيون لا المسلمون هم الأكثر معرفة بتراث المسلمين العلمى ، وهم الذين يعنون بهذا الكثر الثمين ويتحمسون له ، ويعيدون طبعه وينشرونه على الناس ، وأعنى بالناس العلماء من الأوروبيين ، لأن الشرقيين كانوا قد أصبحوا عن كل ذلك فى جهل وغفلة ، وكلما طالع العلماء من أبناء أوروبا آثار السلمين القدامى كلما امتلأوا حاسة لمعرفة كل شىء عنهم ، مدفوعين بهذه الجذوة الربانية ، وهى حب العلم والمعرفة لأجل العلم ، فساحوا الأقطار وجاسوا خلال الديار من مشرق الدنيا ومغربها بحثاً خلف الكتب العربية التى أهملها أصحابها ، واجتمع لديهم بعد قليل من الزمن مكنتات فاخرة من مخلفات العرب اعتزت بها دور الكتب العامة فى باريس ولندن وفيينا وبرلين ومدريد ، وتألفت فى جامعاتهم الأقسام العلمية للتخصص فى دراسة اللغة العربية وتراث العرب ، وقام بالتدريس فى هذه الأقسام علماء فطاحل أمجاد ، واصلوا الليل بالنهار فى سبيل حذق اللغة والفقه وعلوم الإسلام ، فوضعوا الفهارس والكتب التى تعين على الإحاطة بفروع الدين

الإسلامي ، فثمة فهرس لآيات القرآن مرتب بحسب الموضوعات . ومفتاح آخر لجميع كتب الحديث أطلق عليه مفتاح كنوز السنة ، يستطيع الإنسان بواسطته أن يستدل على أي حديث ، وأخيراً دائرة معارف إسلامية تجمع بين دفتيها كل ما يتصل بالمسلمين وتاريخهم ودينهم وأنظمتهم وعلومهم ، ووقفنا نحن الذين قدر علينا أن ننفض عن رؤوسنا غبار الخمول ، وأن يجري ماء الحياة من جديد في عروقنا ، وقفنا مذهولين مدهوشين لهذا الجهد الجبار الذي يبذله غير المسلمين في معرفة دين المسلمين وعلوم المسلمين وتاريخ المسلمين ، فلم يسعنا إلا أن نحني الرأس إعجاباً وإكباراً ، وأن نجلس منهم مجلس التلميذ ، لا لتلقى عنهم آخر ما تطور إليه العلم الحديث ، ولكن لتتعلم منهم قبل ذلك تاريخنا ونلم بترائنا ، فكانت لنا بعثات لدراسة اللغة العربية في لندن ، وبعثات من الأزهر في برلين<sup>(١)</sup> . لزيادة التفقه في كتب الدين واستقدمنا علماء من القوم لتدريس آداب اللغة العربية وتاريخها في جامعتنا ، وبدأنا ننقل عنهم ونترجم كتبهم وعلومهم ومعارفهم عن ديننا ولغتنا وتاريخنا وتراثنا ، ولا عيب في ذلك ، وإنما العيب ألا نفعل ، وإذا كان ذلك مر المذاق على نفوسنا فيجب أن نختمه في صبر ، ففيه الدواء ولا مناص من تصحيح أخطاء الماضي واستدراك ما فات ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستفادة مما حذقه القوم وبرعوا فيه وسبقونا إليه .

### نقل العلم الحديث بروحه

وإذا كان من الحق علينا مرة أن نستفيد بجهود الغرب في الوقوف على تراث أجدادنا ، فإن من الحق مائة مرة أن لا ندخر وسعاً في نقل آخر ما انتهى إليه العلم الحديث في مختلف فروعهِ ، وهو ما شرعنا في القيام به منذ عهد محمد علي ، ولكن على الرغم من مرور قرن من الزمان على هذا النقل فلا نزال دون الغاية بمراحل ، ذلك أن ظروف مصر السياسية قد اقتضت أن يظل التعليم فيها عقيماً لأكثر من نصف قرن . فلا يعطى للطلاب أكثر من قشور ، ولا ينظر الطلاب للعلم إلا كوسيلة للحصول على شهادة تحوّلهم الحصول على وظيفة من الوظائف ، فإذا تحقّق غرضهم أعرضوا عن العلم وتنكروا له ، ولم يحتفظوا في ذاكرتهم منه إلا بالقدر الذي يحفظ عليهم وظائفهم . وهذا ما جعلنا حتى الآن وبعد هذا الزمن الطويل لا نزال في أول الشوط ، وإن كنا قد استكملنا العناصر التي تمكّننا . بشيء من العزم ، أن نقطع الشوط الذي قطعه أوروبا ، وأن نبليغ نهايته بعد أن صارت لدينا المعاهد العلمية الكبرى التي يمكن للعلم أن يزدهر بين ربوعها ويؤتي

(١) بعثة الشيخ محمد عبده - كلمة عن محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ..



ثمارة الناضجة ، وأهم ما ينبغي علينا القيام به فوراً هو أن ننقل إلى لغتنا مختلف دوائر المعارف الأوروبية والأمريكية ، العامة والخاصة ، وأعني بالعامة هذه التي تتعرض للعلوم وشتى المعارف على سبيل الاجمال ، والخاصة هي التي وضعت لكل علم ومادة على حدة كدوائر المعارف الخاصة بالصناعة أو الخاصة بالكهرباء والذرة ، والفضاء ، أو لفرع من فروعها كاللاسلكى . فهذه الموسوعات الفنية يجب أن تترجم بنصها إلى لغتنا ليكون في متناول كل ناطق بالضاد هذا البحر الزاخر من العلوم والفنون ، ولكي نكون على ثقة أنه قد صار في أيدينا كل ما لدى القوم فنستطيع بعد ذلك أن نعلو بيناتنا ، وأن نهيم الطريق لمستقبلنا العلمى المجيد .

### نقل العلوم التطبيقية (الصناعية)

على أن العلم الحديث لم يعد كما كان في القديم مجرد أفكار ونظريات تسطر على الورق ، ويكفى مجرد النظر في الكتب للإحاطة بما لدى البشر من علم ، وإنما قد صار العلم اليوم في جزئه الأكبر والأهم عملياً يجرى في المعامل ويطبق في المصانع ، بحيث لا يمكن الإلمام به إلا بعد النظر لتطبيقاته ، والانتفاع بثمراته العلمية ، وهى هذه الفنون والصنائع ، وليس هناك ما يحملنا على الشهادة للغرب بالتفوق علينا مادياً وأدبياً إلا ما نراه من صناعاته الباهرة ، التى لا يزال السواد الأعظم منا يتصورها من صنع الجن والأبالسة أو من صنع قوم ليسوا على كل حال من طينة البشر . هذه الصناعات هى أول ما يجب أن ينقل إلى بلادنا ، علماً وعملاً لنحقق لأنفسنا ما نريد من الرقى العلمى ، فضلاً عن الرقى المادى والسياسى ، فليس هناك ما تنشط له جميع قوى الذهن وملكاتة غير الصناعة ، ولن يستطيع شعب بغير صناعة أن يكون على درجة رفيعة من العلم ، لأن الصناعة بطبيعتها هى فن تحويل المادة ، هى اصطناع شىء من شىء آخر ، هى قوة الخلق والإبداع ، والعقل المبدع المبتكر هو وحده الذى يستطيع أن يفكر وأن يخترع وأن يكتشف وأن يرقى ويتطور ، ويصل إلى أعلى مراتب الكمال . وهناك علوم لا يمكن فصلها اليوم عن تطبيقاتها كعلوم الكهرباء واللاسلكى ، فهى لا تدرس بصورة مجدية إلا في مصانع منتجاتها ، والمصانع الحديثة اليوم هى معاهد كاملة لخدمة العلوم والفنون التى تقوم عليها ، وما من مصنع إلا وقد ألحق به معمل للاختبارات والمباحث ، وما من معمل من معامل العلماء إلا وهو فى حقيقته مصنع من المصانع ، لما يضم من آلات وورش وما يخرج من منتجات فلا مناص من نقل الصناعات الحديثة برمتها ، صناعات الكيمياء والفولاذ والكهرباء والأليكترونات ، لا لاختبار ثمرات العلم التطبيقية فحسب ،

ولكن ليخرج من بين جذراتها العلماء والمخترعون والمكتشفون .

### العلم وحرية العلماء

على أننا لن نخطو خطوة واحدة في سبيل الرق العلمي المنشود ، إلا إذا تعلمنا كيف نحب العلم ، وكيف ننظر للمعرفة كمثلنا الأعلى وغاية الغايات من حياتنا . فيوقف الكثيرون منا ما لهم وجهدهم وحياتهم على طلب العلم والاستفادة منه والتعمق فيه ، كما كان يفعل أجدادنا الأقدمون . حيث كانوا يسافرون الشهور الطوال ، على ظهر الإبل تارة ، ومخترقين البحار تارة أخرى ، للتثبت من حديث من الأحاديث ، وقول من الأقوال كما يفعل الأوروبيون اليوم أو يعرضون حياتهم للأخطار والمهالك ، لتحقيق مسألة من المسائل أو اكتشاف مجهول من المجاهيل .

ولن نكون محبين للعلم ، وطلاباً حقيقيين للمعرفة ، إلا إذا عرفنا كيف نطلق للعلماء كل حرية . فلا نخطيئهم بقيود أو شروط ، ولا نضع في سبيلهم العقبات المادية أو المعنوية ، فلا يضطهد أى عالم لرأى يسوقه ، أو نظرية جديدة يبدئها ، وإنما نتقبل بصدر رحب كل رأى وكل فكر وكل قول أدى إليه البحث العلمى التزيه ، وهذه الحرية العلمية هى الشرط الأساسى لتطور العلم .

لا يزال فى بلادنا أقوام يقومون ويقعدون لكل رأى يخالف آراءهم ومعتقداتهم ، وينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور لأن كاتباً من الكتاب قد قال كذا وكذا مما لا يتفق والدين ، وأن كتاباً من الكتب يحتوى طعنًا على الدين الإسلامى ، ومع ذلك فهو يوزع على الطلبة الجامعيين إلى آخر هذه الضججات والثورات التى تقوم من حين لآخر فى بلادنا ، والتى إن دلت على شىء فعلى فقدان الثقة بالنفس وأن سحب الجهل والجمود لا تزال تحجم على البلاد . وإن بنيتها ونفسيها لا تزالان مريضتين ، إن الحقائق الثابتة هى التى لا يؤثر عليها النقد . ولا تنال منها المعارضة ، ولا تجرحها المناقشة ، ولكن ذلك كله يجلوها ويزيدها رسوخًا وثباتًا ، الحقيقة العلمية تنبثق من جوف الظلام كعمود من النور ، ولا يمكن أن يحجبها حجاب أبدًا ، ما العلم إلا نور الله فى الأرض ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون ، فليطمئن إذن المؤمنون لعقائدهم ، والواثقون بمعارفهم ، إلى ما يعتقدونه ويثقون به ، وليقبلوا على كل رأى ، وليسمعوا كل قول ، وليخوضوا فى كل بحث مهما بدا لهم منكراً وغريباً ، فإن كان الحق بأيديهم فلن يزيدهم الباطل إلا يقيناً ، وإن كان الحق مع معارضيتهم فالفضل كل الفضل فى الرجوع إلى الحق ، وهذا هو السبيل لازدهار العلم ونموه وتطوره ، وبغيره يموت العلم ويسود

الجهل ، لأن العلم ثمرة الآراء المتعارضة والأفكار المتضاربة والنظريات المختلفة ، وما من فكرة من الأفكار حتى ولو كانت خاطئة ونخالف الحقيقة إلا ولها أثر في الوصول إلى الحقيقة ، فالقول بأن الأرض مسطحة كان هو الأساس الذي بدأ منه البحث لإثبات أن الأرض كروية والقول بأن الشمس تدور حول الأرض كان هو نقطة البدء لمن أثبت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، ذلك أن العقل في حاجة دائماً إلى أساس يبدأ منه بحثه ، فإذا كان هذا الأساس خاطئاً فإنه لا يلبث أن يكتشف خطأه واكتشاف الخطأ يهدي إلى الصواب حتماً .

وكم من الحقائق العلمية والاكتشافات الأدبية لم تأخذ طريقها إلى الحياة إلا في أثناء الرد على بعض المخالفين وتمحيص بعض النظريات الخاطئة ، كم من عالم هرع إلى معمله ليثبت فساد نظرية جديدة ، فإذا به يخرج على الدنيا بكشف فريد ، ولولا النظرية الفاسدة لما طلع على الدنيا هذا الكشف الجديد .

ويجب أن تأخذ الحرية العلمية أوجها بين جدران الجامعات والجامع العلمية والمعاهد العلمية فإذا جاز في بعض الظروف والأحوال النادرة - لسلام الجماعة وأمن الدولة - أن يحال بين بعض الآراء وبين أن تداع على جمهور الشعب غير المستعد لسماعها وأن يروج لها - أقول إن جاز ذلك في بعض الأحيان والتجأ إليه بعض الحكام - فإن مما لا يجوز بحال من الأحوال وما يعتبر جناية على العلم ما بعدها جناية هو أن يتعرض لحرية الجامعة العلمية ، ولما يقول به أساتذتها بين جدرانها من آراء ونظريات والجامعة التي تضع على العلماء والأساتذة بها أى قيد من القيود على تفكيرهم ونظرياتهم العلمية ، هي جامعة لا تستحق هذا الاسم ، وأخلق بها أن تسمى مدرسة للصبيان . لا معهداً من معاهد العلم العالى ، حيث تنمو المعارف البشرية وتزدهر وترعرع .

### محاربة الأمية

على أنه لا نقل العلوم والصناعات برمتها ، ولا إطلاق الحرية العلمية للجامعات للقيام بوظيفتها ، بكاف للتطور بالمجتمع تطوراً حثيثاً نحو الحياة العلمية الراقية ، لو ظل السواد الأعظم من الشعب أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ذلك أن العلم لكي ينتشر يريد ميداناً فسيحاً من العقول المستنيرة ، وعدداً عظيماً ممن يقدرون على القراءة والكتابة والتفكير السليم ، فليس يكفي أن ينفرد شخص بالعلم والنبوغ وسط جماعة جاهلة ، لأن جهلها لا يلبث أن يطفئ نور علمه ، كما كان الحال في عصور أوروبا الوسطى ، حيث كان العلماء والمفكرون يلقون على يد السواد الأعظم من الشعب ممثلاً في شخص الكنيسة

ورجال الدين كل أذى وشر ، انتهى بالكثيرين منهم إلى المحرقة والمقصلة ، مما أصاب العلم بضربات مميتة ، وأخر نموه وتطوره ، ولم يستطع العلم أن ينمو في أوروبا وبترعير إلا بعد أن خفت ريح الجهل والتعصب بانحسار الأمية رويداً وانتشار القراءة والكتابة مما جعل للمفكرين والعلماء جمهوراً يتابع أبحاثهم . ويستمتع بآرائهم فكان في ذلك شذوذاً لأزهرهم وتنشيطاً لجهودهم .

فلا مناص من محاربة الأمية بكل الوسائل وكافة الطرق ، وأن تعباً العناصر المتعلمة في الأمة كلها للقيام بهذا الواجب المقدس نحو مواطنيها ، لانتشالهم من هاوية الجهل السحيقة ، ولإدخال النور في حياتهم واستغلال ملكاتهم ومواهبهم الدينية فما من شعب من الشعوب إلا وقد انطوى الكثير من أبنائه على استعداد للنمو والعبقريه ولكن هذا الاستعداد لا يلبث أن يموت ويحترق في ظلام الجهل وجحيم الأمية ، فهم كهذه المعادن النفيسة المختلطة بالصخور والتراب وتؤلف جزءاً مما حولها من جمادات ، لا يأبه بها إنسان ، ولكنها إذا استخلصت وطهرت أدراكها لم تلبث أن تصبح زينة العروش والتيجان .

فلا يجب أن يحجب إنسان عن العلم ، أو أن يخال بينها لأي سبب من الأسباب ، فهو حق طبيعي كحق استنشاق الهواء وشرب الماء وتناول الغذاء ، لأنه غذاء الروح الذي لا تقوم إلا به ، فيجب أن يبذل لكل إنسان وأن يمكن منه كل فرد ، وأن تهيأ سبله ووسائله للجميع على السواء .

ولن تستحق أمة من الأمم في عصرنا الحديث أن تأخذ مكانها بين الأمم المتحضرة ، وأن يكون لها صوت في حياة البشر ما بقي فريق كبير من أبنائها في عماية الأمية ، أما إذا كانت الأمية من نصيب السواد الأعظم من أفرادها ، فهي لا تزال أمة متخلفة متقهقرة تتخبط في دياجير الغفلة والجهل ، مهما ادعت لنفسها من ادعاءات ، ومهما تخلت بالمظاهر الكاذبة الخداعة ولن تستطيع هذه الأمة أن تدعى سيادة الحرية والديمقراطية بين ربوعها ، ولن تستطيع هذه الأمة أن تخطو خطوات حقيقية في سبيل الإصلاح وال عمران ، إلا بمقدار ما يقضى على الأمية بين ربوعها .

## يا بنى

وبعد ، يا بنى ، فاطلب العلم تكن إنساناً كريماً نافعاً فعلاً .. اطلب العلم واصبر على متاعبه ، واسهر على مباحثه ودراساته ، وشد من أجله الرحال ، واستقل القطارات وامطط الطائرات ، وانفذ إلى باطن الأرض ، واصعد إلى قمم الجبال ، وغص في أحشاء البحار ، واخترق الصحراء ، اطلب العلم يا بنى في جليد الشمال وحر الاستواء ، وفي مختلف البلدان والقارات ، اطلب العلم قائماً وقاعداً ونائماً ومسافراً ، وفي كل أحوالك بارهاف حواسك وإعمال فكرك والتعمق في تأملاتك .

وياك أن تحسب المدرسة كفيلة بأن تجعل منك عالماً ، ولو كانت أرقى المدارس وأعلها ، فكل ما تفعله المدرسة هو أن تهيك لطلب العلم ، وترشدك إلى مكانه . وتضع قدمك على أول درجاته ، وإنما العلم الحقيقي الرفيع يحصله الإنسان بكسبه واجتهاده ، وانكبابه على البحث العلمى في أوقات فراغه ، وليس هناك ما يخلق من الإنسان عالماً إلا أن يقرأ ، ويكثر من القراءة ، على شريطة أن يفكر في كل ما يقرأ ، وأن يقارن كل ما يقرأ بما سبق له قراءته . فيضيف إلى معلوماته بالزيادة أو يصححها ويعدلها ، أو يبنيها ويؤكددها . أو يلغيها ويبطلها ، وهناك اتجاه حاد في عصرنا الحديث نحو التخصص ، والتطرف في الدعوة للتخصص ، على أن هذا التخصص إذا جاز في المصانع وفي الإنتاج الآلى فإن العقل يجب أن يتزه عنه ، فالعقل الناضج يجب أن يلم بكل شيء . وأن يفكر في كل شيء ، وأن يعلم كل شيء ، ولا بأس أن تكون هوايته والجانب الأكبر من نشاطه في ضرب معين من ضروب المعرفة ، ولكنه يجب في كل حال من الأحوال ألا يغفل بقية الفروع الأخرى فالمعرفة كل لا يتجزأ ، والعلوم دائرة لا يعرف الإنسان أين طرفها ، فرب سنة اجتماعية تكمن في الطب ، ورب بحث تاريخي يحل مشكلة طبيعية ، ورب نظرية فلسفية تهيم الطريق لكشف هندسى ، ورب عملية حسابية تفسر آية قرآنية ، فالعلوم فروع شجرة واحدة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء .

هى شجرة المعرفة التى يجب أن يستظل بمجموعها طالب العلم . وهذا ما يجعلنى أقول لك اقرأ كل ما يقع بين يديك من الكتب ، عملية كانت أو أدبية أو قصصية أو دينية ولا تنفك تبحث عن الكتب قديمها وجديدها ، وإياك أن

تقول لنفسك : أقرأ الكتب الجديدة لا أعدوها ، امتثاً منك للقديم ، وتفضيلاً  
للجديد عليه ، فالقديم هو أساس الجديد ومعرفتك بالقديم تزيد في تفهمك الجديد .  
وحذار من أن تفعل العكس فتقول أقرأ الكتب القديمة ولا أعدوها فهذا هو الجمود الذي  
كان منه ما كان ، ولكن أقرأ القديم والجديد ، وقارن بينهما ، وفكر وتأمل وادرس  
وابحث . وقد أصبحت للكتب اليوم أشكال جديدة ، لا عهد للأقدمين بها . فقد  
أصبحت مصورة وناطقة ومشخصة ويومية ، وأعنى بهذه الأشكال الجديدة الصحف  
والراديو والسينما ، فخذ بنصيبك منها ، وداوم على قراءتها وسماعها ومشاهدتها فهي الدنيا  
كلها ، والحياة بألوانها ، مجموعة ومركزة على شكل أخبار ، وأغان وروايات وأحاديث  
ومحاضرات ، فلو أهملتها كنت كمن يهمل الحياة التي يعيش فيها ، وكيف يصبح عالماً .  
من يقطع ما بينه وبين الحياة ، كن على ثقة يا بني أن خلف كل شيء جزء من الحقيقة .  
وبقدر ما تعرف من الأشياء بقدر ما تنكشف لك الحقيقة . فاقراً وانظر واسمع والمس  
ولاحظ وراقب ثم فكر تكن عالماً . وإياك أن تعيش بفكر غيرك ، أو أن ترضى برضا  
غيرك ، فليكن فكرك حراً ، وآراؤك فائضة من عقلك ، وليس معنى ذلك أن تتنكر  
لأفكار الآخرين وتتمرد عليها وتخط من أمرها وتخالفها ، بل معناه أن تختار لنفسك من  
آراء الآخرين ما يوافق رأيك ، وما يرتاح له عقلك ، ويميل إليه طبعك .

إنني مؤمن يا بني أن الشرق لن يلبث أن ينهض من كبوته . ويستفيق من غفلته ، كما  
تلوح تباشير ذلك ، وأنه لا يلبث أن يسترد مكانته كمهبط للوحى ، وينبوع للإلهام ،  
وموطن للعبقرية ، ومهد للعلم والمعرفة ، وأن هذا البعث سيصل إلى ذروته في القرن  
الحادي والعشرين ، فيبرز في سماءه من يطفرون بالعلم الإنساني طفرة جديدة ، تتضاءل  
إلى جوارها طفرة أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، فعسى يا بني أن تكون  
واحدًا من هؤلاء العلماء الأعلام ، أو ممن يمهّدون لقيام هؤلاء الأعلام الأجداد ، فلو  
أنك كنته لاهتزت روحى طرباً في السماء وما عليك يا بني للوصول إلى هذه المرتبة . إلا  
أن تصمم وتعزم وتضع قدمك على أول الطريق ، جاعلاً دعاءك ليلاً نهار :

«وقل رب زدنى علماً»

## رسالة المال

أو

## كن غنيا

ليكن حديثنا بعد ذلك عن المال ، وأثره في الحياة ، وفي تحصيل القوة وإدراك الكمال ، وكيف أنه عنصر من أهم العناصر لإدراك هذه الغاية المثلى التي يسعى لتحصيلها الإنسان ، ولا يفوق المال في هذا السبيل إلا العلم . ذلك أن العلم وسيلة الكمال والقوة ، وهو في حد ذاته كمال وقوة ، وليس المال كذلك لأنه لا يعدو أن يكون وسيلة ولكنه وسيلة لا يتم بدونها إدراك غاية من الغايات ، صغرت أو كبرت جلت أو حقرت ، فالعلم نفسه لا سبيل له إلا عن طريق المال والحياة كلها لا سبيل لحفظها والإبقاء عليها إلا بالمال ، وهذا ما جعلني أقدم حديثي عن المال قبل حديث العلم لخطورة شأنه في حياة الإنسان . والمال موضوع طال عليه النزاع قديماً وحديثاً بين أفكار متعارضة ، وإذا كان العلم لا خلاف بين اثنين على ضرورة تحصيله ، وإن اختلفا بعض الشيء في نوعه وموضوعه فالمال لا يلقى مثل هذا الإجماع على ضرورة تحصيله بل إنه يلقى عداً شديداً من بعض الآراء على رغم حاجة الناس إليه جميعاً وشقايتهم وجهادهم في سبيل الحصول عليه ، والاستزادة منه ، لا فرق في ذلك بين رفيع أو وضيع غنى أو فقير ، وأصحاب هذه الآراء في ضرورة محاربة المال واستنكاره يضطربون عندما يقع بصرهم على العنوان الذي اخترته لهذه الرسالة ، وقد يرى البعض منهم أن هذه الدعوة إلى الغنى بمثابة دعوة إلى الإقبال على الدنيا ، والانصراف عن الآخرة . ولكنهم سيرون بعد قراءة السطور التالية أنه لا فارق بين هذه الدنيا وبين الآخرة ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ومن لم يعمل في دنياه لم يحصد شيئاً في آخرته ، وأن الذي يهمل الدنيا ويحتقرها ينتهي بأن يضيع الدنيا والآخرة .

إن الذي يحفزني لدعوتك ودعوة كل شاب للغنى هو أنه لا يوجد مرض يفتك بالمصريين فتكاً ذريعاً وبالمسلمين والشرقيين على العموم بمقدار ما يفتك بهم الجهل ، ثم هذا الفقر المدقع اللعين الذي لن تجدى مقاومته بالوسائل السلبية ، بل لا بد لمحاربتها من وسائل إيجابية ومتطرفة ، والدعوة للغنى هي إحدى هذه الوسائل الإيجابية وإني إذ أدعو

للغنى أعلن سخطى على الفقر بكل ألوانه وأشكاله ومهما تفلسف المتفلسفون ، وتنطع المتنطعون ، وَتَقُولَ المتقولون ، فالفقر عندى داء ولعنة ويجب أن يشفى المصريون والمسلمون والشرقيون من هذا الداء وأن ترفع عنهم هذه اللعنة وإلا ظلوا فى هذا الخسران المبين والضعف المهين الذى أضاع عليهم الدنيا والآخرة .

### الأصل فى الإنسان الغنى

اعلم أن الغنى هو الأصل فى الإنسان وأن الفقر هو العارض ، ذلك أن الغنى بمثابة الصحة والفقر بمثابة المرض ، فكل غنى صحيح وكل فقير مريض والرضاء بالفقر والقعود عن دفعه هو بمثابة الرضا بالمرض والقعود عن معالجته ولا يستوى المريض والصحيح ، كما لا يستوى العاجز والقادر ولا الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور .

خلق الله الإنسان ، وخلق الدنيا من قبله لتكون له دار كسب ، ووضع الكائنات كلها تحت سلطانه وتصرفه ، وزوده بالعقل والحرية والإرادة ليقوى على استغلال ذلك كله بما يعود عليه بالنفع ، فنشأ الإنسان الأول والدنيا كلها بأرضها وزروعها وخيراتها ملك له لا ينازعه فيها منازع ، وليس فيها غنى أو فقير ، وإنما أغنياء قلائل يشبعون كل حاجياتهم ولا يمدون أيديهم إلى إنسان ، أو يحتاجون إلى بعض ، فلم يكن للفقر وجود إذن فى الحياة الأولى ، ولكن تطور الحياة ونمو بنى الإنسان وتكاثر عددهم جعل يُظهر على التدرج الفارق بين إنسان وإنسان من حيث القدرة والكفاءة للاضطلاع بمختلف الأعمال ، فبدأ الامتياز يظهر بين شخص وشخص وكانت هذه هى المرحلة التمهيدية لنشوء العجز إلى جوار القدرة ، والفقر إلى جوار الغنى ، ولكن قيام الفقر بالفعل لم يتم إلا عند ما استقر رأى الإنسان على الخلود إلى الراحة والتزام مكان معين للإقامة ، فقد استدعى هذا الاستقرار قسمة ما تنتجه الجاعة فى هذه المنطقة على جميع الأفراد ، وإذ جاء دور الاقتسام فقد بدأت الفروق تتجلى بقوة بين إنسان وإنسان ، إذ حصل البعض قوة واغتصاباً ، عدلاً أو ظلماً على نصيب أوفر من نصيب الآخرين ، ولما كانت أى منطقة محدودة لا تنتج إلا غلة محدودة فإن ما زاد فى نصيب فرد كان ينقص من نصيب فرد آخر ، فهذا وجد الفقر إلى جوار الغنى .

لو أن الفقير الذى لم يحصل على نصيب كأنصبة الآخرين بادر بالانتقال إلى مكان جديد باحثاً عن رزق وفير فى ميدان آخر ، وما أوسع الأرض وأوفر غلاتها وأعظم خيراتها ، لو أن الفقير تمرد على القعود والاستسلام وهاجر ، إذن لحصل من جديد على كل ما تصبو إليه النفس من خير وفير ، ولكان غنيا كالآخرين ، ولكن الفقير وهو بطبعه



فاتر الهمة أو ضعيف الجسد أو الإرادة قليل الكفاءة ، لم يهاجر في أرض الله الواسعة بل ازداد تشبثاً ببيئته وقنع بنصيبه الضئيل الذى يناله إلى جوار الغنى ، ولو أن الفقير حتى بعد أن اختار البقاء على الرحيل ضاعف في مجهوده الإنتاجى وسعى لتحسين حالته بادخار ما يمكن ادخاره مما يفيض عن حاجته ، إذن لاستطاع أن يعوض بعض ما فاتته ، ولكنه من جديد آثر الجمود والاستسلام فاكتفى بإنتاج القدر الذى اعتاد انتاجه ليسد به حاجته يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة ، فلم تتطور حياته بل زادت سوءاً لأنه أصبح في حالة احتياج مستمرة ، فأخضعه ذلك رويداً رويداً كل الإخضاع للغنى الذى راح يسخره لزيادة غناه وثروته في مقابل قدر ضئيل يقدمه له مقابل عمله وقد رضى الفقير بهذا الوضع الجديد لزهده في المخاطرة والمجاهدة لتحسين حاله ومعاشه .

فالفقير كما ترى هو تطور وتدهور وعارض من الأعراض التى طرأت على الإنسان بسبب ضعفه أو عجزه أو كسله أو اختيال عقليته ، أى أننا يجب أن نقرر مطمئنين أن الإنسان خلق غنياً ثم أحدث الفقر لنفسه بإرادته ثم أورث هذا الفقر أبنائه وسلالته إلا من شب منهم عن الطوق واستعاد حرته وصحته فشق طريقه من جديد إلى الغنى والقوة .

### ماهية المال

ونتساءل الآن عن حقيقة هذا المال لنرى أخيراً هو في ذاته أم شر؟ أهو جدير بالتحصيل والطلب أم بالزهد فيه والابتعاد عنه؟ المال هو كل ما حقق حاجة للإنسان من حاجيات الحياة أو ساعد على إشباعها فلقمة العيش التى يأكلها الإنسان ليدرأ بها عن نفسه الموت جوعاً ويستعين بها على زيادة قوته هى المال فى أصدق صوره وأكملها وكذلك جرعة الماء يشربها الإنسان لنفسه هذا الغرض والثوب يلبسه الإنسان ليستر به عورته ويقيه البرد والقر ، والمسكن يحتوى به من عدوان الطبيعة وعدوان المعتدين من حيوان وإنسان كل هذه أموال لا سبيل للحياة إلا بجيازة الإنسان لها واستهلاكها واستعمالها فى الساعة اللازمة لاستهلاكها واستعمالها .. وهذه الضرورات بدورها لا يمكن الحصول عليها إلا بأدوات ومهمات وعمل فالصيد فى البر يحتاج إلى مخاطرة وسلاح والصيد فى البحر يحتاج إلى شبكة وشص وطعم ، وتجهيز الطعام لا بد له من إناء ووقود ، وصنع الثياب لا يتم بدون الاستعانة بأجهزة معينة ، ولا يمكن للإنسان أن يحصل على حاجته من طعام وشراب بغير هذه الأدوات ، فهى إذن ضرورية للإنسان ضرورة الطعام لحفظ الكيان . فهل يمكن لكائن من كان أن يعتبر هذه الأشياء أو السعى للحصول عليها شراً ورتيلة؟

اللهم إن هذا الشخص لا وجود له في الحياة وما من كائن حي إلا ويقدر الحياة ويشغف بها حتى ولو تظاهر بعكس ذلك وأعلن زهده فيها ونقمته عليها فواجب الإنسان الأول بل وسعادته هو في الإبقاء على حياته وحفظ كيانه في أرفع الصور وأكملها ولذلك فقد حضت الأديان كلها على حفظ هذا الكيان واعتبرته نعمة النعم وكل ما يؤدي إليه نعمة كذلك بطبيعة الحال فالقرآن يدعو الناس إلى الطعام والشراب والسعي والكسب ويطلق على ذلك كله وصف الطيبات فيقول وقوله الحق « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم » البقرة - « كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » البقرة . « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » المائدة . « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » الأنعام . تلك هي آيات القرآن أمر مستمر ودعوة ملحة إلى الأكل من الطيبات والانتفاع بها لحفظ كيان الإنسان ويعتبر القرآن كل دعوة تخالف ذلك دعوة باطلة وإثمًا مبيهاً فيقول تعالى وهو أصدق القائلين : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . المائدة .

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ٣٢ الأعراف .

هذا هو موقف الإسلام ، يحفظ كيان الإنسان ، أما بالنسبة للمسيحية فإن حملها لواء الدعوة ضد الغنى والمال لم يقعدها عن التماس حاجيات الإنسان من الله في كل صلاة تحت اسم الخبز فأصبح المسيحى يقول في صلاته اليومية « واعطنا خبزنا اليومي » ولما كانت السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة والأرض لا تثبت بنفسها خبزاً ولا فطيراً وإنما لا بد لذلك من عمل وصناعة وتجارة وملكية وحيازة فإن ذلك معناه ضرورة المال واستحالة الاستغناء عنه إلا إذا أريد الاستغناء عن الحياة نفسها .

### لا يوجد حد أعلى لحيازة الطيبات

يقول لنا أعداء المال : رويداً ، فنحن متفقون على أن القدر الضروري لحفظ حياة الإنسان هو خير وبركة ونعمة من أكبر النعم ، ولكننا نكره ما زاد على ذلك ونخاربه وهو الذى نختصه بنقمتنا ونرى الفضيلة في البعد عنه والتجرد منه ، ولكن هذا القول في الواقع قول غامض مبهم لا يحل لنا المشكلة إذ ما هو هذا القدر الضروري لحفظ كيان

الإنسان ؟ ما هو حده وما هو نطاقه ؟ إن لكل إنسان حاجات تختلف عن حاجات الآخر وليس لهذه الحاجات قدر معين فهي تزيد وتنقص على حسب الأحوال والظروف ، فحاجات الطفل غير حاجات الصبي ، وحاجات الفرد غير حاجات رب العائلة ، والعائلة قد تكون مؤلفة من فردين أو من عشرة ، فما هو القدر إذن الذى يمكن أن نصفه بأنه هو الضرورى للإنسان ومازاد عليه فهو نافلة أو بالأحرى شروذيلة ؟ ، قد يقولون إن القدر الضرورى للإنسان يتطور بتطور حالته ويزيد بزيادة حاجات الأفراد المنوط به رعايتهم ، ولكنهم ينسون أن الإنسان كلما كبر فى السن كلما تزايد عدد الأشخاص الذين يعولهم وكلما نقصت قدرته على الإنتاج فى الوقت نفسه ، بل إنه يصل عند سن معينة إلى العجز المطلق عن العمل والإنتاج ، فما هو الحل إذن فى مثل هذه الحالة ؟ .. لا حل لها إلا أن يدخر الإنسان فى أيام قوته ما يستعين به فى أيام ضعفه ، وفى أيام وحدته ما يستعين به بعد أن يصبح رباً لعائلة . وكل مال يقتنيه الإنسان لهذا الغرض وإن بدا كمالياً فى لحظة من اللحظات فهو لا يلبث أن يتقلب ضرورياً للإنسان فى مستقبله ، فمن الخطأ إذن تحديد قدر حاجة الإنسان مادام الإنسان يجهل مستقبله وحوادث الغد كلها ، وما قد تتطور إليه حياته وما قد يصيبه من عجز وكوارث ، وصدق رسول الله إذ يقول «خذ من صحتك لمرضك ، ومن غناك لفقرك ، ومن دنياك لآخرتك» .

لن يكون المال إلا نافعا مفيدا - بل ضرورياً مهما زاد وفاض على شريطة أن يُحسن ربه استغلاله وإنفاقه لفائدة المجموع ، ذلك أن سنة الحياة قد جعلتها لا تخلو من الضعفاء والعاجزين الذين لا يستطيعون إنتاجاً ولا كسباً ، وهؤلاء يؤلفون فى الإنسانية العدد الأكبر ، فالنساء والأطفال والشيخوخ والعجزة والمرضى يربو عددهم عن الأقوياء القادرين على الإنتاج الذين لا يتجاوز عددهم بحال خمس مجموع البشرية ، ومهمة القادرين هى التكفل بسد حاجات الآخرين ، ومادامت هذه هى سنة من سنن الحياة فإن كل مال مهما زاد عن حاجة الفرد فهو لا يزيد عن حاجة المجموع وحسبنا أن نلقى نظرة إلى المؤسسات العمرانية من دينية وخيرية واجتماعية ، فهل كان يمكن أن تقام هذه المؤسسات بغير مال الأغنياء أو المال المجموع من الأفراد على السواء مما زاد عن حاجاتهم الأساسية فأمكن توجيهه لمصلحة الآخرين ؟ . هذه المعاهد الدينية مسيحية كانت أو إسلامية كالأزهر أو الفاتيكان ومدارس الرهبان وهذه الكنائس والمساجد والأديرة ، هل كان يمكن أن تقام بغير المال الكثير ، ولست أحسب أن هناك شخصاً واحداً ممن يجاربون المال ويدعون للزهد فيه يمارى فى ضرورة هذه المؤسسات الدينية ، ولندع هذه المؤسسات الدينية لنشير إلى المؤسسات الاجتماعية كالملاجئ والمستشفيات التى يأوى إليها العجزة

والمرضى وأخيراً هذه المعاهد والجامعات والمدارس ، هل كان يمكن أن تقوم هذه المؤسسات الضرورية لل عمران بغير مال زاد عن حاجة الفرد فاستغل لمصلحة الجماعة . قد يقول قائل : ولكن هذه المؤسسات كلها يمكن أن تقوم بها الجماعة متعاونة متساندة ، وفي أيامنا الحديثة تقوم بها الدول لمصلحة الجماعة فلا ضرورة لوجود الأغنياء لإنشاءها ولكن ذلك لا يغير طبيعة الموقف بحال من الأحوال ، ذلك أن الدول أو الجماعة لا بد لها من مال لإنشاء هذه المؤسسات وهو ما تجنيه من الأفراد على شكل الضرائب ، وكلما كان الأفراد أغنياء كلما زادت حصيلة الدولة من الضرائب ، وتمكنت من خدمة المجموع أجل الخدمات ، أما إذا كان أفراد الجماعة أو الأمة فقراء لا يملكون إلا الضروري لحياتهم ، فمن أين تأخذ الدولة ضرائبها التي تنشئ بها هذه المؤسسات التي لا غنى لل عمران عنها ؟ فالمال ضرورى على كل حال ، وفي مختلف الأوضاع ، وكلما زاد المال في يد الجماعة كلما كان مظهرًا من مظاهر قدرتها على أداء رسالتها في سبيل تحقيق أشرف الغايات . والحق أنه لا يوجد مثل أعلى يمكن أن يحققه الإنسان عن غير طريق المال حتى لو كان هذا المثل الأعلى هو في الفقر المدقع ، فالبوذيون مثلاً قد فرضوا على أنفسهم عيشة الرهبة والتجرد من كل متاع في الحياة ، فهم يُحرّمون على أنفسهم امتلاك النقود على أى صورة من الصور ولا يسمحون لأنفسهم إلا بقطعة من الثياب تسرّ جسدهم وعودًا من الخشب يتوكأون عليه وإناء يضعون به طعامهم الذي يُحتمون على أنفسهم أن يلمسوه من الناس التماساً . والبوذيون يرون السعادة لا تتحقق بغير هذا الأسلوب الذي يصبح فيه الإنسان بغير شهوات كما يقولون فارغ القلب والفؤاد إلا من التفكير والتحليق في سماء الخيال والمعرفة . ولكن هذا الأسلوب من الحياة السعيدة كما يتخيله أصحابه لا بد لتمامه من توافر الغنى عند الآخرين لكي يجد هؤلاء الرهبان السعداء من يزودهم بقوتهم اليومي براً واحتساباً وإلا فلو عن لكل الناس أن تصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من السعادة (والعباد بالله) لما وجد سعيد ما يتسوله من سعيد آخر لأن الكل سيكون قد أصبحوا غارقين في السعادة بالفقر والتسول فمن أين لهم القوت في هذه الساعة إلا أن يلمسوه من جديد من خلال العمل والجهاد والنصب الذي يفرون منه ، فالمال إذن لا غنى للجماعة عنه لحفظ كيانه من ناحية ، ولتحقيق ما ترتجيه لنفسها من أمثلة عليا وتدرج في معارج الكمال من ناحية أخرى .

### شُرور المال

يقول خصوم المال وأعداؤه وعلى رأسهم المسيحيون القدامى والبوذيون وبعض

الزاهدين في الدنيا من شتى الملل والنحل أن المال هو شر المصائب والويلات التي يغص بها الكون ، فهو سبب الجريمة والباعث عليها ، وهو هادم الأخلاق والفضيلة ومدمر الجماعات والأسر ، فبسبب المال يتنازع الأخ أخاه ، والابن أباه ، والزوجة زوجها .. وبسبب المال تتصارع الطبقات الاجتماعية ويستعين الأقوياء بالضعفاء ؛ وبسبب المال تندلع الثورات والحروب الجائحة ... فأى مصيبة بعد ذلك وأى لعنة تفوق مصيبة المال ولعنته على بنى الإنسان ؟ فكيف يمكن أن يوصف بأنه خير ونعمة جدير بالحصول والطلب والاستكثار منه ؟ إن المال لا يكاد يزيد في يد الإنسان حتى تتغير طباعه فيمتلئ كبراً وبطراً وغروراً فيعمد إلى احتقار الآخرين وإذلالهم وتسخيرهم وإعانتهم وقلم يفكر إلا في زيادة ثروته وتجريد هؤلاء الفقراء من ثمة عملهم وهذا ما يحمل الفقراء على الحقد على الأغنياء فيفكرون في سرقتهم ونهبهم والفتك بهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وليس بعد ذلك جرم ورذيلة أما الأغنياء فيعكفون على ملذاتهم وملذتهم وإشباع شهواتهم ، والإسراف فيها والاستهتار بكل عرف أو تقليد أو دين أو أخلاق مما يعود على أجسامهم وأرواحهم بالتلف والخسران ، وعلى المجتمع بالويل والثبور ، بل قد يدفع الغنى الإنسان إلى الكفر والطغيان فلا يعبد سوى المال ولا يؤمن برب سواه مصداقاً لقول القرآن « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » فكيف لا يبعد الإنسان بنفسه عن شر هذا مده ؟ وكيف يعمل على الاستزادة من المال فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه ؟؟؟

ولكن هذه الاتهامات التي توجه إلى المال هي في حقيقتها اتهامات للحياة ذاتها فطبيعة الحياة وسنتها الكفاح والصراع والتنازع على البقاء وتنافس العناصر وتلاطمها لبقى الصالح منها ويزول الفاسد عملاً بالآية الحكيمة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » وليس المال وحده هو السبب الأول لما يشكون منه الشاكون من الشرور والآثام .. بل إن العقل البشري نفسه وهو أغلى جواهر الإنسانية ، هو المحدث الأول لما يشكون منه من جرائم وفتن وويلات فهو الذى يحيك المؤامرات ويدفع للحروب ويدس الدسائس وهو الذى قد يتجرأ على الإلحاد ، والكفران بخالقه رب السموات والأرض وهو الذى يحلل كل حرام ويهدم كل نظام وقد يدعو إلى الفوضى والانحلال كما يرى في آثار بعض الفلاسفة والكتاب فهل معنى ذلك أن تنهض الإنسانية لمحاربة هذا العقل وإلغاء سلطانه فتحدث لنفسها الجهل والحماقة والجنون لكي تنجو من شرور العقل وأخطاره ؟؟

وكذلك المرأة سبب آخر يكمن خلف ما تشهده الحياة من صراع وما قد يقع فيها من جرائم مادية أو خلقية حتى لقد وضع المثل المشهور « فتش عن المرأة » لكي يعرف سبب

أى جريمة أو أى مشكلة أو أى حركة ضخمة من حركات البشرية . فهل معنى ذلك أن تنهض الإنسانية لمحاربة المرأة والقضاء عليها فيكون معنى ذلك فناء الإنسانية نفسها . فما المرأة إلا الحياة ؟ وكيف نستنهج المرأة إلا إذا كنا نستنهج الحياة ؟!

لقد حاول المسيحيون في القرن الأول للمسيحية أن يشنوا هذه الحروب بالفعل على المال والعقل والمرأة فدعوا للفقير ودعوا للجهل ودعوا لمحاربة النساء حتى أسموهن أحبولة الشيطان ففشل المجتمع المسيحي في حربه ضد الطبيعة كما سنرى وركب في ذلك متن الشطط حتى كانت أسود صفحاته هي تلك التي حاول أن يقوم فيها بهذه الدعوات فيحارب المال والعقل والمرأة ، وهي عناصر الحياة ومقوماتها ومهمتها أن تقبل الحياة بعناصرها الأساسية ، وأن نتفحص حقيقة هذه العناصر ونسعى لتأديتها وتعليمها وإحسان استغلالها . والحد من آفات شرورها والعمل على مضاعفة حسناتها وتلك هي رسالة الإنسانية ، أن تتجه كل يوم صوب المثل الأعلى بزيادة سيطرتها على العناصر وتنظيم القوى الطبيعية وإحسان استغلالها ، لا أن تقاومها وتخاربها وتحاول أن تغض من شأنها فتسى بذلك إلى نفسها وتتردى في هاويات من الظلام والفوضى كما حدث في أوروبا في العصور الوسطى التي يسمونها العصور المظلمة فضلاً عن أن كل جهد في هذا السبيل هو جهد مقضى عليه بالفشل لأنه اصطدام بسنن الحياة وقوانينها ولن تستطيع لسنة الله تبديلاً .

### قلة المال بيد البعض لاكثره هي علة المصائب

على أن تحليلاً بسيطاً للأعراض التي يشكو منها أعداء المال سرعان ما يدلنا على أنها لا ترجع إلى المال نفسه وإنما إلى سوء توزيعه وأن قلة المال لاكثره هي علة ما يضطرب به المجتمع من الجرائم والمصائب وأن علاج هذه الحالة لا يكون بإلغاء المال وهو عمل مستحيل كما قدمنا وإنما بزيادة المال في يد الأفراد ومحاربة الفقر والفاقة اللذين هما السبب الوحيد في الكفر والإلحاد والتمرد على القوانين والأخلاق والأديان والفضائل والأنظمة وكل ما يتصوره الإنسان من التدهور والانحلال .

إن أضخم ثورتين عرفهما التاريخ الحديث في ختام القرن الثامن عشر ومستهل القرن العشرين هما الثورتان الفرنسية والشيوعية وكلتاها ثورة أضرم نارها الفقر وحمل لواءها الفقراء والمحرومون والطبقة السفلى من الشعب ، وكانت الجموع تطلب في كلتا الثورتين خبزاً كرمز على ما يعانونه من الجوع والمسغبة ، وقد اجتاحت هاتان الثورتان فيما اجتاحتا الدين والأخلاق وزعزعت أركان الأسرة وصدعت بنيانها . فالثورة الفرنسية لم تأت

بالحرية المقدسة والإخاء والمساواة فحسب ولكنها هدمت الكنيسة فيما هدمت ثم تعدتها إلى هدم فكرة الألوهية نفسها حتى كرس رويسير نفسه كاهناً أكبر للمعبود الجديد معبود العقل ، وكذلك الثورة البلشفية فعلت مثل ذلك تماماً وأعلنت روسيا نفسها دولة لا دينية بل وتحارب الأديان وتطلق عليها فيما تطلق لفظ الأوهام ، فلعل هذا الهدم للمبادئ الخلقية والدينية على أيدي ثورات الفقراء كاف لهدم أى تفكير فى أن الفقر باعث على الفضائل ولا يوجد مبدأ هدام فى العالم كالفوضوية لا يكون الأصل فيه الفقر . والفقر هو مصدر الجريمة والباعث الأول عليها إما بطريق مباشر أو غير مباشر كأن ينشأ المجرم فى بيئة فقيرة فيحرم من العلم والثقافة والورع الذى هو أساس الفضائل فيشب مجرمًا عنيدًا حتى ولو لم يكن فقيرًا .

ولندع هذه الجرائم ، جرائم الاعتداء على المال من نهب وسلب وسرقة ونصب وننتقل إلى ميدان آخر وهو ميدان الجرائم الأدبية والحرف الممقوتة التى تصل إلى مرتبة الجرائم . إن الزنا بطبيعته جريمة خلقية قد تتردى فيها أى امرأة غنية كانت أو فقيرة ولكن الفقر وحده هو الذى يجعل من المرأة بغياً محترفة وليس فى الدنيا كلها نكبة تحل بالمرأة وبالجنس البشرى على العموم أعظم من نكبة احتراف البغاء حيث تتدهور البغى إلى درجة أحقر من الحيوانية وإلى درجة من البؤس والشقاء لا يتخيلها أكثر الناس ، وليس فى المجتمع أخطر من امرأة تحترف البغاء ، وما يمكن أن تحدثه فيه من الشرور والآثام .

ثم هذا التسول الذى يحترفه الرجل فيتجرد فيه عن نخوته ورجولته بل وإنسانيته ويصبح مخلوقاً عجيباً رأس ماله أن يكون قذراً مريضاً عاجزاً تعاف النفس رؤيته ويعمد إلى اصطناع ذلك كله فى نفسه اصطناعاً إذا لم يكن فيه بطبيعته فيتصنع الكساح أو العمى أو العته لكى يستدر عطف الناس ويسلب نقودهم بهذا الأسلوب من النصب والاحتيال . هذا الجيش اللجب من التسولين الذين تغص بهم بلادنا وبلاد المسلمين ، هذا الجيش من المجرمين الأشرار الذين يفرخون الجريمة والمجرمين كما تفرخ الدجاجة بيضها ليسوا إلا ثمرة من ثمار الفقر المدقع ، فلو أن هؤلاء الذين يدعون أن الغنى هو ينبوع الرذائل وأن الفضيلة لا توجد إلا حيث يوجد الفقر لو أنهم كانوا على شئ ولو قليل من الحق فيما يقولون لوجب أن يكون هؤلاء التسولون أفضل الفضلاء طراً وأكثر المتقين ورعاً ولوجب أن يتغير مصير البغايا فيدفعهن الفقر إلى أن يكن قديسات ونموذجاً للطهر والعفاف بدل أن يدفعهن لاحتراف هذه المهنة الممقوتة ، والحق أن كثيراً من هاته النسوة

كن يُردَّن أن يحتفظن بشرفهن وعفافهن ولكنهن لما لم يجدن القوت بعن آخر ما يملكن في الحياة ليأكلن به وهو كرامتهن وحريتهن وجسدهن .

وإذن فالفقر الشديد وليس الغنى الكثير هو الباعث على الكفر والإلحاد وأشنع الجرائم وإذا كان هناك غنى واحد من بين كل مائة يدمر المال أخلاقه ونفسيته فإن الأغلبية العظمى يصلح المال أحوالهم ويدفعهم إلى سلوك سبل الرشاد ، وإذا كان هناك أغنياء يفسدون في الأرض فإن هناك آخرين يقابلون نعمة المال بالشكر ، والإحسان بالإحسان وهؤلاء هم بهجة الدنيا وزينتها .

### تدرج الفضيلة بازدياد المال

وكما زاد المال في يد الشخص وخفت وطأة الفقر كلما اكتسبت حياة الشخص اتزاناً وزاد نصيبها من السعادة والفضيلة ، وكما قل نصيب الفرد من المال كلما ساءت حالته النفسية والمادية وزاد شقاؤه وقل نصيبه من الفضيلة والخلق ، ففي مصر مثلاً حيث توجد ألوف مؤلفة من العمال الزراعيين الذين يعملون بأجر نافه لا يتجاوز أربعة قروش في اليوم فلن تجد في هؤلاء مخلوقاً واحداً يعرف شيئاً من أمر الأخلاق أو العلم أو الفضيلة أو الدين وإنما هو يعيش معيشة نافهة قد تفضلها معيشة بعض الحيوانات ولن تجد عندهم متسعاً من الوقت يسمح لهم بشئ من التفكير أو التطلع لمعرفة شئ أو إدراك شئ وليس يعنيهم أن يتصفوا بأى صفة وليس هناك أمر يتخرجون من ارتكابه فهم يعملون ما بقى رئيس العمل يضرهم بالسوط أو بالعصا ، فإذا أدار ظهره عنهم لحظة واحدة كفوا عن العمل بل ربما يخربون ما يعملون لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وربما نهبوه وسلبوه سلباً ، ولذلك فإن رئيس العمل يلزمهم بسوطه ليحملهم على العمل وليتقأ أذاهم وشهرهم ، وليس بعد ذلك مهانة وضعة للإنسانية ، وهذا هو حال السواد الأعظم ممن يكسبون قوتهم الضروري بشق النفس ، ولو أعطى هؤلاء البؤساء عشرة قروش بدلاً من أربعة لكانوا أحسن حالاً من غير شك ، ولو أعطوا عشرين بدلاً من عشرة لدفعهم ذلك في طريق الأخلاق والفضيلة ولعرفوا معنى الواجب وقدموه ، ولنشأ في صدورهم الضمير وأهلبهم بسوطه بدلاً من سوط (مقدم الأنفار) الذى يلهب ظهورهم ، ولا يتجون إلا في ظله . فلو أن الفقر هو الباعث على الفضائل لوجب أن تكون القروش القليلة هى الدافعة لعرفان الجميل لا العشرة فضلاً عن العشرين ، ولكن الحق أن الفضائل تنمو في النفس بتوفير النعم في يد الإنسان ، ذلك أنه يتذوق في هذه الحالة جمال الحياة ويشعر بما تنطوى عليه من سعادة ولذات روحية تسمو على هذه اللذات المادية فيفكر في المعاني المجردة ويتصل



بروح الله وكل ذلك لا يتوافر عند الإنسان إلا بعد أن يشبع حاجاته المادية كلها في غير عناء ، ولذلك فالمشاهد أن أكثر العمال تدينًا هم هؤلاء الذين تحسَّن أجْرهم وأصبحت لهم بيوت مستورة ورزق موفور ، وحاجات مقضية ، وأكثر من هؤلاء تدينًا وفضيلة وقوة خلق هم الذين يطلق عليهم لقب الطبقات الوسطى ، هؤلاء الذين ارتفع دخلهم فأدركوا أول درجات الغنى فأصبح لديهم سعة من المال تفيض عن حاجتهم وحاجات من يلوذ بهم على وجه الكرامة والاعتدال فهنا تغرز الفضيلة ، وترعرع الأخلاق وتزدهر . وهنا تزدهر الأديان والقوانين والنظم والعرف والتقاليد والعلم وكل ما يحفظ كيان البشرية ويرقى بها إلى مرتعها الخصب ، ولذلك فقد اعتبرت هذه الطبقة في كل زمان ومكان قوام المجتمع وعموده الفقري ، ويتوقف على عظم شأنها رفعة الأمم أو انهيارها فكلما كثرت في أمة هذا الطراز من الناس الذين أشبعوا كل حاجاتهم وقاض في أيديهم المال كلما ارتفعت هذه الأمة في معارج الكمال واتسقت حياتها وازدهرت . وكلما تضاعفت هذه الطائفة وقل عدد أفرادها فإن المجتمع يختل توازنه وتسيطر عليه الفوضى في كل نواحي الحياة .

والطبقة الوسطى لا يمكن أن تعد في زمرة الفقراء ، ولكنها أول طبقات الأغنياء أو الدرجة العادية من درجات الغنى ، ومن هذه الطبقة يتطور البعض ليحصلوا أكبر درجات الغنى والذين يوجهون مالههم لمنفعة الجماعة بتخصيصه للإنتاج وإنفاق بعض الأرباح في أعمال البر والإحسان والنفع الاجتماعي كإنشاء المعاهد والملاجئ والمستشفيات ، ومعاونة العلماء والمصلحين ، فهؤلاء يصلون بعملهم هذا إلى ذروة الرقي البشري الذي لا زيادة بعده لمستزيد ، حيث يصبح الغنى الواحد منبعًا للخير والإحسان والنفع الإنساني بأكثر مما يفعل عشرات الألوف من الناس ومئاتها مجتمعين . وحسبى أن أشير إلى أن غنيًا واحدًا أمريكيًا عرض على مصر في يوم من الأيام هبة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتخصص لدراسة التاريخ المصري والكشف عن مغاليقه عن طريق الحفريات واستخراج الكنوز المصرية الكامنة في التربة المصرية غير طالب في مقابل ذلك جزاءً ولا شكورًا إلا إرضاء وجه العلم والتاريخ . وهناك غنى آخر قدم لبلاده هبة لتنشئ بها في كل قرية مكتبة عامرة بأفخر الكتب وأنفسها ...

فإذا علمت أن في مصر لا توجد سوى مكتبة في القاهرة وأخرى في الاسكندرية وبعض مكتبات لا تتجاوز عدد الأصابع في كبريات عواصم المديرية ، وإذا علمت أن في مصر ما يزيد على ثلاثين ألف قرية استطعت أن تدرك ضخامة هذه الهبة التي قدمها غنى لبلاده بنشر العلم بين ربوعها على هذا النطاق الواسع .

## فشل الدعوة لمحاربة المال

من أجل هذا الذى قدمناه وبسطناه كان حقيقاً أن تفشل كل الدعوات التى حاولت أن تغض من قيمة المال وأن تدعو لاحتقاره والزهد فيه والبعد عنه وأن يخل محلها دعوات لتنظيم المال وتديبره مما يخفف من أضرار إساءة استعماله ، وتحسين توزيعه بحيث لا يحرّم منه كائن من كان مهتماً كان ضعيفاً أو فقيراً . وقد كانت البوذية فى القديم ثم المسيحية هى أقوى دعوة وأخطرها فى محاربة المال وليس فى الأنجيل الأربعة المنسوبة إلى السيد المسيح دعوة جلية صريحة واضحة كاللدة إلى الزهد فى المال والتجرد عن الغنى . وحياة المسيح نفسه هى دعوة حارة لحياة الفقر والمسغبة ، فمذ بارح أمه وخصص نفسه لدعوته الإصلاحية ، وهو يعيش فى القلوات ويأكل من الشجر ويلتمس طعامه عند الحاجة إليه ، وبما ذكره الإنجيل فى هذا السبيل أنه كان جائعاً فى يوم من الأيام فد يده إلى شجرة تين ملتصقاً بعض ثمارها فلم يجد فيها شيئاً فدعا عليها بالجمود والموت فيست من ساعتها واعتبرت هذه إحدى معجزاته .

على أن المسيح دعا دعوة صريحة ضد الغنى والمال ودعا للتجرد منه بما لا يدع للبس أو الشك فيما يرمى إليه بدعوته ، فقد تقدم إليه فى أثناء تجواله شاب وطلب منه أن يدلّه عن طريق الخير ، فقال له المسيح : ألا تعرف وصايا الكتاب المقدس ؟ لا تسرق . لا تزن ، لا تقتل ، لا تسب أباك وأمك ... الخ . فقال له الشاب : إننى أحفظ هذه الوصايا كلها وأعمل بها ، ولكنى أريد درجة أكبر فأجاب المسيح على الفور : إذن فاذهب وبع كل مالك وأملكك ووزعها على الناس ثم اتبعنى . فانصرف الشاب مغموماً مقهوراً لأنه كان ذا مال كثير ، فالتفت المسيح لتلاميذه وقال لهم : الحق أقول لكم إن دخول الجمل فى سَمّ الخياط أسهل من دخول الغنى فى ملكوت السماء أى أن المسيح قد جعل الفقر هو قمة الفضائل . وكثيراً ما يكرر الإنجيل هذا المعنى كقوله « طوبى للفقراء والضعفاء - طوبى للذين لا يجدون قوتهم اليومى ويلتمسونه كما تلتمسونه طوبى للسماء » .

والإنجيل يذم الادخار ويذم المال فى جميع صوره وأشكاله . وقد نهج تلاميذه المسيح نهج أستاذهم فتركوا أعمالهم التى اعتادوا أن يزاولوها واتبعوه فقراء لا يملكون قوتهم اليومى ، وقد اشتق المسيحيون فى أيامهم الأولى فكرة الرهبنة واعتزال الحياة فى الأديرة البعيدة عن العمران من هذه الروح العامة التى اقتبسوها من حياة المسيح وحياة تلاميذه وتعاليمهم . على أن ذلك كله لم يتحقق إلا فى أيام المسيحية الأولى ، عند ما كانت لاتزال

دين الضعفاء والفقراء والأرقاء ، أما بعد أن تحولت المسيحية إلى دين رسمي ، وحصلت الكنائس المسيحية على الاعتراف بوجودها ، وبالتالي على كل شيء من السلطان المادي ، فقد انقلبت رأساً على عقب ، وتدرجت سريعاً في سلم الغنى والثراء الفاحش ، حتى أصبحت الكنيسة هي أغنى أغنياء الدنيا على الإطلاق بما تملك من قصور وضياع وأموال وكنوز من الذهب النضار والجواهر والآلئ ، مما سال له لعاب الملوك المعاصرين وملأهم حقداً وحسداً لرجال الكنيسة . وغنى عن البيان أن هذه الثروة لم تكن من نصيب الجدران والأعمدة الرخامية ، بل لم يكن فقراء القسس وصغارهم يتلون منها إلا النذر التافه ، واستأثر بالغنى والترف البابوات والكرادلة والأساقفة ، ممن كانوا يسمون في ذلك الوقت أمراء الكنيسة ، ولما ضاق سطح الأرض عن أن يمد البابوات ورجال الكنيسة بالعروض والمتاع المعدن للبيع واجتلاب الأموال ، عمد البابوات إلى ملكوت السماء يتصرفون فيه بالبيع والإيجار ، فاخترعوا صكوك الغفران ، التي تحول لحاملها المغفرة التامة لجميع خطاياهم ودخوله ملكوت السماء ، وما على المسيحي إلا أن يتنازع صكاً من هذه الصكوك بأن يدفع الإتاوة التي تفرضها الكنيسة عليه فيسجل اسمه في الخانة المخصصة لكتابة أسماء المؤمنين ، كما هو الحال في دفاتر الشيكات أو الكمبيالات ، فيصبح له حق في السماء لا ينازعه فيه رضوان . وقد كانت هذه إحدى مبتكرات الكنيسة لزيادة مواردها وثروتها ، ولست بحاجة إلى أن أشير إلى عمق الهاوية التي تردت فيها الكنيسة بعد أن آل إليها السلطان ، وما تحولت إليه الأديرة في هذا الزمان من مباءات للفجور والفساد ، وإنما الذي يعنيننا أن خلفاء المسيح وحملة رسالته الداعية إلى الفقر قد أصبحوا أكثر العالمين سعياً وراء المال ، لافرق فيهم بين مؤمن أو زنديق ، أو كاهن أو تاجر ، أو أمير أو وضيع . ولرب قائل يقول ولكن هذا الذي تشير إليه قد حدث في فترة انحلال وتدهور في الأخلاق ، فلا ينبغي أن يتخذ حكماً عاماً على المسيحيين في كل عصر وزمان ، ولكن يرد على ذلك أن القرون التالية لهذا العصر الذي نشير إليه قد شهدت إصلاحاً دينياً وثورة دينية على الكنيسة والبابوية ، وولدت البروتستانتية التي هي بمثابة تجديد لشباب المسيحية وإحياء لتعاليمها الأولى .

ولكن هذا الإصلاح الذي اكتسح الكنيسة بكل مفاصلها ، لم يستطع أن يرجع للمسيحيين ذرة من الروح التي تدعو إليها المسيحية الحقيقية وهي روح الفقر والضعف ، بل لقد كان هذا الإصلاح الديني بالذات هو الحافز القوي الذي دفع بأوروبا إلى نهضتها الحديثة ، وهذه النهضة التي حولت أوروبا المسيحية بالتدريج إلى أقوى قارات الدنيا الخمس ، وأكثرها ثروة وغنى ، وأدت إلى اكتشاف العالم الجديد الذي تتكدس فيه

الثروة تكديسًا ، ووقعت الشعوب الأقل ثروة وغنى وقوة تحت برائن الاستعمار المسيحي الذى راح يستنزف قطرات الدم من هذه المستعمرات ، فأثرت بعض الدول ثراء فاحشًا مما جر إلى التنافس والتحاسد بين دول أوروبا المختلفة ، مما أدى إلى قيام الحروب الاستعمارية المختلفة . فالمال هو طلبة أوروبا المسيحية وأمريكا المسيحية ، ولكن الأوربيين والأمريكيين اهتموا إلى ضرورة تنظيم المال وإحسان توزيعه وضرورة استغلاله لمصلحة المجموع فقامت المذاهب الاشتراكية ووضعت على أساسها القوانين والتشريعات التى تنظم تداول المال واستثماره وتفرض على الأغنياء الضرائب الباهظة لتنفق المتحصل منها على حاجات الفقراء ، وهو ما فعله الإسلام قبل أوروبا بعشرة قرون من الزمان . واليوم لن نجد صيحة واحدة وسط هذه المئات من ملايين المسيحيين الوريثين تذم المال أو تستهجن استغلاله والاستفادة منه ، بل على العكس من ذلك ترتفع الدعوة عالية من جوف الهياكل والمعابد بضرورة الاستراة من هذا المال على أن يعطى للفقراء نصيب منه وهذا هو الوضع الحقيقى بالنسبة للمال . ولم يعد اليوم فى أوروبا وأمريكا وهما جمهور العالم المسيحي إلا أغنياء إذا قيسوا بأمثالهم من الأمم الأخرى فليس بين صفوفهم من لا يستخدم الكهرباء فى خدمة أغراضه المختلفة ومن لا يجد الدفء المسكن النظيف والماء الساخن ومن لا يجد اللحم المرئ لطعامه ، والصوف والحزير للباسه والسيارة لتسليته وملهاته ، والكتاب والمدرسة والجامعة والصحف والراديو لتعليمه وثقافته ، والمستشفى لعلاجهم وتقرضه ، وهؤلاء هم الذين يدعوهم دينهم إلى الزهد فى الحياة ومقاطعة المال ، فأين هم إخواننا المسلمون والشرقيون الذين كانوا بالأمس مستودع هذا الغنى وبالتالى مهبط الحضارة والثروة ؟ أين هم اليوم من ذلك كله والكثيرون منهم يسترون عورتهم بالخرق البالية ويشقى السواد الأعظم ويكدح بالليل والنهار من أجل قروش نافهة لا تكفيه إلا لتحصيل ما يحول بينه وبين الموت جوعًا ومسغبة ، مع أن الإسلام جاء عدوًا لذلك كله فحارب الفقر ودعا إلى الغنى والقوة والعزة التى لا سبيل لتحقيقها إلا بالمال ؟!

## الإسلام والمال

يقف الإسلام من المال موقفًا هو إحدى آيات الإسلام البيئات ، وأنه جاء دينًا شاملاً لتنظيم الدنيا وعمارة الكون ولذلك فقد جاء على النقيض من دعوة المسيحية ، ولعل السبب الذى جعل المسيحية تنحو هذا النحو الغريب فى محاربة المال ، هو أنها كانت دعوة محلية تتصل بظروفها الزمنية والمكانية ، لقد جاء المسيح مصلحًا للمجتمع اليهودى ، وما أدراك ما اليهود ؟ عباد المال وسدنته الذين عملوا منذ أقدم العصور على

سلبه من يد الآخرين وتكديسه بين أيديهم ليتخذوه سلاحاً يسخرون به الضعفاء والفقراء لقضاء أغراضهم ولبناتهم في غير رحمة أو شفقة ، فكان لا بد من حملة شعواء تشن على اليهود وعلى أساليب اليهود في جمع المال فكان هذا هو سبب هذا التطرف الشديد في حملة المسيح على المال ، والتطرف لا يحارب إلا بتطرف مثله والغلو في عبادة المال لا يقابله إلا الدعوة لاحتقار المال ، فالمال وسيلة لنفع الفرد والمجموع . فإذا انقلب فأصبح غاية لا وسيلة فقد تحول المال إلى أداة تدمير وشقاء ، وهذا هو ما يفسر موقف الإنجيل من الغنى والمال . أما الإسلام وقد جاء ليكون ديناً عاماً شاملاً لكل زمان ومكان فقد جاءت أحكامه وقواعده مقررّة لسنن الوجود ومنظمة لها ومحددة لنظامها وكيف ينتفع بها على خير الوجوه . ولما كان المال كما رأينا هو مادة الحياة ووسيلتها ، فقد اعتنى به الإسلام اعتناء شديداً ، فامتدحه وامتدح حسن استغلاله وأرشد إلى ضرورة حفظه ووقايته من التلف والخسران ، ثم عالج آفاته ومشاكله بما يذهب بشره ويبقى خيره وبركته .

يقول القرآن الكريم « ولا توثوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » فالقرآن هنا يصف المال بأنه قوام الحياة ، وهو ما شرحناه حتى الآن ، ثم يرشد الإنسان إلى ضرورة الاهتمام بحفظ ماله ورعايته وإحسان استثماره واستغلاله ، فلا يسلمه للسفهاء من الناس الذين لا يحسنون إدارته ويسلمونه إلى التبديد والضياع ، وليس بعد ذلك دعوة لإظهار خطورة المال وإحسان استغلاله .

ويقول القرآن في آية أخرى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » فالمال في قول القرآن هو زينة الدنيا وبهجتها ، وليس كما ظن الظانون أنه لعنة الدنيا وآفاتنا ، وزاد القرآن على ذلك أن قرّن المال إلى الولد وجعلها صنوين في أنها نعمة الحياة الدنيا ، ثم أرشد القرآن إلى أن هذا المال نفسه وسيلة الحصول على الحياة الأخرى التي تَفْضَلُ هذه الحياة الدنيا ، وذلك بإنفاقه في سبيل الخير والبر والإحسان .

ومن الأحاديث المروية عن رسول الله في إظهار فضل المال والولد ، قوله عليه الصلاة والسلام « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، علم يتففع به ، أو ولد صالح يدعو له بخير ، أو صدقة جارية »

ومفهوم أن الصدقة الجارية معناها رصد المال للأعمال النافعة للأمة ، فإذا لاحظت أن العلم النافع لا بد لتحصيله من مال كذلك ، والولد الصالح يحتاج في تربيته إلى مال

أيضاً ، استطعت أن تحقق لنفسك أن المال كما هو نعمة الحياة الدنيا فهو آية الخلود ووسيلته بعد موت الإنسان إذا أحسن الإنسان استغلاله ، وأنفقه فيما يعود بالخير على بني الإنسان .

ولما كان الإسلام يقرر للمال كل هذا الخطر في حياة الإنسان ، فقد استحسب للمرء أن يكون موفور المال لا قليله ، ورغب في الغنى ونفر من الفقر سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة ، فقال فيما قاله لنييه عليه الصلاة والسلام « ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى » فهو يذكر لنييه أنه جنبه الفقر ورزقه الغنى ، ووفقه إلى زواج خديجة التي كانت من أغنى أغنياء قريش ، فبدلت فقر رسول الله غنى وثناء ، فاستغنى بذلك عن سؤال الناس والاحتياج إليهم والظهور بمظهر رقة العيش وخفض الجناح ، ذلك أن الناس لا تحترم مقدار ذرة من تأنس فيه الفقر والحاجة ، فوق الله رسوله شر هذا الموقف إعداداً له لحمل الرسالة والجهاد في سبيلها وما يحتاجه ذلك من مال فكان مال خديجة خير معين له على القيام بهذا الواجب ، وهو الأمر الذي ظل الرسول يشير إليه طول حياته بالخير والثناء ، فكان يترحم عليها ويشيد بذكراها قائلاً « نعم الزوجة كانت لي خديجة واستنى بمالها ونفسها وكانت وزير صدق لي في الإسلام » . وجاء في الحديث أن أحد الصحابة ذهب للنبي يستشيره فيما يوصى به لأعمال الخير بعد موته فأوصاه الرسول بالثلث ، فقال الصحابي ، ولكني أرغب في الإيصاء بأكثر من ذلك ، فكرر الرسول وصيته أن يكون الإيصاء بالثلث ، فألح الصحابي في إظهار رغبته في الإيصاء بأكثر من ذلك ، فأجابه الرسول على سبيل القطع « لا توص إلا بالثلث والثلث كثير ، لأن تترك أولادك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » وليس بعد ذلك أمر صريح لتوفير الغنى لأبناء الإنسان وتجنبيهم الفقر والاحتياج . فأنت ترى أن آيات القرآن والأحاديث متضافرة على ضرورة توفير الغنى للإنسان لا أن يقتنع بالكفاف من الرزق وما يكفي لسد غائلة الجوع وحفظ الحياة ، وذلك لكي يقوى المسلمون على تحقيق مكانتهم التي رسمها لهم الله بقوله « والله العزة لرسوله وللمؤمنين » ومن أنى للفقر أن يكون عزيزاً ؟ حسب الإنسان أن يكون زرى الهيئة لكي يحتقره الناس ، ظاهر الفقر لكي يمتنه الناس ويدوسونه بالأقدام ، وكيف يضطلع المسلمون بالأعمال الجسام والمهام الخطيرة التي ندبهم الله للقيام بها بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء على الناس مدافعين عن بيضة الإسلام رافعين علمه الخفاق في كل مكان ، مالم يكونوا أغنياء متخذين أسباب القوة والمنعة وأسلحة الدفاع والهجوم نزولاً عند قول القرآن « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ولا سبيل للمسلمين

من تحقيق ذلك إلا عن طريق المال الكثير؟؟

### الإسلام يرشد إلى الغنى

ولما كان الإسلام يكاد يأمر المسلمين بالغنى أمرًا ، فقد أرشدهم إلى طريق تحصيل الغنى والثروة ، بأن دعاهم إلى العمل والإنتاج والسعى والطلب والضرب في طول الأرض وعرضها ، بالهجرة والانتقال في طلب الرزق ، وهو ما أدركه الأوروبيون فيما أدركوا من آيات الإسلام الجليلة ، فساحوا في الأرض وهاجروا من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب ، فوجدوا في مهاجرهم الثروة والغنى ، والقوة والحرية ، بينما قعد المسلمون عن التماس هذه الوسيلة ، وأخلدوا إلى الأرض فضاقت بهم ، وكان حقاً أن تضيق ، فصاروا إلى ماصاروا إليه من فقر وشقاء ، وهكذا ما من فضيلة حصلها الأوروبيون بجدهم واجتهادهم إلا ودعا إليها الإسلام معتقيه منذ ألف وثلاثمائة من السنين .. انظر إلى القرآن وهو يشير إلى نعمة الارتحال في توفير الأرزاق والأقوات والثروة في قوله «لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف» ففي هاتين الرحلتين اللتين كان العرب يصعدون فيها شمالاً حتى يصلوا إلى أسواق الشام ، ويصوبون جنوباً حتى يصلوا أسواق اليمن كان الخير الكثير ، ومن هاتين الرحلتين البعيدتين ، جلبت قريش قوتها وثروتها ، التى تقبها شر الجوع والمسغبة . ثم انظر إلى هذه الدعوة العامة الشاملة للسياحة فى الأرض وابتغاء الرزق «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» وقوله «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»

وإليك الآن آية نسخت الدعوة إلى قيام الليل بالتهجد والصلاة تمكيناً للإنسان من ابتغاء الرزق والتماس المعاش «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله . فاقرءوا ما تيسر منه » ولم يشمل التخفيف النوافل من العبادات فقط ، بل امتد حتى تناول فرائض العبادات وأمهاتها . فرخص الدين للمسافر أن يقصر الصلاة وأن يجمعها ورضى له فى المسح على الخفين ، وذلك كله ليتمكن المسلم من سهولة الانتقال والسفر والسعى خلف رزقه ومعاشه . وكذلك نبه الرسول إلى أهمية العمل للمسلم وضرورته ، فقال فى أحاديثه «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» . وروى عنه

البخارى أن قال « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

وقد فهم خلفاؤه هذه الروح ، فعمد أبو بكر غداة انتخابه للخلافة إلى السوق ليتجر حتى أقنعه المسلمون بالعدول عن ذلك ، على أن يكفوه مؤونة الحاجة وكان عمر يحث الناس على الجد والسعى والطلب فكان يقول « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق . ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » وكان زيد أبو مسلمة يفرس في أرضه فقال له عمر أصبت استغن عن الناس يكن أصدق لدينك وأكرم لك عليهم كما قال صاحبكم أصيحة :

فلن أزال على الزوراء أغمرها  
إن الكريم على الإخوان ذو المال<sup>(١)</sup>  
وتلك هي روح الإسلام ، وهذه دعوته الناصعة للعمل واستثمار المال .

### محاربة الإسلام لآفات المال

بعد أن نبه الإسلام إلى أن العمل والإنتاج والمهاجرة هو سبيل الغنى ، راح يضع الأنظمة لحسن إدارة المال وما يزيكه ويضاعف في بركته ونعمته على الناس أجمعين ، فقد رأينا أن المال عنصر خطر إذا احتكره أقوام وحالوا دون وصوله إلى الآخرين ، أو اتخذوه وسيلة لإرهاب المحتاجين والمعوزين ، أحدث ذلك الغبن والشور ، وخلق الجريمة ، فجاء الإسلام يعالج ذلك كله علاجاً ناجعاً شافياً موفقاً ، وآفة المال الأولى والكبرى هي حبسه عن التداول والامتناع عن إنفاقه والشح به والفضن به على الفقراء والمعوزين ، فتوعد من يفعل ذلك بأشد صنوف العذاب الرهيب وشدد عليهم في القول ووصفهم بأشنع الأوصاف الذميمة كقوله « إن الله لا يحب من كان مختلاً فخوراً » « الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » ٣٧ النساء « ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » ١٧٩ آل عمران « الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » - ٣٤ ، ٣٥ التوبة ، وأمثال هذه الآيات

(١) رواه الغزالي .



كثيرة في القرآن ، وهى تدمم البخل وتجعله من أكبر الكبائر التى يمكن أن يتصف بها الإنسان ، حتى روى عن الرسول أنه قال « خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق » .

على أن القرآن والسنة لوقوفاً عند هذا الحد ، حد التخويف والتهديد بعذاب الآخرة ، لما كان لهذه الدعوة الأدبية من أثر يفوق أثر المسيحية ، ولكن الإسلام جاء بتشريع عملى اقتصادى سبق فيه أوروبا وجميع المذاهب الاشتراكية التى تتيه بها حضارة القرن العشرين ، وذلك بأن فرض على الأغنياء نصيباً معلوماً تنقضاءه الدولة منهم بقوة التشريع لتصرفه على الفقراء والمحتاجين ، وذلك بقوله « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وهو ما يسميه الإسلام بالزكاة ، وما جعله ركناً أساسياً من أركان الدين لا يقوم الدين إلا به ، ولم تكن الفتنة الكبرى التى قامت عقب وفاة الرسول إلا رغبة من العرب فى التحرر من هذا القيد المالى المفروض على أغنيائهم ، فكانت حروب الردة التى أصلى فيها أبو بكر المرتدين ناراً حامية ، حتى أخمد الفتنة وأقر القاعدة الإسلامية الكبرى ، قاعدة الزكاة ، والتى تضرب عصفورين بحجر واحد لفائدة المجتمع ، وتُطهر المآل من آفاته الكبرى ، فهذا المآل الذى يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء ، من شأنه أن يحارب الفقر الشديد والفاقة ، بأن يوفر للمحرومين والعجزة والضعفاء قوتهم ورزقهم ، فيحول بذلك بينهم وبين الكفر والإلحاد ، أو الثورة والعصيان وقيام شر التفكير فى الجريمة ، فضلاً عن الإقدام عليها. ويقضى فى نفس الوقت على رذيلة الضن بالمآل والبخل به فى نفوس الأغنياء ، ويحول دون حبسه عن الاستغلال فلا مناص للفقير بعد اقتطاع هذه الضريبة من أن يستثمر ماله ويحسن استثماره ، لأنه إذا ظل على حبس ماله ينتهى به الحال إلى الفناء عن طريق هذه الضريبة السنوية التى تقطع جزءاً هاماً من رأسماله . وقد شوهد هذا الأثر بجلء فى الأمم الحديثة حيث فرضت الضرائب على أرباح الأموال فاضطر الأغنياء لمضاعفة مجهوداتهم فى العمل والإنتاج للاحتفاظ بمستواهم الرفيع ، فلم يعد هناك غنى يقعد عن العمل أو يجبس ماله عن الاستثمار ، وإلا ألهمت الضرائب المختلفة رأسماله بالتدريج . وكلما ارتفعت الضرائب فى المجتمعات الحديثة كلما تضاعف الإنتاج .

وهكذا عالج الإسلام بفرض الزكاة أخطر آفات المآل وأكثرها تدميراً للمجتمعات ، فالله لم يخلق المآل لكى يودع فى باطن الأرض أو جوف الخزان وفى حنايا الجدران ، وإنما خلق ليكون أداة من أدوات الإنتاج والتعمير ، وإشباع حاجات الإنسان المختلفة

التي تحقق تطوره وارتفاعه وذلك لا يكون إلا بإتفاق المال واستثماره وتداوله وعدم احتكار الأغنياء له .

### الحل من طغيان الرأسمالية

أما الآفة الثانية للمال فهي أن يتحول إلى أداة طغيان يتحكم به الغنى في رقاب العباد وذلك بأن يستغل عوز المحتاجين لكي يقرضهم المال بالأرباح الفاحشة التي لا تلبث أن تتراكم حتى تلتهم جهود العاملين وأموال الفقراء والضعفاء وهو ما يطلقون عليه في العصور الحديثة سيطرة الرأسمالية وقد عمدت الحكومات الحديثة تحت تأثير المذاهب الاشتراكية إلى الحد من سيطرة رؤوس الأموال وتقليل أظافرها والحيلولة بينها وبين أن تكون أداة للطغيان وتطرفت بعض المذاهب إلى حد إلغاء رؤوس الأموال جملة فلا تبقىها بين الأفراد وإنما تحولها إلى يد الجماعة ولم يصادف هذا الإجراء الشيوعي نجاحاً فعانت روسيا من تطبيقه أشر ما تعانيه في حياتها فاضطرت الدولة إلى التراجع عن تطبيق هذه المبادئ المتطرفة والعودة إلى الأنظمة الاشتراكية التي تحدد نطاق الملكية ولكنها لا تلغيها وتفل من قوة رأس المال ولكنها لا تنكره . على أن هذه الحلول كلها لم توفق إلى ما قرره الإسلام من تشريعات قضى بها على شرور رأس المال وذلك بتحريمه الفائدة تعريماً تاماً مطلقاً صغيرة كانت أو كبيرة . فأفقد المال صفته كعنصر أساسي من عناصر الإنتاج وأبقى الإنتاج كما هو في طبيعته ثمرة من ثمرات العمل فالذهب لا يولد ذهباً والفضة لا تولد فضة وإنما العمل وحده هو الذي يخرج إلى الوجود مواد كانت غير موجودة من قبل فهو ينبوع الثروة الحقيقي وهو الجدير بثمرة مجهوده فلا يقعد الرجل الغنى عاطلاً في بيته عن العمل والإنتاج مكتفياً بإقراض نقوده للآخرين بالفوائد والأرباح المركبة فيشقون ويكدحون حتى إذا أثمر كفاحهم شاركهم صاحب المال الذي لم يفعل شيئاً وشاركهم الأسد فحصل على أكبر الحصص بل إن حصته قد تلتهم كل ما أنتجه العمل من ثمرة وحتى في حالة إخفاق المشروع وعدم إثمار العمل الثمرة المرجوة يظل صاحب المال يطالب بماله وفوائده لأن حق المال المقترض لا يتعلق بالكسب أو الخسارة ولا يقتصر هذا الحق على رأس المال الأصلي بل يتناول فوائده كذلك والتي قد تكون تضاعفت حتى زادت عن المبلغ الأصلي وهذا هو أشر ما تنطوي عليه الرأسمالية ، فوضع إبطال الفائدة وتعريمها حدا لهذا الشر والوباء . فلا سبيل للغنى في استثمار ماله عن طريق الإقراض وإنما لا بد له إذا أراد أن يستثمر هذا المال أن ينزل به إلى حلبة العمل والإنتاج متحملاً نتائج ذلك من مكسب وخسران . وتحاول المذاهب والحكومات الاشتراكية الوصول إلى هذه النتيجة فنجحت إلى حد كبير

في تخفيض سعر الفائدة وجعلت الأرباح الفاحشة جريمة يعاقب عليها القانون ونزلت في كثير من الأحيان بسعر الفائدة حتى جعلته لا يتجاوز ٣ في المائة أو ٢ في المائة وأقل من ذلك . ولكنها لم تستطع إلغاءها حتى الآن إلغاء تاماً كاملاً كما قرر الإسلام فلا عجب إذا كان لا يزال للرأسمالية بغض السلطان الضار حتى في أكثر المجتمعات اشتراكية ومحاربة للرأسمالية .

يقول القرآن « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون - يحق الله الربا ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم - إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين - فإن لم تفعلوا فآذونا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظَلَّمُونَ » (٢٧٥ - ٢٧٩ البقرة) . وقد أبطل الرسول بناء على هذه الآية الربا ، والفائدة على رأس المال إبطالاً مطلقاً ، وكان آخر ما نص عليه في خطبة الوداع وهو يودع الدنيا إعلان رجعية هذا القانون وأنه يسرى على ما مضى فلا يحق لإنسان أن يطالب إنساناً بفوائد ماله بحجة أن ذلك كان سابقاً على حكم القرآن . وهكذا أجهز الإسلام على آفة المال الثانية .

### حَثَّ الإسلام على إنفاق المال واستثماره

لم يقف الإسلام عند حد تجريد المال من آفاته بما فرض عليه من ضريبة الزكاة وإلغائه الفوائد الربوية ، وإنما دعا بعد ذلك لإحسان استغلال هذا المال واستثماره فيما يعود بالنفع على الجماعة واصفاً كل نفقة تصرف لهذا الغرض أنها إنفاق في سبيل الله يباركه الله ويمجزيه أحسن الجزاء في الدنيا ويوم يقوم الناس لتأدية الحساب . فأشار القرآن إلى أن المال يربو ويزداد بالإنفاق النافع للجماعة وأنه لا خطر يهدد المال من إنفاق المال في الأعمال الصالحة بل إن كل ما يصرف في هذا السبيل مردود لصاحبه بالزيادة والأرباح المضاعفة في الدنيا والآخرة « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تَظْلِمُونَ » « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم » ٢٦١ البقرة « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » ٢٧٤ البقرة . « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين

ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين -  
١٣٤ آل عمران .

وقد يظن أقوام أن معنى الإنفاق في سبيل الله هو بناء المساجد أو توزيع الصدقات على المتسولين ولكن ذلك فهم خاطئ لمعنى الإحسان ولما يريد الله لعباده من صلاح الأحوال فالله لا يريد لعباده وحاشاه أن يتحولوا إلى شحاذين ومتسولين أو قاعدين كسلا عن العمل . والله من ناحية أخرى لا يطرب أو يفرح لتزيين المساجد بماء الذهب وتعليق أبوابها بالجواهر واليوافيت والله يمقت كل المقت أن ترفع باسمه النصب والأوثان وأن تحرق بين يديها القرابين فهذه كلها مظاهر الوثنية القديمة والتي جاء الإسلام لحربها والقضاء عليها وجعل الدنيا كلها مسجداً واحداً يتعبد فيه الله بصالح الأعمال . وفي هذه المعنى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » فكل عمل نافع للناس هو عبادة لله . وكل مال يندل في هذا السبيل فهو إنفاق في سبيل الله . فالمصانع التي تقام لإيجاد عمل للمتعطلين الذين لا يجدون قوتهم هو إنفاق في سبيل الله وكل إنتاج لحاجات الناس الضرورية هو عمل وإنفاق في سبيل الله . وإنشاء صروح العلم كالمدارس والجامعات والمكتبات والمقاصف هو إنفاق في سبيل الله . ومحاربة الجهل والأمية والخرافات والعادات البالية ومحاربة الضعف والمرض والفاقة والقذارة والفقر بكل ضروب المحاربة هو عبادة من أنفع العبادات . وكل إنفاق في هذا السبيل هو إنفاق في سبيل الله . فلا يحسن أحد أن الإنفاق في سبيل الله ليس له إلا صورة واحدة هي صورة إعطاء القروش والملايم للشحاذين والمتسولين ، وإنما إنفاق المال الصالح ليست له صورة معينة أو أسلوب محدد فهو يتطور بتطور الظروف وحاجات الجماعة فما يصلح في زمن قد لا يصلح لزمن آخر وما قد يكون فضيلة في بعض الأوقات قد ينقلب إلى رذيلة والعكس بالعكس . ففي مصر مثلاً كانوا في بعض العصور كلما أرادوا الإنفاق في سبيل الله شادوا لذلك مسجداً وزخرفوه وزينوه حتى أصبحت المساجد في القاهرة أكثر عدداً من المصلين وأصبح أكثرها أمكنة للفرجة والتسلية ودراسة الآثار أكثر منها أمكنة للعبادة ... فلو أن غنياً قام اليوم بإنشاء مسجد وصرف فيه عشرات الألوف من الجنيهات ، وهناك مئات وألوف من العاطلين يبتغون العمل والرزق الحلال بإنشاء مصنع يسد بعض حاجات المسلمين ويغنيهم عن الالتجاء إلى الأجانب المستعمرين ، لكان عمله في إنشاء المسجد عبثاً ورذيلة لا يقصد به إلا الرياء والنفاق فإن المسلمين ليسوا في حاجة إلى مسجد جديد ولكنهم في حاجة إلى مصنع ، فإنشاء المصنع لفائدة المسلمين هو في هذه الحالة إنفاق في سبيل الله . وفي تركيا القديمة اتجه المحسنون بأموالهم لإنشاء التكايا والزوايا ليأوى إليها

العجزة والشيخوخ والضعفاء ثم أسرفوا في ذلك إسراراً انتهى بهذه التكايا أن تكون ملاجئ العاطلين والمهرجين والدجالين الذين راحوا يتجرون باسم الدين فملأوا الأرض فساداً وشناراً مما دفع الكمالين للثورة على الدين جملة بسبب ما عانوه من هذه الأوهام والضلالات .

وهكذا قد يكون إنفاق المال في طريق خاطئ وعلى صورة واحدة سبباً في إحداث ضروب من الفساد كبيرة والحق أن الإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في سبيل رقي المجتمع وتطوره وتمتعه بأكبر من الرفاهية والعزة ورقى المجتمع ليس له أسلوب واحد ولا ناحية معينة . فالمستشفيات لازمة لرقى المجتمعات ، لزوم المدارس ، لزوم المصانع لزوم المؤسسات العسكرية والرياضية . فكل استغلال للمال لتحقيق هذه الأهداف هو إنفاق في سبيل الله ... والله لا يريد من عباده أن يطعموه أو يرزقوه وإنما يريد منهم أن يطعموا بعضهم بعضاً ، والله لا يريد من عباده مالاً أو متاعاً وإنما يريد منهم أن يعطوا هذا المال للمحتاجين والمحرومين ، والله لا يريد بعباده العسر وإنما يريد بهم اليسر والله لا يطلب من الإنسان في أى عمل من أعماله إلا نيته وضميره فإذا صلحت هذه النية ورغبت في نفع الآخرين فهذه هي العبادة الحققة وتلك هي التقوى التي يطلبها الله من عباده ويجزل عليها ثوابه وعطاياه . وقد جاء في الحديث : ..

« من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » رواه مسلم .

### الجهاد في سبيل الله

وغنى عن البيان أن أكمل صور الإنفاق في سبيل الله هو تخصيص المال لإعزاز الحق بصفة عامة ومحاربة الطغيان ودفع الظلم ونشر العدل في أرجاء العالمين لأن نصرة هذه الحقوق الأساسية لبنى الإنسان هي بمثابة إقرار العدالة الإلهية على الأرض . فالجهاد والإنفاق في سبيله هو أرفع درجات الجهاد والإنفاق على الإطلاق فإن النفع هنا لا يقف عند طائفة دون طائفة ولكنه يعم سائر البشر والكائنات . وقد جاهد الرسول وصحبه الأولون لتطهير البشرية من دنس الوثنية وخرافات وأوهامها وتخليص العقل البشري من كابوس الأباطيل والأساطير وتحكم الكهان والقساوسة ورجال الدين الذين انتحلوا الوساطة لأنفسهم بين البشر وخالفهم فأنفق الرسول وصحابته أموالهم في هذا السبيل

وجاذوا بكل شيء لتحقيق هذا المثل الأعلى للبشرية من الحرية والعدالة المساواة . فهذا أبو بكر رصد أمواله كلها لنصرة هذا الدين في كل أدواره فكان يشتري الأرقاء المسلمين الذين يعذبهم أسيادهم ثم يحررهم ويطلق سراحهم عند ما كان الإسلام وليداً . ثم سخر ماله بعد ذلك في تجهيز الجيوش بالسلاح والعناد عند ما جاءت الساعة لنصرة الحق بقوة السيف والسلاح ، وقد أكرمه الله من أجل ذلك الكرامة الكبرى في الدنيا والآخرة ووعد سلفاً بما سيناله من نعيم ورضاء فبشره في القرآن بقوله « وسيعجبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » وقد أَرْضاه الله في الدنيا فرفعه إلى أعلى عليين إذ جعله خليفة الرسول الأمين تسير بأمره وتحت لوائه الجيوش شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لتضرب في الأرض غازية منتصرة تدك عروش الظلم والاستبداد وتنشر العدل والنور المبين .

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى حمل من ماله لرسول الله في غزوة تبوك لتجهيز الجيش المتوجه لقتال الروم ألف دينار فنثرها في حجر الرسول الذى راح يقلبها في حجره مبتهجاً وهو يقول ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم .

كان هذا هو الجهاد في صدر الإسلام حيث كان المسلمون غزاة فاتحين أما في أيامنا الحاضرة فقد انعكست الآية وأصبح المسلمون مدافعين بل ومغلوبين على أمرهم ومحكومين بأعدائهم الذين سلبوهم كرامتهم وحریتهم وشرفهم ، وقد أصبح الجهاد في سبيل الله يتلخص في صورة واحدة ، وهى العمل آناء الليل وأطراف النهار لتخليص أوطان المسلمين من براثن الاستعمار وتحريرها من غارة المغيرين ، ثم تزويد المسلمين بعد ذلك بكل ما يرفع من شأنهم ويؤكد كرامتهم وحریتهم ويحقق قوتهم وعزتهم . وكل مال يصرف في هذا السبيل هو ما يرتفع بصاحبه إلى الدرجات العلى ويطهره ويزكّيه وينعشه في زمرة الشهداء والصديقين . ولما كانت محاربة الاستعمار الأجنبي مهمة شاقة متعددة الصور والنواحي فقد أصبح ما يصلح لبلد قد لا يصلح في بلد آخر وقد يكون أمر من الأمور مهما في بلد من البلاد وهو في الدرجة الثانية من الأهمية في بلد ثان فعلى المنفق أن يتحرى وجه الصواب في إنفاقه كما قدمنا وأن لا يلتزم لوئاً معيناً من ألوان الإنفاق فحيث يكثر نصيب المسلمين من الحرية ويكون بقدرتهم تجهيز الجيوش وصنع السلاح يكون ذلك هو المهم الأول فتصبح صناعة الطائرات والدبابات واستخراج الحديد والكهرباء وشتى صنوف المعادن اللازمة للأسلحة والأساطيل الحربية والتجارية ، كل هذه يصبح الإنفاق في سبيل إنشائها وإعدادها هو الذروة العليا من الجهاد في سبيل الله . وفي بلاد أخرى حيث

يكون تحكم المستعمر بحيث لا يسمح بإنشاء الأسلحة يستعاض عنها بنشر التعليم ويكون ذلك هو تدرج في سبيل قهر العدو الأجنبي والذي لا يستطيع أن يحكم المسلمين إلا من خلال الجهل . وقد تكون البلد في حاجة للتحرر اقتصادياً من ربة الأجنبي فيكون الكفاح الاقتصادي ساعته هو كفاح ديني وهكذا .

## الفصل الثاني

### كيف تحصل على الثروة

#### العمل والادخار هما ينبوع الثروة

أما وقد فرغنا من إظهار فضيلة المال والغنى وضرورتها للمجتمع ، وأن الكمال يتحقق في الغنى لا في الفقر ، وبيّنا موقف الإسلام من ذلك كله . فقد بقي أن أُبين لك كيفية الحصول على الثروة والغنى . ولقد عرفت حتى الآن أن العمل هو أساس الثروة وينبوع المال ولكن العمل وحده لا يكفي لتحقيق الغنى بل لا بد أن يكون مصحوباً بعنصر آخر وهو عنصر الادخار وإلا تبددت ثمرة العمل وتبعثرت ، فلم تتكامل ولم تتجمع لتحدث أثرها القوي الفعال . فالادخار ضرورة العمل . هذا العمل الذي يجب أن يكون شاقاً متتابعاً وخاصة في البدء عند الأساس في هذه الفترة يجب المثابرة على العمل والصبر على مكارهه . وإذا كان الناس يعملون ثماني ساعات فعلى ملتزم الغنى أن يعمل عشرة أو اثني عشرة ساعة إذا كانت قواه تمكنه من ذلك وتسعفه بغير ضرر . ذلك لأن رأس مال الإنسان هو قوته البدنية والعقلية .

وعلى الإنسان أن يحصل في شبابه على أكبر نصيب من هذه الثروة حيث لا يضرب العمل بصحته بل على العكس يقوّيها ويشحذها . على أن العمل كلما كان يعتمد على قوة العقل كلما كان أدر للربح في عصرنا الحديث حيث حلت الآلات محل القوة العقلية فالآلة تعطينا من القوة مالا يعطيه ألوف من الناس مجتمعين ولكن هذه الآلة مهما بلغت قوتها فلا غنى لها عن عقل الإنسان لإدارتها . فليكن عملك الذي تختاره إذن عملاً عقلياً لأنك بهذا تظل سيداً للآلة فلا تهبط أجرتك بل تظل ترتفع كلما تطور مجهودك العقلي ..

على أن العمل وحده كما قلت لك لا غناء فيه إن لم يكن مصحوباً بالادخار فهناك كثير من الناس يعملون الليل والنهار ومع ذلك فهم فقراء ، بينما لا يعمل الأوروبي إلا ثماني ساعات ويرتاح يوماً في الأسبوع ، ومع ذلك فهو يكبر وينمو ويقتني الثروة بما لا يصل إليه الشرقي ، وهذا ما حدا بالأغلبية الساحقة من المسلمين والشرقيين على العموم



إلى الاستسلام للفقر ظناً منهم أن الغنى هو حظ وأرزاق وهم يعتقدون أن الحظوظ تحبب خطب عشواء ولم يدفعهم إلى ذلك الوهم الخاطئ إلا أنهم جهلوا فضيلة الادخار وجهلوا أنها بالإضافة إلى العمل هي الأسلوب الذى يؤدى إلى الثروة .

فالحظوظ لا تحبب خطب عشواء ولكنها تعمل وفق نواميس وسنن ككل شىء فى هذا الوجود . حقاً إن هذه النواميس والسنن تحرق من حين لآخر بآية من آيات الشذوذ لإظهار قوة الخالق المسيطر على الكون وأنه قادر على فعل كل شىء . ولكن هذا الشذوذ الطارئ لا يصل إلى حد القضاء على الناموس الثابت الذى وضعه الخالق بداءة ذى بدء بمحض قدرته وإرادته . فسنة الحياة مثلاً أن كبار السن يموتون قبل صغارهم ومع ذلك فنحن نرى من حين لآخر أقوياء يموتون وضعفاء يعيشون وشباناً يهلكون وكهولاً يعمرّون ، ولكن ذلك لا يغير القاعدة الأساسية والناموس الطبيعى من أن الحياة البشرية لها دورة لا بد لها من إكمالها ، فتبدأ ضعيفة ثم تقوى وتثبت وتتكامل ثم تعود من جديد نحو التناقص فالضعف والفناء . فإذا رأينا طفلاً سليماً فقد وجب أن نتوقع نموه إلى أن يصبح صبيّاً ، وإذا رأينا الصبي فقد وجب أن نتوقع صيرورته شاباً وهكذا . وتلك هي سنة الحياة لا يغيرها الشذوذ الذى يقع من حين لآخر . ولعل هذا الشذوذ هو الذى يؤكد القاعدة وإلا لما اعتبرناه شاذاً .

فكذلك موضوع الأرزاق فإن له سنة واضحة وناموساً ثابتاً يتلخص فى هذه الكلمات القصيرة التى يعرفها كل إنسان ويحفظها عن ظهر قلب وقلماً يعمل بها .. ألا وهى : « من جد وجد - من صبر ظفر - من سار على الدرب وصل - لكل مجتهد نصيب » .

وعلى هذا الأساس فمن أراد الغنى فالسبيل مفتوح أمامه على شريطة أن يحقق أسباب ذلك وهذه الأسباب تتألف من العمل والادخار .

يعترض البعض على الادخار بأن ما يصل إليهم لا يكاد يكفى لسد حاجاتهم الضرورية فكيف يقدرّون على الادخار ؟ ويظنون أن الادخار قاصر على الأغنياء وهكذا يعكسون القضية ليرفعوا عن أنفسهم المسئولية . فالادخار شريعة عامة لمن يريد الانتفاع بثمرة عمله وجهده ، والتدرج فى سلم الارتقاء وهو للفقير ألزم منه للغنى ، ولن يسد حاجاته الضرورية بشق النفس ألزم منه للذى يجدها يسيرة متوفرة . إذ ما الذى يحل بالفقير لو أنه حرم رزقه الذى يحصل عليه بكده فى أحد الأيام لأى سبب من الأسباب لن يكون نصيبه فى هذه الحالة إلا التلف وتجرع الغصص مع أنه لو ادخر قليلاً من هذا القليل الذى

يُحصله كل يوم لوقاه هذا القليل من التلف وأعاناه على استعادة قوته واستئناف سعيه وجهاده .

فالادخار هو سلاح الفقير قبل أن يكون سلاح الغنى .

### السر في النجاح الأجنبي في بلادنا

يأتى الأجنبي من خارج بلادنا فقيراً معدماً على أسوأ حال فلا يلبث بعد عشر سنوات أن يصبح غنياً ، ويستطيل على ألوف من أبناء البلد الفقراء ، لا لأنه يمتاز عنهم بالذكاء فحفظ المصرى من ذلك وفير ، أو لقدرته على العمل فحفظ المصرى من ذلك كبير . فهو الذى بنى الأهرام وشق قناة السويس ومد السكك الحديدية فى أحشاء الصحراء وبنى الخزانات وشق الترع وذلّل الصعاب ، وهو الذى يعمل فى حقله من الصباح إلى المساء . فالمصرى لا ينقصه النشاط أو المهارة ولكن تنقصه فضيلة الادخار . ادخار ثمرة عمله ليكون غنياً . فتفوق عليه الأجنبي فى هذا الباب لأنه يعرف كيف يدخر فيؤلف لنفسه رأس مال يصبح به بعد قليل رب عمل يؤجر المصرى الذى يظل طول حياته عاملاً لحساب غيره .

وتلك لعمري رذيلة من أكبر الرذائل التى يجب اقتلاعها من نفوس المصريين . وأعنى احتقارهم الادخار وانصرافهم عنه . وكثيراً ما يسخر المصرى إذا رحت نخدته عن الادخار وكيف انه قد يكون سبيلاً للغنى والثروة لأى رجل فقير وقد لا يزيد ما يبدأ به ادخاره عن نصف قرش فى اليوم ويعمد الساخر بفن الادخار إلى إجراء عملية حسابية يعزز بها قصته من إنكار فضل الادخار . ليقول لك نصف قرش فى اليوم معناه خمسة عشر قرشاً فى الشهر ، معناه مائة وثمانون قرشاً فى آخر العام . أى جنيهاً مع التسامح أو عشر جنيهاً فى خمس سنوات ، وعشرون جنيهاً فى عشر سنوات ، فما هى قيمة عشرين جنيهاً يجمعها الإنسان بعد كد متواصل لمدة عشر سنوات ؟؟ هذا إذا عاش الإنسان وهل ضمن الإنسان حياته يوماً واحداً فضلاً عن عشر سنوات ١٢ . إلا أن الادخار ضرب من ضروب تحدى الأقدار التى إن شاءت أطعمتك ، وإن شاءت أجاعتك . وتلك هى فلسفة السواد الأعظم من هؤلاء البؤساء المساكين . أما بخصوص العمر وطوله وضمان الحياة فذلك موضوع كبير لن أعرض له الآن بالتفصيل وحسبى أن أشير إلى الآية القرآنية الكريمة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، وإلى القول المأثور : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » فهذا أمر صريح فى أن الإنسان مطالب أن يعمل لدنياه وبغير هذا لا تكون حياة ولا يكون عمران

ولو اعتقد كل إنسان أنه سيموت بعد أسبوع أو بعد شهر أو بعد خمس سنوات لما وجدت إنساناً يخطو خطوة واحدة إلى الأمام . فأساس الحياة وال عمران جهل الإنسان مصيره . وعدم تفكيره في الموت واندفاعه في تيار الحياة إلى ما شاء الله ، أما بالنسبة للعملية الحسابية التي يحاولون بها الغرض من قيمة الادخار وإظهار تفاهة القليل المدخر فهي عملية خاطئة ، لأن ادخار المال يجب أن يكون مشفوعاً بالعمل كما قدمنا فلا غنى لأحدهما عن الآخر . والعمل بالنسبة للمال هو استثماره في كل ما يعود على الإنسان بالنفع والتطور وعلى الأساهل فلن يكون نتيجة الادخار هو عشرون جنيهاً بعد عشر سنوات بل ربما ألفاً من الجنيهات ، وربما أكثر من ذلك بكثير ، كما يظهر لك ذلك من المثال التالي :

إن هذا الذي لا يدخر سوى نصف قرش في اليوم لا يمكن إلا أن يكون فقيراً جداً فلنفرضه بائعاً صغيراً متجولاً يحمل بضاعته فوق رأسه ويدرع المدينة من الصباح المبكر حتى المساء المتأخر لبيع بضاعته ، التي لما كان مضطراً لحملها على عاتقه فهي محدودة الكمية لا تسمح له بربح كبير . مثل هذا الرجل وهو يوفر نصف قرش في اليوم يستطيع بعد عامين أن يشتري له عربة بالجنيهات الأربعة التي تجمعت لديه من اقتصاده فإن لم يكن بعد عامين فبعد ثلاثة . والمهم أنه فتره من الزمن يستطيع أن يخطو خطوة نحو تحسين حاله فبدلاً من أن يحمل كمية صغيرة من البضاعة فوق عاتقه فإنه يستطيع أن يضاعف حمولة بضاعته بعد شراء العربة ويصبح أكثر جلدًا وقدرة على توزيع بضاعته . وسيؤدي ذلك إلى مضاعفة أرباحه وبالتالي مضاعفة ما يوفره ، فيكون له في آخر العام ما كان يحتاج إلى عامين لتوفيره فبعد سنتين آخرين أو ثلاث سنوات يكون قادراً على أن يتتاع من ادخاره ذابة تجر له عربته فيصبح مالكا لعربة ودابة أو بالأحرى يصبح له رأس مال صغير يحمل التجار الكبار على الوثوق به بأكثر مما كانوا يفعلون وهو لا يملك قليلاً أو كثيراً وسيرون في جده وإقدامه ما يحملهم على الاطمئنان إلى قدرته وكفاءته فيزيدون في كمية البضاعة التي يعهدون إليه بتصرفها ، وهذا من شأنه أن يزيد في أرباحه ، فيستطيع بعد عامين أو ثلاثة أعوام أخرى وقد زاد القدر المدخر أن يفتح لنفسه مكاناً ثابتاً لبيع بضاعته ، وبذلك يصبح تاجرًا صغيراً . والتاجر مهما صغر أمره فقد وضع قدمه على سلم الغنى فما عليه إلا أن يخدم مهنته وأن يتبع الأمانة والصدق في معاملته حتى يصبح ولاحد لتطوره وارتقائه مادام يواصل ادخاره بنسبة تطوره ثم يستثمر هذا المدخر في الوقت المناسب فيما يزيد في قوته ويحسن حاله .

وليس هذا المثال الذى قدمته من نسج الخيال أو وهما من الأوهام ولكنه صورة صادقة لما اتبعه ألوف من الأجانب الذين وفدوا على هذه البلاد فقراء فأصبحت لهم الآن أعظم المتاجر التى يشار إليها بالبنان . كما أن هناك ألوفاً من المصريين كذلك شقوا طريقهم إلى الثروة فى القديم متبعين هذا الأسلوب ، وهو جمع المليم وشراء القيراط من الأرض واستثماره وادخاره المستمر فى شراء قيراط آخر فلا يلبث القيراطان أن يمكننا المزارع المجتهد من شراء قيراطين ، والأربعة قيراط يمكن من شراء نصف فدان والفدان ثلاثة ، والثلاثة عشرة ، والعشرة خمسين ، والخمسين مائة ، والمائة خمسمائة ، حتى وصل بهم إلى امتلاك ألوف من الفدادين .

كان ذلك فى القديم عندما كان المصريون يحتفظون بفضائلهم ولم يكن سلب حريتهم قد أفقدهم التفكير السليم والأخذ بأسباب التطور والارتقاء . ولا يوجد غنى واحد من أغنياء الدنيا العظام لم يبدأ صغيراً فقيراً وهذا مورد أغنى أغنياء العالم بلا مراء قد سار فى هذا الطريق الذى رسمته لك طريق الادخار وصعود السلم من أول درجاته . حقاً إن هؤلاء الأغنياء لهم عقول ممتازة ولكن أؤكد لك أن هناك ألوفاً من البشر يفوقون هؤلاء فى امتياز عقولهم ولكنهم ينقصون عنهم فى قوة إرادتهم التى مكنتهم من ادخار بعض دخلهم على ضالة هذا الدخل فاستطاعوا أن يؤلفوا رأس مالهم الصغير الأول الذى وضعوا به أقدامهم على عتبة الغنى .

فالغنى كما ترى هو فى متناول أى إنسان وليس هو ضرب من ضروب السحر وإنما سبيله العمل والادخار والاستثمار فما على الراغب فيه إلا أن يسلك طريقه يجد وإقدام وعزم وصبر وإرادة وأما هؤلاء الذين يلتمسون الغنى بترقب ليلة القدر ليظهر الله عليهم الذهب والفضة أو يشق لهم الأرض عن كنز من الكنوز فهؤلاء يمكنهم أن ينتظروا حتى قيام الساعة فقد علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » .

## مهلكات الثروة

ذلك طريق الحصول على الثروة أما المحافظة على هذه الثروة من الضياع لإحسان الانتفاع بها خير انتفاع فيحتم على الإنسان أن يتجنب ثلاث مهلكات للثروة . وهى التبذير والاستدانة والمقامرة . والتبذير هو إنفاق المال بغير حساب ولغير غاية سوى السرف واللهو والعبث .

## التبذير

إن المال هو ثمرة الكد والتعب والادخار كما رأينا وهو الوسيلة لتحقيق أشرف الغايات ، فإذا أنفق بغير حساب أو احتياط ولغير غاية فإن الحال ينتهى به إلى الضياع المحقق فضلاً عما يخسرهُ المجتمع بتبدد هذه القوة المجتمعة من الخسائر الجمة . وما أقسى الآلام التى يتجرعها الغنى الذى فقد ماله بالتبذير والإسراف ، إنه ليعانى من الآلام ما لا يعرفه الفقير الذى عاش طول عمره محروماً ذلك أن الغنى كانت حاجاته قد تعددت واتسع أفقه واعتاد ألواناً من الطعام والملابس لا يقوى على الحياة بغيرها فإذا حرم منها بسبب فقره فهذا هو العذاب الدائم والجحيم المقيم ، وقد نبه القرآن وهو الذى رأينا شدة حرصه على حسن استغلال المال وإنفاقه إلى هذا الخطر الذى يهدد المال فقال فى محكم آياته « وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » وقال « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » والقرآن يصف المؤمنين فى أسمى درجاتهم بأنهم « والَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » فالقرآن يكره التبذير للمؤمنين ويحذرهم منه لأنه طريق الفقر ويأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق ويرى فى ذلك الفضيلة فيؤكد بذلك قول أرسطو فى تعريف الفضيلة وأنها « الوسط بين طرفين » .

وآية التبذير أن يكون الإنفاق لغير غاية نافعة بل وضارة بالشخص كمحاولة إثارة الغرائز والشهوات ثم العمل على إطفائها . فأن يكون للإنسان سيارة مثلاً فهذه ضرورة لا بد منها للرجل العامل فى عصرنا الحديث أما الغنى فيحق له أن يمتلك سيارة ثانية لتكون بمثابة احتياط فى حالة عطب الأولى فإذا اقتنى سيارة ثالثة فقد يكون لها بعض النفع على كل حال ، ولكن عندما يمتلك خمس سيارات لا لشيء إلا ليكون عنده خمس سيارات ، وإذا زاد على ذلك ما يفعله بعض السفهاء من تغيير هذه السيارات شهراً بعد شهر لكى يبدو أمام الناس كل يوم ممتطياً سيارة جديدة ، فهذا هو التبذير والإتلاف الذى يؤدي حتماً إلى الضرر بالفرد والجماعة ولذلك يصبح حتماً على المجتمع أن يتدخل فى مثل هذه الحالة ليحول دون العبث والاستهتار .

ومن ناحية أخرى فليس يعتبر تبذيراً كل مال وُجِّهَ إلى صالح الأعمال ، وقد يتزل الإنسان فى هذه الحالة عن كل ماله فلا يكون عمله تبذيراً بل آية من آيات العبقريّة فى استثمار المال ، مثال ذلك ما حدث فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعا إلى الاكتتاب لتجهيز الجيش الذاهب إلى تبوك لمحاربة الروم فقد حمل أبو بكر الصديق رضى

الله عنه للنبي كل ثروته وكانت تبلغ أربعة آلاف درهم فقال له الرسول هلاً أبقيت شيئاً لعيالك ؟ فأجابه أبو بكر على الفور : لقد أبقيت لهم الله ورسوله ، وكان هذا جواباً رائعاً وصفقة رابحة كسب بها أبو بكر نهائياً ثقة الرسول التي لا حد لها ، وثقة المسلمين أجمعين الأمر الذي رشحه ليخلف رسول الله بعد موته من بين سائر المسلمين . فأبو بكر لم يكن مبدراً وهو موجود بكل ماله على ذلك الوجه كما لا يكون مبدراً في أيامنا الحديثة أى غنى من الأغنياء ينزل عن ثلاثة أرباع أو أربعة أخماس ماله لبناء المؤسسات العلمية والإنسانية بل إنه يكون مستغلاً للمال أعظم استغلال إذ ينفع به الناس أجمعين .

### الاستدانة وشروطها

وإذا كان للتبذير هذا الأثر المدمر للمال فإن هناك خطراً على الثروة لا يقل عن خطر الإسراف وربما زاد في بعض الأحيان وهذا الخطر هو الاستدانة ، وقد تقع الاستدانة تحت ضغط الحاجة والضرورة فتصبح بكل ويلاتها لا محيص عنها فتقع في هذه الحالة تحت حكم الضرورات التي تبيح المحظورات . ولكن عندما تكون الاستدانة لغير ضرورة ملحة أى لمحض الطمع والرغبة في الغنى السريع بدون الالتجاء إلى الادخار فهنا يبدأ الاضطراب الذي يُفقد الإنسان توازنه ويحرمه من ثمرة عمله وقد يؤدي به إلى الفقر والعبودية . وقديماً كان الدين يؤدي بالرومانى إلى فقد حرية وتحويله إلى رقيق في خدمة دائنه ، أما في العصور الحديثة فقد وقع شعب بأكمله في ذل العبودية من جراء الدين . وليس هذا الشعب المنكود سوى الشعب المصرى . وأحسب أن هذه الكارثة التي وقعت في حياتنا القومية كفيلة وحدها بأن تجعل كل مصرى يمقت هذه الكلمة ، كلمة الدين والاستدانة ، ويعتبر السعادة كل السعادة في أن لا يمد يده إلى هذا الغول الفتاك ، غول الاستدانة وعقد القروض . وقد رأيت بعينى رأسى كيف يطيح الدين بشمرة جهد الرجل الشريف الأمين الصادق الذى ظل طول عمره يجمع القرش على القرش حتى إذا ما تكامل له رأس مال شرع في استغلاله واستثماره فأحسن الاستغلال ما بقى غير مدين لأحد ، أو خاضع لسلطان إنسان ، حتى إذا عن له في يوم من الأيام أن يتسع في أعماله فيقدم على ما أقدم عليه مستعيناً في ذلك بالاستدانة فإذا بالدين يلتهم رأسماله الذى تعب السنين الطويلة في جمعه . وليس ذلك إلا نموذجاً لما يتكرر كل يوم هنا وهناك من ضحايا الديون الربوية الملعونة . يكفي أن يقع اختلال بسيط في حساب المقرض أو تغير في الظروف لكى تقع عليه نكبة من أكبر النكبات . كم ضرب الدين بيوتاً تجارية مصرية كانت وطيدة الأركان تحت عجلاته الثقيلة ، بل إن أراضى مصر وعقاراتها جلها مكبلية

بأغلال الديون للأجانب بل إن مصر كلها كما قلت فقدت حريتها بعد أن أنشأ الدين فيها أظافره ، ولأقص عليك طرفاً من هذه الكارثة .

### كارثة الدين المصري

كانت مصر قد بلغت أوج عظمتها في العصور الحديثة في مستهل القرن التاسع عشر أيام محمد علي ، ذلك العبقري الذي لم يدخل الجامعات ولم يتلق علوم الاقتصاد الحديثة ولم يتسم عقله بنظريات اليهود الفاسدة التي يرمون من ورائها إلى إخضاع العالم لسلطانهم . ما كان أروع عمله الباهر في إنشاء الإمبراطورية المصرية بدون أن يستدين مليماً واحداً من الخارج أو أن تكون البلاد في حاجة لعبقرية يهودي محتال يسرع بإيقاعها في هاوية الحرب . وإنما كان محمد علي يسير على هذه القاعدة الأولية وهي جوهر فن الاقتصاد كله وهو أن لا يصرف إلا من دخله ولا يصرف إلا أقل من هذا الدخل فكان محمد علي يجمع المال في خزانته حتى إذا اجتمع المال عنده واطمأن إلى أنه في حوزته راح يصرف منه على حاجات الإنشاء والتعمير فخلق مصر خلقاً جديداً في عشرين سنة ، بأموالها وجهود أبنائها . وانقضت أيام محمد علي وخلف من بعده خلف استمعوا للنظريات اليهودية التي تبرر الاستدانة من أجل تسير مصالح الأمم والجماعات والتي تقول إن المال إذا كانت فائدة اقتراضه هي ثلاثة في المائة لينتج مشروعات تدر ربحاً مقداره ٧ في المائة فإنه يكون من العتة والسفه ألا تقدم الدولة أو الفرد على القرض فوراً للاستفادة من هذا الفرق الضخم بين الثلاثة والسبعة وتلك نظريات تبدو براقعة وخلاصة ولكنها نظريات فاسدة ولذلك فلم يستفد منها أحد في الدنيا كلها إلا اليهود الذين احتكروا المال وحذقوا عمليات الإقراض واستنزاف الأرباح ، فجعلوا الأمم والشعوب تشقى وتكدح لكي يستولوا على ثمرة جهودها وتتضخم ثرواتهم وهم قعود خلف مكاتبهم . فعملوا على ترويض هذه النظريات لتروج بضاعتهم وتزدهر حرفتهم ، حرفة الإقراض بالأرباح المركبة ، فوق الضعفاء والاغرار في أحبولتهم وتجنّبها الأقوياء العقلاء فسلموا من براثنهم .. وكانت مصر ممن وقعوا في الأحبولة فأقدمت في يوم مشئوم على الاستدانة أيام سعيد وإسماعيل من أبناء محمد علي ففتحا على مصر باباً من الشر ما زال مفتوحاً حتى اليوم بعد انقضاء مائة عام على ابتداء هذا الدين .

كان مقدار ما اقترضته مصر وما وصل إلى يدها فعلاً لا يزيد في مجموعه عن خمسين مليوناً من الجنيهات حسبت عليها بما يقرب من المائة مليون وفرضت عليها أرباح ربوية عن هذه المائة مليون فكان طبعاً أن تعجز عن تسديد الفوائد الباهظة فتدخل الإنجليز .

والفرنسيون في شئونها بحاجة الإشراف على ماليها . وتطور التدخل إلى أن أصبح احتلالاً إنجليزيا على هذا التفصيل المشتم الذي تراه منشوراً في كتب التاريخ . منذ مائة من السنين والأمة المصرية تشقى وتكدح لكي تدفع لأصحاب الديون . لاسداداً لرأس مالهم وإنما سداداً للأرباح فقط ، أما أصل الدين فلا يزال على حاله لم ينقص مليماً واحداً وفي كل عام تدفع مصر ملايين أربعة من الجنيهات مقدار هذه الأرباح السنوية . أى أن مصر قد دفعت ما يقارب الأربعمئة مليون جنيه ولا تزال مصر مدينة بعد ذلك كله بمائة مليون عليها أن تظل تدفع أرباحها السنوية إلى ما شاء الله . وكل ذلك في مقابل دين لم يزد أصله عن خمسين مليوناً من الجنيهات هذا هو الذل الذي تعانيه مصر من جراء الدين<sup>(١)</sup> .. وتلك هي الأغلال التي نخاهد من أجل تحطيمها ولن نفلت ببغيتنا إلا إذا تركنا الإنجليز وشأننا وجلووا عن بلادنا فلو أن أمورنا اليوم بأيدينا إذن لألغينا هذا الدين بجرة قلم كما فعلت أمم أغنى منا في ديون حديثة العهد ولم يصحب اقتراضها احتيال أو نصب .

### المقامرة

وهناك خطر ثالث يهدد الثروة بالزوال والضياع وهو خطر المقامرة أو المضاربة الذي يعتمد إليه عباد المال الذين ضلوا السبيل ونظروا إلى المال كغاية في نفسه تقتنى ، ولم يدركوا أن قوة المال هي في أن يكون ثمرة للعمل والكفاح لا أن يُحصل عليه بأخس الأساليب كالسرقة والنصب والاحتيال . وقد لجأ هذا النفر العاجز إلى التماس الغنى السريع عن طريق المغامرة والمقامرة وكان طبعياً أن تهب المجتمعات لتدافع عن كيائها من هذا الوباء فحاربته الأديان كلها واشتد القرآن في التغليظ على كل صنوف الميسر والقمار فاعتبره رجساً من عمل الشيطان ولكن اليهودية ارتفعت بالمقامرة إلى درجة النظم الاقتصادية فحولوا البورصات التي هي في حقيقتها أسواق للبيع والشراء ، حولوها إلى دور للمقامرة والمضاربة الشرعية ، وأوهوا الدولة أن واجبها الأول هو حماية هؤلاء المقامرين ورعايتهم ... وسرعان ما تحولت المقامرة التي تخاربها القوانين إلى حرفة منظمة يقوم بها جيش عرمرم من السماسرة ومساعدتهم وصبيانهم . ونحو البورصة يندفع المغامرون المقامرون الراغبون في الاغتناء السريع فتطيح ثرواتهم في غمضة عين كما تفتى على موائد القمار سواء بسواء فيرى الإنسان نفسه أصبح صفر اليدين من كل ما يمتلك . دخل البورصة غنياً ومن الأغنياء وخرج منها فقيراً من الفقراء أو جلس حول مائدة القمار ثرياً من

(١) حول هذا الدين أخيراً ، الى ماسموه القرض الوطني ، وقد كنا نفضل أن يلغى هذا الدين بجرة قلم .



الأثرىء فلا تمضى عليه بضع ساعات حتى يدركه الإفلاس والخراب فلا يبقى أمام هذا أو ذاك إلا أن يطلق على رأسه رصاصة من مسدسه أو يشتق نفسه بجبل أو يشعل فى نفسه النيران .

إن المقامرة على أى صورة من صورها لا يمكن أن تجعل من الإنسان غنياً إلا لفترة من الفترات وما جاءت به المقامرة تذهب به المقامرة وكل محاولة للكسب عن غير طريق العمل المتزن والإنتاج المنظم حكمه والمقامرة سواء بسواء فالذى يعقد صفقة ضخمة لا قبل له بها وينوء بحملها على سبيل المضاربة فهو مقامر خاسر وإذا ربح مرة فلا يلبث أن يهوى فتدك عنقه ويلقى شر مصير .

\* \* \*

### حد الغنى الواجب

نتقل بعد ذلك إلى حد الغنى الواجب الذى يجب أن يسعى كل إنسان لتحقيقه وهو يختلف باختلاف الأزمنة بطبيعة الحال ، فما كان يعتبر فى زمن من الأزمان مظهرًا من مظاهر الترف يصبح بعد حين ضرورة من الضرورات نظرًا لتطور العمران وتعدد حاجيات الإنسان . وقد كان مالك الحصان فى يوم من الأيام يعتبر غنياً أما اليوم فالذى لا يملك إلا حصاناً لا يكون إلا فقيراً من الفقراء . وبالنسبة لنا فى مصر وفى أيامنا الحاضرة يجب أن يكون الغنى الواجب أو بالأحرى الحد الأدنى من الغنى بحيث يمكن رب الأسرة أن يعول أسرته فى كفاية فيسكنها سكنًا جيدًا صحياً نظيفاً به حديقة ولو صغيرة ، وأن يكون البيت مضاء بالكهرباء محتوياً على تليفون وراديو وما يشبه هذه المخترعات الضرورية للرقى البشرى وأن يكون لدى الأسرة سيارة وأن يكون مطعمها جيدًا وملبسها كذلك ، وأن تكون قدرتها على تعليم سائر أفرادها متوفرة ، وأن يكون لديها احتياطي من المال لضمان هذا المستوى من المعيشة . هذا هو الحد الأدنى الجدير بأن يسعى كل فرد لتحقيقه لنفسه ، وكثيرون سيفتحون عيونهم دهشة واستكباراً عندما تقع أعينهم على هذه السطور حيث أطلب بأن يكون لكل فرد هذا النصيب من الغنى ويعتبرونه ضرراً من المستحيلات وما ذلك إلا لأن الفقر المسيطر على بلادنا - الذى يعاينه ملايين من الناس يجعل من الصعب تصور أن يتبدل حال السواد الأعظم إلى هذا المستوى الذى أدعو إليه . وينسى المصريون والشرقيون أن أوروبا وأمريكا قد وصلت على حسابهم هم إلى هذا المستوى الذى يظنونهم مستحيلًا . فليس لأوروبا وأمريكا من سوق لبضاعتها سوى الشرق ومن أرباحهم من هذه الأسواق ينعمون بهذه المعيشة التى قد يظنها البعض مستحيلة التحقيق

في مصر والشرق . فلا يوجد عامل في أمريكا لا يملك سيارة وليس له بيت تتوافر فيه كل الشروط التي قدمتها . فلست أدعو إذن إلى وهم أو خيال ولكني أدعو إلى حقيقة يمكن تحقيقها من خلال العمل والادخار وإحسان استثمار المال لكل فرد من الأفراد .

فإذا تحقق للإنسان هذا القدر من الغنى فقد أصبح عليه أن يختار بين أن يمضي في استثمار المال واستغلاله في صالح الأعمال حتى نهاية الشوط إذا كان هذا هو السبيل الوحيد الذي يستطيع به أن يخدم أمته وجماعته ، أو أن يكتفي بهذا القدر من الغنى ويوجه جهوده إلى ناحية أخرى من نواحي النشاط الإنساني التي تحتاجها البشرية لضمان تطورها وارتقاءها .

## يا بني

والآن وقد ختمت لك رسالتي عن الغنى والمال لعلك سألني ، أو لعل البعض تَوَّاق لأن يعرف نصيبي في هذا الباب ، وهل بدأت بنفسي في هذه الدعوة ؟ كما ينبغي دائماً أبدأً على الناصح والداعي أن يبدأ بنفسه قبل أن يتوجه بنصحه إلى الآخرين ؟ فاعلم يا بني أن من يعمل لإراحة الآخرين لا يمكن أن يوفر الراحة لنفسه (إلا في ضميمه) ، ومن يعمل لغنى الآخرين لا يمكن أن يحصل على الغنى (إلا في نفسه) وليس ذلك كراهة للغنى المادى أو احتقاراً له ولكن لأن هذا هو السبيل لتحقيقه على أوسع نطاق للآخرين . فلا سبيل لإنقاذ مصر مما تردت فيه من ضعف وفقر وذل وهوان ، لا سبيل إلى تحرير مصر وبعثها من جديد ورفع أبنائها إلى المكانة اللائقة بهم ، إلا أن يتصدى نفر من أبنائها يكرسون حياتهم لتحقيق هذه المهمة ، ويجودون بكل شيء في سبيلها ، ولو كانوا يملكون عشرات الملايين من الجنيهات لوجب أن ينفقوها لهذا الغرض ، ومادام هذا حالهم فهم من باب أولى لن يسعوا لجمع المال ابتداءً لأشخاصهم ، لأن جمع المال يستنفد جهدهم ويستغرق تفكيرهم فلا يكون هناك متسع للقيام بأعباء رسالتهم . فيجب أن يقنعوا بما يقيم أودهم ، ويستر حاجهم . وذلك هو نصيب المصلحين والمجاهدين في سبيل المثل العليا . وتلك هي الحالة الوحيدة التي يغتفر فيها المجتمع للشخص أن لا يكون ثرياً بل إن المجتمع يستحب لهذا نفر من البشر أن يراهم منصرفين عن جمع المال ليكون ذلك مظهر إخلاصهم ودليل صدقهم وأنهم يعملون ما يعملون ابتغاء مرضاة الله والنفع العام مضحين بكل شيء في هذا السبيل . ولن يكون لقلّة المال في هذه الحالة ما يشين المجاهد أو يظعن في كفاءته أو يحد من قدرته ، أو يقلل من احترام الناس له وسيرها تحت لوائه . بل إن انصرافه عن جمع المال سيكون هو مصدر قوته وهو بالذات رأسماله . هذا النصيب هو

الذى اخترته لنفسى يا بنى ، لقد عشت مجاهداً من أجل المثل الأعلى لهذه البلاد وللعرب  
وللمسلمين وسأظل مكرساً كل دقيقة من وقى لهذه الغاية حتى أموت فى هذا السبيل .  
وثروى التى أسعى للحصول عليها وطلبتى وآمالى هو أن أرى هذه البلاد حرة قوية غنية  
تفيض على العالمين ...

أريد أن أرى المسلمين وقد بُعثوا من جديد يعيدون مجدهم التليد ويساهمون فى تطور  
الإنسانية وارتقائها وجهادى فى هذا السبيل من شأنه أن يزج بى فى السجون وأن يقطع  
على كل ما أزاولة من أعمال بقصد الكسب وجمع المال وهاأنذا منذ صدر الأمر باعتقالى  
فى ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى اليوم وأنا بين الاعتقال والاختباء لأستطيع الحركة فضلاً عن  
السعى لجمع المال وإننى سعيد ومغتبط لذلك ولن أرضى بديلاً بهذه الحياة فإما حققت  
لبلادى ما أصبو إليه ، وإما اغمضت عينى فى ختام حياتى هادئ الضمير مطمئن البال  
أننى أدت واجبى ، وهل الحياة كلها إلا واجب يؤدي ؟



الأرض الطيبة



## بِسْمِ اللَّهِ

هذه واحدة من عشر رسائل شرعت في كتابتها خلال اعتقالى في مدة الحرب العالمية الثانية .. وقد طبع من هذه الرسائل حتى الآن أربع في كتب متفرقة وهى رسالة عن المرأة . ورسالة عن الحرب . وثالثة بعنوان نحو المجد اشتملت على رسالتين عن المال والعلم . وقد نشرت جريدة «مصر الفتاة» على التوالى جزءا من رسالة خاصة بموضوع الإيمان .. وقد حانت الظروف لتصدر هذه الرسالة عن الوطنية في كتاب مستقل .

ولقد كتبت هذه الرسالة في ظروف غريبة كما يُرى في مقدمتها إذ كتبت على هامش أحد المصاحف الذى كان يصاحبني في السجن . عقب مقتل أحمد ماهر في سنة ١٩٤٥ ولذلك فقد كتبت على عجل وفي اقتضاب .. ولعل هذا هو ما يسبغ عليها طابعا خاصا . فهى ليست كتاب تاريخ وتحقيق علمي ولكنها نشيد الوطنية . ولحن الكفاح . كتبها سجين وسط ظلام السجن وآلام الاضطهاد . فكانت نورا يبدد له الظلمات . وكانت بلبسا شفى منه الجراح .. فألى كل سجين في سبيل الوطن . وإلى كل مضطهد في سبيل الحق والعقيدة . وإلى كل شهيد كتب بدمه سطورا في صحائف المجد المصرى . إلى الجنود المجهولين خلال الأجيال الماضية كلها الذين ساهموا في بناء هذا الوطن العزيز .

إلى سيدى وإمامى وزعيمى شهيد الحق والوطنية

الدكتور مصطفى الوكيل

أهدى هذه السطور عن الأرض الطيبة .

## يا بني .. (١)

### حادث مقتل أحمد ماهر

ما أعجب الظروف التي أكتب لك فيها هذه الرسالة فأنا أكتبها خلصة وسط جدران السجن الذي وضعت به ظلما وعدوانا منذ أكثر من خمسين يوما بتهمة من أشنع التهم وهي الاشتراك في مقتل المرحوم أحمد ماهر باشا . أتى أن الذين وضعوني في هذا السجن إنما يتطلعون إلى رأسي هذه المرة ويتمنون لو رأوني متأرجحا على حبل المشنقة ولكن الإيمان الذي يغمر قلبي يجعلني أشعر بالهدوء والاطمئنان للمستقبل وأنتى سأخرج من هذا السجن كما خرجت من قبل نقي الصفحة مرفوع الرأس موفور الكرامة وقد تضاعف إيماني بالله وثقتى بجهادى وبالأهداف التي وضعتها نصب عيني والتي ستكون موضع حديثي معك في هذه الرسالة ، وإنه لقد غريب ذلك الذى ساقنى إلى السجن والذي يدفع بى إلى كتابة هذه الرسالة وسط هذا الجو الذى يحيط بى .

فما كنت لأجد جوا أحدثك فيه عن الوطنية أعظم ملاءمة من هذا الجو الذى أنا فيه ، جو الاضطهاد والظلم الذى لا يؤثر على نفسى إلا بمضاعفة شعورى الوطنى . لقد جاءوا بى بمجرد أن وقع هذا الحادث العجيب - حادث مقتل أحمد ماهر باشا - والذي لم يكن فى مصر كلها - بل لم يكن فى الدنيا قاطبة من يتصور إمكان حدوثه . فلأول مرة فى تاريخ مصر يقتل رئيس حكومة داخل البرلمان بين حراسه وأنصاره وأعوانه ويقتل بيد أحد المحامين . قتله محمود العيسوى باسم الوطنية والرغبة فى إنقاذ الوطن من المهالك التى يوشك أحمد ماهر أن يعرضه لها بإعلان الحرب على دول المحور فقد خيل لمحمود العيسوى أن هذا معناه تجنيد الملايين من المصريين وخسارة مئات الألوف من الأرواح والفضحايا وسط هذا القتال الرهيب الذى يغمر الدنيا منذ أكثر من خمس سنوات وليس يعلم سوى الله متى تنتهى هذه المجزرة البشرية التى توشك أن لا تدع على ظهر أوروبا حجرا على

(١) وضعت هذه الكتب على صورة رسائل موجهة من المؤلف إلى ابنه الذى حرمة اعتقال أبيه من أن يشرف على إعداداته الناشئ وتربيته فى ذلك الوقت . وهو إذ يخاطب ابنه فهو يخاطب - فى شخصه - الجيل الجديد الناشئ .



حجر دون أن تهدمه وتدمره . ولكن الذى فات محمود العيسوى أن مصر لم يطلب منها أن تعلن الحرب إلا وقد أوشكت الحرب في أوروبا على نهايتها وها نحن ننتظر بالفعل إعلان انتهائها من ساعة لأخرى .

## ظلم

وقد قبض على بمجرد وقوع الحادث وحىء بى إلى سجن مصر بغير تحقيق معى في جريمة القتل وراحوا يعاملوننى معاملة الشريك القاتل سواء بسواء وهأنذا في سجن مصر في نفس القسم الذى يقيم فيه محمود العيسوى مع أن هناك أشخاصا آخرين قد يكونون أكثر صلة بمحمود العيسوى منى وهم مع ذلك يقيمون في جناح آخر من السجن . وليس سوى والأستاذ محمد صبيح من اختصونا بالإقامة إلى جوار محمود العيسوى كشركاء رئيسيين له .

هذه هي الظروف التى أكتب لك فيها هذه الرسالة . وقد بقى أن تعرف أننى أكتبها لك بالقلم الرصاص على حاشية المصحف وهو الكتاب الوحيد الذى سمحوا لى به ولست أعرف مدى المارة التى كانت تغمر نفسى لو لم يسمح لى بهذا الكتاب الكريم الذى يؤنس وحدتى ويبعث الأمل ويقوى الإيمان في نفسى في هذه الفترة القاسية من فترات كفاحي وجهادى ، ولست أعرف مصير هذه الرسالة التى أبدأ كتابتها اليوم وهل يقدر لى أن أتمها في هذا السجن أم أنه سيقدر لى الإفراج في القريب العاجل وهو ما أتوقعه أو بالأحرى ، ما أسأله من الله صباح مساء .

والحق يا بنى إننى مذ شرعت في كتابة رسائل إلىك في إبان الاعتقال وأنا أتخفى أن لا أكتب لك عن الوطنية إلا بعد أن أسترده حريتي وأعود إلى الحياة الحرة الطليقة فالحرية تشحن العزيمة وتملأ النفس إيمانا وثقة . والحرية أكثر من أى شيء آخر في الدنيا تضاعف في إحساسنا الوطنى وتزيد في تعلقنا بأرض الوطن . وأعترف لك يا بنى أن الاعتقال الطويل إبان الحرب كان قد بدأ ينال من نفسى ويزعزع في عقيدتى وثقتى ببلادى . وكانت الحرب من ناحية أخرى بأحداثها المتلاطمة لا تزال في أوجها وغفوانها . سرية متلاحقة وقد غمرت الدنيا كلها بنحس لم يعد الإنسان قادراً على التفكير في استنباط قواعد معينة أو أسس منظمة بما دام أن كل شيء في تغيير وتبدل من ساعة لأخرى .. فلم يكن من الميسور على الإنسان أن يفكر في مستقبل وطنه ومستقبل الدنيا كلها .

ولقد كان لذلك كله أكبر الأثر على نفسى من حيث عواطفى وأفكارى . فأحيجت عن كتابة هذه الرسالة .

### السجن بعد الاعتقال

ومع ذلك فما هى الظروف تقضى على أن أكتبها من داخل جدران السجن وأنا فى انتظار قرار النيابة فى موضوع هذه القضية الخطيرة . ولكن بين خروجى من الاعتقال فى سنة ١٩٤٤ ودخولى إلى السجن انقضت فترة طويلة تناهز العام . خرجت فيها إلى الحياة الحرة الطليقة وذقت لذة الكفاح والجهد من جديد فتجدد بذلك نشاطى وانتعشت نفسى وروحى . وقد أتيت لى بمناسبة إجراء الانتخابات فى هذه الفترة أن أساهم بأكبر نصيب . إذ رشحت نفسى عن إحدى دوائر القاهرة ورشحت نقرأ من إخاءى فى دوائر أخرى فجعلنى ذلك أمتزج بالشعب أعظم امتزاج . فرأيت من عواطفه وحجاسته وفهمه وإدراكه ما جعلنى أشد إيماناً بالشعب وإخلاصاً له وإحساساً بالمعنى الوطنى الذى حملت لواءه منذ اللحظة الأولى لإنشاء مصر الفتاة . حتى إذا كانت هذه المحنة الجديدة التى وقعت فيها لم تزدنى إلا يقيناً وثباتاً وصبراً وجهاداً .

وهذا هو أعظم ما أعتر به من نفسى يا بنى وهو ما يجعلنى دائماً مرتاح الضمير مطمئناً إلى ما يبنى به المستقبل فما أنذا بعد اثنتى عشرة سنة من الكفاح المتصل أجد نفسى أسير السجن كما لو كنت أسجن لأول مرة . وما أشد الحجل الذى بات يعترينى عندما يتعرف على هؤلاء السجانون الذين لا يعرفون عني شيئاً إلا أن يرونى مسجوناً عندهم من حين لآخر . لقد أصبحت أمثل فى نظرهم واحداً من أرباب السوابق ولطالما منوا أنفسهم فى المرات الأولى من سجنى أن يرونى بعد قليل من الزمن شخصاً ذا شأن وحيثية يستطيعون أن يستفيدوا من وراء معرفته شيئاً ولكن الأيام مرت تتلوها السنون وهم يرون السجن يفتح أبوابه مرة بعد أخرى ليستقبلنى كمسجون عادى ، بل كمسجون خطر فى أخطر جريمة يمكن أن ترتكب فى الدولة ألا وهى قتل رئيس الحكومة . ولقد تعرفت فى أيام سجنى الأولى على ضباط صغار تطلعوا إلى أن يرونى فى زمن قريب على شىء من القدر والنفوذ فى حكم البلاد وصادقونى على هذا الأساس ليستفوا بمكانتى المقبلة ولكن هؤلاء الضباط قد وصلوا الآن إلى أعلى الدرجات وأصبحوا من كبار الضباط بينما لا زلت كما أنا مسجوناً عادياً لا حول له ولا قوة بعد اثنتى عشرة سنة . إن الكثير من هؤلاء السجانين الطيبين لا يعرفون شيئاً عن الوطنية كما أعرف ويتصورون أن السياسى قد يسجن مرة لكى

يكون وزيراً أو موظفاً كبيراً أما أن يظل السياسي يحبس ويسجن إلى ما شاء الله فهو ما لا يفهمونه وما لا يستسيغونه بحال من الأحوال .

## محنة

وعلى أية حال فهأنذا في السجن من جديد وها هي المحنة مرة أخرى حيث يسود فيها جو الارهاب على حزب مصر الفتاة وزعماء مصر الفتاة . ومرة أخرى يتنكر الكثيرون ممن ينتمون إلى مصر الفتاة لينجوا بأنفسهم من الاضطهاد والتعذيب والتشريد . ومرة أخرى تنطلق الألسنة المختلفة تعوى من هنا وهناك سباً وقذفاً في مصر الفتاة ورمياً لها بمختلف التهم والافتراءات . ومرة أخرى يتساءل الناس في كثير من التشكك ما هذا الأحمد حسين ؟ ما هي مراميه ؟ وما هي غاياته وما باله لا يكاد يعرف من أمره إلا أنه السجين الدائم ؟ لا بد أن يكون شخصاً غير جدير برئاسة حزب أو على الأقل لابد أن يكون شخصاً غامضاً لا يصلح لشيء ولا يفيد في شيء .

وهكذا تتحالف على الإنسان كل عناصر الإيلام من سجن وظلم واضطهاد وإنكار لجهد الإنسان وتضحياته . بل وعدم فهم لحقيقته وما ينطوى عليه جهاده من أغراض .

## إيماني

ومع ذلك فيوم أن يقدر لي أن أخرج من هذا السجن فسأخرج منه بإيمان مضاعف وعزيمة قوية أن أظل كما أنا لا أتحوّل ولا أتبدل ولا أضعف أو ألين . إن القضية التي آمنت بها منذ اليوم الأول الذي عرفت فيه نفسي : هي أن هذه البلاد التي أنسب إليها كانت في ماضى أيامها عظمة كأعظم دولة تعرفها الدنيا في الوقت الحاضر . وأتأ ورثة أعظم حضارتين عرفتهما الدنيا في قديمها وحديثها . وهما الحضارة العربية والفرعونية . وأن مصر يجب أن تعود إلى سابق مجدها وعظمتها وأن تأخذ مكانها في العصر الحديث بين دول العالم العظمى . ولقد عبرت عن هذا الإيمان في السطور الأولى من رسالة مصر الفتاة بهذه الكلمات .

« مصر التي علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التي حملت لواء الأديان جميعاً وأعلنت كلمة الله والإسلام . مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهمز . لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم ومصباحاً للشرق وزعيمة للإسلام وهي من

أجل ذلك في حاجة إلى دم الشباب الملتهب . في حاجة إلى الإبنان والعمل في حاجة إلى نفر من بنيها يقابلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية وتلك صفات لن تتوافر في أبناء الجيل القديم .

فعلى الشباب ... فعلى الجيل الجديد ... فعلى جنود مصر الفتاة تقع تبعة بحث الجند القديم » .

هذا هو إيماني . وتلك هي رسالتى ولكن ما أعظم الفارق بين ما أتمناه لمصر وبين ما توجد عليه في الواقع . فهي مسلوقة الحرية . مسلوقة الإرادة . يعيش سعادها الأعظم في الجهل والفاقة والمرض .

وقد استطاع الغاصب المحتل أن يمزقها إلى شيع وأحزاب وأن يخلق له صنائع وأدوات تتولى تثبيت أقدامه في حكم البلاد على شكل وزراء وموظفين كبار وأغنياء وأصحاب مصانع وشركات من الأجانب والمصريين على السواء . وكأثر من فقدان الحرية والإرادة ستين سنة هي فترة الاحتلال الإنجليزي . تدهورت الأخلاق . وضعف الوازع الديني . وانتشرت الموبقات وعمت المنكرات ولم يبق سوى الفساد في كل مكان . تدهور وانحلال وجرائم وذل وجبن ومهانة واستكانة وفقر وضعف ومرض . هذه هي مصر وهذه هي حالة الشعب المضى فلا عجب إذا فقد الشعب ثقته بنفسه وإيمانه بقدرته . فرضى بخالته التي هو عليها وأصبحت كلمات الحرية والمجد والوطنية لا تحرك في نفسه ساكنًا ويشفق على قائلها إن لم يسخر منهم ويسفههم بل قد يعتبرهم في بعض الأحيان من أشد خصومه وأعدائه .

## صعاب

وإذا كانت هذه هي حالة مصر فعليك أن تتصور يا بني مقدار الجهود التي يجب أن تبذل حتى تنهض مصر من كبوتها وتقال من عثرتها وتستعيد سابق مجدها وعزها . فعلى المجاهد الساعى في سبيل تحقيق هذه الغاية أن يواجه الانجليز وأن يصمد لحربهم . وأن يواجه جميع المستفيدين من الوضع الراهن سواء كانوا موظفين أو وزراء أو أغنياء أو كبار ملاك أو أجناب وأن يصمد لحربهم . وعليه أن يواجه الفقر والجهل وجميع صنوف الموبقات وأن يثبت حربها . عليه أن يواجه ضعف الوازع الديني وانعدام الأخلاق وفقدان الثقة بالنفس وأن يثبت لكفاحها .

على المجاهد أن يتصدى لكل هؤلاء الخصوم وأن يجابه هذه المشاكل بغير سلاح ولا عتاد ولا أنصار أو عصية أو جاه أو مال . فهل عجيب أن يقاسى المجاهد المتصدى لهذه المهمة ألواناً من العذاب والاضطهاد وأن يخرج من السجن ليدخل فيه من جديد . وأن يصاب بالنكبات والمصائب التي تهد الجبال . وأن يصاب بخيبة الأمل . تتلوها خيبة الأمل ، تعقبها خيبة الأمل ؟ هل عجيب أن يقضى المجاهد الصادق اثنتى عشرة سنة أسير السجون ورهن المحاكمات . موضعاً للازدراء والانكار والسخرية ؟ الحق أنه لا شئ في ذلك كله يوجب العجب وإنما غير ذلك هو الموجب للعجب بل للدهشة والاستغراب إن لم يكن موجباً للاتهام والشك والإنكار . فلو أن طريق المجاهد في مثل الظروف التي شرحتها كان سهلاً ليناً خلوهاً من العقبات والمصاعب . لوجب أن يقطع الإنسان بأنه لم يكن أميناً أو صادقاً في جهاده . وإلا فكيف يستطيع أن يشق طريقه وسط هذه المخاطر في غير أذى حقيق أو اضطهاد ..

إن المجاهد لابد وأن يلقى من المصاعب والمتاعب بمقدار إخلاصه وأمانته وصدقه . فكلما كان أميناً على أداء رسالته كلما حورب وعُذِّبَ وشُرِّدَ واضطُهِدَ . فلو أنى طالب وظيفة . لوجدتها . ولو أنى طالب جاه أو مال لاستطعت أن أحصل عليه بالاشتغال بالطرق الموصلة إليه . أما وأنا طالب مجد لأمة محتلة مستعبدة فكيف يكون هناك سبيل للراحة أو الهدوء . وما هي اثنتى عشرة سنة في حياة مجاهد فضلاً عن أن تكون شيئاً في حياة قضية من قضايا الحرية ؟ فلو أنى واصلت الجهاد عشرين سنة أخرى لكى أنعم في نهايتها بقبس من النجاح لقضية بلادى لكان ذلك فوزاً ميبناً ونصراً مؤزراً . بل لو أنى قدمت حياتى لكى تخطو بلادى بعد موتى خطوة واحدة نحو الأمام في سبيل الغاية المنشودة لكان ذلك نجاحاً ما بعده نجاح .

### على مفترق الطرق

والمسألة التي أراها معروضة على الآن في هذا السجن هي : هل أواصل جهادى فأظل أنادى بمبادئ وأكافح في سبيل الحرية في مختلف صورها وأشكالها وأكافح في سبيل كل ما يعود على وطنى بالرفعة والمجد فيعرضنى ذلك لسخط المحتلين . وسخط المتنفعين والمستورزين والأذئاب والصنائع ، فأظل رهين السجون والاعتقالات . أم أن أكف عن شدة بأسى في محاربة الظلم والدعوة إلى الحق والحرية وألن جانبي للغاصب المحتل فأسكت عن حركاته وخطته ومناوراته في مصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية لإبقائها طويلاً

في ظل الأسر والعبودية . أسكت عن الغاصب فأستطيع أن أضمن حياة أكثر لنا وأكثر رفاة وربما أكثر شهرة وجاهاً وسلطاناً ومالا فأصبح نائباً وأصبح خطيراً فوزيراً فريضاً ... ؟

أصارحك القول يابني أنني بين هاتين الصورتين لا أستطيع إلا أن أختار الصورة الأولى صورة المجاهد الصادق الأمين بكل ما فيها من سجون واعتقالات وتحقيقات ومحاكمات . بكل ما فيها من آلام وعذاب وموجبات لليأس وخيبة الأمل وأن أحتقر الصورة الأخرى . صورة المتراخي على أعتاب الانجليز وصنائع الانجليز . صورة الساكت عن الظلم والراضي بالقييد والمغضى عن كلمة الحق .

لا .. لا يابني ... لا أريد أن أكون ذلك الرجل بخال ولست أرضى بإيماني بديلا ولست أرضى بكفاحي بدلا .

يتساءل بعض المتشككين وما هي جدوى هذه الحياة التي تقضيها بين السجون مكبلا مغلولا ؟ ما هي جدوى هذه الحياة التي تجعل أقرب الناس إليك يفرون منك للنجاة بأنفسهم من ويلات العذاب والتنكيل ؟ ما جدوى هذا الكفاح الذي لا يكاد يقوى عليه أحد سواك والذي يجعلك تبدو في نظر الكثيرين غريبا غير مفهوم وغير منتج وتجعلهم ينكرون عليك كل شيء حتى وطنيتك ؟ أو لم يخرج عليك أقرب المقربين إليك بدعوى أنك لم تعد غير مكافح ؟ ألم يغمزوك في وطنيتك وصدق عزيمتك ورجاحة عقلك ؟ ألم يصوروك أمام الناس بأقبح الصور فجعلوك متقلبا متلونا لا تستقر على حال ؟ والحق أن ليس هناك ما يحز في قلبي وفي نفسي أكثر من هذا الجحود والإنكار ممن قربتهم إلى وعاونت على تسنهم ذرى الشهرة والنجاح . ومع ذلك فليس لي من رد على ذلك كله . وليس لي من سلاح أقاوم به كل هذه العناصر الهدامة سوى سلاح واحد وهو الثبات .. الثبات حتى النهاية .. ليس أمامي سوى طريق واحد أدافع به عن نفسي وأدافع به عن بلادي وقضيتها هو أن أضغط بكل ما جاهدت من أجله طوال السنوات الماضية وأن أوصل الجهاد . ليس أمامي سوى التثبث بأساليبي والإصرار على موقفي ضد محاولة استبعاد وطني والحيلولة بينه وبين الحرية والنهوض والتقدم .

يجب أن يبقى صوتي مرفوعا في وجه الظلم والفساد والطغيان حتى النفس الأخير وسبق بإذن الله .

يجب أن أبقى كما أنا - أحمد حسين - الذى يرهبه البغاة ويخشاه الانجليز وكل عصابة الشر والإفساد فيعملون دوماً على تقييد حريته اقتناعاً منهم أنه لو ترك حراً لألعب الأمة بجماسته وحرارته وأيقظ مشاعرها وحرك عواطفها .

ولن يهمنى أبداً كم من الناس يلتفون حولى أو يبقون بجوارى .. وهل أبلغ النجاح المرموق فى حياتى أو بعد مماتى فما أنا إلا حامل علم فى هذه الأمة - علم المقاومة فى سبيل الحرية ، علم الرجولة والصراحة والصدق والإخلاص والمحبة والوطنية ، علم الجهاد فى سبيل المثل الأعلى والكمال المطلق . ومهمة حامل العلم أن يدافع عنه حتى يلاقى حتفه غير ناظر للهزيمة أو الفشل ، غير ملتقٍ فى باله هزيمة الجيش أو انتصاره فهمته تتلخص فى شىء واحد هو أن يدافع عن هذا اللواء المرفوع حتى النهاية وأن يقيه خفافاً مابقى فيه نفس يتردد .

ما أحب إلى نفسى أن أكون أحد هذه المصاييح التى تحترق لتضىء ما حولها غير عابثة بملحكة المكان من حولها وبغير أن تتساءل عما إذا كان الناس ينتفعون باحتراقها أو لا ينتفعون فإن مهمتها ودورها هى أن تضىء وأن تضىء فحسب .

### الجنسدى المجهول

وليس ذلك الذى أتمناه لنفسى بالشىء الفذ أو البعيد المنال والتحقيق فإن أى جنسدى متطوع فى ميدان القتال يفعل ذلك من أجل وطنه فهو يجود بالروح كلها من أجل حرية الآخرين أو مجد بلاده . وهو يموت مجهولاً لا يكاد يحس بموته سوى هذا النفر القليل من أسرته ومعارفه وأصدقائه . وما أكثر الذين يموتون فى ميدان القتال وما نحن نشهد حرباً ضروساً منذ أكثر من خمس سنوات مات فيها زهرة الشباب من مختلف الأمم والشعوب بالملايين ماتوا بكل أنواع الموت وهم يؤدون واجبهم نحو بلادهم فى صمت وإنكار ذات . ومع ذلك فالشعوب كلها تأبى إلا أن تستمر الحرب حتى النهاية ، حتى آخر طلقة من الرصاص وحتى آخر نسمة من الحياة .

وها هم الألمان الذين رأيناهم ظافرين منتصرين حتى كادوا يسيطرون على الدنيا القديمة كلها يعانون مرارة الهزيمة وويلات الاندحار بعد أن تراجعت جيوشهم فى كل مكان دخلته من قبل . ونفذ الروس والأمريكان والانجليز إلى قلب المانيا الحفناق وكل شىء يدل على أن النهاية قد أوشكت من يوم لآخر ومع ذلك فلا يزال هناك جنود

يتشبثون بالأبطال هنا وهناك ويواصلون الدفاع عن الخرائب ما بقيت لديهم طلقات من الرصاص وعبثاً يقال لهم ان لا جدوى من استمرار المقاومة - عبثاً يخفونهم بأن الفناء هو مصيرهم المحتوم وأنه من الخير لهم أن يبقوا على حياتهم - عبثاً يدعون إلى التعقل والصواب والحكمة . فهم يؤثرون الموت على العبودية - ويؤثرون الموت على أن يروا أعلامهم منكسة وأوطانهم مداسة بأقدام الأجنبي وهذه هى عاطفة العزة والكرامة ومقياس الرجولة والإنسانية ومن خلال هذا الكفاح المستميت يستطيع الإنسان أن يتلمس عظمة الشعوب .

فهذا الذى أفعله من الاستمرار فى الجهاد غير عابىء بالظروف التى تحيط بى وتحيط بالبلاد مما يجعل حياتى سلسلة متصلة من الاضطهاد ليس يا بنى لوناً من ألوان التطرف أو الحوس كما يظن البعض وإنما هو الواجب الوطنى العادى الذى يجب أن يتوافر فى نفس كل مواطن كريم . .

### غريزة البقاء

وقد حانت الساعة لكى أشرح لك هذه العاطفة الوطنية وحقيقتها - أهى شىء خيالى خرافى لا أصل له وليست سوى لون من ألوان الوهم والخيال وضرب من ضروب البلاغة والأدب والإنشاء وهى شىء لا معنى له ولا تحديد كما يسفط البعض ويتشدد - أم أن الوطنية هى عاطفة طبيعية وسر من أسرار الوجود ولا سبيل للنشوء والارتقاء والتطور إلا عن طريقها .. ؟

الوطنية صورة من صور غريزة البقاء التى خلق الإنسان مجهزة بها من لدن الخالق - فهى والحالة هذه ليست شيئاً كمالياً فى عواطف الإنسان وليست على هامش العواطف كما قد يظن البعض - ولكنها غريزة البقاء أصل الغرائز كلها وأعمقها أثراً فى حياة الإنسان فالكائن الحى مجبول على حب الحياة وقد خلقه الله مجهزة بكل ما يساعده على المحافظة على هذه الحياة والدفاع عنها والتغلب على مصاعبها وآلامها ومتاعبها .

ولا جدال فى أن الكائن الإنسانى الأول لم يكن يعرف من عواطف الدنيا سوى عاطفة واحدة وهى أن يحب نفسه - وأن يحب نفسه أولاً وأخيراً . ولا جدال فى أنه كان ينظر إلى كل شىء فى الدنيا كمتاع خاص به وحده قد خلق لإشباع حاجاته الشخصية والمحافظة على كيانه .



لم يكن الإنسان الأول يعرف إلا محوراً واحداً لكل جهوده ونشاطه وهذا المحور هو «أنا» هذه الكلمة التي اشتقت منها كلمة الأنانية . ومع ذلك فلم يكن أنانياً لا يفكر إلا في نفسه . لأن الدنيا كلها لم تكن تأبه لأحد بأكثر مما تأبه لهذا المخلوق الجديد الذي سيقدّر له أن يكون سيد الكائنات كلها وخليفة لله في هذا الكون .

على أن الإنسان الفرد لا يستطيع بنفسه أن يحافظ على كيانه إلى ما شاء الله فأجله محدود وعمره قصير فلا بد له من نسل يحفظ النوع فكانت الأنثى وكانت الغريزة الجنسية التي دفعت الذكر دفعاً إلى حب الأنثى ليكون من هذا الحب نسل يضمن البقاء والاستمرار لهذا الإنسان .

وامتدت غريزة البقاء فبعد أن كانت مقصورة على حب الإنسان لنفسه أصبحت تشمل حبه لزوجته وشريكته في الحياة ، وأصبح الدفاع عن الأنثى جزءاً لا يتجزأ من الدفاع عن نفس الإنسان . ولما أنتج الزواج ثمرته وجاء النسل الجديد امتدت غريزة البقاء امتداداً جديداً فأصبحت تشمل الأبناء كما شملت الأنثى من قبل .

وهكذا خلق حب الأسرة أو بالأحرى خُلِقَت الوطنية في أول صورها وأقواها وأحسب أن ليس هناك من يمارى في حب الإنسان لأسرته أو بالأحرى حبه لزوجته وأولاده واستعداده للكفاح والكدر من أجلهم واحتمال كل صنوف المتاعب والآلام من أجل راحتهم وإسعادهم بل واستعداده لإراقة دمه في بعض الظروف دفاعاً عن حياتهم . فإذا قال قائل اننا نصادف أشخاصاً قد يضحون بأبنائهم من أجل شهواتهم الخاصة فالجواب على ذلك أن هذا لون من ألوان الشذوذ والاهتداء الذي يجب أن لا يقاس عليه فإذا كانت هناك أم تقذف بوليدها في إحدى الطرقات أو تحنقه بمجرد ولادته لكي تدفن عارها . فليس ينفي ذلك بحال من الأحوال أن البشرية لا تقوم على شيء قدر قيامها على حب الأم لطفلها وفنائها في سبيل تربيته وسعادته . فالأمومة والأبوة والبنوة التي يجمعها حب الأسرة هي عاطفة أصيلة ومتمكنة في نفس الإنسان لأنها مشتقة من غريزة البقاء كما قدمنا ولأن كيان الإنسان يقوم عليها .

فإذا عرفنا أن الوطنية هي حب الأسرة مضافاً إليها حب الأرض التي نشأت عليها هذه الأسرة وأن هذا الحب هو أمر ضروري لحفظ كيان الإنسان استطعنا أن ندرك أن الوطنية ليست شيئاً خيالياً أو مما يمكن للإنسان أن يستغنى عنها أو أن يغض من خطورتها .

## تعريف الوطن

أحب الإنسان أسرته الأولى في بادئ الأمر كما رأينا . ولكن هذه الأسرة لم تلبث أن تطورت إلى عدة أسر ، شعرت بوجود التعاون فيما بينها والتضافر لتقوى على الدفاع عن نفسها ضد عادات القدر وأحداث الزمان ومخاطر الحياة . فانتسج نطاق حب الأسرة إلى حب العشيرة واعتبار الدفاع عنها دفاعاً عن النفس . وتطورت العشيرة إلى قبيلة . وتطور العمران وانتشرت الحياة ، وازدادت خبزة الإنسان وتجاربته ومعارفه وتطلع إلى آفاق جديدة وغزوات جديدة في عالم المجهول فتفرقت القبيلة إلى قبائل سلكت كل منها مسلكاً خاصاً وبدأت ترى نفسها مرتبطة بأوضاع ومصالح قد تتعارض مع مصالح وأوضاع القبيلة الأخرى . وبدأت هذه المصالح والأوضاع تتعلق بأجزاء معينة من الأرض ، أو بنوع معين من الممتلكات كعيون الماء ومراعى الماشية ومناطق الصيد الوفير . ومن هنا بدأت الوطنية تأخذ معناها الاصطلاحي البحت وهو حب الإنسان لأسرته وعشيرته وقطعة معينة من الأرض . يذود عنها ضد عدوان الآخرين . وغنى عن البيان أن الإنسان الأول وهو قريب عهد بالفطرة السليمة الصادقة لم يستقر إلا في الأمكنة التي شعر أنها تهيء له أوفر نصيب من الحياة الطيبة . وتهيء له سبيل الدفاع عن نفسه وحرية وحياة أسرته وقبيلته وحريتها . بحيث أن هذا المكان لو انتزع منه لسبب من الأسباب أو شاركه فيه دخيل أجنبي أو تحكّم فيه متحكم قوى فإن معنى ذلك أن تتعرض حياته للاضطراب والارتباك وتخرج عن دائرة السلامة والأمن والرفاهية . إلى نطاق الخطر والحرمان . وذلك ما يجعلنا نعرف الوطن بأنه المكان الذي ولد فيه الإنسان بين أهله وعشيرته والذي يهيء له حياة رغدة طيبة ويمكنه من المحافظة على أمنه وسلامه وحرية . ولا بد من اجتماع هذه الشروط كلها لكي يتحقق معنى الوطن بالنسبة للإنسان ولكي تنشأ في نفس الإنسان عاطفة الوطنية . فلو أن شرطاً من هذه الشروط فقد ويئس الإنسان من إمكان توفيره لشعر الإنسان فجأة بتلاشي الوطنية في نفسه ولراح يبحث عن موطن جديد يجد فيه الأمن والسلامة والحرية والكرامة والأهل والعشيرة . لأن الوطن هو مسكن الإنسان وكما يتطلب الإنسان من مسكنه أن يحميه من غوائل العدوان الخارجي وأن يقيه تقلبات الطبيعة ومخاطرها . وأن يجد فيه الأمن والطمأنينة كلما لجأ إليه بحيث إن لم يصلح المسكن لتوفير هذه المزايا ويئس الإنسان من إمكان أن يوفرها في يوم من الأيام لبحث له حتماً عن مسكن آخر تتوافر فيه . وكذلك الحال في الوطن . فلا بد أن يكون بالنسبة للإنسان خير مسكن ومأوى وملجأ وإلا فقد صفته كوطن وانعدمت في النفس عاطفة

الوطنية بالنسبة لهذا المكان بالذات . وتطبيقاً لذلك وجدنا العرب يرتحلون من كل مكان  
نضب ماؤه وجف معينه وذوت مراعيه ، ويرتحلون من كل مكان عجزوا فيه عن حماية  
أرواحهم وحرثهم أو غلبوا على أمرهم فيه . وتطبيقاً لذلك وجدنا الأحرار في كل زمان  
ومكان يهاجرون من بلادهم ومسقط رؤوسهم إلى حيث يستطيعون التمتع بحريتهم في بلاد  
أخرى فتصبح هي أوطانهم الحقيقية التي يولونها كل حبههم وإخلاصهم وفنائهم من أجلها  
ولعل أمريكا الجديدة هي أصدق شاهد على ذلك فكل من في أمريكا قد هاجر إليها من  
إحدى البلاد الأوروبية . ففيها الإسباني وفيها الانجليزى وفيها الألماني وفيها الفرنسي ولكن  
الجميع يعتزون اليوم بوطنيتهم الأمريكية ولا يرضون بها بدلا وما ذلك إلا لأن أمريكا قد  
وفرت لهم الحرية والعمل والثروة فاستغنوا بها عن أوطانهم القديمة التي هاجروا منها هرباً  
من الاضطهاد أو هرباً من الجوع والفاقة وطلباً للرزق . ويعتز الانجليزى اليوم بالانجليزيتة  
لأنها تحقق له الكرامة والاعتبار والثروة في الدنيا كلها ولو تصورنا انهيار الامبراطورية  
البريطانية وخضوعها لتبعية إحدى الأمم لوجدنا الانجليز المبعثرين في أنحاء العالم يتخذون  
من البلاد التي يقيمون فيها ويتمتعون فيها بالحرية والرفاهية أوطاناً جديدة يحبونها ويدافعون  
عنها ويموتون في سبيلها أو بالأحرى يموتون في سبيل حريتهم ورفاهيتهم الجديدة التي  
يفقدونها بفقدان حرية هذا الوطن الجديد .

فانعدام الحرية ، كفقدان العدالة الاجتماعية وتفشى الظلم والطغيان والفقر والمرض  
والجهل وفقدان الأمل في إصلاح ذلك الحال ، يجرد الوطن من معناه ويقضى على شعور  
الوطنية في النفوس مما يهدد الجماعة في هذه الحالة بالتدهور والانحلال ويصبح لزماً على  
الانسان أن يجاهد لإصلاح هذه الحالة كما يجاهد لإصلاح مسكنه الخاص فإذا استحال  
عليه الإصلاح أو إذا يئس من إمكان تمامه فقد وجب أن يهاجر من هذا المكان وأن  
يبحث عن وطنه في مكان آخر حيث يتمتع بالحرية والأمن والعدل ويحصل معاشه  
ويستثمر ملكاته ومواهبه ومزاياه التي جهزها الله بها .

وتطبيقاً لذلك هاجر المسلمون الأوائل من مكة نجاة بدينهم وهاجر الرسول صلوات  
الله عليه نجاة بدينه ودعوته وحرصاً على نشر عقيدته واتخذ من المدينة وطناً حقيقياً له .  
ولما تألفت الدولة الإسلامية التي استطاعت أن تحمي المسلمين من اضطهاد المشركين عاد  
المهاجرون من الحبشة إلى وطنهم الجديد في المدينة .

ويهاجر الناس دائماً أبداً إذا ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم فإذا وجدوا في

مهاجرهم الحياة والرغد والحرية اتخذوها وطناً جديداً لهم يؤثرونه بنحبهم وولائهم .  
فالوطنية بمعناها الحقيقي هي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى الذود عن كيانه وحرية  
والدفاع عن أسرته وفصيلته والتماس كل صنوف الكمال والارتقاء وذلك لا يتحقق إلا إذا  
عاش الانسان حرّاً في وطن حر وإلا فلا وطن ولا وطنية .

## دفع لبس

وهنا لا يسعنا إلا أن ندفع لبساً يعرض للكثيرين جداً فيخلطون عاطفة الوطنية التي  
هي - كما رأينا - عاطفة سامية هدفها رقى الإنسان وكمال وحفظ نوعه وكيانه فلا تنمو  
وتزدهر إلا في ظل الحرية - وبين التصاق فريق من الناس بقطعة من الأرض وتعلقهم بها  
لا يستطيعون عنها حولاً مهما لاقوا فيها من عنت واضطهاد وفقر وذل ومسغبة ولا يبذلون  
جهداً لتغيير هذه الحالة أو إصلاحها فالتعلق الذي يوجد في هذه الحالة بالأرض ليس  
وطنية وإنما هو علاقة مادية تتحكم في الإنسان الضعيف الخامل الذي نزل عن صفته  
الإنسانية واقترب من الدائرة الحيوانية فرضى بفقدان الحرية . إذ من المعلوم ان النباتات  
هي ثمرة العناصر والمعادن التي تتألف منها بقعة معينة من الأرض والهواء الملاصق لها . ولا  
تستطيع النباتات أن تنبت ، فضلاً عن أن تعيش إلا في أماكنها الطبيعية ومناخها المعتاد  
فلو نقل نبات إلى تربة غير التربة التي ينمو فيها لما ازدهر أو نما ولو نقل إلى جو غير جوه  
المألوف لما نما كذلك أو ازدهر . وما يقال عن النبات يقال عن الحيوان فالحيوانات لا  
تستطيع الحياة إلا في أجواء مخصوصة وفي ظروف مخصوصة فلو نقل الحيوان من هذه  
البيئة إلى بيئة مختلفة كل الاختلاف عن بيئته الأصلية لما استطاع أن يعيش ولو قدر له أن  
يعيش فانه لا يلبث أن يتحول إلى نوع جديد يخالف كل المخالفة النوع الأصلي وهكذا .

فهناك ارتباط وعلاقة بين الكائن الحي نباتاً كان أو حيواناً وبين الأرض التي يعيش  
عليها . وللأرض مثل هذا التأثير بالنسبة للإنسان الذي ينشأ في موطن معين لازمه أجداده  
من قبله منذ عدة أجيال سابقة فيتأثر الإنسان في ذلك بتكوينه المادى ومزاجه وطبيعته .  
ومن هنا كان سكان الجبال يختلفون عن سكان السهول وهؤلاء يختلفون عن سكان  
الصحارى . والذين يعيشون على شواطئ البحار وفي الجزر يختلفون عمن يعيشون في  
داخلية البلاد . وسكان المناطق الحارة يختلفون عن سكان المناطق الباردة أو المعتدلة .  
وهكذا . ويستطيع كل إنسان أن يدرك هذه الرابطة المادية التي تربط الإنسان بقطعة من

الأرض عندما يستحضر في ذهنه أن جسده مكون من هذه المعادن التي تتألف منها تربة بلاده ومن هذا الجو الذي يحيط به . ومن هنا يعتاد الإنسان مآكل بيئته فلا يستطيع غيرها . وماءها فلا يستطيع غيره . ويألف جوها فلا يرتاح إلا له . وذلك كله من شأنه أن يربط الإنسان بالأرض كارتباط النبات والحيوانات بها . ولكن الإنسان - خلافاً للحيوان - قد أوتي من الإرادة الحرة والعقل ما أوجب عليه أن يخرج نفسه من كل قيد أو غل يحول دون تطوره وارتقائه ودون التماس أسباب الكمال والقوة والعلم والاقتدار فالإنسان لا ينبغي له أن يعيش إلا حيث تطيب له الحياة وحيث تتبأ أسباب الحياة الحرة الكريمة . فإذا وجدنا إنساناً أو جماعة من الناس قد رضوا بالذل في مكان ما ورضوا بالفقر والمهانة وشظف الحياة واستغلال الآخرين وتمكنهم فيهم وكل ذلك بدعوى حبيهم لبلادهم وأرضهم فيجب أن لا تتصور بحال أن ذلك يعود إلى الشعور بالوطنية وإنما هو ضرب من ضروب العبودية للأرض كعبودية الحيوانات والنباتات لها . وهو آية العجز والخلدان . فلا وطنية في غير ظل الحرية أو الكفاح في سبيلها . ولا وطن للإنسان الراقى حيث لاتوافر الكرامة والحياة الطيبة المعقولة .

## لا تعارض بين الوطنية والعالمية

### الوطنية والعالمية

نصل الآن إلى مبحث هام وخطير يشغل الدنيا كافة في هذه الأيام وهم هذا التعارض المزعوم بين الوطنية والعالمية . فالشيوعيون ينظرون إلى الوطنيين نظرة منكرة بدعوى أن الوطنية هي لون من ألوان التعصب الإقليمي والجنسي وأنها أثر من آثار الرأسمالية .. ولا جدال في أن مناداة الشيوعية بالأخوة العالمية هو مبدأ جليل وسام ليس من ابتكاراتها أو خلقها فمن قبل الشيوعية بألف وثلاثمائة من السنين دعا الإسلام إلى هذه الأخوة العالمية التي لا ترتبط بجنس أو إقليم وإنما تجتمع تحت لواء واحد هو توحيد رب العالمين والتعاون البشري . وأنا ممن يؤمن أشد الإيمان بالأخوة البشرية وممن يدعون إلى العالمية ، ومع ذلك فلست أرى أى تعارض بين هذه الدعوة وبين أن أكون وطنياً أدعو لتحرير الوطن الذى أعيش فيه من كل استعمار أو استغلال أجنبي ، بل إن الوطنية فى نظرى هي خطوة أساسية نحو الوصول للعالمية .

وإذا كانت الوطنية هي كما بينا فيما سبق امتداداً لحب الإنسان لأسرته فليست العالمية فى الحقيقة إلا امتداد حب الإنسان لوطنه . وعندى أن العالمية آتية لا ريب فيها . وسيأتى الوقت الذى يصبح فيه سكان هذا الكوكب الأرضى يؤلفون شعباً واحداً يسكن فى وطن واحد . وإذا كان ولا بد من وجود الأوطان الأخرى فلا جدال عندى أن هذه الأوطان الأخرى ستكون فى المريخ أو فى الزهرة أو عطارد . وغيرها من كواكب المجموعة الشمسية . وحسب الإنسان أن يطالع التطورات التاريخية لنشوء أى وطن من الأوطان المشهورة لكى ندرك أننا ندفع فى طريق توحيد الدنيا كلها فى وطن واحد . ففى بدء الاجتماع - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - كان أهل كل مدينة يؤلفون وطناً واحداً ويعتبرون كل مكان آخر خارج مكان هذه المدينة هو بمثابة أرض الغربة عن الوطن ولعل بلاد الإغريق هي خير نموذج لذلك التاريخ القديم حيث كانت كل مدينة تؤلف دولة مستقلة لا تنفك عن محاربة البلاد الأخرى المجاورة فسكان أثينا كانوا يؤلفون دولة مستقلة لم تكف عن محاربة اسبرطة التي لم تكن إلا مدينة واحدة تحيط بها بعض الأراضي .

ومثل ذلك كان في إيطاليا القديمة حيث كانت كل مدينة تؤلف دولة . وكذلك الحال بالنسبة لمصر القديمة . ولكن تطور العمران والرقى والتهديب سرعان ما كشف لسكان هذه المدن المتحاربة أن بينهم عدة عناصر مشتركة تدفعهم نحو التعاون والاتحاد ضد عدو آخر أجنبي يهددهم جميعاً بغير استثناء فغارة الفرس على الإغريق قد حملت الآخرين على الإحساس بضرورة الاتحاد فيما بينهم . فكانت دولة الإغريق المتحدة التي اتخذت أثينا عاصمة لها . ومثل ذلك حدث في إيطاليا وفي مصر . وحدث في كل زمان ومكان كلما دعت إليه الضرورة .

### العناصر التي تؤدي إلى الاتحاد

وذلك يجرنا إلى تحديد هذه العناصر التي تؤلف بين قلوب الجماعات المختلفة لتجعل منها شعباً واحداً وأمة واحدة تلوذ بوطن واحد .

وأول هذه العناصر من غير شك هو عنصر المصلحة . فالمصلحة هي أول ما يدفع الناس إلى الاتحاد . ويدفع المنقسمين إلى الاتفاق . ويدفع بالمتبايعين إلى التقارب فتى شعر جماعة من الناس أن مصالحهم لن تتحقق إلا بالتعاون مع جماعة ثانية فإن ذلك يحفزها إلى طلب الاتحاد بهذه الجماعة الأخرى لأن الإنسان مجبول كما قدمنا على الإبقاء على كيانه وتحقيق رفاهيته والتدرج في معارج الكمال والرقى فهو يندفع بكل جهده وطاقته نحو كل ما يحقق هذا الهدف وهذه الغاية ، فالمصلحة التي وُحِّدَت الشعوب قديماً هي التي لا تزال توحيدها حديثاً ... فالمصلحة وحدها هي التي أنشأت دولة سويسرا التي يتكلم مواطنوها بثلاث لغات مختلفة . وهي الفرنسية والإيطالية والألمانية . وتفتقر مذاهبهم الدينية . والمصلحة هي التي ألقت أمريكا الجديدة من أجناس مختلفة ولغات متباينة . والمصلحة هي التي دفعت بنسرشل إبان الحرب الماضية إلى أن يعرض على الفرنسيين أن يؤلفوا من فرنسا وإنجلترا وطناً واحداً . والمصلحة نفسها هي التي تجعل إنجلترا تسير الآن خلف أمريكا بعد أن أدركت أنها لن تستطيع الحياة التي ترجوها لنفسها إذا تخلت عنها أمريكا ولذلك فلا يفتأ الانجليز يتوددون إلى الأمريكيين ويتقربون من الأمريكيين ولن يكون للانجليز مستقبل في الحياة إلا أن يتحدوا بالأمريكيين .

والمصلحة هي التي تدفعنا اليوم . معاصر الدول العربية . إلى التعاون والاتحاد . لنستطيع أن نواجه هذه الغارة الأجنبية المسلطة على بلادنا فما من قطر عربي إلا وهو

محكوم بدولة أجنبية . وما من قطر عربي يستطيع أن يحصى استقلاله ويتمتع بحريته عن طريق جهوده الخاصة فلم يبق إلا أن تتعاون الشعوب العربية وأن تحاول جاهدة أن تؤلف من نفسها أمة واحدة إذا أرادت أن تنهى لنفسها حياة أوفر حظاً من القوة والكرامة والحرية .

## اللغة

وإذا كانت المصلحة هي العنصر الأول لتوحيد الجماعات فإنه مما يساعد على سرعة هذا التوحيد بل مما يلفت النظر إلى توافر المصلحة في هذا التوحيد . قيام لغة مشتركة بين الراغبين في الوحدة .. فاللغة هي وسيلة التفاهم . وهي أفكار الإنسان وخواطره منطوقة مكتوبة - واللغة هي مصدر كل معارف الإنسان وعلومه ووسيلته للتتق والتطور والتفاهم والتعاون - هي أعظم مشجع على تحقيق الوحدة . وقد كانت اللغة هي التي وحدت الإغريق القدماء والمصريين القدماء والرومان القدماء وإذا قلت إن اللغة هي التي وحدت بينهم فلا ينبغي أن يطغى ذلك على أن المصلحة أولاً هي التي دفعتهم إلى التماس الوحدة . وكانت اللغة المشتركة هي أكبر مشجع على تمام هذه الوحدة . وإذا كانت المصلحة اليوم تدفع بانجلترا نحو أمريكا فسوف تكون اللغة الانجليزية المشتركة هي أكبر ما ينهى لهم سبيل هذه الوحدة يوم أن يعتزموا تنفيذها .

ولعل ذلك يرينا في نفس الوقت كيف أن الوحدة العربية آتية لا شك فيها فالمصلحة سداها واللغة العربية لحمها . أو بالأحرى المصلحة غايتها .. واللغة وسيلتها .

## نحو العالمية

فإذا أدركنا هذه الحقائق أصبح من السهل أن نتصور أن العالم سائر حتماً نحو التقارب ونحو أن يكون وحدة واحدة بعد أن أصبح من الواضح أن مصلحة البشرية هي مصلحة واحدة وأن الأمم العظمى لن تستطيع أن ترقى وتنتجج ألا برق باقي شعوب العالم ، ولن تستطيع أن تحقق المستوى الذي تنشده لأبنائها من حيث الرفاهية إلا إذا تحققت نصيب وافر من ذلك لبقية أجزاء العالم وبدأ كل إنسان في الدنيا يدرك أن مصلحته مرتبطة بمصالح الآخرين . فانهيار دولة مثل ألمانيا لابد أن يستتبعه حتماً انهيار قوة أوروبا كلها وانهيار أوروبا سيستتبعه حتماً انهيار إنجلترا وانهيار إنجلترا يتبعه حتماً انهيار كيان أمريكا الاقتصادية فلا بد أن تحيا ألمانيا كي تحيا أوروبا وتنتجج إنجلترا وتزدهر أمريكا .. وإبقاء هذه الملايين من شعوب



المستعمرات في الذل والفاقة لا يفيد الدول العظمى في قليل أو كثير لأنه لن يكون بقدرتهم أن يستوعبوا هذه المنتجات الراقية التي باتت المصانع الضخمة تنتجها بالليل والنهار .. فلا بد للهنود من أن يرقوا ويتمدّنوا لكي يستهلكوا الراديو الانجليزي والأمريكي ولكي يستعملوا السيارة الانجليزية والأمريكية ولكي يشاهدوا الأفلام الأمريكية ولا بد للصين أن ترقى كي تستهلك البضائع التي ستدفق عليها من أمريكا وانجلترا وإذن فقد أصبح من الواضح الجلي أن مصلحة الدول الكبرى هي في إنهاض الدول الصغرى . ومتى نهضت الدول الصغرى فلن يكون هناك سبيل لحكمها بالقوة ولن يكون هناك استثمار واستعباد واسترقاق ومتى تقلصت روح الاستعمار والاستعباد فسوف يندفع البشر إلى التعاون والتآخي مؤلفين بذلك أمة واحدة ومتخذين من الكوكب الأرضي وطناً واحداً . ولا شك أن ذلك الأمر الذي كان يبدو شيئاً مستحيلاً منذ قرن واحد من الزمن قد أصبح اليوم بفضل الاختراعات الحديثة وبفضل اللاسلكي والطيران والراديو والسينما والمطبعة وأخيراً الطاقة الذرية يسيراً لأنها جعلت العالم قريب الأطراف وسهل الوصول إلى أي جزء من أجزائه أو التحدث إلى أي ساكن من سكانه ومتى كان الإنسان في نصف الكرة الشرق قد أصبح بقدرته أن يخاطب وأن يرى رجلاً في نصف الكرة الغربي بل وأن يذهب إليه بأسرع مما كان في القديم يذهب من القاهرة إلى الإسكندرية فمن الذي يستطيع أن ينكر أو يمارى في أننا صائرون حتماً نحو العالمية والأخوة البشرية .

ولكن ....

ولكن هذه الغاية وإن كانت محققة فإنها لا تزال بعيدة فالعالم كما نرى لا يزال مقسماً إلى عدة وحدات متحاسدة متباغضة متناحرة متقاتلة .. وفيها القوى الذي لا حد لقوته . وفيها الضعيف الذي لا حد لضعفه .. ولا تزال السياسة التي تسود العالم في هذه الفترة هي سياسة استعلاء القوى على الضعيف والرغبة في استعباد الصغير وإذلاله . وها نحن نشهد في هذه الأيام كيف تشن الأمم الكبرى على بعضها حرب أعصاب حول فرائسها من الأمم الصغرى . وكل دولة من الدول الكبرى تنافس الأخرى في رغبة التسلط والسيطرة على الدول الصغرى . وها هي انجلترا .. انجلترا العجوز الشمطاء التي ملأت الدنيا صراخاً طول هذه الحرب منادية بالديمقراطية وحق الشعوب في الحرية والمساواة .. ها هي انجلترا وقد سكرت بنجمة الانتصار تعود إلى سابق غطرستها وجبروتها وتتنكر للوعود والعهود المقطوعة وتأتي إلا أن تظل ناشبة أظافرها في عنق الشعوب المستضعفة

وتحاول هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت حديثاً أن تثبت وجودها وأن تفرض إرادتها ولكن الدول العظمى لا تزال لها بالمرصاد ولازلنا في أول الشوط لسنا نعرف هل تنتصر الروح الدولية هذه المرة أم أن العالم لا يزال في حاجة إلى درس جديد لإقناعه أن لا سلام للعالم والبشر إلا في ظل الإخاء والتعاون ، وإلى أن تسفر التجربة الجديدة عن نتائجها فلا مناص لنا من أن نتمسك بذاتيتنا وندافع عن حريتنا وعن شخصياتنا وأرزاقنا ومعاشنا ضد القوات الأجنبية التي تحاول أن تسلبنا كل شيء ولا سبيل لذلك إلا بأن نحارب هذا المستعمر الأجنبي وأن نكرهه ونقاطعه وأن نتعصب لقوميتنا إلى أن ينجى هذا اليوم الذى يخرج فيه هذا الغاصب الأجنبي من بلادنا .. هنا وهنا فقط تكون البشرية قد خطت خطوة موفقة نحو العالمية لأن كل قضاء على الاستعمار والاستعباد هو تمكين لروح العالمية من السيادة والانتصار .

فلا تعارض إذن بين أن يكون الإنسان وطنياً وبين أن يكون عالمياً بل لا بد له أن يكون وطنياً أولاً وقبل كل شيء فلا يرضى بأجنبي يعتدى على هذا الوطن ويسلبه الحياة والحرية لأن ذلك معناه بذور بذور الأحقاد والمنازعات بين الأحناس فتزداد المهمة بين الشعوب ولا يكون ثمة سلام أو إخاء .

## نهر النيل

### اعرف وطنك

ومعنى أن يكون الانسان وطنيا أن يحب وطنه ويذلل كل مرتخص وغال في سبيل الذود عنه والدفاع عن حريته وأول شرط من شروط المحبة المعرفة فلن يستطيع الانسان أن يحب شيئاً مجهولاً أو غامضاً ، فلكي تكون وطنيا لابد لك من أن تعرف وطنك وكل شيء يتصل بوطنك . فلكي نحب مصر لابد لنا من أن نعرف كل شيء عن مصر وهو ما سأحاول أن أعينك عليه يا بني في هذه الرسالة .

مصر هبة النيل كما وصفها بحق أقدم المؤرخين هيرودوت الذي كان في وصفه يقرر الأمر الواقع . فالنيل هو والد مصر ومصر هي ابنة النيل ولكي نعرف الفرع لابد لنا من معرفة الأصل .

### النيل أطول الأنهار

النيل هو من غير شك أعظم أنهار الدنيا على الإطلاق وأكرمها طبعاً ، فضلا عن أنه أطولها فهو نسيج وحده بين أنهار الدنيا لا يكاد يوجد له شبيه في مزاياه العظام وصفاته الفريدة ، فلا عجب أن جاءت مصر فريدة في بابها لا مثيل لها في بلاد العالم لأن المقدمات متى كانت رائعة جاءت النتائج رائعة كذلك .

ضع أمامك يا بني مصوراً جغرافياً . وشرح بصرك بين القارات الخمس فلن تجد لنهر النيل شبيهاً في مجراه واستقامته العجيبة ، حيث يكاد يجري أربعة آلاف ميل متصلة في خط مستقيم غير ثنية هنا وانحناء هناك لا تخرج النيل عن طبيعته المستقيمة . حتى إذا اقترب من مصبه تفرع إلى هذه الفروع المختلفة التي انتهت أخيراً إلى هذين الفرعين الرئيسيين فرع دمياط وفرع رشيد اللذين يضمن بينهما أخصب تربة عرفها العالم وسمعت بها الدنيا .

فكأن النيل يشبه في هيكله هذه النخلة الباسقة الثابتة في الأرض وفرعها في السماء .  
هذه النخلة الجميلة المتسقة التي تنتهى بهذا التاج من الفروع والأوراق تنبت من خلالها  
أشهى الثمرات وأطيبها وأكرمها .

هذا الاتساق في الشكل ، هذا المجرى الممتد طويلا دون أن يعكره معكر هنا أو  
هناك ، هو أول عجيبة من عجائب تكوين النيل العظيم ، وهو إذ يبلغ طوله المستقيم  
أربعة آلاف ميل ، يضرب الرقم القياسي لطول أى نهر من أنهار الدنيا . حقاً لقد قيل لنا  
ونحن طلاب صغار في المدارس أن نهر المسيسيبي هو أطول أنهار الدنيا والحقيقة أن هذه  
مغالطة علمية أريد بها التقليل من شأن النيل ، ذلك أن المسيسيبي في حقيقته ، يتألف  
من نهريْن هما المسيسيبي والمورى وقد يضمّان فيا بينهما حوضاً أكبر من حوض وادى النيل  
أما من حيث الطول بالنسبة لنهر واحد فلا جدال أن النيل هو أطول أنهار الدنيا قاطبة .

### النيل أقدم الأنهار

ولابد أن يكون النيل هو أقدم أنهار الدنيا على الإطلاق . فذلك الهدوء الذى يجرى  
به ماؤه . وهذا المجرى المتسق الخالى من عقبات تذكر .. وهذا الانحدار التدريجى  
البطيء من المنبع حتى المصب . وهذه السرعة المعتدلة المتسقة التى يتدفق بها ماؤه العذب  
المسلسيل طوال السنة . كل ذلك دليل على قدم هذا النهر من أقدم العصور . فقد علمنا  
جغرافيو الطبيعة وعلماء الجيولوجيا . أنه كلما كان تيار النهر سريعاً وانحداراته حادة ومجرّاه  
غاصّاً بالشلالات والجنادل والصخور ، وكلما كان النهر نزقاً في تصرفاته وفي فيضاناته ،  
كلما دل على حداثة تكوينه ، وعلى العكس من ذلك كلما انتظم تصرف أى نهر من  
الأنهار وخلا مجراه من العقبات والشلالات والانحدارات ، وكلما اتسق فيضانه . كلما دل  
على قدم النهر بحيث استطاع أن يعبد مجراه وأن ينظم تدفقه . ولن نجد للنيل شيئاً في هذه  
الناحية من حيث انتظام مجراه واعتدال جريانه ودقة مواعيد فيضانه . هذا الانتظام وهذه  
الدقة هي الدليل الذى لا ينقض ، على أن النيل هو أقدم أنهار الدنيا . ويجب أن لا  
تكون هذه الحقيقة محل شك بعد أن أصبح من الحقائق التاريخية المؤكدة أن ضفاف  
النيل قد شهدت أول ما عرفته الدنيا من اجتماع بشرى . وتلك هي آية قدم النيل  
وعراقته .

## الفيضان الرحيم

وللنيل بعد ذلك عديد من الخصائص التي يرجع الفضل فيها إلى طوله وقدمه ، منها ما أشرنا إليه من انتظام فيضانه هذا الانتظام العجيب بحيث مكن المصريين القدماء منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح من اكتشاف السنة الشمسية وتقديرها بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . ومما يحير الألباب في عصرنا الحاضر أن يصل المصريون إلى هذه الدرجة من الدقة التي لم تدع للبشرية مجالاً للاجتهاد الكثير في هذه الناحية .

وإذا كان فيضان النيل يتم بصورة منظمة دقيقة في كل عام . فإن هذا الفيضان من ناحية أخرى يجلب الخصوبة وبالتالي المدد والغذاء ، بحيث بات الذين يعيشون على ضفاف النيل يتطلعون إلى مجيء الفيضان كتطلعهم إلى الرحمة الإلهية إذ تحمل بهم . وذلك كله على خلاف الحال بالنسبة إلى سكان أحواض الأنهار الأخرى حيث يرتجفون رعباً وفزعاً بمجرد الإشارة إلى فيضان أنهارهم ذلك أن فيضان هذه الأنهار قد يعنى بالنسبة إليهم في كثير من الأحوال الخراب والدمار والفناء .

## صلاحيته للملاحة

وللنيل بعد ذلك في مصر خصوصية رابعة تجعله من أصلح أنهار الدنيا للملاحة طرداً وعكساً . فبينما يجري النيل من الجنوب إلى الشمال ، إذ تهب على مجراه ريح تندفع من الشمال إلى الجنوب فالسائر في النيل من الجنوب إلى الشمال يستعين بقوة التيار ، والسائر فيه من الشمال إلى الجنوب يسير بقوة الريح . ولهذا الريح الشمالية مزية أخرى أجّل خطراً من تسيير الملاحة وهي أنها تحول دون تدفق مياه النهر إلى البحر في فترة التحاريق ، إذ أن هذه التيارات الهوائية المعاكسة لجرى النيل ، تحدث ضغطاً مستمرا من شأنه أن يقلل من تدفق مياه النهر إلى البحر الأبيض .

القدم والطول والاتساق ، وانتظام الفيضان ودقة مواعيده ، والخير الذي يجمله ، والتيارات الملائمة التي تهب على مجراه في الشمال ، كل هذه خصائص قد انفرد بها النيل عن سائر أنهار الدنيا ، وهي كلها - كما رأينا - خصائص نافعة وخيرة ، فلا عجب إذا عبده المصريون القدماء في عصور الوثنية عندما كان عقل الإنسان لا يزال قاصراً عن إدراك حقيقة الله المطلقة . قدس المصريون القدماء نهر النيل وعبدوه وقدموا له القرابين وأنشأوا له المعابد والهياكل فلما زالت الوثنية وعرف المصريون أن النيل على عظمتها ليس

إلا صنعة الخالق القديم الواحد الأحد الفرد الصمد ظلت للنيل مع ذلك قدسيته ومكانته . حتى في ظل الإسلام وفي ظل النور المحمدي لم يستطع العرب المسلمون الذين وفدوا إلى مصر إلا أن يقدسوا النيل فقد نسبوا إلى الرسول أحاديث عن منابع النيل في الجنة . ولا جدال في أننا نعرف الآن بالضبط أين توجد منابع النيل في أفريقيا ، غير أنه لا جدال أيضاً في أن هذه الأمطار التي تهطل عند خط الاستواء وعلى جبال الحبشة لتأليف هذا النهر العظيم ، لا جدال عندي في أن هذه الأمطار تهبط من رحمة الله الرحمن الرحيم الغني الواسع القدير .

## مصر

كان طبيعياً إذن أن يجعل هذا النهر المبارك من الأراضي التي تحيط بضفتيه وادياً من أخصب ما عرفت الدنيا من وديان - حتى إذا اقترب النيل من مصبه أبدع هذه الدلتا التي تؤلف تاج هذا الوادي والتي لا تعرف الدنيا بقعة أخرى تفوقها خصوبة أو تفوقها غنى وثروة أو تفوقها اعتدالاً في المناخ وطيباً في الماء وصلاحية للحياة - وهو هذا الجزء من العالم الذي سماه العرب مصر نزولاً عند تسمية القرآن له وسماها اليونان القدماء ايجيبتوس - وكان يسمى بالمصرية القديمة خم .

تقع مصر بمعناها الضيق أى باستثناء الوجه السودانى بين خطى العرض الشمالين ٢٠ و ٣٠ وتقول الجغرافيا الطبيعية إن هذين الخطين من خطوط العرض شمالاً وجنوباً لا يحويان بينهما إلا الصحارى والقفار لأنها يخلقان منطقة جفاف لا تسقط فيها أمطار فى أى جزء من أجزاء السنة ولو نظر الانسان إلى صحارى العالم لوجدها تقع بالفعل فى هذه المنطقة فالى الشرق والغرب من مجرى النيل تمتد الصحارى الشاسعة مطوفة حول الكرة الأرضية . فلو لم يكن النيل لما كانت مصر إلا قطعة جرداء من هذه الصحارى الخيفة المحيطة بها . ولكن جريان هذا الشريان من المياه العذبة قد جعل من مصر أخصب واحات الدنيا وأجملها وأغناها .

ولما كان جو الصحراء هو أجف أجواء الدنيا - وكان جواً صافياً ساطعاً بالضوء والحرارة - ولما كانت طبيعة الصحراء طبيعة هادئة ساكنة بعيدة عن الزوابع والأعاصير المدمرة التي تعصف بكل شيء على سطح الأرض من منشآت ومؤسسات . فقد بقيت آثار المدنية المصرية القديمة - سليمة كاملة تحير الأبواب على الرغم من توالى العصور والدهور فظلت الأهرام وظل أبو الهول وظل الكرنك وظلت عشرات ومئات من الهياكل والأهرامات والآثار موزعة على طول الوادى . وظلت مقابر الفراعنة وأجدادهم لم يتصرف إليها الفساد والبلبلى لتشهد الدنيا بعد أن اختلط الحابل بالنابل واختلت الميازير والمقاييس - أن مصر كانت قبل أن تكون كل هذه الدول والبلدان المستحدثة وأنها ستبقى بعد أن يزولوا ويدولوا كما بقيت حتى الآن .

وسيقى جو مصر ومناخ مصر بحيث يحفظ كل ما يشاء على أرض مصر من المنشآت والمؤسسات ويحميها من تقلبات الزمان . وسبق أرض مصر كما لو كانت دائماً كتاباً ينقش الدهر على صفحاته آيات التاريخ الباهرة وتطورات الحضارة ورفى البشر نحو الكمال والمثل الأعلى .

وسيقى جو مصر ذا أثر عميق فى حياتها وحياة العالم بعد أن يصبح الطيران وسيلة المواصلات الكبرى فى العالم . فليس هناك جو يدانى جو مصر من حيث صلاحيته للطيران . فهو دائم الصحو لا يكاد يتلبد بالسحب إلا أياماً قليلة على مدار العام وهو بعد ذلك خال من الأعاصير والزواج التى تجعل الطيران أمراً صعباً فى كثير من الأحيان . ولما كانت مصر تقع فى وسط الدنيا القديمة فإن أى خط من خطوط الطيران العالمية من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب أو العكس لابد أن يجعل من مصر إحدى محطاته الرئيسية .

### مصر مركز العالم

على أن أعظم ما تمتاز به مصر من غير شك هو هذا المركز المتوسط بين كتلة العالم القديم الذى يتألف من أوروبا وآسيا وأفريقيا وهو ما يجعل مصر مركزاً رئيسياً من مراكز الدنيا إن لم تكن هى المركز الرئيسى الأساسى الوحيد على الأقل بالنسبة للعالم القديم كما قدمنا . فمصر تقع فى أفريقيا وتتصل بآسيا وهى على مرمى حجر من أوروبا ولذلك فقد كانت القلب الحافى لهذا العالم القديم وانبعث منها الحياة والمدنية والحضارة فى هذه الاتجاهات الثلاث . فتأثرت بها دويلات آسيا المتاخمة فكانت المدنات الآشورية والبابلية والفينيقية وامتدت منها الحضارة على طول مجرى النيل فى بلاد النوبة والسودان وإثيوبيا والصومال . وامتدت منها شمالاً إلى كريت والإغريق وآسيا الصغرى .

وعندما تنكر الزمان لمصر وفقدت خطرها كخالقة للحضارة والمدنية ظلت دائماً أبداً واسطة العقد فى مزج الحضارات ونقلها من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ولم تفقد فى أى يوم من أيام تاريخها الطويل مركزها الرئيسى فى مواصلات العالمين .

وحسب الإنسان أن يلقى نظرة على خريطة الدنيا . ليدرك على الفور موقع مصر وخطورته بالنسبة لبقية العالم . فعلى أعظم بحرين بين بحار العالم هما البحر الأبيض والبحر الأحمر تقع مصر وعلى أرضها تجرى قناة السويس هذا الشريان المائى الذى ربط



البحرين فجعل منها طريقاً واحداً للمواصلات وقرب الشرق إلى الغرب قبل أن يقربه الطيران وجعل من أفريقيا جزيرة كاملة تطوف حولها السفن لتصل إلى جزء من أجزائها .

فإذا استحضرننا في أذهاننا ما قدمنا عن نهر النيل وامتيازه على سائر أنهار العالمين وأضفنا إليه موقع مصر وامتيازه على سائر مواقع غيرها من الأقطار استطعنا أن ندرك على الفور لماذا كانت مصر أخطر أجزاء العالم وأكثرها حياة وحيوية وفاعلية في تاريخ البشر . وسنرى عند استعراضنا لتاريخ مصر كيف تقلبت بين المجد والعزة والرخاء والبؤس والشقاء .. سنرى كيف نعمت مصر بالحرية والسيادة والمنعة . وكيف جاء عليها وقت تقدمت فيه كل شيء فسلبت استقلالها وحريتها وكرامتها ولكنها لم تفقد في أى يوم من الأيام خطورتها في كلا الحالين . فإذا أراد الفرس أن يسيطروا سلطانهم على العالم فلا سبيل لذلك إلا عن طريق احتلالهم لمصر . وإذا أراد الإغريق تحت قيادة الإسكندر أن يدمروا الفرس وأن يصبحوا حكام العالم فإن هذه العملية لا تتم ولا تتحقق إلا باحتلال مصر . وإذا شاء التاريخ أن يجعل من روما امبراطورية عالمية تسيطر على البشر فإن هذه العالمية لا تبدأ إلا بعد احتلالها لمصر . ولما قُدِّرَ للعرب أن تؤول إليهم زعامة العالم فلا سبيل لتحقيق ذلك إلا على الأراضي المصرية . وعندما ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الوجود ليرثوا القيادة الإسلامية فاحتلالهم لمصر كان هو الطريق الوحيد لتحقيق هذه الأمنية . وعندما رغب نابليون في أن يدمر الامبراطورية الانجليزية وأن يطعنها في الصميم فلا سبيل أمامه لتحقيق هذه الغاية إلا أن يحتل مصر . ولما قرر الانجليز أن يصبحوا سادة الدنيا وأن يسيطروا على بحارها السبعة احتلوا لذلك مصر . وقد أتاحت لنا الحرب الحاضرة أن تلمس الدنيا كلها كيف أن مصير هذه الحرب كلها وبالتالي مصير الدنيا بأسرها قد توقف في يوم من الأيام على احتلال بضعة عشرات من الكيلو مترات من الأراضي فلو أن روميل قائد الألمان استطاع أن يواصل هجومه بحيث يصل إلى الإسكندرية التي كانت على مرمى المدفع من مقدمة جيوشه . ولو أنه اندفع عبر الدلتا إلى قناة السويس لسقطت مصر في يده ولنمت للألمان بذلك السيطرة على البحرين الأبيض والأحمر . ولضربوا انجلترا بذلك في الصميم ولخرجوا من هذه الحرب فائزين منتصرين .

ولكن الانجليز دافعوا عن مصر بنفس القوة التي دافعوا بها عن صميم الجزر البريطانية . فلما قدر للانجليز أن ينتصروا وانقلب ميزان الحرب تحقق القول الثابت أن من كانت مصر من نصيبه فإن الدنيا القديمة كلها لا تلبث أن تخضع لسلطانه .

وتكون خلاصة ما تقدم أن مصر بقعة فريدة في العالم سواء بالنسبة لموقعها أو بالنسبة لمناخها وخصوبتها وثروتها الزراعية .

فلا عجب بعد ذلك أن سبقت مصر بحضارتها حضارات الدنيا كلها . ولا عجب أن كان تاريخ الجنس البشرى يبدأ حياته العمرانية في مصر .

### مصر أم الحضارة الانسانية

وقد يكون مهبط الإنسان الأول محل نزاع من الناحية العلمية وهل كانت مصر هي ذلك المهبط . أم كانت الهند أو سيلان أو غيرها من المناطق الحارة . ولكن الأمر الذي لم يعد فيه خلاف بين فطاحل العلماء أن أول استقرار للجنس البشرى وأول خلق للحضارة الإنسانية كان على ضفاف النيل وفي مصرنا العزيزة بالذات .

وعندى أن الإنسان الأول لابد أن يكون قد استقر باديء ذي بدء في مكان ما بين الغابات الاستوائية حيث يستطيع أن يحصل على قوته في يسر وسهولة وأغلب الظن أن أواسط أفريقيا دون غيرها من الأجزاء الاستوائية كانت هي مقر ذلك الإنسان الأول . يدل على ذلك وجود قبائل بأكملها لا تزال في الوقت الحاضر تعيش معيشة بدائية بحتة لا تدانيها معيشة أى قبائل متوحشة في أى جزء من العالم .

فلا بد أن تكون موجة البشرية قد خرجت أول ما خرجت عند غابات خط الاستواء بالقرب من منابع النيل ثم راحت تطيع مجرى هذا النهر رويداً رويداً . فلما خرجت من منطقة الغابات ودخلت في المنطقة الصحراوية تبدلت معيشتها وسعت للاستقرار على ضفاف النيل لتكون على مقربة من الماء . ومن ثم اكتشفت الزراعة وبدأت الإنسانية أعظم طفراتها في سبيل التطور والارتقاء عن طريق اكتشاف الزراعة .

وقد يكون هذا الفرض الذى فرضته لتصور انتشار البشرية محل أخذ ورد . ولكن الذى لم يعد فيه أدنى شك أن حضارة الإنسان الزراعية قد انبثقت من مصر . ولقد وجد قديما من قال من العلماء بأن حضارة آشور وبابل أسبق على الحضارة المصرية . ومن زعم أن حضارة الهند هي السابقة على الحضارة المصرية ولكن ذلك كله كان قبل اكتشاف اللغة الهيروغليفية . وحل طلاسم الآثار المصرية التى دلّت على أن الحضارة المصرية موهلة في القدم .

فقد أصبح من المقطوع به أن تاريخ أبى الهول والأهرام يمتد إلى أربعة آلاف سنة

سابقة على المسيح . ولما كانت الأهرام فى حد ذاتها تعتبر معجزة كاملة من معجزات البناء والهندسة ومن المحال أن يكون المصرى القديم قد وصل طفرة إلى هذا الإبداع . فلا بد إذن أن يكون بناء الأهرام قد سبقته بضعة ألوف أخرى من التطور المستمر المتواصل حتى آن أن يصل العقل البشرى إلى هذه الدرجة من النضوج والنبوغ .

إن تحليل عملية بناء الأهرام تدلنا على عظمة هذه الحضارة التى أمكن فى ظلها تشييد مثل هذا الصرح الذى يتردد البشر فى عصرنا الحديث على الإتيان بمثله بالرغم مما أصبح فى أيديهم من آلات وأجهزة كهربائية قد باتت تقدرهم على نفس الجبال .

قد يدور بخلد البعض أن أحداً لا يفكر فى إقامة مثل هذه الأهرام لعدم الجدوى من إقامتها فى العصر الحديث وبذلك يتشدد بعض الناس بل ويتخذون من بناء الأهرام آية من آيات الاستبداد والعسف والظلم فى العصور القديمة . وذلك كله عبث وهراء وسر لعجز البشرية عن إنشاء مثل هذه الأهرام .

فالناس فى كل زمان ومكان حريصون كل الحرص على تخليد ذكراهم وعلى إنشاء النصب والمؤسسات التى تحمل طابعهم أبداً الدهر . وتظهر للأجيال المقبلة مقدار ما كانوا عليه من عظمة ومجد وسؤدد .

ونحن نرى اليوم فى باريس وروما ولندن ونيويورك محاولات شتى لإقامة مؤسسات ضخمة تخلد على مر الزمن كأقواس أو تماثيل النصر وكذلك النصب التذكارية للجندى المجهول . وقد نحت الأمريكيون التماثيل على الجبال فى حجم لم يطرأ من قبل على عقل بشر أن ينحت تماثلاً على قدر ضخامته ، كل ذلك ليظهروا مدى ما وصلوا إليه من قوة وعظمة وغنى واقتدار . فلو أن الأوروبيين أو الأمريكيين استطاعوا أن يبنوا الأهرام لما ترددوا ، وليس أدل على ذلك من أن الولايات المتحدة قد شيدت النصب التذكارى لواشنطن مؤسس الاستقلال الأمريكى على شكل مسلة من المسلات المصرية القديمة التى ترتفع شاهقة فى عواصم أمريكا وأوروبا شاهدة بما وصل إليه المصريون من عظمة ورقى واقتدار .

فالإقدام على بناء أهرام كأهرام الجيزة حتى بعد اختراع الآلات الحديثة ليس من الأمور السهلة أو الهينة . وعلى الإنسان أن يتصور كم كان المجتمع المصرى منظماً . وكُم كان يتمتع بالأمن والسلام والهدوء والنظام حتى أمكن التفرغ لإتمام هذا العمل . على

الإنسان أن يتصور كيف كانت قوة التنظيم والتنسيق لدى المصريين لا حد لها بحيث استطاعت أن تنسق جهود عشرين ألف عامل يستبدلون بثلثهم كل ثلاثة شهور طوال عشرين سنة . فأى حكومة وبأى نظام ودقة أمكن تنظيم هذا الجيش من العمال وإطعامه وتنسيق جهوده . وبأى عقل صممت هذه الأهرام . وبأى أيد أبدعت وبأى قوة وإرادة أكملت ؟؟

ألا إن ذلك كله قد تم منذ أربعة آلاف سنة سابقة على ميلاد المسيح . ولما كان من غير المقبول عقلا أن يكون المصرى القديم قد وصل إلى ذلك طفرة دون تطوير سابق فعلى الباحث إذن أن يُرجع تاريخ الحضارة المصرية إلى عشرة آلاف سنة على الأقل من أيامنا الحاضرة . ومثل هذا التاريخ السحيق لا يدع شكاً في أن مصر قد سبقت العالمين بضعه آلاف من السنين في الحضارة . وأنه على ضفاف النيل دون غيره من أنهار العالم وعلى تربة مصر تطورت الإنسانية من حياة الغابة والصيد والقنص إلى حياة الحضارة والدين والعلم والفن والجامعات والموسيقى والفلسفة والقانون وكل مظاهر الحضارة في ذروتها العليا .

## معجزات الحضارة المصرية القديمة

إن حضارة القرن العشرين بكل ما فيها من طفرة عجيبة إذا ما قيسَت منذ ثلاثة أو أربعة قرون مثلاً لا يمكن أن تقارن بحال من الأحوال بطفرة الحضارة في مصر القديمة بالنسبة إلى ما سبقها وإلى ما كان يعاصرها من أحوال العالم . فبينما كان الإنسان في جميع أنحاء الدنيا المأهولة بالسكان يعيش معيشة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية فلا قانون ولا نظام ولا دين ولا معرفة ، كان في مصر شعب زراعى يجيد الزراعة بكل حبوبها وبقولها وقثائها وفومها وبصلها بل كل زهورها وفواكهها ورياحينها . واستخدم المصري القديم الآلات وشق الخللجان والترع لينظم الري والصرف واستأنس الحيوانات وسخرها لخدمته وأنشأ المساكن وأقام المعابد والمياكل الشاخنة لعبادة الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد . وخلق في الدنيا أول مملكة متحدة ذات قانون ونظام ودستور وشرائع ومحاكم وضمير ووجدان حي . . . وإن الإنسان ليملكه الدهول من غير شك وهو يتقصى تفاصيل الحياة المصرية القديمة وكيف بلغت إلى هذا الحد من الرقي . وكيف نضج الوجدان البشرى ذلك النضوج منذ أربعة آلاف سنة سابقة على المسيح . فالمعنى الاشتراكي وعناية المجتمع بأفراده تتجلى في هذا المجتمع المصرى القديم بأعظم مما تتجلى في أى عصر من العصور . فالشخص الذى يقصر في إنقاذ حياة غريق . أو الذى يقصر في إطفاء حريق أو الذى يقصر بأى صورة من الصور في مد يد المعونة لمستغيث يرتكب جريمة من كبرى الجرائم التى يعاقب عليها القانون وهو الأمر الذى لم تستطع البشرية حتى الآن أن تبلغ إلى مستواه بالرغم من كل ما ندينه لأنفسنا من رقى وتضامن اجتماعى .

ولا يستطيع الإنسان إلا أن يقف مبهوئاً أمام تفاصيل الحياة الاجتماعية المصرية القديمة في وقت كانت الإنسانية فيه في حالة طفولة ووحشية فالمصرى القديم يكرم زوجته ويحسن معاملتها ويعتبرها شريكة حياته التى لا يبرم أمراً إلا بمشورتها . والابن يقدر أمه كل التقديس والفتاة تصون عرضها وتعتز بعفافها . والمصرى القديم يتذوق الأدب والفن ويزاول الرياضة البدنية والعقلية والروحية .

أما الحاكم المصرى القديم فقد كان يدرك من سياسة الدولة ويعرف من أحوال

وظائفها ، ما يعود بالنفع على جمهور الشعب . وما يصلح شئون الدولة وما يفسد أمورها ، كان الحاكم المصرى القديم يعرف من ذلك كله كأدق ما يمكن لحاكم عصرى أن يحيط به بعد أن يتسلح بكل ما عرفت الدنيا من ثقافة سياسية وبعد هذه التجارب الطويلة التى اجتازتها الإنسانية خلال القرون والأجيال .

### العلم فى مصر القديمة

وهل أنا فى حاجة إلى أن أشير إلى هذه المعارف والعلوم التى وضع المصريون أسسها وتطوروا بها إلى الدرجة التى احتاجت الإنسانية فى غير مصر إلى بضعة الوف من السنين كى تستطيع أن تدركها وتنقلها عنهم .

فعلوم الفلك والهندسة والحساب والميكانيكا والطبيعة والجولوجيا والقلب وما يتبعه من علوم التشريح والجراحة والكيمياء وعلوم الصناعات المختلفة من تجارة وحدادة ونسيج وغيرها كل ذلك وصلوا فيه إلى الحد الذى مكنهم من تشييد الأهرام وإقامة الهياكل والمنشآت الضخمة كأبى الهول وقصر لابيرنت ومسلة عين شمس وألوف التماثيل الجبارة التى يتساءل الفنانون حيارى ، بأى آلات استطاعوا نحتها وكيف استحال هذا الحجر الجرانيتى (الصوان) إلى عجينة فى يد المصرى القديم حتى استطاع أن يبدع منها كل هذه الأشكال والنماذج وأنه يكتب عليها كما لو كان يكتب على لوح من طين .

إن المتفق عليه بين العلماء أن المصريين القدماء لم يعرفوا الصلب والفولاذ وهو هذه المادة الأولية التى مكنتنا فى عصرنا الحديث من صنع العجايب بحيث يمكن أن توصف مدينتنا بمدينية الصلب والفولاذ . هذا المعدن الجبار كان مجهولا فى مصر القديمة فلم يعرفه المصريون ومع ذلك فقد عملوا كل ما نستطيع عمله فى عصرنا الحاضر بغير الصلب والفولاذ . فبأى مادة وبأى آلات وأدوات نحتت هذه التماثيل ونقشت هذه النقوش الباهرة على جدران المعابد وهذا الطوفان من الكتابة الهيروغليفية الذى يغطى جدران المعابد والهياكل والقبور .. كيف استطاع المصريون القدماء عمل ذلك .. وبأى أدوات .. سبق ذلك سرا مجهولا من أسرار المدينية المصرية القديمة والغازها .

### فننا التحنيط والألوان

وليس بناء الأهرام ولا نحت التماثيل وكتابة النقوش بأول أو آخر معجزات الحضارة المصرية القديمة وأسرارها . فهناك مسائلنا التحنيط والألوان وطريقة الإضاءة التى استطاع

الفنان المصرى القديم أن يرسم على هديها هذه النقوش الجميلة في قبور الملوك والملكات في أحشاء الجبل ، لا تزال هذه المسائل وغيرها من الأسرار والألغاز المستعصية على الحل حتى الآن .

فأما التحنيط ومعجزته الفنية فهو أشهر من أن يعرف . ويرجع منشأ فن التحنيط إلى العقيدة المصرية السليمة الخاصة بالبعث والنشور . كان المصريون يؤمنون كإيماننا اليوم بعودة الروح إلى الجسد يوم القيامة غير أنهم ظنوا خطأ أن الروح لا تعود إلا إذا بقى سليماً لم تعبت به يد البلى والفناء . ومن هنا اتجهت جهودهم نحو المحافظة على الجسد بعد الوفاة بشتى الطرق والأساليب . فاتخذوا المقابر الحفية البعيدة عن الأنظار الأجداث المحصنة على شكل الأهرامات وجعلوا أبواب المقابر وحجرات الدفن سراً من الأسرار . ولكن محاولة المهريين الكبرى لحفظ الأجساد تجلت أعظم ما تجلت في فن التحنيط وهو حفظ جثة الانسان سليمة بعد موته بواسطة استخدام بعض الأخلط الكيمائية ودهن الجسد بها بعد استخراج الأمعاء وكل ما يحويه التجويف البطنى من أحشاء وأعضاء ثم لف الجسد بعد ذلك لفا محكما بأنسجة من الكتان إلهيجهز بعطور وعقاقير كيمائية معينة .

وقد استطاع المصريون القدماء عن طريق التحنيط أن يقاوموا عناصر الفناء التي تعرضت لها أجساد الموتى منذ وجد البشر على هذه الارض بحيث يستطيع كل إنسان أن يشاهد بعيني رأسه فرعون موسى وبقية أجساد هؤلاء الفراعنة الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح . وهذه معجزة من المعجزات في حضارة مصر القديمة من غير شك . فنجد درج الانسان على ظهر البسيطة وهو يتحول إلى تراب بمجرد موته وعبثا حاول بنو الإنسان - في القديم كما في الحديث - أن يتوصلوا إلى ما توصل إليه الشعب المصرى القديم . على الرغم من أن جو مصر الحار من شأنه أن يضاعف في قوة عناصر الانحلال التي تطرأ على الأجساد بعد الموت . ففي أوروبا كلها وفي الأصقاع الشمالية بصفة خاصة حيث تهبط درجة الحرارة إلى درجة الصفر وإلى ما تحت الصفر يمكن للأجساد أن تبقى سليمة مدة أطول مما تبقاها في البلاد الحارة ، ومع ذلك فقد انفردت مصر الواقعة في المنطقة الحارة بهذه الخاصية ، خاصية حفظ الأجساد . وذلك عن طريق العلم المصرى القديم والفن المصرى القديم الذى مكنها عن طريق التحنيط أن لا تحنط الأجساد البشرية والحيوانية فحسب بل وتحنط الحبوب والثمار والخبز وسائر أنواع المواد الغذائية . وإن رواد المتحف المصرى أو المتحف الزراعى لا يستطيعون أن يجسوا أنفسهم عن أن

يصرخوا من الدهشة وهم يرون تحت الزجاج الحاصلات المصرية القديمة . فهذا قمع مصر منذ أربعة آلاف سنة وهذا شعيرها وهذا فوطها وهذا خبزها وهذا تبنها وهذا كتابها وهذه أنسجتها . فكيف استطاع المصريون القدماء أن يتوصلوا إلى المحافظة على هذه الأشياء التي تقضى النواميس بفنائها واختلالها إلى عناصرها الأولى ؟ هذا هو اللغز الذي لم تستطع العلوم الحديثة بكل جبروتها ومدھشاتها أن تتوصل إلى حله . وبالرغم من أن العلماء في العصر الحديث قد توصلوا إلى تحليل كل شيء إلى عناصره . حتى لقد استطاعوا تفتيت الذرة كما رأينا . ومع ذلك فلا يزال التحنيط المصرى القديم سرّاً من الأسرار المغلفة على علماء القرن العشرين .

ولقد حاولت في إحدى محاضراتي فيما سبق أن ألتبس عذراً لعجز العلم الحديث عن اكتشاف هذا السر من أنه لم تعد هناك ضرورة لهذا الفرغ من المعرفة بعد أن أصبح إيماننا ثابتاً أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يبعثنا من جديد بعد أن تتحول أجسادنا إلى هباء وتراب . ولكننى كنت مخطئاً من غير شك في تلمس هذا العذر لأن العلم يجب أن يبحث كل شيء ويتوصل إلى معرفة كل شيء بقطع النظر عن المنفعة المرجوة منه لأن مجرد العلم في حد ذاته بحقيقة من الحقائق هو من النفع الذى تطمع فيه البشرية . على أن اكتشاف السر الذى من شأنه أن يقدرنا على مقاومة عناصر البلى بالنسبة للجسد بعد الموت . ليس هو بالأمر الهين أو العديم الفائدة ولو أنه اكتشف وعرفت عناصره لأفادنا ذلك في عدة نواح أخرى غير الناحية التى استخدمها فيه قدماء المصريون .

والخلاصة أن علومنا الحديثة بكل جلالها لا تستطيع إلا أن تقر بالعجز والتقصير حيال علم قدماء المصريين في هذه الناحية . ولا مناص من أن تسلّم الدنيا بأن جدودنا القدماء قد عرفوا من أسرار بعض العلوم ما لا يعرفونه هم الآن .

وقد حاول العالم المصرى الكبير الأستاذ سليم حسن أن يهون من شأن هذا الموضوع لعله لا أعرفها فخرج على إجماع العلماء من اعترافهم بأن التحنيط هو سر من الأسرار التى لا تزال مغلفة بالنسبة لنا . وراح يتحدث في كتابه « مصر القديمة » عن التحنيط وأنه لم يعد سرّاً من الأسرار وأن جميع عناصره تقريباً قد باتت معروفة . والعجيب أنه بعد أن قرّر ذلك لم يلبث أن قرر بعد سطور قليلة من حيث لا يدري ، أن عناصر التحنيط لا تزال سرّاً مجهولاً فقد راح يعدد أنواعاً من العطاراة والأعشاب باعتبارها المواد الرئيسية في عملية التحنيط ثم شفع ذلك بقوله وبعض مواد أخرى بصفة التحصيل وقد نسي



الأستاذ السَّير أنه في الأمور الكيائية قد يتوقف على عنصر واحد يضاف بكميات ضئيلة إلى حد لا يتصوره العقل أن يختلف تركيب المادة المتجة . بل إن مجرد نسبة خلط المواد بعضها ببعض قد يترتب عليه في حد ذاته اختلاف كبير في النتائج . وفي عصرنا الحديث قد يعرف كل علماء الكيمياء حقيقة العناصر التي يتألف منها دواء شهير كالأسبرين الألماني ومع ذلك فلا يستطيعون أن يركبوا حبة أخرى يمكن أن يقال عنها بصفة قاطعة إنها (أسبرين) وقد يكون الأستاذ سليم حسن قد توصل إلى بعض مواد التحنيط ولكن الأستاذ يجب أن يكون على ثقة أن هذا ليس كل شيء ولا يحل اللغز . وإلى أن يعلن علماء العصر الحديث بصفة قاطعة أنهم تمكنوا بالفعل من اكتشاف سر التحنيط المصري . وما لم يتمكنوا بالفعل من تحنيط جثة عظيم أو بطل من الأبطال لكي تبقى أربعة آلاف سنة كما بقيت أجساد الفراعنة القدامى ، فلن يستطيع كائن من كان أن يدعى أننا أدركنا من سر التحنيط ما أدركه قدماء المصريين وإذن : فسبق هذه المعجزة العلمية الخالدة لتحدي بني البشر وتشهد بما كان عليه أجدادنا من تفوق ساحتى في العلوم .

رب معترض يقول إن الأمر كان صدفة من الصدف التي قد لا تدل على سعة في العلم قدر ما تدل على الحظ والتوفيق . ولكن جميع المخترعات والمكتشفات الكيائية الحديثة وغيرها لم يتوصل إليها الإنسان إلا عن طريق الصدفة . ولكن هذه الصدفة لم تقع ولن تقع في طريق أحد غير عالم أو مشغول بالعلم والصدفة في العلم لا تواتى إلا هؤلاء العلماء الكادحين بالليل والنهار التماسا للمعرفة وللوصول إلى نتائج معينة .

وسوف نرى أن إجادة المصريين القدماء للحنيط لم يكن في الحقيقة إلا فرعاً من فروع معرفتهم الواسعة النطاق بالكيمياء والإحاطة بخصائص المواد والعناصر الأولية فعجزة الألوان المصرية وقوة ثباتها لا تقل من حيث الخطورة والأهمية عن معجزة التحنيط

نخيل إلى وأنا أزور لأول مرة مقابر وادى الملوك في خلال رحلة كشفية قنا بها ونحن طلاب صغار . أن مصلحة الآثار المصرية قد أعادت نقش جدران مقابر الفرعون لتعيدها إلى منظرها الأول الذي كانت عليه . فلما أبدت هذه الفكرة ضحك الأساتذة والخبراء الذين كانوا يرافقونى وأفهمونى أن هذه الألوان الزاهية هي من قدماء المصريين وأن يد إنسان لم تمتد إليها منذ أربعة آلاف من السنين إن لم يزد . وـ الرغم من أنهم أكدوا لي هذا الأمر وأنه حقيقة مقررة فلم أستطع أن أفهم تماماً . ظل

الشك يساور نفسى فى أن يكون ما قالوه صحيحاً لأن عقلى لم يستطع أن يتصور كيف تبقى الألوان زاهية براقه بل وكأنها لا تزال رطبة لم تجف طوال تلك الأحقاب الطويلة .  
حقاً إن هذه الألوان بعيدة عن التيارات الضوئية والهوائية التى قد تؤثر عليها ومع ذلك فإن أربعة آلاف سنة دهر طويل جداً إلى درجة لا يستوعب العقل معها استمرار الألوان بكل رونقها ولمعتها . ومع ذلك فهذه هى الحقيقة المجردة التى يراها بعينى رأسه كل من قدر له أن يزور هذه الآثار .

وإذا كانت مقابر وادى الملوك والملكات وأمثالها قد احتفظت بهذه الألوان لبعدها عن التقلبات الجوية فإن هناك بعض الآثار والأحجار المعرضة للهواء والشمس طوال هذه القرون لا تزال تحمل آثار الألوان القديمة من أحمر وأزرق ، حقاً قد لا يبدو الأحمر زاهياً ومع ذلك فباستطاعة الإنسان أن يرى اللون الأحمر واضحاً جلياً وكذلك بقية الألوان وهنا تبدو معجزة الألوان المصرية القديمة من حيث قدرتها على الثبات الطويل على مر الألف من السنين . فمن المعلوم أننا فى العصور الحديثة لا تزال فى ميسر الحاجة إلى الألوان التى تقوى على مغالبة الزمن والطوارئ الجوية ومن المعلوم أن الألوان والاصباغ شديدة الصلة بالأدوية المختلفة والعقاقير حتى أن الشركات التى تقوم بصنع الألوان فى العالم هى التى تقوم بصناعة العقاقير ومختلف المواد الكيميائية فى نفس الوقت . ومن المعلوم والمتفق عليه أن ألمانيا وصلت فى صناعة الألوان إلى مرتبة الامتياز والتفوق العالمى . ومع ذلك فإن معلوماتنا عنها تؤكد أن درجة ثبات أى لون من الألوان الحديثة لا يمكن أن يقارن بحال من الأحوال بدرجة ثبات الألوان المصرية القديمة . ويقف العلماء حيارى إزاء هذا السر الكيميائى الذى مكن المصريين القدماء من صنع هذه الألوان الثابتة ثبوتاً معجزاً .

فإذا أضفنا هذا السر الخاص بالألوان إلى السر الخاص بالتحنيط أصبح من المقرر أن قدماء المصريين كانوا متفوقين تفوقاً ملحوظاً على عصرنا الحاضر فى المسائل الكيميائية وأنهم عرفوا من خصائص بعض المواد والعناصر والمعادن أكثر مما نعرف .

### هل عرف المصريون الكهرباء :

ولا يزال نوع الضوء الذى أضاء للفنان المصرى القديم داخل المقابر مشكلة أخرى من المشاكل العلمية التى لم تحل . فدى ما وصل إليه علمنا أنه لا يوجد غير الكهرباء ضوء لا

يترك آثاراً على الجدران نظراً لأن الضوء يتولد عن عملية الاحتراق التي تبعث بالدخان إلى سماء المكان وقد نحتت مقابر للفراعنة في وادى الملوك في داخل الجبل وعلى بعد سحيق في باطن الجبل بحيث لا يمكن لضوء الشمس أن يصل بحال من الأحوال إلى هذه الأعماق فلا بد من إضاءة صناعية ولا بد من إضاءة قوية ليتمكن معها الفنان من إبداع نقوشه هذا الإبداع . فعلى ضوء أى نوع من أنواع المصابيح عمل الفنان المصرى القديم ؟ ليس هناك أى أثر للدخان والسناج الذى ينشأ من وجود مصابيح أو مشاعل . لقد حاول العلماء المصريون أن يحلوا هذه المشكلة وقد استبعدوا فكرة المصابيح الكهربائية بطبيعة الحال لأنه لم يكشف بين كل آثار المصريين القديمة ما يدل على معرفة المصريين القدماء الكهرباء . فلم يبق أمامهم إلا أن يتصوروا أن قدماء المصريين كانوا يدخلون الضوء إلى هذه المقابر بواسطة سلسلة متصلة من المرايا التى تعكس ضوء الشمس . وعلى فرض صحة هذا التفسير (الذى لا يزال مشكوكا فيه) فانه يكون آية على ما وصل إليه المصريون القدماء من البراعة والاقتدار والتحكم فى العناصر .

#### المنسوجات المصرية :

وثمة معجزة رابعة من معجزات الصناعة المصرية القديمة وهى هذه الأنسجة الرفيعة من الكتان التى يحار أعظم النساجين مهارة ، فى الوقت الحاضر ، فى معرفة كيف استطاع قدماء المصريين أن يخرجوا هذه الأنسجة الناعمة من أغلظ الخيوط وأخشنها . إن الأنسجة الكتانية القديمة تشبه أن تكون أنسجة حريرية ويؤسفنى أن الأرقام لا تحضرنى الآن ساعة كتابتى هذه الرسالة فى السجن ولكنى واثق من أننى طالعت فى مؤلف علمى خاص بالنسيج أن العصر الحديث لم يستطع أن يصل فى الأنسجة الكتانية إلى بعض ما وصل إليه قدماء المصريين من حيث عدد الخيوط فى البوصة الواحدة ويقف علماء النسيج حيارى أمام هذا السر الذى ذلل ألياف الكتان للمصريين فأخرجوا منها هذه الخطوط الدقيقة الناعمة التى نسجت أثوابا شفافا .

وعجيب أن يكون أجدادنا القدماء قد وصلوا فى هذه العصور السحيقة إلى هذا الامتياز والتفوق فى فرع من فروع الصناعة التى لم يكف البشر فى يوم من الأيام عن مزاولتها ومحاولة تحسينها ... ولكنها العبقريّة المصرية .. العبقريّة المصرية وكفى .

ويطول بى المقام لو أنى رحت أتقصى كل شاردة من إبداع الحياة المصرية القديمة

وألوان الرفاهية والتّرف الذى وصلت إليه الحياة فى هذا العهد السّحيق التى تدل على درجة عالية جداً من إدراك معانى الحياة الراقية وتذوقها . فالموسيقى بأدقّ معانيها وأعذب آلائها كما ترى منقوشة على الجدران . والرقص الفنى التّوقيعى والغناء والشعر والأدب . كل ذلك كان يحظى بسوق رائجة على عهد مصر القديمة . وكان جمهور الشعب يتذوقه ويطلب له كما يطلب سكان باريس وفيينا وبرلين وروما والقاهرة فى عصرنا الحديث إلى موسيقى فاجنر وموزار وبيزيه وغيرهم من مؤلفى الروايات الموسيقية . وكان المصريون يمارسون الألعاب الرياضيّة فى شغف واهتمام كما يفعل أرقّ شعوب العصر الحديث بل لقد جعلوا ممارسة الألعاب الرياضيّة من الواجبات على كل مواطن . وكانوا من هواة الصيد والقنص فى البر والبحر .

وكانت سقوف المنازل المصرية تزين بما يجعلها تبدو للرائى كأنها سماء . فتطلّى باللون السماوى وتنقش عليها صور النجوم والأقمار . وكان المصرى القديم يحرص على أن يرى كل ما حوله موسوما بطابع الفن . فالكرسى والسريّر والمائدة والمشط والكوب وصحفة الطعام ومراة الوجه لابد أن تزين كلها بأجمل الرسوم أو تنقش على هيئة حيوان من الحيوانات أو طائر من الطيور أو زهرة من الزهور .

كل ذلك يدل على الدرجة الرفيعة من الرقى فى الإحساس الفنى الذى وصل إليه المصرى القديم

فلندع ذلك كله جانباً ولنلق نظرة سريعة على عناصر الحضارة الحقيقيّة لكل مجتمع وهى الدين والقانون والعلم . فأما العلم فى الإشارات السابقة ما يدلنا على عمق ما وصل إليه المصريون القدماء من العلوم والمعارف . وأما فيما يتعلق بالدين والعقيدة فسأعرض له بإسهاب فى رسالتى القادمة التى سأخصصها عن الإيمان وتاريخ تطوره وكيف وصلت العقيدة المصريّة فى أيام أخناتون إلى درجة التوحيد المطلق المتزّه لله من كل جسمانيّة وكل تشبيه وأن الباحث التزيه لا يستبعد إطلاق وصف النبوة على أخناتون لروعة ما انتهى إليه من نتائج ونادى به من تعاليم وحسب المصرى القديم فخاراً فى باب العقائد والأديان أنه كاد أن يصل إلى جلّ تعاليم الإسلام التى جاءت بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة من حيث الإيمان بالحياة الآخرة والبعث والنشور والحساب والميزان والجنة والنار والعقاب والثواب وأن من يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وسيجد الإنسان في قائمة الجرائم التي يحاسب عليها المصري القديم في الآخرة كل ما يمكن أن ينتهي إليه مجتمع وصل إلى قمة الرقى الاجتماعي والوجداني والاشتراكي . فليست السرقة والزنا والقتل والسلب والنهب هي كل الجرائم التي يعاقب عليها الإنسان في الآخرة فحسب . بل إن الغيبة والتميمة - والبخل والإسراف وإغصاب الوالدين وفقدان الشفقة ، وقلة المروءة والإساءة إلى اليتيم والفقير والضعيف والحشونة مع النساء والظلم في الأحكام وتقاضي الرشوة والوساطة والمحسوبية والتلاعب بالموازين والكذب وعدم الأمانة في التعليم وعدم الإجابة في عمل الإنسان كل هذه جرائم من أخطر الجرائم التي يعاقب عليها الدين المصري القديم في الآخرة فضلا عن عقوبة القانون الوضعي لها في الدنيا .

### القانون

أما عن القانون ومبلغ رقيه في مصر القديمة فهو من الأمور التي لا تزال تثير إعجاب الدنيا ودهشتها . وإذا تحدثنا عن القانون ومدى رقيه فانما نقصد بذلك في الدرجة الأولى القانون الذي يحكم العلاقات بين الناس وهو ما يسمى في عصرنا الحديث بالقانون المدني . ويعتبر مقياس الرقى في أوروبا اليوم أنهم استطاعوا أن يبدعوا التفرقة بين المعاملات المدنية البحتة وبين المعاملات التجارية . وقد كان القانون المصري القديم يعرف هذه التفرقة . ولقد عرف القانون المصري القديم نظام الإشهار (التسجيل) فيما يتعلق بالعقارات فكان في مصر القديمة سجلات عقارية منظمة وهو الأمر الذي لم نستطع أن نصل إليه في عصرنا الحاضر .

ولقد كانت المرأة تتمتع بالأهلية الكاملة وبكافة الحقوق التي يتمتع بها الرجل وتظهر أهمية هذه التسوية بين الرجل والمرأة عندما نقارنها بما كانت عليه المرأة في ذلك الوقت من انحطاط جعل الكثيرين ينظرون إليها على أنها نوع من أنواع الحيوانات أو الرقيق . وبالجملـة فإن القوانين في مصر القديمة كانت كأروع القوانين التي تعرفها الدنيا في الوقت الحاضر .

### فن الحكم

أما عن فن الحكم والإدارة فقد بلغت فكرة الدولة في مصر أوجها وعرفت مصر مختلف الوزارات والمصالح كما نعرفها في عصرنا الحديث فكانت هناك وزارات ومصالح الخارجية والدفاع والتعليم والرى . وعلى ذكر الرى فقد سجل التاريخ للمصريين القدماء

فما سجل مشروعات رى كبرى لا نعلم بإمكان تفسيرها فى الوقت الحاضر ومن ذلك تحويل مجرى النيل وإنشاء بحيرة مورييس التى تعتبر أول مشروع هندسى مالى وسجلت لنا تل العمارنة ما يدل على أن مصر القديمة قد عرفت نظام وزارة الخارجية حيث عثرنا على (أرشيف) كامل للمراسلات السياسية بين اخناتون وسفراته فى الخارج وبين اخناتون ورؤساء الدول الأجنبية والتابعة لمصر برباط التبعية . وحدثنا التاريخ عن قصر لابرات الذى كان يحوى ثلاثة آلاف حجرة والذى أنشئ ليضم موظفى الحكومة ومصالحها المختلفة .

وهكذا أننا قلب الانسان طرفه فى المدينة المصرية يراها مدينة ضخمة رائعة سبقت المدنات الأخرى التى عرفها العالم بألفين أو ثلاثة آلاف من السنين على الأقل . وقد يمر القارئ العادى على هذه الكلمة - كلمة ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين - بدون أن يدرك ما تنطوى عليه تماما لأنه يطالعها فى أقل من لمح البصر ولكن القارئ المدقق يستطيع أن يدرك معنى ثلاثة آلاف سنة عندما يتصور أن تاريخ دولة عريقة كإنجلترا لا يمتد إلى أكثر من بضعة قرون وأن كل أبحاد إنجلترا الجديدة وكل عظمتها التى يذهل لها من يتتبع تاريخ هذه الأمة لا يكاد يرجع إلى أكثر من قرنين أو ثلاثة . كانت إنجلترا قبلها أمة تعيش فى ظلمات العصور الوسطى كبقية أوروبا . أما الروس فلا تاريخ لهم قبل قرنين من الزمان وهذه دولة عظيمة كأمريكا لم تصبح شيئاً مذكوراً إلا منذ قرن واحد من الزمان .

### عمق التاريخ المصرى

فلنقارن الآن بين هذه التواريخ لتلك الأمم الحديثة وبين تاريخ مصر حيث كانت الأسرة الحاكمة الواحدة يمتد حكمها إلى أربعة قرون أو خمسة وقد يصل حكم الأسرة الواحدة إلى ألف من السنين .

فعندما نقول إن مصر قد سبقت أقدم مدينة عرفتها الدنيا بألف أو ألفين من السنين فإن معنى ذلك أن مصر كانت حيث لم يكن غيرها وأنها كانت سيدة الدنيا ومشعل النور والحضارة لعدة أجيال طويلة لم تصل إليها حتى الآن أية أمة من الأمم . ولا يوجد فى العالم القديم أو الحديث دولة تستطيع أن تدعى أنها عاشت أو أنها ستعيش فى حضارة متصلة مزدهرة نصف ما عاشته مصر أو رابعة أو خمسة .

ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن لا نتحدث عن تاريخ مصر بالسنين والأعوام فحياة مصر تقدر بالدهور والأحقاب . فإذا حدث وأصابت مصر بالضعف أو الوهن في فترة من الزمن كما هو شأنها في الوقت الحاضر فما ذلك إلا بمثابة دقيقة أو ساعة تمر في حياة إنسان فلا ينبغي أن يكون ذلك باعثاً على الجزع أو اليأس أو التشكك في أن مصر لا بد وأن تلعب دورها الذي هيئت له كركن من أركان الحضارة البشرية .

### كيف نشرت مصر الحضارة في العالم

ولنحاول الآن أن نعرف كيف انتشرت الحضارة من مصر إلى بقية أجزاء العالم لنعرف حقيقة الدين الذي يداين به المصريون الإنسانية والحضارة البشرية .

ففي عين شمس قامت أقدم جامعة عرفتها الدنيا وكان الطلاب يقصدون هذه الجامعة من كل فج عميق على ما يروى مؤرخو اليونان أنفسهم . فأفلاطون أعظم فلاسفة اليونان . قد وفد إلى مصر ليغترف من علوم المصريين ولكي يتلمذ في جامعة عين شمس . وهيرودوت . شيخ مؤرخي العالم . قد وفد إلى هذه الجامعة وأفاد منها . وصولون . أعظم مشرعي اليونان . وليكرغ . كل هؤلاء النجوم والأعلام يسجل التاريخ أنهم اتصلوا بمصر واستضاءوا بنور جامعة عين شمس .

بل إن سيدنا موسى عليه السلام نفسه لا بد أنه كان أحد تلامذة هذه الجامعة فقد كان ربيب فرعون وقد تلقى علوم المصريين وحكمتهم في عين شمس وإلى هذا تشير التوراة عندما تقول على لسان الله عز وجل مخاطباً موسى «لقد أوتيت حكمة المصريين» .

ولقد كانت جامعة عين شمس تتألف من عدة فروع أو ما نسميه في الوقت الحاضر كليات فقبل أن توجد أكسفورد وكمبريدج وهيدلبرج وباريس وهارفارد ، قبل أن توجد هذه الجامعات بأربعة آلاف سنة كانت تقوم في مصر جامعة عين شمس التي لا تزال مسلتها أعظم مسلات العالم طرّاً تقف حتى الآن في المطرية تحلّد ذكرى هذه الجامعة التي انبثق منها النور والعرفان على الدنيا كلها .

على أن طلب الأجانب للعلم في جامعة عين شمس لم يكن هو الأسلوب الوحيد الذي انتشرت به الحضارة عن مصر وإنما الاحتكاك المتواصل بين مصر وجاراتها في سوريا ولبنان وفلسطين وكرت واليونان وتغلب مصر على هذه البلاد في بعض الأحيان وسيادتها ، كل ذلك كان من شأنه أن يجعل الحضارة تتسرب من مصر إلى هذه البلاد

فالحضارة كالمياه تنحدر من المكان العالى إلى المكان المنخفض ولذلك فقد كان القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط هو أسرع الأماكن فى الدنيا تأثراً بالحضارة المصرية وذلك لاتصاله بها عن طريق البر والبحر ومن هنا كانت الحضارة الفينيقية القديمة والحضارة الآشورية والبابلية والإغريقية .

### جامعة الإسكندرية بعد جامعة عين شمس

ويطيب للمستعمر الأجنبى أن يقف بتاريخ مصر المجيد عند هذه المرحلة من تاريخها مرحلة الفراغة على أساس أن مصر لم تكن مستقلة إلا فى هذه الفترة من التاريخ وأنها فقدت استقلالها من ذلك التاريخ السحيق وأن المدنية لم تعد إلى الازدهار فى مصر ثانية . وليس وراء هذا الزعم إجرام يدل على مدى نفسية هؤلاء المستعمرين عندما يعملون على تحطيم الروح المعنوية فى نفس شعب من الشعوب بإيهاهم بحقارته وضالة شأنه .

والحقيقة التى لاشك فيها والتى يجب أن يؤمن بها المصرى إيمانه بالله أن دور مصر فى حياة العالم كمشعل من مشاعل النور والمهدية لم ينقطع أبداً فى كل عصور التاريخ ولم يحدث أن مر على مصر قرن واحد من الزمان لم تكن فيه مركزاً من المراكز الحيوية فى العالم .

ولو أسدلنا الستار على تاريخ مصر الفرعونية ، ذلك التاريخ الذى يقف عند الفتح الفارسى لمصر لرأينا أن الفرس قد انهزموا بعد قليل من الزمن أمام عبقرية الإسكندر ومعاونة المصريين له ولم تكذب تنفذ إلى مصر هذه الموجة الاغريقية الفتية حتى كان ذلك حافزاً على أن تبعث مصر كل مجدها العلمى والروحى ، فإذا بمصر تطفو على سطح هذه الموجة الجديدة من موجات الحضارة والإنسانية ثم لا تلبث أن تسيطر عليها وتمسك زمامها وتردها إلى أصولها وجذورها المصرية . فكانت حضارة الإسكندرية وأجداد الإسكندرية التى لم تكن فى صيغتها إلا بعثاً للحضارة المصرية القديمة فى ثوب إغريقى ليتناسب مع روح العصر . ولم تعد مدارس أثينا أو مذهبها هى صاحبة الكلمة الأولى فى الفكر العالمى ولكن مدارس الإسكندرية وجامعة الإسكندرية التى احتلت مكانة جامعة عين شمس القديمة . وإذا كان العالم الحديث لا يعرف الكثير عن جامعة عين شمس القديمة فإنه يعرف كل شئ عن جامعة الإسكندرية الحديثة . وليس هناك عالم ولا مؤرخ فى العصر الحديث لا يندب حظ البشرية كلها ورد ذكر حرق مكتبة الإسكندرية . وليس وراء



ذلك دليل على مبلغ ما وصلت إليه حضارة مصر في ذلك التاريخ وعلو كعبها في العلوم والمعارف . وستبقى منارة الإسكندرية التي أنشئت في هذه الفترة من تاريخ مصر والتي اعتبرها القدماء إحدى عجائب الدنيا السبع ، ستبقى ذكرى هذه المنارة التي اندثرت رمزاً حياً خالداً على أن مصر كانت حاملة لواء الحضارة في العالم وكانت مدرسة الأمم والشعوب طوال القرون الأربعة أو الخمسة السابقة على ميلاد المسيح .

## مصر رافعة لواء المسيحية

### الفتح الروماني

ويظن أقوام أن الفتح الروماني لمصر قد وضع حدا نهائيا لدور مصر في تاريخ البشر كقوة عاملة مؤثرة . وأن مصر قد تحولت في ظل هذا الفتح إلى إيالة رومانية فقدت كل استقلالها وشخصيتها وأنها دخلت في زوايا الإهمال والنسيان بالقياس إلى روما وعظمة الامبراطورية الرومانية . وليس وراء ذلك وهم وجُهل بمعرفة الحقائق الخالدة في تاريخ البشر . فلعل مصر إبان خضوعها للرومان كانت تقوم بأعظم دور قامت به في كل تاريخها حتى ذلك الوقت .

ولعل أوروبا إذا كانت تمارى في فضل الحضارة الفرعونية عليها فلن يكون بقدرة أوروبا وأمريكا إلا أن تعترف لمصر بالدين العميق لما قامت به في هذه الفترة من حياتها في جهاد وكفاح في سبيل تدعيم العقيدة المسيحية وانتصارها . وإذا كان العالم الغربي يطلق على حضارته اليوم أنها حضارة مسيحية فإلى مصر يرجع الفضل كل الفضل في خلق هذه الحضارة ونشر ظلها على العالمين . وقد قامت مصر بهذا الدور الخطير إبان سيطرة الرومان عليها فكانت هذه السيطرة العسكرية لم تقف حائلا بين مصر وبين تأدية رسالتها العالمية الإنسانية .

### مصر حاملة لواء المسيحية

لم تكد مصر تقع في حوزة الرومان حتى كانت الدعوة المسيحية قد شقت طريقها إلى الحياة المصرية والصلة بين المسيح وبين مصر جد وثيقة بل إن الصلة بين بني إسرائيل وبين مصر ترجع إلى أبعد من ذلك إلى أيام إبراهيم الجد الأول لبني إسرائيل الذي وفد إلى مصر على ما تحدثنا التوراة وكانت له مسألة مع فرعون مصر انتهت بأن أهداه هذا الأخير إحدى جواربه وهي هاجر المصرية التي انجبت له فيما بعد إسماعيل جد النبي صلوات الله وسلامه عليه . فالوشائج بين مصر وبين بني إسرائيل جد وثيقة منذ العصور المبكرة لحياة إبراهيم الجد الأعلى لبني إسرائيل . ثم كانت قصة يوسف المشهورة وكيف جاء إلى مصر

وارتقى فيها حتى أصبح وزير الدولة وكيف استدعى أباه وأسرته للإقامة في مصر حيث طابت لهم الإقامة وتكاثروا وتزايدوا إلى أن تحولوا من بضع نفر يعد على الأصابع إلى بضع مئات من الألوف .

وقصة موسى مع فرعون وخروج بنى إسرائيل من مصر هي قصة معروفة ومشهورة وحسبنا أن نشير إليها فالحضارة الإسرائيلية التي هي بمثابة الأم من الحضارة المسيحية ليست في حقيقتها إلا ثمرة من ثمار الحضارة المصرية القديمة ولن يستطيع أى عالم أن يفسر هذه الحركة الروحية الاسرائيلية أو أن يفهم نصوص التوراة إلا إذا رجع إلى أصول ذلك كله في الحياة المصرية القديمة والعقائد المصرية القديمة .

فإذا كان المسيح قد ولد في الناصرة من أعمال أورشليم ، وإذا كان الايمان المسيحي قد قدر له أن يغمر مصر وأن تصبح ركناً من أركان الايمان الجديد فليس في ذلك شيء يستوجب العجب ، فإنما هي بضاعتنا ردت إلينا ، أو هو الفرس يعود إلى مربطه ، والطائر يؤوب إلى عشه .

وتحدثنا الأنجيل عن هرب مريم العذراء إلى مصر نجاة بولدها من غضب ملك اليهود ، ولا تزال الذكريات القبطية تحدثنا حتى اليوم عن شجرة العذراء التي استظلت بها وكهف العذراء الذي احتمت به .

ولما كبر المسيح وترعرع ونادى بتعاليمه الإنسانية داعياً إلى عبادة الرب في علاه كان بذلك يضع حداً فاصلاً بالنسبة لتطور العقائد البشرية بين العهود الوثنية القديمة والعقائد السماوية الروحية الجديدة .

كانت مصر هي صاحبة القدر المعلن في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البشرية ، فقد كانت هي التي حملت اللواء والمشعل الوضاء بهذا الإيمان الجديد وكانت هي قائدة الدنيا وزعيمتها .

وقامت في الإسكندرية أول كنيسة في الشرق أو بالأحرى في الدنيا كلها وبدأ المصريون يلوذون بهذه الدعوة الجديدة ويستضيئون بهذا الإيمان الجديد وتحول الصراع بين مصر وروما حول هذه العقيدة ولم تعد المسألة مسألة تحرير مصر من ريق الاستعمار الروماني وإنما أصبحت تلخص في نصرته المسيحية وتثبيت دعائمها .

وما أشد هذه الحرب التي شنها أباطرة الرومان على مصر المسيحية وما أكثر المحاولات

التي حاولت فيها روما الوثنية أن تقف في وجه انتشار المسيحية في مصر ومع ذلك فقد فشلت كل هذه الجهود وثبت المصريون في وجه الإقصاء وعاصفة الاضطهاد . ثبت المصريون في وجه التحريق والتعذيب والتنكيل وكان الأمر يصل من روما بذبح كل من يدين بالعقيدة المسيحية فيفتك صنائع روما وجنودها بالألوف وعشرات الألوف . ولكن مصر رفضت أن تذعن أو أن تخنى الرأس أو تتراجع وظلت ماضية إلى الأمام تحمل لواء المسيحية . ولا يزال أقباط مصر يحتفلون حتى اليوم بذكرى الشهداء من نصارى مصر الذين أمر دقلديانوس قيصر الرومان باجراء مذبة عامة فيهم .

وأخيراً جاء الوقت الذي أصبحت فيه المسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية الرومانية . وبذلك أصبحت المسيحية الدين العالمى الرسمى لأكبر امبراطورية عرفها التاريخ . فإذا فكر المسيحيون اليوم في مشارق الدنيا ومغاربها أن يتوجهوا بالشكر لشعب من الشعوب كان له أكبر الفضل في نصره التعاليم المسيحية فان هذا الشعب هو الشعب المصرى . وهذا البلد هو مصر وليس ذلك بالدور القليل الخطر في تاريخ البشر .

فإذا علمت أن مصر قد اضطلعت بهذا الدور إبان الفتح الرومانى استطعت أن تؤمن كما آمننا أنه لم ينقض على مصر قرن واحد من الزمان لم تكن فيه صاحبة الكلمة الحاسمة في تاريخ العالم وتوجيه حضارته .

## مصر الإسلامية

### كيف وقفت في وجه الصليبيين وأنقذت الإسلام من التار المخربين

وبانتشار المسيحية وانتهاء هذا الطور من تاريخ البشر بدأت هذه الصفحة الجديدة ، صفحة الدين الإسلامي العتيق ، ذلك الدين القيم الذي جاء مكلا ومصححاً لما سبقه من رسالات . فكانت مصر حجر الزاوية في هذا البناء الجديد وكانت هي اللواء الخفاق والمشعل الوضاء لهذه العقيدة الجديدة .

وظلت . كما كانت دائماً أبداً ، محور الحضارة الإسلامية التي قدر لها أن تهيمن على الإنسانية ألوما من السنين . فتحت صدرها للدين الجديد والوافدين الجدد الذين جاءوا يحملون مشعل الهداية فكان غريزة مصر وسليقتها الحضرية قد حملتها على أن تصادق القادمين من شبه الجزيرة لا أن تقف في وجوههم فرحت بهم وآوهم ونصرتهم . وعندما بعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام برسله إلى مختلف أنحاء العالمين لم يكن نصيب هؤلاء الرسل سوى الطرد والإهانة بل والقتل في بعض الأحيان إلا في مصر حيث استقبلت رسالته بما تستحق من التجلة والاحترام وأكرم رسول الرسول إكراماً بالغ الحد . وبعث المقوقس كبير الأقباط في مصر بهدية نفيسة إلى رسول الله كما بعث إليه بمارية القبطية التي تزوجها الرسول صلوات الله عليه ورزق منها على الكبر إبراهيم الذي توجع على وفاته وحزن لموته حزناً سجله التاريخ فيما سجل عن رسول الله . هذه الصلة بين مصر وبين نبي المسلمين هي التي حدث برسول الله أن يوصى أصحابه من بعده بمصر خيراً لأن للعرب فيهم نسباً ورحماً . فأما الرحم فهو الذي أشرت إليه من قبل من أن هاجر أم إسماعيل جد النبي كانت مصرية وأما النسب فهو زواج الرسول بمارية القبطية . وهكذا نرى أنه ما من نبي من أنبياء العالم ورسله إلا وهو وطيد الصلة بمصر ابتداء من إبراهيم والد الأنبياء وانتهاء بسيدنا محمد آخر النبيين وخاتمهم . وليس من قبيل الصدفة وإنما هو ثمرة الأوضاع الطبيعية التي جعلت من مصر كما أسلفنا محوراً لكل علم أو عرفان . ولم يكده العرب يفتحون مصر حتى وجدوا فيها وطنهم الروحي المنشود ، ووجد المصريون

في العرب أممتهم وفي عقيدة التوحيد دعوتهم ولم يمض سوى أيسر الوقت حتى كانت العقيدة قد امتزجت بالمصريين وامتزجوا بها . وحتى أصبحت مصر كما قدمنا ركناً من أركان الإسلام الشاخنة تسمى ركن دمشق وبغداد وعندما قدر لـهذين الركنين الآخرين أن تعدو عليها العاديات وأن ينهارا تحت وطأة الانحلال الداخلي والغزو التتري الأجنبي بقي ركن الإسلام في مصر ركيناً عالياً بل وازداد نور الإسلام توهجاً وإشراقاً وعرف العالم الحديث أول جامعة لا تزال قائمة حتى اليوم منذ ذلك العهد السحيق . ونعني بها جامعة الأزهر الشريف التي أكملت الألف سنة من عمرها المديد المتصل وهو ما لم تقضه الجامعات العتيقة المشهورة . واستقلت مصر بحكامها من العرب والمسلمين واتصلوا بها وتحولت القاهرة إلى قلب العالم الخفاق وتركزت فيها الحضارة الإسلامية .

### رد غارة الصليبيين

يعجب الكاتب المتحدث عن مصر الإسلامية بأي الجوانب من حياتها يبدأ الحديث . أيتحدث أول ما يتحدث عن قوة مصر العسكرية في البر والبحر التي كانت عليها في ذلك الزمان ؟ أم يتحدث عن علومها وفنونها ؟ أم الدور الأخير الذي لعبته في تاريخ الإسلام والشرق بل الدنيا كلها ، فعندما حاولت أوروبا الصليبية في القرن الحادي عشر وما تلاه من قرون أن تدك حصون الإسلام في الشرق وأن تغرق نور هذه الدعوة المحمدية ولقيت في بادئ الأمر ما لقيته من نجاح أولى مكثها من احتلال بيت المقدس . كانت مصر وحدها هي التي تصدت لهم فحولت انكسارات العالم الإسلامي إلى انتصارات . وضيق الخناق على أولئك الصليبيين الذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت صورة بشعة من الممجية والوحشية . كانت مصر هي التي ضيقت عليهم الخناق واشهرت عليهم حرباً شعواء ضروساً فوق أراضيها تارة وفوق أراضي الشام تارة أخرى وفي البحر تارة ثالثة . حتى أنزلت بهم هذه الهزائم الساحقة التي لم تقم لهم بعدها قائمة وما أجمل حديث البهاء زهير إذ يندد بملوك فرنسا وفرسانها ويذكرهم بوقوعهم في أسر المصريين وسجنهم في دار ابن لقمان بالمنصورة إذ يقول :

نبيء الفرنسيس إذا جئتهم

مقال صدق عن قؤول فصيح

دار بن لقمان على حالها

والقيد باق والطواشي صبيح

وهكذا انتهت هذه الغارة الصليبية بالاندحار والهزيمة وانسحب الصليبيون إلى غير رجعة فإذا كان علم الإسلام لا يزال حتى اليوم مرفوعاً خفاً فالفضل في ذلك إنما يرجع لمصر ومصر وحدها أولاً وأخيراً

## رد غارة التتار

ولكن العالم الإسلامي لم يكذب يفيق من تأثير الحروب المستمرة المتواصلة ضد الصليبيين حتى دهم التتار المسلمين في الشرق ، فناء المسلمون تحت وطأة هذه الهزيمة الجديدة وسقطت بغداد وحرقت واجتاحت موجة الهمجية والبربرية العراق والشام بأكمله وكاد هذا التيار المخرب الذي اندفع من حدود الصين يكتسح في طريقه كل حضارة وكل مظهر من مظاهر الحياة المتمدينة أن يغمر مصر . ولو اجتاحت هذا الوباء مصر لقضى على البقية الباقية من حيوية المسلمين وعزهم وحضارتهم ولكن من حسن الحظ أن مصر وقفت له بالمرصاد واصطدمت جيوشهم بهذه الجيوش المغولية الكثيفة . وفي عين جالوت كان النصر المصري والهزيمة التتارية لأول مرة في تاريخ حياتهم . وتوقفت هذه الموجة الطاغية ولم تلبث أن انحسرت ونجا الشرق العربي ونجا المسلمون ونجت الحضارة الإنسانية كلها من أن تقع فريسة البربرية الهمجية . وقد ترتب على هذه الهزيمة العسكرية للتتار أن هدأت ثورتهم وركنوا من جديد للسكون والاستقرار فلم يمض أسير الوقت حتى كانوا قد دخلوا في دين الله أفواجاً وبذلك تحول هادمو الإسلام إلى ركن من أركانه وتحولت عاصمة ملكهم - سمرقند - إلى مركز من مراكز الحضارة الإسلامية بنافس بغداد القديمة ودمشق .

ومعنى ذلك أن قوة مصر العسكرية في العصور الإسلامية قد بلغت الحد الذي مكّنها من هزيمة أوروبا مجتمعة والصمود لأقوى زحف عسكري وفد على البلاد من الشرق وأشبه الإغصار الجائح المخرب المدمر ولم نجد في تاريخ أمة من الأمم مثل هذا الموقف الخطير الذي تدان به مصر الدنيا كلها .

وبمقدار هذه الغلبة العسكرية التي كانت لمصر كانت غلبتها المدنية والعمرانية .

وليرجع أي قارئ إلى مطولات التاريخ ليرى المعجب والمطرب من تفاصيل الحضارة المصرية في هذه العصور ونعني بالحضارة نظام الحكم وانتشار العلم وارتقاء الحياة المعاشية والاجتماعية للناس .

ولقد تركز ذلك كله في الأزهر الذى سرعان ما تحول إلى جامعة الدنيا كلها .  
وتلخص فيه كل ما انتهى إليه البشر من علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء  
واللغة والشريعة .

وهكذا لم يكن الأزهر في حقيقته إلا بعثاً لجامعة الإسكندرية مرة أخرى .. والتي  
كانت بدورها كما قدمنا بعثاً لجامعة عين شمس ..

### حضارة مصر في العصور الوسطى

أما قدرة مصر في الصناعة والفنون فتشهد عليها هذه الأساطيل المصرية التي كانت  
ترتاد البحار الشرقية كلها وتسيطر عليها .. وتنطق بها هذه الجيوش الجرارة التي كانت  
مجهزة بأقوى الأسلحة والعدد التي هزمت أضعاف أضعاف عددها من الجيوش  
الأوروبية . وتشهد عليها هذه الآثار الخالدات التي ترتفع في سماء القاهرة هاتفة بأن بناء  
الأهرام سيظلون على مر العصور يعيدون بناء الهرم في صور وأشكال متعددة .. فهذه  
أسوار القاهرة القديمة التي لم يبق منها سوى هذه البوابات الضخمة التي لا مثيل لها في  
الدنيا كلها .. وهذه المساجد الشائخة الرائعة التي لم نستطع حتى الآن أن نشيد من المساجد  
ما يمكن أن يقارن بها . وحسب الإنسان أن يقارن مسجد الرفاعي الحديث البنيان والذي  
تولى بناءه مهندس إيطالى وبنى بعد اختراع الآلات الحديثة . حسب الإنسان أن يقارن  
ذلك المسجد بمسجد السلطان حسن الذى يواجهه فىرى أن مسجد السلطان حسن فريد  
في كل مساجد القاهرة من حيث الجلال والعظمة والشموخ والفخامة . بل إنى وقد  
طفت العالم العربى بأكمله أشهد أننى لم أر لمسجد السلطان حسن مثيلاً ولقد جبت  
أمهات العواصم الأوروبية فأشهد أن العصور الوسطى لم تخلف في كل ما رأيت أثراً  
يضارع في قليل أو كثير مسجد السلطان حسن . وما مسجد السلطان حسن في نهاية الأمر  
إلا واحد من هذه المساجد التي تغص بها القاهرة والتي تنطق كلها بأفصح بيان عما كان  
لمصر من حضارة وعمران يفوق كل ما عرفتته الدنيا في وقتها من حضارة وعمران .

وما على الباحث الذى لا يزال يتشكك في هذه النتيجة إلا أن يزور دور الآثار  
العربية ومخلفاتها ليرى إلى أى ذوق رفيع بلغ المصرى العربى فهذه المعطرات الذهبية سواء  
كانت ملابس أو أبسطة أو سروجاً للخيول هي أعجوبة الأعاجيب في الدقة والقدرة  
الفنية . ولعل أعظم ما يزدهى به متحف الأنفاليد في فرنسا هو بعض هذه السروج التي  
ظفر بها نابليون في معاركه ضد المماليك عند فتحه لمصر .



أما الآثار الزجاجية التي تتمثل في هذه المشكاة التي كانت تضيء المساجد والقصور فانها تجمع في نفسها عدة آيات باهرات من القدرة الصناعية التي أبدعت مثل هذا الزجاج الشفاف الذي لم تستطع أوروبا أن تصل إليه إلا في عصور متأخرة جدا . وتدل ألوان هذا الزجاج على التفوق الكيميائي في تركيب الألوان الثابتة على مر الزمن . وهي في نهاية الأمر آية الآيات على سلامة الذوق ورقة الحاشية . وليس هناك ما تفخر به متاحف العالم كاقتنائها لمشكاة مصرية انحدرت من العصور الوسطى بكل بهائها وجالها . وإذا دُكر الزجاج المصري العربي ذكر الخزف بأنواعه والقيشاني وهو ما تغص به جميع المتاحف العالمية وما يتحدث بأفصح لسان كما قدمنا عن الحياة الرفيعة التي يحياها المصريون قادة العرب والمسلمين في العصور الوسطى .

ولن نستطيع أن ندرك مدى ما كان المصريون عليه إلا إذا قارنته بما كان عليه الأوروبيون في العصور الوسطى . حيث كان الانجليز - مترعمو العالم اليوم - لا يزالون يعيشون في مساكن لا تفضل الأكواخ الحفيرة التي لا يوجد بها منفذ لتصريف الدخان الذي ينبعث من وقودهم المحروق . وكانوا يعيشون مع الحيوانات جنباً إلى جنب . وكان العلم والفكر هو أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان وحسبك أن تعلم أن هذه الجريمة كانت في كثير من الأحيان تبلغ بمرتبتها إلى المحرقة بتهمة الفكر والزندقة .

جامعات . ومدارس . ومصانع . ومستشفيات . وعلوم . وفنون . وجيوش وأساطيل وأسماء تطبق الخافقين بشهرتها وبطولتها كصلاح الدين والظاهر بيبرس وشجرة الدر .. هذه هي مصر العربية الإسلامية وهذه هي صفحتها الوضوءة في تاريخ البشرية .

## العهد العثماني نكسة مصر في عهد العثمانيين

كانت نهضة العثمانيين في الوقت الذي كانت الحروب قد أنهكت مصر من الشرق والغرب وكان من المستحيل أن تظل مصر محتفظة بقوتها العسكرية بعد هذه الحرب الضروس ضد الصليبيين في الغرب وضد التتار في الشرق .

فعندما اشتبك الأتراك مع المصريين دارت الهزيمة على الأتراك أولاً على ما كان لهم من شهرة مدوية في القتال وما استصحبوه معهم من المدافع التي كان لها أثر سيء في صفوف الجيش المصري . ثم انقلب ميزان الحرب عندما اتخذ الخائن «خير بك» قائد ميمنة الجيش المصري حسب اتفاق سابق مع السلطان سليم . وتبعه في الهزيمة «جان بردى» الخائن الثاني . والمتآمر مع خير بك . وعندئذ فحسب . وبفعل هذه الخيانة الصارخة هزم الجيش المصري . وإن ظل قائده الأول يخارب حتى الموت .

ومع ذلك لم يستسلم المصريون . فقد أثبتوا بطولتهم في خمس معارك تشيب لهولها الولدان كادوا فيها أكثر من مرة تحت قيادة طومان باي يهزمون العثمانيين وقتل في أحدها يونس باشا كبير وزراء السلطان سليم وأخرج العثمانيون من مواقعهم وخطب يوم الجمعة لطومان باي .

وعادت الخيانة مرة أخرى فأسلمت «طومان باي» إلى السلطان سليم فشقق على باب زويلة .. وانتهت بانقضاء حياته صفحة مصر المستقلة زعيمة الشرق والإسلام وابتدأت صفحة سوداء قائمة .. ولى فيها «خير بك» مصر جزاء خيائته وأصبح يلقب ملك الأمراء .

بادر العثمانيون بمجرد دخولهم إلى مصر إلى جمع الصناع والعمال والمهندسين وسائر الفنيين في مختلف الحرف والصناعات التي اشتهرت بها مصر وبعثوا بهذا الجيش اللجب الضخم إلى القسطنطينية فجردوا مصر من ينبوع حيويتها المتدفق ومكن قوتها وأطفأوا في مصر إلى عدة أجيال تالية نور العلم والصناعة والفن .

وقد كان من الجائر - بل كان من المحقق - أن يبادر المصريون إلى التحرر من ربة الاستعمار العثماني بالرغم من إسلامهم لو لم يبادر العثمانيون باستصحاب الخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة . وهناك في القسطنطينية حملوه على التنازل عن الخلافة لسلطين آل عثمان .. فأصبح بنو عثمان خلفاء للمسلمين . وبمقتضى القواعد الإسلامية التي كانت تسود مصر وقتئذ لم يكن هناك بد من الخضوع . لخليفة المسلمين نزولا على القرآن «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» وهكذا لم تدن مصر فقط لبني عثمان بل دان لهم بالطاعة والولاء جميع الأمصار والأقطار حتى تلك التي لم تطأها أقدام الجيوش العثمانية .

وينبغي أن نقرر إحقاقاً للحق أن بنى عثمان قد نهضوا برفع لواء الإسلام من الناحية العسكرية إلى الحد الذى جعل مسلمى الدنيا يتيهون فخاراً بالانتساب اليهم ويذلون أقصى ما لديهم من جهد فى تدعيم دولتهم لا فى الانتفاض عليهم والتفكير فى التخلص من حكمهم .

نجح بنو عثمان فيما لم ينجح فى تحقيقه المسلمون طوال ثمانية قرون وهو الاستيلاء على القسطنطينية ، كرسى المسيحية وعاصمتها الكبرى فى الشرق وهو ما كان يهدف المسلمون لتحقيقه منذ عهد الفتوحات الأولى . وتوغل بنو عثمان فى أوروبا مخترقين مختلف بلدانها نحو الغرب ليحققوا حلم المسلمين القدامى وهو فتح أوروبا من الشرق إلى الغرب بعد أن عجز مسلمو الأندلس عن فتحها من الغرب إلى الشرق .. وقد نجحت جيوش بنى عثمان فى الوصول حتى أسوار فيينا ولو أنها سقطت فى ايديهم لتحقيق لهم تنفيذ برنامجهم . وفى ذلك الوقت كان البحر الأبيض قد تحول إلى ما يشبه أن يكون بحيرة إسلامية . كل ذلك حمل العالم الإسلامى على الرضا بزعامة بنى عثمان وبخلافاتهم على المسلمين ما داموا يعززون شوكة الاسلام ويعيدون مجده .

وقد كان لذلك أثره فى مصر التي أنهكتها الحروب طوال القرون الثلاثة السابقة على هذه النهضة العثمانية فاستكانت لحكم العثمانيين واستسلمت إلى الرقاد الطويل فانحدرت مصر إلى هاوية عميقة من التدهور والانحلال وغشيتها ظلمات العصور الوسطى بكل مظاهر العهد الإقطاعى وخصائصه . فالفوضى والحروب المتصلة بين الأمراء . واسترقاق الشعب والجهل ومحاربة العلم وانتشار الأوبئة والأمراض والمجاعات وفيضان النيل كل ذلك بدأ

يطغى على مصر فأوقعها فيما يشبه الغيوبة وانقضى عليها قرابة قرنين من الزمان بين الحياة والموت واليأس والرجاء .

ولكن لم تكن مصر وحدها هي التي أصيبت بهذه النكسة المخيفة بل كان الشرق العربي كله يعاني ويلاتها بعد دخوله في قبضة آل عثمان .

ونهضت أوروبا نهضتها الحديثة فتحررت من عهد الإقطاع . واستخلصت الشعوب حقها في الحرية والمساواة وتدفقت في دولها المختلفة ينابيع الحياة والقوة والافتقار واكتشفت أمريكا وسيطر الأوروبيون زوياً رويداً رويداً على البحار وطلع على الدنيا القرن التاسع عشر باكتشافاته العلمية الرائعة وبدأ نجم أوروبا في صعود في الوقت الذي كان فيه نجم بني عثمان قد أخذ في الاضمحلال والغروب بعد أن ران عليهم الجهل والجمود وتمسكوا بظواهر الدين وقشوره تاركين جوهره وحقيقته الخالدة وهي العمل والجهاد . والبناء والإنشاء والتعمير والعلم والتعليم . وهكذا سار العالم الغربي نحو الأمام وتغلف العالم الشرق . وتطور الأوروبيون منتفعين بما حملوه من العلوم والمعارف العربية والإسلامية التي اقتبسوها إبان حروبهم الطويلة مع المسلمين في الشرق واحتكاكهم المستمر المتواصل بالحضارة العربية في الأندلس . فبدأت بذلك العصور الحديثة التي آلت فيها السيادة للغرب على الشرق ولا تزال هذه السيادة مبسوطة حتى اليوم ... وبدأ العالم الإسلامي يستيقظ في ظل هذه الهزيمة المنكرة .

وبداً يفيق من هذا السبات العميق الذي ران عليه ويفتح عينيه متطلعاً لما يجري حوله .. لقد كانت مصر هي القائدة ومصر هي التي حملت لواء النهضة الإسلامية العربية . والشرقية وسنرى في الفصل القادم كيف كانت أسبق دول الشرق إلى الأخذ بأسباب النهوض والعمل لاستعادة المجد القديم .. وإذا كانت مصر لم تبلغ غايتها حتى اليوم ولا تزال تزسّف في أغلال العبودية للدول الغربية فذلك لا ينفي أنها كافحت وتكافح وستظل تكافح حتى يتحقق لها ما تبغى وما تريد من حرية ومجد . وحضارة وسلطان . وأنها في ذلك كله قائدة وزعيمة للعالم العربي والإسلامي والشرق وأنها سوف تشق طريقها بمجرد أن تنال الحرية نحو مكانها التقليدي في حياتها الإنسانية وهي أن تكون هادية ومرشدة ومعلمة ...

## بدء اليقظة

كان الضعف قد بدأ يدب إلى سلاطين آل عثمان وبدأ السوس ينخر في عظام هذه الدولة التي حولت الدين إلى شعوة ودجل وترهات .. ولاذت بالجمود والخرافات حتى أن مجرد إدخال الأنظمة الحديثة في الجيش العثماني كان يعتبر بمثابة الكفر والإلحاد بل لقد دفع أكثر من سلطان رأسه ثمناً لتفكيره في إصلاح الجيش أو إصلاح الأحوال في بلاد السلطنة على العموم .. وكانت مصر قد راحت تغط في سبات عميق وقد نسيت كل أمجادها وكل مكانتها في العالمين ولم يعد هناك ما يشغل الناس سوى هذه الخلافات والمعارك المستمرة بين هؤلاء البكوات المالكين الذين قسمت البلاد عليهم والذين بدأوا عهد الاقطاع في مصر بكل انحلاله وتدهوره ..

ولكن هذا السلطان قد ضعف وتضاءل على مر الزمن حتى لم يبق لسلطان تركيا على مصر سوى الاسم فقط وكانت مظهريته الوحيدة تتلخص في هذا الوالي الذي يبعث به الخليفة كل عام إلى مصر فلا يكاد يصل إليها حتى يقيع في قلعة الجبل لا يبرحها إلى أن يجيء بدله في العام التالي ليحل محله وهكذا . أما مصر وحكمها وإدارتها فقد كانت في أيدي هؤلاء البكوات المالكين الذين اقتسموا الأرض بمن عليها وراحوا يقتتلون فيما بينهم .. وتحالفت المجاعة والطاعون مع المالكين لإفناء الشعب المصري بحيث لم يزد سكان مصر في ذلك الوقت عن مليونين أو ثلاثة ملايين بعد أن كانوا قرابة عشرين مليوناً في عصور المجد والسلطان .

هذا هو ما كان عليه حال مصر في العقد الأخير من القرن الثامن عشر : ضعف وذلل وفقر وانحلال تام وهو ما جعل قناصل فرنسا يشيرون على بلدهم بغزو مصر واحتلالها مؤكدين أن هذا الاحتلال يمكن أن يتم بحملة صغيرة جداً فلم تلق فرنسا بالها إلى هذه التقارير إلى أن جاء نابليون فألقى على نفسه أن يخرجها إلى حيز التنفيذ .

## على بك الكبير

ولقد سبق حضور نابليون إلى مصر محاولة لإنهاض مصر من كبوتها وتأليف وحدتها وإعلان استقلالها وبعث مجدها القديم حيث قام أحد البكوات المالكين وهو على بك الكبير فعمل على توحيد مصر وإعلان استقلالها . وقد فاز بالفعل وحقق مشروعاته .

ودانت مصر كلها لحكومته لولا أن رجاله الأقربين خانوه واغتالوه ففشلت هذه المحاولة  
الكريمة الباسلة لإنهاض مصر وإعلان استقلالها عن تركيا وشروعها في لعب دورها في  
العالم الدولي كوحدة مستقلة ذات عز وسلطان يذكر الدنيا بأبجداد مصر القديمة .

والحق أنه يجب اعتبار حركة على بك الكبير لا الحملة الفرنسية هي بدء تاريخ مصر  
الحديث عندما بدأت تشيع فيها الحياة من جديد وتسرى في عروقها روح التطور والنزوع  
إلى الارتقاء .

## الحملة الفرنسية

### غزو مصر

مات على بك الكبير وقسمت مصر من جديد بين قتلته وعبيد قتلته الذين عادوا إلى مألوف سيرتهم من الحروب فيما بينهم بالليل والنهار وحك المآمرات والدسائس في الوقت الذي كان فيه الأسطول الفرنسي يخترق مياه البحر الأبيض ليصل إلى مصر - هذه الجوهرة اللامعة الملقاة على الثرى وليس لها حام ولا مدافع .

ولقد وصل نبأ هذه الحملة الفرنسية إلى الانجليز الذين كانوا يحاربون فرنسا في ذلك الوقت فخف الأمiral نلسون قائد الأسطول الانجليزي في البحر الأبيض إلى مياه الإسكندرية متعباً الأسطول الفرنسي ولكن من سوء الحظ أن الأسطول الانجليزي وصل إلى الإسكندرية قبل وصول الأسطول الفرنسي فحاول الأسطول الانجليزي أن يمكث في ميناء الإسكندرية في انتظار وصول الأسطول الفرنسي ولكن كريم بك حاكم الإسكندرية رفض في عناد أن يسمح للانجليز بالبقاء في الميناء يوماً واحداً بل لقد رفض أن يموتهم بالماء والمؤونة اللازمة لمقامهم ولو في عرض البحر وأعطاهم مهلة قصيرة لكي يبرحوا المياه المضرة جملة وإلا أطلق عليهم النيران وعبثاً حاول الانجليز أن يفهموا كريم بك خطر الحملة الفرنسية القادمة ، عبثاً حاولوا أن يقنعوه أن لا قبل للمصريين بمقاومة الوافدين الأجانب . لقد كان كريم بك لا يزال يحمل في نفسه هذه العقيدة المتوارثة عن عظمة السلطان وعن قوة المسلمين التي لا يجرؤ الفرنجة أن يتحدوها فضلاً عن أن يعتدوا عليها .. لقد كان رد كريم بك على الأمiral نلسون عندما خوفه بأن الفرنسيين قادمون «إن هذه هي أرض السلطان» ولم ير نلسون أن يضيع وقته في هذه المناقشات العقيمة فانسحب على الفور من مياه الإسكندرية ولكن أسطوله لم يكد يتوارى خلف الأفق حتى ظهر الأسطول الفرنسي بحوله وطوله وقد أسرع نابليون بانزال جنوده على البر في غرب الإسكندرية ولم يحتاج سقوط الإسكندرية لأكثر من السير على الأقدام بضعة كيلو مترات لاحتلالها وهكذا بدأ الاستعمار الأوروبي الرهيب بمعناه الحديث لبلاد العرب والمسلمين والشرقيين على العموم .

وبعث حاكم الإسكندرية بالخبر المفجع إلى بكوات القاهرة إبراهيم بك ومراد بك اللذين كانا يقفسان السلطان فيما بينهما .. فاستغرقا في الضحك وفركا أيديهما سروراً وجوراً بهذه الفرصة الذهبية التي أتاحت لهما هذا الصيد الثمين .

جمع المماليك جموعهم ورائخوا يمثالون على صهوات خيولهم ذات السرج المذهبة التي يكفي ثمن الواحد منها لإغناء مدينة بأسرها .. ركب المماليك خيولهم ولوحوا بسيوفهم الذهبية وكروا وفروا وصرخوا وملأوا الدنيا ضجيجاً وزهواً واختيالاً بشجاعتهم وفروسيتهم والحق أن الدنيا لم تعرف في تاريخها فرساناً أشداء شجعاناً كفرسان المماليك ولكن عصر الفروسية كان قد انتهى . وكان المدفع الحديث والبنادقية الحديثة والتنظيم الحديث قد جعل كل هذه الفروسية غير المسلحة طعمة للنيران فلم تستغرق المعركة الأولى بين الفرنسيين والمماليك سوى بضع دقائق حصدها فيها المماليك حصداً بتيار مدافع « الكابورال الصغير » كما كان يسمى الجنود قائداهم نابليون . كانت مذهبة رهيبية لم يذبح فيها المماليك بل ذبح فيها الشرق بأكمله منذ هذه الموقعة حتى اليوم وقد نجحت أوروبا في استعباد الشرق الذي لا يزال يرسف في أغلال العبودية حتى اليوم .

لم يحتج إتمام فتح مصر إلا إلى معركة قصيرة ثانية عند إمبابة وفي هذه المعركة كانت مفاجأة الأسلحة الفرنسية الجديدة قد زالت عن المماليك فحاربوا الفرنسيين بشجاعة وبسالة هذه المرة ، وقد كادت تدور الدائرة على الفرنسيين لولا ذلك المدفع الرهيب .. لولا هذه الأسلحة الحديثة الفتاكة لولا هذه التكتيكات الجديدة التي لا عهد للشرق بها من قبل فانهارت مقاومة المماليك بعد بضع ساعات من نشوب المعركة وفتحت مصر على مصاريحها لغزو نابليون ووطأت الجيوش الأوروبية لأول مرة أرض القاهرة وهي نشوى بنجر النصر فلا ينبغي أبداً أن ننسى للفرنسيين أنهم أول من دنسوا بلادنا وانتكحوا حرمة استقلالنا .

وذعرت القاهرة وبها ترى هذه الجنود الأفريقية ذات الملابس الغريبة تجتاز شوارع القاهرة ويدأت المدينة الكبيرة تستيقظ وبدأ الشعب العريق يفيق من سباته العميق تحت ضغط الجواث وبسبب هول هذه الصدمة القاسية المضنية

كانت القاهرة قد تدهوزت من مكانتها الأولى ، كعاصمة للشرق وكإحدى حواضر الدنيا التي تشع بالنور والغرفان . وكانت تشبه في ذلك الوقت أن تكون قرية كبيرة من قرى الريف بالنسبة للمدن الحديثة الكبرى . كانت شوارعها مسقوفة لا ينفذ إليها النور



وضيقة لا تتسع لمرور الناس إلا فرادى فى كثير من الأحيان .. تغص بالقاذورات وجيف الحيوانات المتنة ..

كانت سحب الأوبئة والطاعون تخيم فى سماءها وتمتدج بهوائها وكان من مناظرها المألوفة أن ترى بعض الرجال يسرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم فإذا سألت عنهم قيل لك إنهم من أولياء الله الصالحين . كان الناس يعيشون فى الخطيئة والرذيلة باسم الدين .. وكان البؤس والشقاء يخيم على جمهور الناس ومع ذلك كله فقد كان قلب المصريين لا يزال خفياً فاستشعروا المهانة لهذا الوافد الأجنبي يظاً أرض بلادهم المقدسة فغلى الدم فى عروقهم وانتشر السخط فى نفوسهم وهبت غرائز الكفاح فيهم تدفعهم لطرد هذا المستعمر الأجنبي .

خديع نابليون فى بادئ الأمر بمظهر الشعب المسالم وظن أن فتح مصر قد انتهى بكسر المماليك وأنه قد أصبح سيد البلاد المطاع وبدأ يرسم خطته على أن يجعل من نفسه معبود الشعب المصرى الذى لن يلبث أن يسجد له عند مروره ويقبل التراب المتساقط من نعليه .. وظن نابليون أنه فى غير حاجة لتحقيق هذا البرنامج إلا أن يعلن إسلامه فراح يرسل النداء والبيان تلو البيان متحدثاً عن مصر العظيمة وتاريخها ومجدها ومجدارة المصريين والمسلمين بالعز والسلطان . وأعلن أنه سيشرك الشعب فى حكم نفسه فألف لذلك مجلساً من العلماء وأكابر القوم ليستعين بهم فى حكم البلاد . وظن أنه سيهر المصريين وهو يحدّثهم عن مظاهر الديمقراطية الحديثة من حرية وإخاء ومساواة وشورى بين نواب البلاد وأن المصريين سيحتاجون إلى عدة قرون ريثما يفهمون معنى الحرية والإخاء والمساواة ومعنى الحكم الديمقراطى ولكن سرعان ما أدرك نابليون - وبعد أسابيع قليلة من استقراره فى مصر - أن كل آماله فى التقرب إلى هذا الشعب قد خابت وأنه يلعب بالنار إذ يحدث القوم عن الحرية والمساواة وعن حق ممثلى الشعب فى التحدث باسمه .. فقد انقلب هذا المجلس من العلماء والأعيان فى عشية وضحاها إلى مجلس نواب حقيقى كأعرق ما تكون عليه مجالس النواب وفوجيء نابليون بأعضاء هذا المجلس من العلماء يقفون فى وجهه ويعترضون مشيئته بل ويحتقرون وسام (الجيون دونير) - جوقة الشرف - الذى قلده للبعض منهم فاذا بهم يتزعونه عن صدورهم فى حضرته فى تقزز واشتمزاز لأن حمله لا يتفق وكرامة العلماء . صعد نابليون لهذه الروح التى لم يهزمها فى نفوس القوم انتصاره على المماليك وأدرك أنه بإزاء شعب عريق مجيد إذا كان السبات قد

دب إليه في فترة من الفترات فانه لا يلبث أن يستيقظ ويستأنف حياته أكثر ما يكون نشاطاً وإبداعاً .

## ثورات القاهرة والأقاليم

استقر نابليون في القاهرة ولكن هل دانت له مصر كلها ؟ اللهم لا .. فقد كانت عزيزة الجانب لم تحن رأسها بعد وكان لابد لإكمال غزوها من معارك وحروب تسيل فيها الدماء .. لقد كان الصعيد لا يزال مغلقاً في وجه السيطرة الفرنسية لا يعترف بنابليون وحكم نابليون فكان على نابليون أن يفتح الصعيد فهياً لذلك حملة قوية زودها بأسطول نهري ضخيم ووضع على رأسها قائداً من ألمع قواده وهو الجنرال ديزيه . ولم يكن هناك بمالك لمقابلة هذه الحملة هذه المرة ولكن كان هناك الشعب المصري بأكمله شياً وشباناً ورجالا ونساء كهولا وأطفالا .. وما أروع جهاد المصريين لهذه الحملة وما أجدد هذه الصفحات التي يسجلها التاريخ المصري لمقاومة المصريين لحملة ديزيه على الصعيد لقد كان على هذه الحملة أن تشق طريقها نحو الصعيد شراً شراً وأن تقهر المصريين فرداً فرداً .. لم يجدوا قرية واحدة على استعداد لأن تستسلم لهم إلا بعد حرب دامية طاحنة يطلق فيها القرويون آخر رصاصة يملكونها ويستنفدون آخر حيلة في جعبتهم لمقاومة الغاصب ومحاربه فإذا لم يبق بأيديهم غير الفؤوس والعصى والسيوف والحراب أشهروها في وجه الجيش الفرنسي الذي كان يبادر بالتهديد بحرق القرية عن بكرة أبيها . وهنا لا يسع الناس إلا أن يستسلموا لينقلوا أطفالهم ونساءهم ولكن إلى حين . إذ لا تكاد الحملة الرئيسية تغادرهم إلى قرية تالية أو مدينة أخرى حتى يهب أهل القرية المستسلمة من جديد فيذبجون حراسهم الذين تركهم ديزيه بين ظهرانيهم ويعلنون من جديد التمرد والعصيان .

وسارت حملة ديزيه على هذه الوتيرة متتبعة مجرى النيل نحو الجنوب حتى إذا وصلت تجاه أسبوط انتهر المصريون فرصة ابتعاد الحملة عن الأسطول النهري فانقضوا عليه وأحرقوه وأغرقوا كل ما كان فيه من مدافع وذخيرة وعدة وسلاح وتموينات فكانت هذه ضربة قاضية قصمت ظهر الحملة الفرنسية في الصعيد واعتبرت نكبة لا تقل خطورة عن نكبة إغراق الأسطول الفرنسي في مياه أبي قير على يد نلسون أميرال البحر الانجليزي . وهكذا تحولت هذه النزعة النيلية كما كان نابليون يتصورها إلى مقبرة للجيوش الفرنسية مما

جعل نابليون يدرك أن الشعب المصرى لا يضر له سوى العداء الشديد وأنه لن تهدأ له  
ثائرة حتى يقضى على نابليون ومن معه ولذلك فقد عدل نابليون عن سياسة المجاملة  
والملاينة والمخادعة واصطنع القسوة والشدة والبطش في معاملة المصريين ليحملهم على  
الخوف والرعب منه ، ولكن الشعب اليقظ لم يعبأ بهذا الأسلوب الجديد ومضى في  
كفاحه العنيف ضد نابليون .

وقد حدث أن فكر نابليون في غزو فلسطين والشام ليضرب الجيش التركى القادم  
لمحاربته في مصر ولكنه وقف أمام أسوار عكا عاجزاً عن فتحها وطال عليه الأمد وتفشى  
المرض في جنوده وجاءته الأنباء من مصر أنها تغلى بالثورة غلياناً وأنه إذا لم يبادر بالعودة  
فربما قطعت عليه خط الرجعة فأسرع نابليون إلى مصر فاستقبلته القاهرة بثورتها الأولى  
الرهيبة وبأهلها من ثورة قام بها شعب أعزل من كل سلاح أبى أن يستكين وأن يرضى  
بالاحتلال الأجنبى فهب يطالب بحريته في وجه الحديد والنار والتحريق والتدمير واختص  
نابليون الأزهر بنقمته فسلط عليه المدافع وهدمه على من كان فيه تهديماً .. وراحت  
مدفعية نابليون الفتاكة تضرب على غير هدى فتدك البيوت على من فيها من النساء  
والأطفال ولم يكن لدى المصريين ما يقاومون به هذه الأسلحة الخفيفة فاضطروا اضطراراً  
إلى الهدوء والاستقرار والسكينة ولكن نابليون أدرك بثاقب بصره أن ذلك كله ليس إلا  
هدوءاً ظاهرياً وسكينة مؤقتة وأن روح المقاومة لدى المصريين قد انطلقت من عقالها  
ونشطت وأن كل ما بناه نابليون من آمال على حملته في مصر وتأسيس امبراطورية تكون  
مصر قاعدتها بمساعدة الشعب المصرى ، كل ذلك قد انهار ولم يبق أمام نابليون إلا أن  
يفكر من جديد في فرنسا وكيف يرجع إلى فرنسا بعد أن كان الشرق هو أمنيته الوحيدة في  
هذه الحياة وبعد أن كان الاسكندر المقدونى هو أكبر مثال يستهويه وينسج على منواله .

هرب نابليون في سفينة فرنسية عائداً إلى فرنسا بعد أن فشل في تحقيق أحلامه ولم تكن  
مدة الحملة الفرنسية في مصر بعد سفر نابليون أياماً معدودة وانحصرت مهمة كليبر خلف  
نابليون في كيفية تنظيم الخروج من مصر .. ولقد استطاع أن ينقذ شرف الجيش الفرنسى  
في مواجهة الأتراك الذين جاءوا لمحاربته فهزمهم هزيمة منكرة في عين شمس كما هزم  
نابليون المماليك من قبل ولكن كليبر والجيش الفرنسى لم يستطيعا كسر شوكة المقاومة  
المصرية العنيفة التى تجددت فثارت القاهرة من جديد ثورة جبارة اضطرت معها كليبر إلى  
الشروع في حرق القاهرة بأسرها لكي يتمكن من إخماد الثورة .. ويقول كليبر عن هذه

الثورة في تقاريره أن القاهرة فعلت المعجزات فقد صنعت المدافع في مصانع محلية أنشأها الثوار على عجل وكانوا يأخذون (الجلل) التي كانت تقذفها عليهم المدافع الفرنسية لكي يصهروها ويعيدوا سبكها قنابل جديدة يقذفونها على الجيش الفرنسي . استطاع كليبر أن يتغلب على القاهرة بعد أن حولها إلى شعلة من النيران ولكنه لم يلبث إلا أسير الوقت حتى دفع حياته ثمناً لهذا الانتصار الأثيم على شعب مجاهد حر فلاقى حتفه داخل قصره ومقر قيادته ووسط حراسه حيث أوداه سليمان الحلبي قتيلاً بطلعة سكين فهلل الشرق بأسره وكبر لهذا البطل المغوار الذي وضع حداً لطغيان كليبر وأظهر لفرنسا والغرب أن الشرق لا يزال موطن الفدائية والتضحية والشجاعة والجسارة .

ولم يمض سوى عام واحد حتى كانت مصر قد تطهرت من رجس الفرنسيين الذين غادروا البلاد مذءومين مدحورين حيث حملهم الإنجليز على مراكبهم إلى بلادهم بعد أن جردوهم من كل سلاح وعتاد . وتسجل التقارير الرسمية لهذه الحملة أنها عادت إلى فرنسا بأقل من عشرين في المائة من الجنود الذين سافرت بهم إلى مصر .. هلكوا على يد المصريين وفي خلال المعارك التي دارت بينهم وبين الوطنيين .

وعادت مصر بعد خروج الفرنسيين منها حرة مستقلة ذات سيادة وسلطان وقد كان لهذه الحملة الفضل الأكبر في بعثها من مرقدتها وإشاعة النشاط والحيوية بين صفوف الأمة ، كانت هذه الحملة بمثابة قارعة أيقظت الخاملين وعلمتهم أن الدنيا تسير وتنطلق نحو الأمام وأن الأفرنج اليوم غيرهم بالأمس وأن الشرق اليوم غيره بالأمس وأنه فقد تفوقه العسكري والصناعي والعلمي .. أدرك المصريون على ضوء هذه الحملة عمق الهوة التي تردوا فيها ومدى الانحلال الذي وصل إليه المجتمع الإسلامي .

## نهضة مصر في عهد محمد علي

### تولية محمد علي

تحركت مصر العظيمة الجبارة . تحركت مصر الفرعونية العربية الإسلامية .. تحركت مصر ذات الأبعاد والانتصارات فإذا بها تبدأ أروع نهضة نهضتها في تاريخها الحديث . إذا بها في عشية وضحاها تنقلب من أمة خاملة إلى أمة قوية ترتجف من صولتها أوروبا بأسرها .

وكانت أول مظاهر يقظة المصريين هي رفضهم أن يعودوا لما كانت عليه مصر من التبعية لتركيا والخضوع لها خضوعاً تاماً .. فقد حاول الأتراك أن يستفيدوا من هذا الانتصار الذي أحرزه المصريون بحمل الفرنسيين على مغادرة البلاد وحاول الأتراك أن يعودوا لاحتلال البلاد بجنودهم وعساكرهم وأن يعودوا لكل سلطانهم القديم في البلاد ولكن الشعب المصري رفض ذلك بإباء وشمم وطالب بأن يكون هو صاحب الحق الأول في اختيار حاكمه وقاد السيد عمر مكرم الشعب المصري نحو الحرية والاستقلال والديمقراطية الحققة الصادقة وتزعم علماء الأزهر الذين كان لهم فضل مقاومة مشروعات نابليون وخططه . تزعموا هذه الحركة الشعبية التي تولى قيادتها السيد عمر مكرم وانضم محمد علي قائد الأناؤوط بالجيش التركي إلى هذه الجبهة الشعبية وراح يتقرب لها ويخطب ودها وينفذ لها مشروعاتها حتى حصل على ثقتهم فاختروه ليكون والياً على مصر ونائباً عن خليفة المسلمين في حكمها ولم يسع الخليفة العثماني إلا أن يرضخ لإرادة الشعب المصري فيوافق على اختيار الشعب وهكذا بدأت نهضة مصر الحديثة بتولية محمد علي بإرادة الشعب وهكذا سبقت مصر كثيراً من دول العالم الغربي في تأييد معنى الديمقراطية والحرية وحق الشعب في انتخاب حاكمه وسرى كيف انطلقت مصر بعد ذلك في معارج التجديد والإصلاح والرقى والكمال والقوة .

### الحملة الانجليزية

خيل للانجليز بعد انسحاب الحملة الفرنسية من مصر أنهم قادرون على النجاح فيما

فشل فيه الفرنسيون وأنهم يستطيعون أن يستولوا على مصر بعد أن عجز الفرنسيون عن الاستيلاء عليها . متصورين أن سبب فشل الحملة الفرنسية يرجع إلى انهزام أسطولها وتخطيطه في موقعة أبي قير وأنهم - وهم الذين يسيطرون بأسطولهم في البحر الأبيض المتوسط - باستطاعتهم أن يكونوا أصحاب السيادة في مصر . وكان يالكهم أحد البكرات المصريين المسمى الألفى بك الذى سافر إلى لندن وأقنع الانجليز أنه لا يحتاج لأكثر من بضعة عشر ألف جندي بالأسلحة الحديثة لكي يستولى على مصر ويمكن للانجليز احتلالها وأنه لا يكاد يضع قدمه على الأراضي المصرية حتى يهب المصريون لنصرتهم وتحقيق مشروعاته وقد لعب كل ذلك بعقل الانجليز فجعلهم يجهزون حملتهم في سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال فريرز لاحتلال مصر قلب العالم القديم والجديد ووصلت الحملة سالمة إلى مصر واستطاعت أن تحتل الإسكندرية بالفعل وتقدم فريق من جنود الحملة لاحتلال مدينة رشيد فتربص بهم أهالى المدينة وتركوا لهم الشوارع والخوانيت مفتوحة حتى إذا تفرق الجند في الشوارع واشتغلوا بالنهب والسلب انقض عليهم أهل رشيد الأبطال فذبحوهم عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم سوى النذر القليل فكانت هذه صدمة هائلة انخلع لها قلب بقية الحملة وقائدها . ولما حاول الجيش الانجليزى أن ينحدر من الإسكندرية جنوباً اصطدمت به القوات المحلية التى اجتمعت على عجل من شمال الدلتا وأوقعت بالانجليز عند مدينة الحمام هزيمة شنيعة قتل فيها منهم عدد ضخم وأسر عدد أضخم .. وقد تم كل ذلك بسرعة عجيبة حتى أن نبأ وصول الانجليز إلى مصر لم يكذب يعقل إلى القاهرة حتى وصلت رؤوس القتلى وجموع الأسرى فساروا بها وسط شوارع القاهرة التى كانت تغلي غلياناً بروح الوطنية والفتوة والحماة والتى كادت تجن فرحاً من أنباء هذا النصر الذى غسل غار نجاح الحملة الفرنسية في الدخول إلى مصر .

وكان محمد على باشا الذى انتخبته مصر والياً عليها في ذلك الوقت مقبياً في سعيد مصر حيث كان يقوم ببعض الأعمال فوصلته الأنباء بسرعة متلاحقة وقبل أن ييأس محمد على نفسه لمواجهة هذا الموقف الخطير وقبل أن يمتطى فرسه ليعدو به نحو القاهرة ليتخذ العدة لدفع هذه الجائحة كانت الأنباء قد وصلت إليه برغبة الانجليز في الانسحاب من مصر بسلام وتنظيم هذا الانسحاب . وهكذا وصل محمد على إلى القاهرة لا ليعد لمقاومة الانجليز ولكن ليسجل أنباء اندحار الانجليز وليوقع هذه الوثيقة التى قبل بها جلاء الانجليز عن الإسكندرية واحترامهم لاستقلال مصر وسيادتها .

وهكذا طرد الشعب المصرى بجهوده الشعبية لا بجهود الحكومة المصرية أو جهود محمد على نفسه .. طرد الشعب المصرى الإنجليز وقذف بهم إلى البحر كما اضطروا الفرنسيين من قبل للجلاء عن أراضيهم ونحسب أن ليس فى تاريخ القرن التاسع عشر - قرن النهضة الشعبية - ما هو أجل وأروع من نضال الشعب المصرى ونجاحه فى الذود عن حريته واستقلاله وسيادته .

### محمد على وليد الثورة المصرية

ولم يكن محمد على فى الحقيقة والواقع إلا وليد هذه الثورة المصرية وهذه النهضة الروحية التى نهضتها مصر فى مستهل القرن التاسع عشر . ولم يكن محمد على فى الشرق إلا كنبليون فى الغرب الذى ولدته الثورة فلم يلبث أن عقها وانقلب عليها وإن كان قد فعل ذلك بنية أن يحقق المجد للبلاد وأن ينهض بالأمة .

لقد ارتقى محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب وبجهود زعماء شعبيين من أمثال السيد عمر مكرم ولكن محمد على لم يلبث أن قلب ظهر الجبن للسيد عمر مكرم فنفاه إلى دمياط اتقاء لسلطوته ونفوذه بين الجماهير وبدأ محمد على عمله العظيم الخالد على مر العصور والدهور والذى لا يشوبه غير شائبة واحدة هى أن محمد على جعل شخصه محور هذه النهضة الجبارة التى دفع إليها مصر دفعاً ولم يشرك الشعب فى احتال هذه المسئوليات الضخمة ولو فعل محمد على لما تقوضت دعائم هذه النهضة الرائعة بمجرد أن دب الضعف والوهن إليه .

### نهضة مصر

فى أقل من عشرين سنة انتقلت مصر من حضيض الفوضى إلى ذروة النظام والقانون والضبط والربط . فى أقل من عشرين سنة هبت مصر من سباتها العميق لتبهر الدنيا بمجدها وقوتها وجيشها وأسطولها وحيويتها ولم يكن عدد سكان مصر يتجاوز الثلاثة ملايين ولم تكن لها مالية منظمة - ويقدرّون الحد الأقصى لميزانيتها فى ذلك الوقت بنصف مليون من الجنيهات ومع ذلك فقد استطاعت فى هذه الفترة القصيرة أن تنشئ جيشاً جراراً على أحدث النظم العصرية وأن تجهزه بالأسلحة الحديثة الفتاكة التى صنعت فى المصانع المصرية بأيدٍ مصرية صميعة واستطاع هذا الجيش المؤلف من صميم الفلاحين المصريين

أن يهزم الجيوش التركية وأن يهزم القيادة الألمانية التي ساعدت الأتراك في معركة نصيبين الفاصلة وأن يؤسس امبراطورية ضخمة كان البحر الأحمر بأكمله إحدى بحيراتها . لقد كان العلم المصرى يرفرف على شواطئه وعلى جانبيه . ولقد وصلت هذه الجيوش المصرية الظافرة إلى صميم الأناضول حيث البقية من الخلافة العثمانية ولو قدر للجيش المصرى أن يصل إلى القسطنطينية - وقد كان ذلك أمراً ميسوراً - لو لم تتدخل الدول . لعادت الخلافة الإسلامية إلى مصر ولبعث العالم العربى والإسلامى بعثاً جديداً ولكننا اليوم بعد مائة سنة ونيف من هذه النهضة على رأس دول العالم العظمى الذين يقودون البشر نحو الحرية والإخاء والسلام .

كانت الامبراطورية المصرية التي فتحتها الجيوش المصرية تمتد في أفريقيا حتى خط الاستواء وكان وادى النيل بأكمله هو قلب هذه الامبراطورية الخفاق وكان شرق البحر الأبيض المتوسط خاضعاً لسيادة الأسطول المصرى وفوجئ العالم ذات صباح بالأسطول التركى يبحر إلى ميناء الإسكندرية ويضع نفسه تحت تصرف وقيادة محمد على وبهذا أصبح لمصر أضخم بحرية في البحر الأبيض ولم يكذب ينقضى شهر واحد من الزمان حتى اهتز العالم لسماع أبناء انتصارات الجيش المصرى المجيد بحيث برهن الفلاح المصرى على أنه سليل هذه الأجداد العسكرية وأنه يوم أن يعطى السلاح والنظام يصبح أعظم جنود العالم طراً . وحسب المؤرخ أن يشير إلى معركة قونيه ونصيبين حيث لمع اسم الجندى المصرى في سماء المعارك الحديثة كآية من آيات البطولة والشجاعة والتضحية .

ولم يكن نصيب مصر في التطور العلمى والصناعى والاجتماعى بأقل من نصيبها في التطور الحربى والعسكرى بل إن المؤرخ ليحار أشد الحيرة أى الناحيتين من النهضة المصرية كان أبعد شأواً وأعظم خطراً فلقد أنشئت في مصر المدارس العالمية في الطب والهندسة والحربية والصناعة والفنون على آخر ما وصلت إليه المدارس في أوروبا بحيث أنها أخرجت من النبغاء والممتازين في مختلف هذه الفروع ما يزيد على أضرابهم في أوروبا وأنشئت في مصر المصانع الحديثة التي استطاعت أن تنشئ أسطولاً بحرياً بأكمله وأن تجهزه بكل ما يحتاجه الأسطول . وليس وراء ذلك آية من آيات النهضة الصناعية الكبرى التي نهضتها مصر . أما صناعة المنسوجات بكافة أنواعها فحدث عنها ولا حرج وحسبها أنها مدت هذه الجيوش الجرارة بكل حاجياتها من الألبسة والأردية العسكرية . وهكذا طفر الصانع المصرى في يوم وليلة إلى مرتبة الصانع الأوروبى في صنع المنتجات المدنية .



أى أن مصر قبل أن تظهر ألمانيا المتحدة في الوجود وقيل أن تظهر إيطاليا المتحدة بل وقبل أن تتم الوحدة الأمريكية بين الشمال والجنوب وقبل أن تبدأ اليابان نهضتها كانت مصر قد بدأت نهضتها في العصور الحديثة ولو تركت وشأنها لكان لأفريقيا وللعرب والمسلمين شأن غير هذا الشأن الذى هم عليه اليوم ولكنها انجلترا ولعنة الله على انجلترا .. فقد وقفت في وجه مصر وألّبت دول أوروبا على التحالف للضرب على يد مصر فكان لها ما أرادت وسلبت مصر ثمرة انتصاراتها المجيدة وأطفأت نور نهضتها وأهاضت جناحيها وقعدت بها من جديد تمهيداً لأخذها واغتصابها فيما بعد بالدس والمؤامرات والكذب والخديعة .

## عداوة إنجلترا لمصر

### ندالة الإنجليز في موقعة نفاين - مصر تجدد أسطولها انجلترا لمصر بالمرصاد

إنه لحديث يثير الشجون وإنها لذكريات من شأنها أن تملأنا حقداً وبغضاً لهؤلاء الإنجليز الذين حالوا بيننا وبين بلوغ المجد مائة عام كاملة والذين لا يزالون حتى اليوم يحمدون أنفاسنا ويفرضون علينا حياة الرق والعبودية .

لقد رأينا فيما سبق كيف حاول الإنجليز أن يخلتوا مصر بالذات لئلا يقطعة الشعب المصرى وشجاعته ونجاحه في طرد الحملة الانجليزية والقذف بها إلى البحر .

ولكن من العبث أن نتصور أن إنجلترا قد صرفت النظر عن تحقيق مشروعاتها في احتلال مصر نهائياً ، بل لقد حملتها هزيمتها العسكرية على أن تبحث عن أساليب أخرى لتدرك النجاح عن طريقها ، وأى أسلوب ناجح في يد الإنجليز غير الدس والمؤامرات ونصب المكائد للشعوب الناهضة وتآليب بقية شعوب العالم ضده بئحة أنه خطر على الأمن الدولى والعدالة الإنسانية والديمقراطية ؟ إلى آخر هذه الدعاوى العريضة التى شهدنا نموذجاً منها في حربين متلاحقتين . وإذا كانت إنجلترا قد نجحت في تأليب أمم أوروبا بل وأمريكا على ألمانيا حتى هزمتها هذه الهزيمة المنكرة فليس لنا أن نعجب كيف نجحت إنجلترا في تأليب دول أوروبا على مصر في أيام محمد على لحرمانها من انتصاراتها ولتجريدتها من استقلالها وحريتها تمهيداً لابتلاعها وتحقيق مشروع إنجلترا في احتلالها .

كانت خطة إنجلترا في تأليب دول أوروبا ضد مصر بسيطة كل البساطة وواضحة كل الوضوح . لقد كانت مصر ذلك الوقت جزءاً من الدولة العلية التى كانت في التزع الأخير

وكانت دول أوروبا كلها تقف متربصة بهذه الامبراطورية التى تترجح لى يقتسموا أملاكها في الشرق والغرب . ولم يكن يبقى من تركيا من شر التقسيم إلا عدم اتفاق الدول الكبرى الأوربية على طريقة هذا التقسيم ونصيب كل منها فيه . فلما نهض محمد على بمصر

هذه النهضة الجبارة وأحرزت الجيوش المصرية هذه الانتصارات الرائعة حتى الإنجليز أن تشيع النهضة في سائر أنحاء الدولة العلية . والمسلمون والعرب أمة واحدة ، ولو قدر لمحمد على أن يصل إلى القسطنطينية لأصبح هو الخليفة ، ولهبت الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها تظاهر هذا القائد المنتصر ولاستطاع العالم الإسلامي أن يسترد كل سيادته وصولته وهو ما تفعل إنجلترا المستحيل لكي لا يقع بأي حال من الأحوال .

### خيانة نفارين

كانت أول ضربة سددها إنجلترا لقوة مصر النامية ما أقدمت عليه من حرق الأسطول المصري في المياه اليونانية بخيانة دنيئة قدرة جديدة بتاريخ إنجلترا الملى بالمخازي والآثام . ومجمل الحادث أن تركيا استعانت بمحمد على لإطفاء نيران الثورة في اليونان التي كانت تابعة لتركيا في ذلك الوقت فتوجه الأسطول المصري إلى بلاد اليونان وأنزل بها حملة من الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا استطاعت في أيام قليلة أن تسيطر على الموقف وأن تحمد الثورة وأن تعيد الأمن والنظام إلى نصابها . وبينما كان الأسطول المصري رابضاً في ميناء نفارين إذ دخل الأسطول الإنجليزي بصحبة الأسطول الفرنسي بدعوى زيارتهما للميناء وقد تبادلوا التحية مع الأسطول المصري بإطلاق المدافع ثم وقفا إلى جواره في أمان وصفاء ثم فوجئ الأسطول المصري مفاجأة بمدافع الأسطولين وقد أطلقت نيرانها عليه فأخذ الأسطول المصري على غرة إذ لم يكن مستعداً وكانت جنوده على البر ولم يدر بجند قواده أن تحدث مثل هذه الفضيحة والخيانة القذرة فليس من عادة الأمم الصديقة أن تطلق النيران على أساطيل بعضها . ولقد كانت إنجلترا في حالة صداقة مع مصر ولم يكن بين فرنسا وإنجلترا وبين مصر حرب أو عداوة وإلا لما سمح الأسطول المصري للأسطولين الإنجليزي والفرنسي بالدخول إلى الميناء والوقوف إلى جواره .. ولكنها إنجلترا ، إنجلترا الغادرة الخائنة وكفى . وكان طبيعياً وقد أخذ الأسطول المصري على غرة أن يدمر وأن يحرق وأن يغرق كما حدث بالنسبة للأسطول الولايات المتحدة عندما أخذ على غرة في ميناء بيرل هاربور . وهكذا ضربت إنجلترا مصر أول ضربة في صميم نهضتها ولكن من حسن الحظ أن عزيمة محمد على كانت في ذلك الوقت قوية فتية وكان الشعب المصري لا يزال في مستهل نهضته وكان متعطشاً للمجد والحرية فلم تقل هذه الكارثة من عزمه وإرادته بل على العكس من ذلك كانت بمثابة حافز له على مضاعفة جهوده وأعاد بناء أسطوله على أساس أقوى وأمتن من الأساس الأول بحيث لم تمض سنوات قليلة حتى كان لمصر أسطول يفوق أسطولها المغربي عدة مرات من حيث القوة

والجدة. وعدد القوات المحاربة التي توجد على ظهره . وقد امتاز هذا الأسطول بأنه من صنع مصر وترسانة مصر فكان أروع آية لنهضة مصر .

ولكن إنجلترا وقفت لمصر بالمِرصاد وكلما أحرزت مصر انتصارات على تركيا كلما ازدادت رغبة في هزيمة مصر عن طريق تأليب دول أوروبا عليها وإشعارها بالخطر المصري عليها وتأثيره في إحباط خطط أوروبا في التهام تركيا .

وفي غداة انتصار الجيش المصري الرائع في معركة نصيبين - هذا الانتصار الخامس الذي فتح طريق القسطنطينية أمام مصر - أسرع إنجلترا بعشده أسطولها في مياه الشام مهددة بقطع خط الرجعة على جيوش مصر وقدمت لمحمد علي إنذاراً باسم التحالف الأوروبي مطالبة إياه بسحب جيوشه وأسطوله من تركيا وأعطته مهلة قصيره جداً ليتم فيها هذا الانسحاب فإن لم يذعن لهذا الإنذار ويلبيه في المهلة الممنوحة له يجرم من ملك الشام ولا يبقى له سوى ملك مصر وحددت له مهلة أقصر من الأولى وكانت إنجلترا تتكلم في هذه الإنذارات باسم فرنسا وبروسيا والنمسا .

ولقد تجاهل محمد علي هذه الإنذارات في بادئ الأمر ثم لم يلبث أن لبأها بعد فوات الوقت فوضع نفسه في مأزق حرج وضعيف ولو أنه مضى في تجاهله لهذه الإنذارات وتحدى القوة بالقوة لما جرؤت إنجلترا على أن تنفذ وعيدها لأن دول أوروبا كانت مترددة ومنقسمة فيما بينها ، كما ظهر فيما بعد . ولكن محمد علي الذي كان قد بلغ في ذلك الوقت سن الشيخوخة وقف متردداً يلتفت صوب فرنسا ينتظر منها العون والمدد . ولقد كانت فرنسا - وستبقى دائماً - هي الدولة التي يحسّر حليفها دائماً أبداً فلا سياسة مستقرة لها وإنما هي كالمرأة المومس التي لا إخلاص لها والتي تتلون بلون الحبراء . ولعل أحد أخطاء سياسة محمد علي الخارجية على طول الخط هو اعتماده على فرنسا واتخاذها حليفة له .

ولقد استمع محمد علي في بادئ الأزمه إلى نصيحة فرنسا فرفض إنذارات إنجلترا الواحد تلو الآخر حتى انتهت جميع المدد التي أعطيت له لتنفيذ الإنذارات وفجأة تغلّت عنه فرنسا وأفهمته أنها لا تستطيع أن تقف إلى جواره . ولو أن محمد علي مضى بالرغم من ذلك في وقوفه في وجه إنجلترا لما اجتزأت على أن تنفذ وعيدها . ولكن محمد علي خادرت أعصابه في نهاية الأمر وأعرض عن نصائح ابنه الباسل إبراهيم الذي ظل يحرض أباه على المقاومة . لقد استسلم محمد علي في آخر الأمر وعرض على الإنجليز أن يتركوه والياً على مصر والسودان وأن تبقى ولاية مصر وقفاً على أبنائه وأسرته ولكن إنجلترا رفضت ذلك أيضاً بحجة أنه قد جاء بعد

فوات الوقت . وهنا هاج محمد على وماج وأظهر عزمه على الحرب والقتال حتى آخر نسمة في حياته فتراخت إنجلترا . كما هي العادة عندما ترى نفسها أمام خصم عنيد صمم على القتال والاستماتة . وتم الاتفاق على أن تبقى مصر وتوابعها ولاية لمحمد على . ومن بعده لأولاده ولو أن محمد على لم يفكر في مصلحته الشخصية وفكر في حرية هذا الشعب الذي رفعه إلى منصة الحكم ووقف إلى جواره إذ كان ضعيفاً . وأنه من الظلم أن يتجرد هذا الشعب من استقلاله ومجده الذي سطره بدمائه لما أذعن للانجليز ولدعا الشعب إلى النضال عن حريته واستقلاله وأمجاده التي أحرزها بقوة السلاح ولظفرت مصر باستقلالها عن تركيا في عهده .

## مأساة قناة السويس التي شقها المصريون بدمائهم

في معاهدة سنة ١٨٤٠ سجل الإنجليز انتصارهم على محمد علي وجعله من امبراطورية عظيمة إلى دولة تابعة للسيادة العثمانية وإن كانت تتمتع باستقلال ذاتي داخلي .

وقد وصل اليأس بقلب محمد علي بعد هذه الهزيمة السياسية إلى حد جعله ينتهي على نفسه ويهمل كل شئونه الداخلية . ولم يستطع أن يتفجع بنهضة البلاد الصناعية ، بخوضا لخدمة الشعب المصري ورفقه وتطوره وزيادة رفاهيته فلم يكن محمد علي ينظر إلى المصانع إلا باعتبارها ضرورة من ضرورات الحرب والدفاع والمجود على جيوش الأعداء . ولقد كان محمد علي لا يستطيع أن ينظر إلى أمر من أمور هذه الدنيا إلا من خلال الفائدة العسكرية التي تجني من ورائه .. حتى أن مستشاريه المدنيين الذين رأوا وجوب إنشاء القناطر الخيرية للنهوض بالزراعة في الوجه البحري لم يستطيعوا أن يعملوه على إنشائها إلا بعد أن صبروا له بصورة خط من خطوط الدفاع عن مصر . ولذلك فقد أنشئت على صورة قلعة حرية وزودت بالمدافع التي صفت بالعشرات والمئات فوقها . ولذلك عندما كلف محمد علي عن فتوحاته العسكرية . كف في نفس الوقت عن الاهتمام بالمصانع والصناعة . بل والمدارس والتعليم . الذي كان بدوره أداة لإخراج الأطباء للجيش والضبباط للجيش والمهندسين للجيش . فلما لم يعد هناك جيش لم تعد هناك حاجة إلى مدارس أو مصانع أو مستشفيات . وهذا هو خطر الديكتاتورية وحكم الفرد فلو أن هذه المؤسسات التي ارتفعت في مصر أيام محمد علي قامت على أكتاف الشعب إذن لما ذوت أو اضمحلت ولظلت تؤدي عملها بعد انصراف محمد علي عن العناية بها وتفقدتها .

### رد الفعل

ومات إبراهيم العظيم ومات محمد علي وولى عباس الأول وغمرت البلاد موجة من الانتكاس والارتباك . سرت من الحاكم الأول لمصر كلها . فكره المصريون الأجانب والأوربيين وحملهم هذا الكره على أن يكرهوا الصناعة والتعليم وكل ما يمكن أن يتداخل

فيه الأجنبي بسبب . فأغْلَقَت المدارس الواحدة تلو الأخرى باعتبارها بدعة أجنبية وأغلقت المصانع وخيم على البلاد سحابة من الهزيمة واليأس تحت تأثير عباس الأول حاكم البلاد . ولعله من سخرية القدر أن ينشأ في مصر في عهد ذلك الحاكم الرجعي أول خط سكة حديد في العالم . إذا استثنينا ما أنشئ في إنجلترا فقد تقدمت شركة ستيفنسون مخترع قطارات السكة الحديد وعرضت على مصر أن تنشئ خطاً حديدياً بين مصر والاسكندرية فأنشئ الخط الذي يعتبر مظهراً من مظاهر التطور وال عمران الحديث في فترة كان المصريون فيها قد كفروا بكل نهوض أو تطور .

ولكن ..

ولكن كان من المستحيل أن تعود مصر إلى غفوتها الأولى التي سبقت هذه النهضة الرائعة . كان من المحال أن تعود مصر كما كانت قبل الحملة الفرنسية وقبل نهضة محمد علي كما مهملاً لا شأن لها في حياة البشرية . فقد كانت سنن الطبيعة تأبى ذلك وتحول دون وقوعه . فالطبيعة في تطور وانطلاق نحو الأمام ، وكانت مصر قد برزت على مسرح الحوادث العالمية وما كان العالم ليسمح لها من جديد أن تعود إلى زوايا النسيان .

وبدأت محاولات استعمار مصر وإدخالها في دائرة النفوذ الانجليزي والفرنسي تلتفح وجه الحياة المصرية .

ومن ناحية أخرى بدأ أثر الصدمة التي أصابت مصر يخف على مر الزمن وبدأت مصر تنهض من كبوتها وتطل من جديد برأسها على العالم تواصل تطورها وارتقاءها كما هي سنة الحياة .

مات عباس الأول أو بالأحرى قُتِلَ وَوَلَّى من بعده سعيد باشا فبدأ يُعْنَى بالجيش من جديد ويعمل على رفاهية الشعب ويعتز بقوميته المصرية البهجة . وكان يمكن أن يمضي سعيد باشا في تاريخ مصر مشكوراً ممجداً باعتباره أول حاكم فكر في رفاهية الشعب وبدأت البلاد في ظله تفيق من غشيتها كما قدمنا ، لولا أن التيارات العالمية التي بدأت تهب على مصر قد أغرت سعيد باشا بأن يستدين من الأجانب فانفتح على مصر ذلك الباب من الشر المستطير . كما استطاع دليسيبس الفرنسي أن يحصل منه على امتياز قناة السويس فبدأ ذلك العمل الذي عم الدنيا كلها بالنعمة والخير إلا مصر والمصريين ، حيث لم يصبهم إلا بالنقمة والشر . وقد كان مقدراً لقناة السويس أن تعيد لمصر كل مركزها وخطورتها في حياة العالم إذ

جعلت من مصر همزة الوصل بين الشرق والغرب كما كان شأنها في كل عصور التاريخ ولكنها أفقدت مصر في ذات الوقت آخر ظل من الاستقلال فهد منح سعيد باشا دليسيبس هذا الامتياز وقد فتحت مصر على نفسها باب التدخل الأجنبي الذي لم ينته إلا بعد أن تحول التدخل إلى احتلال لا تزال ترزح تحت نيره حتى الآن .

### نكبة قناة السويس

منح سعيد باشا امتياز حفر قناة تشق أرض مصر وتربط البحرين الأبيض والأحمر بعضها ببعض وقد كان المشروع يبدو في ذلك الوقت مشروعاً جنونياً أو مشروعاً خيالياً مشكوكاً حتى من المتفائلين في إمكان تحقيقه فضلاً عن معارضة الدول ولا سيما إنجلترا بوجه خاص ومع هذه الصعوبات والمعارضات فقد منح سعيد امتياز حفر القناة لدليسيبس . منحها له بالجمان بل وتكفل له فوق ذلك بإلزام الحكومة المصرية بأن تقدم له مالا يقل عن عشرين ألف عامل لإتمام العمل ومنحه حق تملك الأراضي التي تسير فيها القناة ومنحه فوق ذلك عدة امتيازات ومنحاً يكاد الإنسان أن ينجح إذ يطالعه خصوصاً بعد أن رأينا كيف كانت هذه القناة هي سر نكبات مصر حتى الآن .

ولولا ذلك الامتياز والمنح التي منحها سعيد لدليسيبس من دم الشعب المصري ومن جهوده ودمايته لما استطاع دليسيبس أن يجتد في الدنيا كلها من يقرضه قرشاً واحداً للمساهمة في مشروعه .. ولولا المنح لما كانت قوة على ظهر الأرض تعلم بإمكان المشروع في تنفيذ هذا المشروع .

ومات سعيد وأعقبه إسماعيل وأدرك ما في شروط الامتياز الذي حصل عليه دليسيبس من غبن شديد على مصر والمصريين إذ كان على مصر أن تدفع كل الغرم بينا يحصل الأجانب على كل الغنم . كان على مصر أن تحفر القناة بدم أبنائها وعظامهم على سبيل السخرة والإلزام فإذا تم المستحيل وشقت القناة لم يكن لمصر سوى لعق الأصابع وتناول الفتات .

اعترض إسماعيل باشا على شروط الامتياز المجحفة بالمصريين وكان من حقه أن يعترض وكانت الدنيا كلها وعلى رأسها إنجلترا - التي كانت تعارض في شق القناة - تقف في صفه ولو أن إسماعيل وقف في رجولة وحزم ضد دليسيبس وامتيازاته لاستطاع أن يحصل لمصر على



مغانم كثيرة وأن يجنب الشعب المصرى ما تحمله من آلام فى سبيل حفر هذه القناة ولكن إسماعيل فى نهاية الأمر كان رجلاً فرداً يعمل بإمرة إرادته وأهوائه الشخصية وكان من هؤلاء الحكام الشرقيين الذين ينخدعون بالأوروبيين ولا يفترضون فيهم الخسة والدناءة فقبل أن يحتكم إلى امبراطور فرنسا بين مصر وشركة فرنسية ، حكم الامبراطور نابليون بين الشعب المصرى وبين جناب الخواجه دليسبس . وإليك ما حكم به الامبراطور العادل التزيه الذى وثق به إسماعيل باشا وارتضاه أن يكون حكماً بين الشعب بأكمله من ناحية وبين فرد من رعايا هذا الامبراطور من ناحية أخرى .

صدر حكم امبراطور فرنسا فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بأن ترجع ترعة المياه الحلوة للحكومة المصرية وأن تدفع الحكومة فى نظير ذلك ١٦ مليون فرنك وأن لا يبقى للشركة من الأراضى إلا ٣٠٠٠ هكتار بعد أن كان لها ٦٣٠٠٠ هكتار وتأخذ الشركة فى مقابل ذلك ٣٠ مليون فرنك تعويضاً عن عدم توريد الأنفجار وبذلك بلغ مجموع التعويض الذى قضى به الأمبراطور على مصر هو ٨٤ مليون فرنك ودفعها مصر للخواجه دليسبس لتسترد بعض أراضيا وحقوقها التى اغتصبها دليسبس من سعيد باشا فى غفلة من الزمان والناس .

ولقد كان ذلك حكماً مشيناً وفزرياً للذين قبلوه . ولو لم يقبلوه لما كانت هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تحملهم على قبوله ولفشل مشروع القناة ولأنقذت مصر حريتها واستقلالها . ولكن هذه المبالغ الهائلة التى دفعها مصر لدليسبس مكنته من المضى فى مشروعه وأنقذت الشركة من خراب محقق .

وتم المستحيل . وشقت القناة . وهكذا قام الشعب المصرى بعمل المستحيل . ولا عجب فى ذلك أو غرابة فالأهرام كانت إحدى عجائب الدنيا والشعب الذى بنى عجيبة الأهرام لم يكن يعجزه أن ينفذ أعجوبة القرن التاسع عشر وهى شق قناة السويس .. وتلاقى البحران على أديم مصر وحق على الدنيا أن تبارك المصريين الذين ربطوا الشرق بالغرب وساهموا فى عصر السرعة بأكبر أداة لتحقيق السرعة فى البحار . وكان على الدنيا أن تنحني إكباراً لهذا الشعب الذى قدم من أبنائه خمسين ألفاً ماتوا فى حفر هذه القناة ولكن أوروبا الغادرة الفاجرة قد أبت على مصر كل حق فى التكريم والتبجيل بل كافأتها على عملها المجيد مكافأة سنار فسلموا عيون المصريين التى أبصرتهم الحياة وقطعوا الأيدى التى عبدت لهم طريق النجاح وهيات لهم المنجد والسلطان .

ويقوم الآن على مدخل قناة السويس تمثال ذلك الأفاق دليسيبس كرمز على إذلال مصر  
وامتثالها . وينبغي أن تأتي الساعة التي يزال فيها هذا التمثال من مكانه ليرفع على قاعدته تمثال  
العامل المصري والفلاح المصري الذي روى الأرض بدمائه ثم حفرها بعظامه ولولا ذلك لما  
كانت هناك قناة السويس .

## عهد اسماعيل فضيحة الديون والتدخل الاجنبى

ازدادت خطورة مصر بالنسبة للامبراطورية الإنجليزية بعد شق قناة السويس . وإذا كان نابليون قد فكر في ضرب الامبراطورية الإنجليزية باحتلال مصر قبل شق قناة السويس فقد كان مثل هذا الاحتلال بعد تمام فتح القناة بمثابة حكم الإعدام على هذه الامبراطورية العتيدة ولذلك فقد آلى الإنجليز على أنفسهم أن لا يستقر لهم قرار حتى يخضعوا مصر لسلطانهم ويحتلوها يجنودهم فبدأ نشاط السياسة الإنجليزية يتجه بكل قوته نحو مصر وأصبح احتلال مصر هو غاية إنجلترا الكبرى التى تتضاءل إلى جوارها كل غاية ويهون في سبيلها كل جهد ومشقة .

على أن الدرس الذى تعلمه الإنجليز من محاولتهم الفاشلة في سنة ١٨٠٧ حيث نجح المصريون في طردهم شرطدة جعلهم يحاذرون في خططهم هذه المرة ولا يضربون ضربتهم إلا بعد أن يتأكدوا كل التأكد من نجاح محاولتهم .

ولقد كان السر في حبوط محاولاتهم الأولى هو يقظة الشعب وتعاونه تعاونا تاماً مطلقاً مع الجالس على عرش مصر الذى ارتفع إلى الحكم بإرادة الشعب ، فليكن سبيل الإنجليز لاحتلال مصر هو هدم هذه الوحدة بين الشعب والعرش من الداخل ، وليكن سبيل الإنجليز لاحتلال مصر هو إشاعة الفوضى في البلاد وبذر الشقاق والفتن عن طريق اضعاف مالية البلاد وإنهاكها بالضرائب وتكيليها بالديون وسيطرة الأجنبي على كل كبيرة وصغيرة من شئونها . وليكن سبيل الإنجليز لاحتلال مصر أولاً وأخيراً هو تملكهم للقناة بالحصول على أكبر عدد ممكن من أسهمها والمطالبة بعد ذلك بحماية مصالحهم وصيانتها .

هذه هى خطة الإنجليز التى رسموها لاحتلال مصر بمجرد أن تم الاحتفال بافتتاح قناة السويس ولقد نفذوا خططهم في دقة وإحكام وساعدهم على تنفيذها غفلة إسماعيل الذى كان حاكماً مستبداً يحكم على طريقة حكام العصور الوسطى . حيث كان الحاكم هو كل

شئ : هو القانون وهو الدستور وهو مالك الناس الذى يتصرف فيهم وفى أقدارهم وفى أموالهم كما يشاء ويختار بغير معقب على حكمه ومشيتته .. والويل للمجتمع والشعب إذا زل هذا الحاكم أو أخطأ أو أساء السيرة . ولعل فيا أصاب مصر أعظم عبرة لمن يريد أن يعتبر حيث فقدت حريتها واستقلالها وكرامتها وثروتها وتحولت من امبراطورية شاذة وارقة الظلال إلى أمة ذليلة مستعبدة فقيرة جائعة مهينة الجناح وكل ذلك بسبب ارتباط الحاكم الفرد وسوء تصرفه حيث لا ناصح ولا مستشار ولا رقيب من الشعب والجماعة .

كان إسماعيل يؤمن بما آمن به جده من قبله ، وهو أن مصر ينبغي أن تبث كما كانت فى القديم امبراطورية شاذة تقود العالم العربى والإسلامى كله وتقوم بتمدين القارة المظلمة ، ونعنى بها قارة أفريقيا ولقد عمل إسماعيل وجد واجتهد ، وعدا بأسرع مما كان يؤمل ولكن جواده لم يلبث أن كبا به فوق وقع وتعثر وتعثرت مصر كلها بعثاره ودفعت اللبن غالياً لأخطائه وارتباكاته .

### خطة إسماعيل

طمع إسماعيل أول ما طمع فى الحصول على استقلال مصر وعلى صيرورته ملكاً مستقلاً عليها وأراد أن لا يسلك سبيل جده لتحقيق هذا الغرض فلم يلجأ إلى السلاح والجيش ولكنه لجأ إلى أسلوب ملتو غير محمود العاقبة كان حقيقاً وقد بدأ به أن ينتهى إلى ما انتهى إليه من نكبات على شخصه وعلى شعبه بأكمله . اختار إسماعيل طريق الرشوة للحصول على استقلاله وزيادة نفوذه وسلطانه فعمد إلى رشوة حكام تركيا وعلى رأسهم الصدر الأعظم بل وصل إلى حد رشوة الخليفة نفسه وغمره بالمال والهدايا لكي ينزل له عن بعض ما يريده إسماعيل من الاستقلال والنفوذ وحرية التصرف فى شئون مصر . وقد كان حربياً بإسماعيل أن يدرك أن الانحلال إذا كان قد وصل برجال الحكم فى تركيا إلى مثل هذه الدرجة من الفساد فإنه من خطل رأى الاعتماد عليهم أو الاستناد فى تصرفاته على ما يصدر منهم من قرارات أو فرمانات . فإنه كما استطاع أن يرشوهم للحصول على ما حصل عليه . فإن بقدرة أعدائه وخصومه أن يفعلوا مثل ما فعل وأن يهدموا عن طريق الرشوة كل ما بنى وهو ما حدث بعد ذلك بالفعل . وبما يزيد فى خطورة هذا الأسلوب للحصول على زيادة سلطانه فى مصر وحرية فى التصرف أنه لجأ الى الاستدانة للحصول على الرشاوى والمنح التى كان يقدمها لحكام تركيا وخليفته .

والاستدانة هي آفة إسماعيل الكبرى وهي الصخرة التي تحطم عليها آخر ظل لاستقلال مصر وهي الثغرة التي نفذ منها الإنجليز لاحتلال البلاد فأضحت مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني وإن أخذت في الظاهر شكلاً غير ذلك الشكل .

### فضيحة الديون والإسراف

كان إسماعيل يستدين ، ويستدين من يهود أوروبا في جنون قاتل إذ كان يقبل كل ما يشترطه الدائنون عليه من شروط وكان يدفع كل ما يطلب منه من الفوائد الربوية التي كانت تربو في بعض الأحيان على الخمسين في المائة إذا حسبت مصاريف الوساطة والنفقات التي تبذل للحصول على الدين . وإن المصرى المطالع لتاريخ إسماعيل ليوشك أن ينفجر من القهر والغيط عندما يطالع أبناء هذا القرض الكبير الذي عقده إسماعيل بمبلغ ٣٢ مليون جنيه والذي لم يزد ما وصل منه بالفعل إلى يد إسماعيل عن عشرين مليوناً من الجنيهات .

وكانت بعض ديون إسماعيل تنفق في إصلاحات جديرة بكل تقدير وإكبار كشق الترع وفتح المدارس وإنشاء المصانع ومد السكك الحديدية وتمهيد الطرق وإقامة بعض المؤسسات العامة كدور المتاحف والكتب ووزارات الحكومة والقصور الملكية . ولكن الجزء الأكبر من هذه الديون كان ييذر في مظاهر البذخ والإسراف الشنيع الذي كان أبرز صفات إسماعيل باشا . فقد بلغ مقدار ما أنفقته على حفلة قنال السويس وملحقاتها ما يناهز الستة عشر مليوناً من الجنيهات حتى لقد ذهل ملوك أوروبا وأمراؤها الذين وفدوا إلى مصر لحضور هذا الاحتفال ، ذهلوا من هذا الذي رأوه والذي فاق آخر ما يمكن أن ينجح إليه الخيال في تصور مظاهر البذخ والإسراف وحسبك أن تعلم أن إسماعيل قد أصدر أمره إلى تجار مصر أن لا يتقاضوا ثمن ما يشتره ضيوف مصر من بضائع وأن يتقدموا بكشوف هذه المبيعات لإسماعيل باشا لكي يسدده عن ضيوفه فغتم التجار الأجانب ذلك غنماً كبيراً جداً حيث كانوا يقدمون للملوك والملكات والأمراء كل ما يطلبونه ويحسنون لهم ما لديهم من البضائع ثم يتقاضون ثمنه أضعافاً مضاعفة من خزانة إسماعيل لقد أراد إسماعيل أن يدهش ملوك أوروبا وملكاتهم وأمراءها بعظمة إسماعيل ومصر ، وقد دهشوا حقاً من أن يكون على رأس أمة من الأمم حاكم يصل به الأمر إلى أن يستدين من الأجانب ويكبل شعبه بالديون القاتلة لكي يفرش الأرض ذهباً وحريراً لضيوفه من الأجانب

## سقطه إسماعيل الكبرى

على أن كل ما فعله إسماعيل من الاستدانة بأفحش الفوائد الربوية وتبذير المال ذات اليمين وذات الشمال ، لا يكاد يقارن إلى جوار هذا التصرف الأحمق الذى أقدم عليه عند ما باع حصة الحكومة المصرية من أسهم قناة السويس وقدرها ١٧٧,٦٤٢ سهماً إلى الحكومة الإنجليزية بمبلغ لا يتجاوز أربعة ملايين من الجنيهات صرفها في بعض مظاهر بذخه وسداداً لفوائد بعض ديونه . وقد كانت هذه الأسهم هي بعض ما كان يمكن لمصر أن تتعزى به عن تضحياتها ، والنكبات التى جرها عليها إنشاء هذه القناة ، ولكن إسماعيل لم يرحم مصر ولم يرحم الأجيال المقبلة وأسلمهم إلى القهر والموت كمدماً ففرط في هذه الأسهم بهذا الثمن البخس الذى لا يساوى مقدار ما تربحه الآن هذه الأسهم في بعض الأعوام . وهكذا خسرت مصر «الجلد والسقط» كما يقول العوام . وأصبحت أجنبية عن القنال - وهذه سقطه إسماعيل الكبرى التى لا يستطيع أحد كائناً من يكون أن يدافع عنها بأى لون من ألوان الدفاع .

على أن نكبة بيع هذه الأسهم الكبرى لم تكن من حيث الخسارة المادية بقدر ما كانت من حيث الخطر الذى تعرضت له مصر من جراء هذه الصفقة وشخصية المشتري لها . ولكي ندرك مدى هذه الخطورة حسبنا أن نعلم أن رئيس حكومة إنجلترا قد أقدم عليها مخالفاً قوانين بلاده المالية ومعرضاً نفسه لأكبر جريمة يمكن أن يرتكبها وزير وهى التصرف في أموال الدولة بدون علم البرلمان وبدون أخذ قرار سابق منه فقد جرت المفاوضات لعقد هذه الصفقة سرّاً وكان الوسيط فيها آل روتشيلد الذين ساوموا إسماعيل على شرائها لحساب الحكومة الإنجليزية حتى إذا تمت الصفقة دفع روتشيلد المال لإسماعيل وتقدم دزرائيل مزهوا إلى البرلمان الإنجليزي وفي يده أسهم قناة السويس وأعلنهم أنه فعل ذلك بدون علمهم ليضمن نجاح الصفقة وأنه قد فعل ما فعل لأجل تحقيق مصلحة الامبراطورية ومجدها وأنه يضع نفسه تحت تصرف البرلمان ليحكم عليه . ولقد حكم له البرلمان بالبطولة فقد حقق مجد الامبراطورية البريطانية وعبد لها الطريق لاحتلال مصر بشراء هذه الأسهم لأن إنجلترا التى لم تكن تستطيع أن تدعى أية مصلحة في مصر تبرر تدخلها في شئونها قد أصبح لها بهذه الأسهم عدة مسامير من طراز مسامير جحا تتخذها ذريعة للتدخل في كل ما كبر أو صغر من شئون مصر إلى أن تأتى الساعة التى تغتلبها فيه جملة ، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك بأعوام قليلة .

تراكمت الديون على إسماعيل حتى ناهزت بفوائدها ما يربو على المائة مليون جنيه ومائة مليون جنيه ، في ذلك الزمن القديم كانت تعتبر مبلغاً ضخماً جداً ، وأصبح عاجزاً كل العجز عن سداد فوائد هذه الديون فضلاً عن تسديد شئ من أصولها . وبدأت إنجلترا تنفذ خططها المرسومة في الضغط على مصر وإزعاج حكومة إسماعيل وأوروبا كلها وإشاعة الاضطراب والفوضى في مصر تمهيداً لابتلاعها وبدأت إنجلترا مناوئتها بدفع فرنسا وتشجيعها للضغط على إسماعيل والإلحاح في طلب الفوائد المستحقة في مواعيدها . وعبثاً حاول إسماعيل أن يهيب بضمير الشعوب في إنجلترا وفرنسا وبقية دول العالم ليظهر لها فُحش هذه الديون وأرباحها والأساليب الدنسة التي اتبعت لتكبير مصر بها .

وكان أكثر ما يضاعف في خطر هذه الديون أن كثيراً منها كان لمدد قصيرة وحل أوان دفعه ، كما أن الديون كانت لجهات متعددة وكانت كل جهة تطالب باستقضاء حقها في نفس الوقت الذي تطالب فيه الجهة الأخرى باستقضاء حقها كذلك .

وحاول إسماعيل أن يصلح هذه الحالة بأن يوحد ديونه في دين واحد طويل الأجل بفائدة معتدلة معقولة وعمل إسماعيل لتعريف الدول الأوروبية سوء حالة مصر وإزهاق الفلاح المصرى وأن من العبث الضغط عليه بأكثر مما هو حاصل ... وأن مثل هذا الأسلوب الذى يتبعه الدائنون سيؤدى بمصر إلى إشهار إفلاسها وتوقفها عن دفع ديونها توفقاً رسمياً .. ولكن كل ذلك لم يكن له أدنى تأثير في قلب الدائنين من أبناء الانجليز والفرنسيين الذين تحجرت قلوبهم وكان الانجليز يريدون من سوء حالة إسماعيل فرصتهم الذهبية لتنفيذ خططهم الموضوعة لاحتلال مصر فكانوا يرددون ويبرقون ويزجرون لدى كل اقتراح يقترحه إسماعيل لعلاج الموقف فكان إسماعيل يزداد ارتباكاً ويتجه صوب الشعب فيفرض عليه ضرائب جديدة ويبحث خلف موارد جديدة حتى لقد بلغ به الأمر إلى حد أن منح إحدى الشركات الأجنبية امتياز جمع عظام الموتى لاستخدامه في عمل السماد في نظير مقابل بخس دراهم معدودات ، وأحسب أن ليس وراء ذلك تدهور يمكن أن تصل إليه حكومة من الحكومات ولكن ذلك كله لم ينفع إسماعيل بشئ « فالصيف ضيعت اللبن » ولم يبق في البقرة الحلوب إلا الجلد الرقيق على العظم الواهى .. لقد نضب معين الشعب في ظل الاضطهاد الذى هو النتيجة الطبيعية لحكومة الفرد .

### بدء التدخل الانجليزى

وبدأ التدخل الانجليزى في شئون مصر على صورة إرسال بعثات مالية لدراسة أحوال

البلاذ وكانت كالعاده تستر خلف فرنسا فى تقديم هذه المقترحات ولقد رجب بها إسماعيل باشا الساذج ظناً منه أن هذه البعثات المالىة سرعان ما ستتبن عجز مصر عن تسديد ديونها بالشروط القائمة وسرعان ما ستتبن إخلاص حكومة إسماعيل فى عمل المستحيل للقيام بالتزاماتها فرحب بهذه البعثات وفتح بذلك على نفسه وعلى البلاذ شراً مستطيراً . ولم يكد يقبل إيفاد هذه البعثات حتى وفدت هذه البعثات لمصر تترى عاماً بعد آخر فكانت بعثة جوشن وجوبير الانجليزية الفرنسية ثم بعثة كيف . وكانت هذه البعثات تتمتع بسلطة مطلقة للتحقيق والتنقيب فى شئون البلاذ وكانت تلحق بها فرق الجواسيس بل إن هذه البعثات كانت فى طبيعتها بعثات تجسس رسمى .

وبدأت هذه البعثات تعد تقاريرها وتصدرها وتنشرها وكلها تفيض بالفحمة والانتداء على سيادة مصر واستقلالها . وكانت التقارير تبدأ وتنتهى بالقبح فى إسماعيل والتشجيع عليه وكانت هذه التقارير تنتهى دائماً باقتراحات تهدف إلى هدم السيادة المصرية واستقلال مصر . وكان الارتباك والتدهور قد بلغ بإسماعيل إلى حد جعله لا يفكر فى شئ إلا الاحتفاظ بمركزه ومنصبه السامى فكان يلجئ كل ما يطلب منه تنفيذه ليحمل الإنجليز على عدم السعى لى الباب العالى لعزله من منصبه ولذلك فعندما اقترح عليه فى نهاية الأمر أن يرضى بتشكيل مجلس وزراء مصرى يكون فيه وزير فرنسى وآخر انجليزى سارع إسماعيل بقبول الاقتراح وهكذا هدم نهائياً آخر ظل للسيادة والاستقلال المصرى الذى عمل لتحقيقها وبذل فى سبيلها ما بذل .

وتألف أول مجلس وزراء مصرى مسئول عن إدارة الدولة برئاسة نوبار باشا وقد كان ذلك الحدث - تأسيس مجلس وزراء - جديراً بأن يقابل بالترحاب والاحتياج من المصريين لولا أنه تم تحت ضغط الأجنبي واقتراحه ولولا أن هذه الوزارة كانت إنجليزية فرنسية ولم تكن مصرية .

### عزل إسماعيل

ومن المحال أن أستعرض فى هذه العجالة السريعة عن تاريخ مصر كل الأدوار التى مرت فيها هذه المأساة .. والمهم أن الساعة التى رأت إنجلترا أن تتخلص فيها نهائياً من إسماعيل باشا قد جاءت فى نهاية الأمر . وجاءت عندما أدرك الإنجليز أن إسماعيل باشا قد وصل إلى درجة اليأس التى جعلته لا يخشى بأسهم ولا يخاف من تهديدهم وأنه بدأ يتجه صوب الشعب المصرى يتلمس منه العون والممدد وأن الشعب قد أسرع لنجدته لأن الشعب



كان قد أدرك منذ أمد بعيد بغريزته الحرة الكريمة مدى العدوان الذى حل بسيادة مصر واستقلالها من جراء هذا التدخل الأجنبي .. كان الشعب بالرغم من كل ما يعانیه من سوء الحكومة المصرية لا يزال يغار على كرامته واستقلاله ولذلك فلم يكذب إسماعيل يحوم حول الشعب حتى هرع الشعب حوله فكانت ثورة الضباط الذين ذهبوا إلى مجلس الوزراء واعتدوا على رئيس الحكومة واعتدوا على الوزراء الأجانب ولم يخلصهم من أيديهم إلا حضور إسماعيل بشخصه وإنقاذ الوزراء من الموت ثم بادر فأعلن إلغاء هذه الوزارة واعتزاهم الالتجاء إلى الحكم النيابى ودعوة الشعب إلى انتخاب نوابه وتعيين وزرائه .. كانت هذه يقظة من إسماعيل وكانت حركة موفقة لولا أنها جاءت بعد فوات الأوان فلو فكر إسماعيل منذ وقت مبكر فى الاستعانة بالشعب وإيجاد النظم الديمقراطية فى البلاد إذن لاستطاع أن ينقذ نفسه وبلاده من الاحتلال البغيض الذى جاء فيما بعد .

ولكن صحوة إسماعيل جاءت بعد فوات الأوان وجعلت الإنجليز يقررون أن يضربوا ضربتهم وإلا ضاعت منهم الفرصة إلى الأبد فأسرعوا صوب الباب العالى فى تركيا الذى كان ألعبوبة فى أيديهم وحصلوا منه على فرمان بعزل إسماعيل عن عرش مصر وتولية ابنه توفيق بدلاً منه .. وهكذا سقط العاهل الذى يقف الإنسان أمام تاريخه حائراً مرتبكاً .. هل يلتمس له المآذير أم يشتد عليه . هل يقرر أنه أفاد مصر بمقدار ما أضرها ؟ !

## الثورة العربية

### سقوط إسماعيل - نهضة مصر في عهد توفيق ظهور عرابي - الاحتلال البريطاني

سقط إسماعيل . وإذا كانت هناك عبرة يجب أن نتخذها من سقوطه وأن يستفيد منها كل حاكم فهي أن الفرد مهما بلغ من المقدرة ومهما توفرت لديه الرغبة في النهوض بمجتمع من المجتمعات .. بل ومهما قطع من شوط كبير في سبيل تحقيق هذه الغاية فإنه لا يلبث في ساعة أن يُفسد كل الذي بناه في دهر من الزمان . متى كان لا يستند إلى إرادة الشعب في حكمه وفي إصلاحه . ذلك أن الحاكم المطلق معرض للخطأ ككل إنسان فإذا أخطأ كان خطؤه فاحشاً يؤدي إلى أفطع النكبات فيسقط بين شماتة الناس وكرهيتهم . لا يمدون يداً لإنقاذه حتى ولو كان في هلاكه هلاكهم .

أما حكم الجماعة أو بالأحرى حكومة الشعب فهما كان فيها من عيوب تحول بين المجتمع وبين الإصلاح أو التطور السريع فإن فيه من الضمانات مالا يعرض الشعب لأخطاء مميتة قاتلة .

#### نهضة مصر وكيد إنجلترا

سقط إسماعيل ولكن مصر استيقظت ولو تركت وشأنها لاستطاع الشعب وقد نيقظ أن يصحح من أخطاء إسماعيل فينظم صفوفه ويقوم معوج الحكومة وينهض بالبلاد نهضة جبارة . ولكن إنجلترا كانت بالمرصاد لتحول بين الشعب وبين النهوض وإصلاح الحكومة لأن في ذلك إحباطاً لمؤامراتها التي كانت تهدف إلى احتلال مصر ومع ذلك فقد استطاع الشعب المصري في الفترة التي تخللت سقوط إسماعيل والاحتلال البريطاني أن يثبت نضوجه السياسي وأن يظهر اقتداره على معالجة أموره بل وأن يضع أقدامه على سلم النجاح . ولذلك فباستطاعتنا واستطاعة الأجيال المقبلة كلها أن تنكر على الإنجليز ذلك الادعاء الوقح : أنهم أخرجوا البلاد باحتلالهم من الفوضى وأنقذوها من الإفلاس ومن طغيان الباشوات الذي ما زال موجوداً .

لقد كان توفيق باشا بن إسماعيل هو الحاكم الجديد لمصر فلم يكده يترع على العرش حتى أدرك أنه لن يستطيع أن يمضى خطوة واحدة في حكمه إلا بإعلان الدستور وتشكيل مجلس نواب من الشعب لتحكم الأمة نفسها بنفسها . ولكن الكرسي لم يكده يستقر بتوفيق حتى بدأ يقلب للشعب ظهر المجن تحت تأثير تحريض الإنجليز الذين كانوا أعداء لكل إصلاح في مصر وكل استقرار .

تنكر توفيق للشعب بل وتحدها ولا كانت مصر لا تزال حتى ذلك الوقت مستقلة فقد أدى ذلك إلى ثورة الشعب ممثلة في رجال الجيش وهم في كل أمة من الأمم المستقلة خير مترجم لعواطف الشعب فكانت هذه الحركة المشهورة عندما اعتقل زعماء الجيش المندون بالإصلاح وعلى رأسهم عرابي في ثكنات قصر النيل فأسمرت فرق الجيش لإنقاذهم ثم زحفت إلى قصر عابدين بأسلحتها وعتادها وطلباتها التي تلخصت كلها في المطلب الأكبر للأمة وهو إعلان الدستور فلم يسع توفيق إلا أن يتزل على إرادة الشعب فيؤلف وزارة ترضى عنها الأمة وتعهد إليها بإعلان الدستور . وتألفت الوزارة الشعبية . وكان عرابي زعيم الجيش هو وزير حريتها فأسمرت هذه الحكومة إلى عمل كل ما من شأنه إنقاذ البلاد من الإفلاس والفوضى والخطر الأجنبي بل ووضعت للبلاد دستوراً للإصلاح لو أن الفرصة أتتحت لتنفيذه لكانت مصر اليوم تنافس دول أوروبا وأمريكا عزماً واقتداراً وحسبك أن تعلم أن هذه الوزارة تقدمت لمجلس نواب ذلك الزمان بمشروع قانونين أحدهما يفرض التعليم الإجباري على سائر المصريين والثاني يرمي إلى إنشاء بنك مركزي للدولة ليتولى شئون النقد في البلاد وينظم ماليتها وقروضها واليوم - وبعد أكثر من سبعين سنة من تقديم هذين القانونين - لا يزال تسعة أعشار المصريين يعيشون في الجهل فلو نفذ القانون الأول من سبعين سنة لكنا في مقدمة أمم العالم علماً ونوراً .

أما البنك المركزي فلا يزال حتى اليوم جُلماً يداعب خيال رجال الاقتصاد والمال ولا يزال الاحتلال الأجنبي يقف حجر عثرة بيننا وبين إنشاء هذا البنك هذا البنك المركزي الذي يصفونه حقاً وصدقاً بأنه بنك البنوك .

### انجلترا تضرب ضربتها

بدأت الأمور في ظل الحكم الجديد تأخذ طريقها إلى الاستقرار والاستتباب وبدأت الحكومة المصرية القوية المستندة على إرادة الشعب تواجه الدول والدائنين وترد عليهم في

حزم رافضة أن تكون نية في أيدي الطامعين وتجلت الروح المعنوية في أروع مظاهرها حيث انبثقت من خلال الفوضى والارتباك تكافح الأزمات وتغلب على المصاعب وتنطلق نحو الأمام .

ولكن انجلترا .. انجلترا اللعينة كانت تقف بالمرصاد . ورأت مناورتها توشك أن تحبط إن لم تبادر بالعمل فبادرت وشرعت تنفذ خطتها فراحت تجهز حملتها على مصر سرًا وأصدرت أوامرها إلى أسطولها أن يكون مستعدًا في كل لحظة لنقل الحنود وإشغال نيران الحرب .

وبدأ يمثلها في مصر يخرض توفيق على التنكر للشعب وعلى تصوير هذا الذي تم على أنه عصيان وتمرد على سلطة الخديوي يجب أن يقمع بالشدة وأن يلقي العصاة جزاء نكالا وتعهده الإنجليز لتوفيق باشا أن يؤيدوه في كل حركة يقدم عليها لإسقاط وزارة الشعب والقبض على عرابي ومحاكمته ومن ناحية أخرى راحوا يفسغون على حكومة الشعب بالاحتجاجات معلنين عدم الاعتراف بهذه الحكومة الجديدة ومهددين ومتوعدين بالتدخل بالقوة للمحافظة على حقوقهم .. ولكن الحكومة المصرية وقفت في وجه كل هذه التهديدات والاحتجاجات وقفة جبارة جديدة بشعب مجيد حر مستقل وأعلنت الحكومة أنها لا تسمح بأي تدخل في شئون مصر وأنها ستدافع بالقوة عن استقلال مصر وحريتها .

فلجأ الإنجليز ثانية إلى توفيق يُحسنون له الأمر ويزينون له التنكر للشعب وحكومة الشعب والانحياز إلى جانب الإنجليز حتى إذا اطمأنوا إلى استعداد توفيق وأنه أصبح كاملاً أشعل الإنجليز عود الثقاب لإلهاب الفتنة وخلق الذريعة للاحتلال فكانت هذه المؤامرة المفصولة المشهورة حيث امتطى بعض المالطيين حملاً استأجروها من بعض المصريين ثم رفضوا أن يدفعوا أجرها فلما طولبوا بالكراء اعتدوا على المصريين اعتداءً شنيعاً فكانت فتنة قتل فيها بعض هؤلاء المالطيين وبعض الأجانب .

ولم يكن الإنجليز يريدون إلا ذلك لكي يبدأوا عملهم ففتحت بوارج الأسطول الإنجليزي الذي كان في ميناء الإسكندرية مدافعها وصبت النار والحمم على المدينة الآمنة الوادعة مهدموا البيوت على رؤوس أصحابها وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ دون أن تكون بين مصر وانجلترا حرب فاعجب لوقاحة الإنجليز وجراتهم وهم يشنون قادة الألمان

وزعماءهم باعتبارهم مجرمى حرب بدعوى أنهم قتلوا الأطفال والنساء وأشعلوا نيران الحرب .

ضرب الأسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية كمقدمة لاحتلال مصر فاحتجت الحكومة المصرية بشدة على هذا العدوان وراحت تنهياً للدفاع عن مصر بتقوية حصونها وسد ثغراتها وإعداد مدافعها فاعتبر الإنجليز ذلك تحشراً بهم وتهديداً لسلامة أسطولهم . ولن تجد في كل تاريخ الدنيا وقاحة كهذه الوقاحة الانجلوسكسونية عند ما يدخل أسطول زائر إلى مياه بلاد أجنبية ثم يصب نيران مدافعه على الشعب الآمن فإذا قام الشعب المعتدى عليه بتحسين نفسه ضد تكرار العدوان اعتبر العدو أن ذلك تحشراً وتحدياً وإخلالاً بأمن الإنجليز وسلام العالم . وكان من المستطاع أن تقيم حكومة مصر الدنيا وتقعدها ضد الاعتداء الأجنبي . وكان من الممكن أن يجد الإنجليز أنفسهم وقد فضحوا وأن يضبطوا متلبسين بجريمتهم ، وهى سلب شعب من الشعوب ونهب أمة في وضح النهار لولا أن توفيق خديو مصر سارع إلى نجدة الإنجليز وتأييد فعلتهم الشنيعة تأييداً أدبياً بمغادرته القاهرة إلى الإسكندرية وإقامته بسرأى رأس التين . ثم اعلانه خلع حكومته الشرعية وأنها حكومة متمردة عاصية لا تمثل البلاد ثم مسارعتهم نحو الإنجليز طالباً بنجدهم لحاية عرشه وإقرار الأمن والنظام في مصر . ومعنى ذلك أن توفيق باشا آثر أن يبيع مصر كلها للإنجليز لكي يحتفظ بعرشه في الوقت الذى كانت البلاد قد فقدت فيه استقلالها وعزتها وكرامتها . واختار الدخيل الأجنبي بقوة السلاح والنار فأحاطها من حالة الحرية إلى حالة الرق والعبودية وداس مجدها وسار على تاريخها ووطأ بسنابك خيله تراث الآباء والأجداد . ولكن توفيق لم يكن يفكر في شئ من ذلك ، كان يفكر في أن يكون صاحب الأمر والنهى في البلاد وأن لا يسمح للشعب أن تكون له كلمة إلى جوار كلمته وإرادة إلى جوار إرادته . وكان من السذاجة والبلهية بحيث ظن أن هذا الغاصب الأجنبي سيرده إلى سيادته الكاملة وإلى أمره ونهيه . فأصدر منشوراً بعد أن أنزل الإنجليز جنودهم يطلب فيه إلى الناس أن يتعاونوا مع هذه الجيوش الإنجليزية لأنها لا تجي غازية فاتحة وإنما تعمل بأمر الحاكم الشرعى للبلاد لتوطيد الأمن والنظام ومحاربة العصاة الطغاة من أبناء الشعب الذين خرجوا على طورهم بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية !!

وأسرع الخديوى توفيق بتعيين سلطان باشا قائمقاماً لسير مع الجيوش الإنجليزية ويدعو المصريين للطاعة لولى الأمر . وقد كان لذلك أعظم الأثر في إضعاف معنوية البلاد وإخماد كل مقاومة فيها .

وتضافرت الخيانة من الخارج والداخل ... الخيانة التي لطخت شرف دليسيبس الدجال بل شرف فرنسا كلها والتي حال بها بين الحكمة المصرية وبين أن تقيم وسائل الدفاع عن القنال متعهداً عهداً قاطعاً أن لا يسمح للإنجليز بالدخول إلى مصر عبر القنال لأن في ذلك خرقاً للعهد والمعاهدات الدولية . كان الإنجليز قوم نيتهمون عهداً أو ميثاقاً . أو كأن دليسيبس نفسه كان رجلاً يعرف للعهد أو الشرف معنى . ولكن عراقى والشعب المصرى بأكمله . وهو لا يزال يحمل في نفسه آثار الخيانة القديمة . كان لا يزال يقدر الشرف واحترام العهد وقديسية المعاهدات وقد كانت هذه إحدى أخطاء عراقى المميته وهى الثقة بالعهد والوعود .. وجاء الإنجليز عن طريق القنال وزحفوا نحو التل الكبير يتقدمهم سلطان باشا وحفنة من الباشوات المصريين المحبنة الأتذال يدلون الإنجليز على الطريق وينادون فى الشعب بأنهم يعملون بأمر ولى الأمر فى البلاد . وأخذ الجيش المصرى فى التل الكبير على غرة . وإن الإنسان ليتولاه الخجل عند ما يطالع أنباء هذه المعركة فإنما هى عشر دقائق أو تزيد قليلاً تبدد على أثرها الجيش المصرى الذى كان مرابطاً فى هذه المنطقة بغير كبير قتال ... لا لأن المصرى جبان أو لأن الجيش المصرى لم يكن بقادر على القتال ولكنها الخيانة والمفاجأة . ولقد رأينا بأعيننا آثارها فى هذه الحرب الأخيرة حيث سقطت جيوش برمتها بل وسقطت دولة عاتية كفرنسا تحت تأثير المفاجأة وهول الصدمة . وليس أدل على شجاعة الجندى المصرى من أن كتيبة من الكتائب استطاعت فى هذه الموقعة أن تجد لها مكاناً تثبت فيه أقدامها ووقتاً تقبض فيه على أسلحتها فكافحت هذه الفرقة الصغيرة حتى ماتت عن بكرة أبيها . كافحت قوات تفوقها عدداً وعدة أضعافاً مضاعفة ولم يكن كفاحها يعنى سوى الموت والفناء . ولكن الجندى المصرى الذى أتيت له الفرصة لم يفرغ من الموت فمات فى ساحة الجهاد رافعاً شرف الجندى المصرى . ولقد اطلعت على تقارير رسمية إنجليزية عن موقعة التل الكبير فوجدت الإنجليز لا يصفونها بأنها معركة فقد أخذ المصريون على غرة فانفرط عقدهم وكان من الممكن أن تنتهى المعركة دون أن يחדش جلد إنجليزى واحد لولا هذه الكتيبة التى صمدت فقتلت من الانجليز وجرحت أضعاف أضعاف عددها ومع ذلك فلم يقتصد الإنجليز فى التذيع والتقليل وحشية منهم وولعاً بالدماء .. كما تشهد بذلك تقارير المعركة .

### حلول الكارثة

٨٢ ٧

ودخلت الجيوش الإنجليزية فى نهاية الأمر إلى القاهرة كما لو كانت تقوم باستعراض

حرى ولسنا نحسب فى تاريخ الدنيا كلها أن شعبا قد أستعبد بهذا الثمن البخس من الدماء من جانب المعتدى ولا جدال أن وزر ذلك يقع على عاتق توفيق باشا الذى أفهم البلاد والشعب أن الإنجليز ليسوا إلا قوة بوليسية لتوطيد عرشه وأنهم لن يلبثوا أن يبرحوا البلاد إذا استقر الأمر والنظام فأسرعت البلاد إلى الهدوء والاستسلام لتتخلص من هذه الكارثة الأجنبية . ولكن وأسفاه فقد خدع الإنجليز توفيق . وخدع توفيق الشعب . ولم يكن الإنجليز قوة بوليسية ولكنها كانت قوة غازية معتدية آتمة تنفذ خطة دبرتها منذ أكثر من قرن من الزمان لاحتلال البلاد واسترقاق العباد .

\* \* \*

## الحركة الوطنية

الحديوى عباس - مصطفى كامل - دنشواى - محمد فريد

عندما وقف توفيق باشا فى ميدان عابدين يستعرض الجيوش الإنجليزية الغازية لم يكن يدور بخلده لحظة أن ذلك الاستعراض العسكرى سيكون تقليداً لعشرات السنين المقبلة . لقد كان توفيق باشا يظن أنه يستعرض جيوشاً قد أدت وظيفتها بإعادة الأمن والنظام إلى نصابه وأن هذا الاستعراض بمثابة توديع رسمى ، ولكن الحقيقة المرة صدمت توفيق باشا فأدرك بعد فوات الوقت أنه قد وقع وأوقع مصر فى الفخ فلم يلبث أن مات كمدأ وحسرة بعد إذ أسقط فى يده ولم يدرك كيف يتخلص من هؤلاء المخادعين الغاصبين ، وأدرك توفيق قبل أن يودع هذه الدنيا أن عز الحاكم فى عز شعبه وأن الحاكم يوم أن ينزل على إرادة شعبه فإن ذلك لا ينقص من قدره بل يزيده ، وفى عصرنا الحديث آية فخار الحاكم أن يكون دستورياً ديمقراطياً يؤمن بأن جميع السلطات مصدرها الأمة .

مات توفيق باشا تاركاً الإنجليز فى مصر وولى من بعده الحديوى عباس وقد ولى الحكم شاباً ففرحت به البلاد لأن الشاب هو الأمل وهو الطهارة والنضارة ولم يخيب عباس باشا أمل البلاد فيه فقد كان يشتعل حماسة وطنية وبدأ يناوش الإنجليز ويقف لهم بالمرصاد . ولم يكن احتلال الإنجليز لمصر قد استقر ولم يكن الإنجليز يستطيعون أن يعتبروا لعبتهم قد نجحت بهذه السهولة ، فقد كانت هناك تركيا صاحبة الحق الشرعى للبلاد لا تعترف باحتلال الإنجليز لمصر بل أظهرت عدم رضاها واستنكارها مما حمل الإنجليز على أن يؤكدوا للباب العالى مرة بعد المرة أنهم سيسرعون بالجلء عن مصر . وكانت هناك فرنسا . فرنسا الغادرة اللثيمة والتي لولا دسائسها وسياستها العاهرة المخنثة لما كان الاحتلال الإنجليزي . فقد كانت هى التى عملت جاهدة لإرباك اسماعيل والضغط عليه كانت هى البائدة بوجوب التدخل فى شئون مصر رعاية لمصلحة الدائنين . كانت فرنسا تطمع أن تحتل مصر بالاشتراك مع إنجلترا ، بهذا الاحتلال غضبت فرنسا وحنقت لذلك ووقفت لانجلترا موقف المستهجن المتربص ... وكانت الدنيا كلها تنظر لانجلترا نظرة الحقد والحسد لإقدامها على استلاب مصر - هذه الدرة الثمينة - وهكذا وجدت إنجلترا نفسها وسط



موجة من السخط العالمى فراحت تعلن فى كل مناسبة أنها عازمة على الانسحاب من مصر وأن احتلال مصر لم يدر لها فى بال وبلغ التبجح بها إلى حد احتجاجها من فوق منصة البرلمان الانجليزى على هذه الأفكار فلطالما صرحت انجلترا أن احتلال مصر يكون معناه الإخلال بشرف بريطانيا التى وعدت وعوداً صريحة قاطعة أن لا تفكير عندها فى احتلال مصر .

لقد دخلت انجلترا مصر لتوطيد الأمن وإقرار النظام بها وهى لن تبقى يوماً واحداً بمجرد استتباب هذا الأمن . ولكن الأيام مرت تتلوها الأسابيع . والشهور كرت تتبعها الأعوام والانجليز فى مصر بنفس الطريقة التى كان بها الفرس فى مصر والرومان فى مصر غزاة وفاتحين ومغتصبين . وكان على مصر أن تفعل بالانجليز ما فعلته بالفرس والرومان والاغريق وهى أن تفنيهم وتقهرهم وتتغلب عليهم بقوة حيويتها ومقاومتها التى لا تكل ولا تلين .

### ظهور مصطفى كامل

وظهرت مقاومة مصر فى أروع صورة من صور المقاومة فى العصر الحديث فى صورة شاب من شباب مصر الأجداد لا يملك سلاحاً ولا مالاً ولا يعتمد على قوة الحديد والنار بل على قوة الحق واليقين .. ظهرت مقاومة مصر فى صورة مصطفى كامل ذلك الشاب الذى لم يكن يملك إلا إيمانه بمصر وعظمة مصر ووجوب تحريرها من ربة الاستعمار الأجنبى . ذلك الشاب الصغير النحيل الذى تركّز فيه آمال أمة فنهض بالعبء وحمل الأمانة وبدأ ذلك الصراع الروحى بين الحق والباطل الذى لا زلنا نشهده حتى اليوم لأن المعركة لا تزال قائمة بيننا وبين الانجليز حول الأهداف التى نادى بها مصطفى كامل . لقد طلب الجلاء ووحدة النيل وبعد خمسين سنة من دعوته لا يزال الانجليز يسدون علينا السهل والجبل ولا يزالون فى بيوتنا ومدارسنا ومستشفياتنا ولا زالت سياراتهم تدوسنا تحت عجلاتها .

سخر الانجليز من مصطفى كامل عندما بدأ صيحته ، سخروا من شاب صغير لا حول له ولا طول قام يحابه امبراطوريتهم ويتحداها ويتهمها بنكث العهود والاخلال بالشرف . ولكن هذا الشاب كان يدافع عن قضية الحق والحرية فكان قوياً بقدر ما فى الحق من قوة وما للحرية من سلطان . راح مصطفى كامل يوقظ البائسين ويشد عزائم الحائزين ويبدد

ظلمات اليأس التي رانت على قلوب المصريين . لقد كانت هزيمة عرابى باشا هزيمة ساحقة كشفت عن ضعف مصر الشائن من الناحية العسكرية فأصيب الناس بما يشبه الدهول وحل بهم اليأس ولكن مصطفى كامل ذكر الناس أن المسألة ليست مسألة أسلحة وإنما مسألة حق وباطل وما دام الانجليز معتدين ومغتصبين وما دمنا نحن المعتدى علينا فنحن الأقوى ما تمسكنا بحقوقنا ونحن الفائزون بالعاقبة ما دمنا مطالبين بالجلاء عن بلادنا . . وسرعان ما استجاب الشعب لإيمان ذلك الشاب وسرعان ما تجمعت حوله عواطف الجيل الجديد وآماله وفى عشية وضحاها تحول مصطفى كامل إلى رمز الكفاح لشعب وادى النيل .

سافر من مصر إلى فرنسا يستغل هذه التهمة التي يحملها لانجلترا ففتحت له فرنسا صدرها ومنابرها وصحفها فبدأ يندد بالانجليز وسياسة الانجليز وبدأ يطالب بالجلاء عن أرض وادى النيل . وانتقل من باريس إلى بقية عواصم أوروبا ووصل إلى القسطنطينية عاصمة الأتراك ليشجذ عزائم الأتراك بحملهم على الوقوف إلى جوار مصر فى طلب الجلاء وهناك أنعم عليه الخليفة برتبة الباشوية . فكان ذلك حدثاً أى حدث أن يستطيع شاب من صميم الشعب أن يحصل على هذه الرتبة لا بالدرهم والدينار ولا بالملق والرياء ولا بالوظيفة ولكن بالنبوغ فى الوطنية والاقتدار والكفاءة . . وسافر مصطفى كامل إلى عاصمة الانجليز أنفسهم يطالبهم بالجلاء .

وبدأ الانجليز يشعرون بوطأة دعاية مصطفى كامل وشعروا بالخرج فراحوا يكررون الوعود من جديد . . انهم سيجلون عن مصر حتماً ودخلوا فى مفاوضات رسمية مع تركيا لوضع معاهدة لتنظيم الجلاء تعهدوا فيها أن يخلوا عن مصر بعد خمس سنوات من توقيع المعاهدة واشتروا أن يعودوا لاحتلالها إذا اختل الأمن ... وما أشبه الليلة بالبارحة . . ولكن تركيا رفضت توقيع هذه المعاهدة وظل الانجليز يعانون موقفهم البشع موقف المعتصب الغادر الخادع المنافق .

وهكذا اشتد ساعد مصطفى كامل وقويت الحركة الوطنية وأدرك المصريون أن سلطان الحق فوق كل سلطان وأن الصبر والعزم والمثابرة والإيمان لا بد أن تُكَلَّلَ فى نهاية الأمر بالفوز والنجاح .

وكان الخديوى عباس يؤازره فى دعايته ويناوئى الانجليز ما استطاع إلى ذلك سبيلاً متمسكاً بحقوقه الشرعية . واستخدم معه الانجليز العنف فى بادئ الأمر مهديدين إياه بخلع

عن العرش إن لم يستجيب لمشيئتهم ويعمل دائماً بنصيحتهم ولكن ذلك العنت من جانب الانجليز زاد الخديوى تقريباً من الوطنيين وعلى رأسهم مصطفى كامل .

وهكذا وجد الانجليز أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه . ففرنسا تندد بهم من الخارج . والحاكم الشرعى للبلاد يناوئهم في الداخل . والشعب المصرى يستيقظ مطالباً بحقوقه . فعمدت انجلترا إلى خطة هجومية لقهر المصريين وغلبهم على أمرهم . فأسرعت إلى فرنسا واتفقت معها اتفاقاً الودى المشهور الذى أطلقت فيه انجلترا يد فرنسا في مراكش مقابل أن تطلق فرنسا يد انجلترا في مصر وبذلك أمنت جانب فرنسا وأخرجتها من المعركة .

ثم عمدت إلى الخديوى عباس فغيرت من سياستها معه وأظهرت له الود والملاينة فسرعان ما انخدع بدوره بهذه السياسة الجديدة التى أطلقوا عليها سياسة الوفاق فمال إلى جانب الانجليز . وبدأ يتجنب الوطنيين وبذلك فقدوا عضداً كبيراً كانوا يستندون إليه في داخل البلاد وخارجها .

لم يبق هناك سوى الشعب . حاول الإنجليز أن يستميلوه إلى جوارهم ولكن ما كان لهم أن يخدعوا الشعب عن حريته . هيات ، هيات أن ينجح الانجليز في أن يصرفوا الشعب المصرى عن أهدافه ومطالبه ولذلك فقد فشلوا في هذه الناحية وكان فشلهم ذريعاً . وكان انتصار الشعب لمصطفى كامل من أروع ما يسجل التاريخ من آيات المجد والفخر .

### حادث دنشواى

ويتلخص حادث دنشواى في أن بعض الضباط البريطانيين خرجوا للصيد في يونية بقرب قرية دنشواى فعمدوا إلى حمام الأهالى بصطادونه فغضب الفلاحون لذلك . فلم يرعو الانجليز ومضوا في عدوانهم فلم يلبثوا أن أخطأوا الحمام وأصابوا امرأة أحد الفلاحين كانت تتركب النورج فجرحت المرأة واشتعلت النيران في الثبن والنورج فأسرع زوج المرأة إلى الإمساك بتلابيب الضابط المعتدى وأقسم أن يتزع منه بندقيته وأن يقوده إلى ضابط البوليس . وصاح الإنجليزى وصاح المصرى فأسرع بقية الضباط إلى جوار زميلهم وأسرع سكان قرية دنشواى إلى مكان المعركة فكان تلاحم استخدم فيه الضباط الانجليز أقصى ما لديهم من عنف ولكن كثرة الفلاحين تغلبت عليهم فاضطروا للهرب نجاة بأنفسهم

وكانت الشمس ملتهبة في ذلك اليوم فسقط أحد الضباط المهاجرين ضربة الشمس فمات ، وكان ذلك كافياً لكي تقوم قيامة الانجليز وتقعده فقد مات الانجليزى بسبب المصريين ويجب أن تنتهز هذه الفرصة لكي يؤدب المصريون وينالوا ديسا قاسيا يفيد في مستقبل الأيام فلا يعودون يتعرضون أبداً لسادتهم. الانجليز إلا بتقيل اليد والأقدام والتسيح بخمدهم كل صباح ومساء .

قيل للانجليز وعميدهم في مصر إن الانجليز هم الذين بدأوا العدوان وما كان يصح أبداً أن يصطاد الانجليز حمام القوم وكان عليهم أن يأخذوا حذرهم بعد ذلك فلا يعصبيوا أحداً ...

وقيل لهم إنه كان على الانجليز أن يقبلوا الخضوع للقانون ما دام الانجليز هم واضعى هذا القانون والمسيطرين عليه ...

وقيل لهم في نهاية الأمر إن الرجل الذى مات هو المسئول عن ممته لأنه فر هارباً حيث لم يكن هناك ما يدعوه لذلك وأنه قد مات من ضربة الشمس كما أثبت الطبيب الشرعى .

كل ذلك قيل للانجليز ... ولكن القوم أصموا آذانهم عن سماع ذلك كله ورأوا أن يلجأوا إلى سياستهم الإرهابية التى اتبعوها فى الهند لكي يقضوا على كل أمل للمصريين فى الحرية أو الاستقلال .

كان الانجليز يريدون حدثاً يتخذونه ذريعة لتوطيد دعائم احتلالهم وإظهار المصريين بمظهر الوحوش المتعصبين الذين لا يستطيعون حكم أنفسهم فظنوا أن حادث دنشواى هو السبب المناسب لكي يضربوا ضرتهم ويلعبوا لعبتهم فراحوا يملأون الدنيا صراخاً وتهويلاً متحدثين عن تعصب المصريين الدينى ووحشيتهم وأسرعوا بتأليف محكمة مخصوصة لمحاكمة أهالى دنشواى . وعقدت المحكمة المخصوصة وراحت تبحث وتحقق فى مكان الحادث نفسه فثبت أمامها أن المصريين كان مجنيا عليهم وأن الانجليز - الذين ذهبوا لاصطياد الحمام - قد عمدوا إلى صيد البشر ..

ولكن المحكمة المخصوصة لم تكن قد تألفت لتحقيق العدالة أو إظهار البرىء والمسىء .. وإنما تألفت لإرهاب المصريين والتنكيل بهم لخدمة الاستعمار ولتعلم المصريين لونا من العدالة البريطانية .. عدالة قاسية رهيبة مخيفة . وقد كان . وأصدرت المحكمة المخصوصة

حكمها وهو يقضى بشنق أربعة وسجن اثنين سجنًا مؤبدًا وسجن واحد مع الأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة وستة مع الأشغال الشاقة لمدة ٧ سنوات وعلى ثمانية بالجلد ٥٠ جلدة . وإذ كان هذا الحكم يبدو مخيفاً في قسوته ، فإن طريقة تنفيذه كانت أبلغ في الدلالة على حقارة الإنجليز وإسفافهم في عالم الدناءة . ومدى غلوئهم في العداوة وتسعر الحقد على المصريين في قلوبهم .

أقيمت المشائق في قرية دنشواي وجمع المحكوم عليهم وآلهم وذووهم ونسأؤهم وأطفالهم في صعيد واحد . ثم شرعوا في شنق المحكوم عليهم بالإعدام واحداً بعد آخر فإذا فرغوا من شنقه حملوا جثته ووضعوه أمام بقية المحكوم عليهم لتسرى رعدة الخوف في أوصالهم . ثم جلدوا بعض المحكوم عليهم بالجلد . وعادوا لشنق بعض المحكوم عليهم به . كل ذلك يجري أمام أبناء المحكوم عليهم وآبائهم ونسائهم .

وهكذا بطش الإنجليز بطشتهم الكبرى واطمأنوا إلى أن قلوب المصريين ستخلع من الرعب وأن الاحتلال البريطاني قد ثبت دعائمه في مصر إلى الأبد بغير منازع ونسي الإنجليز أنهم بين ظهرائي شعب يفوقهم مجداً ومحتداً وأن البطش والظلم والإذلال من شأنه أن يهيج حفيظته ويجعله يضحي بكل شيء في سبيل الذود عن كرامته وحرية . ظن الإنجليز أنهم فازوا بما أرادوه من دنشواي فإذا بهم يهدمون في لحظة ما بنوه في عشرين سنة من التودد للمصريين والتقرب إليهم والتظاهر بصداقتهم .

### إشراق نجم مصطفى كامل

وكان مصطفى كامل حامل اللواء . ولسان الشعب الناطق وقلبه الخفاق ولم يكن يعوزه إلا مثل هذا الحادث لكي يعلن للدنيا وحشية الإنجليز . وقد فعل مصطفى كامل .. وأبلى بلاء لا نحسب أن له سابقة في تاريخ الأمم والشعوب .. فقد استطاع هذا الشاب الفرد أن يؤلب أوروبا كلها ضد إنجلترا . وأن يحمل الإنسانية على استنكار فعلتها . وأحس الإنجليز للمرة الأولى بالخجل . واعتذروا للعالم ولمصر عن فعلتهم بأن أقالوا زعيم هذه المؤامرة والمتولى كبرها اللورد كرومر دون أن يشفع له أنه أحد بناءة الإمبراطورية ، ودعائم الاستعمار .

فكان ذلك أول صدام بين إنجلترا ومصر .. إنجلترا صاحبة الحول والطول ، والإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، والأساطيل التي تمخر البحار السبعة . وبين

مصر المهينة الجناح . العزاء من كل سلاح اللهم إلا هذا الشاب الناشئ النحيل .. مصطفى كامل . الذى كان وقتئذ كل سلاحها وعدتها .. كان أول مصراع أبادت فيه إنجلترا أن تصور مصر للعالم وحشية .. بدائية .. فإذا بالعالم يقر لمصر .. بالمدينة .. والعدالة ويسجل على الإنجليز الوحشية والبربرية .

كان ذلك أول خلاف بين كرومر العاقى .. وبين مصطفى كامل الشاب باقصر صرح الوطنية .. فخر كرومر صريعاً .. وخرج من مصر مذعوراً مدحوراً يعبر أديال الخنى والعار .

وواصل مصطفى كامل كفاحه داعياً إلى الجلاء ووحدة وادى النيل . رافضاً الحكم فى ظل الإنجليز وتحت يد الاحتلال . مقاوماً كل سعى من ناحية الإنجليز للحصول من المصريين على صك بمشروعية الاحتلال . وسن لذلك القاعدة المشهورة « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » وذلك أنه لا تفاهم بين السيد والمسود . الذئب والحمل . فكيف يكون هناك تفاوض بين الإنجليز والمصريين إلا على أساس التهام الحقوق المصرية وإهداء حقائق الحرية والاستقلال .

وآلف مصطفى كامل الحزب الوطنى فى أخريات أيامه ليحمل لواء هذه المبادئ .. ولم يلبث أن ذهب إلى ربه فى ريعان شبابه بعد أن أدى الرسالة . وبلغ الأمانة وأشعل نيران الوطنية .

محمد فريد

وخلف مصطفى الشاب فريداً الرجل . وباله من رجل .. ومن قديس من قديسى الوطنية ..

كانت الظروف قد تغيرت على أيام فريد . فقد حالف الخديوى الإنجليز المحتلين فاشتد ساعدهم فى الداخل واتفقوا مع فرنسا على إطلاق يدها فى مراكش على أن تطلق يدها فى مصر فاشتد ساعدهم فى الخارج فلبسوا جلد النمر للحركة الوطنية ونكلوا برجالها فوقف محمد فريد فى وجه الاحتلال لا يكل أو يمل أو يخنى الرأس .. فعذب واضطهد وأريد إخماد صوته داخل السجون . فاقترح عليه أن يفر إلى أوروبا ليحمل لواء المقاومة ضد الإنجليز . ويدعو للقضية المصرية .. ففعل .

وهنا تبدأ صفحة مشرفة من صفحات الجهاد الوطنى الرائع ... لا تشرف محمد فريد فحسب وإنما تشرف مصر كلها التى أنجبت هذا الرجل . محمد فريد كان يعد من ثروة المصريين وكانت ثروته تناهز نصف مليون من الجنيهات يعيش عيشة ضنكة فى أوروبا . ويعانى مرارة الفقر .. رافضاً العروض المغرية التى يقدمها له الإنجليز وصنائعهم التى أرادوا أن يساوموه بها على شرفه وكفاحه أو يحملوه على التساهل فى المبدأ المقدس . فآثر الفقر على الغنى .. والتشرد على الاستقرار وفضل أن يكون مجاهداً يتحدى الاستعمار ...

ومات فريد فقيراً .. شريداً .. كما يموت الأبطال والشهداء والقديسون . ولكنه لم يمت إلا بعد أن بدأت البذور التى غرسها فى النضوج والإثمار وثارت البلاد ثورتها الخالدة سنة ١٩١٩ . فسمع بأذنه وطالع بعينه أنباء قيام الثورة التى كان يحلم بها .. فمات قريب العين والفؤاد أن جهاده لم يكن عبثاً ونصحه لم يضع هباء ... وجئ بجثمانه إلى مصر فكانت جنازته يوماً من أيام الثورة الخالدة ولا زلت أذكرها حتى اليوم كأروع صفحة من صفحات الوطنية .

## ثورة سنة ١٩١٩

### ١٣ نوفمبر وتكوين الوفد - سياسة المفاوضات الدستور - معاهدة ١٩٣٦

لم تكند الحرب العالمية الأولى تعلن في سنة ١٩١٤ حتى نادرت اجلة ا بإعلان الحماية على مصر . وطلع الحديوى عباس حلمى ونادت بالسلطان حسين سلطاناً على مصر في ظل الحماية الإنجليزية . وفرضت في الوقت نفسه الأحكام العرفية . وسخرت مصر وشعبها ومرافقها لخدمة الحرب . واعدة المصريين بالاستقلال في ختام الحرب جزاء معونتهم الصادقة وصبرهم . وعلى هذا الأساس سايبرهم حسين رشدى باشا رئيس الوزارة المصرية وأجابههم إلى كل ماطلبوه طوال سنوات الحرب الأربع .

وكان الحلفاء في هذه المدة يقيمون دعايتهم على أساس نشه الحرية والمساواة بين الشعوب . الأمر الذى كان له أكبر الأثر في ترجيح جانب الحلفاء وإنالتهم النصر . بل إن الشعب الألمانى نفسه لم يكند يسمع هذه الدعاية .. حتى أعلن التمرد والرغبة في الاستسلام .. وانتهت الحرب .

وقامت شعوب الدنيا تطالب بتحقيق الوعود . وحققها الطبيعي في الحرية والاستقلال والتعامل على أساس المساواة . وكانت مصر في مقدمة هذه الشعوب . بل لعلها أول شعب بادر على الفور بطلب حريته واستقلاله طبقاً لمواثيق الحلفاء . فلم تكند الحرب تضع أوزارها وتعلن الهدنة رسمياً في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى كان المصريون قد نظموا صفوفهم . ووجدوا كلمتهم وطرقوا باب السير ونجت - المعتمد البريطانى - ليطلبوه برفع الحماية عن مصر وإعلان استقلالها واشتراكها في مؤتمر الصلح . فكانت مقابلة ١٣ نوفمبر المشهورة التى مثل فيها المصريين ثلاثة من كبارهم هم سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى وكان لحسين رشدى رئيس الحكومة أثر محمود في تشجيعهم بل وتخريفهم على القيام بهذا المسعى .



وقد تكلف السير ونجت العجب . وأنكر على المصريين حقهم في الحرية والاستقلال وهم الذين يجب عليهم أن يشكروا الله صباح مساء إذ جعلهم عبيد الانجليز ولم يجعلهم عبيد الأتراك ! ولكن الثلاثة الكبار أفهموه أن مصر ستبقى إلى الأبد لايدين جانبها ولايستغل أبناؤها ...

وسرعان ماتألف الوفد المصرى للسعى لتحقيق استقلال مصر ماوجد للسعى سيلاً وانتهالت التوكيلات على سعد وصحبه من أنحاء البلاد . وانتهالت إثر التوكيلات التبرعات فجمعت مئآت الألوف من الجنيئات لتكون في خدمة القضية الوطنية . بل لقد وصل المبلغ المجموع في نهاية الأمر إلى مليون جنيه .

وقد كان ذلك مظهرًا رائعاً ورهيباً . رزع الانجليز فعمدوا كما هي عادتهم إلى القوة والبطش . وأصدروا أوامرهم باعتقال سعد زغلول وصحبه ، ولم يكن الشعب في حاجة إلا لهذه الحركة لكي يتفجر بركان غضبه وسخطه في وجه الانجليز الغاصبين . فكانت ثورة سنة ١٩١٩ حيث اشتعلت البلاد بنيران الكراهية والمقاطعة للانجليز من الاسكندرية حتى أسوان . وسارت المظاهرات في عشية وضحاها تهتف بالاستقلال فقابلها الانجليز بالرصاص فخر الشهداء صرعى الحرية . واتقدت البلاد ناراً وحوصر الانجليز في داخلية البلاد وقطعت السكك الحديدية وكل أسباب المواصلات . وقامت الحكومات الثورية في كل مكان وانخلع قلب الانجليز لهذه الحركة وسلطوا عليها الحديد والنار فلم يلب للبلاد قناة أو ترضى بدون الإفراج عن زعمائها المعتقلين والحصول على الاستقلال التام لمصر والسودان .

وبعد إراقة بحار من الدمار وإشعال نيران الحريق في القرى وبمساعدة الطائرات - وكانت أول العهد بها - استطاعت انجلترا أن تتمد الثورة مؤقتاً . ولكنها أدركت تماماً أن سبيل العنف لن يؤدي بها إلى نتيجة مع هذا الشعب الكريم فلجأت إلى أسلوبها العنيد . أسلوب الدس والمؤامرة والمطاوله وكسب الوقت فبعثت إلى مصر بلجنة ملنر لتحقيق في أسباب الاضطرابات وتعمل على إرضاء عواطف المصريين ولكن الشعب الذى كان صدره يضطرم بالعداوة . أعلن مقاطعتها مقاطعة إجماعية لم يكن لها مثل من قبل أو بعد ، وقاموا قومة رجل واحد . وقالوا « اذهبوا إلى سعد وصحبه ففاوضوهم فهم وكلاء الأمة .. وزعمائوها .. » .

## سياسة المفاوضات

وكان ذلك أول انزلاق للوطنية المصرية . والخطوة الأولى في سياسة المفاوضات ومايتبعها من مطاولات ومطل وتسويق وتخدير . فباليت المصريين وقتئذ مافتحوا على أنفسهم هذا الباب وليتهم رفضوا رفضاً باتاً وقالوا قولة مصطفى كامل من قبل - وفريد بعده «لامفاوضة معكم أيها الغاصبون .. إلا بعد أن تجلوا عن بلادنا .. لامفاوضة معكم أيها المعتدون إلا بعد أن تردوا إلينا السودان . وتردوا إلى السودان مصر .. أما قبل الجلاء ووحدة وادى النيل فلا مفاوضة ولا محادثة ولا مهادنة ..»

ولكن رجال السياسة الذين كانوا يتلهفون على المفاوضة تلهفاً لأنها طريقهم إلى الحكم والمنافع الشخصية قبلوا أن يدخلوا مع الإنجليز في مفاوضة زاعمين أنهم سيحققون الاستقلال بأقرب الطرق ! . ولم يدع الإنجليز هذه الفرصة الذهبية تفلت من أيديهم ، وتلك النقطة من نقط التحول من خطة الكفاح إلى خطة المعاملة - وهم الذين طلموا تمنوها وسعوا إليها فلم يجدوا مصرياً ينقاد إليهم ويقبل أن يبدأ عملاً ينتهى بالتوقيع على وثيقة تحيل الاحتلال أمراً مشروعاً ، لا عدواناً واغتصاباً .

أسرع الإنجليز إلى سعد وصحبه ففكوا عقالم واستدعوهم للسفر إلى لندن للتفاوض معهم . ولكنهم ولوا وجوههم شطر الرئيس ولسن وهو حامى حمى الحريات . والمناذى لحرية الشعوب واستقلالها ، فحمل الإنجليز الرئيس ولسن على الاعتراف بحمايتهم على مصر . فأسقط في يد الوفد ولم يبق أمامه إلا أن يهرع إلى إنجلترا للتفاوض . وهناك وضعت أسس السياسة الإنجليزية الجديدة التى تقضى بأن يعقد مع المصريين معاهدة تعترف بمشروعية الاحتلال البريطانى في مصر وتؤكد مركز إنجلترا الخاص والمكانة الممتازة لسفيرها وتشد مصر إلى مركبة الامبراطورية الإنجليزية وسياستها الخارجية . وتخلع إنجلترا - فى مقابل ذلك - على مصر مانشاء من نعوت وأوصاف . وتسمح لها باستخدام مانشاء استخدامهم من عبارات الاستقلال والسيادة والمظاهر والقشور لهذا الاستقلال المزعوم . !!!

ولكن المفاوضين المصريين رفضوا هذه الأسس للتفاوض (مشروع ملتر) وسماه سعد زغلول «حماية بالثلث» ورجع المفاوضون المصريون رافعي الرأس .. موفوري الكرامة .. واستقبلتهم البلاد استقبال الغزاة الفاتحين . وزاد التفاف الشعب حول سعد زغلول بصورة لم تعرف من قبل في مصر الحديثة .

ولكن الارستقراطية .. وآه من الأرستقراطية ... آه من هؤلاء الباشوات وهذا نفر من الأغنياء والرأسماليين ومحتكرى السياسة . لقد آلمهم أن يتجلى إيمان الشعب بكل هذه القوة والإجماع وأزعجهم أن يكون سعد زغلول هو محل هذه الثقة والإكبار .. فإذا بهم يخرجون عليه ويحاولون أن يفسدوا ما بينه وبين الشعب وينادون بوجوب استئناف المفاوضات ومقابلة الانجليز في منتصف الطريق . وسرعان ما تألفت منهم وزارة دعاها الانجليز إلى المفاوضات وأصر سعد زغلول باعتباره رئيس الوفد الموكل من الأمة أن يكون هو رئيس وفد المفاوضات وأصر عدلى باشا على رئاسة الوفد باعتباره رئيس الوزارة . ففترقت وحدة الأمة . وأطلق على عدلى ومن معه اسم المنشقين . وسافر عدلى باشا ليقاوض انجلترا فى شخص وزير خارجيتها العنيد لورد كرزون الذى ظن أنه قادر على أن يستغل الخلاف بين سعد وعدلى فيحمل عدلى على التفريط فى شىء من حقوق البلاد . ولكن عدلى باشا رفض ذلك .. ففشلت المفاوضات وعاد إلى مصر مرفوع الرأس . موفور الكرامة بدوره .

### تصريح ٢٨ فبراير

وعاد الانجليز إلى استخدام أساليب البطش فأعادت نفي سعد زغلول وبعض أعضاء الوفد إلى جزيرة سيشل ولكن الشعب ثبت فى وجه هذه الموجة من الإرهاب وقبِلَ التحدى . فلم يستطع سياسى واحد أن يؤلف الوزارة . ويعاون المحتل على خطته . وكان لابد للانجليز من وزارة مصرية تحكم البلاد وإلا شاعت الفوضى واضطربت الأمور وتحملت انجلترا مسؤوليات خطيرة فى وقت كانت أشد ماتكون فيه حاجة إلى توفير الجهود . لذلك أرسل المارشال اللبى - المعتمد البريطانى فى مصر - يطلب من انجلترا أن تقدم شيئاً ترضى به عواطف المصريين . وهكذا كانت ولادة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى اعترفت فيه انجلترا برفع الحماية البريطانية عن مصر واعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة . ودستور نيابى وتمثيل خارجى على أن تحتفظ انجلترا لنفسها بأربع مسائل : هى حماية مواصلات الامبراطورية وحقوق الأقليات . والدفاع عن مصر والسودان ضد كل عدوان أجنبى ، ونودى بالسلطان أحمد فؤاد ملكاً ، وأنشئت وزارة للخارجية . كما ألفت لجنة لوضع الدستور على أحدث النظم العصرية .

### الدستور

وقد عهد بتحضير الدستور لا إلى الأمة ممثلة فى جمعية تأسيسية كما هى العادة ، وكما

الداخلية فيها فشن حرباً شعواء على الوطنية المصرية . وحل البرلمان .. وأجرى انتخابات جديدة أبدى فيها صنوفاً من الضغط والإكراه والتزوير والتزيف ، ولكن النتيجة مع هذا جاءت بخيبة له ففاز الوفد بأغلبية كبرى فاستصدرت الحكومة أمراً من الملك فؤاد بحله . فحل ولم يمض على افتتاحه بضع ساعات . وهكذا بدأ العيث بالدستور والتجنى على سلطان الأمة وبدأت هذه السلسلة من المحاولات لإنقاص سلطان الأمة باسم الاعتدال تارة وباسم محاربة الدهماء تارة أخرى . وقد أخذت الوطنية المصرية تتعثر والأخلاق تتحلل والشعلة المتوهجة تحمد وتنطفئ وتداولت الحكم وزارات حزبية ضعيفة لاتستحق مجرد الذكر اللهم إلا بمعرض التفريط في الحقوق . وتبذير الجهود .. وإضاعة الوقت ولاسيما بعد أن مات سعد زغلول وخلفه في رئاسة الوفد مصطفى النحاس . الذي كان محروماً من مواهب سعد زغلول وقوة شخصيته .. فما لبث أن تراجع بعد أن وقف عدة وقفات طيبة في أول عهده . وتخبط في سلسلة طويلة من الانقلابات الوزارية والمفاوضات وبدأت المناورات السياسية .. والدسائس الحزبية وانعدام المعاني الشعبية في نفوس رؤساء الأحزاب .. بأن بطشت وزارة محمد محمود (١٩٢٨) بالبرلمان فتأجل انعقاده .. ثم تحله ثم توقف عدة مواد من الدستور ويعلن حكم بأنه حكم اليد الحديدية .. ويأليت اليد الحديدية كانت على الانجليز ولم تكن على المصريين . ثم جاءت وزارة إسماعيل صدقي سنة ١٩٣٠ فارتكبت الجريمة الكبرى إذ ألغت الدستور من أساسه وأنشأت دستوراً هزلياً .. مشوهاً .. ممسوخاً .. وأعلنت الحرب على البرلمان والأحرار والصحف .. بل وعلى كل نزاهة .. وحرية .. كأنها عدو لدود لهذه البلاد .. لآخادم لها .. يعمل لمصلحتها .. ويسهر على خدمتها .

وأخذ الوفد - بدوره - يمالئ الإنجليز ليضمن استمراره في الحكم فلم يكد يصل إلى الحكم في سنة ١٩٣٦ بعد إلغاء دستور سنة ١٩٣٠ وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ حتى دخل مع الإنجليز في مفاوضات متعاوناً مع بقية الأحزاب الرأسمالية والرجعية . وانتهت المفاوضات إلى إكساب الإنجليز للشيء الذي طالما سعوا إليه السنين الطوال ألا وهو معاهدة موقع عليها من كل زعماء مصر السياسيين . يعترف فيها للإنجليز بالحق الشرعى في بقاء جيوشهم في مصر . ومركزهم الممتاز بها وبالتالي يربطون سياسة مصر بعجلة الامبراطورية ويملون إملاء كل ما يريدون . وهكذا كانت معاهدة ٣٦ التي وصفها النحاس باشا بأنها معاهدة الشرف والاستقلال !

وفي هذه الفترة لم يكن هناك سوى مصر الفتاة حزباً عاملاً يصف المعاهدة بوصفها الحقيقي وهي أنها معاهدة الخزي والاحتلال ويعمل على مقاومتها بالقوة مما أدى بأبنائه جميعاً إلى السجن وإلى صراع قوى مستمر لم ينته إلا عند سقوط وزارة النحاس باشا في أخريات عام ١٩٣٧

### معاهدة ٣٦ المشثومة

وتتكون هذه المعاهدة المشثومة من سبع عشرة مادة وعدة ملاحق وتنص المادة الخامسة على عدم اتخاذ علاقات خارجية تتعارض مع المحالفة أو عقد معاهدات سياسية تتعارض مع المعاهدة . والمادة السابعة توجب على الطرفين المساعدة الحربية والتسهيلات بما في ذلك استخدام الموانئ والمطارات وطرق المواصلات . وسن التشريعات والمادة الثامنة تصرح لبريطانيا بوضع قواتها بجوار القنال «للتعاون» مع الجيش المصرى الذى اعترف صراحة ، في هذه المادة بأنه غير قادر على أن يكفل بمفرده سلامة القناة وحرية الملاحة فيها . والمادة التاسعة تشير إلى إعفاءات وامتيازات القوات الإنجليزية . واعترف في المادة الحادية عشرة باتفاقيتي ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ و ١٠ يولييه سنة ١٨٩٩ كأساس لإدارة السودان (وهما اتفاقيتان مشثومتان سلبتا مصر حقوقها في السودان) .

وهكذا كانت هذه المعاهدة نكسة كبرى خسرت بها مصر كل جهادها وجعلت بها الاحتلال مشروعاً واعترفت باتفاقيات باطلة .. وأقرت وضعاً مزيفاً في السودان . ومكنت الإنجليز بعد ذلك - في هذه الحرب - أن يهيمنوا ، ليس فحسب على المصائر السياسية للبلاد ، ولكن أيضاً على مرافقها الاقتصادية ومواردها المالية وانتهب الإنجليز الأقوات واستخدموا المرافق .. وأجبيت كل مطالبهم بشكل كان من المستحيل أن يصلوا إليه لولا هذه المعاهدة المشثومة التى وقعها كل السياسيين المحترفين وارتضتها كل الأحزاب ماعدا الحزب الوطنى .. ومصر الفتاة .. والهيئات الشعبية ..

إلى هذا الدرك السحيق انحدرت الوطنية المصرية .. لولا أن قيض الله لمصر في ذلك الوقت مصر الفتاة ترفع اللواء الذى نكسه الزعماء وتحمل الراية التى طرحها الباشوات .. وركنوا للراحة وانغمسوا فى الشهوات ، وتكافح الإنجليز والأجانب وكافة المستغلين طالب كثير من الكتاب الأحرار ، ولكن إلى لجنة من الفقهاء القانونيين والسياسيين سميت

لجنة «الثلاثين» وبعد أن أعدته هذه رفعت إلى وزير الحقانية الذى كلف اللجنة الاستشارية التشريعية بفحصه . وهذه اللجنة مؤلفة من أقطاب موظفى الحكومة ومستشاريها وكان من الممكن الاطمئنان إليهم لولا أن كثرتهم كانوا انجليزاً . بل لم يكن فيهم إلا مصرى واحد هو عبد الحميد بدوى .. ورئيسها مصطفى باشا فتحنى وزير الحقانية .. فحرفت هذه اللجنة كثيراً من المواد التى تؤكد سلطان الأمة . الأمر الذى جعل عبد العزيز فهمى باشا ، وهو من أقطاب القانون يحتاج بشدة ويرسل عدة خطابات مفتوحة إلى رئيس الوزارة . يصف التعديل الأخير بأنه «يجملته وتفصيله سلب جرىء لحقوق البلاد الثابت لها ثبوتاً لاريب فيه . وفتح لباب واسع من أبواب الفوضى والإخلال بالنظام» .

ومع ذلك فقد كان الدستور على مابه من شوائب خطوة كبرى فى سبيل الحرية ، وأساس صالح للتقدم الشعبى .

#### تدهور السياسة الحزبية

أطلق سراح المعتقلين ، وأجريت الانتخابات النيابية الأولى . وكانت نتيجتها فوزاً للوفد بأغلبية ساحقة فأصبح المنفى الطريد - سعد زغلول - رئيساً للحكومة المصرية . دُعِيَ سعد زغلول للتفاوض مع السير رمزى مكدونالد رئيس أول وزارة عمالية فى إنجلترا ، ولم تنجح المفاوضات ، كالعادة ، ورجع سعد زغلول يقول : «دعونا للانتحار فأيننا» .

وحدث بعد ذلك أن اغتال بعض الأفراد السير لى ستاك السردار الانجليزى للجيش المصرى فانتَهز الانجليز هذه الفرصة ليطشوا بمصر من جديد .. ويدكروها بالإرهاب القديم فذهب المعتمد البريطانى فى مظاهرة حربية إلى مجلس الوزراء وقدم إنذاراً يوجب «فيه سحب مصر لجيشها من السودان . وإطلاق يد الانجليز فى ماء النيل ودفع تعويض نصف مليون جنيه والبحث عن القتلة الخ .. فسلم لهم سعد زغلول بالتعويض المالى . واستقال احتجاجاً على هذا العدوان .. فتصدى للوزارة نفر من الذين إنسلخوا عن الأمة . وانشقوا عليها وجعلوا الاتفاق مع الانجليز سياستهم والحكم هدفهم ورأسهم زيور باشا الذى جعل خطة وزارته التسليم للإنجليز بكل ما يطلبون وكان إسماعيل صدق هو وزير

لعواطف الشعب . وبلاده وماله .. ولا ترضى بغير الجلاء الحقيقي عن وادى النيل ..  
وتبشر برسالة البذل والتضحية والفداء من أجل البلاد<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) انه ليسعدنا كل السعادة أن نطبع هذه الرسالة بعد أن أعلنت حكومة مصطفى النحاس إلغاء هذه المعاهدة المشنومة ولذلك فقد أسرع الحزب الاشتراكي ( امتداد مصر الفتاة ) إلى تهنيته ولقد سجل النحاس لنفسه بهذا الإلغاء صفحة طيبة تجب كل الصفحات الماضية .

## مصر الفتاة في الميدان

يعتبر توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ نهاية تدهور الجهاد الوطني في مصر فقد ارتضى الوفد أن يوقع معاهدة مع الانجليز تجعل بقاءهم في مصر مشروعاً .. واحتلالهم جزءاً من قوانين الدولة ثابتاً . وقد يقال إن مصر قد وقعت هذه المعاهدة تحت إكراه وجود الجيوش الانجليزية في مصر ، ورغبة الحكام في الانتفاع بما جاء في هذه المعاهدة من ميزات كالإلغاء الامتيازات وذلك كله حق .. ولكن من الحق أيضاً أن نسجل أن الوطنية المصرية رفضت هذا الوضع طوال سبعين سنة . وهذا الذي قبلته الأحزاب المؤلفة وعلى رأسها الوفد في سنة ١٩٣٦ هو الذي رفضه سعد زغلول باسم الشعب في سنة ١٩١٩ ورفضه مرة ثانية باسم البرلمان المصري في سنة ١٩٢٤ ورفضه المتفاوضون المصريون جميعاً .. بل إن حكومة النحاس نفسها في مفاوضات سنة ١٩٣٠ السابقة على مفاوضات سنة ١٩٣٦ حصلت على شروط أحسن منها ومع ذلك فقد رُفِضَتْ .. فقبول ما رفضته البلاد قبل ذلك التاريخ هو تسجيل رسمي تاريخي يثبت تقهقر وطنية الزعماء القدماء الذين أعياهم الكفاح الطويل فجعلهم ألين عريكة وأكثر استعداداً للتساهل فيما كانوا لا يتساهلون فيه من قبل .

على أن لواء الوطنية ما كان ليتكس في شعب حى مجيد كالشعب المصرى الذى استعرضنا صفحات تاريخه المشرقة ... ما كان هذا الشعب ليعقم عن أن يلد مجاهداً جديداً بل مجاهدين يحملون اللواء ليظل خفاقاً مرفوعاً . ولذلك فقد انبعثت من صفوف الشعب حركة مصر الفتاة ، ولعل اسم أحمد حسين كمجاهد وطنى صغير يسير على غرار من سبقوه في ميدان الجهاد .

### مشروع القرش

نزلت مصر الفتاة إلى ميدان الكفاح السياسى بهذا الاسم في سنة ١٩٣٣ أو بالأحرى في أكتوبر من هذه السنة ونشرت برنامجها على صفحات مجلة الصرخة التى اتخذتها لسان حال لها . ولكن الحق أن حركة مصر الفتاة بدأت قبل ذلك . بدأت في سنة ١٩٣١



عندما دعا أحمد حسين إلى مشروع القرش ونجح في إقامة هذا المشروع فكان نجاحه خارقة من خوارق الوطنية المصرية وحيوية الشعب . لقد هال أحمد حسين فقدان مصر لكل مظاهر الاستقلال ، ليس الاستقلال السياسي فحسب بل والاقتصادي . وأدرك الصلة الوثيدة بين الاقتصاد والسياسة ، بل وآمن أن الاستعمار ما هو إلا السبيل لتحقيق المنافع الاقتصادية ، واتخاذ مصر سوقاً للبضاعة الإنجليزية بصفة خاصة والأجنبية بصفة عامة .

راعه ما كانت عليه مصر من اعتماد كلي على الزراعة . دون أن يكون لها أى إنتاج صناعي مما يجعلها نهياً للانجليز والأجانب .. فانبعثت في رأسه فكرة مشروع القرش ، والتي تدور حول اكتتاب المصريين بقرش صاغ عن كل فرد فيتجمع من ذلك عشرات الألوف من الجنيهات فتتألف بذلك رؤوس أموال أهلية أو شعبية تنشأ بها مصانع لإنتاج شتى ما يحتاجه البلاد . وقد كان أحمد حسين طالباً بكلية الحقوق عندما دعا إلى هذه الفكرة فقبولت بالسخرية والهزء .. فما سمع أحد من قبل ولا من بعد أن المصانع تقام باكتتابات شعبية .... وراح كل من في مصر يتندر على هذه الدعوة ... رجال القانون ينتقدونها بقولهم إن هذا المشروع لن يكون له مالك . ورجال الاقتصاد ينكرونها لأن المشروعات تقوم بها الشركات أو الأفراد ولا تقوم بها الشعوب .. على أن ذلك الاهتمام بنقد المشروع كان في حد ذاته مظهراً من مظاهر النجاح . فقد كابد المشروع في أول الأمر إهمالاً مطلقاً واحتقاراً لشأنه . ولكن أحمد حسين مضى في طريقه لا تثنيه العقبات . جمع من حوله شباب الجامعه وألف منهم لجنة أصبح المشروع ينتسب إليها .... ثم راح يطلب من الأساتذة أن تعاونوه في هذه اللجنة فقبل البعض منهم . ثم تدرج فطلب من مدير الجامعة على ابراهيم باشا أن يرأس المشروع فلبى الدعوة ... ومن هنا بدأ المشروع يتطور ... وجاء اليوم الذي التهب فيه عواطف الشعب حماسة للمشروع وجاءت الساعة التي نزل فيها الشباب الجامعي لأول مرة إلى الشوارع يجمعون الاكتتابات لإنشاء مصانع قومية . وقد كان هذا حدثاً في تاريخ مصر جدد شباب وطنيتها وأعاد إليها الثقة والحيوية .

### مصنع الطرايش

وجُمِعَ ثلاثون ألفاً من الجنيهات . تم جمعها بأساليب محكمة لا تسمح لأحد أن يتلاعب بها . فقد طبعت كمية معلومة من دفاتر التبرعات ثم سلمت إلى مصلحة البريد التي تولت توزيعها على مكاتبها في أنحاء القطر وكان على كل متطوع يرغب في التوزيع أن

يحصل على حاجته من مصلحة البريد ...

وبعد أن انتهى موعد الاكتتاب حولت مصلحة البريد قيمة ما باعتها إلى بنك مصر حيث ظلت الأموال مودعة فيه لا يمكن لأحد أن يتصرف فيها أو يمس منها مليماً واحداً حتى تألفت جمعية القرش ورئيسها على إبراهيم باشا ووكيلاها مصطفى باشا الصادق وفؤاد باشا أباطة وهؤلاء - تحت إشراف مجلس الإدارة - هم الذين كان لهم وحدهم حق اعتماد صرف أى مبلغ من هذه المبالغ .

ذكرت هذا الموضوع بالتفصيل لأنه يحلو للبعض أن يتناولوا على نزاهتى وأنى أخذت شيئاً من هذه الأموال . وعلم الله أنه لولا نزاهتى لما أقيم هذا المشروع ولما خرج إلى النور . لولا الإيمان ولولا الإخلاص والصدق في القول والعمل لما تحققت هذه المعجزة الشعبية فلم يحدث في تاريخ العالم - وإننى لأتحدى أن يأتونى بمثل هذا الذى تم - لم يحدث أن تمكن طالب في مدرسة الحقوق أن يدعو إلى اكتتاب قومي لإنشاء مصنع ثم يقام هذا المصنع بالفعل وأن يتم ذلك كله في مدى عام واحد .

قال الاقتصاديون وعلى رأسهم طلعت حرب إنه من المتعذر إنشاء مصنع للطرايش في مصر وأن بنك مصر عجز عن تحقيق هذا المشروع فالشركات الأجنبية لم تمكن هذا المصنع من القيام . ولكنى أصررت على وجوب قيام المصنع فقد كان امتهاناً ما بعده امتهان أن تصنع دولة أجنبية شعار مصر القومي ... وقد كان في مصر مصانع للطرايش فأغلقتها هذه المنافسة الأجنبية فصممت على رفع هذا العار عن مصر وأن يكون لمصر مصنع لغزل الصوف وإنتاج الطرايش فيما ينتج .

وإنى لأحتاج رسالة ضخمة تبلغ ضعف هذا الكتاب لو رحت أفصّل أنواع العراقيل والمؤامرات والدسائس التى وضعت للحيلولة دون تنفيذ هذا المشروع .. والتى بلغت في بعض الأحيان الاتفاق مع إسماعيل صدق رئيس الحكومة في ذلك الوقت على إنذار الجمعية أن تعدل عن هذا المشروع لعدم إمكان تنفيذه ووصلت إلى حد حمل الشركة الألمانية التى تعاقدت على توريد الماكينات أن تتوقف عن التوريد .. وأخيراً وصلت إلى حد محاولة رشوقى بالمال الكثير لأكف عن المضي في تنفيذ المشروع بعد أن رأى رجال الشركات الأجنبية أننى أحبطت كل مناوراتهم ومؤامراتهم . ولكن مصنع الطرايش بُنى في نهاية الأمر في برج الظفر بالعباسية . وجاءت الماكينات والآلات وجاءت الساعة التى

دارت هذه الآلات لتخرج طرايش مصرية تغسل الكرامة القومية مما لحق بها من إهانات في عالم الصناعة وعالم الوطنية .

وبدأت المكائد الحزبية تحاك حول هذا الشاب الذى لم يتجاوز العشرين ربيعاً وقد حقق ما عجز الوفد عن تحقيقه وما عجز أساطين الاقتصاد عن تحقيقه . انطلقت عقارب الغيرة والحسد تنهش هذا المجاهد الذى أهدى أمته مصنعاً هو الوحيد من نوعه فى الشرق كله . فآثرت الانسحاب من مشروع القرش والتزول إلى ميدان الصراع السياسى فى أوسع ميادينته لأن تصدى هؤلاء الذين يحاربوننى وجهاً لوجه . وهكذا صح العزم على تأليف جمعية مصر الفتاة . ولو لم تتداخل السياسة الحزبية الكريهة فى مشروع القرش لأمكننى أن أحقق برنامجى الضخم وهو إنشاء مصنع فى كل عام ولكان للشعب المصرى الآن عشرات المصانع التى يعمل فيها مئات الألوف من العمال .. مصانع لا يملكها الرأسماليون ، ولا يملكها الأغنياء ولكنها مصانع الشعب . ولما وقفت هذه المصانع عند حد صناعة الطرايش والملابس بل لصنعت الحديد والفولاذ وأنتجت المدافع والسيارات .

### جمعية مصر الفتاة

استقال أحمد حسين من مشروع القرش للسياسة واستقال معه نفر من أصحابه ومعاونه فى هذا المشروع وهؤلاء هم الذين ألفوا مصر الفتاة وجعلوا غايتها « أن تصبح مصر فوق الجميع : امبراطورية شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتترعّم الإسلام » .

لئن كانت كلمة « امبراطورية » ليست محبة إلى الأسماع اليوم فقد كان هذا هو التعبير الوحيد الذى يعبر عما يجيش فى نفوسنا من إعزاز لمصر وتمجيد لها . وانطلقت هتافاتنا الجديدة المصرية .. لم تكن هتافات بحياة الأشخاص والأحزاب .. بل هتافات المجد لمصر ومصر فوق الجميع والله أكبر . وكلمة المجد اليوم تبدو كلمة عادية وبسيطة أما فى ذلك الوقت فقد كانت شيئاً عجبياً يفاجئ الأسماع فما كان أبعد المجد وقتئذ عن أن يقترب باسم مصر أو هكذا تصورت أحزاب ذلك الزمان وعقلية تلك الأيام . ولكننا مضينا وانطلقنا ... بعد أن وضعنا لأنفسنا برنامجاً لأول مرة فى تاريخ الحياة السياسية فى مصر ، فلم تكن الأحزاب تعرف برنامجاً أو تضع خططاً ، أو تحدد أهدافاً .. وإنما الأحزاب صراع على الحكم .. والسياسة شقشقة لسان وجعجعة .

ومرة أخرى ، قد يكون لكل حزب في هذه الأيام برنامج ، وقد تقول هذه الجماعة أو تلك « هذا برنامجي وهذه أهدافي .. » أما ذلك الوقت ، في سنة ١٩٣٣ ، فقد كان هذا شيئاً لا عهد للناس به فضلاً عن أن يكون برنامجاً كبيراً مصر الفتاة .. شاملاً محيطاً كاملاً ، وإليك نصه :

## برنامج مصر الفتاة

### إيماننا

مصر التي علمت الإنسانية وأضاءت العالمين : مصر التي رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلنت كلمة الله والإسلام . مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهمز .

لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجاً للشرق وزعيمة للإسلام . وهي من أجل ذلك في حاجة إلى دم الشباب الملهب . في حاجة إلى الإيمان والعمل . في حاجة إلى نفر من بنينا يقابلون الموت ويستعدون الألم ويرحبون بالتضحية . وتلك صفات لن تتوفر في أبناء الجيل القديم .

فعل الشباب . وعلى الجيل الجديد . وعلى جنود مصر الفتاة تقع تبعة المجد القديم ، هذا هو إيمان جماعة مصر الفتاة .

### شعارنا

الله - الوطن - الملك : يجب أن نعبد الله وأن نعلي كلمته . يجب أن نقدر الوطن ونفنى في سبيل مجده . يجب أن نعظم الملك وأن نلتف حول عرشه .

### غايتنا

أن تصبح مصر فوق الجميع امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتترغم الإسلام .

## جهادنا العام

- ١ - يجب أن نشعل القومية المصرية ونملأ نفوسنا إيماناً وثقة واعتزازاً .. ويجب أن تصبح كلمة « المصرية » هي العليا وما عداها فلغو لا يعتد به ويجب أن يؤمن الجميع بأن إرادة الشعب من إرادة الله وأن مصر يجب أن تصبح فوق الجميع .
- ٢ - يجب أن نضع الأجانب في مركزهم الطبيعي ضيوفاً في مصر وليسوا أصحابها وذلك يكون بإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة بجرة قلم . وتمصير الشركات الأجنبية وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الحياة التجارية ويوم الجمعة يوم عطلة عام ، وعدم التصريح لأجنبي بمزاولة عمل في مصر إلا بتصريح خاص .
- ٣ - يجب أن نؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها وأنه الحقيقة الوحيدة التي لم تتبدل في العالم منذ ستة آلاف سنة وهو الذي أبى مصر نابضة قوية حتى اليوم فيجب أن نعلم الفلاح بأن نقضى على الأمية والجهل ونرتقى بمعيشته ونضمن له اليسر والرخاء ونحفظ له صحته وأن ندخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء النقي .

## جهادنا الاقتصادي

### في الزراعة

- ٤ - يجب أن نرتقى بالزراعة التي تكون ثروة مصر الحقيقية فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها ونزرع أراضٍ جديدة ونشق الترع ونشئ المصارف ونعمل لمضاعفة الإنتاج أضاعافاً مضاعفة .
- ٥ - يجب أن يعم نظام التعاون في كل مدينة وفي كل قرية . بل وفي كل ضيعة لإقراض الفلاحين ولتوزيع البذور واستخدام الآلات وبيع الحاصلات وتنظيم المعاملات .

### في الصناعة

- ٦ - يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة .. فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا .. وصوفنا ..

وكتاننا .. ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيماوية والزراعية والحديدية .. وتمهيداً لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة وأن تتولد الكهرباء من خزان أسوان .

٧- يجب أن توضع الحماية الجمركية اللازمة لحماية المصانع الوطنية وأن تحتم الحكومة على موظفيها وعلى طلبة مدارسها أن تكون ملابسهم من المصانع المصرية وأن تفضل الحكومة دائماً المصنوعات المحلية مهما كان ثمنها مرتفعاً .

٨- يجب أن ينشط استغلال الثروات المدفونة فى باطن التربة المصرية العظيمة فنستخرج البترول والحديد والذهب والنحاس وغيرها من المعادن التى تحتاج إليها الصناعات المختلفة والتى توجد فى الصحارى المصرية العظيمة بوفرة .

### فى التجارة

٩- وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ولا نلبس إلا كل ما هو مصرى ولا نشترى إلا من مصرى كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

١٠- يجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية ونتصل بدول الشرق القريب والبعيد نحمل إليها ومنها المتاجر وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب .. ولكى تنبأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى لينقل متاجرنا وليرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .

١١- يجب أن تستعد موانينا لهذه الحركة العظيمة فتوسع ميناء الاسكندرية وتنشأ ميناء دمياط وتحول بعض موانينا إلى موان حرة لا تتقاضى الحكومة عن البضاعة الموجودة بها ضرائب .

١٢- يجب أن يؤلف أسطولنا الجوى على نطاق واسع وأن تنشأ المطارات فى كل المدن المصرية وأن تنشأ الخطوط التى تصل مصر بكل البلدان العربية وبكل أفريقيا وبلاد أوروبا الهامة .

١٣- يجب أن نمهد الطرق من الإسكندرية حتى أسوان . وأن ننظم الملاحة فى النيل والترع وأن نمد الخطوط الحديدية إلى كل مكان .

١٤ - يجب أن ينشأ بنك مركزى للإصدار ليجارى هذا التقدم التجارى ويزكيه ويجب أن يصلح نظام الائتمان بحيث يكون وسيلة لخدمة التجارة ومدها برؤوس الأموال .

### جهادنا العلمى

١٥ - ومصر التى سترعم الشرق وتنضى على العالم يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها فيجب أن يصبح التعليم الإبتدائى مجاناً وأن تقل نفقات التعليم الثانوى والعالى لتكون فى متناول أفقر الطبقات ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحى الحياة وأن ترصد عليها المخصصات ليعيش منها العلماء والباحثون .

١٦ - يجب أن تفتح الجامعة أبوابها على مصراعها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق وأن تشجع البحث العلمى وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها لتبحث وتنقب وتعلم وتنشر العقلية المصرية فى أرجاء العالمين .

١٧ - يجب أن نهتم بالحفريات الخاصة بالآثار لتكشف مغاليق التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة ولتخرج الكنوز التى لم تكتشف بعد .

١٨ - أما فى الطب - فيجب أن يعاود المصريون نبوغهم وإعجازهم الفنى لينقذوا الشعب فى مصر ولينقذوا الإنسانية من الأمراض العضالة التى تفتك بها .

١٩ - أما الأزهر ، فله دور عظيم يجب أن ينهض به وأن يستعيد مركزه القديم ، ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم وأن يرتفع صوته عالياً بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب وفى أمريكا أيضاً . ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى إعلاء كلمة الحق والدين .

٢٠ - يجب أن تنشئ الحكومة المؤسسات لمساعدة المكتشفين والمخترعين .

٢١ - يجب أن يكون فى كل قرية مكتبة وأجهزة للراديو لسماع التعاليم الدينية والخلقية والعمرانية .

## جهادنا الاجتماعى

### فى الدين والأخلاق

- ٢٢- يجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .
- ٢٣- يجب أن نرقى الأخلاق وأن نحارب الدعارة والخمور والتخث .
- ٢٤- يجب أن نتعلم الصدق وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون وأن يجب بعضنا بعضاً .
- ٢٥- يجب أن نقدر الشرف والواجب وأن نقلل من اللهو والمزاح .
- ٢٦- يجب أن يصبح التجنيد إجبارياً للجيش وأن تنقص مدة الخدمة فيه وأن يمتلئ الشباب بالروح العسكرية .

### فى الأسرة

- ٢٧- يجب أن ننظم الأسرة على قواعد قوية من الحب والاحترام المتبادل بين الأبناء والآباء والجهاد المشترك . والوفاء بين الزوج وزوجته .
- ٢٨- يجب أن نعنى بالطفولة باعتبار أنها مصر المستقبل .. مصر العظيمة .. فيجب أن نعدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالاً منتجين .
- ٢٩- يجب أن نرقى المرأة ونعلمها العلم الكامل لكى تكون زوجة صالحة ، ولتكون أمّاً تخلق الأبطال وليكون بيتها نعيم الحياة .
- ٣٠- يجب أن نقضى على الأنظمة البالية التى تعرقل حركة الزواج فتُلغى المهور الباهظة والحفلات الهوجاء

### فى الصحة العامة

- ٣١- يجب أن يكون للصحة العامة المكان الأول فى جهود مصر الفتاة . يجب أن تكون سياسة الصحة هى سياسة الوقاية لا سياسة العلاج وإذن فيجب أن ينصرف الجهد إلى حماية الطفولة .. وإلى حماية الأبصار وإلى حماية الأبدان من الأمراض المتوطنة .



٣٢- يجب أن توضع قوانين صارمة لإحلال النظافة في كل شئ ويجب أن يجد الشعب في الملاعب الرياضية لتخلق جيلاً كاملاً قوياً سليماً وتمهيداً لذلك يجب أن ينشأ ملعب كبير بالقاهرة .

### في التأمين الاجتماعي

٣٣- يجب أن ينظم التأمين الاجتماعي بحيث يصبح لكل فرد في الأمة الحق في أن يكون له عمل يعيش منه وإذا كان عاجزاً لا يستطيع العمل فيجب أن توجد الملاجئ ليأوى إليها .

٣٤- يجب أن تُعدَّ المستشفيات بحيث تتسع لقبول أى مريض يلجأ إليها . وأن تُنشأ فروع لكل أنواع الأمراض .

٣٥- يجب أن يصبح الشعب شعباً مدخراً وأن يُقلع عن الإسراف بتكوين رؤوس الأموال اللازمة لتكوين الإمبراطورية المصرية .

٣٦- يجب أن يكون للشعب أعياده القومية ليحتفل بها كما يليق لشعب كبير لتكون أعظم مشجع على المضي في طريقه إلى الأمام .

### الأغاني والفنون

٣٧- يجب أن تبدل الأغاني لتكون مليئة بالقوة والحياة ويجب أن يحفظ المصريون النشيد القومي .

ويجب أن نعيد إلى الفنون عظمتها الفرعونية والعربية حتى تقف في خدمة البعث والإحياء ، لا أن تكون وسيلة للهو والفجور .

### القاهرة

٣٨- ويجب أن ننظم القاهرة كما يليق بعاصمة الشرق فتؤلف لها بلدية وتوضع التشاريح لتجديدها وتنظيم أبنيتها وإزالة الأحياء القديمة بأسرها .

ويجب أن تطبق في خططها بالطابعين العربي والفرعوني وأن تبني منشآتها العامة على هذا الطراز وأن تنظم ميادينها وشوارعها وحدائقها كذلك .

## وسائلنا

أما وسائلنا للوصول إلى كل ذلك فليست حرباً وقتالاً وليست عدواناً أو صداماً ولكنها تنخلص في كلمتين :

## الإيمان ... العمل

\* \* \*

هذا هو برنامج مصر الفتاة - وإني إذ أكتب هذه السطور الآن بعد سنوات وسنوات من إذاعة هذا البرنامج .. وهو يبدو للقارئ اليوم باهتاً .. وقد تحققت بعض فقرات منه .. وبعض منها في طريق التحقيق ... بل بعد أن تطورت برامجنا لتصبح أشد عمقاً وأعظم إحاطة بمشكلات مصر وشعبها . فلا زلت أذكر كيف اعتبر هذا البرنامج عندما أذيع لأول مرة خيالاً من الخيالات وكيف قيل عنه إنه عبث صبية أو هو رواية تمثيلية . ولو لم أكن قريب عهد بالنجاح في إنشاء مصنع الطرايش لشك أقوام في قوای العقلية .

### حرب .. واضطهاد

وعلى أية حال فلم يكذب هذا البرنامج حتى بدأت الحرب من كل جانب .. من جانب الإنجليز الذين يسيطرون على الحكومة ، ومن جانب الحكومة نفسها .. ومن جانب الوفد الذي يمثل الشعب ويقود الكفاح الشعبي . وهكذا وجدت مصر الفتاة نفسها مضطهدة من الجميع .. سجون ومحاكمات ومصادرات لصحفها ... وقذف بالطوب من أفراد الشعب الغاضبين لأن مصر الفتاة ليست وفدية ..

وانطلقت مصر الفتاة لا تلوى على شئ تحتل الاضطهاد والعذاب من سائر الاتجاهات . لا قوة لها إلا بالله . ولا سلاح إلا بالإخلاص . انطلقت مصر الفتاة لا تحمل حقداً لمصرى واحد ولا تعرف الحسد ولا البغض وإنما توجه حربها لأعداء البلاد الحقيقيين وهم الإنجليز وتنفض في الشعب من روحها ، روح الاستبسال في المقاومة ، وروح الفداء والتضحية .

## نجاح

وشهدت مصر الفتاة أول نجاح لجهودها في نوفمبر سنة ١٩٣٥ عندما خرج شباب الجامعة يهتفون «مصر فوق الجميع والمجد لمصر» مطالبين بالاستقلال والحرية . وفي ١٤ نوفمبر سقط أول شهداء لمصر الفتاة : عبد الحكم الجراحي وعبد المجيد مرسى . وكاد أن يلحق بهم ابراهيم شكرى لولا أن أنجاه الله .. وكان هذا بعثاً للوطنية المصرية مرة أخرى .. وآية جديدة على أن الأرض الطيبة يمكن أن تجود من حين لآخر بأطيب الثمرات .

ولكن هذه الوطنية الجديدة لم تستطع أن تفرض سلطانها حتى النهاية . لقد أعادت الدستور فاستقر بذلك بصفة نهائية .. ولكنها لم تستطع أن تحول دون دخول الحكومة في المفاوضات مع الإنجليز ولم تستطع أن تحول دون إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وهكذا استؤنف الصراع بين مصر الفتاة التي تحولت في هذه الأثناء إلى حزب سياسى وبين هذه القوى الرجعية سواء ما كان منها في الحكم أو خارج الحكم يتربص به .

ويضيق المجال مرة أخرى عن استيعاب الجهود التي بذلناها ... محاكمات وقضايا في عهد كل حكومة وفي عهد كل وزارة .. مئات من أبناء مصر الفتاة يدخلون السجون وتحاك لهم التهم .. ورحلات أجوب فيها البلاد سيراً على القدم .. واجتماعات حاشدة تقام وتؤمها الألوف .. ولحظات حالكة كهذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الرسالة .. حيث يتفرق الأنصار رعباً وفزعاً من توالى الاضطهاد . واستئناف بعد ذلك للجهود حتى كانت الحرب .. والحرب هى فرصة الانجليز للتنكيل بمصر الفتاة فصودرت مطبعتنا وألغيت جريدتنا . وأغلقت دورنا في كل مكان وزج بي في الاعتقال الذى بدأ بسجن الأجانب .. ثم بمعتقل الزيتون ، ثم في معتقل خاص في مصر الجديدة ... واعتقل معي كل زعماء مصر الفتاة العاملين .. وانقضت سنوات ثلاث لا يسمع فيها صوت لمصر الفتاة أو حركة .. حتى ظن أنها أصبحت في ذمة التاريخ ..

ولكن الحرب انتهت وخرجنا إلى الحياة فبدأت من جديد .. وهأنذا أبداً .. أبداً كما بدأت منذ سنوات وسنوات حليف السجون ، رهين المحاكمات . ولكن روح مصر الفتاة سادت في كل مكان . وتغلغلت مبادئها في نفوس الكافة .. فلم تعد خيالاً .. ولم تعد أحلاماً . ولم تعد رواية تمثيلية كما وصف برنامج مصر الفتاة الأول .

عندما كنا نقول لا تتكلم إلا بالعربية ولا ترد على من لا يخاطبك بها ولا تدخل محلاً لا يكتب اسمه بالعربية كان ذلك يعتبر تحريفاً وأحمد الله أن عشت حتى وجدت قانوناً يصدر في مصر يحتم على الشركات أن تستعمل اللغة العربية وجاءت ساعات أسرع فيها الأجانب بتغطية لافتاتهم الأجنبية واستبدالها ب لافتات عربية . وكنا ننادى بذلك المحاكم المختلطة وأهتف من أعماق قلبي في مقالتي وخطبي « أليس منكم رجل رشيد يدك هذه المحاكم » وهذه المحاكم قد تحولت الآن إلى محاكم مصرية تقريباً وإن هو إلا بعض الوقت حتى تزول نهائياً من الوجود<sup>(١)</sup> . وعندما كنت أنادى أن يكون لمصر جيش وطائرات ودبابات ومدركات حربية .. كان ذلك كله يعتبر ضرباً من الهذيان .. أما اليوم فجيشتنا في طريقه لأن يكون حقيقة مقررة . قد يكون لا يزال ضعيفاً أو يكون في أول الطريق ... ولكن المهم أنه أصبح لنا جيش وباستطاعتنا أن نزيد منه وأن نضاعف في قوته ..

وعندما كنت أدعو إلى إنشاء الصناعات المصرية وخلقها وتعزيزها وإلى ملء مصر بالجامعات وإلى مجانية التعليم ومحاربة الأمية ... كان ذلك كله يعتبر ضرباً من الهذيان .

وأخيراً عندما كنت أدعو لزعامة مصر للإسلام ، وقيادة البلاد العربية ، واعتبار مصر والسودان وطناً واحداً وجسداً واحداً غير قابل للتجزئة .. عندما كنت أكافح في سبيل ذلك كله وفي سبيل إجلاء الإنجليز عن أرض الوادي ... كان ذلك كله يعتبر ضرباً من ضروب المستحيلات ... ولقد عشت حتى رأيت زعامة مصر للدول الإسلامية تلوح في الأفق ، وحتى أصبحت قيادة مصر للبلاد العربية حقيقة مقررة ... ووحدت وادي النيل دين المصريين جميعاً من الإسكندرية حتى خط الاستواء .

ورأيت أكثر من ذلك كله .. رأيت أبناء مصر الفتاة الذين انتموا إليها في يوم من الأيام وتلقوا تعاليمها ورضعوا لبنها ... رأيهم يملأون البلاد حيوية وتقدماً وعلماً وفنا وقوة واقتداراً في مختلف الميادين ... لقد نسوا مصر الفتاة أو تنكروا لها أو خرجوا عليها ... ولكني وأنا أنظر إليهم من كل مكان وهم يتصدرون الصفوف هنا وهناك ... بل ومنهم

---

(١) عند طبع هذه الرسالة زالت المحاكم المختلطة نهائياً وأصبحت دارها هي دار القضاء العالي .

من يتصدى للزعامة ... أو التأثير في الوسط الذي يحيط به ... أشعر بالرضا والاطمئنان لأن ذلك ليس إلا من ثمرات مصر الفتاة وحركتها ...

بل عندما أرى حركة قوية شاملة واسعة النطاق تعمل على بعث الإسلام بتعاليمه الصحيحة وأمجاده القديمة لا يزيدني ذلك إلا رضا واعتباطاً .. فقد سبقت مصر الفتاة بهذه الدعوة ... وكانت أول من مزج الكفاح السياسي بتعاليم الإسلام ... بل إنى لأذكر باعتزاز أنني قدمت للمحاكمة في سنة ١٩٣٨ بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم بالقوة وأننى أنادى بالقرآن دستوراً وبإعادة تنظيم المجتمع على مبادئ الإسلام ...

وعندما أرى جيلاً جديداً من الشبان يكافحون باسم الاشتراكية أو الشيوعية ويهدفون من وراء كفاحهم إلى إتهاض الفلاحين والعمال ويؤسسون كل دعواهم على العمل لرفاهية الفلاحين والعمال ... فليس هناك ما يملأني سعادة أكثر من ذلك وحسبك أن تطالع هذه السطور الأولى من هذا البرنامج الذي نادى به مصر الفتاة في سنة ١٩٣٣ لتراه متوجاً باسم الفلاح الذي اعتبر حجر الزاوية في البناء القومي .

لم تذهب جهودنا إذن عبثاً .. ولم تضع أرواح شهدائنا هباء .. لقد غرسنا للوطنية غراساً جديداً بدأ يشمر ويؤتي أكله .. وسواء اعترف الناس لمصر الفتاة أو لم يعترفوا .. سواء أدركت الأمة أن كفاح مصر الفتاة هو خالق هذه النهضة الجديدة أو لم تدرك .. فإن باستطاعتي إذا ما جاء يومى الأخير أن أغمض عيني مرتاح النفس والضمير أنني أدت واجبي وبذلت غاية جهدى لتحرير بلادى وإتهاض مواطني .

سجن مصر في ١٥/٣/١٩٤٦

## نحو الاشتراكية ...

### إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ - برنامج لإخراج الانجليز وتحقيق المجد المصرى

أى بنى

مأعجب هذا القدر مرة أخرى . لقد بدأت هذه الرسالة فى السجن عام ١٩٤٥  
وتشاء الظروف أن يشرع فى طبعها وأن تعرض علىّ وأنا فى سجنى مرة أخرى فى أكتوبر  
سنة ١٩٥١ ومأعظم الانقلاب والتطور الذى يجرى فى هذه الأيام .. وما كان لرسالة فى  
الوطنية أن تصدر فى هذه الأيام دون أن تتحدث عن هذا الذى يشغل الأمة كلها ..  
ودون أن تشير لهذا الكفاح وهذه الحرب التى أعلنت رسمياً بيننا وبين الانجليز .

ومأسعدنى مرة أخرى أن أعيش حتى أرى بعينى رأسى مصطفى النحاس وهو يلغى  
معاهدة سنة ١٩٣٦ ومعاهدتى سنة ١٨٩٩ ... مأسعدنى أن أعيش لأرى كل مادعت  
إليه مصر الفتاة ، وبشرت به ، وكافحت فى سبيله يوشك أن يتحقق . فإعلان الحرب  
على الإنجليز هو مطلبنا الأول وإجلائهم عن مصر والسودان هو ماتعذبنا من أجله  
وما احتملنا فى سبيله الآلام ...

وفى هذه الساعات التى أخط فيها هذه الحروف تتضرع أرض مصر بدماء  
الشهداء ... الشهداء الذين سقطوا صرعى رصاص الانجليز بعد أن أعلنت الحكومة إلغاء  
المعاهدة . وتلتهب مصر بنار الوطنية وتوشك أن تنفجر غضباً وثورة على الانجليز أعداء  
البلاد ... ولأول مرة فى تاريخ مصر منذ دنسها الانجليز بأقدامهم فى سنة ١٨٨٢ تقف  
مصر حكومة وشعباً ضد الانجليز .. فهى الحرب .. الحرب الفعلية بيننا وبين الانجليز وإن  
كانت لم تأخذ صورة الحرب النظامية .

وما أشق هذه اللحظات علىّ وأنا حبيس بين الجدران الأربعة فى الوقت الذى كان  
يجب أن أكون فيه حراً عاملاً مع العاملين على تنظيم صفوف المجاهدين .

فقد أسرع إلى تأييد رئيس الحكومة التى ناصبتنى العداء طوال عامين كاملين ...

أسرعت إلى تأييدها ناسياً كل خصومة وكل خلاف ... ذلك أن الوطنية الصادقة لاتعرف عند الخطر إلا هدفاً واحداً وهو إنقاذ الوطن . ولقد أعلننا الحرب على الانجليز ويجب أن نخرج من هذه المعركة فائزين ولاسبيل لذلك إلا بالتعاون والاتحاد بين جميع المصريين وهذا ماجعلنى أسارع إلى تأييد الحكومة .

### عود على بدء

تركنت في عام ١٩٤٦ ونحن الآن في عام ١٩٥١ وبين هذه الأعوام الخمسة واصلت مصر الفتاة الجهاد شاقاً كأشق ماكان في أى يوم من الأيام .. باذلة من التضحيات ومتعرضة للخطر ، دأبها في العشرين سنة الماضية .. فلم أكد أخرج من السجن في سنة ١٩٤٦ وتسقط وزارة اسماعيل صدقي وترفض وزارة النقراشي نتيجة المفاوضات التي اشتهرت باسم « صدقي - ييفن » حتى أسرعت إلى أمريكا لإعلاء كلمة مصر والتنديد بالسياسة الانجليزية ومطالبتها على ملأ من العالمين بالجلء عن بلادنا ... وقد أشعلت هذه الرحلة حماس المصريين فوقف الشعب إلى جوارى وأمدنى بالأموال اللازمة لمواصلة الدعاية . ولقد طفت أمريكا من مشرقها لمغربها وخطبت في كنائسها وفي جامعاتها .. واتصلت بصحافتها وبيعض نوابها وشيوخها وطبعت كتباً ... واصطدمت بصحافتها اليهودية حتى لقد رفعت قضية ضد أحد كبار الصحفيين بها . وأخيراً نشرت جريدة النيويورك تيمس أعظم الصحف الأمريكية صفحة كاملة للدعاية لقضية مصر وقد كان لها أكبر الأثر في هز أعصاب الانجليز حتى لقد كان نشر هذه الصفحة محل سؤال وجواب في مجلس العموم الانجليزى . وتقدمت بمذكرات ورسائل عن قضية مصر لهيئة الأمم عن طريق سكرتيرها وعقدت مؤتمرات صحفية .. أحدها في هيئة الأمم بالذات ولكنى عدت من أمريكا كافراً بالأمريكان وديمقراطيتهم المزعومة موقناً أنهم يعملون على سيادة العالم وإخضاعه لاقتصادياتهم وأنهم في الطريق لإشعال نار حرب عالمية ..

ولقد أدركت أننا سنخسر قضية فلسطين لا لأن الأمريكان يعطفون على اليهود كما يتصور كثيرون من السذج ولكن لأن أمريكا تتخذ من اليهود ومن إنشاء دولتهم الجديدة سلماً تصل به إلى تحقيق أغراضها في الشرق الأوسط الذى تعمل على بسط نفوذها عليه . ولم أكد أعود إلى مصر حتى رفعت مصر قضيتها أمام مجلس الأمن فخذلنا كما كان متوقفاً .

وفتحت معركة فلسطين على مصاريحها فأسرعت مصر الفتاة إلى المساهمة فيها وإلهاب  
عواطف الشعب للوقوف إلى جنب فلسطين وأسرعت لأكون أول متطوع مصري يُهرع إلى  
ميدان فلسطين فالتحقت بمعسكر التدريب الذي أقامته الحكومة السورية في قطنة .. وإن  
هو إلا قليل من الوقت حتى لحقني الرعيل الأول من أبناء مصر الفتاة مؤلفين كتيبة مصطفى  
الوكيل التي كانت أول من دخل إلى فلسطين واشتركت في معاركها الأولى في الجهة  
الشمالية ولم تلبث مصر كلها أن جاءت في آثارنا حكومة وشعباً ودخل متطوعو الإخوان  
المسلمين من الجنوب فأبلوا بلاء حسناً ودخلت الجيوش المصرية في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨  
مشتبكة في حرب رسمية مع جيوش إسرائيل .. وتدخلت الدول الأجنبية وفرضت على  
مصر هدنة بعد الأدوار الأولى من القتال . وفي خلال الهدنة تمكن اليهود من تعزيز  
صفوفهم واستجلاب أسلحة جديدة . وعملت السياسة الانجليزية على إيقاع الخلاف بين  
صفوف البلاد العربية . مما أدى إلى انقلاب الموقف في فلسطين وكادت تحقيق بالجيوش  
المصرية كارثة محققة .. وانتصر اليهود وهزمت مصر والبلاد العربية وقامت دولة  
إسرائيل .. ومرة أخرى أصيبت معنويات مصر بضربة شديدة هبطت بها إلى أحط  
الدركات .. وحكمت مصر حكماً داخلياً عرفياً كأسوأ ما عرفته في أى يوم من أيام حياتها  
واصطلحت حكومة السعديين مع الإخوان المسلمين اصطداماً دائماً فأدى ذلك إلى وقوع  
حوادث اتخذتها الحكومة سبباً لنشر جو خناق من الإرهاب فاكتظت المعتقلات  
بالمعتقلين . وأهدر القانون وما يقدمه الناس من ضمانات لتحقيق العدالة . وغرقت البلاد  
في لجة من الظلام والفساد والطغيان كأحلك ما عرفت في أى يوم من الأيام .

### رحلة إلى إنجلترا

وفي هذه الأثناء رأيت مرة أخرى أن أسافر إلى إنجلترا كما فعلت من قبل مرتين لأدعو  
للجلاء والوحدة وأستشف سياسة الانجليز حيال مصر .. ولم أكد أصل إلى إنجلترا حتى  
أدركت مدى التدهور الذي وصل إليه مركز مصر في إنجلترا وفي العالم بعد هزيمة  
فلسطين .. فقد أصبحت مصر وحكومتها أضحوكة الصحافة الانجليزية .. وسرعان  
ما اكتشفت أن ذلك لم يكن مقصوداً على الصحافة الانجليزية بل أصبح يشمل صحافة  
الدنيا كلها .. وأصبح كل حديث عن جلاء الانجليز عن مصر والسودان يقابل بسخرية  
لا عهد لي بها من قبل في كل زيارتي لإنجلترا . وأسفر الانجليز عن نواياهم في احتلال  
مصر والسودان كما يحلو لهم .. وأنهم في مصر ... وسيظلون في مصر معتمدين على قوتهم .



وسمعت لأول مرة حملة العالم الشعواء على نظام الحكم في مصر والتنديد بما بها من فقر وجهل ومرض ، وكيف أن شعبها يُستغل لمصلحة حفنة من الأغنياء والرأسماليين ... وفي كلمة وجدت العالم ينظر إلى مصر من خلال زاوية جديدة ... وهى زاوية الاشتراكية التى أصبحت تغمر العالمين إما على صورة يسارية كما هو الشأن فى شرق أوروبا ... أو على صورة يمينية كما هو الشأن فى إنجلترا وفرنسا ودول غرب أوروبا ... وإما تحت اسم ديمقراطية وعدالة اجتماعية كما هو الشأن فى أمريكا ... لقد أصبح العالم كله لا يفهم وجود طبقة من الأغنياء فى مجتمع من المجتمعات ووجود طبقات أخرى من الفقراء ...

أصبح العالم المتمدين ليعمل له إلا نحو الفوارق بين صفوف الشعب عن طريق فرض الضرائب التصاعدية التى لاتسمح لمواطن أن يزيد دخله عن قدر معين حدد فى إنجلترا بخمسة آلاف من الجنيهات فى العام ... وحدد فى أمريكا بضعف ذلك وفى بلاد أخرى بأقل من ذلك كثيراً .. والمهم أن الضرائب أصبحت تتكفل بالتقريب بين الصفوف وأصبحت الدولة تشعر بمسئوليتها تجاه كل مواطن من حيث المحافظة على صحته ، وتوفير وسائل العمل له ... بل أصبح شعار الأمم المتمدينة هو «رعاية المواطن من المهد إلى اللحد» .

ووزعت الأراضي الزراعية على العاملين فيها بأنفسهم . وأمت مصادر الإنتاج الكبرى فأصبحت ملكاً للمجموع ... وهكذا سادت المبادئ الاشتراكية فى كل مكان .

ولقد حفزنى ذلك على دراسة الاشتراكية علماً وعملاً ... فوجدتها ترمى إلى كل هذا الذى تدعو إليه مصر الفتاة منذ يومها الأول . ترمى إلى حق المساواة الحقة بين المواطنين وإزالة الفساد والاستغلال ومظاهر الطغيان . وتضع لذلك أصولاً وقواعد كأنها اشتقت من الإسلام اشتقاقاً . فالاشتراكية لاتعترف بغير العمل مصدراً للإنتاج . فلا تعتبر رأس المال أحد مصادر الإنتاج وكذلك تعمل بالشريعة الإسلامية التى تحظر الربا أى فائدة رأس المال إيماناً منها بأن رأس المال لادخل له فى الإنتاج ولذلك فلا يستحق فائدة من أى نوع كدن وإثما العمل والعمل وحده هو الأولى بالحصول على ثمرة مايتج . وذلك هو محور الاشتراكية وهو محور الاقتصاد الإسلامى ... تقول الاشتراكية إنه ليس لأى مواطن عائد إلا بمقدار عمله وتقول الشريعة «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزأه الجزاء الأوفى» .

تريد الاشتراكية أن تقضى على الفقر وأن تخلق من المجتمع جسداً واحداً يعمل في تعاون وتناسق وفق خطط موضوعة وقواعد مقررّة - وتقول الشريعة «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» .

فلاشترائية كما يطبقها العالم الحديث هي روح الإسلام وهي تعاليم مصر الفتاة التي كافحت في سبيلها ، خاصة وأن الاشتراكية تحارب الاستعمار وهي العلاج الحاسم للقضاء عليه . فالاستعمار هو ذروة الرأسمالية والشعب الانجليزي لم يستعمر مصر إلا ليتخذ منها سوقاً لاستثمار رؤوس أمواله سواء بتشغيل الأموال بإنشاء البنوك والشركات في مصر ... أو باتخاذها سوقاً لتصريف البضائع التي تنتجها الشركات في بلاده . وتستعمر فرنسا شمال أفريقيا لهذا الغرض ...

وكل الدول المستعمرة إنما تستعمر لاستثمار رؤوس الأموال . فإذا قضينا على هذه الوسيلة لاستثمار رؤوس الأموال ... إذا جعلنا المرافق العامة مملوكة للدولة .. وإذا أممنا مصادر الإنتاج وأصبحت كلها مملوكة للدولة ... فلم يعد هناك سبيل لاستغلال هذا المرفق أو ذاك ... لم يعد هناك سبيل لإنشاء شركات وبنوك ومتاجر ... وبالتالي لن يجد الاستثمار فائدة له يجنيها من وراء احتلاله هذا البلد أو ذاك .

الاشترائية هي الترياق لسم الاستعمار ... والاشترائية هي الدواء لكل ماتشكو منه مصر . فهذا الريف المصري الذي يعيش في حالة مزرية جعلته غير صالح للجهد في سبيل أى معنى من المعاني الكريمة ... سرعان ماينقلب رأساً على عقب بتطبيق القاعدة الاشتراكية وهي أن ملكية الأرض للعاملين عليها . ففي مصر مايقرب من ثلاثة ملايين فدان يملكها بضعة عشر ألف شخص . وهؤلاء البضعة عشر ألف هم الذين يملكون الأرض ويملكون الصناعة ويملكون التجارة ... وهؤلاء هم الذين يخرج منهم النواب والسيوخ والوزراء والسفراء ... وهؤلاء هم الذين يملكون زمام الحياة المصرية فلا يعينهم من أمرها إلا أن يعيشوا في رفاهية وبجوحة وهذا هو مايقققونه لأنفسهم بالفعل ولاعليهم ماذا يكون نصيب باقي المواطنين .

الاشترائية دواء لكل ذلك ... فهي لاتسمح بتكديس الملكية وكل مصادر الثروة في يد هذا العدد المحدود ... بل لابد من توزيعها على أكبر عدد من العاملين ... وبانتشار

الثروة على أكبر عدد ممكن تنتشر الكرامة والحرية والعزة ويتحول هذا الريف إلى قوة حية عاملة .

وتعانى مصر ضعفاً في الإنتاج وذلك بسبب النظام الرأسمالى الذى يجعل الإنتاج معلقاً بمشيئة الأفراد إن شاءوا أنتجوا وإن شاءوا لم ينتجوا ... ففي مصر حديد كأعظم مايوجد فى أى بلد من بلاد العالم ... ولكنه ظل حتى الآن عشرات السنين بدون استغلال وسيبقى كذلك مئات السنين ما لم يتقدم أحد الأغنياء لاستغلاله ... وفى مصر أراض صالحة للزراعة ... ويقذف النيل كل يوم فى خلال مدة الفيضان بألف مليون متر مكعب من المياه العذبة المحملة بالطمي الذى هو مصدر الخصوبة والحياة ... تذهب هذه المياه سدى فى كل عام إلى البحر .

وعندنا الأرض التى لو رُويت بهذه المياه لأنتجت أضعاف أضعاف ماتحتاجه البلاد ... ولكن هذه المشروعات تبقى بغير تنفيذ إلى أن يتقدم رجل غنى ليتولى استصلاح ألف فدان أو ألفين .. وما كان للأثم أن تعيش على هذا الأسلوب تحت رحمة بعض أفراد منها إن شاءوا عملوا وإن شاءوا لا يعملون .

فشكلة الفقر ومشكلة الجهل فى مصر لاسبيل لحلها إلا باتباع الطرق الاشتراكية وهى وضع خطط مشتركة لتنفيذ فى مدة محددة كخمس سنوات يقوم فيها كل مواطن بدور محدد معلوم لمضاعفة الإنتاج وزيادته . أى أن الإنتاج يتم وفق خطة جماعية يصدر بها قانون ويتعين على كل مواطن أن يقوم بالدور المرسوم له فى هذا القانون .

وبهذا الأسلوب نستطيع أن نضاعف ثروتنا الزراعية والصناعية .. وبهذا الأسلوب يعبأ كل المصريين للعمل على أحدث النظم العلمية فإن هى إلا خمس سنوات فى ظل إنتاج اشتراكى حتى يتحرر وادى النيل من كل مظاهر الاستعمار الأجنبى . وحتى نرتفع بمستوى الشعب فلا يكون هناك جاهل واحد ولا فقير ، بل الكل مواطنون كرماء أعزاء يعملون بجد واجتهاد ويلقى كل منهم مكافأته على عمله التى تتناسب مع كفاءته وإنتاجه وعندما يصل المجتمع إلى هذه المرتبة فإنه يصير مجتمعاً حراً منيع الجانب غير قابل للاستغلال أو الاستعمار .

### الحزب الاشتراكى

ومن هنا فقد رأيت أن الساعة قد حانت لاستبدال اسم مصر الفتاة باسم حزب مصر

الاشتراكي ليكون ذلك أكثر دلالة على أهداف الحزب ومراميه ... فما مشروع القرش إلا حركة اشتراكية .. وما كان كفاح مصر الفتاة إلا على قواعد اشتراكية ... وإذا أصبحت الاشتراكية هي نظام العالم الحديث ... فقد أصبح من الحق أن نسمى الأشياء بمسمياتها وأن نصف مصر الفتاة بوصفها الصحيح وهو الاشتراكية ... وهي الاشتراكية التي هي من صميم الاسلام ولب دعوته... وهكذا أعلننا برنامج الحزب الاشتراكي .

\* \* \*

## المبادئ الرئيسية للحزب الاشتراكي

### ١ - الله والشعب :

الإيمان بالله خالق هذا الكون وعبادته هو أساس الاجتماع البشري ، وعبادة الله لا تتجلى في شيء قدر تجليها في خدمة الشعب في صدق وإخلاص ، دعت إلى ذلك الأديان السماوية . فهدف الحزب وشعاره هو عبادة الله عن طريق خدمة الشعب . بتحريره من الخوف والجهل والمرض والعوز ، وحمايته من أن يقع فريسة القهر أو الإعتات أو الاستغلال ، فالحرية الشخصية وحرية الخطابة وحرية العقيدة وحصانة المسكن وحرية الصحف وحرية الاجتماع والتظاهر السلميين ، وحق الشعب في تأليف الجمعيات والاتحادات ، وحق كل فرد في السعي لترشيح نفسه للنياحة وتقلد الوظائف العامة للاشتراك في إدارة بلاده ، وحرية الانتخابات ، وبالجملية كل ماتضمنه الدستور المصري من حقوق للشعب - باعتباره مصدر السلطات - كل هذه يعتبرها حزب مصر الاشتراكي حقوقاً مقدسة ودعائم قوية للمحافظة على كيان الشعب المصري . وكل محاولة للانتقاص منها أو المساس بها فضلاً عن إهدارها لأى سبب من الأسباب تعد بمثابة اعتداء على الأمة وخيانة لها يترتب عليها تعريض البلاد للمخاطر والفتن في الداخل وفقدان الاستقلال من الخارج .

### ٢ - التأمين الاجتماعي :

المصريون جميعاً منذ ولادتهم حتى نهاية حياتهم في كفالة الدولة التي يتعين عليها أن تسهر عليهم منذ الطفولة المبكرة بأن تعاون الأمهات والآباء على إحسان تربيتهن ومدنهم بالغذاء الكافي والعناية الطبية اللازمة . وتأمينهم بعد ذلك ضد المرض والبطالة والعجز والشيخوخة ، ضامنة لهم حلاً أدنى من المعيشة الكريمة اللائقة بما وصلت إليه الإنسانية من الحضارة المادية والعلمية ، فلا يكون هناك بيت خال من الماء أو الكهرباء ولا يكون هناك مصري لا يتذوق نعم الحياة الحديثة التي لم يخلقها الله لتكون وقفاً على أناس دون أناس .

### ٣ - حق التعليم :

التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية واجب على كل مصرى ومصرية بالمجان ، وحق التعليم لما فوق هذه المرحلة هو من حق كل مصرى ومصرية لانتحول بينه وبينها. موانع من المال أو قلة الأمكنة ، ومهمة الدولة أن تضع برنامجاً يتم في خمس سنوات يقضى في ختامها على الأمية في طول البلاد وعرضها . ولا يدع طفلاً في سن التعليم بغير تعليم أو رغباً في التعليم العالى بدون تحقيق بغيته .

### ٤ - حق العمل :

العمل واجب على كل مصرى وهو في ذات الوقت حق له ، فلا ينبغي أن يكون هناك مصرى واحد بغير عمل ، كما لا ينبغي أن يطلب مصرى واحد العمل فلا يجده . وحق العمل مشفوع بحق الراحة بأجر . ويتقاضى كل عامل ما يتناسب وكفاءته من ناحية وحالته الاجتماعية من حيث عدد أفراد أسرته من ناحية ثانية بحيث يهيء له الأجر مضافاً إلى الخدمات الاجتماعية هذه المعيشة اللائقة التى تضمنها الدولة .

وللعامل حق تكوين الاتحادات العامة التى يهيمن عليها اتحاد أعلى يكون هو الوساطة لتنظيم علاقة العمال بأصحاب الأعمال وبالدولة .

### ٥ - الإنتاج الجماعى :

هدف حزب مصر الاشتراكى أن يحل الإنتاج الجماعى محل الإنتاج الفردى ليكون المقصود منه هو تحقيق مصلحة المجموع . ولكى يمكن أن يتم الإنتاج سواء في الزراعة أو الصناعة أو التبادل التجارى وفق خطة مدروسة ومشروعات شاملة تضعها الدولة لعدة سنوات متتالية ولكى يمكن منع إنتاج أو استيراد مواد للترف وصنوف الكماليات التى لا يستعملها إلا فريق ضئيل من الناس .

ويجب أن يشرع على الفور في وضع مشروع ضخيم يتم خلال ست سنوات على مرحلة واحدة أو مرحلتين ، كل منها ثلاث سنوات ، ويهدف إلى مضاعفة محاصيل الأرض المزروعة في الإنتاج الزراعى بزيادة المتزرع في الوقت الحاضر وبإضافة أراضٍ جديدة إليها ، ولتصنيع البلاد بإنشاء الصناعات الثقيلة وصناعة الآلات وتوليد القوى الكهربائية ، وصناعة محاصيل البلاد الزراعية ، وذلك لرفع مستوى معيشة الشعب وتحصين البلاد ضد الغزو والاستغلال الأجنبى .

ويجوز للأفراد في مرحلة الانتقال امتلاك المصانع وإنشاؤها وإدارتها بشرط أن يتفق وجودها وإنشاؤها مع البرنامج الذى تضعه الدولة وبشرط أن تعمل وفقاً للشروط التى تضعها الدولة لنظام العمل وثمان السلع وكيفية التصرف فى إنتاجها . على أن الصناعات الكبرى والرئيسية وكل الصناعات التى تتصل بالمنفعة العامة للشعب كالمياه والنور والمواصلات التى ستقوم الدولة بإنشائها وفق مشروعاتها الموضوعة ، هذه كلها لا يمكن أن تكون محلاً للاستغلال أو الكسب أو لأهواء الفرد بل تكون مملوكة للدولة ، أى المجموع .

## ٦ - ملكية الأرض الزراعية :

لعلاج الأوضاع الحالية فى مصر - عن طريق قانونى ودستورى وعلى سبيل التدرج - تبتاع الدولة أطياف جميع الملاك الذين تزيد ملكيتهم عن خمسين فداناً ، أو الذين تقل ملكيتهم عن هذا القدر ولا يعملون فيها وذلك فى مقابل سندات على الخزينة المصرية تستهلك فى خمس وعشرين سنة وتحول لحاملها ربحاً سنوياً وقابلة للتداول ليتمكن من بيعها واستغلال أمواله فى نواح أخرى . وتوزع الدولة الأراضى المشترية على الذين يرغبون شراءها من صغار الملاك الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة أو المزارعين الذين اعتادوا العمل فيها أو استجارها وذلك فى مقابل أقساط صغيرة على آجال طويلة تدفع من محاصيل الأرض نفسها أو بالنقد على حسب اختيار المشتري ، على أن لا يزيد ما يمتلك بهذا الأسلوب على خمسة أفدنة . وعلى أن يتم الإنتاج الزراعى فى سائر أنحاء البلاد بصورة جماعية فيؤلف ملاك ومزارعو كل بلد أو قرية يزيد زمامها عن ألف فدان جمعية تعاونية للإنتاج على صورة اتحاد زراعى ليتسنى للدولة التعامل معهم وإحاطتهم بمخططاتها فى الإنتاج ولتقدمهم من ناحية أخرى بالآلات والأموال والفنيين اللازمين لجعل الإنتاج الزراعى على أساس علمى حديث ، والانتفاع بثمره الانتاج الكبير ، ثمرة المخطط الموضوعة وتتولى اتحادات الملاك والزراعى بمعاونة الدولة إعادة تخطيط وبناء القرية المصرية على صورة إنسانية كريمة ، على أن يوضع لذلك برنامج شامل يتم فى خمس سنوات .

## ٧ - الفوارق الاجتماعية :

تتولى الضرائب التصاعدية وضرائب التركات والضرائب على الكماليات إعادة توزيع الثروة فى مصر توزيعاً عادلاً . فلا يسمح بزيادة دخل الشخص عن حد معين يكفل له حياة طيبة فى غير بطر أو تجبر .

## ٨ - مصر والسودان :

هدف حزب مصر الاشتراكي منذ أسس في عام ١٩٣٣ باسم مصر الفتاة هو تحرير وادى النيل من ربة الاستعمار الأجنبي . ولذلك فقد عمل ويعمل لتحقيق هذه الغاية . ومع إيمانه بأن مصر والسودان وحدة اقتصادية واجتماعية واحدة ، وأن النيل لايتجزأ ، فهو مع ذلك يقدس حق الشعب السودانى فى اختيار شكل حكومته بعد جلاء الانجليز عن بلاده ، وتحديد الصورة التى يرغبها فى التعاون بينه وبين الشعب المصرى على قدم المساواة فى ظل النظام الاشتراكى الديمقراطى .

## ٩ - الولايات العربية المتحدة :

يعمل حزب مصر الاشتراكي على توحيد الشعوب العربية كلها فى ظل دولة واحدة يطلق عليها اسم الولايات العربية المتحدة ، حيث يحتفظ كل شخص عربى فى ولايته بشخصيته وطابعه واستقلاله بشئونه الداخلية ، وأن يتعاون الجميع كدولة واحدة على مايرفع من مستوى الشعوب العربية اقتصادياً واجتماعياً بتنظيم الانتاج والتوزيع فيما بينها طبقاً للنظم الاشتراكية ، وأن يتألف من الجميع جيش واحد لصد أى عدوان يقع من الخارج على الكتلة العربية ، أو أى محاولة أجنبية من أى نوع كان للاستغلال أو التحكم .

## ١٠ - التآخى العالمى :

يؤمن حزب مصر الاشتراكي بوجوب توطيد السلام العالمى على التآخى بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم ، ومقاومة كل محاولة أو فكرة ترمى إلى الاستعمار أو الاستعلاء أو استغلال إنسان لأخيه الإنسان ، أو تحكم دولة كبيرة فى أخرى صغيرة ، وتنظيم الانتاج العالمى على أساس التعاون بين الدول ، وتبادل المنافع ومراعاة مصلحة المجموع ، وتأييد حق كل إنسان فى أن يحيا حياة حرة كريمة .

## ١١ - الوسيلة :

لاسيبل لتحقيق المبادئ السابقة إلا بنشر العلم والأخلاق وتربية الشعب تربية اجتماعية على أوسع نطاق . ولذلك فإن الحزب يعمل جهد طاقته فى هذا السبيل ويشجع كل مجهود يبذل فى هذا الاتجاه . ويحمى حرية الفكر وحرية البحث العلمى وحرية العقيدة



وينكر كل الإنكار أى محاولة لاستعمال القوة أو الإرهاب لتطبيق المبادئ السابقة ، او محاربتها فضلاً عن استخدام الجريمة ويعتبر ذلك كله شرّاً لا ينتج إلا الشر .  
ويؤمن الحزب أن حب الخير وإقناع الناس به والإخلاص فى القول والعمل هو كل السلاح اللازم لتحقيق البرنامج السابق .

### مواصلة النضال :

وقد أعلن البرنامج وبدأنا حملة جديدة بعزم جديد وصدرت جريدة مصر الفتاة تحمل كلمة الاشتراكية وتدعو لمحاربة الاستعمار وتحرير الطبقات الكادحة وتحمل الدولة مسئولية رعاية المواطنين .

واستجاب الشعب للدعوة بعد أن وصلت إلى صميم علته ونجحت فى تشخيص مرضه ... فأقبل على الاشتراكية إقبالاً منقطع النظير ... وضاعت الحكومة أذرعاً بذلك كله فصادت واضطهدت ثم ألغت الجريدة ... ولكن الحرية الزاحفة وجدت فى قضاء مجلس الدولة حصنها ودرعها الواقى فعاودت الجريدة المعطلة الصدور وصدرت إلى جوارها جريدة أخرى هى الشعب الجديد وقادت الجريدتان الأمة والشعب نحو فجر جديد من الحرية والإخاء والمساواة .

وقدم ممثل الحزب فى البرلمان بطل مصر الفتاة المغوار إبراهيم شكرى سلسلة من التشريعات الاشتراكية لتحديد الملكية بخمسين فدانا وتوزيع ما زاد على ذلك على صغار الفلاحين . وتشريع آخر بإلغاء الرتب والألقاب وتشريع ثالث بتنظيم اتحادات الفلاحين والعمال . وقاد الحملة فى البرلمان وقادت جريدتا الاشتراكية الحملة خارجه ... وبدأت المحاكمات مرة أخرى وبدأت السجون والاضطهادات ... ولكن ذلك كله لم يزد الاشتراكية إلا رسوخاً وثباتاً ... ولم يزد الشعب إلا ثقة بها والتفافاً حولها ... ولقد نجلى ذلك كأروع ما تجلى فى تاريخ منصر عندما احتشدت عشرات الألوف فى الاجتماع الذى دعا إليه الحزب فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٥١ وهو ذكرى توقيع المعاهدة لإظهار مبشئة الشعب فى إلغاء المعاهدة . لقد تجمعت جموع لم يسبق أن تجمعت فى تاريخ مصر فى اجتماع واحد وتكلم ممثلو الهيئات الشعبية الذين دعاهم الحزب الاشتراكى للكلام إيماناً منه بوجوب التكتل والاتحاد فى هذه المناسبات القومية ... وانتهى الاجتماع بإصدار

قرارات جماعية بضرورة إلغاء المعاهدة واستعداد الشعب للالتفاف حول حكومته بمجرد أن تخطو هذه الخطوة .

### الحكومة تعمل :

ولقد خطت حكومة النحاس باشا هذه الخطوة فألغت في ١٦ أكتوبر المعاهدة وعدلت الدستور لإظهار وحدة وادى النيل يجعل مصر ملكاً على مصر والسودان ... وهكذا ألقت الحكومة القفاز في وجه الانجليز وكان حقا على الشعب وعلى رأسه الاشتراكيون أن يَخَفُوا لتأييد الحكومة وأن يُظاهروها في موقفها الوطني الكريم .. وهو مافعلناه في غير نخرج أو تردد .

### في السجن :

وها أنذا مرة أخرى أجلس في السجن ... وتقوم الدنيا وتقع بعد أن ألغيت المعاهدة ... وسواء أدركت مصر أو لم تدرك كيف أن الفضل الأول لإلغاء المعاهدة هو لكفاح الاشتراكيين في هذا العام الأخير ... فلولا هذا الضغط المستمر المتواصل لما أقدمت الحكومة على الخطوة بعد أن وجدت أن لامناص لها من الإقدام عليها إذا أرادت أن تظل محتفظة بشعبيتها ... بل إذا أرادت أن تظل محتفظة بكرسى الحكم ...

### إلى الأمام :

وأيّا كان الدافع الذى حدا بالحكومة فلها الشكر والحمد والثناء ... وأيّا كان نصيبنا من تقدير الناس فلذلك لايعيننا في قليل أو كثير ... فشعارنا الدائم ... ووطنيتنا الصادقة هى التى تجعلنا نستمد الرضاء من داخل نفوسنا ... ولا ننتظر من أحد جزاء ولا شكوراً ... وأيّا كان تطور الحوادث .. وأيّا كان القدر الذى ينتظرنا .. فسوف نمضى .. سوف نمضى يابنى لتحقيق هذا الذى نسعى لتحقيقه منذ عشرين سنة ... وهو أن نجعل وادى النيل كما كان ... وكما أعدته الطبيعة ، وكما يهبه له مركزه التاريخى ... سنمضى لنجعل من وادى النيل دولة عظمى تقود العالمين .. لابقوة السلاح ولابقوة البطش والسلطان ولكن بقوة العلم وبقوة الحضارة وبقوة الإيمان ...

سنمضى حتى نرى وادى النيل هو قلب أفريقيا الخفاق وهو الذى يشع بالنور خلال هذه القارة المظلمة فيحيل ظلامها إلى نور وهّاج .. سنمضى حتى نجعل وادى النيل كهف

الحرية لكل الشعوب العربية والإسلامية .. ستمضي لجعل وادى النيل حجر الزاوية في سلام العالم وطمأنينته وأخوته .

ستمضي لجعل وادى النيل علماً على آخر ما عرف البشر من رقى وحضارة وتسامح وتآخ بين الناس حيث لا طغيان ولا فساد ولا استغلال ولا استعلاء ، وإنما مجتمع عالم فاضل يعمل في تعاون وتناسق على إسعاد المجموع وإسعاد العاملين .

وباستطاعة الاشتراكيين أن يجعلوا هذه المعركة الدائرة الآن بين مصر وبين إنجلترا هي نقطة البدء لتحقيق هذا البرنامج ... باستطاعة الاشتراكيين أن ينظموا الشعب للانتصار على الانجليز ... ومواصلة الانتصار بعد ذلك على بقية الأعداء مخلقات الانجليز وأعنى بها الفقر والمرض والجمل والفساد والطغيان .

قد تتاح الفرصة أو يحال بيننا وبينها ... ولكن القافلة تسير ... تسير والإيمان يحدوها والأمل يرف عليها والنصر غايتها ...

#### الأرض الطيبة :

وسأمضي سواء في سجنى أو في خارج السجن واحداً من جنود هذه القافلة ... وهذا عهد الله وميثاقه أن أظل أميناً على هذه الرسالة ... فإذا مت في الطريق فهي أمانة في عنقك يا بنى وعنق أمثالك من أبناء الجيل القادم ... ألا تَهِنُوا ولا تترددوا في السير إلى الأمام مستعدين الآلام والتضحية ... حتى تجعلوا الأرض الطيبة ... أرض وادى النيل كما كانت في القديم مركز العالم ومبعث النور وموئل الحرية والإخاء والسلام .

## خاتمة

### بقلم الأستاذ جمال البنا

عندما عزم الحزب الاشتراكي على إصدار سلسلة من الرسائل الثقافية كان من براعة الاستهلال ، والتوفيق الإلهي أن يبدأ بهذه الرسالة الطيبة عن الأرض الطيبة . إذ الواقع أنها ليست فحسب تأتي في ميعادها ووقتها الرموق ، بل إنها تحقق من الأغراض والأهداف مالا تحققه كثير من الرسائل الأخرى .

فهناك أولاً ذلك الحديث عن الوطنية وأصولها والعوامل المؤثرة في التاريخ المصري . والتي ستظل مؤثرة فيه لأنها تقوم على أسس من البيئة والمناخ .

ثم هناك هذا السرد المحكم لمفاخر هذه البلاد وتاريخها من وجهة النظر الوطنية - والتي لا تخالف أيضاً الواقع والحقيقة - وهو أمر لم تشر إليه معظم الكتابات التاريخية ، إذ كتب القدم من التاريخ المصري مؤرخون يونانيون .. والحديث منه مؤرخون انجليز أو فرنسيون أو غيرهم من الأجانب ، وتجاهل هؤلاء وأولئك مفاخره وأعظموا نقط الضعف القليلة التي لا يخلو منها تاريخ طويل . بل ولوثوه باقتراءات لا أصل لها إلا الظن .

وأخيراً فهناك هذا العرض الهام لحركة مصر الفتاة منذ أن كانت فكرة في ضمير أحمد حسين طالب الحقوق حتى انتهت إلى عقيدة وطنية اشتراكية تطبق الآفاق وتؤتي الثمار . ولعل هذا القسم أن يصير أشد الأقسام أهمية لأنه يتناول ناحية حساسة من تاريخ الحركات القومية بقلم صاحبها ومؤسسها . ويصور انتقال هذه الحركة وتدرجها البطيء . ومسايرتها لروح العصر دون أن تخالف الخصائص الأصيلة للطبيعة المصرية .

ولعل ما يزيد هذه الرسالة أهمية أنها - وهي تمثل في جاسستها للناحية الوطنية عقيدة الحزب الاشتراكي - تبدد شبهة كثيراً ما تخطر في بعض الأذهان عن منافاة الوطنية للاشتراكية . وتقطع بذلك الطريق على الذين يريدون أن يرفعوا دعواتهم فوق أوطانهم . أو يجردوها من عنصر الوطنية أو يهيئوا في وديان النظريات العقيمة دون نظر إلى حالة بلادهم وواقع الأمور فيها . ولاشك أن الحزب الاشتراكي يستحق الشكر من كل وطني قدر ما تستحق هذه الرسالة تقدير كل قارئ ...

ولقد وددت لو يتسع المجال لأتحدث إلى القراء حديثاً مسهباً عن «رسائل الحزب الاشتراكي» والفكرة فيها والباعث عليها .. ولكنني فضلت أن تتحدث الرسائل القادمة عن نفسها بأحسن مما يتحدث عنها المحررون لها أو المشرفون على إصدارها . وموعدنا رأس كل شهر إن شاء الله ..

نوفمبر سنة ١٩٥١



في الإيمان والإسلام





## مقدمة

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى  
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم  
عند الله أتقاكم » .

هذا كتاب كتبه على شكل رسالة منذ نيف وعشرين سنة ، وقد كنت أعيش وقتئذ  
في عزلة جبرية فرضها عليّ الاعتقال الذي دام ثلاث سنوات إبان الحرب العالمية الثانية .  
وقد وجدتني أعود في هذه الأيام بمحض الصدفة لمطالعة هذه السطور ، فإذا هي  
تدهشني كل الدهشة ، فقد كان ظني بعد أن سلخت هذا العمر الطويل ، وبعد أن  
ألفت كتاب «الطاقة الإنسانية » ، أنني سأنكر الكثير من آرائ وأفكارى التى كنت عليها  
في تلك الأيام وأنا غارق في الكفاح السياسى والوطنى حتى الأذقان ، بل اعتقدت أنني  
سأنكر أسلوبى في الكتابة بعد أن أصبحت أؤثر الكتابة الموضوعية العلمية ، فإذا هذه  
الرسالة القديمة تفاجئني أنه باستثناء فكرة التطور التى أصبح لى فيها رأى جديد ، لا أنكر  
حرفا واحدا مما كتبت ، ولا أضيق بأسلوبها ، بل إن مرامى الرسالة وأهدافها تعبر أصدق  
تعبير عما أصبحت أميل إليه وأحبده وأدعو إليه .

لا جدال في الدين :

وإذا كان من بين هذا الذى أميل إليه وأخذت نفسى به في هذه الفترة من حياتى ،  
أن يكون حديثى وتفكيرى موجّهين دائما نحو الإنسانية في مجموعها على اختلاف أديانها  
وأجناسها وألوانها وقومياتها ، فلم أجد تعارضا بين هذا الالتزام وبين نشر هذه الرسالة  
بجروفها ونصها كما كتبها في هذه الأيام الحالية . فقد وجدتني أعالج موضوع الدين  
والإيمان بالله ، بروح المحاولة في إبراز وحدة العقيدة ونجوهرها ، وأنه أيا كانت الصورة  
التي تخيلها الإنسان عن الله . ومهما تعددت هذه الصورة وتنوعت نظرا لاختلاف البيئات

والأزمة والظروف ، فإنها تلتقي كلها عند نقطة بداية واحدة ، وهى إحساس الإنسان بوجود كائن أعلى منه وأسمى يتصف بأنواع الكمال التى حرم منها والسعى للعيش فى ظل هذا الكائن الأسمى ، عيشاً أفضل . هذه النظرة الشاملة إلى روح الأديان ، هى ما أدين به اليوم ، وأتمنى أن يلتقى البشر عنده ، وهو الإيمان بسبب أول لهذا الوجود ، يعلو على الأسباب كلها ، وأن هذا السبب لا يمكن إلا أن يكون حياً ، حكيماً ، حياً كله ورحمة كله .

### امتياز الإسلام :

ولم أجد فيما انتهت إليه فى القسم الثانى من الرسالة - على ضوء علم الأديان المقارن ، من تفضيل بعض الخصائص التى ينفرد بها الإسلام - ما يغير من هذه النظرة الشاملة ، فليست هذه الخصائص إلا ما يصبو إليه البشر اليوم مجتمعين ، وما تعمل له هيئة الأمم بمنظمتها المختلفة ، وما يجاهد فى سبيله فلاسفة العصر وقادة الفكر وجمهرة المصلحين والأدباء والفنانين ، وهو أن الساعة قد حانت لاستقبال البشر فيها مرحلة جديدة من مراحل التطور الإنسانى ، وهى الإيمان بالأمل المشترك للبشرية كلها ، وأنه لن يكون أمن أو سلام ، أو حرية أو ديمقراطية حقيقية ، بل لن تتحرر البشرية من لعنة الحروب وويلاتها ويسود الرخاء والهناء ، إلا إذا أسقط بنو الإنسان جميع الحواجز والقيود والسدود التى يفرضها اختلاف الجنسيات والقوميات والألوان والمذاهب والنظم الاقتصادية .

وليس كإسلام - كما سبى قارئ هذه الرسالة - دين يحمل الدعوة إلى السلام العالمى والإخاء البشرى والتوحيد بين الأمم والشعوب على اختلاف مشاربها وأجناسها وعقائدها وألوانها ، بل وأديانها ، وأن ذلك قد تحقق بالفعل فى ظله وخرج من دائرة الأمان والأحلام إلى دائرة الواقع والتطبيق .

### المادية هى الخطر المشترك :

وعلى أية حال ، فقد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية ، أيا كان موضوعها ومحورها ، أن الخطر الذى أصبح يهدد عقيدته ، ليس ما يقول به دين آخر ، فالأديان كلها كما أسلفنا وكما سيطالع القارئ فيما بعد بالتفصيل - تقوم على الإيمان بالمثالية والغيبات والتطلع نحو صورة من صور الكمال الإنسانى ، وإنما الخطر الذى أوشك أن

يهدد العقائد كلها ويقتلعها من جذورها ، هو هذه المادية الطاغية الجارفة المسعورة ، التي لم تقف عند حد الهزء بالأديان ووصفها بأخط الصفات وأنها أفيون الشعوب ، بل راحت تهاجم المثالية من أساسها ، وتنكر تقديس حق الفرد « كل فرد » في الحياة والحرية والكرامة الإنسانية ، وتعد كل حديث عن الحب والرحمة والتسامح والعدل والإحسان ، مجرد كلمات جوفاء فارغة ، وأنها أثر من آثار الجهل القديم والرجعية ، وأن الحديث الحق هو الذى يدور حول الصراع وحرب الطبقات ، والثورات الدموية لتصفية العناصر الرجعية ، وأن ناموس الحياة إنما يقوم على غلبة القوى على الضعيف ، مدعين أن ذلك هو حديث العلم مستدلين على ذلك بما يجرى في الغابة من تنازع البقاء كسيل للتطور والارتقاء .

وهكذا يدعون الإنسانية باسم العلم المزعوم والتقدم ، أن تعود القهقري إلى قوانين الغابة وظلامها ، والنزول عن تراث البشرية الذى جاهدت من أجله عبر القرون والأجيال ، على لسان أنبيائها ورسلاها وفلاسفتها وقادتها ، وهو إحلال السلام محل الحرب ، والتعاون بدلاً من الخصام ، والقانون بدلاً من السيف ، والحب في مكان الحقد والبغض .

#### يقظة :

وإذا كان بنو البشر في هذه السنوات الأخيرة قد بدأوا يصحون ويستيقظون من هذا الكابوس الخيف ، إذا كانوا قد شرعوا مرة أخرى يجاهدون للانعتاق من هذه اللعنة المادية التي حلت بالعالم في النصف الأول من هذا القرن ، وبدأت ريح جديدة تهب على الشعوب التي غرقت حتى أذقانها في المادية ، فراحت تندد بما تردت فيه من مذابح وعبودية ، وتدعو للكفران بجمجمة الحروب ، والثورات الدامية والأساليب العنيفة ، وتبشر بالتعايش السلمى ، فما أسعدنى أن أنشر هذه الرسالة المطبوعة عن الإيمان والأديان والإسلام ، إسهاما منى في إزالة الصدا الذى ران على القلوب ، وتبيدا للظلام الذى غشى العقول ، ويذر بذرة من بذور الرجاء والأمل في أن تثوب الإنسانية إلى رشدها ، وتؤمن من جديد بالمثل الأعلى ، لتعيش في ظله في فيض من الحب والرخاء والأخوة البشرية .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

أحمد حسين

## مقدمة الطبعة الثانية

ليس هناك ما يسعد الكاتب أكثر من أن يرى كتابا له يعاد طبعه في أقل من عام . وإعادة طبع كتاب يدور حول « الإيمان والإسلام » هو تأكيد للظاهرة التي بدأت تفرض نفسها في دنيا الكتب ، وهي إعادة طبع الكتب الدينية وشدة الإقبال عليها . وهذا الإقبال على مطالعة الكتب الدينية والروحية ، قد أصبح ظاهرة عامة شاملة ، لا تقف عند حدود أو البلاد العربية ، بل تتعداهما إلى سائر أرجاء العالم الواسع ، شرقه وغربه على السواء .

والإجماع منعقد بين المفكرين على أن ذلك رد الفعل الطبيعي لما عاناه البشر من التفكير المادى البحت ، وما بات يهددهم به من الفناء المطلق ، فيما لو قامت الحروب التي لا يردعها رادع من إيمان أو محبة إنسانية .

ومن الظواهر التي أصبحت مألوفة الآن في كل مكان ، هو تصريح غلاة المؤمنين بالمادة وقوانينها ، بأن لا تعارض بين الأديان وبين المذاهب المادية الاقتصادية .

وتتبارى الدول التي تحكمها أحزاب شيوعية ، في الإعلان عن توفر حرية الأديان فيها ، وعن ازدهار الحياة الدينية وأن أبواب دور العبادة مفتوحة للقاصدين ، بل إنها تبعث بكبار رجال الدين فيها ، ليشهدوا المؤتمرات الدينية ، أو ليؤدوا فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة .

بينما بدأت بعض الأحزاب الماركسية « الحزب الإيطالي » تدعو إلى وجوب إعادة تقويم دور الدين في حياة الجماعة ، وتصحيح القول القائل بأنه أداة رجعية وتخلف .

والماركسيون إذ يتطورون هذا التطور ، في الوقت الذي انتصرت فيه دعوتهم بين أكثر من ثلث العالم ، إنما يقدمون دليلاً جديداً ، على تأصل الدين في النفوس ، وأنهم رأوا

أنه من حسن السياسة والكياسة ، ألا يرتطموا بهذه الصخرة العاتية صخرة الأديان والإيمان بالله .

وأحسب أن من حقنا نحن الذين لم يتزعزع إيماننا في أى لحظة من اللحظات ، في أن الكلمة العليا ستبقى دائماً للقيم الروحية والمثل العليا . أن نمضي في طريقنا أشد عزيمة وإصراراً . أشد إيماناً بما كنا مؤمنين به ، من أن لا كرامة للإنسان ولا حرية ولا أمن وطمأنينة . إلا في ظل الإيمان بإله واحد خالق للبشر ويعلو الجميع على السواء . وأنه قوى حكيم مدبر مهيم . ييسر رعايته على البشر . ويلحظهم بعنايته وقت الضيق والشدة .

وما أحوج البشر في زحمة الحياة . وسيادة بعض عناصر البغي . وغلبة الشر على الخير في بعض الأحيان . إلى أن تظل كوة الأمل والرجاء مفتوحة في نفوسهم ، فإن إغلاق هذه الكوة لا يعنى سوى دفعهم إلى الانتحار أو الجنون . وهو ما يقع بالفعل وسط الجماعات المغرقة في مادياتها .

وكم أتمنى أن يطالع المثقفون الماديون هذا الكتاب بقلوب مفتوحة . وبغير فكرة مسبقة . ليدركوا كيف أن الدين ليس كما يتصور البعض هو أساطير الأولين ، وإنما هو جوهر النفس الإنسانية . التي تشعر بحقيقتها في الوجود والحياة . وإن هذا الموت الذى يعرض لهم ، ليس هو خاتمة المطاف بقدر ما هو باب ينفذ منه الإنسان إلى حياة أخرى باقية . أكثر نعيماً . وأكثر عدلاً . وأكثر سلاماً .

وفق الله الجميع وهدانا إلى سبيل الخير والإرشاد .

أ. ح .

## الإهداء

### إلى الذات العلية

- لا أحسبك يا مصطفى الوكيل عاتبا عليّ وأنت شهيد الإيمان
- إذا أنا تجاوزت عن عهدي في أن أهديك كل كتبي
- ورفعت هذا الكتاب إلى الذات العلية
- إلى الله رب العالمين
- الذى خلقنى فهو يهدين
- والذى هو يطعمنى ويسقن
- وإذا مرضت فهو يشفين
- والذى يميّتنى ثم يحيين
- والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين

## الفصل الأول

### الإيمان وأثره

الإيمان غريزة - الرقى والحضارة ثمرة  
الإيمان - الحضارة الفرعونية - الحضارة  
الفارسية - الحضارة الصينية - الحضارة  
الإغريقية - الإيمان ينبوع العظمة الشخصية .

#### الإيمان غريزة :

الإيمان ، فى تصورى ، هو إحساس الإنسان ، وشعوره بضرورة وجود قوة أخرى أكثر كمالاً واقتداراً منه كانت هى البدء الذى منه أوبه كان ، وأن إليها خاتمة المطاف والمنتهى .

هذا الإحساس البشرى الذى يعمر به قلب الإنسان ووجدانه من وجود هذه القوة الخفية الكاملة القادرة هو فطرة الإنسان التى فطر عليها والتى ركبت فى طبعه فصارت لازمة من لوازم حياته المعنوية والروحية . وكما يبحث الإنسان عن الطعام والشراب والهواء للإبقاء على كيانته المادى ، فهو يشعر بالحافز للبحث عن هذه القوة الخفية والتقرب منها واسترضائها للإبقاء على كيانته الروحى والمادى معا .

وقد كان للغرائز المادية أثر كبير فى دفع الإنسان نحو التماس أوجه من المعرفة والنشاط والإنتاج الذى يبقى على كيانته المادى ، ولكن هذه الغريزة الروحية هى التى دفعته نحو بحر المعرفة دفعا فأدرك كل ما أدركه حتى الآن من علوم ومعارف ، وحقق كل ما حققه من تطور وارتقاء وخطوات فى سبيل المثل الأعلى والكمال . فلولا ذلك الإحساس بالمجهول الكامل الفعال ، لولا الإحساس بأن خلف هذه المنظورات قوة غير منظورة ، وأن خلف كل معلول علة مستورة ، ولولا هذا الشوق الذى يشتعل بين جوانح الإنسان ليدفعه إلى الاقتراب من روح الكون وجوهره ، لولا هذه المشاعر والأحاسيس ، لما وجد العقل البشرى ما يعمل به وما يتصدى لعله ولكف عن التفكير وجمد ، ولما اختلف الإنسان عن الحيوان الذى يقف عند حد تحصيل حاجاته الجسدية . فالإيمان هو الذى دفع آلة العقل

البشرى للحركة لحل ما فى هذا الكون من مجاهل ومشكلات ومعضلات واحدة بعد أخرى . هو الذى دفع به لتخطى الجزئيات إلى الكليات والمسببات إلى الأسباب والمعلوم إلى المجهول ، فكان ما كان من تاريخ هذا التطور العلمى والفكرى الذى كان الأساس لكل تطور مادى وارتقاء . فالعلم قد أدى دائماً إلى العمل ، فكان الإيمان هو ينبوع العلم والعمل معا .

### الرقى والحضارة ثمرة الإيمان :

والحق أن تاريخ العالم القديم ليس إلا تاريخ الأديان التى هى الصورة المادية للإيمان بعد أن يترجم إلى حركات وأقوال وإيماءات . ولا سبيل لنا لدراسة الحضارات الأولى وما كان عليه بنو البشر من علوم ومعارف وفنون إلا من خلال ما بقى لنا من أطلال منشآته الدينية ومؤسساته التعبدية معنوية كانت أو مادية ، أى على شكل معابد وهياكل وقبور أو على شكل تعاليم وتراجم وكتابات وعادات وطقوس .

### مصر الفرعونية :

وما كنا لنعرف شيئاً عن تاريخ مصر القديمة إلا من خلال هذه المخلفات من المعابد والهياكل والأهرامات الممتدة على طول الوادى وهذه النقوش والرسوم التى تمثل كلها الحياة الدينية التى تدلنا على أن أعظم حضارة عرفها البشر فى القديم قد أسست وارتفع بناؤها الشامخ على الأديان والعقائد الدينية . ولعل الذى لا شك فيه ، أن أول حافز دفع الإنسان للبناء ابتداء ، كانت رغبته فى إقامة بناء متين يمتاز عما اعتاد الإنسان سكناه ليكون لاثقاً بسكنى الآلهة . وتاريخ مصر القديم الذى يعد نموذجاً لتواريخ الشعوب القديمة ، يدلنا على هذه الحقيقة . إن أى مدينة من المدن المصرية لم تكن تتألف فى بادئ الأمر إلا من الهيكل المبنى تحيط به مساكن أهل المدينة المصنوعة حيثما اتفق من الشعر والوبر وأوراق الشجر . وكلما ارتقى الإنسان فى سلم الحضارة كلما عمد إلى تقوية بناء الهيكل وتدعيم أساسه وتزيين جدرانها ، حتى إذا بلغت الحضارات القديمة أوجها وذروتها تمثل ذلك أكثر ما تمثل فى الهيكل الذى ارتفعت أعمدته إلى السماء ، وامتدت رقعته فى الطول والعرض ، وازداد سمته روعة وشموخاً وجلالاً ، وذلك كله إرواء لظمأ النفس البشرية إلى ما تصبو إليه من تعظيم هذا المجهول وتمجيده . فكان الكرنك ودهليزه ذو الإثنى عشر عموداً التى لا مثيل لها فى الدنيا قديمها وحديثها ، وكانت هذه الأهرامات



عجبية الدنيا الكبرى في خلودها وروعها والتي تشهد بأفصح بيان . أن أعظم جهد بذله البشر ويذلونه هو لتعجيد هذه القوة المجهولة الفاعلة . ولا تزال للحضارة المصرية القديمة بعض أسرار ومعجزات علمية يحار لها البشر حتى في عصرنا الحديث . عصر النور والمعرفة الرائعة . كفن التحنيط المصرى القديم . والذى حفظ أجساد قدامى المصريين من البلى ألوقاً بعد ألوف من السنين . وهذه الألوان الثابتة التى احتفظت بكيانها كل هذه الدهور الطويلة . وما التحنيط إلا ثمرة الإيمان بالبعث . وظن المصريون أن الروح لا ترتد إلى الجسد إلا إذا ظل سليماً كاملاً فكان اختراع فن التحنيط . وفنون التحنيط والنقش على أقسى الأحجار وأصلها لتقاوم الزمان . وكانت هذه الألوان الثابتة . وكانت هذه المقابر التى تغص بكل ما يحتاج إليه المصرى في حياته المقبلة . وكانت هذه الكنوز التى وصلت إلينا في عصرنا الحديث لتبهير الدنيا بما كان عليه آباؤنا الأقدمون ، وهكذا كان الإيمان والتدين هو قوام الحضارة المصرية القديمة .

### الحضارة الفارسية :

ويمكن تتبع أثر الإيمان والعقيدة في خلق الحضارة الفارسية القديمة . فالعقيدة والعقيدة وحدها هى التى ارتفعت بهذا الشعب الفارسى القديم من مرتبة الرعاة والحياة البدائية الأولى إلى ذروة التمدن والعمران .

ذلك أن العقيدة الفارسية تقوم على أن في هذا العالم قوتين أزيليتين<sup>(١)</sup> تعمل كل منهما ضد الأخرى . وهما قوة الخير «أهورامزدا» وقوة الشر «أهرمين» وهاتان القوتان في صراع دائم . والخير هو الحياة . هو الصحة . هو العلم . هو المعرفة . هو البناء . هو التعمير . هو التناسل . هو الخصوبة . هو النظافة . هو كل ما يدور بخلد الإنسان من أعمال صالحة . أما قوة الشر فهى الموت . هى المرض . هى القحط . هى الوباء . هى الخراب . هى الجهل . هى الرذائل . هى البطالة . هى النجاسة ... ومهمة بنى الإنسان هى أن يؤيدوا قوة الخير ويدعموها بمحاربتهم للشر ومظاهره حتى تنتصر بذلك قوة الخير وتتفوق وتسد . فهذا الذى يتصدى لزراعة قطعة من الأرض البور . إنما يحارب الشر وينصر إليه الخير . هذا الذى يضاعف إنتاجه فيخرج من حقله عشرة أرادب من القمح بدلاً من ستة إنما ينصر إليه الخير الذى يريد الوفرة والكثرة ويدحر إليه الشر .

---

(١) تطورت هذه العقيدة فيما بعد كما سترى حتى انتهت إلى اعتبار قوة الخير وحدها هى الأزلية والخالدة .

إله الجذب والفقر والقحط . وهذا الذى يعمر مكانا خربا إنما يدعم قوة الخير أعظم تدعيم . لأن إله الشر يقطن الخرائب والخلاء والفقر ويفرح ويضطرب لإنتشار الدمار والفناء . وهذا الذى يشق ترعة أو يُعَبِّدُ طريقا أو يبيى مصرفا أو ينظم مرفقا عاما . يؤدي خدمة ثمينة لإله الخير الذى ينتصر من خلال النظام وجودة الإنتاج ووفرته . وهذا الذى يتزوج وينجب أولادا ويبيى لنفسه مسكنا نظيفا صحيا يعبد إله الخير أحسن عبادة لأنه ينصره على الشر ويعززه . وهذا الذى يقاوم المرض عن طريق الطب . وهذا الذى يخارب الجهل . وهذا الذى يخارب القذارة . كل هؤلاء عبيد «أهورامزدا» الصالحون الذين ينصرونه على عدوه المبين «أهرمين» ذلك الشيطان الرجيم .

. وهكذا سرت هذه الروح فى سائر تصرفات الفرس المادية والمعنوية حتى انتهت بهم إلى درجة رفيعة من الأخلاق والفضائل التى لا يمكن أن يكون وراءها مطمع لمستريد . وحسب الإنسان أن يطالع هذه النصوص المقتبسة من كتاب الديانة الفارسية المقدس والمسمى «الأفيستا Avesta» «إن الأرض التى تظل طويلاً بغير زراعة لا تكون سعيدة لأنها أشبه بالعداء التى تعيش بغير أطفال تلتهف على الرجل . فطوبى لهذا الذى يعنى بأرضه وزراعته لأنها تعطيه الغنى كما تعطى الزوجة المحبوبة الطفل لزوجها» . «إن من يزرع الخير إنما يزرع القداسة» . «ألن الشيطان أهرمين وأقرر عبوديتى لمزدا وتابعيتى لزارا»<sup>(١)</sup> وعداوتى للشيطان . وتمجيدى للملائكة . وأحرم السرقة . وخطف المواشى . وأحرم النهب والعدوان على قرى المخلصين لمزدا . وأحترم حق أصحاب البيوت فى احترام مساكنهم . وحرية إدارتهم ليعيشوا مع قطعان ماشيتهم . إننى أقسم ويدي مرفوعة مخلصا طائعا أننى لن أسلب . ولن أعتدى منذ الآن على الجماعات المؤمنة لمزدا . ولن أحاول البتة أن أنتقم منهم انتقاما جسديا أو دمويا» .

«ليكن فى هذا البيت انتصار الطاعة وهزيمة العصيان . ليسود فيه الحق والصدق ضد الكذب . ليفشو بين جناباته السلام والأمن لا النزاع والشجار والقلق . ليتصف بالكرم لا بالبخل . والتواضع لا الكبرياء ، لتكن العدالة شعاره لا الظلم» . وكانت جميع تعاليم الديانة الفارسية تدور حول مقت الكذب والكذابين . ولم يكن

(١) زارا أو زاردشت هو نبي الفرس والذى يعده البعض فى عداد الأنبياء والمرسلين .

أهرمين إله الشر إلا مرادفا لكلمة الكذب عندهم<sup>(١)</sup> . وأحسب أن هذه النصوص لا تحتاج إلى تعليق من حيث إظهار مدى ما يمكن أن تنتهى في نفوس معتقيا وجهودهم إلى تحقيق أكبر نصيب من الكمال والارتقاء .

### الحضارة الصينية :

ولست أستطيع في هذا الوطن إلا أن أشير إلى الحضارة الصينية . هذه الحضارة التي يمكن عدها بحق أرفع درجة من أى حضارة عرفها البشر في القديم . وحسبك أن تعلم أنها سبقت العالم كله بما يملأ عصرنا الحاضر من مستحدثات ومكتشفات . إذا استثنينا مكتشفات البخار والكهرباء . فالتباعة والصحافة والبنوك والورق والبارود والحزف الفاخر والتصوير وماخبرات المحيط من السفن الضخمة . التي وصل الأمر بضخامتها إلى إنشاء الحدائق والبساتين لإنبات الخضروات الطازجة على سطوحها لتقديمها للركاب<sup>(٢)</sup> . كل ذلك قد عرفته الصين وعرفت أرقى ما نتخيله من مثل أعلى في الأخلاق والفضائل . وحسب الإنسان ليعرف درجة ارتقاء الصينيين وما بلغوه من رفاهية ومدنية في حياتهم . أن يدرك أن ملبوسهم وهو الحرير ما يزال حتى اليوم هو أرقى ملبوسات العالم المتحضر . وأن مشروبهم وهو الشاي هو شراب الدنيا كلها المفضل . ابتداء من المجتمعات المتخلفة حتى أرقى الشعوب الغربية . وأعنى بها إنجلترا وأمريكا . وأن طعامهم وهو الأرز . هو طعام الدنيا المفضل في أكثر أرجاء العالمين . هؤلاء هم الصينيون الذين استطاعوا دائماً بالرغم من عددهم الضخم جداً أن تكون لهم وحدة سياسية وروحية جامعة . هذه الحضارة الصينية ليست إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصينى والعقيدة الصينية . هذه العقيدة التى لا مثيل لها في العقائد القديمة كلها . من حيث ما بها من توحيد خالص من كل شائبة . ولخلوها من طائفة الكهنوت والقساوسة . وهو ما ينفرد به الإسلام في الوقت الحاضر . وتدور عقيدة القوم على أن هذا الكون لا يكون على أحسن أحواله إلا إذا تم التناسق بين ما يقع على الأرض . وما يجرى في السماء . فكلما كانت الأحوال تجرى على الأرض وفق السنن المقررة لها كلما جرت الأحوال في السماء على خير ما يجب الإنسان ويرجو . فلا تكون صواعق ولا أمطار مدمرة . ولا تنظم السماء أو ترعد .

(١) وصف هيرودوت الفرس بقوله :

«ويكره الفرس الكذب أولاً والاستدانة ثانياً لأنهم يرون أن الاستدانة تجر إلى الغش والكذب حتماً» .

(٢) طالع ماجاء في كتاب ابن بطوطة . ووصف رحلته في الصين وماشاهد بها من العجائب .

ولا تحجب الشمس أو تكسف ، ولا ترمى الأرض بالأوبئة والأمراض والطواعين ، ولا يصيبها القحط والجذب . وإنما تعمل العناصر كلها على ما يهيئ للإنسان أكبر نصيب من السعادة والرخاء . فما هي هذه السنن المقررة والنواميس التي إذا اختلت على الأرض اختلت عناصر الكون تبعاً لها ؟ هي أن يسود الأمن والعدل والنظام . هي أن يؤدي كل فرد في الأمة واجبه بغير أن يجحد عنه . ابتداء من الإمبراطور حتى آخر موظف في الدولة . بل حتى آخر صعلوك فيها . فلا يُظلم ولا يُظلم . وقد حدد كونفشيوس في كتبه الخمسة المقدسة هذه الواجبات التي تقع على عاتق كل فرد من أفراد الأمة . ومن هذه الكتب وعليها قامت هذه الحضارة الصينية الرفيعة الدرجة .

### الحضارة الإغريقية :

امتاز الإغريق بالنسبة للشعوب القديمة في إحساسهم بأن الإنسان أقرب ما في هذا الكون من كائنات إلى الكمال المطلق . وأن ما في نفس هذا الإنسان من قوى زاهرة معنوية ومادية كفيفة بأن تجعل منه سيد هذا الكون المهيمن عليه لولا ضعف بنيته وقصر حياته التي تحول بينه وبين إتمام الغاية . فلو أنه عاش إلى الأبد لأصبح إلهاً حتماً<sup>(١)</sup> . وهذا ما حدا بالإغريق القامى إلى تصور الآلهة في صورة بشرية بحتة . لا يفترون عن الإنسان وعاداته وتقاليده وأفكاره . إلا من حيث أنهم خالدون لا يموتون . وتصور الإغريق أن في الإمكان دائماً أن يحظى الإنسان بنجاية الآلهة مباشرة وبمصاحبتها بل بمساكنتها والتزويج بها . متى امتاز بالجمال أو القوة أو الحكمة بحيث يروق في أعين الآلهة التي يستهويها الجمال والقوة والحكمة . وذهب الإغريق إلى أبعد من ذلك كله . فتصوروا أنه بقدرة الإنسان دائماً أن يصل إلى مستوى الألوهية عن طريق البطولة الخارقة أو الحكمة الفائقة . وسنعود مرة أخرى في الفصول المقبلة لمعالجة هذا الموضوع . وكيف تصححت هذه العقيدة وتطورت حتى وصلت إلى التوحيد المطلق والتنزيه . ولكن الذي يهمنا الآن منها أن حضارة الإغريق القديمة قد انبعثت من هذه العقيدة وشيدت عليها . فإن تكن البطولة سبيلاً للخلود فقد دفعت هذه الفكرة بكل شاب إغريق إلى التماس جلائل الأعمال وعظائم الأمور التي ترفعه إلى مصاف الأبطال . وما الألعاب الأولمبية إلا ثمرة من ثمار هذه العقيدة . فكان شباب الدويلات الإغريقية يقبلون من بلادهم إلى سفح جبل أوليمب حيث تقم الآلهة . ليتباروا فيما بينهم مختلف المباريات الرياضية . كالمصارعة

(١) نحن نستعرض بطبيعة الحال معتقدات القوم كما هي وسيرد التعليق عليها فيما بعد .

وقذف القرص والوثب العالى والعدو للمسافات الطويلة . وكانت هذه قمة المباريات طرا وبطولتها هي أعظم البطولات لأن الجسم المرن الممتلئ بالصحة المتناسق ، هو مثل الأغريق الأعلى . وحسبك أن تتصور شعبا بأكمله لا هم له إلا تقويم جسده عن طريق الرياضة .

وإذا كان العقل السليم في الجسم السليم ، فسرعان ما انبعث من خلال هذه الأجساد السليمة الصحيحة أسلم ما عرفت البشرية حتى ذلك الوقت من عقول . ولما كان مؤدى العقيدة اليونانية من ناحية أخرى أن يحرص الإنسان على حريته إذ هي آية الكرامة البشرية ، والشرط الأساسى للتطور في معارج البطولة والعظمة ، فقد عرفت البشرية لأول مرة النظم الديمقراطية بمعناها الحديث ، حيث يساهم كل مواطن في حكم نفسه ، عن طريق الاشتراك في التشريع ، والإشراف على السلطة التنفيذية ، التي يتولاها حكام ينتخبهم من بين ظهرانيه . وفي ظل هذه النظم الحرة والفكر الحر الطليق ، والاعتداد بالنفس الإنسانية ، نشأت هذه المعارف ، والفلسفة الإغريقية العجيبة التي ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية بأوفر نصيب .

. وهكذا نرى مرة أخرى الصلة الوثيقة بين معتقدات القوم وتطورهم في مدارج الحضارة . ولا يتسع المجال لاستعراض تاريخ جميع الأمم المتحضرة في القديم والحديث ، وحسبنا هذه الأمثلة التي أشرنا إليها لنرى الصلة الوثيقة بين الإيمان والحضارة ، وأنه الأساس أو ينبوع الذى تفيض منه مختلف القوى والجهود البشرية في سبيل الإنشاء والتعمير والتطور والارتقاء .

### الإيمان ينبوع العظمة الشخصية :

وإذا كانت الصلة بين حضارة الشعوب وإيمانها من الأمور التي تؤيدها المشاهدة ، فإن من الأمور المقطوع بها أن الإيمان بالنسبة للأفراد هو ينبوع ارتقائهم وعظمتهم . وبقدر ما يعمر قلب أى إنسان بالإيمان بقدر ما تكون رفعة ، وبقدر ما يمتاز على بقية البشر الأقل إيمانا منه ويتفوق عليهم . ويؤكد لنا ذلك هذا التفوق الساحق الذى كان لطائفة من البشر الذين استطاعوا أن يطبعوا عصورا بأكملها بطابعهم ، وبصبغتهم ، ويحملوا الملايين من البشر على تباعد العهد بينهم على احترامهم وتقديسهم بل والمغالة في تقديسهم . ولا مرجع لذلك إلا اكتمال إيمان هذا النفر من الناس بحيث انكشفت لهم

الحقيقة ورفع عن نفوسهم الحجاب ، فإذا هم والكمال وجها لوجه ، فأحدثوا بهذا الاتصال ما أحدثوه في الإنسانية من أثر عميق .

والإيمان ، والإيمان وحده هو الذى يدفع بأصغر الناس ليكون أكبرهم ، وأفقر الناس ليكون أغناهم ، وأجهل الناس ليكون أعلمهم ، وأضعف الناس ليكون أقواهم . .

هو الإيمان الذى يجعل من قروية ساذجة كجان دارك قائدة لجيوش عصرها ، ومحررة لوطنها ، ومتوجة بملكها .

وهو الإيمان الذى خلق من شاب كورسيكى أعظم شخصية عرفها التاريخ الحديث ونعنى بها نابليون .

وهو الذى دفع بخريستوف كولومبس الملاح « الجئوى » ... نسبة لجنوة ، إحدى مدن إيطاليا لاكتشاف نصف الدنيا .

وهو الذى دفع بأصحاب العلم لابتداع ما ابتدعوا ، واكتشاف ما اكتشفوا .

هو خلف كل جهد في سبيل التطور والارتقاء ، خلف كل كفاح في سبيل الخير والصلاح أو الحق والفضيلة .

هو كلمة السر التى تفتح بها مغاليق الكون ، هو الإكسير الذى يحول كل شئ إلى ذهب ، هو ماء الحياة الذى يعيد للجسم شبابه وحيويته ، هو الحرارة التى تذيب الحديد ، هو النار المحرقة . هو الشعلة المضيئة ، هو القوة التى تنسف الجبال ، هو الكهرباء . هو الطاقة الفاعلة لأنه ليس إلا انبثاق الحق والحقيقة في قلب الإنسان ، وتفجر هذه النفحة الربانية الكامنة في كل نفس بشرية ، التى إذا تفجرت جعلت من ذلك الإنسان جبارا فوق الجبابرة . وقادرا فوق القادرين ، وعالما فوق العلماء ، وملكا فوق الملوك ، لا يصده صاع عن بلوغ غاياته وأهدافه ، ولا تحول بينه وبين تحقيق إرادته صعوبات أو عراقيل أو ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه لفظ « المستحيل » وذلك لأنه انصل بالقوة الأولى والفاعل الأول<sup>(١)</sup>

---

(١) اقرأ للمؤلف كتاب « الطاقة الإنسانية » الذى صدر أخيرا . حيث بحث موضوع الطاقة التى يولدها الإيمان . والقانون الذى يحكمها .

## الفصل الثاني

### موضوع الإيمان ومحوره

أهو حق أم وهم وخيال - الشك سبيل  
اليقين - شهادة الوجدان البشرى - وجود الله  
بديهية عقلية - الحياة دليل الله الحى - قوة حية  
سميعة بصيرة - وعاقلة أى حكيمة - من أين جاء  
العقل الإنسانى ؟

#### أهو حق أم وهم وخيال ؟

ما محور الإيمان وموضوعه .. ما حقيقة هذه القوة الخفية المسيطرة على هذا الكون ..  
والمتصفة بكل ما يدور فى عقل الإنسان من صفات الكمال .. أهى شئ موجود حقا كما  
تقرر الأغلبية الساحقة من البشر فى كل عصر ، أم هى ضرب من ضروب الأوهام  
والأساطير القديمة ، ومظهر من مظاهر الخوف الذى لازم الإنسان الأول عندما كان كل  
ما فى هذا الكون يخيفه ويزعجه . ويشعره بضعفه وعجزه ، كما يقول البعض ؟  
وإذا فرضنا وكان فى هذا الكون قوة ما ، فهى ليست إلا هذه القوة المنظورة  
المللموسة ، قوة المادة التى كانت بطريق العرض والصدفة ، وتطورت إلى ما تطورت إليه  
بطريق الضرورة الماسة المركبة فى طبعتها .  
ذلك هو ما يقوله البعض إنكارا على ما استقر عليه إجماع البشر ونادى به الأنبياء  
والرسل من وجود إله أزلى خالد قادر ، وهو الله سبحانه وتعالى الذى خلق الكون  
بإرادته .

#### الشك سبيل اليقين :

وقد اعتاد جمهور المتدينين أن يثوروا على هؤلاء المشككين . وأن يستنكروا أقوالهم  
باعتبارهم يتجهمون على مقدساتهم ، وينتهكون حرمة كتبهم السماوية ، فيعمدون إلى  
اضطهادهم بشتى صنوف الاضطهاد حسب ظروف العصر وأحواله . وما يتمتع به رجال  
الدين من سلطان . مع أن هؤلاء المشككين فى الواقع يتيحون فرصة ذهبية لكى يمتحن

المؤمنون إيمانهم فيزدادوا إيمانا . وأن يصححوا عقائدهم ويجعلوها أكثر اتساقا مع العقل والمنطق . وأحكام العلم القاطعة .

وكل رأى يساق اعتراضا على نظرية دينية ، وعلى فكرة الألوهية ، جذير بأن يعرض على العقل ليحصه ويدرك مدى صحته . لا أن يتعصب ضده وترك مناقشته ، اعتادا على الصباح والصخب والاحتجاج باسم الدين ، والتهجم على قدسية الدين . وذلك هو ما فعله القرآن الكريم بالذات ، فقد سجل كل الاعتراضات والانتقادات ، بل كل الشتائم والسباب التي وجهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى عقيدة التوحيد وتعاليم الإسلام الغيبية ، ثم راح يفندوها ويرد عليها ، ويقرر الحجة بالحجة ، ويسوق الدليل تلو الدليل لتدعيم العقيدة الجديدة وتمكينها في النفوس . فدل ذلك على أن هذا هو السبيل الوحيد لنشر الإيمان الحقيقي . وأن لا سبيل لاطمئنان القلب ما لم يقتنع العقل ويرضى . وآية ذلك قول إبراهيم لربه « رب أرني كيف نحى الموقى . قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي <sup>(١)</sup> » . وآية ثانية هي انقلاب زعماء المنكرين للإسلام من قريش ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب إلى أشد الناس حماسة للإسلام ، حتى غمروا بإيمانهم وحماسهم العالم بأكملهم . وما كان إيمانهم ليلغ هذه الدرجة من القوة والنضوج ، لولا أنه جاء ثمرة البحث والاقتناع . وهذه قاعدة مطبقة في كل عصر وزمان ومكان . فأكثر الناس إيمانا في أغلب الأحيان أكثرهم تشككا في بعض مراحل حياتهم : حتى قيل بحق إن الشك سبيل اليقين .

وعندى أن المرء المثقف لا يمكن أن يحظى بإيمان حقيقى إلا بعد أن يعرف الحجج العقلية التي يدعم بها إيمانه . وليس من الإيمان في شئ مجرد التقليد والتصديق لما تقول به جمهرة الناس . ولا الإذعان للتقاليد والتعاليم الموروثة بغير معرفة الدليل الذي يؤكد صحتها .

ولعل ذلك يفسر لنا سر تخلف المسلمين في العصر الحديث وتأخرهم عن بقية الشعوب المتحضرة . وعودهم عن القيام بجلال الأعمال ، والمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية ، <sup>(٢)</sup> ذلك أن جمهرتهم العظمى من الجهل بحيث لا سبيل لها لإدراك الإيمان

(١) البقرة ٢٦٠ .

(٢) كتب هذا القول منذ عشرين سنة كما سلفت الإشارة إلى ذلك في المقدمة ، أما اليوم فقد بدأ العالم الإسلامى يحاول اللحاق بركب الحضارة .



الحق . فهم يتعبدون لأنهم كذلك وجدوا آباءهم يفعلون . وهم مسلمون لأنهم نشأوا في بيئة إسلامية من أبوين مسلمين . فهم محكومون بحكم العادة . مقهورون على ما يفعلون . مقلدون كغيرهم من المقلدين . فدخلوا بذلك تحت منطوق القرآن وخطابه لأمثالهم : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم <sup>(١)</sup> » .

ولا سبيل لاستمتاع جمهرة المسلمين الغالبة بالإيمان الحقيقي ، وبالتالي التدرج في معارج الرقي والكمال ، إلا إذا تعلموا واستضاءت عقولهم فعرفوا أدلة عقيدتهم وأسرار دينهم وآية تفوقه على سائر الأديان وحجج ذلك وأدلته ، وهو ما سأحاول أن أقوم به في هذه الرسالة إن شاء الله . مبتدئاً بالأدلة التي يرتاح لها العقل لإثبات وجود الله .

### شهادة الوجدان البشري :

أما أول برهان على وجود الله . فهو شهادة الوجدان البشري في مختلف الأمكنة والعصور على وجوده وقيامه . فمن المحقق أن أحدا لم ير الله . أو بالأحرى هذه القوة الخالقة الفاعلة المدبرة . ومن المحقق أننا لا نستطيع أن ندركها بأى حاسة من حواسنا . فكان يجب طبقاً للقواعد المنطقية أن يجمع البشر على إنكار وجودها . فما بال البشر على الضد من ذلك يجمعون على وجودها . ما بال النفس البشرية لا تشعر بالراحة الكاملة إلا وهي تؤكد وجود هذه القوة . ما بالنا كلما استخدمنا أقوى الألفاظ والتعبيرات للقطع بوجودها ، كلما أثلج ذلك صدورنا . فإذا قلت الآن إنه لا يمكن الشك بحال من الأحوال في وجود هذه القوة الخالقة ، فإن جمهرة القراء العظمى تطمئن نفوسها لهذا التأكيد . مع أنني لم أسق على هذا الإثبات أى دليل عقلي . ولم أزد على مجرد التأكيد باللفظ .

وقد يختلف الناس في مدى إقبالهم على ممارسة شعائر أى دين من الأديان . وقد يختلفون في الأديان ذاتها اختلافاً بينا . كما يختلفون في أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وبيئاتهم ، ولكنهم جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم وألوانهم وبيئاتهم وعصورهم ، يتفقون على قدر من الإيمان لا يداخله أدنى شك ، وهو أن لهذا الكون رباً خالقاً ومدبراً لشئونه .

---

(١) الحجرات ١٤ .

فالإيمان هو فطرة كل نفس ، وهو استعداد طبيعي بها . فلا يكاد يشار أمام الإنسان بوجود قوة خفية خالقة حتى يتحقق قلبه مصداقاً معتبطاً مطمئناً إلى هذا الوجود . لا فرق في ذلك بين متعلم وجاهل بين أمير وحفير . بين رفيع ووضيع . لا فرق في ذلك بين أفرنجى وزنجى . بين عربى وإنجليزى بل لا فرق في ذلك بين من أخطأ السبيل فظن هذه القوة كامنة في الشمس أو القمر أو في النار المحرقة والنهر الجارى والجبل الشامخ والصنم المنحوت . فكل هؤلاء إن اختلفوا في المظهر ، فقد اتحدوا في الجوهر . وهو إيمانهم بوجود هذه القوة الخالقة<sup>(١)</sup> .

فهذا الإحساس البشرى العام ، المستقر في وجدان كل إنسان هو أول شهادة تقطع بوجود هذه القوة الخفية الخالقة ، لأن العقل الإنساني لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يتولد في النفوس قاطبة الشعور بوجود حقيقة معينة مع أن هذه الحقيقة لا وجود لها في الواقع !؟ وهذا هو الدليل الأول<sup>(٢)</sup> .

### وجود الله بديهية عقلية :

من المعلوم والمتفق عليه ، أن هناك بعض الحقائق الأساسية الضرورية للإدراك مستقرة بالطبيعة في عقل كل إنسان . وهذه الحقائق هي ما تسمى بالبديهيات . والعقل يستخدم هذه البديهيات لاكتساب معارفه ومعلوماته والحكم عليها والاستفادة منها في المحافظة على كيان الإنسان وبقائه . ولا يوجد عقل بشرى سليم يمكن أن يمارى أو يتشكك في هذه البديهيات ، لأن التشكك فيها وعدم التسليم بها معناه اختلال موازين العقل .

ومثال هذه البديهيات قولك إن الاثنين أكثر من الواحد ، وإن الكل أكبر من الجزء ، وإن الشئ لا يمكن أن يوجد في مكانين مختلفين في آن واحد . وإن الجسم لا يمكن أن يكون متحركاً وساكناً في الوقت نفسه وهكذا .

(١) لا يشد عن ذلك الشيوعيون الذين يؤمنون بأن «المادية الديالكتيكية» هي هذه القوة الخالقة المبدعة . فالأسماء التي تطلق على السبب الأول لا تنير من جوهر الفكرة .

(٢) اقرأ للمؤلف حول هذا الدليل . ما ينشئ في كتاب «الطاقة الإنسانية» من أن كل مادار في ذهن الإنسان على أنه موجود فلا بد أنه كان أو كائن أو سوف يكون .

ولعل أول بديهية من بديهيات العقل ، أنه لا بد لكل مصنوع من صانع . ولا بد لكل حادث من محدث . ولا بد لكل مخلوق من خالق ، ولا بد لكل متحرك من محرك ، ولا بد لكل معلول من علة .

ولما كان كل ما في هذا الكون ينطق بأنه حادث لأنه يدرك بالحواس وله أول وله آخر . فلا بد أن يكون له محدث ، ولا بد أن يكون له خالق ، والقول بغير ذلك هدم لبديهيات العقل .

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين يسلمون بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يرى حادثاً في هذا الكون مهما يعظم أو يخقر . ومهما يكبر أو يصغر بدون أن يقرر له سبباً أحدثه . ومع ذلك فهم يطلبون من هذا العقل البشرى . أن يتصور أن هذه الكائنات والعوالم والآفاق المترامية والشموس المضيئة . والنجوم المتألقة . والكواكب الساطعة . والأنهار الجارية . والبحار المتلاطمة . والجبال الشاخنة . والصحارى المترامية . والأشجار الباسقة . والثمار الناضجة . والأزهار العاطرة . والطيور الشاذية . والأسماك السابحة . والزواحف والدواب والحوام . ومختلف الحيوانات الأليفة والكاسرة المزركشة المبرقشة . المخططة الإهاب . وأخيراً هذا الإنسان البديع الحسن والرواء . الصبح الوجه . المعتدل القوام . الفياض بالبشر والحياة . هذا الإنسان المفكر الحر الطليق . هذا الإنسان المريد الفعال بكل ما ابتكر من علوم وحصل من معارف . وشاد من حضارة ومدنيات . وهذه النظم وتلك التشريعات . هذه العبادات وهؤلاء الرسل والقادة والمصلحون . هذه الكتب والديانات . هؤلاء العلماء الأعلام . كل هذا قد حدث بغير محدث أحدثه وخلق بغير خالق وبغير سبب ولغير علة أو غاية .

وأحسب أنه لا يوجد عقل سليم يستطيع أن يتصور ذلك بحال من الأحوال . ففكرة السبب الأول إذن هي ضرورة عقلية . لا يستطيع العقل إلا أن يدعي لها ويؤمن بها .

وتقتضى بديهيات العقل من ناحية أخرى أن تكون هذه القوة الخالقة متصفة بكل صفات الكمال المطلق على خلاف كل ما في هذا الكون من موجودات يشوبها النقص . - إذ أنها لو تجردت عن هذا الكمال لعدت في عداد بقية المخلوقات . ولوجب أن يكون فوقها ذات كاملة هي التي أوجدتها وخلقتها . والكمال يقتضى القدم والأزلية والوحدانية . فلا بد

أن تكون هذه القوة قديمة أزلية موجودة بذاتها . قائمة بنفسها منفردة بوحدايتها<sup>(١)</sup>

### الحياة دليل الله الحى :

ولتسأل الآن عن هذه الظاهرة العجيبة المحيرة للألباب . ظاهرة الحياة فى مختلف أشكالها . من أين جاءت .. وكيف نشأت .. إذا كان كل ما فى هذا الكون لا يتألف إلا من مادة جامدة عمياء صماء خرساء ؟

إن المشاهدة والمعاينة تثبت لنا بجلاء ووضوح أن هناك خطاً فاصلاً بين المادة الجامدة المبتوثة فى هذا الكون . وبين هذه الحياة الشاعرة النامية . فالمادة تبقى على حالها أبداً وقد تتغير وتتحوّل وتشكّل ولكنها تظل محتفظة بطابعها الأبدى . وهو فقدان الشعور والإدراك وعدم النمو على خلاف الكائنات الحية حيث تنمو وتتكاثر وتتغذى بالمواد الجامدة والميتة فتتحوّل فى داخلها إلى مواد حية من الدم واللحم والعظم . متمتعة بالشعور والإحساس . منظوية على أسرار الحياة التى تجعل كل خلية صغيرة قادرة بدورها على أن تكون بذرة الحياة إذا تهيأت لها ظروف مخصوصة . فإذا هى تنقسم إلى اثنين فأربعة فعشرة فمائة فألف فملايين الملايين . فمن أين جاءت الخلية الحية بهذه الخاصية الفذة بالنسبة لبقية ما فى هذا الكون من كائنات ؟ بأى سر رهيب تنمو هذه الخلية ثم تتمايز وتشكّل لكى تنتهى إلى إبداع كائن حى جديد يزيد فى ثروة الحياة ونموها سواء كان هذا الكائن الحى شجرة خضراء مزهرة ذات أريج وثمار وأخشاب . أو حيواناً ذا لحم ودم ولبن وجلد وصوف ووبر . أو إنساناً ذا حسن وجهال . وقد واعتدال . وعقل وفكر . كل ذلك ينبثق من هذه الخلية الصغيرة التى لا يتجاوز حجم المليون منها رأس دبوس صغير . فكأن هذه الخلية الصغيرة الدنيا مصغرة . بل لعل الدنيا كلها ليست إلا خلية مكبرة . فإن هذه الخلية الصغيرة تنطوى على عالم من الشعور والوجدان والتفكير والعقل والأخلاق والفضائل والصفات

---

(١) من المحال على العقل البشرى أن يحاول تمثيل هذا الكمال وإدراك كنهه . وكيف يقوم بنفسه بغير أن يكون له أول أو نهاية . لأن العقل البشرى كما هو ظاهر ليس إلا جزءاً من هذا الكون . وهذا الكمال المطلق هو الكل ومن المحال أن يحيط الجزء بالكل . وكل ما يستطيع العقل البشرى أن يدركه أن خلف هذه الأجزاء المتعددة كلا وأن يدرك أنه جزء من كل ، لأن يحيط بهذا الكل . كل ما يستطيع العقل البشرى أن يدركه أنه يكن خلف هذه الأعراض المختلفة جوهر ، أما ماهية هذا الجوهر فلا سبيل للعقل أبداً لاكتناحه ، لأنه مقيد بقيود المادة غير قادر على الفكك من صورها وأعراضها ومقاييسها ونواميسها وهو مالا يقاس به أو تخضع له أمور تصف بها هذه القوة الكاملة الخالقة .

والطباع ، إلى جوار عالم المادة المتألّفة من اللحم والعظم والدم والجلد ، والشعر والألوان ، والأمراض والعاهات . وحسب الإنسان أن يتأمل طفلاً من الأطفال ، ليرى كيف يرث أبويه في طباعها المعنوية وصفاتها المادية . وأمراضها ومزاجها ، مع أن هذا الطفل لم يكن سوى هذه الخلية الدقيقة التي تسربت من الذكر إلى الأنثى . فمن أين جاءت هذه القوة العجيبة . قوة الحياة .. ومن أين نبعت .. ومن أين فاضت .. إلا أن تكون قد جاءت من قوة حية مبنوثة في هذا الكون مسيطرة عليه .

### المادة أصل الحياة ؟

يقول الماديون إن الحياة في نهاية الأمر ليست إلا حالة من أحوال المادة ، وإننا إذا كنا قد عجزنا حتى الآن عن اكتشاف سر الحياة ، أو بالأحرى اكتشاف هذه الحلقة الموصلة من المادة الجامدة إلى المادة الحية ، فإن العلم لا يلبث أن يكشفها . على أنه إذا صح هذا « وليس هناك ما يمنع أن يكون صحيحاً » واستطاع العلم أن يوجد الحياة من مواد جامدة ، فإن هذا يؤكد وجود القوة الخالقة الحاكمة ولا ينفىها ، إذ ما الذي يحمل المادة الجامدة الصماء الساكنة على الحركة والتطور لتأخذ هذه الصورة أو تلك .. ولتقوم بهذه الوظائف المختلفة في الحياة ، فيضئ بعضها ويظلم بعضها ويسبب بعضها الحر . ويسبب بعضها البرد . ويسبب بعضها الحياة ، ويسبب بعضها الموت .

ما الذي يحفز المادة على هذا التنوع الذي لاحد له في الكائنات ؟ وما الذي يحفزها على القيام بمختلف وظائفها حسب الظروف والأحوال ؟

### النواميس والضرورة :

يقول الماديون في الرد على ذلك إن المادة تنطوى على نواميس مقررة تحكمها وتسيطر عليها وتدفعها للتطور طبقاً للضرورة والحاجة ومن هنا كان هذا التنوع الذي لاحد له في الكائنات ، وفي اصطلاحها بمختلف وظائفها حسب الظروف والأحوال . وقد يكون ذلك حقاً ، بل لعله حق ، فإن من الواضح جداً أن هذا الكون ينطوى على سنن ونواميس يسير على وفقها ولا يستطيع الخروج عليها « ولن تجد لسنة الله تبديلاً »<sup>(١)</sup> ولكن التسليم بأن المادة محكومة بسنن ونواميس تدفعها للتطور والتشكل وخلق الحياة ، هو في

(١) الأحزاب ٦٢ .

حد ذاته إيمان عميق كإيمان أى إنسان آخر فى أى عصر وزمان ومكان بهذه القوة الخفية المهمة على هذا الكون والمسيطرة عليه . فما هى هذه النواميس ، ما كنهها وما قوتها ، ما هى هذه الضرورة التى تضطر المادة للانفعال ، ولماذا كانت ضرورة ، ومن الذى جعلها ضرورة . ومن الذى أوجب على المادة أن تخضع لهذه الضرورة وأن تنفعل بها ، ولماذا كانت هذه الضرورة عاقلة حكيمة حتى دفعت بالمادة نحو هذا السبيل ، سبيل ما يعود عليها بالنفع والتطور نحو الأحسن والأكمل كما يقولون ؟ الحق أن كلمتى النواميس والضرورة اللتين لا يمكن أن يكونا فى حد ذاتها شيئاً مادياً وإنما هى معنى عقلى بحث ، لم يخرج بنا من دائرة وجوب الإذعان لقوة خفية ليست من طبيعة المادة ، تسيطر عليها وتحكمها وهى بحكم هذه السيطرة قوية قادرة فعالة أزلية خالدة .

### قوة حية بصيرة سمعية :

ولا مناص من أن تكون هذه القوة المسيطرة على المادة موصوفة بالحياة « بغض النظر عن الاسم الذى نطلقه عليها » لأنها إن لم تكن حية أو بالأحرى منطوية على أسرار الحياة التى نراها مبثوثة فى هذا الكون . فكيف يمكننا أن نتصور نشوء الحياة منها أو بسببها . ولا بد أن تكون منطوية على أسرار قوة الإبصار ، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور نشوء قوة الإبصار منها أو بسببها ، ولا بد أن تكون منطوية على أسرار السمع ، وإلا فكيف يمكننا أن نتصور نشوء قوة السمع منها أو بسببها . فالعقل يستحيل عليه أن يعقل نشوء الحياة ونبضها من قوة ميتة ، ونشوء الإبصار من قوة عمياء . ونشوء السمع من قوة صماء . فإن إحدى بديهيات العقل أن فاقد الشئ لا يعطيه . فإذا كانت هذه النواميس التى تسيطر على المادة لا تسمع فكيف تهب السمع للمادة .. وإذا كانت لا تبصر فكيف تهب البصر للمادة .. وإذا كانت جامدة فكيف تهب الحياة للمادة ؟

وهكذا ترى أن القائلين بالنظريات المادية البحتة لا يستطيعون إلا أن يصفوا النواميس أو الضرورة المسيطرة على المادة بكل الصفات التى يعزوها المؤمنون فى كل عصر وزمان ومكان للقوة الخالقة من أنها خفية أزلية . قادرة . حية سمعية بصيرة .

### وعاقلة أى حكيمة :

ومن المستحيل على العقل كذلك أن يتصور إلا أن تكون هذه القوة متمتعة بالإدراك والعقل أى الحكمة : ذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى آلة دقيقة محكمة دون أن

يتمثل على الفور ذلك العقل البشري الجبار الذى أنشأ هذه الآلة وأبدعها على هذه الصورة ، ولأهم بين أجزائها وحركاتها لتقوم بوظيفتها فى عالم الحركة والإنتاج .

فالعقل البشري مبنو بين أجزاء أى آلة من الآلات ، وإن كان لا يؤلف جزءا منها ، فالآلة لا تتألف إلا من مواد ومعادن كما هو ظاهر وملموس ، ولكن العقل البشري مبنو بين أجزائها وفى أدق جزئياتها على صورة هذه النواميس والقواعد التى ركبها العقل بين أجزاء الآلة المختلفة لتحكمها وتحركها . وما أشبه الكون بالآلة الميكانيكية الضخمة وما أدق هذه الآلة العجيبة وأحكمها . فثمة أجرام مضيئة وأخرى معتمة تتحرك فى مدارات معينة وسط فضاء مخصوص فينشأ عن دورانها ليل ونهار ، وحرارة وبرودة . وتخلخل وتكاثف . فتتولد من ذلك مختلف العناصر وتتولد الحياة نفسها فى نظام عجيب ودقة محيرة للألباب « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون<sup>(١)</sup> » بحيث صار بقدرة الإنسان أن يحسب مقدما ولألف سنة موعد شروق الشمس بالدقيقة والثانية ، وساعة غروبها بالدقيقة والثانية . فكل ما فى هذا الكون السحيق الغامض لا تكاد تتحرك فيه ذرة واحدة على غير هدى أو غير محكمة بقاعدة معينة وناموس مخصوص . فمن المستحيل على العقل - وهذا شأن العالم - أن يتصور خلو هذا الكون من قوة مدركة حكيمة تهيمن على إرادته وحسن تنظيمه وتنسيقه .

وإذا كان هناك إنسان واحد لا يؤمن بلزوم عقله له للقيام بمختلف أعماله بل لمجرد التحرك حركة واحدة ، فكيف يخلو الكون كله بما فيه الإنسان ذاته من عقل مدبر لشئونه وأحواله ؟ أحسب أنه من المستحيل على العقل البشري أن يتصور ذلك<sup>(٢)</sup> .

(١) يس ٤٠ .

(٢) يقول العلامة نيوتن أعظم علماء الطبيعيات « لا تشكوا فى الخالق لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائمة الوجود لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لأ يعقل أن يصدر إلا من كائن أنزلى له حكمة وإرادة . من الحق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس . فيجب لكى تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها .. من الجلى الواضح أنه لا يوجد سبب استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب =

## من أين جاء هذا العقل ؟

ولنصل الآن إلى السؤال الخالد : من أين جاء هذا العقل ؟ وقد تساءلنا من قبل من أين جاءت الحياة . وقد يكون بقدره علماء الطبيعة والحياة أن يفسروا لنا الحياة تفسيراً آلياً بحتاً ، وأن يصوروا لنا كيف تحولت المادة الجامدة إلى مادة حية . ولكن من المستحيل عليهم أن يدّعوا أن الفكر والإدراك البشرى عملية آلية أو كيميائية ، فالحركات الآلية والتفاعلات الكيميائية خاضعة دائماً لنواميس معينة ، أما الفكر البشرى فهو على خلاف كل ما في هذا الكون لا يخضع لحدود يقف عندها أو يتقيد بقيود معينة أو يخمد على صورة مخصوصة . فهو متطور دائماً أبداً . متغير دائماً أبداً ، حر طليق من كل قيد وناموس دائماً أبداً ، إن شاء خلق إلى السماء . وإن شاء ركذ مع البهائم والحشرات . إن

---

= يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها بالنسبة للشمس ولراكز الحركة تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعاً ، فلاجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته ، يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن والأرض وجوبيتر ، وقدر السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مركزاً لها .

إذن ف مقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجود وجود (سبب) لا أسمى ولا حادث باتفاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والمنهسة .

وغير هذا ففي تكوين الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين القسم المضيء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم والقسم المغمى يجتمع في جهة أخرى لتكوين الأجرام المغمى كالكواكب وتوابعها ، كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له .

وكيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ، والأذن بدون إلام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها . ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات ؟ فهذه الكائنات كلها في قيامها على أبداع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزّه عن الجسمانية حتى حكيم موجود في كل مكان يرى حقيقة كل شيء في ذاته ويدركه أكمل إدراك ؟ ! .



شاء أذعن لقوة الوجود الخالقة ، وإن شاء تمرد عليها وكفر ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء . وما من كلمة تقال أمام الإنسان أو يسمع بها ، وما من حركة تقع في حضرته أو يسمع بها ، إلا وتثير في نفسه استحسانا أو استهجانا وتأيدا أو استنكارا . وقد تقال الكلمة في حضرة عشرات من الناس بل مئات فيكون لها تأثير مختلف في عقل كل واحد من المستمعين . وقد يستحسن الإنسان الواحد ما كان يستقبح بالأمس ، وقد يحب ما كان يكره بالأمس ، وأقوام يرون رذيلة ما يراه الآخرون فضيلة ، ويرون جميلاً ما يشمئز من دماسته الآخرون . وهكذا ..

وقد ذهب الناس مع الأفكار مذاهب شتى . وسيدهبون معها مختلف المذاهب إلى ما شاء الله . ذلك أن الفكر البشري قوة حرة طليقة مريدة تفعل الشيء أو لا تفعل . لا تقهر ولا تغلب على غير ما يرضيها وتطمئن إليه .. فمن أين جاءت هذه القوة المدركة الحرة الطليقة المريدة إذا لم يكن في هذا الكون قوة عظمى فوق النواميس حرة طليقة ، عاقلة حكيمة ، مريدة فعالة ، ليس هذا العقل البشري إلا من نفحاتها وشذاها .

الحق إن القول بنى وجود هذه القوة ، أعصى على الفهم والإدراك السليم من القول بوجودها .

## الفصل الثالث

### الإيمان في صورته الأولى

#### عبادة الخالق في خلقته

تطورات العقيدة - عبادة الأمهات - عبادة  
الآباء والأجداد - عبادة الحيوانات - عبادة  
النباتات - عبادة الجمادات والعناصر - عبادة  
الشمس والكواكب - عبادة الخالق في خلقته :

#### تطورات العقيدة :

على أن العقل البشرى لم يصل دفعة واحدة إلى هذه الصورة العقلية الكاملة عن  
تلكم الذات الخالقة ، ويرتقى بها إلى هذه المرتبة من المجرد والمطلق . بل لقد مر قبل  
الوصول إليها من خلال أدوار ومراحل من التطورات والتصورات والاقتراحات والحدس  
والتخمين الذى يتناسب وما بلغه العقل من نضوج خلقى . وما حصله بمرور الزمن من  
علوم ومعارف . ذلك أن العقل البشرى على خلاف عناصر الحياة الأخرى فى تطور  
وارتقاء مستمر متواصل .

وقد لا يختلف الإنسان الحى فى العصر الحديث كثيرا عن إنسان ما قبل التاريخ من  
حيث التشريح الجسدى ووظائف الأعضاء ، ولكن من المحقق أنه لا وجه للمقارنة بين  
عقلية الإنسان المتنور الحديث - وعقلية الإنسان منذ بضعة ألوف من السنين . بل إن  
الفرق جد واضح بين إنسان متعلم وآخر جاهل فى عصر واحد . ومن هنا لا يجب أن  
نعيب على الأقدمين بعض تخطيطاتهم فى موضوع العقيدة وضريرهم على غير هدى . فذلك  
أمر لا مناص منه فى وقت كان العقل لا يزال فى مراحل طفولته . ولولا هذه التخطيطات  
الأولى وهذه الفروض الأولى ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

فإذا كانت عقائدنا اليوم فى الألوهية الخالقة ، عقائد شائعة باسقة . فإنها قد قامت  
فى نهاية الأمر على هذه العقائد الأولى الساذجة ، وكما أن ناطحة السحاب اليوم تمت  
بأقوى الأسباب إلى أول كوخ صغيرة بناه الإنسان ، وكما أن ماخرة المحيط ليست إلا ثمرة

لأول قطعة خشب حاول الإنسان الأول أن يعومها . فكذلك عقائدنا اليوم ما كانت لتكون على هذه الدرجة من النضوج لولا هذه العقائد البسيطة الأولى ، وذلك ما يجعل من الضروري لاستكمال عقيدة أى إنسان فى الوقت الحاضر وتصفيتها من كل شائبة ، أن يلم الإمامة سريعة بما كانت عليه عقائد الأقدمين ، وكيف تطورت تطورا وثيدا واجتازت مراحل الطفولة حتى بلغت اليوم أوج شبابها وفتوتها فى البيئات المتحضرة والراقية ، وكيف ظلت على طفولتها الأولى وسذاجتها فى المجتمعات التى شاءت الظروف أن تظل على حالتها البدائية الأولى ، كهذه القبائل المتوحشة فى المناطق الاستوائية فى أفريقيا وجزر المحيط الهادى . بل وكيف أن أقدم العقائد وأغربها بالنسبة للعقل الحديث لا تزال تحتفظ بآثارها بين طبقات العوام والجهال وبعض المثقفين فى مختلف البيئات الإنسانية .

### عبادة الأمهات :

قلنا إن الإيمان هو إحساس الإنسان بالنقص وبوجود قوة أكثر كمالاً منه . هى التى أوجدته . ومنذ وجد الإنسان نفسه على ظهر الأرض وقد راح يتلمس هذه القوة فى كل ما حوله من عناصر وكائنات لكى يحتضى بها ويستعين بها فى الشدائد ، وطبيعى أن يتجه العقل البشرى أول ما يتجه إلى أن تكون الأم هى تلك الذات الخالقة . فالإنسان وليد أمه وهو لا يكاد يستنشق هواء الحياة حتى يشعر باعتاده الاعتماد الكلى على أمه . فهى التى تطعمه إذا جاع ، وهى التى تخفف عنه آلامه ، وهى التى تحميه وتحنو عليه . حتى إذا شب قليلاً عن الطوق كانت هى التى تهديه إلى القاس أسباب الحياة معتمداً على نفسه .

ولما كانت الحياة ما تزال فى بداءتها الأولى لم يكن للأسرة المستقرة وجود . وبالتالي فإن الأب قد تأخر فى الظهور على صفحة العقل كإله خالق . وانفردت الأم فى ذلك التاريخ بوصفها أصل الحياة . وقد ظل الإنسان يتأثر بهذه الفكرة حتى عصور متأخرة ، وبعد أن ارتقى تفكيره وتطور ، فظل لا يتصور الخلق إلا منسوباً لآلهة إناث . وعند وضع اللغة جعل العناصر الكبرى إناثاً ، فالسما والارض والشمس ، وهى الأصول الثلاثة التى عزا الإنسان الخلق إلى إحداهم كلها إناث .

ونحن فى عصرنا الحديث ما تزال تؤنثها بل وتحدث عن الأرض أحيانا بقولنا «أما الأرض» وحتى بعد أن ظهرت الآلهة الذكور إلى جوار الآلهة الإناث ظلت الآلهة الإناث هى صاحبة اليد الطولى . فايزيس فى مصر أشهر الآلهة بلا مراء ، وهى من سائر الآلهة المصرية القديمة التى تحولت إلى آلهة عالمية حيث دان لها الرومان بالعبودية . وأثينا هى

أشهر الآلهة الأغريقية وأحبها إلى الجمهور ويرمزون بها إلى الحكمة ، وتقابلها منزفا عند الرومان ، وإستار ، وعشتاروت في آشور وبابل ، والللات والعزى عند قبائل العرب في الجاهلية الذين كانوا يؤثنون الآلهة ويؤثنون الملائكة .

وقد أُلح القرآن إلى ذلك ونعاه عليهم « إن يدعون من دونه إلا إناثا<sup>(١)</sup> » ونحل هذا كله يؤكد لنا أن عبادة الأمومة باعتبارها خالقة للحياة هي أول ما خطر للذهن السرى تمشيا مع الظاهر الملموس المحسوس .

### عبادة الآباء فالأجداد :

ولكن مرحلة الاستقرار سرعان ما وفدت على الإنسان وبدأ الطفل يترعرع في ظل الأم والأب على السواء . ورأى من سلطان الأب وشدة بطشه ما جعله يتيبه ويختفى به ويستعين به . فبدأت الذكورة تحتل مكانها في التقديس إلى جوار الأمومة . وسرعان ما بدأت الملاحظة تدل العقل البشرى على أن الأم لا تنجب الأولاد إلا بعد اتصال الذكر بها . وأن الأم لو عاشت بمفردها ما عاشت فلا سبيل لإنجابها الأطفال . فكان اتصال الذكر بها هو السبب الأول لخلق الحياة . ولما كان الأب هو الأقوى وهو المتحكم في الأسرة والمتسلط على الأنثى ، فقد بدأ العقل البشرى يعزو الخلق إلى الأب لا الأم أو على الأقل للثنين معا .

ولعلنا نلاحظ ما في هذا التطور من طفرة في التفكير البشرى نقلته من عالم الظاهر والمشاهد والمحسوس الذى يدل على أن الأم تربي الجنين في بطنها ثم لا يلبث أن يفصل عن جسدها وينمو ويتغذى ويتربص بلبنها ، ولكن العقل تجاوز ذلك كله إلى السبب الأول للحياة الذى عزاه للأب ، أى للذكر .

### تتبع الأسباب :

ولم يكد العقل يضع قدمه على سلم الأسباب حتى راح يتسلقه درجة درجة ومايزال حتى اليوم يواصل ارتقاؤه للبحث خلف هذه الأسباب . فالأب وهو المتسبب في الحياة للابن ، كان يدرك أنه ابن لأب سابق . وهذا الأب بدوره كان ابنا لأب أسبق عليه فلا بد أن يكون هذا الجد الأول هو المتسبب الأول في الحياة ، وهو القوى القادر الذى يحمى أبناءه ويرعاهم من عالم الأشباح . ولا بد أن تقدم له القرابين لاسترضائه

(١) النساء ١١٧ .

واستجلاب محبته ومعونته وحمايته . وهكذا نشأت أقوى عقيدة عرفها البشر في القديم . ونعني بها عبادة الآباء والأجداد والتي تعدلت فيما بعد فأصبحت عبادة الموتى بصفة عامة أبطالاً كانوا أو زعماء أو ملوكاً ، أو مجرد آباء وأجداد . وما يزال الدين الرسمي لشعب ضخيم كاليابان في الوقت الحاضر هو الشنتو ، ويتلخص في عبادة الآباء والأسلاف . وعبادة الامبراطور سلالة ذلك الأب الأول الذي انحدر من الشمس ليحكم الأرض . وكل أسرة يابانية في الوقت الحاضر تعبد امبراطورها وتعبد إلى جواره آباءها وأجدادها فتفرغ إليهم في الملمات وتلتمس منهم العون في الشدائد وتستلهمهم الحكمة والرشاد وتقرب إليهم القرابين ..

وإذا كانت الصين على خلاف اليابان قد خلعت امبراطورها ابن السماء وأصبحت جمهورية حرة فإن عبادة الآباء والأجداد هي العبادة الغالبة في أرجاء الصين حيث يتعين على كل إنسان أن يتصرف دائماً كما لو كان في حضرة الأجداد ، بمعنى أن يسعى للحصول على رضائهم وتقاضى سخطهم والبعد عن كل ما يزرى بذكراهم وكرامتهم ، لأن كل ما يقوم به الابن من عمل لا يلبث أن يعود عليهم بالتكريم أو التحقير<sup>(١)</sup> .

### عبادة الحيوانات :

على أن الإنسان الأول إذا كان قد اختص أمه وأباه بالقداسة ورفعها بعد موتها إلى مرتبة الألوهية ، فإن الحيوان لا بد أن يكون قد نشأ بدوره من أصل آخر أو بالأحرى إليه آخر . ولا بد أن يكون النبات قد نشأ من أصل ثالث أو بالأحرى إليه ثالث وهكذا ؛ فكل عنصر يخالف الإنسان شئ مستقل بذاته له سببه وله أصله . وقد كان ذلك تفكيراً أساسياً للعقل البشرى في المراحل الأولى .

(١) الدين الرسمي الآن للصين (١٩٦٥) هو دين الماركسية ولا يعجب قارئ من وصفنا بأنها دين . فقد أصبح لها كل سمات الأديان الوثنية . فلها كهان (ماركس ولينين) ولها كتب مقدسة (رأس المال ومؤلفات لينين) ولها كعبة يحج إليها (موسكو) . وأصبحت عبادة الموتى من شعائهم . حيث يحتفظون بيثة لينين محنطة ومحيطونها بمظاهر التقديس .

وإذا كان ينقص الدين الجديد إله . فقد جعل ستالين من نفسه إلهاً إبان حياته . والماركسيون كأى متعصبين مترمّنين لدينهم على استعداد لإعدام مخالفين في الرأي . بل وإحراقهم حرقاً ، كما كانت الكنيسة تفعل في العصور الوسطى . وكما فعل ستالين في حياته وسط تهليل الماركسيين وإعجابهم .

ولما كان العقل البشرى منذ عرف نفسه في الوجود يستطيع أن يميز بين ما يضره وما ينفعه وما يسره وما يؤلمه . فقد دفعه ذلك إلى تصور آلهة للشر كتصوره آلهة للخير . وقبله كان الحيوان أسبق ما في هذا الكون لإيصال الأذى للإنسان وإشعاره بالخوف . فظالما رأى الإنسان بعض جنسه طعاما للأسد أو الهر أو النمس وغيرها من الحيوانات الكاسرة فامتلاً بالخوف منها والفرار لمرآها والإحساس ببطئها . وسرعان ما قفز العقل البشرى إلى تصور هذه الحيوانات كآلهة للشر . فراح الإنسان يتعوذ منها ويعمل على اتقاء شرها جهد طاقته باستجلاب رضاها وعدم استثارة غضبها بالتحرش بها أو التعرض لها . ومن هنا نشأت عبادة الحيوانات المؤذية في القديم كالتمساح والثعبان وابن آوى الذى كان ينبش قبور الموتى ويبتك أسرارهم ويأكل جثثهم . فكان المصرى القديم يضع له الطعام على حافة الصحراء لكي يسترضيه عله يكف عن نبش قبور الآباء والأجداد .

### الكلب والعجل والبقر :

على أن بعض هذه الحيوانات الكاسرة قد تحولت مع الزمن إلى حيوانات أليفة لا تؤذى الإنسان وإنما تنفعه وتعينه ، فسرعان ما أخذت هذه الحيوانات حظها من القداسة والعبادة لا بوصفها آلهة للشر ولكن كآلهة للخير . فكانت عبادة الكلب عند الرعاة . وعبادة العجل والبقر عند البيئات الزراعية كمصر والهند .

ولا تزال نرى في العصر الحديث في بعض البيئات المختلفة أثر هذا اللون من ألوان العبادة . ففي مصر مثلاً لا يزال لبعض الحيوانات سر خاص . وقد كنا نرى إلى عهد كبير قريب تماسيح محطة موضوعة على مدخل بعض البيوت <sup>(١)</sup> ، كما أن هناك أسطورة شائعة بين العوام وسواد الناس من أنه يوجد في كل بيت ثعبان خاص به . وما تزال هذه الطائفة من الحواة والرفاعية يؤكدون في الأذهان هذه الأسطورة بما يقنصونه من ثعابين من بعض الدور والمساكن ، وما يزال للقطعة السوداء في مصر أحاديث وقصص وأساطير . وليس ذلك إلا بقايا هذه المعتقدات المصرية القديمة والتي احتفظت بقوتها خلال العصور والدهور وسط جمهور الفلاحين المصريين الذين لم يتطوروا إلا قليلاً جداً خلال هذه

(١) كان إلى جوار البيت الذى نشأت فيه في حى طيلون بحارة الجلالة بيت أحد مشايخ الطرق الصوفية . وقد علق على بابه تمساحاً كان يملأ فزعاً كلما رحل أو جث من أمامه حتى تعودت عليه على مر الزمن . وكانوا يخفوننا به في طفولتنا .

الألوف من السنين - بل لعلهم لم يتطوروا على الإطلاق وكذلك الحال في الهند حيث نرى البقر أحد المعبودات المقدسة .

وفي المجتمعات الآسيوية كلها حيث ما يزال للكثير من الحيوانات صفة القداسة ، بل إن أرق المجتمعات الأوروبية ما يزال متأثراً بتقاليد الماضي ، فالأوروبيون ليسوا إلا من سلالة هذه القبائل الآرية التي وفدت من أواسط آسيا . وهي قبائل رحل تعتمد على الرعى في حياتها . وقد كان الكلب بالنسبة للرعاة دائماً حيواناً مقدساً فظل هذا الأثر باقياً حتى اليوم في الشعوب الأوروبية حيث نرى شدة تعلقها بالكلب وإسرافها في تدليله وإحاطته بكل صنوف الرعاية والبر والرقى .. وحقاً لا يفعل الأوروبيون ذلك على سبيل التقديس والعبادة ، ولكن الذى لاشك فيه أن إسراف الأوروبيين في إعزاز الكلب ليس إلا أثراً باقياً من آثار تقديسهم القديم له .

#### عبادة النباتات :

ولم تكن الحيوانات وحدها هي التي اجتذبت العقل البشري في القديم لتقديسها وعبادتها ، بل إن النباتات بدورها قد استرعت انتباهه ككائنات سامية مقدسة . فبعض الأشجار الضخمة القديمة قد عدت في كثير من المجتمعات الأولى كخالقة لبني البشر وواهبه للحياة<sup>(١)</sup> .

وقد كان ذلك تفكيراً طبيعياً لإنسان يعيش محوطاً بالغابات الكثيفة التي يراها تغص بكل ألوان الحياة التي تعيش على أوراقها وبين غصونها ، مجتمعة بأدغالها . وما تزال الغابة توحى بهذه الفكرة لكثير من القبائل التي تقيم في الغابات الاستوائية .

أما القبائل التي تطورت وتحضرت واهتدت إلى الزراعة فقد حولت عبادتها وتقديسها إلى بعض المزروعات المستنبته كالأرز والقمح .. والأرز هو المعبود المقدس في كثير من جهات بورما والملايو وجزر الهند الشرقية في عصرنا الحديث ، وأحسب أن ذلك لا يثير كثيراً من الدهشة إذا تصورنا أنه قوام حياتهم الذى به يعيشون .

(١) لا يزال في مصر شجرة المطرية تسمى شجرة العذراء يحيطها فريق من المصريين بالقداسة ويتركون بها ويستشفون ويسألون عندها حاجتهم بدعوى أن العذراء أقامت في ظلها .

## عبادة الجادات والعناصر :

وإذا كان العقل البشرى كما قدمنا يؤله ويقدس كل العناصر والكائنات التي يعجز عن إدراك كنهها أو التي تخيفه وترعبه أو التي تفيده وتنفعه . فقد كان طبيعياً أن يقدس المتوطنون بجوار الأنهار .. هذه المياة الجارية التي لا يستطيعون الحياة بدونها سواء عن طريق الشراب أو الغذاء . ويرونها أصل الحياة البشرية على الإطلاق . فالتيل في مصر والكنج في الهند وغيرهما من الأنهار في البيئات الزراعية كانت آلهة على رأس آلهتهم . وقد ظل النيل مقدساً في مصر حتى بعد أن دخل الإسلام إليها ، حيث صيغت له الأحاديث التي تتحدث عن فيضانه من قبة في الجنة ، حتى إذا اكتشفت منابعه في بلاد الحبشة وخط الاستواء كف المتعلمون من رجال الدين عن الزعم بفيضانه من الجنة . أما في شمال أفريقيا حيث ما يزال كثير من المتدينين المتبعدين من المسلمين لا يعرفون شيئاً عن منابع النيل واكتشافها في خط الاستواء والحبشة . فما يزالون على عقيدتهم الراسخة من أنه ينبع من الجنة .

وقد حدثني صديق جزائري<sup>(١)</sup> أنهم ما يزالون بالجزائر يسألون الله في خطب الجمعة بالمساجد أن يفيض عليهم نيل مصر .

أما نهر الكنج في الهند فما يزال مقدساً ومعبوداً بكل معنى العبودية . إذ يمحج إليه مئات الألوف بل ملايين الهنود للتبرك به والاستشفاء<sup>(٢)</sup> .

وهكذا قدست الأنهار وعبدت في جميع البيئات الزراعية . أما في المناطق الجبلية فقد عبدت الجبال وقمها الضاربة في كبد السماء والمغطاة بالثلوج طوال أيام العام فللجبال تأثير عميق في نفس الإنسان الواقف في سفحها إذ تشعره بضآلته إلى جوار عظمتها ، وتملؤه شعوراً بالمهابة والروعة . فلا عجب إذا حمل هذا الشعور الإنسان على تقديسها وعبادتها وخاصة أنه منذ يولد وهي تطل عليه وتظله بتأثيرها وعظمتها ، فإذا سأل أباه عنها أجابه بأنه هكذا رآها منذ طفولته وأن آباءه وأجداده قد شبوا جميعاً في ظلها وهي على هذه الحال من الثبات والشموخ لم تتغير ولم تتبدل .

(١) هو الأستاذ العالم المرحوم الفضيل الورتلاني .

(٢) اقرأ للمؤلف كتاب «أمة تبعث» عن رحلته في الهند وزيارته لمدينة بنارس .



وإذا كانت المشاهدة توحى للإنسان بأن كل شئ على ظهر الأرض يتغير ويتبدل فلا بد أن تكون هذه الجبال هى الأصل الثابت الذى نشأت منه الحياة وهى محور الكون المهيمن عليه ..

وما يزال سكان التبت فى أعماق الصين المتوطنون فى سفوح جبال الهملايا يعبدون بعض القمم ويؤلهونها<sup>(١)</sup> .

وأما هؤلاء الذين عاشوا إلى جوار البحر الكبير المترامى الأطراف والمتلاطم الأمواج ، فقد كان طبيعياً أن يعدوه هو الرب الخالق الذى منه فاضت الأشياء . وعلى هذه العقيدة حتى اليوم جميع سكان الجزر المتناثرة فى أنحاء المحيط الهادى .

وهؤلاء الذين عاشوا إلى جوار بركان جعلوا البركان أو النار التى تصعد منه هى أصل الحياة وحاكمتها . والذين انخلعت قلوبهم لصوت الرعد أو قصف الرياح أو هطول الأمطار قدسوها وألهوها وعدوها العناصر الخالقة .

وبالجملة فقد تأثر العقل البشرى فى مرحلته الأولى بالبيئة الجغرافية التى سكن فيها الإنسان . والظروف المعيشية التى خضع لها لكى يختار مقدساته ومحور عبادته ، وجعل دأبه تقديس كل ما يفوقه من كائنات أو يعجز عن فهمه أو يشعر باعتداده عليه وحاجته إليه ، أو يخيفه ويسبب له شيئاً من الأذى .

وما يزال أثر هذه المقدسات ظاهراً فى عادات السواد الأعظم من العوام ومعتقداتهم حيث يفسرون الظواهر الجغرافية تفسيراً أسطورياً مجتاً . وليس هذا إلا ترديدا للأساطير القديمة التى كانت تؤله هذه العناصر ، فالرعد مثلاً ليس إلا صوت الملائكة ، وهى تزجر الرياح وتضربها بمقامع من حديد . وبعض الزوابع والأعاصير ليس إلا أنفاس بعض الجن أو الأرواح . وبعض العيون والآبار من حفر الملائكة كعين زمزم فى الحجاز مثلاً فهى من حفر جبريل سيد الملائكة ، فإذا علمت أن سكان مكة والجبال المحيطة بها إلى ما قبل حفر عين زبيدة لم يكن لهم ما يستقون منه إلا بئر زمزم ، استطعت أن تدرك الصلة بين شدة

(١) ما زلت أذكر حتى اليوم اللهجة التى أجباني بها لبناني فى جبل لبنان وأنا أسأله عن قمة جبل عالية إذ قال لى هذا «صنين يا سيدى» فلفت نظرى ما فى إجابته من خشوع وتوقير فرحت أستريده من الشرح فلم يزد على قوله «هذا صنين» ثم راح يروى لى عنه أساطير وأقاصيص ما بين قديمة وحديثة وقد حفزنى ذلك للاشتراك فى رحلة للوصول إليه تمضية يوم حيث اعتاد الناس أن يمضوا فيه بعض الأوقات ، ولما عدت من هذه الرحلة قابلنى صاحب الفندق بكثير من الحفاوة والتكريم فقد سعدت صنين .

الحاجة إلى شئ من الأشياء وما يترتب عليه من تقديسه . وهو دأب الإنسان في مرحلته العقلية الأولى .

### عبادة الشمس والكواكب :

وكان طبعياً أن تكون الشمس بالنهار والكواكب بالليل من أعظم ما يستوقف العمل البشرى وتشعره بقوتها وشدة تأثيرها على الكون . إذ لا تكاد الشمس تشرق حتى يغمر ضوءها الكون كله ، فتدب الحياة على ظهر الأرض بعد موتها . فالطيور تخرج من أوكارها ، والحيوانات من وكنتاتها ، والأشجار تبسط أوراقها وتثرئ بأغصانها ، والزهور تتفتح ، والثمار تنضج ، والإنسان ينشط ، ويمتلئ الجو بضجيج الحياة وعجيجها . ولا تكاد الشمس تغرب حتى يسود الظلام ، وتنتشر الوحشة وتهرع الكائنات الحية إلى مساكنها حيث يدب النعاس الشبيه بالموت إلى أجفانها وأوصالها . ويفرق الكون في بحر من السكون والظلام حتى كأن الدنيا قد دخلت في عالم الأموات إلا إذا أشرق ذلك الكوكب الثاني الذى يبدد ظلام الليل ويضئ عليه نوراً يملأ النفس بالخشوع والحنان والدعة والذى لا يمكن إلا أن يكون بينه وبين الشمس أقوى سبب .

هذه الظاهرة الضخمة من تعاقب الليل والنهار وتأثير الشمس العظيم في الدنيا والكائنات ، كانت قيمة بأن تحمل العقل البشرى في وقت كان يقدر فيه النهر والجبل ، وقطعة الحجر ، والقط والساح ، والبرق والرعد ، على أن ينخص الشمس بأكبر نصيب من خضوعه وعبوديته ، وأن يجعل منها إلهاً فوق الآلهة ، ومصدراً أصلياً للحياة فوق جميع المصادر الخاصة به . ومن هنا كانت الشمس هي العنصر الوحيد المشترك بين جميع الديانات والعقائد المختلفة القديمة ، فإلى جوار الآلهة المحلية لكل شعب ولكل جماعة كانت ترتفع الشمس كمصدر أولى لكل ما في الكون من إنس وجن وآلهة .

ففي مصر انحدرت جميع الآلهة من الشمس كما انحدرت منها الفراعنة وفي اليابان هبط الإمبراطور من الشمس المشرقة . وديانة الآشوريين والبابليين تتخذ الشمس محوراً لها .. وأشهر الآلهة في مختلف البيئات وأعظم الأصنام والرموز ، تقام دائماً لهذه الآلهة التي تمثل قوة الشمس .

وسنرى في الفصل التالى كيف كانت الشمس هي نقطة البدء ، التي قفز العقل البشرى منها إلى توحيد الآلهة .

والحق أن العقل البشرى ساعة أن سما إلى السماء وكواكبها لالتماس الآلهة كان يظفر .  
طفرة من طفراته العجيبة الواسعة . فانصرافه عن الأرض بمادياتها المظلمة وصورها  
المحدودة إلى السماء اللانهائية بأنوارها المتلائلة وأشعتها المضيئة ، كان بمثابة قطعه نصف  
الطريق نحو اكتشاف الحقيقة السامية .

ولقد صوّر لنا القرآن أبدع تصوير ، كيف تستوقف السماء بكواكبها العقل لاكتناه  
أسرارها ، فيما حكاه عن إبراهيم إبان محاولته كشف الحق في هذا الكون « فلما جن عليه  
الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال  
هذا ربي فلما أفل ، قال لن لم يهدينى ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس  
بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت  
وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين <sup>(١)</sup> » .

وما يزال أثر عبادة الكواكب والنجوم مغروساً في السواد الأعظم من الناس الذين  
يؤمنون بالتنجيم والطوالع . ويعتقدون بوجود صلة بين كل إنسان وبين نجم معين وينسبون  
إلى بعض النجوم طوالع سعيدة ، ولبعضها طوالع نحسة . وقد ظل المنجمون أصحاب  
حظوة عند الملوك والخلفاء والقيصرة إلى عهد قريب جدا ، حتى بعد انتشار الأديان التي  
تحظر الإيمان بالنجوم والكواكب . ولم يفقد المنجمون حظوتهم لدى الكبراء والمتعلمين  
إلا بعد تطور العلوم الفلكية الحديثة التي أثبتت أن أصغر نقطة من هذه النقط المضيئة في  
السماء قد تساوى في حجمها الأرض ملايين المرات . فن العبث تصور أن يكون بينها  
وبين حركات الإنسان وتصرفاته أية صلة أو علاقة . ومع ذلك فما يزال المنجمون لهم تأثير  
عظيم جدا في صفوف العوام . ليس فقط في بلاد الشرق بل في أرقى الجماعات المتحضرة  
أى في أوربا وأمريكا <sup>(٢)</sup> .

(١) الأنعام ٧٦ - ٧٩ .

(٢) عاد التنجيم ومطالعة الطالع يحتل مكانه في أرقى الصحف والمجلات العالمية .

## عبادة الخالق في خلقته :

وهكذا لم يدع العقل البشرى كائناً من الكائنات حياً كان أو جامداً . صغيراً كان أو كبيراً على الأرض أو في السماء إلا وحاول أن يتمثل فيه ذلك السر الإلهي المتصف بالقدرة والخلق .

ولعلنا نستطيع أن ندرك كيف كان ذلك هو ينبوع الأول الذي فاضت منه العلوم والمعارف . وقد ذكرت فيما سبق أن هذه التطورات الأولى للعقل البشرى مهما تبدت في نظرنا في العصر الحديث ساذجة ، فهي الأساس الذي قام عليه صرح إيماننا الكامل ومعرفتنا الشائخة . ولا يجب أن نفاضل بين العقائد القديمة من ناحية مقدساتها ، بمعنى أن نعتقد أن من يقدس البقرة أرقى ممن يقدس الكلب مثلاً ، ومن يعبد النار أو الجبل ، أرقى ممن يعبد العجل أو البقر . وأن من يعبد الشمس أرقى من الجميع . فذلك ليس مقياس التفاضل ، لأن هذه الأشياء كلها ، ليست سوى كائنات مخلوقة لخالق واحد ، فهي كلها في مرتبة واحدة ، ومكانة واحدة ، وهي كلها منها تكبر أو تصغر ، تحمل بين ثناياها طابع ذلك الخالق الذي خلقها وأبدعها ، وهي آية على قدرته وعظيم شأنه ، فلا يكاد العقل البشرى يتأمل أى كائن من هذه الكائنات ، حتى يرى نفسه وجهاً لوجه أمام قدرة الخالق .

وليس أدل على ذلك من أسلوب القرآن الكريم الذى حث العقل في عشرات الآيات على تأمل كل ما في هذا الكون من كائنات وعناصر ومخلوقات مستخدماً في إشارته إليها صيغة القسم لإبراز شأنها وحقيقة سرها كقوله : « والسماء والطارق » ، « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها » ، « والنجم إذا هوى » ، « والتين والزيتون » : « والعاديات ضبحا » ، « والمرسلات عرفا » إلى آخر هذه الآيات العديدة التي تتضمن القسم بشئ الكائنات للفت نظر العقل البشرى إلى ما تنطوى عليه من أسرار تدل أفصح دلالة على خالقها القادر الأزلي . وما فعله العقل البشرى في مرحلته الأولى التي فرغنا من استعراضها وهو وقوفه عند حد تأمل هذه الكائنات المختلفة وإدراكه لما تنطوى عليه من سر يحير الألباب جعل العقل ينحني إذعائاً أمامها فيتخذها آلهة معبودة . وهو في الحقيقة إنما يعبد القدرة التي أبدعتها وإن كان لم يدرك ذلك بعد .

وهذا ما يجعلنا نصف هذه الفترة من مراحل التفكير البشرى بأنها عبادة الخالق في خلقته .

وقد عبر أمير الشعراء الخالد أحمد شوقي بعبقريته الفذة وشفافيته الروحية عن هذا المعنى أجمل تعبير وأروع بقوله :

رب شقت العباد أزمان لاكت	ب بها يتدى ولا أنبياء
ذهبوا في الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قويا إلها	فله بالقوى إليك انتماء
وإذا آثروا جميلاً بتنزير	ه فإن الجمال منك حياء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا	فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربا	با فثلك السنا ومنك السناء
وإذا ألخوا النباتات فن آ	ثار نعامك حسنه والثناء
وإذا يعموا الجبال سجوداً	فالمراد الجلاله السماء
وإذا يعبد الملوك فإن المد	لك فضل تحبو به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسم	اك والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأر	حام والأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد	خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر	شف عنه الحجاب فهو ضياء

## الفصل الرابع

### نحو الحقيقة

نظرية الحلول - عبادة الأصنام - نحو التوحيد -  
 في مصر - بتاح - الإله رع - آمون - أمحوتب  
 الرابع - اخناتون - أتون الإله الحق - الرحمن  
 الرحيم - مصرع اخناتون - تنزيه آمون - التوحيد  
 عند الاغريق - عند الفرس - عند الهنود .

#### نظرية الحلول :

وتابع العقل البشري رحلته نحو سر الأسرار . وقد اشتد ساعده على مر الأيام بما اكتسب من تجارب واكتشف من حقائق وأدرك من بديهيات . وضغطت عليه من ناحية أخرى ظروف الاجتماع المتطور والعمران وأسباب الحضارة وزادت بذلك سيطرة الإنسان على كثير من العناصر والكائنات التي لم يعد يرهب الكثير منها أو يخشاها بعد أن اكتشف أنها تعمل وفق قواعد مقررة رتيبة . وأن ذلك يقلل من قوتها بالنسبة للإنسان الذي يحس من نفسه الحرية والاختيار والذي استطاع بمحض عقله ودهائه أن يصرع أضخم الحيوانات وأشرسها وأن يخضعها لسلطانه .

كل ذلك جعل العقل البشري يغير نظره إلى مقدساته على اختلاف أنواعها سواء كانت حيوانات أو نباتات أو جہادات . فلم تعد تمثل في نظره الآلهة بذاتها بل صوراً قد اختارتها الآلهة للظهور بها على الأرض والاختلاط بالبشر بطريقة يقوى البشر على احتلالها . ولكي تتيح للبشر من ناحية أخرى فرصة التقرب منها وعبادتها .

فالعجل أبيس مثلاً ذلك العجل ذو الغرة البيضاء ليس هو الإله الصانع بتاح ، وإنما هو الصورة الأرضية التي اختارها الإله بتاح لتقمصها والظهور بها على الأرض ، للاقتراب من عباده المؤمنين . وما يقال عن بتاح ، يقال عن جميع الآلهة الأخرى ، فكلها سواء في قدرتها على التشكل والحلول في مختلف الصور دون أن يكون في ذلك أدنى

مساس بجوهرها الذى يظل ساميا علويا كاملاً ، لا يخضع للمؤثرات أو النقائص المادية .  
وقد غمرت نظرية الحلول هذه العالم فى مرحلته العقلية الثانية . فلم تعد الكائنات  
المادية المعبودة على اختلاف أنواعها آلهة بذواتها بل سكناً للآلهة وصوراً لها على الأرض .

### عبادة الأصنام :

وقد أدت نظرية الحلول ورغبة الآلهة فى سكنى الصور المادية للاقتراب من بنى  
الإنسان إلى التوسع فى إقامة الأوثان والأصنام والنصب ، لتكون سكناً للآلهة على  
الأرض بين عبادها المؤمنين ، الذين يقومون على خدمتها وتقديسها وتسييحها ، وتقديم  
القربان والذبائح بين يديها بالليل والنهار .

ولعلنا نرى من ذلك أن الوثنية بمعنى عبادة الأصنام والتقرب منها ، بوصفها وسيطاً  
لإرضاء الآلهة ، لم تكن فى الواقع إلا مرحلة من مراحل التطور العقلى فى سبيل النضوج  
والاكتمال . فقد بدأ العقل فى هذه المرحلة يقلع عن اتخاذ كائن بعينه إلهاً من الآلهة وبدأ  
يتمثل الآلهة ذات قوى خفية فائقة غير محدودة ، وإنما حملتها محبتها للبشر ورغبتها فى  
الاقتراب منهم أن تحل فى هذه النصب والتماثيل والمقدسات التى يقيمها البشر لعبادتها  
والقرب منها .

### نحو التوحيد

وبينا كان العقل البشرى يتطور نحو تنزيه الألوهية ، فقد كان يتطور كذلك من حيث  
توحيدها ويحاول أن يخلص من هذا التعدد الذى لا حد له للآلهة والعناصر الخالقة : فمن  
ناحية كان العقل قد بدأ يدرك أن خلف الأجزاء المتعددة دائماً نوع يشملها ، وأن فوق  
الأنواع جنس يجمعها . ومن ناحية أخرى عمل الاستقرار ونشوء الحضارة ، واتصال  
أسباب التعاون بين البشر ، إلى تقريب العقل من فكرة توحيد الآلهة . ففى البدء حيث  
كان الناس يعيشون على هيئة قبائل يباعد بينها انعدام أسباب المواصلات وصعوبتها ،  
كانت كل جماعة أو بالأحرى كل قبيلة تتخيل الكون محدوداً بهذا الأفق الذى تصل إليه  
أبصارها ، وكانت تعتقد أنه ليس فى الكون إلا آلهتها المختارة ، وأن ليس سواها من  
ترعاها وتحميه الآلهة ، ولكن احتكاك القبائل ببعضها عن طريق التعاون السلمى ، أو  
الاصطدام الحربى ، قد دل كل جماعة على أن هناك عوالم أخرى غير عالمها ، وأن هناك

شعوباً غير شعبها ، وأن هناك آلهة غير آلهتها . فبدأت الفكرة عن الألوهية تتلحح بأفكار الآخرين عنها فتوجهها في هذا الاتجاه أو ذاك ، وبدأنا نطالع في سجل تطور العقائد البشرية ، كيف ان آلهة جماعة من الجماعات تمت بصلة الأخوة أو البنوة أو الأبوة إلى آلهة الجماعة الأخرى ، بل كيف أن إله قوم قد تزوج ربة القوم الآخرين . حتى إذا جاء عصر الفتح والنصر الذى استطاع فيه زعيم قوى أن ييسط سلطانه على عدة جماعات وقبائل وشعوب متفرقة ، فقد بدأنا نرى بالتالى اشتداد سلطان آلهة هذا الفاتح وتفوقها على آلهة الشعوب الأخرى المغلوبة . كل ذلك قد أدى في نهاية الأمر إلى استخلاص العقل البشرى فكرة كلية مجردة عن الألوهية عاونته على تصور إله فوق الآلهة ، ورب خالق لبقية الأرباب ، حتى انتهى به الأمر إلى التوحيد الكامل المطلق كما سنرى في استعراض سير التطور في مختلف الجماعات البشرية القديمة .

#### في مصر :

لا أحسب أنه يوجد مثل المجتمع المصرى القديم ، من حيث قدرة الإنسان على تتبع نشوء العقائد المختلفة وتطورها وامتزاجها ، وكيف بدأت بمعتقدات الإنسان الأولى الساذجة من تقديسه لكل ما يحيط به من كائنات وعناصر ، وانتهت عند حكائهم وقادتهم بالتوحيد المجرد المطلق .

وقبل بدء التاريخ المصرى فى الظهور والوضوح ، أى قبيل عصر الأسرات نرى مصر تتألف من عديد من المدن والمقاطعات المستقل بعضها عن بعض ، والتي يختص كل منها بإله معبود يمثل ناحية من النواحي المتعددة ، التي أشرنا إليها فيما سبق . وكان يوجد دائماً إلى جوار هذا الإله المحلى المتفوق ، عدد آخر من الآلهة المشتركة بين هذه المنطقة والمناطق الأخرى . ثم بدأت العوامل السياسية والظروف الاجتماعية تعمل عملها فى التقريب بين هذه الآلهة ، والمزج بينها وإخضاع كل منها للأخرى . وإلى جوار هذه العوامل السياسية ، وجد فى مصر عامل طبيعى كان له أكبر الأثر فى عملية التوحيد وذلك هو الشمس . فهذه الشمس القوية الساطعة التى أحس كل مصرى بعظم تأثيرها على حياته ، وزراعته وكل ما يحيط به ، استحققت أن تكون معبودته فى أكثر من إقليم من أقاليم الوجه البحرى والقبلى ، فكان لهذه الفكرة المشتركة أكبر الأثر فى خلق فكرة التوحيد فيما بعد ، والمساعدة على انتشارها وكانت الشمس تعبد فى مختلف أنحاء القطر من بادئ الأمر باسم حوريس .



## بتاح :

ولكنها مع ذلك لم تصبح معبوداً رسمياً في سائر أنحاء القطر إلا بعد أن شقت لها السياسة والغلبة العسكرية الطريق . وكان ذلك عندما استطاع مينا لأول مرة في حياة مصر أن يضم حكمي الوجه البحرى والقبلى إلى سلطانه وأن يجعل من مدينة منف عاصمة للديار المصرية ، يدين لها المصريون جميعاً بالولاء والطاعة ، يتلقون منها الوحي والقيادة والإرشاد . فسرعان ما قفز إليه مدينة منف المحلى إلى مرتبة الإله الأول للدولة ، وبعد أن كان هذا الإله خاملاً لا يكاد يسمع اسمه خارج منطقة منف ، أصبح هو الإله الغالب المسيطر . ولم يكن ذلك الإله سوى بتاح ذلك الذى ألحنا إليه فيما سبق ، والذى كان يرمز إليه بالعجل أيس . وقد ظلت هذه العبادة تحتل المكان الأول بين العبادات المصرية حتى عصور متأخرة جداً .

ونستطيع أن نتبع في تاريخ بتاح ، التطورات التى تطورت إليها المعبودات القديمة حتى انتهت من الصور المادية البحتة ، إلى الصورة الكاملة التى لا تختلف عن أى صورة أخرى يمكن أن نتصور الله عليها .

ففي البدء كان بتاح ينظر إليه بواسطة كهنته وأهل إقليمه كإله العمارة والصناعة الذى يرجع إليه فى التصميمات البنائية والصناعية فى دائرة إقليمه المحدود .

فلما أصبحت منف عاصمة الديار المصرية ، تطورت نظرة كهنته إليه فأصبح رئيساً لصناع العالم كله .. وبالأحرى صاحب الترتيبات البنائية والصناعية فى الدنيا كلها لا فى دائرة إقليمه . فحسب . ثم تطور به كهنته خطوة أبعد من ذلك فنسبوا إليه فكرة خلق الكون والآلهة وأن جميع ما يصدر عن سكان هذا الكون سواء كانوا بشراً أو آلهة من أعمال وتصرفات ومنشآت ، إنما يرجع فى حقيقته إلى بتاح الرب المنفرد بالخلق والعظمة . والذى إذا قضى شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

## الإله رع :

وهكذا كسفت عبادة « بتاح » لفترة من الزمن عبادة الشمس ولكن الأسرة الأولى لم تكد تسقط ، حتى هب كهنة عين شمس من رقادهم وشرعوا يبشرون باسم معبودهم الشمس « رع » الذى لم يكن يُعبَد بهذا الاسم إلا فى هذه المنطقة ، وسرعان ما وقع ملوك الأسرة الثانية والثالثة تحت نفوذهم ، فلم تكد الأسرة الرابعة تأخذ طريقها إلى الوجود ،

ويفرغ «خوفو» من بناء هرمه حتى كانت عبادة «رع» هي العبادة الغالبة في الدولة ، وأصبح اسم «رع» يظهر في أسماء ملوك هذه الأسرة على التوالي كخفرع الذى يعنى ضوء الشمس ، ومنقرع ، واستطاع كهنة عين شمس في نهاية الأمر أن يستولوا بأنفسهم على أريكة الملك ، فأسسوا الأسرة الخامسة ، وماتلاها ، حيث أصبح لقب الملك الرسمى ابن الشمس ، وأصبحت عبادة «رع» هي عبادة الدولة الرسمية . وارتفعت المعابد لتقدسها وعبادتها في طول البلاد وعرضها ابتداء من مدينة «منف» ذاتها مسقط رأس الإله «بتاح» ، أو بالأحرى موطن حلول الإله بتاح في صورة العجل أبيس .

غير أن تفوق إله في ذلك الوقت لم يكن يعنى القضاء على الآلهة الأخرى ، ولكنه كان يؤدي إلى محاولة الآلهة الأخرى للاتحاد بالإله المتفوق والامتزاج به ، لتستطيع الحياة ، ولتحتفظ بشئ من سلطانتها . فأوزوريس إله العراة كان يمثل سلطان رع على الأرض قبل أن يأوى إلى العالم الغربى للفصل بين الموتى ، والقضاء عليهم بالنعيم أو الجحيم الأبديين ، وقد أصبح يرمز به إلى الشمس الغاربة . أما ابنه حوريس الذى ورث سلطانه بعد أن انتصر على «ست» إله الشر فقد أصبح يعد صورة أخرى من رع فأطلق عليه رع حوريس . أما الإله سبك «الشمس» الذى كان يعبد في كثير من أقاليم الوجه البحرى والقبلى بوصفه إله الحياة والموء إذ كان يُرى جاثماً بين الحشائش والنباتات « فقد امتزج بدوره بالشمس وأصبح يطلق عليه سبك رع<sup>(١)</sup> .

### أمون :

على أن أعظم الآلهة الإقليمية التى اتحدت بالشمس لتحفظ بمكانتها ، وأصبح لها فيما بعد شأن عظيم هو الإله أمون الإله الإقليمى لمدينة طيبة ، والذى يظن أنه ذات الإله «من» إله مدينة قفط المحلى ، والذى كان يعد إله الخصوبة والنسل . فقد اضطر هذا الإله بدوره أن يتسبب إلى الشمس عندما قويت عبادة رع فأصبح يطلق عليه لقب أمون رع بوصفه صورة أخرى من صور المعبود رع . حتى إذا كانت الأسرة الثامنة عشرة ونجح أمراؤها في بادئ الأمر في طرد الهكسوس ، وإجلائهم عن مصر ، وبذلك تم تحرير البلاد من الغاصب الأجنبى ، الذى دنسها وأغضب الآلهة وانتكح حرمتها . واستطاعت

(١) لا يزال اسم هذا الإله القديم علماً على كثير من بلدان القطر المصرى وقراه في الوقت الحاضر كسبك - الضحاك . وسبك التلات . وسبك الأحد .

جيوش طيبة الظافرة تحت قيادة أحمس أن تطارد العدو المقهور خارج الحدود المصرية وأن تدخل غازية إلى صميم بلاد الشام ، فكان طبيعياً أن يرتفع ذلك بأمون إله طيبة قصبة الملك الجديد ، إلى أرفع المراتب بين الآلهة طرا ، ليس فقط في داخل الحدود المصرية ، بل وخارج الحدود أيضاً ، بين جنبات هذا العالم الفسيح المترامى الأطراف ، كيف لا وتمتج بنوده وأعلامه . ويفضل حمايته ورعايته ، أحرزت جيوش طيبة ذلك النصر المظفر الرائع الذى أذهل الدنيا في ذلك الزمان .

ومن ثم فقد أصبح أمون هو معبود مصر الرسمي ، الذى يهيمن نفوذه على الإمبراطورية المصرية كلها ابتداء من أقصى الفرات شمالاً ، حتى أحشاء السودان جنوباً ، وهو مالم يتمتع به إله مصرى من قبل . فأقيمت له المعابد في سائر أنحاء الإمبراطورية وشيدت باسمه في طيبة أعظم معابد الدنيا في عضورها القديمة أو الحديثة ونعنى به معبد الكرنك .

وكان طبيعياً أن يرتقى الذهن كدابة دائماً في هذه المرحلة من مراحل التفكير البشرى بحقيقة أمون . فلم يعد كهنته ينشئون له تماثيل في المعبد ليحل فيها ، أو نواويس ليقم فيها ، ذلك أن أمون لا يقيم على الأرض بل يسكن السماء ، ولم يكن ينقص بعد وصول العقل إلى هذه المرتبة إلا أن يعلن كهنة أمون إلغاء بقية الآلهة الأخرى ، والقضاء على عبادتها لكي يتم التوحيد المطلق المجرد ، ولكن هذه الخطوة كان مقدراً لها أن تتم على يد أختناون الذى يمكن اعتباره أقدم نبي عرفه البشر وخلد التاريخ أثره .

#### أحبوب الرابع :

أثار النفوذ الذى أحرزه كهنة أمون والأموال الوفيرة ، والكنوز الثينة التى راحت تندفق إلى خزائن معابده ، وجيوب كهانه ، أثار ذلك حفيظة الفراعنة في أواخر الأسرة الثامنة عشرة ، فبدأوا ينظرون شذراً إلى هذا النفوذ العظيم ، وهذا الغنى الطائل ويسعون بشتى الطرق إلى تقويضه ، وإلا أصبح خطراً عليهم ، وكان من مظاهر نفوذ الكهنة أن يعين رئيسهم مستشاراً للملك ، فلم يكد أمحتب الثالث يتولى أريكة الملك حتى أبطل هذا التقليد فعين كبير وزرائه من غير طائفة الكهنة .

وقد كان ذلك إيذاناً ببداية المعركة بين العرش والكهنة .

وقد وجد كهنة عين شمس الذين كانوا قد أصبحوا يأتون في المرتبة الثانية بعد كهنة

أمون فرصتهم الذهبية في هذا النزاع لتقوم مجدهم المنهار ، ولإعادة عبادة رع إلى سابق سلطاتها وسيادتها على مصر ، فانتهزوا فرصة تقلد أمحتب الرابع العرش بعد أبيه وهو لا يزال بعد في ريعان الشباب لكي يشدوا أزره في مقاومة سلطان كهنة أمون ويحسنوا له العودة إلى عبادة رع سيد الآلهة . وقد أنس كهنة عين شمس من الملك الشاب ميلاً إلى الاستماع إليهم ، والتأمل فيما يقولونه عن عظمة رع ، وأحقية بالتقدم على سائر الآلهة ، فظنوا أنه قد انحاز نهائياً إلى جانبهم وأخذوا يمينون أنفسهم بقرب عودة السلطان إليهم ، وراحوا يستحثون الملك الشاب على إنفاذ عزمه بالمناداة بـ «رع» ربا فوق الأرباب . ولكن أمحتب الرابع ، وهو يستمع إلى كهنة عين شمس كان قد سبج بفكره إلى ما فوق عقولهم وأشرقت نفسه بنور الحقيقة التي كانت ما تزال خافية على عقول الكهنة حتى ذلك العصر ، والذين لم يكن يعينهم إلا استدامة النفوذ والسلطان .

خلق أمحتب بفكره وروحه فوق المسميات المتعددة للآلهة ، فاستقر في روعه أن لا بد أن يكون في هذا الكون إله واحد لا شريك له متزه عن الجسمانية ، يمكن أن تكون الشمس رمزاً له ، ودليلاً عليه وارتأى بطلان كل عبادة أخرى إلى جوار عبادته ، وشعر بأن واجبه أن يذيع هذه الحقيقة على الدنيا وأن يشر بها ولكنه في الوقت نفسه أثر أن يسلك بالناس سبيل التدرج حتى لا يفاجئهم بتعاليمه الجديدة دفعة واحدة . فبدأ بإقامة معبد جديد في مدينة طيبة خصصه لعبادة «آتون» وهو أحد صور المعبود رع ، أو هو يعنى الشمس بالأفق الغربى .

### أخناتون أو روح آتون :

ثم بادر لإظهار تعلقه بالإله الجديد بتغيير اسمه من أمحتب إلى أخناتون ، أى روح آتون ، وقد كان ذلك كافياً لزجاجة كهنة أمون الذين أقلقتهم هذه التغيرات ، ورأوا فيها استمراراً لسياسة التحيف من سلطان أمون وبالتالي سلطانهم . فشرع أخناتون بضرورة الهجرة من مدينة طيبة ليستطيع التحرر نهائياً من سلطان كهنتها ، ولينأى بنفسه عن هذه البيئة الوثنية ، التي يشير كل حجر فيها إلى عظمة أمون وتأثيره العميق في الناس . فأنحدر أخناتون مع النيل تاركاً طيبة ميمماً صوب الشمال ، ليختار موضعاً جديداً يصلح لإنشاء مدينته الجديدة ، التي اعتزم أن يتخذها عاصمة ملكه ، وأن يكرسها لعبادة الإله الحق الذى استضاءت به نفسه . فوقع اختياره على موقع بالقرب من مدينة البلينا ، وفي هذا المكان وضع الحجر الأساسى لمدينته الزهراء الجميلة ، التي وصفها أمراء ذلك العصر بأنها أجمل

المدن على الإطلاق . وانطلقت أعمال البناء على قدم وساق بحيث لم يمض إلا القليل من الزمن حتى كانت جدران المدينة قد ارتفعت شائعة في الفضاء وشيدت القصور الملكية وقصور الحاشية على أبعد تخطيط ، وأجمل رسم .  
معبد آتون :

على أن حجر الزاوية في هذه المدينة الجديدة كان هو المعبد بطبيعة الحال ، وقد كان تصميمه ينبئ بذاته عن ضخامة الانقلاب ، الذي جاء به أخناتون ، في عالم العقيدة ، وعن مقدار سموه الروحي العظيم .

فحتى ذلك الوقت كانت الفكرة عن الآلهة تصورهم في صورة مخيفة مرعبة ، وكانت المعابد بالتالي تبنى على أساس هذه الفكرة ، فكان يراعى فيها أن تملأ النفوس خشية وروعة ، وهولاً وفزعاً ، فكان الضوء لا ينقذ إليها إلا من كوى ضيقة ، وكثير من أرجائها كان يغشاها الظلام المطبق ، وذلك كله لإحداث التأثير المشهود في النفس ، فجاء معبد أخناتون الجديد على نقيض ذلك كله ، إذ لم يتألف إلا من ساحة كبيرة مكشوفة يغمرها نور الشمس نهاراً ، وتظللها كواكب السماء بالليل ، وفي بعض أجزائها سقائف وحجرات لسكنى الخدم ، وموظفي المعبد ، وفيها خلا مائدة القربان التي وضعت في وسط الساحة ، لم يرتفع في هذا المعبد تمثال أو نصب أو تابوت للرب ، وأحيط المعبد بعد ذلك بالحدائق الغناء التي استنبت فيها أجمل الزهور والرياحين ، وأجريت فيها جداول الماء ، وأنشئت فيها أحواضه لتسبح فيها الطيور ذات الريش الجميل والدواجن من بط وأوز ، ذلك أن الأزاهير والطيور والمياه والحيوانات والأشجار كلها كائنات تسبح بحمد الرب الخالق ، وتشهد ببديع صنعه وعظيم نعمائه .

آتون الإله الحق :

ثم شرع الملك بعد أن استقر في مدينته في إعلان حقيقة دعوته الجديدة التي يبشر بها ، فأتون المعبود بحق ليس هو كما ظن كهنة رع عودة إلى عبادة رع في إحدى صوره ، لأن رع لا يعنى سوى قرص الشمس بذاته ، أما آتون الحق فيجل عن أن يكون صورة مادية محسوسة وإنما هو القدرة التي تحرك الشمس . هو هذه القوة الكامنة خلف حرارة الشمس ، المنبعث منها نور الشمس ، فإن آتون في الحقيقة « سيد الشمس » أى أن كلمة آتون تحولت بذلك عن معناها المادى إلى مرادفة لكلمة « نثر » أى الإله المعبود أو ما يطلق عليه في لغتنا العربية كلمة « الله » .

وهكذا وصل أختاتون بمعبوده إلى ذروة التوحيد الكامل ، المطلق ، محدثاً بذلك أقدم وأعظم انقلاب في حياة العقائد البشرية القديمة . حقا لقد ظل أختاتون يصور أتون على شكل قرص الشمس ، وقد امتدت منها الاشعة على صورة أيد بشرية بمثابة العناية الإلهية ، ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد رمز محض للتعبير عن هذا الرب العظيم ، غير المنظور المنفرد في ربانيته الوحيد في قدرته ، وقد ظل أختاتون طول حياته « القصيرة » يؤكد في نفوس أتباعه وتلاميذه ، تنزيه الرب عن كل جسمانية أو صورة مادية قائلاً لهم إن أتون « ليس كمثله شيء » .

### الرحمن الرحيم :

وقد استتبع إشراق الحقيقة في نفس أختاتون ، تطور في النظرة إلى الله وكيفية التقرب إليه وإرضائه ، فقد سفه جميع الأفكار التي تصف الله بالقسوة ، والتي تملأ النفوس فزعاً منه . ووصف الله بالرحمن الرحيم وأنه رءوف بعباده ، لطيف بهم . هو منهم بمثابة الأب من أبنائه عندما يعطف عليهم ويحيطهم ببره وحنانه فكان يناجيهم بقوله « أيها الأب الكائن في السماء » ويصفه بأنه « سيد الحب » الذي يرعى الجنين في بطن أمه ويلطفه لكي لا ييأس ، ومن أجل ذلك فعلى المرء أن يتقرب إلى الله لا من خلال المعارك والحروب الدامية بل من خلال السلام والأمن والمحبة . وإذا أراد أن يقرب الله قرباناً ، فعليه ألا يفكر في إراقة الدماء وذبح الذبائح ، بل ليحرق له البخور والعطور وليضع على مائدة القربان الزهور والأغصان . ومن شاء أن يعبد الله فليتنج بروحته وقلبه إلى الله بعيداً عن كل طقوس أو تعقيد ، فالله يحب البساطة لا التكلف وهو سميع قريب لكل إنسان . ولذلك كان أختاتون نفسه آية على البساطة والبعد عن كل تكلف ، فكان يمتزج بشعبه على خلاف تقاليد الفراعنة السابقين ، وكان يقرب إليه أفراداً من الشعب لم يكونوا يحلمون في القديم بمجرد تقبيل موطئ نعليه . وكان يرى في أكثر الأحيان راجياً عربته مصحوباً بزوجته وأولاده من غير حراس أو حشم ، فكان نموذجاً للزوج البار والأب البار ورب الأسرة الكريم . وكان يهيم بالحق ويقده ويعدده أسمى ما في هذا الوجود حتى أطلق على نفسه لقب العائش في الحق ودعا الناس جميعاً إلى أن يعيشوا في الحق وبالحق<sup>(١)</sup> .

(١) أحدثت تعاليم أختاتون أثرها في فنانى عصره من المصورين والمثاليين فلأول مرة في تاريخ الفن المصرى=

## نشيد أخناتون :

ولعله لا يوجد ما يطالعنا على عقيدة أخناتون وحقيقة إيمانه وروح السامية أكثر من أن نطالع بعض أناشيده وترانيمه التي وضعها خصيصاً لتجديد آتون والتي تهز نفوسنا بما احتوته - من إيمان عميق وجمال فني على الرغم من انقضاء ثلاثة آلاف سنة على إنشائها لأول مرة وليلاحظ القارئ كيف يبدأ أخناتون موجهاً حديثاً إلى ما يشعر أنه يخاطب الشمس ثم لا يلبث أن يرتقى في خطابه مخاطباً سيد الشمس ومحركها وخالقها بين ما خلق .

## جلال آتون :

بزوغك جليل في أفق السماء يا آتون يا حي يا مبدئ الحياة .  
إذا ما صعدت في أفق السماء الشرق أفضت على الأرض جمالك .  
ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم تضيء في السموات العلاء تسطع على الأرض وعلى جميع المخلوقات بأشعتك .  
أنت بعيد عن الأرض ولكنك على اتصال معها بأشعتك .  
أنت عال لكن آثارك واضحة في ضوء النهار .

## النهار والحيوان والنبات :

البهائم كلها مستريحة في مراعيها والأشجار والنباتات جميعها يانعة والعصافير تحفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهاجاً إليك ، والأغنام ترقص على أرجلها ، والطيور تملق في الجو تنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .

## النهار والحياة :

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه - وكل طريق عام يصبح مسلوكةً لأنك ظهرت في الأفق - أما السمك فيقفز أمامك في النهر - هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

---

==القديم بدأ الفنان يحاول أن يكون أميناً في تصوير الطبيعة فرأينا صوراً لأخناتون قد خرجت عن المألوف إذ صورته على طبيعته حتى استطعنا أن نتبين فيها المرض الذي كان يعانيه ، ولأول مرة رسم الفرعون مستلقياً أو مستريحاً في جلسته .

## خلق الإنسان :

أنت خالق الجنين في بطن أمه . أنت خالق نطفة الإنسان . أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه وملاطفه حتى لا يتكدر فيكي ، كيف لا وأنت ربى في الرحم ، أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك . أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

## خلق الحيوان :

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة ، فإذا آتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صاعاً جهده واثباً بقدميه..

## الخلق عموماً :

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها . أنت الإله الأوحد ، لا شريك لك فى الملك ، خلقت الأرض بإرادتك . ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير . والمخلوقات التى تدب على الأرض . أو تطير بأجنحتها ، أنت الذى أحلت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه . وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المحدودة ، لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .

## الفصول :

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ، فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهب لهم الحرارة ، أنت الذى رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت فى وحدتك ، شارقاً حياً «كأتون» ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية إلى حيث ابتدأت .

## جمال الضوء :

أنت مبدع الجبال من نفسك . فالمدن والبلاد والقرى والطرق كلها عيون تبصرك أمامها . كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .



## تضرعات الملك :

أنت في قلبي لا يعرفك سوى ابنك أخناتون . الذى جعلته عاقلاً بإرادتك وقوتك .  
العالم كله فى قبضتك كما خلقتة .

إذا ما أشرقت عليه حيى وإذا أفلت مات . أنت الوجود وسبب الحياة للإنسان<sup>(١)</sup> .

## محاربة الوثنية :

لم يكن باقياً لا كمال دعوة أخناتون للتوحيد إلا أن يقضى على المعبودات القديمة وعلى رأسها آمون رمز الوثنية القديمة لكى لا يكون على الأرض إلا عبادة واحدة لله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وكان قد تجاوز الواحدة والعشرين من عمره فعلم فى بادئ الأمر على تقويض سلطان الكهنة ونفوذهم بأن صادر جميع أملاكهم ، حظر عليهم إقامة أى لون من ألوان العبادات أو الصلوات لغير آتون . وحول جميع المعابد لعبادة آتون وحده والى لم تصلح لهذا التحول ، أصدر أمره بتخريبها أو هجرها ، كما أصدر أمره بمحو اسم آمون واسماء المعبودات الأخرى من جميع النقوش التى يمكن أن توجد فيها . ولما كان اسم أبيه أمحتب يحتوى على اسم آمون فقد أمر أن يحى اسم أبيه من جميع الآثار . وهكذا اندفع فى حماسة وقوة لتوطيد دعائم دعوته الجديدة ولم يثنه عن ذلك مكانة أبيه السامية فى نفسه . ولا تزال أثر هذه الثورة على اسم آمون وبقية المعبودات باقياً حتى اليوم فى الآثار المصرية حيث يرى اسم آمون وكل ما له صلة به مطموسا وممسوحاً بما فى ذلك اسم أمحتب الرابع .

وهكذا أصبحت عبادة آتون هى العبادة الوحيدة الرسمية المصرح بها فى أنحاء المملكة المصرية بل الإمبراطورية كلها . ولم تعد هناك احتفالات أو صلوات تقام لغير المعبود الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك .

## مصرع أخناتون :

وهكذا ومضت شرارة من نور التوحيد قبل ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بما يزيد على عشرين قرناً من الزمان ، ولعل ذلك يدلنا على أن أخناتون كان سابقاً على عصره وأوانه ، فلم يكن العقل البشرى فى ذلك الوقت قد اكتمل إلى هذه الدرجة من النضوج

(١) تاريخ مصر القديمة تأليف بريستيد وترجمة الدكتور حسن كمال .

بحيث يهضم هذه الصورة من التوحيد الكامل المطلق . وينصرف عن كل تجسيد وتشبيه للآلهة ويكف عن إقامة التماثيل والنصب لعبادتها . ونحن نرى أن السواد الأعظم من البشر حتى اليوم . لا يفهمون العبادة إلا من خلال الطقوس والأشباح والقبور والأجداث والأنصبه والتماثيل .

فلا عجب إذا كانت دعوة أخناتون قد ذوت بمجرد اختفاء شخصيته الفذة من الميدان بموته بعد الثورة عليه . واستطاع كهنة آمون أن يستردوا سلطانهم . خاصة وأن مبادئ أخناتون السلمية . ودعوته إلى السلام العالمى الذى لم يظفر به البشر حتى اليوم ، كان لها أكبر الأثر فى إضعاف قوة مصر الحربية ، وبالتالي تهديد سلامة الإمبراطورية المصرية . فبدأت الثورات والفتن تنتشر فى أنحاءها . وهكذا اضطر خلف أخناتون وهو توت عنخ آتون أن يعود ثانية إلى طيبة . وأن يكف عن عبادة آتون ، وأن يغير كلمة آتون من اسمه فأصبح يدعى توت عنخ آمون .

تنزيه آمون وتوحيده :

على أن الفكرة الصالحة لا يمكن أن تموت أبداً ، فقد أخذت تعاليم أخناتون فى التوحيد طريقها إلى الكون ولم يكن من الممكن أن يعفى على آثارها أو أن يعود العقل البشرى الذى تذوقها إلى الوراء ، فإن العقل البشرى نزاع إلى التطور ونحو الأمام لا الرجوع إلى الوراء ولذلك فقد تطورت النظرة إلى آمون بحيث صارت أشبه الأشياء بنظرة أخناتون إلى آتون فأصبح هو الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك . والمتره عن الجسمية . وعزيت له كل الصفات الرفيعة التى تعزى للإله المعبود بحق . فلم تكن النكسة التى حدثت بعد وفاة أخناتون هى فى استبدال اسم آتون باسم آمون ، ولكن فى عودة العوام إلى إظهار تعلقهم بالمعبودات الكثيرة الأخرى التى حرم عليهم أخناتون عبادتها . ولعل العوام سيظلون فى كل عصر وزمان أكثر الناس بعداً عن فهم التوحيد الصحيح وأشد تعلقاً بالأوهام والأوثان .

المجتمع الإغريق :

هذا التطور الذى حدث فى مصر ثم فى بلاد الإغريق على صورة مماثلة ، بل على صورة أكمل عن طريق الفلسفة البحتة . والتفكير العلمى الحر .

منذ أكثر من ألف سنة قبل ميلاد المسيح يتحدث هوميروس الشاعر فى إلياذته ،

وكذلك هوزيود الشاعر عن آلهة يونانية لا حصر لها ولا عدد . آلهة محدودة القوى بحدود العنصر الذى تمثله شبيهة بالإنسان فى كل شىء لا من حيث الصورة فحسب ؛ بل ومن حيث الطباع والأخلاق . بل ومن حيث النقائص والذائل التى قد تدنس الإنسان . فالآلهة كبنى الإنسان يتباغضون ويتحاسدون . ويدبرون لبعضهم المؤامرات . ويكيدون المكائد . ويحيكون الدسائس . ويتهاجون ويتحابون . ويتزوجون ويتناسلون ، بل ويزنون أيضاً بزوجات بعضهم وهكذا . وكل الفارق الوحيد الذى يفرق الآلهة عن البشر كما تصورهم الإلياذة هو أن الآلهة خالدون لا يموتون . وأن الذى يجرى فى عروقهم سائل إلهي . وليس دماً بشرياً . وفيما خلا ذلك فالآلهة كاللبنس سواء بسواء .

ولكن العقلية الإغريقية لم تلبث أن ارتفعت بهذه الصورة تدريجياً فبدأت أسماء آلهة معينة ، هى التى تستأثر بعبادة الشعب الإغريق كله ، وتحظى بحبه وتقديسه ، وتتمتع بالتفوق والاستعلاء على بقية الآلهة . ومن هذه الأسماء التى برزت فوق غيرها « زيوس » إله الأولب وأبو الآلهة ، و « أبولون » إله دلفى وسيد المقادير ، و « أثينا » إلهة الحكمة ، وحامية مدينة أثينا ، ولما كان زيوس يعد أباً ورئيساً لجميع الآلهة عند انعقادها ، فقد بدأ سلطانه يقوى على مر الزمن ، وتضافرت الفنون الإغريقية من نحت وتصوير وغناء وشعر على إظهار سلطانه الأعلى حتى طغت قوته على بقية الآلهة . حتى إذا أظلم بلاد الإغريق العصر الذهبى للعقل الإغريق فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد أصبح يشار إلى زيوس من حين لآخر كإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى الملك ، وإن كانت الآلهة القديمة قد ظلت قائمة إلى جواره فى الوقت نفسه . ولكن فكرة التوحيد والتزيه المطلقين لم تلبث أن شقت طريقها إلى الوجود على أيدي مختلف الفلاسفة والحكماء ؛ فهذا أكسينوفان رأس المدرسة الإيلية قام يحارب الشرك بأقوى ما حورب به على لسان مصلح أونبى ، وراح يدعو إلى تزيه الآلهة ويندد بالمعتقدات الشعبية وتصوراتها التى لا تتفق وجلال الألوهية ووحدانيتهما ، ومن ذلك قوله « إن الناس قد أساءوا إلى الله فصوره كل بحسب حاله ، فالزنج يجعلون الآلهة سود الشعر فطس الأنوف بينما التراقيون يجعلون الآلهة زرق العيون ذهبى الشعر ، ولو استطاعت الخيول والبقر أن تصور الله لصورت الله فى صورة الخيل والبقر ، وعلى هذا الأساس فإن الناس قد صورت الآلهة بصورة الإنسان ، ولم تكشف بهذا بل أضافت أيضاً إلى الآلهة الأفعال الإنسانية الدنيئة ، خصوصاً عند هوميروس وهزيود ، والواقع أن كل ذلك يتنافى أشد التنافى مع التزيه الواجب لله ، لأن الله منزّه كل التزيه عن أن يتصف بصفات البشر ، فلكى نحتفظ للألوهية بقديستها ،

لا بد أن ننزهها عن صفات الإنسان . ولما كان الله هو الكمال فإن الله أيضاً واحد لأن الآلهة لا يمكن أن يتفق مع مقامها أن تكون خاضعة لشيء ، كما أن الآلهة من ناحية أخرى ليست في حاجة إلى أن تتخذ خدماً وأتباعاً ، ولذلك فليس هناك إله أكبر تحت آلهة أو يجواره آلهة بل لا بد من وجود إله واحد .

وزاد أكسينوفان فوق وصفه لله بالوحدانية وتنزيهه عن الجسمانية نعته بالقدم والأزلية ، وأنه كان حيث لم يكن قبله شيء «لأن كل ما هو حادث فهو فان بينما صفة الفناء لا تناسب الله ، ولذا فالله قديم» والله لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحول ، فهو الثبات المطلق «لأن كل تغيير هو تغير إلى أسوأ وهذا يتنافى وقيام الألوهية» .

وتابعت الفلسفة الإغريقية تطورها الرائع محاولة إدراك السبب الأول الذي نشأ عنه الكون أو بالأحرى خالق هذا الكون ، فانتهت إلى هذه المدركات البديعية على أيدي تلميذ سقراط ، أفلاطون وأرسطو حيث أثبت الأول أن الله خالق هذا الكون ، وهو المثل الأعلى الذي ينطوي على الخير المطلق ، وأثبت الثاني بالبراهين العقلية الدامغة أن الله هو واجب الوجود لذاته ، وأنه واحد قديم ، لا يتغير ولا يتبدل . وقد بلغ الأمر بإعجاب المسلمين الموحدين بأرسطو الذين جاءوا بعده بألف عام أن أطلقوا عليه لقب المعلم الأول ، وأخذوا عنه براهينه وأدلتها لإثبات وحدانية الله وسائر صفاته عن طريق المنطق وأقيسته وقواعده .

#### التوحيد عند الفرس :

أشرنا فيما سبق أن الفرس كانوا يؤمنون في بادئ الأمر بالهين أزليين وهما إله الخير «اهورامزدا» وإله الشر «اهريمين» وكان الفرس يجعلون هاتين القوتين على قدم المساواة بحيث توجد إحداها في مقابل الأخرى . ولكن هذه العقيدة المزدوجة لم تلبث أن تطورت وتعطلت في العهد الساساني ، فأصبح سلطان أهريمين أي إله الشر محدوداً ومؤقتاً «بتسعة آلاف سنة» لا يلبث بعدها أن يموت ويفنى فلا يبقى غير مزدا إله الخير الحي الباقي . وبهذا أصبحت صورة العقيدة تشبه بالإجمال ما يصوره القرآن من موقف إبليس وتمرده على الله عز وجل . وطلبه منه أن يمد في أحله ريثما يحاول فتنه عباد الله المؤمنين .

#### التوحيد عند الهنود :

أما الهنود فتتحدث كتبهم المقدسة المسماة بالفيدياس عن ٣٣٠ ألف إله وأحياناً عن

٣٣٣ فقط . وكما كان الشأن في المجتمعات الأخرى المماثلة بدأ التطور بإظهار تفوق بعض هذه الآلهة في فترات مختلفة حتى انتهى الأمر بتغليب «براهما» على ما عداه من الآلهة ، ومن ثم فقد أصبح الإله الواحد الذي لا شريك له في الملك ، والذي لا يشبه شيئاً من كائناته ومخلوقاته . أو كما يقول عنه كتابهم المقدس الفيداس «إنه لا يشبه هذا أو ذاك ، هو المطلق . هو فكرة العالم الكائن في نفسه . هو اللانهاى الذى لا يتحرك ولا يمكن تعريفه . لأنه أعلى من كل تصور وفوق كل إدراك ، إنه لا يتكلم بواسطة الكلمات ولا يفكر بالتخيلات والتأملات . وهو لا يرى بعينين . ولا يسمع بأذنين . ولا يتنفس بشهيق ، هو الكائن الذى أبعد عن نفسه كل عناصر الشر ، هو الذى لا يهرم ، وهو الحى الذى لا يموت . هو الذى لا يحس جوعاً أو ظمأ . ولا يشعر بحزن . هو الذى يضطر الإنسان إلى معرفته .... هو براهما » .

وما أشبه هذه الفقرة الأخيرة بآية الكرسي العظيمة «الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » .

## الفصل الخامس

### الأنبياء والرسول

الأنبياء - امتحان الأنبياء - شرعية مقاومة العقائد  
الجديدة - الوحي المحمدي - انقلاب - انتشار  
الدعوة - حياة العظماء وارتباطها بالبيئة المحيطة  
بهم - نابليون - أرسطو - الاسكندر المقدوني -  
استعصاء الانقلاب المحمدي على التفسير  
العلمي - ثم كان الانقلاب المحمدي - الوحي  
يقود محمداً - تأويلات قریش لظاهرة الوحي -  
انكار الوحي يؤدي إلى تأليه محمد .

واضح من ذلك الاستعراض الذي قدمناه أن العقل والوجدان البشري بدأ ينحوان ناحية التوحيد والتعلق به في مختلف البيئات . ومع ذلك فقد كانت هناك خطوة لا تزال باقية لم تقطع لكي تؤمن شعوب الأرض على اختلافها بإله واحد خالق أزلي مهيم فوق الجميع على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وتباعد بيئاتهم ، فحتى هذه المرحلة كان التوحيد ما يزال محصوراً في دائرته المحلية حيث كان إله كل شعب من الشعوب مصطبغاً بصبغة وطنية ، فالمصريون وإن أجمعوا على أن آمون هو رب الأرباب وخالق الكون وسيده . إلا أنهم ينكرون أن يكون مردوك إله الآشوريين والبابليين الأعظم هو بدوره سيد الكون وخالقه أو بالحرى أنه عين آمون معبود مصر . والإغريق من ناحيتهم لا يعرفون سوى زيوس ساكن الأولب رباً لهم . وكانت كل أمة تكاثر بمعبودها . وتفخر بوصفه أكبر أعلامها ورموزها القومية . فكان لا بد من حركة أو صيحة أو دعوة تظهر للعالمين أن الحق واحد لا يتجزأ ، وأن خالق الكون وسيده هو كما بات يؤمن الجميع واحد أحد لا شريك له في الملك ، وأن الكون لا يتألف من مصر وإمبراطوريتها فحسب . ولا من آشور وبابل ومملكتها . ولا من الهند والصين أو الأغريق ؛ ولكن الكون يتألف من هؤلاء مجتمعين ، بل ومن الدنيا كلها ، والسماوات العلى والأرضين فلا مناص إذن من نحو هذه الأسماء التي يطلقها كل شعب على خالق السماوات والأرض حسب ما تصوره له أحلامه

وتأملاته ، لا مناص من الكف عن تصويره في مختلف الصور والأشكال ، وتزنيه عن كل ما يوحى بالجمسانية ، وكل ما يتعلق بالزمان أو المكان ، لا مناص من أن يؤمن الناس برب واحد يدعن له الجميع ، ويتقربون إليه بالمعروف والإحسان .

### الأنبياء :

وعند هذه المرحلة من مراحل التطور البشرى بدأنا نرى نجوماً من البشر الأعلام يبرزون في سماء الإنسانية ، يقودنها ، ويتولون هدايتها نحو الحقيقة الكاملة . ولم يكن هذا النفر من البشر من فصيلة الملوك والسلاطين ، أو الغزاة الفاتحين ، ولم يكونوا من فصيلة الكهنة وعلماء اللاهوت ، وسدنة الهياكل وحفظتها ، بل ولم يكونوا من طائفة العلماء الأعلام ، والفلاسفة الأفذاذ ، أو عباقرة الحكماء ، وإنما كانوا أفراداً من صميم الشعب ، مجردين من سلاح العلم والغنى والسلطان ، ومع ذلك فقد خرقوا سنن الارتقاء وأسباب الحصول على النفوذ والسلطان ، واستطاع هؤلاء الفقراء الضعفاء الأميون « في بعض الأحيان » أن يقفزوا إلى مرتبة النفوذ والسلطان الذي يتضاءل إلى جواره نفوذ الملوك والكهنة والعلماء ، وأن يتسلطوا على عقول الناس وأفتدتهم ، ليس فقط في العصر الذي أظلمهم ، ولكن على مر العصور والأجيال ، ووجد الناس أنفسهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم مسوقين بتعاليم هذا النفر من البشر ، مقهورين على الإيمان بما طلبوا منهم أن يؤمنوا به ، قائمين على تنفيذ ما فرضوا عليهم تنفيذه من واجبات وتكاليف في غير مناقشة أو تامل بل في رضا واستسلام . هذا النفر من البشر الأعلام ، هؤلاء الأئمة الهداة هم الذين أطلق عليهم البشر بعد أن أطلقوا على أنفسهم لقب الأنبياء والمرسلين<sup>(١)</sup> .

### امتحان الأنبياء :

لم يلق هؤلاء الأنبياء والرسل الطريق معبداً أمامهم لإذاعة تعاليمهم ، وغرسها في نفوس الناس ، بل على الضد من ذلك قبلوا حيثما وأنى وجدوا بعاصفة من الاستنكار لما دعوا إليه من مبادئ إصلاحية في عالم العقيدة ، ولاقوا الأمرين من أقوامهم على اختلاف نزعاتهم وطبقاتهم . فكان رجال الدين أول من تصدى لحربهم لأنه عز عليهم أن يدعى مدع من غير صفوفهم أن الله قد اختاره لإبلاغ رسالته وهداية العالمين ، وهم

(١) الرسول نبى ترك من بعده كتاباً يتعبد به البشر كالإنجيل والقرآن .

الذين يستمدون سلطانهم على العامة والملوك على السواء من ادعائهم الانفراد بالتقرب من الله والاختصاص بأن يكونوا موطن سره ومقر حكمته . وحارب الملوك وأصحاب النفوذ والسلطان الرسل لأنهم رأوا خلف دعوتهم الخطر المحقق الذى يهددهم ، ويهدد سلطانهم ونفوذهم لأن أى دعوة إلى أفراد الله بالعبادة ، وإلى مساواة الناس إزاء الخالق هى أعظم سبيل لنشأة الديمقراطية ، ومن ثم تفويض سلطان الملوك والارستقراطية . وحارب الرسل والأنبياء من كان على حظ من العلم أو الفكر ، أو اشتغال بالفلسفة ، كل على حسب منحاه فى الفكر وحظه فى الفلسفة . فثمة فريق وهم الملاحدة الذين ينكرون وجود الله أصلاً ، كان طبعياً أن يكونوا فى مقدمة المنكرين لرسله ، الساعين إلى وصمهم بالتدجيل ، والتغريب ، والتلبيس على الناس ، وأما الذين يؤمنون بقيام الرب ، فقد أنكروا أن يكون رسول الرب للناس فقيراً وضعيفاً يضطهد فلا يجد له نصيراً ولا حامياً تصوراً منهم أن رسول الله يجب أن يكون مزوداً بالقوة والسلطان الذى يحمل الكل على التسليم له والإدغان إليه فى غير تردد أو مناقشة . وأخيراً حارب جمهور العوام الرسل والأنبياء ، ذلك لأن محور دعاية أى نبي من الأنبياء هو تسفيه أحلام العوام وأوهامهم ، وكشف النقاب عما هم فيه من عمية وضلال وما يستتبع ذلك من التهجم على معتقداتهم والمساس بمعبوداتهم المقدسة . وإذا كانت النفس البشرية لا تثور لشيء ثورتها على من ينال من عقيدتها ، فقد أصبح العوام أعداء الرسل والأنبياء ، فكانوا خير معوان لرجال الكهنوت ولأصحاب السلطان والنفوذ فى محاولة القضاء على دعاية الأنبياء والرسل ، بل وخمد أنفاسهم وأنفاس كل من يلوذ بهم كلما وجدوا لذلك سبيلاً .

وهذا هو ما أسميه امتحان الرسل ، وهذا هو الشرط الأساسى لإثبات صحة أى نبوة أو رسالة ، وهو أول برهان يقدمه النبي والرسول على صدقه وصدق دعوته ، ذلك أنه لا يثبت على المحنة ، ولا يقوى على مغالبة الاضطهاد إلا من كان صادقاً أميناً .

### شرعية مقاومة العقائد الجديدة :

ومن هنا لا يجب بحال من الأحوال أن ندهش أو نلوم هؤلاء الأقوام الذين تصدوا فى بادئ الأمر لحرب كل من ادعى النبوة ، والاتصال بالله وتلقى الوحي منه على أية صورة من الصور . بل إن مقياس درجة نضوج أى جماعة أو أمة لا يقاس إلا بمقدار يقظتها وحرصها على الدفاع عن معتقداتها وتقاليدها ، حتى يتبين لها وجه الحق فى المبادئ الجديدة . ولا سبيل لظهور هذا الحق إلا بتغلبه على القديم الباطل وانتصاره عليه .



وإلا فإذا يكون الحال يا ترى لو كان على الناس أن يصدقوا كل ناعق وكل مدع وكل أفك أقيم لا يثبت على النقد أو التجربة ؟ .. ماذا يكون الحال لو صدق الناس كل شخص يدعى أنه تلقى الوحي من رب العالمين ، وأنه قد جاء للناس بما يقلب عقائدهم ونظمهم رأساً على عقب ؟ ألا ينقلب المجتمع إلى فوضى في مثل هذه الحال بانعدام الثبات والاستقرار من العقيدة والشرائع ، وهو مالا سبيل إلى قيام المجتمع فضلاً عن تطوره إلا بهذا الثبات والاستقرار النسبي ؟ ترى ماذا يكون عليه حال جزيرة العرب بل حال الدنيا بأكملها لو أن العرب بعد وفاة النبي ﷺ هرعوا إلى تصديق أدعياء النبوة الذين قاموا في كل ركن من أركان الجزيرة يعلنون هبوط الوحي عليهم ، ولم يقف أمر هؤلاء الأدعياء عند حد الرجال بل تعداهم إلى النساء فكانت سجاج المتنبئة كما كان مسيلمة . وكما كان طليحة .

ألم يكن تنبؤ هذا النفر والسكوت عليهم لا يعنى إرجاع جزيرة العرب إلى الفوضى والجاهلية ، وفصم عرى وحدتها الروحية والسياسية . التي نشأت في ظل الإسلام فحسب ، بل معناه القضاء على الدعوة المحمدية الجليلة وإطفاء نورها وحرمان الدنيا من نعيمها . فكان طبيعياً جداً أن ينهض أبوبكر خليفة رسول الله وصديقه للبطش . بل والتنكيل بهذه الدعوات وأصحابها ، ولو لم يفعل لكان مفرطاً خائناً للأمانة ، أمانة المحافظة على هذا التراث المجيد الذي خلفه المسلمون . فمحاربة كل مدع للنبوة بل كل من يزعم لنفسه سلطاناً خاصاً أو ولاية ليس حقاً من حقوق الناس بل هو واجب محتم عليهم ، إذا شاءوا الاحتفاظ بكيانهم والتحرر من المتنبئين الكذابين والدجالين والنصابين والمزورين . ولا خوف على النبي الحقيقي أو الرسول من وجود هذه المحافظة في المجتمع لأن آية صدقه كما قدمنا هو أن يتغلب على هذه الرجعية التي تملأ طريقه بالمصاعب والاضطهادات بقوة إيمانه وروحه وصلاحيته مبادئه وتعاليمه . فإذا استطاع أن يوطد سلطان عقيدته وتعاليمه الجديدة سواء في حياته أو بعد مماته فهذه هي حجته الكبرى ومعجزته التي لا تفوقها معجزة للدلالة على أنه لم يكن بشراً عادياً وإلا لما استطاع السير بما فاز به . ولا بد أنه كان صادقاً فيما قال وما ادعى . وعندى أن هذا هو البرهان الذي نستطيع به نحن المتأخرين ، أن نستدل به على مدى صدق دعوة من الدعوات القديمة التي حملها الرسل وجاءوا بها إلى العالمين ، فما أكثر ما يغص المجتمع في كل زمان ومكان بأشخاص تساورهم أنفسهم أنهم على اتصال برب العالمين . وما أكثر من يزعمون

لأنفسهم الولاية والقداسة والقدرة على الإتيان بالأعاجيب وما أوفر عدد المختالين البارعين في كل زمان ومكان الذين يستطيعون أن يحملوا الناس بشتى الأساليب على الإذعان لهم واتباع تعاليمهم . وما أكثر ما وجد في المجتمعات القديمة من قبضوا بيد من حديد على أزمة السلطان وأخضعوا لهم رقاب العباد . بحيث صاروا لهم عبيداً يعبدونهم من دون الله الواحد القهار . بل ينظرون إليهم نظرتهم إلى الصورة الحية لله سبحانه وتعالى كما كان حال فرعون مصر ، وقياصرة الرومان ، وكما هو الحال اليوم في اليابان . ومع ذلك فمن بين هؤلاء الأشخاص الذين استمتعوا بمختلف أنواع النفوذ والذين لا يمكن أن يحصيهم العد ، ولم يكن سوى بوذا واحد وموسى واحد وعيسى واحد ومحمد واحد من أستاذت بسيادة العالم الروحية ، وخضع البشر لتعاليمهم دون غيرهم من سائر العالمين على مر العصور والأجيال .

محمد بن عبد الله :

ولما كان تاريخ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو التاريخ الوحيد المحقق لنبي من الأنبياء ، والذي يمكن إخضاعه للتحقيق العلمي . فإن استعراض سيرته هو خير نموذج يساق لإظهار حقيقة الرسل والأنبياء جميعاً .

وإثبات نبوة سيدنا محمد ورسالته ، هو إثبات لكل من سبقه من أنبياء ورسلى . وإنكار نبوته هو هدم للعقيدة الدينية كلها أياً كانت من أساسها . كما سنرى .

السوحي الحمدي :

في عام ٥٧٠ ميلادية ولد في قرية تدعى مكة من أحشاء الصحراء تحيط بها الجبال إحاطة السوار بالمعصم . محمد بن عبد الله<sup>(١)</sup> الذي مات أبوه وهو ما يزال بعد في بطن

(١) يفرد محمد بن عبد الله صلوات الله عليه من بين جميع الشخصيات التاريخية بأن وجوده التاريخي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك . كما أن جميع الحوادث البارزة في حياته ابتداء من مولده ومكانه حتى مماته . محل اتفاق وإجماع بين المؤرخين المسلمين وغير المسلمين . والقديماء منهم والمحدثين على السواء . وذلك على خلاف جميع الشخصيات التاريخية العظمى التي وجد من النقاد في العصر الحديث من تشكك في مجرد وجوده أصلاً . فالمسيح مثلاً كان محلاً لإنكارهم اعتقاداً على أن التاريخ العالمي . لا ينوي شيئاً يثبت إليه ماى صلة . كما أن التاريخ اليهودي بصفة خاصة لا يشير إلى حادثه مع فسخامة هذا الحادث . وليس سوى الأناجيل التي انفردت بالحديث عنه مع ما فيها من تناقض في كثير من الحوادث والتفصيلات . فضلاً عن أنها لا تجلوا شخصية المسيح حلاه بينا . بل تصوره في صورة غامضة تبعث الإنسان على الاعتقاد أن المسيح لم يكن إلا أسطورة قديمة انبعثت في

أمه فخرج إلى الحياة يتمياً بكل ما يحمله اليتيم من معنى الفقر وانعدام النصير ، ثم لم تلبث أمه إلا أيسر الوقت بعد ولاته حتى ماتت بدورها ، وهكذا حرم الطفل منذ أيامه المبكرة من حنان الأم والأب معاً . على أن الله قد عوضه عن ذلك ببر جده عبد المطلب وحنان مرضعته البدوية حليلة السعدية . حتى إذا مات جده كفله عمه أبو طالب فكان له خير الأب ونعم النصير . وقد نشأ الطفل كله ينشأ عامة الأطفال في هذه الصحراء النائية عن العمران يشتغل بالرعى وتربية الأغنام وخدمة القوافل ، بعيداً عن تذوق مظاهر المدنية والحضارة الجقة ، ونعني بها العلم والعرفان . ولا خلاف في أن حياة هذا الناشئ قد سارت سيرة عادية ، فمرت عليه السنون وتوالت الأعوام بدون حادث يلفت النظر ، إلا أن يكون حادث زواجه بامرأة فاضلة من نساء قريش تكبره في العمر ، وتتمتع بحظ من الثروة كبير . وفيما خلا هذا الحادث الذي هو في نهاية الأمر من الأمور العادية ، فقد مضت حياة محمد بن عبد الله كما تمضي حياة سائر الناس الذين يعيشون في خفض من العيش في كنف زوجة صالحة رزق منها عدداً من البنين والبنات ، مات البعض كما يموت الأبناء ، وعاش البعض كما يعيشون .

وهكذا انقضى شباب محمد وولى وأشرف على نهاية العقد الرابع من عمره ، دون أن يبدو من أمره شيء خارق أو يند عن المألوف بين قومه . إلا اشتباره بالصدق والأمانة ،

---

العهد المسيحي . ويؤيدون دعواهم باستعراض أساطير مشابهة لأسطورة المسيح من العقائد الهندية والعقائد البابلية القديمة . ولم يقف الإنكار عند حد الشخصيات الدينية . بل تعداه إلى شخصيات تاريخية أخرى كهوميروس مؤلف الإلياذة والوديسية . فيقول البعض إنه ليس إلا شخصية خرافية لا وجود لها . ولم تسلم شخصيات حديثة العهد من الإنكار مع نصاعة تاريخها كجان دارك مثلاً فقد اعتبر البعض قصتها أسطورة من الأساطير الخيالية . حتى شكسبير نفسه امتد الشك إلى نسبة هذه المؤلفات الخالدة إليه . فقال البعض ليس شكسبير إلا ستاراً اختفى خلفه أحد كبار الشعراء في ذلك الوقت لتنتشر آرائه وأفكاره ورواياته . ولا تكاد توجد شخصية لامعة من شخصيات التاريخ سلمت من إنكار مجرد وجودها . ولكن شخصية محمد بن عبد الله النبي العربي قد صمدت في وجه أشد الأبحاث تشككاً وتزوعاً إلى الإنكار . فآثار حياته لا تزال منقوشة على صفحات الوجود بأحرف من نور متجلية في هذه المئات من الملايين الذين لا يشهدون بوجوده فحسب أو يتبعون تعاليمه . بل يقدلون حركاته وأقواله . ويحجون إلى مسقط رأسه . ويزورون قبره . ويسرون حيث سار . ويقفون حيث وقف . ويتفقون بما نطق . ويشربون مما شرب . وكل ذلك في تسلسل مستمر لم ينقطع يوماً واحداً . بل لم ينقطع ساعة واحدة منذ بدأ محمد بدعوته حتى اليوم . كما أن فتوحات المسلمين العسكرية بعد سنوات قليلة من هجرة الرسول . وهذه المعاهدات الدولية التي أبرمها خلفاؤه المباشرين مع المسيحيين والروم والفرس . كل ذلك جعل محمد بن عبد الله حقيقة لم يوجد إنسان واحد يتصدى لإنكارها . وفي ذلك يقول أميل درمنغام مؤلف كتاب حياة محمد : « لا يوجد أحد يشك في وجود محمد ولا يحرق أشد النقاد حذقة أن يحكم بإنكار وجوده » .

وهي صفة وإن جل شأنها وعظم خطرهما . فهي ليست بالأمر النادر أو العديم المثال في هذه البيئة الفطرية التي ما يزال الصديق بصفة عامة إحدى فضائلها . فنحن إزاء رجل عاش ثلثي عمره لا يعرف التاريخ من أمره شيئاً . بعيداً عن نوازع الطموح للمجد التي تحتاج نفس كل شاب وفتى ، بعيداً عن كل اشتغال بالعلم أو اهتمام بتحصيله . ولم يشذ محمد في ذلك عن بقية مواطنيه الذين لم يكن يعرف الكتابة والقراءة منهم إلا عدد ضئيل محدود . ولا يروى التاريخ عنه أنه كان متطوعاً للرياسة في قومه . وأنه كغيره كان كثير المنازعات عليها . كما أنه لم يشتهر بقول الشعر في بيئة كل من فيها شاعر بسليقته . ولم يشتهر بالفروسية وسط بيئة كل من فيها فارس بطبعه . فالتاريخ يصوره لنا رجلاً عادياً من أوسط الناس يعيش في بيئة مغمورة ، لا تكاد الدنيا تخفل بأمرها لفقرها وجهلها وانعدام خطرهما على أي صورة ، بحيث لم يدر في خلد أي فاتح ممن دوخوا العالم القديم أن يقتحم هذه الصحراء يميوشه وجحافلها لقلعة الجدوى وانعدام الفائدة فعاشت أواسط هذه الجزيرة الصحراوية خلال تاريخ الإنسانية الطويل على هامش العمران والحضارة .

#### الغلاب :

وفجأة « وفي هذه الفجاءة السر كل السر » إذا هذا الرجل الذي قطع ثلثي عمره هادئاً ساكناً متزويماً عن ضجيج الحياة ، هذا الرجل الذي جاوز الشباب بخيسته واندفاعاته وخیالاته وأحلامه ومغامراته ودخل في مرحلة الرجولة حيث تبدأ العواطف الثائرة ويسيطر العقل بهدوئه وحكمته فتتبدد الأحلام والأوهام ، ويهبط الشاب من سماء خیالاته ومثله العليا إلى أرض الحقيقة والواقع ، فيرضى بالحياة كما هي . ولكن محمداً بن عبد الله قد شد عن المألوف وخالف سنة الحياة فإذا به ينقلب في رجولته في عشية وضحاها ، إلى بركان ثائر فوار يغلي بالحياة في أرفع مظاهرها . ويرمي بالنار والنور والشر ، ويقذف بالحمم ضد الباطل والفساد والضلال ، الذي كان مواطنوه غارقين فيه إلى الأذقان ، معلناً حرباً لا هوادة فيها ولا لين على معتقدات القوم وأوهامهم ، وتقاليدهم وعاداتهم ، وأساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم . وهادياً إياهم في نفس الوقت إلى الطريق الحق والصواب ، آخذاً بيدهم إلى حيث نور الحقيقة والكمال .

#### انتشار الدعوة :

ولم تلبث جزيرة العرب أن ضاقت على سعتها بهذا النبع الفيض وهذا السراج

الوهاب ، فإذا هو يفيض على الدنيا كلها ، ويشرق على أرجائها ، فيتصل بملوك الأرض وأباطرتها يدعوهم إلى الهدى والرشاد . ومنذراً إياهم بعذاب أليم . إن هم أصموا آذانهم عن سماع دعوته . واعدوا إياهم بجنة النعيم إن هم آمنوا برسالته . وكان ذلك حدثاً أوشكت أن تنخلع له قلوب العرب ، ولكن محمداً بن عبد الله ، اتبع القول العمل فإذا جيوشه تسير في أعقاب رسائله متحدة على تخوم الجزيرة ، أقوى جيوش عرفتها الدنيا حتى ذلك الزمن . وإن هو إلا أسير الوقت بعد وفاته حتى كان تلامذته يتمون ما بدأ وما تنهأ له ، فيكتسحون الدنيا شرقاً وغرباً بقوة الإيمان الذي أودعه في قلوبهم . وما هو إلا قرن من الزمن حتى كان أكثر من مائة مليون من البشر يدينون بدين هذا العربي الأُمي المهاتف في صحراء العرب .

واليوم وبعد ألف وثلاثمائة عام ونيف على هجرته يزيد أتباعه على ثلاثمائة مليون من البشر يشهدون في كل يوم برسالته ، ويؤمنون بإيمانه ، وهم في ازدياد مستمر متواصل من يوم لآخر ، بل ومن ساعة لأخرى<sup>(١)</sup> . وروح محمد وتعاليم محمد لا تزال كعصمها الأول جياشة بالحياة والقوة ، فياضة بالنور والإيمان

فأى مثل لهذا الحادث في التاريخ من قبل ومن بعد ؟ وأى تفسير يمكن أن يقدمه لنا العلم والتحليل التاريخي والنفسى لتعليل هذا الانقلاب الذي تم في حياة محمد . وسرى منه إلى حياة جزيرة العرب كلها ، ثم لم يلبث أن شمل الدنيا بأسرها ؟

### حياة العظماء وارتباطها بالبيئة المحيطة بهم

يقول لنا العلم الحديث ، وهو جد صادق فيما يقول . إن أى عظيم من عظماء التاريخ ليس إلا ثمرة طبيعية للعوامل المختلفة التي أحاطت به منذ نشأته الأولى حتى موته . وإن الوراثة والتربية والبيئة كلها عناصر تفسر لنا حركات أى عظيم من العظماء وتصرفاته ، مع التسليم بما في طبيعته العبقريّة الخاصة من تأثير في سير الحوادث .

### نابليون :

فهذا رجل ك نابليون مثلاً ، يعد في العصر الحديث آية من آيات البطولة البشرية التي تصنع المعجزات الباهرة ، ومع ذلك فإن المطالع لتاريخ نابليون منذ مولده وتاريخ فرنسا

(١) كانت هذه الأرقام من عشرين سنة ولا يقل عدد المسلمين اليوم عن أربعمئة مليون إن لم تزد .

في هذه الحقبة من التاريخ . يستطيع أن يرد جميع النتائج التي وصل إليها نابليون في يوم من الأيام إلى مقدماتها ... فقد ورث نابليون عن أبيه نفساً ثائرة طمعة . ومنذ صبا نابليون المبكر . وهو يطمح في تحرير وطنه كورسيكا عن فرنسا وتأسيس مملكة مستقلة يكون زعيمها ورئيسها . حتى إذا أتيح له دخول المدرسة الحربية في فرنسا . تراه يذهب كل ما يقع في طريقه من علوم ومعارف . ويكثر من القراءة ويبحث فيها بالليل والنهار . وتراه وهو ذلك الطالب الصغير يديم مطالعة سير عظماء الرجال كالإسكندر . وهانيبال . وبوليوس قيصر . وفردريك الأكبر . وتراه مكباً على الخرائط يفحصها داساً للمعارك الحربية المختلفة . وهو يرنو ببصره دائماً أبداً إلى المستقبل الجيد . الذي يريد أن يبنيه لنفسه ، حتى كان يترفع عن مخالطة زملائه في المدرسة ناظراً إلى نفسه كشخص من طينة غير طينة البشر .

وفي هذه الآونة كانت فرنسا مسرحاً لأروع حوادث التاريخ الحديث . كانت تلك عالماً قديماً من أساسه لتنشئ عهداً جديداً . كانت تذبح الملوك والأمراء والأشراف . وتدعو إلى دين جديد وحياة جديدة تتسم بالحرية والأخوة والمساواة . فإذا كان نابليون فيما بعد قد فاجأ الدنيا بخطة جديدة في معاركه الحربية التي هزمت الجيوش القديمة . فقد كان في ذلك مستلهاً للثورة التي قلبت كل شيء رأساً على عقب . وإذا كان نابليون قد أحرز انتصارات باهرة على جيوش الأمم المتحالفة . فلم يكن ذلك إلا بقوة الروح الفرنسية التي تفجرت حماسة وقوة في ذلك الوقت . ولولا انتصار الثورة في معركة « فالمي » ما كان نابليون فيما بعد ، وما كانت معاركه وانتصاراته . ولولا جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو وإعلان حقوق الإنسان وقوانين الثورة . ما كانت قوانين نابليون وأنظمته الإدارية وإصلاحاته الاجتماعية . فنابليون إذن ليس إلا ثمرة طليعية للثورة الفرنسية . وليس أدل على ذلك من أن نابليون عندما عاق هذه الثورة وتمرد على أصولها فجعل من نفسه امبراطوراً ومن قواده وصنائه أشرافاً . لم يلبث أن هوى من خالق بعبده . وهوى معه الشعب الفرنسي الذي تززع إيمانه وفقد ثقته وحماسه . وانتهى أمر نابليون إلى المنفى وعادت فرنسا من جديد إلى الملكية .

أرسطو :

وما أكثر ما يرونا فيلسوف عملاق كأرسطو مثلاً الذي ظل إماماً للعلم مدى ألفين من السنين ولم تستطع البشرية مجتمعة أن تضيف إلى كتبه في المنطق كثيراً . ومع ذلك فليس

أرسطو إلا ثمرة العقلية الإغريقية التي وصلت في هذا القرن من الزمن ، الذي عاش فيه أرسطو ، إلى ذروتها العليا وعصرها الذهبي . وليس أرسطو في نهاية الأمر إلا تلميذاً لأفلاطون ، الذي لولاه ولولا أستاذه سقراط ، بل لولا هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الفلاسفة المتعاقبين ما كان أرسطو وما كان علمه ، فأرسطو ليس إلا ثمرة ناضجة للفلسفة اليونانية القديمة .

### الإسكندر المقدوني :

وليس هناك ما يستعصى على التحليل العلمي في تحليل شخصية الإسكندر المقدوني نفسها فما هو إلا ذروة هذه الحياة الإغريقية العالية التي كان محتوماً عليها أن تفيض على أرجاء العالمين . فما الإسكندر إلا شبل فيليب ، ذلك الأسد المقدوني الذي غلب دويلات الإغريق على أمرها . وما الإسكندر إلا تلميذ أرسطو أضخم عقلية عرفها البشر ، وما جنود الإسكندر إلا هؤلاء الإغريق الذين كانت الألعاب الرياضية والفروسية والبطولة دينهم.. وإذا كان الإسكندر قد دحر الفرس ، فما أكثر ما استطاعت من قبل شرادم من الإسرطيين أن تدحر جحافل الفرس . وما أكثر ما انتصرت سفن الإغريق الصغيرة على أساطيل الفرس الجبارة .

وإذن فعلى الرغم من أن الإسكندر سيبقى فذا فوق الأفذاذ ، فأصول ما انتهى إليه وأسبابه ومقدماته كلها قائمة موجودة متوفرة وسابقة عليه .

### استعصاء الانقلاب المحمدي على التفسير العلمي :

وهكذا يستطيع العلم الحديث بما لديه من قوة التحليل والتجريد . أن يفسر ويعلل نجاح أى عظيم من العظماء وأسباب تفوقه . بل ويستطيع العلم الحديث أكثر من ذلك أن يفسر الأسباب التي تؤدي إلى قيام أى دولة أو جماعة من الحضيض الأدنى إلى سماء المجد والعظمة . وأن يتتبع الظروف والملابسات التي كانت عاملاً من عوامل نجاحها . ولماذا اشتعلت ثورة من الثورات ، ولماذا فشلت ؟ ولماذا نجحت حرب من الحروب وأخفقت أخرى . وأن ذلك كله خاضع لنظريات وسنن طبيعية واجتماعية لا تكاد تختل قيد شعرة . ومع ذلك فإن التحليل التاريخي والتفسير العلمي يقف عاجزاً مكتوف اليدين ؛ إزاء هذا الانقلاب الذي تم في نفس محمد بن عبد الله . وما ترتب عليه من انقلابات حادة في

نفس كل عربى اتفضل بمحمد حتى انتهى الأمر بهذا الانقلاب العجيب لشبه جزيرة العرب .  
لا يستطيع التاريخ أن يقول إن محمداً قد ولد وهو طامح إلى المجد . متطلع إلى الملك . آخذ بأسباب الحكمة . متوفر على دراسة العلوم . عامل على حذق الفروسية . مشغول بالدين واللاهوت . محيط بالشرائع والقوانين . لا يستطيع التاريخ أن يقول ذلك لسبب بسيط جداً . هو أن البيئة التى نشأ فيها محمد لم يكن فيها مُلكٌ يسعى للحصول عليه . وإنما هى قبيلة من القبائل تدين لشيخوخها . وما أكثر ما فى الصحراء من قبائل . ولم يكن فيها علم يدرس أو شرائع تحفظ ، وإنما هى عادات وتقاليد قبلية بعضها همجى كذلك التى توجد فى أى مجتمع بدائى آخر . بل لم يكن فيها دين له قواعد وأصول وكهنة وهياكل ولاهوت ، وإنما هى بضعة أصنام هنا وهناك ، يمجدها العربى حيناً ويهجوها حيناً آخر . إذا جرت الأمور على غير ما يشتهى .

ولا يستطيع التاريخ من ناحية أخرى ، أن يقول إن جزيرة العرب قبل الانقلاب الحمدي ؛ كانت تغص بأسباب الحياة . وأن بذور الطفرة كانت تختمر فى أرجائها ؛ وأن أحلام الفتح والغزو كانت قد بدأت تساورهم ؛ وتتسرب إلى قلوبهم وتستوى نفوسهم . لا يستطيع التاريخ أن يدعى أن عمر بن الخطاب ذلك الجلف الخشن الطبع القاسى القلب الغارق فى الخمر ليله ونهاره ، كما وصف نفسه فيما بعد . كان يتيماً لكى يكون إمبراطور الدنيا القديمة الذى ترتعد الأكاسرة والقيصرة لذكر اسمه . وأنه سيبلغ من رقة الفؤاد والرحمة والحنان حتى ليكنى شفقة من أجل طفل جائع أو جندي جريح ..  
لا يستطيع التاريخ أن يدعى أن خالد بن الوليد ، ذلك الشاب العربى الذى كان يقطع وقته فى الصحراء كأى شاب عربى آخر ؛ كان يعد نفسه ليكون يوماً ما ذلك القائد الذى فرت أمامه جيوش الروم والفرس خائفة مذعورة .

ولا يستطيع التاريخ أن يدعى أن عمرو بن العاص كان يهين نفسه من شبابه لكى يغزو مصر ويصبح ملكاً لها . لا يستطيع التاريخ أن يدعى شيئاً من ذلك كله فقد ظلت قرش إلى ما قبل ثلاثة عشر عاماً من الهجرة الحمديّة وهى قبيلة كباقي القبائل العربية لا تخلم بأكثر من أن ترى رزقها موفوراً . وأمنها محفوظاً . لا تكاد الكثرة تعرف من أمر الدنيا . إلا أنها رمال فى رمال . يتخللها العشب من حين لآخر . وتتفجر فيها بعض العيون ليعيش الناس ويأكلوا .



## ثم كان الانقلاب الحمدي :

وقد حدثنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين . الذى لم يشتهر بغير الصدق بين مواطنيه . وقد أثبتت الأيام والحوادث أنه نعم الصادق الأمين : حدثنا أنه بينما كان يخلو إلى نفسه كعادته منذ أمد غير بعيد في هذا المكان الذى اختاره لوحده . إذا هو يفاجأ بسام صوت يبدد السكون المحيط به . وإذا هو يرى ضوءاً أضاء الظلمات التى تكنته . وقد روع محمد بن عبد الله . كما يروع أى إنسان آخر . وقد خاف وفرغ لهذه المفاجأة . فعنده بالمكان خالياً من كل ضوء أو صوت . حتى إذا زال عنه أثر الصدمة الأولى . لم يلبث الصوت الذى سمعه في بادئ الأمر كصلصلة الجرس . أن اتسق في أذنه ووعيه كلمات واضحة « اقرأ باسم ربك الذى خلق : خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ثم كف الصوت عن الكلام . وقد أخذ الجهد من نفس محمد بن عبد الله كل مأخذ . وراح العرق يتفصد من جبينه . وقلبه ينتفض بحياة جديدة . ونور جديد لم يدر محمد نفسه . في ذلك الوقت السحيق . أن هذا النور إيذان بأنه قد تلقى وحياً من رب العالمين . وأنه يوشك أن يكون سيد الناس أجمعين<sup>(١)</sup> فهرع إلى زوجته خديجة يقص عليها ما حل به وأصابه . فهدأت روعه وذهبت به إلى مستشار أمين زاد في طمأنينته ورجائه . ولكن الوحي لم يلبث أن عاود محمداً . حتى اطمأن قلبه باليقين . من أنه قد تلقى الأمر من السماء بإبلاغ رسالة إلى بني البشر ، مبتدئاً بعشيرته الأقربين ، وأن ما أصبح يفيض به قلبه وينطق به لسانه ليس إلا

(١) عن عائشة (رضي الله عنها) قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حجب إليه الحلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث أى يتعبد فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله . ويؤود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ليتزود لملها . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ . قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق : خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها النبي صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع وأخبرها الخبر . لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله . ما ينزلك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف . وتعين على نوائب الدهر . ثم انطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة . وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة : يا ابن عمي اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله بخبر مارئى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى . الحديث بتمامه رواه الشيخان .

حقاً من الحق قد نزل . وليس إلا خيراً من الخير الأعلى قد انخدر .

### الوحي يقود محمداً :

وظل هذا الوحي يعاود محمداً بن عبد الله . ثلاثاً وعشرين سنة . يرشده ويوجهه ويشد أزره ويثبته . ويأمره ويكلفه تارة بالصبر . وتارة بامتناع الحسام . تارة بالملاينة وتارة بالمنازمة على سواء . ويعده ويمثله بالنصر والفوز . ويكشف له في بعض الأحيان عن مغاليق الغيب ومخبوء الأيام . فما كبا به هذا الوحي الأمين مرة من المرات . ولا أخلف وعده معه . ولا كذبه فيما عنه أخبر . لا ولم يتخل عن نصرته . حتى دانت له شبه جزيرة العرب عن بكرة أبيها . بعد أن كانت حرباً عليه . وهي أمة بأسرها . وهو رجل فرد لم يكن له سلاح . أو معين غير هذا الوحي الصادق .

نبأه الوحي أنه معصوم من الناس لن ينالوه بأذى « والله يعصمك من الناس »<sup>(١)</sup> فكان ما قال . ومات محمد على فراشه بعد أن أكمل رسالته . على كثرة ما دبر له من مؤامرات . وما خاض من معارك . ونبأه الوحي أنه منصور بإذن الله في نشر دعوته . فلم يمت محمد بن عبد الله . حتى رأى آخر صنف في أنحاء هذه الجزيرة الطويلة العريضة وقد تحطم ودمر . ونبأه أن نبيه لن يلبث أن يظهر على الدين كله . فلم يغمض محمد بن عبد الله عينيه إلا بعد أن رأى جزيرة العرب بين يديه في حجة الوداع ملبية مكبرة : لا إله إلا الله وحده . والوحي يملئ عليه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »<sup>(٢)</sup> وإذ كملت الرسالة فلم يلبث محمد أن مات بعد أن أخبره الوحي الصادق الأمين أن هذه القلة المسحوقة من أتباعه المؤمنين لن يلبثوا أن يصبحوا سادة الدنيا كلها « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »<sup>(٣)</sup>

فكان كما قال وأخبر ونبأه فكان حقاً على الرسول أن يؤمن بهذا الوحي وأنه رسول ربه « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه »<sup>(٤)</sup> . وكان حقاً على أتباعه المقربين أن يؤمنوا بهذا الوحي وحق علينا . نحن المتأخرين . أن نؤمن بهذا الوحي الذي بلغ محمد بهديه إلى هذا

(٣) النور ٥٥ .

(٤) البقرة ٢٨٥ .

(١) المائدة ٦٧ .

(٢) المائدة ٣ .

الذى بلغ . لأن سيرة محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء الإيمان بهذا الوحي والإعلام الغيبي .

### تأويلات قریش لظاهرة الوحي :

ولما كان الوحي إذا حل بمحمد بن عبد الله يكون مصحوباً برعدة تعم جسده ويناله كثير من الجهد والمشقة مما يجعل العرق يتفصد من جبينه<sup>(١)</sup> ولما كانت هذه ظاهرة مادية محسوسة يتحدث عنها كل من يتصل بمحمد ويحيط به . فقد بدأت قریش تفسر هذه الظاهرة الجديدة التي أصابت محمد بن عبد الله والتي تلاها تبشيريه بنفسه كرسول لرب العالمين . بأنها لوثة من لوثات الجنون والخبل قد أصابته فأحدثت بعقله ما أحدثت . « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون<sup>(٢)</sup> » ولكن الحوادث سرعان ما كشفت للقوم بطلان هذا الزعم ؛ إذ ظل محمد آية من آيات الاتزان يتصرف في كل أموره كأعقل وأحكم ما يكون الرجل . فضلاً عن أن هذه العبارات والأقوال التي باتت تجري على لسانه قد أذهلتهم بقوة بياتها . ونصاعة تعبيرها . وشديد إنجازها . وعذوبة وقعها على السمع . وعظيم تأثيرها على القلب . مما جعل فكرة الجنون تسقط من حسابهم . ويعترفون بأن هذا الكلم لا يمكن أن يصدر عن مجنون .

فعادوا يفسرون الأمر على أن محمداً قد انقلب شاعراً . وأن شيطان الشعر قد ألم به كما ألم بفحول الشعراء من قبله فعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنطق لسانه بهذا القول الفصيح المليح . ولكن تتابع آى القرآن ونهجه ونسقه لم يلبث أن كشفاً للقوم أن ما جاء به محمد . وما ينطق به ، شئ يخالف ما ألفوه من الشعر كل المخالفة . وإذا كان تأثير القرآن في نفوس القوم واضحاً كل الوضوح ، حيث كان في كل يوم يحمل نفراً منهم على التعلق به ، فإذا هم يتنكرون لكل مألوفاتهم القديمة ، وعوائدهم الموروثة وتقاليدهم المقدسة غير ملقين بالاً لما في هذه المخالفة من إغضاب لعائلاتهم وأسرانهم ، فقد زأت قریش في ذلك ضرباً من ضروب الإفساد ، وعزت تأثير محمد في قرآنه إلى السحر والكهانة . « وقال الكافرون

(١) قالت عائشة : ولقد رأيت به يتزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد . فينفص عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . رواه الشيخان . والترمذي عن عبادة بن الصامت : كان النبي إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتريد وجهه .  
(٢) سورة الحجر آية ٦ .

هذا ساحر كذاب<sup>(١)</sup> . « فها أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون<sup>(٢)</sup> » .

« ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون<sup>(٣)</sup> » . ولكنهم سرعان ما وجدوا محمداً أبعد ما يكون عن الكهانة وما يصاحبها من شعوذة وغموض : فالرجل يعيش في وضوح النهار بين ظهرائي الناس لا تكاد عيونهم تغتر عن مراقبته لحظة . فما رأوه خلا بنفسه لحظة يمارس طقوس السحر والكهانة والتي تستلزم الكثير من الترانيم والتعاويد وإطلاق البخور واستخدام بعض الأجهزة والآلات . فلا بد إذن أن يكون الأمر على العكس : بمعنى أن محمد بن عبد الله ليس ساحراً ولكنه مسحور قد سحره آخر وأنطق على لسانه ما أنطق « إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً<sup>(٤)</sup> » . وسواء كان محمد بن عبد الله قد جُنَّ أو اعتراه شيطان من الشر أو أنه يمارس ضرباً من الكهانة والسحر : فإن دعواه تلقي الوحي من الله ليس إلا كذباً وافتراء وادعاء منكراً يجب أن يقابل بكل إعراض واشتمزاز بل وبكل سخط ومقاومة « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى<sup>(٥)</sup> » : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً<sup>(٦)</sup> » . أما هذا القصص الذي يتلوه عليهم متحدثاً عن تاريخ من سبق من القوم ومضى . واستعراضه لنصوص الأديان الشهيرة وتعاليمها مما لم يسبق له أولهم به علم فإنما هي ترهات وأوهام وأساطير الأولين . وإذا كانت تنطوي في بعض أجزائها على شيء من الحق والصواب فليس ذلك إلا أثراً لتلقي بعض الناس لمحمد وما حصله من بعض العلوم هنا وهناك . « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً<sup>(٧)</sup> » . « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي<sup>(٨)</sup> » .

وهكذا لم يدع معارضو محمد بن عبد الله فرضاً من الفروض أو تأويلاً من التأويلات التي يمكن أن يتناول بها الوحي المحمدي وهذا القرآن الذي تفجر فجأة على لسان محمد . إلا وقالوا بها وشنعوا وهولوا . بحيث بلغوا في ذلك إلى منتهى ما يمكن أن يطمع فيه أشد نقاد العصر الحديث مادية وغلبوا في الإنكار والحذقة .

(٥) سورة سبا آية ٤٣ .

(٦) سورة الفرقان آية ٤ .

(٧) سورة الفرقان آية ٥ .

(٨) سورة النحل آية ١٠٣ .

(١) سورة ص آية ٤ .

(٢) سورة الطور آية ٢٩ .

(٣) سورة الزخرف آية ٣٠ .

(٤) سورة الإسراء آية ٤٧ .

## محمد بن الوعد والوعيد :

وقد حاولت قريش في ذلك الوقت أن تعالج هذه الملمة الطارئة على محمد بشتي ألوان العلاج التي يمكن أن تخطر على البال . فعمدوا في بادئ الأمر إلى الإنكار عليه ومخاشته . فلما لم يُجِدْهُمْ ذلك عمدوا إلى محاسنته وإغرائه بشتي صنوف المغريات . فعرضوا عليه أن يستجلبوا له نطس الأطباء والكهان لمداواته وإبرائه من دائه الذي ألم به إن كان ما به داء أو مرض . فإن كان يرمى من وراء دعوته إلى مال أو جاه أو نفوذ وسلطان ينحصره فقد أطمعوه في ذلك كله . وأن يجعلوا منه سيداً عليهم ويزاد في ماله حتى يصبح أعظمهم غنى .

ولكن ذلك كله لم يزد محمد بن عبد الله إلا عزمًا وإصراراً على المضي في دعوته وقال كلمته المدوية : يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني . والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . وأبى محمد إلا أن يضاعف في جهده وكفاحه فبدأ يسفه أحلام القوم . ويظهر البغض والقل للمعبوداتهم ، وينعتها بما يهون من شأنها ويحط من قدرها . فلم تتمالك قريش نفسها عن المضي في حرب الرسول في غير هواة أولين ، مبتدئين بالسخرية والزراية وتأليب الغلمان والعبيد على محمد وأتباعه ينالونهم بالأذى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ثم لم يلبثوا أن تطوروا فراحوا يعقدون المؤتمرات للتخلص من محمد وأتباعه جملة واحدة . حتى اضطروا المسلمين الأول للنجاة بأنفسهم ودينهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة . ولكن ذلك كله لم يجد قريشاً قتيلاً . وظل محمد بن عبد الله ماضياً في دعوته فياضاً بهذا البيان الساحر الذي يسميه « قرآناً » ويدعى - صادقاً - أنه وحى من رب العالمين . ووجدوا أن هذا القرآن يأخذ طريقه إلى القلوب فيغزوها ، وإلى النفوس فيستهيها ، ووجدوا أن هذا القرآن ينفذ إلى بيوتهم في غفلة منهم ، فإذا نساؤهم ترب - وإذا عبيدهم يدينون به فيتكبرون لسادتهم . بل وجدوا أن هذا القرآن العجيب يستبد بنفوس سادة القوم فيخضعون لسلطانه . حتى ليتسللون مستخفين عن بعضهم في ظلمة الليل البيه للاستماع إلى ترتيله من أفواه بعض حافظه ممن اتبعوا محمداً .

## إسلام عمر :

ثم وقعت الواقعة فإذا القرآن يحول في أقل من ومضة الخاطر أشد الناس عتوا ضد

محمد وأكثرهم إسرافاً في تعذيب كل من تناله يده من أتباع محمد ، إلى مؤمن متحمس للقرآن وللرسول كأعظم ما يكون الإيمان والحماسة . ولم يكن هذا المؤمن الجديد ، إلا عمر بن الخطاب ذلك الذي كان يعذب جاريته لإيمانها برسالة محمد . حتى ليظل يضربها ويضربها . إلى أن يأخذه الملل والسأم ويخشى على جاريته من الموت والتلف . والذي ضرب أخته فأسال دمها ممزوجاً بعبراتها لفاجأته لها وهي تردد القرآن وتتلوه مع زوجها .

وعلى هذه الوثيرة كان القرآن يغزو قلوب جميع الذين يخاضعون محمداً ويلحون في خصوصتهم . ويحولهم أو بالأحرى يحول الأكثرين منهم إلى متطرفين في الحماسة والتشيع لمحمد والوحي المحمدي .

### إسلام خباله :

وحسبنا أن نشر كمثل آخر إلى خالد بن الوليد . فقد كان المنطق يعتم عليه أن يكون آخر العرب إيماناً بمحمد . بل كان يتحتم عليه ألا يؤمن بمحمد على الإطلاق . ذلك أن خالد بن الوليد من دون العرب جميعاً من لعب أكبر دور لهزيمة محمد في غزوة أحد ، تلك الغزوة التي كاد يقتل فيها محمد قتلاً . والتي أعلن فيها بالفعل أنه قد قتل . وكان معنى ذلك القضاء على الإسلام . ونبي المسلمين على يد خالد بن الوليد . فما أحق هذا القائد المنتصر على محمد وعلى جيش محمد أن يكفر به . وبرسالته وبوحيه . ما أعجب أن يكون الأمر على عكس ذلك فترى ذلك القائد الفذ العبقري . يتسلل من بين صفوف قریش ليلتحق بمحمد في المدينة ليضع نفسه تحت خدمته وخدمة تعاليمه . وليكون سيفاً من سيوف الله يطعن به محمد في نحر المشركين ، ويرد به كيد الكائدين . وسرعان ما نرى خالد بن الوليد على رأس أحد الجيوش الغازية لمكة . فنراه يأبى من فرط حماسته إلا أن يجارب ويثخن ويفتك بمواطنيه وعشيرته وآله الأقربين . لولا أن يكف يده محمد بن عبد الله ويلزمه حدود السكينة والاعتدال ما دامت البلد قد ألفت السلاح . وهكذا كان القرآن يغزو قلوب أشد الناس نفوراً منه في بادئ الأمر . وأخيراً دانت جزيرة العرب كلها للوحي المحمدي وآمنت بالقرآن ورسالة محمد .

آمنت شبه الجزيرة بعد ثلاثة وعشرين عاماً من الكفاح المتواصل الذي استخدمت فيه جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على محمد وعلى دعوته . فإذا كان

محمد قد فاز على ذلك كله وانتصر فلن يستطيع أى إنسان فى أى عصر من العصور - أن يدعى أن هذا النصر كان ثمرة الخداع والتغريب والإيهام - أو أنه استغل جهل معاصريه وسذاجتهم .

لا يستطيع أشد النقاد فى العصر الحديث أن يدعى أن محمداً لم يمتحن كأشد ما يكون الامتحان وأن دعوته لم تمحص بواسطة معاصريه بأعظم ما يكون التمحيص فى كل شأن من الشئون وقضية من القضايا . وحسب الإنسان أن يطلع القرآن الكريم وهو سجل حوادث ذلك الزمان<sup>(١)</sup> ليرى أقصى ألوان النقد قد وجه إلى محمد - ليس فقط إلى تعاليمه ومبادئه من حيث وحدانية الله والبعث والنشور والإيمان بالوحي - بل وإلى شخصية محمد نفسها وأخلاقه وتصرفاته . فالتاريخ شاهد عدل صادق على أن محمداً ما كان لينجح هذا النجاح ، لو لم يكن صادقاً أميناً . فما كان لكذاب مفتر ، أن يصمد فى وجه أقصى المخن والتجارب - وما كان لمدع أن يتسلق السلم درجة درجة - وأن يغزو القلوب والنفوس قلباً قلباً - وأن تدين له شبه جزيرة العرب بالروح والجسد شبراً شبراً ، وأن لا تزيده الأيام والسنون والحوادث بل والقرون المتتالية إلا قوة وتأثيراً ونجاحاً .

#### نجاح الدعوة المحمدية الخارق بعد موته :

والحق أن ليس هناك ما يأخذ اللب أكثر من هذا النجاح الفائق الذى أحرزه محمد ابن عبد الله بعد موته وزوال كل تأثير لشخصيته من الناحية المادية - فإن محمداً لم يكذب يلحق بالرفيق الأعلى - حتى ازداد إيمان أتباعه وتلاميذه بشخصيته ورسالته أضعافاً مضاعفة - فاندفعوا شرقاً وغرباً وجنوباً ينشرون إيمانهم بمحمد ، وتعاليم محمد - فكان ما كان من هذا الفتح العظيم - الذى لم تشهد له الدنيا مثيلاً فى سرعتة واتساع رقعته - والذى لا يعجب الإنسان فيه بالفتح العسكرى - قدر إعجابه بالفتح الروحى . وإلا فبأى سلطان - وبأى قوة دخل الشعب الفارسى فى هذا الدين الجديد الذى نادى به هذا العربى الأمى الذى مات كما يموت غيره من الناس - مع أن الشعب الفارسى هو صاحب الحضارة والمدنية الزاهرة ، وقد عاش طول عمره ينظر إلى العرب نظرة احتقار وامتهان .

---

(١) لا يختلف الباحثون المؤرخون العالميون بصفة عامة والمستشرقون بصفة خاصة فضلاً عن المؤمنين والمسلمين فى أن القرآن هو أصدق صورة لما كانت عليه حياة العرب وما وقع من نزاع ومناقشات ومساجلات بينهم وبين الرسول صلوات الله عليه .

فإذا كانت الظروف قد قبضت بغلبة العرب على الفرس فقد كان خرباً بالفرس أن لا يحملوا للعرب وكل ما جاء به العرب إلا الحقد والكراهية فيكونوا آخر من يلوذ بهذا الدين . ولكن التاريخ يسجل لنا أن ما حدث كان عكس ذلك تماماً . إذ دخل الفرس في دين الإسلام أفواجا كما دخل العرب من قبلهم ، بحيث لم يكد القرن الثاني يبدأ حتى كانوا هم عمد الحضارة الإسلامية وأبرز معالمها .

### في مصر :

وثمة بلد آخر كمصر يشهد تاريخه طوال أربعة آلاف سنة ، على أنه لم يعتنق أبداً دين الفاتحين له ، بل إنه طالما دفع بغزاته وقاھريه ، إلى الدخول في دينه وتقاليدہ وأستعمال لغته . ولكن الإسلام لم يكد يطرق أبواب مصر حتى خرج الشعب المصرى على سنته وطبيعته لأول مرة ، فإذا هو يدخل في هذا الدين الجديد أفواجا ، ثم لم يلبث أن ذهب إلى أبعد ما ذهب إليه الفرس ، فيأخذ لغة الإسلام والقرآن بدلاً من لغته الوطنية ، ويستبدل الحروف العربية بحروف كتابته التقليدية . وهكذا نرى مصر وقد تحولت إلى قطعة إسلامية عربية صميعة حتى لنراها في عصرنا الحاضر موئل العربية والإسلام ورافعة لوائها الخفاق . ورب قائل يقول إنما حدث كل هذا الذى تشير إليه بقوة العادة والسلطان ، العادة التى تقول إن المغلوبين يقلدون الغالبين دائماً ويتعبدون بدينهم . وإذا كان العرب هم أصحاب السلطان ، فقد سارعت الشعوب المحكومة بسلطانهم إلى تقليدهم . ولكن هذا الزعم سرعان ما ينهار عندما نرى أن قوة الإسلام وعظم شخصية محمد قد زادت وتضاعفت بعد أن فقد العرب كل قوة وسلطان ، بل وبعد أن تحولوا إلى محكومين مقهورين .

### دور الأتراك في الإسلام :

فهؤلاء هم الأتراك أعدى أعداء العرب ، قد تحولوا إلى مسلمين وكانوا هم « لا العرب » من حمى الإسلام بضعة قرون من الزمان . وهؤلاء هم التتار الذين كانت لهم اليد الطولى في إسقاط السيادة الإسلامية بالشرق ، لم يلبثوا أن اعتنقوا دين الإسلام ، وتحولت عاصمة بلادهم « سمرقند » إلى مركز من أعظم المراكز التى تمد الإسلام بالحرارة والحياة .



فبأى سحر وبأى قوة شخصية فعل محمد ذلك فى نفوس الناس بعد موته وبعد زوال سلطان أمته وشعبه ، فى الوقت الذى نرى فيه أعظم عظماء التاريخ كالإسكندر وقيصر ونابليون وغيرهم لا يلبث نفوذهم أن يتلاشى ويذوى بمجرد موتهم ، فلا يعود لهم من التأثير إلا بمقدار ما لآى حادث آخر فى التاريخ من العبرة والعظة ..

بأى سلطان وبأى قوة استطاع هذا العربى الأسمى الذى عاش أربعين سنة لا يكاد يختلف عن أوسط قومه . أن يفعل كل ما فعل . وأن يحرز كل ما أحرز من نجاح وتفوق ؟! بأى قوة وسلطان إلا أن تكون قوة الوحي حقاً وصدقاً . هذا الوحي الذى وإن لم نستطع أن ندرك أمره وسره فلا نستطيع أن ننكر آثاره وأفاعيله .

**إنكار الوحي يؤدى إلى تأليه محمد :**

الحق أن إنكار الوحي من شأنه أن يدفعنا فى مأزق حرج ويؤدى إلى اعتبار محمد الإله بذاته كما اعتبر المسيحيون عيسى هو الرب الخالق . وكما اعتبر البوذيون بوذا تجسداً للرب ، وكما اعتادت الإنسانية بصفة عامة أن تجعل من الألفاظ الأبطال آلهة خالفين حاكمين .

فن أى ناحية عرضنا لشخصية محمد وجدنا أنفسنا أمام طود راسخ يبلغ من الشموخ والتسامى مالا يطاوله فى تاريخ البشر إنسان آخر ..

فلو أنا حسبناه فى عداد المشرعين ، لوجب اعتباره حتماً أعظم مشرع عرفته الإنسانية ، فقد حوى القرآن من القوانين والمبادئ الأساسية لتنظيم حياة الفرد والجماعة فى حالتى السلم والحرب مالا زيادة بعده لمستريد ، وهانحن أولاء نرى أن الإنسانية تهجد نفسها للوصول إلى ما قرره من المبادئ والقواعد التشريعية ، فالحرية والإخاء والمساواة والديمقراطية والاشتراكية والتعاون العالمى ، كل هذه مبادئ قد نبه إليها القرآن وجلاها منذ نيف وثلاثمائة وألف سنة ، بحيث لوكان هذا القرآن من بنات أفكار محمد بن عبد الله لوجب اعتباره حتماً أعظم مشرع اجتماعى عرفته البشرية . وحسب الإنسان أن يطالع فى هذا الصدد أقوال علماء أوروبا الأعلام الذين شهدوا بذلك وأكدوه وسجلوه<sup>(١)</sup> .

(١) يقول جيون أعظم علماء التاريخ فى العصر الحديث « جاءت الشريعة الإسلامية عامة فى أحكامها يخضع لها =

ولو أنا عددنا محمد بن عبد الله في طائفة الحكماء أو الفلاسفة لوجب اعتباره أعظمهم .  
طرا ، حيث جعل هذه الأمم والشعوب خلال هذه القرون تعيش على حكمته وفلسفته في  
الحياة وآرائه فيما وراء الطبيعة .

ولو اعتبرناه مؤسس دولة وحضارة لوجب اعتباره أعظم من أسس ملكاً وشاد دولة  
وخلق حضارة ، فالتاريخ لا يعرف كما قدمنا مثيلاً لارتفاع العرب من حضيف الخمول  
إلى ذروة المجد والقوة والسلطان .

وهكذا نرى أنفسنا مضطرين إلى وضع محمد بن عبد الله في مقدمة المشرعين . وفي  
مقدمة الحكماء ، وفي مقدمة الفلاسفة ، وفي مقدمة المصلحين . وفي مقدمة الفاتحين ،  
وفي مقدمة النبيين . وما دام الأمر كذلك ، فما الذي يحول بيننا إذن وبين الوقوع فيما وقع  
فيه غيرنا من القول بأن الله قد حل في شخص محمد بن عبد الله كما قال المسيحيون ، وكما  
قال البوذيون ؟ الحق أن ليس هناك ما يحول بيننا وبين هذا الوهم والضلال . إلا صدق  
محمد بالذات وأمانته ونزاهته في تبليغ ما أنزل إليه من ربه من أنه لا يعدو أن يكون عبداً  
لله كسائر العبيد . وأنه لم يخرج قط عن أن يكون بشراً مخلوقاً كما خلق البشر أجمعون ،

---

= أعظم ملك وأقل صلوك فهي شريعة حيكت بأحكام منوال شرعى وليس لها مثيل في العالم . - الحضارة  
الإسلامية - لكرد على .

وقال ليودورث « إن الإسلام دين إنسانى طبعى اقتصادى أدبى ولم أذكر شيئاً من القوانين الوضعية  
إلا وجدته مشرعاً فيه - ولقد وجدت فيه حل المسألتين اللتين تشغلان العالم طرا الأولى في قول القرآن « إنما  
المؤمنون إخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال وتحويل الفقراء حق  
أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً - وهذا هو دواء الفوضوية - الحضارة الإسلامية - لكرد  
على .

وقال ماسينون « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر في  
موارد الجماعة - والإسلام ينادى بالعناء للأموال المصرفية ( الربا ) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة  
على ضرورات الحياة في حين أنه شديد العنكس بحق الزوج والولد والملاكية ورءوس الأموال التجارية فهو بذلك  
يقف وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية والبولشفية . وللإسلام ماضى بديع من تعاون الشعوب  
وتفاهيها - وليس من يجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماضى كله النجاح - في جمع كلمة مثل هذه الشعوب  
الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في أفريقيا  
والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان - على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي  
لا سبيل إلى التوفيق بينها » الحضارة الإسلامية لكرد على .

« قل إنما أنا بشر مثلكم <sup>(١)</sup> ». وهو كأي إنسان آخر لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا حولاً ولا طولاً وأنه لا يعرف الغيب ولا يملك خزائن الأرض فضلاً عن السماء « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون <sup>(٢)</sup> » ، « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي <sup>(٣)</sup> » . « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى <sup>(٤)</sup> » ، « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً <sup>(٥)</sup> » .

وما دام محمد يقول عن نفسه إنه بشر وأنه لا يعلم من الغيب أكثر مما يعلم الناس وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بمقدار ما يملك الناس ، إذن فكيف استطاع أن يبهز الناس أجمعين وأن يحملهم على الرضوخ لسلطانه الروحي ؟ الحق أن العقل لا يستطيع أن يجد لذلك تفسيراً مقبولاً ومعقولاً إلا الإيمان والتصديق بالوحي المحمدي وأن القرآن الكريم ثمرة هذا الوحي وآيته .

(١) الكهف ١١٠ .

(٢) الأعراف - ١٨٨ .

(٣) الأنعام - ٥٠ .

(٤) الإسراء - ١ .

(٥) الفرقان - ١ .

## الفصل السادس

### القرآن والوحي

عجز العرب عن محاكاته وتقليده - الصرفة -  
 حفظ القرآن من الضياع وسلامة نصوصه من  
 التحريف - جمع القرآن - عمل نسخ من  
 المصحف - اختلاف نصوص الأناجيل - ثبات  
 معاني القرآن ومراميها على الزمن - القرآن والعلم -  
 خاصية الأسلوب القرآني - آيات يفسرها العلم  
 الحديث - تنبؤات القرآن بالغيب - ثبوت الوحي  
 المحمدي - حقيقة الوحي - الوحي ذروة الإلهام -  
 ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات -  
 علم الأديان المقارن ووجوبه - اختر لنفسك .

وقد بقي أن نلقي نظرة فاحصة على هذا الكتاب الموجود بين أيدينا والمتفق عليه  
 بالإجماع أنه سجل دقيق لهذا الوحي الذي أوحى لمحمد بن عبد الله وأعني به القرآن الكريم  
 لنرى إلى أي حد تقوم خصائص هذا القرآن ونصوصه شاهدة على أنه لا يمكن أن يكون  
 كتاباً كسائر الكتب . وبالتالي لا يمكن أن يكون من نظم أو تأليف إنسان عادي .

#### عجز العرب عن محاكاته وتقليده :

لعل أول ما يطلعوننا من دراسة القرآن وتاريخه هو هذه الظاهرة الفذة ظاهرة تحدى  
 القرآن للعرب في أن يقلدوه ويأتوا بحديث مثله . « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن  
 يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً<sup>(١)</sup> » ثم عجز العرب  
 بعد هذا التحدى الصريح عن الإتيان بمثله أو محاكاته مع شدة حرص العرب على  
 تكذيب محمد وتسفيهه وإظهار بطلان دعوته وما تنطوى عليه من كهانة وشعوذة . ومع

(١) الإسراء - ٨٨ .

أنهم لم يدعوا وسيلة مشروعة أو غير مشروعة إلا اتجهوها لإيذاء محمد والانتقاص منه . فقد ظل تحدى القرآن للعرب قائماً بغير معارضة . وسط أقوام اشتهروا بالمعارضة لما يطرح على مسامعهم من شعر أو نثر . فلا يكاد الشاعر ينشد قصيدته حتى يبادره الشاعر الآخر بقصيد معارض . ولا يكاد الخطيب يفرغ من خطبته ، حتى يصاوله خطيب آخر بأقوى من حجته . وأسحر من بيانه . حتى إذا تحداهم القرآن . أجموا وانعقدت ألسنتهم وجمدت قرائحهم . فزاد القرآن من تحديهم وإظهار الاستصغار والتهوين في مقدرتهم « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين <sup>(١)</sup> » .

ولكن القرآن كلما زاد في تحديه . زاد العرب عجزاً وقصوراً إزاء هذا التحدى ، حتى انتهى الأمر بالقرآن إلى آية عجيبة من آيات التحدى . بأن طالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة من سور القرآن على الرغم من أن من سور القرآن ما لا تزيد آياته على ثلاث <sup>(٢)</sup> : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين <sup>(٣)</sup> » . ومع ذلك فقد ظل العرب المعارضون لرسول الله عاجزين عن قبول التحدى ومعارضة القرآن وآياته بآيات مثلها وفي مثل نظمها وأحكامها .

### الصرففة :

وليس هناك ما يثير الدهشة في نفس الدارس لتاريخ القرآن أكثر من هذه الظاهرة . مما جعل البعض يفسر امتناع معاصري القرآن عن محاكاته وتقليده . أنه ليس ناشئاً عن العجز والقصور . ولكن لأنهم صرفوا عن تقليده بواسطة قوة خفية جعلتهم لا يفكرون في تقليده ومحاكاته ومعارضته بمثل آياته . مع شديد رغبتهم في هذه المحاكاة ومع قدرتهم عليها . ومن هنا فهم يعتبرون إعجاز القرآن كامناً في هذه الصرفة التي صرفت العرب عن محاكاته . وسواء كان الامتناع للعجز أو للصرفة ، فهو آية وحجة على أن للقرآن شأناً يختلف عن شأن سائر الكتب . وأن أمره كان عجباً من أعجب العجب « إنا سمعنا قرآناً عجباً » .

(٣) البقرة - ٢٣ - ٢٤

(١) هود - ١٢ .  
(٢) سورة الكوثر .

## حفظ القرآن من الضياع وسلامة نصوصه من التحريف :

فإذا مضينا في دراسة تاريخ القرآن اتضح لنا من أمره خصوصية ثانية لا يكاد يعثر عليها الإنسان في كتاب آخر من كتب البشر القديمة التي تطاول عليها العهد . وليست هذه الخصوصية إلا حفظ القرآن . كما أوحى إلى محمد وكما لقنه لأتباعه . ووصله إلى الأجيال المتعاقبة سليماً من كل تحريف أو نقص أو زيادة . مبرأ من كل الشكوك التي دبت إلى نص أي كتاب من الكتب المقدسة أو الكتب التاريخية والعلمية القديمة .

فمن الحقائق التاريخية أن القرآن كان يكتب دون غيره من أحاديث النبي على الرقاع والعظام وسعف النخيل في حرص شديد من أن يختلط به غيره وفي نفس الوقت كان السواد الأعظم من المسلمين يثقلون القرآن من فم الرسول مباشرة ويحفظونه عن طريق التلقين .

وقد كانت ملكة الحفظ عند العرب مما لا يمكن أن يتطرق الشك إلى سلامتها وقوتها ، لا شئ إلا لأنهم كانوا شعباً أمياً في غالبيتهم العظمى فلم يكن لهم من سبيل للمحافظة على حياتهم الاجتماعية وحقوقهم وأنسابهم وتقاليدهم وتشريعاتهم . إلا هذه الذاكرة الواعية المفرطة في الحساسية ، وقد عاش النبي صلوات الله عليه ، بضعاً وعشرين عاماً ، وهو يعلم القرآن وينادي بالقرآن ويصلي بالقرآن في صلواته الخمس ، وهكذا أتيت الفرصة لسائر المسلمين كي يحفظوا من القرآن ما لم يحفظوه . وليسمعوا منه ما لم يكونوا قد سمعوه . ولكي يكمله منهم من لم يكن أكمله . ويعوده من لم يكن قد جوده . ولم يمض الرسول قبل أن يترك خلفه عدداً غفيراً ممن يحفظون القرآن بأكمله . وعدداً كبيراً جداً ممن يحفظون أكثر القرآن . ويعرفون في نفس الوقت بقيته . وهذا كله إلى جوار آيات القرآن وسوره المتفرقة المكتوبة عند من يحسنون الكتابة .

## جمع القرآن :

ولم يكبد الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتى أصدر خليفته وصديقه الصدوق وأكثر العالمين غيره على القرآن من بعده . أصدر أمره بجمع هذا القرآن في كتاب واحد . وقد فعل ذلك كما نحدثنا التاريخ بناء على إشارة عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup> ثاني اثنين هما أعظم دعائم الإسلام بعد رسول الله .

(١) حدثنا زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبي بكر مقتل أهل اليمامة . فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر =

وقد كلف زيد بن ثابت كاتب وحى رسول الله بالقيام بهذه المهمة . فقام بها على خير وجه من الوجوه ورسم لتحقيق هذا العمل الجليل خطة من أدق ما يمكن أن يطرأ على الذهن مثلها . فلم يعتمد على ملكة الحفظ عند العرب . بل اشترط أن تدعمها الكتابة . واشترط فوق ذلك كله أن لا يقبل أى آية مكتوبة من آيات القرآن إلا بعد أن يشهد شاهدان عدلان . أنها كتبت فى حضرة الرسول وذلك كله على الرغم من أن زيدا كان يحفظ القرآن بأكمله وإنما فعل كل الذى فعله مبالغة فى الاحتياط<sup>(١)</sup>

**عمل نسخ من المصحف :**

وغنى عن البيان أن هذه العملية قد تمت تحت إشراف أبى بكر وعمر وبقيّة الصحابة الأعلام وهم من هم غير على القرآن وتقديساً لآياته وكلماته ، وحرصاً على تنزيه كلام الله من أن يختلط به غيره ، وهذا ما يقطع بأن عملية جمع القرآن كانت عملية سليمة لم تشبها أى شائبة من الشوائب . على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد وضع هذا المجهود بعد فترة وجيزة موضع المراجعة الدقيقة وذلك فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان عندما رُئى وجوب نسخ هذا القرآن الأم وتوزيع نسخ رسمية منه على مختلف الأمصار ، فقد دعى زيد بن ثابت من جديد ومعه رهط من الكتاب القرشيين لنسخ عدة صور من القرآن ، واتخذ من الاحتياطات والدقة فى العمل ، مثل الذى اتخذ عند جمع القرآن ، وتم نسخ خمس نسخ ، احتفظ بواحدة منها فى المدينة وأرسلت

رضى الله عنه ، إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم الجمعة بقاء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله فقال عمر ، هذا والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا تهملك وقد كنت تكذب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : هو والله خير : فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنها ، فتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره . لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... الآيتين . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهم . البخارى .

(١) جاء فى كتاب الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى رحمه الله فى باب جمع القرآن وترتيبه ما يأتى : أخرج ابن داود عن طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به » وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان ، وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجوده مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط .

بقيتها إلى البصرة والكوفة ومكة والشام ، وقيل بل كانت سبع نسخ أرسلت إلى الأمصار السابقة . وأرسل فوق ذلك إلى مصر واليمن ، وقد طلب من المسلمين في مشارق الدنيا ومغاربها . أن لا يعتمدوا من آيات القرآن إلا ما ورد في هذه النسخ الرسمية ، وأن يحرقوا كل ماعداها من كتابات وأقاويل تنسب إلى القرآن .

وعلى الرغم من أن ألوفاً من الصحابة كانوا يحفظون الكثير من القرآن ، ويعرفونه بأكمله كانوا لا يزالون في ذلك الوقت على قيد الحياة ، وعلى الرغم من أن الانتقادات كانت تنهال على عثمان بن عفان من كل جانب متناولة كل تصرفاته ، وبمجرحة إياه ، ورامية إياه بالكفر والانحراف عن الجادة ، فإن هذا العمل لم يكن محل نقد المتقدين ، ولم يرتفع صوت واحد من أنحاء هذه الدولة الغاضبة المتذمرة بالاعتراض على نص من نصوص القرآن وأنه ليس من القرآن ، أو فيه تحريف لمعنى من معاني القرآن . وحتى بعد أن اندلعت نيران هذه الفتنة الجائحة التي أودت بحياة عثمان ، وبعد أن انقسم العالم الإسلامي إلى حزبين رئيسيين . أحدهما يتشيع لعلى حتى التطرف ويطعن في عثمان وفي أسرته ، والحزب الآخر يطعن في على ويدافع عن الخليفة المظلوم . على الرغم من هذا الخلاف الخطير الذي أوشك أن يودي بالحياة الإسلامية جملة ، فإن نص القرآن وسلامته قد ظل فوق كل نزاع وبعيداً عن أى مظهر من مظاهر الاختلاف ، بحيث لم يكن للمسلمين في أى زمان ومكان إلا نص واحد للقرآن ، هو هذا النص الموجود بين أيدينا والذي مهما طوف الإنسان في العالم الإسلامي اليوم ابتداء من جزر الهند الشرقية في المحيط الهندي حتى ألبانيا وأوروبا ، وابتداء من الصين في الشرق حتى بلاد المغرب فلن يجد إلا نصاً واحداً للقرآن كهذا النص الموجود بين يديه ، بل مهما رجع الإنسان إلى الوراء في تاريخ المسلمين حيث لا تزال مصاحفهم محفوظة ومنشورة فلن يجد إلا نفس النص وذات الكتاب .

### اختلاف نصوص الأناجيل :

ولن يستطيع الإنسان أن يدرك معنى هذه الحقيقة ودلالاتها وانفراد القرآن بها إلا إذا قرن إليها نص الإنجيل المتداول الآن في العالم ومدى نسبته إلى المسيح عليه السلام ، فأول ما يطلعون عليه هو أربعة نصوص مختلفة ، كل منها يعتبر هو الإنجيل المقدس ، ومع ذلك فهي تختلف فيما بينها في كثير من التفاصيل بل وتختلف في بعض الأحيان في مسائل جد جوهرية ، وهذه النصوص الأربعة المختلفة ، قد اختيرت من بين عدة مئات من النصوص التي كانت كلها نصاً رسمياً للإنجيل ، وبالرغم من أن الكنيسة قد جاهدت كثيراً للقضاء على بقية النصوص الأخرى فإن العصر الحديث قد ابتعث نصوصاً جديدة للإنجيل منها إنجيل برنابا الذي لا تعترف به الكنيسة ، وتعتبره قد زور في عصور متأخرة .



على أن هذه النصوص الأربعة المعتمدة رسمياً من الكنيسة قد كتبت على أصح الأقوال في السنة الحادية والأربعين الميلادية ، وأنها كتبت بلغة غير اللغة المكتوبة بها الآن ، أوكتبت في بادئ الأمر باللسان العبراني وباللسان الذي ما بين الكلداني والسرياني ، ولكن العالم الحديث قد تلقاها مكتوبة باللغة اليونانية . ويشك كثير من العلماء الحديثين في أوروبا في نسبة هذه الأناجيل ومدى صحة نصوصها ونسبها إلى كاتبها ونسبة ما فيها إلى المسيح ، وهى كلها أمور محوطة بالشك وليس فيها حقيقة واحدة يمكن أن يطمئن إليها التاريخ .

وإذا كان هذا هو شأن الإنجيل فإن حظ الكتب الدينية الأخرى من السلامة هو أدنى بكثير من الإنجيل .

ويطول بنا المقام لو أننا خضنا في هذا الموضوع وحسبنا أن نشير إلى قول مستشرق أوربي من أعظم المستشرقين الذين تصدوا لدراسة الإسلام وهو السير «وليم موير» وكيف قطع بأن القرآن قد بين كل ما يعرف العالم من كتب مقدسة من حيث صحة نسبه إلى قائله ، وسلامة نصه على مر الأيام من كل زيف وتحريف وتغيير حيث قال : «والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملة بنص هذا مبلغ صفائه ودقته . والقراءات المختلفة اليوم قليلة إلى حد يثير الدهشة ، وهذا الاختلاف محصور أكثر أمره في نطق الحروف المتحركة أو في مواضع الوقف ، وهذه مسائل ابتدعت في تاريخ متأخر ، فلا مساس لها بمصحف عثمان» إلى أن قال : - «والنتيجة التي نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقاً فحسب ، بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملاً ، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أى شئ من الوحي ، ونستطيع كذلك أن نؤكد استناداً إلى أقوى الأدلة ، أن كل آية من آيات القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد» .

وهكذا شد القرآن وانفرد بشهادة العلماء من غير المسلمين - بمحافظته على سلامة نصه على اختلاف العصور وتعاقب القرون - وعلى تباعد البيئات واختلاف الأحزاب والقوميات والجنسيات التي تدين بالقرآن .

### ثبات معاني القرآن ومراميه على الزمن :

وإذا كانت نصوص القرآن المادية قد ثبتت على الزمن وسلمت من التحريف والتصحيف والتبديل والتغيير . فإن معانيه ومراميه ومبادئه لم تكن أقل ثباتاً على الزمن وصروفه من مبانيه . وهى خاصة أخرى من خصائص القرآن التي ينفرد بها من بين

الكتب وآية من آيات إعجازه . فما من كتاب في أى موضوع من الموضوعات . إلا ويفقد جدته على مر الزمن وتبلى معانيه مع تطاول العهد . فدائرة المعارف البشرية في تطور مستمر . وكل مرحلة من مراحل التطور الإنسانى تحمل في ثناياها عدة تغييرات وانقلابات وتحولات في المعارف البشرية . وقد شهد العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انقلاباً كأعظم ما طرأ على البشر من انقلابات . مما جعل جميع الكتب التى استطاعت أن تعيش عدة قرون من الزمن باعتبارها خلاصة العلم والمعارف البشرية . لا تقوى على الحياة يوماً واحداً في ظل هذه المعارف الجديدة . وحسب الإنسان أن يشير إلى كتب أرسطو العلمية وكيف ظلت حجر الزاوية في علوم الإنسانية قرابة ألفين من السنين . فلما جاء القرن التاسع عشر باكتشافاته ومعارفه فقدت هذه الكتب الكثير من سلطانها إلا من الناحية التاريخية بعد أن أثبت العلم بطلان الكثير من آرائها ونظرياتها في المسائل الطبيعية والفلكية والجغرافية . وكثيراً ما يشعر الإنسان الحديث بالسأم والملل بل والزهة في مطالعة أى كتاب علمى نشر قبل الحرب العالمية الأولى أى منذ ثلاثين سنة فقط ، وما ذلك إلا لعظم تأثير الحرب في الأفكار والأنظمة والمعارف البشرية والحقائق العلمية .

وقد بدأنا الآن نسمع ولما تنته هذه الحرب أن أى كتاب علمى أو فنى كتب قبل هذه الحرب لن يقوى على الاستمرار طويلاً بعدها . لأن العالم مقبل على انقلاب عجيب في ظروفه وأحواله ومعارفه سيتضاءل إلى جواره انقلاب القرن التاسع عشر . فما أعجب أن يثبت القرآن بمعانيه في وجه هذه الانقلابات والتطورات بحيث لا يفقد جدته على مر الزمن ولا تتبدل معانيه .

### القرآن والعلم

ولا يستطيع العلم الجبار أن ينال من آيات القرآن أو يلقى ظلاً على بعض معانيه ، بل على العكس من ذلك كلما اتسعت آفاق العلم واكتشافاته ، كلما زادت آيات القرآن جلاء ووضوحاً كلما أزيح الستار عن أسرارهِ وألغازهِ . حقا إن القرآن ليس كتاباً علمياً بالمعنى الفنى فهو لا يتوفر على دراسة فرع معين من فروع العلم ، ولا يبحث مسائله ومشكلاته ويعالج نظرياته ، ولكن القرآن مع ذلك قد تعرض بصفة عامة لكل ما في هذا الكون من ظواهر ومشاهد ونواميس طبيعية واجتماعية ، وأشار إلى الحياة وإلى الموت ، وإلى الكواكب وإلى النباتات ، وإلى السنن الكونية مستحفاً العقل البشرى لاستكناه أسرار الطبيعة والجرى في طلب الحقيقة ، والتفكر والغوص إلى أعماق الأشياء ، بحيث لا يكاد

يوجد علم من العلوم البشرية لم يمسه القرآن عن قرب أو عن بعد ، وبحيث يدخل كثير من آيات القرآن في دائرة المباحث العلمية البحتة ، بل إن جميع الكتب الإسلامية العربية القديمة في مختلف فروع العلم سواء في الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الكيمياء ... إلخ ، نراها تبدأ كلها بآية من الآيات تتخذها عنواناً لمبحثها وشعاراً عليه . وقد كان ذلك قديماً بأن يحدث التصادم بين آيات القرآن المكتوبة منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان وبين مقررات العلم الحديثة ، ولكن هذا التصادم لم يقع ، بل على العكس قام نفر من العلماء يفسرون آيات القرآن على ضوء آخر الاكتشافات العلمية ولم يكن هذا نفر من رجال الدين فقط ، بل من رجال العلم نفسه . فهذا رجل كالمرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل كبير أطباء مصر قد راح يبرز المطابقة العجيبة بين آيات القرآن وآخر ما انتهى إليه العلم الحديث في علم الأجنة .

### خاصية الأسلوب القرآني :

وأستطيع أنؤكد وأنا مطمئن إلى أننا سنستطيع دائماً أن نفسر القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث مهما انتهى إليه هذا العلم من تطورات . ويرجع ذلك إلى ما في عبارات القرآن وتركيباته من مرونة ، وما في معانيه من مرونة كذلك ، بحيث تجعلها قادرة على قبول تفسيرات مختلفة تتطور بحسب الزمان والمكان . انظر مثلاً إلى قول القرآن الكريم « والخليل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون <sup>(١)</sup> » ففي هذه الآية يعدد القرآن وسائل المواصلات التي لم تعرف البشرية غيرها ألوفاً بعد ألوف من السنين . فالحصان والبغل والحمار هي وسائل المواصلات التي لم يعرف غيرها أحفاد آدم ممن شرعوا في تأليف هذه الحيوانات ، وهي نفسها وسائل المواصلات التي لم يعرف سواها نابليون في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي ، فلو أن آية القرآن وقفت عند حد ذكر الخيل والبغال والحمير كوسائل للمواصلات لاصطدمت مثل هذه الآية مع التطور الذي انتهينا إليه حيث يوشك الحمار والحصان والبغل أن ينقرض بين ظهراني الشعوب المتحضرة . ولكن هذه الفقرة الأخيرة من الآية « ويخلق ما لا تعلمون » قد جعلت الآية تستوعب كل ما عرفنا حتى الآن من طائرات ودبابات وسيارات ودراجات . بل وتستوعب كل ما يمكن أن يجد في مستقبل الأيام من آيات ومعجزات يخلقها العقل البشري . وانظر إلى قول القرآن في

(١) النحل ٨ .

إحدى آياته « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » فالقداىى يفسرون المقصود بعبارة « وما لا تبصرون » بالجن والأشباح والأرواح . على أن هذه الآية يمكن أن تكون فى نفس الوقت تفسيراً لهذا العالم الضخم الذى لم تكتشفه الإنسانية إلا منذ أمد قريب جدا . وأعنى به عالم الميكروبات والجراثيم . هذه الأحياء الميكروسكوبية . والتي تملأ علينا الهواء والماء وتعمل فى حياتنا وتقتل أجسادنا وتتلغ غذاءنا . وتفعل فينا بالخير والشر بغير انقطاع مع أننا لا نراها ولا نلمسها . فما أصدق أن تكون عبارة الآية « وما لا تبصرون » إشارة إلى هذه الأحياء . وغداً لو أصبح علم تحضير الأرواح حقيقة مقررة . فسيكون من المحقق أن يفسر المقصود بالآية بأنه هذا العالم الروحانى . وهكذا تنسج عبارة قصيرة من عبارات القرآن لكل تطورات العلم ومعتقدات البشر جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن .

### آيات يفسرها العلم الحديث :

بل إن الباحث فى القرآن وآياته يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك كله فيقرر أن القرآن يتضمن الكثير من الآيات التى كانت غامضة مبهمة فى الزمن القديم فانحلت عقدها تحت ضوء العلم الحديث ، فكان معانى القرآن لا تسائر الزمن والعلم فحسب . بل إنها تظل كالكنوز الدفينة مخفية عن الأنظار . بعيدة عن الاستغلال يأتيها القادرون من بنى الإنسان فيعملون على استخلاصها واكتشافها والانتفاع بها . مثال ذلك هذه الآية التى تشير إلى أصل الإنسان وأنه خلق من علق « خلق الإنسان من علق<sup>(١)</sup> » .

فالعالم الإسلامى القديم كان لا يفهم من هذه الآية إلا ظاهرها اللفظى فيقول فى تفسيرها « العلق جمع علقه » ثم ينتقل سريعاً إلى غيرها من الآيات حتى إذا اكتشف الميكروسكوب فى عصرنا الحديث ، تبين لنا أن هذا الماء الذى ينتقل من الذكر إلى الأنثى والذى هو أصل الحياة البشرية ليس فى حقيقته إلا ملايين الملايين من الحيوانات المنوية الدقيقة التى تشبه العلق فى شكلها . وهكذا ينحل هذا السر الرائع الذى تنطوى عليه هذه الآية ، والذى لم يظهره ويطلعنا عليه إلا اكتشافات العلم الحديث .

وشبيه بهذه الآية آية فى نفس موضوع الحياة لم يدرك الأقدمون معناها على حقيقته فكانوا يفسرونها حسبما يتفق مع عقولهم وأفكارهم حتى إذا كان العلم الحديث جلاها لنا

(١) العلق ٢

وأظهر سرها ، وهى قول القرآن « وأرسلنا الرياح لواقح <sup>(١)</sup> » فما كان البشر يعرفون قبل عصور متأخرة جداً أن النبات كائن كالإنسان والحيوان وأنه يتألف من ذكر وأنثى وأنه يتلاقح كما يتلاقح بقية الأحياء ، وأن الرياح فى كثير من الأحيان هى واسطة هذا التلاقح .

وهكذا تشرق آيات القرآن وتنضئ بانعكاس أشعة العلم الحديث عليها .

### تنبؤات القرآن بالغيب :

وثمة خصوصية رابعة اختص بها القرآن من بين سائر الكتب التى يمكن أن توضع إلى جانبه وهى تنبؤاته بكثير من الحوادث الغيبية التى تقع فى المستقبل ، ثم جاءت الحوادث مصدقة لما يتنبأ به . وقد اعتاد الكتاب أن يشيروا فى هذا الموضوع إلى نبوءة القرآن الخاصة بانتصار الروم بعد هزيمتهم على أنها أظهر مثل لذلك ، ولكن الحق أن آيات القرآن تفيض بالإشارة إلى حوادث مختلفة صدقتها الأيام . ونضرب مثلاً لذلك سورة الذهب « تبّت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » فهذه الآيات من أول ما نطق به محمد صلوات الله وسلامه عليه من القرآن أى فى مستهل الدعوة المحمدية . وهى كما هو واضح تتضمن لعنة أبدية لرجل من رجال قريش ، ولقد رأينا فى تاريخ الدعوة المحمدية أن كثيراً ممن خاصموها وعاندوها وكانوا قساة على معتقبيها قد تحولوا فيما بعد إلى أشد الناس تطرفاً فى نصرتها واستحقوا بذلك العفو والمغفرة ، بل والثواب والمكافأة ، فإذا كان يصير الحال يا ترى 'وأنه قدر لأبى لهب أن يكون من بين هؤلاء الذين آمنوا بمحمد وصدقوا به وتحمسوا لنصرة الإسلام ، ولكن القرآن قضى على أبى لهب باللعة من بين سائر قريش فمات فى اللعة مذموماً مدحوراً .

« والله يعصمك من الناس <sup>(٢)</sup> » ووعد القرآن الرسول بأن الله سيعصمه من الناس فلا ينالونه بأذى أو بالأحرى أنه لن يموت قتيلاً بأيدى البشر ، فكان الذى وعده ، ومات محمد بن عبد الله عن ثلاث وستين سنة ، مات على فراشه وبين أهله على الرغم من المؤامرات التى حيكت لقتله واغتياله وعلى الرغم من هذه الثلاث والعشرين سنة التى قضاها فى كفاح وجهاد مستمر لم يضع فيها سلاحه يوماً واحداً .

(٢) المائدة ٦٧ .

(١) الحجر ٢٢ .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه <sup>(١)</sup> » ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون <sup>(٢)</sup> » .

وهكذا وعدت بعض الآيات يجمع القرآن وحفظه من التبديد والضياح ، فكان الذى وعدت به وتنبأت كما رأينا فيما سبق .

ووعد القرآن المجاهدين الأوائل بدخول مكة آمنين مطمئنين فاتحين متصرين ، وهى التى نصبت نفسها لحربهم وإهلاكهم وتطهير ظهر الأرض من إيمانهم ، وذلك فى قوله « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين . لتحلقن رؤوسكم ومقصرين لا تخافون <sup>(٣)</sup> » فكان الذى وعد به القرآن وتنبأ ، ودخل المسلمون مكة معتمرين حاجين ، ثم دخلوها بعد ذلك فاتحين ، وتمت بذلك كلمة ربك صدقاً وعدلاً .

وفى العام العاشر للهجرة تلا الرسول على المسلمين فى حجة الوداع آخر آيات القرآن « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً <sup>(٤)</sup> » . فكانت هذه الآية نبوءة بانتهاء رسالة محمد ، فلم ينقض العام حتى كان الرسول يغادر هذه الحياة الدنيا ليلحق بالرفيق الأعلى راضياً مرضياً ، بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة .

ووعد القرآن المسلمين عامة فى حياة محمد وبعد موته أن يستخلفهم فى الأرض ويحعلهم أئمة البشر ، ويحعلهم الوارثين « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً <sup>(٥)</sup> » .

وقد صدق القرآن وعده وتمت نبوءته ، فكان العرب هم خلفاء الأرض ، وحكمت فئة قليلة منهم شعوب ذلك الزمان .

وأخيراً وليس آخراً أنبأ القرآن بكل هذا التطور العلمى العجيب الذى يغمر الإنسانية ويقربها فى كل يوم إلى إدراك سر الوجود والإيمان بحقيقة الخلق والخالق فقال وهو أصدق القائلين .

(٤) المائدة ٣ .

(٥) النور ٥٥ .

(١) القيامة ١٦ . ١٧ .

(٢) الحجر ٩ .

(٣) الفتح ٢٧ .

«سنزيم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد . ألا إنهم فى مرة من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شئ محيط <sup>(١)</sup> » .  
وحسبنا هذا القدر إشارة لما تتضمنه آيات القرآن من إعلام بالغيب والمستقبل وما تنبأت به من حوادث وتحولات لم تلبث أن صدقتها صروف الزمان .

### ثبوت الوحي المحمدى :

وهكذا نرى أنفسنا مضطرين على أى ناحية تصدينا فيها لدراسة الوحي المحمدى إلى الإيمان به والتصديق بحقيقته ، سواء اتخذنا شخصية الرسول وتاريخ حياته وتطوراته وما أحدثه فى الكون من تأثير سبيلاً للاقتناع ، أو اتخذنا نص القرآن وتحليل عباراته والوقوف على خصائصه ، طريقاً للتصديق والإيمان .

والحق أنه ما كان لمحمد العربى الذى يجهل القراءة والكتابة <sup>(٢)</sup> المترعرع بين شعب أمى جاهل ، مجرد عن كل حضارة أو مدنية وبعيد عن كل اشتغال بالعلوم والتأليف ، ما كان لمحمد وهذه نشأته أن يتدع هذا الكتاب الذى حوى هذه الخصائص كلها ، والذى تنبأ بالغيب وسائر الزمن ووقف فى وجه التطورات العلمية وأحاطه البشر بالتقديس والتكريم .  
ما كان لمحمد العربى الفقير اليتيم أن يحدث فى الدنيا كل هذا التأثير عن طريق هذا الكتاب العجيب ، إلا أن تكون روحه قد استضاءت بنور من هذه المشكاة الأزلية التى أشرقت على الأكوان بيائها وأبدعت هذا الخلق بمحض إرادتها .

لا مناص ولا جدال ولا مراء أو تشكك فى أن محمداً كان صادقاً أميناً فيما يقوله عن نفسه ويعلنه من أنه لا ينطق عن الهوى ، وإنما هو وحي يوحى ، علمه شديد القوى .

### حقيقة الوحي :

بقى علينا أن نتساءل عن علة هذا التشكك الذى يساور بعض المنكرين ولا يزال يساورهم إذا ما أشير أمامهم إلى هذا الوحي الذى تقطع كل الآثار المادية بضرورة وجوده .

(١) فصلت ٥٣ - ٥٤ .

(٢) حاول البعض أن يفسر كلمة الأمى على غير المقصود منها مع أنها لا تحتل أكثر من عدم معرفة القراءة والكتابة .

أعتقد أنه ليس هناك ما يثير التشكك في حقيقة الوحي إلا هذه الصور المادية التي يحاول البعض أن يصور بها الوحي من أنه جسم معين على صورة من الصور ، له أجنحة يطير بها وله أيد وله أقدام وحوافر ، فكان من الطبيعي أن ينكر العقل الحديث مثل هذه التصورات ، كما أنكر في نفس الوقت كل فكرة تتحدث عن تجسد الإله وحلوله في أي شكل من الأشكال المادية ، وأحسب أنه ليس هناك ما يدعو مطلقاً إلى الحرص على تصوير الوحي بهذه الصورة المادية المزعومة ، فلا آيات القرآن الكريم ولا الأحاديث الصحيحة التي تصور الوحي صورة مخصوصة ، وكل النصوص تقف عند حد تقرير وجوده دون التعرض لتفاصيل صورته أو حقيقته .

من الثابت حقاً أن الرسول الكريم قد رأى في مستهل الدعوة صورة معينة أيقن يقيناً جازماً أنها صورة ملاك الرب ، ولكنه لم يفصل لنا هذه الصورة ، وقد أكد القرآن يقينه ودل عليه في قوله «ولقد رآه بالأفق المبين»<sup>(١)</sup> وأشار أكثر من حديث إلى هذه الواقعة ، فوجب الإيمان بصحتها والتصديق بها ، ولكن القرآن الكريم كله والأحاديث في مجموعها قد خلت بعد ذلك من الإشارة إلى الوحي إلا باعتباره حالة روحية معينة تتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أو بالأحرى تغمر قلبه بفيض من النور والعرفان ، أو كما يقول القرآن «وإنه لتنزِيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين»<sup>(٢)</sup> . ولقد تكررت الإشارة في القرآن أكثر من مرة إلى أن قلب الرسول هو مهبط الوحي ومستقره .

وثمة آية أخرى فصلت من أمر الوحي ما أجملته بقية الآيات ، وهي ما جاءت في ختام سورة الشورى «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم - وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم» .

ولعل هذه الإشارة هي أطول حديث ورد في القرآن عن حقيقة الوحي وهي قاطعة في أن هذا الوحي ليس إلا روحاً من أمر الله لا شكل لها ولا حجم ولا وزن ، وإنما هي

(٢) الشعراء ١٩٣ - ١٩٥ .

(١) التكوين ٢٣ .



حالة من الحالات لا يستطيع العقل أن ينفذ إلى كنهها ، فهي كالحياة والموت ، أو هي الروح التي يقطع العقل البشرى بوجودها ، إذ يرى آثارها في نفسه ككائن حي ، ويرى آثارها في كل الأحياء التي تحيط به ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك من أمر هذه الروح إلا أنها موجودة . وهذا هو الوحي ، فهو موجود لا سبيل إلى إنكاره ، وهذه هي آثاره ، ولكن من العبث التعرض لكنهه ومحاولة إدراك جوهره عن طريق الخواس لمس وشم وسمع وبصر .

### الوحي ذروة الإلهام :

وأحسب أن تصور الوحي في نهاية الأمر على أنه تلقى للعلوم والمعارف وإدراك حقائق الكون والاتصال بسره عن غير طريق التحصيل العقلي . ولكن عن طريق الإعلام الخفي من قوة علوية . يؤمن الموحى إليه أنها قوة الخالق لهذا الكون المهيمن عليه . أحسب أن هذا التصور ليس بالمشكلة التي يستعصى على العقل حلها وليس بالقول الذي لا يستطيع هضمه واستساغته . فمن الواضح المتفق عليه أن جميع العلوم والمعارف قد نفذت إلى العقل أول ما نفذت عن طريق قوة مغايرة لقوة التفكير الذي يعمل وفق قواعد معينة وضوابط مقررة وهي قوة الإلهام ، فعن طريق الإلهام الخفي لا العقل من غير شك نطق الإنسان أول ما نطق باللغات وأرسل عقيرته بالغناء ونظم الشعر ورسم وبني وشيد . وليس أدل على ذلك من أن العربي الجاهل قد قال الشعر قبل أن يعرف عن طريق العقل أن للشعر أوزاناً وقوافي . ونطق باللغة العربية الفصحى قبل أن يعرف عن طريق العقل أن للكلام إعراباً ونحواً وصرفاً . وبني الإنسان ونقش على الصخر قبل أن يضع لذلك كله قواعد ونظريات . وأشعل النيران وزرع الأرض وزاول كل مظاهر الحضارة قبل أن يستنتج بعقله الأصول والقواعد التي تقوم عليها هذه المظاهر . فالإنسان قد فعل دائماً الشيء قبل أن يدرك كنهه ما فعل . ولا مراء في أن الخاطر الأول الصحيح الذي يرد على عقل الإنسان قد انعكس على صفحته من قوة خارجة عن نطاقه . وهو ما اتفق العلماء على تسميته بالإلهام . وهو أمر شائع ومعروف ومألوف وما من شخص معنى بأمر من الأمر أو مشغول بجل مسألة من المسائل أو مزاول لعمل أو فن من الفنون إلا وهو يحس آثار الإلهام في عمله أو في فنه على اختلاف وتفاوت في مراتب الناس واستعدادهم الروحي والنفسي . فالشاعر العبقري لا يكاد يشرع في نظم قصيدة من قصائده حتى يرى المعاني والألفاظ تواتيه في سهولة عجيبة تسرع على لسانه أو قلمه بأسرع من ورودها على

خاطره . حتى إذا فرغ من نظم قصيدته كان هو أول الناس إعجاباً بما قال أو كتب وأكثر الناس تعجباً لاستطاعته إنتاج ما أنتج مما جعل الأقدمين يتصورون أنه لا بد أن يكون للشعر آلهة أو شياطين من الجن توحى إلى الشعراء أشعارهم . وقل مثل ذلك عن الموسيقيين وهم يؤلفون بين هذه النغمات والأصوات ليخرجوا على الناس بقطعة فريدة ، فقد يقف الإنسان وهو يترنح من النشوة مذهولاً مشدوهاً لا يدري بأى قوة تألفت هذه النغمات ومن أى معين تدفقت هذه الأصوات . وبنفس الشعور يطالع الإنسان روائع الأدب ويتأمل آثار الفنانين العظام من صور وتماثيل . وإذا كان الإلهام فى دائرة الفنون ظاهر الأثر كل الظهور فهو فى دائرة العلوم والاكتشافات لا يقل ظهوراً ؟ فما من عالم من العلماء الفطاحل أو مكتشف من المكتشفين أو مخترع من المخترعين إلا وهو يعزو اختراعه أو اكتشافه إلى خاطرة مرت بذهنه . فكانت هى الشرارة التى استضاء بها عقله . فكان اختراعه أو اكتشافه . وما هذا الخاطر أو الفكرة الطارئة إلا الإلهام . ولذلك فإن جهابذة العلماء جميعاً يؤمنون بالإلهام ويعترفون بسلطانه .

وإذا كنا جميعاً نبادر إلى تصديق الشاعر والكاتب والموسيقى والعالم وهو يحدثنا عن استلهامه ما قال أو فعل ، فلا يحق لنا أن نمارى أو نتشكك لحظة فيما يقوله النبى عن نفسه من أنه يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بقوة الوحي الخفى ، ونحن نرى آثار هذا الوحي تقطع بأنها فوق مستوى البشر الملهمين فضلاً عن البشر العاديين .

### ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات :

وما دام التحليل العلمى والمنطقى انتهى بنا إلى وجوب الإيمان والتصديق بالوحي المحمدى ، فإن هذا يضطرنا إلى الإيمان والتسليم بالنبوات بصفة عامة على أنها حالة روحية معينة يتلقى فيها النبى وحياً من لدن قوة خفية ، يتأكد لديه أنها قوة الخالق ، فينطلق فى الحياة متأثراً بتعاليم هذا الوحي داغياً الناس إلى اتباع هذه التعاليم السماوية ، التى تلخص دائماً أبداً فى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما يستدعيه ذلك من حساب وعقاب وثواب جزاء على ما آتاه الإنسان من صالح الأعمال فى هذه الحياة الدنيا وما اقترفه من آثام وسيئات .

فإذا تأكد لدينا أن شخصاً من الأشخاص دعا إلى جوهر هذه التعاليم ، وكانت حياته وسيرته فى الناس على درجة رفيعة من الكمال الروحي والخالقى ، وأنه أعلن عن

نفسه أنه نبي ورسول من رب العالمين ، ولم تلبث الحوادث أن صدقته بما أحرز من نجاح لدعوته وانتشار لسلطانه الروحي وخلود لتعاليمه ، فقد وجب التصديق بنبوة هذا الشخص ورسالته وتلقيه الوحي من رب العالمين .

وقد انفرد القرآن الكريم من بين سائر الكتب الدينية الموجودة بين أيدي البشر بتقرير هذه الحقيقة فحث أتباعه بل حتم عليهم أن يؤمنوا بالرسول جميعاً بصفة عامة وأن لا يفرقوا بين أحد منهم وأن يؤمنوا بأنهم قد استمدوا أنوارهم من مشكاة واحدة ، وليس لهؤلاء الرسل زمان أو مكان معين ، وإنما قد وجدوا في سائر المجتمعات على اختلاف العصور « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير <sup>(١)</sup> » وأن البعض منهم مشهور ومعروف والبعض منهم قد انقضت ذكره بانقضاء رسالته ، والبعض منهم ذكره القرآن وأحصاه ، والبعض منهم لم يذكره القرآن بصريح اللفظ وإن كان قد أشار إليه على سبيل التضمنين « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً <sup>(٢)</sup> » .

### علم الأديان المقارن ووجوبه :

على أن الرسل وإن اتفقوا جميعاً في جوهر رسالتهم ، على أنهم يدعون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وصلاح الأعمال ، فما لا شك فيه أنهم اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كبيراً في التفاصيل تبعاً لتباين البيئات واختلاف الزمن والمهمة التي تصدى كل رسول منهم لعلاجها ، فالرسول الذي يبعث إلى بني إسرائيل الذين عبدوا الذهب وقصدوا المال ولخصوا الحياة في جمع المال واكتناز الذهب ، لا بد وأن تفتقر تعاليمه كل الافتراق عن رسول جاء وسط بيئة فقيرة ليس فيها من يمتلك ذهباً ولا فضة ، وقد يكون الفقر والكسل والقعود عن الكسب والسعي هو آفتهم الكبرى . ومن هنا كان لا بد لكل عصر ولكل بيئة من رسالة تتناسب مع الظروف ، وتتمشى مع تطورات الزمن وما انتهى إليه

(١) فاطر ٢٤ .

(٢) النساء ١٦٣ - ١٦٥ .

المجتمع من رشد واكتمال . ولقد رأينا في الاستعراض السابق لتطور الأديان كيف تدرجت من العقائد الساذجة المحلية المستمدة من ظروف كل بيئة إلى أن أصبحت عقائد عالمية واسعة الأفق شاملة التطبيق . هذا التطور والتدرج ينطبق كل الانطباق كذلك على جماعة الأنبياء والمرسلين ، فنلاحظ تطوراً مستمرا في تعاليمهم بحيث يتفوق المتأخر دائماً عن السابق . وقد ألع القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس <sup>(١)</sup> » هذه الدرجات في الحقيقة لا تتصل بشخصياتهم التي يجب اعتبارها في مرتبة واحدة ، وإنما تتعلق بموضوع رسالتهم وخصوصيتها أو عموميتها ... وتقدمها أو تأخرها . ومن المقطوع به والمقرر أن اللاحق ينسخ السابق وليس العكس ، ومن هنا جاء التفاوت في مراتب الرسل أو بالأحرى في تعاليم الرسل .

#### اختر لنفسك :

والإنسان مع إيمانه بالرسول بصفة عامة مطالب أن يتحرى لنفسه من بين التعاليم المنسوبة إليهم ما يرتاح إليه عقله وضميره ، وما يتفق مع مقتضيات عصره وحياة جيله . وهذا من شأنه أن يفتح باب المقارنة بين الأديان على مصراعيه . وهو أمر واجب ولازم وخاصة في عصرنا الحديث ، بعد أن تيسرت أسباب هذه المقارنة ، واتصل الشرق بالغرب وتقاربت الأمم والشعوب . وسهل الاتصال بين أى جماعة وأخرى . حتى لبوشك العالم بسائر أطرافه أن يصبح أمة واحدة . فصار لازماً على كل متحضر ومتقف ومتعلم أن يختار لنفسه من بين هذه التعاليم المتعددة هنا وهناك ما يراه أكثر صواباً وإحكاماً وتحقيقاً لصلاح الإنسان وكماله .

ولقد راح الوقت الذى كانت تنطوى فيه كل جماعة على ما عندها من أفكار وعلوم وأديان فتتكرر كل ما يخالفها . وتعادى كل ما خرج عن دائرة معارفها . وجاءت الساعة التى يصبح فيها البشر أمة واحدة تؤمن بإله واحد . وتخضع لتعاليم مشتركة . وتتفق على مبادئ مقررّة . وتلك هى رسالة الإسلام آخر الرسالات طرا وأوسعها مدى وأشملها تطبيقاً .

(١) البقرة ٢٥٣ .

## الفصل السابع

### الإسلام وسائر الأديان

الإسلام وتفوقه على سائر الأديان - انتشار  
الإسلام في العصر الحديث - انتشار تعاليم  
الإسلام - التوحيد المطلق - التوحيد في اليهودية -  
التوحيد في الديانة المسيحية - آلهة ثلاثة أم أقانيم  
ثلاثة - إلغاؤه الكنيسة والمعبود وطبقة الكهنة -  
المسجد ليس كنيسة - الإسلام دين الأخوة  
العالمية - رسائل محمد إلى الملوك والقيصرة -  
الإسلام يؤاخي بين الأديان ويوفق بينها - الإيمان  
والعمل الصالح - الإسلام يحتفظ بحق الهيمنة -  
التكافل الاجتماعي في الإسلام

#### الإسلام وتفوقه على سائر الأديان :

لا يكاد الباحث المدقق يقارن بين الأديان العالمية المختلفة والمشهورة في الوقت الحاضر  
وعلى رأسها اليهودية والمسيحية والبوذية والبرهمية والكونفوشيوسية والإسلام ، حتى يقطع  
بتفوق التعاليم الإسلامية على غيرها من التعاليم ولا يستطيع أن يحبس إعجابه بهذا الدين  
العظيم الذي تدل كل الدلائل على أنه الدين الحى الذى يوشك أن يغمر العالمين بمبادئه .

#### انتشار الإسلام في العصر الحديث :

لقد ذهب العرب وانقضت أيامهم وزال سلطان المسلمين من الدنيا ، ومع ذلك  
فلا يزال علم الإسلام خفاقاً ، بل لا يزال يغزو في كل يوم قلوباً جديدة ، وينفذ إلى  
بيئات جديدة . وحسب الإنسان أن يطالع تقارير المبشرين المسيحيين عن مدى انتشار  
الإسلام في أفريقيا والهند ، بالرغم من كل الجهود التى تبذل للحيلولة دون ذلك ، لكنى  
يؤمن بقوة الإسلام وتعاليمه ، ففي كل يوم يدخل في الإسلام مئات بل ألوف في الهند

الإنجليزية<sup>(١)</sup> ، ولن تجد مسلماً واحداً ينسلخ عن دينه ليعتنق البوذية أو البرهمية أو المسيحية الحاكمة . وما يحدث في الهند يحدث مثله في الصين ، وفي جزر الهند الشرقية ، وفي كل بلد يرفع فيها لواء الإسلام .

وقد يقول قائل إن انتشار الإسلام قاصر على الأمم الشرقية القديمة المغلوبة على أمرها ، ولكن المشاهد أن الإسلام يشق طريقه في قلب أوروبا وأمريكا المسيحية ذاتها<sup>(٢)</sup> ، على الرغم من غلبتها على المسلمين ، وانتشارها في عالم القوة والسلاح . ففي إنجلترا مثل ما في ألمانيا وفرنسا وسويسرا ، بضع مئات من الأوروبيين الذين دخلوا حظيرة الإسلام بعد دراسة واقتناع ، وقد يبدو هذا العدد قليلاً أو ضئيلاً ولكنك لن تستطيع أن تعثر على عدد يماثله ممن تركوا الإسلام ليعتنقوا المسيحية مهما كانت المغريات والدوافع . على أن الإسلام وإن لم يظفر إلا بعدد محدود من الأوروبيين يعتقدون الإسلام ويشهرون إسلامهم ، فهو قد ظفر بما لا شك فيه بإعجاب جل العلماء من المستشرقين الذين قصدوا الدراسة ، والذين ألفوا الكتب الطوال في محاسن الإسلام ونبي المسلمين وروعة تعاليمه ، حتى أصبحنا نحن المسلمين نغترف من هذه الكتب ما يضاعف إيماننا بديننا ، وما يؤكد حبنا وتعظيمنا لنبينا . وليس وراء ذلك دليل على انتصار الإسلام في ظل العلم والحضارة .

### انتشار تعاليم الإسلام :

على أن انتصار الإسلام الأعظم يتجلى في انتشار مبادئه وتعاليمه وسط العالم المتحضر وإن أنكروا أو جهلوا أن ما يطبقونه هو تعاليم الإسلام بنصها ، فالتشريعات الوضعية في أوروبا وأمريكا في هذه الأيام بقدر ما تخالف التعاليم المسيحية كل المخالفة على قدر ما تنطبق على تعاليم الإسلام حرفياً<sup>(٣)</sup> . وهكذا نرى الإسلام يشق طريقه على الرغم من الصور المشوهة التي بات المسلمون يعطونها عن الإسلام ، وليس وراء ذلك دليل على صلاحيته الكاملة المطلقة وتفوقه على سائر الأديان التي تنكش وتتقلص على مر الزمن

(١) لا تزال هذه الظاهرة سائدة حتى اليوم (١٩٦٤) - بعد أن استقلت الهند والبلاد الإفريقية « المؤلف » .  
(٢) أذاعت شركات الأنباء العالمية على ما جاء في جريدة الأهرام يوم الجمعة ١٩٦٤/٢/٢٨ نبأ إسلام « كلاسيوس كلاي » بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل . وقد فعل ذلك غداة انتصاره العظيم على بطل العالم السابق « ليستون » معلناً في أمريكا أن الإسلام هو دين السلام والأخوة البشرية .  
(٣) كما في تشريع الطلاق المحظور في المسيحية - والذي يميزه الإسلام .

ونحت تأثير انتشار العلم والحضارة وتطور البشرية . ولنتقل الآن إلى دراسة خصائص الإسلام التي ضمنت له هذا التفوق على بقية الأديان وستضمنه له إلى أبد الآبدين .

### التوحيد المطلق :

فأما أول هذه الخصائص التي يمتاز بها الإسلام فهي دعوته الصريحة الناصعة القوية إلى التوحيد الكامل المطلق ، بما يتفق والتفكير السليم الناضج في ذات الله الخالق . فالله في تعاليم الإسلام منزّه عن كل صورة وشبيه . منزّه عن الحلول في مخلوقاته ، منزّه عن أن يُرى فضلاً عن أن يُلمس . الله ليس له أول ، وليس له آخر . وليس له قرين أو شريك . الله واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . الله هو الكمال المطلق ، المرید الفعّال ؛ بغير حركة أو انفعال ، هو الخالق البارئ المصور ، هو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، هو سبب الكون الأول وهو سره وهو روحه وهو سيده ومدبره ، دون أن يستطيع العقل البشري أن يدرك كنهه أو أن يتصوره على أى صورة من الصور ، لأنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير .

وهكذا ارتفع الإسلام أو بالأحرى محمد بن عبد الله بالألوهية إلى درجة لم يسبقه إليها إنسان من حيث الكمال والتوحيد والتزّيه . وأعلن حرباً شعواء على الشرك بالله ومظاهره من تماثيل ونصب وهياكل وأحبار وطقوس ومراسيم . فهدمت الأوثان . وطمست الصور . وحرر العقل البشري من ربة الذل والاستعباد والأوهام والخرافات . وارتفعت الكرامة البشرية عن أن تسجد لحجر أو شجر أو حيوان أو صنم من الأصنام أو إنسان من الناس . ونجح الإسلام فيما فشلت فيه سائر الأديان فتطهرت بلاد المسلمين من عبادة الصور والأوثان فلا تسجد الجبابه إلا للحي القيوم الذي لا صورة له ولا مكان ، ولا ترتفع الصلوات إلا لله العلى القدير المهيمن على الأرض والسموات . ولم يستطع دين من الأديان أن يتطهر من شوائب الوثنية كما فعل الإسلام ، وهذه هي الكنائس المسيحية الكاثوليكية في عهد النور والعرفان تغص بالصور والتماثيل والأنصاب التي يسجد لها المسيحيون . إيماناً منهم أنهم يسجدون لصورة الله الحى في شكل هذا الإنسان المعلق على الصليب والمضرج بدمائه . أو هذا القديس الطويل اللحية الأحمر الخدين ، وإذا كانت الكنائس الشرقية قد سلمت من هذا اللون من الوثنية فليس ذلك إلا تحت تأثير البيئة الإسلامية والتعاليم الإسلامية .

أما الحال في هياكل البوذيين والبراهمة وأصحاب الديانات الأخرى فحدث عنها ولا حرج . فهي الوثنية في مراحلها الأولى الساذجة . ولن نجد غير الإسلام ديناً لا يعتمد على الميكل ولا يعبد الرب أمام نصب من الأنصاب وإنما الدنيا كلها مسجد ومعبد لعبادة الله « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » . حيثما أدركت الإنسان الصلاة فليصل . فصلاته ترتفع على الفور إلى الخالق الديان . - وليس هذا كله إلا أثراً من آثار عقيدة التوحيد الصافية وتنزيه الربوبية عن التشبيه والتجسيد والحلول . وفي هذه الناحية يرتفع الإسلام درجات ودرجات فوق أي دين آخر . حتى من الأديان التي دعت إلى التوحيد مثل دعوته .

### التوحيد في اليهودية :

فاليهودية مثلاً لا تعترف إلا بآله واحد فهي والإسلام سواء . ولكن هذا الرب الواحد لا يختلف في قليل أو كثير عن أي رب من أرباب الجماعات القديمة ، فهو كأرباب الإغريق أو الرومان أو المصريين القدماء ، الذين ينزلون إلى الأرض ، ويتجسدون في صورة إنسان ، ويخالطون البشر ويتعاملون معهم ، ويصارعون الإنسان ويصارعهم . وقد يتغلبون على الإنسان أو لا يتغلبون . وقد ورد في التوراة نص صريح على أن يعقوب تصارع مع الله فلم يستطع الله سبحانه وتعالى أن يصصره ومع هذا فقد سماه الله إسرائيل بدلاً من يعقوب إشارة إلى أنه جاهد مع الله والناس<sup>(١)</sup> . وتصور التوراة الرب بشراً سوياً بكل العواطف البشرية بل والنقائص البشرية أيضاً فهو يخطئ وهو يندم وهو يتعثر وهو ينجل ويتأسف ، وهو في نهاية الأمر يحتاج إلى الإنسان كمحاجة الإنسان إليه . وتحدث التوراة عن الله واصفة إياه بأنه رب الجنود الذي يقود جيوش بني إسرائيل إلى النصر وأنه قد اعتاد دائماً أن يسير في مقدمة جيوشهم . وقد تطورت هذه الأفكار مع الزمن

---

(١) الإصحاح الثاني والثلاثون تكوين . « فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلع الفجر ولم رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حتى فخذته فالتجلى حتى فخذ يعقوب في مصارعة معه وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت .

وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فتوثيل قائلاً لأنني نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسي . وأشرقت له الشمس إذ عبر فتوثيل وهو يجمع على فخذته لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حتى الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حتى فخذ يعقوب على عرق النسا .



وأصبحت الأجزاء المتأخرة من العهد القديم تتحدث عن ذات الله في صورة أقرب إلى التنزيه والكمال ، ومع ذلك فقد ظلت الفكرة السائدة على التوراة أن الله هو رب بنى إسرائيل ، وأنهم شعبه المختار المفضل من بين سائر العالمين ، وأن العلاقة التي تربط بنى إسرائيل بالله سبحانه وتعالى هي هذا العقد الذى أبرمه مع جددهم الأول إبراهيم فى أن يعبدوا الله ويكونوا له شعباً مختاراً وفى مقابل ذلك يسكنهم أرض الميعاد « التى هى فلسطين » ويجعل بلادهم تفيض بالسمن والعسل .

وها نحن أولاء نرى حتى فى أيامنا الحديثة أن الصهيونية تطالب بأن تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود بعد أن تنزعها من أصحابها العرب الذين سكنوها ألوف السنين ، وليس لليهود من سند يدعمون به طلبهم الجرى ، إلا هذا العقد المزعوم الذى تم بين جددهم وبين الله سبحانه وتعالى (١) .

وغنى عن البيان أن ذلك كله ليس إلا أثراً من آثار المعانى الوثنية التى لا تزال عالقة بديانة اليهود المعتمدة على التوراة القديمة المشوبة بهذه الشوائب التى أشرنا إليها فيما سبق . وعلى ذلك فاليهودية لا تستطيع أن تجارى الإسلام فى نظرية التوحيد وتنزيه الله عن كل تشبيه وتجسيد .

### التوحيد فى الديانة المسيحية :

وما يقال عن التوحيد وما يشوبه من شوائب فى الديانة اليهودية ، يقال كذلك عن الديانة المسيحية فنحن نصطدم على الفور بمجرد اقترابنا من الدين المسيحى بهذا الإنسان المعلق على الصليب ، والدماء تنزف من جراحاته ، والألم مرسوم على وجهه ، وإكليل الشوك يزين رأسه وأنت مطالب فى العقيدة المسيحية بأن تؤمن أن هذه الصورة هى صورة الله الحى بذاته وأن تركع لها وتكون من الساجدين ..

ولقد أثارت فكرة حلول الله فى جسد المسيح عيسى ابن مريم عدة مشكلات أساسية فى التعاليم المسيحية الأولى ، وسالت من أجلها أنهار من الدماء وافترقت الأمة المسيحية فرقتين كل منها تسعى لإفناء الأخرى . ويدور هذا الخلاف حول طبيعة جسد المسيح البشرى الذى تجلى به على البشر وهل كان جسداً كبقية الأجساد ، يفنى ويتعفن بعد رفع

(١) أقام اليهود دولة إسرائيل بالفعل كما هو معروف . تأسيساً على هذه الفكرة غير المقبولة .

المسيح إلى السماء . أم أنه كان صورة إلهية بختة لا تدب إليها غمامة البلى والفساد .  
وبعبارة أخرى هل كان عيسى ابن مريم وهو يسير بين الناس . هو الرب وقد ابتدئ ثوب  
إنسان وعلى ذلك تكون له طبيعتان . طبيعة الرب من حيث الجاهم . وطبيعة الإنسان  
من حيث المظهر . أم أن عيسى ابن مريم وهو يسير بين الناس كان يتألف من طبيعة  
واحدة هي طبيعة الله ؟ ولقد استغرقت هذه المباحث والخلافات جهود المسيحيين الأول  
وأوقعوا بأنفسهم من المذابح من جراء هذا الخلاف ما يتضاءل إلى جماد كحل ما أوقعه  
بهم الوثنيون من المذابح والاضطهادات .

### آلهة ثلاثة أم أقانيم ثلاثة

على أن طبيعة المسيح . ونظرية اللاهوت والناسوت . لم تكن هي كل الصعوبة التي  
اعترضت العقيدة المسيحية . بل إن صعوبة التثليث لم تكن تقل عنها خطراً واحدة .  
وما تزال حتى اليوم ما يحمل المسيحيين المتعلمين على الانسلاخ من العقيدة المسيحية .

بدأ تلاميذ المسيح . وبصفة خاصة بولس الرسول يشبه بالمسيح باعتباره ابن الرب .  
وبالأب باعتباره الرب الأكبر . وبروح القدس ربا ثالثا . ولم تكن هذه التعاليم إلا أثراً  
من آثار العقائد الدينية القديمة التي كانت تسود الدنيا في ذلك التاريخ من غير شك .  
وأشهرها ثلوث مصر إيزيس وأوزوريس وحوريس . وقد جرت الخلافات بين المسيحيين  
الأوائل في درجة الآلهة الثلاثة . وهل هم متساوون كل المساواة أم أنه ينبغي تقديم الأب  
على الابن باعتباره الأصل الأول . وتقديم الابن على روح القدس ؟

ولقد كانت منازعات . وكانت معارك . انتهت إلى تقرير المساواة التامة المتعلقة  
للأب والابن وروح القدس .

ومن هنا وجد المسيحيون أنفسهم إزاء مشكلة تعدد الآلهة وهو ما جاءت المسيحية  
بالمذات للقضاء عليه . فانتهى الأمر بهم إلى القبول بأن الأب والابن وروح القدس ليسوا  
إلا أقانيم ثلاثة لإله واحد ، أو بالأحرى ليسوا إلا ثلاث معان لحقيقة واحدة . كما  
لو قلت الشمس ، ونور الشمس ، وقرص الشمس . وكان المنطلق يقضى - وقد وصل  
المسيحيون إلى هذا الحد من التسليم بأن الأقانيم الثلاثة ليست إلا أسماء مختلفة لله الواحد  
الأحد - أن يكفوا عن الإشارة إلى هذا التثليث الذي لا يزال يبلبل الخواطر ويعير  
العقول .

فأين هذا من بساطة العقيدة الإسلامية ونصاعة التوحيد الإسلامى . والذي يجعل وحدانية الله فوق كل شك وكل ريبة ويجعلها صارمة ناصعة لا تختمل تأويلاً ولا تحريفاً . فالله هم القوة الخالقة المبدعة المهيمنة . هو السبب الأول وقد جل عن أن يكون له ابن أو ولد . جل عن أن يكون شبيهاً بشئ من مخلوقاته . جل عن أن تدركه العيون والأبصار . فهو الكائن في كل مكان وغير الموجود في أى مكان . هو اللامتناهى . وهو المخلق .

وإذا كانت الديانة المسيحية، واليهودية ، وهى الديانات السماوية لا تستطيع أن تقدم للبشر توحيداً صافياً كما يقدمه الإسلام ، فمن نافلة القول أن نتحدث عن بقية الأديان الأخرى الأكثر رجعية من المسيحية أو اليهودية .

وقد تكون الديانة البرهمية قد وصلت إلى صورة كاملة من التوحيد المطلق في بعض نصوصها . ولكن هذه النصوص الخاصة بالوحدانية تكاد تغرق وسط طوفان من النصوص الأخرى . التى تتحدث عن ألوف الآلهة المؤلفة . وتضيق وسط الطقوس والضياع وسلطان الكهان . وهذا يجزنا إلى التحدث عن ميزة الإسلام الثانية .

#### الغاؤه الكنيسة والمعبود وطبقة الكهان :

إذا كان الإسلام قد رفع لواء التوحيد عالياً شاهقاً ، فقد تضافت كل تعاليمه على صيانة هذه العقيدة الباذخة ، فجاء الدنيا بأعظم إصلاح طالما تلهف عليه البشر ، وهو تحريرهم من ربقة العبودية لرجال الدين وأئمة الكنيسة ، أو بالأحرى طائفة الكهنة وذلك بأن قضى الإسلام على الهيكل وضرورته لممارسة الشعائر الدينية . وجعل العبادة ضرباً من ضروب الفكر والتأدب والتخلق بالأخلاق الحسنة وإحسان المعاملة . وأبعد عنها كل الطقوس والتأويل التى لم يخل منها دين من الأديان ، التى خلقت سلطان الكهنة وزودتهم بهذا السلاح الباطش سلاح التوسط بين الرب والعباد ، فإن شاءوا حججوا الله عن الناس . وإن شاءوا وصلوا بينهم وبينه . فقد اعتمدت كل الأديان القديمة كما قدمنا على الهيكل أو بيت الرب ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتصور الرب صنماً من الأصنام ، أو لتصور الرب ينزل في مخلوق من مخلوقاته . ولما كان هذا الهيكل كائناً ما كان في حاجة إلى من يقوم بأمرة من صيانة وتنظيف وتقديم القرابين والضحايا ، فقد نشأت على التوالى هذه الطائفة طائفة الكهنة ، الذين بدأوا كخدام للآلهة ، ثم تطوروا بحيث أصبحوا وزراء للآلهة وأعواناً لهم يصرفون معهم الأمور ، وتعمل الآلهة على إرضائهم . فلا عجب

أن تحول الكهنة إلى طائفة مقدسة يقبضون على مصائر البشر . فتقرب لهم الناس ليتقربوا إلى الآلهة . وجاهدوا للحصول على رضائهم لإرضاء الآلهة والويل كل الويل لمن فقد عطف الكهنة واستحق غضبهم . فإن الآلهة لا تلبث أن تصب جام غضبها ولعنتها عليه . هذه السيطرة الكهنوتية هي طابع الأديان القديمة كلها فيما خلا الدين الكونفوشيوسى<sup>(١)</sup> . وهى من أعظم الآفات التى أفقدت الناس فى ألوف من السنين الكثير من حريتها . وجعلت منهم خدماً وعبداً لشهوات رجال الدين ونزواتهم وتحكماتهم . وحديث رجال الكهنوت المسيحيين فى العالم إبان العصور الوسطى . يمكن أن يكون خير نموذج يساق لهذا الجو من الإرهاب الذى يسلطه رجال الكهنوت على الناس . لقد بلغ الأمر بالبابا رئيس الكنيسة أن يصبح أعظم رجل فى أوروبا . وحتم على الملوك والأباطرة أن تعبر لجأه وسلطانه . وحديث «إذلال كانوسا» مشهور ومعروف حيث سار إمبراطور ألمانيا حافياً على قدميه من قاعدة ملكه فى ألمانيا إلى مقر البابا فى إيطاليا . وظل واقفاً على بابه طوال أيام وأسابيع وهو معفر الوجه حافى القدمين مرتد ملابس التوبة . وكل ذلك ليأذن له البابا بالثول بين يديه ويمنحه الغفران . ولكن البابا مع ذلك كله لم يفعل . ولقد كان البابا يصدر قرارات الحرمان من ملكوت السماء على بلاد بأكملها . فيتوقف القسس على الفور فى هذه البلدان على القيام بشعائر الدين . فلا يعمدون الأطفال . وبالتالى لا يدخلون فى حظيرة المسيحية ولا يعقدون زواجا ، فيعيش الناس فى إثم الجريمة . ولا يصلون على ميت . فلا يؤذن له بدخول النعيم . بل يكون مثواه النار . ولعل حديث صكوك الغفران وبيعها للناس ليدخلوا بها الجنة كتذاكر السيما والمسارح أشهر من أن يعرف . أما مافعله رجال الكنيسة فى مجاربة العلم والعقل وكيف حرقوا أفذاذ العباقر من الرجال بتهمة الاتحاد والكفر فهى طابع الحياة فى العصور الوسطى . ولم تكن محاكم التفتيش بكل فظائعها وأهوالها إلا ثمرة هذا الطغيان الكهنوتى . والحرب الصليبية كلها لم يوقد نارها إلا رجال الكنيسة . وأخيراً وليس آخراً هذه الكارثة التى حلت بالحضارة والإنسانية فى الأندلس لم تكن إلا بتحريض رجال الكنيسة ضد المسلمين . وهذه المذابح التى جرت بين المسيحيين البروتستنت والكاثوليك . والتى يعمر لها جبين التاريخ خجلاً كما ذكرت ، لم تكن إلا تعاليم رجال الكنيسة وأمرائها .

(١) تتحلل الديانة الكونفوشيوسية بمثل هذه الميزة فليست هناك بموجب تعاليم الدين الأساسية طائفة مخصصة من الكهنة ، فالمعابد يديرها الأفراد جميعاً وبعض الطقوس يتولاها موظفو الدولة المدنيون إلى جوار أعمالهم العادية الأخرى .

وكم كان عجباً أن يحول الكهان والبابوات إلى أغنياء أوروبا وهم الذين يمثلون المسيح الذي جعل الفقر قمة التعبد وآية الإيمان . وما أعجب أن يظل إلى اليوم بابوات روما يعيشون في قصور تكاد تكون جدرانها وأثاثاتها من الذهب والجوهر .

### المسجد ليس كنيسة :

هذا الذى شاب المسيحية وما فتئ يشوبها وما يشوب بقية الأديان الأخرى العالمية ، قد برئ منه الإسلام براءة تامة كاملة ، فلا هياكل ، ولا معابد ، ولا رهبان ، أو كهنوت ، فالله فوق عباده جميعاً لا فرق فيهم بين فرد وفرد ، وهو قريب من الداعى إذا دعاه في غير واسطة وبغير حاجة إلى أدوات . وحسبه أن يهتف « يا رب » ليكون الرب مصغياً إليه ، بل حسب قلبه أن يخفق ليكون ربه أدنى إليه من خفقات قلبه . وليست عبادة الله في الإسلام إلا تدبر هذا الكون وتأمله وإحسان العمل فيه بغير ارتباط بزمان أو مكان معينين . فالصلاة جائزة لله في كل وقت وآن ، وهى صالحة كذلك في كل مكان في الطريق وفي العراء وفي الصحراء وفي الحقل وفي عقر الدار . وما على الإنسان إلا أن يتجه لله ليكون الله بجانبه « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم »<sup>(١)</sup> ، وهذا الكون كله ليس إلا معبداً واحداً للرب طاهراً مطهراً « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » . وإذا كان الإسلام قد أقام المساجد وندب للصلاة فيها ، فما ذلك إلا ليجعل من هذه المساجد أداة إصلاح واجتماع ، فهى بمثابة الندوة يجتمع فيها المسلمون ، يتبادلون الراى ويستعينون على قضاء الحاجات ، ويشعرون بالترابط والتضامن الاجتماعى . وهذا هو دور المسجد فى الحياة الإسلامية ، بحيث أنه إذا لم يقم به فقد صفتة كمسجد ، فالمسجد فى الإسلام هو مجمع ومدرسة وليس هيكلاً وكنيسة لأنه ليس ركناً من أركان الدين لا يقوم إلا به . والصلاة جائزة فى كل مكان . والدين الإسلامى بكل تعاليمه فى تناول كل إنسان ، بل تعلمه فرض على كل إنسان ذكراً كان أو أنثى ، عبداً كان أو حراً . والقرآن مبسوط لكل قارئ لكى يغترف من موارده العذب ، وليس لطائفة من الناس أن تحتكر تفسيره أو تأويله ، فكل من استطاع القراءة فليقرأ ، وكل من استطاع الفهم فليفهم بنفسه . وإذا كان على مطالع القرآن أن يستأنس برأى من هم أكثر علماً منه ، على فهمه ، فما ذلك إلا على سبيل العلم والتماسه من يتابعه

الصحيحة . وذلك كله على خلاف بقية الأديان الأخرى التى تجعل مطالعة الكتب المقدسة وتفسيرها وفقاً على الكهنة ورجال الدين الرسميين .

وهكذا حرر الإسلام العقل البشرى من الخضوع لإلذاته ، وحرر أرواح المسلمين من جبروت الكهان والأساقفة ، وجعل المسلمين سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وذلك يجزنا إلى ذكر ميزة الإسلام الثالثة وهى تسويته الكاملة المطلقة بين الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم وجنسياتهم وصفاتهم ، الأمر الذى يجعله الدين العالمى حقاً وصدقاً .

### الإسلام دين الأخوة العالمية :

إذا كانت الصيحة ترتفع الآن من جوانب العالم المتحضر للنظر للإنسانية كمجموعة واحدة ، وإزالة الحواجز والفوارق بين الشعوب والأمم ككل لا ينقسم .

إذا كانت ميزة الشيوعية الكبرى تتلخص فى دعوتها إلى الإخاء العالمى بين العمال ، وإذا كانت الاشتراكية والديمقراطية ينافسانها فى هذا الاتجاه تحت ضغط ظروف العالم الاقتصادية وتحولات العلم الميكانيكى والكهرى . وإذا كانت الطائرات واللاسلكى والتليفزيون والقوة الذرية ، ستنتهى كلها إلى جعل هذا الكوكب الأرضى وطناً واحداً ، وتجعل من الجنس البشرى أمة واحدة ، فقد كانت هذه هى دعوة الإسلام التى دعا إليها منذ نيف وثلاثة عشر قرناً عندما لم يكن للأسير من جزاء فى الحروب إلا القتل ، وعندما كان الرجال الأحرار فى أى جماعة من الجماعات ينظرون إلى رقيقهم بل إلى أولادهم وزوجاتهم فى بعض الأحيان كقطيع من الحيوانات والمواشى يتصرفون فيها بالبيع والإيجار والإعارة ويملكون عليها حق الحياة والموت . فى ذلك الوقت الذى كان أبناء البيت الواحد ينقسمون إلى ما يرتفع ببعضهم إلى ذروة السماء ، ويهبط بالبعض إلى حضيض التراب من حيث الحقوق الإنسانية ، فى ذلك الوقت جاء الإسلام بدعوته الرائعة إلى الأخوة العالمية والمساواة المطلقة لبني الإنسان لا فرق فى ذلك بين أبيض وأسود ، بين حر وعبد ، بين ذكر وأنثى ، بين عربى وعجمى . وفى هذا المنحى بلغ الإسلام الذروة كما هو شأنه دائماً ولا يمكن أن نجد فى أى دين من أديان الدنيا من دعا إلى هذه الأخوة البشرية وإلغاء الفروق بين سائر بني الإنسان مثلاً فعل الإسلام . فلقد رأينا فى تاريخ تطور الأديان

كيف كان الدين لوناً من ألوان الثقافة المحلية البحتة ، وكيف كان يرتبط بالبيئة أشد الارتباط ، وكيف كان كل شعب من الشعوب يعتبر نفسه دون غيره من شعوب الأرض هو المختار المفضل على بقية الشعوب .

ولم تسلم من هذا المنحى الديانة الإسرائيلية ولا الديانة المسيحية نفسها ، فالإسرائيليون كما قدمنا يتحدثون عن الله كإله بني إسرائيل من دون الناس خاصة . وأنه قد اختارهم لنفسه شعباً فوق الشعوب . ولما كان بنو إسرائيل هم سلالة هذه الأسرة المخصوصة فقد أصبحت الديانة الإسرائيلية جنسية وقومية لفصيلة من الفصائل البشرية تخالف بين نفسها وبين سائر الأجناس الأخرى .

وإذا تصفحنا الإنجيل نجد أن المسيحية ذاتها قد نشأت في الأصل دينا محلياً بحتاً لا صلة له ببقية شعوب العالم ولا يكاد يعنى بهم فالمسيح يتحدث عن نفسه في الأناجيل المختلفة ، باعتباره مصلحاً لنصوص العهد القديم ، ومفسراً لها ومرشداً لبني إسرائيل خاصة من دون الناس . وفي المعنى الأول يقول « ما جئت لأهدم الناموس بل لأكمّله » وهو يعنى بالناموس كتاب العهد القديم أو التوراة ، وقد نبّه على تلامذته وحظر عليهم أن يبشروا بتعاليمهم في غير صفوف بني إسرائيل وذلك بقوله « إلى طريق أم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة »<sup>(١)</sup> . ولقد ذهب المسيح إلى حد أن رفض في بادئ الأمر أن يصيخ بسمعه إلى امرأة كنعانية جاءت تشكو إليه بحجة أنها ليست من بني إسرائيل ، وأنه لم يرسل إلا الخراف بني إسرائيل الضالة وقال لها « ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين لي طرح للكلاب فقالت : نعم يا سيدي والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها . عندئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك ما تريد فشفيت ابنتها من تلك الساعة » .

فأنت واجد في ذلك النص وفي غيره من النصوص وفي مثل هذه القصة ما يدل على أن المسيح كان يختص بني إسرائيل بدعوته ، وكان لا يهتم بغيرهم من الأمم والشعوب . وإذا كانت المسيحية قد قدر لها فيما بعد أن تتحول إلى دين عالمي فقد كان ذلك عمل تلامذة المسيح واجتهادهم ، وبصفة خاصة بولس الرسول ، الذي لم يكن من حوارى المسيح ، بل ولم يجتمع به أويراه . وعلى كل حال فلم تستطع المسيحية في العمل والتطبيق

(١) متى - الإصحاح العاشر .

أن تقضى على هذه الفوارق الجنسية وأن توحد بين الشعوب على أساس الدين ، ولا تزال أوروبا المسيحية وأمريكا تنظر إلى السود باعتبارهم جنساً منحطاً لا يرقى إلى مستوى البيض حتى ولو بلغ من العلم والمكانة أرق الدرجات والأغلبية الساحقة من الإنجليز لا تسمح بدخول غير البيض بيوتهم ، ويكفى أن يكون الإنسان أسمر الوجه لكي يسقط اعتباره عند الإنجليز مهما يعل شأنه وقدره فلا يعود أهلاً لدخول بيت الإنجليز . ولقد شاهدنا قبل هذه الحرب تعصب الألمان الذين بلغ القمة للجنس الأبيض الآري ، وكيف أنهم اتخذوا من هذه الآرية أساساً لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ، ولم تستطع تعاليم المسيحية أن تقتلع من نفوسهم هذا التعصب الأعمى الممقوت لجنسيتهم . أما الإنجليز في الهند وأما معاملة الأمريكان للزنج في بلادهم وعزلهم إياهم وفرض كثير من القيود عليهم للحيلولة بينهم وبين ارتياد أماكن البيض أو الاشتراك في مجالاتهم فحديث معروف ومشهور . ولن نجد لمثل هذه الروح الجنسية أى أثر في ظل الإسلام والمجتمعات الإسلامية ؛ فقد استطاع الرسول الكريم بسيرته وتصرفاته الشخصية من ناحية ، وبتعاليم الإسلام من ناحية أخرى ، أن يقضى إلى الأبد في نفوس المسلمين على كل نزعة جنسية وكل تعصب لقومية أو لون أو إيمان أى تفرقة من أى نوع بين إنسان وإنسان .

وقد أعلن محمد صلوات الله عليه رسالته للوجود كله فما خاطب مرة من المرات بني قومه وما هتف بعروبهم وما اعتر بفصيلة ، وجاء القرآن يخاطب الناس وكل من آمن في هذه الدنيا « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً »<sup>(١)</sup> . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »<sup>(٢)</sup> .

ولقد تجد في القرآن خطاباً إلى الناس إذا ما كان يتحدث بصيغة العموم ويا أيها الذين آمنوا إذا كان يوجه الخطاب إلى المسلمين الذين آمنوا بالدعوة المحمدية .

### رسائل محمد إلى الملوك والقيصرة :

وعندما استقر الأمر برسول الله في المدينة بعث برسله إلى سائر أنحاء العالم القديم المعروف في أيامه داعياً رؤساء الأمم المختلفة إلى دينه القويم فكانت رسله لكسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم من كبار حكام العصر وأئمة الشعوب ، فدل ذلك على أن الدعوة

(١) الأعراف ١٥٨ .

(٢) سبأ ٢٨ .



المحمدية ليست دعوة إقليمية ، أو دعوة جنسية وإنما هي دعوة عالمية للناس كلهم . ثم جاءت نصوص القرآن ترى لتسوى بين المؤمنين ولا تجعل فارقاً بين مؤمن ومؤمن إلا بالعمل الصالح « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » <sup>(١)</sup> وجاء الحديث يؤكد هذا المعنى أن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . فالتقوى وحدها أو بالأحرى العمل الصالح هو أساس التفاضل في هذه الحياة الدنيا . وراح القرآن يذكر الناس من حين لآخر بهذا الأصل المشترك الذي انحدروا جميعاً من سلالة ونعني به آدم وحواء وما دام الأمر كذلك فالناس كلهم إخوة ويجب أن ينظموا شئونهم وأحوالهم على هذا الأساس وأن يتعاطفوا ويتراحموا ويتوادوا فيما بينهم .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » <sup>(٢)</sup> « وليس وراء هذه الآية دعوة للأخوة البشرية العالمية على أساس من الرحم والدم .

وعاش الرسول في حياته يقرب في الصف الأول من أتباعه كل من آمن وعمل صالحاً لا يفرق - وهو العربي الأصيل - بين جنس وجنس ، أو بين لون وآخر ، فكان من أخص أخصائه بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي . وقد عاش أبو سفيان شيخ مشايخ قريش حتى رأى بلالاً يستأذن على عمر خليفة المسلمين فيؤذن له . ولا يسمح لأبي سفيان هذا أن يدخل إلا بعد أن ينتظر ويفرغ عمر من بلال . ولم يكن عمر في ذلك إلا متأسيماً بإمامه وزعيمه سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه في تعظيمه لبلال بغض النظر عن سواده أو مكانته . وقد حدثنا أبو ذر أنه تشاتم يوماً وبلال فقال له « يا ابن السوداء » فلما بلغ الأمر إلى رسول الله أنكره وقال لأبي ذر أسببت أمه ؟ قال : نعم فقال له « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وما كان الرسول ليعلن استنكاره لأبي ذر بأكثر من وصفه بالجاهلية التي تجرده من الإسلام تجريداً . وكان الرسول إذا ما جلس للتبشير بدعوته في الكعبة اختلف إليه عبيد القوم وأصاغرهم وأقلمهم شائناً . فاستنكف سادة قريش أن يختلفوا إلى رسول الله ليسمعوا منه مع وجود هذا النفر

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) النساء ١ .

فخاطبوه في إبعادهم عنه ، ولقد هم الرسول بتلبية رغبة القوم طمعاً في إسلامهم فنهاه القرآن عن ذلك وعاتبه عليه .

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين <sup>(١)</sup> » .

✽ ✽ ✽

وهكذا جعل الإسلام المسلمين أمة واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة » <sup>(٢)</sup> وجعل الدنيا كلها أهلاً للإسلام وبالتالي أمة واحدة ، ولن يتجلى التطبيق العملي لهذه التعاليم قدر تجليها في الحج عندما يقف الإنسان يراقب جماهير المسلمين عن كثب وهي تطوف بالكعبة بيت الله الحرام ، فسرى الدنيا كلها وقد اجتمعت في صعيد واحد - بيض وحمر وسود وصفر وسمر ، وأمراء وفقراء ورجال ونساء ، صين وعجم وهنود وعرب وترك ومجر ، وبدو وحضر ، الجميع يطوفون حول الكعبة مهللين مكبرين داعين مبتهلين ، وقد أبى الإسلام إلا أن يوحد بينهم في كل شيء حتى في اللبس فحتم عليهم أن يخلعوا أزياءهم القومية وملابسهم الخصوصية التي تفرق بينهم وألا يرتدوا إلا الإزار يستر العورة لكي يزول كل فارق فيما بينهم .

فالإسلام هو دين العالم حقاً وصدقاً - هو دين الأخوة البشرية هو الذي يوفق بين الأجناس والألوان ويصالح بينها - هو الذي يفرض على بني الإنسان أن يعيشوا في وئام وسلام مهما تباعد بيئاتهم ومهما تختلف أجناسهم ومهما تتغير ألوانهم بل مهما تعدد أديانهم - وهذه هي الخصوصية الثالثة التي لا تتوافر لدين من الأديان قدر توافرها في الإسلام .

الإسلام يؤاخي بين الأديان ويوفق بينها :

إلى هنا رأينا كيف آخى الإسلام بين البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم الاجتماعية ولكن ذلك كله ما كان يمكن أن يصل إلى النتيجة التي يبتغيها الإسلام وهي الأخوة البشرية العالمية - لو أنه ظل ينظر إلى بقية الأديان الأخرى نظرة منكرة - فليس هناك ما يفرق بين البشر قدر اختلاف العقائد وتنكرها لبعضها وخاصة في العصور القديمة . لطالما اختلف أبناء الأمة الواحدة لاختلاف عقائدهم - ولطالما سالت الدماء أنهاراً

(٢) الأنبياء ٩٢ .

(١) الأنعام ٥٢ .

بين أبناء الدين الواحد ، والوطن الواحد ، لمجرد أن فريقاً منهم يدين بمذهب يخالف مذهب الفريق الآخر . فجاء الإسلام على خلاف جميع العقائد التي سبقته يؤاخي بين الأديان كلها ويدعو إلى احترام الرسل أجمعين ، ويعلم أتباعه أن الدين واحد في كل زمان ومكان ، وأن تعاليم الأديان كلها تنطوي على جوهر الحقيقة ، الحقيقة التي تتلخص في وحدانية الله ووجوب التقرب إليه بصالح الأعمال . وهذه هي الدعوة التي دعا لها كل رسول أو نبي سبق . فإذا كانت الأديان تبدو مختلفة وتعاليمها متعارضة فليس ذلك إلا من صنع الكهان ورجال الدين المحترفين ، الذين يتخذون من الدين وسيلة للجهالة والنفوذ واستدامة السلطان وجمع الأموال ، فهؤلاء وحدهم هم المسئولون عما دب إلى الأديان المختلفة من اختلافات وإضافات وانحرافات طغت على جوهر الدين الصافي وألبسته هذا الثوب المعارض لغيره من الأديان ، فالمسيح مثلاً هو نبي مرسل كمحمد سواء بسواء قد دعا إلى وحدانية الله وعبادته أصدق عبادة ، ولم يقل للناس في يوم من الأيام إلا أنه عبد الله ورسوله ونبيه فإذا كان الخلف قد جعلوا من المسيح إلهاً ، فليس الذنب ذنب المسيح الظاهر المبرأ . وليس الذنب في ذلك ذنب الديانة المسيحية الخالصة من كل الشوائب كالدين الإسلامي سواء بسواء . وإنما الذنب كل الذنب إنما يقع على كاهل هؤلاء الكهان والأخبار الذين حرفوا وأولوا حتى طمسوا نور الحقيقة بجهالاتهم . حبا منهم للدنيا وإرضاء للشهوات والنزوات .

ومثل ذلك يقال عن الديانة الموسوية التي دعا إليها موسى عليه السلام فهي لا تختلف عن تعاليم الإسلام . وكل ما يرى عليه اليهود من زيغ وانحرافات هو من صنع كهانهم وأخبارهم . وما يظالونه من كتاب ينسبونه إلى السماء ليس هو الكتاب الحقيقي وإنما قد امتدت إليه يد التحريف والتصحيف والتغيير والتبديل . وكان سيدنا إبراهيم يدعو إلى ما يدعو إليه الدين الإسلامي . وكان نوح وكان هود وكان صالح وكان يونس . وكان يوسف وكان اليسع وذو الكفل وإدريس ويحيى وزكريا وكل من عرفنا من الرسل وما لم نعرف . وكل من قصهم علينا القرآن أو لم يقصص . كل هؤلاء الرسل الذين عرفتهم البشرية في كل زمان ومكان قد دعوا إلى هذه الحقيقة الخالدة : حقيقة الإيمان بالله الواحد الأحد والتقرب إليه بصالح الأعمال .

هذه هي نظرية الدين الإسلامي وهذا هو موقفه من بقية الأديان . فأى تعاليم كهذه التعاليم تحمل معتقدها على احترام الديانات الأخرى ، واحترام كتبها واحترام رسلها ، وأى تقريب وتوفيق بين كل ما عرفت الدنيا من عقائد وتعاليم وأديان أعظم من هذا

التوفيق . وأى مسلم يجرؤ بعد هذه الإرشادات المحمدية والتعاليم الربانية ألا يصلى ولا يسلم على عيسى إذا ما سمع اسمه ، ولا يصلى ويسلم على إبراهيم ، إذا ما سمع اسمه . وموسى إذا ما سمع اسمه . وأى ارتياح وأى ابتهاج يملأ نفس المسيحي واليهودى وهو يرى المسلم يثنى على أعلام دينه ويكرمهم بمثل ما يكرم أعلامه ؟ وهكذا آخى الإسلام بين الأديان كلها وجعل مردها ينبوعاً واحداً صافياً .

والحق أن الإسلام قد دلّ بذلك على أنه آخر الأديان حقاً ، وأن محمداً هو خاتم النبيين فعلاً . فهذه المصالحة والتوفيق هى مهمة لا تنسب إلا إلى المتأخر وهى لا تحتاج بعدها إلى دين جديد إذ لم يبق له دور أو عمل فى الحياة يؤديه إلا أن يبدأ خلافاً جديداً بعد أن جاء الإسلام بالمصالحة والسلام والمؤاخاة بين البشر جميعاً على اختلاف أديانهم . وإليك الآن ما قاله القرآن فى هذه السبيل جليلاً رائعاً لا يمكن أن يكون من صنع إنسان يغلب الهوى على نفسه وإنما هو من صنع فاطر الكون والإنسان :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون <sup>(١)</sup> » .

وأنت ترى أن هذه الآية تعدد أسماء بعض الرسل ثم تتحدث بعد ذلك عن النبيين بصيغة التعميم والتجهيل ، وهكذا يفتح القرآن الباب على مضراعيه لا احترام أى اسم يقرع مسامع المسلم على أنه نبي من الأنبياء ، فلا يسرع بذمه وقدمه ، وإنما يمسك احتراماً لشأنه ، فقد يكون نبياً من هؤلاء الأنبياء الصالحين ، الذين لم تخل منهم أمة من الأمم . فزارادشت فى الفرس ، وكونفشيوس فى الصين ، وبوذا فى الهند ، وأخناتون المصرى القديم ، كل هؤلاء لا يحق للمسلم أن يزدرهم أو أن يحقرهم ، فقد يكونون من الرسل الذين لم يقص القرآن قصصهم « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » <sup>(٢)</sup> ومتى كان ذلك هو موقف المسلم بالنسبة لأرباب الديانات الأخرى ، فقد انفتح مجال التفاهم والتعاون والتصادق بينه وبين صاحب أى عقيدة أخرى غير الإسلام . وقد يرى المسلم فى تعاليم هذه الأديان الأخرى ما يتخالف عقيدته من ناحية التوحيد ومعتقداته المختلفة ، ولكنه فى هذه الحالة لا ينحى باللائمة على صاحب

(١) البقرة ١٣٦ .

(٢) النساء ١٦٤ .

الدين الأصلي أو كتابه - وإما يعزو هذه الخلافات إلى العصور المتأخرة - وإلى الأيدي العابثة اللاعبة - وذلك من شأنه أن يفتح باب الإصلاح على مصراعيه لأصحاب هذه الديانات الأخرى إذا رغبوا في هذا الإصلاح ليبتدوا بمحض إرادتهم وحريتهم على ضوء تعاليم الإسلام الحديثة إلى الحق والصواب فيما بين أيديهم من تعاليم .

ولقد أمر الإسلام معتقيه أمراً ألا يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلا بالتي هي أحسن « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن »<sup>(١)</sup> وما ذلك إلا ليشعروا أن المتدين أخو المتدين وإن اختلفا في بعض الآراء والأفكار - ودعاهم إلى أن يتوقفوا عن الحكم على ما هم عليه - وألا يقعوا في مثل ما وقع فيه أرباب الديانات الأخرى حيث يسفه كل منهم الآخر « وقالت اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »<sup>(٢)</sup>

### الإيمان والعمل الصالح :

وإذا كان الإسلام قد قضى بذلك على التعصب بين نفوس معتقيه بالنسبة للأديان الأخرى فقد ذهب إلى أبعد من ذلك كله للمصالحة والتآخي بين المسلمين وأصحاب هذه الديانات عندما وضع للجميع مقياساً واحداً للتقرب من الله واستحقاق ملكوته ، وإن ذلك المقياس يتلخص في كلمتين : الإيمان - والعمل الصالح . فكل من آمن وعمل صالحاً في هذه الدنيا فله أجره عند ربه سواء في ذلك المسلم أو المسيحي أو اليهودي أو المتدين بأي دين من الأديان « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »<sup>(٣)</sup> وقد تكررت هذه الآية في القرآن بنصها ومعناها أكثر من مرة حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامي حتى لقد جعل منها تشريعاً قائماً عندما

(١) العنكبوت ٤٦ .

(٢) البقرة ١١٣ .

(٣) البقرة ٦٢ .

أباح للمسلم أن يتزوج - بكتائية<sup>(١)</sup> على غير دينه وأن تبقى على دينها بالرغم من صيرورتها في كنف مسلم وأنها أصبحت أم أولاده المسلمين . وليس وراء ذلك تعليم للمسلم أن العبرة في نهاية الأمر هي الإيمان بالله والعمل الصالح . فالإسلام هنا على خلاف بقية الأديان لا يجعل مجرد الانتساب إلى الدين كافياً وحده للنجاة . بل يجعل النجاة مرتبطة كل الارتباط بالإيمان والعمل الصالح بقطع النظر عن الدين الذي ينتمي إليه المؤمن « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره<sup>(٢)</sup> ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » وتطبيقاً لذلك فإن أهل الكتاب كالمسلمين سواء بسواء من يفعل منهم مثقال ذرة من الخير فإن الله يشبه عليه وما يفعله من شر فإن الله يجازيه عليه وقرأوا إن شئتم « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله علم بالمتقين<sup>(٣)</sup> » .

### الإسلام يحتفظ بحق الهيمنة :

ولرب معترض يقول ، ولكن الإسلام بذلك قد ألغى مهمته في إصلاح هذه الأديان وتنقيتها مما دأب إليها من خرافات ، ما دام يحترم معتقديها وأصحابها إلى هذا الحد وما دام يسوى بينهم وبين أتباعه في كل شيء . ولكن الحقيقة أن الإسلام لم يقف من أصحاب الديانات الأخرى ذلك الموقف التسامح إلا رغبة منه في إصلاح هذه الأديان بالذات ، ورغبة منه في إقناع أصحاب الديانات الأخرى بأن الإسلام مهيم على هذه الأديان ، وأنه يجب كل ما قبله . وقد نجح الإسلام في هذه الغاية نجاحاً منقطع النظير ، فقد أسرع أصحاب الديانات الأخرى إلى الدخول في دين الإسلام أفواجاً لاتباعه هذا الأسلوب وتركه الحرية التامة المطلقة لكل صاحب دين أن يبق على دينه . فالمصادرة والاضطهاد من شأنها أن تحمل كل إنسان على التعصب لوجهة نظره ، أما التسامح فهو السبيل

(١) « اليوم أحل لكم الغنات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من فيكم إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين » المائدة - ٥ .

(٢) الآية ٦ - ٨

(٣) آل عمران ١١٣ - ١١٥

الوحيد لتقريب وجهات النظر ولاستماع ما عند الطرف الآخر . فلو أن الإسلام جاء مسفها  
للأديان الأخرى ، محقراً من كتبها وأعلامها ، لسدت الآذان عن سماع دعوته ، ولما  
وجد سبيله إلى القلوب مثل ما وجد . وليس هناك دليل على أن الإسلام حق ، وأن  
القرآن كتاب الله ، أعمق من هذا الموقف الذى يقفه من الأديان الأخرى ، وأرباب  
الديانات الأخرى . فهو يقف منهم موقف المعلم الرحيم ، لا موقف المتغطرس المستبد  
المتكبر . ولما كان الإسلام هو الحقيقة الكاملة فهو لا بد منتصر ومنتشر ومسيطر عندما  
تتجرد النفوس من الهوى الذى يخلقه التعصب ، وعندما يأخذ العقل كل سلطانه بعيداً  
عن تحكم الرؤساء والملوك ورجال السياسة ورجال الكهنوت ، فلا حرج إذن ولا ضير فى  
أن يقر الإسلام أهل الكتاب على ما فى أيديهم ، ولا حرج ولا ضير فى أن يعدهم  
بالثواب والجزاء الحسن على صالح الأعمال ، لأنهم فى نهاية الأمر عبيد الله كبقية عبيده .  
ولا حرج ولا ضير فى أن يؤمن كل إنسان فى الدنيا بعدالة الرب الذى يجرى كلاً بعمله إن  
خيراً فخير وإن شراً فشر ، لأن هذه المبادئ هى التى لا يختلف فيها إنسان مع إنسان  
آخر .

ومادام الإسلام يبشر بهذه التعاليم فلا بد أن يكون ديناً صالحاً قيماً . وعلى ذلك فقد  
انكب أهل الكتاب وأصحاب الديانات كلها على دراسة هذا الدين الجديد والموقف  
على تعاليمه ، فإذا هو يحوى أجمل ما عندهم ، وما بين أيديهم . وإذا هو يخلو من  
الشوائب والنقائص التى قد شابت دينهم . وإذا الإسلام يدعوهم للدخول فيه باعتباره  
آخر الأديان وأكملها ، وأنه قد نسخ كل ما سبقه من أديان . فلم يلبثوا أن دخلوا فى  
الإسلام فرحين مستبشرين . ولم يمض كما قدمنا إلا قرن من الزمان حتى بلغ مقدار من  
دخلوا فى دين الإسلام من المسيحيين وغيرهم من أرباب الديانات الأخرى مائة مليون من  
البشر ، ما كانوا ليدخلوا فى هذا الدين الجديد ، لولا روح التسامح التى تسود تعاليمه ،  
ولولا اقتلعه التعصب المذموم من قلوب أتباعه<sup>(١)</sup> .

---

(١) وأى دين عرفته البشرية قد استطاع أن يخلق إماماً متسامحاً فى شعائر الآخرين ، كما فعل الإسلام  
بسيدنا عمر عندما دخل بيت المقدس فاتحاً متصراً وبينما كان يطوف فى كنيسة القيامة إلى جوار بطريرك  
النصارى الذى سلم إليه المدينة ، إذ يحين وقت الصلاة فيطلب البطريرك من عمر بن الخطاب أن يصلى  
فى الكنيسة ، فيعتذر له قائلاً هذه القولة الخالدة : وإني أخشى إذا أنا صليت فى هذه الكنيسة أن =

وقد سرت هذه الروح في الدولة الإسلامية بما لا عهد للبشرية بمثله من قبل فكان المجتمع الإسلامي يغص بأرباب الديانات الأخرى الذين عاشوا مع المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . ولم يقف الدين في يوم من الأيام حجر عثرة في وجه أى مواطن للوصول إلى أرقى ما يمكن أن يصل إليه مسلم من وظيفة ، فكان منهم الوزراء والقواد والعلماء والأطباء والأدباء والشعراء والحكماء . ولم ينعم اليهود في كل تاريخ حياتهم الحافل بالاضطهادات ، بمثل ما نعموا به من أمن وسلام في ظل الدولة الإسلامية ، وتاريخهم في الأندلس معروف ومشهور .

ولقد وصل التطرف ببعض الخوارج المسلمين أن المشرك والمسيحي واليهودي والمجوسى ، كان يأمن على نفسه في ظلهم بأكثر مما يأمن المسلم ، حتى لقد كان المسلم الذى يعترضه بعض الخوارج قد يؤثر أن يدعى المسيحية أو اليهودية من أن ينتسب للإسلام ، وذلك لكى ينجو بنفسه من شر الخارجى ، الذى لا يتسامح مع المسلم الذى يخالفه في رأيه السياسى ، ولكنه لا يتعرض بسوء لمن يخالفه في الدين جملة ، حتى ولو كان مشركاً ، نزولاً عند نص القرآن القائل :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون <sup>(١)</sup> » .

وهكذا استطاع الإسلام أن ينزع من قلوب معتقيه كل تعصب ضد أتباع الديانات الأخرى وراض المسلمين على احترام عقائد الآخرين والتعاون معهم على قدم المساواة حتى جنحوا إلى مسالة المسلمين وعاشوا معهم متعاونين . وهكذا عرفت البشرية لأول مرة في

---

يقول المسلمون من بعدى هنا صلى عمر ومحولوا كنيتكم إلى مسجد وأنا أريد أن أحفظ لكم كنيتكم » قال عمر ذلك ، وخرج إلى الساحة التى تقابل كنيسة القيامة فصلى بها ، فأقيم عليها - كما تنبأ - مسجد سمي باسم عمر . ولا يزال هذا المسجد حتى اليوم يواجه كنيسة القيامة على بعد خطوات منها ، أعظم شاهد على أن المسلمين الأوائل قد فهموا من الدين الإسلامى حقيقته وجوهره ، وأنه قد جاء للعالم رحمة وأخوة وسلاماً لا نزاعاً أو خصاماً وافتئاتاً .

(١) التوبة - ٦ .



تاريخها الطويل معنى التسامح الذي لم يستطع دين آخر من الأديان أن يغرسه في نفس أتباعه بما في ذلك المسيحية نفسها التي يؤلف الحب سداها ولحمتها . وحسبنا أن نقارن بين ما اقترفه الصليبيون في العصور الوسطى من فظائع باسم الصليب وما أظهره صلاح الدين الأيوبي من تسامح ورفق بالمصليين عند ما قدر عليهم . وليس ذلك إلا النتيجة الطبيعية لتعاليم الإسلام ومبادئ الإسلام<sup>(١)</sup> .

---

(١) كان يمكن أن تعتبر البوذية بدورها . نموذجاً رائعاً للتسامح الديني مع بقية المعتقدات والأديان الأخرى . لولا أن البوذية على روعة تعاليمها وكلمها الإنساني . قد اقتضت على رسم طريق للسلوك الإنساني . وفات بوذا (إذا صح ما ينسب إليه) أن لا سبيل لتأصيل هذه التعاليم إلا إذا كانت مستندة إلى الإيمان بالله كامل . وقد كان هذا ما حدا باتباعه إلى سد هذه الثغرة من التعاليم البوذية باعتبار بوذا هو الإله نفسه . وإذا كان هناك فريق آخر من البوذيين لا يقول بألوهية بوذا . فإنه بالرغم من ذلك يعامل بوذا معاملة الإله فينشئ له المعابد والمياكل وقيم له النصب والتماثيل ويتقدم له بالصلاة والقربان من الزهور والعطور . (اقرأ للمؤلف كتابي بقطة العملاق وأمة تبعث عن رحلته عام ١٩٥٣ في آسيا) .

## التكافل الاجتماعى فى الإسلام

### الزكاة :

لا يوجد دين من الأديان ، لا يوصى أتباعه بالبر بالفقراء والمحتاجين من أفراد المجتمع ، فجوهر أى دين ولبابه هو سيادة السلام والتآخى والمحبة بين معتنقيه .  
على أن الإسلام ينفرد بأنه لم يقف عند حد التوصيات والتوجيهات العامة ، بل كان سباقاً إلى اكتشاف ضرورة إيجاد نوع من التنظيم الاقتصادى فى توزيع الثروات والطبقات لكفالة التوازن بين أفراد المجتمع الواحد . فكان تشريع الزكاة الذى يفرض على كل مسلم يدين بالإسلام ، أن يقدم لبيت المال نصيباً مفروضاً من أمواله ليوزع على الفقراء والمحتاجين وذوى الحاجات والعاجزين عن التكسب ، وذلك بمجرد أن يفيض لديه بعض المال القليل <sup>(١)</sup> .

وقد جعل الإسلام تشريع الزكاة ركناً أساسياً من أركان الإسلام ، بحيث لا يكون المسلم مسلماً إلا به .

### حروب الردة :

وعندما تصور فريق من المسلمين بعد وفاة رسول الله أن باستطاعتهم الامتناع عن أداء هذا الواجب ، اعتبر هذا التصرف ردة عن الإسلام ، وفتنة يراد بها تقويض المجتمع الإسلامى من أساسه ، فكانت حروب الردة المشهورة ، التى انتهت بتدعيم هذا الركن من أركان الإسلام .

---

(١) يقدر النصاب الذى تجب من أجله الزكاة فى الأموال بما كان يساوى ٢٠٠ درهم من الفضة وهو ما لا يزيد فى وقتنا هذا عن عشرة جنيهات بأى حال من الأحوال .

أما نسبة ما كان يدفع فهو ٢.٥٪ من الأموال النقدية وعروض التجارة ، والعشر ونصف العشر من ثمار الأرض الزراعية على تفصيل يرجع له فى كتب الفقه .

## حق لا منحة :

وقد حرص القرآن على إظهار صفة الحق في أموال الزكاة فنص عليه بقوله :  
« في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »<sup>(١)</sup> .

وهذا ما حدا ببعض فقهاء المسلمين ، أن يعتبروا مستحقى الزكاة شركاء في أموال دافعيها ، بحيث يستطيعون استقضاءها بشتى الطرق إذا امتنع من تجب عليه الزكاة عن دفعها .

## حد أدنى لكل فرد في المجتمع :

وهذا القدر الواجب من الزكاة ، هو ما كان يبيى في القديم الحد الأدنى من الحياة التى لا ينبغى أن ينزل عنها أى إنسان ، ومن هنا كان من حق الدولة فى كل زمان ومكان أن ترتفع بهذه النسبة المقررة بما يتمشى مع تطور الحياة وارتفاع تكاليفها .  
وهكذا سبق الإسلام ما تعتبره الحضارة الحديثة من محاسنها ، بما يقرب من أربعة عشر قرناً ، والذي لم تصل إلى تقريره إلا بعد ثورات وانحرافات وحروب دامية .

## العمل لا رأس المال هو مصدر الإنتاج :

على أن الإسلام قد ذهب إلى أبعد مما سبق فى تقرير جوهر الاشتراكية الحديثة .  
عندما اعتبر العمل لا رأس المال هو المصدر الأساسى للإنتاج . وذلك بتحريم الفائدة على رأس المال تحريماً مغلطاً ، بحيث لم يستعمل القرآن الكريم صيغة أعنف من صيغته فى تحريم الربا حيث يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »<sup>(٢)</sup> .

(١) المآرج ٢٥ .

(٢) البقرة ٢٧٨ - ٢٧٩ .

وتطبيقاً لذلك ، فإن من أقرض آخر قرضاً ، فليس له إلا أن يسترد ما دفع بغير زيادة .

### الاقتصاد الحديث يقوم على فائدة رأس المال :

ولكى يدرك القارئ عظمة الإسلام وهو يقرر هذا المبدأ الاقتصادي ويعتبره أصلاً من أصول التعامل في المجتمع الإسلامى ، لابد أن نستحضر في أذهاننا أن النظام الاقتصادي الحديث يقوم على فائدة رأس المال ، ويتربع أصحاب البنوك في العالم كله على عرش السيادة الاقتصادية والتحكم في أقدار الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بالفوائد الربوية التي يتقاضونها على رؤوس الأموال .

ولقد نكبت مصر في تاريخها الحديث بضياح استقلالها . واحتلال الإنجليز لأراضيها ، بحجة عجز مصر عن دفع فوائد ديونها لأصحاب البنوك من الأوروبيين .

### الثورة الشيوعية :

وقد احتاج المجتمع الأوربي إلى ثورة عنيفة دامية وهى الثورة الشيوعية . للحد من هذا الطغيان الرأسمالى . ولكن الشيوعية وقد جاءت متطرفة كرد فعل للتطرف ... لم تقف عند حد تقليم أظافر الرأسمالية . بل أبّت إلا أن تقتلع الرأسماليين أنفسهم وأن تهدر دماءهم في غير رحمة أو شفقة ، فنشأ عن ذلك مظالم جديدة وطغيان من نوع جديد يهدر كرامة الإنسان وينكر عليه الحق في الحياة فضلاً عن الحرية .

وذلك كله على خلاف النظام الإسلامى . الذى وقف عند الحد اللازم للحيلولة دون الاحتكار والاستغلال وما يولده ذلك كله من طغيان . وذلك بتزع زبान رأس المال الخبيث . وتجريده من سلاحه وسلطانه الرهيب وهو الفائدة الربوية . تاركاً كل إنسان بعد ذلك يتمتع بثمار عمله وكده .

### الضمير الإسلامى :

على أن الإسلام لم يقف عند حد تشريع القوانين الكفيلة بتحقيق حد أدنى من المعيشة للعاجزين والمحتاجين . ولا عند تقويض سلطان رأس المال بإلغاء الفائدة . بل حرص فوق ذلك وقبل ذلك على جعل ما أسماه الإنفاق في سبيل الله أى على المصالح العامة والفقراء والمعوزين والمنكوبين والملهوفين من بنى الإنسان على اختلاف أجناسهم

وأديانهم وأنواعهم . جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية والإيمان بالله . فترى آيات القرآن الكريم تنهر في هذه الناحية انهاراً ومن ذلك قوله « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »<sup>(١)</sup> .

«والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»<sup>(٢)</sup>

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»<sup>(٣)</sup>

«آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»<sup>(٤)</sup>

وذهب التشريع الإسلامي إلى أبعد من ذلك كله لدفع المسلمين دفعاً إلى إنفاق أموالهم على المحتاجين فجعل الأخطاء والذنوب والمعاصي يمكن أن يكفر عنها دائماً بتحرير العبيد «عق رقبة» وإطعام الجائعين . والتوسعة على المحرومين .

### ازدهار مؤسسات التكافل الاجتماعي :

ولذلك فلم يكن عجباً . وهذه دعوة القرآن . وهذه هي تعاليم الإسلام . أن شهد المجتمع الإسلامي عبر القرون والأجيال . جميع نظم الضمان الاجتماعي والتكافل الاقتصادي . الذي يتصور المتصورون أنها من ثمار الحضارة الأوربية . أو العصر الحديث .

فحق العلاج لكل فرد . وحق الرعاية لكل مولود . والرعاية الكاملة لكل عاجز وشيخ . والطعام لكل جائع . كانت دائماً أبداً من الحقوق المقررة في المجتمع الإسلامي . من خلال مئات وألوف المؤسسات التي قامت على نظام الوقف . الذي هو نوع من تأمين مصادر الإنتاج للمصلحة العامة فتحبس الملكية عن التداول ويحظر التصرف فيها . وتوجه ثمارها إلى جهة بر لا تنقطع

وعلى هذا الأساس أنشئت دور العبادة والمدارس والمعاهد والمستوصفات والمستشفيات . وملاجئ اللقطاء واليتامى والعجزة . وأوجد العمل للسجناء بعد الإفراج عنهم . وإطلاق سراح الأسرى . وتحرير الأرقاء .. ودور الضيافة لإقامة الغرباء .. إلى

(٣) آل عمران ٩٢ .

(٤) الحديد ٧ .

(١) البقرة ١٩٥ .

(٢) التوبة ٣٤ .

مئات وألوف من الخدمات العجيبة والمتناهية في الإنسانية . والتي لم تقف عند الإنسان بل تعدته إلى الحيوان وطيور السماء .

### وزارة للأوقاف :

وعندما شرعت الحكومات الإسلامية في تنظيم حكوماتها على الطراز العصري . احتاجت إلى إنشاء وزارة للأوقاف لتشرف على مئات الألوف من الأفدنة . وملايين الجنيهات المخصصة للشئون الاجتماعية . وهي وزارة فريدة لم يكن لها مثيل في أرقى الدول حضارة عند إنشائها .

وقد لا يعلم الكثيرون أن الأزهر أعظم جامعات الدنيا وأقدمها ما كان ليؤدي رسالته لولا الأوقاف التي رصدت عليه . والتي كانت لا تبيىء للطلاب الوافدين من أنحاء العالم . العلم فحسب بل تبيىء لهم المسكن والطعام والملبس . وهو ما لا مثيل له حتى الآن في أى بلد من بلاد العالم<sup>(١)</sup> .

### جسد واحد :

والذى يعنينا من كل ما سبق . أن الإسلام قد انفرد بين ما انفرد به عن الأديان الأخرى بإنشاء نظام اقتصادى . يقوم على توزيع الطيبات والخدمات على سائر أفراد المجتمع . على سبيل التكافل والتضامن . عملاً بنص الحديث الشريف :

(١) أصبح من الأمور الشائعة والتي تتردد على كل لسان باسم التقدمية والأفكار العلمية . استهجان الحديث عن هذه المظاهر التي أشرنا إليها ، واعتبارها كلها لوئاً من ألوان الإحسان الذى يزرى بكرامة الإنسان .

وأنه يجب أن يحل محل هذا النظام قوانين الضمان والتأمين الاجتماعى وكفالة الدولة لجميع المواطنين ، جاهلين أو متجاهلين أن ذلك كله لو تحقق وعلى أكمل صورة يدعونها ، فلن يغنى عن العاطفة الفردية لكل إنسان على حدة . العاطفة التى تدفع الإنسان إلى أن يحف لنجدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف وإسعاف المريض ، وإطعام الجائع وهو المقصود بكلمة الإحسان .

فغير خاف أن القوانين مهما تناهت في الدقة والاحكام والرغبة في تحرى العدل المطلق فهى في نهاية الأمر لا يمكن أن تتوقع كل الحالات التى ستطبق عليها ، ولذلك فإنها تسفر عند التطبيق أحياناً عن نتائج شاذة ومفجعة ، لا يخفف منها إلا معونة سريعة عاجلة يتقدم بها إنسان فرد على سبيل التطوع والاختيار بدافع من عاطفته الإنسانية . =

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد . إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وهي صورة رائعة من صور الوحدة الإنسانية تعجز عن بلوغها كل النظريات المادية في العصر الحديث .

#### = إساءة السلطة :

ولا يجب أن ننسى أن القوانين في نهاية الأمر والنظم والمبادئ إنما تنفذ بواسطة أفراد مكلفين بالتنفيذ أو التطبيق ، وما لم يكن هؤلاء المكلفون عليهم رقيب من أنفسهم لإحسان العمل والتطبيق ، فباستطاعتهم أن يتحايلوا على نصوص القانون ، ويجدوا فيه من الثغرات ما يمكنهم من حرمان بعض المستحقين لحقوقهم ، أو على الأقل تأخير وصول الحقوق إليهم في الوقت المناسب .

#### ضرورة الضمير :

وإذن فلا مناص في خاتمة المطاف من الاعتماد على ضمير المكلفين لنجاح أى نظام أو تحقيق أية عدالة بين المواطنين . ومن هنا ترتفع الدعوات والصيحات في المجتمعات الشيوعية بضرورة ما يسمونه التوعية لخلق ما يسمونه « الأخلاق الاشتراكية » وليس ذلك إلا عودة من جديد للاعتماد على الضمير الإنسانى لكل فرد ، واستثبات هذا الضمير للإحسان في العمل والتصرف نحو الآخرين في السر والعلن . ولكن شتان بين ضمير إنسانى يحاولون بعثه من جديد بعد أن خنقوه ودفنوه وسط ركाम وضباب من النظريات المادية والحديث عن الصراع وحرب الطبقات وغلبة الأقوياء . وبين الضمير الإنسانى الذى ظل متوهجاً على مر العصور قبل أن تدمه هذه الجائحة . ضمير ينبثق من الإيمان بإله رحيم يحنو على المستضعفين والعاجزين وذوى الحاجات ، ولا يرضى من عباده الصادقين إلا أن يكسروا حياتهم لتضميد جراح المجرحين ، ومواساة الحزاني والمنكوبين ، وإنصاف المظلومين ، ونجدة الملهوفين ، وكفكفة عبرات اليتامى والمساكين . ضمير يجعل صاحبه لا يغمض له جفن أو يهدأ له بال فضلاً عن أن ينعم بعيش ، إلا بعد أن يرى البسمة تشيع على الشفاه ، والفرح يملأ القلوب ، والأمل والرجاء يعم الجميع .

## خاتمة

### علماء الغرب والحضارة الإسلامية

وليس هناك ما نختم به هذه العجالة عن قصة الإيمان ومبادئ الإسلام . وما أحدثته من أثر في حضارة البشر . خيراً من أن نسوق بعض عبارات شهد بها علماء من الغرب على سبيل المثال . ليعلم من لم يكن يعلم أننا لم نقل ما قلناه فيما سبق على سبيل التعصب أو التفاخر بأجداد الماضي والقومية . ولكن لأن في ذكره تسجيلاً للحق . ودعوة إلى خير البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم وقومياتهم<sup>(١)</sup> .

#### غوستاف لوبون :

يقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب « كلما تعمق المرء في دراسة المدينة العربية تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق . ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما أنتجوا في هذه المدة القصيرة التي كتب للمكهم قضاءها . وإذا نظر المرء في صنائعهم ونقوشهم . لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة . وإذا كان تأثير العرب في الغرب عظيماً ، فإن تأثيرهم في الشرق أعظم . وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط فإن الشعوب التي دانت الأرض لسلطانها كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت القرون على آثارهم ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة ، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم . أما العرب فقد اضمحل أمرهم أيضاً ولكن أهم عناصر مدنيته وهي الدين واللغة والصنائع لا تزال حية . إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

ويقول الكاتب العالمي الكبير هـ . ج ويلز في كتابه مختصر تاريخ العالم :

(١) اقتبسنا بعض هذه الأقوال من قبل ص ٨٨٧ .



«وهكذا رأينا الأسلوب والمحيص للحقائق الذى ابتدعه الإغريق يستأنف طريقه فى ظل هذه النهضة العربية المحيرة للألباب . وسرعان ما نضجت بذور أرسطو وجامعة الإسكندرية التى ظلت طويلاً بغير حراك فى زوايا الإهمال والنسيان . ورأيناها تؤتى ثمارها . وكذلك حدث تقدم هائل فى علوم الحساب والطب والعلوم الطبيعية ورأينا أرقام الحساب الرومانية القبيحة المعقدة تستبدل بالأرقام العربية التى مازلنا نستعملها حتى يومنا الحديث . كما استخدم ترقيم «الصفرة» لأول مرة . وحسبنا أن نشير إلى أن علم الجبر ليس إلا اسماً عربياً كذلك علم الكيمياء . وكذلك الكثير من أسماء النجوم فإنها مازالت تحدثنا عن فتوحات العرب فى السماء . أما فلسفتهم فقد كان مقدراً لها أن تبعث فلسفة فرنسا وإيطاليا بل وكل العالم المسيحى فى العصور الوسطى» .

ويقول العالم الأمريكى لوترب ستودارد فى كتابه حاضر العالم الإسلامى :

«وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهى «الحضارة العربية» وهى جاع متجدد من التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى . وذلك المجموع هو الذى نفخ فيه العرب روحاً جديداً فنصر وأزهر وألقوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامى . فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها «٦٥٠ - ١٠٠٠م» أحسن سيرة فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً . مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواسر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً . وما انفك الشرق الإسلامى فى خلال هذه القرون يرسل على الغرب النصرانى نوراً ثم غابت كواكبه وأفلت أنجمه» .

وإذا كانت هذه المقتبسات من علماء الغرب تحدثنا عن العرب بصفة عامة فلننقل الآن بعض مقتبسات أخرى تشير إلى علوم العرب ومعارفهم وما يدينون به العالم .

يقول العالم الكبير «جوتيه» «إن العرب علمونا صنع الكتاب وصنع البارود والبوصلة البحرية فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من وراءها هذه الحلقات التى وصلتنا من المدنية العربية . لقد عرف العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالمقطوع . وقطعوا سوطاً كبيراً فى الميكانيكيات . ولما بعث الرشيد العباسى إلى شارلمان بالساعة الدقاكة الكبيرة تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حققه سيديو . ومع ذلك فلم يكن فى عصر العباسيين أهم من مهنة

الفلاحة . فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس - وأزهار إقليم مازندران وقد أغنوا العلم لاسياً علم النبات بمسائل جديدة كثيرة . ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والكحول واللعوق والسنامكي والراوند والخيار شنبير وجوز القىء هم الذين كشفوها . واستلزمت أصول تداويهم أن يعتمدوا إلى استعمال الفتائل وإلى الحجامة في أمراض الصرع واستعمال الماء البارد في الحمى الدائمة وأجرى جراحوهم عمليات تفتيت حصاة المثانة وقذح العين واستخرجوا منها الجريم العدسي الشفاف ويظهر أنهم عرفوا البنج » .

ويزيد العلامة دراير الأمريكي هذه الأمور تفصيلاً فيقول على ما نقله العلامة فريد وجلي :

« وكان من عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس وما تجدر بملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات وذلك ما هياً لهم سبيل ابتداء الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ودعاهم إلى استعمال الربيع والاصطرلاب في علم الهيئة واستخدام الموازنة في الكيمياء مما خصوا به دون سواهم وهياً لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتي اصطنعت في بغداد والأندلس وسمرقند . مما فتح لهم باب تحسين عظيم في قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام في الحساب وكان ذلك كله من نتائج استعمال طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا في علم الهيئة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة مطلقين على القدر الأعظم منها أسماء عربية لاتزال تتردد في ذاكرتنا الفلكية . وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسوف . ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين . ولاحظوا أموراً بعثت نوراً باهراً على نظام العالم واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين لاستعمال الساعة الرقاصة .. وهم الذين أنشأوا في العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك وحامض « النترك » والكحول . وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبية فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية « علم الأقربازين » والمستحضرات المعدنية . وهم قرروا في الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام وكان لهم

رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ورأى شديد فى القوات الميكانيكية . واصطنعوا فى نقل السوائل وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء . وأصلحوا فى علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره . فقالوا إن الشعاع يمر من المرئى إلى العين وفهموا مسار انعكاس النور وانكساره وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء وبرهنوا على أننا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب . والذي يدهش كثيراً أن ننصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا إليها فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم وحقاً أنهم وصلوا به إلى الأشياء الآلية فكان المبدأ الرئيسى عندهم فى الكيمياء والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية»

ولقد وصف هذا العلامة الأمريكى مظهر الحضارة العربية فى الأندلس فأجاد الوصف وإليك ما قاله فى هذا الصدد :

« ليست أوروبا العصرية بأعلى ذوقاً ولا أرق مدنية ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد العرب فقد كانت الشوارع مضاعة بالأنوار ومبلطة أجمل تبليط والبيوت مفروشة بالبسط وكانت تدفأ شتاء بالموقد وتبوى صيفاً بالنسمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة بالزهر وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة وكانت المدن والخلوات مملأى بالاحتفالات . وكانوا بدل النهم وإدمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين ، يحلون مآدبهم بالقناعة فكانت الخمر محرمة عليهم . وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تترهم فى الليالى القمرية فى حدائقهم البالغة حد الجمال أو يجلسهم حول أشجار البرتقال يستمعون قصة مسلية أو يتجادلون فى موضوع فلسفى . متعززين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم . إنها لو كانت بغير آلام أو إصابات لنسوا حياتهم . وكانوا يوفقون بين جهادهم فى هذه الحياة وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة .

ولن تكمل لديك صورة هذه الحضارة العربية فى هذه العصور . إلا إذا وضعت إلى جوارها صورة الحياة فى أوروبا . وإليك وصف هذه الحياة بقلم هذا العلامة درابر .

« إن أوروبا فى ذلك العهد «أى فى عهد حضارة العرب فى الأندلس» كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة وكانت المستنقعات قد كثرت حول المدن فكانت تنتشر فيها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم وكانت البيوت فى

باريس ولندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأيسطة فكانت مجهولة لديهم . وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض ولم يكونوا يعرفون المداخل فكان الدخان يطوف بالبيت ثم يتسرب من ثقب صغير صنعه له في السقف فكان الناس في هذه البيوت معرضين لكل أنواع الإصابات الخطيرة وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواماً تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم حيواناتهم المنزلية .

« وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمخدة . وكانت النظافة معدومة لديهم فلا يعرفون لها رسماً وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا مرة في الأسبوع ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح » .

« هذه الجهالة كان من أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام فانحصر التداوى في زيارة الأماكن المقدسة ومات الطب وراجت أحابيل الدجالين . وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ولم يلتفتوا إلى أمر النظافة فكانت تفتك بهم الأوبئة فتكا ذريعاً حتى أنها زارت أوروبا عدة مرات فاجتاحت ملايين من أهلها في أيام معدودة » .

### حضارة إسلامية :

وحسب الإنسان أن يقارن بين هذه الصورة لما كانت عليه أوروبا في العصور الوسطى وما وصل إليه العرب في هذه العصور لكي يؤمن أن الفضل في هذه الحضارة العربية إنما يرجع إلى الإسلام أولاً وأخيراً . فقد كان العرب وسط الجزيرة العربية قبل الإسلام أمة جاهلة أمية عن بكرة أبيها إلا من بعض نفر يعدون على الأصابع . ولم يكن لهم سابق حضارة أو مدنية ولم تكن لهم دولة<sup>(١)</sup> وإنما كانوا قبائل متفرقة تهم على وجهها في أنحاء الصحراء فلم يكد القرآن يستقر بين أيديهم . وهذا الدين يستقر في عقولهم ، حتى بلغوا هذا الشأن العجيب الذي يقف الإنسان أمامه حائراً مذهولاً .

(١) هذا القول خاص بعرب الحجاز حيث انبثق الدين الإسلامي ، وإلا ففي الجنوب الغربي للجزيرة العربية ، ازدهرت حضارات اليمن أيام ملكتها بلقيس ، قبل المسيح .

وبعد :

فسيظل الإسلام نوراً يهدي التائبين والحائرين والمتخبطين في الظلام ودنيا المادية ،  
وستظل مبادئه في الدعوة إلى الإنسانية والعالمية والتآخي بين البشر ، هدفاً سامياً جديراً  
بالعمل من أجل تحقيقه على أساس من الحب وبالحب وللحب .  
والحمد لله رب العالمين

## الفهرس

٧	الإهداء .....
٩	تعريف .....

١٣	إيمانى .....
----	--------------

- ١ - رحلة فى الصعيد - ٢ - التمهيد لمصر الفتاة - ٣ - مشروع القرش - ٤ - جمعية مصر الفتاة - ٥ - نحو العمل - ٦ - أول خطاب عام - ٧ - قضية الجيش - ٨ - الكفاح - ٩ - أربعة أيام فى إيطاليا - ١٠ - حكومة نسيم باشا - ١١ - عام ١٩٣٥ - ١٢ - سفر وفد جمعية مصر الفتاة إلى لندن وباريس وجنيف - ١٣ - فى عاصمة الإنجليز - ١٤ - الكفاح فى لندن - ١٥ - النجاح فالعودة - ١٦ - مات الملك عاش الملك (وزارة على باشا ماهر) - ١٧ - انتصار الحياة الدستورية (وزارة الوفد) - ١٨ - رحلة فى الصعيد سيرًا على الأقدام - ١٩ - اتهام مصر الفتاة بالخيانة العظمى - ٢٠ - الدفاع أمام الشيوخ والنواب - ٢١ - رفع دعوى على رئيس الحكومة - ٢٢ - مأساة دمنهور - ٢٣ - معاهدة سنة ١٩٣٦ - ٢٤ - مصر الفتاة تحارب المعاهدة - ٢٥ - وبعد ...

### مصر الفتاة والحكومة أمام القضاء

٢٨٣	حكومة الوفد .....
٢٨٥	مقدمة .....
٢٨٦	قضية لجنة العفو .....
٣٥٤	خاتمة .....

٣٥٥	وثيقة تاريخية .....
-----	---------------------

رسالة من أحمد حسين إلى المهر هتلر

٣٦٥	من وراء القضبان .....
-----	-----------------------

- تصدير - أمر الاعتقال - شيخ - عزيز المصرى باشا - المطاردة - السيد البدوى - سجن الأجانب - هجوم روميل - الهرب - فى الخبأ - ستالينجراد - التسليم - الإفراج ...

## الزواج والمرأة

الإهداء	٤٦٥
تعريف	٤٦٦
الفصل الأول : الزواج	٤٦٨
الفصل الثاني : المرأة وحقوقها	٤٨٩
الفصل الثالث : بحث في السفور والحجاب	٥١٢
الفصل الرابع : الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية	٥٣١
خاتمة	٥٥٠

## الحرب

تمهيد	٥٦٠
الفصل الأول : ماهية الحرب - ضرورتها - فائدتها - العمران والحرب	٥٦٤
الفصل الثاني : أغراض الحرب - شريعتها - الحرب المشروعة وغير المشروعة	٥٨١
الفصل الثالث : الاستعداد للحرب - التسليح - الطيران - الصناعات العسكرية - تجنيد مختلف طوائف الأمة - تمن النصر - وصية ونداء	٥٩٦

## نحو المجد (العلم والمال)

### العلم :

الفصل الأول : رسالة العلم	٦١٧
الفصل الثاني : القرآن والعلم	٦٢٨
الفصل الثالث : المسلمون والعلم	٦٣٧

### المال :

الفصل الأول : رسالة المال أو (كن غنيًا)	٦٥٥
الفصل الثاني : كيف تحصل على الثروة	٦٨٠

## الأرض الطيبة

٦٩٣	يابنى - لا تعارض بين الوطنية والعالمية - نهر النيل - مصر - معجزات الحضارة المصرية القديمة - مصر رافعة لواء المسيحية - مصر الإسلامية - العهد العثماني - الحملة الفرنسية (غزو مصر) - نهضة مصر في عهد محمد علي - عداوة إنجلترا لمصر - مأساة قناة السويس - عهد إسماعيل - الثورة العربية - الحركة الوطنية - ثورة سنة
-----	---

١٩١٩ - مصر الفتاة في الميدان - نحو الاشتراكية - المبادئ الرئيسية للحزب  
الاشتراكي - خاتمة بقلم الأستاذ جمال البنا ...

## في الإيمان والإسلام

٨٣٣	.....	مقدمة
٨٣٦	.....	مقدمة الطبعة الثانية
٨٣٨	.....	الإهداء
٨٣٩	.....	الفصل الأول : الإيمان وأثره
٨٤٧	.....	الفصل الثاني : موضوع الإيمان ومحوه
٨٥٨	.....	الفصل الثالث : الإيمان في صوره الأولى
٨٧٠	.....	الفصل الرابع : نحو الحقيقة
٨٨٦	.....	الفصل الخامس : الأنبياء والرسول
٩٠٨	.....	الفصل السادس : القرآن والوحي
٩٢٥	.....	الفصل السابع : الإسلام وسائر الأديان
٩٤٧	.....	التكافل الاجتماعي في الإسلام
٩٥٢	.....	خاتمة : علماء الغرب والحضارة الإسلامية

رقم الإيداع : ٨١/٢٦٩٠

الترقيم الدولي : ٥ - ٢٢ - ٧٣٣٦ - ٩٧٧

## مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع مكرم - هاتف ٧٥٤٣٦٤ - بورتو : شروق القمامة - توكس : SHOROK UN 93091  
بجروت : ص ٨٠٦٤١٠ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - بورتو : دلتوروك - توكس : SHOROK 20175 LE









